جان بول سارتر

سن الرشد

دروب الحرية - ١ -

نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل إدريس

منشورات دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية : كانون الثاني ١٩٦٢

١

في وسط شارع « فرسينجيتوري » ، أمسك رجــل طويل بذراع ماتيو ؛ وكان ثمة شرطي يذرع الرصيف الآخر .

– اعطني شيئاً يا معلم ؛ انني جائع .

وكانت عيناه متقاربتين وشفتاه غليظتين . وكانت تنبعث منه رائحة الخمر ، فسأله ماتيو :

– اليس الأمر انك – بالاحرى – عطشان ؟

فقال الرجل بجهد :

– أقسم لك ، يا صاحبي ، اقسم لك .

وكان ماتيو قد عثر في جيبه على قطعة من ذات الفرنكات الخمسة ، فقال له :

– الأمر عندي سواء ؛ فانما سألتك لأتحدّث فقط .

وأعطاه الفرنكات الخمسة . فقال الرجل وهو يستند الى الجدار :

– إن ما فعلته الآن حسن ؛ وبالمقابل ، سأتمنى لك شيئاً عظيماً .. ماذا تراني سأتمنى لك ؟

وأخذا يفكران معاً ؛ وقال ماتيو :

– ما تشاء .

فقال الرجل :

— حسناً ؛ اني اتمنى لك السعادة . هذا ما اتمنّاه لك :

وضحك ضحكة انتصـــار . ورأى ماتيو ان الشرطيّ كان يقترب منهما فخاف على الرجل وقال :

— طيّب . مع السلامة .

وأراد ان يبتعد ، ولكن الرجل امسك به وهو يقول بصوت مائع :

— ليس هذا كافياً ، ليس كافياً .

— إذن ما الذي يلزمك ؟

— اودّ ان اعطيك شيئاً ما ...

وقال الشرطيّ :

— سوف أقبض عليك بتهمة الاستعطاء .

وكان شاباً ذا خدّين احمرين ، وكان يحاول ان يتظاهر بالقسوة . وقد أضاف من غير تأكيد :

— مضى عليك نصف ساعة وأنت تزعج المارّة .

فسارع ماتيو يقول بحيوية :

— إنه لا يستعطي . وإنما نحن نتحدث .

فهزّ الشرطي كتفيه وتابع طريقه . وكان الرجل يترنح بطريقـــة مقلقة . بل لقد يبدو عليه انه قد رأى الشرطيّ .

— وجدت ما سوف اعطيك إياه . سأعطيك طابعاً من مدريد .

وأخرج من جيبه مستطيلاً من الورق المقوّى الاخضر وبسطه لماتيو . وقرأ ماتيو :

« س . ن . ت . دياريو كونفيديرال . اجامبـــلار ٢ . فرنسا . اللجنة النقابية الفوضوية ، ٤١ شارع بلفيل ، باريس ١٩ . » وكان ثمة طابع قد الصق تحت العنوان . وكان الطابع اخضر هو ايضاً ، وكان يحمل ختم مدريد . ومدّ ماتيو يده :

— شكراً جزيلاً .

فقال الرجل غاضباً :

— ولكن حذار ! انها ... انها مدريد !

فنظر اليه ماتيو : كان الانفعال بادياً على الرجل ، وكان يبذل جهوداً عنيفة ليعبّر عن فكرته ، ولكنه عدل واكتفى بالقول :

— مدريد .

- نعم .

— أقسم لك اني كنت اريد ان اسافر اليها . ولكن ذلك لم يتيسر لي .

وغدا مغموماً كئيباً ، وقال « إنتظر » ثم أمرّ اصبعه على مهل فوق الطابع وأضاف :

— حسناً . تستطيع ان تأخذه .

— شكراً .

وخطا ماتيو بضع خطوات ، ولكن الرجل ناداه :

— ايه !

فقال ماتيو :

— ايه ؟

فاذا الرجل يشير اليه عن بعد بقطعة الفرنكات الخمسة :

— هناك شخص أعطاني خمسة فرنكات اخرى. فأنا ادعوك الى قدح من « الروم » .

— ليس هذا المساء .

وابتعد ماتيو بأسف غامض . لقد قضى عهداً من حياته كان فيه يتسكع في الشوارع والحانات مع الجميع ، وكان اول قادم يستطيع ان يدعوه . اما الآن ، فقد انتهى ذلك : ان تلك الأساليب لم تكن تجدي شيئاً ، وان كانت مدعاة تسلية ومرح. لقد رغب في الذهاب الى اسبانيا للقتال . وحث ماتيو خطاه ، وفكّر في ضيق : « مهما يكن من أمر ،

فلم يكن لأحدنا ما يقوله للآخر » . وأخرج من جيبه البطاقة الخضراء. « ان مصدرها مدريد ، ولكنها ليست مرسلةً اليه . لا بدّ ان احداً قد اعطاه إياها . وقد لمسها مرات قبل ان يعطيني إياها ، لأن مصدرها مدريد .» وكان يتذكّر وجه الرجل والهيئة التي بدا عليها اذ نظر الى الطابع نظرة مشغوفة . ونظر ماتيو الى الطابع بدوره من غير ان يكفّ عن السير ، ثم أعاد قطعة الورق المقوّى الى جيبه . وصفر قطار ، وفكّر ماتيو : « انني عجوز » .

وكانت الساعة العاشرة وخمساً وعشرين ؛ لقد وصل ماتيو قبل الأوان . ومرّ من غير ان يتوقف ، بل هو لم يلفت رأسه الى البيت الصغير الازرق . ولكنه كان يرمقه بجانب عينه : كانت جميع النوافذ سوداء ، الا نافذة السيدة « دوفيه » . انه لم يُتح لـ « مارسيل » بعد ان تفتح باب الدخول : لقد كانت منحنية على امها ، وكانت تحيطها بحركات رجولية وهي في سريرها الكبير ذي المظلة . وظلّ ماتيو مغتماً ، وكان يفكر : « خمسمئة فرنك للذهاب الى ٢٩ ، يعني ثلاثين فرنكاً في اليوم ، او أقلّ من ذلك . فماذا تراني افعل ؟ » واستدار ثم عاد على عقبيه .

وكان الضوء قد انطفأ في غرفة السيدة دوفيه . وبعد لحظة، اضيئت نافذة مارسيل ، وعبر ماتيو المرتفع ، وحاذى حانوت السمّان وهو يتجنّب ان يطقطق نعليه الجديدين . وكان الباب مشقوقاً ، فدفعه على مهل فصرّ : « سآتي يوم الاربعاء بقنينتي وأضع قليلاً من الزيت في الرزّات . » ودخل وأغلق الباب ، ثم خلع نعليه في الظلام. وطقطق الدرج قليلاً وهو يصعده ، وحذاؤه في يده ؛ وكان يلامس بابهامه كل درجة قبل ان يضع عليها قدمه . وفكر : « أية مهزلة ! »

وفتحت مارسيل الباب قبل ان يبلغ سطح الدرج . وانبعث من غرفتها غبار ورديّ فيه رائحة السوسن وانتشر على الدرج . وكانت قد

ارتدت قميصها الاخضر . فاستشف منه ماتيو ثنية خاصرتها الرقيقة الريّانة. ودخل ، وكان يخيّل اليه دائماً انـــه يدخل محّارة . وأقفلت مارسيل الباب بالمفتاح : واتجه ماتيو الى الخزانة الكبيرة المحفورة في الجدار ، ففتحها ووضع فيها حذاءه ، ثم نظر الى مارسيل فرأى انها تشكو شيئاً ما ، فسألها بصوت منخفض :

— ما الذي تشكين ؟

فقالت مارسيل بصوت منخفض :

— لا شيء . وانت ، يا عزيزي ؟

— اني بلا درهم واحد . اما ما عدا ذلك ، فلا بأس .

وقبّلها في عنقها وفي فمها . وكانت تنبعث من العنق رائحة عنبر ، ومن الفم تبغ مبتذل . وجلست مارسيل على حافة السرير ، وأخذت تنظر الى ساقيها ، بينما كان ماتيو ينزع ثيابه .

وسألها ماتيو : — ماذا هناك !

وكان على المدخنة صورة لم يكن يعرفها . واقترب فرأى فتاة هزيلة ترتدي ثوب الصبيان وتضحك ضحـكة قاسية حييّة . وكانت ترتدي سترة رجل وحذاء ذا كعب مسطح . وقالت مارسيل من غير ان ترفع رأسها :

— هذه انا .

والتفت ماتيو : فاذا مارسيل مشمّرة قميصها عن فخذيها الممتلئتين ؛ وكانت تنحني الى أمـــام فيستشعر ماتيو تحت القميص هشاشة صدرها الثقيل .

— اين عثرت عليها ؟

— في مجموعة . ان تاريخها هو صيف ٢٨ .

وطوى ماتيو سترته بعناية ودفعها الى الخزانة الى جانب الحذاء . ثم سأل :

ــ أصبحت الآن تتفرجين على مجموعات العائلة ؟

ــ لا ، ولكن لا ادري ، لقد اخذتني الرغبة اليوم في ان استعيد أشياء من حياتي ، كيف كنت قبل ان اعرفك ، حين كنت ممتلئة بالعافية . أعطني إياها .

فأتاها ماتيو بالصورة ، فانتزعتها من بين يديه. وجلس الى قربها، فارتعشت وابتعدت قايلاً . وكانت تنظر الى الصورة ببسمة غامضة ، وقالت :

ــ لقد كنت ظريفة .

كانت الفتاة واقفة متصلّبة ، مستندة الى حاجز حديقة . وكانت تفتح فمها ، فكأنها هي ايضاً تقول « ان هذا ظريف » ، تقوله بالطلاقة المرتبكة نفسها ، والجرأة القلقة ذاتها . بيد انها كانت شابة وهزيلة .

وهزّت مارسيل رأسها :

ــ ظريف ! ظريف ! لقد رافقها الى حديقة اللكسمبورغ طالب في الصيدلة . أترى القميص الذي كنت ألبسه؟ لقد اشتريته في اليوم نفسه، اذا كان المفروض ان نقوم يوم الاحد التالي بنزهة كبيرة في «فونتانبلو». يا إلهي !...

كان ثمة شيء في نفسها بلا ريب : فانه لم يسبق لحركاتها ان كانت على مثل هذه الفجاءة ، ولا لصوتها ان كان خشناً ، رجولياً ، كما هو الآن . كانت جالسة على السرير اسوأ مما لو كانت عارية ، بلا دفاع ، كأنها إناء ضخم من الفخار المنقوش ، في جوف الغرفة الوردية ؛ وكان يشقّ على المرء ان يسمعها تتكلم بصوتها الرجولي ، بينما تنبعث منها رائحة قوية غامضة ، وأخذها ماتيو من كتفيها وجذبها اليه :

ــ انك آسفة على ذلك الزمن ؟

فقالت مارسيل بجفاف :

– ذلك الزمن ، كلا : بل انا آسفة على الحياة التي كان يمكن ان احياها .

وكانت قد بدأت دراسة الكيمياء فقطعها المرض . وفكر ماتيو : « لكأنها حاقدة عليّ » . وفتح فمه ليسألها . ولكنه رأى عينيها فصمت. وكانت تنظر الى الصورة نظرة حزينة متوترة .

– لقد سمنت ، أليس كذلك ؟

– نعم .

فهزّت كتفيها ورمت بالصورة على السرير . وفكر ماتيو : « إن لها حقاً حياة كئيبة » وأراد ان يقبّلها في خدّها ، ولكنها تخلصت بلا عنف ، وبضحكة صغيرة عصبية . وقالت :

– كان ذلك منذ عشر سنوات .

وفكر ماتيو : « انني لا امنحها شيئاً » . كان يأتي لرؤيتها اربع ليال في الاسبوع ؛ وكان يروي لها بالتفصيل كل ما قام به ، وكانت تمنحه النصائح بصوت جادّ لا يخلو من تسلّط ؛ وكانت غالباً تقول: « انني اعيش بالوكالة » وسألها :

– ماذا فعلت امس ؟ هل خرجت ؟

فصدرت عن مارسيل حركة ضجرة مستديرة :

– لا ، فقد كنت متعبة . لقد قرأت قليلاً ، ولكن امي كانت تضايقني طوال الوقت من اجل الحانوت .

– واليوم ؟

فقالت بلهجة شرسة :

– لقد خرجت اليوم . شعرت بحاجة الى تنشق الهواء ، والى محاذاة الناس . وقد هبطت حتى شارع « دولاغيتيه » وكان هذا يسلّيني . ثم اني كنت اريد ان ارى « اندريه » .

– وهل رأيتها ؟

– اجل ، خمس دقائق . وحين خرجت من بيتها ، بدأت السماء تمطر . إنه لشهر حزيران عجيب ، ثم ان الناس كانوا ذوي سحن لئيمة . فاستقللت سيارة وعدت .

وسألت برخاوة :

– وانت ؟

ولم تكن لماتيو رغبة في السرد فقال :

– كنت امس في الليسيه لاعطاء آخر دروسي . وقد تعشيت في مطعم « جاك » ، وكان ذلك مميتاً كالعادة . وفي هذا الصباح ، قصدت المحاسب لأرى ان كانوا يستطيعون ان يسلفوني شيئاً ؛ ويبدو ان هذا امر لا يُفعل . ومع ذلك فقد كنت اتدبّر امري في « بوفيه » مع المحاسب . ثم رأيت « ايفيش » .

ورفعت مارسيل حاجبيها ونظرت اليه : ولم يكن يحب ان يحدّثها عن ايفيش . وأضاف :

– انها الآن مكشّرة ، يائسة .

– وما السبب ؟

وكان صوت مارسيل قد اشتد ، واتخذ وجهها تعبيراً رجولياً وصيناً ؛ كانت تشبه شرقياً سميناً . وقال ماتيو بطرف شفتيه :

– ستسقط في الامتحان .

– لقد سبق ان قلت لي إنها كانت تدرس .

– نعم ... على طريقتها ، اي ان عليها ان تبقى ساعات بطولها تجاه كتاب ، من غير ان تقوم بحركة . ولكن تعرفين طبعها : ان لها بديهيات ، وشأنها في ذلك شأن المجنونات . كانت في دورة تشرين الاول قد درست علم النبات ، وكان الممتحن مسروراً ؛ ثم رأت نفسها فجأة تجاه رجل اصلع يتحدث عن مجوّفات البطن ، فبدا لها ذلك مضحكاً ، وفكّرت « طز في مجوّفات البطن ! » ، ولم يستطع الرجل ان ينتزع

منها اية كلمة .

وقالت مارسيل وهي تحلم :

— عجيبة هذه الفتاة الصغيرة الطيبة .

وقال ماتيو :

— أخشى على اي حال ان تقع هذه المرة ايضاً فيما وقعت فيه ، او ان تخترع شيئاً آخر . سترين .

هذه اللهجة ، لهجة التجرّد الحامي ، ألم تكن كذبة ؟ لقد كان يقول كل ما يمكن ان يُعبّر عنه بالكلمات . « ولكن هناك شيء آخر غير الكلمات ! » .

وتردّد لحظة ، ثم خفض رأسه ، ثابط الهمة : ان مارسيل لم تكن تجهل شيئاً من عاطفته لإيفيش ، بل لعلّها كانت تقبل ان يحبّها . وهي على العموم لم تكن تطلب إلا امراً واحداً : ان يتحدث عن ايفيش بهذه اللهجة بالذات . ولم يكن ماتيو قد كفّ عن ملامسة ظهر مارسيل ، وكانت مارسيل قد بدأت تخفق جفونها ، كانت تحب ان يلامس ظهرها ، ولا سيما عند منبت الصلب وبين الراسليْن . ولكنها تفلّتت فجأة وتلبّس وجهها القسوة . فقال لها ماتيو :

— اسمعي يا مارسيل ، انه سيان عندي ان تنجح ايفيش او تسقط ، فليست هي مصنوعة للطب اكثر مما انا مصنوع له . وأياً ما كان ، وحتى لو اجتازت امتحان « شهادة الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة » ، فستصاب بالاغماء عند اول تشريح في العام القادم ، ولن تضع بعد ذلك قدميها في المعهد . ولكن اذا لم تنجح هذه المرة ، فلا بد ان ترتكب حماقة ما : ذلك ان اسرتها لا تود ان تسمح لها ، في حالة السقوط ، ان تعود الى الدراسة .

فسألته مارسيل بصوت رقيق :

— اي نوع من الحماقات تقصد على الضبط ؟

فقال مضطرباً :

ـ لست ادري .

ـ آه ! اني اعرفك جيداً يا عزيزي المسكين . انت لا تجرؤ على الاعتراف بأنك تخشى ان تطلق على نفسها رصاصة تخترق جلدها . وانت تزعم مع ذلك انك تكره الاحداث الروائية . ولكن قل لي : لكأنك لم ترها قط ، بشرتها ؟ انني سأصاب بالهلع اذا جرحتُ بشرتي ، ولو لم يتجاوز الأمر ان أمرّ فوقها اصبعي . وانت تتصور بعد ذلك ان الدمى التي تملك مثل تلك البشرة سوف تتلف نفسها برصاص المسدس ؟ اني أستطيع بكل سهولة ان أتمثّلها مسترخية فوق كرسيّ ، وقد غطّى شعرها وجهها ، بينما هي تتأمل مسحورة في مسدس صغير لطيف موضوع أمامها ، إن هذه صورة روسية جداً . أما ان أتصوّر شيئاً آخر ، فكلا ، ثم كلا ، ثم كلا ! ان المسدس ، يا صاحبي ، انما جُعل لمثل جلودنا التمساحية .

وأسندت ذراعها الى ذراع ماتيو ، وكانت بشرته أشدّ بياضاً من بشرة مارسيل .

ـ انظر الى هذا ، يا عزيزي ، ولا سيما الى جلدي ، فكأنه جلد ماعز مدموغ .

واخذت تضحك :

ـ الا ترى اني املك كل ما يلزم لصنع مرغاة ؟ اني اتمثّل ثقباً صغيراً جميلاً تحت ثديي الأيسر ، ذا أطراف نظيفة محمّرة . إن ذلك لن يكون بشعاً ...

وكانت ما تزال تضحك . ووضع ماتيو يده على فمها :

ـ اسكتي . سوف توقظين العجوز .

فصمتت وقال لها :

ـ كم انت عصبية !

فلم تجب . ووضع ماتيو يده على فخذ مارسيل وجعل يلامسها برفق . كان يحب تلك البشرة الزبدية بزغبها الذي يُشعر لمسه بالعذوبة ، كألف رعشة دقيقة . ولم تتحرك مارسيل : كانت تنظر الى يد ماتيو . وانتهى الأمر بماتيو الى ان يرفع يده . وقال :

ـ انظري إليّ .

ورأى لحظةً عينيها المحاطتين بدائرة مزرقّة ، فترةً نظرةٍ متعاليةٍ يائسة .

ـ ما بكِ ؟

فقالت وهي تصرف رأسها : ليس بي شيء .

كان الأمر معها دائماً كذلك : كانت كسيحة . انهـا لن تستطيع بعد لحظة ان تتمالك نفسها : وستنفجر . ولم يكن ثمة ما يُفعل ، إلا قتل الوقت حتّى تلك اللحظة . وكان ماتيو يخشى انفجاراتها الصامتة : فقد كانت العاطفة في هذه الغرفة المحارة امراً لا يحتمـل ، اذ كان ينبغي التعبير عنها بصوت منخفض وبلا حركة خشية ايقاظ السيدة دوفيه . ونهض ماتيو ، فمشى حتّى الخزانة وتناول من جيب سترته البطاقة :

ـ خذي انظري .

ـ ما هذا ؟

ـ لقد اعطاني إياها شخص لقيته الساعة في الطريق . كان ذا هيئة محبّبة ، وقد اعطيته بعض المال .

فاخذت مارسيل البطاقة بلا اكتراث . واحسّ ماتيو انه مرتبط الى الرجل بنوع من الاشتراك في ذنب . واضاف :

ـ إن هذا ، لو تعلمين ، يمثّل لديه شيئاً ما .

ـ وهل هو فوضوي ؟

ـ لا ادري . لقد اراد ان يقدم لي قدحاً .

ـ وهل رفضت ؟

– نعم .

فسألته مارسيل بأهمال : لماذا ؟ لعل ذلك يكون مسلّياً .

فقال ماتيو : – ربما !

وعادت مارسيل ترفع رأسها ، ونظرت الى الساعة نظـرة حسيرة مرحة . وقالت :

– إن هذا غريب . فانه يضايقني دائماً ان تروي لي مثل هـذه الامور ، والله اعلم كم هي الآن كثيرة . ان حياتك مليئة بالفرص الفائتة .

– اتدعين هذه فرصة فائتة ؟

– اجل . فقد كنت في الماضي تفعل اي شيء لتخلق هذا النـوع من اللقاءات .

فقال ماتيو باقتناع واقرار : – ربما اكون قد تغيرت قليلاً . فماذا تظنين ؟ أتظنين اني شخت ؟

فقالت مارسيل ببساطة : – انت في الرابعة والثلاثين .

في الرابعة والثلاثين . وفكر ماتيو بإيفيش،فاعترته انتفاضـة استياء صغيرة .

– اجل ... اسمعي . لا احسب ان الأمر هكذا ، وانما كان ذلك بدافع من قلق ووسواس . فانت تدركين انه مـا كان لي ان اشارك في الأمر .

فقالت مارسيل – إنه يندر جداً الآن ، ان تشارك في الأمر .

فأضاف ماتيو بحيوية :

– وهو كذلك ، ما كان له ان يشارك فيه : فان المرء اذ يكون ثملاً يقوم بما يعطّف النفس . وهذا ما كنت اودّ ان اتحاشاه .

وفكّر : « ليس هذا صحيحاً تماماً ، فأنا لم أفكر كل هذا التفكير . » لقد أراد ان يقوم بجهد صدق وصراحة . وكان قد سبق لماتيو ومارسيل

ان تعاهدا على ان يتكاشفا كل شيء . وقال :

ـ ذلك انه ...

ولكن مارسيل كانت قد انخرطت في الضحك ، في هديل منخفض عذب ، شأنها اذ تلامس شعره وهي تقول له « يا عزيزي المسكين . » على انها لم تكن تبدو عليها الرقة وقالت :

ـ اني اعرفك في هذا جيداً . فكم انت تخاف مما يعطّف النفس ! وبعد ذلك ؟ حتى ولو تبادلت قليلاً مما يعطّف النفس مع هذا الفتى المسكين ، فأي بأس في ذلك ؟

فسألها ماتيو : ـ وماذا كان ذلك يجديني ؟

انما كان حقاً يدافع عن نفسه ضد نفسه .

وابتسمت مارسيل بسمة لا ودّ فيها : ففكّر ماتيو ممتعضاً « انها تبحث عني » . وكان يشعر بأنه مسالم ، وانه مخبـــل بعض الشيء ، وانه بالاجمال في مزاج طيّب ، ولم تكن به رغبة في النقاش فقال :

ـ اسمعي ، انت على خطأ بأن تجعلي من هذه الحكاية وليمة . فأنا اولاً لم تكن لي سعة من الوقت : كنت قادماً اليك .

فقالت مارسيل : انت على حق تماماً . فليس هذا بذي بال ، ليس هناك ما يستدعي ضرب قطٍ بالسوط ... على انـــه مع ذلك عارض ينذر بشيء ما ...

فانتفض ماتيو : حبّذا لو انها لا تستعمل مثل هذه الكلمات المنفّرة . وقال :

ـ حسناً . ما الذي ترينه في ذلك مثيراً للاهتمام الى هذا الحد ؟

فقالت : ـ انه دائماً صفاء ذهنك المعهود . انك طريف يا عزيزي . فانت لشدة هلعك من ان تخدع نفسك ، تفضل ان ترفض اجمل مغامرة في الدنيا على ان تخاطر بالكذب على نفسك .

فقال ماتيو : ـ هذا صحيح ، وانت تعرفينه جداً .

وكان يجدها ظالمة . ان « صفاء الذهن » هذا (وكان يكره هذه العبارة ، ولكن مارسيل كانت قد تبنّتها منذ حين . وكانت عبارة السنة الماضية « الاستعجال » . ولم تكن الكلمات تعيش لديها اكثر من فصل واحد) صفاء الذهن هذا قد اعتادا عليه معاً ، وكانا مسؤولين عنه ؛ واحدهما تجاه الآخر ، وما كان شيئاً اقلّ من المعنى العميق لحبهما . فحين اخذ ماتيو عهوده تجاه مارسيل ، كان قد انصرف نهائياً عن افكـــار الوحدة ، عن الأفكار النضرة المضلّلة الحيية التي كانت تنزلق اليه في الماضي بمثل حيوية السمك الهارب . إنه لم يكن يستطيع ان يحب مارسيل إلا في الصفاء والوضوح ، لقد كانت هي صفاءه ، ورفيقه ، وشاهده ، وناصحه وحَكَمَه . وقال :

– اذا كنت اكذب على نفسي ، فسأشعر اني اكذب عليـــك في الوقت نفسه . وسيكون ذلك امراً لا استطيع احتماله .

قالت مارسيل : – نعم .

ولم يكن يبدو عليها انها مقتنعة تماماً .

– لا يبدو عليك انك مقتنعة تماماً ؟

فقالت برخاوة : – بلى .

– أتظنين اني اكذب على نفسي ؟

– لا ... الحقيقة ان الانسان لا يمكنه ابداً ان يعرف . غير اني لا أظن ذلك . ولكن ، أتدري ما الذي أظنّه ؟ أظنّ انك تعقّم نفسك قليلاً . لقد فكّرت بهذا اليوم . اوه ! ان كل شيء واضح ونظيف لديك ، انه يبعث رائحة الغسيل ، كما لو انّك مررت بآلة التجفيف . على ان ما ينقص ذلك ، انما هو الظلّ . ليس هناك بعدُ ما لا جدوى منه ، وليس هناك ما هو متردّد ولا ملتبس . إن ذلك لشديد الحرارة . ولا تقل الآن انك انما تفعل ذلك من اجلي : فأنت تعرف منحدرك ، إنك تحبّ ان تحلّل نفسك .

وكان ماتيو ممتعضاً . كانت مارسيل تبدو قاسية بما فيه الكفاية غالباً ، وكانت تظلّ دائماً على حذر ، وتتدرّع بالهجوم والاحتراس ، وإذا لم يكن ماتيو من رأيها ، كانت تظنّ غالباً انه يريد السيطرة عليها . بيد انه نادراً ما احسّ لديها هذه الإرادة العازمة بأن لا تروق له . وبعد ذلك ، كانت ثمّة تلك الصورة على السرير ... ونظر الى وجه مارسيل في قلق : لم تحن بعد اللحظة التي تعزم فيها على الكلام .

وقال ببساطة : — انه لا يهمني الى هذا الحدّ ان اعرف نفسي .

فقالت مارسيل : — اعرف ، فليس ذلك غاية ، وانما هو وسيلة . إنه من اجل ان تتحرّر من نفسك ، ان تنظر الى نفسك ، ان تحكم على نفسك : ذلك هو موقفك المفضّل . انك تتصور ، اذ تنظر الى نفسك ، انك لست ما تنظر اليه ، وانك لست شيئاً . والحق ان هذا هو مثلك الأعلى : ان لا تكون شيئاً .

فردّد ماتيو على مهل — ؛ ان لا اكون شيئاً ؟ كلا . ليس الأمر كذلك . اسمعي : اني ... اني اريد ألاّ اكون متوقفاً إلا على نفسي .

— نعم . ان تكون حراً . حراً حرية كاملة . هذا هو عيبك .

قال ماتيو : — ليس هذا عيباً .. انه ... ماذا تريدين ان يفعل المرء غير ذلك ؟

وكان في ضيق : لقد شرح هذا كله مئة مرة لمارسيل ، وكانت تعلم ان هذا هو اشدّ ما كان يشقّ عليه .

— اذا ... اذا لم احاول ان استردّ وجودي لحسابي ، فسيبدو لي عبثاً جداً ان اوجد .

وكانت مارسيل قد اتخذت هيئة ضاحكة ، مصرّة :

— نعم ، نعم ... ذلك هو عيبك .

وفكر ماتيو : « انها تثير اعصابي حين تصطنع الكياسة والدهاء . » ولكنه ندم على تفكيره وقال بلطف :

– ليس هو عيباً : وإنما هكذا أنا .
– لماذا لا يكون الآخرون كذلك ، اذا لم يكن هذا عيباً ؟
– انهم لكذلك ، ولكنهم لا يعون هذا .

وكانت مارسيل قد كفّت عن الضحك ، وكانت قد ارتسمت عند زاوية شفتيها ثنية قاسية حزينة . وقالت :

– اما انا فليست حاجتي لأن اكون حرّة شديدة لهذا الحدّ .

ونظر ماتيو الى رقبتها المنحنية ، وأحسّ انه غير مرتاح : كان أبداً ذلك الندم ، ذلك الندم اللامعقول ، الذي كان يستولي عليه كلما كان في صحبتها . وفكّر بأنه لم يكن يضع نفسه قطّ في موضع مارسيل : « ان الحرية التي احدّثها عنها هي حرية انسان مكتمل الصحة . » ووضع يده على عنقها ، وشدّ برقّة بين اصابعه ذلك اللحم الدُهني الذي ادركه بعض الوهن .

– مارسيل ! هل انت منزعجة ؟

فأدارت عينين كدرتين بعض الشيء :

– كلا .

وصمتا . وكان ماتيو يشعر باللذة على اطراف اصابعه . على اطراف اصابعه فقط . وزلق يده على مهل في ظهر مارسيل ، فأسبلت مارسيل جفنيها . ورأى اهدابها الطويلة السوداء . وجذبها اليه : لم تكن له رغبة بها تماماً في تلك اللحظة ، وانما كانت رغبته ان يرى هذا الفكر الحرون المقرّن يذوب كما يذوب عرق من الثلج تحت حرارة الشمس . وتركت مارسيل رأسها يسقط على عنق ماتيو ، فرأى عن كثب بشرتها السمراء ودوائرها المزرقّة والمصبّبة . وفكر : « يا إلهي ! كم هي تشيخ ! » وفكّر ايضاً بأنه كان شيخاً . وانحنى عليها بشعور من الضيق : كان يودّ لو ينسى نفسه وينساها . ولكن مضى عليه وقت طويل وهو لا ينسى نفسه إذ يضاجعها . وقبّلها في فمها ؛ وكان لها فمٌ جميل صارم .

وانقلبت على مهل الى خلف ، واستلقت على السرير ، مغمضة العينين ، متثاقلة ، شاحبة ، ونهض ماتيو ، فنزع بنطلونه وقميصه ووضعهما مطويين عند أسفل السرير ، ثم تمدد تجاههـا . ولكنه رأى ان عينيهـا كانتا مفتوحتين على سعتهما ، حادتين ، تنظران الى السقف ، وكانت يداها مشتبكتين تحت رأسها .

وقال ماتيو : — مارسيل !

فلم تجب . كانت مقطّبة السحنة ؛ ثم اذا هي فجأة تنهض . وعاد هو يجلس على طرف السرير ، وقد ازعجه ان يشعر بعريه . وقال جازماً :

— ستقولين لي الآن ماذا هناك .

فقالت بصوت رخو :

— لا شيء .

فقال بحنان : — بلى ، هناك شيء ينكّدك . ألم نتعاهد يا مارسيل على ان نتصارح بكل شيء ؟

— لا حيلة لك في الامر ، وهو سيزعجك .

فأخذ يداعب شعرها على مهل :

— قولي ، مع ذلك .

— حسناً : لقد وقع الامر .

— ماذا ؟ ما الذي وقع ؟

— لقد وقع الامر .

فتغضّن وجه ماتيو :

— هل انت متأكدة ؟

— كل التأكد . انت تعرف اني لا أجنّ قطّ : فقد تأخر الامر شهرين .

فقال ماتيو — تَفِه !

وكان يفكّر : « كان عليها ان تقول لي ذلك منذ ثلاثة اسابيع على

الاقل . » وكانت به رغبة لان يفعل شيئاً ما بيديه : كأن يحشو غليونه مثلاً ؛ ولكن غليونه كان في الخزانة مع سترته . وتناول سيكارة من على طاولة الليل ، وما لبث ان اعادها الى مكانها .

قالت مارسيل : — تلك هي القصة ! انت تعلم الآن ما هناك . فماذا نفعل ؟

— سوف ... سوف نجهضه ، أليس كذلك ؟

قالت مارسيل : — حسناً . إن عندي عنواناً .

— من اعطاك إياه ؟

— اندريه . ولقد قصدته هي ذات مرة .

— أتكون تلك المرأة التي وسّختها في العام الماضي ؟ ولكن اسمعي : لقد قضت ستة أشهر قبل ان تشفى . انني لا اريد .

— وإذن ؟ هل تريد ان تكون اباً ؟

وتخلّصت منه ، وعادت تجلس على بعد يسير عنه . وكانت تبدو قاسية المظهر ، ولكنه ليس مظهر رجل . وكانت قد وضعت يديها مبسوطتين على فخذيها ، فكانت ذراعاها تشبهان عروتين من الطين الطبيخ. ولاحظ ماتيو ان وجهها كان قد أصبح رمادياً . وكان الهواء وردياً مسكّراً ، فكانا يستنشقان الورد ، ويأكلان منه : ثم كان هناك هذا الوجه الرمادي ، وتلك النظرة الثابتة ، فكأنما كانت تمتنع عن السعال .

قال ماتيو : — انتظري . انت تقولين لي هذا ، هكذا ، فجأة : سوف نفكّر .

وبدأت يدا مارسيل ترتجفان ، وقالت بحماسة مفاجئة :

— لا حاجة بي الى ان نفكّر ؛ فليس عليك انت ان تفكر .

وكانت قد ادارت رأسها نحوه ، وكانت تنظر اليه . نظرت الى عنق ماتيو ، والى كتفيه والى خاصرتيه ، ثم استمرّ نظرها في هبوطه. وكانت تبدو عليها الدهشة . واحمرّ ماتيو احمراراً عنيفاً وضم ساقيه . ورددت

مارسيل :
ـ لا حيلة لك في الامر .
ثم أضافت بسخرية شاقّة : « انها الآن قضية نسائية . »
وانقبض فمها لدى نطقت بالكلمات الاخيرة : فمٌ مبرنق ذو انعكاسات بنفسجية ، حشرة قرمزية منهمكة في افتراس هذا الوجه المرمدّ . وفكّر ماتيو « انها مهانة . وهي تكرهني . » وكانت به رغبة لأن يقيء . وكان يبدو ان الغرفة قد أخليت فجأة من دخانها الوردي ؛ وكان بين الاشياء فراغات كثيرة . وفكّر ماتيو : « لقد فعلتُ لها « ذلك ! » وفجأة بدا له المصباح والمرآة بانعكاساتها الرصاصية ، والساعة ، والمقعد الموسّد ، والخزانة الفاغرة الفم ، هذه كلها بدت له آليات مريعة : أديرتْ فدحرجتْ في الفضاء حيواتها الدقيقة بعناد صلب، كظاهر صحفة موسيقية يُصرّ على ان يعزف لازمته المكرّرة . واهتزّ ماتيو، دون ان يتمكن من انتزاع نفسه من هذا العالم الكئيب المزّ . ولم تكن مارسيل قد تحركت ، وكانت ما تزال تنظر الى بطن ماتيو ، والى تلك الزهرة المجرمة التي كانت تستريح بتنعّم فوق فخذيه بهيئة من البراءة ماجنة . وكان يعلم انها كانت راغبة في ان تصرخ وتبكي ، ولكنها لن تفعل ذلك ، خشية ان توقظ السيدة دوفيه . وقبض فجـأة على مارسيل من قامتها وجذبها اليه ، فانهارت على كتفه ،ونشقت ثلاث مرات او اربعاً ، بلا دموع . وكان هذا كل ما تستطيع ان تسمح به لنفسها : عاصفة بيضاء .
وحين رفعت رأسها ثانية ، كان روعها قد هدأ . وقالت بصوت ايجابي :
ـ اعذرني يا عزيزي ، فقد كنت بحاجة الى تفريـج ، اذ اني متماسكةٌ منذ الصباح . وانا بالطبع لا ألومك في شيء .
فقال ماتيو : ـ ستكونين على حق في ذلك . اني لست فخوراً ،

فهذه المرة الاولى ... واية قذارة يا آلهي ! لقد قمت بحماقة تدفعين انت ثمنها . على اي حال ، لا بأس ، لا بأس . اسمعي ، من تكون هذه المرأة الطيبة ؟ وأين تسكن ؟

— شارع مورير رقم ٢٤ . يبدو انها امرأة طيبة الى حد غريب .

— ارى ذلك . تقولين ان اندريه هي التي ارشدتك اليها ؟

— نعم ، انها لا تأخذ إلاّ اربعمئة فرنك .

وأضافت مارسيل بصوت متعقّل :

— ترى انه سعرٌ مضحك كما يبدو .

— نعم ، ارى ذلك .

قالها ماتيو بمرارة ، ثم أضاف :

— انها على العموم فرصة مناسبة .

وكان يشعر بالارتباك ، كأنه عريس . رجل طويل مرتبك ، عار تماماً ، قد ارتكب سوءاً وكان يبتسم بلطف ليحمل الناس على نسيانه . ولكنها لم تكن تستطيع ان تنساه : كانت ترى فخذيه البيضاوين ،القصيرتين بعض الشيء ، وعريه الراضي الجازم . كان كابوساً غريباً . «لو كنتُ إيّاها لأخذتني الرغبة في ان أصفع هذا اللحم والشحم كلّه . » وقال:

— وهذا هو ما يقلقني حقاً : انها لا تأخذ مبلغاً كافياً .

فقالت مارسيل : — الحمد لله انها تطلب هذا المبلغ القليل : فانا املكها ، هذه الفرنكات الاربعمئة ، وكانت لخيّاطتي ، ولكنها ستنتظر.

وأضافت بقوة : — انا على يقين ، لو تعلم ، بأنها ستُعنى بي كما يعنون بالنساء في احدى العيادات السريّة التي يسلبونك فيها اربعة آلاف فرنك كما لو كانوا يأخذون منك درهماً واحداً . ثم اننا ليس لنا الخيار.

فردّد ماتيو : — ليس لنا الخيار . متى ستذهبين ؟

— غداً ، حوالى منتصف الليل . يبدو انها لا تستقبل إلاّ ليلاً . هذا طريف ، أليس كذلك ؟ اظنّ انها مجنونة بعض الشيء . ولكن ذلك

يناسبني ، بسبب امي . انها تدير في النهار حانوت خرضوات ؛ وهي لا تكاد تنام قط . انك تدخل ساحة ، فترى ضوءاً تحت باب . هناك بيتها .

فقال ماتيو : — حسناً . انني ذاهب اليها .

فنظرت اليه مارسيل مذعورة :

— أتكون مجنوناً ؟ انها ستطردك ، اذ ستعتبرك من رجال الشرطة.

فردّد ماتيو : — انني ذاهب اليها .

— ولكن لماذا ؟ ما عساك ستقول لها ؟

— اريد ان استخبر ، وان ارى ما يكون شأنها . فاذا لم يرقني ذلك ، فلن تذهبي . فانا لا اودّ ان تدّعي لمجنونة عجوز ان تمزّق لحمك . سأقول اني قادمٌ من قِبَل اندريه ، وان لي صديقــة واقعة في مأزق ولكنها الآن مريضة ، او اقول شيئاً من هذا القبيل .

— وبعد ذلك ، اين اذهب اذا لم يرق لك ذلك ؟

— اعتقد ان لدينا يومين نتقلّب فيهما ، أليس كذلك ؟ سوف اقصد « ساره » غداً ، ولا بدّ انها تعرف احداً . فانت تذكرين انها وزوجها لم يكونا راغبين ، اول الامر ، في الاولاد .

فبدا على مارسيل انها قد استراحت بعض الشيء . ولامست رقبته تقول :

— انك لطيف ، يا عزيزي ؛ انني لا اعلم ما الذي تنوي ان تصنعه ، ولكني واثقة من انك تود ان تفعل شيئاً ؛ تودّ او انهم يجرون لك العملية بدلاً مني ...

وأحاطت بذراعيها الجميلتين عنقه ، وأضافت بلهجة استسلام هزلية :

— اذا سألت « ساره » في الامر ، فسترشدك حتماً الى يهودي .

وقبّلها ماتيو ، فتراخت كلياً . وقالت :

— يا حبيبي ، يا حبيبي .

— إخلعي قميصك .

فاستجابت ، وقلبها فوق السرير ، وداعب نهديهـا ، وكان يحب برعميها الجلديّين العريضين ، تحيط بهما تورّمات محمومة. وكانت مارسيل تتنهد ، مغمضة العينين ، جامدة ، نهمة . ولكن جفنيها كانا يتشنّجان. وتلبّث الاضطراب هنيهة ، وقد حطّ على ماتيو كأنه يدٌ دافئة . ثم فكّر ماتيو فجأة : « انها حامل » فعاد الى الجلوس . وكان رأسه ما يزال يطنّ بموسيقى حامزة .

— اسمعي يا مارسيل . إن الامر غير مناسب اليوم . اننا ، كلينا ، ثائر الاعصاب اكثر مما ينبغي . سامحيني .

فندّت عن مارسيل همهمة صغيرة ناعسة ، ثم نهضت فجأة ، واخذت تخلّل اصابعها في شعرها ، وقالت ببرودة :

— كما تريد .

ثم اضافت بلهجة اكثر ودّاً :

— انت على حق ، آخر الامر . فكلانا ثائر الاعصاب. كنت اشتهي مداعباتك ولكن كان بي خوف .

فقال ماتيو : — مع الاسف . لقد وقع الشرّ ، فليس لنا ان نخشى شيئاً بعد .

— ادري ذلك ، ولكن هذا لم يكن امراً عاقلاً . انني لا ادري ما اقول لك : فانت تخيفني بعض الشيء يا عزيزي .

ونهض ماتيو :

— حسناً ، انا ذاهب لأرى تلك العجوز .

— نعم . وستتصل بي غداً بالتلفون لتخبرني حقيقة الأمر .

— ألا استطيع ان أراك غداً مساء ؟ سيكون ذلك أسهل .

— لا . لا مساء الغد . بعد غد اذا شئت .

وكان ماتيو قد ارتدى قميصه وبنطلونه . وقبّل مارسيل في عينيها :

— انك لست عاتبةً عليّ ؟

– ليست هي غلطتك . لقد حدث ذلك مرة طوال سبع سنوات ، فليس لك ما تلوم نفسك عليه . واتمنّى الاّ تنفر مني بدورك ؟

– انك مجنونة .

– اني اشمئز من نفسي قليلاً لو كنت تعلم ، وأشعر كما لو اني ركام من الطعام ...

فقال ماتيو بحنان :

– يا صغيرتي ، يا صغيرتي المسكينة . اني اعدك بان ينتهي كل شيء قبل ثمانية ايام .

وفتح الباب بلا ضجّة ، فتسلّل الى الخارج وهو يمسك نعليه بيده. وفي اعلى الدرج ، التفت : كانت مارسيل ما تزال مضطجعة على السرير . وكانت تبتسم له ، ولكن ماتيو شعر بأنها كانت تكنّ له بعض الضغينة .

* * *

انفصل شيءٌ ما في عينيها الثابتتين ، فتدحرجتا بيسر في محجريهما. ولم تكن تنظر اليه بعد ، وما كان عليه بعد ان يؤدّي لها حساباً عن نظراته . لقد كان جسمها المذنب ، اذ كانت مختبئة بثيابها الداكنة وبالليل ، يُحسّ انه في منجى ، وكانت تستردّ شيئاً فشيئاً دفئه وبراءته ، وكانت تعود لتتفتّح تحت القماش . كيف لي ان أتذكّر القنينة ، القنينة التي ينبغي ان آتي بها بعد غد ؟ كان وحيداً .

وتوقّف مصعوقاً : لم يكن ذلك صحيحاً ، فهو ليس وحيداً ، ولم تتركه مارسيل ؛ بل كانت تفكّر فيه ، كانت تفكّر : « القذر ! لقد فعل لي هذا ! لقد نسي نفسه وهو فيّ ، كالطفل الذي يغوّط في لفائفه . » وكان بوسعه ان يخطو خطى واسعة في الطريق الخالية ، السوداء المغفلة ، وهو غارق في ثيابه حتّى العنق ، ولكنه لن يفلت منها . لقد كان وجدان مارسيل باقياً هناك ، مليئاً بالمصائب والصراخ ، ولم يتركه

ماتيو : لقد كان هناك ، في الغرفة الوردية ، عارياً وبلا سلاح ، امام تلك الشفافية الثقيلة التي هي أشدّ ازعاجاً من النظر . « مرة واحدة » قال ذلك لنفسه غاضباً . وردّد بصوت منخفض ليقنع مارسيل « مرة واحدة ، في سبع سنوات ! » ولكن مارسيل لم تكن لتقتنع : لقد كانت باقية في الغرفة ، وكانت تفكر في ماتيو . وكان شيئاً لا يُحتمل ان يُحكم عليه هكذا ، وان يُحقد عليه . هناك ، في الصمت. من غير ان يستطيع الدفاع عن نفسه ، حتى ولا اخفاء عورته بيديه . ليته في تلك اللحظة نفسها قد استطاع ان يُوجَدَ بالنسبة لآخرين ، بمثل هذه القوة .. ولكن جاك واوديت كانا نائمين ؛ اما دانيال ، فكان ثملاً او مخبولاً . واما ايفيش فكانت لا تفكر قطّ بالغائبين. ربما كان بوريس... ولكن وجدان بوريس لم يكن إلاّ لمعة صغيرة مغتلمة ، وما كان بوسعه ان يصمد لهذا الصفاء الوحشي الجامد الذي كان يبهر ماتيو على البعد . كان الليل قد كفّن معظم الوجدانات : وكان ماتيو وحيداً مع مارسيل في الليل .

وكان ثمــة ضوء في مقهى كامو . وكان المعلّم يراكم الكراسي ، وكانت الخادمة تثبت مصراعاً خشبياً على احد عارضيّ الباب . ودفع ماتيو المصراع الآخر ودخل . وكانت به رغبةٌ لأن يُرى بكل بساطة. وارتفق المشرب :

– عمتم مساءً جميعاً !

فنظر اليه المعلّم . وكان ثمة ايضاً احد موظفي شركة السكك الحديدية يشرب الخمر وقبعته على عينيه . وجدانات . وجدانات . انيسة شاردة. ورفع موظف السكك قبعته الى خلف ، بطرف سبابته ، ونظــر الى ماتيو . وتراخى وجدان مارسيل ثم ذاب في الليل .

– أعطني قدح بيرة .

فقال المعلم – إن مجيئك اصبح نادراً .

– ومع هذا ، فليس السبب انني غير عطشان .

قال الموظف – صحيح ان الحر شديد يدعو الى العطش . فكأننا في ايام الصيف .

وصمتا . كان المعلم يغسل الاقداح ، وكان الموظف يصفر . وكان ماتيو مسروراً لأنهما كانا ينظران اليه بين حين وآخر . ورأى رأسه في المرآة ، وكان ينبعث مصفراً مستديراً من بحر من الفضة : كان روّاد مقهى كامو يخيّل اليهم دائماً انها الساعة الرابعة صباحاً بسبب النور، اذ كان بخار فضّي يوسّع العيون ويبيّض الوجوه والأيدي والأفــكار .

وشرب . وفكّر : « انها حامل . هذا طريف . هذا طريف : ليس لدي شعور بأن هذا صحيـح . » كان ذلك يبدو له مزعجاً ومضحكاً، كما لو ان احداً يرى رجلاً عجوزاً وامرأة عجوزاً يتبادلان قبلة على الفم : ان مثل هذه الاعمال ينبغي ألا تحدث بعد سبع سنوات . « انها حامل . » كان في بطنها كتلة زجاجية صغيرة تنتفخ رويداً، وستشبه آخر الأمر عيناً: «انها تتفتح وسط القذارات الثاوية في بطنها . انهــا حيّة . » ورأى دبوساً كان يقترب متردداً في الظل . وحدث صوت مائع وانفجرت العين : ولم يبق بعد الا غطاء كثيف جاف. «سوف تذهب الى تلك العجوز؛ وسوف تدعها تمزقها . » وكان يحس انه سام . « حسناً. » وانتفض: تلك كانت افكاراً كالحة ، افكار الساعة الرابعة صباحاً .

– تصبحون على خير .

ودفع وخرج .

« ما الذي فعلته ؟ » كان يمشي على مهل ، محاولاً ان يتذكّر . « منذ شهرين ...» ولم يكن يتذكر شيئاً على الاطلاق ، الا ان يكون ذلك قد حدث عقب عطلة الفصح . لقد أخذ مارسيل بــين ذراعيه كالعادة ، بدافع من حنان ، من غير شك ، بدافع من حنان لا بدافع من رغبة ؛ اما الآن ... فلقد خُدع . « طفــل . كنت أحسب اني

كنت اعطيها اللذة ، وهأنذا قد صنعت لها طفلاً . انني لم افهم شيئاً مما كنت افعله . وعليّ الآن ان اعطي تلك العجوز اربعمئة فرنك ، وهي سوف تُدخل آلتها بين فخذي مارسيل وتضربها ؛ فتمضي الحياة كما جاءت . وإذ اهدم هذه الحياة لا اكون اكثر علماً بما أفعل مما كنت حين خلقتها . » وضحك ضحكة صغيرة جافـــة : « والآخرون ؟ اولئك الذين اعتزموا برصانة وجدّ ان يكونوا آباء ويشعرون بأنهم والدون ، أتراهم حين ينظرون الى بطون زوجاتهم يفهمون خيراً مما افهم ؟ لقد خبطوا خبط عشواء ، بثلاث ضربات من فروجهم . اما الباقي ، فهو عمل في الغرفة السوداء وفي العصير الهلامي ، كما هو الشأن في الصورة الفوتوغرافية . انه شيء يتمّ بدونهم . » ودخل باحة بيت ، ورأى نوراً تحت باب : « هذا بيتها » وشعر بالخجل . وطرق ماتيـــو الباب ، فقال صوت :

– من هناك ؟

– أودّ ان اكلّمك .

– ليست هذه ساعة يُزار فيها الناس .

– اني آت من قبل اندريه باسنيه .

فشُقّ الباب . ورأى ماتيو خصلة من الشعر الاصفر وأنفاً كبيراً .

– ماذا تريد ؟ انـــه لا يجديك ان تقوم بعمل البوليس ، فاني لا أخالف القانون . ان لي الحق بأن يكون عندي ضوء طوال الليل ، اذا شئت ذلك . فاذا كنت مفتشاً فما عليك الا ان تبرز لي اوراقك .

قال ماتيو – لست من البوليس ، وانما لدي مشكلة ، وقد قيل لي ان بوسعي ان اتوجّه اليك .

– ادخل .

فدخل ماتيو . وكانت العجوز ترتدي بنطال رجل وقميصاً ذا سحّاب وكانت شديدة الهزال ، ذات عينين ثابتتين قاسيتين .

ـ هل تعرف اندريه باسنيه ؟

وكانت تحدجه بنظرة غاضبة ، فقال ماتيو :

ـ نعم . لقد جاءتك في السنة الماضية حوالي عيد الميلاد لأنها كانت متضايقة ، وشبه مريضة ، وقد ذهبتِ اربع مرات لمعالجتها .

ـ وبعد ذلك ؟

وكان ماتيو ينظر الى يدي العجوز . كانتا يديْ رجل، يديْ انسان مختنق . . وكانتا مشققتين ، معلقتين ، بأظافرَ محفوفة سوداء وندوب وشقوق . . وكان يظهر على السلامي الاولى للابهام الأيسر ارتشاح دموي بنفسجي وقشرة كثيفة سوداء . وارتعش ماتيو وهو يفكر ببشرة مارسيل الرقيقة السمراء . وقال :

ـ لست قادماً من أجلها ، بل من اجل صديقة لها .

فضحكت المرأة ضحكة جافّة :

ـ هذه هي المرة الاولى التي يجرؤ فيها رجل على المجيء لاستعراض نفسه امامي . إنني لا اريد ان يكون لي علاقة بالرجال ، هل تفهم ذلك؟

وكانت القاعة قذرة مبعثرة الاثاث . كانت الصناديق منثورة في كل مكان . وكان على الارض المربّعة قش. ورأى ماتيو على طاولة زجاجة من الروم وقدحاً ممتلئاً الى النصف .

ـ لقد أتيت لأن صديقتي ارسلتني . انها لا تستطيع ان تأتي اليوم ، وقد رجتني ان اتفاهم معك .

وكان قد شُق بابٌ في جوف القاعة . وكان بوسع ماتيو ان يقسم أنه كان ثمة احد خلف هذا الباب . وقالت له العجوز :

ـ الحق ان هؤلاء الفتيات الصغيرات بلهاوات . انه يكفيهن ان ينظرن اليك ليرين انك من اولئك الذين خُلقوا لخلق المصائب او قلب الاقداح او تحطيم المرايا . وبالرغم من ذلك تراهن يودعنك أثمن ما لديهنّ . انهنّ ، في آخر المطاف ، يستحققن ذلك .

وظل ماتيو مؤدباً :

– وددت لو أرى اين تقومين بالعمليات .

فقذفته العجوز بنظرة كره وتحدّ :

– هكذا اذن ؟ من قال لك اني اقوم بالعمليات ؟ وعن اي شيء تتحدث ؟ ولماذا تتدخل في ذلك ؟ اذا كانت صديقتك تريد ان تقابلني ، فلتأتِ اليّ .. اني اريد ان اتفاهم معها وحدها . لقـــد كنت تريد ان تأخذَ فكرة ، أليس كذلك ! أتراها قد سألتك ان تأخذ فكرة حين جلست بين فخذيك ؟ لقد ارتكبتَ مصيبة . حسناً . كل ما استطيع ان اقوله لك هو ان تتمنى ان اكون ابرع منك . وداعاً .

فقال ماتيو :

– الى اللقاء ، يا سيدتي .

وخرج . وكان يحس انه تحرر . وانفتل على مهل الى جادة «اورليان» . كان بوسعه ان يفكر بمارسيل، للمرة الاولى منذ ان غادرها ، بلا ضيق ولا جزع ، بل بحزن عطوف . وفكر « سأقصد ساره غداً . »

٢

كان بوريس ينظر الى الخوان ذي المربعات الحمراء ويفكر بماتيـــو دولارو . كان يفكر : « إن هذا الشخص عظيم . » وكانت الجوقة قد صمتت ، وكان الهواء شديد الزرقة ، وكان الناس يتحدثون فـــيما بينهم . وكان بوريس يعرف الجميع في القاعة الضيقة الصغيرة : ولم يكونوا اشخاصاً قد قدموا للهزل والمجون ؛ وانما كانوا يجيئون بعـــد الفراغ من عملهم ، جادّين جائعين . امـــا الزنجي الذي كان يواجه « لولا » ، فهو مغني « البارادايز » ؛ واما الاشخاص الستة الجالسون في الداخل مع نسائهم ، فهم موسيقيّو « نينيت » ، ولا ريب في انهم قد حدث لهم شيء ، سعادةٌ غير منتظرة ، وربما عقدٌ للصيف (لقد تحدثوا عشية الامس حديثاً مبهماً عن مربع في القسطنطينية) لأنهم كانوا قد طلبوا شمبانيا ، وكانوا في العادة اقرب الى البخل . ورأى بوريس كذلك الشقراء التي كانت ترقص رقصة «جاوى» وهي بثوب البحارة . اما ذلك الطويل الهزيل ذو النظارات الذي كان يدخن سيكاراً ، فقـــد كان مدير ملهى في شارع تولوزيه أغلقته دائرة الشرطة منـــذ حين . وكان يقول انه سيُعاد فتحه عما قريب ، لأنه كان مدعوماً من المراجع العليا. وكان بوريس يأسف بمرارة لأنه لم يقصده ، وسوف يقصده بالتأكيد اذا فتح مرة اخرى . وكان الرجل مع فتى صغير يبدو من بعيد جذاباً ، وهو

أشقر ذو وجه دقيق ، فيه جمال ، وهو لا يأتي بكثير من الحركات المصطنعة . ولم يكن بوريس يطيق اللواطيين كثيراً ، لأنهم كانوا يلاحقونه طوال الوقت ، ولكن ايفيش كانت تقدرهم وتقول : « ان هؤلاء يجرؤون ، على الاقل ، على ألا يكونوا كسائر الناس . » وكان بوريس ممتلىء التقدير لآراء اخته ، وكان يبذل جهوداً كثيرة ليحترم العمات. وكان الزنجي يأكل الكرنب . وفكر بوريس : « انني لا احب الكرنب » وكان يود لو يعرف اسم الطعام الذي قُدّم لراقصة «جاوى» : طعام اسمر كان يبدو انه لذيذ . وكان على الخوان لطخة من الخمر الاحمر . لطخة جميلة ، حتى لكأن الخوان كان ، في ذلك المكان ، من الحرير الاطلس . وكانت لولا قد نثرت بعض الملح على اللطخة ، لأنها كانت تحب الترتيب . وكان الملح وردياً . وليس صحيحاً ان الملح يشرب اللطخات . وأوشك ان يقول للولا ان الملح لم يكن ليشرب اللطخات . ولكن ذلك كان يقتضيه ان يتكلم : وكان بوريس يشعر بأنه لم يكن يستطيع ان يتكلم . وكانت لولا بالقرب منه ، متعبة حارة ، ولم يكن بوريس يستطيع ان ينتزع من نفسه ادنى كلمة ، فقد كان صوته ميتاً . سأكون كذلك لو كنت أبكم . كان لذيذاً ان صوته كان يخفق في داخل حنجرته ، رقيقاً كالقطن ، ولم يكن يستطيع مع ذلك ان يخرج . كان ميتاً . وفكر بوريس : « احب كثيراً دولارو » واغتبط . وقد كان اغتباطه يزداد لو لم يكن يشعر ، بجانبه الايسر كله ، من الصدغ حتى الخاصرة ، أن لو كانت تنظر اليه . لا ريب في أنها كانت نظرة مشغوفة ، فان لولا لم تكن تستطيع قط ان تنظر اليه على نحو آخر . وكان ذلك مزعجاً بعض الشيء لأن النظرات المشغوفة تستدعي بالمقابل حركات ودية او بسمات ؛ وما كان بوريس ليستطيع القيام بأية حركة . وكان مشلولاً . غير ان ذلك لم يكن عظيم الأهمية : فانه لم يكن مفروضاً فيه ان يرى نظرة لولا : كان يحزرها

ولكن ذلك كان شأنه . كان هناك مديراً ظهره ، وشعره في عينيه ، فلم يكن يرى ادنى طرف من لولا ، وكان بوسعه ان يفترض بأنها كانت تنظر القاعة والناس . ولم يكن بوريس ناعساً ، بل كان مرتاحاً ، لأنه كان يعرف جميع الناس في القاعة ؛ ورأى لسان الزنجي الوردي ؛ وكان بوريس يحترم هذا الزنجي : فحين خلع الزنجي حذاءه اخذ علبة من الثقاب بين اصابع قدميه ، ففتحها وأخرج منها عوداً فأشعله ، كل ذلك بقدميه . وفكر بوريس باعجاب : « هذه عملية عظيمة . ان على الجميع ان يحسنوا استعمال اقدامهم كأيديهم . » وكان جانبه الايسر يؤلمه لفرط ما نظر اليه ، وكان يعلم انها تقترب ، تلك اللحظة التي ستسأله فيها لولا : « بمَ تفكر ؟ » فقد كان من المستحيل اطلاقاً تأخير هذا السؤال . ان ذلك لم يكن يتوقف عليه : فان لولا ستطرحه في اوانه ، بلون من القدرية . وكان بوريس يشعر بأنه ينعم بردح قصير من الزمن ، ثمين جداً . وفي الحقيقة ، كان ذلك لذيذاً : كان بوريس يرى الخوان ، وكان يرى قدح لولا (كانت لولا قد تناولت طعاماً بسيطاً ، لأنها لم تكن تتعشى قط قبل دورها الغنائي) وكانت قد شربت قدحاً من « شاتوغرويو » ، وكانت شديدة العناية بنفسها ، وكانت تستجيب لطائفة من الهوايات الصغيرة ، لأنها كانت شديدة اليأس من الشيخوخة . وكان قد بقي بعض الخمرة في القدح ، فكأنه دم مغبّر . وبدأ الجاز يعزف : « اذا اصبح لون القمر اخضر.» فتساءل بوريس : « اتراني احسن غناء هذا اللحن ؟ » كم كان يكون عظيماً لو تمخطر في شارع بيغال ، تحت ضوء القمر ، وهو يصفر لحناً صغيراً . كان دولارو قد قال له « انك تصفر كالخنزير » وأخذ بوريس يضحك في داخله ، وفكر : « ذلك الحمار ! » وكان يفيض وداً لماتيو . وألقى نظرة سريعة الى جانب ، من غير ان يحرّك رأسه ، فرأى عيني لولا الثقيلتين تحت خصلة رائعة من الشعر الاحمر . والحق

ان بامكان المرء ان يحتمل نظرة مـا . بحسبك ان تعتاد هـذه الحرارة الخاصة التي تلهب وجهك حين تشعر بأن احداً يراقبك بشغف. وكان بوريس يسلم نظرات لولا جسمه ورقبته الهزيلة وهـذا الجانب من وجهه الذي كانت تحبه كثيراً . وبهذا الثمن ، كـان بوسعه ان يتغلغل عميقاً في نفسه ، ويشغل ذاته بأفكـار صغيرة مستحبّة كانت تخطر له .

وسألته لولا : — بمَ تفكر ؟

— بلا شيء

— إن الانسان يفكر دائماً بشيء ما .

فقال بوريس : — كنت افكر بلاشيء .

— حتى ولا انك تحب اللحن الذي يعزفونه ، او تود ان تتعلم استعمال « المصفّقات » ؟

— مثل هذا ، بلى .

— اترى اذن ؟ لماذا تقول لي ذلك ؟ اود ان اعرف جميع ما تفكر به .

— إن هذا لا يقال ولا اهمية له .

— لا اهمية له ! يخيّل اليّ انك لم تعطَ لساناً الا لتتحدث في الفلسفة مع استاذك .

فنظر اليها وابتسم : « احبها كثيراً لأنها صهباء ، ولأنها تبدو مسنة.» وقالت لولا : « اي طفل عجيب ! »

وغمز بوريس بعينيه واتخذ موقف الابتهال . انـه لم يكن يحب ان يحدثوه عن نفسه ، فقد كان ذلك شديد التعقيد بحيث انه كان يضيع فيه . وكان يبدو على لولا انها غاضبة ، ولكن ذلك يعود بكل بساطة الى انها كانت تحبه بشغف ، وانها كانت تتألم بسببه . كانت تمر لحظات كهذه تشعر فيها انه قد أسقط بيدها ، فكانت تعذب نفسها بلا سبب،

وكانت تنظر الى بوريس بشرود . وتكف عن ان تعرف ما عساها تفعل به ، وكانت يداها تضطربان وحدهما . وكان بوريس في أول الأمر يدهش لذلك ، ولكنه قد اعتاده الآن . ووضعت لولا يدها على رأس بوريس وقالت :

ــ أتساءل عما في داخل رأسك . إن هذا يخيفني .

فقال بوريس ضاحكاً : ــ لماذا ؟ اقسم لك ان الأمر بريء .

ــ نعم ، ولكني لا استطيع ان اقول لك .. انه يأتي من تلقاء نفسه ، فكل فكرة من افكارك فرارٌ صغير ..

وأشعثت شعره فقال بوريس :

ــ لا ترفعي خصلتي ، فانا لا احب ان يرى الناس جبيني .

وتناول يدها ، فلامسها قليلاً . ثم اراحها على الطاولة . وقالت لولا :

ــ انت هنا ، رقيق لطيف ، واعتقد انك مرتاح معي . وفجأة ، لا يبقى ثمة احد ، فاتساءل : اين عساك قد ذهبت ؟

ــ انني هنا .

وكانت لولا تنظر اليه عن كثب ، وكانت قد شوهت وجهها الباهت سماحةٌ حزينة ، وكانت تلك هي الهيئة نفسها التي تتخذها حين تغني اغنية « المسلوخين » . كانت تمدّ شفتيها ، هاتين الشفتين الغليظتين بزواياهما المرتخية ، اللتين احبهما في البدء . ومنذ احس بهما على فمه ، كان يستشعر عرياً لزجاً محموماً وسط قناع من الجبس . وكان الآن يفضل بشرة لولا التي بلغ من بياضها ان توهم بأنها غير حقيقية .

وسألته لولا بخجل :

ــ هل ... تشعر بالانزعاج معي ؟

ــ لا اشعر ابداً بالانزعاج .

وتنهدت لولا ، وفكر بوريس برضى : عجيب ان تبدو مسنّة الى هذا الحد ، انها لا تعلن عن عمرها ، ولكنها بكل تأكيد في حدود

الأربعين . وكان يحب كثيراً ان يبدو الاشخاص الذين يرتبطون به مسنّين . اذ كان يجد ذلك مدعاة للاطمئنان . وبالاضافة الى ذلك ، كان هـذا يكسبهم نوعاً من الهشاشة مريعاً بعض الشيء ، لا يظهر للوهلة الأولى ، لأنهم كانوا يملكون جميعاً إهاباً مدبوغاً كأنه الجلد . واخذته الرغبة في ان يقبّل وجه لولا المضطرب ، وفكر بأنها متلاشيـة القوى ، وانها قد ضيّعت حياتها ، وانها كانت وحيدة ، بل ربما كانت اشد وحدة منذ بدأت تحبه . وفكر باستسلام : « انني لا املك شيئاً لها . » وفي تلك اللحظة ، كان يجدها لطيفة الى حد بعيد .

وقالت لولا : — اشعر بخجل .

وكان صوتها ثقيلاً مظلماً كأنه بساط من القطيفة الحمراء .

— لماذا ؟

— لأنك طفل .

وقال :

— انني اغتبط اذ تقولين : طفل . إنها كلمة جميلة بالنسبة لصوتك . انت تقولين « طفل » مرتين في « المسلوخين » ، وهذا وحده كاف لحملي على الذهاب للاستماع اليك . هل كان الحضور وافـرين ، ذلك المساء ؟

— كانوا من الطغمة . لا ادري من اين جاءوا . وكانوا يثرثرون . وكانت رغبتهم في الاستماع إلي مثل رغبتهم في ان يُشنقوا . وقد اضطر سارونيان الى اسكاتهم ، وقد تضايقت جداً ، لو تعلم ، وشعرت بأني مبتذلة . على انهم مع ذلك قد صفّقوا حين دخلت .

— هذا طبيعي .

فقالت لولا : — لقد مللت . انني انفر من الغناء لهؤلاء الحيوانات . أشخاص جاءوا لأنه كان عليهم ان يردّوا الدعوة لزوجين . ليتك رأيتهم قادمين جميعاً وهم يبتسمون ، وينحنون ويمسكون كرسي المرأة إذ تجلس .

وانت بالطبع ستضايقهم حين تأتي ، فينظرون اليك من فوق الى تحت .
(وقالت لولا فجأة) انني يا بوريس اغني لأعيش .
— طبعاً .
— لو كنت فكرت ان الأمر سينتهي بي هكذا ، لما بدأت قط .
— مهما يكن من امر ، فقد كنت تعيشين ايضاً من الغناء ، حين كنت تغنين في الموزيك هول .
— لم يكن الأمر كذلك .
وساد صمت ، ثم اسرعت لولا تضيف :
— إسمع : الشخص القصير الذي يغني بعدي ، الشخص الجديد ، لقد حدثته هذا المساء . انه لطيف ، ولكنه ليس روسياً اكثر مني .
وفكر بوريس : « تظن انها تضجرني » وعزم على ان يقول لها مرة اولى واخيرة انها لا تضجره قط . ولكن ذلك سيكون فيما بعد ، لا اليوم .
— لعله قد تعلّم الروسية ؟
فقالت لولا : — نعم ، وعليك ان تقول لي ان كانت لهجته جيدة .
— لقد ترك اهلي روسيا عام ١٧ ، وكان عمري ثلاثة اشهر .
فانتهت لولا الى القول : — انه مضحك ألاّ تعرف الروسية .
وفكر بوريس بأنها طريفة ، وانها تخجل من ان تحبني لأنها أسنّ مني . اما انا ، فأجد ذلك طبيعياً ، اذ لا بد من ان يكون هناك من هو اكبر من الآخر . خصوصاً وان ذلك اكثر اخلاقية ، فان بوريس ما كان ليعرف ان يحب فتاةً في مثل سنه . فاذا كان الاثنان في عمر الشباب ، فانهما لا يحسنان التصرف ، بحيث ان الأمر يضطرب ، كما لو انهما يلعبان او يعبثان . فليس الأمر كذلك مع الأشخاص الناضجين . انهم اشداء ، وهم يقودونك ، ثم ان لحبهم وزناً . وحين يكون بوريس برفقة لولا ، فانه يشعر برضى الضمير ، ويحس انه مبرّر . لقد كان

بالطبع يؤثر صحبة ماتيو ، لأن ماتيو لم يكن امرأة ، والرجل أطرف . ثم ان ماتيو كان يشرح له بعض الغوامض . غير ان بوريس كان غالباً ما يتساءل عما اذا كان ماتيو يكنّ له الصداقة . فقد كان ماتيو قاسياً ، لامبالياً . صحيح انه ينبغي ألا يكون الاصدقاء فيما بينهم أرقّاء ، ولكن هناك الف طريقة أخرى ليظهر المرء انه حريص على شخص آخر ، وكان بوريس يجد انه كان بوسع ماتيو بين الفينة والفينة ان يقول كلمة او يظهر حركة تنم عن وده . لقد كان ماتيو يسلك مع ايفيش مسلكاً مختلفاً جداً . واستعاد بوريس فجأة صورة وجه ماتيو اذ كان يوماً يساعد ايفيش على ارتداء معطفها ، فأحس في قلبه بانقباض مزعج . بسمة ماتيو : على ذلك الفم المر الذي كان بوريس يحبه كثيراً ، تلك البسمة الرقيقة الخجول . ولكن سرعان ما امتلأ صدر بوريس بالدخان . ولم يعد يفكر بشيء . وقالت لولا :

ـ هوذا يذهب مرة اخرى .

وكانت تنظر اليه بضيق .

ـ بمَ كنت تفكر ؟

قال بوريس على مضض :

ـ كنت افكر بدولارو .

وابتسمت لولا بسمة حزينة .

ـ ألا تستطيع ايضاً ، في بعض الاحيان ، ان تفكر بي ؟

ـ لا حاجة بي الى التفكير فيك ، ما دمت هنا .

ـ ولماذا تفكر دائماً بدولارو ؟ كنت تود ان تكون معه ؟

ـ انني مسرور بان اكون هنا .

ـ انت مسرور بان تكون هنا او بأن تكون معي ؟

ـ الأمر سواء .

ـ الأمر سواء بالنسبة اليك . لا بالنسبة إليّ . حين اكون معك ؛ لا يهمني

ان اكون هنا او في مكان آخر . والحق انني لا يسرني قط ان اكون معك .

فسألها بوريس دهشاً : – صحيح ؟

– ليس هو سروراً . ولست بحاجة الى ان تتغابى ، فانت تعرف ذلك جيداً : لقد رأيتك مع دولارو ، وانت لا تدري بعد اين تكون ، حين يكون هنا .

– هذا لا يشبه ذاك .

وادنت لولا منه وجهها المتهدم ، وكان يبدو عليها الابتهال :

ولكن انظر الي ، وقل لي لماذا تتعلق هذا التعلق الشديد به ؟

– لا ادري . انني لا اتعلق به الى هذا المقدار . انه عظيم . اسمعي يا لولا : يضايقني ان احدثك عنه ، لأنك قلت لي انك لا تطيقينه .

واغتصبت لولا بسمة :

– عجيب كم تدور على نفسك ! ولكن يا عزيزي لم اقل لك انني لا اطيقه . كل ما هناك انني لم افهم قط ما تجده فيه من الأمور العظيمة . ولكن اشرح لي ، فأنا لا اريد الا ان افهم .

وفكر بوريس : « هذا غير صحيح . فلن اقول ثلاث كلمات الا وتأخذ في السعال »

وقال بتحفظ : اجد انه لطيف قريب الى النفس »

– انك تقول لي ذلك دائماً . ليست هذه هي الكلمة التي اختارها لو سئلت . قل لي انه يبدو ذكياً ، وانه مثقف ، فأنا أقرّك على ذلك . ولكنه ليس لطيفاً قريباً الى النفس . على كل حال ، أتحدث عن شعوري . الشخص اللطيف القريب في رأيي هو من يشبه بوريس ، ومن يكون صريحاً . اما هو ، فانه يجعل الناس في ضيق لأنه متشكك متردد : يخدع من حوله . انظر مثلاً الى يديه .

– ما بال يديه ؟ انني احبهما .

– انهما يدان ضخمتان لعامل . وهما ترتجفان دائماً بعض الشيء كما لو انه ينتهي لساعته من عمل مرهق .

– من اجل هذا احبها !

– ولكن الواقع انه ليس عاملاً . حين اراه يقبض بيده الكبيرة على كأس الويسكي ، يشعرني حقيقة بالقسوة والمتعة ، وانا لا اكره هذا ولكن بعد ذلك ينبغي ألا يراه احد وهو يشرب ، بذلك الفم الغريب الذي يملكه ، فم الاكليريكي . انني لا استطيع ان اشرح لك ، فأنا أجده صارماً ، ثم انك اذا نظرت الى عينيه ، ظهر لك بوضوح انه ذو ثقافة : انه شخص لا يحب شيئاً ببساطة ، لا ان يشرب ، ولا ان يأكل، ولا ان يضاجع النساء ، يحب ان يفكر بكل شيء : وهو في ذلك يشبه الصوت الذي يملكه ، صوت حاسم قاطع لرجل لا يخطىء قط . أنا اعرف ان المهنة تقتضي ذلك ، حين يشرح المعلم الدرس للاطفال : كان لي مدرس يتكلم مثله ، ولكني لست بعد في المدرسة ، وهذا يضايقني . أنا افهم ان يكون احدنا هذا كله او ذاك كله ، ان يكون وحشاً ، او ان يكون من النوع المتميز ، معاً او راعياً ، ولكني لا افهم ان يكون الاثنين معاً . ولا ادري ان كانت هناك نساء يروق لهن ذلك ، ويجب الاعتقاد بأن هناك مثل هؤلاء النساء . اما انا فاصارحك بأنني اشمئز من ان يمسّني شخص مثل هذا . وانا لا احب ان اشعر بيديه ، يدي المصارع . تمسّانني ، فيما يريق عليّ حماماً بارداً بنظره المثلج .

واستعادت لولا نَفَسَها . وفكر بوريس : « ما الذي لديها ايضاً ؟ » . ولكنه كان هادئاً جداً . ان الاشخاص الذين كانوا يحبونـــه لم يكونوا مضطرين الى ان يتبادلوا الحب فيما بينهم ، وكان بوريس يجـــد من الطبيعي جداً ان يحاول كل منهم ان ينفّره من الآخرين .

وتابعت لولا بلهجة مصالحة :

– انني افهمك جيداً ، فانت لا تراه بالعينين اللتين اراه بهما ، وانت

متأثر لأنه كان استاذك ، ودليلي على ذلك طائفة من الحركات الصغيرة، فأنت مثلاً شديد القسوة على الطريقة التي يرتدي بها الناس ثيابهم ، اذ لا تجدهم قط انيقين ، بينما هو بالذات قبيح اللباس دائماً ، ويرتدي ربطة عنق يأنف منها صبي فندقي .. والأمر لديك سواء .

واحس بوريس بأنه مخدّر مسالم ، فقال موضحاً :

– لا بأس في ان يرتدي الانسان ثياباً قبيحة اذا لم يكن يهتم بثيابه. اما المزعج فهو ان يريد ان يبهر الناس ، ثم يفشل في ذلك .

قالت لولا : – اما انت ، فانك لا تفشل ، ايها البغي الصغير !

فقال بوريس بتواضع – انني اعرف ما يناسبني .

وفكر في انه كان يرتدي صدارة زرقاء ذات جانبين كثيفين ، فأخذه السرور : كانت صدارة جميلة . وكانت لولا قد تناولت كفّه واخذت تلاعبها بين يديها . ونظر بوريس الى يده التي كانت تقفز وتسقط ، وفكر : انها ليست لي ، فكأنها قرص معجنات . ولم يعد يشعر بها ، فأحس من ذلك بالتسلية ، وحرّك اصبعاً ليردّها الى الحياة . ولامس الإصبع راحة لولا ، فرمت له لولا بنظرة عرفان . وفكر بوريس بانزعاج : ان هذا هو الذي يرعبني . وقال في نفسه انه كان يكون ايسر عليه ان يبدو رقيقاً لو لم تكن لولا تتخذ غالباً مثل هذه المظاهر الخاضعة المائعة . اما ان يسمح امام الناس بأن تداعب امرأة يديه ، فان ذلك لم يكن ليزعجه قط . كان يفكر دائماً بأن ذلك كان يناسبه : فحتى لو كان وحده ، في المترو مثلاً ، كان الناس ينظرون اليه دهشين ، وكانت الساقطات الصغيرات اللواتي يخرجن من المشغل يهزأن به . وقالت لولا فجأة :

– لم تقل لي حتى الآن لماذا تراه عظيماً الى هذا الحد ؟

كانت هكذا ابداً ، لا تستطيع قط ان تقف اذا ما بدأت . وكان بوريس على يقين من انها كانت تعذب نفسها ، ولكنها كانت ولا

شك تحب ذلك ، في آخر الأمر .

ونظر اليها ، وكان الهواء حولها ازرق ، وكان وجهها ذا لون ابيض مزرق . ولكن عينيها ظلتا محمومتين قاسيتين .

– قل ، لماذا ؟

فهدر بوريس قائلاً : – لأنه عظيم . كفاك ملاحقة لي . انه لا يتعلق بشيء .

– وهل من الخير الا يتعلّق احدٌ بشيء ؟ الا تتعلق بشيء انت ؟

– آه بلى . إني اتعلّق بك .

فبدا على وجه لولا طابع الشقاء ، وادار بوريس رأسه . انه بالرغم من كل شيء لم يكن يحبّ ان يطيل النظر اليها اذ تبدو كذلك . كانت تتآكل نفسها ، وكان يجد هذا شيئاً سخيفاً ، ولكنه لم يكن له في الأمر حيلة . كان يفعل كل ما كان يتوقف عليه . كان أميناً للولا ، وكان غالباً ما يتلفن لها ، وكان يذهب ثلاث مرات في الاسبوع لمرافقتها بعد خروجها من مربع « سومطرا » ، وكان ينام عندها في تلك الليالي . اما ما دون ذلك ، فالأرجح انه كان قضية مزاج . وقضية سنّ ايضاً ، فالمسنّون شرسون ، وهم يعتقدون ان حياتهم هي دائماً في خطر . حين كان بوريس صغيراً ، ترك ملعقته ذات يوم تسقط الى الأرض ، فأمروه ان يلمّها ، فرفض ، وركبه العناد . واذ ذاك قال والده بلهجة جلال لا تنسى : « حسناً ، انا الذي سألمها » . ورأى بوريس جسماً كبيراً ينحني بتصلب ، ورأساً اصلع ، وسمع طقطقة . وكان ذلك تجديفاً لا يُحتمل ، واذا هو ينفجر باكياً . ومنذ ذلك الحين ، أخذ بوريس يعتبر البالغين كأنهم آلهة ضخام كساح . فاذا ما انحنوا ، خيّل الى الناس انهم سينكسرون ، واذا ما تعثّروا او سقطوا ، كنّا بين ان يأخذنا الضحك او تأخذنا الرهبة الدينية . اما اذا امتلأت عيونهم بالدمع ، كما هو شأن لولا الآن ، أسقط في ايدينا .

إن دموع البالغين هي كارثة صوفية ، شيء يشبه الدموع التي يذرفها الإلـه على خباثة الانسان . ومن وجهة نظر اخرى ، كان يحمد لدى لولا ان تكون شغوفاً الى هذا الحد . لقد سبق لماتيـــو ان شرح له أن على المرء ان يكون لديه شغف وحماسة ، وكذلك قال ديكارت .

وقال متابعاً فكرته بصوت عالٍ :

– إن لدى دولارو شغفاً وحماسة ، ولكن ذلك لا يمنعـــه من ألا يتعلق بشيء . إنه حرّ .

– اذا كان الامر كـــذلك ، فأنا ايضـــاً حرة ، لاني لا اتعلّق الا بك .

فلم يجب بوريس . وسألت لولا :

– ألست حرّة ؟

– ليس الامران سواء .

وكان ذلك أعسر من ان يُشرح . لقـــد كانت لولا ضحية ، ثم انها لم تكن محظوظة ، ثم انها كانت مقلقة اكثر مما ينبغي . وذلك كله لم يكن في صالحها . ثم انها كانت تنزع الى ان تصبح بطلة ، وقـــد كان ذلك امراً حسناً على نحو ما ، بل كان حسناً جداً ، مبدئياً . وقد سبق لبوريس ان حدّث ايفيش بذلك، فاتفقا على ان ذلك كان حسناً . ولكن كانت هناك الطريقة : فان كان المرء ينزع الى البطولة ليهـــدم نفسه ، او بدافع من اليأس ، او ليؤكد حريته ، فهو لا يستحق الا الثناء . اما لولا ، فكانت تفعل ذلك بتخلٍ نهـــم ، وكانت تلك فترة استرخائها . بل انها لم تكن حتى متسمّمة .

وقالت لولا بلهجة جافة :

– انك تضحكني . انها دائماً طريقتك في ان تضع دولارو مبدئياً فوق الآخرين . ذلك اني أتساءل ، فيما بيننا ، عمن يكون اكثر حرية : هو ام انا ؟ إن له بيته المؤثث.وله راتبه الثابت ، وتقاعده المضمون ،

وهو يعيش كموظف صغير . وبعد هذا كله ، حدثني عن تلك الحياة التي يعيشها مع تلك المرأة التي لا تخرج قط ، فكل شيء كامل ، وليس هناك من يتمتع بالحرية أفضل من ذلك : اما انا ، فليس لي الا أطاري ، وانا وحيدة ، اعيش في الفندق ، بل لست ادري ان كنت سأوفق الى عقد للصيف القادم .

فردد بوريس : — ليس الامران سواء .

وكان منزعجاً . كانت لولا لا تأبه كثيراً للحرية ، وانما كانت تعلّق عليها تلك الاهمية الكبيرة ذلك المساء لانها كانت تريد ان تهزم ماتيو في ميدانه بالذات .

— اوه ! سأقتلك يا عزيزي اذا ظللت هكذا . ماذا ! اي الامرين ليسا سواء ؟

فقال موضحاً :

— انت حرة من غير ان تريدي ذلك . إن هذا يحدث عفواً . اما ماتيو ، فالامر لديه يأتي بالعقل والمحاكمة .

فهزت لولا رأسها وهي تقول : — ما زلت غير فاهمة .

— اسمعي : انه لا يكترث ببيته ، فهو يعيش هناك كما يعيش في اي مكان آخر ، وأعتقد كذلك انه لا يكترث بالمرأة التي يعيش معها . وهو يبقى معها لانه يجب ان يضاجع امرأة ما . إن حريته لا ترى ، انها في الداخل .

وكانت لولا تبدو وكأنها غائبة ، وكانت له رغبة لان يعذبها قليلا ليرى ردّ فعلها ، وأضاف :

— انك تتعلقين بي اكثر مما ينبغي ؛ اما هو فلن يسمح لنفسه ابداً ان يؤخذ على هذا النحو .

فصاحت لولا مجروحة : — هكذا إذن ! انني متعلقة بك اكثر مما ينبغي ، ايها الوحش الصغير ! وتعتقد انه لا يتعلق هو اكثر مما ينبغي

بأختك ؟ لم يكن لك الا ان تنظر اليه ، ذلك المساء في « سومطرا ».

فسألها بوريس : — يتعلق بايفيش ؟ انك تحزنينني بهذا الكلام .

فقهقهت لولا ، وملأ الدخان فجأة رأس بوريس . وانقضت لحظة، ثم حدث ان كانت موسيقى الجاز تعزف لحن « مستشفى سان جيمس » فأخذت بوريس الرغبة في الرقص .

— هل ترقص هذا اللحن ؟

ورقصا . وكانت لولا قد اغمضت عينيها، فكان يسمع صوت نفَسها القصير . وكان اللوطي الصغير قد نهض واتجه ليدعو راقصة «الجاوى» الى الرقص . وفكر بوريس بأنه سيراه عن كثب فاغتبط لذلك. وكانت لولا ثقيلة بين ذراعيه ؛ وكانت تجيد الرقص ، وكان ينبعث منها عطر لذيذ ، ولكنها كانت اثقل مما ينبغي . وفكر بوريس بأنه يؤثر الرقص مع ايفيش . وكانت ايفيش تجيد الرقص إجادة عظيمة.وفكر : «يجب على ايفيش ان تتعلم استعمال المصفقات » ثم لم يعد يفكر بشيء ، بسبب رائحة اولا . وضم لولا اليه واستنشق بقوة . ففتحت عينيها ونظرت اليه باهتمام :

— هل تحبني ؟

فقال بوريس مقطباً وجهه : — نعم .

— ولماذا تقطّب وجهك ؟

— هكذا . انك تضايقينني .

— ولماذا ؟ اليس صحيحاً انك تحبني ؟

— بلى .

— لماذا لا تقول لي ذلك قط من تلقاء نفسك ؟ هل يجب عليّ دائما ان اسألك عنه ؟

— لانه لا يخطر لي . ان هذه امور متكلفة ، وأجد الا يقولها الانسان.

— أيزعجك ان اقول لك اني احبك ؟

ـ لا ، تستطيعين انت ان تقولي ذلك ما دام يخطر لك ، ولكن يجب الا تسأليني اذا كنت احبك .

ـ يا عزيزي ، من النـــادر ان اسألك عن شيء . يكفيني معظم الوقت ان انظر اليك واشعر اني احبك . ولكن هناك لحظات ارغب فيها ان المس حبك انت .

فقال بوريس برصانة :

ـ فهمت ، ولكن عليك ان تنتظري ان يخطر لي ذلك ، فان لم يأت من تلقاء نفسه ، فلا معنى له بعد .

ـ ولكنك انت نفسك تقول ، ايها الساذج الصغير، بانه لا يخطر لك حين لا تُسأل عن شيء .

فاخذ بوريس يضحك وقال :

ـ هذا صحيح ، انك تريدين احراجي . ولكن تعلمين ان بوسع الانسان ان يكنّ لأحد عواطف طيبة ، غير انه لا يرغب في التحدث عنها .

فلم تجب لولا . وتوقفا ، وصفقا ، ثم استؤنفت الموسيقى . ورأى بوريس بسرور ان اللوطي يتجه نحوهما وهو يرقص . ولكن حين تمكن من رؤيته ، اصيب بخيبة شديدة : لقد كان في حوالى الاربعين . كان وجهه يحتفظ بطلاء الشباب ، ولكنه كان قد شاخ من تحته ، وكانت له عينا دمية كبيرتان زرقاوان وفمٌ طفولي ، ولكن كانت تحت عينيه الخزفيتين جيوب ، وتجاعيد حول فمه ، وكان منخراه مقروضين كما لو انه موشك على الموت ، ثم ان شعره الذي كان يشبـــه من بعيد بخاراً مذهّباً ، كان من القلة بحيث لا يكاد يغطي صلعته . ونظر بوريس بذعر الى هذا الصبي المسنّ الأمرد وفكر «لقد كان شاباً»كان هناك اشخاص جُعلوا ليكون عمرهم خمسة وثلاثين عاماً ـ ماتيو مثلا ـ لأنهم لم يكن لهم قط شباب . اما الشخص الذي كان حقاً شاباً،فقد كان يبقى كذلك

طوال عمره . وكان ذلك يمكن ان يمتد حتى خمسة وعشرين عامـاً .
اما بعد ذلك ... فكان شيئاً مريعاً ، واخذ ينظر الى لولا ، وقال لها بسرعة :

– لولا ، انظري إليّ . انني احبك .

وأصبحت عينا لولا ورديتين ، ومشت على قدم بوريس . واكتفت بالقول :

– حبيبي .

وودّ ان يصرخ : « ولكن ضمّيني اليك ضمّـاً أقوى ، أشعريني بأني احبك » . بيد ان لولا لم تكن تقول شيئاً ، كانت بدورها وحيدة ، وكان قد آن لذلك الاوان ! كانت تبتسم بغموض ، وكانت قد اسبلت جفنيها ، وكان وجهها قد انغلق على سعادتها . وجه هـادىء فارغ . وأحسّ بوريس بأنه قد تُرك ، وغمرته فجأة الفكرة الخائفة : لا اريد ، لا اريد ان أشيخ . في العام الماضي ، كان هادئاً لا يفكر قط بهـذه الامور ، اما الآن ، فهو متشائم يحس طوال الوقت بأن شبابـه يسيل من بين اصابعه . حتى الخامسة والعشرين . وفكر بوريس : لديّ بعد خمسة اعوام سعيدة ، وبعد ذلك انسف عربتي . ولم يعد يحتمل سماع هذه الموسيقى والشعور بهؤلاء الناس حوله . وقال :

– هل تخرج ؟

– بعد قليل ، يا اعجوبتي الصغيرة .

وعادا الى طاولتها . ونادت لولا الخادم ووقفت ، ثم ألقت معطفها المخملي على كتفيها وقالت : « هيا بنا » .

وخرجا . ولم يعد بوريس يفكر باشياء كثيرة ، ولكنه كان يحسّ بالكآبة.وكان شارع «بلانش» غاصـاً بالأشخاص ، أشخاص قساة ومسنّين. والتقيا المايسترو «بيرانيز» من ملهى «الشابوتيه» فحيّياه ، وكانت ساقاه القصيرتان تدرمان تحت كرشه . ربما ترهلت أنا ايضاً . فلا أستطيع

بعد ان انظر الى نفسي في مرآة ، وأشعر بأن حركاتي جافة وكاسرة كما لو كنت من الخشب الميت ... وكانت كل لحظة تمرّ ، كانت كل لحظة تنهك شبابه. ليتني أستطيع ان اوفّر نفسي ، ان أعيش على مهل ، في بطء ، إذن لربما كسبت بعض السنوات . ولكن من أجل ذلك ، ينبغي الا انام كل ليلة في الثانية صباحاً ونظر الى لولا بحقد : « انها تقتلني » وسألته لولا :

– ما بالك ؟

– ليس بي شيء .

وكانت لولا تسكن في فندق بشارع نافارين . وتناولت مفتاحها من على اللوحة وصعدا في صمت . وكانت الغرفة عارية ، وكان في احدى الزوايا محفظة تغطيها البطاقات ، وعلى الجدار الداخلي صورة لبوريس مثبتة بالمسامير . كانت صورة هوية كبّرتها لولا . وفكر بوريس : « هذه ، هذه ستبقى ، حين اكون قد اصبحت جسماً مهدماً ، وستظل هيئتي هنا هيئة الشباب . » وكانت به رغبة لتمزيق الصورة .

قالت لولا : – انك كئيب ، فماذا هناك ؟

فقال بوريس : – انني منهوك ، واحسّ بألم في رأسي .

وبدت لولا قلقة :

– هل انت مريض يا حبيبي ؟ الا تريد قرصاً ؟

– لا ، لا بأس ، ان الألم يتقلص .

وأخذت لولا ذقنه ورفعت له رأسه :

– يبدو عليك انك ناقم عليّ . الست ناقماً عليّ ؟ بلى ! انت ناقم ! ماذا فعلت ؟

وبدا عليها انها مذعورة . فاحتجّ بوريس برخاوة :

– لست ناقماً عليك . انت مجنونة .

– بلى انت ناقم . ولكن ماذا فعلت لك ؟ الأفضل ان تقول لي

ذلك ، لأني استطيع اذ ذاك ان اشرح لك . انه بكل تأكيـد سوء تفاهم . وليس إصلاحه بالأمر المستحيل . بوريس ، ابتهل اليك ، قل لي ماذا هناك .

ـ لا شيء .

وأحاط بذراعيه عنق لولا وقبّلها في فمها . وارتعشت لولا . وتنشق بوريس نفساً معطراً ، وكان يشعر وهو بازاء فمها بعري لزج . وكان مهتاجاً . وغطّت لولا وجهه بالقبل ، وكانت تلهث بعض الشيء .

وشعر بوريس بأنه كان راغباً في لولا ، فسرّه ذلك : لقد كانت الرغبة تُتعب الأفكار السوداء ، بل جميع الأفكار الاخرى . وخلـق لنفسه حركة كبيرة في رأسه ، وأفرغ رأسه نفسه من فـوق بسرعة . وكان قد وضع يده على كشح لولا ، وكان يلامس بشرتها عبر الثوب الحريري : فلم يكن بعد الا يداً ممددة عـلى بشرة من حرير . وشنّج قليلاً يده فانزلق القماش تحت أصابعه كجلد ناعم ميت . امـا البشرة الحقيقية ، فقد كانت تصمد من تحت ، مطاطة ، مثلجة كقفـاز من جلد جدي مدبوغ . وقذفت لولا ، بحركة طائرة ، معطفها على السرير ، فانبثقت ذراعاها عاريتين ، وانعقدتا حـول عنق بوريس : وكانت تنبعث منها رائحة عطر . وكان بوريس يرى إبطيها المحلوقين المنقطين بنقط صغيرة قاسية ذات لون اسود مزرقّ : فكأنها رؤوس شظـايا صغيرة مغروزة بعمق . وبقي بوريس ولولا واقفين حيث داهمتهما الرغبة لأنهما لم يكونا يملكان بعد قوة الذهاب . وأخذت ساقا لولا ترتجفان ، وتساءل بوريس عما اذا كانا سيسقطان على مهل فوق السجادة . وضم اليه لولا ، وأحس بعذوبة نهديها الثقيلة . وتنهدت لولا :

ـ آه !

وكانت قد انقلبت الى خلف ، فاذا هو مسحور بهذا الرأس الأصفر ذي الشفتين المنتفختين ، هذا الرأس الميدوزي . وفكر : «ان هذه هي آخر

ايامها الجميلة ، وشدها اليه شداً أقوى . « سيأتي صباح تنهار فيه فجأة » ولم يكن يكرهها ؛ وكان يحس وهو مشدود اليها بأنه قاس هزيل ممتلىء عضلات ، وكان يغمرها بذراعيه ويحميها من الشيخوخة . ثم اخذته لحظة شرود ونعاس : ونظر الى ذراعي لولا البيضاوين كشعر امرأة عجوز ، فحسب انه يمسك بالشيخوخة بين يديه ، وان عليه ان يشدّها بكل قواه حتى ليخنقها . وهمهمت لولا سعيدة :

— ما أشد ما تضمني . انك توجعني . انني اشتهيك .

وتخلص بوريس : لقد كان مصدوماً بعض الشيء .

— اعطيني منامتي ، فسوف اخلع ثيابي في غرفة التواليت .

ودخل غرفة التواليت واغلق الباب بالمفتاح : كان يكره ان تدخل لولا فيما هو يخلع ثيابه . وغسل وجهه وقدميه وتسلّى بذرّ المسحوق على ساقيه . وكان قد استعاد هدوءه تماماً ، وفكر : « ان هذا لطريف » وكان رأسه شارداً ثقيلاً ، ولم يعد يعرف جيداً ما يفكر به . وانتهى الى القول « يجب ان احدّث دولارو بهذا » . وخلف الباب ، كانت تنتظره ، ولا شك في انها كانت عارية . ولكن لم تكن به رغبة في الاستعجال . جسم عارٍ ، مليء بالروائح العارية ، شيء يبعث على الاضطراب ، وذلك ما لم تكن لولا تريد ان تفهمه . كان عليه الآن ان يدع نفسه يسيل في صميم شهوة باهظة ، ذات مذاق قوي . ان من الممكن احتمالها اذ ينغمر فيها الانسان : اما قبل ذلك ، فلم يكن يسعه الا يخاف منها . وفكر في غيظ : « مهما يكن من امر ، فاني لا اريد ان أقع في الإغماء كالمرة السابقة . » ومشّط شعره بعناية فوق المغسلة ليرى اذا كان يفقد شعره . ولكن لم تسقط منه شعرة على الخزف الابيض . وحين ارتدى منامته ، فتح الباب ودخل الغرفة .

وكانت لولا متمددة على السرير عارية . كانت لولا اخرى ، مسترخية ونحيفة ، وكانت تترصّده عبر جفونها . وكان جسدها فوق الغطاء الازرق

ذا لون ابيض مفضّض ، كبطن سمكة ، مع طاقة شعر احمر في شكل مثلث . كانت جميلة . واقترب بوريس من السرير وتأملها في مزيج من الاغتلام والاشمئزاز ، وبسطت له ذراعيها ، وقال بوريس :

ــ انتظري .

وضغط على الزر ، فانطفأ النور . وامست الغرفة حمراء كلها : فقد كان معلقاً منذ حين على البناية المقابلة ، في الطابق الثالث ، إعلان مضيء . وتمدد بوريس الى جانب لولا وأخذ يلامس كتفيها ونهديها . وكانت بشرتها من العذوبة حتى ليخال انها كانت محتفظة بثوبها الحريري.

وكان نهداها رخوين بعض الشيء، ولكن بوريس كان يحب ذلك: لقد كانا نهديْ امرأة عاشت . وكان اطفاء النور بلا جدوى ، فقد كان بوريس يرى ، بسبب ذلك الاعلان اللعين ، وجه لولا مصفراً في اللون الاحمر ، ذا شفتين سوداوين : كان يبدو عليها انها تتألم، وكانت عيناها قاسيتين. وأحس بوريس بأنه ثقيل فاجع ، كما حدث له في « نيم » حين قفز الثور الاول الى الحلبة : ان شيئاً ما سيقع ؛ شيئاً لا مفر منه ، شيئاً مريعاً تافهاً ، كموت الثور الدامي . وقالت لولا مبتهلة :

ــ اخلع منامتك .

فقال بوريس : ــ لا .

وكان هذا امراً طقسياً . كانت لولا في كل مرة تطلب منه ان يخلع منامته وكان بوريس مضطراً للرفض . وانزلقت يدا لولا تحت سترته وأخذتا تلامسانه على مهل . وجعل بوريس يبكي .

ــ انك تدغدغينني .

وتعانقا . وبعد لحظة ، أخذت لولا يد بوريس وضغطتها على بطنها، لدى طاقة الشعر الاحمر : كان لها دائماً متطلبات غريبة ، وكان بوريس يضطر احياناً لمقاومتها . وترك ، لبضع لحظات ، يده ممدودة بلا حركة عند فخذي لولا ، ثم صعد بها على مهل حتى كتفيها . وقالت لولا

وهي تجذبه اليها :

– تعال ، اني اعبدك ، تعال ! تعال !

وما لبثت ان همهمت ، وقال بوريس في نفسه : « حسناً ، سوف أقع في الاغماء ! » وكانت موجة لزجة تصعد من جنبيه الى رقبته.وقال بوريس وهو يكزّ على اسنانه « لا اريد » ؛ ولكن خيّل اليه فجأة انه كان يُرفع من عنقه ، كأنه ارنب ، فترك جسده ينبطح على جسد لولا ، ولم يعد الا دوراناً شهوانياً احمر . وقالت لولا :

– حبيبي .

وأزاحته جانباً على مهل وخرجت من السرير . وظل بوريس متلاشياً ، ورأسه في الوسادة . وسمع لولا تفتح باب غرفة التواليت وفكر: « حين ينتهي الامر معها ، فسأكون طاهراً . انني لا اريد قصصاً بعد . انني اشمئز من المضاجعة . ولكي اكون منصفاً ، اعترف بأنني لا اشمئز من ذلك الى هذا الحد ، ولكني استفظع السقوط في الاغماء . ان المرء لا يدري عند ذلك ما يفعله بعد، ويشعر بأنه قد سيطر عليه ، فماذا يجدي بعد هذا ان يكون قد اختار امرأة ما ؟ سيكون الامر سواء مع جميع النساء ، اذ يصبح فيزيولوجياً . » وردد بنفور : فيزيولوجي! وكانت لولا تغتسل لليل . وكان صوت الماء عذباً بريئاً ، فاستمع اليه بوريس بسرور . لقد كان مهلوسو العطش في الصحراء يسمعون مثل هذه الاصوات ، اصوات ينبوع . وحاول بوريس ان يتصور انه كان مهلوساً. لقد كانت الغرفة ، والضوء الاحمر ، وقرقرة المياه ، كل ذلك كان هلوسات ، وانه يوشك ان يجد نفسه في الصحراء ، مضطجعاً على الرمل . وعلى عينيه خوذته الفلّينية . وبرز له فجأة وجه ماتيو، ففكر : « ان هذا لظريف . انني احب الرجال اكثر من النساء . انني اذ اكون مع امرأة ، لا ابلغ من السعادة ربع ما ابلغه اذ اكون مع رجل . على انني لا اود بأي ثمن ان انام مع رجل. » وابتهج وهو يفكر: « راهباً

سأصبح حين اترك لولا!» وأحس بأنه خشنٌ نقيٌ . وقفزت لولا الى السرير وأخذته بين ذراعيها وهي تقول :

– يا صغيري ! يا صغيري !

وداعبت شعره ، وسادت لحظة صمت طويلة . وكان بوريس قد بدأ يرى نجوماً تدور حين اخذت لولا تتكلم . وكان صوتها غريباً جداً في الليل الاحمر .

– ليس لي غيرك يا بوريس ، انني وحيدة في العالم ، فيجب ان تحبني كثيراً ، وانا لا استطيع ان افكر بسواك . اذا فكرت في حياتي، تأخذني الرغبة في ان ألقي بنفسي في الماء ، فيجب ان افكر فيك طوال النهار . فلا تكن قاسياً ياحبيبي ولا تؤذني ، انت كل ما يبقى لي . انني بين يديك يا حبيبي ، فلا تؤذني . لا تؤذني ابداً ، انني وحيدة جداً!

واستفاق بوريس منتفضاً وواجه الموقف بوضوح ، فقال بصوت جلي:

– اذا كنت وحيدة ، فلأنك تحبين ذلك ، ولأنك ذات كبرياء . والا لأحببت رجلاً اكبر منك سناً . اما انا ، فانني شاب اكثر مما ينبغي ، ولا استطيع ان امنعك من ان تكوني وحيدة . وعندي فكرة انك قد اخترتني من اجل هذا .

قالت لولا :

– لا ادري ، انني مشغوفة بحبك . هذا كل ما ادريه .

وكانت تضمه بوحشية بين ذراعيها . وسمعها بوريس تقول كذلك : « انني اعبدك » ثم استغرق في نوم عميق .

٣

الصيف . كان الهواء فاتراً كثيفاً ؛ وكان ماتيو يسير وسط المرتفع، تحت سماء صافية ، وكانت ذراعاه تجدّفان ، وهما تُبعدان بُسُطاً ذهبية ثقيلة . الصيف . صيف الآخرين . اما في نظره ، فقد كان نهار اسود يبتدىء ، وهو سيزحف متلوّياً حتّى المساء ، عملية دفن تحت الشمس . عنوان . المال . لا بـد من الركض في اربع زوايا باريس . ساره ستعطي العنوان . ودنيال يدينه المال . او جاك . لقـد حلم بأنه كان قاتلاً ، وكان باقياً له شيء من الحلم في جوف عينيه ، سحقه ضغط النور الباهر . ١٦ شارع دولامبر . كانت سارة تسكن هنـاك ، في الطابق السادس ، وكان المصعد لا يعمل طبعاً . ورقي ماتيو الدرج على قدميه . كانت خلف الابواب المغلقة نساء يرتبن البيوت وقد ربطن على صدورهن وزرة ، وعقدن على رؤوسهن منشفة ؛ كان النهار بالنسبة اليهن ايضاً يبتدىء . ايّ نهار ؟ كان ماتيو يلهث لهـاثاً خفيفاً حين دق الجرس ، وفكر / « يجب عليّ ان اتريّض » وفكر بضجر : « اقول ذلك كلما رقيت درجاً . » وسمع كردحة دقيقة ؛ وفتح لـه الباب رجل قصير اصلع ذو عينين صافيتين ، وكان يبتسم . وعرفـه ماتيو : كان المانياً مهاجراً سبق له ان رآه مراراً في مقهى « الدوم »

وهو يرشف مفتوناً فنجان قهوة بالكريم ، او وهو منحنٍ فوق شطرنج يتأمل احجاره ويلحس شفتيه الغليظتين . وقال ماتيو :

– اودّ ان ارى سارة .

فاكتسى وجه الرجل القصير بالجدّ ، وانحنى وهو يصفق عقبيه ؛ وكانت اذناه بنفسجيتين . وقال بتصلب :

– اسمي ويمولر .

فقال ماتيو من غير ان يتأثر : – واسمي دولارو .

واستعاد الرجل القصير ابتسامته البشوش وقال :

– ادخل ، ادخل . انها تحت ، في الاستديو . وستكون سعيدة جداً . وأدخله في الممر ثم اختفى وهو ينطنط . ودفع ماتيو الباب الزجاجي وولج ستوديو غوميز . وتوقف على سطيحة الدرج الداخلي وقد بهره النور الذي كان يتدفق من الشبابيك الزجاجية الكبيرة المغبرة . وطرف ماتيو بعينيه ، وكان رأسه يؤلمه .

وقال صوت ساره : – من هناك

فانحنى ماتيو فوق الدرابزين . وكانت ساره جالسة على الديوان ، وهي تلبس « كيمونو » اصفر ، وكان يرى رأسها تحت شعر متصلب قليل. وكان يضيء قبالتها مصباح: هذا الرأس الاحمر ، رأس الاصعل[1] .. وفكر ماتيو منزعجاً : « انه برونه » ولم يكن قد رآه منذ ستة اشهر، ولكن لم يكن يسرّه قط ان يلقاه ثانية لدى ساره : ان ذلك مربكٌ حقاً ، وإن لديهما اشياء كثيرة يقولانها، وان صداقتهما المختصرة كانت منتصبة بينهما . ثم ان برونه كان يجلب معه جوّ الخارج ، عالماً سليماً برمّته ، عالماً قصيراً عنيداً بثوراته وعنفه ، وعمله اليدوي وجهوده الصابرة ونظامه ؛ إنه لم يكن بحاجة للاستماع الى السرّ الصغير المعيب ،

(١) القصير الرأس.

سر المخدع ، الذي قدم ماتيو ليبوح بـــه الى ساره . ورفعت ساره رأسها وابتسمت قائلة :

ــ مرحباً ، مرحباً .

فبادلها ماتيو بسمتها : وكان يرى ، من فوق ، هذا الوجه المسطّح الذي زال رونقه وتآكلته الطيبة ، ويرى تحته الثديين الكبيرين الرخوين اللذين كانا يبدوان الى نصفهما خـــارج الكيمونو . واسرع بالهبوط ، وسألته ساره :

ــ ما الذي جاء بك ؟

فقال ماتيو : ــ يجب ان اسألك شيئاً .

فتورد وجه ساره شراهة وقالت :

ــ كل ما تريد .

واضافت وقد ابهجها السرور الذي كانت تقدّر انها ستمنحه إياه :

ــ اتدري مَنْ عندي ؟

والتفت ماتيو الى برونيه وصافحه . وكانت ساره ترنو اليهما بعين حنان . وقال برونيه :

ــ مرحباً ، ايها الاشتراكي الخائن العتيق !

وكان ماتيو مسروراً بأن يسمع هـــذا الصوت ، رغم كل شيء . وكان برونيه هائلاً وشديداً ، ذا وجه فلاحي بطيء التعبير . ولم يكن يبدو عليه انه قريب الى القلب بصورة خاصة . وقال ماتيو :

ــ مرحباً ، حسبتك قد متّ .

فضحك برونيه من غير ان يجيب . وقالت ساره بنهم :

اجلس بالقرب مني .

وكانت تعلم انها ستؤدي له خدمة ، فهو الآن ملكهـــا . وجلس ماتيو . وكان بابلو الصغير يلعب تحت الطاولة بأجسام مكعبة . وسأل ماتيو :

– ما اخبار غوميز ؟

قالت ساره : – انها الاخبار عينها . انه في برشلونه .

– وهل بلغك شيء من انبائه ؟

فأجابت ساره ساخرة : – في الاسبوع المـــاضي كتب لي يروي انتصاراته !

والتمعت عينا برونيه :

– اتعلم انه اصبح كولونيلاً ؟

كولونيل . وفكر ماتيو برجل الامس فانقبض قلبه . اما غوميز ، فقد ذهب ، هو . كان ذات يوم قد علم من جريدة « باري سوار » سقوط « ايرون » . فظل وقتاً طويلاً يذرع مرسمه جيئة وذهاباً، وهو يمرّر اصابعه عبر شعره الاسود . ثم هبط وهو عاري الرأس ، مرتدياً سترته . وظل المرسم في الحالة التي تركه عليها : لوحة غير ناجزة على المسند ، ولوح من النحاس محفور نصف حفر على الطاولة، وسط زجاجات الحامض وكانت اللوحة والنقش يمثلان الآنسة ستيمسون . وكانت عارية في اللوحة . وتمثّلها ماتيو ثملةً رائعة تغني بصوت ابـــحّ وذراعها في ذراع غوميز . وفكر : « مهما يكن من امر ، فقـــد كان اقسى مما ينبغي مع ساره .» وسألته ساره بصوت جذل :

– ايكون الوزير هو الذي فتح لك ؟

لم تكن تريد ان تتحدث عن غوميز . وكان قد سبق لها ان غفرت له كل شيء ، خياناته وفراره وقسوته . ولكنها لم تغفر لـــه هذا ، رحيله الى اسبانيا : فقد ذهب ليقتل بشراً . وقد قتل بعض البشر . وقد كانت الحياة البشرية ، في رأي ساره شيئاً مقدساً .

وسألها ماتيو دهشاً : – اي وزير ؟

فقالت ساره باعتزاز ساذج :

– الفأر الصغير ذو الاذنين الحمراوين ، هو وزير . لقد كان عضواً

في حكومة مونيخ الاشتراكية عام ٢٢ . اما الآن ، فهو يموت جوعاً.
— وطبعاً ، التقطته انتِ ؟
فأخذت ساره تضحك .
— لقد جاءني يحمل محفظته . والحقيقة انه لم يبق له مكان يذهب اليه . وقد طردوه من فندقه لأنه لم يكن يملك بعد ما يدفعه .
فعدّ ماتيو على اصابعه وقال :
— مع « انيا » و « لويز » و « سانتي » يصبح نزلاؤك اربعة
فقالت ساره بلهجة اعتذار :
— اما « انيا » فذاهبة . لقد وجدت عملاً .
قال برونيه :
— يا للحماقة !
— ماذا ؟ ما هي الحماقة ؟
قالت ساره وهي تضع يدها على ذراع ماتيو :
— آه ، تعال لنجدتي ، يا عزيزي ماتيو .
— ولكن ما هي القصة ؟
قال برونيه لساره بلهجة استياء :
— ان الامر لا يهم ماتيو :
ولم تكن تصغي اليه بعد ؛ فقالت بلهجة اشفاق :
— انه يريدني ان اطرد وزيري .
— تطردينه ؟
— ويقول اني مجرمة لاحتفاظي به .
فقال برونيه بهدوء : — ان ساره تبالغ .
والتفتت الى ماتيو ، واخذ يشرح له ، على مضض :
— الواقع ان لدينا معلومات سيئة عن هذا الرجل . ويبدو انه كان منذ ستة اشهر يجوس ممرات السفارة الالمانية . وليس المرء بحاجة لأن

يكون داهية ليفهم ما يمكن لمهاجر يهودي ان يفعل هناك .

قالت سارة : — ليست لديك ادلة .

— أجل . ليس لنا آدلة . ولو كان هناك ادلة ، ما كان هنا قط . ولكن حتى ولو لم يكن هناك الا تخمينات ، فان سارة عديمة الحذر بايوائه .

وقالت سارة بحماسة : — ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

قال برونيه برقة : — اسمعي يا ساره ! انك على استعداد لنسف باريس كلها من اجل ان تجنبي الذين تحمينهم اي ازعاج !

فابتسمت سارة ابتسامة خفيفة وقالت :

— ليس باريس كلها . ولكن المؤكد انني لن أضحي بـ «ويمولر» من اجل قضاياك الحزبية . إن ... إن الحزب امر مجرد تماماً .

قال برونيه : — هذا ما كنت اقوله بالذات .

فهزت ساره رأسها بعنف ، وكان وجهها قد احمر وعيناها الكبيرتان الخضراوان قد دمعتا ، فقالت بغيظ :

— الوزير الصغير ، لقد رأيته يا ماتيو ، فهل يمكن ان يؤذي حتى ذبابة !

وكان هدوء برونيه عظيماً . كان هدوء البحر . وكان ذلك مهدئاً ومغيظاً في الوقت نفسه . لم يكن يبدو عليه قط انه رجل واحد ، بل كان يعيش حياة جمهور كامل بكل هدوئها وصمتها وصخبها . واوضح قائلاً :

— إن غوميز يرسل لنا احياناً بعض الرسل ، وهم يأتون الى هنا فنلتقيهم في منزل ساره ، وانت تدرك ان الرسائل التي يحملونها سرية ؛ أفيكون هذا هو المكان الذي تختاره من جميع الأمكنة لتستضيف فيه رجلاً اشتهر بأنه جاسوس ؟

فلم يجب ماتيو . كان برونيه قد استعمل الصيغة الاستفهامية ، ولكن

ذلك كان امرأ خطابياً : انه لم يكن يسأله رأيه . ولقــد انقضى وقت طويل على انقطاع برونيه عن اخذ رأي ماتيو في اي أمر من الامور .

— انني اجعلك حكماً يا ماتيو : اذا طردت « ويمولر » قذف نفسه في نهر السين . (ثم اضافت بلهجة يائسة) فهل يحق لنا حقاً ان ندفع انساناً الى الانتحار لمجرد شبهة ؟

وكانت قد انتصبت ، قبيحة ومشرقة ، لتولّد في نفس ماتيو شعور المشاركة الملطخة الذي يحس به المرء تجاه المسحوقين والمصابين والمرضى بالالتهابات والقروح . وسأل :

— هل الأمر جدّ ؟ هل سيقذف نفسه في السين ؟

فقال برونيه : — طبعاً لا ، بل سيعود الى السفارة الالمانية وسيحاول ان يبيع نفسه كلياً ...

قال ماتيو : — الامر سواء . انه في جميع الاحوال هالك .

فهز برونيه كتفه بلامبالاة وقال :

— نعم ، صحيح .

قالت ساره وهي تنظر اليه بقلق :

— اتسمعه يا ماتيو ؟ اذن ، من هو على صواب ؟ قلْ شيئاً ؟

ولم يكن لدى ماتيو ما يقوله . لم يكن برونيه يسأله رأيه ، وما عساه يجديه رأي رجل بورجوازي ، مثقف قذر ، كلب حراســة ؟ « سوف يستمع بتأدّب مثلّج ، ولكنه لن يكون اشد تأثــراً من صخرة ، وسيدينني بمــا اقوله ، وهذا كل ما في الأمر . » ولم يكن ماتيو يريد ان يدينه برونيه . وقد كان ثمة فترة لم يكن احــدهما يدين فيها الآخر ، بصورة مبدئية . وكان برونيــه يقول آنذاك : ان الصداقة ليست مجعولة للانتقاد ، وانما هي مجعولة لتمنح الثقة . » ولعله ما زال يقول ذلك ، ولكنه اذا قاله الآن ، فانما يعني رفاقه في الحزب .

وقالت ساره : ماتيو !

فانحنى برونيه نحوها ولامس ركبتها وهو يقول بهدوء :

— اسمعي يا ساره . انني احب كثيراً ماتيو ، واقدر ذكاءه . وحين يكون الأمر ان يُوضّح مقطع من سبينوزا او من كانط ، فهو الذي استشيره بكل تأكيد . اما هذه القضية ، فهي بليدة جداً ، واقسم لك انني لست بحاجة الى حكم ، حتى ولو كان استاذ فلسفة . لقد حددت موقفي .

وفكر ماتيو : طبعاً . طبعاً . وكان قلبه قد انقبض ، ولكنه لم يكن ناقماً على برونيه . من اكون حتى اعطي النصائح ؟ وما الذي فعلته في حياتي ؟ وكان برونيه قد نهض فقال :

— يجب ان امضي . وطبعاً ، ستعملين ما تشائين ، يا ساره . انت لست من الحزب ؛ ومع ذلك فان ما تؤدينه لنا عظيم . ولكن اذا احتفظت به ، فاني اطلب اليك ببساطة ان تمرّي عليّ حين يرسل لك غوميز اخباره .

فقالت ساره : — حسناً .

وكانت عيناها تلتمعان ، وكان يبدو انها قد تحرّرت . وقال برونيه :

— ولا تدعي شيئاً يظهر . احرقي كل شيء .

— اعدك بذلك .

والتفت برونيه الى ماتيو :

— هيّا ، الى اللقاء ، ايها الأخ القديم .

ولم يمدّ يده ، وكان يتأمله بتنبّه ، وبشيء من القسوة ، نظرة مارسيل ، مساء امس ، ودهشتها الحاقدة . وكان عارياً تحت نظراته ، شخصاً طويلاً عارياً ، من لبّ الخبز . شخصاً مرتبكاً عديم الحذق . من اكون حتى اعطي نصائح ؟ وطرف بعينه : كان برونيه يبدو قاسياً

ذا عقد . اما انا ، فاني أحمل الإجهاض على وجهي . وتكلم برونيه فلم يكن صوته ذاك الصوت الذي كان ماتيو ينتظره ، إذ قال بهدوء :

– إن سحنتك رديئة . فما الذي تشكوه ؟

وكان ماتيو قد نهض ايضاً :

– انني واقع في ... ارتباك . ولكن لا أهمية لذلك .

فوضع برونيه يده على كتفه . وكان ينظر اليه متردداً :

– إنها لحماقة . يضيع المرء كل وقته وهو يعدو ذات اليمين وذات الشمال ، ولا يجد وقتاً للاهتمام بالاصدقاء القدامى . فلو انك متّ ، فسأعلم نبأ موتك بعد شهر ، وبالصدفة .

قال ماتيو ضاحكاً : – لن اموت في مثل هذا التاريخ المبكّر .

وأحس بقبضة برونيه على كتفه ، وكان يفكر : « إنه لا يدينني » . فأحسّ بعرفانٍ متواضع يستولي عليه . وظل برونيه جاداً فقال :

– لا ، ليس في مثل هذا التاريخ المبكر . ولكن ...

وبدا عليه اخيراً انه يعزم :

– هل انت حرٌ حوالى الساعة الثانية ؟ ان عندي بعض فراغ ، وبوسعي ان اقفز الى بيتك ؛ ويمكننا ان نتحدث قليلاً ، كالسابق .

فقال ماتيو :

– كالسابق ، انني حرّ تماماً . وسأنتظرك .

وابتسم له برونيه بصداقة . وكان قد احتفظ ببسمته الساذجة المرحة .

واستدار حول نفسه ، وتوجه نحو السلّم . وقالت ساره :

– سأرافقك .

وتبعها ماتيو بعينيه . وكان برونيه يرقى الدرج بمرونة اخاذة . وقال في نفسه : « لم يضع كلّ شيء . » واختلج شيء ما في صدره،

شيء فاتر ومتواضع كان يشبه الأمل . وخطا خطوات . واصطفق الباب فوق رأسه . وكان بابلو الصغير ينظر اليه بوقار . واقترب ماتيو من الطاولة واخذ مقصاً . وطارت ذبابة كانت قد حطت على صفحة النحاس . وكان بابلو ما يزال ينظر اليها . واحس ماتيو بالانزعاج ، من غير ان يعرف السبب . وكان لديه شعور بأن عيني الصبي تبتلعانه . وفكر : « ان الصبيان هم شرهون صغار ، وجميع حواسهم أفواه » . لم يكن نظر بابلو نظراً انسانياً بعد ، ومع ذلك فقد كان شيئاً اكثر من الحياة : فلم يمض وقت طويل على خروج الطفل من بطن ، وكان هذا يُرى واضحاً ، كان هناك ، صغيراً ، متردداً ، وكان لا يزال يحتفظ بأثر مخملي وخم من شيء مُقاء ، ولكن كان يكمن وراء الاخلاط المضطربة التي كانت تملأ محجريه وجدان صغير نهم . وكان ماتيو يلعب بالمقص . وفكر « ان الطقس حار » . وكانت الذبابة تطن حوله ، كان هناك ، في حجرة وردية ، داخل بطن آخر ، جسم صغير متجعّد ينتفخ . وسألة بابلو :

ـ أتعلم بمَ حلمت ؟

ـ كلا .

ـ حلمت بأني كنت ريشة .

فقال ماتيو في نفسه : « انه يفكر ! » وسأله :

وماذا كنت تفعل حين كنت ريشة ؟

ـ لا شيء . كنت نائماً .

ورمى ماتيو فجأة بالمقص على الطاولة ، فاخذت الذبابة ترفرف مذعورة ، ثم حطّت على صفحة النحاس بين فُرضتين رقيقتين تمثلان ذراع امرأة . كان لا بد من الاسراع ، لأن الجسم الصغير كان ينتفخ في هذه الأثناء ، وكان يبذل جهوداً غامضة لكي ينزع عنه الغطاء اللزج ، ولكي ينتزع نفسه من الظلمات ، ويصبح شبيهاً بهـذا ، بهذا المحجم الشاحب الرخو

الذي كان يلتهم العالم .

وخطا ماتيو بضع خطوات على الدرج . وكان يسمع صوت ساره . لقد فتحت الباب ووقفت على العتبة تبتسم لبرونيه . ما الذي تنتظر لتهبط ؟ وانفتل الى الصبي والى الذبابة . صبي . لحم مفكر يصرخ وينزف حين يُقتل . إن الذبابة أسهل قتلاً من صبي . وهز كتفيه : « انني لن اقتل احداً . انما سوف امنع طفلاً من ان يولد . » وكان بابلو قد عاد يلعب بمكعباته ، كان قد نسي ماتيو . ومد ماتيو يده ولمس الطاولة باصبعه . وكان يردد لنفسه بدهشة « امنع ولادة ... » فكأنما كان ثمة في مكان ما طفل جاهز ينتظر ساعة القفز من هذه الناحية من الديكور ، في هذه الغرفة تحت هذه الشمس ، وكان ماتيو يسد عليه الطريق . والواقع ان ذلك كان كذلك تقريباً: كان ثمة رجل قصير متنكر وماكر ، كاذب وأليم ، ذو بشرة بيضاء ، واذنان عريضتان وشامات ، مع قبضة من العلامات الفارقة تشبه تلك التي توضع على الجوازات ، رجل قصير لن يعدو قط في الطرقات ، لأن له قدماً على الرصيف واخرى في الساقية ، وكان ثمة عينان ، عينان خضراوان كعيني ماتيو او سودوان كعيني مارسيل اللتين لن تريا ابداً سماوات الشتاء المخضرة ، ولا البحر ، ولا أي وجه ، وكان ثمة ايد لن تمس الثلج ابداً ، ولا بشرة النساء ، ولا لحاء الشجر : كان ثمة صورة للعالم دامية ، مضيئة ، عابسة مهووسة ، كئيبة ، تفيض بالآمال ، صورة تغمرها الحدائق والبيوت وفتيات فارعات رقيقات ، وحشرات مريعة ، صورة توشك ان تُفجّر برأس دبوس ككرة من كرات اللوفر . قالت ساره :

— ها أنذا ، هل جعلتك تنتظر !

فرفع ماتيو رأسه واستشعر التفريج : كانت منحنية على الدربزين ، ثقيلة قبيحة ، كانت امرأة بالغة ، لحماً قديماً يبدو وكأنه خارج من الملوحة وكأنه لم يولد قط ، وابتسمت له ساره وهبطت الدرج مسرعة .

وكان الكومينو يتطاير حول ساقيها القصيرتين . وقالت بشراهة :
– نعم ؟ ماذا هناك ؟
وكانت عيناها الكبيرتان المضطربتان تتفحصانه بالحاح . وانفتل وقال بجفـــاء :
– ان مارسيل حامل .
– اوه !
وكان يبدو على سارة انها اقرب لأن تكون مغتبطة . وسألت بخجل :
– إذن .. سوف ؟..
قال ماتيو بحماسة : – لا ، لا . اننا لا نريد اطفالاً .
قالت : – حسناً ، فهمت .
وخفضت رأسها ولزمت الصمت . ولم يستطع ماتيو ان يحتمل هذا الحزن الذي لم يكن حتى عتاباً ، فاستطرد يقول بوحشية :
– أظن ان ذلك قد حصل مرة معك ، كما اخبرني غوميز .
– نعم . في الماضي .
ورفعت عينيها فجأة واضافت باندفاع :
– ان هذا ليس ذا اهمية على الاطلاق اذا أُدرك في حينه .
وكانت تمتنع عن ادانته ، وكانت تتخلى عن تحفظاتها وعن مآخذها ، ولم يكن لها بعد الا رغبة واحدة ، هي ان تطمئنه .
– ليس الأمر بذي بال على الاطلاق ...
وكان يوشك ان يبتسم وان يواجه المستقبل بثقة ؛ ستكون وحدها التي تحمل الحـــداد بسبب هذه الميتة الصغيرة الخفية . وقال ماتيـــو مغتاظاً :
– اسمعي يا ساره ، وحاولي ان تفهميني : انني لا اريد ان اتزوج . وليس ذلك بدافع من انانية : ولكني اجد الزواج ...
وصمت : كانت ساره متزوجة ، كانت قد تزوجت غوميز منـذ

خمس سنوات . واضاف بعد لحظة :

— ثم ان مارسيل لا تريد اولاداً .

— الا تحب الاولاد ؟

— إن هذا لا يهمّها .

فبدا على سارة الامتعاض وقالت :

— نعم ، نعم .. اذن ، في الحقيقة ...

وأخذت يديه :

— ماتيو ، يا صديقي المسكين ، لا بدّ انك كثير الانزعاج ! وبودي لو استطيع ان اساعدك .

قال ماتيو : — هذا بالذات ما اريده . انك تستطيعين ان تساعدينا . حين حدث لك ذلك ... الانزعاج ، ذهبت ترين احداً ما ؛ رجلاً روسياً ، على ما اظن .

قالت ساره : — نعم (وتغيرت سحنتها) كان ذلك مريعاً !

فقال ماتيو بصوت عكر : — آه .. انه .. انه مؤلم جداً .

— ليس آلم مما ينبغي ، ولكن ... (وقالت بلهجة اشفاق) كنت افكر بالطفل . انت تعلم ان غوميز كان يريده . وحين كان يريد شيئاً ما ، في ذلك العهد ... ولكن ذلك كان مريعاً .. وابداً لن .. إن بوسعه ان يبتهل اليّ وهو جاثٍ على ركبتيه ، الآن ، ولكنني لن اعيدها ابداً .

ونظرت الى ماتيو بعينين شاردتين :

— لقد اعطوني حزمة صغيرة ، بعد العملية ، وقالوا لي « إقذفي ذلك في بالوعة » . في بالوعة . كجرذ ميت !

وأضافت وهي تضمّ يديه بقوة : — اسمع يا ماتيو ! انك لا تعلم ما انت قادم عليه !

فسألها ماتيو غاضباً :

— واذا وضعت ولداً ، اتراك تكونين اكثر علماً مني ؟

طفل : وجدان جديد ، نور صغير جديد يطير مستديراً ، فيصطدم بالجدران ويعجز عن الفرار بعد .

– لا ، وانما اقصد : انت لا تعلم ما الذي تطلبه من مارسيل ؛ انني اخشى ان تكرهك فيما بعد .

وتمثل ماتيو عيني مارسيل ، عينيها الكبيرتين القاسيتين المحاطتين بدائرة مزرّقة . وسأل بجفاء :

– هل تكرهين غوميز ؟

فأتت ساره حركة اشفاق وعجز : انها لم تكن تستطيع ان تكره احداً ، ولا سيما غوميز . ثم قالت بلهجة غامضة :

– مهما يكن من امر ، فليس بوسعي ان ارسلك الى هذا الروسي الذي ما زال يعمل ، ولكنه يشرب الآن ، فليست لي به ثقة بعد ، وقد حدثت له قصة قذرة منذ عامين .

– الا تعرفين شخصاً آخر ؟

فقالت ساره بهدوء : – لا اعرف احداً .

ولكن طيبتها كلها ما لبثت ان انبثقت على وجهها فجأة فصاحت :

– بلى ، بوسعي ان ارشدك ، فكيف لم افكر بذلك ؟ سوف اتدبر الامر ، والدمان . ألم تره عندي ؟ يهودي متخصص بالأمراض النسائية . انه اخصائيّ الاجهاض ، على نحو ما وستكون معه مطمئناً. لقد كان له في برلين زبائن كثيرون . وحين استولى النازيون على السلطة ، ذهب يقيم في فيينا . وبعد ذلك ، حدث الانشلونس فأبحر الى باريس يحمل بيده محفظة صغيرة . ولكن كان قد حوّل كل ماله الى زوريخ قبل ذلك بوقت طويل .

– اتظنين انه سيقبل ؟

– طبعاً . انني ذاهبة لأراه اليوم بالذات .

فقال ماتيو : – انني مسرور . مسرور جداً . هل يأخذ اجراً

غالياً جداً ؟

– كان يتقاضى هناك حتّى ألفي مارك .

فامتقع ماتيو :

– عشرة آلاف فرنك ؟

فأضافت بحيوية :

– ولكن ذلك سرقة. كان يحمل الناس على ان يدفعوا ثمن شهرته . اما هنا ، فلا يعرفه احد ، ولا بد ان يكون معقولاً . وسوف اعرض عليه ثلاثة آلاف فرنك .

فقال ماتيو وهو يكز على اسنانه : – حسناً .

وكان يتساءل : « من اين آتي بهذا المال ؟ »

وقالت ساره : – اسمع ، لماذا لا اقصده منذ هذا الصباح ؟ انه يسكن شارع « بليز ديغوف » وهو قريب جداً . سوف ارتدي ثيابي وأهبط . فهل تنتظرني ؟

فقال ماتيو : – لا ... ان عندي موعداً في العاشرة والنصف . انك جوهرة يا ساره .

وأخذها من كتفيها وهزّها وهو يبتسم . لقد أزالت عنه اعمق مخاوفه وجعلت من نفسها ، بدافع السماحة ، شريكة عمل كان يوحي بالذعر : كانت تشعّ سروراً . وسألته :

– اين ستكون حوالي الحادية عشرة ؟ ان بوسعي ان اخابرك بالتلفون .

– سأكون في مقهى « ديبون » بشارع سان ميشال . وبوسعي ان ابقى فيه حتّى تتصلي بي .

– في « ديبون » ؟ اتفقنا .

وكان مئزر ساره قد انفتح عن ثدييها الهائلين . فضمها ماتيو اليه بدافع حنان ، وحتّى لا يرى جسدها بعد . قالت ساره :

– الى اللقاء ، الى اللقاء ، يا عزيزي ماتيو .

ورفعت اليه وجهها الرقيق الذي زال رونقه . وكان في هذا الوجه تواضع يثير الاضطراب والشهوة ويرغّب في إيذائها وارهاقها بالخجل. كان دانيال يقول : « حين اراها ، افهم معنى السادية . » وقبّلها ماتيو على خدّيها .

* * *

« الصيف ! » كانت السماء تتسلط على الشارع ، وكانت شبحاً معدنياً ؛ كان الناس يعومون في السماء ، وكانت وجوههم تتوهج . وتنشّق ماتيو رائحة خضراء حيّة ، غباراً فتياً ، وطرف بعينيه وابتسم. « الصيف ! » وخطا بضع خطوات ، فعلق بنعله القطران الاسود الذائب المنقّط بحبات بيضاء : لقد كانت مارسيل حاملاً ، وليس هو بعد الصيف ذاته .

كانت نائمة ، وكان جسدها سابحاً في ظلّ كثيف ، وكان يرشح وهي نائمة . وكان نهداها الجميلان البنفسجيان قد ارتخيا ، وكانت قُطيرات تنبجس حول حلمتيها ، بيضاء مالحة كالزهور . انها تنام . انها تنام دائماً حتى الظهر . اما الجسم المتجعد الصغير ، في جوف بطنها . فلم يكن لينام ، وهو لا يملك وقتاً للنوم: انه يتغدّى وينتفخ . وكان الزمن يسيل دفعات صلبة لا تنقطع . كان الجسم المجعد ينتفخ ، وكان الوقت يسيل . « يجب ان اجد المال في الثماني والاربعين ساعة . »

حديقة اللكسمبورغ ، حارّة بيضاء ، تماثيل وحمام : وأطفال . الاطفال يركضون ، والحمام يطير . ركض ، بروق بيضاء ، فرق صغيرة تتبدّد . وجلس على كرسي من حديد : « اين اجد المال ؟ ان دانيال لن يعيرني اياه . ومع ذلك فسوف اطلبه منه .. ثم ، كآخر سهم ، ستكون لي امكانية التوجه الى جاك . » وكان العشب يزبد

حتّى قدميه ، وكان تمثال يمدّ له مؤخرته الحجرية الفتية ، وكان الحمام يسجع ، طيور من حجر : « ليست القضية ، بعد كل حساب ، الا قضية خمسة عشر يوماً ، وسوف ينتظر هذا اليهودي حتّى آخر الشهر ، ويوم ٢٩ سأقبض راتبي . »

وتوقف ماتيو فجأة : كان يرى نفسه وهو يفكر ، وكان يشمئز من نفسه : « في هذه الساعة ، يضرب برونيه في الشوارع ، على هواه في النور ، وهو خفيف لأنه ينتظر ، هو يمشي عبر مدينة من زجاج مفضض لن يلبث ان يكسره ؛ انه يستشعر القوة ، وهو يمشي متمايلاً مترنّحاً ، بكل حذر ، لأن الوقت لم يحن بعد لتحطيم كل شيء ، انه ينتظر ، انه يأمل . اما انا ، اما انا ! ان مارسيل حامل . هل ستقنع ساره ذلك اليهودي ؟ اين اجد المال ؟ هذا ما افكر به ! » واستعاد فجأة صورة عينين متقاربتين تحت حاجبين كثيفين اسودين : « مدريد ، كان بودي ان اذهب اليها . اقسم لك . ولكن ذلك لم يتمّ . وفكر فجأة : « لقد شخت . »

اني شيخ . هأنذا مسترخ على كرسي ، منخرطٌ حتّى العنق في حياتي ، وغير مؤمن في شيء . ومع ذلك ، فقد وددت انا ايضاً ان اذهب الى « اسبانية » ما . ثم لم يتم ذلك . هل هناك « اسبانيات » ؟ اني هنا ، أتلمظ ، واحس مذاق الدم القديم والمياه المعدنية ، مذاقي اني مذاقي بالذات ، انني موجود . ذلك هو الوجود : ان يشرب الانسان نفسه على غير عطش . اربعة وثلاثون عاماً . منذ اربعة وثلاثين عاماً وانا اتذوق نفسي ، وانا شيخ . لقد عملت ، وانتظرت ، وكان لي ما اريد : مارسيل ، باريس ، الاستقلال ، وانتهى الامر ، فأنا لا انتظر بعد شيئاً . وكان ينظر الى هذه الحديقة النمطية ، الجديدة دائماً ، التي هي نفسها دائماً ، كالبحر ، تجتازها منذ مئة عام موجات الالوان والاصوات نفسها . كان هناك ما يلي : هؤلاء الاطفال الذين

كانوا يركضون بلا انتظام ، الاطفال انفسهم منذ مائة عـــام ، وهذه الشمس نفسها تنصبّ على ملكات الجبس ذوات الاصابع المكسورة وجميع هذه الاشجار . وكانت هناك ساره وكيمونوها الاصفر ، ومارسيل حبلى، والمال . ان ذلك كله كان من الطبيعة والعادية والرتابة بحيث كان يكفي لأن يملأ حياة ، تلك هي الحياة . اما الباقي ، الاسبانيات ، والقصور في اسبانيا ، فقد كان ... ماذا ؟ دينٌ لا دينيّ صغير حـــارٌ يصلح لي ؟ المصاحبة الخفية السارفيمية لحياتي الحقيقية ؟ لا دليل؟ كذلك كانوا يروني ، هم ، دانيال ، ومارسيل وبرونيه وجاك : الانسان الذي يريد ان يكون حراً . انه يأكل ويشرب كسائر الناس ، وهو موظف في الحكومة ، وهو لا يتعاطى السياسة ، وهو يقرأ جريدتي « الاوفر » و « البوبولير » . وهو يعاني ضيقاً مالياً. ولكنه يريد فحسب ان يكون حراً ، كما يريد آخرون مجموعة من الطوابع . ان الحرية هي حديقته المقدسة ، ضلوعه اليسير مع نفسه . شخص كسول بارد ، خيالي بعض الشيء: ولكنه في الحقيقة عظيم الرشاد ، صنع لنفسه سعادة جمود عادية وصلبة ، وهو يبرر نفسه بين الفينة والفينة باعتبارات رفيعـــة . ايكون هذا هو ما انا ؟

كان في السابعة من عمره ، وكان في « بيتيفييه » عند عمه جول ، طبيب الاسنان « وحيداً في قاعة الانتظار ، وكان يتكلف منع نفسه من ان يوجد : كان عليه ان يحاول الا يلتهم نفسه ، كشأن من يحتفظ على لسانه بمائع مثلج فيما هو يمسك حركة الابتلاع الصغيرة التي تجعله يسيل الى الحنجرة . وكان قد نجح بأن يُفرغ رأسه تماماً . ولكن هذا الفراغ كان ما يزال يحتفظ بمذاق . كان يوم حماقات . وكان يقبع في حرارة ريفية تنبعث منها رائحة الذباب ؛ والواقع انه كان قد قبض على ذبابة ونزع جناحيها . ولاحظ ان رأسها كان يشبه طرف عود ثقاب ، فذهب الى المطبخ وأتى بالمبرد وراح يحكه به ليرى اذا كان سيشتعل . ولكن

كان يفعل ذلك كله باهمال : كانت مهزلة حقيرة فارغـــة ، وكان لا ينجح في الاهتمام بنفسه ، وكان يعلم جيداً ان الذبابة لن تشتعل . وكان على الطاولة مجلات ممزقة وآنية صينية جميلة ، خضراء ورمادية ، ذات عُرى تشبه براثن الببغاء ؛ وكان عمه جول قد قال له ان عمر هذه الآنية ثلاثة آلاف عام . وكان ماتيو قد اقترب من الآنية، ويداه خلف ظهره، ونظر اليها وهو يتراقص في قلق : انه لمخيف ان يكون الانسان كرّية من العجين ، في هذا العالم الهرم المشويّ ، تجاه آنية عديمة الاحساس ذات ثلاثة آلاف عام . وكان قد اولاها ظهره وأخذ يقلب عينيه وينخر امام المرآة ، من غير ان ينجح في تسلية نفسه ، ثم عاد فجأة الى الطاولة، ورفع الآنية التي كانت ثقيلة جداً ، وقذف بها ارضاً : هكذا خطر له ذلك ، وما لبث ان شعر بأنه خفيف ، كخيط من خيوط « العذراء » . وقد نظر الى شظايا البورسلين مسحوراً . لقد حدث شيء ما لهذه الآنية ذات الثلاثة الآلاف عام بين هذه الجدران الخمسينية ، تحت نور الصيف القديم ، شيء وقح يشبه الصباح . وكان قد فكر : « انا الذى فعلت ذلك ! » واستشعر الفخر ، وأحس بأنه متحرر من العالم وبلا جذور ، بلا اسرة ، بلا اصول ، وانه انبثاق صغير عنيد فجّر قشرة الارض.

وكان في السادسة عشرة ، وكان وحشاً صغيراً ، وكان مستلقياً على الرمل ، في « اركاشون » وكـــان ينظر الى امواج المحيط المسطحة . وكان قد ضرب شاباً من بوردو قذفه بالحجارة، فأجبره على اكل التراب. وفيما كان جالساً في ظل الصنوبر ، متقطـــع الانفاس ، مملوء المنخرين برائحة الصمغ الصنوبري ، كان لديه احساسٌ بأنه انفجار صغير معلق في الهواء ، انفجار صريـــح ، شرس ، غير قابل للتفسير . وكان قد قال لنفسه : « سأصبح حراً » او انه بالاحرى لم يقل لنفسه شيئاً على الاطلاق . وانما كان هذا ما يود ان يقوله ، وكان ذلك رهاناً . كان قد راهن بأن حياته كلها ستشبه هذه اللحظة الفريدة . وكان في الحادية

والعشرين ، وكان يقرأ سبينوزا في غرفتـه وكان يوم ثلاثاء المرفع ، وكانت شاحنات كبيرة ملونة تعبر الشارع وهي محملة بدمىً من الورق المقوّى ؛ وكان قـد رفع عينيه وراهن مرة اخرى ، بذلك التفخيم الفلسفي الذي اعتادا عليه منذ حين، هو وبرونيه ؛ كان قد قال لنفسه: « سوف اصنع سلامي » ! وعشر مرات ، ومئة مرة ، اعاد مراهنته. وكانت الكلمات تتغير مع السن ، ومع الطُرُز الفكرية ، ولكن الرهان ظل هو هو ؛ ولم يكن ماتيو ، في نظر نفسه بالذات ، شخصاً طويلاً ثقيلاً بعض الشيء ، كان يدرس الفلسفة ، في معهد للذكور، ولم يكن كذلك شقيق جاك دولارو ، النائب في المحاكم ، ولم يكن عشيق مارسيل ولا صديق دانيال وبرونيه : انه لم يكن شيئاً آخر غير هذا الرهان .

اي رهان ؟ وأمرّ يده على عينيه اللتين اتعبهما النور : انه لا يعرفه بعد معرفة جيدة ؛ كان له الآن ، اكثر فأكثر غالباً ، فترات نفي طويلة . ولا بد له لكي يفهم رهانه ان يكون في افضل حالات نفسه .

— الكرة ، من فضلك .

وتدحرجت كرة التنس حتّى قدميه ، وكان صبي صغير يعدو نحوه . وفي يده مضرب . والتقط ماتيو الكرة وقذفها اليه . ولم يكن بالتأكيد في افضل حالاته : فقـد كان يأسن في تلك الحرارة الكئيبة ، وكان ضحية الاحساس الرتيب القديم بالشيء اليومي المألوف : لقد جهد في ترديد العبارات التي كانت تثير حماسه في الماضي : « ان اكون حراً، ان اكون قضيتي ، ان استطيع القول : انني موجود لأنني أريد ذلك ؛ ان اكون بداءتي بالذات . » ولكن هذه كانت كلمات فارغة جوفاء ، كلمات مثقف مزعجة .

ونهض . نهض موظف ، موظف كان يشكو قلـة المال ، وهو قادم على لقاء اخت احد تلامذته الاقدمين. وفكر : « هل فات الأوان؟ ألست بعد الا موظفاً ؟ » لقـد سبق له ان انتظر طويلاً ؛ ولم تكن

سنواته الاخيرة الا حراسة سلاح . كان ينتظر عبر الالف همّ صغير؛ وبالطبع كان يجري وراء النساء ، في ذلك العهد ، وكان يسافر ، ثم كان عليه ان يكسب عيشه . ولكن "عبْرَ" ذلك كله ، كان اهتمامه الوحيد هو ان يظل على استعداد . لعمل ما . عمل حر وواعٍ يُلزم حياته كلها ويكون بدء وجود جديد . انـه لم يستطع قط ان ينخرط كلياً في حب ما ، في لذة ما ، ولم يكن قط شقياً حقاً : كان يخيّل اليه دائماً انه كان في مكان آخر ، وانه لم يولد بعد تماماً. كان ينتظر. وفي هذه الاثناء ، كانت السنوات قد جاءت على مهل ، وبصورة خفية، وقبضت عليه من الخلف ؛ اربع وثلاثون سنة . « كان عليّ، وانا في الخامسة والعشرين ، ان ألتزم . مثل برونيه . هذا صحيح، ولكن المرء، في تلك السن ، لا يلتزم وهو مدرك القضية تمام الادراك . » وكان قد فكر بالذهاب الى روسيا ، وبالانصراف عن دراسته ، وبتعلّم مهنـة يدوية . ولكن ما كان يُمسكه كل مرة على حافة هـذه الالوان من النقض العنيف ، هو انه كان يفتقر الى الاسباب الكافية لتنفيذها. انها، بلا اسباب ، ما كانت لتكون الا ضروباً من العناد . وهكذا استمر في الانتظار ...

وكانت قوارب شراعية تدور في حوض اللوكسمبورغ ، تصفعهـا فوارة الماء بين الفينة والفينة . وتوقف لينظر الى حفلتهـا الاستعراضية المائية الصغيرة . وفكر : « لن انتظر بعد . انها على حق : لقد افرغت نفسي واعمقتها حتى لم اعد الا انتظاراً . صحيح اني الآن مُفرغ . ولكني لا انتظر بعد شيئاً . »

وهناك ، بالقرب من فوارة الماء ، كـان قارب صغير في طريق الضياع ، تائهاً على حدة . وكان جميع الناس يضحكون وهم ينظرون اليه ؛ وكان صبيّ شقي يحاول ان يقبض عليه بواسطة عُقّافة ؛

٤

نظر ماتيو الى ساعته : « العاشرة واربعون دقيقة . لقد تأخرت . » ولم يكن يحب ان تتأخر ، وكان يخشى دائماً ان تكون قد تركت نفسها تموت . كانت تنسى كل شيء ، وكانت تهرب من نفسها . وكانت تنسى نفسها بين دقيقة واخرى ، وكانت تنسى ان تأكل ، وكـــانت تنسى ان تنام . وسوف تنسى يوميـــاً ان تتنفس وينتهي كل شيء . وكان شابان قد توقفا بالقرب منه : وكانا يتأملان طاولة بعبوس .

وقال أحدهما : — « سيت داون » .

فأجاب الآخر : — انني أسيت داون .

وضحكا وجلسا . وكان لهما ايد معتنى بها ، الهيئة قاسية والبشرة رقيقة . وفكر ماتيو في حنق « ليس هنا إلا الماجنين » ! تلامذة او طلاب ليسيه ؛ الشباب الذكور المحاطون باناث رماديات كانوا يشبهون حشرات لامعة عنيدة . وفكر ماتيـــو : « إن الشباب شيء ظريف : بريق في الخارج ، وفي الداخل لا تحس شيئاً . » صحيح ان ايفيش كانت تحس بشبابها ، وكذلك بوريس ، ولكنهما يدخلان في الاستثناء. انهما من شهـــداء الشباب . « لم اكن ادري اني انا كنت شاباً ، ولا برونيه ولا دانيال . وانما شعرنا بذلك فيما بعد . »

وحلم ، في غير سرور بالغ ، بأنـــه سيصطحب ايفيش الى معرض غوغان . وكان يحب ان يُريها لوحات جميلة ، وافلامـــاً جميلة ، واشياء جميلة ، لأنه لم يكن جميلاً ، وكان ذلك بمثابـــة الاعتذار . ولكن ايفيش لم تكن لتعذره : انها ستنظر الى اللوحات هذا الصباح ، كما كانت تنظر في المرات السابقة ، نظرتها الهوساء المتوحشة ، وسيقف ماتيو الى جانبها ، قبيحاً ، ثقيل الظلّ ، منسيّـاً . ومع ذلك ، فانه لم يكن بودّه ان يكون جميلاً : ذلك انها ليست اكثر وحـــدة إلاّ تجاه الجمال . وقال لنفسه : « لا ادري ما الذي اريده منها . » وفي هذه اللحظة بالذات ، لمحها ؛ كانت تهبط الجادّة الى جـــانب فتى طويل مجعّد كان يضع النظارات ، وكانت ترفع نحوه وجهها وتمنحـــه بسمتها المشرقة ؛ كانا يتحدثان بحيوية . وحين رأت ماتيو ، انطفأت عيناها ، وحيّت رفيقها تحية سريعة ، ثم عبرت شارع « ديزيكول » بهيئة مستنيمة . ونهض ماتيو :

– تحية يا ايفيش .

فقالت – صباح الخير .

وكان وجهها في افضل زينته : كانت قد ردّت خصلاتها الشقراء حتى انفها ، وكان هدبها يهبط حتى عينيها . اما في الشتاء ، فقد كان الهواء يناثر شعرها ويعرّي وجنتيها البارزتين المنقعتين وذلك الجبـــين المنخفض الذي كانت تدعوه « جبيني الكلموكي » . وكانت تبـــدو سحنة عريضة صفراء طفولية وشهوانية كالقمر بين غمامتين . اما اليوم فان ماتيو لم يكن يرى الا وجهاً مزيفاً ضيقاً نقيـّاً كانت تغطي بـــه وجهها الحقيقي كقناع مثلث . والتفت الشبان المجاورون لماتيو اليها : وكانوا يفكرون : الفتاة الجميلة . ونظر اليها ماتيو بحنان ؛ لقد كان بين هؤلاء جميعاً ، الوحيد الذي يعرف ان ايفيش كانت بشعة وجلست هادئة مستوحشة . ولم تكن قد طلت وجهها بالمسحوق ، لأن المسحوق

كان يتلف البشرة . وسأل الخادم :

– وماذا تطلب السيدة ؟

فابتسمت له ايفيش ، وكانت تحبّ ان تُدعى «سيدة» ؛ ثم التفتت الى ماتيو مترددة ، فقال ماتيو :

– خذي قدح « بيبرمنت » ، فانت تحبين ذلك .

فقالت وقد راقها هذا : – احب ذلك ؟ اذن اريده : (وسألته حين مضى الخادم) وما هذا المشروب ؟

– انه نعنع أخضر .

– ذلك الشيء الاخضر اللزج الذي شربته في المرة السابقة ؟ اوه ! انني لا اريده . فهو يدبق الفم . انني انساق دائماً ، فيجب عليّ ألاّ أصغي اليك . إن ذوقينا مختلفان .

فقال ماتيو منزعجاً : – ولكنك قلت إنك تحبين هذا ؟

– صحيح . غير اني فكرت بعد ذلك ، وتذكرت الطعم . (وارتعشت) لن اشرب منه بعد ابداً .

فصاح ماتيو ينادي الخادم .

– لا ، لا . دعه يأتي به ، إن منظره جميل . كل ما هنالك انني لن أمسّه . فلست عطشى .

وصمتت . ولم يدر ماتيو ما ينبغي ان يقول لها : نادرة هي الاشياء التي كانت تثير اهتمام ايفيش ؛ ثم انها لم تكن راغبة في الكلام . كانت مارسيل هناك ؛ إنه لم يكن يراها ، ولم يكن يسمّيها ، ولكنها كانت هناك . اما ايفيش ، فكان يراها ، وكان يستطيع ان يدعوها باسمها او ان يلمس كتفها : ولكنها كانت بمعزل عن الإدراك ، بقامتها الدقيقة وعنقها الجميل القاسي ؛ كان يبدو انها مطليّة مبرنقة ؛ كأنها امرأة من تاهيتي مرسومة على لوحة لغوغان ، غير قابلة للاستعمال . ستتلفن ساره الساعة ، فينادي الخادم : « السيد دولارو » ؛ وسيسمع ماتيو

في آخر لحظة صوتاً اسود : « انه يطلب عشرة آلاف فرنك ، لا تنقص فلساً واحداً » . مستشفى ، عملية جراحية ، رائحة اثير ، قضايا مالية . وجهد ماتيو ليلتفت الى ايفيش التي كانت قد اغمضت عينيهـــا وكانت تُمرُّ اصبعاً خفيفاً على جفنيها . وفتحت عينيها :

— لديّ شعور بأنهما تبقيان مفتوحتين من تلقاء نفسهما . وبين فترة وفترة اغمضهما لأريحهما . هل هما حمراوان ؟

— كلا .

— انها الشمس ؛ ان عينيّ تؤلمانني دائماً في الصيف . وايام كهذه ، ينبغي الا يخرج فيها المرء الا حين يهبط الليل ؛ والا فهو لا يدري اين يلتجيء لأن الشمس تلاحقه في كل مكان . ثم ان ايدي الناس لزجة .

ولمس ماتيو باصبعه ، تحت الطاولة ، باطن كفّه بالذات : فكان جافاً . ان الآخر ، الفتى الطويل المجعّد ، هو الذي كانت يداه دبقتين . وكان ينظر الى ايفيش من غير اضطراب ؛ وكان يحس انـــه مذنب ومتحرر ، لأنه كان اقل تعلقاً بها .

— أيزعجك اني اضطررتك الى الخروج هذا الصباح ؟

— على اي حال ، كان من المستحيل ان ألازم غرفتي .

فسألها ماتيو دهشاً : — ولماذا ؟

فنظرت اليه ايفيش بنفاد صبر :

— انت لا تدري ما عساه ان يكون بيتٌ للطلاب . ان الفتاة تُحمى فيه حماية حقيقية ،ولا سيما في فترة الامتحانات . ثم ان المرأة قد أحبتني ، فهي تدخل كل لحظة الى غرفتي بحجج مختلفة ، فتلامس شعري ، وانا اكره ان ألمس .

وكان ماتيو لا يكاد يصغي اليها : فقد كان يعلم انها لم تكن تفكر بما تقوله . وهزت ايفيش رأسها مغتاظة :

— ان سمينة « البيت » هذه تحبني لأني شقراء . ويحدث دائماً الشيء

نفسه فهي ستحتقرني بعد ثلاثة اشهر : ستقول اني مرائية .
فقال ماتيو : — انت مرائية .
قالت بلهجة طويلة تذكّر بوجنتيها المتقعتين : — طبعاً ...
— ثم إن الناس ينتهي بهم الأمر الى ملاحظة انك تخفين عنهم خدّيك وانك تسبلين عينيك امامهم كقديسة منافقة .
— حسناً ! هل يروق لك انت ان يُعرف من تكون ؟ (وأضافت بشيء من الاحتقار) : صحيح انك لا تتأثر بهذه الامـــور . اما فيما يخصّ نظري الى الناس مواجهة ، فاني لا استطيع ذلك : إن عينيّ تزعجانني على الفور .
قال ماتيو : — غالباً ما أزعجتني في البدء . كنت تنظرين اليّ فوق الجبين ، في مستوى الشعر ، انا الذي أخشى كثيراً ان أصبح أصلع... كنت احسب انك قد لاحظت فجوة مضيئة وانك لا تستطيعين بعـــد ان تنزعي عنها نظرك .
— اني انظر الى الجميع على هذا النحو .
— نعم ، او من جانب : هكذا ...
ورماها بنظرة خفية سريعة.فضحكت ، وقد راقها ذلك وأغضبها .
— حسبك ! لا اريد ان يقلّدني أحد .
— ولكني لم أقصد الخبث .
— طبعاً ، غير اني أخاف حين تأخذ مني تعابيري .
قال ماتيو وهو يبتسم : — اني افهم ذلك .
— ليس هذا ما يبدو عليك انك تعتقده : فلو كنت اجمل انسان في الدنيا ، لما اختلف الأمر عندي .
قال ماتيو :
— اسمعي ، سأقصد صيدلية لآتيك بقرص . ولكني انتظر مخـــابرة تلفونية . فاذا طلبني أحد ، فستكونين لطيفـــة اذا قلت للخادم بأني

سأعود على التو ، فليطلبني مرة اخرى .

قالت ببرودة : — لا ، لا تذهب ، فاني اشكرك كثيراً ، ولا فائدة من ذلك . انها هذه الشمس .

وصمتا : ففكر ماتيو في لون من السرور المعذّب « انني أبغض نفسي » . وكانت ايفيش تملّس تنّورتها بباطن كفّيها وهي ترفع اصابعها قليلاً كما لو انها ستضرب اصابع البيانو . وكانت يداها ابداً محمرّتين ، لأن جريان دمها كان رديئاً ؛ وكانت تدعهما على العموم في الهواء وتحركهما لتجعلهما تصفرّان . ولم تكونا تفيدانها قط للأخذ ، وانما كانتا صنمين صغيرين خشنين في طرف ذراعيها ؛ وكانتا تلامسان الأشياء بحركات دقيقة غير ناجزة وتبدوان اقرب الى تسويتها منهما الى التقاطها . ونظر ماتيو الى أظافر ايفيش الطويلة المقرّنة ، المطليّة بصورة عنيفة ، التي تكاد تكون صينية : كان يكفي المرء ان يتأمل هذه الزينة المربكة الطريّة حتى يدرك ان ايفيش لم تكن تستطيع ان تصنع شيئاً بأصابعها . وقد سقط احد هذه الأظافر ، ذات يوم ، من تلقاء نفسه ، فكانت تحتفظ به في تابوت صغير ، وبين فترة واخرى ، كانت تتفحصه بمزيج من النفور واللذة . وقد سبق لماتيو ان رآه : كان محتفظاً بطلائه ، وكان يشبه جُعْلاً ميتاً . « انني اتساءل : ما الذي يشغلها ، انها لم تكن اكثر ازعاجاً مما هي الآن . لا بدّ ان السبب امتحاناتها ، الا ان تكون منزعجة معي : انني ، في آخر المطاف ، رجل كبير . »

وقالت ايفيش فجأة بلهجة محايدة :

— ان الامر ، بكل تأكيد ، لا يبدأ هكذا حين يصبح الانسان أعمى .

فقال ماتيو وهو يبتسم :

— لا ، بالتأكيد . انت تذكرين ما قاله لك الطبيب في « لاون » :

انت مصابة بطرف من التهاب الملتحمة .

وكان يتكلم بعذوبة ، وكان يبتسم بعذوبة ، وكان يشعر انه معلق بالعذوبة : كان ينبغي له وهو مع ايفيش ان يبتسم دائماً ، وان يأتي حركات عذبة وبطيئة . . كدانيال مع قططه .

وقالت ايفيش : — إن عينيّ تؤلمانني .. يكفي شيء تافه لذلك ... (وترددت) انني ... انني اشعر بالالم في اعماق عينيّ . في صميم اعماقها . الا يوجد هذا ايضاً في بدء ذلك الجنون الذي كنت تحدثني عنه ؟

فسألها ماتيو : — آه ! قصة ذلك اليوم ؟ اسمعي يا ايفيش : في المرة الاخيرة كانت القضية تتعلق بقلبك ، كنت تخافين من نوبة قلبية . فيا لك من شخص عجيب ! لكأنك بحاجة الى تعذيب نفسك ؛ ثم تصرحين فجأة ، في مرات اخرى ، انك رخيصة العود ، فيجب ان تختاري .

وكان صوته يخلّف لديه ، في اعماق فمه ، مذاق سكّر .

وكانت ايفيش تنظر عند قدميها نظرة غامضة .

— لا بد ان يحدث لي شيء .

فقال ماتيو : — اعرف ذلك . ان خط حياتك قد انكسر . ولكنك قلت لي انك لا تعتقدين ذلك حقاً .

— أجل لا اعتقد ذلك حقاً .. وهناك ايضاً اني لا استطيع ان اتصور مستقبلي . انه مسدود .

وصمتت فنظر اليها ماتيو في صمت . بلا مستقبل ... وفجأة احس في فمه بمذاق مرّ ، وشعر بانه كان متعلقاً بايفيش بكل قواه . كان صحيحاً انه لم يكن لها مستقبل : ايفيش في الثلاثين من عمرها ، ايفيش في الاربعين ، ان ذلك لم يكن ذا معنى . وفكر : انها غير قابلة للحياة . حين يكون ماتيو وحده ، او حين كان يتكلم مع دانيال ، مع مارسيل ، كانت حياته تنبسط امامه واضحة رتيبة : بضع نساء ، بضع رحلات ،

بضعة كتب . منحدر طويل كان ماتيو يهبطه على مهل ، بل كان يجد غالباً ان ذلك لم يكن يمضي بسرعة كافية . وفجأة ، حين يرى ايفيش ، كان يخيل اليه انه يعيش كارثة . كانت ايفيش عذاباً صغيراً شهوانياً وفاجعاً ليس له من غد : انها ستذهب ، ستصبح مجنونة . ستموت بنوبة قلبية ، او ان اهلها سيحجزونها في « لاون » . ولكن ماتيو لم يكن يطيق ان يعيش من دونها . وتحركت يده حركة حيية : لقد ودّ لو يأخذ ذراع ايفيش فوق المرفق ويضمها بكل قواه . « اني اكره ان يمسني احد » وسقطت يد ماتيو . وقال بسرعة :

— ان « بلوزتك » جميلة جداً يا ايفيش .

وكانت هذه غلطة : حنت ايفيش رأسها بتصلب وربتت على بلوزتها بهيئة ضيق . كانت تتلقى التهاني كأنها اهانات : وكان الامر كما لو ان صورة عنها كانت تُقدّ بضربات فأس ، صورة مشوهة وباهرة . كانت تخشى ان تؤخذ بها . كانت وحدها تستطيع ان تفكر بشخصها كما ينبغي . وكانت تفكر فيه بلا كلام ، وكان ذلك يقيناً صغيراً رقيقاً ، ملاطفة . ونظر ماتيو بذل الى كتفي ايفيش المزيلتين ، والى عنقها المستقيم المستدير . كانت غالباً ما تقول : « انني اشمئز من الاشخاص الذين لا يحسون اجسامهم . » وكان ماتيو يحس جسمه ، ولكنه يحسه على انه اقرب الى ان يكون حزمة كبيرة مربكة .

— اما زلت راغبة في رؤية صورة غوغان ؟

— اية صور ؟ آه ! المعرض الذي حدثتني عنه ؟ حسناً ، بوسعنا ان نذهب اليه .

— لا يبدو عليك انك راغبة في ذلك .

— بلى .

— ولكن يجب ان تقولي ، يا ايفيش ، اذا لم تكوني راغبة في ذلك .

— ولكن انت راغب في ذلك .

ـ انت تعلمين اني سبق ان ذهبت اليه . وانا راغب في ان اريك اياه اذا كان ذلك يسرك . ولكن اذا لم تكوني حريصة على ذلك ، فانه لا يهمني .

ـ في هذه الحالة ، افضل ان اذهب اليه في يوم آخر .

قال ماتيو خائب الظن : ـ ولكن المعرض ينتهي غداً .

فقالت ايفيش بلهجة رخوة :

ـ فليكن ، لا بد ان يعاد هذا المعرض .. هذه المعارض تعاد ، أليس كذلك ؟

قال ماتيو بعذوبة حانقة :

ـ ها أنت ذي يا ايفيش . قولي انك لست راغبة بعد في رؤية المعرض ، انك تعرفين انه لن يعاد قبل مضي وقت طويل .

فقالت بلطف : طيب ، لا اريد ان اذهب اليه ، لان ذلك الامتحان قد خلّف عندي الاشمئزاز . انه امرٌ جهنمي ان يحملونا على انتظار النتائج هذه الفترة الطويلة .

ـ أليس موعد اعلانها غداً ؟

ـ تماماً .

واضافت وهي تلامس بطرف اصبعها كمّ ماتيو :

ـ يجب الا تهتم بي اليوم ، فلست بعدُ انا . انني متوقفة على الآخرين ، وهذا مذلّ . ان في ذهني طوال الوقت صورة ورقة صغيرة بيضاء ملصقة على جدار رمادي . انهم يفرضون عليك ان تفكر بذلك . حين نهضت هذا الصباح ، احسست بأني اصبحت في الغد ؛ اما اليوم فهو يوم لا جدوى منه ، يوم محذوف . لقد سرقوه مني ، ولم يبق لي شيء يذكر .

واضافت بصوت منخفض سريع :

ـ لقد فوّتُ اعداد درس علم النبات .

فقال ماتيو : — فهمت .

وود لو يجد في ذكرياته ضيقاً يتيح له ان يفهم ضيق ايفيش ؛ ربما كان ذلك عشية امتحان « الاغريغاسيون » ... كلا ؛ ان الامر لم يكن مشابهاً في اي حال . لقد عاش تلك الحالة هادئاً آمناً بلا اخطار . اما الآن ، فقد كان يحس انه رخص العود ، وسط عالم مهدد ، ولكن ذلك كان "عبر" ايفيش .

قالت ايفيش :

— اذا نجحت في الامتحان التحريري ، فسأشرب قليلاً قبل ان اذهب الى الشفهي .

فلم يجب ماتيو : ورددت ايفيش :

— قليلاً جداً .

— لقد قلت ذلك في شباط ، قبل ان تذهبي لتأدية الامتحان الشفهي ، وكان الأمر في آخر المطاف انك شربت اربعة اقداح من الروم ، وكنت ثملة تماماً .

قالت بلهجة مزيفة : — الحق انني لن انجح في التحريري .

— هذا مفهوم ، ولكن لنفرض انك نجحت ؟

— لن اشرب عند ذاك .

ولم يلح ماتيو : كان على يقين من انها ستتقدم الى الامتحان الشفهي وهي ثملة : « ما كنت انا الذي افعل ذلك ، فقد كنت شديد الحذر . » وكان حانقاً على ايفيش ومشمئزاً من نفسه . واتى الخادم بقدح فملأه الى النصف بالنعنع الأخضر .

— سأعطيك في الحال دلو الثلج .

فقالت ايفيش : — شكراً .

وكانت تنظر الى القدح ، وكان ماتيو ينظر اليها . وكانت رغبة عنيفة غامضة قد غمرته : ان يكون ، لمدة لحظة ، هذا الوعي المهووس الممتلىء

يراحته بالذات ، ان يشعر من الداخل بهاتين الذراعين الطويلتين الدقيقتين ، ان يحس ، لدى الثنية ، بشرة الساعد تلتصق كالشفة ببشرة الذراع ، ان يحس هذا الجسم وجميع القبلات الصغيرة المتحفظة التي يمنحها لنفسه بلا انقطاع . ان اكون ايفيش دون ان اكفّ عن ان اكون انا .
واخذت ايفيش الدلو من يدي الخادم ، ووضعت مكعب ثلج في قدحها . وقالت :

ـ لم آخذه لأشرب ، وانما هو جميل المنظر .

وطرفت بعينيها قليلاً ثم ابتسمت بسمة طفولية .

ـ انه جميل .

ونظر ماتيو الى القدح بغيظ ، وجهد في مراقبة تحرك المائع تحركاً كثيفاً مرتبكاً ، وبياض قطعة الثلج المعكر . وعبثاً كان ذلك . كان القدح في نظر ايفيش شهوة صغيرة لزجة خضراء تدبقها حتى اطراف اصابعها ؛ واما في نظره ، فلم يكن شيئاً . بل كان اقل من لا شيء : قدحاً فيه نعنع . وكان بوسعه ان يفكر بما كانت تحسه ايفيش ، ولكنه لم يكن يشعر بشيء قط ؛ كانت الاشياء في نظرها ألواناً من الحضور الخانق الضالع في الذنب ، دوّامات واسعة تخترقها حتى اللحم ، ولكن ماتيو كان ينظر اليها دائماً عن بعد . ورمى اليها بنظرة وتنهد : لقد كان متأخراً ، على مألوف عادته ؛ ان ايفيش قد كفت عن النظر الى القدح ؛ وكانت تبدو حزينة ، وكانت تضغط بعصبية على احدى خصلات شعرها .

ـ اريد سيكارة .

وتناول ماتيو علبة « الغولد فلاك » من جيبه ؛ ومدها لها :

ـ سأشعلها لك .

ـ شكراً ، افضل ان اشعلها بنفسي .

وأشعلت السيكارة وسحبت منها بعض المجّات . وكانت قد أدنت

يدها من فمها واخذت تتسلى – بهوس – بأن تُركض الدخان في باطن كفّها . وأوضحت كأنما توضح لنفسها :

– اودّ لو كان الدخان كأنما يخرج من يدي . سيكون شيئاً ظريفاً : يد تنفث الضباب .

– إن هذا لا يمكن . فالدخان يسرع اكثر مما ينبغي .

– اعرف ذلك ، وهو ما يزعجني ، ولكني لا استطيع ان اكفّ ، اني احس نفَسي يدغدغ يدي ، وهو يمرّ في الوسط تماماً ، فكأنها مفصولة بجدار الى قسمين .

فضحكت ضحكة قصيرة وصمت ، وكانت ما برحت تنفخ على يدها مستاءة ، عنيدة . ثم ألقت بسيكارتها وهزّت رأسها ؛ وبلغت رائحة شعرها منخري ماتيو . وكانت رائحة حلوى وسكّر معطّر بالونيلة ، لأنها كانت تغسل شعرها بصفار البيض ؛ ولكن عطر هذه الحلوى كان يخلّف مذاقاً شهوانياً .

وأخذ ماتيو يفكر في سارة . وسألها :

– بمَ تفكرين يا ايفيش ؟

فلبثت لحظة فاغرة الفم ، مضطربة ، ثم استعادت هيأتها التأمليّة ، فانغلق وجهها من جديد واحس ماتيو بأنه متعبٌ من فرط النظر اليها ، وكان يشعر بالألم في زاوية عينيه . وكرّر سؤاله :

– بمَ تفكرين ؟

فانتفضت ايفيش – : إني ... إنك تسألني هذا السؤال طوال الوقت ، انا لا افكر بشيء محدّد . تلك هي امورٌ لا يمكن قولها ، فهي لا تتخذ شكلاً .

– ولكن مع ذلك ؟

– نعم ، كنت انظر مثلاً الى هذا الرجل القادم . ماذا يريدني أن اقول ؟ يجب ان اقول له إنه سمين ، وهو يمسح جبينه بمنديل ،

ويرتدي ربطة عنق جاهزة ... انه طريف ان تقسرني علـى ان اسرد ذلك (قالتها فجأة بخجل وغيظ) انه لا يستحق ان يُقال .

– بلى ، بالنسبة لي ، لو كان بوسعي ان اتمنّى شيئاً ، لتمنيت ان تكوني مضطرة الى التفكير بصوت عال .

وابتسمت ايفيش بالرغم منها وقالت :

– هذا اعتراف . إن الكلمة لم تُصنع لمثل هذا .

– هذا طريف ، فانت تكنّين للكلمة احتراماً يشبه احترام المتوحشين . فيبدو عليك الايمان بأنها لم تصنع إلا لاعلان الموتى والزيجات او للنطق بالقدّاس . والحق انك لم تكوني تنظرين الى الاشخاص ، يا ايفيش ؛ لقد رأيتك : كنت تنظرين الى يدك ، ثم نظرت الى قدمك . ثم اني اعرف بمَ تفكرين .

– ولماذا إذن تسألني عنه ؟ لا ينبغي للانسان ان يكون داهيـة ليحرره ، كنت افكر بذلك الامتحان .

– انت تخافين ان تسقطي ، أليس كذلك ؟

– طبعاً ، أخاف ان اسقط . او بالاحرى لا . لست خائفة . فأنا اعلم اني ساقطة .

واستشعر ماتيو في فه من جديد مذاق كارثة . اذا سقطت فلن أرلها بعد . وستكون ساقطة بالتأكيد : إن هذا امر بديهيّ .

وقالت ايفيش يائسة :

– انني لا اريد العودة الى « لاون » . فاذا عدت اليها وأنا ساقطة فلن اخرج منها ابداً . لقد قالوا لي إن هذه هي فرصتي الأخيرة .

وعادت تضغط خصلات شعرها . وقالت متردّدة :

– لو كانت لديّ شجاعة ...

فقال ماتيو قلقاً : ماذا كنت تفعلين ؟

– اي شيء . كل شيء ولا العودة الى هناك . إنني لا اريـد ان

اقضي حياتي هناك ، لا اريد .

ــ ولكن سبق ان قلت لي إن اباك ربما باع المنشر قبل عـــام او عامين ، وان الجميع سيأتون للاقامة في باريس .

قالت ايفيش وهي تدير اليه عينين تقدحان شرر الغضب :

ــ تطلبون مني مزيداً من الصبر ! هكذا انتم جميعاً . ووددت لو رأيتكم هناك ! عامان في ذلك الكهف ، أصبر عامين ؟! الا يمكنك ان تضع في رأسك انهم انما يسرقون مني عامين ؟

واضافت بغضب :

ــ ليست لي الا حياة واحدة . ان من يسمعك تتكلم على هذا النحو يظن انك تعتقد نفسك خالداً . ان عاماً ، في نظرك ، يمكن ان يعوّض ! (وطفرت الى عينيها الدموع) ليس صحيحاً ان هـذا يعوّض .. إن شبابي هو الذي يفرّ هناك قطرة قطرة . اني اريد ان اعيش عـــلى التو ، فأنا لم ابدأ وليس لي وقت للانتظار ؛ لقد بدأت اشيخ ، فانا في الحادية والعشرين .

قال ماتيو : ــ ارجوك يا ايفيش ، انك تخيفينني . حـــاولي مرة واحدة على الاقل ان توضحي لي كيف نجحت في اعمالك التطبيقيـــة . انت تارة مسرورة وتارة يائسة .

فقالت ايفيش بلهجة كئيبة : ــ لقد سقطت في كل شيء .

ــ كنت اظنّ انك نجحت في الفيزياء .

فقالت ايفيش بسخرية :

ــ ماذا تقول ! ثم ان الكيمياء كانت تدعو الى الرثـــاء . انني لا استطيع ان أحشو رأسي بمقادير الجرعات ... فما أقسى ذلك !

ــ ولكن لماذا اخترت ذلك ؟

ــ ماذا ؟

ــ الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة .

فقالت بلهجة متوحشة :

— كان لا بد من الخروج من « لاون » .

فأتى ماتيو بحركة عجز ؛ وصمتا . وخرجت امرأة من المقهى ومرّت مستمهلة أمامها . وكانت جميلة ، ذات انف صغير جداً في وجه املس ، وكان يبدو عليها انها تبحث عن انسان . وبلغ عطرها أنف ايفيش : فرفعت رأسها الكئيب على هينة ثم رأتها فتغيرت سحنتها .

وقالت بصوت منخفض عميق : — يا للمخلوقة الرائعة !

فنفر ماتيو من هذا الصوت .

وجمدت المرأة وهي تطرف بعينيها للشمس ؛ وكان عمرها يقدّر بالخامسة والثلاثين ، وكانت ساقاها الطويلتان يشف عنها نسيج ثوبها الخفيف ؛ ولكن ماتيو لم يكن راغباً في رؤيتها ، وانما كان ينظر الى ايفيش . وكانت ايفيش قد اصبحت قبيحة تقريباً ، وكانت تضغط بقوة يديها فيما بينها . لقد قالت لماتيو ذات يوم : « ان الأنوف الصغيرة ترغّبني في عضّها . » وانحنى ماتيو قليلاً فرأى ثلاثة ارباع وجهها ؛ وكانت تبدو مستنيمة قاسية ، ففكر بأنها كانت راغبة في ان تعضّ .

وقال ماتيو بعذوبة : — ايفيش .

فلم تجب ، وكان ماتيو يعلم انها لا تستطيع ان تجيب : فهو لم يكن موجوداً بعد في نظرها ، وكانت وحيدة .

— ايفيش !

في مثل هذه اللحظات كان يشعر بأنه اشد تعلقاً بها ، حين تسكن جسمها الصغير اللذيذ الذي يكاد يتصنّع اللطافة قوةٌ أليمة ، حبٌ للجمال ملتهب معتكر ، فاقد الرونق . وفكر : لست جميلاً ؛ وأحس بدوره انه وحيد .

وذهبت المرأة . وتبعتها ايفيش بعينيها وتمتمت بسورة من الغضب :

ــ هناك لحظات اودّ فيها لو كنت رجلاً .

وندّت عنها ضحكة صغيرة جافة ، ونظر اليها ماتيو بحزن . وصاح الخادم :

ــ السيد دولارو مطلوب على التلفون .

فقال ماتيو : ــ هأنذا .

ونهض :

ــ اعذريني . انها ساره غوميز .

فابتسمت له ايفيش ببرودة ؛ ودخل المقهى وهبط الدرج .

ــ السيد دولارو ؟ الحجرة الاولى .

وتناول ماتيو السمّاعة ، ولم يكن باب الحجرة ينغلق .

ــ آلو ، ساره ؟

فقال صوت ساره المغنّ :

ــ مرحباً مرة اخرى . لقد سُوّي الأمر .

ــ آه ، انني مسرور .

ــ ولكن يجب ان تعجّل : انه مسافر يوم الأحد الى الولايات المتحدة . وهو يريد ان يُجري ذلك بعد غدٍ على الأبعد ؛ ليكون لديه الوقت لمراقبتها قليلاً في الأيام الاولى .

ــ حسناً ... إذن سأخبر مارسيل هذا اليوم بالذات . غير انه يفاجئني بعض الشيء ، فيجب ان اجد المال . كم هو يريد ؟

فقال صوت ساره :

ــ آه ! انني متأسفة . هو يريد أربعة آلاف نقداً . واقسم لك انني ألححت ، وقلت انك كنت متضايقاً ، ولكنه لم يرد ان يعرف شيئاً .

وأضافت وهي تضحك : ــ انه يهودي قذر !

وكانت ساره تفيض شفقة مكتومة ، ولكنها حين تبادر الى تأدية

خدمة ما ، تصبح متوحشة ومنشغلة كأخت من اخوات الإحسان . وكان ماتيو قد أبعد السمّاعة قليلاً ، وكان يفكر : اربعة آلاف فرنك ، ثم يسمع ضحكة ساره تفرقع على القطعة الصغيرة السوداء ؛ لقد كان ذلك كابوساً .

– من هنا الى يومين ؟ حسنـــاً ... سوف .. سوف اتدبّر الأمر ، شكراً يا ساره ، إنك جوهرة . هل ستكونين في البيت هذا المساء ، قبل العشاء ؟

– طوال النهار .

– حسناً . سأمرّ . هنالك شؤون اخرى يجب تسويتها .

– الى هذا المساء .

وخرج ماتيو من الحجرة .

– اريد قسيمة للتلفون يا آنسة . اوه ! ولكن لا ، لا حاجة بي الى ذلك .

ورمى عشرين فلساً في صحن ، ورقي الدرج على مهل . لم تكن به حاجة الى الاتصـــال بمارسيل قبل ان يسوّي قضية المال هـــذه . « سأذهب ظهراً للقاء دانيال » وعاد يجلس بالقرب من ايفيش ، ونظر اليها بلا حنان . وقالت بلطف :

– لقد ذهب عني الصداع .

فقال ماتيو : – انني مسرور بذلك .

وكان قلبه مليئاً بالسخام .

ونظرت اليه ايفيش من جانب ، عبر اهدابهـا الطويلة . وابتسمت بسمة مختلطة ملاطفة .

– بوسعنا .. بوسعنا مع ذلك ان نذهب لرؤية معرض غوغان .

فقال ماتيو بلا اندهاش : – كما تشائين .

ونهضا ، ولاحظ ماتيو ان قدح ايفيش كان فارغاً . وصاح :

— تاكسي .

قالت ايفيش : — ليس هذا التاكسي .. انه مكشوف وسيكون الهواء في وجهينا .

فقال ماتيو للسائق : — لا ، لا ، تابـع سيرك ، فاني لم اكن اناديك انت .

وقالت ايفيش : — اوقف هذا التاكسي ، انظر ما اجمله ! لكأنه عربة القربان المقدس ! ثم انه مغلق .

وتوقف التاكسي فصعدت ايفيش . وفكر ماتيو : « سوف اطلب الف فرنك زيادة من دانيال ما دمت سأستدين منه ، ان ذلك يتيح لي الانفاق حتى آخر الشهر . »

— غاليري ديبوزار ، شارع سانت اونوريه .

وجلس صامتاً بالقرب من ايفيش . وكانا منزعجين ، كلاهمـا . ورأى ماتيو ، بين قدميه ، ثلاث سكاير محترقة الى النصف ، ذاتـه اطراف مذهّبة .

— كان في هذا التاكسي من كان ثائر الاعصاب .

— ولماذا ؟

فأراها ماتيو السكاير . وقالت ايفيش :

— انها امرأة . فهناك آثار حُمرة .

فابتسما وصمتا ، وقال ماتيو :

— ذات مرة ، وجدت في تاكسي مئة فرنك .

— ولا بد انك سررت بذلك .

— اوه ! ارجعتها الى السائق .

قالت ايفيش : — عجباً ! لو كنت انا ، لاحتفظت بها . فلماذا فعلت ذلك ؟

فقال ماتيو : — لا ادري .

وعبر التاكسي ساحة سان ميشال ، وكان ماتيو يقول : « انظري ما اشد اخضرار السين » ولكنه لم يقل شيئاً . وقالت ايفيش فجأة :

– كان بوريس يفكر باننا سنذهب ثلاثتنا هذا المساء الى « سومطرا » ؛ اود لو ...

وكانت قد لفتت رأسها ، وكانت تنظر الى شعر ماتيو وهي تمد فيها بصورة رقيقة . ولم تكن ايفيش متدللة بالذات ، ولكنها كانت تتخذ بين الفينة والفينة هيئة حنان رغبة منها بان تحس وجهها ثقيلاً عذباً كالثمرة . وحكم ماتيو عليها بأنها مزعجة وغير لائقة . وقال :

– يسرني ان ارى بوريس وان اكون معك ، غير ان ما يزعجني قليلاً هو وجود لولا كما تعلمين . انها لا تستطيع ان تهضمني .

– وماذا في ذلك ؟

وساد صمت ، كأنهما قد تمثلا في وقت واحد انهما كانا رجلاً وامرأة ، مسجونين معاً في تاكسي . وقال لنفسه بانزعاج « ينبغي الا يكون ذلك . » واستطردت ايفيش :

– لا ارى ان لولا تستحق ان يُهتم بها . انها جميلة وهي تغني جيداً ، وهذا كل ما في الامر .

– انني اجدها قريبة للنفس .

– طبعاً . ان هذه هي اخلاقيتك . انت تريد دائماً ان تكون كاملاً . فما ان يزدريك الناس حتى تجهد لاكتشاف مزايا لديهم . (واضافت) انني لا اجدها قريبة للنفس .

– ولكنها لطيفة معك .

– لا يسعها ان تكون غير ذلك ، ولكني لا احبها ، فهي تمثل .

فرفع ماتيو حاجبيه وقال : – تمثل ؟ ان هذا هو آخر شيء آخذه عليها .

– من الغريب انك لم تلاحظ ذلك : انها تطلق تنهدات اكبر منها

ليظن الناس انها يائسة . ثم تطلب لنفسها الطعام الدسم .

واضافت بخبث خفي :

— لقد كنت اظن ان اليائسين لا يبالون كثيراً بان يموتوا : ويدهشني دائماً ان اراها تحسب نفقاتها فلساً فلساً وتوفر المال .

— ان هذا لا يمنع ان تكون يائسة . فكذلك يفعل البشر الذين يشيخون : حين يشمئزون من انفسهم ومن حياتهم ، يفكرون بالمال ويعنون بانفسهم .

فقالت ايفيش بجفاف :

— اذن ، ينبغي الا يشيخ المرء ابداً .

فنظر اليها نظرة ضيق وسارع يضيف :

— انت على حق ، فليس جميلاً ان يشيخ المرء .

قالت ايفيش : — اما انت ، فليست لك سن ، وخيّل الي انك كنت دائماً كما كنت ؛ انك تتمتع بشباب الجماد . واحاول احياناً ان اتصور كيف كنت في طفولتك ، ولكن يعجزني ذلك .

فقال ماتيو : — كانت لي خصلات شعر .

— اما انا ، فأتصور انك كنت كما انت اليوم ، اقصر قليلاً .

ولا بد ان ايفيش لم تعرف هذه المرة أنها كانت تبدو رقيقة . وشاء ماتيو ان يتكلم ولكن كان في حنجرته لون غريب من الدغدغة ، وكان خارج نفسه . كان قد خلّف وراءه مارسيل وساره وممرات مستشفى لا تنتهي كان يعبرها منذ الصباح ، لقد كفّ عن ان يكون في اي مكان ، وكان يشعر بانه حر ؛ وكان هذا النهار الصيفي يلامسه بكتلته الكثيفة الحارة ، وكانت به رغبة لان يستسلم له بكل ثقله . وخيّل اليه لحظة اخرى انه كان معلقاً في الفراغ ، مع احساس بالحرية لا يحتمل ، ثم مد ذراعه فجأة ، فأخذ ايفيش من كتفيها وجذبها اليـــه . وتركته ايفيش يفعل وهي متصلبة ، كتلة واحدة ، كما لو انها كانت تفقـــد

توازنها . ولم تقل شيئاً ، وكان يبدو عليها مظهر الحياد .

وكان التاكسي قد سلك شارع ريفولي ، وكانت قناطر اللوفر تتطاير ثقيلةً عبر الزجاج ، كأنها حمامات كبيرة . وكان الطقس حاراً ، وكان ماتيو يحس جسماً حاراً في جنبه ؛ وعبر المرآة الأمامية كان يرى أشجاراً وعلماً مثلث الألوان في رأس صار . وتذكر حركة رجل رآه مرة في شارع « موفتار » . رجل انيق المظهر ، ذي وجه رمادي ، وكان قد اقترب من مقلاة في الطريق ، فنظر طويلاً الى قطعـــة من لحم بارد موضوعة في صحن ، حيث تعرض المآكل ، ثم مد يده وتناول قطعة اللحم ؛ وكان يبدو عليه انه يجد ذلك في غاية البساطة ، فلا بـد انه كان يشعر بأنه هو أيضاً حر . وقد صاح البائع ، فاستاق شرطيٌ ذلك الرجل الذي كان يبدو مندهشاً . وظلت ايفيش على صمتها .

وفكر ماتيو بغيظ « انها تدينني » .

وانحنى ؛ ولكي يعاقبها ، لامس بطرف شفتيه فماً بارداً ومغلقاً ؛ وكان مصدوماً . وظلت ايفيش صامتة . وحين رفع رأسه رأى عينيها فتلاشت فرحته الطاغية . وفكر : « رجل متزوج يداعب فتاة في تاكسي » وسقطت ذراعه ، ميتةً ، متزغبرة . وانتصب جسم ايفيش في نوسان آلي كرقاص أُبعد عن موضع توازنه . وقال ماتيو في نفسه : « انتهى الامر . ولا مجال بعد لإصلاحه » . وكان يكوِّر ظهره ، وكان يود لو يذوب . ورفع شرطيٌ عصاه ، فتوقف التاكسي . وكان ماتيو ينظر امامه باستقامة ، ولكنه لم يكن يرى الشجر ؛ كان ينظر الى حبه .

كان ذلك حباً . انه الآن حب . وفكر ماتيو : « ماذا فعلت ؟ » لخمس دقائق خلت ، لم يكن ذلك الحب موجوداً ؛ كان بينهما عاطفة نادرة وثمينة ، لم يكن لها اسم ، ولم تكن تستطيع ان تعبِّر عن نفسها بالحركات . وهو قد قام بحركة ، الحركة الوحيدة التي ما كان ينبغي له ان يقوم بها — والحق انه لم يتقصّدها ، وانما جاءت من تلقاء نفسها :

حركة ظهر هذا الحب بعدها امام ماتيو، كشيء ضخم مزعج ومبتذل . ستفكر ايفيش بعد الآن بأنه كان يحبها ، وستفكر : انه كالآخرين ؛ بعد الآن سيحب ماتيو ايفيش، كسائر النساء اللواتي احبهن . « ما الذي تفكر به ؟ » كانت جالسة الى جانبه متصلبة صامتة ، وكانت هذه الحركة بينهما ، انني اكره ان يمسني احد، هذه الحركة الخرقاء الرقيقة ، التي كانت قد اكتسبت عناد الاشياء الماضية ، ذلك العناد الذي لا يلمس . « انها تغلي غضباً، انها تحتقرني ، انها تفكر بأني كالآخرين . » وفكر بيأس : ليس هذا ما كنت ابغيه منها . ولكنه لم ينجح في ان يتذكر ما الذي كان يريده قبلاً . كان الحب هناك ، صادقاً مخاصاً ، برغباته البسيطة ومسالكه المبتذلة ، وكان ماتيو هو الذي ولّده حراً كل الحرية . وفكر بقوة : « ليس هذا صحيحاً ، فأنا لا اشتهيها ، ولم اشتهها قط . » ولكنه كان مدركاً انه سيشتهيها ، فأن الامور كلها تنتهي هناك . سوف انظر الى ساقيها والى صدرها، ثم .. ذات يوم ... ورأى فجأة مارسيل متمددة على السرير ، عارية كلها، مغمضة العينين : كان يكره مارسيل .

وكان التاكسي قد توقف ، وفتحت ايفيش الباب وهبطت الى الأرض . ولم يتبعها ماتيو على التو : كان يتأمل بعين صريحة هذا الحب الجديد كل الجدة ، والقديم مع ذلك ، هذا الحب لدى رجل متزوج، خجول ومداور ، هذا الحب المذل لها ، الذليل مسبقاً ، وكان يتقبّله كأنه قدر . وهبط اخيراً ، فدفع ولحق بايفيش التي كانت تنتظره تحت الباب الكبير . « ليتها تستطيع ان تنسى . » ورمى اليها بنظرة عجلى فألفى القسوة على وجهها . وفكر : « اذا وضعنا الأمور في افضل مواضعها نرى ان شيئاً ما قد انتهى بيننا . » ولكن لم تكن لديه رغبة بالامتناع عن حبها . ودخلا المعرض من غير ان يتبادلا كلمة .

٥

« الملاك الأعظم ! » تثاءبت مارسيل ، واستوت قليلاً ، ونفضت رأسها ، وكانت اول فكرة لها : « إن الملاك الأعظم يأتي هـذا المساء . » وكانت تحب زياراته العجيبة ، ولكنها كانت ذلك اليوم ، تفكر بها من غير سرور . كان في الجوّ حولها هولٌ ثابت ، هـولٌ ظُهريٌّ : وكانت حرارة متدرّجة تملأ الغرفة ، وكانت قد قـامت بمهمتها في الخارج ، وخلّفت إشراقها في ثنايا الستار وأسنّت هناك ، جامدة كئيبة كأنها قدر . « لو كان يدري ، ما أشدّ نقاوته ، انني سوف أنفّره . » وكانت قد جلست على حافة السرير ، كالليلة البارحة ، حين كان ماتيو عارياً ازاءها ، وكانت تنظر الى أصابع رجليه باشمئزاز ضجر ، وكانت عشية الامس ما تزال هنا ، دقيقة جداً ، بنورهـا الوردي الميت ، كأنها رائحة قد بردت « لم استطـع ... لم استطع ان اقول له . » وكان يمكن ان يقول : « حسناً ! ستدبّر الأمر ! » بلهجة حيّة مرحة ، وكأنه يلتهم عقاراً . وكانت تعلم انها ما كان لها ان تحتمل هـذا الوجه ؛ وقد بقي ذلك في حنجرتهـا . وفكرت : « الظهر ! » وكان السقف رمادياً كالفجر الكاذب ، ولكن الحرارة كانت حرارة ظهرية . وكانت مارسيل تنام متأخرة ولا تعرف بعـدُ

الأصباح ، وكان يخيّل اليها احياناً أن حياتها قد توقفت ذات يوم ظهراً، وانها كانت ظهراً ابدياً مسترخياً على الأشياء ، ممطراً ، وبـــلا أمل ، وغير مجد الى حد بعيد . وفي الخارج ، كان النهار المشرق ،والتبرج المنبسط . كان مـــاتيو يسير في الخارج ، في النثار الحيّ المرح لذلك النهار المبتديء بدونهـــا ، والذي كان قد أصبح له ماض . وفكّرت بغير شعور صداقة : « إنه يفكّر بي . انه ينشغل » وكانت منزعجة لأنها كانت تتخيل تلك الشفقة القويـــة تحت الشمس المشرقة ، شفقة الانسان السليم المنهمكـــة المرتبكة . كـــانت تحسّ انها بطيئة لزجة ، ما تزال ملطّخة بآثار النوم ، كانت على رأسها تلك القبعة النحاسية ، وفي فمها مذاق نشّافة ، وفي جانبها ذلك الدفء ، وتحت ذراعيها ، في رأس الشعيرات السود ، تلك الجواهر من البرد . وكانت بهـــا رغبة للتقيّؤ ، ولكنها كانت تتماسك : إن نهارها لم يبدأ بعد ، إنـــه هناك ، رابضٌ تجاه مارسيل ، في توان غير مستقرّ ، وإن اية حركة ستجعله ينهار كما يتهافت الثلج . وأخذتها ضحكة قاسية : « حريته !» حين يستيقظ المرء في الصباح ، معتكر القلب ، وامامـــه خمس عشرة ساعة يقتلها قبل ان يتمكن من العودة الى النوم ، فماذا يجديه ان يكون حراً ؟ « إن الحرية لا تعين المرء على الحياة » وكانت ريشات صغيرة دقيقة مطليةٌ بالمقر تداعب أعماق حنجرتها ، ثم إن نفوراً من كل شيء تجمّع كتلة على لسانها ، كان يشدّ شفتيها الى خلف. « انني محظوظة، فيبدو ان هناك نساء يتقيّأن طوال النهار ، في الشهر الثاني ؛ اما انا ، فأقيء قليـــلاً في الصباح ، وأجدني بعد الظهر متعبة ، ولكني أظل صامدة ؛ وقـــد عرفت امي نساء لم يكن يطقن رائحة التبغ ، وليس ينقصني بعد غير هذا . » ونهضت فجأة وهرعت الى المغسلة ، فقاءت ماء مزبداً عكراً يشبه بياض بيضة مخفوقة قليلاً . وتشبثت مارسيل بطرف المغسلة الخزفية ونظرت الى المائع المنتفخ بالهواء : انه في نهاية المطاف

يشبه المني . وراودتها بسمة صفراء وتمتمت « ذكرى حب » . ثم ساد صمت معدنيّ كبـــير في رأسها وابتدأ نهارها . ولم تكن تفكر بعد في شيء ، فأمرّت يدها في شعرها ، وانتظرت : « انني في الصباح اقيء دائماً مرتين » ثم تمثّلت فجأة وجه ماتيو ، وهيئته الساذجة المقتنعة حين قال : هل نجهضه ؟ واخترقها برقٌ من الحقد .

واقترب القيء . وفكرت اولاً بالزبدة فأخذها الاشمئزاز ، وكان يخيّل اليها انها تمضغ قطعة من الزبدة صفراء ونامسة ، ثم أحسّت بما يشبه ضحكة كبيرة داخل حنجرتها . فانحنت فوق المغسلة . وكان خيط طويل يتدلى من شفتيها ، وكان لا بدّ لها من ان تسعل لتتخلص منه. ولم يكن ذلك ينفّرها . ومع هذا ، فقد كانت سريعة في النفــور من نفسها : فحين اصيبت في الشتاء الماضي بالإسهال ، لم تكـــن تريد ان يمسّها ماتيو بعـــد ، وكان يخيّل اليها طوال الوقت انها كانت ذات رائحة . ونظرت الى البلغم الذي كان يتسرب على مهل الى ثقب التفريغ ، تاركاً آثاراً ملتمعة لزجة كأنهـــا البزّاق . وقالت بصوت منخفض : « طريف ! طريف ! » ولم يكن ذلك ينفّرها : لقد كان هذا من الحياة ، كتبرعمات الربيع اللزجة ؛ لم يكن ذلك ابعث على النفور من النسغ الأحمر الزكيّ الذي يطلي البراعم . « ليس هذا ما ينفر » وأجرت قليلاً من المـــاء لتنظيف الطست ، ونزعت قميصها بحركات رخوة . وفكرت : « لو كنت حيـــواناً لتركوني وشأني » وكان بوسعها ان تستسلم لهذا الاسترخاء الحيّ ، وأن تستحمّ فيه كما لو انها وسط تعب كبير سعيد . انها لم تكن حيواناً . « هل نجهضه ؟ » انها تشعر ، منذ عشية الأمس ، بأنها كانت مطاردة .

وكانت المرآة تعكس صورتها محاطةً باشعاعات رصاصية . واقتربت منها ، ولم تنظر الى كتفيها ولا الى نهديها . انها لم تكن تحب جسمها . ونظرت الى بطنهـــا ، والى حوضها الواسع الخصيب . لسبع سنوات

خلت ، ذات صباح – وكان ماتيو قد قضى الليل معها ، وكانت هي المرة الاولى – كانت قد اقتربت من المرآة بهذا الاندهاش المتردد نفسه، وكانت آنذاك تفكر : « صحيح اذن ان بوسع المـرء ان يحب ! » وكانت تتأمل بشرتها الملساء الحريرية ، كأنما هي قطعة نسيج، ولم يكن جسمها الا سطحـاً مجعولاً ليعكس العاب النور العميقة وليتغضّن تحت الملامسات، كالماء تحت الريح. انها لم تكن اليوم تلك البشرة نفسها : كانت تنظر الى بطنها فتجد إزاء غزارة هذه البراري الغذائية الهادئـة إحساساً سبق ان راودها اذ كانت صغيرة وهي ترى اثداء النساء اللواتي كنّ يرضعن اولادهن في حديقـة اللكسمبورغ : فقد كان وراء الخوف والاشمئزاز ، نوع من الأمل . وفكرت : « انه هنا » في هذا البطن كانت حبة فريز دموية صغيرة تعجّل لتحيا ، في سرعة بريئة ، حبـة فريز دموية بليدة كل البلادة لم تبلغ بعد ان تكون حيواناً،وسيسقطونها بطرف سكين . « هناك اخريات ، في هذه الساعة ، ينظرن الى بطونهن ويفكرن ايضاً : انه هنا . ولكن هؤلاء فخورات . » وهزت كتفيها : اجل ، انه مجعول للامومة ، هذا الجسم الذي كان يتفتح بكيفية غـير معقولة . ولكن الرجال قد قرروا في ذلك شأناً آخر . سوف تقصـد تلك العجوز : لم يكن لها الا ان تتخيل انه ورمٌ ليفي . « والحق انه في هذه الساعة ليس الا ورماً ليفياً » ستقصد العجوز ، وسترفع ساقيها في الهواء وسوف تحك العجوز بآلتها ما بين فخذيها . ثم يكف الحديث عن ذلك الى الابد . ولا يكون بعد الا ذكرى مقيتة يملك جميع الناس أمثالها في الحياة . وستعود الى غرفتها الوردية ، وستستأنف القراءة ، والتألم في الاحشاء ، ويستمر ماتيو في رؤيتها اربع ليالٍ في الاسبوع، وسيعاملها فترة اخرى بلطف ورقة ، كأم صغيرة ، وحين يضاجعهـا يضاعف احتياطاته ، وسوف يأتي ايضاً دانيال ، دانيال الملاك الاعظم، بين فترة واخرى... ماذا ! انها فرصة قد فاتت ... وفاجأت عينيهـا

في المرآة ، وانفتلت بحيوية : انها لم تكن تريد ان تكـــره ماتيو . وفكرت : « لقد آن لي ان أبدأ زينتي » .

ولكنها لم تكن تملك الصبر على ذلك . فعادت تجلس على السرير ، ووضعت يدها بعذوبة على بطنها،فوق الشعيرات السود تماماً ، وضغطت قليلاً ، لا اكثر مما ينبغي ، وفكرت بشيء من الحنان : « انه هنا » ولكن الكره لم يكن لينهزم . وقالت لنفسها في حرص : «لا اريد ان اكرهه . انه على حق . فلقد تعاهدنا انه في حال حدوث ... ولم يكن يستطيع هو ان يعرف . انها غلطتي ،فأنا لم اقل له شيئاً قط » وحسبت ذات لحظة ان نفسها ستنفرج ، فهي لم تكن تخشى شيئاً كأن تحتقره . ولكنها ما لبثت ان انتفضت : « وكيف كان لي ان اخبره ؟ انه لا يسألني عن شيء ابداً . » طبعاً:لقد تعاهدا مرةً والى الأبد ان يتكاشفا كل شيء . ولكن هذا كان مناسباً له خصوصاً . كان يحب خاصةً ان يتحدث عن نفسه ، ان يعرض حالاته الضميرية الصغيرة ، ودقائقه الاخلاقية . اما مارسيل فقد كانت تثق به : بدافع الكسل . ولم يكن يتبرم من اجلها ، وكان يفكر : لو كانت تشكو شيئاً لأنبأتـني . » ولكنها لم تكن تستطيع ان تتكلم : ان ذلك لم يكن يخـــرج من فمها . « يجب ان يعرف مع ذلك ، انني لا استطيع ان اتحدث عن نفسي ، فأنا لا احب نفسي بما فيه الكفاية لأتحدث عن نفسي . » الا مع دانيال، فقد كان دانيال يعـــرف كيف يحملها على الاهتمام بنفسها : فما كان الطف طريقته في سؤالها ، وفي النظر اليها بعينيها الجميلتين المداعبتين ، ثم انه كان بينهما سر . فما كان اعجب دانيال : كان يراها بالخفية ، وكان ماتيو يجهل كل شيء عن علاقتهما؛ولم يكونا يفعلان شيئاً ضاراً ، بل كان ما بينهما شبه لعبة ، ولكن هذا الضلوع كان يخلق بينهما صلة لذيذة وخفية؛ثم ان مارسيل لم يكن ليؤذيها ان يكون لها شيء من الحياة الشخصية ، شيء يكون حقاً ملكها ، ولا تكون مضطرة الى مشاركة

احد فيه . وفكرت : « ليس له الا ان يفعل كدانيال . لماذا لا يكون هناك احد غير دانيال يستطيع ان يحملني على الكـلام ؟ ليته ساعدني قليلاً ... » لقد احست طوال نهار امس بانقباض في حلقها ، وكانت تود لو تقول له : « وماذا لو احتفظنا به ؟ » آه ! ليته تردد ، ولو لحظة ، اذن لقلت له ذلك . ولكنه جاء،واتخذ مظهره الساذج : « ألا نجهضه ؟ » ولم يستطع ذلك ان يخرج من فمها . « كان قلقاً حين خرج : انه لم يكن يريد ان تهدمني تلك المرأة . هذا صحيح : سوف يبحث عن عناوين،وسيشغله ذلك ، الآن وقد انتهت اعماله التدريسية ، وهذا خير له من ان يتسكع مع تلك الصغيرة . ثم انه قد ارتبك كمن كسر اناءً من فخار . ولكن ضميره ، في صميمه،مرتاح كل الراحة ... ولا بد انه عاهد نفسه على ان يملأني حباً . » وضحكت ضحكة قصيرة: « لا بأس . غـير ان عليـه ان يعجل : فعـما قليل سأتجاوز سن الحب . »

وشنجت يديها على القماش،وكانت مذعورة : « اذا بدأت احتقره ، فماذا يبقى لي ؟ » ولكن ، هل كانت تعلم ان كانت تريد طفلاً ؟ كانت ترى من بعيد ، عبر المرآة،كتلة مظلمة متراخية بعض الشيء : وكان ذلك جسمها ، جسم السلطانة العقيم . « ولكن أتراه كان حقاً سيعيش ؟ انني متهرئة . » سوف تقصد هذه العجوز ، متخفيـة في الليل . وستمر العجوز يدها في شعرها، كما أمرتها في شعر «اندريه» ، وتناديها بلهجة ضلوع قذرة : يا قطتي الصغيرة : « حـين لا تكون المرأة متزوجة ، فأن حبلها مربك كالسيلان . انـني مصابة بمرض جنسي . هذا ما ينبغي ان اقوله لنفسي . »

ولكنها لم تستطع الامتناع عن ان تمر يدها متمهلة على بطنها . وفكرت: انه هنا . هنا . شيء حي قليل الحظ مثلها . حياة نافلة ، ولا معقولة، كحياتها ... وفكرت فجأة في هوس : « مهما يكن، فأنه كان سيكون

لي ، حتى ولو كان ابله ، ولو كان مشوهاً ، كـــان سيكون لي »
ولكن هذه الرغبة الخفية ، وهذا القسم الغامض ، كانا من التوحّـــد
وطاقـــة الكتمان ، وكان ينبغي اخفاؤهما على كثير من النساء ، بحيث
أحستّ فجأة بأنها مذنبة ، وشعرت بالاشمئزاز من نفسها .

٦

كانت تُرى اولاً فوق الباب لافتة « ج . ف » والاعــلام المثلثة الألوان : وكان هذا ينبيء فوراً بالموضوع . ثم كان المرء يلج الصالونات الكبيرة الخالية ، ويغرق في نور اكاديمي كان يسقط من شبّاك قد زال صقله : وكان ذلك يدخل عينيك مذهّبــاً ، ثم يأخذ في الذوبان ، ويصبح رمادياً . جدران مشرقة ، وبُسُط من المخمل البيــج . وفكر ماتيو : « الروح الفرنسية . » حمّام من الروح الفرنسية . وكان هناك مثله في كل مكــان ، على شعر ايفيش ، وعلى يدي ماتيو : كانت تلك الشمس المنقّاة وصمت هــذه الصالونات الرسمي ؛ وأحس مــاتيو بأنه مرهق بغمامة من التبعات المدنية : كان ينبغي ان يتحدث المرء بصوت منخفض ، وألاّ يمس الأشياء المعروضة ، وان يمارس باعتدال ، ولكن بحزم ، حسّه النقدي ، وألا ينسى في اي حال اوفر للفضائل «فرنسية» : الانسجام . وبعد هذا ، طبيعي ان يكون على الجدران لطخات ، هي اللوحات ، ولكن ماتيو كان قد فقد كل رغبة في النظر اليها . ومع ذلك ، فقد اقتاد ايفيش ، وأراها ، من غير ان يتكلم ، منظراً من مناظر « بريتاني » مع تل نصب عليه صليب ، ومسيحاً على صليب ، وباقة ، وامرأتين من تاهيتي راكعتين على الرمل ، وجماعة من الفرسان

الماوريس . ولم تكن ايفيش تقول شيئاً، وكان ماتيو يتساءل عما عساها تفكر به . وكان يحاول احياناً ان ينظر الى اللوحات ، ولكن ذلك لم يكن ينتج شيئاً . وفكر بانزعاج : « اللوحات امرٌ لا يأخذك ، انها تعرض نفسها ؛ ووجودها او عدم وجودها متوقف عليّ ، فأنا حرٌ ازاءها . » حرٌ اكثر مما ينبغي : لقــد كان ذلك يخلق له حريةً اضافية ، وكان يحس نفسه في الزيف . وقال :

ـ هذا هو غوغان .

وكانت لوحةٌ صغيرة مربعة وعليها عنوان « صورة الفنان،بريشته » غوغان ممتقع مسرّح ، ذو ذقن ضخم ، وهيئة ذكاء مبتذل وعبوس صبيّ . ولم تجب ايفيش فرمى ماتيو اليها نظرة خفية : فــلم ير إلا شعرها الذي كان بريق النهار الكاذب قد اذهب لمعانه الذهبي . وكان ماتيو ، حين نظر الى هذه الصورة للمرة الاولى في الاسبوع السابق ، قد وجدها جميلة . اما الآن ، فهو يستشعر الجفاف . والحق انه لم يكن يرى اللوحة : فقد كان ماتيو ممتلئاً حتى درجة الإشباع بالواقع والحقيقة ، مرتعد الفرائص بروح الجمهورية الثالثــة ؛ وكل ما كان واقعياً ، كان يراه ، وكان يرى كل ما يمكن ان يوضح هذا النور الكلاسيكي ، والجدران ، والأقمشة في اطرها ، والألوان المتصلبة على اللوحات . ولكن ليس اللوحات : كانت اللوحات قد انطفأت ، وكان يبدو بشعاً ومريعاً ، في اعماق هذا الحمام الصغــير من الانسجام ، ان يكون قد وُجد اشخاص ليرسموا ويمثّلوا على الأقمشة اشياء غــير موجودة .

ودخل رجل وسيدة . وكان الرجل طويلاً مورّداً ذا عينين تشبهان ازرار الحذاء العالي وشعر ناعم ابيض ؛ اما المرأة فكانت اقرب الى نوع الغزال . وكان عمرها يقدّر بالأربعين . وما كادا يدخلان حتى بدا عليها وكأنهما في منزلها : ولا بد ان ذلك كان عادة ، فقد كان

ثمة صلة لا تنكر بين مظهرها الفنّي وميزة النور ؛ ولا بد ان نور المعارض الوطنية هو الذي كان يحفظها خير حفظ . واشار ماتيو يُري ايفيش عفونةً كبيرة مظلمة على جانب الجدار الداخلي :

ــ انه هو ايضاً .

كان غوغان ، وهو عارٍ حتى النطاق تحت سماء عاصفة ، يحدد فيها نظرةً قاسية مزيفة هي نظرة المهلوسين . وكانت الوحدة والتكبر قد التهمتا وجهه ؛ وكان جسمه قد اصبح ثمرة سمينة طرية من ثمرات المناطق الاستوائية مع جيوب مليئة بالماء . وكان قد فقد « الجدارة » ــ تلك الجدارة الانسانية التي كان ماتيو لا يزال يحتفظ بها ولا يدري ماذا يفعل بها ــ ولكنه كان يحتفظ بالعزة . وكان خلفه موجودات غامضة، جماعة من الأشكال السوداء . وحين رأى ماتيو للمرة الأولى هذا اللحم الداعر الرهيب ، اخذه انفعال شديد ؛ ولكنه كان وحده . اما اليوم فقد كان إلى جانبه جسم صغير حاقد ، وكان ماتيو خجلاً من نفسه . لقد كان زائداً عن الضرورة : نفاية ضخمة عند اسفل جدار .

واقترب الرجل والسيدة ، واقبلا ينزرعان بلا تكلف امام القماشة . واضطرت ايفيش الى التنحّي خطوة جانبية ، لأنهما كانا يمنعان عنها الرؤيا . وانقلب الرجل الى خلف ونظر إلى اللوحة بقسوة آسفة . لقد كان رجل اختصاص ، وكان يضع عقدة على هيئة وردة . وقال وهو يهز رأسه :

ــ تس ، تس ! ما اقل ما احب هــذا ! اقسم انه يظن نفسه المسيح . وذلك الملاك الاسود خلفه ، هناك ، هناك ... إن هذا ليس بالأمر الجدي .

واخذت السيدة تضحك ، وقالت بصوت زهري :

ــ يا إلـهي ! صحيح .. ذلك الملاك .. إن هذا شيء ادبـيّ ...

وقال الرجل بعمق : ــ لا احب غوغان حين يفكر . ان غوغان

الأصيل هو غوغان الذي يرسم الديكور .

وكان ينظر الى غوغان بعينيه ، عيني اللعبة ، ويبدو جافاً وهزيلاً في ثوبه الفلانيل الرمادي الجميل تجاه هذا الجسم الكبير العاري . وسمع ماتيو نقنقة غريبة فالتفت : كانت ايفيش مأخوذة بضحكة مجنونة ، وقد رمت له نظرة يائسة وهي تعض على شفتيها : وفكر ماتيو في اشراقة من فرح : « انها غير عاتبة عليّ » وأخذها من ذراعها واقتادها وهي منحنية الى اريكة من الجلد ، في وسط القاعة . وتهالكت ايفيش فوق الاريكة وهي تضحك ؛ وكان جميع شعرها قد تناثر على وجهها . وقالت بصوت مرتفع :

هذا فظيع ! كيف كان يقول : « لا احب غوغان حين يفكر ! » والسيدة الفاضلة ؟ انه يلائمه تماماً ان يكون مع سيدة مثلها .

وكان والرجل السيدة منتصبين : وكان يبدو انهما يتشاوران فيما ينبغي عمله . وقال ماتيو بحياء :

— هناك لوحات اخرى ، في القاعة المجاورة .

فكفّت ايفيش عن الضحك ، وقالت بصوت شرس :

— لا ، إن الوضع مختلف الآن . فهناك أشخاص .

— اتريدين ان نخرج ؟

— افضّل ذلك ، فان جميع هذه اللوحات اعادت لي الصداع . اودّ ان اتنزّه قليلاً في الهواء الطلق .

ونهضت . فتبعها ماتيو وهو يلقي نظرة اسف على اللوحة الكبيرة المعلقة على الجدار الايسر : فقد كان يود ان يُريها اياها . كانت صورة امرأتين تطآن ، بأقدامها العارية ، عشباً وردياً . وكانت احداهما ترتدي قبعة ، وكانت ساحرة . اما الاخرى ، فكانت تمد ذراعها بهدوء نبويّ . ولم تكونا حيّتين تماماً . وكان يبدو انهما فوجئتا وهما تتحوّلان الى شيئين .

وفي الخارج ، كان الشارع يشتعل . وأحس ماتيو بأنه انما كان يعبر أتوناً . وقال بالرغم عنه :

— ايفيش .

فقطّبت ايفيش ورفعت يديها الى عينيها ، وقالت بغضب :

— كأنهما تُفقآن بالدبابيس . اوه اني أكره الصيف .

ومشيا بضع خطوات . وكانت ايفيش تترنح قليلاً ، وهي ما تزال تضغط بيديها على عينيها .

وقال ماتيو : — حذار ، إن الرصيف يقف .

وخفضت ايفيش يديها فجأة، فرأى ماتيو عينيها الصفراوين متباعدتين . وعبرا الرصيف صامتين . وقالت ايفيش فجأة :

— ينبغي ألا تكون عامّة .

فسألها ماتيو مندهشاً : — تعنين المعارض ؟

— نعم .

— لو لم تكن عامّة (كان يحاول ان يستعيد لهجة الألفة التي كانا معتادين عليها) فأني أتساءل كيف كان لنا ان نذهب اليها .

فقالت ايفيش بجفاء : — كنّا لا نذهب اليها !

وصمتا . وفكر ماتيو : « لم تكفّ عن الحقد عليّ » ثم اخترقه فجأةً يقين غير محتمل : « انها تريد ان تفرنقع . وهي لا تفكـــر بغير هذا . لا بد انها تفتش في رأسها عن عبارة للاستئذان المهذب ، فأذا وجدتها تركتني . ولست اريد ان تذهب . » فكر في ذلك بقلق . وسألها :

— أليس لديك شيء خاص تعملينه ؟

— متى ؟

— الآن .

— كلا . لا شيء .

— ما دمت تريدين ان تتنزهي ، فأني افكر ... هل يزعجك ان

ترافقني حتّى منزل دانيال ، شارع مونتمارتر ؟ نستطيع ان نفترق عند بابه وستسمحين لي ان امنحك تاكسي لتدخلي الى المعهد .

كما تريد ، غير اني لن اعود الى المعهد ، بل سأذهب لرؤية بوريس .

« انها باقية » ولم يكن ذلك يثبت له انها سامحته . كانت ايفيش تجزع من ترك الامكنة والناس ، حتّى ولو كانت تكرههم ، لأن المستقبل كان يخيفها . وكانت تستسلم بتثاقل متجهم الى اشد المواقف إغاظة ، ثم ينتهي بها الأمر الى ان تجد فيها نوعاً من الراحة . ومع ذلك ، فقد كان ماتيو مسروراً : فما دامت معه : فسيمنعها من التفكير. اذا تكلم بلا انقطاع ، واذا فرض نفسه ، استطاع ان يؤخر قليلاً تفتّح الافكار الغاضبة والمزدرية التي ستولد لديها . كان ينبغي ان يتكلم على التو ، في اي موضوع . ولكن ماتيو لم يكن يجد ما يقوله . وانتهى الى ان يسألها بارتباك :

– لقد راقت لك هذه اللوحات ، بالرغم من كل شيء ؟

فهزت ايفيش كتفيها :

– طبعاً .

وكان ماتيو راغباً في ان يمسح جبينه ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك . « ستكون بعد ساعة حرة،وستحكم علي حكماً مبرماً ولن يتسعني بعدُ ان ادافع عن نفسي . ليس ممكناً ان ادعها تذهب هكذا (هذا ما قرره) يجب ان اشرح لها . »

وانفتل اليها ، ولكنه رأى عينيها الشاردتين قليلاً ، فلم يتأتّ له الكلام .

وسألت ايفيش فجأة : – اتظن انه كان مجنوناً ؟

– غوغان ؟ لا ادري . أبسبب صورته تسألينني هذا السؤال ؟

– بسبب عينيه . ثم ان هناك هذه الاشكال السوداء خلفه ، فكأنها همسات .

واضافت في شيء من الاسف :

– لقد كان جميلاً .

فقال ماتيو وقد بوغت : – عجباً ! هذه فكرة ما كانت لترد على بالي .

وكانت لإيفيش طريقة في التحدث عن المشاهير من الموتى تثير استغرابه بعض الشيء : فهي لم تكن تقيم بين الرسامين الكبار وبين لوحاتهم اي صلة ؛ لقد كانت اللوحات اشياء ، اشياء جميلة شهوانية ينبغي امتلاكها ؛ وكان يخيّل اليها انها كانت موجودة منذ الأبد ؛ اما الرسامون فقد كانوا بشراً كسائر البشر : انها لم تكن تحمد لهم اعمالهم، ولم تكن تحترمهم . وكانت تسأل عما اذا كانوا لذيذين ظرفاء ، وعما اذا كانت لهم خليلات؛وقد سألها ماتيو يوماً عما اذا كانت تحب لوحات تولوز – لوتريك فأجابت : « اية فظاعة ! ما كان اقبحه ! » فاحس ماتيو بانه شخصياً قد جُرح .

– أجل ، لقد كان جميلاً .

فهز ماتيو كتفيه . لقد كانت ايفيش تستطيع – ما شاءت – ان تأكل بعينيها طلبة السوربون التافهين النضرين كالبنات . بل ان ماتيو قد وجدها جذابة ، ذلك اليوم الذي كانت تتأمل فيه فتى قاصراً من فتيان الميّم ترافقه راهبتان،فقالت برصانة حائرة بعض الشيء : « اعتقد اني سأصبح لوطيّة !» وكان يمكن لها ان تجد النساء جميلات . اما غوغان، فلا . ليس هذا الرجل الناضج الذي صنع لها لوحاتٍ كانت تحبهـا . وقال :

– كل ما هنالك ، اني لا اجده قريباً الى القلب .

فقلبت ايفيش شفتيها استياء وصمتت.

وقال ماتيو بحيوية : – ماذا هناك يا ايفيش ؟ انك تلومينني لأني قلت انه لم يكن قريباً الى القلب ؟

–لا ، ولكنيَ أتساءل لماذا قلت ذلك .

– هكذا . لأن هذا هو شعوري : ان هيئة التكبّر التي يبدو عليها تجعل عينيه شبيهتين بعيني سمكة مسلوقة .

واخذت ايفيش تشد على خصلة من شعرها ، وكانت قد اتخذت هيئة عناد تافه .

وقالت بلهجة محايدة : – ان له هيئة من النبل .

فقال ماتيو باللهجة نفسها : – صحيح .. ان كنت تقصدين هيئة التعجرف .

فقالت ايفيش بضحكة قصيرة : – طبعاً .

– لماذا تقولين طبعاً ؟

– لأني كنت واثقة من انك ستصف ذلك بالتعجرف .

فقال ماتيو بعذوبة :

– لم اكن اريد ان اقول عنه اي سوء . فانت تعلمين اني احب ان يكون الانسان متكبراً .

وسادت فترة صمت طويلة . ثم قالت ايفيش بفظاظة ، وبلهجة بليدة مغلقة :

– ان الفرنسيين لا يحبون ما هو نبيل .

وكانت ايفيش تتحدث بكل رضى عن المزاج الفرنسي اذ تكون غاضبة،وهي تتحدث دائماً بهذه اللهجة البليدة . واضافت بصوت مفرط اللطافة :

– والواقع اني ادرك سبب ذلك . فلا بد ان ذلك يبدو ، من الخارج ، مبالغاً فيه جداً .

ولم يجب ماتيو : لقد كان ابو ايفيش نبيلاً . ولولا ثورة ١٩١٧ لربّيت ايفيش في موسكو،في المدرسة الداخلية لآنسات النبالة، ولقُدّمت الى القصر ، ولتزوجت ضابطاً من الحرس ، طويلاً وجميلاً ، ذا جبين

ضيق ونظرة ناعسة . اما الآن ، فان السيد سرغين هو صاحب منشرة آلية في لاون . وكانت ايفيش في باريس ، كانت تتنزه في باريس ، مع مـــاتيو ، وهو بورجوازي فرنسي لم يكن يحب النبالة ، وسألته ايفيش فجأة :

— أهو الذي ... رحل ؟

فقال ماتيو على عجل : — أجل ، هل تريدين ان اروي لك قصته ؟

— احسب اني اعرفها : كان متزوجاً ، وكان له اولاد ، اليس كذلك ؟

— أجل ، كان يعمل في مصرف . ثم كان ينطلق يوم الاحد الى الضاحية وهو يحمل مرسماً وعلبة الوان . كان ما يسمى برسام ايام الاحد .

— رسّام ايام الاحد ؟

— نعم : في البدء ، كان كذلك ، يعني انه كـان هـاوياً يخربش اللوحات يوم الاحد كما يصطاد صياد الشبكة ، بدافع من المحافظة على الصحة ، لأن من يرسم المناظر في الريف يستنشق الهواء النقي .

واخذت ايفيش تضحك ، ولكن ليست الضحكة التي كان يتوقعها ماتيو ، فسألها بقلق :

— هل يسلّيك انه بدأ بأن يكون رسام ايام الاحد ؟

— لم اكن افكر به .

— وبمَ كنت تفكرين ؟

— كنت اتساءل عما اذا كانوا يتحدثون ايضاً ، في بعض الاحيان ، عن كتّاب يوم الاحد .

كتّاب الاحد : بورجوازيون صغار يكتبون كل عام قصة قصيرة او خمس قصائد او ستاً ليطعّموا حياتهم بشيء من المثالية . بدافع من المحافظة على الصحة . وارتعش ماتيو وسألها بجذل :

— اتقصدين اني احدهم ؟ حسناً ، ترين ان ذلك يفضي الى كل

شيء فلعلني أرحل يوماً ما الى تاهيتي .

فالتفتت اليه ايفيش ونظرت اليه وجهاً لوجه . وكان يبدو عليها الاستياء والخوف : فلا بد انها كانت خائفة من جرأتها هي بالذات . وقالت بصوت لا طابع له :

– سأستغرب ذلك .

فقال ماتيو : – ولِمَ لا ؟ قد لا أرحل الى تاهيتي ، وانما الى نيويورك . ان بودي لو أذهب الى أميركا .

وكانت ايفيش تشد على خصلاتها بعنف ، وقالت :

– نعم ، اذا كان ذلك في بعثة ، مع أساتذة آخرين .

فنظر ماتيو اليها صامتاً ، واستطردت :

– ربما كنت على خطأ ... انني أستطيع ان أتمثّلك وأنت تلقي محاضرة في جامعة أمام طلاب أميركيين ، ولكن لا على ظهر سفينة ، مع مهاجرين . وربما كان ذلك لأنك فرنسي .

فسألها وهو يحمرّ خجلاً : – أتعتقدين انه يلزمني غرفٌ من الدرجة الممتازة ؟

فقالت ايفيش بايجاز : – لا ، بل من الدرجة الثانية .

فشق عليه قليلاً ان يبتلع ريقه . « أود كثيراً لو أراها ، هي ، على ظهر سفينة ، مع مهاجرين ، اذن لماتت قهراً » .

وانتهى يقول : – أخيراً ، مهما يكن من أمر ، فاني أجد غريباً منك ان تقرري هكذا اني لن أستطيع الذهاب . والواقع انك على خطأ ، فقد راودتني الرغبة كثيراً في الماضي . غير ان ذلك قد زال لأني أجده أمراً بليداً . ثم ان هذه الحكاية كلها مضحكة خاصة وانها جاءت بصدد غوغان الذي ظل بيروقراطياً حتى الأربعين من عمره .

فانفجرت ايفيش بضحكة ساخرة ، وسألها ماتيو :

ـ أليس ذلك صحيحاً ؟

ـ بلى .. ما دمت تقوله . مهما يكن من أمر ، فيكفي ان ننظر اليه على قماشته ...

ـ ماذا ترين ؟

ـ أتصوّر انه لا ينبغي ان يكون هناك كثير من البيروقراطيين على شاكلته . لقد كان يبدو ... ضائعاً .

وتمثّل ماتيو وجهاً ثقيلاً ذا ذقن هائلة . لقد فقد غوغان الجدارة الانسانية ، وقد قبل أن يفقدها . وقال :

ـ فهمت . تقصدين اللوحة الكبيرة في الداخل ؟ لقد كان مريضاً جداً في تلك الاثناء .

فابتسمت ايفيش بازدراء :

ـ انما أتكلم عن اللوحة الصغيرة التي كان ما يزال فيها شاباً : انه يبدو جديراً بأي شيء .

ونظرت الى الفراغ ، بشيء من الشرود ، فأحس ماتيو للمرة الثانية بعضّة الحسد .

ـ طبعاً ، اذا كان هذا ما تقصدينه ، فلست رجلاً ضائعاً .

قالت ايفيش : ـ اوه ! كلا .

فقال : ـ ثم اني لا أفهم لِمَ تكون هذه مزيّة ، وإلا فأني لا أفهم ما تقصدين .

ـ حسناً ! لا نتكلم بعد في ذلك .

ـ طبعاً . أنت كذلك دائماً : توجهين انتقادات مغلّفة، ثم ترفضين أن تشرحيها . إن ذلك أسهل مما ينبغي .

فقالت بلا اكتراث : ـ انا لا أوجه انتقادات الى أحد .

فكفّ ماتيو عن السير ونظر اليها . وتوقفت ايفيش على مضض وقفزت خطوة وهي تتفادى نظر ماتيو :

– اسمعي يا ايفيش ! ستقولين لي ما تقصدين بذلك ؟
فقالت بدهشة : – بأي شيء ؟
– بقصة هذا الرجل « الضائع » .
– أما زلنا نتحدث في هذا الموضوع ؟
قال ماتيو : – ان ذلك يبدو بليداً ، ولكني أود أن أعرف ماذا تقصدين بذلك .
فعادت ايفيش تشد على خصلات شعرها . وكانت بين وقت وآخر تفتح فمها فيحسب ماتيو انهـا ستتكلم : ولكنهـا لم تقل شيئاً . ثم قالت :
– سيّان عندي أن يكون المرء كذلك ، أو يكون شيئاً آخر .
وكانت قد لفّت خصلة حول إصبعها وأخذت تشد عليها كما لو انها تريد أن تنتزعها . وأضافت فجأة بصوت سريع ، وهي تحدد نظرها في رأس حذائها :
– أنت مستقر ، ولن تتغير ولو وهبوك ذهب الدنيا .
قال ماتيو : – هكذا تظنين اذن ؟ وما هو دليلك ؟
– انه شعور : ان المرء يُحس أن لك حياة مصنوعة ناجزة ، ولا سيما أفكارك . واذن فانك تمد يدك الى الأشياء حين تظن انها في متناولك ولكنك لا تزعج نفسك لتذهب فتأخذها .
فردد ماتيو : – وما هو دليلك ؟ (ولم يكن يجد شيئاً آخر يقوله: كان يفكر بأنها على حق) .
فقالت ايفيش في ضجـر : – كنت أظن . كنت أظن انك لا تريد ان تجازف بشيء ، وانك أذكى من أن تفعـل ذلك . (ثم أضافت بلهجة مصطنعة) ولكن ما دمت تقول انك لست كذلك ...
وفكر ماتيو فجـأة بمارسيـل فأخذه الخجـل ، وقال بصوت منخفض :

– كلا ، انني كذلك ، انني كما تظنين .

فقالت ايفيش بلهجة انتصار : – آه ! أترى ؟

– وانت ... هل تجدين ذلك يستحق الاحتقار ؟

فقالت ايفيش في رفق :

– بل على العكس . انني أجد هذا أفضل بكثير . لا بد ان الحياة مع غوغان مستحيلة (وأضافت دون ان يبدو في لهجتها اي سخرية) أما معك ، فان المرء يحس بالطمأنينة ، ولا مجال لأن يخشى أبداً ما هو غير متوقع .

فقال ماتيو بجفاف : – صحيح . اذا كنت تعنين انني لا أنساق للاهواء ... انت تعلمين ان بوسعي ان انساق لها كأي انسان آخر ، ولكني أجد ذلك قبيحاً .

قالت ايفيش : – أعرف ذلك . إن كل ما تفعله منهجي ... جداً.

فشعر ماتيو بأنه يصفرّ :

– بأي صدد ، تقولين هذا يا ايفيش ؟

فقالت ايفيش بلهجة غامضة : – بصدد كل شيء .

– اوه ! لا بد ان لديك فكرة صغيرة معينة .

فهمهمت من غير ان تنظر اليه :

– لقد كنت كل اسبوع تأتي ومعك « الاسبوع في باريس » ثم تنظم برنامجاً ...

فقال ماتيو مغتاظاً : – ولكن ذلك كان من أجلك يا ايفيش ...

فقالت ايفيش بتأدب : – أعرف هذا ، واني أكنّ لك العرفان .

وكان ماتيو مباغتاً أكثر منه مجروحاً :

– انني لا أفهم يا ايفيش . ألم تكوني تحبين سماع الموسيقى او مشاهدة اللوحات ؟

– بلى .

ـ كم تقولين ذلك برخاوة !

ـ كنت احب ذلك كثيراً في الحق . (واضافت بعنف مفاجيء) ولكني استفظع ان تُخلق لي واجبات تجاه الاشياء التي أحبها .

فردد ماتيو : ـ آه .. انك .. انك لم تكوني تحبين ذلك .

وكانت قد رفعت رأسها وقذفت شعرها الى الخلف ، فانكشف وجهها الأصفر العريض ، وكانت عيناها تطلقان الشرارات . وكان ماتيو جزعاً مرهقاً: ينظر الى شفتي ايفيش الدقيقتين الرخوتين ،ويتساءل كيف استطاع ان يقبلها . واستطرد يقول بأشفاق :

ـ كان ينبغي ان تخبرني ، ولو فعلت لما قسرتك قط .

لقد جرّها الى الحفلات الموسيقية والى المعارض ، وكان يشرح لها اللوحات ، وفي هذه الاثناء كانت تكرهه . وقالت ايفيش وكانها لم تسمعه :

ـ ما عسى ان تهمني انا ، اللوحات ، اذا لم اكن استطيع ان امتلكها ؟ كنت كل مرة انفجر غضباً ورغبة في ان أحماها ، ولكن لم يكن ممكناً حتى لمسها . وكنت اشعر بك الى جانبي هادئاً ولائقاً: فقد كنت تذهب الى هناك ، كما لو انك تذهب الى القداس .

وصمتا . وكانت ايفيش قد احتفظت بهيئتها القاسية . وأحس ماتيو فجأة بانقباض في حنجرته :

ـ ايفيش ، ارجوك ان تعذريني بسبب ما حدث في هذا الصباح .

قالت ايفيش : ـ هذا الصباح ؟ انني لا افكر به بعد ، بل كنت افكر بغوغان .

قال ماتيو : ـ إن ذلك لن يحدث مرة اخرى ، بل انني لم افهم كيف امكن ان يحدث ذلك .

وكان يتكلم تبرئة لضميره : فقد كان مدركاً ان قضيته كانت خاسرة . ولم تجب ايفيش فاستطرد ماتيو جاهداً :

– وكانت هناك المتاحف وحفلات الموسيقى ايضاً ... ليتك تعلمين كم انا آسف ! إن المرء يظن احياناً انه على وفاق مع انسان آخر ... ولكنك لم تكوني تقولين شيئاً قط .

وكان يحسب ، لدى كل كلمة ، انه سيتوقَّف . ثم كانت تأتيه كلمة اخرى من جوف حنجرته وهي ترفع له لسانه .. وكان يتكلم باشمئزاز وبتشنجات صغيرة . وأضاف :

– سأحاول ان اتغير .

وفكر « انني كريه » وكان غضب يائس يعانق وجنتيه . وهزت ايفيش رأسها وقالت :

– لا يستطيع الانسان ان يتغير .

وكانت تتكلم بلهجة متعقّلة ، فاحتقرها ماتيو بكل صراحة . ومشيا صامتين ، جنباً الى جنب ؛ وكان النور يغمرهما ، وكان احدهما يكره الآخر . ولكن في الوقت نفسه كان ماتيو يرى نفسه بعيني ايفيش ، فيأخذه الاشمئزاز من نفسه . ورفعت كفها الى جبينها وضغطت صدغيها بين أصابعها :

– الا نزال بعيدين ؟

– ربع ساعة . هل انت متعبة ؟

– اوه ! نعم . اعذرني ، ان السبب هو هذه اللوحات . (وضربت برجلها الارض ونظرت الى ماتيو نظرة تائهة) هـا هي تفلت مني ، وتختلط جميعاً في رأسي . وهذا يحدث كل مرة .

وأحس ماتيو ببعض الارتياح : – هل تريدين ان تعودي ؟

– أعتقد ان ذلك أفضل .

فنادى ماتيو سيارة تاكسي . وكان على عجل ليكون وحده الآن . وقالت ايفيش من غير ان تنظر اليه : – الى اللقاء .

وفكر ماتيو : وملهى « سومطرا » ؟ هل ينبغي لي ، بالرغم من

ذلك ، ان اقصده وحدي ؟

ولكن لم تكن به رغبةٌ حتى لأن يراها مرة اخرى : وأعادت :

– الى اللقاء .

وابتعـــد التاكسي ، وتبعه ماتيو بعينيه بضع لحظات في ضيق . ثم انصفق بابٌ فيه ، وأغلق زجاجه ، فأخذ يفكر في مارسيل .

٧

كان دانيال يحلق ذقنه أمام مرآة خزانته ، وهو عارٍ حتّى نطاقه : « ان هذا هو لهذا الصباح ، وعند الظهر سينتهي كل شيء . » ولم يكن ذلك مجرد مشروع : فقد كان الأمر هنا ، في النور الكهربائي ، وفي صرير آلة الحلاقة . ولم يكن ممكناً محاولة ابعاده حتّى ولا تقريبه لتنتهي القضية بسرعة : كل ما هناك انه كان ينبغي ان يُعاش . وكانت الساعة لم تتجاوز العاشرة،ولكن الظهر كان حاضراً في الغرفة، محدداً ، صريحاً ، يشبه العين . وفيما بعد ذلك ، لم يكن ثمة الا اصيلٌ مبهم كان يتلوى كالدودة . وكان داخل عينيه يؤلمه لأنه كان قد نام قليلاً ، ولأن بثراً كان قد نبت تحت شفته ، احمرارٌ صغير ذو رأس ابيض : ان الأمر قد أصبح الآن كذلك ، كلما شرب الخمر . وأرهف دانيال اذنه : كلا ، كانت هذه ضجة في الشارع . ونظر الى البثر المحمرّ المحموم . وكانت هناك ايضاً الدوائر الكبيرة المزرقّة تحت عينيه — وفكر : « انني اهدم نفسي » وكان يُعنى عناية كبيرة بأن يُمرّ الموسى حول البثر لئلا يجلفه ؛ سوف تبقى هناك باقة صغيرة من الهُلب الاسود ، ولكن فليكن : كان دانيال يستفظع جلف البثور . وفي الوقت نفسه كان يرهف اذنه : لقد كان باب غرفته مشقوقاً ليستطيع ان يسمع بوضوح:

وكان يقول لنفسه : « لن اخطئها هذه المرة » .

وكان ثمة حفيف خفيف يكاد لا يسمع ؛ولكن دانيال كان قد قفز ، والموسى في يده ، وفتح باب الدخول فوراً . غير انه كان قد فات الاوان : فقد فرت الصبية ، ولا بد انها قابعة الآن في زاوية سُلّم ، وانها تنتظر خافقة القلب ، ممسكة انفاسها .

واكتشف دانيال فوق القش ، عند قدميه ، باقة من القرنفل: وقال بصوت مرتفع : « انثى صغيرة قذرة ! » كان على يقين بأنها ابنة البوابة . وكان حسبه ان ينظر الى عينيها ، عيني السمكة المقلية ، حين كانت تسلّم عليه . وهذا مستمر منذ خمسة عشر يوماً : كل يوم، لدى عودتها من المدرسة، كانت تضع زهوراً امام باب دانيال . ورفس باقة القرنفل الى اسفل السلم . « يجب ان ارهف السمع وانا في الغرفة الصغيرة طوال الصباح ، فبهذا وحده استطيع ان اقبض عليها . »سوف يظهر عارياً حتى النطاق ، ويحدد فيها نظراً قاسياً . وفكر : « انها انما تحب رأسي . رأسي وكتفيّ لأن لها مثلاً اعلى . وسيؤثر فيها ان ترى ان لي شعراً في صدري . » وعاد الى غرفته واستأنف حلاقة ذقنه . وكان يرى في المرآة وجهه الغامض المتكبر ذا الوجنتين الزرقاوين ؛ وفكر في شيء من الاستياء : « ان هذا هو ما يهيجهنّ » وجه ملاك؛ كانت مارسيل تدعوه بملاكها العزيز ، وينبغي له الآن ان يتحمل نظرات هذه العفريتة المنتفخة بالمراهقة . وفكر دانيال بغيظ : « القذارات ! » وانحنى قليلاً، وبضربة ماهرة من موساه، قطع بثره . ليست دُعابة رديئة ان يشوه هذا الوجه الذي كن يحببنه الى ذلك الحد . « من يدري ؟! ان وجهاً مجروحاً يظل وجهاً، وهو يعني دائماً شيئاً ما : ولسوف اضجر من ذلك بأسرع من السابق !» واقترب من المرآة ونظر الى نفسه من غير رضى؛ وقال لنفسه: « الواقع اني احب ان اكون جميلاً » وكان يبدو عليه التعب، وقرص نفسه لدى جنبيه : « يجب ان انقص كيلو غراماً » سبعة اقداح ويسكي،

ليلة امس ، وحده ، في خانة « جوني » وحتى الساعة الثالثة لم يكن قد استطاع ان يقرر العودة الى البيت ، لأنه كان كئيباً ان يضع رأسه على الوسادة ، وان يحس انه ينسرب في الظلام ، وهو يفكر بان ثمة غداً . وفكر دانيال في كلاب القسطنطينية : لقد طوردت في الشوارع ووضعت في اكيـــاس او في سلال ، ثم اطلقت في جزيرة جرداء ؛ فأخذت تلتهم بعضها ؛ وكانت ريح البحر تحمل عواءها احياناً الى مسامع البحارة : « ليست الكلاب هي ما كان ينبغي ان توضع في تلك الجزيرة.» ولم يكن دانيال يحب الكلاب . وارتدى قميصاً من الحرير الاصفر وبنطلوناً من الفلانيل الرمادي ؛ واختار بعناية ربطة عنق : ستكون اليوم الربطة الخضراء ذات الخطوط ، لأن سحنته كانت سيئة . ثم فتح الباب فدخل الصباح الى غرفته ، صباح ثقيل ، خانق ، مُعدٌ سلفاً لهذا الظرف . واستسلم دانيال لحظة للحرارة الآسنة ، ثم نظر فيما حوله : كان يحب غرفته لأنها كانت لا شخصية، ولم تكن تسلـمه ، فكأنها غرفة فندق . اربعة جدران عارية ، اريكتان ، كرسي ، طاولة ، خزانـة ، سرير ولم تكن لدانيال ذكريات . ورأى سلة الخيزران الكبيرة ، مفتوحة في وسط القاعة ، فصرف بصره : كان ذلك لليوم .

وكانت ساعة دانيال تسجل العاشرة والخامسة والعشرين ، وفتح باب المطبخ ثم صفّر وظهر « سيبيون » اول ما ظهر . وكان ابيض واحمر ذا لحية صغيرة . ونظر الى دانيال بقسوة وتثاءب بوحشية ، وهو يقيم من ظهره جسراً . وركع دانيال في لطافة واخذ يربت على فقمه . وكان القط يرسل له ، وهو مغمض عينيه نصف اغماض ، ضربات من رجله على كمّه . وبعد لحظه ، أخذه دانيال من جلد رقبته ووضعه في السلة ، فظل فيها سيبيون بلا حركة ، مسحوقاً خاضعاً . وجاءت « ملفينا » بعد ذلك ، وكان دانيال يحبها اقل من الاخرين لأنها كـانت ممثلة ولئيمة . وحين اطمأنت الى انه كان يراها ، اخذت تدندن من بعيد وتتظاهر بالدلال ، وكانت تفرك رأسها بمصراع الباب . ولامس دانيال

باصبعه رقبتها الكثيفة ، فانقلبت على ظهرها ، متصلبة القدمين، فدغدغ حلمتيها تحت فروها الأسود ، وهو يقول بصوت مُغنٍ محسوب « ها ها ! ها ها ! » وكانت هي تتدحرج من جنب الى آخر مع حركات من رأسها لطيفة . وفكر : « انتظري قليـــلاً لنرى ، انتظري حتى الظهر . » وأمسكها من رجليها ووضعها بالقرب من سيبيون . وكان يبدو عليها بعض الدهشة ، ولكنها تدحرجت وهي متجمعة ، وعادت الى الدندنة .

ونادى دانيال : « بوبيه ، بوبيه ، بوبيه ! » ولم تكن بوبيه لتأتي قط حين كانت تنادى ؛ فاضطر دانيال للذهاب الى المطبخ بحثاً عنها . وحين رأته ، قفزت الى فرن الغاز وهـــي تخور بعض خوار مغتاظ . وكانت قطة مزاريب ، وكان لها جرح كبير يعترض جانبها الأيمن . وكان دانيال قد وجدها في اللكسمبورغ ، ذات مساء شتوي ، قبيل اغلاق الحديقة ، فحملها الى بيته . وكانت متغطرسة ورديئة ، وكانت غالباً ما تعضّ ملفينا : وكان دانيال يحبها . وأخذها بين ذراعيه فارتدت برأسها الى خلف وهي ترخي اذنيها وتمد عنقها : كان يبدو عليهـــا الاستغراب . وأمرّ أصابعه على فقمها فعضت طرف هذا الاصبع، وهي هائجة ملتذة ؛ واذ ذاك قرصها في رقبتها فرفعت رأسها الصغير العنيد . ولم تكن تهمهم — كانت بوبيه لا تهمهم قط — ولكنها نظـــرت اليه مواجهةً ففكر دانيال ، بدافع العادة : « من النادر ان تنظر اليك قطة في عينيك . » وفي الوقت نفسه كان يشعر بأن ضيقاً لا يُحتمل كان يغمره ، فكان عليه ان يصرف نظـــره وقال : « هنا ، هنا ، يا ملكتي ، هنا ، هنا ! » وابتسم لها من غير ان ينظر اليها . وكانت الاخريان قد بقيتا جنباً الى جنب ، بليدتين مهمهمتـــين ، فكأنه غناء زيزان . وتأملها دانيال في عزاء غير مقتنع : « لحم محمّر ! » وكان يفكر بحلمتي ملفينا الورديتين . ولكنه اضطر الى بذل جهود كثـــيرة

لادخال بوبيه في السلة : كان عليه ان يدفعها من مؤخرتها ، فانقلبت وهي تبصق ، وأرسلت له ضربة مخلب ، فقال دانيال : « آه ! هكذا اذن ؟ » واخذها من رقبتها ومن جنبيها ، وطواهـا بالقوة ، فصرّ الخيزران تحت مخالب بوبيه . وأخذت القطة لحظة ذهول ، فاغتنم دانيال الفرصة ليرد الغطاء بالقوة ويغلق القفلين وهو يقول : «اف» . وكانت يده تؤلمه قليلاً ، ألماً يسيراً جافاً ، كأنه الدغدغة . ونهض وهو يتأمل السلة برضىً ساخر : « لقد حُبست ! » وكانت على ظاهر كفه ثلاثة خدوش ، وفي اعماق نفسه دغدغة اخرى ؛ دغدغة غريبة توشك ان تسوء . وتناول لفيفة الخيوط من على الطاولة ووضعهـا في جيب بنطلونه .

وتردد : « امـامي طريق طويلة . وسوف يصيبني الحر » وكان بوده لو يأخذ سترته من الفلانيل ، ولكنه لم يكن قد اعتاد ان يخضع بسهولة لرغباته ، ثم انه سيكون مضحكاً ان يسير تحت الشمس، محمراً سائل العرق ، وبين ذراعيه هذا العبء ، مضحكاً وغريباً بعض الشيء : وقد ابتسم لهذا ، فاختار سترته من التويد البنفسجي التي لم يكن يحتملها بعد منذ نهاية ايار . ورفع السلة من عروقها وفكر : « ما اثقلها، هذه الحيوانات القذرة ! » وكان يتصور وضعها الذليل المربك وذعرهـا الشديد . « هذا اذن ما كنت احبه ! » كان حسبه ان يحبس المعابيد الثلاثه في سجن من الخيزران لتعود قططاً ، مجرد قطط ، ضرعيات صغيرة مغرورة ومحدودة تموت من الرعب — فاقدة القدسية الى ابعد حد ممكن . « قطط : لم تكن إلا قططاً » واخذ يضحك : وكان يشعر كما لو انه يمثل على احد . وحين اجتاز باب الدخول ، اخذه غثيان، ولكن ذلك لم يدم : كان يشعر وهو على الدرج بأنه قاسٍ وجاف ، وتحت ذلك نتانةٌ غريبة ، نتانة لحم نيء . وكانت البوابة على عتبـة الباب ، فابتسمت له . وكانت تحب دانيال كثيراً لأنه كان شديد اللياقة

والاناقة .

– انت مبكر جداً يا سيد سورينو .

فأجاب دانيال بلهجة اهتمام : – كنت أخشى ان تكوني مريضة يا سيدتي العزيزة . لقد عدت متأخراً مساء أمس فرأيت النور تحت باب غرفتك .

فقالت البوابة وهي تضحك : – لقد كنت من فرط التعب بحيث نمت من غير ان اطفيء النور . وفجأة سمعتك تدق الجرس ، فقلت : آه ، هذا السيد سورينو . ولم يكن خارج البناية سواك . وبعد ذلك مباشرة أطفأت النور ، وكانت الساعة زهاء الثالثة ، أليس كذلك ؟

– تقريباً ...

قالت : – حسناً ! أظن ان معك سلة كبيرة ؟

– انها قطتي .

– أتكون مريضة ، الحيوانات المسكينة الصغيرة ؟

– لا ، ولكني آخذها الى بيت اختي في « مودون » . إن الطبيب البيطري يقول انها بحاجة الى الهواء .

وأضاف بجد : أتعرفين ان القطط يمكن ان تصبح مسلولة ؟

فقالت البوابة مأخوذة : – مسلولة ؟ اذن ، إعتن بها جيـداً . (واضافت) على أي حال ، ان ذهابها سيحدث فراغاً لديك ؛ وقد اعتدت على رؤيتها ، هذه الحيوانات اللطيفة، حين كنت ارتب بيتك . ولا بد ان ذلك يحزنك .

فقال دانيال : – يحزنني كثيراً ، ايتها السيدة ديبوي .

وابتسم لها بسمة رصينة وتركها . « المرائية العجوز ، لقد قُطعت، فلا بد انها كانت تدللها حين لا اكون في البيت : على اني كنت قد منعتها من ان تلمسها ؛ وهي تحسن صنعاً بان تراقب ابنتها . » وعبر المدخل المكشوف فبهره النور ، النور القذر المحرق النافذ . وكان يؤلمه

في عينيه ، وكان هذا متوقعاً : فليس افضل من الأصباح الغائمة لمن يكون قد شرب في العشية . ولم يكن يرى شيئاً بعد ، وكان يسبح في النور وحول رأسه دائرة من حديد . وفجأة رأى ظله ضخماً كثيفاً، مع ظل سلة الخيزران التي كان يؤرجحهـا في ذراعه . وابتسم دانيال : لقد كان طويلاً جداً . وانتصب على طول قامته ، ولكن الظـل بقي قصيراً مشوهاً ، فكأنما هو ظل قرد من فصيلة الشامبنزي . وقـال في نفسه « الدكتور جيكل ومستر هايد . كلا » لا حاجة بي الى تاكسي. سوف انزه مستر هايد حتى موقف ٧٢ . وسيوصله الاوتوبيس ٧٢ الى شارنتون . وكان دانيال يعرف ، على بعد كيلومتر من هناك ، ركناً منعزلاً على شاطيء السين . وقال في نفسه : « انني بالرغم من كل شيء لن يُغمى عليّ ، فانه لا ينقص بعد غير هذا ! » وكان ماء السين شديد السواد كثيف الاقذار في ذلك الموضع، مع بقع مخضرة من الزيت ، بسبب مصانع « فيتري » . وتأمل دانيال نفسه في نفور: وكان يحس نفسه من شدة العذوبة ، في الداخل ، من شدة العذوبة بحيث ان ذلك لم يكن طبيعياً . وفكر : « هوذا الانسان » في شيء من الرضى . لقد كان قاسياً كله ومسدوداً ، وكان تحت ذلك ضحية صغيرة تطلب الرحمة . وفكر : « غريب ان يستطيـع المرء ان يكره نفسه كأنما هو انسان آخر . » والواقع ان ذلك لم يكن صحيحاً : فمهما فعل ، فانه لم يكن ثمة الا دانيال واحد. حين كان يحتقر نفسه، كان يحس بأنه ينفصل عن نفسه ، وانه يسبح ، كأنه قاض مجرد ، فوق خرير غير نقي ، ثم كان فجأة يُؤخـذ ، ويُشرَق من تحت ويتدبق في نفسه . وفكر « طز اسأشرب قطرة . » وكان عليه ان يقوم بدورة صغيرة ، وسوف يتوقف عند « شامبيونيه » شارع تايدوس . وحين دفع الباب ، كانت الحانة خالية ، وكان الخادم يمسح الغبار عن طاولات الخشب الاحمر التي كانت على شكل براميل . وكان الظـلام

لذيذاً في عيني دانيال ، وفكر : « ان بي صداعاً كبيراً . » ووضع السلة وجلس على كرسي عالٍ من كراسي المشرب . وقال الساقي مؤكداً :

– طبعاً ، قدح ويسكي صغير كثيف .

فقال دانيال بجفاف : – كلا .

فلينفلقوا بعادتهم تلك في تصنيف الناس ، كأنما هم مظلات أو ماكنات خياطة . انا لست ... ان المرء ليس شيئاً قط . ولكنهم يعرّفونك بحركة يد . فهذا يمنح هبات سخية ، وذلك خفيف الظل ، وانا احب اقداح الويسكي الصغيرة الكثيفة .

وقال دانيال : – قدح جن – فز .

فأتاه الساقي بما طلب من غير ان يبدي اية ملاحظة : لا بد انه كان منزعجاً . هذا افضل . لن اضع قدمي بعد الآن في هذه الحانة ؛ انهم اكثر الفة مما ينبغي . ثم ان مذاق الجن – فز ، كان مذاق ليموناضة تطهيرية . وكانت تتناثر غباراً محمضاً على اللسان وتنتهي بمذاق فولاذي . وفكر دانيال : انها لا تؤثر فيّ بعد .

– اعطني قدح فودكا مفلفلة في كأس مستديرة .

وشرب الفودكا وظل لحظة وهو يحلم ، وفي فمه شُهُبٌ نارية . وكان يفكر : « ألن ينتهي ذلك ابداً ؟ » ولكنها كانت افكاراً سطحية ، كما هو المألوف ، شكات بلا رصيد . « ما الذي لن ينتهي ابداً ؟ ما الذي لن ينتهي ابداً ؟ » وسُمع مواءٌ قصير وخربشة ، فقفز الساقي ، وقال دانيال بايجاز :

– انها قطط .

ونزل عن الكرسي العالي ، ورمى عشرين فرنكاً على الطاولة ثم اخذ السلة . وحين رفعها ، اكتشف انها خلّفت على الأرض نقطة صغيرة حمراء : وكان ذلك دماً . وفكر دانيال في ضيق : « ما عساها تصنع

في الداخل ؟ » ولكنه لم يكن راغباً في رفع الغطاء . لم يكن في السلة ، هذه اللحظة ، الا خوف كثيف غير متميّز : فاذا فتح السلة ، عاد هذا الخوف فأصبح قططه ، وهذا ما لم يكن دانيال ليحتمله . « آه ! لن نستطيع احتماله ؟ وإذا رفعته ، ذلك الغطاء ؟ » ولكن دانيال كان قد خرج ، وعاد النور يعشي عينيه ، وكان عشاءً شفافاً لزجاً : ان عينيك تتأكلانك ، فتحسب انك لا ترى الا ناراً ، ثم تلاحظ فجأة انك انما كنت ترى بيوتاً لفترة طويلة ، بيوتاً تبعد عنك مئة خطوة ، مشرقة وخفيفة ، كأنها الدخان : وفي جوف الطريق ، كان ثمة جدار كبير ازرق . وفكر دانيال : « ان من المحزن ان يرى المرء بوضوح . » وكان يتخيل الجحيم على هذا الشكل : نظراً يخترق كل شيء ، وبه يستطيع المرء ان يرى آخر الدنيا . حتى اعماق نفسه . وتحركت السلة من تلقاء نفسها في ذراعه ؛ انها تخربش في الداخل . هذا الذعر الذي يحسه قريباً من يده ، لم يكن ليدرك تماماً اذا كان يحدث لديه اشمئزازاً ام يحدث لذة : والحق ان ذلك سواء . وفكر دانيال : « مهما يكن ، فان هناك ما يطمئنها ، انها تشعر برائحتي . هذا صحيح . فأنا بالنسبة اليها رائحة . » ولكن صبراً : ان دانيال لن يلبث طويلاً حتى يفقد هذه الرائحة المألوفة ، وسوف يتنزه بلا رائحة ، وحيداً بين الناس الذين لا يملكون حواس مرهفة تمكّنهم من ان يعرفوك بالرائحة . انه يود ان يكون بلا رائحة ولا ظل ، ولا ماض ، الا يكون شيئاً آخر غير انتزاع من نفسه ، لا يلحظ ، نحو المستقبل . ولاحظ دانيال انه كان يسبق جسمه ببضع خطوات ، عند مستوى المصباح ، وانه كان يرى نفسه قادماً ، وهو يعرج قليلاً بسبب حمله ، غارقاً في العرق . كان يرى نفسه قادماً ، ولم يكن بعد الا مجرد نظر . ولكن مرآة مصبغة عكست له صورته ، فتبدد الوهم . وامتلأ دانيال بماء موحل وتافه : هو نفسه . سيملأ ماء السين التافه الموحل السلة ، وستتمزق القطط فيها

بينها بمخالبها . وغمره اشمئزاز كبير ففكر : « انه عمل مجاني » وكان قد توقف ووضع السلة ايضاً : « ان المرء يعـــذّب نفسه عبر الاذى الذي يُلحقه بالآخرين . وليس بوسعه قط ان يبلغ نفسه مباشرة . » وفكر من جديد بالقسطنطينية : لقد كانوا يحبسون الزوجات الخائنات في كيس مملوء بالقطط الكلبة ثم يرمون الكيس في البوسفور . براميل ، اكياس من جلد ، سلال من خيزران : سجون . « هنـــاك ما هو اسوأ من ذلك . » وهز دانيال كتفيه : فكرة اخرى ليس لها من رصيد . انه لم يكن يريد ان يمثل دوراً فاجعاً ، فهو قد فعل ذلك ما فيه الكفاية في الماضي . وان من يمثل الأدوار الفاجعة يأخذ نفسه أخذاً جاداً . وأبداً ، ابداً ، لن يأخذ دانيال نفسه اخذاً جاداً . وظهر الأوتوبيس فجأة ، فأشار دانيال للسائق وصعد في الدرجة الأولى .

— كم الى نهاية الخط ؟

فقال قاطع التذاكر : — ست قسائم .

سيثير ماء السين جنونها . المـــاء البني ذو الانعكاسات البنفسجية . واقبلت امرأة تجلس قبالته ، برصانة واكفهرار ، ومعها طفلة . ونظرت الطفلة الى السلة باهتمام ، ففكر دانيال « ذبابة صغيرة قذرة » وماءت السلة فانتفض دانيال كما لو انه أُخذ بجرم قتل . وسألت الطفلة بصوت واضح :

— ما هذا ؟

فقالت امها : — شت ، اتريدين ان تتركي السيد وشأنه ؟

قال دانيال : — انها قطط .

وسألت الطفلة : — وهل هي لك ؟

— نعم .

— ولماذا تحملها في سلة ؟

فأجاب دانيال بعذوبة : — لأنها مريضة .

– هل استطيع ان اراها ؟

قالت امها : – انك تبالغين يا جانين .

– لا استطيع ان اريك اياها ، فان المرض قد جعلها شريرة .

فقالت الطفلة بلهجة تعقّل ساحرة :

– اوه ... انها لن تكون معي شريرة .

فقال دانيال بصوت منخفض سريع :

– اتظنين ذلك ؟ اسمعي يا صغيرتي العزيزة .. إنني اريد ان اغرقها، قططي ... هذا ما سأفعل ، وهل تعرفين لماذا ؟ لأنها ، في هذا الصباح بالذات ، مزّقت وجه فتاة صغيرة جميلة مثلك اتت تحمل إليّ الزهور . وسوف يضطرون الى ان يضعوا لها عيناً من زجاج .

فقالت الطفلة مذعورة : – ها !

ونظرت لحظة الى السلّة بجزع ثم ارتمت في أحضان امها . وقالت الأم وهي تدير نحو دانيال عينين مغتاظتين :

– لا لا ! اترين ؟ يجب ان يكون الاطفال هادئين وألا يثرثروا في كل لحظة . ولكن لا بأس يا قطّي الصغيرة ، لا شيء هناك ، وانما اراد السيد ان يمزح .

وبادلها دانيال نظرتها بهدوء : « انها تحتقرني » هذا ما فكر به وهو راضٍ . وكان يرى خلف الزجاج بيوتاً رمادية تنخطف ، وكان يعلم ان المرأة تنظر اليه : « امّ مغتاظة . انها تبحث عما يمكنها ان تحتقره فيّ . وليس ذلك وجهي . » فلم يكن ثمة من يحتقر وجه دانيال . « ولا ثوبي ، فهو جديد ورقيق . آه ! ربما يديّ . » وكانت يداه قصيرتين وقويتين ، وسمينتين بعض الشيء ، وعلى اصابعها شعرٌ اسود . وبسطها على ركبتيه : « انظري اليهما ، هيا انظري اليهما ! » ولكن المرأة كانت قد تخلّت عن متابعة المباراة : كانت تحدّد نظرها امامها تحديداً غليظاً ، وكانت تلتمس الراحة . وتأملها

دانيال في شيء من الشراهة : هؤلاء الناس الذين كانوا يرتاحون ، كيف كانوا يعملون ؟ كانت قد تركت نفسها تسقط بكل قوتها في نفسها بالذات وتذوب فيها . ولم يكن شيء في هذا الرأس يشبه فراراً مجنوناً من الذات ، او فضولاً او حقداً او اية حركة ، حتى ولا تموجاً خفيفاً : لا شيء الا عجينة النوم الكثيفة . واستيقظت فجأة ، واقبلت هيئة انتعاش ترتسم على وجهها وقالت :

— هنا ، هنا . تعالي إذن ! ما أشدّ ما يزعجني ان اجرجرك دائماً !

واخذت ابنتها من يدها وسحبتها . وقبل ان تنزل الطفلة التفتت وألقت نظرة ذعر على السلة وانطلق الاوتوبيس ثم توقف ؛ ومرّ امام دانيال أشخاص يضحكون ، وصاح به قاطع التذاكر :

— آخر الخطّ .

وانتفض دانيال : كانت السيارة فارغة . ونهض ثم هبط . وكانت ساحة تغص بالنساء وكانت الحانات منتثرة فيها ؛ وكانت جماعة من العمال والنساء متجمعة حول عربة . ونظرت بعض النساء اليه بدهشة . وحثّ دانيال خطاه وانعطف الى زقاق قذر كان يهبط نحو السين . وكان على جانبي الطريق براميل ومستودعات . وكانت السلّة قد أخذت تموء بلا انقطاع ، وكان دانيال يكاد يعدو : كان يحمل دلواً مثقوباً يسقط منه الماء نقطة نقطة . وكانت كل موأة نقطة ماء . وكان الدلو ثقيلاً ، فأخذه دانيال بيده اليسرى ، ومسح جبينه باليمنى . كان لا ينبغي التفكير بالقطط . آه ! انك لا تريد التفكير بالقطط ؟ طيّب ! ينبغي اذن ان تفكر فيها بالذات ، وهذا أمرٌ شديد اليسر ! وتمثّل دانيال عيني بوبيه الذهبيتين وفكّر بسرعة في اي شيء ، في البورصة حيث ربح عشرة آلاف فرنك في الليلة الماضية ، وفي مارسيل ، التي كان ينبغي ان يراها في المساء نفسه ، فان هذا كان يومه : « الملاك

الاكبر ! » وقهقه دانيال : كان يحتقر مارسيل احتقاراً عميقاً : « انهما لا يملكان الجرأة للاعتراف بأن احدهما لا يحب الآخر بعد . لئن كان ماتيو يرى الأمور على حقيقتها ، فعليه ان يتخـــذ قراراً . ولكنه لا يريد . انه لا يريد ان يضيع نفسه . إنه هو ، طبيعي سليم . » هكذا فكر دانيال بسخرية وماءت القطط كما لو انها قد غطست في مـــاء غال واحس دانيال بانه يضيع رشده . ووضع السلّة ارضاً ثم رفسها رفستين عنيفتين ، فقامت فيها فوضى واضطراب ، ثم صمتت القطط . وظل دانيال جامداً لحظة وهو يشعر برعشة خلف اذنيه . وخرج عمالٌ من احد المستودعات فتابع دانيال سيره . ووصل . وهبط درجاً حجرياً الى شاطىء السين وجلس ارضاً بالقرب من حلقة حديدية ، بين برميل من القطران وركام من البلاط . وكان السين اصفر تحت السماء الزرقاء . وكانت قوارب سوداء مملوءة بالبراميل مربوطة الى الرصيف المقابـل . وكان دانيال جالساً في اشعة الشمس ، وكان صدغاه يؤلمانه . ونظر الى الماء المتموج المنتفخ الذي كانت تنبعث منه اشعاعات لبنية ثم اخرج من جيبه مكبّة وقطع بسكّينه طرفاً طويلاً من خيط . ومن غير ان ينهض ، تناول بيده اليسرى بلاطة ، ، فأطبق احد طرفي الخيط على عروة السلّة ولفّ بقيته حول البلاطة ، ثم عقد عدة عقد ووضع البلاطة على الأرض . فاذا هو امام آلة غريبة . وفكر دانيـال بأن عليـــه ان يحمل السلة باليد اليمنى والبلاطة باليد اليسرى فيسقطهما في الماء في وقت واحد . وربما عامت السلة عُشر ثانية ثم تجذبها قوة وحشية الى اعماق الماء فتغرق فَوراً . وفكر دانيال بأن الحر يزعجه ، فاحتقر سترتـــه السميكة ولكنه لم يرد ان ينزعها . وكان ذلك يخفق فيه ، ويطلب الرحمة ، وكان دانيال ينظر الى نفسه وهو يئن ، قاسياً جافاً : « إن من لا يملك الجرأة على ان يقتل نفسه بالجملة ، يجب ان يفعل ذلك بالتفصيل » لسوف يقترب من الماء ، وسوف يقول : وداعاً لما احبّه

اكبر الحب في هذا العالم ... » ونهض قليلاً على يديه ، ونظر حوله: الى اليمين كان الشاطىء خالياً ، والى اليسار ، في البعيد ، رأى صياداً أسود في الشمس . إن التموجات ستنتشر تحت الماء ، حتى تبلغ فلينة شبكته : « وسوف يظن ان سمكة ما تعض . » وضحك واخرج منديله ليمسح العرق الذي كان يتلألأ على جبينه . وكان عقربا ساعته اليدوية يشيران الى الحادية عشرة وخمس وعشرين . « عند الحادية عشرة والنصف ! » وكان ينبغي ان يطيل هذه اللحظة العجيبة : لقد كان دانيال مزدوجاً ، وقد أحس نفسه ضائعاً في غيمة عقيقية ، تحت سماء من رصاص ، وفكر بماتيو بشيء من الكبرياء ؛ وقال لنفسه « انا الحر » . ولكنها كانت كبرياء لا شخصية ، لأن دانيال لم يكن بعد احداً . ونهض في الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين وكان يحس انه من الضعف بحيث اضطر الى الاعتماد على البرميل . وعلقت بسترته التويد لطخة من القطران فنظر اليها .

ورأى اللطخة السوداء على القماشة البنفسجية وشعر فجأة انه لم يكن بَعدُ الا واحداً . واحداً . جباناً . شخص كان يحبّ قططه ولا يريد ان يقذف بها في الماء . وأخذ سكينه وانحنى فقطع الخيط . في صمت : فحتى في داخله كان يسود الصمت ، وكان من الخجل بحيث لم يطق ان يتحدث امام نفسه . وأخذ السلّة وعاد يصعد الدرج : فكان كما لو انه يمرّ وهو يلفت رأسه امام انسان كان ينظر اليه بازدراء . وكان الخلاء والصمت ما يزالان في نفسه . وحين بلغ اعلى الدرجات ، جرؤ على ان يوجه لنفسه الكلمات الاولى : « ماذا كانت تلك القطرة من الدم ؟ » ولكنه لم يجرؤ على فتح السلة : فأخذ يمشي وهو يعرج . هذا أنا . هذا أنا . هذا أنا . القذر . ولكن كان في اعماقه نوع غريب من الابتسام لأنه انقذ بوبيه . وصاح :

— تاكسي !

فتوقف التاكسي . وقال دانيال ،

– ٢٢ ، شارع مونمارتر . هل تريد ان تضع هذه السلّة بالقرب منك ؟

واستسلم لهدهدة التاكسي . ولم يعد يحتقر نفسه . ثم تغلب الخجل مرة اخرى وعاد يرى نفسه : وكان هذا غير محتمل . وفكر بمرارة : « لا بالجملة ولا بالتفصيل » وحين تناول محفظته ليدفع للسائق ، لاحظ بلا فرح انها كانت محشوة بالأوراق المالية . « أن اربح المال ، نعم ، أستطيع ان افعل ذلك . »

وقالت البوابة :

– هأنت ذا قد عدت ، يا سيد سورينو ؟ إن احداً قد صعد اللحظة الى بيتك . احد اصدقائك ، رجل طويل ذو كتفين هكذا . وقلت له إنك غير موجود . فقال : ليس موجوداً ؟ إذن سأدع ورقة تحت بابه .

ونظرت الى السلة وقالت :

– ولكنك اعدتّها ، الحيوانات اللطيفة ؟

فقال دانيال :

– ماذا تريدين ايتها السيدة ديبوي ؟ قد يكون ذلك عملاً إجرامياً ولكنني لم استطع ان انفصل عنها .

وفكر وهو يرقى السلم : « انه ماتيو . إن هذا يجيء في اوانه تماماً . » وكان مسروراً ان يستطيع كره احد . والتقى بماتيو عند الشقة الثالثة ، فقال ماتيو :

– مرحباً ، كان املي قد انقطع في رؤيتك .

فقال دانيال : – لقد ذهبت أنزّه قططي .

وأدهشه ان يستشعر في داخله لوناً من الحرارة . وسأله بسرعة :

– انك تصعد معي ثانية ؟

– نعم . ان لديّ خدمة اودّ ان اطلبها منك :
فرماه دانيال بنظرة سريعة ولاحظ ان وجهه كان معفّراً . وفكر : « يبدو عليه انه منزعج . » وكان راغباً في مساعدته . وصعدا . ووضع دانيال المفتاح في القفل ثم دفع الباب . وقال : « تفضل ادخل » ولمس كتفه لمساً خفيفاً ثم سحب يده على الفور . ودخل ماتيو غرفة دانيال واقتعد اريكة وقال :
– لم افهم شيئاً مما قالته لي البوابة . كانت تزعم انك حملت قططك الى بيت اختك . فهل تصالحت مع اختك ؟
فتثلّج شيء ما فجأة في نفس دانيال : « ما عساها تكون هيئته لو عرف من اين انا آت ؟ » ونظر من غير ود الى عيني صديقه النافذتين الجادّتين : « هذا صحيح . انه هو طبيعي وسليم . » وأحس ان هوة تفصله عنه . وضحك وقال :
– آه ! نعم ! بيت اختي ... لقد كانت كذبة صغيرة بريئة . وكان يعلم ان ماتيو لا يلح : فقد كان ماتيو معتاداً عادة مزعجة وهي ان يعامل دانيال كانسان مولع بالكذب ، ويتصنّع انه لا يهتم قط لمعرفة الدوافع التي كانت تدفعه الى الكذب . والواقع ان ماتيو حدج السلّة بنظر حائر وصمت .
وسأله دانيال : – أتسمح لي بلحظة ؟
وكان قد اصبح جافاً كله . ولم تكن لـه الا رغبة واحدة : ان يفتح السلة بأسرع وقت ممكن : « ماذا كانت تلك النقطة من الدم ؟ » وركع وهو يفكر : « سوف تثب على وجهي . » وقرّب وجهه فوق الغطاء بحيث يكون في متناولها تماماً . وفكر وهو يفتح الغطاء : « انه محتاج الى بعض الازعاج . وهذا ما يفقده لفترة من الزمن تفاؤله وهيئته المستقرة » وافلتت بوبيه من السلة وهي تزمجر وفرت الى المطبخ . وخرج سيبيون بدوره : وكان قد حافظ على كرامته ، ولكن لم يكن يبدو

قط مطمئناً . ومشى على مهل حتى الخزانة ، ونظر فيما حوله نظرة عجلى ، ثم تمطّى وتسرب تحت السرير . ولم تكن ملفينا لتتحرك. ففكر دانيال : « انها مجروحة » وكانت قابعة في قعر السلة ، متلاشية . ووضع دانيال اصبعاً تحت ذقنها وقسرها على ان ترفع رأسها : لقد تلقت ضربة مخلب قوية على انفها ، وكانت عينها اليسرى مغمضة ، ولكن الدم كان قد انقطع . وكان على فقمها قشرة مسوّدة ، وكان شعرها حول القشرة متصلباً ولزجاً .

وسأل ماتيو : « ماذا هناك ؟ » وكان قد نهض وجعل ينظر الى القطة بتأدب . « انه يجدني مضحكاً لأنني منشغل بقطة . وكان يبدو له ذلك طبيعياً جداً لو كنت منشغلاً بطفل . » وأوضح دانيال :

ـ لقد اصيبت ملفينا بضربة سيئة . ولا شك ان بوبيه هي التي خمشتها . انها لا تطاق . اعذرني يا عزيزي ، فأنا اطلب منك دقيقة صغيرة لأعالجها .

ونهض يأتي بزجاجة ارنيكة وعلبة قطن من الخزانة . وتبعه ماتيو بعينيه من غير ان يقول كلمة ، ثم امرّ يده على جبينه بحركة عاجزة. وأخذ دانيال يغسل انف ملفينا ، وكانت القطة تتخبط تخبطاً ضعيفاً . وقال دانيال :

ـ كوني جميلة ، كوني عاقلة . هيا ، هيا .

وكان يفكر بأنه كان يزعج ماتيو الى ابعد حد ، وكان هذا يزيده رغبة في العمل . ولكنه حين رفع رأسه ، رأى ان ماتيو كان ينظر في الفراغ نظرة قاسية .

وقال دانيال بأعمق صوت يملكه : ـ اعذرني يا عزيزي ، انني احتاج بعد الى دقيقة صغيرة فقط . كان لا بد من ان اغسل هذه الدابة ، فأنت تعرف ان الجرح يلتهب بسرعة . الا ازعجك اكثر مما ينبغي ؟ أضاف هذه العبارة الاخيرة وهو يوجه له بسمة صريحة ، فارتعش

ماتيو ثم اخذ يضحك . وقال :

— تابع ، تابع ، ولا تنظر بعينيك المخمليتين .

عيناك المخمليتان! لقد كان شعور ماتيو بالتفوّق شيئاً كريهاً: «هو يحسب انه يعرفني ، وهو يتحدث عن اكاذيبي . وعن عيني المخمليتين . انه لا يعرفني على الاطلاق ، ولكن يسليه ان يلصق علي طابعاً ، كما لو كنت شيئاً . »

وضحك دانيال في ود . ومسح بعناية رأس ملفينا . وكانت ملفينا تغمض عينيها ، وكانت عليها مظاهر النشوة ، ولكن دانيال كان يعلم جيداً انها تتألم . وربت على جنبيها تربيتة صغيرة . وقال وهو ينهض :

— هكذا ! غداً لن يظهر الجرح بعد . ولكن الاخرى بعثت لها بضربة مخلب شديدة لو تعلم .

فقال ماتيو بلهجة غياب : — بوبيه ؟ انها خبيثة .

ثم قال فجأة :

— ان مارسيل حامل .

— حامل !

وكانت دهشة دانيال قصيرة المدى ، ولكن كان عليه ان يقاوم رغبة شديدة في الضحك . هكذا اذن ! هكذا اذن ! « صحيح .. انهن يَبُلن دماً كل شهر قمري ، وهن فوق ذلك قادرات على التناسل كالوَرَنك[1] » وفكر باشمئزاز في انه سيراها في المساء ذاته . « انني أتساءل عما اذا كانت لديّ الشجاعة للمس يدها . »

وقال ماتيو بلهجة موضوعية :

— انني مرتبك ارتباكاً قذراً .

فنظر اليه دانيال وقال بايجاز :

---

(١) سمك بحري .

– انا افهم موقفك .

ثم سارع يوليه ظهره بحجة انه ذاهب يضع زجاجـة الارنيكة في الخزانة . وكان يخشى ان ينفجر فيه ضاحكاً . وأخذ يفكر في موت امه ، وكان هذا يخطر دائماً على باله في مثل هذه المناسبات . وانتفض انتفاضتين متشنجتين او ثلاثاً . وكان ماتيو ماضياً في التكلم خلف ظهر دانيال . فقال :

– القضية ان هذا يُذهلها . انت لم ترها كثيراً، فلم تستطع ان تدرك الامر . انها نوع من « الوالكيري » (واضاف بلا خباثة) والكيري في الغرفة . والامر في نظرها سقوط مريع .

فقال دانيال في دافع من المشاركة :

– اجل ، ثم ان القضية بالنسبة اليك لا تستحق هذا . فبالرغم مما احسنت اليها ، لا تتورع عن ان تجلب لك الذعر الآن . انا اعلم ان مثل هذا يقتل الحب عندي لو حدث .

فقال ماتيو : – لا اكنُّ لها بعد حباً :

– صحيـح ؟

وكان دانيال عميق الدهشة والتسلية : « ستشهد هـذا المساء فصلاً رياضياً . » وسأله :

– بالطبع لا .

– ولماذا « بالطبع » ؟ ينبغي لك ان تصارحها بذلك . هل ...

– لا ، لا اريد ان اتركها ، اذا كان هذا ما تقصد اليه .

– واذن ؟

وكان دانيال يجد متعة كبيرة ، وكان يستعجل الزمن ليجتمـع بمارسيل . قال ماتيو :

– اذن لا شيء . فليكن . فليست هي غلطتها اذا كنت لا احبها بعد.

– وهل هي غلطتك ؟

فقال ماتيو باختصار : — نعم .
— ستستمر في رؤيتها وفي ...
— وبعد ذلك ؟
فقال دانيال : — اذا مثّلت طويلاً هذا الدور، فسينتهي بك الامر الى ان تكرهها .
فبدت على ماتيو القسوة وكأنه صُدم :
— لا اريد ان يلحق بها الضيق والانزعاج .
قال دانيال بلامبالاة : — هذا اذا كنت تؤثر ان تضحي بنفسك .
وحين كان ماتيو يقلد شيعة « الكواكر »[1] ، فان دانيال كان يكرهه .
— ما عساني اضحّي به ؟ سأذهب الى المعهد ، وسأرى مارسيل .
وسأكتب قصة كل عامين . وهذ هو بالذات ما فعلته حتى الآن .
ثم اضاف بمرارة لم يكن دانيال يعهدها عنده :
— انا كاتب من كتّاب الاحد . ومن جهة اخرى ، اراني متعلقاً بها ، وانه يزعجني كثيراً الا اراها . غير ان ذلك يشبه الآن الصلات العائلية .
وساد صمت . واقبل دانيال يجلس في الاريكة ، تجاه ماتيو . وقال ماتيو :
يجب ان تساعدني . ان عندي عنواناً ، ولكن ليس معي مال . أعرني خمسة آلاف فرنك
فردد دانيال بلهجة غير واثقة : — خمسة آلاف فرنك ؟
محفظته المتورمة ، المحشوة في جيبه الداخلي ، محفظة بائع الخنازير ، كان حسبه ان يفتحها ، وان يتناول منها خمس اوراق . لقد سبق لماتيو

---

(١) شيعة المرتعشين البروتستانتية .

ان ادى له الخدمات مراراً . وقال ماتيو :

– سأرد لك نصف المبلغ في آخر الشهر . والنصف الآخر يوم ١٤ تموز لأنني في ذلك اليوم سأقبض راتبي آب وايلول معاً .

ونظر دانيال سحنة ماتيو المقعّرة وفكر : « ان هذا الشخص منزعج تماماً . » ثم فكر بالقطط واحس انه غير قابل للرحمة والشفقة . وقال بصوت آسف :

– خمسة آلاف فرنك ! ولكني لا املكها يا عزيزي ، واني شديد الاسف ...

– لقد قلت لي ذات يوم انك ستعقد صفقة طيبة .

فقال دانيال : – اسمع ياعزيزي المسكين : ان صفقتك الطيبة كانت خيبة عظيمة، وانت تعرف ما هي البورصة . ثم ان الامر بسيط جداً ، فليس لدي بعد الا ديون .

ولم يسبغ على صوته كثيراً من الاخلاص لأنه لم يكن راغباً في الاقناع . ولكن حين رأى ان ماتيو لم يكن يصدقه ، اخذه الغضب : « ليحلّ عن ظهري ! انه يحسب نفسه عميقاً ، ويتخيل انه يقرأ في أعماقي . وأنا أتساءل : لماذا يريدني ان اساعده : فليس عليه الا ان يلجأ لأمثاله . » والذي كان امرأً لا يطاق هو هذه الهيئة الطبيعية المركبة التي لم يكن ماتيو ينجح في فقدها ، حتى في الاوضاع الفاجعة . قال ماتيو باندفاع :

– حسناً ! اذن لا تستطيع حقاً ؟

وفكر دانيال : « لا بد انه محتاج اليها حاجة ماسة حتى يلح هذا الالحاح . »

– لا استطيع حقاً . انني متأسف يا عزيزي .

وكان منزعجاً بانزعاج ماتيو ، ولكن ذلك كان امراً لا يخاو من اللذة : فقد كان لديه شعور بأنه يرد لنفسه ظفراً . وكان دانيال

يحب المواقف الزائفة حباً كبيراً .

وسأله بروح المشاركة : — هل انت محتاج اليها حاجة عاجلة ؟ الا يمكنك ان تستعين بآخرين ؟

— اوه ! انت تعلم ، كان هذا خصوصاً لتفادي اللجوء الى جاك .

فقال دانيال خائباً بعض الشيء : — صحيح . ان هنـاك اخاك . انت في هذه الحالة واثق من الحصول على حاجتك .

فبدا على ماتيو اليأس :

— ليس الامر كذلك . لقد قرر في رأسه انه ينبغي الا يعيرني بعد فلساً ، وان ذلك بمثابة خدمة سيئة لي . وقد قال لي : « إن عليك ، وانت في هذه السن ، ان تكون مستقلاً » .

فقال دانيال في وضوح :

— اوه ! ولكن في مثل هذه الحالة ، اكيد انه يعيرك مالاً .

ومدّ على مهل طرف لسانه واخذ يلحس به الشفة العليا برضى : لقد عرف ان يجد على التو تلك الهجة التفاؤلية السطحية المتحمسة التي كانت تثير غضب الناس . وكان ماتيو قد احمرّ :

— لا استطيع ان اقول له ان ذلك من اجل هذا بالذات .

قال دانيال : — هذا صحيح . (وفـكر لحظة) مهما يكن من امر ، فأمامك بعد كما تعلم تلك الشركات التي تُقرض الموظفين . وعليّ ان اقول ان الناس يقعون في معظم الاحوال على مرابين . ولكن الفائدة لا تؤثر عليك ، بمجرد ان يكون معك المال .

فبدا على ماتيو الاهتمام ، وفكر دانيال في ضجر بأنـه قد طمأنه بعض الشيء :

— من هم هؤلاء الناس ؟ هل يعيرون المال على التو ؟

فقال دانيال بحيوية : — آه ، كلا فذلك يقتضـي عشرة ايام : يجب عليهم ان يحققوا في الامر .

وصمت ماتيو ، وكان يبدو انه يفكر ؛ واستشعر دانيال فجأة صدمة صغيرة لينة : لقد قفزت ملفينا الى ركبتيه فاستقرت عليهما وهي تهمهم : « هذه واحدة ليس عندها حقد . » هذا ما فكر به في اشمئزاز. وأخذ يربت عليها بيد خفيفة مهملة . لم يكن الحيوانات والناس يبلغون ان يكرهوه : بسبب نوع من الجمود المفرط البساطة ربما بسبب وجهه . وكان ماتيو قد استغرق في حساباته البائسة الصغيرة : هو ايضاً لم يكن لديه حقد . وانحنى دانيال فوق ملفينا وأخذ يحك رأسها : وكانت يده ترتجف .

وقال من دون ان ينظر الى ماتيو :

ـ سأكون في الحقيقة مسروراً بأن لا يكون معي مال . وقد فكرت في ذلك : انت الذي تريد دائماً ان تكون حراً ، ان ذلك يمنحك فرصة رائعة لتقوم بعمل من اعمال الحرية .

ولم يبدُ على وجه ماتيو انه فهم فقال :

ـ عملٍ من اعمال الحرية ؟

ورفع دانيال رأسه وقال :

ـ نعم ، ليس لك الا ان تتزوج مارسيل .

فنظر اليه ماتيو وهو يقطب حاجبيه : ولا بد انه كان يتساءل عما اذا لم يكن دانيال يسخر منه . وحدّد دانيال بصره بجد متواضع . فسأله ماتيو :

ـ هل انت مجنون ؟

ـ ولماذا ؟ ليس امامك الا كلمة تقولها فتتغير حياتك كلها ، وهذا ما لا يحدث كل يوم .

فأخذ ماتيو يضحك ، وفكر دانيال منزعجاً : « انه يفضل من الموضوع جانبه المضحك » وقال ماتيو :

ـ انك لن تنجح في اغرائي ، ولا سيما في هذه اللحظة .

فقال دانيال باللهجة الخفيفة نفسها :

– ولكن الحقيقة أنه لا بد ان يكون مسلياً جداً ان يفعل الانسان عكس ما يريده . فهو اذ ذاك يشعر بانه اصبح شخصاً آخر .

فقال ماتيو : – واي شخص آخر ؟ اتريدني ايضاً ان اصنع ثلاثة اطفال ، لمجرد اللذة في أن أُحسَّني شخصاً آخر حين آخذهم الى النزهة في اللكسمبورغ ؟ إنني اتصور في الحقيقة انني سأتغير اذا اصبحت شخصاً هالكاً تماماً .

فقال دانيال : « ليس الى هذا الحد ، ليس الى هـــذا الحد الذي تظن » . ثم قال :

– يبدو انه ليس مزعجاً الى حد كبير ان يكون المرء شخصاً هالكاً ، ولكنه في هذه الحالة هالك برمته ، مدفون . شخص متزوج وله ثلاثة اطفال كما تقول . ولا بد ان هذا يهدّئك !

قال ماتيو : – صحيح . انني التقي اشخاصاً كهؤلاء كل يوم . مثلاً : آباء طلاب يأتون لرؤيتي . اربعة صبيان ، ازواج مخدوعون ، اعضاء جمعية اهل الطلاب . انهم يبدون اقرب الى الهدوء ، بل انهم ذوو وداعة.

قال دانيال : – ولديهم ايضاً نوع من المرح . انهـــم يصيبونني بالدوار . وانت ، ألا يغريك ذلك حقاً ؟ انني أتمثلك زوجاً ناجحاً ، وستكون مثلهم ، سميناً مرتباً قريب النكتة ، ذا عينين من السلولوئيد . واحسبني انا لا احتقر ذلك .

قال ماتيو من غير ان ينفعل : – ان هذا يناسبك . اما انا فما زلت افضل ان اطلب خمسة آلاف فرنك من اخي .

ونهض . فوضع دانيال ملفينا ارضاً ونهض هو ايضاً . « هو يعلم انني املك المال ومع ذلك لا يكرهني : فماذا ينبغي اذاً ان نفعل لهم ؟ » . وكانت المحفظة هناك ، وكان حسب دانيال ان يضع يده في جيبه ويقول : « خذ يا عزيزي ، لقد اردت ، على سبيل المزاح ، ان اتفرج

عليك قليلاً . » ولكنه خشي ان يحتقر نفسه . وقال متردداً :

– آسف . سوف اكتب لك ان وجدت وسيلة ما .

وكان قد رافق ماتيو حتى باب الدخول . فقال ماتيو بمرح :

– لا ترهق نفسك ، سوف اتدبر امري .

واغلق الباب . وحين سمع دانيال قدمه الخفيفة على الدرج فكر : « ان هذا غير قابل للاصلاح . » واحس بانقطاع نفسه . ولكن ذلك لم يطل ، وقال في نفسه : « انه لم يكف لحظة واحدة عن ان يكون معتدلاً ، نشيطاً ، في غاية الاتفاق مع نفسه . صحيح انه منزعج، ولكن ذلك يبقى امراً خارجياً . اما في الداخل ، فهو في بيته . » وذهب ينظر الى وجهه الجميل القاتم في المرآة وفكر : « مهما يكن ، فانه يساوي الفاً لو كان مجبراً على ان يتزوج مارسيل . »

٨

كان قد مضى على يقظتها وقت طويل ، ولا بد انها كانت تتأكل. وكان ينبغي طمأنتها والتأكيد لها بانها لن تذهب الى هناك في اي حال . وتمثل ماتيو بحنان وجهها المسكين الحرب الذي رآه ليلة امس فتبدّى له فجأة انه رخص بصورة مؤلمة . « يجب ان اتلفن لها . » ولكنه عزم ان يمر اولاً ببيت جاك : « لربما كان عندي خبر جميل ابلغها اياه » وكان يفكر بغيظ في الهيئة التي سيبدو عليها جاك . هيئة تسلية وتعقل تتجاوز التأنيب كما تتجاوز الرفق ، مع رأس منحن جانباً وعينين نصف مغمضتين . « ماذا ؟ بحاجة ايضاً الى مال ؟ » وقفّ شعر ماتيو لذلك. واجتاز الرصيف وفكر في دانيال : انه لم يكن عاتباً عليه . هكذا . لم يكن مستطاعاً ان يعتب المرء على دانيال . بل كان عاتباً على جاك . وتوقف امام مبنى مربــع في شارع ريومور وقرأ بانزعاج ، شأنه كلّ مرة : « جاك دولارو ، كاتب في محكمة ، الطــابق الثاني » : كاتب في محكمة ! ودخل واخذ المصعد ، وهو يفكر : « ارجو الا تكون اوديت موجودة » .

وكانت موجودة ؛ ولقد لمحها ماتيو عبر الباب الزجاجي للصالون الصغير . وكانت جالسة على ديوان ، انيقة طويلة نظيفة الى حد التفاهة ؛ وكانت تقرأ . وكان جاك يقول برضى : ان اوديت احــدى نساء

باريس النادرات اللواتي يجدن وقتاً للقراءة » .

وسألت روز :

– هل يريد السيد ماتيو ان يرى السيدة ؟

– نعم . سوف اسلم عليها ؛ ولكن هل لك ان تخبري السيد أنني سألقاه بعد لحظة في مكتبه ؟

ودفع الباب فرفعت اوديت نحوه وجهها الجميل العاق المزيّن ، وقالت بلهجة مسرورة :

– مرحباً ، ماتيو . هل جئت تزورني ؟

فقال ماتيو : « أزورك ؟ » . وكان ينظر بود ممتعض هذا الجبين الهادىء العالي وهاتين العينين الخضراوين . كانت جميلة من غير شك ولكن جمالاً يبدو انه كان يفرّ من تحت الانظار . وكان ماتيو قد حاول مئة مرة ، وهو الذى اعتاد وجوهاً كوجه لولا الذي كان حسه يفرض نفسه منذ الوهلة الاولى بقسوة – حاول ان يمسك هذه الملامح الهاربة . ولكنها كانت تفر ، وكان مجموعها ينحلّ في كل لحظة فيحتفظ وجه اوديت بسره البرجوازي المخيّب . وقال ماتيو :

– وددت لو كانت هذه الزيارة لك ، ولكن يجب ان ارى جاك، فان عندي خدمة اطلبها منه .

قالت اوديت : – ولكنك لست مستعجلاً الى هذا الحد ، ان جاك لن يهرب . اجلس هنا .

وافسحت له مكاناً الى جانبها . وقالت وهي تبتسم :

– حذار ، فقد اغضب منك ذات يوم . انك تهملني . وان لي الحق بان تزورني شخصياً ؛ فلقد وعدتني بذلك .

– يعني انك انت التي وعدتني بان تستقبليني ذات يوم .

فقالت ضاحكة :

– كم انت مؤدّب ! انك لست مرتاح الضمير .

وجلس ماتيو . وكان يحب اوديت كثيراً . ولكنه لم يكن يدري قط ما ينبغي ان يقوله لها .

– كيف حالك يا اوديت ؟

وسكب حرارة في صوته ليخفي بلادة سؤاله . فقالت :

– جيد جداً . اتدري اين كنت هذا الصباح ؟ كنت في سان جرمان بسيارتي لأرى فرنسواز ، وقد سحرني ذلك .

– وجاك ؟

– انه مشغول جداً في هذه الايام . فانا لا اكاد اراه . ولكن صحته فظيعة كالعادة .

وأحس ماتيو فجأة باستياء عميق . وفكر : « انها لجاك . » ونظر بضيق الى الذراع الطويلة السمراء التي كانت تخرج من ثوب بسيط جداً يشده عند الخصر زنار احمر ، ثوب يكاد يكون لفتاة . كانت الذراع والثوب والجسد الذي تحت الثوب ملك جاك ، كهذه الاريكة ذات الوسادة ، وهذه الخزانة البلاذرية ، وهذا الديوان . لقد كانت هذه المرأة المتحفظة المحتشمة تفوح منها رائحة الامتلاك . وساد صمت . ثم اتخذ ماتيو الصوت الحار الأنفي الذي كان يحتفظ به لاوديت فقال :

– ان ثوبك جميل جداً .

قالت اوديت بضحكة مغتاظة :

– اوه ، اسمع ، دع هذا الثوب وشأنه ! انك كلما رأيتني حدثتني عن اثوابي . قل لي بالاحرى ماذا فعلت هذا الاسبوع ؟

وضحك ماتيو ايضاً وكان يحس نفسه منفرجاً .

– الحق ان عندي شيئاً اقوله عن هذا الثوب بالذات .

قالت اوديت : – يا الهي ، وما عساه يكون ؟

– انني اتساءل عما اذا لم يكن واجباً عليك ان تضعي في اذنيك اقراطاً حين ترتدينه .

– اقراط ؟

ونظرت اليه اوديت نظرة فريدة . فقال ماتيو :

– هل تجدين ان ذلك سيكون مبتذلاً ؟

– على الاطلاق . ولكن هذا يجعل الوجه غير متحفظ .

ثم اضافت فجأة وهي تضحك :

– لا شك في انك ستكون اكثر ارتياحاً معي اذا لبست اقراطاً .

فقال ماتيو بابهام : – كلا ، ولماذا ؟

وكان مدهوشاً ، وكان يفكر : «انها ليست غبية بالتأكيد» . وكان رأيه في ذكاء اوديت مثل رأيه في جمالها : كان لديها شيء لا يمكن لمسه .

وساد صمت ؛ ولم يدر ماتيو ما يقوله بعد . ومع ذلك فلم يكن راغباً في الذهاب ، كان يتذوق لوناً من الطمأنينة . وقالت له اوديت بلطف :

– انني مخطئة في امساكك . إذهب سريعاً الى جاك ، فيبدو عليك انك مهموم .

ونهض ماتيو . وفكر في انه سيطلب مالاً من جاك،فشعر بتنمّلات في اطراف اصابعه . وقال بشغف :

– الى اللقاء يا اوديت . لا لا . لا تزعجي نفسك . سأمر ثانية لاودعك .

وكان يسائل نفسه وهو يطرق باب جاك الى اي حدّ كانت هي ضحية .؟ ان المرء لا يعرف الحقيقة مع هذا النوع من النساء .

وقال جاك :

– ادخل .

ونهض نشيطاً مستقيماً ، وتقدم من ماتيو . وقال بحرارة :

– مرحباً ، ايها العزيز . كيف الحال ؟

وكان يبدو افتى كثيراً من ماتيو بالرغم من انـه كان الابن الاكبر. وكان ماتيو يجده يسمن لدى الجنبين بالرغم من انه كان لا بد لابساً مشداً .

وقال ماتيو ببسمة ودية :

– مرحباً .

وكان يستشعر الزيف ، انه منذ عشرين عامـاً يستشعر الزيف كلما كان يفكر بأخيه او يراه . وقال جاك :

– نعم . ما الذي اتى بك ؟

فأشار ماتيو بحركة مقطبة . فسأله جاك :

– ليس الامر على ما يرام ؟ ولكن اجلس على هذه الاريكة . هل تريد قدح ويسكي ؟

قال ماتيو :

– لا بأس بالويسكي .

وجلس منقبض الحنجرة . وكان يفكر : سأشرب الويسكي وامضي من غير ان اقول كلمـة . ولكن الاوان قد فات ، فقد كان جاك يعرف تماماً ما ينبغي عمله : « سيفكر ببساطة انني لم اجرؤ على طلب المعونة منه » . وكان جاك ما يزال واقفاً . وتناول زجاجة ويسكي وملأ قدحين وهو يقول :

– هذه آخر زجاجاتي ، ولكنني لن اجدد مؤونتي قبل الخريف . اننا لا ننفك نطلب كأساً من الجن – فز ، في اثناء الايام الحارة ، غير ان هذا افضل ، فما رأيك ؟

فلم يجب ماتيو ، وكان ينظر بلا وداعة الى هـذا الوجه الوردي النضر ، وهذا الشعر الاشقر المقصوص قصيراً . وكان جاك يبتسم ببراءة . وكان شخصه كله يتنفس البراءة ، بيد ان عينيه كانتا قاسيتين . وفكر ماتيو بغضب : « انه يتصنع البراءة ، وهو يعلم جيداً لماذا جئت وهو

الآن يبحث عن شخصه . » وقال بقسوة :

– انت تحزر جيداً اني جئت اطلب منك معونة .

هكذا ، لقد أُلقيتْ الكلمة . ولم يكن بوسعه الآن ان يتراجع بعد؛ فقد بدأ اخوه يرفع حاجبيه كمن اصيب بدهشة عميقة . وفكـــر ماتيو بامتعاض : « انه لن يوفر عليّ شيئاً . » وقال جاك :

– ولكن لا ، لم احزر ذلك . ولماذا تريدني ان احزره ؟ هل تشير بذلك الى ان هذا هو الغاية الوحيدة لزيارتك ؟ .

وجلس ، وهو ما يزال مستقيم القامة ، متصلباً بعض الشيء ، وشبك ساقيه بمرونة ، كأنما ليعوض عن صلابـة صدره . وكان يرتدي بذلة رياضية رائعة من القماش الانكليزي . وقال ماتيو :

– لا اريد ان اشير الى شيء على الاطلاق .

وطرف بعينيه واضاف وهو يضغط قدحه بقوة :

– ولكني بحاجة الى اربعة آلاف فرنك بين اليوم والغد .

« سيقول لا . المهم ان يرفض بسرعة فأستطيـع ان افرنقع . »

ولكن جاك لم يكن مستعجلاً قط : كان كاتبــاً في محكمة ، وكان لديه الوقت الكافي . وقال وهو يهز رأسه هزة عارف :

– اربع اوراق ؟ . ولكن قل لي ! من تظنني ؟

ومد ساقيه وتأمل حذاءه في سرور وقال ؟

– انك تسلّيني يا ماتيو ، تسلّيني وتعلّمني . اوه . لا تحمل مـا اقوله على محمل السوء (قال ذلك حين رأى حركة من ماتيو) فانا لا افكر في انتقاد مسلكك ، ولكني مع ذلك افكر ، واسائل نفسي وارى ذلك من فوق ، وكدت أقول « كالفيلسوف » لو لم اكن اتحدث حقاً الى فيلسوف . اسمع ! انني حين افكر فيك ازداد اقتناعاً بان المرء ينبغي الا يكون رجل مبادىء . اما انت فمحشوّ بالمبادىء . وانت تخترع المزيـــد منها ولا تنسجم معها . نظرياً ليس هناك من هو اكثر استقلالاً منك.

وهذا جميل ، انك تعيش فوق الطبقات . غير اني اتساءل ما عساك تصبح لو لم اكن موجوداً . لاحظ انني اسعد مما ينبغي ، انا الذي ليس لي مبادىء ، في ان استطيع معاونتك بين وقت وآخر . ولكن يخيّل الي انني لو كنت املك افكارك لحرصت علـى الا اطلب شيئاً من بورجوازي كريه (واضاف وهو يضحك من كل قلبه) ذلك انني بورجوازي كريه .

واستطرد وهو لا يكفُّ عن الضحك :

وهناك ما هو اسوأ من ذلك . وهو انك – انت الذي تبصق على العائلة – تستغل علاقاتنا العائلية لتطلب مني المعونة . فالحق انك ما كنت تتوجه الي لو لم اكن اخاك .

ثم بدت عليه امائر الاهتمام الصريح فتساءل :

– الا يزعجك هذا كله في آخر المطاف ؟

قال ماتيو وهو يضحك ايضاً :

– انني مضطر الى ذلك .

لن ينخرط في مناقشة فكرية . فان المناقشات الفكرية مـع جاك كانت تنتهي دائماً نهاية سيئة . وكان ماتيو يفقد فوراً رباطته . وقال جاك ببرودة :

– نعم . بالطبع . الا تظن ان قليلاً من التنظيم ؟ ... ولكن هذا هو بلا شك مناقض لأفكارك . لاحظ جيداً اني لا اقول ان هـذه غلطتك : انها في نظري غلطة المبادىء .

قال ماتيو ليجيب بشيء ما :

– انت تعلم ان رفض المبادىء هو ايضاً مبدأ .

قال جاك : – اوه . ليس هذا بالضرورة .

وقال ماتيو في نفسه : انه الآن سيدفع . ولكنه نظر الى خدي اخيه الممتلئين وسحنته المزهرة وهيئته المكشوفة ، والمصدومة مع ذلك ، وفكر

والانقباض في صدره : « يبدو ان الانفراج ممتنع عليه . » ولحسن الحظ استطرد جاك يقول مردداً :

— اربع اوراق . ان هذه حاجة مفاجئة . فحين جئتني في الاسبوع الماضي تطلب خدمة صغيرة ، لم يكن هذا الموضوع وارداً .

قال ماتيو : — صحيح . ان هذا ... ان تاريخ هذا هو الأمس فقط .

وفكر فجأة في مارسيل ، وتمثلها كئيبة عارية في الغرفة الورديـــة فأضاف بلهجة ملحة ادهشته هو نفسه :

— جاك ، انني بحاجة الى هذا المال .

فرمقه جاك بفضول وعضّ ماتيو على شفتيه : ان الاخوين لم يعتادا، اذا كانا معاً ، ان يظهرا عواطفهما بمثل هذه الطريقة الحيّة .

— الى هذا الحد ؟ هذا غريب . انك مع ذلك آخر من ... انك ... عادة تستدين مني قليلاً من المال لانك لا تعرف او لا تريد ان تنظم نفسك . ولكني ما كنت لاظن قط ... (واضاف بلهجة مستفهمة بعض الشيء) طبعاً لن اسألك شيئاً .

وكان ماتيو متردداً : هل اقول له انها ضرائبي ؟ لا . هو يعرف اني قد دفعتها في ايار . وقال فجأة :

— ان مارسيل حامل .

واحس بأنه يحمر فهز كتفيه ، ولمَ لا ، بعد كل حساب ؟ لماذا هذا الخجل المحرق المفاجىء ؟ ونظر الى اخيه مواجهة بعينين عدوانيتين . وبدا على جاك الاهتمام .

— أكنت تريد ولداً ؟

كان يتقصد الا يفهم . فقال ماتيو بلهجة كاسرة :

— كلا ، وانما كان ذلك عرضاً .

قال جاك : — ان هذا ليدهشني ايضاً . لقد كان بوسعك ان تريد دفع تجاربك حتى النهاية خارج النظام القائم ...

– نعم . ولكن ليس الأمر هكذا على الاطلاق .

وساد صمت ، ثم استأنف جاك وقد استعاد انطلاقه :

– واذاً ؟ متى يكون الزواج ؟

فاحمر ماتيو من الغضب : ان جاك يرفض كعادته ان يواجه الموقف بطريقة شريفة ، فهو يدور حوله بعناد ، وفي هذه الاثناء يجهد فكره في ايجاد عش نسر يستطيع منه ان يأخذ نظرات سابحة على مسلك الآخرين . فمهما قيل له ومهما عُمل ، فان حركته الاولى انما يفعلها ليرتفع فوق المناقشة . وما كان يستطيع ان يرى منها شيئاً الا من علُ ، كان مشغوفاً بأعشاش النسور . وقال ماتيو بوحشية :

– لقد قررنا ان تجهض .

فلم يتحرك جاك وقال بلهجة محايدة : – وهل اجتمعت بطبيبك ؟

– نعم .

– هل هو رجل مأمون ؟ ان صحة هذه المرأة الشابة ، هي على ما قلت لي ، رقيقة .

– لدي اصدقاء يضمنونه .

قال جاك : – نعم ، نعم ، طبعاً .

واغمض عينيه لحظة ثم فتحها . وضمّ يديه باطراف اصابعه وقال :

– ان قضيتك بالاجمال ، اذا فهمتك جيداً ، هي التالية : لقد علمت ان صديقتك حامل ، وانت لا تريد ان تتزوج لأسباب مبدئية ، ولكنك تعتبر نفسك ملتزماً تجاهها بواجبات لا تقل حساً عن واجبات الزواج . ولما كنت لا تريد ان تتزوجها ولا ان تلحق الأذى بسمعتها ، فقد قررت ان تجهضها في افضل الظروف الممكنة . وقد اوصاك بعض اصدقائك بطبيب موثوق يطلب منك اربعة آلاف فرنك . فلم يبق لك الا ان تحصل على المبلغ . ان الأمر كذلك .

قال ماتيو : – تماماً !

ــ ولماذا انت محتاج الى المال بين اليوم والغد ؟
ــ ان الطبيب المشار اليه مسافر الى اميركا بعد ثمانية ايام .
قال جاك : ــ حسناً ، فهمت !
ورفع يديه المضمومتين حتى مستوى عينيه وتأملها بدقة كمن ليس له بعد الا ان يستخرج النتائج مما قال . ولكن ماتيو لم ينخدع بذلك : ان كاتب محكمة لا ينتهي الى النتائج بسرعة . وكان جاك قد خفض يديه ووضعها على ركبتيه ، بعد ان فكها واستغرق في اريكته وكفت عيناه عن البريق . وقال بصوت ناعم :
ــ انهم ينظرون في هذه اللحظة الى عمليات الإجهاض نظرة قاسية جداً .
فقال ماتيو : ــ اعرف هذا . فانه يتفق لهم ذلك بين وقت وآخر فيضعون في السجن بعض الأفراد المساكين الذين ليس لهم من يحميهم ، ولكن الاخصائيين الكبار لا يشعرون بأي قلق .
قال جاك ــ : تريد ان تقول : ان في هذا ظلماً . وانا من رأيك تماماً ولكني لا استنكر النتائج كلياً . فان افرادك هؤلاء المساكين ، هم بطبيعة الاشياء ، من العقاقيريين او من صانعات الملائكة الذين يتلفون امرأة تخصلك بآلات قذرة .
قال ماتيو متضايقاً :
ــ مهما يكن فاني جئت اطلب منك اربعة آلاف فرنك .
قال جاك : ــ و ... هل انت متأكد تماماً بأن الاجهاض منسجم ومبادئك ؟
ــ ولِمَ لا ؟
ــ لا ادري . فعليك انت ان تدري ذلك . انت من دعاة السلام بدافع من احترامك للحياة البشرية ، وها انت ستهدم حياة .
فقال ماتيو : ــ انني مصمم تماماً . وقد اكون مسالماً ، ولكني لا

احترم الحياة البشرية . فلا بد انك تخلط بينهما .

قال جاك : — آه .. كنت اظن ..

وكان يتأمل ماتيو بهدوء منبسط .

— ها انت ذا الآن تلبس جلد قاتل الاطفال . وكم يتعارض ذلك ونفسيتك يا عزيزي ماتيو !

وفكر ماتيو : انه يخشى ان يأخذوني : فهو لن يعطي فلساً واحداً . وكان يود لو يستطيع ان يقول له : « اذا دفعت ، فلن تتعرض لأية مخاطرة . لأني سوف اتوجه الى رجل بارع ليس اسمه مسجلاً على لوائح الشرطة . اما اذا رفضت فسأضطر لارسال مارسيل الى عقاقيري ، وفي هذه الحالة لن اضمن شيئاً ، لأن الشرطة تعرفهم كلهم وتستطيع ان تقبض عليهم بين ليلة وضحاها » . ولكن هذه الحجج كانت مباشرة اكثر مما ينبغي بحيث لن تؤثر على جاك ؛ واكتفى ماتيو بالقول :

— ان الاجهاض ليس جريمة قتل ولد .

وتناول جاك سيكارة واشعلها .وقال بلا حماس :

— نعم . اقرّ ذلك . ليس الاجهاض قتل ولد . ولكنه قتل « ميتافيزيقي » (واضاف بجد) ليس لي يا عزيزي ماتيو اعتراض على القتل الميتافيزيقي كما انه ليس لي اعتراض على الجرائم الكاملة . اما ان ترتكب انت قتلاً ميتافيزيقياً ، انت ، على ما انت عليه ...

وصفق لسانه بلهجة تأنيب واضاف :

— كلا . ان هذه بكل تأكيد نغمة ناشزة .

انتهى الأمر ، ان جاك يرفض ، وسيكون بوسع ماتيو ان يذهب ، وقد اوضح صوته وسأل تبرئة لذمته :

— اذاً فلا تستطيع ان تساعدني ؟

فقال جاك : — افهمني جيداً . فأنا لا ارفض ان تؤدي لك خدمة . ولكن اتكون هذه حقاً خدمة ؟ ثم انني مقتنع بأنك ستجد بسهولة المال

الذي تحتاج اليه ...

ونهض فجأة كما لو انه اتخذ قراراً ما واقبل يضع يده بود على كتف اخيه ويقول بحرارة :

- اسمع يا تيو . لنقل اني رفضت : فانا لا اريد ان اساعدك على ان تكذب على نفسك . ولكني سأقترح عليك شيئاً آخر ...

وكان ماتيو علي وشك النهوض ، فوقع على مقعده واخـذه مرة اخرى غضبه الأخوي . ان ذلك الضغط الصلب والعذب على كتفه كان امراً غير محتمل ؛ وارتد برأسه الى خلف ورأى وجه جاك مختصراً .

- اكذب على نفسي ؟ اسمع يا جاك . قل بالأحرى انك لا تريد ان تلطّخ نفسك في عملية اجهاض او انك لا توافق على ذلك ، او انك لا تملك المال الضروري ، فهذا من حقك ولست املك ان اؤاخذك عليه ، ولكن لماذا تحدثني عن الكذب ؟ فليس هنا اي كذب . انني لا اريد اولاداً : ولكن يأتيني ولد ، فأحذفه ، هذا كل ما في الأمر .

وسحب جاك يده وخطا بضع خطوات وهو يفكر ، وفكر ماتيو :

« سيلقي عليّ خطاباً ، وقد كان عليّ الا اقبل اية مناقشة » .

وقال جاك بصوت رصين :

- اني يا ماتيو اعرفك اكثر مما تظن وانك لترعبني . لقد مضى وقت طويل وانا اخشى شيئاً من هذا القبيل : ان هـذا الطفل الذي سيولد هو النتيجة المنطقية لوضع ارتضيته لنفسك ، وتريد ان تحذفه لأنك لا تريد ان تقبل جميع نتائج تصرفاتك . اسمع ، هل تريـد ان اقول لك الحقيقة ؟ ربما كنت لا تكذب على نفسك في هذه اللحظة بالذات ولكن حياتك برمتها قائمة على كذبة .

قال ماتيو ، وكان يبتسم :

- ارجوك ، لا تزعج نفسك : علّمني ما اخفيه عن نفسي .

فقال جاك : - ان ما تخفيه عن نفسك هو انك بورجوازي مخجل ؛

ولكني عدت الى البورجوازية بعد الوان كثيرة من الضياع والشرود ، فعقدت معها زواجاً عـاقلاً ؛ امـا انت ، فانك بورجوازي بالذوق ، بالمزاج ، ومزاجك هو الذي يدفعك الى الزواج (واضاف بقوة) ذلك انك متزوج يا ماتيو .

فقال ماتيو : — يا للنبأ الجديد !

— اجل . انك متزوج ولكنك تزعم العكس لان لديك نظريات . لقد اخذت عاداتك عند هذه المرأة الشابة : فانت تاتقي بها اربع مرات في الاسبوع وتقضي الليل معها . وهذا مستمر منذ سبعة اعوام ، فليس فيه بعد اي اثر من مغامرة ، انك تحترمها وتشعر بواجبات نحوهـا ، ولا تريد ان تتركها . وانا على يقين بانك لا تلتمس اللذة وحدها ، بل انا اتصور ان اللذة مهما كانت قوية ، فلا بد انها مع الزمن قد ضعفت ؛ والواقع انك لا بد ان تجلس اليها في المساء لتسرد عليها مطولاً حوادث اليوم وتطلب نصيحتها بصدد بعض الحالات الصعبة .

قال ماتيو وهو يهز كتفيه : « طبعاً » . وكان غاضباً على نفسه ؛ فقال جاك :

— حسناً ! هل تريد ان تقول لي بمَ يختلف ذلك عن الزواج الا بالسكنى الدائمة ؟

فقال ماتيو ساخراً :

— السكنى الدائمة ؟

— اتصور انه لن يكلفك كثيراً ان تستنكف عنها .

وفكر ماتيو : « لم يسبق له ان صارحني من قبل بهذا كله . انـه ينتقد » . وكان لم يبق له الا ان يصفق الباب . ولكن ماتيو كان يعرف انه باق حتى النهاية : كانت لديه رغبة مقاتلة ومستعدية في ان يعرف رأي اخيه . فقال :

— ولماذا تقول : ان ذلك لن يكلفني كثيراً ؟

ـ لانك تكسب هناك الراحة وتكسب مظهراً من الحرية : ان لك جميع حسنات الزواج ، ولكنك تستخدم مبادئك لترفض مساوئه . انك ترفض ان تجعل الوضع شرعياً ، وهذا امر يسير عليك . فاذا كان هناك من يتألم من ذلك ، فلست اياه .

قال ماتيو بصوت متجبر :

ـ ان مارسيل تشاطرني آرائي في الزواج .

وكان يستمع الى نفسه وهو يلفظ كل كلمة فيجد انه كريه جداً . وقال جاك :

ـ اوه ! لو لم تكن تشاطرك اياها فسوف تكون بلا شك اوفر كبرياء من ان تصارحك بها . اتدري اني لست افهمك ... انت السريع الغضب اذا سمعت من يتحدث عن الظلم ، ومع ذلك تجعل هذه المرأة في وضع ذليل منذ اعوام لمجرد اللذة في ان تقول لنفسك انك منسجم ومبادئك . وليت هذا كان صحيحاً . ليتك تطابق حقاً حياتك على افكارك . ولكني اكرر لك انك متزوج وان لك شقة لطيفة ، وانك تقبض في مواعيد محددة راتباً طيباً ، وليس عندك اي قلق بشأن المستقبل ما دامت الدولة تضمن لك تقاعداً ... وانك تحب هذه الحياة الهادئة المنظمة ، حياة موظف حقيقية .

قال ماتيو : ـ اسمع ، ان بيننا سوء تفاهم . انه لا يهمني الا قليلاً ان اكون بورجوازياً او لا اكون . بل كل ما اريده هو ... (وانهى عبارته بين اسنان مشدودة في شيء من الخجل) هو ان احتفظ بحريتي .

فقال جاك : ـ كنت احسب انا ان الحرية هي في مواجهة الاوضاع التي يختارها الانسان بملء ارادته وفي قبول جميع تبعاتها . ولكن هذا ليس هو رأيك : انك تشجب المجتمع الرأسمالي ، ومع ذلك فانت موظف في هذا المجتمع ، وانك تكن وداً مبدئياً للشيوعيين : ولكنك تحاذر جداً ان تلتزم ، وانت لم تقترع قط . وانك تحتقر الطبقة

البرجوازية وانت مع ذلك برجوازي ابن برجوازي واخو برجوازي وتعيش كأنك برجوازي .

واشار ماتيو بحركة من يده ولكن جاك لم يدع له ان يقاطعه فقال بشفقة مؤنبة :

– لقد بلغت مع ذلك سن الرشد يا عزيزي ماتيو . ولكنك تخفي عن نفسك هذا ايضاً ، وتريد أن تجعل نفسك اصغر مما انت . والحق اني ربما كنت ظالماً ، فلعلك لم تبلغ بعد سن الرشد . لأنها سن معنوية ، ولعلني بلغتها قبلك .

وفكر ماتيو : « حسناً ، سيحدثني الآن عن شبابه . » وكان جاك شديد الاعتزاز بشبابه ، وكان ذلك ضمانته . كان يتيح له ان يدافع عن قضية النظام بضمير مرتاح . فطوال خمسة اعوام قلّد باجتهاد جميع الوان الشرود التي كانت شائعة ، فاعتنق السريالية وكانت له علاقات مثيرة للغرور ، وتشمم احياناً ، قبل ان يضاجع ، منديلاً مبللاً بكلورور الخدر الاثيري . وذات يوم نظّم حياته حين حملت له اوديت ستمئة الف فرنك كمهر . وكان قد كتب لماتيو يقول : « ينبغي ان تكون لنا شجاعة ان نعمل كجميع الناس حتى لا نكون كأحد . » وكان قد اشترى دراسة كاتب محكمة . وقال :

– انني لا الومك على شبابك ، على العكس فقد كنت محظوظاً في تجنب بعض الانحرافات . غير اني مع ذلك لست آسفاً على شبابي . والحق انه كان امامنا نحن الاثنين ، كما تعلم ، ان نستهلك غرائز جدنا القرصان ، غير اني استنفدتها انا كلها دفعة واحدة . أما أنت فتستهلكها بالتقسيط . وينقصك ان تمس قعرها . واعتقد انك في الاصل كنت اقل قرصنة مني وهذا الذي يضيعك : ان حياتك هي تسوية ابدية بين حس تمرد وفوضى متواضع جداً في حقيقته وبين نزعاتك العميقة التي تدفع بك الى النظام والصحة المعنوية ، واكاد اقول الروتين . والنتيجة هي انك ظللت طالباً قديماً غير مسؤول . ولكن انظر الى نفسك جيداً يا

عزيزي . إنك في الرابعة والثلاثين وان شعرك يبيض قليلاً . ليس بقدر شعري طبعاً . – وليس فيك بعد شيء من الفتوة . وان حياة البوهيمي لا تناسبك . وما هي البوهيمية حقاً ؟ لقد كان ذلك شيئاً جميلاً منذ مئة عام . اما اليوم فهي قبضة من التائهين لا يشكلون خطراً على احد وقد فاتهم القطار . انك في سن الرشد يا ماتيو ، انك في سن الرشد، او ينبغي ان تكون فيه .

قال ماتيو : – اسمع ! ان سن رشدك انت انما هي سن الخضوع ، وانا لست حريصاً عليها على الاطلاق .

ولكن جاك لم يكن ، لشروده ، يصغي اليه . وقد اصبح نظره فجأة صافياً ومرحاً فاستطرد يقول بحيوية :

– اسمع ، قلت لك اني سأقدم لك اقتراحاً ، فاذا رفضت فلن يصعب عليك ان تجد أربعة آلاف فرنك . ولن اندم . انني اضع عشرة آلاف فرنك تحت تصرفك اذا تزوجت صديقتك .

وكان ماتيو قد تنبأ بذلك . وكان هذا على اي حال ييسّر له مخرجاً صالحاً ينقذ المظهر ؛ فقال وهو ينهض :

– اشكرك يا جاك ، انك لطيف جداً ، ولكني لا أوافق على اقتراحك . انا لا اقول انك مخطىء على طول الخط ، ولكن اذا كان لا بد لي من ان اتزوج يوماً ، فيجب أن تأتيني الرغبة لذلك . أما الآن ، فلن يكون الزواج الا ضربة عناد بليدة لأخرج من المغطس .

ونهض جاك ايضاً وهو يقول :

– فكّر جيداً ، وخذ وقتك . ان امرأتك ستُستقبل هنا استقبالاً جيداً . ولست بحاجة الى ان أقول لك ذلك ، فاني واثق باختيارك ، وستكون اوديت سعيدة في ان تعاملها كصديقة . والحق ان زوجتي تجهل كل شيء عن حياتك الخاصة .

فقال ماتيو : – لقد فكرت في الأمر ملياً .

قال جاك بلهجة ودية (اتراه كان مستاءً الى هذا الحد ؟) ...
– كما تشاء . (وأضاف) متى نراك ؟ .
فقال ماتيو : – سآتي يوم الاحد لتناول الغداء . الى اللقاء .
قال جاك : – الى اللقاء ، و ... اذا خطر لك ان تغير رأيك ، فان اقتراحي يظل قائماً .

وابتسم ماتيو وخرج من غير ان يجيب . وفكر : « انتهى الامر ! انتهى الامر ! » وهبط السلم وهو يعدو ، ولم يكن جذلاً ، ولكنه كان راغباً في الغناء . والآن لا بد ان جاك قد عاد يجلس الى مكتبه ، شارد العين ، ذا ابتسامة حزينة ورصينة : « ان هذا الفتى يقلقني ، بالرغم من انه بلغ سن الرشد . » او ربما ذهب يقوم بدورة لدى اوديت : « ان ماتيو يسبب لي القلق . اني لا استطيع ان اقول لك لماذا ، ولكنه ليس عاقلاً . » وما عساها تقول ؟ اتراها ستلعب دور المرأة الناضجة المفكرة ، ام انها ستقتصر على بعض حركات الموافقة السريعة من غير ان ترفع انفها عن كتابها ؟

وقال ماتيو لنفسه : « عجباً ، لقد نسيت ان اودع اوديت ! » وندم على ذلك : وكان مستعداً لأن يستشعر الندم . « لعل هذا صحيح ! أتراني اجعل مارسيل حقاً في وضع ذليل؟ » وتذكر هجمات مارسيل العنيفة ضد الزواج : « والحق انني عرضت عليها الزواج . مرة . منذ خمس سنوات . » والواقع ان ذلك كان في الهواء . ومهما يكن فقد سخرت منه مارسيل . وفكر : « آه ! الحقيقة ان عندي عقدة نقص إزاء اخي ! » ولكن لا ؛ لم يكن الامر كذلك ، مهما كان شعوره بالذنب ، فان ماتيو لم يكف قط عن ان يعطي نفسه الحق ضد جاك. « غير ان الامر هو ما يلي : انه قذر يملك علي نفسي . فاذا لم اخجل امامه ، فاني اخجل من اجله . آه ! (وفكر :) » ان المرء لا ينتهي مع اهله . وهذا يشبه الجدري . فهي تصيبك اذ تكون طفلاً

وتطبعك مدى الحياة » وكانت هناك حانة عند زاوية شارع مونتورغوي : فدخل .وأخذ قطعة بديلة من الصندوق . وكانت غرفـــة التلفون في زاوية مظلمة . وكان منقبض القلب حين فتح الآ لة .

ـ الو ! الو ! مارسيل ؟

وكان تلفون مارسيل في غرفتها . فقالت :

ـ هذا انت ؟

ـ نعم .

ـ ماذا هناك ؟

ـ كان الامر مستحيلاً مع العجوز .

فقالت مارسيل بلهجة ارتياب : ـ هِمْ !

ـ اؤكد لك . كانت سكرى تقريباً ، وكان الوضع منتناً عندها ، ومقرفاً ، وليتك رأيت يديها . ثم انها متوحشة .

ـ طيب . وبعد ؟

ـ ان هناك شخصاً آخر . بواسطة ساره . شخص جيد جداً .

وقالت مارسيل بلا اكتراث :

ـ آه ! وكم ؟

ـ اربعة آلاف .

فردّدت مارسيل غير مصدقة :

ـ كم ؟

ـ اربعة آلاف .

ـ اترى اذاً ! ان هذا غير ممكن ، يجب ان اذهب ...

قال ماتيو : ـ لن تذهبي . بل سأستدين .

ـ ممن ؟ من جاك ؟

ـ انني خارج من لدنه .

ـ ودانيال . ؟

– انه يرفض ايضاً ، الحيوان !. لقد رأيته هذا الصباح وانا متأكد انه محشو حشواً .

فسألته مارسيل بحماسة :

– انك لم تقل له ان ذلك كان من اجل ... هذا .

فقال ماتيو : – لا .

– وما الذي ستفعله ؟

– لا ادري . (وشعر بأن صوته يعوزه التأكيد فأضاف بحزم :) « لا تنزعجي . ان امامنا ثماني واربعين ساعة : وسوف اجد المال . حين يتدخل الشيطان في الموضوع فان اربعـة آلاف فرنك لا بد ان توجد . »

وقالت مارسيل بلهجة غريبة :

– حسناً جِدْها ، جِدْها .

– سأخبركِ . هل نحن على موعدنا مساء الغد ؟

– نعم .

– وهل انت بخير ؟

– لا بأس .

– انت لست ...

فقالت مارسيل بصوت جاف :

– بلى . انني اشعر بالضيق . (واضافت بلهجة اعتذار) . مهما يكن ، فاعمل جهدك انت يا عزيزي المسكين .

قال ماتيو : – سآتيك بالآلاف الاربعة مساء الغد .

وتردد وأضاف بجهد :

– احبك .

فأعادت مارسيل السماعة من غير ان تجيب . وخرج من الغرفة . وحين كان يعبر المقهى كان ما يزال يسمع صوت مارسيل الجاف :

« اشعر بالضيق » انها حاقدة علي . بالرغم من انني افعل ما استطيع . « في وضع ذليل » اصحيح اني اضعها في وضع ذليل ؟ واذا ... وتوقف عند حافة الرصيف . واذا كانت تريد الطفل ؟ في هذه الحالة، كل شيء ينقلب ، كان يكفي التفكير بذلك لحظة ليأخذ كل شيء اتجاهاً آخر . فتلك هي قصة اخرى ، وان ماتيو ، ماتيو نفسه ، سيتغير من الرأس حتى القدم ، وهو لم يكفّ عن ان يكذب على نفسه ، اذ كان رجلا قذراً ، رائع القذارة . ومن حسن الحظ ان هذا لم يكن صحيحاً . ولا يمكن ان يكون صحيحاً . فلقد سمعتها غالباً تسخر من صديقاتها المتزوجات اذ يكن حاملات . وكانت تدعوهن « اوعية مقدسة » وكانت تقول : « انهن ينفجرن فخراً لأنهن سيبضن . » وان من يقول هذا ، لا يحق له ان يغير رأيه برأي لطيف، لأن ذلك سيكون استغلالاً للثقة . وان مارسيل غير جديرة باستغلال الثقة ؛ والا لقالت لي ، ولماذا تراها لا تقول لي ، ما دمنا نتكاشف كل شيء . اوه ! ثم... كفى ! كفى ! لقد اتعبه ان يدور في هذا الدغل المعقد. مارسيل، ايفيش ، المال ، ايفيش ، مارسيل ، سأفعل كل ما ينبغي . ولكني اود ان لا افكر بعد ذلك ، بحياة الرب ، اريد ان افكر بشيء آخر . وفكر ببرونيه ، ولكن ذلك كان ابعث على الحزن : صداقة ميتة ؟ وكان يحس انه ثائر الاعصاب وحزين لأنه كان سيراه مرة ثانية . ورأى كشكاً للصحف فاقترب منه : « باري – ميدي ، من فضلك . »

وكان قد نفد ، فأخذ صحيفه بلا تمييز : وكانت « اكسلسيور ». ودفع ماتيو ثمنها ومضي . « اكسلسيور » لم تكن صحيفة مؤذية . وكانت من ورق سميك حزين ومخملي كأنه التبيوكه . ولم يكن من شأنها ان تثير غضبك ، وكل ما هناك انها كانت تنزع منك مذاق الحياة فيما انت تقرأها . وقرأ ماتيو : « قصف فالنسيا من الجو » . ورفع رأسه

مغتاظاً غيظاً مبهماً : كان شارع ريومور من نحاس مسود . الساعـة الثانية ، لحظة النهار التي يبلغ فيها الحر أكأب صوره ، اذ كان يتلوى ويفرقع في وسط الرصيف كأنه شرارة كهربائية طويلة. « اربعون طائرة تدور طوال ساعة فوق وسط المدينة وتقذف مئة وخمسين قنبلة . العدد الدقيق للموتى والجرحى لا يزال مجهولاً . » ورأى من طرف عينه ، تحت العنوان ، نصاً صغيراً ضيقاً مربعاً كان يبدو فيه ثرثرة ووثائق : « من موفدنا الخاص » ، وكان يحوي ارقاماً . وقلب ماتيو الصفحة ، ولم تكن به رغبة لأن يعرف اكثر مما عرف . خطاب للسيد فلندان في « بار لودوك » . فرنسا جاثمة فوق خط مجينو... ستوكوفسكي يصرح لنا : « لن اتزوج غريتا غاربو . » جـديد حول قضية ويدمن . زيارة ملك انكلترا : حين تنتظر باريس اميرها الساحر . جميـع الفرنسيين ... وانتفض ماتيو وفكر : « جميع الفرنسيين قذرون . » لقد كتبها له غوميز مرة من مدريد . وأغلق الصفحة ، وأخـذ يقرأ في الصفحة الاولى برقية الموفد الخاص . كان تعداد القتلى خمسين والجرحى ثلاثمئة ، ولم يكن هذا كل شيء ، بل كان هنـاك بالتأكيد جثث تحت الانقاض . لا طائرات ولا مدافع مضادة . وكان مـاتيو يحس بغموض انه مذنب . خمسون قتيلاً وثلاثمئة جريـح ، ما كـان هـذا يعني بالضبط ؟ مستشفى مليء ؟ شيء يشبه اصطدام قاطرة حديدية ؟ خمسون قتيلاً . لقد كـان في فرنسا الوف من البشر لم يستطيعوا ان يقرأوا صحيفتهم ذلك الصباح ، من غير ان تصعد الى حنجرتهم كتلة من الغضب ، الوف من البشر حرّقوا الارّم وهم يتمتمون : «قذرون» وحرّق ماتيو الارم وتمتم « قذرون ! » . واستشعر مزيداً من الذنب . ليته على الاقل استطاع ان يجد في نفسه انفعالاً صغيراً حياً ومتواضعاً ، واعياً لحدوده . ولكن لا: لقد كان فارغاً ، وكان امامه غضب كبير ؛ غضب يائس ، وكان يراه ، وكان بوسعه ان يلمسه . غـير انه كان

غضباً جامداً ، كان ينظر ليحيا ، لينفجر ، ليتألم ، ليعبره جسمه .
لقد كان غضب الآخرين « قذرون » كان يحرّق الارّم ، وكان يمشي بخطى كبيرة ، ولكن الغضب لم يكن ليجيء ، كان ما يزال خارجاً . لقد كنت انا في فالنسيا . ورأيت فيها حلبة مصارعة الثيران في عام ٣٤ ، وسباقاً كبيراً للثيران مع اورتيغا والاستودينت . وكانت فكرته تصنع دوائر حول المدينة ، باحثة عن كنيسة ، عن شارع ، عن واجهة بيت يستطيع ان يقول عنه : « لقد رأيت هذا ، وقد هدموه ، فهو غير موجود بعد . » وانقضّت الفكرة على شارع مظلم تسحقه بنايات ضخمة . لقد رأيت هذا ، وكان يتنزه فيه صباحاً ، وكان يختنق في ظل محترق ، وكانت السماء تشتعل عالية ، فوق الرؤوس . حسناً : لقد سقطت القنابل في هذا الشارع ، على البنايات الرمادية الضخمة ، فاتسع الشارع اتساعاً ، وقد سالت السماء الذائبة على الرصيف والشمس تصفع الانقاض . وكان ثمة شيء ما يستعدّ للولادة ، فجر غضب خجول . حسناً ! ولكن ذلك تلاشى ، وتسطّح . وكان خلاء ، وكان يمشي بخطى معدودة في وقار شخص يسير وراء جنازة ، في باريس ، لا في فالنسيا ، في باريس ، يسكنه شبح من الغضب . وكانت الواجهات تشتعل ، وكانت السيارات تجري في الشارع ، وكان هو يسير وسط رجال قصار يلبسون اقمشة فاتحة ، وسط فرنسيين لم يكونوا ينظرون الى السماء ، لم يكونوا يخافون السماء ، ومع ذلك ، فهناك ، في مكان ما تحت السماء نفسها ، امر واقعي : فقد توقفت السيارات ، وتحطم الزجاج ، وقرفصت نساء بليدات خرساوات تبدو عليهن هيئة الدجاج الميت ، بالقرب من جثث حقيقية ، وهن يرفعن الرأس بين الفينة والاخرى ، فينظرن السماء ، السماء السامّة ، جميع الفرنسيين قذرون . وكان ماتيو يشعر بالحر ، وكان حراً حقيقياً . وأمرّ منديله على جبينه ، وفكر : « ليس بوسع الانسان ان يتألم من اجل ما يريد » .

لقد كان هناك قصة فظيعة وفاجعة كانت تطلب ان يتألم من اجلها... « انني لا استطيع ، فلست في الميدان . انــني في باريس ، وسط موجوداتي انا ، جاك خلف مكتبه يقول : « لا » ودانيال يقهقه ، ومارسيل في الغرفة الوردية ، وايفيش التي قبلتها هذا الصباح . وجودي الحقيقي ، المنفر ، لفرط ما هو حقيقي . ان لكل عالمه ، وعالمي هو مستشفى في داخله مارسيل حُبلى وهذا اليهودي الذي يطالب مني اربعة آلاف فرنك . وهناك عوالم اخرى . غوميز . لقد كان في الميدان ، لقد ذهب ، وكان هذا نصيبه . وشخص الامس . انــه لم يذهب ، ولا بد انه يتيه في الشوارع ، مثلي . ولو انه يلتقط صحيفة فيقرأ : « قصف فالنسيا » فلن يكون بحاجة الى ان يبتسر نفسه ، لأنه سيتألم هناك ، في المدينة ذات الانقاض . لمـاذا تراني في هذا العالم المنتن بالضوضاء وبالآلات الطبية وبالتسليات الخفية في سيارات التاكسي ، في هذا العالم الذي لا اسبانيا فيه ! لماذا لا اكون في الميدان مع غوميز ومع برونيه ؟ لماذا لم تأخذني الرغبة في الذهاب للقتال ؟ أكان بوسعي ان اختار عالماً آخر ؟ أتراني ما زلت حراً ؟ ان بوسعي ان اذهب حيث اشاء فلا اجد اية مقاومة ولكن ذلك اسوأ : انني في قفص لا حواجز له . وانه يفصلني عن اسبانيا لا شيء ... ومع ذلك فان هذا الفاصل غير قابل للعبور : ونظر الى الصفحة الاخيرة من اكسلسيور : صور من الموفد الخاص . اجسام ممددة على الرصيف عنــد اسفل جدار . وفي منتصف الشارع امرأة ضخمة ، ملقاة على ظهرها ، وقد ارتفع ثوبها عن فخذيها ولم يكن لها رأس بعد . وطوى ماتيو الصحيفة ورماها في الساقية .

وكان بوريس يترقبه امام باب البناية . واذ لاحظ ماتيو بدت عليه هيئة برودة وتكلف رصانة : تلك كانت هيئته المجنونة . وقال :

– لقد طرقت بابك . ولكني اعتقد انك لم تكن في البيت .

فسأله ماتيو في اللهجة نفسها :

ـ هل انت متأكد من ذلك ؟

فقال بوريس :

ـ لست متأكداً تماماً ، وكل ما استطيع ان اقوله لك هو انك لم تفتح لي الباب .

فنظر اليه ماتيو وهو متردد . مهما يكن من امر ، فان الساعة لم تكد تتجاوز الثانية ، ولن يصل برونيه قبل نصف ساعة . وقال :

ـ اصعد معي ، فسوف نُفرغ ما في قلبينا .

وصعدا . وعلى الدرج قال بوريس بصوته الطبيعي .

ـ الا يزال موعدنا قائماً في « سومطرا » هذا المساء ؟

فانفتل ماتيو وتصنع انه يبحث عن مفاتيحه في جيبه ، وقال :

ـ لا ادري ان كنت سأذهب . لقد فكرت بـ .. لعل لولا تفضل ان تكون لها وحدها .

قال بوريس : ـ طبعاً . ولكن ماذا في ذلك ؟ انها ستكون مؤدبة. ومهما يكن فاننا لن نكون وحدنا ! ستكون هناك ايفيش .

فسأله ماتيو وهو يفتح الباب :

ـ هل رأيت ايفيش ؟

فأجاب بوريس : ـ لقد تركتها الساعة .

قال متنحياً : ـ تفضل .

ودخل بوريس قبل ماتيو وتوجه بألفة مليئة باليسر نحو المكتب . وكان ماتيو ينظر بارتباك الى ظهره الهزيل وفكر : « لقد رآها . » وقال بوريس :

ـ هل ستأتي ؟

وكان قد التفت وتأمل ماتيو بهيئة ضاحكة رقيقة . فسأله ماتيو :

ـ ألم تقل لك ايفيش ... شيئاً عن هذا المساء ؟

– هذا المساء ؟

– نعم . كنت اتساءل عما اذا كانت ستجيء : فهي تبدو شديدة الانهماك بامتحانها .

قال بوريس : – انها تريد ان تأتي بلا شك . وقد قالت انه سيكون طريفاً ان نلتقي نحن الاربعة معاً .

فردد ماتيو : – نحن الاربعة ؟ هل قالت نحن الاربعة ؟

فقال بوريس ببراءة : – حتماً : فان هناك لولا .

– انها تنتظر اذاً ان آتي ؟

فقال بوريس دهشاً : – طبعاً .

وساد صمت . وكان بوريس قد انحنى فوق الشرفة ينظر الى الطريق. فتبعه ماتيو وارسل له ضربة كبيرة من قبضته في ظهره . وقال بوريس:

– انني احب شارعك كثيراً ، ولكنه يوحي بالملل مع مرور الزمن. ويدهشني دائماً انك تعيش في شقة .

– ولماذا ؟

– لا ادري . ان عليك انت الحر ان تبيع اثاثك وتعيش في الفندق . هل تتصور ذلك ؟ ان تقيم شهراً في غرفة في مونمارتر وشهراً آخر في ساحة « التنبل » وشهراً ثالثاً في شارع « موفتار » ...

فقال ماتيو متضايقاً : – ليس لهذا اية اهمية .

قال بوريس بعد ان حلم طويلاً : – نعم . ليس لهذا اية اهمية . (وأضاف بلهجة منزعجة) ان الجرس يرن .

فذهب ماتيو يفتح الباب : وكان برونيه . وقال ماتيو :

– مرحباً ، لقد جئت قبل الموعد .

فقال برونيه مبتسماً : – صحيح ، وهل هذا يزعجك ؟

– على الاطلاق .

وسأل برونيه : – من هذا؟

فقال ماتيو : — بوريس سرغين .

قال برونيه : — آه ! التلميذ العظيم ؟ انا لا اعرفه .

وانحنى بوريس ببرودة وتراجع حتّى جوف الغرفـــة . وكان ماتيو واقفاً امام برونيه مرتخي الذراعين .

— انه يحتقر ان يُعتبر التلميذ .

فقال برونيه من غير ان ينفعل : — مفهوم .

وكان يلف سيكارة بين اصابعه ، صلباً ولامبالياً تحت انظار بوريس الحاقده . وقال ماتيو :

— اجلس ، خذ الاريكة .

وجلس برونيه على كرسي وهو يقول مبتسماً :

— لا. ان ارائكك مفسدة ... (وأضاف) هكذا اذاً ايها الاشتراكي الخائن القديم ؟ يجب على من يريد لقاءك ان يأتي حتّى عرينك .

فقال ماتيو : — ليست هي غلطتي : فقـــد سعيت غالباً لرؤيتك ولكنك تكاد لا توجد .

قال برونيه : — صحيح . فقد اصبحت نوعاً من وكلاء السفر . انهم يجعلونني اضرب في كل مكان حتّى انني في بعض الايام يشق علي ان اجد نفسي بالذات .

واستطرد بلهجة ودية :

— وانما اجد نفسي على احسن صورها حين اراك ، ويخيـــل اليّ انني استودعت نفسي عندك .

فابتسم له ماتيو ابتسامة عرفان وقال :

— لقد فكرت مراراً ان علينا ان نلتقي اكثر مما نفعل. ويخيل الي اننا نشيخ شيخوخة ابطأ ، اذا كان بامكاننا ان نلتقي نحن الثلاثة بين فترة واخرى.

فنظر اليه برونيه بدهشة :

— نحن الثلاثة ؟

– طبعاً : نعم ، دانيال وانت وانا .

قال برونيه في ذعر :

– صحيح ، دانيال ! ان هذا الصديق ما يزال موجوداً ! وانت ما تزال تراه بين فترة واخرى . أليس كذلك ؟

فسقطت فرحة ماتيو : حين كان برونيه يلتقي بورتال او بوروليبه فلا بد انه كان يقول لها ، باللهجة الضجرة نفسها : « ماتيو ؟ انـــه استاذ في معهد بوفون. وما زلت اراه بين فترة واخرى. » . وقال بمرارة :

– اجل . ما زلت اراه ، فتصوّر !

وساد صمت . وكان برونيه قد وضع يديه على ركبتيه . كان هناك ثقيلاً وكثيفاً ، كان جالساً على كرسي لماتيو ، وكان يحني وجهــه بصورة عنيدة نحو شعلة عود ثقاب ، وكانت الغرفة ملأى بحضوره ، وبدخان سيكارته ، وبحركاته البطيئة . وكان ماتيـــو ينظر الى يديــه الكبيرتين ، يدي الفلاح ، ويفكر : « لقد جاء » . وشعر بأن الثقة والفرح كانا يحاولان بحياء ان يولدا في قلبه من جديد . وسأله برونيه :

– وما عدا ذلك ؟ ما هي احوالك ؟

– وأحس ماتيو بالضيق : ليس هناك من شيء . وقال :

– لا شيء .

– اني اتمثلك : اربع عشرة ساعة من الدروس اسبوعياً ، ورحلة الى الخارج في العطلة الكبرى .

فقال ماتيو ضاحكاً وهو يتجنب النظر الى بوريس : – نعم . واخوك ؟ ألا يزال صليب نار ؟

قال ماتيو : – كلا . انه ينوّع . وهو يقول ان صلبان النار ليست ديناميكية بما فيه الكفاية .

قال برونيه : – هذا طريدة لدوريو .

– يتحدثون عن ذلك ... (وأضاف ماتيو من غير تفكير) . لقد

تنازعت معه اليوم .

فألقى برونيه عليه نظراً سريعاً حاداً :

ـ ولماذا ؟

ـ ان الامر دائماً هكذا : اطلب منه خدمة فيجيبني بموعظة .

فقال برونيه ساخراً : ـ ولهذا توسعه انت شتماً . اتراك ما تزال تأمل ان تغيره ؟

فقال ماتيو متضايقاً : ـ كلا . ليس الامر كذلك .

وصمتا لحظة اخرى . وفكر ماتيو بحزن : « ان الوضع يتبلد . » ليت بوريس يفكر في الذهاب . ولكن يبدو انه لا يفكر بذلك. فهو قائم في ركنه مقشعراً ، شبيهاً بكلب مريض . وكان برونيه قد جلس على كرسيه منفرج الساقين ، وكان هو ايضـاً يلقي على بوريس نظراً ثقيلاً . وفكر ماتيو برضى : « انه يود لو يرحل . » واخذ يرمق بوريس بين عينيه : فربما انتهى به الامر الى ان يفهم تحت نيران هذه الانظار المشتركة . ولكن بوريس لم يكن ليتحرك . وقال برونيه بصوت واضح :

ـ الا زلت تدرس الفلسفة ، ايها الشاب ؟

فأومأ بوريس برأسه ان نعم .

ـ واين وصلت فيها ؟

فقال بوريس بجفاء : ـ اني انهي شهادة الليسانس .

قال برونيه بلهجة استغراق : ـ شهادة الليسانس ؟ الحمد لله :

ثم قال بصراحة :

ـ أتراك ستكرهني اذا خطفت منك ماتيو مدة لحظـة ؟ ان لك حظاً في ان تراه كل يوم ، اما انا ... (وسأل ماتيو) هـل تأتي لنقوم بجولة في الخارج .

واقترب بوريس من برونيه بصلابة وقال :

– لقد فهمت . إبق هنا ، إبق : فانا الذي سأخرج .
وانحنى قليلاً : لقد كان مجروحاً ، وتبعه ماتيو حتى الباب وقال له بحرارة :
– الى هذا المساء . اليس كذلك ؟ سأكون هنـــاك حوالى الحادية عشرة .
فابتسم له بوريس ابتسامـــة آسفة : – الى هذا المساء . واغلـــق ماتيو الباب وعاد الى برونيه ، يقول له وهو يفرك يديه :
– واذاً ؟ لقد افرغته ؟
وضحكا . وسأل برونيه :
– ربما سلكت في ذلك مسلكاً شديداً . انك غير عاتب علي .
قال ماتيو ضاحكاً : – على العكس . إنه معتاد . ثم اني مسرور جداً في ان اراك وحدك .
قال برونيه بصوت حازم : – كنت حريصاً على ان اذهب بسرعة لاني لا املك الا ربع ساعة .
فتحطمت ضحكة ماتيو وقال :
– ربع ساعة ؟ انا اعرف انك لا تملك وقتك : ولقد كنت لطيفاً بأن تجيء .
– الحقيقة اني كنت مأخوذاً طوال النهار ، ولكني حـــين رأيت سحنتك هذا الصباح فكرت : يجب قطعاً ان احدثك .
– وهل كانت سحنتي قذرة ؟
– نعم يا عزيزي المسكين . كانت ممتقعة اكثر مما ينبغي ومتورمة اكثر مما ينبغي مع رجفة في الاجفان وفي زاوية الفم .
واضاف بشغف : – وقلت في نفسي : انني لا اريد ان يتلفوه لي.
فسعل ماتيو وقال :
– لم اكن اعتقد انه كان لي وجه معبر الى هذا الحد ... كنت قد

رقت ، وكانت لدي هموم ... اوه انت تعلم ، كهموم جميع الناس ، مجرد هموم مالية .

ولم يبد على برونيه انه اقتنع فقال :

– ان لم يكن الامر الا كذلك فلا بأس ، لان بوسعك ان تتدبر امرك دائماً . ولكن كان يبدو عليك بالاحرى مظهر شخص ادرك انه قد عاش افكاراً مزعجة .

قال ماتيو بحركة غامضة : – « اوه ! الافكار ... » وكان ينظر الى برونيه نظرة عرفان متواضع . وكان يفكر : « لقد اتى من اجل هذا . كان نهاره مشغولاً بعدد من المواعيد الهامة فازعج نفسه ليأتي الى نجدتي » . ومهما يكن فقد كان افضل لو ان برونيه استجاب لمجرد الرغبة في رؤيته . وقال برونيه :

– اسمعني ! فانا لا اريد ان احدثك بالمواربة ، وانما جئت اقدم لك عرضاً : هل تريد ان تدخل الحزب ؟ اذا قبلت اصطحبتك وانتهت القضية في عشرين دقيقة .

فانتفض ماتيو وسأله :

– في الحزب الشيوعي ؟

فأخذ برونيه يضحك ، وتكسرت جفونه وكان يكشف عن اسنانه الباهرة وقال :

– طبعاً ، فانت لا تريدني ان ادخلك عند « لاروك » ؟

وساد صمت ثم سأله ماتيو برقة :

– لماذا تريدني يا برونيه ان اصبح شيوعياً ؟ ألصالحي ام لصالح الحزب ؟

قال برونيه : – لصالحك . وليست بك حاجة الى ان تتخذ هيئة رقابة ، فاني لم اصبح رقيب دعاية للتجنّد في الحزب الشيوعي ، ثم لنتفاهم : ان الحزب لا يحتاج اليك قط . وانت لا تمثل في نظره الا

رأس مال صغيراً من الذكاء . وهذا ، اقصد المثقفين ، نملك منه مـا بوسعنا بيعه ، ولكنك انت بحاجة الى الحزب .

وردد ماتيو : — لصالحي . لصالحي .. (واستطرد فجأة) اسمع : انني لم اكن اتوقع عرضك هذا فقد بوغتّ به . ولكن ... اود لو تقول لي ما الذي تفكر فيه ؟ . انت تعلم اني اعيش محاطاً بصبيـة لا ينشغلون الا بانفسهم وهم معجبون بـي مبدئياً . وليس هناك من يحدثني قط عن نفسي ! وانا ايضاً احياناً ، اجد مشقة في ان اعثر على نفسي. واذن ؟ اتظن اني بحاجة الى ان التزم ؟

فقال برونيه بقوة : — نعم . نعم . انت بحـاجة الى ان تلتزم . اولا تحس ذلك بنفسك ؟

وابتسم ماتيو بحزن : كان يفكر في اسبانيا . وقال برونيه :

— لقد سلكت طريقك . انت ابن برجوازي، ولم تكن تستطيع ان تأتي الينا هكذا . بل كان يجب ان تتحرر . وقد تمّ هذا الآن ! فانت حر . ولكن ما جدوى هذه الحريـة ان لم تكن لتمكّن المرء من الالتزام ؟ لقد انفقت خمسة وثلاثين عاماً وانت تنظف نفسك ، وكانت النتيجة فراغاً (واضاف ببسمة ودية) انت ، لو تدري ، جسم غريب . انك تعيش في الهواء ، ولقد قطعت صلاتك البرجوازية ، وليست لك اية علاقة بالبروليتارية ، فانت عائم ، أنت مجرد ، انت غائب . ولا بد ان هذا ليس شيئاً طريفاً دائماً .

قال ماتيو : — لا ، ليس شيئاً طريفاً دائماً .

واقترب من برونيه وهزّه من كتفيه : لقد كان يحبه حباً قويـاً . وقال له :

— ايها الداهية الملعون، ايها المومس الملعون ! يسرني كثيراً ان تقول لي كل هذا !

وابتسم له برونيه بشرود : كان يتابـع فكرته فقال :

– لقد تنازلتَ عن كل شيء لتكون حراً . فقم بخطوة اخرى » تنازل عن حريتك نفسها : وسيُردّ لك كل شيء .

قال ماتيو ضاحكاً : – انك تتكلم كالخوري . كـلا يا عزيزي ! لنتكلم بجد . فان هذا لن يكن تضحية كما تعلم . انا اعرف جيداً انني سأسترد كل شيء ، لحماً ودماً وحماسات حقيقية . ولكنك تعرف يـا برونيه اني انتهيت الى فقدان حسّ الحقيقة : فليس هناك ما يبدو لي حقيقياً مئة بالمئة .

ولم يجب برونيه : كان يتأمل . وكان له وجه ثقيل قرميدي اللون ذو ملامح مرتجفة وجفون حمراء ، صفراء جداً وطويلة جداً . وكان يشبه بروسياً . وكان ماتيو كلما رآه احس في منخريه بنوع من الفضول الحائر .

وكان يتنفس على مهل ويتوقع ان يشم فجأة رائحة انسانية قوية . ولكن لم يكن لبرونيه رائحة . وقال ماتيو :

– انك حقيقي انت وكل ما تلمسه يبدو حقيقياً . فان غرفتي منذ دخلتها تبدو حقيقية وتثير اشمئزازي .

واضاف فجأة : – انك انسان .

فسأله برونيه مدهوشاً : – انسان ؟ ان العكس مقلق . فماذا تريد ان تقول ؟

– لا شيء غير ما قلت : لقد اخترتَ ان تكون انساناً .

انسان ذو عضلات قوية معقدة بعض الشيء ، يفكر بحقائق قصيرة قاسية ، انسان مستقيم ، مقلق ، واثق من نفسه ، ارضي ،متمرد على المغريات الملائكية للفن وعلم النفس والسياسة ، انسان برمته ، ولا شيء غير انسان . وقد كان ماتيو هناك ، تجاهه ، متردد ، رديء الشيخوخة ، رديء الصنع ، تحاصره جميع دوارات اللاإنساني . وفكر : « اما انا ، فلا ابدو انساناً . » ونهض برونيه واقبل على ماتيو يقول :

ـ واذن ؟ افعل مثلي ، فما الذي يمنعك من ذلك ؟ اتراك تتصور ان بوسعك ان تعيش كل حياتك بين هلالين ؟ .

فنظر اليه ماتيو متردداً وقال :

ـ طبعاً ، طبعاً . واذا اخترت فاني اختار ان اكون معكم ، وليس هناك اختيار آخر .

فردد برونيه : ـ ليس هناك اختيار آخر . (وتلبث لحظـــة ثم سأل) : واذن ؟

قال ماتيو : ـ دعني قليلاً اتنفس .

فقال برونيه : ـ تنفس ، تنفس ، ولكن عجّل . فغداً تصبــح اكبر سناً مما ينبغي ، وستكون لك عاداتك الصغيرة ، وستكون عبـــد حريتك . وربما كان العالم ايضاً اكبر سناً مما ينبغي .

قال ماتيو : ـ انني لا افهم .

فنظر اليه برونيه وقال بسرعة :

ـ ستنشب الحرب في ايلول .

قال ماتيو : ـ انك تمزح .

ـ يمكنك ان تصدقني . فالانكليز يعرفون ذلك ، وقد أُخطرتْ به الحكومة الفرنسية ، وفي النصف الثاني من ايلـــول سيدخل الألمان الى تشيكوسلوفاكيا .

قال ماتيو منزعجاً : ـ يا لهذه الاساليب !

فسأل برونيه متضايقاً : ـ ولكن الا تفهم شيئاً ؟ .

غير أنه تدارك واضاف برقة :

ـ لو كنت تفهم ، لما كنت بحاجة الى ان اوضح لك . اسمع : انك مثلي من المشاة. افرض انك تمضي في الحالة التي انت فيها الآن : فانك توشك ان تنفجر كفقاعة ، وتكون قد حلمت حياتك خمسة وثلاثين عاماً ، ثم تأتي ذات يوم قنبلة فتفجر احلامك ، وستموت من غير ان تكون قد

استيقظت . لقد كنت موظفاً مجرداً ، وستكون بطلاً مضحكاً ، وستسقط من غير ان تكون قد فهمت شيئاً . كل ذلك ليتمكن السيد شنيدر من المحافظة على مصالحك في معامل سكودا .

وسأله ماتيو : — وانت ؟ (واضاف مبتسماً) انـني اخشى يا عزيزي الا تستطيع الماركسية ان تحمي الناس من القنابل .

فقال برونيه : — وانا اخشى ذلك ايضاً . اتدري اين سيرسلونني ؟ الى مقدمة خط ماجينو : انه مرمى الرصاص المضمون .

— واذن ؟

— ليس هو الامر نفسه ، فهذا خطر قد اضطلعنا به . انه لا شيء الآن يستطيع ان ينزع من حياتي معناها ، لا شيء يستطيع ان يمنعها من ان تكون قدراً .

واضاف بحيوية :

— كما هي حياة جميع رفاقي ، في الواقع .

لكأنه كان يخشى ان يأثم بدافع الكبرياء .

ولم يجب ماتيو . وذهب يرتفق حاجز الشرفة وهو يفكر : لقــد « عبّر خير تعبير » . وكان برونيه على حق : لقد كانت حياته قدراً . سنه ، طبقته ، زمانه : لقد استرد كل شيء ، واضطلع بكل شيء ، واختار العصا الرصاصية التي ستضربه في صدره ، والقنبلة الالمانية التي ستبقر بطنه : لقد التزم ، وتنازل عن حريته ، فلم يكن بعد الا جندياً. ولقد أعادوا له كل شيء ، حتى حريته . « انه اكثر حرية منه : انه متفق مع نفسه ومتفق مع الحزب . » لقد كان هناك ، حقيقياً تماماً . وفي فمه مذاق حقيقي للتبغ ، وكانت الالوان والاشكال التي يملأ بهـا عينيه اكثر حقيقة واكثف من تلك التي كان ماتيو يستطيع ان يراها . ومع ذلك فقد كان في اللحظة نفسها يتمدد عبر الارض كلها ، متألماً ومكافحاً مع عمّال جميع البلاد . في هذه اللحظة ، في هــذه اللحظة

بالذات ، هناك اشخاص يطلقون على انفسهم الرصاص في ضاحية مدريد، وهناك يهود نمساويون يحتضرون في معسكرات الاعتقال ، وهناك صينيون في انقاض ننكين ، وانا هنا طري نضر . أحسّني حراً ، وسوف آخذ بعد ربع ساعة قبعتي واذهب لأتنزه في حديقـة اللكسمبورغ . والتفت الى برونيه ونظر اليه بمرارة وهو يفكر : « انني غير مسؤول . »

وقال فجأة : — لقد قصفوا فالنسيا .

فقال برونيه : — اعرف ذلك . ولم يكن هناك مدفع مضاد في المدينة كلها ، وقد قذفوا قنابلهم على سوق .

لم يكن قد حرّق الارم ، ولم يكن قد تخلى عن بهجته المطمئنـة وعن تدفقه المستنيم ، ومع ذلك ، فقد كان هو الذي قُصف ، وكان إخوته واخواته واولاده هم الذين قتلوا . وذهب ماتيو يجلس على اريكة. « ان ارائكك مفسدة . » وانتصب بحيوية ، وجلس على زاوية الطاولة. قال برونيه :

— واذن ؟

وكان يبدو انه يترصده . قال ماتيو :

— اذن ؟ انك محظوظ .

— محظوظ بأن أكون شيوعياً ؟

— نعم .

— رأي عجيب ! ان هذا يُختار يا عزيزي .

— أعرف ذلك . انك محظوظ في ان تكون قد استطعت الاختيار . وقست ملامح برونيه قليلاً :

— هذا يعني انك لن تملك هذا الحظ .

والآن تجب الاجابة . وانتظر : نعم أم لا ؟ أن يدخـل الحزب ويمنح حياته معنى ، ويختار ان يكون انساناً ويعمل ، ويؤمن ، سيكون في ذلك الخلاص . ولم يكن برونيه ليغادره بعينيه :

ـ أترفض ؟
فقال ماتيو يائساً : ـ نعم ، نعم يا برونيه : أرفض .
وكان يفكر : « لقد جاء يمنحني أفضل ما لديه ! » وأضاف :
ـ أنت تعلم ان هذا ليس قراراً نهائياً .. ففيما بعد ...
وهز برونيه كتفيه .
ـ فيما بعد ؟ اذا كنت تعوّل على اشراقة داخلية لتقرر ، فانت توشك ان تنتظر طويلاً . هل تتصور انني كنت مقتنعاً حين دخلت الحزب الشيوعي ؟ ان الاقتناع أمر يُصنع .
وابتسم ماتيو بحزن .
ـ أعرف ذلك جيداً : اركع فتؤمن . ربما كنت على حق . أما أنا فاريد أن اؤمن أولاً .
قال برونيه بنفاد صبر : ـ طبعاً . انكم كلكم متشابهون ، أنتم المثقفين : كل شيء يتحطم ، كل شيء ينهار ، البنادق ستنطلق من تلقاء نفسها وأنتم هنا هادئون ، تطلبون حقكم في أن تكونوا مقتنعين . آه ! ليتك كنت تستطيع ان ترى نفسك بعيني أنا ، اذاً لفهمت أن الزمن مستعجل .
ـ حسناً . الزمن مستعجل ، أجل ! وبعد ذلك ؟
وأرسل برونيه الى مؤخرته صفعة غيظ .
ـ ها نحن ذا ! انت تتصنع انك متأسف على شكك . ولكنك تحرص عليه . وتلك هي راحتك المعنوية : فما أن يهاجموها حتى تتشبث بها في شراسة ، كما يتشبث أخوك بماله .
وقال ماتيو بهدوء : ـ هل يبدو عليّ في هذه اللحظة انني شرس؟
قال برونيه : ـ انا لا اقول ذلك .
وساد صمت . وكان يظهر على برونيه انه قد رقّ ؛ وفكر ماتيو : ليته يستطيع ان يفهمني . وبذل جهداً : إن اقتناع برونيه هو الوسيلة

الوحيدة التي تبقى له لاقناع نفسه .

– ليس عندي ما ادافع عنه : فأنا لست فخوراً بحياتي ولا املك مالا : حريتي ؟ . انها تثقل عليّ : فهذه سنوات تنقضي وأنا حر من أجل لا شيء . وانني أذوب رغبة في ان استبدلها بيقين . إنني لا أطلب أفضل من أن أعمل معكم،فهذا سيبدلني من نفسي ، وأنا بحاجة الى ان انسى نفسي قليلاً . ثم انني افكر مثلك بأن المرء لا يكون انساناً ما لم يجد شيئاً يقبل ان يموت من اجله .

وكان برونيه قد رفع رأسه فقال بما يشبه المرح : – واذن ؟

– اذن ! انت ترى : لا استطيع الالتزام ؛ فليست عندي اسباب كافية لذلك . انني احتج مثلك ضد الاشخاص أنفسهم ، وضد الاشياء نفسها ، ولكن ليس بما فيه الكفاية . انني لا استطيع في ذلك شيئاً . فاذا اخذت اجري في الاستعراض رافعاً قبضتي ، منشداً «الانترناسيونال» ، واذا صرحت لنفسي بأنني راضٍ مع ذلك ، فانما أكذب على نفسي .

وكان برونيه قد تلبّس من هيئاته أكثفها وأكثرها طابعاً فلاحياً،وكان يشبه بُرجاً . ونظر اليه ماتيو في يأس :

هل تفهمني يا برونيه ؟ قل لي هل تفهمني ؟

فقال برونيه : – لا ادري ان كنت أفهمك جيداً ، ومهما يكن من أمر ، فليس لك ان تبرر نفسك لأنه ليس ثمة من تتهمه . انك تحتفظ بنفسك لمناسبة افضل ، وهذا حق ، وأتمنى ان تأتي هذه المناسبة في اقـــرب وقت ممكن .

– وانا اتمنى ذلك ايضاً .

ونظر اليه برونيه بفضول :

– هل انت متأكد من انك تتمنى ذلك ؟

– طبعاً ...

– طبعاً ؟ حسناً ، فليكن . غـــير اني اخشى الا تأتي هذه المناسبة

سريعاً .

فقال ماتيو : — لقد قلت لنفسي هذا انا ايضاً . قلت لنفسي انها قد لا تأتي ابداً ، او ربما اتت بعد فوات الاوان . او ربمـا لم يكن هناك فرصة اصلاً .

— واذن ؟

— اذن ! في هذه الحالة سأكون شخصاً مسكيناً . هذا كل ما في الامر .

ونهض برونيه وهو يقول :

— هكذا ، هكذا اذن يا عزيزي . مهما يكن من امر فاني مسرور بأني قد رأيتك .

— انك لن تذهب ... لن تذهب هكذا . فان عندك دقيقة اخرى، اليس كذلك !

ونظر برونيه الى ساعته : لقد تأخرت .

وساد صمت . وكان برونيه ينتظر بأدب . وفكر ماتيو : « يجب الا يذهب ، يجب ان احدثه » . ولكنه لم يكن يجـد شيئاً يقوله له . وقال بسرعة :

— يجب الا تحقد عليّ .

فقال برونيه : — ولكني لست حاقداً عليك . انك لست مجبراً على ان تفكر مثلي .

قال ماتيو آسفاً : — ليس هذا صحيحاً . انني اعرفـكم جيداً ، انتم الآخرين : فانتم تعتقدون ان المرء مجبر عـلى التفكير مثلـكم ، الا ان يكون قذراً . انك تعتبرني قذراً . ولكنك لا تريد ان تقول ذلك، لأنك تحكم ان الحالة ميئوس منها .

فابتسم برونيه ابتسامة خفيفة وقال :

— انني لا اعتبرك قذراً . كل ما هنالك انك اقل انفصالاً عن طبقتك

مما كنت اظن .

وفيما كان يتكلم ، كان يقترب من الباب . وقال له ماتيو :—لا يمكن لك ان تعرف كم أثر فيّ مجيئك لرؤيتي ومدّك يد المعونة اليّ ، لمجرد ان سحنتي كانت قذرة هذا الصباح . انت على حق لو تعلم ، فانا بحاجة الى مساعدة . غير اني اريد معونتك انت .. لا معونة كارل ماركس . اود لو أراك غالباً وأتحدث معك ، فهل هذا مستحيل ؟

فصرف برونيه عينيه وقال :

— اود ذلك كثيراً ، ولكني لا املك كثيراً من الوقت .

وفكر ماتيو : « طبعاً.لقد اشفق عليّ هذا الصباح فخيبت شفقته . وقد عدنا الآن فأصبحنا غريبين احدنا بالنسبة الى الآخر . فليس لي اي حق في وقته » . وقال بالرغم منه :

— أتراك لا تذكر يا برونيه ؟ لقد كنت خير اصدقائي .

وكان برونيه يلعب بمزلاج الباب :

— لماذا تظن اني جئت ؟ لو انك قبلت عرضي ، لكان بامكاننا ان نعمل معاً ...

وصمتا . وكان ماتيو يفكر : « انه مستعجل ، وهو يذوب رغبة في الذهاب . »

واضاف برونيه ، من غير ان ينظر اليه :

— اني ما زلت حريصاً عليك . حريصاً على سحنتك ، على يديك ، على صوتك ، ثم ان هناك الذكريات بالرغم من كل شيء . ولكن هذا لا يغير شيئاً في القضية : ان اصدقائي الوحيدين الآن ، انما هم رفاق الحزب ، فان عندي مع هؤلاء ، عالماً مشتركاً برمته .

فسأله ماتيو : — وتظن انه ليس بيننا بعد اي شيء مشترك ؟

فرفع برونيه كتفيه من غير ان يجيب . وكان حسبه ان يقول كلمة ، كلمه واحدة ، حتى يجد ماتيو كل شيء من جديد ، صداقة برونيه ،

واسباباً للحياة . وكان ذلك مغرياً كالنوم . وانتصب ماتيو فجأة وقال:
— انني لا اريد ان احجزك . فتعال لتراني حين تجد الوقت .
قال برونيه : — بكل تأكيـــد . وانت اذا غيرت رأيك ، فأرسل لي كلمة .
قال ماتيو : — بكل تأكيد .
وكان برونيه قد فتح الباب . وابتسم ماتيو ومضى ، وفكر ماتيو:
« لقد كان خير اصدقائي » .

لقد ذهب . كان يذرع الشوارع وهو يتمايل ويتهادى كأنه بحار ، فتصبح الشوارع حقيقية الواحد بعد الآخر . ولكن حقيقة الغرفة كانت قد اختفت معه . ونظر ماتيو الى اريكته الخضراء المفسدة والى كراسيه والى ستائره الخضراء وفكر : « انه لن يجلس بعد على كراسيّ ، ولن ينظر بعد الى ستائري وهو يلف سيكارة . » ولم تكن الغرفة بعد الا لطخة نور خضراء كانت ترتجف لدى مـــرور الاوتوبيسات . واقترب ماتيو من النافذة وارتفق حاجز الشرفة . وكان يفكر : لم يكن بوسعي ان اقبل . وكانت الغرفة خلفه كأنها ماء هاديء ، ولم يكن ثمـــة الا رأسه خارجاً من الماء ، كانت الغرفة المفسدة خلفـــه ، وكان واضعاً رأسه خارج الماء ، وكان ينظر في الشارع وهو يفكر : هل هذا حقيقيّ ؟ هل حقيقي انني لم اكن استطيـع ان اقبل ؟ وفي البعيد ، كانت طفلة صغيرة تقفز بالحبل ، وكان الحبل يرتفع فوق رأسها كأنه عروة ويسوط الارض تحت قدميها . اصيل صيفي . وكان النور قد حطّ في الشارع وعلى السقوف ، متساوياً ، ثابتاً ، بارداً كأنه حقيقة أزلية . أصحيـح اني لست الا قذراً ؟ ان الاريكة خضراء ، وحبل القفز يشبه عروة : هذا امر غير قابل للنقاش . ولكن حين تتعلق القضية بالناس ، فالنقاش ممكن دائماً ، لان كل ما يفعله يمكن ان يشرح نفسه،من فوق او من تحت ، حسب رغبتنا . لقد رفضت لأني اريد ان اظل حراً ؛ وهذا ما

استطيع قوله ، واستطيع ان اقول كذلك : انني قد اصبت بالكبد ؛ احب ستائري الخضراء ، احب ان استنشق الهواء مساء وانا على شرفتي . ولا اريد ان يتغير ذلك . انه يروق لي ان اغضب واغتاظ من الرأسمالية ولا اريد ان تلغى ، لأنه لا يبقى لي اسباب للغضب والغيظ ، فيروق لي ان أحسني مزدريـاً ومتوحداً ، يروق لي ان اقول لا ، دائماً لا . وسيخيفني ان يحاولوا حقاً بناء عالم يمكن العيش فيه ، لانه لا يبقى لي آنذاك الا ان اقول نعم ، وان اعمل كما يعمل الآخرون. من فوق او من تحت ، من الذي يقرر ؟ لقد قرر برونيه . فهو يفكر بأني قذر ، وجاك ايضاً ، ودانيال ايضاً . لقد قرروا جميعاً انني قذر . ماتيو هذا المسكين ، انه هالك ، انه قذر . وماذا عساني استطيـع ان اعمل انا ضدهم جميعاً ؟ يجب ان اقرر : ولكن ماذا أقرر ؟ حين قال الساعة لا ، كان يحسب نفسه صادقاً ، وكانت حماسة مرّة قد نهضت فجأة في قلبه . ولكن من كان يستطيع ان يحتفظ ، تحت هذا النور ، بأصغر جزء من الحماسة ؟ لقد كان نوراً لنهاية امل ، وكان يخلّد كل ما كان يلمسه . ان الطفلة الصغيرة ستقفز بالحبل الى الابد ، وسيرتفـع الحبل ابداً فوق رأسها وسيسوط ابداً الرصيف تحت قدميها ، وسينظر اليها ماتيو الى الابد . ما جدوى القفز بالحبل ! ما جدواه ؟ ما جدوى ان يقرر المرء ، ان يكون حراً ؟ فتحت هذا النور نفسه ، في مدريـد وفي فلنسيا ، كان بشرٌ قد وقفوا امام نوافذهم ينظرون الى الشوارع الخالية الابدية ويقولون : «ما النفع ؟ ما جدوى متابعة النضال ؟ » . دخل ماتيو الى غرفته ، ولكن النور تبعه اليها . اريكتي ، اثاثـي . وكان على الطاولة مثقلةٌ للورق تشبه عقرباً . فأخذها ماتيو من ظهرها ، كما لو انها كانت حيّة . انها مثقلتي : ما النفع ؟ ما النفع ؟ وترك العقرب يسقط على الطاولة وقرر : انني شخص هالك .

٩

كانت الساعة السادسة ؛ وكان دانيال قد نظر الى نفسه في المـــرآة وهو خارج من مكتبه ففكّر : « الامر يعود من جديد . » وأحسّ بالخوف . وسلك شارع « ريومور » : كان بوســع المرء ان يختبىء فيه ، فانه لم يكن الا قاعة كبيرة ذات سماء مفتوحة ، قاعــة خطى ضائعة . وكان المساء قد أفرغ البنايات التجارية التي كانت تملأ جانبيه ؛ فعلى الأقل ، لم يكن هنـــاك ما يغري بتخيّل امور صميميــة خلف زجاجها الأسود . وكان نظر دانيال يتسرّب متحرّراً بين هذه الأجراف المثقوبة حتى بركـــة السماء الوردية المنتنة التي كانت تحبسها عنـــد الأفق .

ولم يكن الاختباء يسيراً الى هذا الحدّ ، بل كان حتى بالنسبة لشارع ريومور أجلى مما ينبغي ؛ لقد كانت الفتيات الفارعات المزّينات اللواتي يخرجن من المحلات يرمينه بنظرات جريئة ، فكان يُحسّ بجسده ويقول بين اسنانه : « القذرات » . كـــان يخشى ان يشمّ رائحتهن : إن رائحة المرأة تنبعث مهما حرصت على ان تغسل نفسها ومن حسن الحظ ان النساء كنّ هناك نادرات ، فان هذا الشارع لم يكن رغم كل شيء شارعاً للنساء ، ولم يكن الرجال يهتمون به ، اذ كانوا يقرأون صحفهم

وهم سائرون ، او يفركـون بحركات ضجرة زجـاج نظاراتهم او يضحكون في الفراغ باندهاش . وكان جمهوراً حقيقياً بالرغم من انه كان منتثراً قليلاً ، وكان يسير ببطء ، فيخيّل ان قدراً جماهـيرياً ثقيلاً يسحقه . وانسجم دانيال مع هذا الصفّ البطيء ، واستعار من هؤلاء البشر بسمتهم المستنيمة وقدرهم الغامض المهدِّد ، فضاع : لم يبقَ بعدُ فيه الا صوتُ وابلٍ أصمّ ، ولم يَعُدْ الا شاطئاً من النوز المنسيّ :

« سأصل ابكر مما ينبغي الى بيت مارسيل ، ولدي الوقت لأسير قليلاً . »

وانتصب متصلباً حذراً : لقد وجد نفسه من جديـد ، ولم يكن يستطيع ان يضيع نفسه بعيداً جداً : « لدي الوقت لأسير قليلاً . » وكان هذا يعني : سأقوم بجولة في السوق الخيرية ، وكان قد مضى وقت طويل لم يكن دانيال ينجح فيه بأن يخدع نفسه . وما جدوى هذا في الحق ؟ لقد كان يريد ان يذهب الى السوق الخيريـة ؟ حسناً ، سيذهب . سيذهب لأنه لم تكن لديه ادنى رغبة في ان يمتنع عن ذلك : هذا الصباح ؛ القطط ، زيارة ماتيو ، وبعد هذا اربع ساعـات من العمل الكريه ، وهذا المساء مارسيل ، إن هذا غير محتمل ، فبوسعي ان اعوّض عن نفسي قليلاً .

مارسيل ، كانت مستنقعاً . كانت تستسلم ساعات طويلة للوعـظ والإرشاد ، وكانت تقول : نعم ، نعم ، دائماً نعم ، وكانت الافكار تغوص في رأسهـا ، فاذا هي غير موجـودة الا في الظاهر . من المستحسن ان يتسلى المرء لحظة مع الأغنياء ؛ فيمدّ لهم الحبل ليرتفعوا في الاجواء هائلين ذوي خفّة كفيـلـة مصنوعة من أحشاء الخراف ؛ فاذا شُدّ على الحبل عادوا يعومـون على مستوى الأرض وقد جُنّوا وذعروا ، ورقصوا لكل هزّة من الخيط في وثبـات ثقيلة ، ولكن

ينبغي غالباً تغيير الأغبياء ، وإلا ادى ذلك الى الاشمئزاز . ثم إن مارسيل كانت الآن فاسدة ؛ وسيكون الجو في غرفتها غير محتمل . إن المرء لا يستطيع الامتناع ، حين يدخل غرفتها عادة ، عن الاشمئزاز . لم يكن ثمة رائحة شيء ، ولكن المرء لم يكن واثقاً من شيء ، فهو يحتفظ طوال الوقت بالقلق في أعماق رئتيه ، وهذا ما يؤدي غالباً الى الربو . سأذهب الى السوق الخيرية . ولم تكن ثمة حاجة الى كل هذا الاعتذار فان الأمر كله بريء : كان يريد ان يراقب حركات العمّات وهن يصطدن . لقد كانت سوق جادة سباستبول الخيرية مشهورة في نوعها، فهناك أغرى « دورا » مراقب المالية الفتاةَ الصغيرة القذرة التي قتلته . اما السوقة الذين كانوا يتسكعون امام آلات الدراهم بانتظار الزبون ، فقد كانوا اظرف كثيراً من زملائهم في مونبارناس : لقد كانوا ألسنة سوء للمناسبات ، او افظاظاً صغاراً غير مهذبين ، متوحشين وسوقة ، ذوي اصوات مبحوحة وحركات خفيّة مغلّفة ، يسعون الى ربح عشرة فرنكات ووجبة عشاء . ثم كان هناك ايضاً « المحونون » الذين كانوا يميتون ضحكاً برقتهم ونعومتهم وأصواتهم التي تشبه العسل ، وما في انظارهم من خفقان وتواضع وشرود . ولم يكن دانيال يستطيع ان يتحمل خضوعهم . فقد كانوا يظهرون دائماً بمظهر المذنبين . وكانت تأخذه الرغبة في ضربهم ، فاننا نرغب في ضرب انسان يحكم على نفسه بنفسه لنزيد في ارهاقه ونحطم الف قطعة ما بقي له من كرامة . وكانت عادته ان يستند الى جذع ويحدق فيهم بينما هم يتبخترون تحت اعين عشاقهم الشباب ، تلك الاعين الناعسة الماجنة . وكان المحونون يظنونه حامياً لاحد الفتيان . وكان يفسد عليهم كل لذتهم . واخذت دانيال عجلةٌ مفاجئة ، فحث خطاه : « سوف نضحك ! » وكانت حنجرته جافة . وكان الهواء الجاف يحرق ما حوله . ولم يكن ليرى شيئاً بعد، كانت ثمة لطخة امام عينيه ، ذكرى نور كثيف اصفر ، وكان هذا

النور البغيض يدفعه ويجذبه في وقت واحد ، وكان محتاجاً الى ان يراه، ولكنه كان ما يزال بعيداً ، يعوم بين جدران واطئة ، كـأنه رائحة كهف . وتلاشى شارع ريومور ، ولم يكن باقياً امامه الا مسافة ذات عقبات ، هي الناس : وكان ذلك يُشعر بالكابوس . غير ان دانيـال لم يكن يستطيع قط ، في الكوابيس الحقيقية ، ان يبلغ نهاية الشارع . وانعطف الى جادة سيباستبول وقد تكلّس تحت السماء المشرقة ، وتباطأ في مشيته . سوق خيرية : لقد رأى اللافتة ، وتأكد من انه لم يكن يعرف وجوه المارة ، فدخل .

كان ممراً طويلاً ضيقاً مغبراً ، ذا جدران مطوية باللون الاسمر وقبح قاس ورائحة مستودع خمر . وانفجر دانيال في النور الاصفر الذي كان اشد حزناً ولزوجة مما هو في العـادة ، وكان اشراق النهار يركنه في جوف القاعة ؛ وفي عيني دانيال كان ذلك نور دوار البحر : كان يذكّره بتلك الليلة التي قضاها مريضاً على باخرة بالرمو : فقد كان في غرفة الآلات الخالية ضباب اصفر مشابه جداً ، كان يحلم بـه احياناً فيستيقظ منتفضاً ، سعيداً بأن يجد الظلمات من جديد . وكانت الساعات التي يقضيها في السوق الخيرية تبدو له موقّعة بضربات صماء تصدر عن اذرع دافعة . وكانت قد أُسندت الى الجدران علب ضخمة على اربعة ارجل ، وكانت تلك هي الالعاب . وكان دانيـال يعرفها جميعاً : لاعبو كرة القدم ، ستة عشر تمثالاً خشبياً صغيراً ، مشكوكة عـلى قضبان طويلة من النحاس ، ولاعبو البولو ، وسيارة الحديد الابيض التي كان يجب اركاضها على طريق من القماش ، من بيوت وحقول ، والقطط الصغيرة السود الخمس على السقف ، في ضوء القمر ، التي كانت تقتل بخمس طلقات من مسدس ، والبندقية الكهربائية ، وآلات توزيع الشوكولا والعطور . وفي جوف القاعة ، كانت ثلاثة صفوف من « الكينراما »، وكانت عناوين الافـلام تنفصل في حروف ضخمة

سود : الزوجان الشابان ، الخادمات الفاجرات ، الحمّام الشمسي ، ليلة الزواج المستمرة . وكان سيد ذو نظارة قد اقترب خفيةً من احدى هذه الآلات، فأدخل عشرين فلساً في الشق ، وألصق عينية بعجلة خرقاء على بلور الميكا . وكان دانيال يختنق: كان هذا الغبار ، وهذه الحرارة، ثم انهم اخذوا يضربون ضربات كبيرة ، ذات اوقات منتظمة ، فيما وراء الجدار . والى اليسار رأى المصيدة : كان شبان يلبسون ثيــاباً متواضعة قد تجمعوا حول الملاكم الزنجي ، وهو تمثال ذو مترين كان يضع في وسط بطنه وسادة من جلد وساعة . وكانوا اربعة ، واحــد اشقر ، الشعر ، وآخر احمره ، واسمران ، وكانوا قد نزعوا ستراتهم وشمّروا عن اكمامهم وكانوا يضربون بأذرعتهم الهزيــلة عــلى الوسادة كأنهم صمّ . وكان عقرب على الساعة يشير الى قوة قبضاتهم. وراحوا ينظرون الى دانيال نظرات خفية ، ثم اخــذوا يضربون ضرباً اشد . ووسّع دانيال عينيه ليظهر لهم انهم كانوا مخطئين بالعنوان ثم اولاهم ظهره ، والى اليمين بالقرب من الصندوق ، رأى في الظل شاباً طويلاً ذا خدين رماديين ، كان يرتدي ثوباً مدعوكاً كله ، وقميصاً للنــوم وحذاء من قماش . ولم يكن بالتأكيد ممحوناً كالآخرين! والواقع انه كان يبدو عليه انه لا يعرفه . وقد دخل هناك بالمصادفة – وان دانيــال ليقسم على ذلك – وكان يبدو مستغرقاً في تأمل آلة رافعة . وبعــد لحظة ، اقترب بلا ضجة يجذبه من غير شك المصباح الكهربائي والكوداك اللذان كانا قائمين خلف الزجــاج فوق ركام من الملبّس ، وأدخل بخبث قطعة نقدية في شق الآلة ثم ابتعد قليلاً ، وبدا انه يسقط من جديد في تأمله ، وكان يلامس طرفي انفه باصبعٍ مفكّر . وأحسّ دانيال بأن رعشة معهودة كانت تجري على رقبته وفكر : « إنه يحب نفسه جيداً ، يحب ان يلامس نفسه . » وكان هؤلاء اكثر الجميع جاذبية وأوفرهم روائية : اولئك الذين كانت ادنى حركة منهم تكشف

عن دلال غير واعٍ ، وعن حب للنفس عميق ملبّد . وأخذ الشاب يدي الآلة بحركة حيّة وراح يحركها ببراعة . واستدارت الآلة الرافعة على نفسها بحركة دوامية وارتجافات شيخية . فكانت المكنة كلّها تهتزّ منها . وكان دانيال يتمنى له ان يربح المصباح الكهربائي ، ولكنّ نافذةً بصقت ملبّساً مختلف الألوان يشبه مظهر الفاصوليا البخيل المحدود. ولم يبد الشاب خائباً ، وبحث في جيبه وأخرج قطعة نقود اخرى . وقرر دانيال « انها آخر دراهمه ، وهو لم يأكل منذ أمس . » وكان ينبغي الا يقرر ذلك . كان ينبغي الا يستسلم فيتصوّر خلف هذا الجسم الهزيل الساحر ، المشغول بنفسه ، حياةً غامضة من الحرمانات، والحرية والأمل . ليس اليوم . وليس هنا ، في هذا الجحيم ، تحت هذا النور الكئيب ، ومع هذه الضربات الصمّاء التي يُضرب بها الجدار ، لقد عاهدت نفسي ان اصمد . ومع ذلك كان دانيال يدرك تماماً ان احدى هذه الآلات يمكن ان تشرق الانسان . فيفقد فيها ماله شيئاً فشيئاً ويعود الى تجربة حظه مرة ومرة ، وقد جفّ حلقه من الدوار والغضب: لقد كان دانيال يفهم جميع الدوارات . وأخذت الآلة الرافعة تدور بحركات حذرة متكررة : وكان يبدو على هذه الآلة المنكّلة انها راضية عن نفسها . وأخذ دانيال الخوف : كان قد تقدم خطوة الى الامام ، وكان يذوب رغبة في وضع يده على ذراع الشاب — وكان قد بدأ فعلاً يُحسّ ملمس القماش الخشن المنتوف — وفي ان يقول له : « كفاك لعباً . » وكان الكابوس يوشك ان يعود ، بهذا المذاق من الأزلية ومن « التام — تام » المنتصر، من الجهة الاخرى من الجدار ؛ وكان بحاجة الى ايام وليال ليخرج من هذا المستنقع من الحزن المتطامن الذي كان يصعد فيه ، هذا الحزن اللامتناهي المألوف الذي كان يوشك ان يغمر كل شيء . ولكن رجلاً دخل ، فتحرّر دانيال : لقد نهض وحسب انه سينفجر ضحكاً ، وفكّر : « هوذا الرجل » ؛ وكان تائهاً بعض

الشيء ، ولكنه كان مسروراً مع ذلك لأنه صمد . /

وتقدم الرجل في نزق ، وكان يسير وهو يطوي ركبتيه ، متصلّب القامة ، مَرِنَ الساقين . وفكّر دانيال : « انت ؟ أنك تلبس مشدّاً . » وكان عمره يقدر بالخمسين ، وكان قد حلق ذقنه منذ وقت قريب ، وكان ذا وجه متفهّم يبدو ان الحيـــاة قد دلّكته بحب ، وبشرة خمرية تحت شعر ابيض ، وانف فلورنسي جميل، ونظرٍ اقسى قليلاً وأحسر مما ينبغي : نظر المناسبة . وكان لدخوله تأثير : فقـــد انفتل السوقة الاربعة ، وهم يتكلّفون المنظر نفسه من البراءة الفاسدة ، ثم عـــادوا يرسلون قبضاتهم في بطن الجندي التمثال ولكن من غير حماسة . وترك الرجل نظره يحط قليلا عليهم في تحفظ لم تكن القسوة بعيدةً عنه ، ثم انفتل واقترب من لعبة كرة القدم. وأدار القضبان الحديدية وتفحّص التماثيل في جدٍ باسم ، كما لو انه كان يسلّيه هو ذاتـــه الهوس الذي اقتاده الى هنا. ورأى دانيال هذه البسمة فتلقّى ضربة زيفٍ في صدره، واستفظع جميع هذه التصنّعات والاكاذيب ، وأخذته الرغبة في الفرار. ولكن ذلك لم يدم الا لحظة : كانت اندفاعة بلا عاقبة ، وكان معتاداً على ذلك . واستند الى جذع وأخذ يحدِج الرجل بنظر ثقيـــل . والى يمينه ، كان الشاب الذي يرتدي قميص النوم قد سحب من جيبه قطعة نقود ثالثة ، وكان يستأنف للمرة الثالثة رقصته الصغيرة الصامتة حول الآلة الرافعة .

وانحنى الرجل الجميل على اللعبة وأمرّ سبابته عـــلى اجسام اللاعبين الصغار : لم يكن يريد الانحطاط الى تقديم المغريات ، ولا ريب انـــه كان يعتبر نفسه ، بشعره الابيض وثيابه الفاتحة ، قطعة حلوى لذيذة لذة كافية لاجتذاب جميع هـــذا الذباب الفتيّ . والواقع ان الصغير الاشقر ، بعد لحظات من المشاورة ، انفصل عن الفرقة ، وكان قـــد رمى سترته على كتفيه من غير ان يرتديها، واخذ يقترب من «الممحون»

متهادياً ، ويداه في جيبيه . وكان يبدو عليه الخوف والترقّب ، وكان نظره ، تحت حاجبيه الكثيفين نظر كلب . وتأمل دانيـال في اشمئزاز ردفه السمين وخديه الكبيرين الفلاّحين اللذين كانت لحية صغيرة قـد بدأت تلطّخهما . وفكر : « لحم امرأة وهو يُفرك كعجين الخبز . » سوف يقوده الرجل الى بيته ، فيغسله وينظفه بالصابون ، وربما عطره . واذ بلغ دانيال هذه الفكرة عاد اليه غضبه فتمتم « قذرون ! » وكان الشاب قد توقف على بضع خطى من الرجـل الكهل واخـذ يصطنع بدوره ان يتفحص الآلة . وكان كلاهما منحنياً فوق القضبان يحدجها ، من غير ان ينظر الى الآخر ، في مظهر اهتمام . وبعد ذلك ، بدا على الشاب انه يتخذ قراراً نهائياً : فقبض على زر وأدار احد القضبان على نفسه في سرعة ، فرسم اربعةُ لاعبين صغـار نصف دائرة ثم توقفوا ورؤوسهم منخفضة .

وسأل الرجل بصوت يشبه معجون اللوز :

– هل تحسن اللعبة ؟ اوه ! هل تريد ان تشرح لي ؟ إنـني لا أفهم !

– تضع عشرين فلساً ثم تسحب ، فتأتيك الـكرة ، ويجب ان ترسلها الى الثقب .

– ولكن يجب ان يلعب اثنان ، اليس كذلك ؟ انني احاول ان ارسل الـكرة الى الهدف ، وانت ، عليك ان تمنعني من ذلك ؟

فقال الشاب : – طبعاً (واضاف بعد لحظة) يجب ان نكون على الطرفين ، هنا واحد ، وهناك واحد .

– اتريد ان تلعب معي دوراً ؟

فقال الشاب : – بكل ترحيب .

ولعبا . وقال الرجل بصوت مرتفع :

– ولكن ما ابرع هذا الشاب ! كيف تراك تفعل حتى تربـح

طوال الوقت ؟ علّمني .
فقال الشاب بتواضع : — إنها العادة .
— آه ! انت تتدرّب ! انك تأتي الى هنا غالباً ، بلا شك ؟ اما انا ، فيتفق لي ان امرّ فأدخل ، غير اني لم التق بك قط . ولو التقيت بك للاحظتك ، اجل كنت لاحظتك ، فانا عالم بالفراسة ، وان لك وجهاً يثير الاهتمام . هل انت من « تورين » ؟
فقال الشاب منزعجاً : — نعم ، نعم ، بالتاكيد .
وكف الرجل عن اللعب واقترب منه ، فقال الشاب بسذاجة :
— ولكن الدور لم ينته . فان امامك خمس كرات بعد.
فقال الرجل : — نعم ! اذن ، سنلعب عما قليل . انني افضّل ان اتكلم قليلاً ان كان ذلك لا يضايقك .
فابتسم الشاب ابتسامة مدروسة . واضطر الرجل الى ان يستدير على نفسه ليلحق به . ورفع رأسه وهو يمرّ لسانه على شفتيه الرقيقتين ، فالتقى بنظر دانيال . فكشر دانيال . وصرف الرجل عينه بسرعة ، وبدا حائراً ، ففرك يديه فيما بينهما بحركة كاهن . ولم يكن الشاب قد رأى شيئاً ، وكان فاغر الفم ، فارغ النظر ، ممتثلاً ، ينتظر ان يوجّه اليه الكلام . وساد صمت ثم اخذ الرجل يحدثه في عذوبة، من غير ان ينظر اليه ، بصوت مخنوق . واجهد دانيال نفسه في الانصات ، فلم يسمع الا كلمتي « فيلا » و « بايار » وهز الشاب رأسه في اقتناع ، وقال بصوت مرتفع :
— لا بد انه من النيكل !
فلم يجب الرجل ورمى بنظره سريعاً تجاه دانيال . وكان دانيال يحس بأن غضباً جافاً ولذيذاً كان يدفئه . وكان يعرف جميع طقوس الذهاب : سوف يودع احدهما الآخر ، فيذهب الرجل اولاً ، بخطوة عجلى . ويعود الفتى الى رفاقه بلا مبالاة فيضرب بطن الزنجي التمثال

ضربة او ضربتين ، ثم يمضي بدوره بعـــد تحيات رخوة ، وهو يجرجر قدميه . وكان ينبغي ان يُتبع هـــو بالذات . ويكون العجوز يذرع الطريق المجاورة ، فيرى فجأة دانيال في اعقاب الشاب الجميل . ويا لها من لحظة ! لقد كان دانيال يستمتع بها مقدماً ، فيلتهم بعينيه وجه فريسته الرقيق التعب ، وترتجف يداه ، وتكون سعادته كاملة لولا ان يكون حلقه جافاً وأنه يكاد يموت من العطش . فاذا كان يجد فرصة مناسبة مارس عمل شرطة الاخلاق : وقـــد كان بوسعه دائماً ان يأخذ اسم الكهل ويخضعه لذعر شديد : « فاذا طلب مني بطـــاقة التفتيش فسوف أريه بطاقة السير الممنوحة لي من المحافظة »

قال صوت خجول : – مرحباً يا سيد لاليك .

وانتفض دانيال : لقد كان لاليك اسماً حربياً يتخذه لنفسه احياناً .

والتفت فجأة وقال بقسوة :

– ماذا تفعل هنا ؟ لقد منعتك من ان تضع قدمك في هذا المكان.

انه بوبي . وكان دانيال قد وظفـــه لدى صيدلي . وقـــد سمن وترهل ، وكان يرتدي بذلة جميلة ، ولم يكن يثير الاهتمام بعد على الاطلاق . وكان بوبي قد احنى رأسه على كتفه مقلداً الطفل : وكان ينظر الى دانيال من غير ان يجيبه ببسمة بريئة حذقة كما لو انه قال : « كوكو : هأنذا . » وقد دفعت هذه البسمة بغضب دانيال الى ذروته، فسأله :

– هل ستتكلم ؟

فقال الفتى بصوته المسترخي :

– انني ابحث عنك منذ ثلاثة ايام ، ولست اعرف عنوانك . وقد قلت لنفسي : ان السيد دانيال سيأتي ذات يوم ليقوم بدورته الصغيرة...

« ذات يوم ! يا للقذارة الوقحة ! » لقد كان يسمح لنفسه ان يحكم على دانيال ، وان يقوم بتنبؤاته الصغيرة : « هو يتصور انـــه

يعرفني ، وأن بوسعه ان يناور عـــلي . » ولم يكن ثمة ما يُفعل: الا ان يُسحق كالبزاق : لقد كانت صورةٌ لدانيال متكيّسة هناك ، تحت هذا الجبين الضيق ، وستبقى فيه دائماً . وكان دانيال ، بالرغم من نفوره ، يشعر انه متضامن مع هذا الأثر الرخي الحي : انما كان هو نفسه الذي يعيش هكذا في ضمير بوبي .

وقال : — انك قبيح ! لقد سمنت ، ثم ان هذه البذلة لا تنسجم معك ، فمن اين التقطتها ؟ انه لمريعٌ كم يبدو ابتذالك واضحاً حين ترتدي ثياب الاحد !

ولم يبد على بوبي الانفعال . كان ينظر الى دانيـــال مباعداً ما بين عينيه بلطافة وهو دائم الابتسام . وكان دانيال يحتقر هـــذا الصبر الجامد ، الذي يشبه صبر الفقير ، وتلك الابتسامة المائعة اللزجة المطاطية: فحتى لو مزقت هذه الشفاه بالأظافر ، لظلت تلك الابتسامة دامية على الفم . وألقى دانيال نظرة سريعة نحو الرجل الجميل فرأى في غيظ انه كان هادئاً غير منزعج : كان منحنياً فوق الشـــاب الاشقر يشم شعره وهو يضحك بجذل . وفكر دانيال في غضب : « كان هذا متوقعاً . انه يراني مع هذا الممحون فيظنني زميلاً له ، فهأنذا ملطّخ » وكان يكره روح المساعدة هذه المبولية . « انهم يتصورون ان جميع الناس ينتمون اليها . على اي حال ، افضّل ان اقتل نفسي على ان اشبه هذا الممحون ! »

وسأل بوحشية : — ماذا تريد ؟ إنني مستعجل ، ثم ارجع قليلاً الى الوراء ، فان رائحة « البريانتين » التي تتصاعد منك تفغم الانف!

فقال بوبي في بطء : — اعذرني ، لقـــد كنت مستنداً هناك الى العمود ، ولم يكن يبدو عليك انك مستعجل قط ، ولهـــذا سمحت لنفسي ...

فقال دانيال وقد انفجر ضاحكاً :

– اوه ! ولكن الحقيقة انك تحسن الكلام ، فهل تراك اشتريت لساناً مصنوعاً في الوقت الذي اشتريت فيه بذلتك المصنوعة ؟

وانزلقت هذه السخرية على بوبي : وكان قد قلب رأسه وراح ينظر الى السقف نظرة شهوة متواضعة عبر جفنيه المغمضين . « لقد راق لي لأنه كان يشبه قطة . » ولم يستطع دانيال ، اذ فكر بهذا ، ان يكبت انتفاضة غضب : أجل ! ذات يوم ! لقد راق له بوبي ذات يوم ! فهل كان هذا يكسبه حقوقاً مدى العمر ؟

وكان الرجل الكهل قد اخذ يد صديقه الشاب واحتفظ بها بين يديه بحركة ابوية . ثم حيّاه وهو يربت على خده ، ورمى بنظرة ضالعة الى دانيال ومضى في خطى واسعة راقصة . ومد له دانيال لسانه ، ولكن كان قد اولاه ظهره . واخذ بوبي يضحك .

وسأل دانيال : – ماذا دهاك ؟

فقال بوبي : – ذلك انك مددت لسانك للعجوز (واضاف بلهجة ناعمة) : « انك لا تتغير يا سيد دانيال ، وشيطنتك هي نفسها . »

وقال دانيال مذعوراً : – كفى ! (واخذه شك فسأله) وصيدليُّك ؟ هل تركته ؟

فقال بوبي في لهجة شاكية : – لم يؤاتني الحظ عنده .

فنظر اليه دانيال في اشمئزاز :

– غير انك مع ذلك قد سمنت .

وخرج الشاب القصير الأشقر من السوق الخيرية بلا اكتراث ، فلامس دانيال وهو يمر . وما لبث رفاقه الثلاثة ان تبعوه ، وراحوا يتزاحمون وهم يضحكون بأصوات عالية . وفكر دانيال : ماذا افعل هنا ؟ » وبحث بعينيه عن كتفي الشاب صاحب قميص النوم ، وعن رقبته الهزيلة ، وقال بشرود :

– هيا ، تكلم ، ماذا فعلت له ؟ هل سرقته ؟

فقال بوبي : — بل ان السبب هو زوجة الصيدلي . انهـا لم تكن تطيقني .

وكان الشاب ذو قميص النوم قد خرج . واحس دانيال بأنه ضجر وخفيف ، وكان يخشى ان يجـــد نفسه وحيداً مرة اخرى . وتابع بوبي :

— لقد غضبت لأني كنت ارى رالف .

— لقد حذرتك بألا تعاشر رالف بعد . انه سارق قذر !

فسأله بوبي بغيظ : — اذن يجب التخلي عن الاصدقـاء بمجرد ان يواتينا الحظ ؟ لقد كنت اراه اقل من السابق ، ولكني لم اكن اريد التخلي عنه دفعة واحدة . كانت تقول : « انه سارق ، وانا امنعه من ان يضع قدميه في صيدليتي » . ماذا تريد ، انها امرأة لئيمة . ولهذا كنت اراه في الخارج حتى لا تقبض عليّ . ولكن حدث ان المتمرن رآنا معاً . يا للعكروت القـــذر ، اعتقـــد ان عنده بعض الميول ... في البدء ، حين كنت هناك ، كان يلاطفني جداً ، فكيف اجرؤ على ان أصدّة ؟ فاذا به يقول لي : سوف اقبض عليك ! ودخـــل الى الصيدلية فسرد كل شيء ، وقال انه رآنا معاً ، واننا كنا في وضع سيء ، وان الناس كانوا يلتفتون الينا فقالت المعلمة : مـــاذا قلت لك ؟ انني امنعك من رؤيته والا فلن تبقى عندنا . وقلت لها : اسمعي يا سيدتي : انت التي تأمرين حين اكون في الصيدلية، اما حين اكون خارجاً فليس لديك ما تقولينه . وهكذا كان !

كانت السوق الخيرية خالية ، من الجهة الاخرى للجدار . وكان الطَّرق قد كفّ . ونهضت امينة الصندوق ، وكانت شقراء سمينة ، فمضت بخطى بطيئة الى بائع للعطور ، فنظرت الى نفسها في المرآة وهي تبتسم . ودقت الساعة السابعة . وردد بوبي في انبساط :

— في الصيدلية ، انت التي تأمرين ، اما حين اكون خارجاً فليس

لديك ما تقولينه .
وانتفض دانيال وسأله بطرف شفتيه :
ــ وهكذا طردوك ؟
فقال بوبي برصانة : ــ بل انا الذي ذهبت ، وانا اقول : افضّل ان ارحل . وتصور انه لم يكن باقياً معي فلس واحد ! انهم لم يريدوا ان يدفعوا ما استحق ، ولكن طز : انني هكذا . ابيت لدى رالف ، وانام بعد الظهر ، لأنه يستقبل في المساء امرأة مشهورة له علاقة بها . انني لم آكل منذ امس الأول .
ونظر الى دانيال نظرةً ملامسة :
ــ وقد قلت في نفسي : سأحاول مع ذلك ان أرى السيد لااليك ، فهو سيفهمني .
فقال دانيال :
ــ انك ابله صغير . فأنت لا تثير اهتمامي بعد . انني ابذل جهداً كبيراً لأجد لك عملاً فتجعلهم يطردونك بعد شهر . وبعد ذلك ، لا تتصور اني اصدق نصف ما تقوله لي . انت تكذب كخالع الضرس .
فقال بوبي : ــ إسأل ، وسترى ان كنت لا اقول الحقيقة .
ــ أسأل من ؟
ــ امرأة الصيدلي .
فقال دانيال : ــ سوف أتفادى ذلك جيداً حتى لا اسمع القصص . ثم اني لا استطيع شيئاً من اجلك .
واحس بالاسترخاء ففكر : « يجب ان اذهب » ولكن ساقيه كانتا مخدرتين .
وقال بوبي بلهجة مجردة :
ــ لقد فكرنا ، انا ورالف بأن نشتغل . وكنا نريد ان نعمل لحسابنا .

– صحيح ؟ وانت آت تطلب مني ان اسلفك مالاً لنفقاتك الأولى ؟ احتفظ بهذه القصص لآخرين . كم تريد ؟

فقال بوبي بصوت مبتل : – انك شخص لطيف يا سيد لاليك . والحق اني كنت اقول لرالف في هذا الصباح بالذات : لألتقِ بالسيد لاليك ، وسترى انه لن يتركني في المغطس .

وردد دانيال : – كم تريد ؟

واخذ بوبي يتلوى وهو يقول : – يعني ، لو كنت تستطيع ان تدينني ، أتسمع : تدينني ؟ فسوف اردها لك في آخر الشهر الأول .

– كم ؟

– مئة فرنك .

فقال دانيال : – خذ ، هذه خمسون فرنكاً ، وانا اهبك اياها . ولكن اختفِ الآن !

ووضع بوبي الورقة في جيبه من غير ان يقول كلمة ، وبقي احدهما تجاه الآخر ، مترددين .

وقال دانيال برخاوة : « اذهب » وكان جسمه كله من القطن .

فقال بوبي : « شكراً يا سيد لاليك » وخطا خطوة زائفة ، ثم عاد على اعقابه ، واستطرد يقول :

– اذا اردت احياناً ان تتحدث الي او الى رالف ، فنحن نسكن في الجوار ، ٦ شارع الاورس ، الطابق السابع . وانت مخطىء في حق رالف ، فهو ، لو كنت تعلم ، يحبك كثيراً .

– إذهب .

فابتعد بوبي متراجعاً ، وهو ما يزال يبتسم ، ثم استدار على نفسه ومضى . واقترب دانيال من الآلة الرافعة ونظر اليها . وكان الى جانب الكوداك والمصباح الكهربائي نظارة مزدوجة لم يلاحظها من قبل قط . وادخل قطعة من عشرين فلساً في الشق وادار الأزرار كيفما اتفق ،

فاسقطت الآلة ملاقطها على سرير الملبّس وأخذت تقشره بصورة غريبة. والتقط دانيال خمس ملبسات او ستاً في جوف يده وأكلها .

كانت الشمس تعلّق بعض الذهب على البنايات الكبيرة السوداء ، وكانت السماء ملأى بالذهب ولكن ظلاً مائعاً عذباً كان يصعد من الرصيف ، وكان الناس يبتسمون لمداعبات الظل . وكان دانيال على عطش جهنمي ، ولكنه لم يكن يريد ان يشرب : مُتْ ! مُت عطشاً ! وفكر : « مهما يكن من امر ، فاني لم افعل شيئاً سيئاً . » ولكن ذلك كان اسوأ : لقد استسلم للشر يلامسه ، وكان قد سمح لنفسه بكل شيء ، الا ارواء الغليل ، بل هو لم يجرؤ حتى على ارواء الغليل . وها هو ذا الآن يحمل هذا الشر في نفسه كدغدغة حية ، من اعلى جسده حتى اسفله ، لقد كان منتناً ، وكان لا يزال لديه بعد ذلك المذاق الأصفر في عينيه ، كانت عيناه تجعلان كل شيء اصفر . لقد كان افضل لو قتل نفسه لذةً وقتل الشر في نفسه. صحيح ان هذا الشر كان يولد دائماً من جديد . والتفت فجأة وهو يفكر : « انه جدير بان يتبعني ليرى اين اسكن ، واني اود لو يتبعني حتى اركله ركلة شديدة في وسط الشارع ! » ولكن بوبي لم يكن ليظهر . لقد ربح الآن نهاره ، فعاد الى المنزل . منزل رالف ، ٦ شارع الاورس . وانتفض دانيال : « ليتني استطيع ان انسى هذا العنوان ! ليته يتأتى لي ان انسى هذا العنوان . »

وكان الناس يثرثرون حوله ، آمنين مع انفسهم. وقال رجل لزوجته : « هيه ! ولكن هذا يرجع عهده الى ما قبل الحرب . عام ١٩١٢ . لا ١٩١٣ . كنت ما ازال لدى بول لوكاس . » السلام . سلام الشجعان ، الشرفاء ، ذوي الارادة الصادقة . ولماذا تكون ارادتهم هي الصادقة ، لا ارادتي ؟ لم يكن في اليد حيلة ، فكذلك كانت الامور. شيء ما في هذه السماء ، في هذا النور ، في هذه الطبيعة ، قد قررت

ذلك كذلك . وكانوا يعرفون هذا، يعرفون انهم كانوا على حق،وان الله ، لو كان موجوداً ، لكان في جانبهم.ونظر دانيال الى وجوههم: كم كانوا قساةً ، بالرغم من استسلامهم .. وكان حسبهم اشارة حتى يرتموا عليه ويمزقوه . وستكون السماء والنور والأشجار والطبيعة كلها على وفاق معه ، كشأنها دائماً : فقد كان دانيال انساناً ذا ارادة سيئة .

وكان ثمة بواب على عتبة بابه ، سمين ممتقع ، ذوكتفين منبسطتين ؛ يستنشق الهواء . ورآه دانيال من بعيد ، ففكر : هوذا « الخير » . وكان البواب جالساً على كرسي ويداه على بطنه ، كأنه بوذا ، ينظر إلى الناس يمرون ، ويقرهم بين لحظة واخرى بايماءة من رأسه . وفكر دانيال في حسد : « لو كنت هذا الشخص ! » لا بد انه كان قلباً فاضلاً ، والى جانب ذلك ، شديد الحساسية بالقوى الطبيعية الكبرى ، الحرارة والبرد والنور والرطوبة . وتوقف دانيال : لقد سحرته هذه الجفون الطويلة البليدة ، وهذا الخبث المتكلف على خدية الممتلئتين . انه يتوحش ويخبل حتى لا يكون بعد الا هذا ، حتى لا يبقى في رأسه الا عجينة بيضاء مع عطر يسير يشبه عطر معجون الحلاقة . وفكر : « انه ينام الليل بطوله » . ولم يكن يدري بعد ان كانت به رغبةٌ في قتله ، أم في التسلل الى دفء هذه الروح المنظمة .

ورفع الرجل السمين رأسه ، فاستعاد دانيال سيره : « ان بوسعي ان اؤمّل دائماً ، اذا استمرت هذه الحياة التي اسوقها ، بأن اصبح في اقرب وقت ممكن بليد الذهن ، ضعيف الادراك . »

ألقى نظرة استياء الى محفظته : لم يكن يحب ان يحملها في ذراعه ، فان ذلك كان يعطيه هيئة المحامي ، ولكن استياءه سرعان ما تلاشى ، لأنه تذكر انه لم يحملها من غير قصد ؛ بل انها ستكون مفيدة له الى حد بعيد . ولم يكن يخفي عن نفسه انه يتعرض للمخاطر ، ولكنه كان هادئاً بارداً منتعشاً بكل بساطة . « اذا وصلت طرف الرصيف في ثلاث

عشرة خطوة ... » وخطا ثلاث عشرة خطوة وتوقف جامداً على طرف الرصيف ، ولكن الخطوة الاخيرة كانت اوسع من سائر الخطى بوضوح، اذ انه كان ينفسح كأنه خبير بالمسايفة : « والحق انه ليس لذلك اية أهمية ، فالقضية على كل حال في المحفظة . » ومـا كان لذلك ان يخطيء ، فانه امرٌ علميّ ، بل ان المرء ليتساءل كيف لم يخطر لأحد ان يفكر من قبل . وفكر في قسوة : « ان الأمر هو ان السارقين اغبياء . » وعبر الرصيف ووضّح فكرته : « فقد كان عليهم منـذ زمن طويل ان ينظّموا انفسهم في نقابة ، كالمشعوذين . » جمعيـةٌ لتطبيق الاساليب التكنيكية تطبيقاً مشتركاً ولاستغلالها ، ذلك مـا كان ينقصهم . على ان يكون لهم مقر اجتماعي ، ورتبة شرف ، وتقاليـد ومكتبة . وآلة للسينما ايضاً ، وافلام تفكّك ببطء الحركات الصعبة . وكل اتقان جديد يُصوَّر ، وتُسجل النظرية عـلى اسطوانات وتحمل اسم مخترعها ؛ وكل شيء يُصنّف في فئة ؛ فيكون هناك مثلاً سرقـة الاشياء المعروفة بالطريقة ذات الرقم ١٦٧٣ او بطريقة «سرغين» المسماة ايضاً بيضة كريستوف كولومب (لأنها سهلة جداً ولكن يجب ايجادها) وان بوريس مستعدٌ لتصوير فيلم صغير توضيحيٌ . وفكّر : «آه ! وبعد ذلك دروس مجانية عن علم نفس السرقة ، فهذا امرٌ لا بد منه . » وكانت طريقته تعتمد كل الاعتماد على علم النفس . ونظر برضى الى مقهى صغير ذي طابق واحد ، ولونه اصفر ، ولاحظ فجأة انه كان في وسط جادة اورليان . وكان غريباً ان يبدو الناس على مثل هـذا اللطف والقرب من القلب ، في جادة اورليان ، بين السابعة والسابعة والنصف مساء . ولا شك ان للنور أثراً كبيراً في الموضوع ، اذ كان « شاشاً » أحمر رائعاً ، وكان لطيفاً ان يوجد المرء في آخر باريس بالقرب من باب ، والشوارع تجري تحت قدميه نحو وسط المدينـة التجاري العتيق ، نحو الاسواق ، نحو ازقّة حيّ سانت انطوان المظلمة ،

حيث يشعر بأنه منغمر في منفى المساء والضواحي ، ذلك المنفى الديني الرقيق . لقد كان الناس يبدون وكأنهم خرجوا الى الشارع ليكونوا معاً، فهم لا يغضبون حين يُدفعون ، بل يمكن الظنّ بأن هذا يسرّهم . ثم انهم ينظرون الى الواجهات باعجاب بريء مجرّد تماماً . وفي جادة سان ميشال ينظر الناس ايضاً الى الواجهات ، ولكن بنيّــة الشراء . وصمّم بوريس في حماسة « سأجيء الى هنا كل مساء » . وفي الصيف القادم ، سيستأجر غرفة في احد هذه البيوت ذات الطوابق الثلاثة التي كانت تبدو كأنها توائم وتذكّر بثورة ٤٨ . ولكن اذا كانت النوافذ ضيقة الى هذا الحد ، فاني اتساءل كيف كانت النساء تعمل لإخراج الفروش والقائها على الجنود . وكانت النوافذ محاطة كلها بسواد الدخان فكأنما لحستها نيران حريق ؛ ولم يكن هذا منظراً حزيناً ، فــان هذه الواجهات الكالحة المثقوبة بثقوب صغيرة سوداء تشبه فرجات سماء عاصفة تحت السماء الزرقاء ، واني انظر الى النوافذ ، ولو كــان بوسعي ان اصعد الى سقف هذا المقهى ، لرأيت الخزائن ذات المرايا وسط غرف تشبه بحيرات عمودية ؛ والجمع يمرّ عبر جسمي ، وافكر في حرس بلدي ، وفي ابواب « باليه — رويال » المذهّبة ، يوم ١٤ تموز ، ولست ادري لماذا افكر في ذلك : وفكر فجأة : « ماذا اتى يفعــل عند ماتيو ذلك الشيوعي ؟ » لم يكن بوريس يحب الشيوعيين ، فهم أرصن مما ينبغي . ولا سيما برونيه ، فكأنه البــابا ، وفكر بوريس مقهقهاً « لقد طردني ... الحيوان ، طردني » ثم أخذته فجأة الرغبة في ان يكون شريراً ، كأنها ريح سموم صغيرة في رأسه : « لعــل ماتيو لاحظ انه منخدع على طول الخط ، ففكر في دخــول الحزب الشيوعي . » وتسلى لحظة في تعداد العواقب التي لا تحصى لمثل هــذا الانضواء . ولكنه شعر فجأة بالخوف فتوقّف . ان ماتيو لم ينخدع بكل تأكيد ، فان هذا سيكون خطيراً جداً ، الآن وقد التزم بوريس :

ففي صف الفلسفة احسّ بودّ غريب للشيوعية ، ولكن ماتيو صرفه عنها . وهو يشرح له ما هي الحرية . وكان بوريس قد فهم على الفور : يجب على المرء ان يفعل كل ما يريد ، وان يفكر بكل ما يبدو التفكير فيه حسناً ، والا يكون مسؤولاً الا امام نفسه ، والا يكف لحظة عن وضع كل ما يفكر به ، وكل الناس ، موضع الامتحان . وكان بوريس قد بنى حياته على هذا ، وكان حرّاً بصورة دقيقة : وكان خصوصاً يضع جميع الناس موضع الامتحان ، باستثناء ماتيو وايفيش ؛ فقد كان لا جدوى من وضعهما كذلك ، بالنظر الى انهما كانا كاملين . وأما الحرية ، فلم يكن كذلك حسناً ان يتساءل المرء عنها ، لأنه يكف آنذاك عن ان يكون حراً . وحك بوريس رأسه في تململ ، وتساءل من اين تأتيه هذه الدفعات التي كانت تأخذه بين الفينة والفينة ؟ لتحطيم كل شيء وفكر في دهشة لذيذة : « ربما كنت في حقيقتي ذا مزاج قلق . » لأن ماتيو ، اذا نظرنا الى الامور ببرودة ، لم يكن منخدعاً ، فقد كان هذا امراً مستحيلاً : لم يكن ماتيو ذلك الشخص الذي ينخدع . واغتبط بوريس ، وجعل يؤرجح محفظته بجذل في ذراعه . وتساءل ايضاً اذا كان اخلاقياً ان يكون المرء ذا شخصية قلقة، فرأى لذلك حسنات وسيئات ، ولكنه امتنع عن ان يذهب بتقديراته الى ابعد من هذا ؛ سوف يستشير في ذلك ماتيو . كان بوريس يجد شائناً ان يفكر شخص في مثل سنه تفكيراً مستقلاً بنفسه . وقد سبق له ان رأى كثيراً من هؤلاء الخبثاء المزيفين في السوربون ، الذين كانت لهم دائماً نظرية خاصة محفوظة ، وكان ينتهي بهم الامر عادة الى الافلاس ، بطريقة او بأخرى ، وكانت نظرياتهم من غير هذا بشعة ، مقرنة . وكان بوريس يستفظع كل ما يدعو الى الهزؤ ، ولم يكن يريد ان يفلس ، ويؤثر ان يصمت ويُعتبر رأساً فارغاً ، فقد كان هذا أقل تكديراً . سيكون الامر فيما بعد ، طبعاً ، شيئاً آخر ؛ اما الآن ،

فهو يلجأ الى ماتيو الذي كانت تلك مهمته . ثم انه كان يغتبط دائماً اذ يرى ماتيو يأخذ في التفكير : كان ماتيو يحمّر ، وينظر الى اصابعه، ويتلعثم قليلاً ، ولكن ذلك كان عملاً طيباً وأنيقاً . وكانت تَرِدُ لبوريس ، بين حين وآخر ، فكرة صغيرة بالرغم منه ، فكان يجهد حتى لا يلاحظ ماتيو ذلك ، ولكن اذا حدث ان لاحظ هذا اللئيم ذلك قال له : « ان في رأسك شيئاً » ثم يرهقه بالأسئلة . ويقع بوريس في العذاب ، ويحاول مئة مرة ان يغير وجهة الحديث ، ولكن ماتيو كان عنيداً كالقمل؛ وينتهي الامر ببوريس الى ان يلفظ الفكرة وينظر الى ما بين قدميه ، فيكون اسوأ ما في الامر ان ماتيو كان آنذاك يوسعه احتقاراً ويقول له بعد ذلك : « ان هذا سخيف جداً ، وانت تفكر كالحمقى . » كما لو ان بوريس ادعى انه عثر على فكرة عبقرية . وردّد بوريس مقهقهاً « اللئيم ! » وتوقف امام مرآة صيدلية جميلة حمراء وتأمل صورته في غير ما تحيُّز . وفكر « انني انسان متواضع » وألفى نفسه قريباً الى القلب . وصعد الى الميزان الآلي ووزن نفسه ليرى اذا كان قد سَمن منذ عشية الامس . وأضاءت كرة حمراء وأحدثت الآلة حركات متحشرجة ، ثم تلقى بوريس تذكرة من الكرتون : سبعة وخمسين كيلو وخمسمئة . وأخذته لحظة رعب ، وفكر : « لقد زدت خمسمئة غرام » ولكنه لاحظ بسرور انه كان ما يزال يحمل المحفظة في يده . ونزل عن الميزان ، واستأنف سيره . سبعة وخمسون كيلو بالنسبة لطول متر وثلاثة وسبعين : هذا امر طيب . وكان مزاجه رقيقاً جداً ، وكان يشعر انه مخمليّ برمته في داخله . وفي الخارج ، كانت ثمة تلك الكآبة الدقيقة لذلك اليوم المسنّ الذي كان يسودّ رويداً حوله ويلامسه بضوئه الاحمر وعطوره الملأى بالأسف . ذلك النهار ، ذلك البحر الاستوائي الذي كان ينسحب مخلفاً إياه وحده تحت سماء مصفرّة ، كان هو ايضاً مرحلة ، مرحلة صغيرة . إن الليل قادم ،

وسوف يذهب الى « سومطرا » وسيرى ماتيو ، وسيرى ايفيش وسيرقص. وعما قليل ، عند الرزّة التي تفصل بين النهار والليل ، ستكون تلك السرقة الرائعة. وانتصب وحث الخطى : ينبغي ان يكون متنبهاً كل التنبه ، بسبب هؤلاء الاشخاص الذين لا يبدو عليهم شيء ، بينما يقلّبون صفحات الكتب بجد ، وليسوا هم الا من رجال التحري . وكانت مكتبة « غاربور » تستخدم ستة منهم ، وكان بوريس قد حصل على هذه المعلومات من « بيكار » الذي امتهن هذه المهنة ثلاثة ايام حين سقط في شهادة علم الارض ، فاضطر الى ذلك بعد ان قطع عنه ذووه المؤن ؛ ولكنه ما لبث ان ترك هذه المهنة مشمئزاً . انه لم يكن عليه فحسب ان يتجسس على الزبائن كالديك المبتذل ، بل لقد أُعطي الأوامر بأن يترصد السذّج ، لابسي النظارات مثلاً ، الذين كانوا يقتربون بحياء من مكان العرض ، وان يثب عليهم فجأة متهماً إياهم بأنهم كانوا يريدون ان يختلسوا كتاباً ويخفوه في جيوبهم . وكان المساكين ينحلّون بطبيعة الحال ، فكانوا يقتادونهم الى جوف ممر طويل في مكتب صغير مظلم ، حيث كانوا يسلبونهم مئة فرنك تحت التهديد بالملاحقة القانونية . وأحسّ بوريس بأنه ثمل : سوف ينتقم لهم جميعاً ؛ فانهم لن يأخذوه ، هو ؛ وفكر : « ان معظم الناس يسيئون الدفاع عن انفسهم ؛ فمن مئة شخص يسرقون ، ثمانون يرتجلون ارتجالاً . » اما هو ، فلم يكن ليرتجل ، صحيح انه لم يكن يعرف كل شيء. ولكن ما يعرفه قد درسه دراسة منهجية ، لأنه كان قد فكر دائماً بأن الانسان الذي يعمل برأسه لا بد ان يملك فوق ذلك مهنةً يدوية ليظل على اتصال بالحقيقة . وحتى الآن ، لم يكن قد افاد اية افادة مادية من مشاريعه : فليس شيئاً هاماً ان يملك ست عشرة فرشاة اسنان ، وعشرين منفضة سجاير ، وموصلة ، ومنفخ نار ، وبيضة للرتي . وكانت الصعوبة التكنيكية هي ما كان يأخذه بعين الاعتبار في كل حالة . فقد كان

افضل ، كما حدث في الاسبوع الماضي ، ان يختلس علبة صغيرة من سوس « البلاكوبيد » تحت نظر الصيدلي ، على ان يسرق محفظة نقود جلدية من حانوت خال . ان فائدة السرقة شيء معنوي كلياً ؛ ومن هذه الناحية ، كان بوريس على وفاق تام مع الاسبرطيين القدامى، فهذه عملية تقشف . ثم انه كانت هناك لحظة متعة ، هي حين يقول المرء لنفسه : سأعدّ حتى الخمسة ، وعند الخمسة يجب ان تكون فرشاة الأسنان في جيبي ؛ انه يشعر بانقباض في حلقه ، وباحساس هائل من الصفاء والقوة . وابتسم : سوف يُدخل على مبادئه استثناء ؛ فللمرة الاولى ، ستكون الفائدة هي دافع السرقة ؛ فبعد نصف ساعة على الاغلب ، سيمتلك هذه الجوهرة ، هذا الكنز الذي لا غنى عنه : « تيزوروس هذا ! » قال في نفسه بصوت منخفض لأنه كان يحب كلمة « تيزوروس » التي كانت تذكّره بالقرون الوسطى ، وأبيلارد ، وبفارست وأحزمة الطهارة التي كانت تُرى في متحف « كلوني » . « سوف يكون لي ، فأستطيع ان أتصفحه كل ساعة من النهار ، بينما كان ، حتى هذه اللحظة ، مضطراً الى تقليب اوراقه حيث هو معروض، وبسرعة ، فضلاً عن ان الصفحات لم تكن مقصوصة ؛ فلم يستطع غالباً ان يقتبس الا معلومات ناقصة . سوف يضعه ، في هذا المساء بالذات ، على طاولة سريره ، وحين يستيقظ في اليوم التالي ، ستكون نظرته الاولى له ؛ وقال في انزعاج : « آه ! ، كلا ! سأنام لدى لولا هذا المساء . » مهما يكن من امر ، فسيحمله الى مكتبة السوربون ، وسيقطع بين فترة وأخرى عمل المراجعة ، ليلقي عليه نظرة عجلى تسلّيه : وتعاهد مع نفسه ان يحفظ عبارة او ربما عبارتين كل يوم ، وسيساوي ذلك في ستة اشهر ستة في ثلاثة ثمانية عشر مضروبة باثنين : ثلاثمئة وستين ، فاذا اضاف اليها الخمسمئة او الستمئة التي يعرفها ، اصبح ذلك في حدود الالف ، وهذا ما كان يسمى معرفة متوسطة

طيبة ؛ واجتاز جادة راسباي وسلك شارع دانفير – روشيرو بشيء من الاستياء . كان شارع دانفير – روشيرو يضجره كثيراً ، وربما كان ذلك بسبب اشجار الكستناء ؛ مهما يكن من امر ، فهو مكان اجرد، باستثناء مصبغة سوداء ذات ستائر حمر باون الدم تتدلى بصورة مزرية كخصلتين مسلوختين . والقى بوريس نظرة ود الى المصبغة ، حين ألمّ بها ، ثم انغمر في صمت الشارع الاشقر المميّز . شارع ؟ انه لم يكن الا ثقباً ذا بيوت على الجانبين . وفكر بوريس : « نعم ، ولكن المترو يمر من تحته » واستمد من هذه الفكرة بعض العزاء ، وتمثل لدقيقة او دقيقتين انه كان يسير على قشرة رقيقة من الزفت لعلها ستنهار . وقال بوريس في نفسه : « يجب ان اروي هذا لماتيو ، فسوف يسيل له لعابه ! » لا . وصعد الدم فجأة الى وجهه ، انه لن يروي شيئاً على الاطلاق . بلى ، سيروي ذلك لإيفيش : لقد كانت تفهمه ، واذا كانت هي نفسها لا تسرق ، فلأنها لم تكن موهوبة . وسيروي القصة ايضاً للولا ، ليجعلها تغرغر من الضحك . اما ماتيو ، فلم يكن صريحاً في موضوع هذه السرقات . كان يقهقه برفق حين كان بوريس يحدثه عنها ، ولكن بوريس لم يكن على ثقة بأنه سيقرّها . كان يتساءل مثلاً عن المآخذ التي يمكن لماتيو ان يأخذها عليه . ان ذلك كان يثير جنون لولا ، ولكن هذا كان طبيعياً ، فهي لم تكن تستطيع ان تفهم بعض الدقائق ، لا سيما وانها كانت بخيلة بعض الشيء . كانت تقول له : « لن تتورع عن سرقة امك ، ولا بد ان تسرقني يوماً . » وكان يجيب : « هيه ! هيه ! لو اتيح لي ذلك لما قلت لا ! » وبالطبع ، لم يكن جاداً في ذلك : ان المرء لا يسرق اصدقاءه الصميميين ، فان هذا ايسر من ان يعمل، وانما كان يجيب بهذا الجواب بدافع الانزعاج: لقد كان يكره هذه الطريقة التي تلجأ اليها لولا لترد كل شيء الى نفسها . اما ماتيو ... أجل ماتيو ، فلم يكن يُفهم من موقفه شيء .

ما كان عساه ان يأخذ على السرقة ، ما دامت تنفّذ وفق القواعد ؟ فقد تبرم بوريس بضع لحظات من توبيخ ماتيو الصامت ، ثم هز رأسه وقال في نفسه : « ان هذا ظريف ! » فبعد خمس سنوات ، او سبع ، ستكون له افكاره هو ، فتبدو له افكار ماتيو مثيرة للعطف ومسنّة ، وسيكون آنذاك حكّمَ نفسه : « ما يدريني اننا سنتقابل بعد ؟ » ولم تكن لدى بوريس اية رغبة في ان يأتي ذلك اليوم ، وكان يلفي نفسه سعيداً للغاية ، ولكنه كان عاقلا ، وكان يدري انها ضرورة : كان لا بد من ان يتغير ، وان يخلّف وراءه ركاماً من الاشياء والناس ، وهو لم يُجعل بعد ذلك . لقد كان ماتيو مرحلة ، شأنه شأن اولا ، وفي اللحظات التي كان بوريس يكنّ له فيها من الاعجاب اعظم الدرجات ، كان يجد ان في ذلك الاعجاب شيئاً موقتاً يتيح له ان يكون مولعاً بلا ذلّ . لقد كان ماتيو افضل ما يمكن ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يتغير في الوقت نفسه الذي يتغير فيه بوريس ، بل لم يكن يستطيع ان يتغير قط ، لأنه كان اكمل من ان يتغير . وأظلمت نفس بوريس لهذه الافكار فسرّه ان يصل الى ساحة ادمون روستان : كان يروق له دائماً ان يجتازها بسبب الاوتوبيسات التي كانت تقفز اليك بثقل ، كأنها أدياك رومية كبيرة ، والتي كان ينبغي تفاديها بالتوّ ، ولم يكن ذلك بأكثر من دفع الصدر الى الوراء . « المهم ألا يكونوا قد جاءتهم الفكرة بادخال الكتاب اليوم بالذات . » وعند زاوية شارع « مسيو لوبرنس » وجادة سان ميشال ، توقف لحظة ؛ كان يريد ان يكبت نفاد صبره ، فلم يكن من الحكمة ان يصل محمّر الوجنتين من فرط الامل ، وعيناه عينا ذئب . كان من خطته ان يعمل ببرودة . وفرض على نفسه ان يظل جامداً امام حانوت بائع للمظلات والسكاكين ، وان ينظر بانتظام الى البضائع المعروضة ، واحدة بعد الاخرى ، الى مظلات النساء القصيرة الخضراء والحمراء ، والمزينة ، والى المظلات ذات الايدي العاجية التي

كانت تمثل رؤوس كلاب ... كل ذلك كان حزين المنظر حتى ليبعث على البكاء ، وبالاضافة الى هذا ، اوقف بوريس فكره على الاشخاص المسنّين الذين كانوا يأتون لشراء هذه الحاجيات . وكـــان يوشك ان يبلغ حالة تصميم باردة وبلا جذل ، حين رأى فجأة شيئاً عاد فأغرقه في التهلل ؛ وتمتم « سكّين » وكانت يداه ترتجفـــان . وكان سكيناً حقيقياً ذا شفرة سميكة وطويلة ، ومحزٌ شديد ، ويدٍ من قرن اسود ، وكان انيقاً يشبه الهلال ، وكان عـــلى الشفرة لطختا صدأ ، فكأنهما دم . وأنّ بوريس قائلاً : « اوه ! » وهو يتلوى من الرغبة . وكان السكين مفتوحاً ، موضوعاً على قطعة خشب مبرنقة : بين مظلتين ، ونظر بوريس اليه طويلاً ، ففقد العالم من حوله الوانه ، وكل ما لم يكن بريق هذه الشفرة البارد ، فقد في عينيه قيمته ، وكان يريد ان يتخلى عن كل شيء ، فيدخل الحانوت ، ويشتري السكين ويفر الى اي مكان ، كأنه سارق ، وهو يحمـــل غنيمة . وقال في نفسه : « سيعلّمني « بيكار » على قذفه . » ولكن حس واجباته الدقيق ما لبث ان تغلب : « سأشتريه بعد حين ، بعد حين لأكافيء نفسي اذا نجحت في ضربتي ! »

وكانت مكتبة « غاربوز » تقوم عند ملتقى شارع فوجيرار وجادة سان ميشال ، وكان لها مدخل من كل شارع ، وهذا ما كان يخدم مقاصد بوريس . وكانت قد وُضعت امام الحانوت ست طاولات طويلة محمّلة بالكتب التي كان معظمها كتبـــاً مستعملة . ولاحظ بوريس من طرف عينه رجلاً ذا شارب احمر كان غالباً ما يجول في تلك النواحي ، وكان يرتاب في ان يكون « ممحوناً » ، ثم اقترب من الطاولة الثالثة ، وكان الكتاب هناك ، ضخماً ، بل من الضخامـــة بحيث فقد بوريس شجاعته ، سبعمئة صفحة من الحجم الكبير ، اوراق مطبوعة بحرف نافر ، سميكة كالاصبع الصغير . وقال في نفسه بشيء من الارهاق :

« يجب ان أُدخل هذا في حقيبتي » ولكن كان حسبه ان ينظر الى العنوان المذهب الذي كان يلتمع بعذوبة على الغلاف ليحس بأن شجاعته تولد من جديد : « قاموس تاريخي واشتقاقي للغة السوقة واللغات العامية منذ القرن الرابع عشر حتى القرن المعاصر . » وردد بوريس في نشوة: « تاريخي ! » ولمس بطرف اصبعه الغلاف في حركة اليفة ورقيقة ليستعيد اتصاله به ، وفكر في اعجاب : « ليس هـذا كتاباً ولكنه قطعة اثاث . ولا ريب في ان الرجل ذا الشارب كان قد التفت اليه يترصده من ظهره . وكان ينبغي ان يبدأ التمثيلية فيقلّب الاوراق ويتخذ مظهره الشارد المتردد الذي يستسلم آخر الأمر . وفتح بوريس القاموس كيفما اتفق وقرأ احد التعريفات . ولم تكن الصفحات التالية مقطوعة . فترك بوريس القراءة وأخذ يضحك وحده وهو يردد عبارة قرأها ، ثم استعاد جدّه فجأة واخذ يعد : « واحد ! اثنان ! ثلاثة ! اربعة !» بينما كانت فرحة قاسية ونقية تزيد خفق صدره .

وأحس بيد تحطّ على كتفه ، ففكر : « لقد أُخذت ، ولكنهم تصرفوا بأسرع مما ينبغي . انهم لا يستطيعون ان يثبتوا شيئاً ضدي . » والتفت ببطء ورباطة . وكان الرجل دانيال سورينو ، احد اصدقاء ماتيو . وكان بوريس قد رآه مرتين او ثلاثاً ، وكان يجده رائعاً ، فقد كان مثلاً يبدو قاسياً . وقال سورينو :

— مرحباً ، ما الذي تقرأه ؟ يبدو عليك انك مسحور .

لم يكن يبدو قاسياً على الاطلاق ، ولكن يجب الاحتراس : بل هو في الحقيقة يبدو لطيفاً اكثر مما ينبغي ، فلا بد انه كان يعد ضربة قذرة . ثم انه كان قد فاجأ بوريس وهو يتصفح هذا القاموس السوقي. فكأنه تقصّد ذلك ، ولا بد من ان يصل هذا الخبر الى مسمع ماتيو الذي سيسخر منه بصخب . وأجاب بلهجة متضايقة :

— لقد توقفت ، بينما انا مارّ من هنا .

وابتسم سورينو ، وتناول المجلّد بكلتا يديه ورفعه حتى عينيه ، ولا بد انه كان حسير النظر بعض الشيء ، وأعجب بوريس بما كان في حركته من يسر : فان الذين كانوا يتصفحون الكتب عادة يحرصون على ابقائها فوق الطاولة ، خوفاً من رجال التحري الخصوصيين . ولكن كان بديهياً ان سورينو كان يعتقد كل شي مسموحاً به . وتمتم بوريس بصوت مخنوق وهو يصطنع اللامبالاة :

— انه كتاب يثير الفضول ...

فلم يُجب سورينو ، وكان يبدو مستغرقاً في القراءة ، فاغتاظ بوريس وأخضعه لامتحان قاس . ولكن كان لا بد له من ان يعترف ، بدافع من شرف التفكير ، بأن سورينو كان انيقاً الى حد الكمال . والحق انه كان في هذه البذلة من التويد الوردي تقريباً ، وفي هذا القميص من الكتان ، وفي هذه الربطة الصفراء ، جرأةٌ محسوبة تصــــدم بوريس قليلاً . كان بوريس يحب الأناقة الساذجة والمهملة بعض الشيء. ومهما يكن من امر ، فان المجموع كان غير قابل للانتقاد ، وبالرغم من انه طري كالزبدة الطازجة . وانفجر سورينو ضاحكاً ؛ وكانت له ضحكة حارة رائقة ، ثم ان بوريس وجده قريباً الى القلب لأنه كان يفتح فمه على سعته وهو يضحك . وقال سورينو :

— « ان يكون من الرجل ! » ان يكون من الرجل ! هذه لقطة، سأفيد منها في المناسبات ! « ان يكون من الرجل ، اي ان يكون لوطياً » .

ووضع المجلد على الطاولة وسأل :

— هل انت من الرجل ، يا سرغين ؟

فقال بوريس ، منقطع النفس : — انني ...

قال سورينو : — لا يحمر وجهك (وأحس بوريس انــه اصبح قرمزي اللون) وثق بأن هذه الفكرة لم تخطر على بالي قط . انني

أعرف من عساهم يكونون « من الرجل » .. (لا شك في ان العبارة كانت تروق له كثيراً) – فان لحركاتهم استدارة رخية لا تخطئها العين ، اما انت ، فاني ألاحظك منذ فترة فتسحرني حركاتك : انها حية وجميلة ، ولكنها ذات زوايا . فلا بد انك حاذق جداً .

وكان بوريس يصغي الى سورينو بتنبه : فمن المهم دائماً ان تستمع الى من يشرح لك بأي عين يراك . ثم انه كان لسورينو صوت يلذ سماعه. فان عينيه مثلاً كانتا مزعجتين : للوهلة الاولى ، يُظن انهما مليئتان بالحنان ، ولكن اذا امعنا فيهما النظر ، اكتشفنا فيهما شيئاً قاسياً، يكاد يكون هوساً . وفكر بوريس : « انه يحاول ان يمزح معي » فتذرع بالحذر . وقد كان بوده لو يسأل سورينو عما كان يعنيه بـ « الحركات ذات الزوايا » ولكنه لم يجرؤ ، وفكر بأن من الافضل التكلم بأدنى حد ممكن ، ثم انه كان يحس تحت هذا النظر المليح عذوبة غريبة حائرة تولد فيه ، فكانت تأخذه الرغبة في ان ينتفض ويضرب الارض بقدميه ليزيل هذا الدوار من العذوبة . ولفت رأسه ، فكانت لحظة صمت شاقة . وفكر بوريس باستسلام : « سوف يعتبرني حيواناً » . وقال سورينو :

– أظن انك تدرس الفلسفة ؟

وكان سعيداً ان يجد حجة لقطع الصمت . ولكن ساعة السوربون في تلك اللحظة دقت دقة فتوقف بوريس ، وقد جلّده الذعر . وفكر في قلق « الثامنة والربع . اذا لم يذهب فوراً ، فاتت الفرصة . » فقد كانت مكتبة « غاربور » تغلق في الثامنة والنصف . ولم يكن يبدو على سورينو اية رغبة في الذهاب . وقال :

– اعترف لك بأنني لا افهم شيئاً في الفلسفة . اما انت ، فلا بد انك تفهم طبعاً ...

فقال بوريس وهو يتمزق : – لا ادري ، افهم قليلاً .

وكان يفكر : لا شك في اني ابدو قليل التهذيب . ولـــكن لماذا تراه لا يذهب ؟ والحق ان ماتيو كان قد اخبره بأن سورينو كان يظهر دائماً في وقت غير مناسب ، فتلك كانت قطعة من طبيعته الشيطانية .

وقال سورينو :

– أتصور انك تحب الفلسفة .

فقال بوريس وقد احس بأنه يحمر للمرة الثانية : – نعم .

وكان يحتقر ان يتحدث عما كان يحب : فذلك كان امراً وقحاً . وكان لديه شعور بأن سورينو يدرك ذلك ويتقصّد ان يظهر قليل التحفظ.

ونظر اليه سورينو نظرة تنبُّه نافذ :

– ولماذا ؟

فقال بوريس : – لا ادري .

وكان هذا صحيحاً : انه لم يكن يدري . ومع ذلك فقد كان يحب الفلسفة حباً شديداً ، حتّى « كانت » . وابتسم سورينو قائلاً :

– على الاقل ، يرى الانسان ان هذا ليس حباً من الذاكرة .

فانتفض بوريس ، وأضاف سورينو بحماسة :

– اني امزح . والواقع اني اجد انك محظوظ . لقد درست انا الفلسفة كالجميع ، ولكنهم لم يعرفوا ان يحببوني بهـــا ... واتصور ان دولارو هو الذي نفرني منها : فهو اذكى من ان يستطيع فهمه . وقد كنت اطلب منه احياناً بعض الشروح ، ولكن ما كان يبدأ في تقديمها حتّى اكفّ عن فهم اي شيء ؛ بل كان يخيل الي اني لم اكن افهم بعد سؤالي !

وجُرح بوريس بهذه اللهجة الهازئة ، وارتاب في ان يكون سورينو راغباً في حمله بصورة غير مباشرة على ان يقول سوءاً عن ماتيو لمجرد الرغبة في ان ينقل اليه ذلك . واعجبه سورينو ان يكون قاسياً بهـــذه الصورة المجانية ، ولكنه ثار وقال بجفاء :

— ان ماتيو يشرح الامور شرحاً جيداً جداً .
فانفجر سورينو ضاحكاً ، وعضّ بوريس على شفتيه :
— ولكني لا اشك في ذلك لحظة . غير اننا صديقان قديمان جداً ، وأتصور بأنه يحتفظ بمزاياه التربوية للشبان . فهو يختار عادة تلاميذه من بين طلابه .
فقال بوريس : — انني لست تلميذه .
فقال دانيال : — لم اكن افكر فيك . فأنت لا تبدو عليك هيئة التلميذ . وانما كنت افكر في « هورتيغبر » ، ذلك الاشقر الطويل الذي سافر في العام الماضي الى الهند الصينية . ولا بد انك سمعت من يتكلم عنه : فمنذ عامين ، كان شغوفاً به تماماً ، وكان الناس يرونهما دائماً معاً .
وكان لا بد لبوريس من الاعتراف بأن الضربة قد نجحت ، فازداد اعجابه بسورينو ، ولكنه ودّ مع ذلك لو يوجّه قبضته الى سحنته . وقال :
— لقد حدثني ماتيو عن ذلك .
وكان يحتقر هورتيغبر هذا الذي عرفه ماتيو قبله . وكان ماتيو يتخذ احياناً مظهر الغموض حين كان بوريس يأتي للقائه في « الدوم » وكان يقول « يجب ان اكتب لهورتيغبر » وبعد ذلك ، يظل لحظة طويلة حالماً مجتهداً كجندي يكتب الى بلدته ، وكان يرسم دوائر في الهواء فوق ورقة بيضاء ، بواسطة ريشة قلمه . وكان بوريس ينصرف الى العمل الى جانبه ، ولكنه كان يحتقره . ولم يكن طبعاً يغار من هورتيغبر ، فقد كان يكنّ له على العكس شفقة ممزوجة بشيء من النفور (والواقع انه لم يكن يعرف عنه شيئاً ، باستثناء صورة كانت تمثله كفتى طويل سيء الحظ يرتدي بنطلوناً من الغولف ، وموضوع فلسفي سخيف الى ابعد حد كان ملقىً على طاولة ماتيو) غير انه لم يكن

يريد بأي ثمن ان يعامله ماتيو فيما بعد كما كان يعامل هورتيغير . وقد كان يؤثر ان ينقطع عن رؤية ماتيو اذا تصوره يقول ذات يوم بلهجة اهتمام وضجر امام فيلسوف شاب : « آه ! علـيّ الآن ان اكتب لسرغين ! » . كان حسبه بأن يقبل بألا يكون ماتيو إلا مرحلة في حياته ، وكان هذا شاقاً بحد ذاته — ولكنه لم يكن يطيق ان يكون مرحلة في حياة ماتيو .

وكان يبدو على سورينو انه عازم على الاقامة هناك . وكان يستند الى الطاولة بكلتا يديه ، في وضع لامبالٍ ومستريح ، وأضاف :

— آسف كثيراً بأن اكون جاهلاً في هذا الميدان. فان الذين درسوا الفلسفة قد أفادوا منها ، على ما يبدو ، مباهج كثيرة .

فلم يُجب بوريس ، وقال سورينو :

— كنت بحاجة الى مدرب . الى شخص مثلك : شخص ليس بارعاً اكثر مما ينبغي ، ولكنه في الوقت نفسه جادّ .

وضحك كأنما مرت برأسه فكرة زائفة :

— قل لي .. سيكون مسلياً ان آخذ دروساً معك ...

فنظر اليه بوريس بحذر . لا بد ان هذا شَركٌ . انه لم يكن يتصور نفسه اطلاقاً وهو يعطي دروساً لسورينو الذي كان ولا بد اذكى منه والذي لا شكّ في انه سيطرح عليه طائفة من الاسئلة المربكة ، وعند ذلك سيختنق من الخجل . وفكر في استسلام بارد بأن الساعة لا بد ان تكون قد بلغت الثامنة والخامسة والعشرين . وكان سورينو ما يزال يبتسم ، وكان يبدو عليه انه مسحورٌ بفكرته ، ولكن كانت عيناه غريبتين . وكان بوريس يجد مشقة في النظر اليه مواجهة . وقال سورينو:

— انني كسول جداً ، لو تعلم . فيجب ان تعاملني بشيء من السلطة ...

ولم يستطع بوريس ان يمتنع عن الضحك وصارحه بصدق :

ـ احسب انني لن احسن ذلك على الاطلاق ..

قال سورينو :ـ بلى ، انني مقتنع بأنك ستستطيع .

فقال بوريس : ـ انك سوف تخيفني .

وهز سورينو كتفيه وقال :

ـ اسمع ! هل عندك دقيقة ؟ ان بوسعنا ان نأخذ قدحاً في الحانة المواجهة « داركور » فنتحدث عن مشروعنا .

« مشروعنا » ... وكان بوريس يتابع بعينيه في قلق احد عمال المكتبة الذي بدأ يراكم الكتب. وكان يود لو يتبع سورينو الى «داركور» فقد كان شخصاً غريباً ، فضلاً عن انه كان جميلاً ، ثم انه كان مسلياً ان يتحدث معه ، لأن على المرء ان يكون دقيقاً وحذراً ، اذ يشعر طوال الوقت بأنه في خطر . وتخبّط لحظة ، ولكن حس الواجب تغلب عليه فقال بصوت كان الأسى يقطعه :

ـ الواقع اني مستعجل بعض الشيء .

فتغير وجه سورينو وقال :

ـ حسناً ، لا اريد ان ازعجك . اعذرني بأن اكون قد امسكتك هذا الوقت كله . هيا ، الى اللقاء ، وبلّغ ماتيو سلامي .

وانفتل فجأة ومضى ؛ وفكر بوريس في ضيق : « اتراني قد جرحته ؟ » وتبع بنظر قلق كتفي سورينو العريضتين ، وكان يصعد جادة سان ميشال ، ثم فكر فجأة بأنه لم يكن امامه بعد دقيقة واحدة يضيعها .

« واحد . اثنان . ثلاثة . اربعة . خمسة . »

وعند الخمسة ، سحب المجلد خفية بيده اليمنى وتوجه نحو المكتبة من غير ان يحاول اخفاء نفسه .

خليط من الكلمات تفرّ في كل مكان ؛ كانت الكلمات تفرّ ؛ وكان

دانيال يفرّ جسماً طويلاً هزيلاً ، مقوّســاً بعض الشيء ، ذا عينين جوزيتين ، ووجه قاسٍ فاتك ، انه راهب صغير ، راهب روسي ، اليوشا . خطوات ، وكلمات ؛ كانت الخطوات ترن حتى في داخل رأسه ؛ ان لا يكون الا هذه ، الا هــذه الكلمات ، فذلك خير من الصمت : السخيف الصغير ، لقد اصبت في الحكم عليه . لقد منعني اهلي من ان اتحدث الى الاشخاص الذين لا اعرفهم ، اتريدين حبــة مابتّس يا آنستي الصغيرة ، ان اهلي منعوني ... ها ! ليس هو الا مخاً صغيراً ، لا ادري ، لا ادري ، هل تحب الفاسفة ، لا ادري .. عجباً ! وكيف تراه يدري ، ذلك الحمل المسكين ! ان ماتيو ينصب نفسه سلطاناً في صفـّه ، وقد رمى له بالمنديل، وقاده الى المقهى فالتهم الصغير كل شيء ، القهوة بالكريم والنظريات ، كأنمــا يلتهم خبز القربان ؛ هيا ، هيا ، اذهب فتنزه ، لقد كان هنــاك ، متكلف الوقار متحذلقاً كحمار محمّل بالذخائر . اوه ! لقد فهمت ، انني لم اكن اريد ان امد يدي اليك ، فأنا لست جديراً بذلك ؛ وهذه النظرة التي رماني بها حين قلت له انني لا افهم الفلسفة ! انه لم يجهد نفسه حتى لأن يكون مؤدباً ، في النهاية . اوه ! انا على يقين – وقد شعرت بذلك منذ عهد « هورتيغير » – بأنه يحذرهم مني. وقال دانيال وهو يضحك راضياً : « هذا حسن جداً ، ان هذا درس ممتاز ، وبتكاليف قليلة ، انني مسرور لأنه صرفني عنه ؛ فلو جُننت واهتممت قليلاً به وحدّثته في ثقة ، اذن لذهب يطلع ماتيو على ذلك كله ، ولتحدثا في هذا بصخب » وتوقف توقفاً فجائياً ، حتى ان سيدة كانت تسير خلفه صدمته في ظهره وأرسلت صيحة صغيرة . « لقد حدثه عني ! » وكانت هذه فكرة – لا – تحتمل ، اذ هي تخلف عندك موجــة من عرق الغضب ؛ وكان ينبغي تصورهما معاً ، سعيدين بأن يكونا معاً ، الصغير فاغر الفم طبعاً ، يباعد ما بين عينيه ويرهف اذنيه ، حتى لا يفقــد

شيئاً من المنّ الآلهي ، في مقهى ما من مقاهي مونتمارتر ، احدى تلك المحاشش القذرة التي تتصاعد منها رائحة الثياب الوسخة ... « لا بد ان ماتيو كان ينظر اليه من تحت، نظرة عميقة ، ثم يشرح له شخصيتي ، مما يميت من الضحك » وردد دانيال : « مما يميت من الضحك » ثم غرز اظافره في باطن كفه . لقد حكما عليه من خلف ظهره ، فخلّلاه وشرّحاه ، وكان بلا سلاح ، وكان لا يشعر بشيء ، وكان ممكناً ان يوجد ذلك اليوم كسائر الايام ، كما لو انه لم يكن شيئاً آخر غير شفافية لا ذاكرة لها ولا عاقبة ، كما لو انه لم يكن بالنسبة للآخرين جسماً سميناً بعض الشيء ذا خدين يتهدلان ، وجمال شرقي يذبل ؛ وبسمة قاسية ، ومن يدري ؟ ولكن لا ، لا احد . اذاً كان بوبي يعرف ، ورالف يعرف ، فان ماتيو لم يكن يعرف . ان بوبي إربيان ، وليس هو ضميراً واعياً ، انه يسكن رقم ٦ شارع الاورس ، مع رالف . ها ! ليتنا نستطيع ان نعيش بين العميان . انه ، هو ، ليس أعمى ، وهو يفخر بأنه يرى جيداً ، وهو عالم نفسي دقيق . وله الحق بأن يتحدث عني بالنظر الى انه يعرفني منذ خمسة عشر عاماً وأنه خير صديق له ولا يحرم نفسه من التحدث عني ؛ فما ان يلتقي احداً ، حتى يكونا شخصين انا موجود بالنسبة اليهما ، ثم يكونوا ثلاثة ، ثم تسعة ، ثم مئة . سورينو ، سورينو ، سورينو السمسار ، سورينو المضارب ، سورينو الـ ... ها ! ليته يفطس ، ولكن لا ، انه يتنزه بمطلق الحرية وفي رأسه رأيه فيّ ، وهو يُعدي به جميع من يقتربون منه ، ويجب ان أعدو في كل مكان وأحك وأمحو وأغسل بالماء الكثير ، لقد حككت مارسيل حتى العظم . ولقد مدت لي يدها ، في اليوم الاول ، وهي تنظر الي طويلاً ، وقالت : « لقد حدثني ماتيو عنك كثيراً » . فنظرت اليها بدوري ، وكنت مبهوراً ، كنت هنا في داخلها ، كنت موجوداً في هذا الجسم ، خلف هذا الجبين ، وداخل هاتين العينين ،

يا للقذرة ! اما الآن ، فهي لا تصدق كلمة واحدة مما يقوله لها عنّي.

وابتسم برضى ؛ وكان شديد الاعتزاز بهذا النصر ، حتى انه نسي ، لمدة لحظة ، ان يراقب نفسه : وحدث تمزّق في نسيج الكلمات كبر رويداً رويداً وامتد حتى اصبح صمتاً . الصمت الثقيل الفارغ . ما كان ينبغي له ، ما كان ينبغي له ان يكفّ عن الكلام . وكانت الريح قد سقطت ، وكان الغضب متردداً . وفي اعماق الصمت ، كان هناك وجه سرغين ، كأنه جرح . وجه عذب غامض ، كم كانت إضاءته بحاجة الى صبر وحمّيا . وفكر : « كان بوسعي ... » هذا العام ايضاً ، هذا اليوم ايضاً ، كان بوسعه . اما بعد ... وفكر : «فرصتي الأخيرة . » كانت هذه فرصته الاخيرة ، فأطفأها له ماتيو ، بكل إهمال . كانوا يتركون له نماذج من رالف وبوبي . « اما هو ، الصبي المسكين ، فسوف يجعل منه قرداً قبل ذلك . » وكان يمشي في صمت ، وكانت خطاه تصدي وحدها في جوف رأسه ، كما تصدي في شارع خالٍ عند الصباح الباكر ، وكانت وحدتها كليّة ، تحت هذه السماء الجميلة العذبة كالضمير الطيب ، وسط هذا الحشد المشغول ، بحيث انّه كان يدهشه وجوده ، لا بد انه كان كابوس واحد من الناس ، واحد سينتهي به الأمر الى التيقّظ . ومن حسن الحظ ان الغضب قد نشر قلوعه ، وغطّى كل شيء ، فأحسّ بأن سَورة جذلة تنعشه ، وبدأ القرار ، وعاد صف الكلمات ؛ كان يكره ماتيو . انه واحد لا بد انه يرى من الطبيعي جداً ، ان يوجد ، فهو لا يطرح على نفسه سؤالاً : ان هذا النور اليوناني الصحيح ، وهذه السماء الفاضلة مجعولان له ، وهو في بيته ، ولم يكن قط وحيداً ؛ وفكر دانيال : « اقسم انه يظن نفسه غوته . » وكان قد رفع رأسه ، وكان ينظر الى المارة في عيونهم ، ويدغدغ حقده : « ولكن حذار ! اتخذ لك تلاميذ اذا كان هذا يسلّيك ، ولكن لا تفعل ذلك ضدي ، لأني سينتهي بي الأمر الى ان

العب معك دوراً قذراً . » واستخفت به دفقة غضب جديدة ، فبات لا يمس الارض ، وكان يطير ، وقد اخذه الفرح بان يشعر انه مريع ، وفجأة جاءته الفكرة حادّة ، حمراء لامعـة : « ولكن ، ولكن ، ولكن ... قد يكون ممكناً مساعدته على ان يفكر ، وان يدخل في ذاته ، وان يتدبر امره بحيث لا تكون الاشياء يسيرة عليه اكثر ممـا ينبغي ، وستكون هذه خدمة عظيمة تؤدى له . » وكان يتذكر اللهجة المفاجئة الخشنة التي قذفته بها يوماً مارسيل : « حين تكون المرأة هالكة فليس امامها الا ان تحبل وتلد طفلاً » وقد كان يكون هذا امراً طريفاً لو لم يكونا متفقين تماماً على هذه القضية ، لو كان يعدو بحماسة بين حوانيت العقاقيريين ، بينما تكون هي في جوف غرفتها الوردية تذوب رغبةً في ان يكون لها ولد . انها مـا كانت لتجرؤ على ان تقول له شيئاً ، ولكن ... لو كان ثمة احد ، صديق مشترك ، ليمنحها بعض الشجاعة... وفكر : « انني شرير » وكان مغموراً بالفرح . لقد كان الشر هو هذا الشعور الطاغي بالسرعة ، حيث ينفصل المرء فجأة عن نفسه ويجري الى الامام كالسهم ؛ وتأخذه السرعة من رقبته وهي تزداد دقيقة فدقيقة ؛ وكان ذلك شيئاً لذيذاً لا يُحتمل ، لأن المرء يتدحرج بـلا ضابط ، والقبر امامه فاغر الفم ، ويقتحم حواجـز تنتصب ذات اليمين وذات اليسار ، على غير انتظار – ماتيو المسكين ، انني اقسى مما ينبغي ، فانا سأفسد له حياته – وتنكسر كالغصون الميتة ، وقد كانت مسكرةً ، هذه الفرحة التي يخترقها الخوف ، والتي هي جافّة كانتفاضة كهربائية ، هذه الفرحة التي لم تكن تستطيع التوقف . « انني اتساءل عمـا اذا كان سيكون له بعد تلامذة ؟ ربّ اسرة : ان هذا لا يكون غالباً . » هيئة سرغين ، حين يأتي ماتيو ليبلغه زواجه ، والازدراء الذي سيشعر به هذا الفتى ، وذعـره الساحق : « انك تتزوج ؟ » وسيتلعثم ماتيو : « ان هناك واجبات احياناً . » ولكن الصغار لا يفهمون مثل هـذه

الواجبات . لقد كان هناك شيء ما يحاول ان يولد من جديد في حياء. ذلك هو وجه ماتيو ، وجهه الطيب الواثق ، ولكن السباق لم يلبث ان يُستأنف : ان الشر لا يتوازن الا بالسرعة القصوى ، شأنه في ذلك شأن الدراجة . وطفرت فكرته أمامه ، خفيفة فرحة : « انــه رجل خير ، ماتيو . وليس هو شريراً . اوه ! كلا ! انه من جنس هابيل ، فهو له ضميره الخاص . واذن ، فعليه ان يتزوج مارسيل.وبعد ذلك ، لا يبقى له الا ان ينام على غاره ، فهو ما زال شاباً ، وستكون امامه حياةٌ برمّتها ليسعد بعمله الطيب . »

وكانت هذه الراحة المسترخية لضمير نقيّ ، ضمير نقيّ لا يُنفذ اليه ، تحت سماء رحيمة مألوفة ، كانت هذه الراحة من شدة تدويخها بحيث لم يعد يعرف ان كان يتمناها لماتيو او لنفسه بالذات . شخصٌ منته ، خاضع ، هادىء ، أجل هادىء ... « واذا كانت لا تريد... اوه ! لو كان ثمة حظ واحد لان تريد هذا الطفل ، فاني اقسم انها سوف تطلب منه ان يتزوجها مساء الغد . » السيد والسيدة دولارو ... السيد والسيدة دولارو يتشرفان باعلامكم ... وفكر دانيــال : « انني بالاجمال ملاكهما الحارس ، ملاك الاسرة . » كان ملاكاً اكبر ، ملاك حقد وكراهية ، ملاك قضاء يسلك طريق فيرسانجيتوري . وتمثّل مرة اخرى ، للحظة ، جسماً طويلاً مرتبكاً وجميلاً ، ووجهــاً هزيلاً منحنياً فوق كتاب ، ولكن الصورة ما لبثت ان تهاوت ، وكان بوبـي هو الذي ظهر من جديد . « رقم ٦ شارع الاورس . » وكان يحس بأنه حر كالهواء ، وكان يمنح نفسه جميع الإجازات . وكان حانوت البقالة في شارع فيرسانجيتوري ما يزال مفتوحاً ، فدخله . وحين خرج ، كان يمسك بيده اليمنى سيف القديس ميشال الناري ، وفي اليد اليسرى علبة حلوى للسيدة دوفيه .

١٠

دقّت العاشرة في الساعة الصغيرة . ولم يبد على السيدة دوفيـــه انها سمعت . كانت تحدّد في دانيال نظراً متنبهاً ، ولكن عينيها كانتا قد تورّدتا . وفكر : « انها لن تتأخر في الذهـــاب » وكانت تبتسم له باحتيال ، ولكن رياحاً خفيفة متسربة من ثقب الباب كانت تذوب عبر شفتيها المفترّتين : كانت تتثاءب تحت بسمتها . وفجأة ، رمت رأسها الى خلف وبدت تصمّم على أمر ؛ فقالت في اندفاع متلاعب :

– اسمعا يا ولديّ ، انني سآوي الى سريري ! لا تجعلها تسهر الى ساعة متأخرة اكثر مما ينبغي يا دانيال ، فانا معتمدة عليك في ذلك ، والا فانها ستنام حتى الظهر .

ونهضت واقبلت تربت كتف مارسيل بيدها الصغيرة الخفيفة، وكانت مارسيل جالسة على السرير . واستطردت تقول وهي تجد تسلية في ان تتحدث بين اسنانها المنقبضة :

– أتسمعين يا روديلارد ، انك تنامين في ساعة متأخرة جداً يا ابنتي ، تنامين حتى الظهر ، فتسمنين .

قال دانيال : – اقسم اني سأذهب قبل منتصف الليل .

فابتسمت مارسيل : – اذا اردتُ ذلك .

والتفت نحو السيدة دوفيه وهو يصطنع الارهاق :

– ما حيلتي ؟

قالت السيدة دوفيه : – المهم ان تكونا عاقلين . وشكراً لحلوياتك اللذيذة .

ورفعت العلبة المشرّطة الى مستوى عينيهـا بحركة تهديدية بعض الشيء :

– انك ألطف مما ينبغي ، وانت تدللني كثيراً ، ولا بـد من ان اوبخك في النهاية !

فقـال دانيال بصوت عميق : – انك لا تزيدين سروري الا بأن تحبيها .

وانحنى على يد السيدة دوفيـه وقبّلها . ورأى عن كثب ان بشرتها كانت متجعدة ببقع خبّازية ، وقالت السيدة دوفيه وقد استخفتها الحركة :

– يا للملاك ! هيا ، اني ذاهبة !

وقبلت جبين مارسيل ، فأحاطت مارسيل قامتها بذراعها وشدتها اليها لحظة ، فاشعنت السيدة دوفيه لها شعرها وتخلصت بخفة ، وقالت مارسيل :

– سآتي اليك عما قليل .

– لا ، لا ، ايتها الفتاة الرديئة . اني اتركك للاكك .

وتسللت بحيوية طفلة صغيرة ، فتبع دانيال بنظـرة باردة ظهرها الدقيق : فلقد حسب انها لن تذهب ابداً . وانغلق الباب ، ولكنه لم يحس بالعزاء : فقد كان يخاف بعض الخوف ان يبقى وحده مـع مارسيل . والتفت اليها فرأى انها كانت تنظر اليه مبتسمة .

وسألها : – ما الذي يجعلك تبتسمين ؟

فقالت مارسيل : – يسلّيني دائماً ان اراك مـع امي . كم انت متملّق يا ملاكي المسكين ؛ ان هذا لعار ، فانت لا تستطيع الامتناع عن اغراء الناس .

وكانت تنظر اليه في حنان ملاّكة . وكان يبدو انها مسرورة بان

يكون لها وحدها . وفكر دانيال في ضغينة : « ان لها قناع الحَبَل » وكان يؤذيه ان تبدو على هذا الحدّ من السرور . وكان يستشعر دائماً بعض الضيق اذ كان يجد نفسه على حافة هذا الحديث الهامس وانــه سيستغرق فيه . وتنحنح وفكــر : « سوف أُصاب بالربو » وكانت مارسيل رائحة كثيفة حزينة ، موضوعة على السرير ، في كتلة ، وسوف تتفسّخ لدى ادنى حركة .

ونهضت : — عندي ما أريك اياه .

وذهبت لتأتي بصورة كانت على المدخنة ، ومدّتها له وهي تقول:

— انت الذي تريد دائماً أن تعرف كيف كنت .

واخذها دانيال : كانت مارسيل وهي في الثامنة عشرة ، وكانت تشبه الساقطات بفمها المرتخي وعينيها القاسيتين . وكان لهـا هذا اللحم اللدن الذي كان يعوم كأنه ثوب فضفاض . ولكنهـا كانت هزيلة . ورفع دانيال عينيه ففاجأ نظرتها القلقة . فقال بحكمة :

— لقد كنت جميلة ، ولكنك لم تتغيري قط .

فأخذت مارسيل تضحك :

— بلى ! انت تدري جيداً اني قد تغيرت ، ايها المخادع الكبير ، ولكن اطمئن ، فلست مع امي .

واضافت :

— ولكن ألا ترى اني كنت فتاة جميلة ؟

فقال دانيال : — انني افضلك كما انت الآن . كان في فمك شيء من الرخاوة .. انت الآن تبدين اكثر إثارة للاهتمام .

فقالت بلهجة عابسة : — ان المرء لا يعرف متى تكون جاداً .

ومع ذلك فقــد كان يسيراً ان يلاحظ الانسان انها كانت مفتونة.

واستقامت قليلاً والقت الى المرآة بنظرة سريعة . وانزعــج دانيال لهذه الحركة الخرقاء الخالية من الحشمة : لقــد كان في غندرتها ايمان

طفولي طيب ضعيف يتناقض مع وجهها ، وجه المرأة المعانية . وابتسم لها .

وقالت له : — وانا ايضاً اسألك لماذا تبتسم ؟

— لأنك قمت بحركة طفلة صغيرة لتنظري في المرآة . انه مؤثر جداً ان تهتمي بنفسك بطريقة تلقائية .

فتوردت مارسيل وضربت بقدمها الارض :

— انه لا يستطيع ان يمتنع عن التملق ؟

وضحك الاثنان ، وفكر دانيال في غير ما شجاعة كبيرة : « هيّا بنا » . وكانت الفرصة مؤاتية ، ولكنه كان يحس نفسه فارغاً ورخواً. وفكر بماتيو ليكتسب بعض الشجاعة ، فسرّه ان يجد ان حقده ما زال على حاله لم يُمس . لقد كان ماتيو واضحاً جافاً كالعظمة . وكان كرهه ممكناً . اما مارسيل فلم يكن بالامكان كرهها .

— مارسيل ! انظري اليّ .

وكان قد تقدم وراح ينظر اليها نظرة اهتمام . وقالت مارسيل:

— هأنذا .

وردت له نظرته ، ولكن رأسها كان يتحرك باهتزازات صلبة : كان يصعب عليها ان تقاوم نظرة الرجل .

— يبدو عليك التعب :

فطرفت مارسيل بعينيها وقالت :

— اني ضعيفة المزاج . والسبب الآن هو هذا الحر الشديد.

وانحنى دانيال قليلاً وردد بلهجة عتاب آسف :

— متعبة جداً ! كنت انظر اليك الساعة ، بينما كانت امك تروي لنا رحلتها الى روما : فكان يبدو عليك انك مشغولة جداً ، ثائرة الاعصاب جداً .

فقاطعته مارسيل بضحكة مغتاظة :

– اسمع يا دانيال . انها تروي لك هذه الرحلة للمرة الثالثة . وانت في كل مرة تستمع اليها بهيئة اهتمام مهووس ؛ واصارحك ان هــذا يزعجني قليلاً ، فانا لا ادري ماذا يكمن في رأسك في هذه اللحظات.

قال دانيال : – ان املك تسليني . انا اعرف هذه القصص ولكني احب ان اسمعها وهي ترويها بحركاتها الصغيرة التي تسحرني .

وحرّك عنقه حركة صغيرة فانفجرت مارسيل ضاحكة : كان دانيال يحسن تقاليد الناس اذا اراد . ولكنه ما لبث ان استعاد جده ، فكفت مارسيل عن الضحك . ونظر اليها معاتباً . فاضطربت قليلاً تحت هذا النظر . وقالت له :

– انما تبدو الغرابة عليك انت هذا المساء . فما بك ؟

فلم يعجل في الجواب . وكان صمت ثقيل يخيم عليهما ، وكانت الغرفة أتوناً حقيقياً . وضحكت مارسيل ضحكة صغيرة ما لبثت ان ماتت على شفتيها . وكان دانيال مسروراً جداً . فقال :

– مارسيل ، ما كان ينبغي ان اقولها لك ...

فارتدّت الى خلف : – ماذا ؟. ماذا ؟. ماذا هناك ؟.

– انك غير حاقدة على ماتيو ؟

فامتقع لونها :

– اوه هل ... لقد اقسم لي الا يقول لك شيئاً .

– ان الامر يا مارسيل هام الى هذا الحد وتريدين ان تخفيه عني ؟. ألست اذاً صديقك ؟

فارتعشت مارسيل وقالت : – انه امر قذر ؟

هكذا ! حسناً : انها عارية ، لم تكن القضية بعد قضية ملاك او صور شباب ؛ لقد فقدت قناع جدارتها الضاحك . ولم يكن هناك بعد الا امرأة كبيرة حامل ، تنبعث منها رائحة اللحم ، وكان دانيال يحس بالحر ، فأمرّ يده على جبينه العرق . وقال بهدوء :

كلا ، كلا ، ليست قذرة .

فندّت عن مرفقها وذراعها حركة مفاجئة خططت هواء الغرفة اللاهب وقالت :

ـ انك تشمئز مني .

فأخذته ضحكة فتية :

ـ اشمئز ؟ انا ؟ ان بوسعك يا مارسيل ان تبحثي طويلاً قبل ان تجدي شيئاً يجعلني اشمئز منك .

فلم تجب مارسيل . وكانت قد خفضت رأسها في حزن . وقالت اخيراً :

ـ لكم وددت ان ادعك بعيداً عن هذا كله .

وصمتا . ان بينهما الآن صلة جديدة كالسلك السُرّيّ . وسألها دانيال :

ـ هل رأيت ماتيو ، منذ ان فارقني ؟

فقالت مارسيل بلهجة فجائية :

ـ لقد خابرني حوالي الساعة الواحدة .

وكانت قد تداركت نفسها وتصلبت ، ووقفت موقف الدفاع ، منتصبة مقروصة المنخرين ؛ كانت تتألم .

ـ هل قال لك اني رفضت ان ادينه مالاً ؟

ـ قال لي انه لم يكن معك مال .

ـ بل كان معي .

فرددت دهشة : ـ كان معك ؟

ـ اجل كان معي ، ولكني لم اكن اريد ان ادينه ... قبل ان اكون قد رأيتك على الأقل .

وبعد فترة اضاف :

ـ أينبغي لي يا مارسيل ان ادينه مالاً ؟

فقالت في ارتباك : — ولكن ... لا ادري ان عليك ان ترى اذا كان ذلك في امكانك .

— هذا ممكن جداً . ان معي خمسة عشر الف فرنك استطيع ان اتصرف بها من غير ان انزعج اطلاقاً .

قالت مارسيل : — اذاً نعم . نعم يا عزيزي دانيال . يجب ان تعيرنا مالاً .

وساد صمت . وكانت مارسيل تدعك غطاء السرير بين اصابعها ، وكانت رقبتها الثقيلة تخفق . وقال دانيال :

— انك لا تفهميني . انا اقصد : هل ترغبين من صميم قلبك ان ادينه ؟

فرفعت مارسيل رأسها ونظرت اليه في دهشة :

— انك غريب يا دانيال ؛ لا بد ان في رأسك شيئاً .

— الحقيقة ... كنت اتساءل بكل بساطة عما اذا كان ماتيو قد استشارك .

فقالت ببسمة خفيفة : — ولكن طبعاً مهما يكن فنحن لا نتشاور ، وانت تعرف كيف نتصرف : يقول احدنا : نفعل هذا او ذاك ، فيعترض الآخر اذا لم يكن موفقاً .

قال دانيال : — نعم ، . غير ان هذا يكون في صالح من له رأي ناجز : اما الآخر فيرتبك ولا يجد الوقت لتكوين رأي له .

قالت مارسيل : — ربما .

— انا اعرف كم يحترم ماتيو آراءك ولكن من اليسير علي ان اتمثل الحادث : فلقد تسلط علي طوال بعد الظهر . فلا بد انه كوّر ظهره كما يفعل في مثل تلك الحالات ، ثم قال وهو يجرض بريقه : « حسناً ! سنلجأ الى الوسائل الكبرى » . ولم يأخذه اي تردد ،والحق انه لم يكن يستطيع التردد : فهو رجل . ولكن ألم يتم ذلك في شيء

من العجلة ؟ لا بد انك انت نفسك لم تعرفي ما كنت تريدينه ؟
وانحنى من جديد نحو مارسيل :
– ألم تجر الامور على هذا الشكل ؟
ولم تكن مارسيل تنظر اليه . كانت قد لفتت رأسها من جهة المغسلة وكان دانيال يراها جانبياً . وكان يبدو عليها الأسى وقالت :
– هكذا تقريباً .
ثم احمرّ وجهها احمراراً عنيفاً :
– اوه ! لنكفّ عن التحدث في هذا يا دانيال ، ارجوك ! فليس ... ليس ذلك امراً لذيذاً .
ولم يكن دانيال ينزع عنها نظره . وفكر : « انها تخفق . » . ولكنه لم يكن يدري بعد ان كان يلذه ان يذلها او يذل نفسه معها . وقال في نفسه : « سيكون العمر ايسر مما كنت اظن . » وقال :
– لا تنغلقي يا مارسيل ، ابتهل اليك : انا اعرف كم يشقّ عليك ان نتكلم عن هذا كله .
قالت مارسيل : – ولا سيما معك . فكم انت يا دانيال شخص آخر. عجباً ، انني طهّرها ! وارتعشت من جديد وشبكت ذراعيها على صدرها وقالت :
– انني لا اجرؤ على النظر اليك . فحتّى لو لم تكن تشمئز مني فيخيل اليّ انني قد فقدتك .
قال دانيال بمرارة : – اعرف ذلك . ان الملاك يجفل بسهولة . اسمعي يا مارسيل ! كفّي عن اسناد هذا الدور المضحك الي . فليس لدي شيء من ملاك ، كل ما هناك انني صديقك ، خير صديق لك . (واضاف بحزم) وان لي كلمة اقولها : ان بوسعي ان اساعدك . هل انت يا مارسيل متأكدة حقاً من انك لا تريدين طفلاً ؟
وتاه قليلا عبر جسم مارسيل ، فكأنه كان يريد ان ينفصل عن

نفسه . ثم اوقف هذا البدء في التجزؤ ، وتراكم الجسم على حافة السرير جامداً ثقيلا . ولفتت رأسها نحو دانيال وكانت قرمزية ؛ ولكنها كانت تنظر اليه من غير ضغينة ، في جزع لا سلاح له . وفكر دانيال : « انها يائسة . »

– ليس لك الا ان تقولي كلمة : اذا كنت واثقة من نفسك، فان ماتيو سيتلقى المال صباح الغد .

وكان يتمنى تقريباً ان تقول له : « انني واثقة من نفسي » وسيرسل المال وينتهي كل شيء . ولكنها لم تكن لتقول شيئاً ، وكانت قدالتفتت اليه ، كأنما كانت تنتظر ؛ وكان لا بدّ من المضيّ حتى النهاية . وفكر دانيال في اشمئزاز : « هكذا اذن ! اقسم ان هيئة العرفان تبدو عليها . » كما كان الشأن مع ملفينا يوم ضربها .

وقالت : – انت ! لقد تساءلت عن هذا ! اما هو ... الحق يا دانيال ان ليس في الدنيا من يهتم بي سواك .

ونهض ، واقبل يجلس بالقرب منها واخذ يدها . يد رخوة محمومة كأنها مسارّاة : واحتفظ بها في يده من غير ان يتكلم . وكان يبدو على مارسيل انها تقاوم دموعها . وكانت تنظر الى ركبتيها .

– الأمر لديك سواء اذا أُجهض الطفل ؟

فقامت بحركة متعبة وقالت :

– وماذا تريد ان نفعل غير ذلك ؟

وفكر دانيال : « لقد ربحتُ ! » ولكنه لم يستشعر من ذلك اي سرور . كان يختنق . كانت مارسيل ، وهي قريبة هذا القرب ، تنبعث منها رائحة لا تكاد تُحسّ ، بل لعلها اذا صح التعبير ليست رائحة ، ولكن كأنها كانت تُخصب الهواء حولها . ثم انه كانت هناك تلك اليد التي ترشح في يده . وقسر نفسه على ان يشتدّ في ضغطها ، ليعبر لها عن كل عصيره . وقال بصوت جاف :

– لا اعرف ما يمكن ان نفعله : سنرى ذلك فيما بعد . انني في

هذه اللحظة لا افكر الا فيك فاذا رزقت هذا الطفل فربما كان ذلك كارثة ، ولكن ربما كان كذلك خطأ . ينبغي يا مارسيل ان لا تسيطيعي ان تتهمي نفسك فيما بعد بأنك لم تفكري كفاية .

فقالت مارسيل : — نعم ،نعم ...

وكانت تنظر الى الفراغ نظرة ثقة ترد اليها شبابها . وفكر دانيال بالطالبة الشابة التي سبق له ان رأى صورتها . « صحيح ! لقد كانت شابة ... » ولكن اشعاعات الشباب نفسها لم تكن مؤثرة على هذا الوجه العاقّ . وترك فجأة يدها وابتعد قليلاً عنها ، وردد بصوت مستعجل :

— فكري . هل انت حقاً متأكدة ؟

فقالت مارسيل : — لا ادري .

ونهضت : اعذرني ، يجب ان اطلّ على امي .

فانحنى دانيال بصمت : وكان ذلك شيئاً مألوفاً . وفكر حين اغلق الباب : « لقد ربحتُ ! » ومسح يديه بمنديله ثم نهض بحيوية وفتح درج طاولة الليل : وكان يوجد فيها احياناً رسائل طريفة وقصاصات قصيرة من ماتيو ذات لهجة زواجية او شكاوى لا تنتهي من اندريه التي لم تكن سعيدة . وكان الدرج فارغاً ، وجلس دانيال ثانية على الاريكة وفكر : « لقد ربحت ، فهي تموت رغبة في ان تبيض » . وكان سعيداً انه وحيد : فقد كان يستطيع ان يستعيد الحقد . وقال في نفسه : « اقسم انه سيتزوجها . والحق انه كان لئيماً ، حتى انه لم يستشرها ، انه لا يستحق ان اكرهه لدوافع طيبة : فان لدي من العمل مع الآخرين ما فيه الكفاية » .

ورجعت مارسيل بوجه متحلل . وقالت بصوت جاف :

— واذا كانت لي رغبة في الطفل ؟ ماذا يجديني ذلك ؟ انني لا استطيع ان اكون في ترف الفتاة الام ، وليس وارداً ان يتزوجني ، اليس كذلك ؟

فرفع دانيال حاجبيه مدهوشاً وسألها :

– ولماذا لا يستطيع ان يتزوجك ؟

فنظرت اليه مارسيل بذعر ثم آثرت ان تضحك قائلة :

– لكنك تعرف جيداً يا دانيال ما نحن عليه !

فقال دانيال : – انني لا اعرف شيئاً على الاطلاق . لا اعرف الا شيئاً واحداً : ليس عليه ، اذا اراد ، الا ان يقوم بالخطوات الضرورية، كجميع الناس بحيث تصبحين بعد شهر زوجته . اتكونين انت يا مارسيل التي قررت الا تتزوجي ابداً ؟

– سوف اشمئز من ان يتزوجني على مضض .

– ليس هذا جواباً .

وزال بعض توتر مارسيل ، فأخذت تضحك ، وادرك دانيال انه ضلّ الطريق . وقالت :

– الحقيقة أنه سيان عندي ان لا أُدعى السيدة دولارو .

وقال دانيال بحيوية : – انني متأكدة من ذلك . وانما عنيت : اذا كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالطفل ؟...

فبدت مارسيل مضطربة :

– ولكنني لم اواجه الامور قط على هذا النحو .

ولا بد ان ذلك كان صحيحاً . ولقد كان شاقاً جداً حملها على ان تنظر الى الاشياء مواجهة : كان ينبغي ان يوضع انفها فوق الاشياء ، والا تناثرت في كل اتجاه . واضافت :

– ان هذا ... امر قد اتفقنا عليه : ان الزواج عبودية . وليس فينا من يريده .

– ولكنك تريدين الطفل ؟

فلم تجب . وكانت اللحظة الحاسمة ؛ وردد دانيال بصوت قاس ،

– أليس كذلك ؟ انك تريدين الطفل؟

وكانت مارسيل تتكيء باحدى يديها على الوسادة بينما وضعت الاخرى على فخذها ، ثم رفعتها قليلاً ووضعتها على بطنها ، كما لو ان احشاءها كانت تؤلمها ، وكانت هذه حركة خرقاء وساخرة . وقالت بصوت متوحد :

نعم . اريد الطفل .

ربحنا . وصمت دانيال . ولم يكن يستطيع رفع نظره عن هذا البطن . اللحم العدو ، اللحم المشحم والمغذي ، خزانة الطعام . وفكر في ان ماتيو كان قد اشتهاها فاخذته شعلة سريعة من الرضى : لكأنما انتقم بعض الانتقام . وكانت اليد السمراء ذات الخاتم تتشنج على الحرير وتضغط على ذلك البطن . ما الذي كانت تشعر به ، في داخلها ، هذه الانثى الثقيله المتمزقة ؟ لقد كان يود ان يكونها . وقالت مارسيل بخفوت :

– لقد حررتني يا دانيال . فانني ... لم اكن استطيع ان اقول ذلك لأحد ابداً وكنت قد انتهيت الى الايمان بان ذلك كان إثماً .

ونظرت اليه بضيق :

– اليس ذلك إثماً ؟

فلم يتمالك نفسه من الضحك :

– إثم ؟ انما ذلك فساد يا مارسيل . اتجدين رغباتك آثمة حين تكون طبيعية ؟

– كلا ، انما اعني : تجاه ماتيو . ان ذلك بمثابة نقض للعهد .

– كل ما في الامر هو انه يجب ان تتفاهمي معه بصراحة .

فلم تجب مارسيل ؛ وكان يبدو عليها انها تجتر . وقالت فجأة بحماسة :

– اوه ! لو كان لي ولد ما سمحت له بان يفسد حياته مثلي .

– انك لم تفسدي حياتك .

– بلى !
– ولكن لا يا مارسيل ، لم تفسدها بعد .
– بلى ! انني لم افعل شيئاً ، وليس هناك من يحتاج الي .
فلم يجب : كان ذلك صحيحاً .
– ليس ماتيو بحاجة الي . واذا مت لم يؤثر ذلك عليه قط .وانت كذلك يا دانيال . صحيح انك تكنّ لي حباً كبيراً ، ولعل ذلك هو أثمن شيء عندي في الدنيا . ولكنك لست بحاجة الي ؛ بل الاصح انني انا بحاجة اليك .
ايجيب ؟ ام يحتج ؟ كان ينبغي له الحذر : كانت مارسيل تبدو في احدى تلك الحالات المستبصرة الوقحة . وتناول يدها بلا كلمة وشدّها شدّاً ذا مغزى . وتابعت مارسيل :
– اما الطفل ، اجل ، ان الطفل سيكون بحاجة اليّ .
فلامس يدها بحنان :
– يجب ان تقولي هذا كله لماتيو .
– لا استطيع .
– ولكن لماذا ؟
– انني عاجزة . وانتظر ان يأتي ذلك منه .
– ولكنك تعلمين جيداً ان ذلك لن يأتي منه ابداً : فهو لا يفكر فيه .
ولماذا لا يفكر في ذلك ؟ لقد فكرت انت فيه ملياً .
– لا ادري . واذن ... سيبقى الأمر كما قررنا : سوف تعيرنا المال ، وساذهب الى ذلك الطبيب .
فصاح دانيال فجأة : – انك لا تستطيعين ، لا تستطيعين !
وتوقف ينظر اليها في حذر : كان الانفعال هو الذي جعله يطلق هذه الصرخة البليدة . واثلجته هذه الفكرة ، لقد كان الترك يذعره .

وقرص شفتيه ، وأمرّ السخرية في عينيه ، وهو يرفع حاجبيه . وكان فاغاً لا جدوى منه ؛ كان الافضل الا يراها : فقد احنت كتفيها ، وكان ذراعاها يتدليان على جنبيها ؛ وكانت تنتظر جامدة معطلة ، وهي سوف تنتظر على هذا النحو طوال اعوام حتى النهاية. وفكر : «حظها الاخير» كما سبق له ان فكر لنفسه منذ حين ، فبين الثلاثين والاربعين عاماً يلعب الناس حظهم الاخير . وهي سوف تلعب وتخسر ؛ فبعد بضعة ايام لن تكون بعد الا بائسة كبيرة . وكان ينبغي الحيلولة دون ذلك .

– وما ترين في ان احدث انا نفسي ماتيو في ذلك ؟

وكان شفقة هائلة موحلة قد غمرته . ولم يكن يميل قط الى مارسيل . كان يشعر باشمئزاز عميق ، ولكن الشفقة كانت موجودة هنا ، لا تقاوم . وكان على استعداد ليفعل اي شيء من اجل ان يتخلص منها . ورفعت مارسيل رأسها وكان يبدو عليها انها تظنه مجنوناً .

– تتحدث اليه ؟ انت ؟ ولكن بمَ تفكر يا دانيال ؟.

– يمكن ان يقال له ... انني التقيت بك ...

– اين ؟ فأنا لا اخرج قط . وحتى لو فرضنا ذلك ، فهل يكون الامر قد بلغ بي ان اروي لك هذا ؟

– لا ، لا ، طبعاً .

ووضعت مارسيل يدها على ركبته .

– ارجوك يا دانيال ، لا تتدخل في هذا الامر . انني غاضبة من ماتيو ، وقد كان عليه الا يروي لك ...

ولكن دانيال كان متمسكاً بفكرته :

– اسمعي يا مارسيل . ألا تعرفين ما سوف نفعله ؟ سنقول له الحقيقة بكل بساطة . سأقول : يجب ان تغفر لنا سراً صغيراً ، فقد كنا انا ومارسيل نلتقي احياناً ، ولم نخبرك بذلك .

فابتهلت مارسيل تقول :

ـ دانيال ، يجب ان نقول ذلك . انني لا اريد ان تتكلم عني . لا اريد بأي ثمن ان اظهر بمظهر المطالِب . فقد كان عليه هو ان يفهم .

وأضافت بلهجة زواجية :

ـ ثم انه ، لو تعلم ، لن يغفر لي ابداً انني لم اخبره انا نفسي بذلك . اننا نتصارح دائماً بكل شيء .

وفكر دانيال : ـ « هذه نكتة ! » ولكن لم تكن به رغبة للضحك. وقال :

ـ ولكني لن اتكلم باسمك . سأقول له انني رأيتك ، وانه كان يبدو عليك انك متألمة ، وان الامور ليست بالبساطة التي قد يتصورها. سأقول ذلك كله كما لو انه صادر عني .

وقالت مارسيل بلهجة انزعاج :

ـ لا اريد . لا اريد .

وكان دانيال ينظر الى كتفيها وعنقها في نَهم . وكان هذا العناد الابله يغيظه ، وكان يريد ان يحطّمه . وكانت رغبة هائلة مشوّهة تتملكه : ان ينتهك هذا الضمير وان يغرق معه في المذلّة . غير ان ذلك لم يكن من السادية : فقد كان اشد تلمّساً وأوفر رطوبة وأكثر بشرية . كان بالاحري طيبة .

بل يجب يا مارسيل . انظري اليّ يا مارسيل .

وأخذها من كتفيها ، فغرقت اصابعه في زبدة دافئة .

ـ إن لم احدثه بذلك ، فلن تقولي شيئاً ابداً ... وسينتهي الامر ، وستعيشين بالقرب منه صامتة ، وستنتهين الى كرهه .

فلم تجب مارسيل ، ولكنه ادرك من هيئتها الحاقدة المسترخية انها كانت بسبيل الاستسلام . وأضافت مرة اخرى :

ـ لا اريد.

فتركها وقال في غضب :

ـ ان لم تدعيني افعل ، فسألومك وقتاً طويلا . سيكون انك افسدت حياتك بيديك .

وكانت مارسيل تُمر طرف رجلها على منحدر السرير . وقالت :

ـ ينبغي ... ينبغي ان تُقال له اشياء مبهمة تماماً ، ان يوقظ انتباهه فحسب ...

فقال دانيال : ـ طبعاً .

وكان يفكر : « اعتمدي علي في ذلك . »

وبدت من مارسيل حركة اشفاق :

ـ هذا غير ممكن .

ـ وبعد ؟ كنت على وشك ان تكوني عاقلة ... لماذا يكون ذلك غير ممكن ؟

ـ ستكون مضطراً الى ان تقول له اننا كنا نتلاقى .

فقال دانيال في انزعاج :

ـ نعم . قلت لك ذلك . ولكني اعرفه : فهو لن يغضب من هذا . قد يغتاظ قليلا ، في الظاهر ، ولكنه اذ يشعر بانه مذنب فانه سيكون مسروراً اكثر مما ينبغي بأن يجد شيئاً يؤاخذك عليه . ثم اني سأقول له اننا نتلاقى منذ اشهر فقط ، وفي فترات نادرة . ومهما يكن ، فلا بد ان نقول له ذلك يوماً .

ـ هذا صحيح .

ولم يكن يبدو عليها انها مقتنعة ، وقالت بأسف عميق :

ـ لقد كان ذلك سرنا . اسمع يا دانيال، تلك كانت حياتي الخاصة، وليست لي حياة غيرها .

وأضافت بكراهية :

ـ انني لا استطيع ان احتفظ لنفسي إلا بما اخفيه عنه .

ـ يجب ان تحاولي . من اجل الطفل .

انها تكاد تستسلم : وليس ثمة بعد الا الانتظار ؛ كانت توشك ان تنزلق نحو الخضوع والاستسلام ، يقودها في ذلك ثقلها نفسه؛ ستكون بعد لحظة منتفخة كلها ، من غير سلاح ، وستقول له في دعـة : « افعل ما يبدو لك ، انني بين يديك . » وكانت تسحره ؛ ولم يكن يعرف بعد ان كانت هذه النار التي تلتهمه هي « الشر » او الطيبة . الخير والشر ، خيرهما وشره ، كان ذلك سواء . لقد كان ثمة هذه المرأة ، وهذا التواصل المنفّر الباعث على الدوار .

وأمرّت مارسيل يدها في شعرها ، وقالت في تحدّ :

ـ حسناً ! لنحاول . انها ستكون على كل حال تجربة .

فسألها دانيال :

ـ تجربة ؟ اهو ماتيو الذي تريدين ان تدخليه في التجربة ؟

ـ نعم .

ـ وهل تظنين بأنه سيظل لامبالياً ؟ وانه لن يتعجل ساعة اللقاء بك ليتفاهم معك ؟

ـ لا ادري .

وقالت بجفاف :

ـ انني بحاجة الى احترامه .

فأخذ قلب دانيال يخفق :

ـ ألا تحترمينه اذن بعد ؟

ـ بلى .. ولكني لست بعد في ثقة معه منذ مساء الامس . لقد كان ... انت على حق : لقد كان مهملا اكثر مما ينبغي . انه لم يهتم بشأني . ثم ان مخابرته التلفونية اليوم ... تثير الشفقة . لقد ...

واحمرّت :

– لقد ظنّ ان عليه ان يقول انه كان يحبني ، حين أنهى المخابرة. وكان ذلك يرشح بتأنيب الضمير . ولا استطيع ان اصف لك الأثر الذي خلّفه ذلك فيّ . واذا اتفق لي ان كففت عن احترامه ... ولكني لا اريد ان افكر بذلك . انه يشقّ عليّ جداً ان اعتب عليه ، حين يتفق لي ذلك . آه ! ليته يحاول غداً ان يدفعني قليلاً الى الكلام. ليته يسألني مرة واحدة فقط : « ماذا يجول في رأسك ؟ »

وصمتت ، وهزت رأسها في حزن . وقال دانيال :

– سوف احدثه . حين أغادرك ، سأترك له كلمة ، وأحدّد له موعد لقاء للغد .

وصمتا . وأخذ دانيال يفكر في لقاء الغد : لقد كان يَعد ان يكون لقاءً عنيفاً وقاسياً ، وسوف يطهّره ذلك من هذه الشفقة اللزجة . وقالت مارسيل :

– دانيال ، عزيزي دانيال .

ورفعت رأسها فرأت نظرته . وكانت نظرة ثقيلة ساحرة تفيض بالعرفان الجنسي ، نظرة ما بعد المضاجعة . وأغمض عينيه : لقد كان بينهما ما هو اقوى من الحب . لقد سبق ان انفتحت ، فدخل فيها ، فليسا هما بعد الا شخصاً واحداً .

ورددت مارسيل : – دانيال .

ففتح دانيال عينيه ، وسعل بمشقة ؛ وكان مصاباً بالربو . واخذ يدها وقبّلها قبلة طويلة وهو يمسك انفاسه . وكانت مارسيل تقول ، من فوق رأسه :

– يا ملاكي .

سيقضي حياته كلها منحنياً فوق هذه اليد العاطرة ؛ وراحت تلامس شعره بحنان .

١١

كانت زهرة كبيرة بنفسجية تصعد نحو السماء ، وكانت هي الليل . وكان ماتيو يتنزّه في هذا الليل ، وكان يفكر : « انـــني شخص هالك . » وكانت تلك فكرة جديدة كل الجدّة ، وكان لا بدّ من تقليبها على وجوهها ، ومن شمّها في احتراس . وكان ماتيو يفقدها بين الفينة والفينة ، فلا تبقى بعد غير الكلمات . ولم تكن الكلمات خاليةً من بعض سحرٍ غامض : « شخص هالك » . كان المرء يتخيّل كوارث جميلة : الانتحار ، الثورة ، ومخارج اخرى متطرفة . ولكن الفكرة كانت سريعاً ما تعود : لم يكن الامر كذلك ، لم يكن كذلك قط ؛ وانما كانت القضية بؤساً صغيراً هادئاً ومتواضعاً ، ولم تكن قضية يأس ، بل على العكس ، كان ذلك يبعث على الرضى والراحة : لقـــد كان ماتيو يشعر بأنه قد سُمح له بكل شيء ، كما هو الشأن بالنسبة لمريض لا يُرجى شفاؤه . وفكر : « ليس عليّ بعـــدُ الا ان ادع نفسي أعيش . » وقرأ اسم « سومطرا » بأحرف نارية ، وهُرع اليه الزنجي ، وهو يلامس قبعته . وتردد ماتيو على عتبة الباب : كان يسمع ضجيجاً ، وموسيقى تانغو ؛ وكان قلبه ما يزال ممتلئاً بالكسل والليل . ثم حدث ذلك فجأة ، كما يحدث في الصباح ، حين يلفي المرء نفسه واقفاً من غير ان يدرك كيف نهض : كان قـــد أزاح الستار الاخضر ، وهبط

درجات السلم السبع عشرة ، فاذا هو في كهف قرمزي ضاج ، ذي لطخات بيضاء قذرة ، هي اغطية الموائد ؛ وكانت رائحة البشر منتشرة هناك ، كانت القاعة تغصّ بالبشر ، كما هو الحال في قداس . وفي جوف الكهف ، كان ثمّة رعاةٌ يرتدون القمصان الحريرية يعزفون الموسيقى فوق منصة . وكان امامه اشخاص واقفون في جمود واحترام كأنهم ينتظرون : وكانوا يرقصون ؛ وكانوا شرسين ، وكان يبدو انهم فريسة قدر لا ينتهي . واستعرض ماتيو القاعة بنظره المتعب بحثاً عن بوريس وايفيش .

– هل تريد طاولة ، ياسيدي ؟

وكان شاب جميل ينحني امامه في هيئة سمسار .

وقال ماتيو : – انني ابحث عن شخص .

فعرفه الشاب ، وقال بودّ :

– آه ! ها انت يا سيدي ؟ إن الآنسة لولا ترتدي ثيابها ، وأصدقاؤك في الداخل ، الى اليسار ، واني مرافقك اليهم .

– لا ، شكراً . سأجدهم بنفسي . ان روادكم اليوم كثيرون .

– نعم ، لا بأس بعددهم . هولانديون . انهم يضججّون كثيراً ، ولكنهم يستهلكون جيداً .

واختفى الشاب . وكان ينبغي الا يفكر المرء بأن يشق لنفسه طريقاً بين الازواج الذين كانوا يرقصون . وانتظر ماتيو : كان يصغي الى التانغو والى جر الاقدام ، وكان ينظر الى التقلبات البطيئة لهذا الاجتماع الصامت . اكتاف عارية ، رأس زنجي ، بياض ياقة ، نساء رائعات ناضجات ، كثير من الرجال المسنّين كانوا يرقصون وعليهم مظهر الاعتذار . وكانت ألحان التانغو الحادة تمر فوق رؤوسهم : لم يكن يبدو على الموسيقيين انهم يعزفون لهم . وتساءل ماتيو : « ماذا جئت افعل هنا ؟ » وكانت سترته تلمع لدى المرفقين ، ولم يكن لبنطلونه

بعدُ أية ثنية ، ولم يكن يرقص جيداً ، وكان غير قادر على ان يتسلّى وهو في تلك البطالة الرصينة . وأحس بالضيق : ان المرء لم يكن يستطيع في مونمارتر ان يشعر بالرضى والراحة ، فان قسوة حائرة كانت ترفرف في الهواء .

وأضاءت اللمبات البيضاء من جديد . وتقدم ماتيو الى الحلبة وسط الظهور الهاربة . وكانت في احدى الزوايا طاولتان ، وإزاء واحدة منهما كان رجل وامرأة يتكلمان بلهجة حادة ، من غير ان ينظر احدهما الى الآخر . وإزاء الاخرى رأى بوريس وايفيش ، وكان احدهما ينحني نحو الآخر باهتمام في قسوة مليئة بالروعة . « لكأنهما راهبان صغيران . » وكانت ايفيش هي التي تتكلم ، وكانت تتحرك حركات حيّة . ولم يسبق لها قط ، حتى في لحظات الثقة ، ان بدت لماتيو في مثل ذلك الوجه . وفكر ماتيو : « كم هما شابان ! » وكانت به رغبة في ان يستدير على عقبيه ويذهب . ولكنه اقترب ، لأنه لم يكن يستطيع بعد ان يتحمّل الوحدة ، وكان يحس انه كان ينظر اليهما من ثقب الباب. انهما سيلاحظانه عما قليل ، وسيديران اليه ذينك الوجهين المتحللين اللذين كانا يواجهان بهما ابويهما والشخصيات الكبيرة ، وسيكون ثمة ، حتى في اعماق قلبيهما ، شيءٌ ما قد تغير . وكان شديد القرب من ايفيش في تلك اللحظة ، ولكنها لم تكن تراه . وكانت قد انحنت على اذن بوريس هامسة . وكانت تشبه قليلاً – قليلاً جداً – اختاً كبيرة ، وكانت تتحدث الى بوريس في تنازل مدهوش . وأحس ماتيو ببعض العزاء : ان ايفيش لم تكن تستسلم كلياً حتى مع اخيها ، بل هي تلعب دور الاخت الكبيرة ، ولم تكن تنسى نفسها قط . وضحك بوريس ضحكة مقتضبة وقال ببساطة :

– مسامير !

ووضع ماتيو يده على طاولتهما . « مسامير ». وكان حوارهما ينتهي

بهذه الكلمة الى الأبد : فكأنها كانت آخر عبـــارة في قصة او في مسرحية . وكان ماتيو ينظر الى ايفيش وبوريس : وكان يجدهما بطلي رواية . وقال :

– مرحباً .

فقال بوريس وهو ينهض : – مرحباً .

والقى ماتيو نظرة سريعة نحو ايفيش : وكانت قد استلقت الى الوراء ورأى عينين كئيبتين ممتقعتين . كانت ايفيش الحقيقية قد اختفت . وفكر في غيظ : « ولماذا الحقيقية ؟ »

وقالت ايفيش :

– مرحباً يا ماتيو .

ولم تبتسم ، ولكن كان يبدو عليها كذلك مظهر الدهشة او الحقد؛ كان يبدو عليها انها كانت تجد حضور ماتيو طبيعياً جداً . واشار بوريس الى الجمع بحركة سريعة وقال في رضى :

– الحضور كثيرون .

فقال ماتيو : – نعم .

– هل تريد مكاني ؟

– لا ، لا تكلّف نفسك ، فسوف تعطيه الساعة الى لولا .

وجلس . وكانت الحلبة خالية ، ولم يبق ثمة احـــدٌ على منصّة الموسيقيين : فان الرعاة كانوا قد انجزوا سلسلتهم من رقصات التانغو ، وكانت جوقة الجاز الزنجية « فرقة هيجينو » توشك ان تحلّ محلّهم . وسأل ماتيو :

– ماذا تشربان ؟

وكان الناس يطنّون حوله ، ولم تكن ايفيش قد اساءت استقباله ، وكانت تغمره حرارة رطبة ، وكان يستمتع بالكثافة السعيدة التي يخلّفها الشعور بان يكون رجلاً بين الآخرين .

وقالت ايفيش : — قدح فودكا .
— عجباً ! أصبحت تحبين ذلك ؟
فقالت باقتضاب : — انه قويّ .
فأشار ماتيو الى زبدٍ ابيض في قدح بوريس وسأل بدافع من الإنصاف « وهذا ؟ » وكان بوريس ينظر اليه في إعجاب جذلٍ مشدوه ، فيحسّ ماتيو لذلك بالضيق . وقال بوريس :
— إنه مسلٍّ . هو كوكتيل صاحب الحانة .
— لقد طلبته اذن بدافع التأدّب ؟
— انه يلحُّ عليّ منذ ثلاثة اسابيع لأذوقه . وهو ، لو تعلم ، لا يُحسن صنع الكوكتيل . لقد اصبح صاحب حانة لانه كان مشعوذاً ، وهو يقول انها المهنة نفسها ، ولكنه على ضلال .
قال ماتيو : — أظن ان ذلك بسبب الطاسة ... ثم ان على من يكسر البيض ان يحذق تحريك اليد
— كان خيراً له اذن ان يبقى مشعوذاً . ومهما يكن من امر ، فاني ما كنت آخذ من خليطه القذر لولا انه اعارني مئة فرنك هذا المساء .
فقالت ايفيش :
— ولكن كان معي مئة فرنك .
قال بوريس : — وانا ايضاً ، ولكن لانه صاحب حانة .
ثم قال موضحاً في دقّة قاسية :
— يجب ان يقترض المرء مالاً من اصحاب الحانات .
فنظر ماتيو الى صاحب الحانة ، وكان واقفاً وراء مشربه ، مرتدياً اللباس الابيض مشبك الساعدين ، يدخّن سيكارته . وكان ذا مظهر هادىء . وقال ماتيو :
— وددت لو كنت صاحب حانة ... لا بد ان يكون ذلك طريفاً...
فقال بوريس : — كان ذلك سيكلفك غالياً ، لانك كنت ستحطّم

كل شيء .

وساد صمت : كان بوريس ينظر الى ماتيو ، وكانت ايفيش تنظر الى بوريس .

وقال ماتيو في نفسه باكتئاب : « ان وجودي هنا لا ضرورة له » ومدّ له الخادم لائحة المشروبات : وكان عليه ان يكون حذراً ، فهو لا يملك بعد اكثر من خمسمئة فرنك . وقال ماتيو :

ـ ويسكي .

وأخذه فجأةً نفورٌ من التوفير ومن هذه الحزمة القابعة في محفظته . فنادى الخادم :

ـ انتظر . انني افضل قدح شمبانيا .

واخذ اللائحة من جديد . وكان سعـــر « الموم » ٨٠٠ فرنك . وقال لايفيش :

ـ وانت تأخذين منه ؟

ـ كلا (وبعد لحظة تفكير) نعم . هذا افضل .

ـ اعطنا زجاجة « موم » ذات شريطة حمراء .

قال بوريس : ـ يسرّني ان اشرب الشمبانيا لانني لا احبه . ويجب ان اعتاد .

فقال ماتيو : ـ انكما ، كليكما ، منفوخان . تشربان دائماً مشروبات لا تحبانها .

وتفتّح بوريس : كان يلذّه ان يحدّثه ماتيو بهذه اللهجة . وعضّت ايفيش عل شفتيها . وفكر ماتيو في شيء من الارتياح : « لا يستطيع المرء ان يقول لها شيئاً . فان احدهما لا بد ان يغتاظ . » وكانا هناك، تجاهه ، متنبّهين ، قاسيين . كان كل منهما قد صنـــع لنفسه صورة خاصة عن ماتيو ، وكانا يطلبان منه ان يشبهها . غير ان هاتين الصورتين لم تكونا قابلتين للتوفيق .

وصمتوا .

وارخى ماتيو ساقيه وابتسم من الرضى . وكانت ألحان بوق تبلغه في دفعات ، مُزّةً مجيدة ؛ ولم يكن يفكر في ان يلتمس فيها نغماً : كان حَسْبُه أنها هناك ، وانها تحدث ضجيجاً ، وكان هذا يخلّف لديه متعةً ضخمة تكاد تكون جسدية . طبعاً ، كان يدرك جيداً انه كان انساناً هالكاً ؛ ولكن ذلك ، في آخر المطاف ، في هذا المرقص، وازاء هذه الطاولة ، ووسط جميع هؤلاء الآخرين الهالكين مثله ، ان ذلك لم يكن ذا أهمية كبيرة ، ولم يكن شاقاً على الاطــلاق . وأدار رأسه : كان صاحب الحانة ما زال يحلم ؛ وكان الى اليمين رجــلٌ ذو نظارة واحدة ، وكان وحده ، ذا وجه مدمَّر . وأبعد قليلاً ، كان ثمة رجل آخر وامامه ثلاث كؤوس ومحفظة سيدة ؛ لا بد ان زوجته وصديقه يرقصان ، وكان يبدو عليه انه اقرب الى الارتياح والعزاء : وقــد تثاءب طويلاً خلف يده ، وطرفت عيناه الصغيرتان في نشوة . وكانت في كل مكان وجوه باسمة ونظيفة ، وعيونٌ مجوّفــة . واحس ماتيو فجأة انه متضامن مع جميع هؤلاء الاشخاص الذين كان خيراً لهم لو عادوا الى منازلهم ؛ ولكنهم لم يكونوا حتى ليقووا على ذلك ، فكانوا يلبثون هناك يدخنّون لفائف دقيقة ، ويشربون مزيجــاً ذا مذاق من فولاذ ، ويبتسمون وآذانهم تقطر موسيقى ، ويتأملون بعيونهم الفارغة شظايا قَدَرِهم ؛ وأحسّ نداء خفياً لسعادة متواضعة جبانة : « لو كنت مثلهم ... » وأخذه الخوف فانتفض ، والتفت الى ايفيش . لقد كانت ملاذه الوحيد ، بالرغم مما كانت تبدو عليه من حقد وابتعاد . وكانت ايفيش تنظر الى السائل الشفّاف الذي كان باقياً في كأسهــا : كانت تحول عينيها في قلق . وقال بوريس :

ــ يجب ان تشرب دفعة واحدة .

فقال ماتيو : ــ لا تفعل ذلك ، فانك سوف تحرق حنجرتك.

قال بوريس في قسوة : — ان الفودكا تُشرب دفعة واحدة .

وتناولت ايفيش كأسها :

— اني افضل ان اجرعها دفعة واحدة ، فهي بذلك تنتهي سريعاً .

— لا ، لا تشربي . انتظري الشامبانيا .

فقالت في غيظ : — يجب ان التهم ذلك ، فاني اريد ان أتسلّى .

وانقلبت الى خلف وهي تُدني الكأس من شفتيها ، وافرغت كل محتواها في فمها ؛ وكانت تبدو وكأنها تملأ ابريقاً . وظلت كذلك لحظة لا تجرؤ على الجرع ، وفي جوف حلقها تلك البحيرة النارية الصغيرة . وكان ماتيو يتألم من اجلها .

وقال لها بوريس :

— إجرعي ! تخيّلي انه ماء : فليس هناك الا هذا .

وانتفخ عنق ايفيش ، ووضعت الكأس وعلى وجهها كزازة فظيعة ؛ وكانت عيناها مملوءتين بالدمع . وكان من شأن السيدة السمراء،جارتهم ، ان تركت لحظة حلمها الجذل ، واسقطت عليها نظرة مليئة بالتوبيخ .

وقالت ايفيش :

— اوه ! انه يحرق ... هذا نار !

قال بوريس : — سأشتري لك زجاجة من اجل ان تتدرّبي .

وفكرت ايفيش لحظة :

— خيرٌ لي ان اتدرّب بعصير الفاكهة ، فهو اقوى .

واضافت في شيء من ضيق : — احسب اني سأستطيع الآن ان أتسلّى .

فلم يجبها احد . والتفتت بحيوية الى ماتيو : وكانت هذه هي المرة الاولى التي تنظر اليه :

— انت ، هل تقاوم الخمرة جيداً ؟

قال بوريس : — هو ! انه فظيع ! لقد شرب سبعة اقداح من

الويسكي حين كان ذات يوم يحدثني عن « كـانت » . وانتهى الامر بـي الى اني بتّ لا اسمع ، فقد ثملت بدلاً منه .

وكان ذلك صحيحاً : ان ماتيو لم يكن يستطيع ان يضيع نفسه ، حتى في مثل هذه الحالة . ففي الوقت كله الذي كان يشرب فيه، كان يتعلّق بأي شيء . واستعاد فجأة غوغان ، بسحنته الضخمـة المتقعة ذات العينين الفارغتين ؛ وفكر : « بكرامتي الانسانيـة . » وكان يخشى ، اذا هو استسلم لحظة ، ان يجد في رأسه فجأة فكرة ذبابة او صرصور ، تائهة عائمة كغيمة من الحرّ . وقال موضحاً في ذلّ :

– انني استفظع ان أثمل . انني اشرب ، ولكني ارفض السُكْر بكل قُواي .

فقال بوريس بإعجاب : – الحقيقة انك في هذا عنيد ، بل اعند من بغل !

– لست عنيداً ، ولكني متوتّر : فأنا لا أُحسن التراخي والاستسلام. يجب عليّ دائماً ان افكر بما يحدث لي ، وهذا سلاح للدفاع .

واضاف في سخرية ، كأنما يحدث نفسه :

– انني قصبة مفكّرة .

كأنما يحدث نفسه . ولكن ذلك لم يكـن صحيحاً ، انـه لم يكن صادقاً : لقد كان يودّ في الحقيقة ان لا يروق لايفيش . وفكر : « أتراني اذن بلغتُ هذا ؟ » لقد بلغ ان يغتنم فرصة انهيارها ، ولم يكن يحتقر ان يستغل من ذلك فوائد دقيقة ، وكان يستخدمها ليتقدّم من الفتيات الصغيرات بحركات متأدبّة . « دنيء ! » ولكنه توقّف مذعوراً : فحتى حين كان يصف نفسه بالدناءة ، لم يكن كذلك صادقاً ؛ انه لم يكن مغتاظاً حقاً . لقد كانت هـذه طريقة ليستدرك نفسه ؛ كان يظنّ انه ينقذ نفسه من الاحتقار بـ «الصفاء» ، ولكن هذا الصفاء لم يكن يكلّفه شيئاً ، بل كان بالاحرى يسلّيه . وهذا الحكم نفسه الذي كان يحمله

عن صفائه ، هذه الطريقة في ان يتسلّق على كتفيـــه هو بالذات ...
« يجب ان أتغير حتى العظام . » ولكن لم يكن ثمة ما يستطيع ان يعينه على ذلك : فقد كانت افكاره جميعاً ملوثة منذ مولدها . وفجأة ، انفغر ماتيو كالجـــرح ، رأى نفسه كلّه منتفخاً : افكار ، افكار على افكار ، افكار على افكار على افكار ، كان شفّافـــاً حتى اللانهاية ، وفاسداً حتى اللانهاية . ثم انطفأ ذلك ، فالفى نفسه جالساً تجاه ايفيش التي كانت تنظر اليه نظرة غريبة . وسألها :

ــ هل درست اذن في المدة الاخيرة ؟

فهزت ايفيش كتفيها في غضب :

ــ لا اريد ان يحدثني احدٌ في هذا ! لقد مللت ذلك ، وانا هنا لأتسلّى .

ــ لقد قضت نهارهـا متجمّعة عـــلى الديوان ، وعيناها تشبهان صحنين !

واضاف بوريس باعتزاز ، من غير ان يهـــتمّ بالنظرة السوداء التي كانت اخته ترميه بها :

ــ انها طريفة ! يمكن لها ان تموت برداً في ابان الصيف .

وكانت ايفيش قد ارتعشت ساعات طويلة ، ولعلها بكت . اما الآن، فلم يكن شيء ليبدو عليها : كانت قد وضعت مسحوقاً ازرق عـــلى جفنيها ، وحمرةً فريزية على شفتيها ، وكانت الحمر يلهب وجنتيها ، وكانت كلها نابضة متفجّرة . وقالت :

ــ اودّ لو اقضي امسيةً عظيمة ، لأن هذه آخر أمسية لي .

ــ انك مضحكة .

فقالت بعناد : ــ بلى ، سوف اسقط ، اعرف ذلك ، وسأرحل على الفور ؛ فلن استطيع ان ابقى يوماً واحـــداً بعد في باريس ؟ والاّ ...

والآن ...

– لا شيء . ارجوك ، لا تتحدث بعد بهذا ، فانه يذلّني . آه ! (واضافت بمرح) هي ذي الشمبانيا .

ورأى ماتيو الزجاجة ففكر : « ٣٥٠ فرنكاً » . ان الرجل الذي لحقه بالأمس ، في شارع فرسانجيتوري ، كان هو ايضاً هالكاً ، ولكن بكل تواضع ؛ من غير شمبانيا ولا حماقات جميلة ؛ ثم ان فوق ذلك كان جائعاً . واشمأز ماتيو من الزجاجة ، كانت ثقيلة وسوداء ؛ وكان لها حول عنقها منديل ابيض . وكان الخادم منحنياً فوق دلو الثلج بتكلف ووقار واحترام ، يديره بطرف أصابعه في براعة . وكان ماتيو ما يزال ينظر الى الزجاجة ، وما يزال يفكر برجل الأمس ؛ فيحس قلبه منقبضاً بضيق حقيقي ؛ ومن قبيل الصدف انه كان ثمة تلك اللحظة ، على المنصّة ، شاب رصين يغني في بوق . ثم كانت هناك تلك الزجاجة التي كانت تدور بأناقة تحت الاصابع الصفر ، وجميع اولئك الاشخاص الذين كانوا يتألمون في عصيرهم من غير ان يفعلوا مثل هذه المشاكل . وفكر ماتيو : « ان رائحة الخمر الأحمر تنبعث منها ، والواقع انها تشبهها . ثم انني لا احب الشمبانيا » وبدا له المرقص كله جحيماً صغيراً خفيفاً كفقّاعة صابون ، وابتسم .

وسأله بوريس وهو يضحك مقدماً : – لماذا تتلوّى من الضحك ؟

– تذكرت انني انا ايضاً لا أحب الشمبانيا .

واخذوا جميعاً يضحكون . وكانت ضحكة ايفيش ثاقبة ؛ وقد ادارت جارتها رأسها وحدجتها . وقال بوريس : « اننا مغتبطون » ثم اضاف :

– بوسعنا ان نفرغها في دلو الثلج حين يذهب الخادم .

فقال ماتيو : – كما تشاء .

قالت ايفيش : – كلا . اريد ان اشرب ، انا . وسأشرب الزجاجة

كلها اذا كنتما لا تريدان ان تشربا منها .

وسكب الخادم الخمرة ، وحمل ماتيو كأسه الى شفتيه في كآبة . وكانت ايفيش تنظر الى كأسها في تبرّم . وقال بوريس :

– لن يكون شيئاً رديئاً اذا كان قد قُدّم لنا وهو يغلي .

وانطفأت اللمبات البيض ، واضيئت اللمبات الحمر مرة اخرى ، وانبعثت ضربات طبل . وقفز الى المنصة رجلٌ قصير اصلع مكتنز الجسم يرتدي السموكنغ واخذ يبتسم في بوق :

– سيداتي وساداتي ، يسر ادارة « سومطرا » ان تقدم لكم الآنسة الينور (وكرّر) الآنسة الـ – لـ – ينو – ر . ها !

ودخلت الى القاعة ، لدى اول نغمات رقصة شعبية ، فتاة طويلة شقراء . وكانت عارية ، وكان جسمها يبدو ، في الهواء الأحمر ، قطعة قطن كبيرة . والتفت ماتيو الى ايفيش : كانت تنظر الى الفتاة العارية بعينيها الكبيرتين الصفراوين على سعتهما ؛ وكانت قد اتخذت مظهرها القاسي الأهوس . وهمس بوريس :

– انني اعرفها .

وكانت الفتاة ترقص ، وقد استخفتها رغبة مجنونة بان تروق للجمهور ؛ وكانت تبدو غير بارعة ، وكانت تقذف بقوة ساقيها الى امام ، واحدة بعد الاخرى ، وكانت قدماها تبرزان في نهاية ساقيها كالأصابع . وقال بوريس :

– سوف تهدم نفسها ، وستندم !

والواقع انه كان في اطرافها الطويلة رخاصةٌ مقلقة ؛ وكانت حين تضع رجليها على الارض ، تأخذ ساقيها رعشاتٌ تهزّهما من الأخمص الى العجز . واقتربت من المنصة والتفتت ، ففكر ماتيو : « والآن ، ستشتغل بردفيها » وكانت ضجة الأحاديث تغطي الموسيقى في موجات . وقالت جارة ايفيش وهي تزوى شفتيها :

انها لا تحسن الرقص . وحين يكون ثمن المشروب خمسة وثلاثين فرنكاً ، فيجب الاعتناء بالبرنامج .

وقال الرجل السمين : — ان عندهم « لولا مونتيرو »

— هذا لا يغيّر الحقيقة . انه لأمر معيب ، فقد لمّوا هذه من الشارع .

وشربت جرعة من كأسها الممزوج واخذت تلعب بخواتمها . واجال ماتيو نظره في القاعة فلم يلتق الا بسحنات قاسية رصينة . وكان الناس يتلذّذون بغيظهم : فقد كانت الفتاة تبدو لهم عارية مرتين ، لأنها كانت عديمة الحذق . وكأنها كانت تشعر بعداوتهم وكانت تأمل ان تعطفهم عليها . ودهش ماتيو لارادتها المصممة المتفانية : فقد كانت تمدّ لهم ساقيها المنفرجتين في موجة من حماسة تمزّق القلب . وقال بوريس :

— ما أشدّ ما تنفق نفسها !

فقال ماتيو : — انها لن تنجح ، فالناس يريدون ان يحترموا .

— بل يريدون خاصةً ان يروا إستاتيك .

صحيح ، ولكن يجب إحاطة ذلك باطارٍ من الفنّ .

وذات لحظة انثنت ساقا الراقصة تحت وهن ردفيها الجذلين ، فنهضت وهي تبتسم ورفعت ذراعيها في الهواء وهي تهزّهما ، فسقطت منهما رعشات انزلقت الى الراسلين ، وجاءت تتلاشى في ثنية الاصلاب .

وقال بوريس :

— ما أصلب وركيها . ان هذا لعجيب !

فلم يجب ماتيو ، وكان يفكر في ايفيش . ولم يكن يجرؤ على النظر اليها ، ولكنه كان يتذكر مظهرها القاسي ؛ ان هذه الصبية الملعونة كانت ، في آخر المطاف ، كجميع الناس : كانت تلتهم بعينيها ، في احساسٍ من الفظاظة ، هذا اللحم المسكين العاري ، وهي محمية بجمالها ،

بثيابها الرصينة . وصعدت الى شفتي ماتيو موجة من الحقد سمّمت فمه : « لم يكن الامر يستحق ما اخذت نفسي به من تكلّف وحذر ، في هذا الصباح . » ولوى رأسه قليلاً ، فرأى قبضة ايفيش متشنجة فوق الطاولة . وكان ظفر الإبهام القرمزي الرهيف يتجه الى الحلبة كأنه سهم للإشارة . وفكر « انها متوحّدة ، وهي تخفي وراء شعرها وجهها المضطرب ، وهي تضم ساقيها ، انها تلتذّ ! » وكانت هذه فكرة لا يحتملها ، وقد اوشك ان ينهض ويمضي ، ولكنه لم يكن يقوى على ذلك ، فاكتفى بأن فكر : « انما احبها لطهارتها » . وكانت الراقصة ويداها على خاصرتيها ، تنتقل على عقبيها ، فلامست طاولتهم بجنبها . وودّ ماتيو لو يشتهي هذه الوسادة ليتلهّى عن افكاره ، وليمثّل مع ايفيش فصلاً جميلاً . وكانت الفتاة قد قرفصت ، مباعدةً ما بين ساقيها ، وكانت تؤرجح ردفيها على مهل من امام الى وراء ، كأحد هذه المصابيح الصفراء التي تنوس ليلاً في المحطات الصغيرة وهي معلّقة بذراعٍ غير مرئية . وقالت ايفيش :

— تفه ! انني لا اريد بعدُ ان اراها .

فالتفت اليها في دهشة ، ورأى وجهاً مثلثاً متحلّلاً بالغضب والاشمئزاز . وفكر في عرفان « انها لم تتأثر » . وكانت ايفيش ترتعش ، وودّ ان يبتسم لها ، ولكن رأسه امتلأ بالجلاجل ؛ وتسلّل بوريس وايفيش والجسد الداعر والغيمة الحمراء خارج متناول يده ، فاذا هو وحيد ، واذا في البعيد نارٌ من بنغال ، وفي الدخان مسخٌ بأربع سيقان يستعرض براعته ، وكانت موسيقى حفلة تبلغه في قفزات عبر ضجيج اوراق رطبة . وتساءل : « ماذا دهاني ! » كان ذلك كالصباح : فانه لم يكن حوله بعد الا مشهد ،وكان ماتيو في مكان آخر .

وكفّت الموسيقى فجمدت الفتاة مولية وجهها شطر القاعة . وكان لها فوق بسمتها عينان جميلتان يائستان . ولم يصفّق احد ، وندّت بعض

ضحكات جارحة . وقال بوريس :

– متوحشون !

وصفّق بيديه في قوة ، فالتفتت اليه وجوه دهشة ، وقالت ايفيش غاضبة :

– اتريد ان تكفّ ؟ انك لن تصفّق لها .

فقال بوريس وهو يصفّق : – انها تفعل ما تستطيع . وهذا أولى !

فهز بوريس كتفيه وقال : – انني اعرفها . لقد تعشيت معها ومع لولا ، وهي فتاة طيبة ولكنها قاصرة الخيال .

واختفت الفتاة وهي تبتسم وترسل القبلات . وغمر القاعة نورٌ ابيض ، فكانت اليقظة : كان الناس مسرورين ان يتلاقوا فيما بينهم بعد ان اخذت العدالة مجراها ، واشعلت جارة ايفيش سيكارة وبسطت وجهها لنفسها وحدها . ولم يكن ماتيو ليستيقظ ، وانما كان غارقاً في كابوسه الابيض ، وكانت الوجوه تتفتح حوله في اكتفاء ضاحك رخو ، ولم يكن يبدو على معظمها انها مسكونة . اما وجهي فلا بدّ انه كذلك ، ولا بدّ انه يملك ملاءمة العينين وزوايا الفم ، ومع ذلك ، فلا بد ان يُرى انه كان أجوف .. كان وجه كابوس ، ذلك الرجل الذي كان ينطنط على المنصّة ويقوم بحركات يطلب فيها السكوت ، وعليه مظهر من يتلذّذ سلفاً بالدهشة التي سوف يُحدثها ، بأن يتصنع انه يُسقط إسقاطاً في البوق ، من غير تعليق ، وبكل بساطة ، الاسم الشهير :

– لولا مونتيرو !

واهتزت القاعة مشاركة وحماسة ، وانفجر التصفيق وبدا بوريس مفتوناً .

– انهم منشرحون تماماً ، وسوف يمشي الحال .

وكانت لولا قد التصقت بالباب ؛ وكان وجهها المسطّح الحرب

يشبه من بعيد فم أسد ، وكان كتفاها في بياضهما الراعش ذي الاشعاعات الخضراء تشبهان ظلال شجرة في مساء عاصف تحت اضواء سيّارة .

وتمتمت ايفيش :

ما اجملها !

واقتربت بخطى واسعة هادئة ، في يأس مليء بالارتياح ؛ وكانت لها يدا سلطانة صغيرتان ومحاسنها المثقلة ، ولكنها كانت تضفي على مشيتها سخاء رجل .

وقال بوريس في اعجاب :

ـ انها تنثر حولها الرضى ، فهم لن يحاولوا ان يجعلوها تتعثر .

وكان هذا صحيحاً : فان جلوس الصف الاول كانوا قد تقهقروا على كراسيهم مستشعرين الرهبة ، يكادون لا يجرؤون على النظر عن كثب الى هذا الوجه المجيد . وجه خطيب كبير شعبـيّ ، عليه ظلّ من الأهمية السياسية : كان الفم يدرك عمله ، وكان قد ألف التثاؤب العريض ، وكانت الشفتان بارزتين لتقيئا الفظاعة والاشمئزاز ولتنقلا الصوت الى بعيد . وتجمّدت لولا فجأة ، فتنهدت جارة ايفيش عجباً وإعجاباً ، وفكر ماتيو « لقد استولت عليهم » .

واستشعر الضيق : لقد كانت لولا في صميم ذاتها شامخة ومهووسة ، غير ان وجهها كان يكذب فيمثّل الشموخ والهوس . وكانت تتألم ، لأن بوريس كان يوئسها ، غير انها كانت تغتنم دورها في الغناء ، خمس دقائق في اليوم ، لتتألم في فنّ ! « حسناً ! وانا ؟ ألست أتألم في فن ، وامثل دور الشخص الهالك بمرافقة الموسيقى ؟ (وفكر) ومع ذلك ، فانا حقاً شخص هالك . » وكان الوضع حوله شبيهاً : كان ثمة اشخاص غير موجودين على الاطلاق ، أبخرة ، ثم كان هناك اشخاص موجودون اكثر مما ينبغي . كصاحب الحانة مثلاً . لقد كان الساعة يدخن سيكارة يبدو غامضاً شاعرياً كأنه شجرة لبلاب ، اما الآن فقد استيقظ ، فاذا

هو صاحب حانة اكثر مما ينبغي ، كان يهزّ الدلو ويفتح الزجاجة ويدلق منها زبداً اصفر في كؤوس بحركات ذات دقة مبالغ فيها : كان يمثّل دور صاحب الحانة . وفكر ماتيو في برونيه . « لعل المرء لا يستطيع ان يفعل غير ذلك ، ولعل عليه ان يختار : اما ان لا يكون شيئاً او ان يمثل ما هو . (وقال في نفسه) سيكون هذا مريعاً ، لان المرء سيكون مزوّراً بطبيعته . »

وأجالت لولا نظرها في القاعة ، على غير ما عجل . وكان قناعها المتألم قد قسا وتجمّد ، فكان يبدو منسياً على وجهها . ولكن ماتيو حسب انه يفاجيء في جوف عينيها ، ووحدهما كانتا حيّتين ، وشعلةً من فضول مرّ ومهدّد لم يكن فيه تمثيل . ورأت اخيراً بوريس وايفيش فبدت مطمئنة . وابتسمت لها بسمة كبيرة مليئة بالطيبة ، ثم أعلنت بلهجة ضائعة :

— اغنية بحار : جوني بالمر .

وقالت ايفيش : — احبّ صوتها ، لكأنه قطعة مخمل كبيرة مضلّعة .

— نعم .

وفكر ماتيو : « جوني بالمر ايضاً ! »

وبدأت الموسيقى ، ورفعت لولا ذراعيها الثقيلتين . هكذا اذن ، انها تصلّب ، ورأى فماً دامياً ينفتح :

من هو قاسٍ ، حسود ، مرير ؟
ومن يغشّ في اللعب ، حين يخسر ؟

ولم يعد ماتيو يصغي ، وكان خَجِلاً امام هذه الصورة للألم . كان يدرك جيداً انها لم تكن الا صورة ، ولكن مع ذلك ...

« لست اعرف ان اتألم ، انني لا اتألم ابداً بما فيه الكفاية . »
كان أشقّ ما في العذاب ، أنه كان شبحاً ، وان المرء يقضي وقته في

الجري خلفه ، ويحسب دائماً انه سيدركه ويرتمي في داخله ويتعذب حقاً وهو يكزّ على اسنانه ، ولكنه ما ان يسقط فيه حتى يفرّ ، فلا يجد المرء بعد الا نثاراً من كلام وألوفاً من المحاكمات العقلية المجنونة تضج بدقة « ان ذلك يثرثر في رأسي ، ولا يني يثرثر ، واني اعطي ايّ ثمن لاستطيع ان اصمت . » ونظر الى بوريس في غيرة ، لا بدّ ان وراء هذا الجبين المصدوم ألواناً عظيمة من الصمت .

من هو قاسٍ ، حسود ، مرير ؟

انه جوني بالمر !

« انني اكذب ! » كان انهياره ، وانتحابه اكاذيب وفراغاً ؛ كان قد قذف نفسه في الفراغ ، على سطح نفسه ، ليفلت من ضغط عالمه الحقيقي ، هذا الضغط الذي لا يحتمل . عالم اسود شديد الحرارة يُنتن الاثير . في ذلك العالم ، لم يكن ماتيو شخصاً هالكاً — على الاطلاق ، بل كان اسوأ من ذلك : كان جذلاً — جذلاً ومذنباً ، وكانت مارسيل هي التي ستكون هالكة اذا لم يجد خمسة آلاف فرنك قبل اليوم التالي . ستكون هالكة حقاً . من غير غنائية ؛ لان ذلك يعني انها ستبيض الطفل او انها ستموت بين يدي امرأة عقاقيرية . في ذلك العالم لم يكن العذاب حالة نفسية ، ولم تكن ثمة حاجة الى الكلمات للتعبير عنه : وانما كان مظهراً للاشياء . « تزوّجْها ايها البوهيمي المزيف ، تزوجها يا عزيزي ، لماذا لا تتزوجها ؟ » وفكر ماتيو في اشمئزاز : « اراهن انها ستموت من ذلك . » وصفّق الجميع وتنازلت لولا فابتسمت ، وانحنت وقالت :

— اغنية من اوبرا « الفلوس الاربعة » : خطيبة القرصان .

« لا احبّها حين تغني هذا . لقد كانت مارغوليون ابرع منها . اشدّ غموضاً . اما لولا فهي عقلانية ، وهي بلا غموض . ثم انها طيبة اكثر مما ينبغي . انها تكرهني ، ولكن كراهية كبيرة صريحة ، وهذا

امر سليم ، كراهية انسان شريف . » وكان يستمع بشرود الى هذه الافكار الخفيفة التي كانت تركض كالفئران في مستودع حبوب .وكان تحت ذلك نعاس ثقيل حزين ، عالم ينتظر في صمت : لا بدّ ان يسقط فيه ماتيو عاجلاً ام آجلاً . وتمثّل مارسيل ، تمثّل فمها القاسي وعينيها الشاردتين : « تزوجها ايها البوهيمي المزيّف ، تزوجها ، لقد بلغت سنّ الرشد ، يجب ان تتزوجها . »

سفينة حربية

ذات ثلاثين مدفعاً في الكوى

ستدخل المرفأ

« كفى ، كفى ! سأجد المال ، لا بد ان اجده والا تزوجتها ، هذا مفهوم ، فلست دنيئاً جباناً ، ولكن هذا المساء ، هذا المساء فقط ، دعوني من هذا كله ، اريد ان انسى ؛ ان مارسيل لا تنسى ، انها في الغرفة ، متمدّدة فوق السرير ، انها تتذكر كل شي ، وهي « تراني » وتصغي الى ضجّات جسمها ، وبعد ذلك ؟ سيكون لها اسمي ، وحياتي كلها عند اللزوم ، ولكن هذه الليلة لي . » والتفت الى ايفيش ، وارتمى نحوها ، فابتسمت له ، ولكنه صدم انفه بجدار زجاجي بينما كان الناس يصفقون ، ويطلبون « اغنية اخرى ، اغنية اخرى . » فلم تبال لولا بهذه الابتهالات : فقد كان لها دورٌ غنائي آخر ، عند الساعة الثانية صباحاً ، وكانت ترفق بنفسها . وحيّت الجمهور مرتين ، واقتربت من ايفيش ، فالتفتت رؤوس الى طاولة ماتيو ، ونهض ماتيو وبوريس :

— مرحباً يا صغيرتي ايفيش ، كيف الحال ؟

وقالت ايفيش بلهجة رخوة : — مرحباً لولا .

ولامست لولا ذقن بوريس بيد خفيفة :

— مرحباً ايها اللئيم .

وكان صوتها الهادىء الرصين يضفي على كلمة « لئيم » لوناً من الجدارة ؛ وكان يبدو ان اولا تقصّدت اختيارها من الكلمات الرديئة المؤثرة التي تطفح بها اغانيها . وقال ماتيو :

— تحية يا سيدتي .

فقالت : — آه ! انت هنا ايضاً ؟

وجلسوا . والتفتت لولا الى بوريس ، وكان يبدو انها مرتاحة كل الارتياح .

— يظهر انهم طاردوا اليتور ؟

— انهم يتكلمون عنها .

— لقد جاءت تبكي في غرفتي . وكان سارونيان غاضباً ، فهذه هي المرة الثالثة منذ ثمانية ايام .

وسأل بوريس في قلق : — انه لن يسرّحها ؟

— كان راغباً في ذلك : فليس بينهما تعاقد . فقلت له : اذا ذهبت، ذهبتُ معها .

— وماذا قال ؟

— ان بوسعها ان تبقى اسبوعاً آخر .

وأجالت نظرها في القاعة وقالت بصوت مرتفع :

— ان الجمهور قذر ، هذا المساء .

قال بوريس : — عجباً ! ليس هذا رأيي !

وكانت جارة ايفيش التي كانت تلتهم لولا بعينيها في وقاحة قد ارتعشت . وأخذت ماتيو رغبة في الضحك ، وكان يجد لولا قريبة جداً الى القلب . وقالت لولا :

— ذلك انك غير معتاد . حين دخلت رأيت فوراً انهم ارتكبوا عملاً رديئاً ، فقد كان مظهرهم سيئاً . (واضافت) هل تعلم ؟ اذا فقدت الفتاة مكانها ، لم يبق لها الا ان تكون فتاه رصيف .

ورفعت ايفيش رأسها فجأة ، وكان الشرود بادياً عليها ، فقالت في عنف :

— لا يهمني ان تكون فتاة رصيف ، ان ذلك يناسبها اكثر من الرقص .

وكانت تجهد في ان يظل رأسها مستقيماً وعيناها الورديتان الحائلتان مفتوحتين . وفقدت شيئاً من اطمئنانها ، فأضافت في لهجة مصالحة عاجلة :

— طبعاً ، انني ادرك ان عليها ان تكسب قوتها .

فلم يجب احد : فتألم ماتيو من اجلها : لقد كان شاقاً عليها ان تُبقي رأسها مستقيماً . وكانت لولا تنظر اليها في سكينة ، كما لو انها كانت تفكر : « طفلة ثري . » وضحكت ايفيش ضحكة صغيرة وقالت بلهجة خبيثة :

— لست بحاجة الى الرقص .

وانكسرت ضحكتها وهوى رأسها . وقال بوريس في هدوء :

— ما اشد ما تقاوم !

وكانت لولا تتأمل رأس ايفيش في فضول . وبعد لحظة ، مدّت يدها الصغيرة السمينة ، فتناولت شعر ايفيش في قبضتها ورفعت لها رأسها ، وكان يبدو عليها مظهر الممرضة :

— ماذا دهاك ياصغيرتي ؟ هل افرطت في الشرب ؟

وكانت تزيح خصلات ايفيش الشقراء ، كأنها تزيح ستاراً ، كاشفة عن خدين ممتقعين بارزين . وفتحت ايفيش عينين محتضرتين ، وتركت رأسها يهوي الى خلف . وفكر ماتيو من غير انفعال : «سوف تقيء .» وكانت لولا تشد شعر ايفيش شدّات صغيرة .

— افتحي عينيك ، افتحي عينيك ! هل تريدين ان تنظري اليّ ؟

فانفتحت عينا ايفيش على سعتهما ، وكانتا تلتمعان بالكراهية ، وقالت

بصوت واضح مثلّج :
ـ حسناً ! هأنذا انظر اليك !
قالت لولا : ـ عجباً ! لست ثملة الى الحد الذي ظننت ! X
وتركت شعر ايفيش : فرفعت ايفيش يديها بحيوية وردّت خصلاتها على خديها ، وكانت تبدو وكأنها تسوّي قناعاً ، والواقع ان وجهها المثلث عاد فظهر تحت اصابعها ، ولكن بقي حول فمها وفي عينيها شيء ما لزج ومنهوك . وظلت لحظة بلا حراك ، تشبه السائر في النوم ، بينما كانت الجوقة تعزف رقصة « سلو » . وسألت لولا :
ـ هل تدعوني للرقص ؟
فنهض بوريس وأخذا يرقصان . وتابعهما ماتيو بنظره ، ولم يكن راغباً في الكلام . وقالت ايفيش بلهجة غامضة :
ـ ان هذه المرأة توبخني .
ـ لولا ؟
ـ كلا . جارتي . انها توبخني .
فلم يجب ماتيو . واستتلت ايفيش :
ـ كنت اود كثيراً ان اتسلّى هذا المساء ... وهكذا ! انني اكره الشمبانيا .
« لا بد انها تكرهني ايضاً ، لأني انا الذى حملتها على شربها . »
وأدهشه ان يراها تتناول الزجاجة من الدلو وتملأ قدحها ، فسألها :
ـ ماذا تفعلين ؟
ـ اعتقد انني لم اشرب قدراً كافيا منها . هناك درجة يجب بلوغها ، وبعدها يكون المرء في حالة جيدة .
ففكر ماتيو بأنه كان عليه ان يمنعها من الشرب ، ولكنه لم يفعل شيئا . وحملت ايفيش القدح الى شفتيها فارتسمت على وجهها كزازة اشمئزاز وقالت وهي تضع القدح :

ــ كم هو رديء !

ومرّ بوريس ولولا قرب طاولتهما ، وكـــانا يضحكان . وصاحت لولا :

ــ كيف الحال ، ايتها الفتاة الصغيرة ؟

فقالت ايفيش ببسمة ودية : على خير ما يرام الآن .

واخذت قدح الشمبانيا وافرغته دفعة واحدة من غير ان تغادر لولا بعينيها . فبادلتها لولا بسمتها ، وابتعد الراقصان . وكان يبدو عـــلى ايفيش انها مفتونة ، فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

ــ انها تشدّه اليها ، وهذا ... مضحك . فهـي تشبه الغولة .

وقال ماتيو في نفسه : « انها تغار ، ولكن من ايهما ؟ »

كانت نصف سكرى ، وكانت تبتسم بسمة مهووسة وهي منشغلة ببوريس ولولا . وكانت تهتم به كما تهتم بشجرة كرز ، وكان فقط وسيلةً تمكنها من ان تتكلم بصوت مرتفع : فان ابتساماتها ومظاهرها وجميع الكلمات التي تقولها ، انما كانت توجهها لنفسها عبره هو. وفكر ماتيو : « لا بـــد ان ذلك امرٌ لا احتمـــله ، وهو يدعني بارداً تماما . »

وقالت ايفيش فجأة :

ــ لنرقص .

فانتفض ماتيو :

ــ ولكنك لا تحبين ان ترقصي معي .

قالت ايفيش : ــ لا بأس ، انني سكرى .

ونهضت وهي تترنّح ، وكادت تسقط ولكنها امسكت بطرف الطاولة . وأخذها ماتيو بين ذراعيه وحملها ، فدخلا في حمّام بخاري ، فانطبق الجمع عليهما ، مظلماً معطراً . وذات لحظة ابتُلع ماتيـــو ، ولكنه سرعان ما وجد نفسه ، وكان يسير خلف زنجي ، وكان وحيداً ،

اذ كانت ايفيش قد طارت منذ الخطوات الاولى فهو لا يحس بها بعد.

ـ كم انت خفيفة !

واخفض عينيه فرأى اقداماً وفكر : « هناك كثيرون لا يرقصون خيراً مني » وكان يمسك بايفيش بعيدة عنه ، في طرف ذراعه تقريباً، ولم يكن ينظر اليها . وقالت :

ـ انت ترقص بدقة . ولكن الظاهر ان ذلك لا يروق لك .

قال ماتيو : ـ انه يخيفني .

وابتسم : ـ انت مدهشة . كنت منـــذ لحظة لا تزالين تستطيعين السير . وها انت ترقصين الآن كأنك محترفة .

فقالت ايفيش : ـ استطيع ان ارقص وانا سكرى ميتة ، واستطيع ان ارقص طول الوقت ، فهذا لا يُتعبني .

ـ حبذا لو كنت كذلك .

ـ انك لن تستطيع .

ـ اعرف ذلك .

وكانت ايفيش تنظر حولها في عصبية ، وقالت :

ـ انني لا ارى بعدُ الغولة .

ـ لولا ؟ هي الى اليسار خلفك .

قالت : ـ لنذهب نحوهما .

وصدما زوجاً من الراقصين هزيلاً ، فاعتذر منهما الرجل وقذفتهما المرأة بنظرة سوداء ؛ وكانت ايفيش ، ورأسها مستدير الى الخلف ، تسحب ماتيو القهقرى . ولم يرهما بوريس ولا لولا قادمين ؛ وكانت لولا تغمض عينيها ، وكانت جفونها لطختين زرقاوين في وجهها القاسي ؛ وكان بوريس يبتسم وهو ضائع في عزلة ملائكية .

وسألها ماتيو : ـ والآن ؟

ـ لنبق هنا ، فالمكان ارحب .

وكانت ايفيش قد اصبحت ثقيلة تقريباً ، وكانت لا تكاد ترقص وعيناها مسمّرتان على اخيها وعلى لولا . ولم يكن ماتيو يرى بعد الا طرف أُذن بين خصلتين . واقترب بوريس ولولا وهما يستديران على نفسيهما ، وحين اصبحا قريبين جداً ، قرصت ايفيش اخاها فوق مرفقه :

— مرحباً يا « بوسيه » الصغير .

فحملق بوريس بعينيه في دهشة وقال :

— ايه ! لا تهربي يا ايفيش ! لماذا تسميني هكذا ؟

فلم تجب ايفيش ، بل حملت ماتيو على الانفتال وأولت بوريس ظهرها . وكانت لولا قد فتحت عينيها ، فسألها بوريس :

— أتفهمين لماذا تسميني « بوسيه » الصغير ؟

قالت لولا : — اظن اني افهم السبب .

وقال بوريس بضع كلمات اخرى ، ولكن ضجة التصفيق غطّت صوته ؛ وكان الجاز قد صمت ، وكان الزنوج يستعجلون الذهاب ليفسحوا المجال للجوقة الارجنتينية .

وعادت ايفيش وماتيو الى طاولتهما . وقالت ايفيش :

— انني اتسلى بصورة جنونية .

وكانت لولا قد جلست ، فقالت لايفيش :

— انك ترقصين ببراعة كبيرة .

فلم تجب ايفيش ، وكانت تحدّد في لولا نظراً ثقيلاً . وقال بوريس لماتيو :

— لقد كنتَ ظريفاً ، وكنت احسب انك لم تكن ترقص .

— ان اختك هي التي ارادت .

فقال بوريس : — ان من كان قوياً مثلك ينبغي ان يقوم بالرقص البهلواني .

وساد صمت ثقيل . وكانت ايفيش معتصمة بالسكوت ، متوحّدة متطلّبة ، ولم تكن لأحد رغبة في الكلام . وكانت سماء محلية صغيرة قد تكوّنت فوق رؤوسهم ، مستديرة جافّة ، خانقة . وأضيئت اللمبات من جديد . وعند انغام التانغو الاولى ، انحنت ايفيش نحو لولا وقالت بصوت ابح :

– تعالي .

فقالت لولا : – لا اعرف ان اقود .

قالت ايفيش : – انا التي اقود .

وأضافت بلهجة رديئة وهي تكشف عن اسنانها :

– لا تخافي ، فاني اقود كالرجل .

ونهضتا ، فضمت ايفيش اليها لولا في وحشية ودفعتها نحو الحلبة .

وقال بوريس وهو يحشو غليونه :

– انهما ظريفتان .

– نعم .

وكانت لولا خاصة ظريفة : فقد كانت تبدو عليها هيئة فتاة صبية .

وقال بوريس :

– انظر .

وأخرج من جيبه سكيناً ضخماً ذا مقبض عاجيّ ووضعه على الطاولة.

وقال موضحاً :

– انه سكين باسكيّ .

وأخذ ماتيو السكين في ادب وحاول ان يفتحه ، فقال له بوريس :

– لا يُفتح بهذه الطريقة ايها الشقيّ ! انك توشك ان تذبح نفسك!

واستردّ السكين ففتحه ووضعه بالقرب من قدحه وقال :

– انه سكين قاتل . هل ترى هذه اللطخات السمراء ؟ لقد اقسم لي الشخص الذي باعني إياه ان هذا دم .

وصمتا . وكان ماتيو ينظر من بعيـــد الى رأس لولا المأساوي الذي كان ينزلق فوق بحر مظلم . « لم اكن ادري انها كانت طويلة الى هذا الحد . » وصرف عينيه فقرأ على وجه بوريس سروراً ساذجاً انفطر له قلبه . وفكر في ندم : « انه مسرور لأنه معي ، وانا لا اجد قط شيئاً اقوله له . » وقال بوريس :

— انظر الى هذه المرأة التي وصلت ، الى اليمين ، عنـــد الطاولة الثالثة .

— الشقراء ذات المجوهرات ؟

— نعم ، انها مجوهرات مزيفة . هيا . انها تنظر الينا .

فأراق ماتيو نظرة خفيّة نحو فتاة طويلة وجميلة ذات مظهر بارد .

— كيف تجدها ؟

— بين بين

— كان لي معها اتصال يوم الثلاثاء الماضي ، وكانت محشوّة ، وكانت تريد طوال الوقت ان تدعوني للرقص . وبالاضافة الى ذلك ، اهدت اليّ علبة سكائرها الفضية . وقد جنّ جنون لولا . فأعادتها لها مع الخادم .

واضاف باقتضاب :

— كانت من فضة ، وكانت مطعمة بأحجار كريمة .

قال ماتيو : — انها تأكلك بعينيها

— افهم ذلك .

— وماذا ستفعل بها ؟

فقال باحتقار : — لا شيء . انها خليلة احدهم .

فسأله ماتيو عجباً : — يعني ؟ ها انت ذا فجأة متطهّر !

فقال بوريس ضاحكاً : — ليس الامر كذلك . ولـــكن البغايا والراقصات والمغنيات متشابهات في آخر المطاف . فاذا ملكت احداهن

ملكتهنّ جميعاً . (ووضع غليونه وقال بجد) ثم انني انسان طاهر ، ولست مثلك .

قال ماتيو : — هكذا اذن !

فقال بوريس : — سترى ، سترى فسوف ادهشك : سأعيش كالرهبان حتى تنتهي علاقتي بلولا .

وكان يفرك بيديه فيما بينهما بهيئة اغتباط . وقال ماتيو :

— لن تنتهي بمثل هذه السرعة .

— في اول تموز . بمَ تراهن ؟

— بلا شيء . انك تراهن كل شهر بأنك ستقطع علاقتك في الشهر القادم ، ثم تخسر في كل مرة . انت مدين لي قبل الآن بمئة فرنك ، وبزوج من نظارات السباق ، وخمس علب سكاير والسفينة التي رأيناها في شارع السين وهي داخل زجاجة . انك لم تفكر قط في القطيعة ، لأنك احرص على لولا مما ينبغي .

قال بوريس : — انت تؤذيني في صميم قلبي .

فأضاف ماتيو من غير ان يضطرب : — غير ان ذلك اقوى منك. انك لا تستطيع ان تشعر انك ملتزم . ان هذا يثير جنونك .

قال بوريس بلهجة غضب مرح : — آن لك ان تصمت . وبوسعك ان تتأكد من انك لن تحصل على سكايرك وعلى سفينتك !

— اعلم ذلك ، فأنت لا تسدد قط ديونك الشرفيــة : انك شقيّ صغير .

فأجاب بوريس : — وانت ... انت انسان متوسط .

واشرق وجهه : — الا ترى انها اهانة فظيعة ان تقــذف انساناً بقولك : ياسيدي ، انت شخص متوسط .

قال ماتيو : — لا بأس .

— او ان تقول له ، وهذا افضل : — انت يا سيدي إمّعة !

فقال ماتيو : — كلا ، ليس هذا ؛ فانك تضعف به مركزك .

فأقرّه بوريس على فكرته وقال : — انت على حق . انك كريه، لأنك دائماً على حق .

وأشعل غليونه مرة اخرى بعناية ، وقال بلهجة مختلطة مهووسة :

— سأصارحك برأيي : اود ان تكون لي امرأة من النساء المشهورات.

قال ماتيو : — عجباً ، ولماذا ؟

— لست ادري . اعتقد ان ذلك لا بد ان يكون طريفاً ، وانهن لا بد ان تكون لهن تصرفات كثيرة . ثم ان ذلك مثير للغرور ، فمنهن من تذكر اسماؤهن في مجلة « فوغ » وانت تدرك معنى ذلك . تشتري « فوغ » وتنظر الى الصور فترى الكونتيس مدام دوروكامادور مع كلابها الستة ثم تفكر : لقد ضاجعت هذه المرأة مساء امس . لا شك ان ذلك يروعك .

قال ماتيو : — أتلاحظ انها تبتسم لك الآن ؟

— نعم . انها نملة . وانها لو تدري خبيثة ، فهي تريد ان توقع بيني وبين لولا لأنهـا لا تطيقها . (وقال مصمماً) اريد ان اوليها ظهري .

— ومن هو الشخص الذي يجالسها ؟

— زميل . انه يرقص في « الالكازار » . هـو جميل ، اليس كذلك ؟ انظر الى سحنته . انه في حدود الخامسة والثلاثين ، وهو يشبه شخصية « شاروبين » [1]

قال ماتيو : — وماذا في ذلك ؟ ستصبح انت هكذا حين تبلغ الخامسة والثلاثين .

فقال بوريس باقتضاب : — سأكون قد متّ منذ وقت طويل حين

---

(١) بطل من ابطال «زواج الفيغارو» لبورماشيه ، نموذج المراهق الذي يتفتح للحب — المترجم.

ابلغ الخامسة والثلاثين .

- يروقك ان تقول ذلك .

قال بوريس : — انني مسلول .

— اعرف ذلك (كان بوريس ذات يوم قد جرح لثّتيه وهو ينظف اسنانه فبصق دماً) اعرف ذلك . وبعد ؟

قال بوريس : — سيّان لدي ان اكون مسلولاً . كل ما في الامر اني اشمئز من العناية بنفسي . واري ان على الانسان الا يتجاوز الثلاثين ، لأنه يصبح بعد ذلك طرحاً عجوزاً .

ونظر الى ماتيو وأضاف :

— انا لا اعنيك في هذا القول .

قال ماتيو : — نعم . ولكنك على حق ، ان المرء بعد الثلاثين طرح عجوز .

— اود لو أعطي عامين اضافيين ، ثم ابقى طوال حياتي في تلك السن . سيكون ذلك ممتعاً .

فنظر الى ماتيو في ود مدهوش . لقد كان الشباب بالنسبة لبوريس مزيةً قابلة للاستهلاك ومجانيّة . وينبغي ان يُفاد منها بوقاحة ، وكان في الوقت نفسه فضيلة اخلاقية ينبغي للمرء ان يبدو جديراً بها . بل كان اكثر من ذلك ، كان الشباب في نظره تبريراً . وفكر ماتيو « لا بأس، انه يعرف ان يكون شاباً . » ربما كان هو وحده ، بين جميع هؤلاء الناس ، موجوداً هنا حقاً ، في هذا المرقص، على كرسيه. « ليس الامر سخيفاً الى هذا الحد : ان يعيش المرء شبابه بعمق ثم ينفجر في الثلاثين. مهما يكن من امر ، فان المرء بعد الثلاثين ميت . »

قال بوريس : — يبدو عليك انك متضايق جداً .

فانتفض ماتيو : لقد كان بوريس محمراً من فرط الاضطراب ، ولكن كان ينظر الى ماتيو في رغبة بالمساعدة قلقة . وسأله ماتيو :

– هل يُرى ذلك عليّ ؟
– وكيف ! انه يُرى جيداً جداً .
– انني في ضيق مادي .
فقال بوريس بقسوة : – انك تسيء الدفاع عن نفسك . لو كنت اتقاضى مثل راتبك لما احتجت الى الاستدانة . هـل تريد المئة الفرنك التي استدنتها من صاحب الحانة ؟
– شكراً . اني بحاجة الى خمسة آلاف فرنك .
فصفر بوريس صفرة مسموعة وقال :
– اوه ، معذرة ! هل سيقدمها لك صديقك دانيال ؟
– انه لا يستطيع .
– وأخوك ؟
– لا يريد .
فقال بوريس حزيناً : – اوه ! طز ... (واضاف بارتباك) اذا كنت تريد ...
– اذا كنت اريد ماذا ؟
– لا شيء . كنت افكر : شيء مزعج . ان لولا تملك محفظة محشوة ، وهي لا تفعل بها شيئاً .
– اريد ان استدين من لولا .
– ولكني ما دمت اقسم لك انها لا تفعل بها شيئاً . لو كان الامر بحسابها في المصرف لما قلت ذلك : انها تشتري اسهماً ، وتضارب في البورصة ، فلنقل انها بحاجة الى مالها . ولكنها تحتفظ في بيتهـا بسبعة آلاف فرنك منذ اربعة اشهر ، وهي لم تمسّ منها فلساً ، بل هي لم تجد الوقت لإيداعها في البنك . اكرر لك انها قابعة في جوف محفظة .
فقال ماتيو منزعجاً :
– انك لا تفهم . لا اريد ان استدين من لولا لأنها لا تطيقني .

فأخذ بوريس يضحك وقال :

ـ هذا صحيح . انها لا تطيقك .

ـ اترى اذن .

قال بوريس : ـ غير ان ذلك مزعج . انك متضايق جداً بسبب خمسة آلاف فرنك ، حتى اذا كانت في متناول يدك عدلت عن اخذها. واذا طلبتها لحسابي انا ؟

قال ماتيو بحيوية : ـ كلا ، كلا ، لا تفعل شيئاً ، فلا بد ان تعرف الحقيقة يوماً . (وأضاف بإلحاح) أتعدني حقاً ؟ سوف يزعجني ان تطلب منها .

فلم يجب بوريس . وكان قد تناول سكّينه بين اصبعيه ورفعه على مهل الى مستوى جبينه ، موجهاً رأسه الى اسفل . واستشعر ماتيــو الضيق وفكر : « انه دنيء . انه لا يحق لي ان اتلبس صورة الرجل الشريف على حساب مارسيل . » والتفت الى بوريس ، وكان يريد ان يقول له : « هيا ، اطلب المال من لولا . » ولكنه لم يستطع ان ينتزع كلمة واحدة ، ونفر الدم الى خديه . وباعد بوريس اصابعه فسقط السكين ، وانغرزت الشفرة في الارض الخشبية وأخذ مقبضها يهتز . وعادت ايفيش ولولا الى مكانهما . ولمّ بوريس السكين ووضعها على الطاولة ثانية .

وسألت لولا : ـ ما هذا الشيء الفظيع ؟

قال بوريس : ـ انه سكين قائد . وقد جلبته لأجعلك تمشين في استقامة .

ـ انك مسخٌ صغير .

وكانت الجوقة قد بدأت تانغو آخر . ونظر بوريس الى لولا نظرة غامضة وقال بين اسنانه :

ـ تعالي نرقص .

قالت لولا : — ستميتونني جميعاً .
وكان وجهها قد اشرق ، وأضافت ببسمة سعيدة :
— انك لطيف .
ونهض بوريس ، وفكر ماتيو : « سيطلب منها المال مع ذلك » وكان مسحوقاً بالخجل ، ولكنه كان يشعر بارتياح جبان . وجلست ايفيش الى قربه ، وقالت بصوت ابح :
— انها عظيمة .
— نعم . انها جميلة .
— اوه ... ثم هذا الجسم ! كم هو مؤثر ذلك الوجه الحرب على هذا الجسد المتفتح . لقد كنت اشعر بالزمن يمضي ، وأحس بأنها سوف تذبل بين ذراعيّ .
وكان ماتيو يتابع بعينيه بوريس ولولا . ان بوريس لم يبدأ الموضوع بعد ، كان يبدو وكأنه يمازح لولا ، وكانت هي تبتسم له . وقال ماتيو بشرود :
— انها قريبة الى القلب .
فقال بلهجة جافة : — قريبة الى القلب ؟ اوه ، كلا ، انها انثى قذرة .
واضاف في فخر : — لقد كنت اخيفها .
قال ماتيو : — لقد رأيت .
وكان يشبك ساقيه ثم يفكهما . وسألها :
— هل تريدين ان ترقصي ؟
قالت ايفيش : — لا. اريد ان اشرب (وملأت قدحها الى منتصفه وأضافت موضحة) من الخير ان يشرب المرء حين يرقص، لأن الرقص يمنع السكر والخمر يجعلك صامداً .
وأضافت بلهجة متوترة :

ـ عجيب كم انا مسرورة !

وفكر ماتيو : « هذا هو . انه يحدّثها » وكان بوريس قد اتخذ لهجة الجد ، وكان يتكلم من غير ان ينظر الى لولا . ولم تكن لولا تقول شيئاً . وذات لحظة حجب كتفا زنجي عملاق رأس لولا عنه، ثم ظهرت ثانية في هيئة غامضة ، ثم كفّت الموسيقى ، وانفرج الجمـع فخرج منه بوريس متغطرساً مستاء . وكانت لولا تتبعه عن كثب . ولم يكن يبدو عليها السرور . وانحنى بوريس على ايفيش وقال بسرعة :

ـ أدّي لي هذه الخدمة : ادعيها للرقص .

فنهضت ايفيش من غير ان تظهر دهشة وهرعت للقاء لولا . وقالت لولا :

ـ اوه ، كلا ، يا صغيرتي ايفيش ، انني متعبة جداً .

وتشاورتا لحظة ، ثم اقتادتها ايفيش . وسأل ماتيو :

ـ ألا تريد ؟

ـ كلا . وستدفع ثمن ذلك غالياً .

وكان ممتقعاً ، وكانت هيئته الحاقدة المسترخية تكسبه شبهاً بأخته . وكان ذلك شبهاً يثير القلق والاستياء . وقال ماتيو خائفاً :

ـ لا ترتكب اية حماقة .

وسأله بوريس : ـ انك عاتب عليّ ، اليس كذلك ؟ لقد منعتني من ان احدثها ...

ـ سوف اكون قذراً اذا كنت عاتباً عليك : فأنت تعلم اني تركتك تحدثها ... ولماذا رفضتْ ؟

قال بوريس وهو يهز كتفيه :

ـ لا ادري ، فقد بدت بهيئة قذرة . وقالت انها كانت بحاجة الى مالها . هكذا اذن ! (قال بلهجة اندهاش) للمرة الاولى اطلب منها شيئا ... لقد اضاعت رشدها ! يجب ان تدفع الثمن ، امرأة في مثل

سنّها ، حين تريد ان تحصل على شخص مثلي !

ــ وكيف صورت لها الامر ؟

ــ قلت لها ان المال من اجل صديق يريد ان يشتري مرأباً . وقلت لها اسمه : بيكار . وهي تعرفه . وصحيح انه يريد ان يشتري مرأباً .

ــ لا بد انها لم تصدقك .

قال بوريس : ــ لا ادري ، ولكن الذي ادريه انها ستدفع ثمن ذلك على التو .

فصاح به ماتيو : ــ احتفظ بهدوئك .

فقال بوريس بلهجة عدائية : ــ اوه ... حسناً ! هذا من شأني .

ومضى ينحني امام الشقراء الطويلة التي تورّدت قليلا ثم نهضت . وحين اخذا يرقصان مرت لولا وايفيش بالقرب من ماتيو . وكانت الشقراء تتصنّع المرح على وجهها ، ولكن بسمتها كانت تخفي الحذر . وكانت لولا تحتفظ بهدوئها ، وتتقدم بعظمة فيبتعد الناس لمرورها تعبيراً منهم عن الاحترام . اما ايفيش فكانت تسير القهقرى وعيناها في السماء ، بلا شعور . وتناول ماتيو سكين بوريس من شفرتها وضرب مقبضها بالطاولة ضربات صغيرة جافة . وفكر : « سيسيل الدم » . وكان غير مكترث بذلك على الاطلاق . كان يفكر بمارسيل . وفكر: «مارسيل ، امرأتي . » وانغلق شيء ما عليه ، هادراً . امرأتي ، وستعيش في منزلي . هكذا . وكان هذا طبيعياً ، طبيعياً جداً ، كما لو ان المرء يتنفس ، ويبتلع ريقه . وكان ذلك يلامسه من كل مكان ، إمضِ ، لا تتشنّج ، كن مرناً ، كن طبيعياً . في بيتي . سأراها كل يوم من ايام حياتي . وفكر « كل شيء واضح . ان لي حياة . »

حياة . كان ينظر الى جميع تلك الوجوه المحمرّة ، وهذه الاقمار الحمراء التي كانت تنزلق على وسائد من غيوم : « ان لهم حيوات . جميعاً . لكلٍ حياته . وهي تتمطّى عبر جدران المرقص ، عبر شوارع

باريس ، عبر فرنسا ، وتلتقي متشابكة ، وتتقاطع وتبقى كل منها مع ذلك شخصية خاصة كفرشاة اسنان ، كموسى حلاقة ، وكأشياء الزينة التي لا تُعار . كنت اعرف ذلك . كنت اعرف أنه كان لكل منهم حياته . ولم أكن اعرف انه كانت لي انا ايضاً حياة . كنت افكر : انني لا افعل شيئاً . وسوف افلت منها . والحقيقة اني كنت ألجها . »
ووضع السكين على الطاولة ، واخذ الزجاجة فحناها فوق قدحه : كانت فارغة . وكان باقياً بعض الشمبانيا في قدح ايفيش ، فتناول القدح وشرب .

« لقد تثاءبت ، وقرأت وضاجعت. وكان هذا يترك طابعه وأثره . كانت كل حركة من حركاتي تثير ، خارجاً عنها ، في المستقبل ، انتظاراً صغيراً عنيداً كان ينضج . وهذه الانتظارات هي انا ، وانا الذي انتظر نفسي في المنعطفات وفي ملتقيات الطرق ، وفي قاعة مختارية الدائرة الرابعة عشرة الكبرى ، انا الذي انتظر نفسي هناك ، على اريكة حمراء ، انتظر ان آتي الى هناك ، مرتدياً ثوباً اسود ، مع ياقة مستعارة قاسية ، ان آتي الى هناك لأموت من فرط الحرّ واقول : نعم ، نعم ، اوافق على ان اتخذها زوجة . » وهزّ رأسه بعنف ، ولكن حياته كانت تصمد جيداً حوله . « بهدوء ودفقة ، ووفقاً لاهوائي ولكسلي ، فرزت محارتي . وقد انتهى الآن كل شيء . انني مسوّر من كل مكان ! في الوسط يقوم منزلي وانا في داخله ، وسط ارائكي الجلدية الخضراء ، وفي الخارج يقوم شارع « الغيتيه » ذو الاتجاه الواحد لانني اهبطه دائماً ، وجادة « مين » وباريس كلها مستديرة حولي ، الشمال من امام ، والجنوب من خلف ، والبانتيون الى اليمين ، وبرج ايفل الى اليسار ، وباب غلينيانكور تجاهي ، وفي وسط شارع فيرسينجيتوري ثقب صغير مصقول باللون الوردي ، غرفة مارسيل ، امرأتي ، ومارسيل في داخلها ، عارية ، تنتظرني . ثم حول باريس

كلها ، تقوم فرنسا تخترقها الشوارع ذات الاتجاه الواحد ، ثم بحور مرقشة بالازرق او الاسود ، البحر المتوسط بالازرق ، وبحـــر الشمال بالاسود ، والمانش بلون قهوة مع الحليب ، ثم بلاد ، المانيا ، ايطاليا – اسبانيا بالابيض لانني لم اذهب لاقاتل فيها – ثم مدن مستديرة ، على مسافات محدّدة من غرفتي ، تومبوكتو ، تورنتو ، كازان ، نيجني – نوفغورد ، جامدة كأنهـــا انصاب . واذهب ، وامضي ، واتنزّه ، وأتيه ، ومهما تهت : فهـــذه عطالة جامعيّ ، فأينما ذهبت حملت معي محارتي ، وابقى في غرفتي بالمنزل ، وسط كتبي ، ولا اقترب سنتمتراً واحداً من مراكش او من تومبوكتو . حتى ولو كنت استقل القطار ، او الباخرة ، او الاوتوكار ، لو ذهبت اقضي عطلتي في مراكش ، ولو وصلت فجأة الى مراكش العاصمة ، فاني سأكون باقيـــاً ابداً في غرفتي ، بمنزلي . واذا مضيت اتنـــزه في الساحات والاسواق ، واذا شددت على كتف عربيّ ، لألمس فيه مراكش ... فان هذا العربـي هو الذي سيكوَن في مراكش ، لا انا . اما انا ، فسأظل دائماً جالساً في غرفتي ، هادئاً متأملاً كما اخترت ان اكون ، على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من المراكشي ومن برنسه . وفي غرفتي . الى الابد ، الى الابد عشيق مارسيل القديم ، والآن زوجها الاستاذ ، الى الابد ذلك الذي لم يتعلم الانكليزية ، ولم يدخل الحزب الشيوعي ، والذي لم يكن في اسبانيا ، الى الابد . »

« حياتي » . كانت تحيط به . كانت شيئاً غريباً لا بدء له ولا نهاية ، وليس هو مع ذلك لامحدوداً . كان يتابعها بنظرة من مختارية الى اخرى ، من مختارية الدائرة الثامنة عشرة حيث قضى في اكتوبر ١٩٢٣ مدة المحكمة الادارية ، الى مختارية الدائرة الرابعة عشرة حيث سيتزوج مارسيل في شهر آب او ايلول ٣٨ ؛ كان لها معنى مبهم وحائر كالاشياء الطبيعية ، وتَفَهٌ لزج ، ورائحة غبار وبنفسج .

وفكر : « لقد قضيت حياة درداء ، حياة درداء . لم اعضّ قط . كنت انتظر ، كنت احفظ نفسي لما بعد – وهأني الاحظ انه لم تبق لي اسنان . فما العمل ؟ أأحطّم المحارة . هذا يسيرٌ في القول . ومن جهة اخرى ، ما الذي سوف يبقى ؟ قطعة صغيرة من الصمغ اللزج سوف يزحف في الغبار مخلّفاً وراءه اثراً برّاقاً . »

ورفع عينيه فرأى لولا ، وكان على شفتيها بسمة خبيثة . ورأى ايفيش : كانت ترقص ، ورأسها مرتدٌّ الى الخلف ، ضائعة ، لا عمر لها ولا مستقبل : « ليست لها محارة » كانت ترقص ، وكانت ثملة ، ولم تكن تفكر في ماتيو . على الاطلاق . ليس اكثر مما لو كان غير موجود . وكانت الجوقة قد اخذت تعزف تانغو ارجنتينياً . وكان ماتيو يعرفه جيداً ، هذا التانغو ، انـه « ميو كابالو موريو » ولكنه كان ينظر الى ايفيش . وكان يخيل اليه انه كان يسمـع هـذه النغمة الحزينة القاسية للمرة الاولى . « انها لن تكون لي ابداً ، لن تدخـل ابداً ، لن تدخل ابداً في محارتي » وابتسم ، وكان يُحسّ ألماً صغيراً منعشاً ، وتأمل بحنان هذا الجسم الصغير الغضوب الدقيق الذي رست فيه حريته : « عزيزتي ايفيش ، عزيزتي الحرية » وفجأة اخذ يحلّق فوق جسمه الوسخ ، فوق حياته ، وعيٌ نقيٌّ ، وعيٌ بـلا انا ، بعض هواء حارّ فحسب : كان يحلّق ، وكان نظراً ، ينظر الى البوهيمي المزيّف ، البورجوازي الصغير المتشبّث بأهوائه ، المثقّف الفاشل « الذي ليس هو ثورياً ولا ثائراً » الحالم التجريدي الذي تحيط به حياته الدبقة ، وكان يحكم : « ان هذا الشخص هالك ، انه لم يسرقها . » اما هو ، الوعي ، فلم يكن متضامناً مع احد ، كان يدور في الحبب الدائـر ، مسحوقاً ، ضائعاً ، متأملاً هناك على وجـه ايفيش المرّنة بالموسيقى ، الحزينة ، الزائلة . وعي احمـر ، شكوى صغيرة غامضـة ، ميو كوبالو موريو ، وكان قادراً على كل شيء ، على ان ييأس حقاً من

اجل الاسبانيين ، وعلى ان يقرّر اي شيء . ليت ذلك يدوم هكذا ... ولكن ذلك لا يمكن ان يدوم : كان الوعي ينتفخ وينتفخ ، وكفّت الجوقة ، فانفجر . وألفى ماتيو نفسه وحيداً مع نفسه ، في قعر حياته ، جافاً وقاسياً ، وكفّ عن ان يدين نفسه ، وعن ان يقبل نفسه ، وكل ما هناك انه كان ماتيو : « نشوة اخرى . وبعد ذلك ؟ » وعاد بوريس الى مكانه ، ولم يكن يبدو عليه كثير من الاعتزاز . وقال لماتيو :

— اوه لا ، لا !

فسأله ماتيو : — ماذا هناك ؟

— الشقراء . انها امرأة قذرة .

— ماذا فعلت ؟

— فقطّب بوريس حاجبيه وارتعش من غير ان يجيب . وعادت ايفيش تجلس بالقرب من ماتيو . وكانت وحيدة . واجال ماتيو نظره في القاعة فاكتشف لولا بالقرب من الموسيقيين ، وكانت تتحدث مع سارونيان . وكان يبدو على سارونيان انه دَهِش ، ثم رمى نظرة خفية باتجاه الشقراء الطويلة التي كانت تهزّ المروحة باهمال . وابتسمت له لولا وعبرت القاعة . وحين جلست ، كان يبدو عليها مظهر غريب . ونظر بوريس الى حذائه الأيمن في تصنّع ، وساد صمت ثقيل . وصاحت الشقراء :

— ان هذا مبالغ فيه ، فليس لك الحق ، وانا لن اذهب .

وانتفض ماتيو ، والتفت الجميع . كان سارونيان قد انحنى باكرام مفرط فوق الشقراء كخادم في مطعم يتلقى طلب الزبون . وكان يحدثها بصوت منخفض بلهجة هادئة قاسية . ونهضت الشقراء فجأة وقالت لرفيقها :

— تعال .

فقال سارونيان : — لا ، لا ، انا الذي ادفع .

فدعكت الشقراء ورقة من فئة المئة فرنك ورمتها على الطاولة . وكان رفيقها قد نهض ، وكان ينظر الى الورقة المالية في توبيخ . ثم اخذت الشقراء ذراعه ومضى الاثنان مرتفعي الرأس ، وهما يهزان كشحيهما هزّة واحدة .

واقترب سارونيان من لولا وهو يصفّر فقال في بسمة راضية :

— سيُحرُ الجو حين تعود .

قالت لولا : — شكراً . لم اكن اتوقع ان يكون الامر بهذه السهولة .

وكانت الجوقة الارجنتينية قد غادرت القاعة ، فعاد الزنوج يدخلون بآلاتهم واحداً اثر الآخر . وحدّد بوريس بلولا نظر غضب واعجاب ، ثم التفت فجأة نحو ايفيش وقال :

— تعالي لنرقص .

ونظرت اليهما لولا نظرة ساكنة بينما كانا ينهضان . ولكن وجهها تحلّل فجأة حين ابتعدا . وابتسم لها ماتيو قائلاً :

— انك تفعلين ما تشائين في المرقص .

فقالت بلامبالاة : — انني اجذبهم . ان الاشخاص يأتون الى هنا من اجلي .

وظلت عيناها قلقتين ، واخذت تربّت على الطاولة في عصبية . ولم يعد ماتيو يعرف ما يقول لها . ومن حسن الحظ انها نهضت بعد لحظة وهي تقول : « المعذرة . »

ورآها ماتيو تجتاز القاعة وتختفي . وفكر : « انها ساعة المخدّر » وكان وحيداً . كانت ايفيش وبوريس يرقصان في صفاء يشبه صفاء لحن موسيقي ويكادان لا يقلاّن عنه قسوة . وأدار رأسه ونظر الى قدميه. ومرّ زمن . ولم يكن يفكر بشيء . وانتفض لنوع من الشكوى

المبحوحة . كانت لولا قد عادت ، وكانت عيناها منغلقتين ، وكانت تبتسم . وفكر : « لقد اخذت حسابها . » وفتحت عينيها وجلست دون ان تكف عن الابتسام .

– أكنت تعلم ان بوريس كان بحاجة الى خمسة آلاف فرنك ؟

فقال : – كلا . لم اكن اعرف . كلا . هل هو بحاجة الى خمسة آلاف فرنك ؟

وكانت لولا ما تزال تنظر اليه ، وكانت تهتزّ من خلف الى امام. وكان ماتيو يرى حدقتين كبيرتين خضراوين مع بؤبؤين دقيقين . وقالت لولا :

– لقد رفضت ان اعيره اياها . هو يقول انهـا لبيكار ، وكنت اظنّ انه في هذه الحالة سيتوجه اليك .

فأخذ ماتيو يضحك :

– هو يعرف اني لا املك درهماً قط .

وسألت لولا بلهجة من لا يصدّق :

– اذن لم يكن لديك علم بهذا ؟

– طبعاً ، لا .

قالت : – عجباً ! ان هذا غريب .

وكان يخيَّل لمن يراها انها ستسقط ، بما هي هيكل في الهواء ، كأنه حطام قديم ، او ان فمها سيتمزق ويطلق صرخة رهيبة . وسألته:

– هل أتى الى بيتك منذ حين ؟

– نعم ، حوالى الساعة الثالثة .

– ولم يحدّثك عن شيء ؟

– ما الذي يُدهش في ذلك ؟ ربما التقى ببيكار بعد ظهر اليوم .

– هذا ما قاله لي .

– واذن ؟

فهزت لولا كتفيها :

– ان بيكار يعمل طوال النهار في « ارجانتوي » .

فقال ماتيو بلامبالاة :

– كان بيكار في حاجة الى مال ، ولا بدّ انه مرّ على بوريس في الفندق . فلم يجده ، ثم التقى به وهو يهبط جادة سان ميشال .

فنظرت اليه لولا باستهزاء :

– هل تتصور ان يأتي بيكار ليطلب خمسة آلاف فرنك من بوريس الذي لا يملك الا ثلاثمئة فرنك شهرياً كنفقات جيب ؟

فقال ماتيو مغتاظاً : – اذن لا ادري .

وكانت به رغبة لأن يقول لها : « ان المال لي . » فبهذا سينتهي الامر على الفور . ولكن ذلك لم يكن ممكناً بسبب بوريس . « انهـا ناقمة عليه نقمة رهيبة ، فهو يبدو وكأنه ضالعٌ معي . » وكانت لولا تربت على الطاولة بطرف اظافرها القرمزية ؛ وكانت زاويتا فمها ترتفعان فجأة فترتجفان قليلاً ثم تسترخيان . وكانت ترصد ماتيو في إلحاحٍ قلق، ولكن ماتيو كان يُحسّ ان تحت هذا الغضب المتربّص فراغاً كبيراً معتكراً . وكانت به رغبة للضحك . وادارت لولا عينيها وسألته :

– اليس في الامر ، على الارجح ، امتحان ؟

فردّدت بدهشة : – امتحان ؟

– أتساءل .

– امتحان ؟ اية فكرة غريبة .

– ان ايفيش تقول له دائماً انني بخيلة .

– ومن اخبرك ذلك ؟

فقالت لولا في لهجة انتصار : – ايدهشك ان اعرفه ؟ الحقيقة انه طفل وفيّ . ينبغي الا تتصوّر ان بالامكان ان يحدّثه احد عني بالسوء من غير ان يبلغني ذلك . انني ادرك هذا في كل مناسبة ، مكتفيـــة

بالطريقة التي ينظر اليّ بها . او انه يطرح عليّ اسئلة في لهجة تتقصّد عدم المسّ بالموضوع . يكفي ان اراه آتياً من بعيد . ان هـذا اقوى منه ، فهو يريد ان يكون قلبه صافياً .

ـ واذن ؟

ـ لقد اراد ان يرى ان كنت حقـاً بخيلة ، فاختلق قضية بيكار هذه . الا ان يكون هناك من اوحى له بذلك .

ـ ومن تريدين ان يكون قد اوحى له ؟

ـ لست ادري . ان هناك كثيرين يفكرون بأنني عجوز وانه طفل . يكفي ان ترى وجوه سمكات هذا المرقص حين ترانا معاً .

ـ أتتصورين انه يهتمّ بما يقلنه له ؟

ـ لا ، ولكن هناك من يحسبون انهم يعملون لصالحه حين يملأون رأسه غروراً .

فقال ماتيو : ـ اسمعي ، لا حاجة بك الى لبس القفاز : ان كنت تقصدينني بهذا الكلام ، فانك مخطئة .

قالت اولا ببرودة : ـ آه ! هذا ممكن (وساد صمت ثم سألت فجأة) كيف يتفق ان تحدث هنا مشاكل حين تأتي معه ؟

ـ لا ادري ، ولا افعل شيئاً لهذه الغاية . لم اكن اريد اليوم ان آتي ... وانا اتصور انه يحب كلاً منا بشكل مختلف ، وان اعصابه تثور حين يرانا نحن الاثنين في وقت واحد .

وكانت لولا تنظر امامها باستقامـة نظرة غامضة متوترة . وقالت اخيراً :

ـ اسمع هذا جيداً : انني لا اريد ان يؤخذ مني . انا متأكدة انني لا اسيء اليه . وحين يملّني يستطيع ان يتركني ، وسوف يأتي ذلك عما قريب . ولكني لا اريد ان يأخذه الآخرون مني .

وفكر ماتيو : « انها تكشف بضاعتها . » وكان ذلك طبعاً بتأثير

المخدّر . ولكنْ هناك شيء آخر : كانت لولا تكره ماتيو ، ومع ذلك فان ما تقوله له هذه اللحظة لم تكن تجرؤ على ان تقوله لسواه . لقد كان بينها وبينه ، بالرغم من الكراهية ، نوع من التضامن .

وقال : لا اريد ان آخذه منك .

فقالت لولا بلهجة مغلقة : — لقد كنت اظنّ .

— يجب اذن الا تظنّي ذلك . ان علاقاتك ببوريس لا تعنيني . ولو كانت تعنيني لوجدت ان وضعكما هكذا جيدٌ جداً .

— كنت اقول لنفسي : يظنّ انه مسؤول لانه استاذه .

وصمتت ففهم ،ماتيو انه لم يقنعها . كانت يبدو وكأنها تبحث عن كلماتها. واضافت بمشقة :

— اعرف ... اعرف انني امرأة مسنة .. وانا لم انتظرك لألاحظ ذلك . ولكن من اجل هذا بالذات استطيع ان اساعده (واضافت في تحدّ) هناك اشياء استطيع ان اعلّمها اياها . ثم ما الذي ينبئك باني كبيرة عليه ؟ انه يحبني كما انا ، وهو سعيد معي اذا لم توضع في رأسه جميع هذه الافكار .

وكان ماتيو صامتاً . وصاحت لولا بعنف غير موثوق :

— ولكن لا بدّ انك تعرف انه يحبني . لا بدّ انه ابلغك ذلك ، ما دام يقول لك كل شيء .

قال ماتيو : — اعتقد انه يحبك .

فأدارت لولا نحوه عينيها الثقيلتين :

— لقد رأيت الواناً كثيرة من الرجال ، ولا انكر ذلك ، ولكني اقول لك : ان هذا الطفل هو حظّي الاخير : وبعد هذا ، افعلوا ما شئتم .

ولم يجب ماتيو على الفور . كان ينظر الى بوريس وايفيش اللذين كانا يرقصان ، وكانت به رغبة لان يقول للولا : « لا نتنازع ،فانت

ترين جيداً اننا متشابهان . » ولكن هذا الشبه كان يثير اشمئزازه قليلاً ؛ فقد كان في حب لولا ، بالرغم من عنفه ، وبالرغم من صفاته لشيء ما رخوٌ وشَرِه . ومع ذلك ، فقد قال من طرف شفتيه :

— تقولين هذا لي ... انني اعرفه مثل معرفتك له .

— ولماذا مثل معرفتي له ؟

— اننا متشابهان .

— وماذا يعني هذا ؟

فقال : — انظري الينا ، وانظري اليهما .

فاتخذت لولا مظهر الازدراء وقالت :

— لسنا متشابهين .

وهز ماتيو كتفيه ثم صمتا ، وهما على خلاف . وكان كلاهما ينظر الى بوريس وايفيش . وكان بوريس وايفيش يرقصان ، وكانا قاسيين من غير ان يعرفا ذلك . او ربما كان يعرفانه قليلاً . وكان ماتيو جالساً بالقرب من لولا ، ولم يكونا يرقصان لان الرقص لم يكن يناسب سنهما كثيراً . وفكر : « لا بدّ ان الناس ينظرون الينا كعاشقين . » وسمع لولا تتمتم لنفسها وحدها : « ليتني اتأكد من ان ذلك هو حقاً لبيكار » .

وكان بوريس وايفيش عائدين نحوهما . ونهضت لولا في جهد . وحسب ماتيو انها ستسقط ولكنها تشبثت بالطاولة واخذت نَفَساً طويلاً . وقالت لبوريس :

— تعال ، اريد ان احدّثك .

فبدا الضيق على بوريس :

— الا تستطيعين ان تحدثيني هنا ؟

— لا .

— حسناً . انتظري حتى تستأنف الموسيقى ونرقص .

قالت لولا — لا . انني متعبة . وسوف تأتي الى غرفتي . المعذرة يا صغيرتي ايفيش .

قالت ايفيش بتودّد : انني سكرى .

وقالت لولا : سنعود عما قليل . ثم ان دوري في الغناء وشيك .

وابتعدت لولا فتبعها بوريس على مضض . وتراخت ايفيش على مقعدها ، وهي تقول :

— صحيح اني سكرى . ولقد شعرت بذلك وانا ارقص .

فلم يجب ماتيو . وسألت ايفيش :

— لماذا ذهبا ؟

— سوف يتحادثان . ثم إن لولا قد اخذت مخدّراً . وانت تعلمين ان من يأخذ الجرعة الاولى لا يفكر بعد الا بأخذ الثانية .

وقالت ايفيش حالمة :

أظن اني احبّ ان آخذ مخدّراً .

— طبعاً .

فقالت مغتاظة :

— ولِمَ لا ؟ اذا كان عليّ ان ابقى طوال حياتي في « لاون » ، فيجب ان أشغل نفسي .

وصمت ماتيو فقالت :

— آه فهمت ! انك غاضب عليّ لأني سكرى .

— كلا .

— بلى ، انت توبخني .

— كيف ذلك ؟ ثم انك لست سكرى الى هذا الحدّ .

فقالت ايفيش في سرور :

— انني سكرى الى — ابعد — حد .

وبدأ الناس يذهبون . وكانت الساعة حوالي الثانية صباحاً . وكانت

لولا في غرفتها ، وهي حجرة صغيرة قذرة مفروشة بالمخمل الأحمر ، تتهدد وتبتهل : بوريس ! بوريس ! بوريس ! انك تجنّني ، فيخفض بوريس رأسه خائفاً وعنيداً . وكان ثوب طويل اسود يتطاير بين الجدران الحمراء ، فينعكس بريقه الاسود في المرآة مع انبثاق الذراعين الجميلتين البضاوين اللتين كانتا تتلويان في تأثير بالغ . ثم ان لولا ستختفي فجأة خلف حاجز ، وهناك ستنشق في استسلام ، ورأسها مرتدٌ كما لو انها تريد وقف نزيف دموي من انفها ، نشقتين من مسحوق ابيض وكان جبين ماتيو يسيل عرقاً ، ولكنه لم يكن يجرؤ على مسحه ، وكان خجلاً من ان يعرق امام ايفيش ؛ لقد رقصت من غير توقّف ، وظلّت ممتقعة الوجه ، ولكنها لم تكن ترشح عرقاً . وكانت قد قالت صباح اليوم نفسه : « انني اشمئز من جميع هذه الايدي اللزجة » ؛ وهو لا يعرف بعد ما يفعل بيديه . وكان يستشعر الضعف والتعب ، ولم تكن به اية رغبة بعد ، ولم يفكر بشيء بعد . وبين لحظة واخرى ، كان يقول ان الشمس لن تلبث طويلاً حتى تشرق ، وان عليه ان يستأنف مساعيه ويخابر مارسيل ، وساره ، ويعيش نهاراً آخر بطوله . وكان هذا يبدو له امراً لا يُصدّق . انه يودّ لو يبقى الى الابد امام هذه الطاولة ، تحت هذه الانوار الاصطناعية . بالقرب من ايفيش . وقالت ايفيش بصوت ثمل :

– انني مسرورة جداً .

ونظر اليها ماتيو : كانت في تلك الحالة من النشوة الفرحة التي كان شيء تافه كافياً لإحالتها الى غضب . وقالت ايفيش :

– طز في الامتحانات ، واذا سقطت فسأكون مسرورة . انني هذا المساء ادفن حياتي كطفلة .

وابتسمت وقالت في حماسة .

– انها تلتمع كلؤلؤة صغيرة !

– مالذي يلتمع كلؤلؤة صغيرة ؟

– هذه اللحظة . انها مستديرة ، معلّقة في الفضاء كلؤلؤة صغيرة. انني خالدة .

وتناولت سكيّن بوريس من مقبضها ، وأسندت صفحة الشفرة على جانب الطاولة واخذت تتسلى بمحاولة طيّها ، ثم سألت فجأة :

– ما بالها ، تلك ؟

– من ؟

–المرأة ذات الثوب الاسود ، الى جـــانبي . انها لم تكفّ منذ مجيئها توبّخني .

وأدار ماتيو رأسه : وكانت ذات الثوب الاسود تنظر الى ايفيش من طرف عينها .

وسألت ايفيش : – الا ترى ؟ اليس صحيحاً .

– اظنّ ان نعم .

ورأى وجه ايفيش الصغير الكزّ وعينيها الغامضتين الحاقدتين وفكر: « كان خيراً لي ان اصمت . » وكانت ذات الثوب الاسود قد فهمت جيداً انهما كان يتحدثان عنها : ذلك انهـــا اتخذت مظهراً متغطرساً، وكان زوجها قد استيقظ فراح ينظر الى ايفيش بعينيه الكبيرتين . وفكر ماتيو « كم يبدو هذا مضجراً !» وكان يستشعر الكسل والجبن ، وكان مستعداً لإعطاء كل شيء ليحول دون حدوث شيء .

وتمتمت ايفيش وهي تخاطب السكّين :

– هذه المرأة تحتقرني لأنها محتشمة . اما انا فلست محتشمة : انني اتسلّى وأتمل ، وسوف أسقط في شهادتي (واضافت فجأة بصوت قوي) اكره الحشمة !

– اسكتي يا ايفيش ، ارجوك .

فنظرت اليه ايفيش نظرة مثلجة وقالت :

– اظنّ انك تكلمني ؟ صحيح . انت ايضاً محتشم . لا تخف : فحين سأقضي عشر سنوات في لاون بين امي وابي ، فسأكون اكثر احتشاماً منك .

وكانت مسترخية على مقعدها ، وكانت تسند بعناد شفرة السكّين على الطاولة وتثنيها بحركة مجنونة . وساد صمت ثقيل ثم التفتت ذات الثوب الاسود الى زوجها وقالت :

– انني لا افهم كيف تجلس هذه الصغيرة في هذا الوضع .

فنظر الزوج بخوف الى كتفي ماتيو وهمهم : « نعم »

واضافت المرأة : – ليس الخطأ كله خطأها ، وانما المذنبون هم الذين ساقوها الى هنا .

وفكر ماتيو : « هكذا ! هذه هي الفضيحة ! » ولا شك في ان ايفيش قد سمعت ، ولكنها لم تقل شيئاً ، وكانت عاقلة . عاقلة اكثر مما ينبغي : كانت تبدو وكأنها ترصد شيئاً ، وكانت قد رفعت رأسها واتخذت مظهراً غريباً مهووساً وجذلا .

وسألها ماتيو في قلق : – ماذا هناك ؟

وكانت ايفيش قد امتقعت تماماً .

– لا شيء . وانما أرتكب عملاً آخر غير محتشم ، لكي أسلّي السيدة . اريد ان ارى كيف تحتمل منظر الدم .

واطلقت جارة ايفيش صرخة خفيفة وخفقت اجفانها . ونظر ماتيو بسرعة الى ايدي ايفيش : كانت تمسك السكّين بيدها اليمنى وتشقّ باطن يدها اليسرى بعناية . وكانت بشرتها قد انفلقت مـا بين ربلة الابهام حتى جذر الاصبع الصغير . وكان الدم يقطر على مهل . وصاح ماتيو :

– ايفيش .. يداك المسكينتان .

وكانت ايفيش تقهقه في غموض ، وسألته :

ـ هل تظنّ انها سوف تدير عينيها ؟
ومدّ ماتيو يده فوق الطاولة فتركته ايفيش يأخذ السكين بلا مقاومة .
وكان ماتيو ضائعاً ، وكان ينظر الى اصابع ايفيش الهزيلة التي كان الدم قد لوّثها ، وكان يفكر بان يدها كانت تؤلمها . وقال :
ـ انت مجنونة ! تعالي معي ، فان سيـــدة المغسلة سوف تضمد جرحك .
وندت عن ايفيش ضحكة خبيثة :
ـ تضمد جرحي ؟ هل انت مدرك لما تقول ؟
فنهض ماتيو : ـ تعالي يا ايفيش ، ارجوك ، تعالي بسرعة .
فقالت ايفيش من غير ان تنهض :
ـ انه شعور لذيذ جداً . لقد كنت اظنّ ان يدي كانت قطعة من الزبدة .
وكانت قد رفعت يدها اليسرى حتى انفها ونظرت اليها بعين فاحصة .
وكان الدم يسيل في كل ناحية ، فكأنه ذهاب نمل وايابه . وقالت :
ـ انه دمي . احبّ كثيراً ان ارى دمي .
قال ماتيو : ـ كفى ، كفى !
وامسك ايفيش من كتفها ، ولكنها تخلصت منه بعنف فسقطت نقطة دم كبيرة على الخوان . وكانت ايفيش تنظر الى ماتيو بعينين تلتمعان كراهية . وسألته :
ـ ما زلت تسمح لنفسك بـان تلمسني ؟ (واضافت في ضحكـــة شامتة) كان عليّ ان اوقن بانك ستجد ذلك مبالغاً فيـــه . انه يثيرك ويغضبك ان يتسلّى المرء بدمه .
وكان ماتيو يشعر بأنه يمتقع من فرط الغضب . فعاد يجلس ، وبسط يده اليسرى على الطاولة وقال بتلذّذ :
ـ مبالغ فيه ؟ يا ايفيش ، بل اني أجده جذّاباً . اظنّ ان ذلك

لعبٌ تمارسه فتيات الطبقة النبيلة ؟

وزرع السكّين دفعةً واحدة في باطن يده ولم يشعر بشيء تقريباً : وحين ترك السكّين ، ظلّت مركوزة في لحمه ، مستقيمة ، ومقبضها في الهواء . وقالت ايفيش مشمئزة :

– آه ! آه ! إنزعها ! إنزعها !

فقال ماتيو وهو يكزّ على اسنانه :

– اترين ؟ ان هذا في متناول جميع الناس .

واستشعر العذوبة والكثافة ، وخشي قليلاً ان يغمى عليه . ولكن كان في داخله نوعٌ من الرضى المصدوم وارادة سرطان رديئة وخبيثة . إنه لم يفعل ضربة السكّين هذه في باطن كفه ازدراء لايفيش فحسب ، بل كان ذلك ايضاً تحدّياً لجاك ، وبرونيه ، ودانيال ، وحياته . وفكر : « انني حمار ، وان برونيه على حق اذ يقول باني طفل عجوز . » ولكنه لم يكن يستطع ان يمنع نفسه من ان يكون مسروراً . وكانت ايفيش تنظر الى يد ماتيو التي كانت تبدو مسمّرة على الطاولة ، والى الدم الذي كان يتدفق من حول الشفرة . ثم نظرت الى ماتيو ، وكانت هيئتها قد تغيرت تماماً . وقالت على مهل :

– لماذا فعلت ذلك ؟

فسألها ماتيو في صلابة : وانتِ ؟

والى يسارهما ، كانت ثمة ضجة مهدِّدة : كان ذلك الرأي العام . وكان ماتيو يسخر منه ، وكان ينظر الى ايفيش . وقالت ايفيش :

– آه انني ... انني آسف جداً .

وتضخمت الضجة ، واخذت ذات الثوب الاسود تنقنق :

– انهما ثملان ، وسيذبح احدهما الآخر ... يجب ان يُمنعا من ذلك . انني لا استطيع ان ارى هذا .

والتفتت بعض الرؤوس ، وهُرع الخادم :

– هل تريد السيدة شيئاً ؟

وكانت ذات الثوب الاسود تضغط منديلاً على فمها ، وأشارت الى ايفيش وماتيو من غير كلمة . ونزع ماتيو بسرعة السكّين من الجرح فأحدث له ذلك ألماً شديداً .

– لقد جرحنا ايدينا بهذا السكين .

وكان الخادم قد رأى غيرهما يفعل ذلك ، فقال من غير ان ينفعل :

– اذا شاء السيد والآنسة ان يتوجها الى المغسلة ، فان السيدة هناك تملك كل ما يلزم .

ونهضت ايفيش هذه المرة بوداعة ، فاجتازا الحلبة وراء الخادم ، وكل منهما يرفع احدى يديه في الهواء ؛ وكان هذا مشهداً هزلياً لم يستطع ماتيو معه ان يمتنع عن الانفجار بالضحك . ونظرت اليه ايفيش نظرة قلقة ثم أخذت تضحك هي ايضاً . وكانت من شدة الضحك بحيث ان يدها قد ارتجفت ، فسقطت نقطتا دمٍ على البلاط .

وقالت ايفيش : – انني اتسلى كثيراً .

وصاحت سيدة المغسلة :

– يا الهي ! يا آنستي المسكينة ، ماذا فعلت بنفسك ؟ والسيد المسكين ؟

فقالت ايفيش : – لقد لعبنا بسكين .

فقالت سيدة المغسلة حانقة : – هكذا ! ان الحادث يقع بسرعة . وهل كان سكّين منزل ؟

– كلا .

– آه ! كنت احدّث نفسي .. (واضافت وهي تفحص جرح ايفيش) ما اعمقه ! ولكن لا تقلقي . سوف اسوّي كل شيء .

وفتحت خزانة فاختفى فيها نصف جسمها . وتبادل ماتيو وايفيش بسمة . وكانت ايفيش تبدو وكأنها صحت من سكرها ، وقالت لماتيو :

– ما كنت اصدّق ان بوسعك ان تفعل هذا .

قال ماتيو : — ترين اذن ان كل شيء لم يضع .

فقالت ايفيش : — لقد بدأ هذا يؤلمني الآن .

قال ماتيو : — وانا كذلك .

وكان سعيداً . وقرأ كلمة « للسيدات » ثم « للسادة » بأحرف من ذهب على بابين ملمّعين بالرمادي المصفرّ ، ونظر الى الارض ذات المربّعات البيضاء ، واستنشق رائحة معطّرة بالأنيسون المطهّر ، فتمدّد قلبه ، وقال باندفاع :

— ليس من الرديء جداً ان يكون المرء سيدة مغسلة !

فقالت ايفيش في تفتّح : — طبعاً لا !

وكانت تنظر اليه في هيئة وحشية رقيقة ، وتردّدت لحظة ، ثم اطبقت فجأة باطن كفّها اليسرى على كفّ ماتيو المجروحة ، فندّ عن ذلك اصطفاقٌ مبلّل . وقالت موضّحة :

— ان هذا اختلاط الدمين .

فشدّ ماتيو على يدها من غير ان يقول كلمة ، واحسّ بألمٍ حيّ ، وكان لديه إحساسٌ بأنّ فماً كان ينفتح في يده . وقالت ايفيش :

— انك تؤلمني كثيراً .

— اعرف ذلك .

وكانت سيدة المغسلة قد خرجت من الخزانة وهي تشعر ببعض عسر هضم . وفتحت علبة حديدية وقالت :

— هذا هو العلاج .

ورأى ماتيو زجاجة من صبغة اليود ، وإبراً ومقصّات ولفافات . فقال :

— انت مجهّزة تجهيزاً جيداً .

فهزّت رأسها في جدّ وقالت :

— آه ! هناك ايام لا مجال فيها للمزاح . امس الاول ، القت امرأة

قدحها على رأس واحدٍ من خيرة زبائننا . وكان هذا السيد يسيل ذمه ويسيل ، فخشيت على عينيه ، وانتزعت من حاجبه شظية كبيرة من الزجاج .

وكانت سيدة المغسلة تشغل نفسها حول ايفيش :

ــ بعض الصبر يا جميلتي ، أن ذلك سيحرقك قليلاً ، انها صبغة اليود ، حسناً ، انتهى .

وسألت ايفيش بصوت منخفض :

ــ هل تصارحني ... اذا بدوت قليلة الرصانة ؟

ــ نعم .

ــ اودّ ان اعلم بمَ كنت تفكر حين كنت ارقص مع لولا .

ــ منذ لحظة ؟

ــ نعم ، حين دعا بوريس الشقراء . كنت وحيداً في ركنك.

قال ماتيو : ــ اظنّ اني كنت افكر بنفسي .

ــ كنت انظر اليك . . لقد كنت ... جميلاً تقريباً . ليتك تستطيع دائماً ان تحتفظ بتلك الهيئة .

ــ ليس بوسع المرء دائماً ان يفكر بنفسه .

وضحكت ايفيش :

ــ اما انا ، فأعتقد اني افكر دائماً بنفسي .

وقالت سيدة المغسلة : ــ اعطني يــدك يا سيدي . انتبه ، سوف يحرقك قليلاً . حسناً ، لن يكون هذا شيئاً ذا بال .

وأحسّ ماتيو بحرقٍ شديد . ولكنه لم يكترث له ، وكان ينظــر الى ايفيش التي كانت تسرّح شعرها بلا حذق امام المرآة ، وهي تمسك خصلاتها بيدها المضمّدة . وردّت شعرها الى خلف فبدا وجهها العريض عارياً . واحسّ ماتيو بأنه يمتلىء برغبة قاسية ويائسة ، وقال :

ــ انك جميلة .

فقالت ايفيش وهي تضحك :

ـ كلا ، انني على العكس بشعة الى حد فظيع . وهذه هي هيئتي الخفيّة .

قال ماتيو : ـ اعتقد انني احبّها اكثر من تلك .

قالت : ـ سأسرّح شعري غداً على هذا النحو .

فلم يجد ماتيو ما يجيب به ، فأحنى رأسه وصمت . وقالت سيدة المغسلة :

ـ انتهى الامر .

ولاحظ ماتيو انه كان لها شارب رماديّ .

ـ شكراً كثيراً يا سيدتي ، انك بارعة كممرضة .

فاحمرّ وجه سيدة المغسلة من السرور وقالت :

ـ اوه ! هذا طبيعي . ان في مهنتنا كثيراً من الاعمال التي تتطلب الدقّة .

ووضع ماتيو عشرة فرنكات في صحن ، وخرجا . وكانا ينظران في رضى الى يديهما الصقعتين المضمدتين . وقالت ايفيش :

ـ كأنّ لي يداً من خشب .

وكان الرقص قد خلا تقريباً . وكانت لولا توشك ان تغني ، وهي واقفة في وسط الحلبة . وكان بوريس جالساً على طاولتها ، وكان ينتظرهما . وكانت ذات الثوب الاسود وزوجها قد اختفيا ، وكان باقياً على طاولتهما قدحان نصف ممتلئين ودزينة من السكاير في علبة مفتوحة .

وقال ماتيو : ـ انه ضلال .

قالت ايفيش : ـ اجل ، لقد ضللت .

ونظر اليها بوريس نظرة جذل :

ـ ماذا ؟ هل ذبح كل منكما نفسه ؟

قالت ايفيش في كزازة : — انه سكّينك القذر .
فقال بوريس وهو ينظر الى يديها نظرة فنّان :
— يبدو أنه يقصّ جيداً .
وسأله ماتيو : — ولولا ؟
فاغتمّ بوريس :
— إن الامر قد ساء كثيراً . لقد نطقتُ بحماقة .
— ماذا ؟
— قلت ان بيكار قد جاءني وقد استقبلته في غرفتي . يبدو انني قلت شيئاً آخر في المرة الاولى ، الشيطان يدري ماذا !
— لقد قلت انه التقى بك في جادة سان ميشال .
قال بوريس : — هكذا اذن !
— وهل غضبت وصاحت ؟
— اوه ! كالخنزير . حسبك ان تنظر اليها .
ونظر ماتيو الى لولا . وكانت لها سحنة جهمة وقاتمة . وقال ماتيو :
— اعذرني .
— ليس لك ان تعتذر : انها غلطتي . ثم ان الامر يُسوّى ، لقد ألفت ذلك . انه يسوّى دائماً في آخر الامر .

وصمتا . وكانت ايفيش تنظر إلى يدها المضمدة نظرة عطف . وكان النعاس والرطوبة والفجر الرمادي قد تسرّبت الى القاعة ، على غير احساس ، وكأن المرقص يبعث برائحة الصباح . وفكر ماتيو : «لؤلؤة، لقد قالت لؤلؤة صغيرة . » وكان سعيداً ، ولم يكن يفكر بعد بأي شيء عن نفسه ، وكان يُحسّ انه جالسٌ في الخارج على مقعد : في الخارج ، خارج المرقص ، خارج حياته . وابتسم : « لقد قالت ذلك ايضاً : انني خالدة »
واخذت لولا تغنّي .

١٢

« في الدوم ، الساعة العاشرة » واستيقظ ماتيو . وهذه الأكمة الصغيرة من الشفّ الأبيض ، على السرير ، كانت يده اليسرى . وكانت تؤلمه ، ولكن جسمه كله كان منتعشاً . « في الدوم الساعة العاشرة . » وكانت قد قالت : « سأكون هناك قبلك ، فلن أستطيع ان اغمض عيني طوال الليل . » وكانت الساعة التاسعة ، وقفز من السرير وفكّر « ستغيّر تسريحتها . »

ودفع المصراعين : كان الشارع خالياً ، وكانت السماء واطئة رمادية، وكان الطقس اقل حرارة من الأمس ، كان صباحاً حقيقياً . وفتح صنبور المغسلة وغطّس رأسه بالماء : انني انا ايضاً من الصباح . وكانت حياته قد سقطت الى قدميه ، في ثنيات ثقيلة ، وكانت ما تزال تحيط به ، وكانت تُربك كعبيه ، ولكنه سيتجاوزها ، وسيخلّفها وراءه كجلد ميت . السرير ، المكتب ، المصباح ، الأريكة الخضراء : انها ليست بعد شريكاته ، وانما كانت اشياء مغفلة من حديد وخشب ، ادوات . وكان قد قضى الليلة في غرفة فندق . وارتدى ثيابه وهبط السلّم وهو يصفر . وقالت البوّابة :

— هناك رسالة مستعجلة لك .

مارسيل ! وأحسّ ماتيو بمذاق مرّ في فمه : كان قد نسي مارسيل

ومدّت له البوّابة مغلّفاً أصفر : كان من دانيال . وقد كتب دانيال يقول :

« عزيزي ماتيو ، لقد بحثت حولي ، ولكني لا استطيع حتماً ان اجمع المبلغ الذي تطلبه . صدقني اني آسف . هل لك ان تمرّ عليّ ظهراً ؟ إن عندي ما احدثك به عن قضيتك . ولك ودّي . »

وفكر ماتيو « حسناً ، سأذهب لرؤيته . إنه لا يريد ان يترك المال ، ولكنه ربما وجد حلاً . »

وكانت الحياة تبدو له هيّنة ، وكان ينبغي ان تكون هيّنة : مهما يكن من امر ، فان ساره ستتكلّف أمر اقناع الطبيب بالانتظار بضعة ايام ؛ وعند الإلحاح يُرسل له المال الى اميركا .

وكانت ايفيش هناك ، في زاوية مظلمة . وقد رأى اولاً يدها المضمدة . وقال في عذوبة :

– ايفيش .

فرفعت عينيها اليه ، وبدا وجهها الكاذب المثلّث ، وطهارتها الصغيرة الرديئة . وكانت خصلاتها تخفي نصف وجهها : لم تكن قد رفعت عينيها كما وعدت . وسألها ماتيو بحزن :

– هل نمتِ قليلاً ؟

– ابداً .

وجلس . ورأت انه كان ينظر الى يديها المضمدتين ، فسحبت يدها بهدوء وأخفتها تحت الطاولة . واقترب الخادم ، وكان يعرف ماتيو جيداً ، فسأله :

– كيف الحال يا سيدي ؟

قال ماتيو : – لا بأس . اعطني فنجان شاي وتفاحتين .

وساد صمتٌ انتهزه ماتيو ليكفّن ذكريات الليل . وحين أحسّ بان قلبه كان خالياً رفع رأسه :

– انك لا تبدين مرتاحة . ايكون السبب ذلك الامتحان ؟

فلم تجب ايفيش الا بانقباض ازدراء ، وصمت ماتيو ، وكان ينظر الى المقاعد الفارغة . وكانت امرأة راكعة تغسل البلاط بماء كثير . وكان « الدوم » يستيقظ رويداً رويداً ، وكان الصباح . لا بدّ من مرور خمس عشرة ساعة قبل ان تستطيع النوم . وأخذت ايفيش تتحدث بصوت منخفض ، وبلهجة برمة ، وقالت :

– الساعة الثانية . والآن هي الساعة التاسعة . انني احسّ الساعات تنهار تحتي .

وعادت تشدّ على خصلاتها شدّاً مهووساً . وكان هذا غير محتمل. وقالت :

– اتعتقد ان هناك من يقبلني ان اكون بائعة ، في مخزن كبير ؟

– لا تفكّري بهذا يا ايفيش ، فانه قاتل .

– وعارضة ازياء ؟

– انك قصيرة بعض الشيء ، ولكن بوسعك ان تجرّبي ...

– سأفعل كل شيء حتى لا ابقى في لاون . سأكون غاسلة اوان (واضافت بلهجة مهمومة مسنّة) في مثل هذه الحالات . الا يضع الناس اعلانات في الصحف ؟

– اسمعي يا ايفيش ، ان امامنا الوقت للتفكير في الموضوع ، وانت لم تسقطي بعد ، على اية حال .

وهزت ايفيش كتفيها فاستطرد ماتيو بحيوية :

– ولكن حتى لو سقطت ، فلن تصبحي ضائعة . فانت تستطيعين مثلاً ان تعودي الى بيتك لمدة شهرين ، وفي هذه الاثناء سأبحث حتى أجد لك شيئاً .

وكان يتكلم بلهجة اقتناع طيبة ، ولكن لم يكن له اي امل : فحتى لو حصل لها على عمل ، فانها لن تلبث اسبوعاً حتى تُطرد منه .

وقالت ايفيش في غضب :
– شهران في لاون .. من الواضح انك تتكلم بلا معرفة . إن هذا.. ان هذا لا يحتمل !
– مهما يكن من امر ، فانك ستقضين هناك العطلة .
– صحيح .. لكن كيف يستقبلونني الآن ؟
وصمتت . ونظر اليها من غير ان يقول كلمة : وكان لهـا وجهها الصباحي المتقع . وكان يبدو ان الليل قـد انزلق عليهـا . وفكر « ليس هناك ما يطبعها » ولم يستطع ان يمتنع عن ان يقول لها :
– انك لم ترفعي شعرك ؟
فقالت ايفيش بجفاء : – انت ترى ان لا .
وقال في شيء من الغيظ : – ولكنك وعدتني بذلك مساء امس .
قالت : – كنت ثملة (ورددت بقوة كما لو كانت تريد ان تخيفه) كنت ثملة تماماً .
– لم يكن يبدو عليك انك كنت ثملة الى هذا الحد حين وعدتني بذلك .
فقالت في نفاد صبر : – طيب ! وماذا في ذلك ؟ ان النـاس مدهشون بوعودهم .
فلم يجب ماتيو . وكان لديه احساس بأن اسئلة عاجلة كانت تُطرح عليه بلا هوادة : كيف السبيل الى ايجاد خمسة آلاف فرنك قبل المساء؟ كيف السبيل الى اعادة ايفيش الى باريس في السنة القادمة ؟ اي موقف يجب ان يتخذه الآن تجـاه مارسيل ؟ ولم يكن لديه الوقت للتفكير ، ولأن يعود الى الأسئلة التي كانت اساس افكاره منذ عشية الامس : من انا ؟ ماذا فعلت بحياتي ؟ واذ كان يلفت رأسه لينفض هذا الهم الجديد ، رأى في البعيد طيف بوريس الطويل المتردد الذي كان يبدو عليه انـه كان يبحث عنهما على السطيحة . وقال منزعجاً :

– هوذا بوريس (ثم سألها وقد اخــذه شك مزعج) أأنت التي قلت له ان يأتي ؟

فقالت ايفيش مندهشة : – كلا . كان عليّ ان القاه ظهراً لأنه.. لأنه كان يقضي الليل مع لولا . فانظر الى هيئته !

وكان بوريس قد رآهما ، فأقبــل عليهما . وكانت عيناه مفتوحتين على سعتهما وثابتتين ، وكان قبيحاً . وكان يبتسم . وصاح ماتيــو : « مرحباً » فرفع بوريس اصبعين نحو صدغيه ليحيي تحيته المــألوفة ، ولكنه لم يستطع ان ينجز حركته . والقى بيــديه الاثنتين على الطاولة وأخذ يتأرجح على عقبيه من غير ان يقــول كلمة . وكان مــا يزال يبتسم . وسألته ايفيش :

– ما بالك ؟! إنك تشبه فرنكشتين !

قال بوريس : – ماتت لولا .

وكان ينظر امامه باستقامة نظرة بلهاء . وبقي ماتيو بضع لحظات من غير ان يفهم ، ثم غمره ذهول مندهش :

– ماذا ؟

وكان ينظر الى بوريس : ولم يكن ينبغي التفكير بسؤاله على الفور فأمسك بذراعه وقسره عــلى الجــلوس بالقرب من ايفيش . وكرر بآلية :

– ماتت لولا .

وأدارت ايفيش الى اخيها عينين منفرجتين . وكانت قد تراجعت قليلاً وهي على المقعد ، كما لو أنها كانت تخاف ان تلمسه ، وسألته :

– هل انتحرت ؟

فلم يجب بوريس ، وأخذت يداه ترتجفان . فرددت ايفيش بعصبية :

– تكلم ! هل قتلت نفسها ؟ هل قتلت نفسها ؟

فاتسعت بسمة بوريس اتساعاً مقلقاً ، وكانت شفتاه ترقصان. وكانت

شفتاه ترقصان . وكانت ايفيش تنظر اليه باحداد وهي لا تني تشد على عضلاتها . وفكر ماتيو في غيظ : « انها لا تفهم . » وقال :

– حسناً . ستخبرنا فيما بعد . لا تتكلم .

فبدأ بوريس يضحك وقال :

– لو كنتما .. لو كنتما ...

فصفعه ماتيو صفعة جافة وصامتة ، من طرف اصابعه . فكفّ بوريس عن الضحك ونظر اليه وهو يرتجف ثم تجمع قليلاً والتزم الهدوء ، فاغر الفم ، بليد الهيئة . وكان الثلاثة صامتين ، وكان الموت بينهم ، مغفلاً مقدساً . ولم يكن ذلك حدثاً ، بل كان وسَطاً ، مادة معجنة كان ماتيو يرى عبرها فنجان الشاي وطاولة المرمر ووجه ايفيش اللئيم . وسأل الخادم :

– وماذا يطلب السيد ؟

وكان قد اقترب وهو ينظر الى بوريس في سخرية . فقال ماتيو :

– اعطه كأس كونياك بسرعة (واضاف بلهجة طبيعية) ان السيد مستعجل .

وابتعد الخادم وما لبث ان عاد يحمل زجاجة وقدحاً : فأحس ماتيو انه رخوٌ ومفرغ ، وشعر آنذاك فقط بمتاعب الليل . وقال لبوريس:

– اشرب .

فشرب بوريس بوداعة . ووضع القدح وقال ، كأنما يحدث نفسه:

– ليس الامر طريفاً !

قالت ايفيش وهي تقترب منه : – يا عزيزي ، يا صغيري العزيز.

وابتسمت له بحنان ، ثم امسكت بشعره وهزت رأسه ، فتنفس بوريس في تأسٍ وقال :

– انت هنا .. ان يديك حارّتان .

قالت ايفيش : – والآن ، إحك لنا . هل انت واثق من انهـا

ماتت ؟

فقال بوريس في مشقة : – لقد تناولت المخدر هذه الليلة ، ولم تكن الامور حسنة بيننا .

فقالت ايفيش بحيوية : – فكان ان سممت نفسها .

قال بوريس : – لا ادري .

وكان ماتيو ينظر الى ايفيش في ذعر : كانت تلاطف يد اخيها في حنان ، ولكن شفتها العليا كانت تنكفىء بصورة غريبة فوق اسنانها الصغيرة . وعاد بوريس يتكلم بصوت اصم . ولم يكن يبدو انه يوجه اليها الحديث :

– لقد صعدنا الى غرفتها ، فتناولت المخدر . وكانت قد تناولته في المرة الاولى في مقصورتها ، حين تنازعنا .

قال ماتيو : – الواقع ان هذه لا بد ان تكون المرة الثانية . وأظن انها قد تناولته بينما كنت ترقص مع ايفيش .

قال بوريس في تعب : – حسناً . اذن ثلاث مرات . ولم يسبق لها ان تناولت هذا القدر من قبل. وقد نمنا من غير ان نتبادل الكلام . وكانت تقفز في السرير ، فلم اكن استطيع النوم . ثم هدأت فجأة ، فنمت .

وأفرغ كأسه واستطرد :

– واستيقظت هذا الصباح لأني كنت اختنق. وكانت ذراعها ممتدة فوقي ، فقلت لها : « انزعي ذراعك ، انك تخنقينني . » فلم تنزعها، فظننت انها تفعل ذلك رغبة في المصالحة . فتناولت ذراعها ، فاذا هي باردة ، وقلت لها : « ما بالك ؟ » فلم تقل شيئاً . وعند ذاك دفعت ذراعها بكل قوتي ، فاوشكت ان تسقط على الارض . وخرجت من السرير فتناولت معصمها وضغطت عليها لأعيدها الى استقامتها . وكانت عيناها مفتوحتين . (واضاف في شيء من الغضب) لقد رأيت عينيها

ولا استطيع ان انساهما .

قالت ايفيش : — يا عزيزي الصغير .

وكان ماتيو يجهد ليشفق على بوريس ، ولكنه لا يوفق الى ذلك . كان بوريس يبرمه اكثر من ايفيش ؛ فكأنه كان عاتباً على لولا أن تموت .

واضاف بوريس بلهجة رتيبة :

— واخذت ثيابي فارتديتها ، ولم ارد ان يجدوني في غرفتها . ولم يروني اخرج . ولم يكن ثمة احد على الصندوق . واستقللت تاكسي وأتيت .

وسألته ايفيش في عذوبة : — هل انت مهموم ؟

وكانت قد انحنت عليه ، من غير تعاطف مبالغ فيه ، وكان يبدو وكأنها تسأله توضيحاً :

— انظر الي ، هل انت مهموم ؟

قال بوريس : — انني ... (ونظر اليها وقال فجأة) انني استفظع ذلك .

ومر الخادم فناداه : — اريد قدحاً آخر من الكونياك .

فسأله الخادم وهو يبتسم : — وهل هو مستعجل كالقدح الاول ؟

فقال ماتيو بجفاء : — هيا ، لبّ الطلب بسرعة .

وكان بوريس يثير اشمئزازه قليلاً ، فانه لم يكن قد بقي له شيء من جماله الجاف الصلب . وكان وجهه الجديد يشبه وجه ايفيش اكثر مما ينبغي . واخذ ماتيو يفكر في جسد لولا متمدداً على سرير في غرفة فندق ، وكان بعض رجال يلبسون القبعات يوشكون ان يدخلوا الغرفة وان ينظروا الى هذا الجسم الضخم في مزيج من الشهوة والهم المهني ، وسيردّون عليه الغطاء ويرفعون قميص النوم بحثاً عن الجروح ، وهم يفكرون بأن مهنة المفتش لا تخلو احياناً من مزايا . وارتعش وقال :

– أهي وحدها هناك ؟

قال بوريس باهتمام : – نعم ، واعتقد انهم سيجدونهـا حوالي الظهر ، اذ ان الخادمة دائماً توقظها في مثل هذه الساعة .

قالت ايفيش : – اي بعد ساعتين .

وكانت قد استعادت هيئة الاخت الـكبيرة ، وكانت تلاطف شعر اخيها بشفقة وانتصار . وتركها بوريس تدلّله ، ثم صاح فجأة :

– يا إلهي !

فانتفضت ايفيش وسألته قلقة :

– ماذا فعلت ؟

قال بوريس : – رسائلي !

– ماذا ؟

– رسائلي . كنت غبياً فتركتها عندها .

ولم يكن ماتيو يفهم :

– رسائل كتبتها لها ؟

– نعم .

– واذن ؟

– سيأتي الطبيب ، وسيعرفون انها ماتت مسمومة بالمخدرات .

– وهل كنت تتكلم في رسائلك عن المخدرات ؟

فقال بوريس في كآبة : – نعم .

وكان لدى ماتيو شعور بان بوريس كان يمثّل ، فسأله :

– وهل تناولت مخـدراً انت ؟ (وكان منزعجاً ان بوريس لم يصارحه بذلك من قبل)

– انني ... لقد حدث لي ذلك . مرة او مرتين ، بداعي الفضول ، ثم اني اتحدث عن شخص يبيع المخدرات ، شخص من « البول – بلانش » كنت قد اشتريت منه كمية للولا . ولا اريد ان يتضرر بسببي .

قالت ايفيش : — انت مجنون يا بوريس ... كيف استطعت ان تكتب هذه الاشياء ؟

فرفع بوريس رأسه : — هل تريدين هذا المغطس ؟

قال ماتيو : — ولكن قد لا يجدونها ؟

— انها اول شيء يجدونه . فاذا فرضنا احسن الفروض ، فسوف أُستدعى كشاهد .

قالت ايفيش : — اوه ! كم سيغضب الوالد !

— قد يستدعيني الى لاون ويُلصقني في مصرف .

فقالت ايفيش بصوت حزين : — ستكون رفيقاً لي اذن .

ونظر ماتيو اليهما في اشفاق : « هما كذلك اذن! » وكانت ايفيش قد فقدت هيئتها المنتصرة : وكانا ، وهما قابعان احدهما ازاء الآخر ، ممتقعين واهنين ، يشبهان عجوزين . وساد صمت ، ثم لاحظ ماتيو ان بوريس كان ينظر اليه من طرف عينيه ، وكان حول فمه ظلٌ من الخبث ، خبثٌ فقير ضعيف ، وفكر ماتيو منزعجاً « ان هناك مؤامرة . »

وسأله : — تقول ان الخادمة تأتي ظهراً لإيقاظها ؟

— نعم ، انها تدق الباب حتى تفتح لها لولا .

— حسناً ، انها الساعة العاشرة والنصف ، وامامك الوقت لتعود الى هناك بهدوء وتلمّ رسائلك . خذ تاكسي ، بل بوسعك ان تستقل الاوتوبيس .

وأدار بوريس عينيه وقال :

— لا استطيع ان اعود الى هناك .

ففكر ماتيو : « ها نحن قد وصلنا الى المقصود . » وسأله :

— هل هذا مستحيل عليك حقاً ؟

— لا استطيع .

ورأى ماتيو ان ايفيش كانت تنظر اليه ، فسأله :
ــ اين هي رسائلك ؟
ــ في صندوق صغير اسود امام النافذة . وفوق الصندوق محفظة ليس عليك الا ان تدفعها ، وسترى هناك ركاماً من الرسائل ، ورسائلي مربوطة بشريط اصفر .
وانتظر لحظة ثم اضاف بلهجة لامبالاة :
ــ وهناك ايضاً رزم مالية .
رزم مالية . وصفر ماتيو بهدوء ، وكان يفكر : « ان الصبي ليس مجنوناً ، فقد فكر في كل شيء ، حتى في ان يدفع لي . »
ــ وهل الصندوق مقفل بالمفتاح ؟
ــ نعم ، والمفتاح في محفظة لولا ، والمحفظة على الطاولة . ستجد رزمة فيها مفتاح صغير مسطح . وهذا هو .
ــ وما رقم الغرفة ؟
ــ ٢١ ، الطابق الثالث ، الغرفة الثانية الى اليسار .
قال ماتيو : ــ طيب . انني ذاهب اليها .
ونهض ، وكانت ايفيش ما تزال تنظر اليه ، وكان يبدو الارتياح على بوريس . وقد رد شعره الى خلف في رشاقة ، وقال وهو يبتسم :
ــ اذا أوقفت ، فليس لك ان تقول انك ذاهب الى « بوليفار » وهو زنجي مرقص « كامتشاتكا » ، وانا اعرفه . انه يسكن ايضاً في الطابق الثالث .
قال ماتيو : ــ انتظراني هنا .
وكان قد اتخذ بالرغم منه لهجة آمرة ، وأضاف بهدوء :
ــ سأعود بعد ساعة .
قال بوريس : ــ سننتظرك .
ثم اضاف بلهجة اعجاب وعرفان : ــ انك شخص من ذهب .

وخطا ماتيو بضع خطى في جادة مونبارناس ، مسروراً بأن يكون وحيداً . وخلفه ، كان بوريس وايفيش على أهبة ان يتهامسا ، وان يشكّلا من جديد عالمهما الثمين الذي لا يمكن تنشّقه . غير انه لم يكن يكترث لذلك . فقد كانت حوله شظايا هموم الامس : حبّه لإيفيش ، حبل مارسيل ، المال ، ووسط ذلك لطخةٌ عمياء : الموت . وارسل بضع مرات تنهّدة « أف » وهو يمر يديه على جبينه ويفرك خدّيه . وفكر : « مسكينة لولا ، كنت احبّها كثيراً . » ولكن لم يكن له هو ان يأسف عليها : لقد كان هذا الموت ملعوناً لأنه لم يتلقّ ايـة عقوبة ولم يكن له هو ان يعاقبه . لقد سقط ثقيلاً في نفس مستهامة وكان يُحدث فيها دوائر . وعلى هذه النفس الصغيرة وحدها كانت تقع تبعة التفكير بهذا الموت وافتدائه . ليت بوريس أحسّ بوميض من الحزن ... انه في الحقيقة لم يستشعر الاّ الفظاعة . وسوف يبقى موت لولا ابداً على هامش العالم . مُبعداً ابداً عن مكانه الطبيعي ، كأنه عتاب . « لقد ماتت كالكلب » وكانت هذه فكرةٌ لا تُطاق . وصاح ماتيو :

– تاكسي !

وحين استقر به المقام في السيارة ، احسّ انه اصبح اهدأ من ذي قبل . بل هو قد شعر باحساسٍ من الرفعة المطمئنة كما لو انه غفـر لنفسه فجأه ان لا يكون بعد في سنّ ايفيش ، او كما لو انّ الشباب فقد فجأة قيمته . وقال في اعتزاز مرّ : « انهما يتوقفان عليّ . » وكان افضل الاّ يقف التاكسي بالقرب من الفندق .

– الى ملتقى شارعيّ نافارين ومارتير .

وكان ماتيو ينظر الى صفّ البنايات الكبيرة الحزينـة في جادّة راسباي . وردّد : « انهما يتوقّفان عليّ . » وكان يُحس انه صلب بل وكثيف بعد الشيء . ثم اظلم زجاج النوافذ ودلفت السيـارة الى

مدخل شارع « باك » الضيّق . وفجأة ادرك ماتيو ان لولا قد ماتت ، وانه داخلٌ على غرفتها ليرى عينيها مفتوحتين على سعتهـا وجسمها الابيض . وعزم قائلاً : « لن انظر اليها » كانت ميتة . كان وجدانها قد تلاشى ، لا حياتها . كل ما هنالك ان هذه الحياة الخالية قد توقفت بعد ان غادرها الوحش الطريّ الرقيق الذي سكنها طويلاً جداً ، وكانت ترفرف وهي ملأى بصرخات لا اصداء لها ، وبآمال غير مجدية ، وببروق مظلمـة ، وبأشكال وروائح باطلة ، كانت ترفرف على هامش العالم ، بين هلالين ، نهائيةٌ لا تُنسى ، وليست دون المعدن قابليةً للهدم ، ولم يكن ثمة ما يمنـع من ان تكون قد وجدت ، وانها قد بلغت درجة تغيّرها القصوى : ان مستقبلها قـد تخثّر . وفكر ماتيو : « ان حياة انسان ما تُصنع بالمستقبل ، كما تُصنع الاجسام بالفراغ . » وخفض رأسه : وكان يفكر بحياته نفسها . كان المستقبل قد اخترقها حتى الصميم . وكان كل شيء فيه معلّقـاً ، مؤجلاً . ان ابعد ايام طفولته ، اليوم الذي قال فيه : سأكون حراً ، واليوم الذي قال فيه : سأكون كبيراً ، كانت تبدو له حتى اليوم ، بمستقبلها الخاص ، كسماء شخصية صغيرة صريحة فوقها ، وهذا المستقبل انما كان هو : هو كما هو الآن ، متعباً آخذاً في النضج ، وكان لتلك الايام حقوق عليه ، عبْر هذا الزمن الطويل المنصرم ، وكانت تتمسّك بمتطلباتها ،وكان يأخذه غالباً ندم ساحق ، لأن حاضره اللامبالي المشمئز من كل شيء ، انما كان المستقبل القديم لهذه الايام المنصرمة . لقـد كان هو الذي انتظرته عشرين عاماً ، ومنه ، من هذا الانسان المتعب، طلب طفلٌ قاسٍ ان يحقق له آماله ؛ وكان يتوقف عليه ان تظل هذه العهود الطفولية طفولية الى الأبد او ان تصبح الإرهاصات الاولى لقدر . ان ماضيه لم يكن يكفّ عن ان يتعرض لتعديلات الحاضر ، وكان كل يوم يزيد احلام العظمة هذه القديمة خيبـة ، وكان لكل يوم

مستقبل جديد ؛ ومن إنتظار الى إنتظار ، ومن مستقبل الى مستقبل ، كانت حياة ماتيو تتسرب على مهل ... نحو ماذا ؟

نحو لا شيء . وفكر في لولا : لقـــد ماتت ولم تكن حياتها الا انتظاراً ، كحياة ماتيو . وقد وُجدت هناك بكل تأكيد ، في صيف قديم ما ، طفلـــةٌ صغيرة ذات خصلات حمراء ، اقسمت ان تكون مغنّية كبيرة ، وحوالى ١٩٢٣ ايضاً ، مغنية شابة نفد صبرها في انتظار ان تصبح نجمة مشهورة . وحبّها لبوريس ، هـــذا الحب العظيم الذي تكنّه عجوز ، والذي عانت منه كثيراً ، كان معلّقاً منذ اليوم الاول . لقد كان ، حتى الامس ، ينتظر وهو غامض مترنّح وجهة مستقبله ، حتى الامس كانت تفكر انها ستعيش ، وبأن بوريس سيحبّها يوماً ؛ ولم تكن اللحظات الاكثر امتلاء ، والاوفر ثقلاً ، ولم تكن ليالي الحب التي بدت لها اشدّ خلوداً — كل ذلك لم يكن الا انتظارات .

ولم يكن ثمة ما يُنتظر : كان الموت قد ارتدّ الى خلف ، نحو جميع هذه الانتظارات فأوقفها ، فاذا هي جامدة خرساء ، لا معقولة ، ولا هدف لها . لم يكن ثمة ما يُنتظر : ان احداً لن يعرف ابداً اذا كانت لولا ستنجح آخر الامر في حمل بوريس على حبّها ، ولم يكن للقضية معنى . لقد ماتت لولا ، فلم يبق ثمة اية حركة تُعمل ، ولا اية ملاطفة ، ولا ايّ ابتهال ؛ لم يبق ثمة الا انتظاراتُ انتظارات ، الا حياة منفشّة ذات الوان مختلطة ، حياة تسترخي على نفسها . وفكر ماتيو فجأة : « اذا متّ اليوم ، فلن يعرف احدٌ ابـــداً اذا كنت هالكاً او اذا كنت ما ازال احتفظ بفرص لانقاذ نفسي . »

وتوقف التاكسي فهبط ماتيو وقال للسائق : « انتظرني » وعبر الرصيف مواربا ودفع باب الفندق ، ودلف الى ممرّ مظلم مفعم بالعطر . وفوق باب زجاجي ، الى اليسار ، كان ثمة مستطيل منقّش بالمينا : « الاتجاه » ، والقى ماتيو نظرة عبر الزجاج : كانت القاعة تبدو خالية ،

ولم يكن يسمع الا تكتكة ساعة كان زبائن الفندق من مغنيات وراقصين وزنوج جاز يعودون في ساعة متأخرة ، ويستيقظون في ساعة متأخرة : فكان كل شيء ما يزال ينام . وفكر ماتيو : « ينبغي الاّ اصعد بأسرع مما يجب » وكان يشعر بان قلبه يخفق ، وكانت ساقاه رخوتين . وتوقف عند مصطبة الطابق الثالث ونظر فيما حوله . كان المفتاح في الباب « واذا كان ثمة احد ؟ » وأرهف اذنه لحظة ثم طرق ، فلم يجب احد . وفي الطابق الرابع ، شدّ احدهم على مُفرغ الماء ، فسمع ماتيو هديراً متتابعاً اعقبته ضجّة صغيرة مائعة وصافرة . ودفع الباب ودخل .

كانت الغرفة مظلمة ، وكانت ما تزال تحتفظ برائحة النوم الدبقة . وحدّق ماتيو بنظره في الظلام ، وكان مشوقاً لان يقرأ الموت على ملامح لولا ، كما لو ان ذلك كان عاطفة انسانية . وكان السرير قائماً الى اليمين ، في داخل الغرفة . ورأى ماتيو لولا ، بيضاء كلها ، تنظر اليه ، فهمس : « لولا ؟ » فلم تجب لولا . وكان لها وجه معبّر تعبيراً مدهشاً ؛ ولكنه كان ممتنعاً على الفهم ، وكان نهداها عاريين ، وكانت احدى ذراعيها الجميلتين ممتدّة في تصلّب فوق السرير ، وكانت الاخرى غارقة تحت اللحاف . وردّد ماتيو وهو يقترب من السرير : « لولا ! » ولم يكن يستطيع ان ينزع بصره عن ذلك الصدر المعتزّ ، وكانت به رغبةٌ لأن يلمسه . وبقي لحظات عند حافة السرير متردداً قلقاً ، تنسمّ جسمه رغبةٌ حرّيفة ، ثم انفتل وتناول بسرعة محفظة لولا عن الطاولة . وكان المفتاح المسطح في المحفظة : فأخذه ماتيو واتجه الى النافذة . وكان نهارٌ رمادي يتسلّل عبر الأستار ، وكانت الغرفة ملأى بحضور جامد : وركع ماتيو امام الصندوق ؛ وكان الحضور الذي لا يُردّ هناك ، في ظهره ، كأنه نظرة . وادخل المفتاح في القفل ، ورفع الغطاء فأغرق كلتا يديه في الصندوق ، فاندعكت

اوراق تحت اصابعه . وكانت اوراقاً مالية . وكان ثمة عدد وافر منها، اوراق من ذوات الألف فرنك . وتحت ركام من الايصالات والحسابات ، كانت لولا قد اخفت رزمة من الرسائل معقودة بشريط اصفر . ورفع ماتيو الرزمة الى النور وتفحّص الخطّ وقال هامساً : « هذه هي » ثم وضعها في جيبه . ولكنه لم يكن يستطيع ان يذهب ، وظلّ على ركبتيه ، ونظره محدّد في الاوراق المالية . وبعد لحظة ، عيّث بعصبية في هذه الاوراق واختار بعضها من غير ان ينظر اليها . وفكر : « هذه اجرتي » . وكانت خلفه هذه المرأة الطويلة البيضاء ذات الوجه المندهش ، وكان يبدو على الذراعين ان بوسعهما ان تمتدا ابعد ، وعلى الاظافر الحمراء ان تخمش بعد . ونهض يمسح ركبتيه بظاهر يده اليمنى . وكانت يده اليسرى تقبض على رزمة من الاوراق المالية . وفكر : « لقد حُلتّ مشكلتنا » وكان يتأمل الاوراق في تبرّم « لقد حُلتّ مشكلتنا ... » وكان يرهف اذنه بالرغم منه ، وكان يصغي الى جسم لولا الصامت ، وكان يشعر انه مسمّر في مكانه، وتمتم في استسلام : « حسناً ! » وانفرجت اصابعه فسقطت الاوراق المالية مستديرةً في الصندوق . وعاد ماتيو يغلق الغطاء واقفل القفل ثم وضع المفتاح في جيبه وخرج من الغرفة في خطى ذئب .

وبهره النور ، وقال في ذعر « لم آخذ المال . » وظل جامداً ويده على حاجز السلّم ، وكان يفكر : « انني ضعيف ! » كان يفعل ما بوسعه ليرتجف غضباً ، ولكن المرء لا يستطيع ابداً ان يغضب حقاً على نفسه . وفكر فجأة في مارسيل ، وفي العجوز الكريهة ذات اليدين الخانقتين فأخذه خوف حقيقي : « لم يكن ثمة الا حركة تُعمل للحيلولة دون أن تتألم ، ولتجنيبها مشكلة قذرة لا بدّ ان تطبعها. ولم استطع : انني أدقّ مما ينبغي . هيا ايها الصبي الشاطر ! (وفكر وهو ينظر الى يده المعصوبة) ولكنني استطيع بعد هذا ان اطعن يدي

بالسكين لأتظاهـــر بأني المشؤوم الكبير امـــام الاوانس : انني لن ابلغ أبداً ان آخذ نفسي بالجدّ . » سوف تقصد العجوز ، ليس ثمة مخرج آخر وسيكون عليها هي ان تبدو رابطة الجأش ، وان تصارع الضيق والفظاعة ، وفي هذه الاثناء ، سيتمالك نفسه وهو يشرب اقداح الروم في حانة . وفكر مذعوراً : « كـــلا ، لن تذهب . سوف اتزوجها ، ما دمت لا اصلح الا لهذا . » وفكر : « سأتزوجها . » وهو يضغط بشدة يده المجروحة على الحاجز . وخيل اليه انه كان يغرق. وتمتم : « كلا ! كلا ! » وهو يرتدّ برأسه الى خلف ، ثم تنفّس بقوة ، واستدار حول نفسه فعبر الممرّ وعاد الى الغرفة . واستند الى الباب كما فعل في المرة الاولى وحاول ان يعوّد عينيه على الظلام .

ولم يكن واثقاً حتى من انه يستطيع ان يسرق . وخطا بضع خطوات مترددة وتميّز اخيراً وجهَ لولا الرمادي وعينيها المفتوحتين اللتين كانتا تنظران اليه .

وسألت لولا : من هناك ؟

وكان صوتاً ضعيفاً ولكنه شرس . وارتعش ماتيو من الرأس حتى القدمين ، وفكر : « ذلك الأبله ! »

— انا ماتيو .

وساد صمت طويل ثم سألت لولا :

— كم هي الساعة ؟

— الحادية عشرة الا الربع .

قالت : — ان بي صداعاً .

ورفعت غطاءها حتى ذقنها وظلت جامدة ، وعيناهـــا تحدقان في ماتيو . وكان لا يزال يبدو عليها انها ميتة . وسألته :

— اين بوريس ؟ وماذا تفعل هنا ؟

فقال ماتيو موضحاً بسرعة : — لقد كنتِ مريضة.

ـ وماذا حدث لي ؟
ـ كنت متصلّبة مفتوحة العينين . وكان بوريس يحدّثك فلا تجيبين . وقد خاف .
ولم يكن يبدو على لولا انها تسمع . ثم ندّت عنها فجأة ضحكة كريهة سرعان ما خنقتها . وقالت في جهد :
ـ لقد حسب اني متّ ؟
فلم يجب ماتيو .
ـ اليس كذلك ؟ لقد حسب اني متّ ؟
فقال ماتيو متهرباً : ـ لقد خاف .
فنفخت لولا قائلة :ـ أوف .
وعاد الصمت من جديد . وكانت قد اغمضت عينيها ، وكان فكّاها يرتجفان . وكان يبدو انها تبذل جهداً عنيفاً لتستردّ حواسّها . وقالت وما تزال عيناها مغمضتين :
ـ ناولني محفظتي ، فهي على طاولة الليل .
فمدّ لها ماتيو المحفظة ، فأخرجت منها علبة بودرة ونظرت الى مرآتها في نفور ، وقالت :
ـ صحيح اني ابدو بهيئة الميتة .
ووضعت المحفظة على السرير وهي ترسل تنهّدة إرهاق واضافت :
ـ والواقع اني لا اساوي خيراً من ذلك .
ـ هل تشكين شيئاً ؟
ـ اشكو . غير اني اعرف ما هو ، وسوف يزول في النهار .
ـ هل انت بحاجة لشيء ؟ اتريدني ان استقدم الطبيب ؟
ـ لا ، احتفظ بهدوئك . ان بوريس هو الذي ارسلك اذن ؟
ـ نعم . لقد كان يجن .
وسألت لولا وهي تستوي قليلاً : ـ هل هو تحت ؟

– لا .. كنت ... كنت في « الدوم » .. اعني .. انه جاء يبحث عني هناك ، فقفزت الى تاكسي ، وهأنذا .

وسقط رأس لولا من جديد على الوسادة .

– شكراً على كل حال .

واخذت تضحك . ضحكة لاهثة شاقّة .

– على العموم حصل الملاك الصغير على القسمات ، وقد افرنقع من غير ان يسأل عن الباقي . ثم انه اوفدك الى هنا لتتأكد من اني قد متّ حقاً .

قال ماتيو : – لولا !

فقالت لولا : – حسناً . لا حاجة الى الشعوذات !

وعادت تغمض عينيها فحسب ماتيو انها سيغمى عليها . ولكنها استطردت بجفاف بعد لحظة :

– اتريد ان تدعوه الى ان يطمئن . فأنا لست في خطر ، وانما هي توعكات تأخذني احياناً ... على كل حال سيعرف هو لماذا . انه القلب الذي يرتخي قليلاً . قل له ان يأتي الى هنا فوراً . انني انتظره . وسأبقى هنا حتى المساء .

فقال ماتيو : – حسناً . الست حقاً بحاجة الى ايّ شيء ؟

– كلا ، سأشفى حتى المساء ، وسأذهب لأغنّي هناك .

واضافت :

– انه لم ينتهِ معي بعد .

– اذن ، الى اللقاء .

وتوّجه الى الباب ولكن لولا نادته . وقالت بصوت مبتهل :

– هل تَعِدني بان تحمله على المجيء ؟ لقد ... لقد تخاصمنا قليلاً مساء امس ، فقل له اني لست عاتبةً عليه بعد ، وانه لن يكون ثمة اية قضية . ولكن ليأتِ ! ارجوك ، ليأتِ ! انني لا استطيع ان

احمل فكرة ان يظنّني قد متّ .

وكان ماتيو متأثراً وقال :

– حسناً ، سأرسله لك .

وخرج ؛ وكانت رزمة الرسائل التي كان قد وضعها في جيب سترته الداخلي تثقل على صدره . وفكر ماتيو : « كيف سيستقبل النبأ ! وينبغي ان يعيد له المفتاح ، وسوف يتدبر امره ليضعه من جديد في المحفظة . » وحاول ان يردد بجذل : « لقد كنت متبصراً اذا لم آخذ المال ! » ولكنه لم يكن جذلاً ، فسيّان ان يكون جبنه قد اعقب نتائج مرضية : المهم انه لم يستطع ان يأخذ المال . وفكر . « مهما يكن ، فاني مسرور انها لم تمت . »

وصاح السائق : – هيه ! من هنا ياسيدي !

فالتفت ماتيو شارداً :

– ماذا ؟ آه ، ها انت ؟ (وتذكر السائق) حسناً ! خُذني الى « الدوم » .

وجلس فأقلع التاكسي . . وكان يود ان يطرد فكرة هزيمته المُذلّة. فأخذ رزمة الرسائل وفك عقدتها وأخذ يقرأ . وكانت كلمات صغيرة جافّة كتبها بوريس من « لاون » في اثناء عطلة الفصح ؛ وكان الحديث يجري فيها احياناً عن الكوكايين ، ولكن بعبارات بلغ من تسترها ان ماتيو قال في نفسه مندهشاً : « لم اكن اعلم انه كان حذراً.» وكانت جميع الرسائل تبدأ بعبارة « حبيبتي لولا » ثم كانت مختصرات مقتضبة عن ايام بوريس . « اني اسبح . لقد تخاصمت مع ابي . تعرفت الى مصارع قديم سيعلمني المصارعة الحرة . دخّنت سيكارة « هنري كلاي » حتى آخرها من غير ان اسقط رمادها . » وكان بوريس ينهي رسائله كلها بهذه الكلمات : « احبك حباً قوياً وأقبلك– بوريس . » وتخيل ماتيو بغير مشقة الظروف التي كانت تقرأ فيها هذه

الرسائل ، وخيبتها المتوقعة دائماً ، والجديدة دائماً مع ذلك ، والجهد الذي كان عليها ان تبذله كل مرة لتقول في اندفاع : « انه في صميمه يحبني ، وكل ما هنالك انه لا يعرف ان يقول ذلك . » وفكر : « ومع ذلك فقد احتفظت بهذه الرسائل . » وعاد يعقد الرسائل ويضع الرزمة في جيبه : « ينبغي ان يتدبر بوريس الامر باعادتها الى الصندوق من غير ان تراه . » وحين توقف التاكسي ، كان يخيل لماتيو انه كان حليف لولا الطبيعي . ولكنه لم يكن يستطيع ان يفكر فيها الا على النحو الذي يفكر فيه بالماضي . وحين دلف الى « الدوم » كان لديه احساس بأنه قادم ليدافع عن ذكرى امرأة ميتة .

وكان يخيل للمرء ان بوريس لم يأت حركة واحدة منذ ذهاب ماتيو . كان جالساً في ركن ، مقوس الكتفين ، فاغر الفم ، مقروص المنخرين . وكانت ايفيش تهمس في اذنيه بحيوية ، ولكنها صمتت حين رأت ماتيو داخلاً . واقترب ماتيو ورمى رزمة الرسائل على الطاولة وقال :

– هذه هي .

فتناول بوريس الرسائل وأخفاها بسرعة في جيبه . وكان ماتيو ينظر اليه بلا ود وسأله بوريس :

– هل كان الامر اصعب مما ينبغي ؟

– لم يكن صعباً على الاطلاق ولكن اسمع : ان لولا لم تمت .

فرفع بوريس عينيه نحوه ، وكان يبدو عليه انه لم يفهم ، فردد ببلادة :

– لم تمت لولا .

وزاد استرخاؤه ، وكان يبدو مسحوقاً ، وفكر ماتيو : « عجباً ! لقد ابتدأ يألف فكرة موتها . »

وكانت ايفيش تنظر الى ماتيو بعينين ينبعث منهما الشرر ، وقالت :

ـ لقد قررت ذلك . مم كانت تشكو ؟

فأجاب ماتيو بتصلب : ـ مجرد اغماء .

وصمتوا . وكان بوريس وايفيش يأخذان وقتهما ليهضما النبأ . وفكر ماتيو : « انها مهزلة . » ورفع بوريس رأسه اخيراً وكانت له عينان زجاجيتان ، فسأله :

ـ وهي ... هي التي اعطتك الرسائل ؟

ـ كلا ، كانت ما تزال غائبة الحس حين اخذتها .

فشرب بوريس جرعة كونياك ثم وضع القدح على الطاولة ، وقال كأنما يحدث نفسه :

ـ هكذا اذن !

ـ هي تقول ان هذا يحدث لها احياناً حين تتناول المخدر . وقالت لي انك لا بد تعرف ذلك .

فلم يجب بوريس وكان يبدو على ايفيش انها تمالكت وعيها فسألته في فضول :

ـ ماذا قالت ؟ لا بد انها اضطربت حين رأتك امام سريرها ؟

ـ لم تضطرب اكثر مما ينبغي . قلت ان بوريس خاف وانه قد أتى يطلب معونتي . وبالطبع ، قلت اني قد جئت لأرى ماذا هناك . (وقال لبوريس) سوف تذكر ذلك طويلا . حاول الآن تتناقض في اقوالك . ثم انك ستتدبر الامر لإعادة الرسائل حيث كانت من غير ان تلاحظ هي ذلك .

وأمر بوريس يده على جبينه وقال :

ـ ان ذلك اقوى مني . فأنا أتمثلها ميتة .

ونفد صبر ماتيو :

ـ انها تريدك ان تذهب لرؤيتها في الحال .

فردد بوريس كأنما يعتذر :

ــ كنت ... كنت اظن أنها ماتت ؛

فقال ماتيو مغتاظاً :

ــ كلا ! انها لم تمت . خذ تاكسي واذهب للقائها .

فلم يتحرك بوريس ، فسأله ماتيو :

ــ أتسمع ؟ انها شقيّة كالصخور ، تلك المرأة الطيبة .

ومد يده ليمسك بذراع بوريس ، ولـكن بوريس تخلص بهزّة عنيفة ، وصاح بصوت شديد لفت اليه نظر امرأة كانت على السطيحة: « كلا ! » ثم اضاف بصوت منخفض في عناد رخوٍ لا يقهر: « لن اذهب » .

قال ماتيو مندهشاً :

ــ ولكن .. لقد انتهت مشاكل الامس : لقد وعدت الا تُثار مرة اخرى :

قال بوريس وهو يهز كتفيه : ــ اوه ! مشاكل الامس ...

ــ واذن ، ماذا ؟

فنظر اليه بوريس نظرة استياء :

ــ انني اشمئز منها !

لأنك ظننت بأنها قد ماتت ؟ اسمع يا بوريس : تمالك نفسك . ان هذه حكاية تهريج . لقد اخطأت ، والآن ، انتهى الامر .

قالت ايفيش في حماسة :

ــ انني ارى ان بوريس على حق .

وأضافت بلهجة كانت تحمل قصداً لم يدركه ماتيو :

ــ انني ... لو كنت مكانه لفعلت مثله .

ــ ولكني أراك لا تفهمين ! انه سيجعلها تقتل نفسها حقاً !

فهزت ايفيش رأسها ، وكانت تبدو بوجهها الصغير الكئيب الحانق . ورماها ماتيو بنظرة كره وفكر : « انها تجعله يركب رأسه » .

قالت ايفيش :

– اذا رجع اليها ، فانما يكون ذلك بدافع الشفقة . وانت لا تستطيع ان تطلب ذلك منه : فليس ثمة ما هو ادعى للاشمئزاز ، حتى بالنسبة اليها .

– ليحاول على الاقل ان يراها . وسوف يرى .

فبدت على وجه ايفيش ملامح نفاد الصبر وقالت :

– هناك اشياء لا تحس بها .

فظل ماتيو مشدوهاً ، وانتهز بوريس الفرصة وقال بصوت مصدوم :

– لا اريد ان اراها ثانية . لقد ماتت ، في نظري .

فصاح ماتيو : – ولكن هذا موقف سخيف !

فنظر اليه بوريس نظرة كئيبة :

– لم اكن اريد ان اقولها لك ، ولكن اذا رأيتها وجب عليّ ان المسها (واضاف بنفور) وهذا ... ما لا اطيقه .

وأحس ماتيو بعجزه . وكان ينظر في تعب الى هذين الوجهين المعاديين ، وقال :

– حسناً ! اذن انتظر قليلاً ... ربما تمّحي هذه الذكرى ... قل لي انك ستراها غداً او بعد غد .

فبدا الانفراج على بوريس وقال بلهجة مزيفة :

– هو كذلك . غداً .

وأوشك ماتيو ان يقول له : « على الاقل تلفن لها بأنك لا تستطيع ان تذهب اليها . » ولكنه امسك ، وفكر : « لن يفعل ذلك . سأتلفن انا نفسي . » ونهض وهو يقول لإيفيش :

– يجب ان اذهب لأرى دانيال . متى ستعلن النتائج ؟ الساعة الثانية ؟

– نعم .

— اتريدين ان اذهب لأراها ؟
— لا ، شكراً . سيذهب بوريس .
— ومتى أراك ؟
— لا ادري .
— ارسلي كلمة عاجلة على التو اذا نجحت .
— نعم .
وابتعد ماتيو وهو يقول :
— لا تنسي . الى اللقاء .
فأجابا معاً :
— الى اللقاء .
وهبط ماتيو الى الطابق الارضي من « الدوم » وفتح دليل التلفون. مسكينة لولا ! ان بوريس سيعود غداً بلا شك الى « سومطرا » . « ولكن هذا اليوم الذي ستقضيه في انتظاره ... انني لا اتمنى ان اكون مكانها ! »
وسأل عاملة التلفون السمينة :
— هل تريدين ان تعطيني « ترودين .. — ٣٥ » ؟
فأجابت : — الغرفتان محجوزتان . يجب ان تنتظر .
وانتظر ماتيو ، وكان يرى من بابين مفتوحين بلاط المغاسل الابيض . مساء امس ، امام « مغاسل » اخرى ... ذكرى غرام طريفة !
واحس بأنه يفيض حقداً على ايفيش . وقال في نفسه : « انهما يخافان الموت . انهما لا يكفيهما ان يكونا نضرين نظيفين ، فان نفسيهما كئيبتان ، لأنهما خائفان . خائفان من الموت ، من المرض ، من الشيخوخة . إنهما يتشبثان بشبابهما كما يتشبث محتضر بالحياة . كم مرة رأيت ايفيش تربت على وجهها امام مرآة : انها ترتجف منذ الآن خشية

التجاعيد . انهما ينفقان وقتهما في اجترار ثيابهما ، ولا يرسمان مشاريع الا لمدى قصير ، كما لو ان ليس امامهما الا خمسة اعوام او ستـــة . وبعد ذلك ... بعد ذلك ، تتحدث ايفيش عن عزمها على الانتحار ، ولكني مطمئن ، فهي لم تجرؤ ابداً : انما هما سيحركان رماداً . لقد تجعّد وجهي ، في آخر المطاف ، ولي جلد تمساح ، وخصلات تتعقد، ولكن لا تزال امامي انا سنوات اعيشها .. لقد بدأت اعتقد اننا نحن الذين كنا شباناً . كنا نريد ان نصبح رجالاً ، وكنـــا مضحكين ، ولكني أتساءل عما اذا كانت الوسيلة الوحيدة لانقاذ الشباب هي ان لا ينساه المرء . » ولكنه ظل على قلق ، وكان يحسهما فوق ، رأساً الى رأس ، متهامسين ضالعين ، وقد كانا مع ذلك ساحرين . وسأل :

– هل جاء دوري ؟

فأجابت المرأة السمينة باستياء :

– لحظة يا سيدي . عندي زبون قد طلب « امستردام » .

وانفتل ماتيو وخطا خطوات : « لم استطع ان آخذ المـــال ! » وكانت امرأة تهبط السلم ، منتعشة خفيفة ، من هاتيك اللواتي يقلن بوجوه فتيات صغيرات : « اريد ان ابول ! » ورأت ماتيو فترددت ثم استعادت مشيتها بخطى واسعة ، ينبعث منها العطر والجذل . ودخلت الى المغاسل . « لم استطع ان آخذ المال : ان حريتي اسطورة. اسطورة – كان برونيه على حق – وحياتي تنبني تحتها في دقة آلية . عدم ، الحلم الفخور الكئيب بألا اكون شيئاً ، بأن اكون دائماً شيئاً آخر غير ما انا . انما انا اتصنع الطفولة مع هذين الصغيرين منذ عام ، حتى لا اكون في سني الحقيقية . عبث : فانني رجل ، شخص كبير ، انه شخص كبير ، سيد ؛ ذلك الذي قبّل ايفيش الصغيرة في تاكسي . وانما انا اكتب في صحف يسارية حتى لا اكون في طبقتي . عبث : فانني بورجوازي ، لم استطع ان آخذ مال لولا ، لقد اخافتني مقدساتهم .

وحتى افلت من حياتي ، اهمس ذات اليمين وذات اليسار ، بعد استئذان مارسيل ، بأني ارفض في عناد ان اقصد المختارية ؛ عبث : فأنا متزوج ، واعيش حياة زواج . » وكان قد تناول الدليل ، وكان يقلب صفحاته في شرود وقرأ : « هوليبيك : مؤلف مسرحي ، الشمال ٧٧ — ٨٠ » وكان يحس بألم في معدته ، وقال : « هكذا . ان ارادتي بأن اكون ما انا ، هي الحرية الوحيدة الباقية لي . حريتي الوحيدة : ارادة الزواج بمارسيل . » وكان متعباً جداً بأن يحس نفسه متأرجحاً بين تيارات متضادة حتى انه استشعر من ذلك بعض العزاء . وضغط على قبضتيه ، ولفظ داخلياً برصانة شخص كبير ، بورجوازي ، سيد ، رب اسرة : « اريد ان اتزوج مارسيل . »

تفه ! كانت كلمات ، وكان اختياراً طفولياً عابثاً . وفكر : « هذا ايضاً ، هذا ايضاً كذب : لست بحاجة الى ارادة لكي اتزوجها ؛ فليس لي الا ان ادعني امضي . » واغلق الدليل ، وكان ينظر مرهقاً الى بقايا كرامته الانسانية . وفجأة خيل اليه انه كان يرى حريته . كانت خارج المتناول ، قاسية جامحة كالجمال : وكانت تأمره بصراحة ان يتخلى عن مارسيل ، . ولم تدم الا لحظة ، هذه الحرية التي لا تُشرح ، والتي كانت تأخذ مظاهر الجريمة ؛ لقد لمحها لمحاً : وكانت تخيفه ، ثم انها كانت بعيدة . وظل مستنداً الى ارادته الانسانية اكثر مما ينبغي ، الى هذه الكلمات الانسانية اكثر مما ينبغي : « سوف اتزوجها . »

قالت عاملة التلفون :

— هذا دورك يا سيدي خذ الغرفه الثانية .

قال ماتيو : — شكراً .

ودخل الغرفة .

— ارفع السماعة يا سيدي .

فرفع ماتيو السماعة بوداعة :

ـ آلو ؟ ترودين ٠٠ ـ ٣٥ ؟ انها مخابرة للسيدة مونتبرو . كلا ، لا تزعجوها . وانما يصعد من يقول لها بعد حين ان المخابرة من السيد بوريس : انه لا يستطيع ان يأتي .

قال الصوت السيد موريس ؟

ـ كلا ، ليس موريس ، وانما بوريس . لا يستطيع ان يأتي . نعم . هكذا . شكراً . الى اللقاء يا سيدتي .

وخرج ، وفكر وهو يحك رأسه : « لا بد ان مارسيـــل تروح الآن وتجيء حائرة ، وعلي ان اتلفن لها ما دمت هنا . » ونظر الى عاملة التلفون نظرة مترددة فسألته :

ـ هل تريد رقماً آخر ؟

ـ نعم . اعطيني « سيغير ٢٥ ـ ٦٤ »

وكان رقم ساره . وقال :

ـ آلو ساره ، انا ماتيو .

فقال صوت ساره الخشن :

ـ آلو صباح الخير . ما الاخبار ؟ هل دبّرت الامر ؟

فقال ماتيو : ـ على الاطلاق . ان الناس لا يعطون المال الا بشق النفس . والحق اني اريد ان اسألك : الا تستطيعين ان تقصدي ذلك الرجل وترجيه ان يمهلني في الدفع حتى آخر الشهر ؟

ـ ولكنه يكون قد سافر ، في آخر الشهر .

ـ سأرسل له المال الى اميركا .

وكانت لحظة صمت قصيرة ، واضافت ساره في غير حماسة :

ـ استطيع ان احاول على اي حال ، ولكن ذلك لن يتم بسهولة . انه عجوز شحيح جداً ، ثم انه يجتاز الآن مرحلة حساسية صهيونية

شديدة ، فهو يكره كل ما ليس يهودياً منذ طردوه من فيينا .

ـ حاولي على اي حال ، اذا كان هذا لا يزعجك .

ـ هذا لا يزعجني على الاطلاق . سأقصده فوراً بعد الفطور .

قال ماتيو : ـ شكراً يا ساره . انت شخص من ذهب .

١٣

قال بوريس : ــ انه غير منصف على الاطلاق .

قالت ايفيش : ــ اجل ، اذا كان يتصوّر انه ادى خدمة للولا !

وضحكت ضحكة قصيرة جافة ، وصمت بوريس راضياً : لم يكن ثمة من يفهمه خيراً من ايفيش . ولفت رأسه الى سلّم المغاسل وفكر في قسوة : « الحق انه قد تجاوز حدوده . ان على المرء الا يحدّث انساناً على النحو الذي حدثني به . انا لست هورتيغير » وكان ينظر الى السلّم ، وكان يأمل ان يبسم لها ماتيو وهو صاعد . وظهر ماتيو مرة اخرى ، وخرج من غير ان يوجّه لها بسمة ، فشقّ ذلك على بوريس .

وقال : ــ انه يبدو فخوراً جداً .

ــ من ؟

ــ ماتيو . لقد خرج اللحظة .

فلم تجب ايفيش بشيء . وكان يبدو عليها مظهر الحياد ، وكانت تنظر الى يدها المعصوبة .

وقال بوريس : ــ انك عاتب عليّ . وهو يجد انني لست اخلاقياً.

قالت ايفيش : ــ نعم ، ولكن هذا سيزول عنه سريعاً . (وهزت كتفيها) انني لا احبه حين يكون اخلاقياً .

فقال بوريس : — اما انا ، فأحبـه . (واضاف بعد تفكير) ولكني اكثر اخلاقية منه .

قالت ايفيش : — بف ! (وتأرجحت قليلاً على المقعد الصغير ، وكانت تبدو ساذجة سمينة الخدّين ، وقالت بلهجة ماجنة) انني انا لا اكترث بالاخلاق . لا اكترث بها . »

واحسّ بوريس بأنه وحيد جـداً . وقد كان يودّ لو يقترب من ايفيش ، ولكن ماتيو كان لا يزال بينهما . وقال :

— انه غير منصف . فهو لم يدع لي الوقت لأشرح موقفي .

فقالت ايفيش بلهجة عادلة :

— هناك اشياء لا يمكن ان تُشرح له .

فلم يحتج بوريس . وكان ذلك بدافع العادة ، ولكنه كان يعتقـد بأن من الممكن شرح كل شيء لماتيو حين يكون هادىء المزاج . وكان يخيل اليه دائماً انهما لم يكونا يتحدثان عن الـ « ماتيو » نفسه : فان « ماتيو » ايفيش كان أتفه .

وضحكت ايفيش ضحكة خفيفة وقالت :

— كم انت عنيد ، ايها البغل الصغير !

فلم يجب بوريس ، وكان يمضغ ما كان لا بدّ ان يقوله لماتيو : بأنه لم يكن وحشاً صغيراً انانياً ، وانه اصيب بهزة عنيفة حين اعتقد بان لولا قد ماتت . بل هو قد استشعر ذات لحظة بأنه سيتألم وان ذلك قد ادهشه . كان يجد الألم لااخلاقياً ، ثم انه لم يكن يطيق حقاً ان يتحمله . واذ ذاك بذل جهداً لنفسه ، بدافع الاخلاق . فسُدّ شيء ما ، وحدث انقطـاع ، وكان لا بدّ من الانتظار لعودة الامر الى نصابه .

ضحكت ايفيش ضحكة صغيرة جرحت بوريس . فأضاف بدافع من عدالة :

ـ لا بدّ انها في هذه اللحظة تتألم .

ـ هذا صحيح .

قال : ـ انا لا اريد ان تتألم .

فقالت ايفيش بصوت مغنٍ : ـ ليس عليك اذن الا ان تذهب فتراها .

ففهم انها كانت تنصب له شركاً واجاب بحيوية :

ـ لن اذهب . انها اولاً ... انني ما زلت أراها ميتة . ثم اني لا اريد ان يتصور ماتيو انه يستطيع ان يعتبرني جاهلاً بليداً .

انها لن تستسلم ، بصدد هذا ، فانـــه لم يكن هورتيغير . وقالت ايفيش في عذوبة :

ـ صحيح بعض الشيء انه يعتبرك جاهلاً بليداً .

وكان هذا لؤماً ، ادركه بوريس من غير غضب : كان قصد ايفيش وجيهاً . فقد كانت تريد ان يقطع علاقته باولا ، وكان هذا من اجل صالحه . وكان الجميع ينظرون الى صالح بوريس . ولكن هذا الصالح كان يتغيّر وفق الاشخاص . واجاب في هدوء :

ـ انني اتظاهر بهذا امامه . وهذه هي خطّتي معه .

ولكنه كان قد أُصيب في صميمه ، وكان غاضباً على ماتيو . وتململ قليلاً على المقعد فنظرت اليه ايفيش نظرة قلقة وقالت :

ـ انك تفكر اكثر مما ينبغي يا عزيزي . ليس عليك ان تتصور الا انها ماتت حقاً .

فقال بوريس : ـ سيكون هذا موافقاً لي ، ولكني لا استطيع . فراق ذلك لإيفيش وقالت :

ـ غريب .. اما انا فأستطيع ، حين اكفّ عن رؤية الناس ، فانهم لا يوجدون بعد .

فتأمل بوريس اخته باعجاب وصمت : انه لم يكن يستشعر مثل هذه

القوة الروحية . وقال بعد لحظة :

– انني اتساءل عما اذا كان قد اخذ المال . سيزيد الطين بلة لو فعل !

– اي مال ؟

– مال لولا . كان بحاجة الى خمسة آلاف فرنك .

– عجباً !

وبدا على ايفيش الاستياء والدهشة . وتساءل بوريس عما اذا لم يكن من الافضل ان يمسك لسانه . صحيح ان العهد كان ان يتصارحا بكل شيء ، ولكن كان بالامكان ، بين الفينة والفينة ، ان يُجرى استثناء على القاعدة . وقال :

– يبدو انك ناقمة على ماتيو .

فزمّت ايفيش شفتيها وقالت :

– انه يثير اعصابي : كان هذا الصباح يعتبرني رجلاً .

قال بوريس : – نعم ...

وكان يتساءل عما كانت ايفيش تعني ، ولكنه لم يُظهر شيئاً من ذلك : كان عليهما ان يتفاهما بالكلام القليل ، والاّ بطل السحر . وحلّ بينهما صمت ، ثم اضافت ايفيش فجأة :

– لنرحل . انني لا استطيع ان اطيق « الدوم » .

قال بوريس : – وانا كذلك .

ونهضا وخرجا . واخذت ايفيش ذراع بوريس . وكانت لدى بوريس رغبة خفيفة وعنيدة بان يقيء . وسألها :

– اتظنين انه سيظلّ غاضباً وقتاً طويلاً ؟

قالت ايفيش نافدة الصبر : – كلا ، كلا .

فقال بوريس في خبث :

– انه غاضب عليك ايضاً .

فأخذت ايفيش تضحك :

– هذا ممكن جداً ، ولكني سآسف لذلك فيما بعد . ان في رأسي هموماً اخرى .

قال بوريس باضطراب : – صحيح ، انك منزعجة .

– جداً .

– بسبب امتحانك ؟

فهزت ايفيش كتفيها ولم تجب . وسارا بضع خطوات صامتين . وكان يتساءل عما اذا كان ذلك حقاً بسبب امتحانها . وكان يتمنى لو كان ذلك كذلك : فان هذا اوفر اخلاقية .

ورفع عينيه ، فرأى ان جادة مونبارناس كانت عظيمة تحت هذا النور الرمادي . ان المرء ليحسب نفسه في تشرين الاول . وكان بوريس يحب كثيراً شهر تشرين الاول . وفكر : « في تشرين الماضي ، لم اكن اعرف لولا . » وفي اللحظة نفسها احسّ بأنه متحرّر : « انها حيّة » وللمرة الاولى ، منذ ترك جثتها في الغرفة المظلمة ، كان يحسّ بانها حيّة ، وكان ذلك بمثابة البعث . وفكر : « ليس من الممكن ان يظلّ ماتيو ناقماً عليّ مدة طويلة ما دامت لم تمت . » وحتى هذه الدقيقة ، كان يعلم انها كانت تتألم ، وانها كانت تنتظره في ضيق ، ولكن ذلك الالم وهذا الضيق كانا يبدوان له غير قابلين للمعالجة وثابتين كألم الذين ماتوا يائسين . ولكن كان هناك خطأ : كانت لولا على قيد الحياة ، وكانت ترتاح في سريرها مفتوحة العينين ، وكان يعمر صدرها غضبٌ صغير حيّ ، كذلك الذي كان يعمره حين كان يصل متأخراً الى الموعد المضروب . غضب لم يكن دون غضب الآخرين احتراماً او اكثر منه . ربما كان اقوى . ولم يكن له ازاءها تلك الواجبات المخيفة التي يفرضها الاموات ، بل واجبات رصينة ، واجبات عائلية على العموم . وهكذا استطاع بوريس ان يبتعث وجه لولا من

غير اشمئزاز او استفظاع . ولم يكن وجه ميتة ، ذلك الذي استجاب للنداء ، وانما كان ذلك الوجه النضر الغاضب الـــذي أدارته نحوه ليلة الامس حين كانت تصرخ به : « لقد كذبت عليّ ، فانت لم تَرَ بيكار : » وفي الوقت نفسه ، استشعر حقداً صلباً ضد هذه الميتــة المزيّفة التي خلقت كل هذه الكوارث . وقال :

ــ لن اعود الى فندقي . فهي جديرة بان تقصده .

ــ اذهب فنم لدى كلود .

ــ نعم .

وخطرت لايفيش فكرة :

ــ عليك ان تكتب لها . سيكون ذلك أنسب .

ــ اكتب للولا ؟ اوه ! كلا .

ــ بلى .

ــ لن اعرف ماذا اقول لها .

ــ سأكتب لك هذه الرسالة ، ايها الابله الصغير .

ــ ولكن ماذا تقولين فيها ؟

فنظرت اليه ايفيش بدهشة :

ــ الا تريد ان تقطع علاقتك بها ؟

ــ لا ادري .

فبدا الانزعاج على ايفيش ، ولكنها لم تلحّ . وكانت لا تلحّ قط ، وكان هذا يناسبها . ولكن مهما كان الامر ، فان على بوريس ان يكون دقيقاً حذراً بين ماتيو وايفيش : اما الآن فان رغبته في فقد لولا لم تكن اشد منها في رؤيتها من جديد . وقال :

ــ سنري . لن يجدي التفكير بذلك الآن .

وكان يُحسّ بالرضى في هذه الجادّة ، وكان للناس وجوه طيبة ، وكان يعرفهم كلهم تقريباً بالنظر ، ثم انه كان ثمة شعاع شمس مرح

يلامس زجاج « حانوت الليلك » وقالت ايفيش :

– انني جائعة . وسوف اتناول الفطور .

ودلفت الى مقهى « دماريا » فانتظرها بوريس في الخارج. واحس انه ضعيف واهن العاطفة كأنه ناقه ، وكان يتساءل عما يمكنه ان يفكر به ليحصل على لذة صغيرة . ووقع اختياره فجأة على « القاموس التاريخي والاشتقاقي للغة العامية » فابتهج . كان القاموس الآن على طاولته الليلية ، ولم يكن يُرى سواه . وفكر باغتباط : « انه قطعة اثاث . لقد كانت ضربة معلم . » ولما كانت السعادة لا تأتي وحدها ، فقد فكر ايضاً بالسكين ، فأخرجه من جيبه وفتحه : « انني محظوظ ! » كان قد اشتراه ليلة امس ، وقد اصبح لهذا السكين تاريخ ، فهو قد شقّ بشرة كائنين هما اعز الكائنات لديه. وفكر : « انه يقطع جيداً » .

ومرت امرأة فنظرت اليه في الخارج . وكانت مرتدية ثياباً غاية في الاناقة . والتفت ليراها من ظهرها . وكانت قد التفتت هي ايضاً ، فتبادلا نظرة ود .

وقالت ايفيش : – هأنذا .

وكانت تحمل تفاحتين كبيرتين من تفاح كندا . وفركت احداهما على مؤخرتها ، حتى اذا اصبحت ملتمعة جداً ، عضتها بينما مدت الأخرى لبوريس : فقال بوريس :

– لا ، شكراً . لست جائعاً . (واضاف) انك تثيرين نفوري .

– لماذا ؟

– انك تفركين تفاحتك على قفاك .

فقالت ايفيش : – ذلك لألمّعها .

قال بوريس : – انظري الى المرأة الذاهبة . لقد احسست نحوها بانجذاب .

وكانت ايفيش تأكل بطريقة ساذجة ، فقالت وفمها ممتلىء :

— وهذه ايضاً ؟

قال بوريس : — ليس من هذه الجهة ، وانما خافك .

فالتفتت ايفيش ورفعت حاجبيها وقالت ببساطة :

— انها جميلة .

— هل رأيت ثيابها ؟ ان حياتي لن تنقضي قبل ان تكون لي امرأة كهذه . امرأة من الوسط الراقي . ولا بد ان ذلك ممتع .

وكانت ايفيش ما تزال تنظر الى المرأة التي كانت تبتعد . وكان في كل يدٍ من يديها تفاحة ، وكان يبدو كأنها تبسطهما لها . وقال بوريس في كرم :

— وحين اتعب منها ، اعطيك اياها .

وعضت ايفيش تفاحتها مرة جديدة وقالت :

— هكذا اذن .

وتناولت ذراعه وجذبته فجأه . وكان على الجانب الأخر من جادة مونبارناس مخزن ياباني. فعبرا الرصيف ووقفا امام المعروضات . وقالت ايفيش .

— انظر الى الاقداح الصغيرة .

قال بوريس : — انه « للساكي »

— وما هذا !

— عصير الارز الياباني .

— سآتي لأشتري بعضها ، واجعلها فناجين شاي .

— انها اصغر مما ينبغي .

— سأملأها عدة مرات بالتالي .

— او انك تستطيعين ان تملئي ستةً دفعة واحدة .

فقالت ايفيش مفتونة .

— نعم . سيكون امامي ستة اقداح مترعة . فأشرب تارة من احدها،

وتارة من الآخر .

وتراجعت قليلاً وقالت بلهجة هوس ، وهي تكز بأسنانها :

– اوه ! اود لو اشتري الحانوت كله .

وكان بوريس ينتقد ذوق اخته في اختيار هذه التحف . ومع ذلك فقد اراد ان يدخل الحانوت ولكن ايفيش امسكته .

– ليس اليوم . تعال .

وعادا يصعدان شارع دانفير – روشرو ، وقالت ايفيش :

– لكي احصل على مثل هذه الاشياء الصغيرة – ما يملأ غرفة كاملة – ربما بعت نفسي لشيخ عجوز !

فقال بوريس بقسوة : – لن تستطيعي ذلك . فهذه مهنة ، وهي تحتاج الى تعلم .

وكانا يسيران ، وكانت هذه لحظة سعادة ؛ وكانت ايفيش قد نسيت ، بالتأكيد ، امتحانها ، اذ كانت تبدو جذلة . في هذه اللحظات ، كان بوريس يحس بأنهما لا يشكّلان بعد الا شخصاً واحداً . وكان في السماء قطع كبيرة زرقاء وسحائب بيضاء تغلي : كانت اوراق الشجر مثقلة بالمطر ، وكان ذلك يبعث رائحة نار الحطب . كما في شارع قرية كبير . وقالت ايفيش وهي تشرع في التهام تفاحتها الثانية :

– احب هذا الطقس . صحيح ان هناك بعض الرطوبة ، ولكنه لا يدبّق . ثم انه لا يؤذي العيون . انني احسّني قادرة على السير عشرين كيلومتراً .

وتذكر بوريس في خفاء انه كان ثمة مقاه مجاورة . وحين تتحدث ايفيش عن قدرتها على السير عشرين كيلومتراً ، فما لا ريب فيه انها ستطلب الجلوس بعد ذلك تواً .

ونظرت الى اسد « بلفور » وقالت في نشوة :

– هذا الاسد يعجبني . انه ساحر .

قال بوريس : – يعني ...

وكان يحترم ذوق اخته حتى ولو لم يكن يقاسمها اياه . والحق ان ماتيو قد كفل ذلك ، فقد قال له يوماً : « ان لأختك ذوقاً رديئاً ، ولكنه افضل من اوثق ذوق : انه ذوق رديء عميق . » ولم يكن ثمة مجال للمناقشة في هذه الظروف . ولكن بوريس كان شخصياً ميّالاً الى الجمال الكلاسيكي . وسألها :

– هل نسيت جادّة « ارغو » ؟

– وايّها هي ؟

– هذه .

فقالت ايفيش : – أحبذ ذلك . فانها شديدة البريق .

ومشيا في صمت . ولاحظ بوريس ان اخته كانت تتجهم وتصبح عصبية ، وكانت تتقصّد ان تمشي وهي تلوي قدميها ، ففكر في ذعر متطامن : : « سيبدأ الاحتضار ! » وكانت ايفيش تدخل في الاحتضار كلما كانت تنتظر نتائج احد الامتحانات . ورفع عينيه ورأى اربعة عمال قادمين في اتجاههما وهم ينظرون اليهما ضاحكين . وكانت ايفيش خافضة الرأس فلم ترهم على ما يبدو . وحين وصل الشبان الاربعة اليهما ، افترقوا : فمر اثنان منهما الى يسار بوريس ، والآخران الى يسار ايفيش .

وقال احدهم مقترحاً : – هل نعمل « سندويش » ؟

فقال بوريس بلطف : – قبحك الله يا وجه الضراط !

وفي تلك اللحظة قفزت ايفيش في الهواء وارسلت صرخة ثاقبة سرعان ما خنقتها وهي تضع يدها امام فمها . وقالت وقد احمرّت خجلاً :

– اني اقف كفتاة مطبخ . لقد كان العمال الشبان بعيدين .

فسألها بوريس دهشاً : – ماذا هناك ؟

قالت ايفيش في اشمئزاز : — لقد لمسني . يا للقذر !
واضافت في قسوة : — لا بأس . كان ينبغي الاّ اصرخ .
فسألها بوريس مُهاناً : — أيّهم ؟
فأمسكته ايفيش :
— ارجوك ، احتفظ برباطتك . انهم اربعة . ثم انه يكفيني مـا اصابني من هزؤ .
وقال بوريس موضحاً : — ليس ذلك لأنـه لمسك . ولكني لا استطيع ان اتحمل ان يفعلوا لك ذلك حين اكون معك . حين تكونين مع ماتيو ، لا يمسك احد . فكيف تراني ابدو ؟
قالت ايفيش بحزن : — هكذا يا عزيزي الصغير . وانا كذلك لا احميك . اننا لا نوحي بالاحترام .
وكان هذا صحيحاً . وكان بوريس يعجب لذلك غالباً : حين كان ينظر الى نفسه في المرآة ، كان يجد ان هيئته مرعبة . وردد :
— نعم ، اننا لا نوحي بالاحترام .
وضمّ احدهما الآخر ، واحسّا بأنهما يتيمان .
وبعدَ لحظة سألته ايفيش : — ما هذا ؟
وكانت تشير الى جدار طويل اسود عـبر خضرة شجر الكستناء . فقال بوريس :
— انه « السانتيه » . سجن .
قالت ايفيش : — عظيم . انني لم أر في حياتي اكأب منه. هل يفر منه السجناء ؟
فقال بوريس : — هذا نادر . لقد قرأت ان سجيناً قفز مرة من فوق الجدار فتعلق في غصن ضخم لشجرة كستناء ثم هرب .
وفكرت ايفيش ثم اومأت بأصبعها الى شجرة كستناء وقالت :
— لعلها هذه . ما رأيك بأن نجلس على المقعد هناك ؟ انني متعبة .

فربما رأينا سجيناً آخر يقفز .

فقال بوريس على غير اقتناع :

ـ ربما . ولكنهم يفعلون ذلك ليلاً على ما اعتقد .

واجتازا الرصيف وراحا يجلسان . وكان المقعد مبتلاً ، وقالت ايفيش في رضى :

ـ انه رطب .

ولكنها ما لبثت ان بدأت تتململ وتشد على خصلاتها . وكان على بوريس ان يربّت على يدها حتى لا تنتزع شعرها . وقالت ايفيش :

ـ إلمس يدي . انها مثلجة .

وكان هذا صحيحاً . وكانت ايفيش قبيحة ، وكان يبدو انها تتألم ، وكان جسمها كله يهتز بالانتفاضات الصغيرة . ورآها بوريس حزينة جداً حتى انه حاول ان يفكر بلولا ، بدافع الود .

ورفعت ايفيش رأسها فجأة : وكانت تبدو عليها هيئة العزم المظلم . وسألته :

ـ هل معك زهرك ؟

ـ نعم .

وكان ماتيو قد اعطى ايفيش ورق لعب في محفظة جلدية صغيرة ، فأهدته ايفيش الى بوريس ، وكانا يلعبان به غالباً . وقالت :

ـ لنلعب .

فأخرج بوريس الزهر من المحفظة . واضافت ايفيش :

ـ « مانشان » و « جميلة » ابداً .

وابتعد احدهما عن الآخر . واقتعد بوريس الحجر ودحرج الزهر على المقعد . وكان قد سحب بوكر ملوك ، وقال :

ـ ضربة موفقة .

قالت ايفيش : ـ انني اكرهك .

وقطّبت حاجبيها وقبل ان تحرك الزهر نفخت على اصابعها وهي تدندن . وكان ذلك تضرعاً . وفكر بوريس : « ان الامر جد ، فهي تراهن على نجاحها في الامتحان » ورمت ايفيش الزهر فخسرت : اذ حصلت على ثلاث سيدات . ونظرت الى بوريس بعينين يتطاير منهما الشرر وقالت :

— الى الضربة الثانية .

وسحبت هذه المرة ثلاثة آسات وصرخت : « ضربة موفقة » . وقذف بوريس الزهر وكان على وشك ان يحصل على بوكر آس . ولكن قبل ان يبلغا غاية سباقهما ، مد يده بحجة انه يلم الورق ، ثم دفع ورقتين دفعة خفيّة بطرف سبابته واصبعه الوسطى ، فجاء ملكان مكان الآس والبوكر ، فاذا هو يعلن بلهجة غيظ :

— زوجان.

فقالت ايفيش منتصرة : — لقد جاءني انا « مانش » اخيراً .

وكان بوريس يتساءل عما اذا كانت قد رأته يغش . ولكن ذلك كان في نهاية المطاف بدون اهمية كبيرة : ان ايفيش لم تكن تهتم الا بالنتيجة . وقد ربحت بزوجين مقابل زوج ، من غير ان يتدخل وقالت ببساطة :

— طيّب !

— هل تريدين ان تلعبي بعد ؟

فقالت : — لا ، هذا حسن . انت تعلم اني كنت العب لأعرف ان كنت سأنجح .

قال بوريس : — لم اكن اعرف ، حسناً : لقد نجحت .

فهزت ايفيش كتفيها وقالت :

— لا اؤمن بذلك .

وصمتا وظلا جالسين متقاربين ، خافضي الرأس . ولم يكن بوريس

ينظر الى ايفيش ولكنه كان يشعر بأنها ترتجف . وقالت ايفيش :

ـ ان الحر يضايقني ، اية فظاعة : ان يدي دبقتان ، وانا دبقة من فرط الضيق .

والواقع ان يدها اليمنى التي كانت منذ لحظة باردة جداً ، اصبحت ملتهبة . اما اليسرى فقد كانت تستريح جامدة معصوبة على ركبتيها . وقالت :

ـ ان هذا الضماد يثير اشمئزازي . انني أشبه احد مشوّهي الحرب ، وانا شديدة الرغبة في انتزاعه .

فلم يجب بوريس . ودقّت ساعة في البعيد دقة . فانتفضت ايفيش وسألت بصوت شرود :

ـ انها الثانية عشرة والنصف ؟

فقال بوريس وهو يراجع ساعته :

ـ انها الواحدة والنصف .

وتبادلا النظر فقال بوريس :

ـ لقد آن الوقت لأن اذهب الى الجامعة .

فالتصقت به ايفيش وأحاطت كتفيه بذراعيها :

ـ لا تذهب يا عزيزي بوريس . اني لا اريد ان اعرف شيئاً .

ـ سأسافر الى لاون هذا المساء و ... لا اريد ان اعرف شيئاً .

فقال لها بوريس في لطف :

ـ انك تستسلمين . يجب ان تعلمي الحقيقة قبل ان تواجهي الاهل .

فتركت ايفيش ذراعيها تسترخيان وقالت :

ـ اذن اذهب . ولكن عُد بأسرع وقت ممكن . اني انتظرك هنا .

فقال بوريس مشدوهاً :

ـ هنا ؟ الا تفضلين ان نقطع الطريق معاً ؟ ستنتظرينني في مقهى من مقاهي الحي اللاتيني .

قالت ايفيش : — لا ، لا ، بل سأنتظرك هنا .

— كما تريدين . واذا هطل المطر ؟

— بوريس ، ارجوك ، لا تعذّبني . اسرع . سأبقى هنا ، حتى ولو هطل المطر ، حتى ولو زُلزلت الارض . انني لا استطيع ان انهض على ساقيّ ، وليست لدي القوة بعد لأرفع إصبعاً واحدة .

ونهض بوريس وراح يسير على عجل . وحين عبر الطريق التفت مرة اخرى . وكان يرى ايفيش من ظهرها : كانت مسترخيــة على مقعدها ، وقد غرق رأسها في كتفيها ، وكانت تشبه شحاذة مسنّة : وقال في نفسه : « لعلّها ستكون ناجحة ، بالرغم من كل شيء ؟ » وخطا بضع خطوات ، وتمثّل فجأة وجه لولا . وجهها الحقيقي. وفكر : « انها شقية ! » واخذ قلبه يخفق خفقاً عنيفاً .

١٤

بعد لحظة . بعد لحظة يواصل بحثه الذي لا طائل تحته ؛ بعد لحظة ، تلاحقه عينا مارسيل الحاقدتان المتعبتان ، ووجه ايفيش الهارب ، وقناع لولا الجنائزي ، سيجد مرة اخرى مذاق حمّى في جوف فمه ، وسيأتي الضيق ليسحق معدته . بعد لحظة . واستغرق في أريكته واشعل غليونه ؛ وكان خالياً وهادئاً ، وكان مستسلماً لرطوبة الحانة المظلمة . وكان هناك ذلك البرميل المبرنق الذي كان بمثابة طاولة ، وصور اولئك الممثلات وقبعات البحارة تلك المعلّقة بالجدران ، وذلك الجهاز اللاسلكي الذي لا يرى والذي كان يوشوش كنافورة ماء ، واولئك السادة الضخام الاثرياء الجميلون الذين يدخنون السيجار في جوف القاعة وهم يشربون البورتو — الزبائن الآخرون ، رجال اعمال ، اذ كان الآخرون قد ذهبوا ليفطروا منذ وقت طويل ؛ وكانت الساعة في حوالى الواحدة والنصف ، ولكن كان من اليسير ان يتصور المرء انه كان الصباح وان النهار كان هناك ، هادئاً ، كبحر وديع ، وكان ماتيو يذوّب نفسه في هذا البحر الذي لا حماسة له ولا موج ، ولم يكن بعد الا نغمة لا تكاد تُسمع ، ضجةٌ من اصوات متميّزة ، نوراً ذا لون صديء وهدهدةٌ لجميع هذه الايدي الجميلة الجراحية التي كانت تتأرجح وهي تحمل السيجار ، كقوافل تحمل التوابل . وكان يعلم جيداً انهم

انما يعبرونه هذه القطعة الضئيلة من الحياة الفاغرة ، وان عليه ان يردّ بعد حين ، ولكنه كان يفيد منها بلا جشع : ان العالم ما يزال يحتفظ للاشخاص الهالكين بكثير من المباهج الصغيرة المتواضعة ، بل هو يحتفظ لهم بمعظم نعَمه العابرة ، شريطة ان يستمتعوا بها في تواضع . وكان دانيال جالساً الى يساره بأبهّة وصمت . وكان ماتيو يستطيع على هواه ان يتأمل وجهه الجميل ، وجه شيخ عربي ، وكانت تلك ايضاً بهجةً صغيرة للعيون .

ومدّ ماتيو ساقيه وابتسم لنفسه . وقال دانيال :

— انني اوصيك خيراً بخمر « كزيريس » الذي يشربونه .

— حسناً ، ولكنك ستقدم لي منه قدحاً : فأنا لا املك فلساً .

فقال دانيال : — اقدّمه لك . ولكن قل لي : اتريد ان اعيرك مئتي فرنك ؟ انني خجلٌ من أن أعرض عليك هذا المبلغ الضئيل ...

قال ماتيو : — لا ، لا حاجة الى ذلك .

وكان دانيال قد أدار نحوه عينيه الكبيرتين الملاطفتين . وألحّ :

— أرجوك . ان معي أربعمئة فرنك حتى آخر الأسبوع : وسوف نتقاسمها .

وكان ينبغي ان يتجنّب قبولها ، فان ذلك لم يكن من قواعد اللعبة . فقال ماتيو :

— لا ، لا . اؤكد لك . انك لطيف جداً .

وكان دانيال يُثقل عليه نظرة مساعدة كثيفة :

— ألست حقاً محتاجاً الى شيء ؟

قال ماتيو : — بلى ، أنا محتــاج إلى خمسة آلاف فرنك ، ولكن ليس في هذه اللحظة . في هذه اللحظة أنا محتاج الى قدح كزيريس والى محادثتك .

فقال دانيال : — أتمنى ان تكون محادثتي في مستوى الكزيريس .

ولم يكن قد أشار أية إشارة الى رسالته المستعجلة ، ولا الى الاسباب التي حملته على استدعاء ماتيو . والحق أن ماتيو كان يحمد له ذلك : فلا بدّ ان هذا آت عما قريب . وقال :

– إسمع : لقد رأيت برونيه ، أمس .

فقال دانيال بتأدب : – صحيح ؟

– أعتقد جيداً ان الامر قد انتهى بيننا هذه المرة .

– هل تنازعتما ؟

– لم نتنازع فقط ، بل فعلنا ما هو اسوأ .

وكان دانيال قد اتخذ مظهر الاسف ، فلم يستطع ماتيو أن يمتنع عن الابتسام ، وسأله :

– أتراك لا تكترث ببرونيه ، أنت ؟

فقال دانيال : – اني لم أكن حميمي الصداقة معه ، كما هو شأنك. إنني أحترمه كثيراً ، ولكن لو كنت الحاكم لحشوته قشاً ووضعته في « متحف الانسان » فرع القرن العشرين .

قال ماتيو : – إنه لن يبدو فيه وجهاً رديئاً .

وكان دانيال يكذب : فقد سبق له أن أحب برونيـــه كثيراً . وتذوّق ماتيو الكزيريس .

وقال : – إنه لذيذ .

فقال دانيال : – نعم ، هذا أفضل ما عندهم . ولكن مؤونتهم تنفد ، ولا يستطيعون أن يجدّدوها بسبب حرب اسبانيا .

ووضع قدحه الفارغ وأخذ زيتونة من صحن وقال :

– أتعلم أني سأطلعك على سرّ ؟

وانتهى الامر : لقد تسلّلت تلك السعادة المتواضعـــة الخفيفة في الماضي . ونظر ماتيو إلى دانيال من زاوية عينه : كان دانيال يتخذ مظهر النبالة والغموض . وقال ماتيو :

— هيّا .

فقال دانيال بصوت متردّد : — إنني أتساءل عمّا سيخلّف ذلك في نفسك . إنني سآسف إذا كنت ستحقد عليّ .

فقال ماتيو باسماً : — ليس لك إلا أن تتكلّم فتعلم تأثير ذلك .

— حسناً ... احزر مَنْ رأيت مساء أمس ؟

فردّد ماتيو خائباً : — من رأيت مساء أمس ؟ لست أدري ، فربما رأيت جماعة كبيرة من الناس .

— مارسيل دوفيه .

— مارسيل ؟ عجباً .

ولم يندهش ماتيو كثيراً : صحيح أن دانيال ومارسيل لم يكونا قد اجتمعا كثيراً ، ولكن كان يبدو على مارسيل انها تكنّ الودّ لدانيال. وقال :

— إنك محظوظ . هي لا تخرج أبداً . أين التقيت بها ؟

فقال دانيال مبتسماً : — في بيتها . فأين تريد أن يكون ذلك ، ما دامت لا تخرج أبداً ؟

وأضاف وهو يخفض جفنيه بتواضع :

— اصارحك بأننا نتلاقى بين وقت وآخر .

وساد صمت ، وكان ماتيو ينظر الى جفون دانيال الطويلة السود التي كانت تخفق قليلاً . ودقّت ساعةٌ الثانية ، وكان صوتٌ زنجي يغنّي على مهل: « هناك سرير في كارولين » إننا نتلاقى بين وقت وآخر . وأدار ماتيو رأسه وثبّت نظره في الباقة الحمراء لقبعة بحّار . وردّد من غير ان يفهم :

— انكما تتلاقيان . ولكن ...

فقال دانيال في شيء من الانزعاج :

— في بيتها ، لقد قلت لك ذلك .

– في بيتها . أتعني انك تقصدها هناك ؟
فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :
– أية فكرة هذه ؟ وكيف حدث ذلك ؟
– الامر بكل بساطة اني كنت دائماً أكنّ وداً كبيراً لمارسيل دوفيه . وكنت شديد الإعجاب بشجاعتها وكرم نفسها
وصمت لحظة ، فردّد ماتيو في اندهاش : « شجاعة مارسيل وكرم نفسها . » لم تكن هذه هي الصفات التي كان أكثر تقديراً لها لدى مارسيل . وتابع دانيال :
– كنت ذات يوم ضجراً ؛ فأخذتني الرغبة بأن أذهب فأدقّ بابها، واستقبلتني بترحاب . هذا كل ما في الامر : ومنذ ذلك الحين استمررنا في اللقاء . وكانت غلطتنا الوحيدة أننا أخفينا عنك ذلك .
وغرق ماتيو في العطور الكثيفة ، وفي جوّ الغرفة الوردية : كان دانيال جالساً على الكرسي ذي الوسادة ، ينظر إلى مارسيل بعينيه الكبيرتين الوعليتين فتبتسم مارسيل بارتباك كما لو ان هناك من يريد تصويرها . وهزّ ماتيو رأسه : إن ذلك لم يكن معقولاً ، كان مستحيلاً وباعثاً على النفور ، لأن هذين الشخصين لم يكن يربطهما شيء مشترك ، فلا يعقل ان يتفاهما .
– كنت تقصدها ، وقد أخفت عني ذلك ؟
وأضاف بهدوء :
– هذا مزاح .
فرفع دانيال عينيه وتأمل ماتيو في غموض ، وقال بصوت عميق :
– ماتيو ، انت تعرف أني لم أسمح لنفسي قط بأيّ مزاح حول علاقاتك مع مارسيل ، فهي علاقات ثمينة جداً .
قال ماتيو : – انا لا أنكر ذلك . لا أنكر ذلك . ولكن هذا لا يمنع أن يكون الامر مزاحاً .

فترك دانيال ذراعيه تسقطان ، ثابط الهمّة ، وقال في أسى :

— حسناً . لنبق اذن عند هذه النقطة .

قال ماتيو : — لا ، لا . تابع . فانت طريف للغاية : كل ما هنالك اني لا اصدّق .

فقال دانيال في عتاب :

— ولكنك لا تيسّر لي المهمّة . انه يشقّ عليّ كثيراً ان اتهّم نفسي تجاهك . وهذا حسبي (وتنهد) وكنت اودّ لو تصدّق كلامي. ولكن ما دمت بحاجة الى ادلّة ...

وكان قد اخرج من جيبه محفظة محشوة بالاوراق المالية . ورأى ماتيو الاوراق وفكر : « الدنيء ! » ولكن بكسل ، وشكلياً . وقال دانيال :

— انظر .

ومدّ رسالة الى ماتيو ، فتناولها : كان خطّ مارسيل . وقرأ :

— « كنت على حقّ ، شأنك دائماً ، يا ملاكي . كان هو الزهر الذي ذكرت . ولكني لا افهم كلمة واحدة مما كتبت لي . موافقة ليوم السبت ، ما دمت مشغولاً غداً . ان امي تقول بانها ستوبخك بشدّة ، من اجل السكاكر . تعال بسرعة يا ملاكي ، سننتظر زيارتك بفارغ الصبر . مارسيل . »

ونظر ماتيو الى دانيال وقال :

— اذن ... هذا صحيح ؟

فأومأ دانيال برأسه : وكان متضبباً مقطّباً كشاهد مبارزة . واعاد ماتيو قراءة الرسالة ، وكان تاريخها العشرين من نيسان . « لقد كتبتْ هذا . » وكان هذا الاسلوب المصطنع لا ينمّ عنها : وفرك انفه في تململ ، ثم انفجر ضاحكاً :

— ملاك ، انها تدعوك ملاكاً ، وهذا ما لا يخطر على بالي .

اتصوره ملاكاً سقط من السماء ، شخصاً من فئة «لوسيفير» . ثم انك ترى العجوز : لقد اكتملت الصورة .

فبدا دانيال مضطرباً ، وقال بجفاف :

— اقتنعتَ اخيراً ... لقد كنت اخشى ان تغضب ...

فأدار ماتيو رأسه اليه ونظر اليه في تردّد ؛ وكان يرى جيداً ان دانيال كان يتوقع غضبه .

وقال : — هذا صحيح ، كان عليّ ان اغضب ، وهذا طبيعي . ولكن اسمع : ربما جاء ذلك فيما بعد . اما الآن فانا مذهول .

وافرغ قدحه ، وقد اخذته الدهشة — بدوره — لأنه لم يغضب .

— وهل تراها غالباً ؟

— بصورة غير منتظمة . مرتين تقريباً في الشهر .

— ولكن ما عساكما تجدان للكلام ؟

فانتفض دانيال والتمعت عيناه . وقال بصوت اعذب مما ينبغي :

— اتكون لديك موضوعات للتحدث تقترحها علينا ؟

فقال ماتيو بصوت مصالح :

— لا تغضب . ان هذا جديدٌ جداً ، غير متوقّع قط بالنسبة إليّ ... حتى انه يسلّيني تقريباً . ولكن ليست لي مقاصد سيئة . اذن، هذا صحيح ؟ انكما تحبّان ان تتحدثا فيما بينكما ؟ ولكن — لا تصرخ ، ارجوك ، فأنا اطلب الفهم ، باي شيء تتحدثان ؟

فقال دانيال في برودة :

— بكل شيء . ان مارسيل لا تنتظر مني بالطبع احاديث رفيعة جداً ، ولكن ذلك يُريحها .

— ان هذا لا يصدّق ، فانتما مختلفان جداً .

ولم يكن ينجح في التخلص من تلك الصورة اللامعقولة : مارسيل في أبهّة ، وهو في محاسنه الخفية النبيلة ، ومظاهر «الكاغليسترو» لديه ،

وبسمته الافريقية الطويلة ، ومارسيل ، تجاهــه ، متصلّبة ، مرتبكة
امينة ... امينة ؟ متصلّبة ؟ انها ليست متصلبة الى هذا الحدّ : « تعال
ايها الملاك ، فنحن ننتظر زيارتك . » كانت مارسيل هي التي كتبت
ذلك ، وكانت هي التي تحاول ان تتعوّد على هذه اللطافات الكثيفة .
وللمرة الاولى احسّ ماتيو بان نوعاً من الغضب يلامسه ، وفكــر :
« لقد كذبت عليّ انها تكذب عليّ منذ ستة اشهر . » واستطرد :

– يدهشني كثيراً ان تكون مارسيل قد اخفت عني شيئاً .

فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :

– اتكون انت الذي طلبت اليها ان تصمت ؟

– نعم انا . لم اكن اريدك ان تقود علاقاتنا . امــا الآن ، فاني اعرفها منذ وقت بعيد ، ولم يبق للقضية كبير اهمية .

وردّد ماتيو وقد هدأ قليلاً :

– أانت الذي طلبت اليها ذلك ؟

واضاف : – وهي لم تبد اية صعوبة ؟

– لقد ادهشها ذلك كثيراً .

– نعم ، ولكنها لم ترفض .

– كلا . لا بدّ انها لم تجد ذلك شديد الإجرام . لقد ضحكت كما اذكر وقالت : « انها حالة ضميرية » وهي تعتقد اني احبّ ان احيط نفسي بالاسرار (واضاف بسخرية محجبة استاء لهــا ماتيو كثيراً) في البدء كانت تسميني « لوهنغران » . وبعد ذلك ، وقــع اختيارها كما ترى على « ملاك » .

قال ماتيو : – نعم .

وكان يفكر : « انه يسخر منها » واستشعر الذلّ لمارسيل . وكان غيلونه قد انطفأ فمدّ يده وتناول بآلية حبة زيتون . وكان الأمر خطيراً : انه لم يكن يحسّ نفسه خامداً بما فيه الكفاية ، وانما كان يأخذه خبل

فكري ، كمن اكتشف انه انما كان مضلّلاً على طول الخط .. ولكن لو كان الامر قد حدث في السابق ، لكان الشيء الحيّ الذي في داخله قد نزف . وقال في بساطة ، بصوت كئيب :

– كنا نتصارح بكل شيء ...

قال دانيال : – كنت تتصوّر ذلك . ايستطيع الانسان ان يقول كل شيء ؟

فرفع ماتيو كتفيه في غيظ ، ولكنه كان خصوصاً غاضباً على نفسه. وقال :

– وهذه الرسالة ! اننا ننتظر زيارتك ! يخيّل اليّ اني اكتشف « مارسيل » اخرى .

فبدا دانيال مذعوراً :

– « مارسيل » اخرى .. انك تذهب بعيداً ! اسمع .. انك ،مقابل عمل طفولي ، لن ...

– لقد كنت تأخذ عليّ الساعة ، انت نفسك ، انني لا آخذ الامور مأخذاً جدياً بما فيه الكفاية ...

فقال دانيال :

– ذلك انك تنتقل من النقيض الى النقيض (واضاف بلهجة تفهّم ودية) الامر هو انك تثق اكثر مما ينبغي باحكامك على الناس . ان هذه الحكاية الصغيرة تثبت ببساطة ان مارسيل اكثر تعقيداً مما كنت تظنّ .

قال ماتيو : – ربما . ولكن هناك شيئاً آخر .

لقد اخطأت مارسيل ، وكان يخشى ان يحقد عليها : كان لا ينبغي ان يفقد ثقته بها اليوم – اليوم إذ لعلّه سيكون مجبراً على ان يضحّي لها بحريته . كان بحاجة الى ان يحترمها ، والاّ كان ذلك اقسى من ان يُحتمل . وقال دانيال :

– والواقع اننا كنا دائمـاً على نية ان نخبرك بذلك ، ولكن كان طريفاً جداً ان تقوم بالتآمر ، حتى اننا كنـا نؤجل ذلك من يوم الى آخر .

حتى اننا ! كان يقول : اننا ؛ لقد كان بوسع امرىء ان يقول « نحن » وهو يتحدث الى مارسيل عن ماتيو . ونظر ماتيو الى دانيال بلا صداقة : كانت تلك لحظة الحقد عليه . ولكن دانيال كان يدّعه بلا سلاح ، كما هو شأنه دائماً . وقال له ماتيو فجأة :

– دانيال ، لماذا فعلتْ ذلك ؟

فأجاب دانيـال : – لقد اجبتك : لأني رجوتهـا أن تفعل . ثم انه كان يسلّيها – ولا بدّ – ان يكون لها سرّ .

فهز ماتيو رأسه

– كلا . هناك شيء آخر . لقد كانت تعرف جيداً ما كانت تفعله. فلماذا فعلته ؟

قال دانيـال : ولكن ... اتصوّر انه لا ينبغـي ان يكون من المناسب دائمـاً ان تعيش في دائرة اشعاعك . لقـد بحثت لنفسها عن زاوية ظلّ .

– ها هي تجدني طاغياً كاسحاً ؟

– انها لم تقل لي ذلك بصراحة ، ولكن هذا ما حسبت اني افهمه . (واضاف مبتسماً) ماذا تريد ، انك قوة ! تأكّد انها معجبة بك ، انها معجبة بطريقتك في ان تعيش داخل بيت من الزجاج وان تصيح من على السطوح بما ألف الناس ان يحتفظوا به لأنفسهم : غير ان ذلك يستنفدها . انها لم تحدثك عن زياراتي ؛ لانها خشيت ان تفسر عواطفها نحوي ، وان تضغط عليهـا لتعطي هذه العواطف اسماً ، وان تحلّلها لتحيلها قطعاً صغيرة . أتدري ؟ انهم بحاجة الى الظلام والغموض ... ان ذلك شيء متردّد وغير محدّد اطلاقاً ...

– هل صارحتك بذلك ؟

– نعم ، صارحتني . لقد قالت لي : ان ما يسلّيني معك هو انني لا اعرف قط اين انا ذاهبة . اما مع ماتيو ، فاني اعرف دائماً ذلك . مع ماتيو ، اعرف دائماً ذلك . وايفيش : « ان المرء لا يخشى معك ما ليس متوقعاً » . واحس ماتيو بشيء من الغثيان .

– لماذا تراها لم تحدثني قط ؟

– هي تزعم انك لا تسألها عن ذلك .

وكان هذا صحيحاً ، وخفض ماتيو رأسه : لقد كان كلما اراد ان يسبر عواطف مارسيل يأخذه كسلٌ لا يُقهر . وحين حسب مرة انه يلاحظ طيفاً في عينيها ، هزّ كتفيه : « لو كان ثمة شيء لقالته لي . انها تقول كل شيء . » وهذا ما كنت اسمّيه : ثقتي بها . لقد افسدت كل شيء .

وانتفض وقال فجأة :

– لماذا تخبرني بذلك اليوم ؟

– لا بدّ ان تُخبَر بذلك اليوم او غداً .

وكانت هذه اللهجة الفرارية مقصودة لإثارة الفضول : ولكن ماتيو لم ينخدع بها ، فأضاف يقول :

– لماذا اليوم ، ولماذا انت ؟ لقد كان اكثر طبيعية ... ان تحدثني هي بذلك اولاً .

فقال دانيال بارتباك مصطنع :

– يبدو اذن انني اخطأت ... ولكني حسبت ان هـــذا كان في صالحكما انتما الاثنين .

حسناً . وتصلب ماتيو : « حذار من الضربة القاسية . ان هذه هي البداءة فقط . » واضاف دانيال :

– سأقول لك الحقيقة : ان مارسيل تجهل اني تحدثت اليك ، وحتى

الامس لم تكن تبدو عازمــة على إطلاعك على الحقيقة في هذا الوقت المبكر . سأكون شاكراً لك اذا اخفيت عنها محادثتنا بعناية .

فضحك مانيو بالرغم منه :

— هكذا اذن ايها الشيطـــان ! انك تبذر الاسرار في كل مكان . بالامس فقط كنت تتآمر مع مارسيل عليّ ، واليوم تطلب مني ان اضلع معك ضدها . فأي نوع طريف من الخونة انت !

فابتسم دانيال وقال :

— ليس فيّ شيء من الشيطان . ان ما حملني على الكلام قلق حقيقي استولى عليّ مساء امس . فقد خيّل اليّ انه كان بينكما سوء تفاهم خطير . ومن الطبيعي ان تكون مارسيل من العزّة بحيث تمتنع عن ان تحدثك هي نفسها بذلك .

فضغط ماتيو قدحه بقوة في يده : لقد بدأ يفهم .

— الامر هو بصدد ... (وانهى دانيـــال العبارة بحشمة) بصدد حادثتك .

قال ماتيو : — آه ، هل قلت لها انك كنت عالماً بذلك ؟

— لا ، لا، لم أقل شيئاً . هي التي تحدثت اولاً .

— هكذا اذن !

« امس كانت تبدو على التلفون خائفة من ان احدثها بالموضوع . وفي المساء ، قالت له كل شيء مهزلة اخرى . » وأضاف :

وبعد ذلك ؟

— بعد ذلك .. ان هناك شيئاً غير لائق .

فسأله ماتيو منقبض الحنجرة :

— ما الذي يتيح لك أن تقول ذلك ؟

— ليس هناك شيء واضح .. وانما هي الطريقة التي قدّمتْ لي بها الاشياء .

– ماذا هناك ؟ هل هي حاقدة عليّ لأني جعلتها تحمل ؟
– لا اظن . ليس هذا هو الامر . وانما هو بشأن مسلكك امس . لقد حدثتني عنه بحقد .
– ما الذي فعلته ؟
– لا استطيع ان اقول لك على الضبط . اسمع ، هذا ما قالته لي ضمن اشياء اخرى : « انه هو الذي يقرر دائماً ، فاذا لم أكن متفقة معه ، فمن المفهوم ان احتج . ولكن ذلك لصالحه هو لأن له رأيه الناجز ، وهو لا يترك لي الزمن ابداً لتكوين رأي » . انني لست متأكداً من العبارات .
فقال ماتيو مشدوهاً :
– ولكن لم يكن امامي قرار اتخذه . لقد كنا دائماً على اتفاق حول ما ينبغي ان تفعله في مثل هذه الحالة .
– نعم ، ولكن هل حرصت على معرفة رأيها امس الاول ؟
قال ماتيو : – كلا . كنت متأكداً من انها كانت تفكر مثلي .
– نعم ، الواقع انك لم تسألها عن شيء . متى واجهتما للمرة الاخيرة ... هذه الامكانية ؟
– لا ادري ، منذ عامين او ثلاثة .
– عامان او ثلاثة ... او لا تظن انها يمكن ان تكون قد غيّرت رأيها في هذه الاثناء ؟
وفي جوف القاعة ، كان السادة قد نهضوا ، وكانوا يتبادلون التهاني وهم يضحكون ، واتاهم خادمٌ بقبعاتهم ، فخرجوا وهم يحيّون صاحب الحانة بحركة ودية ، واوقف الخادم الراديو . وعادت الحانة تسقط في صمت جاف ، وكان في الجوّ مذاق كارثة . وفكر ماتيو : « سينتهى الامر نهاية سيئة . » ولم يكن يعرف جيداً ما الذي سينتهي نهاية سيئة : هذا النهار العاصف ، ام قصة ذلك الإجهاض ، ام علاقاته

بمارسيل ؟ كلا ، كان شيئاً أشدّ غموضاً واعرض : حياته ، اوروبا هذا السلام التافه المشؤوم . وتمثّل شعر برونيه الاشقر : « ستقع الحرب في ايلول . » وفي هذه اللحظة ، كان من في الحانة الخالية المظلمة يكاد يصدق ذلك . لقد كان في حياته شيء ما قد فسد ، في هذا الصيف . وسأله :

— هل هي خائفة من العملية ؟

فقال دانيال بلهجة باردة : — لا ادري .

— هل ترغب في ان اتزوجها ؟

فأخذ دانيال يضحك :

— لست ادري . انك تسألني اكثر مما اطيق الجواب عليه . .مهما يكن من امر ، فليست القضية من السهولة بهذا المكان . اتسمعني ؟ يجب ان تحدّثها هذا المساء . من غير ان تذكرني طبعاً : كما لو ان بعض الوساوس قد استولت عليك . وسوف يدهشني الاّ تقول لك كل شيء ، بالنسبة للوضع الذي رأيتها فيه امس : كان يبدو عليها انها شقية جداً .

— حسناً . سأحاول ان احملها على الكلام .

وساد صمت ، ثم اضاف دانيال بلهجة انزعاج :

— هكذا : لقد اخبرتك .

قال ماتيو : — نعم ، شكراً على كل حال .

— هل انت حاقد عليّ ؟

— على الاطلاق . ان هذا هو نوع الخدمة الذي يمكنك ان تؤديه ، ان يسقط على رأسك كالقرميدة .

فانفجر دانيال ضاحكاً : وكان يفغر فمه على سعته ، فترى اسنانه الباهرة وجوف حلقه .

ما كان لي ان افعل ذلك ، اليد موضوعة على الساعة ، كانت تفكر ، ما كان لي ان افعل ذلك ، لقد كنا نتصارح بكل شيء ، وفكر : كانت مارسيل تكاشفني بكل شيء ، آه ! وفكر ، انه يعرف ، الآن يعرف ، خبل مُرهَق في رأسها وهذا الصوت الصغير في رأسها ، كانت مارسيل تقول لي دائماً كل شيء ، ، والامر الآن في رأسها ، هذا غير محتمل ، افضّل مئة مرة ان يكرهني ، ولكنه كان هناك ، جالساً على مقعد المقهى ؛ متباعد الذراعين ، كما لو انه ترك شيئاً ما يسقط ، وعينه محدّدة في الارض كما لو ان شيئاً ما قد تحطّم عليها . لقد تم الامر ، وتمت المحادثة . لم أر ، ولم اسمع ، ولم أكن هناك ، ولم اعلم شيئاً ، وقد كانت هي ، وقد قبلت الكلمات وانا لا اعرف شيئاً ، وكان الصوت الرصين يرتفع كالدُخان نحو سقف المقهى ، سوف يأتي الصوت من هناك ، الصوت الجميل الرصين الذي كان يُرعش دائماً صفيحة السماعة ، وسيخرج من هناك وسيقول انتهى الامر ، يا إلّهي يا إلّهي ؛ ما الذي سيقوله ؟ انني عار ، انني ممتلىء وهذا الصوت سيخرج مجلياً من الصفيحة البيضاء ، ما كان ينبغي لنا ، ما كان ينبغي لنا ، لقد كانت موشكة على ان تغضب من دانيال ، اذا كان ممكناً ان تغضب منه ، لقد كان كريماً جداً وطيباً ، وكان الوحيد الذي اهتّم بي ، واخذ قضيتي بيده ، ذلك الملاك ،ومنح قضيتي صوته الرائع . امرأة ، امرأة ضعيفة ، ضعيفة يدافع عنها في عالم الرجال والاحياء صوت غامض حار ، وسيخرج الصوت من هناك وسيقول : كانت مارسيل تقول لي كل شيء ، مسكين ماتيو ، يا ملاكي الحبيب ! وفكرت : الملاك تبلّلت عيناه ، دمع عذب، دمع غزارة وخصوبة ، ومع امرأة حقيقية بعد ثمانية ايام محرقة ، ومع امرأة عذبة مُدافع عنها . لقد اخذني بين ذراعيه فلاطفني ودافع عني ، ماء العينين الراقص والملاطفة الملتوية على الخدين ، وارتجافة

الشفتين ، طوال ثمانية ايام نظرت في البعيد الى نقطة ثابتة ، وعيناها جافتان خاليتان : انهم سيقتلونه لي ، وطوال ثمانية ايام كانت مارسيل الدقيقة ، مارسيل القاسية ، مارسيل العاقلة ، مارسيل الرجل ، انه يقول بأني رجل ، وهذا هو الماء ، المرأة الضعيفة ، المطر في العينين ، فلماذا اقاوم ، غداً سأكون قاسية وعاقلة ، مرة ، مرة واحدة ، الدموع ، الندم ، الاشفاق المعذب على النفس ، والذل الاعذب ايضاً ، هاتان اليدان المخمليتان على خاصرتيّ ، على فخذيّ ، كانت راغبة بأخذ ماتيو بين ذراعيها وطلب الصفح منه ، الصفح وهي راكعة : ماتيو المسكين ، يا عزيزي الكبير . مرة ، مرة واحدة ، ما اجمل ان يُدافع عنها ، وان يُصفح عنها . وارهقتها فكرة مفاجئة . وكان خلٌ يسيل في عروقها ، هذا المساء ، حين يدخل الى بيتي ، وحين احيط عنقه بذراعي ، وحين اقبّله ، سيعرف كل شيء ، وعليّ انا ان اتظاهر بأني لا اعرف انه يعرف . آه ! اننا نكذب عليه ، هكذا فكرت في يأس ، ولا نزال نكذب عليه ، اننا نقول له كل شيء ، ولكن صراحتنا مسمومة . انه يعرف ، وسيدخل هذا المساء ، وسأرى عينيه الطيبتين ، وسأفكر ، انه يعرف ، وكيف تراني استطيع ان احتمل ذلك ، يا عزيزي ، يا عزيزي الكبير ، للمرة الاولى في حياتي سبّبت لك حزناً ، آه ! سأقبل كل شيء ، سأذهب الى العجوز ، سأقتل الطفل ، انني خجلة ، سأفعل ما يشاء ، كل ما يشاء .

ورن جرس التلفون تحت اصابعها ، فشنّجت يدها على السمّاعة ، وقالت :

– آلو ! آلو ! انت دانيال ؟

قال الصوت الجميل الهادىء : – نعم ، من يكلّمني ؟

– انا مارسيل .

– صباح الخير يا عزيزتي مارسيل .

قالت مارسيل : – صباح الخير . (وكان قلبها يخفق بشدة)

– هل نمت نوماً هنيئــاً ! (وكان الصوت الرصين يصدي في جوفها ، وكان هذا لذيذاً وغير محتمل) لقد تركتك في ساعة متأخرة جداً مساء امس ، ولا بد ان توبخني السيدة دوفيه على ذلك ؛ ولكن آمل الا تكون قد عرفت شيئاً .

فقالت مارسيل لاهثة :

– كلا ، لم تعرف شيئاً . كانت غاطسة في نومها حين خرجت... وألح الصوت العذب يقول : – وانت ، هل نمت نوماً هانئاً ؟

– انا ؟ لا بأس ... انني ثائرة الاعصاب قليلاً كما تعلم .

فأخذ دانيال يضحك ، وكانت ضحكة مترفة جميلة ، هادئة وقوية . وانفرجت مارسيل قليلاً . وقال :

– ينبغي الا تثور اعصابك . لقد سارت الأمور جيداً .

– سارت ... صحيـح ؟

– صحيـح . بل احسن مما كنت آمل. الحق اننا يا عزيزتي مارسيل لم نعرف قدر ماتيو تماماً .

واحس مارسيل ان ندماً مراً يعضها ، فقالت :

– اليس كذلك ؟ اننا لم نعرف قدره .

قال دانيال : – لقد اوقفني منذ الكلمات الاولى . وقال لي انــه ادرك جيداً ان شيئاً ما غير طبيعي ، وان هذا قد آلمه طوال نهار امس.

فسألت مارسيل بصوت مختنق :

– هل قلت ... هل قلت له اننا كنا نتقابل ؟

فقال دانيال في دهشة : – طبعاً ! ألم نتفق على ذلك ؟

– بلى ... بلى ... بلى ... وكيف تلقى هذا النبأ ؟

فبدا على دانيال التردد وقال :

– بصورة جيدة . جيدة جداً بالنتيجة . لم يرد اولاً ان يصدق...

– لا بد انه قال لك : كانت مارسيل تخبرني كل شيء .
– قال ذلك في الواقع (وبدا انه مسرور) قاله حرفياً .
قالت مارسيل : – اسمع يا دانيال : انني نادمة !
وسمعت من جديد الضحكة العميقة الجذلة :
– هذا هو وضعه ايضاً . لقد ذهب ممتلئاً بالندم . آه ! فاذا كنتما معاً في هذا الوضع ، فاني اود لو اختبىء في مكان ما من غرفتك حين يأتي للقائك : فسيكون ذلك شيئاً لذيذاً !
وضحك من جديد ، ففكرت مارسيل في عرفان متواضع : « انه يسخر مني . » ولكن الصوت كان قد اصبح رصيناً ، وكانت السمّاعة تهتز كالأرغن :
– لا ، الحقيقة يا مارسيل ان كل شيء يسير على ما يرام ، وانا مسرور من اجلك كما تعلمين . انه لم يتركني اتكلم ، واوقفني منذ الكلمات الاولى ، وقال لي : « يا لمارسيل المسكينة ، انني مجرم كبير ، وانا احتقر نفسي ، ولكني سأصلح خطئي ، اتظن اني استطيع بعد ان اصلحه ؟ » وكانت عيناه متوردتين . فما اشد ما يحبك !
وكانت مارسيل تقول :
– اوه يا دانيال ! اوه يا دانيال !
وساد صمت ، ثم اضاف دانيال :
– لقد قال لي انه يريد ان يحدثك هذ المساء بكل صراحة : « سنفقأ الدمل . » فكل شيء هو الآن بين يديك يا مارسيل . سيفعل كل ما تشائين .
– اوه يا دانيال ! اوه يا دانيال ! (ثم تمالكت نفسها قليلاً واضافت) لقد كنت طيباً جداً و ... اود ان اراك في اقرب فرصة ممكنة ، فعندي اشياء كثيرة اقولها لك ، ولا استطيع ان اكلمك من غير ان اري وجهك . هل تستطيع غداً ؟

فبدا لها الصوت اكثر جفافاً كأنما قد فقد اوتاره التوافقية :

– آه ! غداً ، لا ! انـــي طبعاً متشوق لرؤيتك ... اسمعي يا مارسيل ، سأخابرك .

قالت مارسيل : – حسناً ، خابرني بسرعة . آه يا دانيـــال ، يا عزيزي دانيال ...

قال دانيال : – الى اللقاء يا مارسيل . كوني بارعة هذا المساء .

وصاحت : – دانيال ...

ولكنه كان قد اغلق التلفون . ووضعت مارسيل السماعة وأمرّت منديلها على عينيها الرطبتين : « الملاك ! لقد افلت بسرعة ، خشية ان اشكره . » واقتربت من النافذة ونظرت الى المارة : نساء وسوقة وبضعة عمال ، فوجدت ان هيئة السعادة كانت بادية عليهم . وكانت امرأة شابة تعدو وسط الشارع ، وكانت تحمل ابنها بين ذراعيهـــا ؛ وتحدثه وهي تعدو لاهثة وتضحك في وجهه . وتابعتها مارسيل بعينيها ثم اقتربت من المرآة فنظرت فيها الى نفسها باندهاش . وكان على خشبة المغسلة ثلاث وردات حمر في قدح للاسنان . وتناولت مارسيل احداها في تردد وأدارتها بخجل بين اصابعها ، ثم اغمضت عينيهـــا وغرزت الوردة في شعرها الاسود . « وردة في شعري ... » وفتحت اجفانها ، ونظرت الى نفسها في المرآة ، وربتت على شعرها ثم ابتسمت لنفسها في تأثـر .

١٥

قال الرجل القصير :

– تفضل وانتظر هنا يا سيدي .

وجلس ماتيو على مقعد صغير ، وكانت غرفة انتظـــار صغيرة تنبعث منها رائحة الملفوف ؛ والى اليسار كان باب زجاجي يلمع لمعاناً ضعيفاً . ودُقّ الجرس فذهب الرجل القصير ليفتح . ودخلت امرأة شابة وهي تلبس ثياباً ذات احتشام بائس .

– تفضلي واجلسي يا سيدتي .

ورافقها وهو يمسها مساً خفيفاً حتى المقعد الصغير ، فجلست وهي تطوي ساقيها تحتها . وقالت المرأة الشابة :

– لقد سبق لي ان جئت ؛ والقضية هي قضية قرض .

– نعم ، يا سيدتي ، بكل تأكيد .

وكان الرجل القصير يحدثها في وجهها :

– هل انت موظفة ؟

– انا لا ، وانما زوجي .

وأخذت تفتش في محفظتها ؛ ولم تكن قبيحة ، ولكن كانت لهـــا هيئة قاسية مذعورة ؛ وكان الرجل القصير ينظر اليها في نهم. وأخرجت من محفظتها ورقتين او ثلاثاً مطوية بعناية ، فأخذها واقترب من الباب

الزجاجي ليتبيّن ما فيها بوضوح وتفحصها طويـلاً . وقال وهو يردّها لها :

— حسناً ، حسناً جداً . ولدان ؟ انك تبدين صبيّة بعد ... اننا ننتظر الاولاد بفارغ الصبر ، اليس كذلك ؟ ولكن حين يصلون ، تختلّ ميزانية البيت . هل انتم منزعجون قليلاً في هذه الفترة ؟

فاحمر وجه المرأة الشابة وفرك الرجل القصير يديه ، وقال في طيبة :

— حسناً ، سنتدبر كل شيء . فانما نحن هنا من اجل ذلك .

ونظر اليها نظرة تفكر باسمة ثم ابتعد . والقت المرأة الشابة نظرة عداء لماتيو واخذت تداعب قفل محفظتها . واحس ماتيو بالانزعاج : لقد دخل عند الفقراء الحقيقيين ، وهو سيأخـذ مالهم ، مالاً رمادياً كالحاً يبعث رائحة الملفوف . وخفض رأسه ونظر الى الارض الخشبية بين قدميه ، فاذا هو يتذكر الاوراق المالية الحريرية المعطرة في صندوق لولا ؛ ان ذلك ليس هو هذا المال نفسه .

وفتح الباب الزجاجي وبدا رجل طويل ذو شاربين ابيضين . وكان له شعر فضي مسرّح بعناية الى خلف وتبعه ماتيو في المكتب . ودلّه السيد بلطف على مقعد من الجلد المهترىء فجلس كلاهما . واسند السيد مرفقيه على الطاولة وضم يديه الجميلتين البيضاوين . وكان يضع ربطة عنق خضراء غامقة تُفرحها جوهرة . وسأله بلهجة ابوية :

— هل تريد ان تستفيد من خدماتنا ؟

— نعم .

ونظر الى ماتيو ؛ وكانت عيناه الزرقاوان الفاتحان تجحظان قليلاً .

— السيد ...؟

— دولارو .

— انك لا تجهل ان شركتنا انمـا تقدم خدماتهـا للموظفين وحدهم ؟

كان الصوت جميلاً وابيض ، سميناً بعض الشيء ، كاليدين .
فقال ماتيو :
– انني موظف . استاذ .
قال السيد مهتماً : – آه ، آه ! اننا سعداء بصورة خاصة بأن نساعد الجامعيين . هل انت استاذ في ليسيه ؟
– نعم ، في ليسيه بوفون .
فقال السيد في انبساط :
ممتاز . والآن سننجز الشكليات الصغيرة المعتادة ... اود اولاً ان اسألك ان كنت تحمل تذكرة هوية ، او اي ورقة مماثلة ، جواز سفر ، دفتراً عسكرياً ، بطاقة انتخابية ...
فمد له ماتيو اوراقه ، فتناولها السيد وتأملها لحظة في شرود وقال :
– حسناً ، حسناً جداً . وما هي قيمة المبلغ الذي تريده ؟
فقال ماتيو : – اريد ستة آلاف فرنك .
وفكر لحظة ثم اضاف :
– بل لنقل سبعة آلاف .
وكان قد سُرّ بالمفاجأة ، وفكر : « لم اكن اظن ان الامر سيجري بهذه السرعة . »
– هل تعرف شروطنا ؟ اننا نقرض لمدة ستة اشهر من غير تجديد ممكن . اننا مضطرون لأن نطلب عشرين بالمئة فائدة ، لأن عندنا نفقات باهظة ولأننا نتعرض لمجازفات كبيرة .
فقال ماتيو بسرعة : – حسناً ، حسناً !
فأخرج السيد ورقتين مطبوعتين من درجه :
– هل لك ان تتفضل فتملأ هذه الشكليات ؟ وتوقع في اسفل الصفحتين ؟
وكان ذلك طلباً للإقراض على نسختين ، وكان عليه ان يذكر

الاسم والسن والحالة المدنية والعنوان . واخـــذ ماتيو يكتب . وقـــال السيد وهو يجيل نظره في الورقتين :

– ممتـــاز . مولود في باريس .. عام ١٩٠٥ ... من اب وام فرنسيين .. حسناً ، هذا كل ما يجب الآن . وحـــين نسلمك السبعة الآلاف فرنك ، سنطلب منك ان توقع على ورقة ذات طابع اعترافاً بالدين . والطابع على نفقتك .

– حين التسليم ؟ الا يمكن ان تعطوني اياها على الفور ؟

فبدا السيد مندهشاً جداً :

– على الفور ؟ ولكننا بحاجة يا سيدي العزيز الى خمسة عشر يوماً على الاقل لنجمع معلوماتنا .

– اية معلومات ؟ لقد رأيت اوراقي ...

فتأمل الرجل ماتيو بلطف مرح وقال :

– آه ! ان الجامعيين متشابهون جميعاً ! كلهم مثاليون . لاحـــظ يا سيدي ، انني في هذه الحالة الخاصة لا اضع كلامك موضع الشك. ولكن بصورة عامة ، ما الذي يثبت ان الاوراق التي تقدم لنا ليست مزيفة ؟ (وضحك ضحكة صغيرة حزينة) : ان من يتصرف بالمال يتعلم الحذر . ان هذا شعور قبيـــح ، انا اوافقك على ذلك ، ولـــكن لا يحق لنا ان نكون واثقين . (وانهى كلامه بقوله) هـــوذا اذن : يجب ان نقوم بتحقيقنا الصغير ، وسوف نتوجه مباشرة الى وزارتك . لا تخش شيئاً ، بكل السرّية المرغوب فيها . ولكنك تعرف مـــا هي الشكليات الادارية : فأنا اشك كثيراً في ان تستطيع انتظار مساعدتنا بطريقة معقولة قبل الخامس من تموز .

فقال ماتيو وهو منقبض الحنجرة :

– هذا يستحيل علي . (وأضاف) : انني بحاجة الى المال هذا المساء او صباح الغد على الابعد ، فانا بحاجة عاجلة له . ألا تستطيع

ان ... بفائدة اكبر ؟

فبدت الدهشة والاستغراب على الرجل ، ورفع يديـــه الجميلتين في الهواء :

– ولكننا لسنا مرابين يا سيدي العزيز ! لقد تلقت شركتنا تشجيع وزارة الأشغال العامة . انها اذا صحّ لنا القول منظمة رسمية . اننا نتقاضى فوائد عادية وُضعت بالنظر لنفقاتنا ولمجازفاتنا ، ولا نستطيع ان نستجيب لمثل هذه المساومات .

وأضاف في قسوة :

– اذا كنت مستعجلاً ، فقد كان عليك ان تأتي قبل الآن . ألم تقرأ ارشاداتنا ؟

قال ماتيو وهو ينهض :

– كلا . لقد فاجأني الوقت .

فقال الرجل ببرودة :

– انني اذن آسف ... هل يجب تمزيق الاوراق التي ملأتها ؟

وفكر ماتيو في ساره : « لا بدّ انها ستقنعه بتأجيـــل القبض » وقـــال :

– لا تمزّقها . سأتدّبر امري حتى ذلك الحين .

فقال الرجل بلهجة ودّية :

– نعم ، ستجد بلا شك صديقاً يقرضك لمدة خمسة عشر يوماً ما انت بحاجة اليه . (وقال وهو يومىء باصبعه الى الورقة) هذا إذن هو عنوانك : ١٢ شارع هويغنز ؟

– نعم .

– حسناً ، في الايام الاولى من تموز سنرسل لك دعوة صغيرة .

ونهض فرافقه ماتيو حتى الباب . وقال ماتيو :

– الى اللقاء يا سيدي . شكراً .

فقال الرجل وهو ينحني :
– انني سعيد بان اؤدي لك خدمة . فالى اللقاء .
وعبر ماتيو غرفة الانتظار بخطى كبيرة . وكانت المرأة الشابة ما تزال هناك ، وكانت تعض قفازها بهيئة شاردة . وقال الرجل من خلف ماتيو :
– هل لك ان تدخلي يا سيدتي ؟
وفي الخارج ، كانت انوار نباتية ترتعش في الهواء الرمادي . ولكن ماتيو كان يشعر الآن بأنه كان طوال الوقت مسجوناً داخل جدران . وفكر : « هزيمة اخرى » ولم يكن لديه أملٌ بعد الا بساره .
وكان قد بلغ جادة سيباستوبول ، فدخل مقهى وطلب قسيمة من المحاسبة :
– التلفون ، في الداخل الى اليمين .
وفيما هو يركّب الرقم تمتم : « المهم ان تكون قد نجحت . اوه ! المهم ان تكون قد نجحت »
وكان ذلك نوعاً من الصلاة المبتهلة . وقال :
– آلو ، آلو ساره ؟
فقال صوت : – آلو ، نعم . انا ويمولر .
قال ماتيو : – انا ماتيو دولارو . هل استطيع ان اتكلم مع ساره ؟
– لقد خرجت .
– آه ! هذا مزعج ... الا تدرى متى ستعود ؟
– لا ، لا اعرف . هل لديك شيء تريد ان تبلغها إياه ؟
– لا ، قل لها فقط انني اتصلت بها .
واعاد السماعة وخرج . إن حياته لم تكن بعد متوقفة عليه بل كانت بين يدي ساره ؛ ولم يكن باقياً له الا ان ينتظر . واشار الى

اوتوبيس وصعد بجاس بالقرب من امرأة عجوز كانت تسعل في منديلها. وفكر : « إن اليهود يتفاهمون فيما بينهم » سيقبل معها ، سيقبـل بلا شك .

– دانفير – روشيرو ؟

فقال قاطع التذاكر : – ثلاث قسائم .

وأخذ ماتيو القسائم الثلاث وراح ينظر من النافذة ؛ وكان يفكر بمارسيل في حقد حزين . وكان الزجاج يرتجف ، وكانت العجوز تسعل ، وكانت الازهار ترقص على قبعتها القشّية السوداء . القبعة ، الازهار ، العجوز ، ماتيو ، كل شيء كان محمولاً بالآلة الضخمة ؛ لم تكن العجوز ترفع أنفها عن منديلها ، ومع ذلك فقد كانت تسعل عند ملتقى شارع « الاورس » وجادة سيباستوبول ، وكانت تسعل في شارع ريومور ، وكانت تسعل في شارع مونتورغوي ، وكانت تسعل على جسر « البونيف » فوق ماء رمادي هادىء . « واذا لم يقبـل اليهودي ؟ » . ولكن هذه الفكرة لم تكن تنجح في اخراجه من خدره، إنه لم يكن بعد الا كيساً من الفحم فوق اكياس أخرى ، في قلب شاحنة . « فليكن . سينتهي الأمر ، وسأقول لها هـذا المساء اني أتزوجها . » وكان الاوتوبيس الضخم والطفولي يحمله ، ويميل بـه ذات اليمين وذات اليسار ، ويهزه ، ويصدمه ، وكانت الأحداث تصدمه بمسند المقعد ، بالزجاج ، وكانت سرعة حياته تهدهده ، وكان يفكر : « إن حياتي ليست بعدُ لي ، انها ليست بعد الا قَدَراً » ؛ وكان ينظر فيرى بنايات شارع « سان بير » السوداء تنبثق ، وكان ينظر الى حياته التي كانت تتوالى . اتزوجها ، لا اتزوجها : « ان هذا لا يعنيني بعد . القضية هي وجه الفلس او قفاه . »

وتوقّف الاوتوبيس توقفاً عنيفاً مفاجئاً ، فانتصب ماتيو ونظر الى ظهر السائق في قلق : لقد اتت حريته كلها ترتدّ عليه . وفكر :

« لا ، ليست القضية هي وجه الفاس او قفاه . فمها حدث ، فانما ينبغي ان يحدث بارادتي . » حتى ولو ترك نفسه موزّعاً يائساً ، ولو ترك نفسه ككيس من الفحم ، فانما يكون قد اختار ضياعه : لقد كان حراً ، حراً في كل شيء ، حراً في ان يكون أبله او يكـــون آلة ، حرّاً ليقبل ، حراً ليرفض ، حراً ليتعلل او يتردّد : كان بوسعه ان يفعل ما يريد : ان يتزوج او يترك ، ان يجرجر طوال سنوات هذه الكرة المعلّقة بقدمه ، فليس لأحد الحق في ان ينصحه ، ولن يكون له « خير » او « شر » الاّ ان يكون قد اخترعهـــما . كانت الاشياء حوله قد اصطفّت في دائرة ، وكانت تنتظر من غير ان تعمل إشارة ، ومن غير ان تأتي اية ايماءة . كان وحيداً ، وسط صمت شيطاني ، حراً ووحيداً ، من غير عون ولا عذر ، محكومـــاً عليه ان يقرّر من غير مساعدة ممكنة ، محكوماً عليه الى الابد ان يكون حراً .

وصاح قاطع التذاكر : – دانفير – روشيرو .

ونهض ماتيو وترجّل ، ودلف الى شارع « فروادفو » وكان متعباً ثائر الأعصاب ، وكان لايني يرى صندوقاً مفتوحاً وسط غرفة مظلمة ، وفي جوف الصندوق اوراق معطرة ناعمة ، وكان ذلك يشبه ندماً ، وفكّر : « آه ! كان عليّ ان آخذها . »

قالت البوّابة :

– رسالة مستعجلة لك . لقد وصلت اللحظة .

وتناول ماتيو الرسالة فمزّق الظرف ، وللحال انهارت الجدران التي كانت تحاصره ، وخيّل اليه ان عالمه يتغير . كانت هناك ثلاث كلمات وسط الصفحة ، مكتوبة بخط كبير هابط :

« سقطت . فاقدة الشعور . ايفيش »

وسألت البوّابة : – إنه ليس خبراً سيئاً ، على الاقل ؟

– كلا .
– آه ! حسناً . لأنك كنت مشدوهاً ؟
سقطت . فاقدة الشعور . ايفيش
– انه تلميذ قديم من تلامذتي قد سقط في الامتحان .
– آه ! انهم يشدّدون في الامتحانات ، على ما قيل لي .
– يتشدّدون كثيراً .
قالت البوّابة : – تأمّل ! جميع هؤلاء الشبان الذين ينجحون . وبعد ذلك ، ها هم اولاء يحملون الألقاب . فماذا تريد ان يفعلوا بهم ؟
– هذا ما اتساءل عنه .
وقرأ للمرة الرابعة رسالة ايفيش ، وكان مصفوعاً بفخامه كلماتها المقلقة . سقطت ، فاقدة الشعور ... وفكر : « انها الآن ترتكب حماقة ما . وهذا واضح كالنهار . انها ترتكب حماقة ما . »
– كم هي الساعة ؟
– السادسة .
الساعة السادسة . لقد تلقّت النتيجة في الساعة الثانية . وها هي اربع ساعات تمضي وهي مقذوفة في شوارع باريس . ووضع الرسالة في جيبه ، وقال للبوابة :
– مدام غارنيه : أعيريني خمسين فرنكاً .
فقالت البوابة مندهشة :
– ولكني لا اعرف ان كنت أملكها .
وفتشت في درج طاولة عملها :
– خذ ، ليس معي الا مئة فرنك ، وستعيدها اليّ هذا المساء .
قال ماتيو : – حسناً . شكراً .
وخرج ، وكان يفكر : « اين عساها تكون ؟ » وكان رأسه

فارغاً ، وكانت يداه ترتجفان . وكانت سيارة تاكسي بطيئة مارّة في شارع فروادفو ، فأوقفها ماتيو :

– بيت الطالبات . ١٧٣ شارع سان جاك . بسرعة .

قال السائق : – حسناً .

« اين عساها تكون ؟ في احسن الحالات تكون قد ذهبت إلى لاون ، وفي اسوأها ... وانا متأخر اربع ساعات » وكان منحنياً الى أمام ، وكان يضغط بشدة قدمه اليمنى عـــلى السجادة مستعجلا السيارة .

وتوقف التاكسي ، فترجل ماتيو وقرع جرس البيت :

– هل الآنسة ايفيش سرغين موجودة ؟

فنظرت اليه السيدة في تحدٍ وقالت :

– اني ذاهبة لأرى .

وما لبثت ان عادت :

– إن الآنسة سرغين لم تعد منذ هذا الصباح . فهل هناك ما تودّ إبلاغها إياه ؟

– لا .

وعاد ماتيو فاستقل السيارة :

– اوتيل بولونيا ، شارع سوميرار .

وبعد لحظة ، طرق على الزجاج وقال :

– هنا ، هنا ، الفندق هو الى اليسار .

وقفز الى الأرض ودفع الباب الزجاجي :

– هل السيد سرغين موجود ؟

وكان الخادم السمين الأحسب واقفاً عند الصندوق ، فعرف ماتيو وابتسم له :

– إنه لم يعد هذه الليلة .

– وأخته ... فتاة شقراء هل مرّت هنا اليوم ؟

فقال الخادم : – اوه ، انني اعرف الآنسة ايفيش جيداً . لا . انها لم تأت ، وليس هناك الا السيدة مونتيرو التي تلفنت مرتين تسأل عن السيد بوريس وتطلب ان يذهب توآ لرؤيتها فور عودته ؛ فاذا رأيته أبلغه ذلك .

قال ماتيو : – حسناً .

وخرج . أين عساها تكون ؟ في السينما ؟ إن هذا غير محتمل قط. تجرجر اقدامها في الشوارع ؟ إنها على كل حال لم تترك باريس بعد ، وإلاّ لمرّت ببيت الطالبات لتأخذ محافظها . وسحب ماتيو الرسالة من جيبه وتفحص الظرف : لقد أرسل من مكتب بريد شارع كوجاس ، ولكن ذلك لم يكن يثبت شيئاً . وسأله السائق :

– اين نذهب ؟

فنظر اليه ماتيو نظرة مترددة وأشرقت في ذهنه فكرة : « لكي تكتب هذا لا بدّ انها قد ثملت . » وقال :

– إسمع : عليك ان تجتاز على مهل جادة سان ميشال مرة اخرى ابتداءً من المحطة . انني أبحث عن إنسان ، ويجب ان أُلمّ بجميع المقاهي .

ولم تكن ايفيش في بياريتز ، ولا في « لامبورس » ولا في «داركور» ولا في « البيار » ولا في « باليه دو كافيه » . وفي مقهى كابولاد ، لمح ماتيو طالباً صينياً كان يعرفها . وتقدّم . وكان الصبي يشرب البورتو وهو معتلٍ كرسيّ المشرب . وقال ماتيو وهو يرفع اليه رأسه:

– اطلب المعذرة . اظنّ انك تعرف الآنسة سرغين ، فهل رأيتها اليوم ؟

فقال الصيني وكان يتكلم بمشقة :

– كلا . حصلت لها مصيبة .

فصاح ماتيو : — ماذا ، حصلت لها مصيبة ؟

قال الصيني : — كلا ، وانما أسأل إن كانت قد حصلت لها مصيبة .

فقال ماتيو وهو يوليه ظهره :

— لا ادري .

ولم يكن يفكّر بعد حتى بأنه يحمي ايفيش من نفسها ؛ لم تكن لديه الا حاجة مؤلمة عنيفة لرؤيتها . وفكر في غضب . «واذا حاولت ان تقتل نفسها ؟ إنها سخيفة الى هذا الحد . » وبعد كل شيء ، ربما كانت بكل بساطة في مونبارناس . وقال :

— الى مفرق « فافين » .

وصعد ثانية الى السيارة . وكانت يداه ترتجفان : فوضعهما في جيبه؛ واستدارت السيارة حول نبع مديسيس فلمح ماتيو ريناتا صديقة ايفيش الايطالية . وكانت خارجة من اللكسمبورغ والمحفظة في يدها ، فصاح ماتيو بالسائق :

— قف ، قف .

وقفز من التاكسي وعدا اليها :

— هل رأيتِ ايفيش ؟

فأخذت ريناتا مظهراً رصيناً وقالت :

— مساء الخير يا سيدي .

قال ماتيو : — مساء الخير ، هل رأيت ايفيش ؟

— ايفيش ، نعم ، رأيتها .

— متى ؟

— منذ ساعة تقريباً .

— اين ؟

— في حديقة اللكمسبورغ (واضافت ريناتا بانزعاج قليل) كانت

مع شخص غريب . هل عرفت ان المسكينة سقطت ؟

– نعم . اين ذهبت ؟

كانا يريدان الذهاب الى مرقص « لاتارنتول » على ما أعتقد .

– واين هو ؟

– شـــارع « مسيولوبرنس » انه كما سترى بائـــع اسطوانات ، والمرقص تحت الارض .

– شكراً .

وخطا ماتيو بضع خطوات ثم عاد يقول :

– اعذريني ، نسيت ايضاً ان اقول لك الى اللقاء ؟

قالت ريناتا : – الى اللقاء يا سيدي .

وعاد ماتيو الى سائقه :

– شارع « مسيولوبرنس » على بعد خطوتين . سِرْ على مهل ، وسأوقفك .

« المهم ان تكون ما زالت هناك ! انني سأجوب جميـــع مراقص الحي اللاتيني . »

– قف . هنا . ستنتظرني لحظة .

ودخل ماتيو الى حانوت بائع اسطوانات وسأل .

– مرقص « لاتارنتول ؟ »

– في الطابق الارضي . إهبط الدرج .

وهبط ماتيو درجاً ، واستنشق رائحة رطبة عفنة ، ثم دفع مصراع باب من الجلد ، وتلقى ضربةً في معدتـــه : كانت ايفيش هناك . وكانت ترقص . واستند الى حاجز الباب وفكر : « انها هنا . »

وكان كهفاً خاليـــاً مضاداً للعفونة ، وبلا ظلّ . وكان ضـــوء مصفّىً يهبط من السقف ذي الورق المزيّت . ورأى ماتيو زهاء خمس عشرة طاولة ضائعة وسط هذا البحر الضوئي الميت . وكانت قـــد

ألصقت على الجدران البنيّة قطع ملونة من الورق المقوّى كانت تمثّل نباتات غريبة ، ولكنها كانت قد تقوّست والتوت بتأثير الرطوبة ، وكان الصبّار قد انتفخ تجعُدات . وكان ثمة حاكٍ غير مرئي يذيع رقصة باسادوبل ، وكانت هذه الموسيقى المعلّبة تزيد القاعة عرياً .

كانت ايفيش قد أراحت رأسها على كتف مراقصها ، وكانت تلتصق به بشدّة . وكان يجيد الرقص . وقد عرفه ماتيو : كان ذلك الشاب الطويل الأسمر الذي كان يصطحب ايفيش مساء امس في جادة سان ميشال . وكان يشمّ شعر ايفيش بين وقت وآخر ويقبّله . فكانت اذ ذاك تقذف رأسها الى خلف وتضحك ، وهي ممتقعة ، مغمضة العينين ، فيما كان يهمس في اذنها ؛ وكانا وحدهما وسط الحلبة . وفي جوف القاعة ، كان اربعة شبان وفتاة طلت وجهها بالمساحيق يصفقون بأيديهم ويصرخون « اوليه » واقتاد الشاب الطويل الأسمر ايفيش الى طاولته وهو يمسكها من قامتها ، فتجمّع الطلاّب حولها واحتفلوا بمقدمها؛ وكانوا على مظهر طبيعي ومتصنّع في الوقت نفسه ، وكانوا يحيطونها بحركات دائرة ولطيفة اما المرأة المزينة فكانت قائمة على حذر . كانت واقفة ، ثقيلة ومرتخية ، ونظرها محدّد . وأشعلت سيجارة وقالت بتفكّر :

– اوليه .

وانهارت ايفيش على كرسي بين المرأة الشابة وبين قصير أشقر ذي لحية قصيرة . وكانت تضحك بجنون . وقالت وهي تلوّح بيدها امام وجهها :

– كلا ، كلا ! لا حاجة الى دليل ، لا حاجة الى دليل !

ونهض ذو اللحية على عجل ليتنازل عن مقعده للراقص الأسمر . وفكر ماتيو : « تمت اللوحة ، لقد اعترفوا له بحقه في الجلوس الى جانبها . » وكان يبدو على الأسمر الجميل انه يجد الأمر طبيعياً جداً ؛

والواقع انه الوحيد الذي كان يبدو راضياً مرتاحاً .

واومأت ايفيش باصبعها الى ذي اللحية ، وقالت ضاحكة ؟

– لقد فرّ لأني وعدتُه بأن اقبّله .

فقال ذو اللحية بكل رصانة :

– اسمحي لي ، انك لم تَعِديني بذلك ، بل هددتني به .

قالت ايفيش : – حسناً ! لن اقبّلك ، بل سأقبّل « ايرما » .

فقالت المرأة الشابة وقد ثارت دهشتها وغرورها :

– تريدين ان تقبليني يا صغيرتي ايفيش !

– نعم ، تعالي .

وجذبتها من ذراعها في تسلط . فابتعد الآخرون وقد أخذهم العجب ، وقال احدهم : « ما هذا يا ايفيش ! » بصوت لايخلو من تأنيب لطيف . وكان الجميل الأسمر ينظر اليها ببرودة وهو يبتسم بسمة خفيفة ؛ كان يراقبها . واستشعر ماتيو الذل ؛ ان ايفيش لم تكن ، بالنسبة لهذا الشاب الأنيق ، الا فريسة ؛ لقد كان يعرّيها بنظرة شهوانية عارفة ، وقد كانت عارية امامها ، وكان يحزر نهديه وفخذيها ورائحة لحمها ... وانتفض ماتيو فجأة ، وتقدّم من ايفيش ، مرتخي الساقين : لقد لاحظ انه كان يشتهيها للمرة الاولى بخجل ، عبر شهوة شخص آخر .

وكانت ايفيش قد قامت بألف حركة متصنّعة قبل ان تقبّل جارتها. واخيراً ، تناولت رأسها بين يديها ، وقبّلتها في شفتيها ثم دفعتها عنها بعنف وهي تقول في تأنيب :

– ان رائحتك هي رائحة الكاد الهندي .

وانزرع ماتيو بالقرب من طاولتهم وقال :

– ايفيش !

فنظرت اليه فاغرة الفم ، وتساءل عما اذا كانت قد عرفته . ورفعت

على مهل يدها اليسري وأرته اياها وقالت :
ـ هذا انت ؟ عجباً ، انظر !
كانت قد نزعت ضمادها ، فرأى ماتيو قشرة محمرّة دبقة مع صخور صغيرة من القيح الاصفر .
وقالت ايفيش خائبة :
ـ لقد احتفظتَ بضمادك . صحيح ، انت متبصّر .
قالت المرأة بلهجة اعتذار :
ـ لقد نزعته بالرغم منا . انها شيطان صغير .
ونهضت ايفيش فجأة ونظرت الى ماتيو نظرة مبهمة :
ـ خذني من هنا . انني أُذلّ نفسي .
فتبادل الشبان النظرات ، وقال ذو اللحية لماتيو :
ـ اننا لم نجعلها تشرب . بل نحن حاولنا منعها من ذلك .
فقالت ايفيش باشمئزاز :
ـ هذا صحيح . انهم لؤماء .
قال الراقص الجميل :
ـ الا انا يا ايفيش ، الا انا .
وكان ينظر اليها نظرة مشاركة : فالتفتت اليه ايفيش وقالت :
ـ الا هذا الذي هو انسان قذر !
قال ماتيو على مهل :
ـ تعالي .
واخذها من كتفيها وساقها ، وكان يسمع خلفه ضجة واجمة .
وفي وسط الدرج ، تثاقلت ايفيش ، فابتهل قائلاً : « ايفيش ! » فنفضت خصلاتها مقهقهة وقالت :
ـ اريد ان اجلس .
ـ ارجوكِ .

فعادت ايفيش الى الضحك ثم رفعت تنورتها الى ما فوق ركبتها وقالت :

– اريد ان اجلس هنا .

فتناولها ماتيو من قامتها وحملها . وحين بلغا الشارع تركها : ولم تتخبط ، وطرفت بعينيها ونظرت فيما حوله نظرة ضجرة . وقال ماتيو مقترحاً :

– هل تريدين ان تعودي الى بيت الطالبات ؟

فقالت ايفيش في صيحة : – كلا .

– اتريدين ان آخذك الى بوريس ؟

– انه ليس في البيت .

– واين هو ؟

– الشيطان يدري .

– اين تريدين ان تذهبي ؟

– ما يدريني انا ؟ عليك انت ان تجد ، فأنت الذي اخذتني .

وفكر ماتيو لحظة وقال :

– حسناً .

وامسكها حتى التاكسي وقال :

– ٢٢ ، شارع هويغنز .

وقال : – اني آخذك الى بيتي . تستطيعين ان تتمددي على ديواني وسأعدّ لك الشاي .

فلم تعترض ايفيش . وصعدت الى السيارة على مشقة وارتمت فوق الوسائد .

– هل تشكين شيئاً ؟

وكانت مزرقّة ، وقالت :

– اني مريضة .

قال ماتيو : — سأقول له ان يقف امام صيدلية .
فقالت بعنف : — كلا .
قال ماتيو : — اذن تمدّدي واغمضي عينيك . سنصل عما قليل .
فأنّت ايفيش قليلاً . وفجأة اخضر لونها واطلت من الباب . وكان ماتيو يرى ظهرها الهزيل يهزّه التقيّؤ . ومدّ يده فأمسك بـلا ضجة قفل الباب : كان يخشى ان ينفتح . وبعد لحظة ، انقطع السعال ، فارتمى ماتيو بحيوية الى خلف ، واخذ غليونه وحشاه وهو مستغرق . وتركت ايفيش نفسها ترتمي على الوسائد ، واعاد ماتيو غليونه الى جيبه . وقال لها :
— لقد وصلنا .
واستقامت ايفيش بمشقة وقالت :
— انني خجلة .
وترجل ماتيو قبلها ومدّ لها ذراعيه ليعينها ، ولكنها دفعته وقفزت بحيويـة الى الرصيف . واسرع يدفـع للسائق والتفت اليها ، فاذا هي تنظر اليه نظره محايدة ؛ وكانت رائحة قيء يسير تنبعث من فمها النقيّ . واستنشق ماتيو هذه الرائحة بهوس :
— هل تحسنت حالتك ؟
فقالت ايفيش بلهجة قاتمة :
— لست بعد ثملة ، ولكن رأسي يخفق .
ودلّها ماتيو برفق على السلّم . وقالت له بلهجة عدائية :
— عند كل درجة ، ضربة في رأسي .
وتوقفت لحظه عند السطح الثاني لتستردّ انفاسها .
— انني الآن اتذكر كل شيء .
— ايفيش !
— كل شيء . لقد تدحرجت مع اولئك الاشخاص القذرين وجعلته

نفسي عرضة للانظار ... ثم انني ... سقطت في الشهادة .
قال ماتيو : — تعالي . لم يبق الا طابق واحد .
وصعدا في صمت . وقالت ايفيش فجأة :
— كيف عثرت عليّ ؟
فانحنى ماتيو ليدخل المفتاح في القفل ، وقال :
— كنت ابحث عنك ، ثم التقيت ريناتا .
ودمدمت ايفيش خلف ظهره :
— كنت ارجو طوال الوقت ان تأتي .
قال ماتيو وهو يمّحي امامها : « ادخلي » فلامسته وهي تلمّ به ، واستولت عليه الرغبة في ان يأخذها بين ذراعيه . وخطت ايفيش بضع خطى مترددة ودخلت الغرفة . ونظرت فيما حولها نظرة مقطّبة :
— هذا هو بيتك !
قال ماتيو : — نعم .
وكانت هذه هي المرة الاولى التي يستقبلها فيها عنده . ونظر الى المقاعد الجلدية الخضراء والى طاولة عمله ، ورآها بعيني ايفيش فداخله منها الخجل وقال :
— هو ذا الديوان . تمدّدي عليه .
فارتمت ايفيش على الديوان دون ان تنبس بحرف .
— هل تريدين شاياً ؟
قالت ايفيش : — اني اشعر بالبرد .
وراح ماتيو يأتيها بغطاء الرجلين ويمدّه على ساقيها . واغمضت ايفيش عينيها ووضعت رأسها على وسادة . وكانت تتألم ، وكان على جبينها ثلاثة تجعدات عمودية ، عند منبت الانف .
— هل تريدين شاياً ؟
فلم تجب . واخذ ماتيو المغلاة الكهربائية وراح يملأها من حنفية

المطبخ . ووجد في قفص الطعام نصف ليمونة قديمة قد تزججت بقشرتها الجافة ، ولكن ربما كان من الممكن استقطار دمعة او دمعتين منها اذا عُصرت جيداً . ووضعها على صحن مع فنجانين وعاد الى الغرفة يقول :

— وضعت الماء للغلي .

فلم تجب ايفيش : كانت نائمة . وسحب ماتيو كرسياً بازاء الديوان وجلس بلا ضجة . وكانت تجعّدات ايفيش الثلاثة قد اختفت ، وكان جبينها نقياً املس ؛ كانت تبتسم وعيناها مغمضتان . وفكر : « ما انضر شبابها ! » لقد وضع امله كلّه في طفلة . وما كان اشدّ ضعفها وخفتّها وهي على هذا الديوان : لم تكن تستطيع ان تساعد احداً ، بل كان ينبغي ، بالعكس ، ان تُساعَد لكي تحيا . ولم يكن ماتيو يستطيع ان يساعدها . ستذهب ايفيش الى « لاون » وستتوحش هناك شتاءً او شتاءين ، ثم يأتي شخص — شخص شاب — فيأخذها .. « وانا سأتزوج مارسيل . » ونهض ماتيو وذهب يرى على مهل ان كان الماء يغلي ، ثم عاد يجلس بالقرب من ايفيش ، ونظر بحنان الى هذا الجسم الصغير الضعيف الملطّخ الذي يظلّ شريفاً الى هذا الحدّ في النوم ، وفكر بأنه كان يحب ايفيش فدهش لذلك : ان الحب شيء لا يُحسّ به ، وهو لم يكن انفعالاً خاصاً ، ولا لوناً خاصاً من عواطفه ، وانما هو اشبه بأن يكون لعنةً ثابتة في الأفق ، نذيراً عصيبة . واخذ الماء يغنّي في المغلاة ، وفتحت ايفيش عينيها ، فقال ماتيو :

— انني اعدّ لك شاياً . هل تريدين ؟

قالت ايفيش بلهجة ضيق : — شاي ؟ ولكنك لا تحسن اعداد الشاي .

واعادت كفّها خصلاتها على وجنتيها ونهضت وهي تفرك عينيها ، وقالت :

– اعطني علبة الشاي ، سأعدّه لك على الطريقة الروسية . ولكننا بحاجة الى مغلاة روسية .

فقال ماتيو وهو يمدّ لها علبة الشاي :

– ليس عندي الا مغلاة عادية .

– اوه ! ثم هذا شاي سيلاني . فليكن !

ووقف إمام المغلاة :

– وابريق الشاي ؟

قال ماتيو : « صحيح » وانطلق يأتي بأبريق الشاي من المطبخ .

– شكراً .

وكانت هيئتها ما تزال قائمة ، ولكنها منتعشة . وصبت الماء في ابريق الشاي وعادت الى الجلوس بعد لحظات وهي تقول :

– ينبغي ان نتركه لينقع .

وساد صمت ، ثم استطردت :

– انني لا احب بيتك .

قال ماتيو : – كنت اعتقد ذلك جيداً . واذا تحسنت حالتك قليلاً ، كان بوسعنا ان نخرج .

فقالت ايفيش : – واين نذهب ؟ كلا . انني مسرورة بأن أكون هنا . لقد كانت جميع تلك المقاهي تدور حولي ؛ ان الناس كانوا كوابيس .. صحيح ان البيت هنا قبيح ، ولكنه هادىء . الا تستطيع ان تسدل الستائر ؟ سنضيء بعد ذلك هذا المصباح الصغير .

فنهض ماتيو ، وذهب يغلق المصاريع ويحلّ الاربطة ، فالتقت الستائر الثقيلة ، واضاء مصباح مكتبه . وقالت ايفيش مفتونة :

– هذا هو الليل .

– واستندت الى وسائد الديوان :

– ما انعم هذا ! لكأن النهار قد انتهى . اودّ ان يكون الظلام

سائدا حين اخرج من هنا .
قال ماتيو : — إبقي هنا ما شئت . فلن يأتي احد ، واذا جــاء احد تركناه يدق من غير ان نفتح . انني حر تماماً .
ولم يكن هذا صحيحاً : كانت مارسيل تنتظره عند الساعة الحادية عشرة . وفكر في ضغينة : سوف تنتظر . وسألها :
— متى تذهبين ؟
— غداً . هناك قطار عند الظهر .
وظل ماتيو لحظة دون ان يتكلم . ثم قال وهو يراقب صوته :
— سأصحبك الى المحطة .
قالت ايفيش : — كلا . انني اكره هذا ، فذلك يقتضي وداعات مائعة تتمطط كالكاوتشوك . ثم اني سأكون ميتة من التعب .
قال ماتيو : — كما تشائين . هل ابرقت لاهلك ؟
— كلا . كان بوريس يريد ان يفعل ذلك ، ولكني منعته .
— اذن ، ينبغي ان تبلغيهم ذلك بنفسك ؟
فخفضت ايفيش رأسها وقالت :
— نعم .
وساد صمت وكان ماتيو ينظر الى رأس ايفيش المنحني وكتفيهــا الهزيلتين : وكان يخيل اليه انها كانت تتركه رويداً رويداً . وسألها :
— هذه اذن آخر امسية لنا في هذا العام :
فقالت في ضحكة ساخرة : — ها ! في هذا العام !...
قال ماتيو : — ايفيش ... لا ينبغي لك ... سأذهب اولاً لرؤيتك في « لاون » .
— لا اريد . ان كل ما يتعلّق بلاون ملطّخ .
— اذن ستعودين .
— كلا .

– هناك دورة في تشرين الثاني ، ولا يستطيع اهلك ...
– انت لا تعرفهم .
– صحيح . ولكن ليس من الممكن ان يفسدوا حياتك كلها عقاباً لك على انك سقطت في الامتحان .

قالت ايفيش : – انهم لن يفكروا في معاقبتي . ولكن سيكون الأمر اسوأ من ذلك ؛ سوف يهملونني ، وسأخرج من افكارهم بكل بساطة . (واستخف بها الغضب فأضافت) وهذا ما استحقه فعلاً ! انني لست جديرة بتعلم اية مهنة ، وانا افضل ان ابقى في لاون طوال حياتي على ان اعيد من جديد هذه الشهادة ...

فقال ماتيو قلقاً : – لا تقولي هذا يا ايفيش . لا تستسلمي منذ الآن . انك تكرهين لاون .

فقالت وهي منقبضة الاسنان :

– اوه ! نعم ، انني اكرهها بفظاعة .

ونهض ماتيو ليأتي بابريق الشاي والفناجين . وفجأة صعد الدم الى وجهه ، فالتفت اليها وتمتم من غير ان ينظر اليها :

– اسمعي يا ايفيش : ستذهبين غداً ، ولكني اعدك بأنك ستعودين في نهاية تشرين الاول . وسوف اتدبر الامر حتى ذلك الحين .

فسألته ايفيش في دهشة متعبة :

– ستتدبّر الامر ؟ ولكن ليس هناك مجال لتدبر الامر : قلت لك اني غير جديرة بتعلم مهنة .

وجرؤ ماتيو على رفع نظره اليها ، ولكنه لم يستشعر الاطمئنان ؛ فأنّى له ان يجد الكلمات التي لا تنغّصها ؟

– ليس هذا ما كنت أعنيه ... فلو .. لو انك اردت ان تسمحي لي بأن اساعدك ...

وكان يبدو على ايفيش انها لم تفهم بعد ، فأضاف ماتيو :

ـ سيكون معي بعض المال .

فأخذت ايفيش غصّة وقالت :

ـ آه ! أهذا ما تعنيه ؟

ثم اضافت بجفاء :

ـ ان هذا مستحيل .

قال ماتيو في حرارة : ـ على الاطلاق ، ان هذا ليس مستحيلاً على الاطلاق . اسمعي : في اثناء العطلة ، سأقتصد بعض المال ؛ ان اوديت وجاك يدعوانني كل عام لقضاء شهر آب في مقصورتهما في « جوان ليبان » ، ولم ألبّ دعوتهما حتى الآن ، ولكن لا بد من ان ألبيها ذات يوم . وسأذهب هذا العام ، فأصيب بعض التسلية وأوفر بعض المال ... (وأضاف بحيوية) لا ترفضي قبل ان تعرفي : سيكون هذا قرضاً .

وتوقف . وكانت ايفيش قد تراخت ، وكانت تنظر اليه من تحت نظرة سيئة :

ـ ولكن لا تنظري الي هكذا يا ايفيش !

فقالت ايفيش بصوت مقطب :

ـ آه ، لا ادري كيف انظر اليك، ولكني اعرف ان بي صداعاً.

وأسبلت عينيها واضافت :

ـ عليّ ان اعود الى البيت لأنام :

ـ ارجوك يا ايفيش : اصغي الي . سوف اجد المال وستعيشين في باريس ، ولا تقولي لا ، ابتهل اليك ، لا تقولي لا من غير ان تفكري . ان هذا لا يمكن ان يزعجك : ستردين لي المال حين تكسبين حياتك بالعمل .

فهزت ايفيش كتفيها ، واضاف ماتيو بحماسة :

ـ او ان بوريس هو الذي يردّ المال .

فلم تجب ايفيش ، وكانت قد دفنت رأسها في شعرها ، وكان ماتيو ما يزال مزروعاً امامها ، منزعجاً وشقياً .

— ايفيش .

وظلت معتصمة بصمتها . وكانت بـه رغبة بان يأخذها من ذقنها ويرفع لها رأسها قسراً .

— ايفيش ! آن لك ان تجيبي عليّ . لماذا لا تجيبين ؟

وظلت ايفيش صامتة . وأخذ ماتيو يذرع الغرفه جيئـة وذهاباً . وكان يفكر : « سوف تقبل . لن اتركها قبل ان تقبل . سوف .. سوف اعطي دروساً خصوصية ، او سأصحّح المسودات .»

وقال : — ستقولين لي يا ايفيش لماذا لا تقبلين ؟

وكان ممكناً التغلب على ايفيش بالارهاق : ينبغي ارهاقها بالأسئلة التي تتغيّر لهجتها بين فترة واخرى . وعاد يقول :

— لماذا لا تقبلين ؟ قولي لماذا لا تقبلين ؟

وتمتمت ايفيش اخيراً ، من غير ان ترفع رأسها :

— لا اريد ان اقبل مالك .

— لماذا ؟ انك تقبلين مال اهلك .

— ليس الامران سواء .

— صحيح : ليس الامران سواء . لقد قلت مئة مرة إنك كنت تحتقرينه .

— ليس عندي مبرر لقبول مالك .

— وربما كان عندك مبرر لقبول مالهم ؟

قالت ايفيش :

— لا اريد ان يكون الناس كرماء معي. اما اذا كان ذلك من ابي، فلست محتاجة معه الى العرفان .

فصاح ماتيو :

ـ ما هذه الكبرياء يا ايفيش ؟ انه لا يحق لك ان تفسدي حياتك من اجل قضية كرامة . فكري في الحياة التي ستعيشينها هناك . ستندمين يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، لكونك قد رفضت .

فتحللت ايفيش وقالت :

ـ دعني ، دعني !

وأضافت بصوت منخفض خشن :

ـ اوه ! اي عذاب الا ان يكون المرء غنياً . ان هذا يضعه في مواقف كريهة .

قال ماتيو على مهل :

ـ ولكني لا افهمك . لقد قلت لي في الشهر الماضي ان المال كان شيئاً محتقراً ، ولا ينبغي ان نوليه اي اهتمام . كنت تقولين : لا يهمني من اين يأتي ، المهم ان املكه .

فرفعت ايفيش كتفيها ، ولم يعد ماتيو يرى منها الا اعلى رأسها وطرفاً من رقبتها بين خصلاتها وباقة قميصها . وكانت الرقبة اشد سمرة من بشرة الوجه .

ـ ألم تقولي لي ذلك ؟

ـ لا اريد ان تعطيني مالاً .

ففقد ماتيو صبره ، وقال في ضحكة متقطعة :

ـ آه ! ذلك اذاً لأني رجل !

فسألته ايفيش : ـ ماذا تقول ؟

وكانت تنظر اليه في حقد بارد :

ـ ان هذا صفيق . وانا لم افكر في ذلك قط ، واني اسخر منه ، ولم اكن اتصور ...

ـ واذن ؟ فكري : للمرة الاولى في حياتك ستكونين حرة تماماً ؛ ستعيشين حيث تريدين ، وستفعلين كل ما يروق لك . لقد

سبق ان قلت لي انك تودين ان تُعدّي شهادة ليسانس في الفلسفة . تستطيعين ان تجربي ، وسنساعدك انا وبوريس .

وسألته ايفيش : – لماذا تريد ان تعمل خيراً ؟ انني لم اعمل معك شيئاً من ذلك قط .. بل لقد كنتُ معك غير محتملة ، وهأنت الآن مشفق عليّ .

– انني لست مشفقاً عليك .

– اذن لماذا تعرض عليّ مالاً ؟

فتردد ماتيو ، ثم قال وهو يصرف عنها بصره :

– لا استطيع ان احتمل التفكير بألا اراك بعد .

وساد صمت ، ثم سألته ايفيش بلهجة غير واثقة :

– تريد ... تعني انك .. انما تفعل ذلك بدافع الانانية ؟

فقال ماتيو بجفاف : – بدافع انانية محضة . كل ما في الامر أني راغب في رؤيتك .

وجرؤ على ان يلتفت اليها . وكانت تنظر اليه مقطبة الحاجب ، فاغرة الفم . ثم بدا عليها فجأة انها تنفرج . وقالت في غير اكتراث :

– اذن ربما . ان هذا يعنيك ، في هذه الحالة . وسنرى . وانت على حق ، في آخر المطاف : ان يأتي المال من هنا او من هنالك .

وتنفس ماتيو وفكر : « حسناً ! » ولكنه لم يكن قط مطمئناً : لقد كانت ايفيش بهيئتها الشرسة . وسألها ليزيدها إلزاماً :

– وكيف تراك ستحملين اهلك على ابتلاع هذا ؟

فقالت ايفيش بغموض :

– سأقول اي شيء . فاما ان يصدقوني او لا يصدقوني ، وما أهمية ذلك ما داموا لا يدفعون بعد ؟

وخفضت رأسها في هيئة قاتمة وقالت :

ـ لا بد من العودة الى هناك .

فجهد ماتيو بأن يستر غيظه :

ـ ولكن ما دمت ستعودين ؟

قالت : ـ ان هذا غير واقعي .. اقول لا ، واقول نعم ، ولكني لا انجح في ان اصدق ذلك . إنه بعيد . في حين اني سأكون في لاون مساء الغد .

ولمست حنجرتها وقالت :

ـ انني احسها هنا . ثم انه يجب علي ان أهيىء حقائبي ، وهذا ما يستغرق ساعات الليل بطولها .

ونهضت : ـ لا بد ان الشاي قد جهز . تعال لنشرب .

وصبت الشاي في الفناجين ، وكان اسود كالقهوة . وقال ماتيو :

ـ سأكتب لك .

قالت : ـ وانا ايضاً ، ولكن لن يكون لدي ما اقوله لك .

ـ ستصفين لي بيتكم ، وغرفتك : اني اود ان اتخيلك وانت هناك .

قالت : ـ اوه ، كلا . لا احب ان اتحدث في هذا كله . انه يكفيني ان اعيشه .

وفكر ماتيو في الرسائل القصيرة الجافة التي كان بوريس يبعثها الى لولا . ولكن ذلك لم يدم اكثر من لحظة : كان ينظر الى يدي ايفيش ، والى اظافرها الحمر المدببة ، والى معصميها الهزيلين وفكر : « سأراها مرة اخرى . » وقالت ايفيش وهي تضع فنجانها :

ـ اي شاي غريب !

وانتفض ماتيو اذ سمع جرس الباب يرن . ولم يقل شيئاً : كان يأمل ان تكون ايفيش قد سمعت . وسألت :

ـ عجباً ! ألم يرن الجرس ؟

فوضع ماتيو اصبعاً على شفتيه وهمس :

ـ لقد اتفقنا على ألا نفتح الباب .

فقالت ايفيش بصوت واضح :

ـ بلى ، بلى ربما كان ذلك هاماً . اذهب سريعاً فافتح الباب .

وتوجه ماتيو الى الباب . وكان يفكر : « انهـــا تكره ان تكون ضالعة معي . » وفتح الباب فيما كانت ساره تهم بدقه ثانية . وقالت ساره لاهثة :

ـ مرحباً ! انك تجعلني اركض كما ترى . لقد اخبرني الوزير الصغير انك تلفنت ، فأتيت . ولم اهتم بان اضع قبعتي .

ونظر اليها ماتيو في ذعر : كانت مصبوبة في ثوبها البشع الاخضر، وهي تضحك عن اسنان نخرة وشعرها مشعث وهيئتها هيئة طيبة مفتعلة. كانت تفرز الكارثة . وقالت بحيوية :

ـ مرحباً ! ترين انني ... مع ...

فدفعته ساره في ود ومدت رأسهـــا من فوق كتفه وسألت في فضول شره :

ـ مَن عندك ؟ آه ! انها ايفيش سرغين . كيف حالك ؟

ونهضت ايفيش وقامت بحركة احترام . وكانت الخيبة بادية عليها : وكذلك كان شأن ساره . وكانت ايفيش هي الشخص الوحيد الذي لم تكن ساره تحتمله . وقالت ساره :

ـ كم انت هزيلة ! انا متأكدة من انك لا تأكلين بما فيه الكفاية. وانت في ذلك غير عاقلة .

ووقف ماتيو في وجه ساره وهو ينظر اليها بإحداد : وأخذت ساره تضحك وقالت بجذل :

ـ ها هو ماتيو يوسع لي عينيـــه . انه لا يريد ان احدثك عن صحتك .

والتفتت الى ماتيو وقالت :

ـ لقد عدت في ساعة متاخرة من الليل . ولم اجد « والدمان » . كان لم يمض على وجوده في باريس عشرون يوماً ، حتى غرق في ركام من الاعمال المشبوهة . وكانت الساعة قد بلغت السادسة حين عثرت عليه .

قال ماتيو : ـ انك لطيفة يا سارة ، فشكراً .

ثم اضاف باندفاع : ـ سنتحدث عن هذا فيما بعد . تعالي خذي فنجان شاي .

قالت : ـ لا ، لا ! بل لن اجلس ، فعليّ ان اتجه الى المكتبة الاسبانية ، فهم يريدون ان يروني بصورة عاجلة . هناك صديق لغوميز وصل الى باريس .

فسألها ماتيو ليكسب الوقت : ـ ومن هو ؟

ـ لا اعرف بعد . قالوا لي : صديق لغوميز ، قادم من مدريد .

ونظرت الى ماتيو في حنان ، وكانت عيناها تبدوان شاردتين من فرط الطيبة .

ـ ان عندي نبأ سيئاً لك يا عزيزي ماتيو : انه يرفض .

ـ هِمْ !

غير انه تأتّى له ان يقول :

ـ تودين من غير شك ان تكلميني على حدة ؟

وقطّب حاجبيه عدة مرات ، ولكن ساره لم تكن تنظر اليه . وقالت في أسى :

ـ لا يحتاج الامر الى ذلك . فليس عندي ما اقوله لك تقريباً .

ثم اضافت بصوت مثقل بالسر :

ـ لقد ألححت ما وسعني ذلك . ولكن عبثاً . يجب على الشخص المعني ان يكون عنده صباح الغد ، ومعه المال .

قال ماتيو بحيوية : – حسناً ! لا تتكلم بعدُ بهذا :
وضغط على الكلمات الأخيرة ، ولكن ساره كانت حريصة على ان تبرّر نفسها فقالت :
– لقد بذلت جهدي ، وابتهلت اليه ، لو تعلم . فقال لي ، « هل هي يهودية ؟ » فقلت كلا . وعند ذلك قال : « انني لا أقرض احداً . اذا شاءت ان اخلّصها فلتدفع . والاّ ، فان العيادات غير مفقودة في باريس . »
وسمع ماتيو الديوان يفرقع خلفة . واستطردت ساره :
– لقد قال : « انني لا أقرضهم ابداً . لقد عذّبونا هناك اكثر مما ينبغي . » وهذا صحيح كما تعلم ، وانا اكاد افهم موقفه . لقد حدثني عن يهود فيينا ، وعن معسكرات الاعتقال . ولم اكن اريد ان اصدقه ... ولكن صوته اختنق : « لقد عذبوهم عذاباً شديداً . »
وصمتت ، وحلّ صمت ثقيل . ثم اضافت وهي تنفض رأسها :
– وإذن ، ما الذي ستفعله ؟
– لا ادري .
– ألا تفكر في ...
فقال ماتيو بحزن : – بلى ، اتصوّر ان الأمر سينتهي الى هذا .
قالت ساره في انفعال : – يا عزيزي ماتيو !
ونظر اليها في قسوة ، فصمتت منزعجة . ورأى شيئاً ما يشرق في عينيها يشبه أشعة وجدانية ، ثم قالت بعد لحظة :
– حسناً . انني اذن أفرنقع . اتصل بي صباح الغد ، فانا اريد ان اعرف .
قال ماتيو : – حسناً . الى اللقاء يا ساره .
وصاحت ساره وهي ازاء الباب : – الى اللقاء يا صغيرتي ايفيش .
قالت ايفيش : – مع السلامة يا سيدتي .

وحين ذهبت ساره ، استعاد ماثيو مشيته عبر الغرفة . وكان يشعر بالبرد . وقال ضاحكاً :

ـ ان هذه المرأة الطيبة زوبعة . انها تدخل كالعاصفة فتلقي كل شيء ارضاً ثم تمضي كالريح .

فلم تقل ايفيش شيئاً . وكان ماتيو يعلم انها لن تجيب . واقبل يجلس بالقرب منها وقال من غير ان ينظر اليها :

ـ ايفيش : سوف اتزوج مارسيل .

وساد صمت آخر . وكان ماتيو ينظر الى الستائر الثقيلة الخضراء التي كانت تتدلى على النافذة . وكان متعباً . واوضح لايفيش ، وهو خافض الرأس .

ـ لقد اخبرتني امس الاول انها حامل .

وعانت الكلمات مشقةً حتى تخرج : انه لم يكن يجرؤ على الالتفات الى ايفيش ، ولكنه كان يعلم انها كانت تنظر اليه . وقالت بصوت مثلوج :

ـ انني اتساءل لماذا تقول لي ذلك . فهذه شؤونك .

فهزّ ماتيو كتفيه وقال :

ـ كنت تعلمين جيداً انها كانت ...

قالت ايفيش في ترفّع : ـ خليلتك ؟ اقول لك انني لا اهتم كثيراً بهذه الامور .

وترددت لحظة ثم قالت بلهجة شاردة :

ـ انني لا افهم لماذا يبدو عليك الارهاق . اذا تزوجتها ، فهذا يعنى انك راغب في ذلك . والاّ فان الوسائل ، على ما قيل لي ، غير مفقودة ...

قال ماتيو : ـ ليس معي مال . لقد بحثت في كل مكان ...

ـ ومن اجل هذا ، كلّفت بوريس بان يقترض خمسة آلاف فرنك

من لولا ؟
ـ آه ! تعلمين ! انني لم ... واخيراً نعم ، نعم، من اجل هذا ، اذا شئت .
قالت ايفيش بصوت ابيض :
ـ ان هذا شيء قذر .
ـ نعم .
وقالت ايفيش : ـ والواقع ان ذلك لا يعنيني . لا بدّ انك تعرف ما عليك ان تفعله .
وأنهت شرب فنجانها وسألته :
ـ كم الساعة ؟
ـ التاسعة الا ربعاً .
ـ هل هبط الليل ؟
فتوجه ماتيو الى النافذة ورفع الستائر، فتسلّل نهارٌ قذر عبر الشقوق.
ـ لم يهبط بعد تماماً .
قالت ايفيش وهي تنهض : ـ اوه ! لا بأس ! انني مع ذلك ذاهبة . (واضافت بلهجة انين) ان عليّ ان اعدّ جميع تلك الحقائب.
قال ماتيو : ـ اذن مع السلامة .
ولم تكن له رغبةٌ في امساكها .
ـ الى اللقاء .
ـ هل اراك مرة اخرى في تشرين الاول ؟
لقد ندّت هذه الكلمات عنه بالرغم منه . فانتفضت ايفيش انتفاضة عنيفة وقالت والشرر يتطاير من عينيها :
ـ في تشرين الاول ؟ في تشرين الاول ! آه ، كلا !
واخذت تضحك وقالت :
ـ اعذرني . ان هيئتك غريبة لو تعلم . انني لم افكر قط بان اقبل

مالك : انك لن تملك منه اكثر مما يحتاجه تأثيث بيتك الزوجي .

قال ماتيو وهو يأخذ بذراعها : – ايفيش !

فأطلقت ايفيش صرخة وتخلصت منه فجأة وقالت :

– دعني . لا تلمسني .

فترك ماتيو ذراعه تسقط . وكان يحس غضباً يائساً يتملكه . وتابعت ايفيش لاهثة :

– لقد شككت في ذلك . صباح امس .. حين جرؤت على لمسي ... قلت لنفسي : ان هذه تصرفات رجل متزوج .

قال ماتيو بخشونة :

– كفى ، لا حاجة الى الالحاح . لقد فهمت .

وكانت هناك ، معسكرة امامه ، محمرة من الغضب ، وعلى شفتيها بسمة غطرسة : وخاف من نفسه . فارتمى خارجاً وهو يدافعها ، وصفق باب الدخول خلفه .

١٦

« لا تعرف ان تحبّ ، لا تعرف
وعبثاً أمدُّ ذراعيّ . »

كان مقهى «ايترو موسكيتير» يلتمع بكل انواره في المساء الحائر. وكان جمعٌ عاطلٌ قد تحلّق قرب الرصيف : عما قليل سينبسط فوق باريس دانتيل الليل المضيء ، من مقهى الى مقهى ، ومن واجهة الى واجهة ؛ كان الناس ينتظرون الليل وهم يستمعون الى الموسيقى ، وكان مظهر السعادة بادياً عليهم ، وكانوا يتدافعون في ارتعاش امام هـذا الاحمرار الليلي الصغير الاول . واستدار ماتيو حول هذا الجمع الغنائي : ان عذوبة المساء لم تكن له .

« لا تعرف ان تحبّ ، لا تعرف
ابداً ، ابداً لن تعرف . »

شارع طويل مستقيم . وخلفه ، في غرفة خضراء ، كان وجدان صغير حاقد يدفعه بكل قواه . وامامه ، في غرفـة وردية ، كانت تنتظره امرأة لا تتحرك ، وهي تبتسم املاً . سوف يدخل بعد ساعة بخطى ذئبية في الغرفة الوردية ، سيدع نفسه ليبتلعه هذا الامل العذب ، هذا العرفان ، هذا الحب ، طوال الحياة ، طوال الحيـاة . ان اناساً

يلقون بأنفسهم في الماء لأقلّ من هذا .

– ايها الحمار !

وارتمى ماتيو الى امام ليتجنّب السيارة ؛ فاصطدم بالرصيف ووجد نفسه على الارض : كان قد سقط على يديه ، واطلق تجديفة . ونهض ، وكانت راحتاه تؤلمانه ، وتأمل يديه الموحلتين في خطورة : كانت اليد اليمنى سوداء ، مع بعض الجروح ، وكانت اليسرى توجعه ، وكان الرجل يلطّخ ضمادهِ . وتمتم بجدّ : « لم يكن ينقص الا هذا ، لم يكن ينقص الا هذا . » وسحب منديله وبلّله ريقاً وفرك راحتيه في شيء من الحنان ؛ وكانت به رغبة للبكاء . وظلّ معلّقاً لحظة ، وكان ينظر الى نفسه في دهشة . ثم انفجر ضاحكاً . كان يضحك من نفسه ، ومن مارسيل ، ومن ايفيش ، ومن ارتباكه المضحك ؛ ومن حياته ، ومن عواطفه المثيرة للشفقة . وكان يتذكّر آماله القديمة فيضحك منها لأنها افضت الى ما هو عليه ، الى هذا الانسان المليء بالرصانة والذي كان يبكي لأنه سقط على الارض ؛ كان ينظر الى نفسه بلا خجل ، في تسلية باردة وضارية ، وكان يفكر : « من يقول اني كنت آخذ نفسي أخذاً جادّاً ! » وتدفقت الضحكة بعد بضعة ارتجافات : لم يكن ثمة من يضحك بعد .

فراغ . استعاد الجسم سيره وهو يجرجر قدميه ، ثقيلاً حارّاً تنتابه الرعشات وحروق الغضب في الحنجرة . وفي المعدة . ولكن لم يكن ثمة بعد من يسكنه . وقد أُفرغت الشوارع كأنما سالت في ثقوب البواليع . ولقد غاب منها شيء كان ما يزال يملأها منذ لحظات . وبقيت الاشياء هناك لم تُمسّ . ولكنّ حزمتها قد حُلّت ، فتدلّت من السماء كأنها تحجّرات هائلة ، وصعدت من الارض كأنها « منهيرات » مُحالة : لقد تلاشت جميع اغراءاتها الصغيرة المألوفة ، وجميع اغنياتها الرقيقة في الرياح ، فهي صامتة خرساء . لقد كان ثمة في الماضي مستقبل انسان

كان يرتمي عليها فتعكسه في نُشارٍ من الإغراءات المختلفة . لقد مات المستقبل .

واستدار الجسم الى اليمين ، وغرق في مُخـــار مُشعّ راقص في اعماق شقّ متدرّن ، بين قطع من الثلج مخطّطة بالأشعّـــة . وكانت كتلٌ داكنة تجرّ نفسها وهي تَصرّ . وعلى مستوى ارتفـــاع العينين كانت ازهار زغباء تتأرجح . وبين هذه الازهار ، وفي جوف هذا الشقّ ، كانت تنسلّ شفافيةٌ تراقب نفسها في هوس مثلوج . « سأذهب لآخذها » وتشكّل العالم من جديد ، صاخباً منهمكاً ، مـــع سيارات واناس وواجهات ؛ ووجد ماتيو نفسه في وسط شارع « ديبار » . ولكن لم يكن بعدُ هو العالم نفسه ، ولا ماتيو نفسه تماماً . ففي نهاية العالم ، وراء البنايات والشوارع ، كان ثمة باب مغلق . وبحث في محفظته وسحب منها مفتاحاً . كان هناك ذلك الباب المغلق ، وكان هنا هذا المفتاح الصغير المسطّح : كانت هذه هي اشياء العالم الوحيدة ؛ ولم يكن بينها الا ركام من العقبات والمسافات . « بعد ساعـــة . امامي وقت كافٍ لأذهب اليها سيراً على الاقدام . » ساعة : الوقت الكافي تماماً للذهاب الى ذلك الباب ولفتحه ؛ وفيما وراء هذه الساعة لم يكن ثمة شيء . وكان ماتيو يسير بخطى متساوية ، وهو في سلام مع نفسه ، وكان يُحسّ نفسه خبيثاً وهادئاً . « واذا كانت لولا مـــا تزال في سريرها ؟ » واعاد المفتاح الى جيبه وفكر : « مهما يكن ، فسوف آخذ المال . »

كان المصباح يضيء إضاءة سيئة . وبالقرب من النافـــذة ، بين صورتي مارلين دياتريش وروبرت تايلور ، كان ثمة رزنامة تحمل مرآة صغيرة منقّطة بالصدأ . واقترب منها دانيال وهو ينحني قليلاً وعاد يربط عقدة عنقه ؛ وكان مستعجلاً ليرتدي ثيابه كلها : وفي المـــرآة

خلفه ، رأى وجه رالف الهزيل القاسي يكاد يمحوه الظلّ ووسخ المرآة الابيض ، واخذت يداه ترتجفان : كانت به رغبة لأن يضغط هـذا العنق الهزيل الذي كانت جوزته بارزة وان يفجّره بين أصابعه . وكان رالف مديراً رأسه نحو المرآة ، ولم يكن يدري ان دانيال كان يراه فوجّه اليه نظرة غريبة ؛ وفكر دانيال وهو يرتعش رعشة كانت في حقيقة امرها رعشة لذة : « ان وجهه يشبه وجه القاتل ، وهو مهان ، وانه ليكرهني . » وأبطأ في ربط عقدته . وكان رالف ما يزال ينظر اليه ، وكان دانيال يستمتع بهذا الحقد الذي كان يجمعهما . حقدٌ مختمر يبدو ان عمره عشرون عاماً ، حقد يمتلكهما ؛ وكان يطهرّه . « ذات يوم سيأتي شخص مثله فيقتلني من الخلف . » سوف يكبر الوجه الفتيّ في المرآة ، ثم ينتهي الامر ، وسيكون الموت الشائن الذي يناسبـه . واستدار على عقبيه ، فخفض رالف عينيـه بسرعة . وكانت الغرفة أتوناً .

— أليس لديك منشفة ؟

وكانت يدا دانيال مبلّلتين .

— انظر في دلو الماء .

وكان في دلو الماء منشفة قذرة . فمسح دانيال يديه بعناية :

— لم يعرف الماء ، دلو الماء هذا . ويبدو انكما ، انّما الاثنين ، لا تغتسلان كثيراً .

فقال رالف بلهجة منقبضة : — اننا نغتسل بماء الحنفية الموجودة في الممر .

وساد صمت ثم قال موضحاً :

— وذلك انسب .

وكان يلبس حذاءه وهو جالس على طرف السرير،وجسمه منحنٍ ، وركبته اليمنى مرتفعة . وكان دانيال يتأمل هذا الظهر الهزيل ، وهاتين

الذراعين الفتيتين ذواتي العضلات اللتين كانتا تخرجان من قميص ذي كمين قصيرين : وفكر في غير ما تغرض : ان فيهما لجمالاً . ولكنه كان يشمئز من هذا الجمال . بعد لحظة سيكون في الخارج ، وسيكون هذا كله من الماضي . ولكنه كان يعلم مـــا كان ينتظره في الخارج . وحين حمل معطفه تردد : كان كتفاه وصدره غارقة بالعرق ، وكان يفكر في خوف بأن ثقل المعطف سيُلصق قميصه الكتاني بلحمه الرطب. وقال لرالف :

– ان الجو عندك حار حرارة فظيعة .

– اننا تحت السقف .

– كم الساعة ؟

– التاسعة . لقد دقت هذه اللحظة .

لا تزال ثمة عشر ساعات للقتل قبل ان يطلع النهار . انه لن ينام. حين كان ينام هنا ، كان الامر دائماً اعظم مشقة . ورفـــع رالف رأسه :

– كنت اود ان اسألك يا لاليك ... أأنت الذي نصحت لبوبي ان يعود الى العمل لدى الصيدلي ؟

– نصحت ؟ كلا . وانما قلت له انه كان ابله اذ تركه .

– آه ! حسناً . ان الامرين يختلفان . لقد جاءني هذا الصباح يقول لي ذلك ، وانه سيقدم اعتذاره ، وانك انت الذي كنت تريده ، ولم يكن يبدو عليه انه صريح .

قال دانيال : – لا اريد شيئاً على الاطلاق ، وانا لم اقل لـــه خصوصاً ان يقدم اعتذاراته .

وابتسم كلاهما في احتقار . وأراد دانيال ان يضع معطفه ولكنه لم يجد الشجاعة لذلك وقال رالف وهو ينحني :

– لقد قلت له : افعل ما بدا لك . فليس هذا يعنيني . فما دام

السيد لاليك هو الذي ينصحك ... ولكني ارى الآن ...

وقام بحركة غاضبة ليربط سير حذائه الايسر ، وقال :

— لن اقول له شيئاً . انه هكذا . ويجب ان يكذب . ولكن هناك واحداً اقسم لك اني سأقبض عليه عند المنعطف :

— الصيدلي ؟

— نعم . لا اقصد الصيدلي العجوز ، بل الشاب .

— الصيدلي المتمرّن ؟

— نعم . ذلك الممحون . كم قد روى عني وعن بوبي ... وليس لبوبـي ما يفخر به لأنه التحق بتلك الصيدلية. ولكن لا تخف ، سأذهب يوماً وانتظر هذا المتمرن عند الباب .

وابتسم بخبث ، وكان يلتذّ في غضبه :

— سأقصده ويداي في جيبي ، وعليّ ذلك المظهر الذي تعرفه . كيف الحال ؟ قل لي : ما الذي حكيته عني ؟ ماذا ؟ ماذا حكيت عني ؟ وستراه يقول : « لم اقل شيئاً ، لم اقل شيئاً . » آه ! لم تقل شيئاً ؟ خذ اذن : ضربة في المعدة يسقط بعدها ارضاً ، فأقفز فوقه وأدق عنقه في الرصيف .

وكان دانيال ينظر اليه في غيظ سافر ، وكان يفكر : « كلهم متشابهون » . كلهم . ما عدا بوبـي الذي كان متخنثاً . كانوا يتحدثون دائماً ، فيما بعد ، عن عزمهم على دق عنق احد الناس . وكان رالف يزداد حماساً ، وعيناه ملتمعتان ، واذناه مورّدتان ؛ كان بحاجة الى ان يأتي حركات حيّة ومفاجئة . ولم يستطع دانيال ان يقاوم رغبته في إذلاله اكثر من ذلك .

— ولكن الا تظن انه هو الذي سيهزمك ؟

— هو ؟ (كان رالف يقهقه قهقهة كريهة) بوسعه ان يأتي ، وليس لك الا ان تسأل خادم « الاورينتال » فذلك واحدٌ قد جرّب

وفهم . شاب في الثلاثين ذو ذراعين هكذا . وكان يقول انه يريد ان يُخرجني .

فابتسم دانيال بوقاحة وقال :

– وبالطبع التهمته بلقمة واحدة .

فقال رالف مجروحاً : – اوه ! ليس لك الا ان تسأل . كان هناك عشرة تقريباً يتفرجون علينا . قلت له : – «أتأتي الى الخارج؟» اسمع ، كان هناك بوبي وشخص طويل آخر رأيتك معه . وخرج صاحبنا وهو يقول : « أتريد ان تعلّم رب اسرة كيف يعيش ! » وماذا فعلت له ؟ بدأت بلكمة على عينه ، ثم لكمة بمرفقي على انفه ، هكذا في صفحة وجهه . وكان قد نهض مقلّداً حركات القتال . واستدار حول نفسه ، مُظهراً فخذيه الصغيرتين القاسيتين المصبوبتين في بنطلونه الازرق .

وأحس دانيال بأن الغضب ينال منه كل منال ، وقد ود لو يضربه. وتابع رالف :

– كان يبول دماً . ثم هوب ! ضربة على الفخذين ، وسقط ارضاً ! ولم يكن يدري بعد اين اصبح ، رب الاسرة ذاك !

وصمت قائماً متعجرفاً ، منطوياً على مجده . وكان يشبه حشرة . وفكر : « سوف اقتله » ولم يكن يصدق هذه القصص كثيراً ، ولكن كان يشعر بالذل ان يكون رالف قد هزم رجلاً في الثلاثين . واخذ يضحك وقال بمشقة :

– انك تريد ان تتصنّع الشجاعة . ولا بد ان تقع اخيراً على رجل شجاع !

واخذ رالف يضحك هو ايضاً ، وتقاربا ، فقال :

– لا اريد ان اتصنّع الشجاعة ، ولكن ليس السمان هم الذين يخيفونني .

قال دانيال : — انك اذاً لا تخاف احداً ؟ اليس كذلك ؟ ألا تخاف أحداً ؟

وكان رالف محمراً من الخجل ، وقال :

— ليس اسمن الناس اقواهم !

فقال له دانيال وهو يدفعه :

— وأنت ؟ أرِنا ان كنت قوياً . أرنا ان كنت قوياً !

وظل رالف لحظة فاغر الفم ، ثم تطاير من عينيه الشرر ، وقال بصوت مصفّر :

— اما معك انت ، فأريد بكل تأكيد . على سبيل المزاح طبعاً . بلطافة . ولن تنتصر .

فقبض عليه دانيال من نطاقه :

— سوف اريك يا صغيري !

وكان رالف مَرِناً وقاسياً ؛ وكانت عضلاته تنزلق تحت يدي دانيال . وقد تصارعا في صمت ثم اخذ دانيال ينفخ ، وكان يشعر بغموض انه شخص طويل ذو شاربين . ونجح رالف في رفعه ، ولكن دانيال دفع يديه الاثنتين في وجهه فتركه رالف . وما لبثا ان ألفيا نفسيهما وجهاً لوجه ، مبتسمين وحادقين . وقال رالف بصوت غريب :

— آه ! انك تريد ان تؤذي ؟ تريد ان تؤذي ؟

وارتمى فجأة على دانيال ، ورأسه الى امام . وتفادى دانيال ضربة رأسه وقبض عليه من رقبته . وكان مرهقاً لاهثاً ، بينما لم يكن يبدو على رالف انه متعب اطلاقاً . وتماسكا من جديد ، وبدأا يستديران على نفسيهما وسط الغرفة . وكان دانيال يشعر في جوف فمه بمذاق حامز محموم : « يجب ان ننتهي من ذلك ، والاّ انتصر عليّ . » ودفع رالف بكل قوة ، ولكن رالف صمد . واستولى غضب مجنون على

دانيال وفكر : « اني مضحك . » وانحنى فجأة . فأمسك رالف من جنبيه ورفعه ، ثم القاه على السرير ، وترك نفسه يسقط فوقه بمثل تلك الاندفاعية . وتخبط رالف وحاول ان يخمش ، ولكن دانيال قبض على معصميه والقاهما على الوسادة . وظلاّ على هذا الوضع لحظات ، وكان دانيال اشد تعباً من ان يستطيع النهوض ثانية . وكان رالف مسمّراً على السرير ، عاجزاً ، مسحوقاً تحت ثقل هذا الرجل ، رب الاسرة. وكان دانيال ينظر اليه في تلذّذ ؛ وكانت عينا رالف طافحتين بجنون حاقد ، وكان جميلاً .

وسأله دانال بصوت متقطع :

– من الذي انتصر ؟ من انتصر يا صاحبي الصغير ؟

فابتسم رالف على الفور وقال بصوت زائف :

– انك قوي يا سيد لاليك !

فتركه دانيال ونهض على قدميه . وكان قد فقد انفاسه واستشعر المذلّة . وكان قلبه يخفق حتى ليكاد ينفجر . وقال :

– لقد كنت من قبل قوياً . اما الآن فان انفاسي تخونني .

وكان رالف قد نهض ، وكان يسوي ياقة قميصه ولم يكن يلهث . وحاول ان يضحك ولكنه كان يتفادى نظر دانيال : وقال :

– ليس النَفَس شيئاً ذا بال ، ايها اللاعب البارع . فما عليك الا ان تتمرن .

قال دانيال :

– انك تحسن المصارعة ، ولكن هنالك فرق الوزن .

وقهقه كلاهما بانزعاج . وكان دانيال يرغب في ان يأخذ بخناق رالف وان يلكمه في وجهه بكل قواه . ولبس معطفه ، فالتصق قميصه المبلل عرقاً ببشرته . وقال :

– هيا . انني ذاهب . مساء الخير .

– مع السلامة ، يا سيد لأليك.

قال دانيال : – لقد خبّأت لك شيئاً في الغرفة . ففتش عنه . جيداً تجده .

وانغلق الباب . وهبط دانيال السلم ، وساقاه مرتخيتان . وفكر : « عليّ قبل كل شيء ان اغتسل من الرأس حتى القدمين . » واذ كان يعبر عتبة الباب ، جاءته فكرة اوقفته حالاً : لقد حلق ذقنه في الصباح قبل ان يخرج ، وكان قد ترك موسى الحلاقة على المدخنة، مفتوحاً .

حين فتح ماتيو الباب أثار جرساً خفيفاً وملبّداً . وفكر . « لم ألاحظ هذا الصباح ، فلا بد انهم وصلوا المجرى الكهربائي مساءً ، بعد الساعة التاسعة . » والقى نظرة مواربة ، عبر زجاج المكتب ثم رأى ظلاً : كان هناك بعضهم . ومشى بغير عجلة الى لوحة المفاتيح . الغرفة ٢١ . كان المفتاح معلقاً في مسمار . فتناوله ماتيو بسرعة ووضعه في جيبه ، ثم استدار وعاد الى السلم . وفُتح باب خلف ظهره ، ففكر : « سوف ينادونني » . ولم يكن خائفاً: فقد كان هذا متوقعاً. وقال صوت قاسٍ :

– هيه ! اين انت ذاهب !

فالتفت ماتيو . كانت امرأة طويلة هزيلة ذات نظارات . وكان يبدو عليها الاهتمام والقلق . فابتسم لها ماتيو . ورددت سؤالها :

– اين انت ذاهب ؟ الا تستطيع ان تسأل عند الصندوق ؟

بوليفار . كان اسم الزنجي بوليفار . فقال ماتيو بهدوء :

– انني ذاهب لأرى السيد بوليفار ، في الطابق الثالث .

فقالت المرأة مرتابة :

– حسناً . لأني رأيتك واقفاً امام اللوحة .

— كنت انظر اذا كان مفتاحه هنا . .

قال ماتيو : — كلا ، فهو موجود في غرفته .

واقتربت المرأة من اللوحة . حظ على اثنين . وقالت في عزاء خائب :

— نعم . انه موجود .

وأخذ ماتيو يرقى الدرج من غير ان يخيب . وتوقف لحظة عند سطيحة الطابق الثالث ، ثم ادخل المفتاح في قفل الغرفة ٢١ وفتح الباب .

وكانت الغرفة غارقة في الليل . ليل احمر كان يُشعر بالحمّى والعطر . واغلق الباب خلفه بالمفتاح وتقدم نحو السرير . وقد مدّ يديه اولاً الى امام ليحتمي من العقبات ، ولكنه تعوّد بسرعة . وكان السرير مدعوكاً ، وكان على الفراش وسادتان ما زالتا مجوفتين بوزن الرؤوس . وركع ماتيو امام الصندوق وفتحه ؛ وأخذته رغبة خفيفة بأن يقيء . وكانت الاوراق المالية التي تركها في الصباح قد سقطت فوق رزم الرسائل : فأخذ ماتيو منها خمس اوراق ؛ انه لم يكن يريد ان يسرق شيئاً لنفسه . « ماذا تراني سأفعل بالمفتاح ؟ » وتردد لحظة ثم عزم على ان يتركه في قفل الصندوق . وحين نهض لاحظ في جوف الغرفة ، الى اليمين ، باباً لم يكن قد رآه صباحاً . فذهب يفتحه : كان غرفة تواليت . وأشعل ماتيو عود ثقاب فرأى وجهه المذهّب بالأشعة ينبثق في مرآة . وظل ينظر الى نفسه حتى انطفأ العود، ثم تركه يسقط وعاد الى الغرفة . واصبح يميّز بوضوح الاثاث ، وثياب لولا ، ومنامتها ، وثوبها الليلي ، وتايورها ، كل ذلك مرتّب ومعلق على الكرسي والمشاجب : وضحك ضحكة شريرة وخرج .

وكان الممر خالياً ، ولكن كان يُسمع وقع خطى وضحكات ، وكان ثمة اشخاص يرقون الدرج . وهمّ بأن يعود الى الغرفة ؛ ولكن

لا ، فقد كان لديه سواء ان يقبض عليه ، وأدخل المفتاح في القفل وأغلق الباب وهو يدير المفتاح مرتين . وحين نهض رأى امرأة يتبعها جندي . وقالت المرأة :

– في الطابق الرابع .

وقال الجندي :

– ذلك مرتفع .

وتركهما ماتيو عمران ، ثم هبط . وكان يفكر في مرح بأنه ما يزال عليه ان يقوم بأشق عمل : ان يُعيد المفتاح الى اللوحة .

وعند الطابق الاول توقف وانحنى على الدربزون . وكانت المرأة على عتبة الباب الخارجي ، وكانت توليه ظهرها وتنظر الى الشارع . وهبط ماتيو الدرجات الاخيرة بلا ضجة وعلّق المفتاح بالمسمار ؛ ثم صعد الدرج مرة اخرى بخطى خفيفة حتى سطيحة الطابق الاول ، وانتظر لحظة ؛ ثم هبط السلم بصخب . والتفتت المرأة فحيّاها وقال :

– الى اللقاء يا سيدتي .

فدمدمت : – ... اللقاء .

وخرج ، واحسّ نظر المرأة يثقل على ظهره ، وكانت به رغبةٌ للضحك .

« مات الوحش . مات السمّ » . ومشى بخطوات واسعة وساقاه مرتخيتان . انه خائف ، وفمه جاف . والشوارع شديدة الزرقة ، والجو عذبٌ جداً . « الشعلة تلتهم الفتيل ، وبرميل البارود في نهايته.» وصعد الدرج اربع اربع . وكان شاقاً عليه ان يضع المفتاح في القفل . ان يده ترتجف وفرّت قطّتان بين ساقيه : أنه الآن يخيفها .

« مات الوحش ...»

كان الموسى هناك ، على طاولة الليل ، مفتوحاً . واخذه من مقبضه

ونظر اليه . المقبض أسود ؛ والشفرة بيضاء . « الشعلة تلتهم الفتيل.. » وأمرّ إصبعه على حدّ الشفرة ، فشعر في طرف إصبعه مذاق جُرح حامزاً ، فارتعش : إن على يدي ان تفعل كل شيء . إن الموسى لا يُساعد ، فهو ليس الا جموداً ، وهو يزن زنة حشرة في اليد. وخطا بضع خطى في الغرفة ؛ وطلب معونة ، وكانت هذه إشارة : كل شيء جامد وصامت . الطاولة جامدة . الكراسي جامدة ، سابحة في نور جامد . وحده واقف ، وحده حيّ في النور الازرق . لن يساعدني شيء ، لن يحدث شيء . القطط تخربش في المطبخ . وأسند يده الى الطاولة ، فاستجابت لضغطه بضغط مشابه ، لا اكثر ولا أقل . إن الأشياء عبيد . وديعة . منقادة . ستفعل يدي كل شيء . وتثاءب ضيقاً وضجراً . إنه وحيد في الديكور . فلا شيء ، يدفعه للتقرير ، ولا شيء يمنعه عنه : يجب ان يقرّر وحده . وليس عمله إلاّ غيبوبة. تلك الزهرة الحمراء بين فخذيه ، ليست موجودة ، وتلك البركة الحمراء على ارض الغرفة ، ليست موجودة . ونظر الى ارض الغرفة . إن ارض الغرفة موحّد أملس : فليس ثمة مكان للطخة . « سأكون راقداً على الارض ، جامداً ، مفتوح البنطلون قذرَه ، وسيكون الموسى على الأرض ، أحمر ، مثلّماً ، جامداً . » إنه يسحر نفسه على الموسى وعلى الارض ، لو كان بوسعه ان يتخيّلها بقوة كافية ، تلك البركة الحمراء ، وهذا الحرق ، بحيث يتحققان من تلقاء نفسهما من غير ان يكون محتاجاً الى إتيان تلك الحركة . انني سوف أتحمل الألم.إنني اريدة ، وأدعوه . اما هذه الحركة ، هذه الحركة ... ونظر الى الارض ، ثم الى الشفرة . عبثاً : الهواء عذب ، والغرفة مظلمة بعذوبة ؛ والموسى يلتمع بعذوبة ويثقل بعذوبة في يده. حركة ، لا بدّ من حركة ، والحاضر يسقط لدى اول نقطة دم . انها يدي ، يدي التي يجب ان تعمل كل شيء .

وتوجّه الى النافذة ، ونظر الى السماء . وازاح الستائر . بيده اليسرى ، وأضاء الكهرباء . بيده اليسرى . ونقل الموسى الى يده اليسرى . وأخذ محفظة نقوده . فأخرج منها خمس اوراق من فئة الألف فرنك . وتناول مغلفاً من على مكتبه ، فوضع المال في المغلّف. وكتب على المغلّف : الى السيد ذولاريو ، ١٢ شارع هويغنز . ووضع المغلّف في مكان بارز على الطاولة . ونهض ، ومشى ، وحمل الوحش الملصق ببطنه ؛ انه يمصّه ، وهو يحسّه . نعم . لقد أُخذ في الشَرَك . طوال الليل . واستعادت يده اليمنى الموسى . انه يخاف يده ؛ وهو يراقبها . إنها متصلّبة في طرف ذراعه . وقال : « هيّا ! » وَعَبَرَ به ارتعاش صغير ضاحك من الجنبين الى الرقبة . « هيا . لننته من ذلك ! » ليته يجد نفسه مقطوع العضو ، كما يجد المرء نفسه واقفاً في الصباح : إذ يدقّ المنبّه ، من غير ان يعلم كيف نهض . ولكن يجب اولاً ان يعمل هذه الحركة القذرة ، هذه الحركة المبولية ، ان يفكّ ازراره طويلاً ، وفي صبر . وصعد جمودُ الموسى الى يده ، والى ذراعه . جسم حيّ وحارّ ذو ذراعٍ حجرية . ذراع صنميّة ضخمة ، جامدة ، مثلجة ، وفي طرفها موسى . وفكّ أصابعه ، فسقط الموسى على الطاولة .

الموسى هناك مفتوح : على الطاولة : لم يتغيّر شيء.! انه يستطيع ان يمدّ يده ويأخذه . وسيطيع الموسى جامداً . ان الاوان لم يفت بعد ، ولن يفوت الوقت ، فان الليل بطوله لي . ومشى عبر الغرفة : انه غير حاقد على نفسه بعد ، انه لا يريد شيئاً بعد ، انه عائم . ان الوحش هنا ، بين فخذيه ، مستقيم قاسٍ ، قذارة ! ان كان ذلك ينفّرك اكثر مما ينبغي يا صغيري ، فان الموسى هنا ، على الطاولة . « مات الوحش ... » الموسى . الموسى . ودار حول الطاولة ، من غير ان ينزع نظره عن الموسى . ألا يمنعني اذن شيء

من اخذه ؟ لا شيء . كل شيء جامدٌ هادىء . ومدّ يده ، ولمس الشفرة : ان يدي ستفعل كل شيء . وقفز الى خلف ففتح الباب وقفز الى السلّم . وهبطت احدى قططه السلّم امامه مذعورة .

وكان دانيال يعدو في الشارع : وفوق ، كان الباب ما يزال مفتوحاً على سعته ، والمصباح مضاءً ، والموسى على الطاولة ، وكانت القطط تائهة في السلّم المظلم . ولم يكن ثمة ما يمنعه من ان يعود أدراجه . لقد كانت الغرفة تنتظره باستسلام . ولم يكن ثمة ما هو مقرّر ، ولن يتقرّر شيء ما ابداً . كان ينبغي ان يركض ، ان يفرّ الى ابعد مكان ممكن ، ان يغرق في الضجيج ، في الانوار ، وسط الناس ، وان يعود فيصبح رجلاً بين البشر ، وان يلفت اليه نظر الآخرين : وعدا حتى بلغ « روا اولاف » فدفع الباب . يكاد يفقد انفاسه . وقال وهو يلهث :

– اعطني كأس ويسكي .

وكان قلبه يخفق بشدة حتى اطراف اصابعه ، وكان له في فمه مذاق حبر . وجلس في القاعة الداخلية . وقال له الخادم بلهجة احترام :

– يبدو عليك التعب .

وكان نروجياً طويلاً يتكلم الفرنسية بلا لكنة . وكان ينظر في ودّ الى دانيال ، فأحسّ دانيال انه اصبح زبوناً غنيّاً احمق بعض الشيء وهو يترك « بقشيشاً » سخياً . وابتسم واجاب موضحاً :

– ليس الامر على ما يرام . ان بي بعض الحمّى .

فهزّ الخادم رأسه ومضى . وسقط دانيال من جديد في وحدته . كانت غرفته تنتظره ، هناك فوق ، متهيّئة ، والباب كان مفتوحاً على سعته ، وكان الموسى يلتمع على الطاولة . « لن استطيع ابداً ان اعود الى بيتي . » وسوف يشرب ما وسعه ذلك . حتى اذا دقت الساعة

الرابعة ، اقبل الخادم يحمله بمعونة صاحب الحانة الى سيارة تاكسي . كما يحدث كل مرة .

وعاد الخادم بكأس ممتلئة الى النصف وزجاجة « بيرييه » وقال :

– كما تحبه تماماً .

– شكراً .

وكان دانيال وحيداً في هذه الحانة الهادئة . وكان النور الاشقر يُزبد حوله : وكان خشب الحواجز الاشقر يلتمع بعذوبة ، وكان مطليّاً ببرنيق كثيف ؛ وحين كان المرء يمسّه ، كان يدبّق . وصبّ ماء البيرييه في كأسه ، فاحتدم الويسكي لحظة ، وصعدت الى السطح فقاقيع متحمّسة ، فتزاحمت كنساء ثرثارات ، ثم هدأ هذا الاضطراب الصغير كله . ونظر دانيال الى المائع الاصفر حيث كانت اثارة زبد عائمة : فكأنه بيرة طائشة . وعلى المشرب ، كان الخادم وصاحب الحانة يتحدثان النروجية ، وهما لا يظهران .

– كأس اخرى .

وكنس الكأس بضربة من يده وارسلها تتحطم على الارض . فصمت صاحب الحانة والخادم فجأة ، وانحنى دانيال فوق الطاولة : كان السائل يزحف متمهلاً على البلاط وهو يرسل ذيولاً نحو رجل كرسي . وكان الخادم قد هرع ، فقال دانيال وهو يبتسم :

– انني عادم الحذق ...

فسأله الخادم : – هل اعطيك سواه ؟

وكان قد انحنى ، فانتفخ جانباه ، ليمسح السائل ويلمّ شظايا الزجاج . قال دانيال فجأة :

– نعم ... كلا . (واضاف في لهجة مزاح) ان هذا انذار . يجب الاّ اتناول الخمر هذا المساء . اعطني اذن نصف قدح بيرييه مع قطعة حامض .

فابتعد الخادم . واحسّ دانيال ببعض الهدوء . وكان حاضرٌ كثيف يتشكّل حوله من جديد . رائحة الزنجبيل ، الضوء الاشقر ، الحواجز الخشبية ...

– شكراً .

وكان الخادم قد فض الزجاجة وملأ القدح الى نصفه . وشرب دانيال ثم وضع الكأس . وفكر : « كنت اعرف ذلك ! كنت اعرف اني لن انعله ! » حين كان يمشي بخطى واسعة في الشوارع وحين كان يصعد السلم اربع اربع ، وكان يعلم انه يمضي حتى النهاية . وكان يعرف ذلك حين اخذ الموسى في يده ، ولم ينخدع لحظة واحدة ، فاي ممثل رديء هو ! وكل ما هناك انه نجح في آخر الامر بان يخيف نفسه ، وعند ذلك هرب . واخذ كأسه وضغطها في يده : كان يريد بكل قواه ان يشمئز من نفسه ، وهو لن يجد قط مناسبة رائعة كهذه . « قذر ! جبان وممثل : قذر ! » وحسب ذات لحظة انه سيبلغ ذلك ، ولكن لا ، انما كانت تلك كلمات من الواجب ... آه ! اي انسان ، اي قاض ، كان يقبل ايّ قاض او اي حَكَم ، ولكن ليس هو نفسه ، ليس هذا الاحتقار القاسي لنفسه الذي لم يكن يملك قط قدراً كافياً من القوة ، هذا الاحتقار الضعيف المحتضر الذي كان يبدو كل لحظة على وشك ان يتلاشى والذي لم يكن يمرّ . ليت احداً يعرف ، ليت بوسعه ان يُحسّ الاحتقار الثقيل لإنسان آخر يضغط عليه .. ولكنني لن استطيع ابداً ، انني افضّل لو أخصي نفسي . ونظر الى ساعته ، الحادية عشرة ، ما يزال هناك ثماني ساعات قبل الصباح . ان الوقت لم يكن ينقضي .

الحادية عشرة ! وانتفض فجأة : « ان ماتيو هو الآن عند مارسيل. أنها تحدثه ، في هذه اللحظة بالذات تحدّثه وتضع ذراعيها حول عنقه، وتجد انه لا يكاشفها بالسرعة الكافية ... هذا ايضاً ، انما فعلته انا . »

واخذ يرتجف بكل اعضائه : سوف يستسلم ، سينتهي به الامر الى الاستسلام . لقد افسدت له حياته .

وترك كأسه ووقف ونظره محدّد ، انه لا يستطيع لا ان يحتقر نفسه ولا ان ينسى نفسه . انه يودّ لو يكون ميتاً وهو موجود ، انه يستمر بعناد في ان يوجد . يود لو يكون ميتاً ؛ يفكر في انه يودّ لو يكون ميتاً ، يفكر بانه يفكر في انه يود لو يكون ميتاً ... « ان هناك وسيلة . »

وكان قد تكلم بصوت مرتفع ، فهرع اليه الخادم :

– هل ناديتني ؟

قال دانيال بشرود : – نعم . هذا لك .

ورمى مئة فرنك على الطاولة . هنـــاك وسيلة . وسيلة لتسوية كل شيء ! ونهض واتجه بخطوة حيّة الى الباب . « وسيلة عظيمـــة » واخذته ضحكة صغيرة : كان يشعر دائماً بالجذل حين تتاح له الفرصة بان يمثّل على نفسه دوراً ممتعاً .

١٧

اغلق ماتيو الباب على مهل وهو يرفعه قليلاً على رزّاته ، حتى لا يُحدث صريراً ، ثم رفع قدمه على الدرجة الاولى من السلّم ، فانحنى وفكّ سير حذائه . وكان صدره يلامس ركبته . ونزع حذاءه فأخذه بيده اليسرى ، ثم نهض ووضع يده اليمنى على الحاجز ، وقد رفع نظره الى الغيمة الوردية المتقعة التي كانت تبدو معلقة في الظلمات . انه لم يكن يدين نفسه بعد . وصعد على مهل في الظلام وهو يتجنب ان يجعل الدرجات تصرّ .

وكان باب الغرفة مشقوقاً فدفعه . وكان الجو ثقيـــلاً . وكانت حرارة النهار كله قد حطّت في جوف هذه الحجرة ، كأنها ثمالة . وكانت امرأة جالسة على السرير تنظر اليه مبتسمة : انها مارسيل . وكانت قد ارتدت « روبديشمبر » ابيض جميلاً ذا حزام مذهّب ، وكانت قد تزيّنت بعناية ، وكان منظرها مرحاً وذا أبهة . واغلق ماتيو الباب خلفه ، وظلّ جامداً ، مرتخي الذراعين ، وقد اخذته في حلقه عذوبة الوجود التي لا تُحتمل . كان هناك ، كان يتفتح هناك ، بالقرب من هذه المرأة المبتسمة مستغرقاً كله في هذه الرائحة ، رائحة المرض والحلويات والحب . وكانت مارسيل قد القت رأسها الى خلف ،وكانت تتأمله في خبث بين جفونها المسبلة . وبادلها بسمتها وراح يضع حذاءه

في الخزانة . وتنفس في ظهره صوت يفيض حناناً :

— حبيبي .

فالتفت فجأة واستند الى الخزانة ، وقال بصوت منخفض :

— مرحباً .

فرفعت مارسيل يدها حتى صدغها وحركت اصابعها :

— مرحباً ، مرحباً . .

ونهضت ، واقبلت تحيط عنقه بذراعيها وتقبّله وهي تزلق لسانها في فمه . وكانت قد وضعت مسحوقاً ازرق على جفنيها ؛ وكان في شعرها زهرة . وقالت وهي تداعب رقبته :

— انك تشكو الحرّ .

وكانت تنظر اليه من تحت الى فوق ، ورأسها مقلوب بعض الشيء ، وهي ترشق طرف لسانها بين اسنانها ، في هيئة انتعاش وسعادة .وكانت جميلة . وفكر ماتيو وهو منقبض القلب ببشاعة ايفيش الهزيلة . وقال:

— انت اليوم جذلى . بالرغم من ان الامور لم تكن على ما يرام امس ، كما ظهر في التلفون .

— كلا . كنت بليدة . اما اليوم ، فالامور على ما يرام تماماً .

— هل قضيت ليلةً هانئة ؟

— نمت كاليربوع !

وقبّلته مرة اخرى ، فأحسّ على شفتيه مخمل ذلك الفم الغنيّ ثم ذلك العُري الأجرد ، الحارّ . الحاذق : لسانها . وتفلت منها على مهل . وكانت مارسيل عارية تحت « الروبديشمبر » فرأى نهديها الجميلين وشعر بمذاق سكّر في فمه وتناولت يده وجذبته نحو السرير :

— تعال اجلس بالقرب مني .

وجلس بالقرب منها ، وكانت ما تزال تحتفظ بيده بين يديها ، وكانت تشدّه في انتفاضات صغيرة مرتبكة ، وكان يخيل لماتيو ان

حرارة هذه الايدي كانت تصعد حتى الإبط وقال :

– ما أشدّ الحرّ عندك .

فلم تجف ، وكانت تلتهمه بعينيها ، وشفتاها مفترّتان ، في هيئة متواضعة واثقة . وامرّ يده اليسرى متمهلاً بالقرب من معدته ثم ادخلها خفيةً في جيبه اليمنى ليأخذ تبغه . ففاجأت مارسيل هذه اليد وارسلت صيحة خفيفة :

– ولكن ما بال يدك ؟

– لقد جرحتها .

وتركت مارسيل يد ماتيو اليمنى ثم خطفت يده الاخرى ، وقلبتها كقرص من المعجنات ، وتأملت راحتها بعين ناقدة :

– ولكن ضمادك قذرٌ جداً ، وانك توشك ان تنتن الجرح ! ثم ان عليه وحلاً ، فما هذا ؟

– لقد وقعت على الارض :

فأطلقت ضحكة لطيفة دهشة :

لقد جرحت يدي ، لقد وقعت على الارض . ما هذه الغفلة ! وماذا اخترعت ؟ انتظر سأربط لك ضماداً آخر ، فــانك لا تستطيع ان تبقى هكذا .

وفكّت يد ماتيو وهزّت رأسها :

– انه جُرح بشع ، فكيف حسبت حسابك ؟

– حدث هذا مساء امس في « سومطرا » .

– في « سومطرا » ؟

خدّان عريضان ممتقعان ، وشعر ذهبي ، وغداً ، غداً سأسرّح شعري هكذا من أجلك . واجاب :

– انه هوى من أهواء بوريس . كان قد اشترى سكيناً ، فتحدّاني ان ازرعه في يدي .

– وانت بالطبع عجّلت في تنفيذه . انك مجنون تماماً يا حبيبي المسكين . ان جميع هؤلاء الصبية سوف يستحمقونك ... انظر هذه اليد المسكينة المعطّلة !

وكانت يد ماتيو مرتاحة جامدة بين يديها الملتهبتين ؛ وكان الجرح يثير الاشمئزاز بقشرته الرطبة السوداء . ورفعت مارسيل اليد الى وجهها ببطء ، ونظرت اليها باحداد ثم انحنت فجأة فألصقت شفتيها بالجرح في اندفاع ذليل . وتساءل : «ماذا دهاها ؟» وجذبها اليه وقبّلها في اذنها . وسألته مارسيل :

– هل انت مرتاح معي ؟

– طبعاً .

– لا يبدو عليك ذلك .

فابتسم لها ماتيو من غير ان يجيب . ونهضت وراحت تأخذ حقيبتها من الخزانة . وكانت توليه ظهرها ، وقد تطاولت على رأس قدميها ورفعت ذراعيها لتبلغ الطبقة العليا ؛ وكان كشحاها قد تهدّلا على طول ذراعيها . وكان ماتيو ينظر الى هاتين الذراعين العاريتين اللتين داعبهما غالباً وكانت شهواته القديمة تطوف حول قلبه . وعادت اليه مارسيل بتثاقل نشيط :

– اعطني يدك .

وكانت قد صبّت مطهراً على سفنجة صغيرة ، فأخذت تغسل يده. واحسّ عند جانبه دفء هذا الجسد الذي كان قد ألفه .

– إلحس !

وكانت مارسيل تبسط له طرف نسيج مصمّغ ، فمدّ لسانه ولحس القشارة الوردية بوداعة . واطبقت مارسيل طرف النسيج على الجرح ، واخذت الضماد القديم فأمسكته لحظة بطرف اصابعها وهي تنظر اليه باشمئزاز مرح .

– ماذا تراني سأفعل بهذا الشيء الفظيع ؟ حين تذهب ، سألقيه في القمامة .

ثم لفّت يده بشف في حركة خفيفة :

– هكذا اذن : لقد تحدّاك بوريس ؟ فأتلفت يدك ؟ اي طفل كبير انت ! هل تراه فعل مثلك ، هو ؟

قال ماتيو : – كلا.

فضحكت مارسيل : – لقد تغلب عليك اذن !

وكانت قد وضعت في فمها دبوساً انكليزياً ، وكانت تمزّق الشف بكلتا يديها . وقالت وهي تشدّ على الدبوس بشفتيها :

– هل كانت ايفيش موجودة ؟

– حين جرحتُ يدي ؟

– نعم .

– لا ، كانت ترقص مع لولا .

وشكّت مارسيل الدبوس في الضماد : وكان قد بقي على عرقه النحاسيّ اثر من احمر الشفاه .

– هكذا اذن ! لقد تسلّيتم كثيراً !

– لا بأس .

– ان مقهى « سومطرا » جميل ! أتعرف ماذا اريد ؟ ان تأخذني اليه مرة .

فقال ماتيو منزعجاً : – ولكن ذلك سيتعبك .

– اوه ! مرة واحدة ... وستفعل ذلك في أبهّة ، فقد مضى وقت طويل لم اخرج به معك .

لم اخرج معك ! وكان ماتيو يردّد بغيظ هذه الكلمة الزوجية : ان مارسيل لم تكن محظوظة مع الكلمات . وقالت مارسيل :

– هل تريد ؟

فقال : — اسمعي ، مهما يكن من امر ، فان هذا لا يمكن ان يتمّ قبل الخريف : يجب عليك في هذه الاثناء ان ترتاحي تماماً : ثم بعد ذلك يغلق المقهى ابوابه في عطلته السنوية . ان لولا ستذهب في دورة الى افريقيا الشمالية .

— اذن سنذهب في الخريف . اتعدني بذلك ؟

— أعِدك .

وسعلت مارسيل في ارتباك ، ثم قالت :

— ارى جيداً انك غاضبٌ عليّ .

— انا ؟

— نعم ... لقد كنت مزعجةً امس الاول :

— ولكن لا ... لماذا ؟

— بلى . كنت ثائرة الاعصاب :

— كان من الممكن ان تكوني اقل ثورة اعصاب من ذلك . ولكن الغلطة غلطتي يا صغيرتي .

قالت : — ليس هناك ما تؤاخذ به نفسك ، ولم يكن هناك قط ما تؤاخذ به نفسك .

ولم يجرؤ على ان يلتفت نحوها ، فقد كان يتمثل تماماً هيئة وجهها، ولم يكن يستطيع ان يتحمل هذه الثقة التي لا تفسّر ولا يستحقّها . وساد صمت طويل : وكانت تنتظر بكل تأكيد كلمة رقيقة ، كلمة صفح . ولم يستطع ماتيو ان يتماسك بعد ، فقال :

— انظري .

واخرج محفظته من جيبه وبسطها على ركبتيهـــا ، فمدّت مارسيل عنقها واسندت ذقنها على كتف ماتيو .

— ماذا عليّ ان انظر ؟

— هذا .

وسحب الأوراق المالية من المحفظة وقال وهو يفرقعها بلهجة انتصار :

ــ واحدة ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة .

وكانت الاوراق محتفظة بعدُ برائحة لولا . وانتظر ماتيو لحظة والاوراق على ركبتيه ، واذ رأى مارسيل لا تنبس بحرف ، التفت اليها ، فاذا هي رافعة بصرها تنظر الى الاوراق وهي تطرف بعينيها . ولم يكن يبدو عليها انها تفهم . وقالت على مهل :

ــ خمسة آلاف فرنك .

وقام ماتيو بحركة متواضعة ليضع المال على طاولة الليل وقال :

ــ نعم ! خمسة آلاف فرنك . لقد عانيت حتى وجدتها .

ولم تجب مارسيل . وكانت تعضّ شفتها السفلى وتنظر الى الاوراق نظرة غير مصدّقة . وكانت قد شاخت فجأة . ونظرت الى ماتيو بأسى ولكن بثقة ايضاً . وقالت :

ــ كنت اظن ...

فقاطعها ماتيو ، وقال بصراحة :

ــ سيكون بوسعك ان تقصدي اليهودي ، ويبدو انه عظيم . فقد مرّت تحت يديه مئات النساء في فيينا . وكلهن من الطبقة الثرية .

فانطفأت عينا مارسيل وقالت :

ــ حسناً ، فليكن ، فليكن .

وكانت قد اخذت دبوساً انكليزياً من حقيبتها ، وكانت تفتحه وتغلقه بعصبية . واضاف ماتيو :

ــ اني اعطيك اياها . واظن ان ساره ستصحبك اليه فتدفعين له ، وهو يريد ان يأخذ المال مقدماً ، ذلك الخنزير .

وبعد لحظة صمت سألته مارسيل :

ــ اين وجدت هذا المال ؟

قال ماتيو : – احزري !
– دانيال ؟
فهز كتفيه : كانت تعلم جيداً ان دانيال لم يرد ان يقرضه شيئاً .
– جاك ؟
– كلا . لقد قلت لك امس ، بالتلفون .
قالت بجفاف : – اني عجزت . من ؟
فقال : – لم يعطني اياها احد .
فابتسمت مارسيل ابتسامة صفراء :
– لن تقول لي مثلاً انك قد سرقتها ؟
– بلى .
فرددت في ذعر :
– هل سرقتها ؟ ان هذا ليس صحيحاً ؟
– بلى ، سرقتها من لولا .
وساد صمت ، ومسح ماتيو عرق جبينه وقال :
– سأروي لك .
ورددت مارسيل في هدوء :
– لقد سرقتها .
وكان وجهها قد اصبح رمادياً ؛ وقالت من غير ان تنظر اليه :
– لا بدّ انك راغب في التخلص من الطفل .
– انني راغب خصوصاً في الا تقصدي تلك العجوز .
وكانت تفكر ، وكان فمها قد استعاد ثنيتـه القاسية الشرسة .
وسألها :
– هل توبخينني لأني سرقتها ؟
– لا يهمني ذلك .
– اذن ، ماذا هناك ؟

فقامت مارسيل بحركة مفاجئة سقطت معها حقيبة الادوية علـى الارض . فنظرا اليها معاً ، ودفعها ماتيو بقدمه ، وأدارت مارسيل نحوه رأسها ، وكانت الدهشة بادية عليها . وردد ماتيو :

– قولي لي ماذا هناك ؟

فضحكت ضحكة جافة .

– لماذا تضحكين ؟

فقالت : – انني اسخر من نفسي .

وكانت قد نزعت الزهرة التي كانت تحملهـا في شعرها وأخذت تقلبها بين اصابعها . وتمتمت :

– لقد كنت شديدة البلاهة .

وقست ملامح وجهها . وظلت فاغرة الفم كما لو انها كانت راغبة في الكلام ، ولكن الكلام لم يكن يأتي . كانت تبـدو وكأنها خائفة مما ستقول . وتناول ماتيو يدها ولكنها تحللت منه ، وقالت وهي لا تنظر اليه :

– أعلم انك رأيت دانيال .

– هكذا ! كانت قد انقلبت الى خلف وشنّجت يديها على غطاء السرير ؛ وكانت تبدو مذعورة ومتحررة . وكان ماتيـو يحس ايضاً انه متحرر : كانت جميع الاوراق على الطاولة ، وكان لا بد من المضي حتى النهاية . وكان امامها الليل كله من اجل هذا . وقال ماتيو :

– نعم لقد رأيته . كيف عرفت هذا ؟ انك انت التي ارسلته إذن ؟ لقد رتّبتما كل شيء ، معاً ، أليس كذلك ؟

قالت مارسيل : – لا تتكلم بهذا الصوت المرتفع . انك توشك ان توقظ امي . لم اكن انا الذي ارسلته ، ولكني كنت اعلم انه كان يريد ان يراك .

قال ماتيو بحزن : – ان هذا شيء قبيح .

فقالت مارسيل بمرارة : – اجل ، شيء قبيح .

وصمتا . كان دانيال موجوداً ، وكان قد قبع بينهما. وقال ماتيو :

– حسناً ، ينبغي ان نتصارح تماماً ، فلم يبق لنا شيء نعمله غير هذا .

قالت مارسيل : – ليس هناك ما نتصارح بشأنه . لقد رأيت دانيال . فقال لك ما كان يريد ان يقول ، وحين تركته ذهبت فسرقت خمسة آلاف فرنك من لولا .

– نعم ، وانت منذ اشهر تستقبلين دانيال خفية . ترين اذن ان هناك أشياء ينبغي تفسيرها (وسألها فجأة) اسمعي : ماذا حدث امس الاول ؟

– امس الاول ؟

– لا تتصنّعي عدم الفهم . لقد قال لي دانيال انك تأخذين عليّ موقف امس الاول .

قالت : – اوه ! دعْك من هذا ولا تشغل به رأسك .

فقال ماتيو : – ارجوك يا مارسيل ، لا تنغلقي . اقسم لك ان نيتي حسنة ، واني اعترف بجميع اخطائي . ولكن اخبريني ماذا حدث امس الاول . ان الامور ستسير خيراً مما هي اذا استطعنا ان نسترد بعض الثقة احدنا بالآخر .

وكانت تتردد وقد افرخ روعها قليلاً . وقال لها وهو يأخذ بيدها :

– ارجوك ...

– حسناً ... كان ذلك كالمرات السابقة : انك تهزأ بما قد يكون في رأسي من افكار .

– وماذا كان في رأسك ؟

– لماذا تريد ان تُنطقني به ؟ انك تعرفه جيداً .

قال ماتيو : — صحيح ، اعتقد اني اعرفه .

وفكر : « انتهى الامر ، سأتزوجها . » وكان هذا هو البديهة بعينها . « لا بد ان اكون قذراً جداً لأتخيل ان بوسعي ان اقطع وحدي بالأمر . » كانت موجودة هنا ، وكانت تتألم ، وكانت شقية وخبيثة ، ولم يكن عليه الا ان يفعل حركة واحدة حتى يرد لها هدوءها . وقال :

— تريدين ان نتزوج ، أليس كذلك ؟

فنزعت منه يدها ونهضت بوثبة واحدة . فنظر اليها مذعوراً : كانت قد اصبحت شاحبة ، وكانت شفتاها ترتجفان :

— انك ... ايكون دانيال هو الذي قال لك ذلك ؟

قال ماتيو مشدوهاً : — كلا ، ولكن هذا ما فهمته .

فقالت وهي تضحك : — هذا ما فهمته ! لقد قال دانيال اني كنت منزعجة ، ففهمت انت انني اطلب الزواج . هذا ما تظنه بي ، انت ماتيو ، بعد سبع سنوات .

وأخذت يداها ايضاً ترتجفان. واستولت على ماتيو الرغبة بأن يأخذها بين ذراعيه ، ولكنه لم يجرؤ ، وقال :

— انت على حق ، فانه لم يكن لي ان افكر هذا التفكير .

ولم يكن يبدو عليها انها تسمع . وألح قائلاً :

— إسمعي : لقد كانت لي اعذاري : لقد اخبرني دانيال بأنه كان يراك من غير ان تُعلميني ذلك .

وظلت على صمتها ، فقال على مهل :

— انما هو الطفل الذي تريدين ؟

قالت مارسيل : — ها ! ان هذا لا يعنيك . ان ما اريده لم يعد يعنيك .

فقال ماتيو : — ارجوك . ان الاوان لم يفت بعد ...

فهزت رأسها : ـ هذا غير صحيح . لقد فات الاوان .

ـ ولكن لماذا ، يا مارسيل ؟ لماذا لا تريدين ان تتحدثي معي بهدوء ؟ تكفينا ساعة ، فيُسوّى كل شيء ، ويتضح كل شيء ...

ـ لا اريد .

ـ ولكن لماذا ؟ لماذا ؟

ـ لأنني لم اعد اقدرك بما فيه الكفاية . ثم لأنك لم تعد تحبني .

وكانت قد تكلمت بلهجة تأكيد ، ولكنها كانت مذعورة بما قالته ؛ ولم يكن في عينيها بعد الا استفهام قلق . واستطردت بحزن :

ـ لكي تفكر بي كما فكرت ، فلا بد انك قد كففت عن حبي ...

وكان هذ شبه سؤال . فلئن اخذها بين ذراعيه ، ولئن قال لها إنه كان يحبها لأنقذ بعدُ كل شيء . سوف يتزوجها ويرزقان الولد ، وسيعيشان جنباً الى جنب طوال الحياة . وكان قد نهض ؛ وكان يوشك ان يقول لها : « احبك » وترنّح قليلاً وقال بصوت واضح :

ـ هذا صحيح ... انني لم اعد احبك .

وكان قد نطق بالعبارة منذ وقت طويل ، منذ ان بدأ يستمع اليها ، في ذعر . وفكر : « انتهى الامر . انتهى كل شيء . » وكانت مارسيل قد ارتدت الى خلف وهي تطلق صيحة انتصار ، ولكنها سرعان ما وضعت يدها على فمها وأومأت له ان يصمت وتمتمت بلهجة قلقة :

ـ امي .

فأرهفا اذنيهما ؛ ولكنهما لم يسمعا الا صوت السيارات الجارية في البعيد . قال ماتيو :

ـ مارسيل . انني ما زلت متعلقاً بك بكل قواي .

فأطلقت مارسيل ضحكة متعجرفة :

– طبعاً ... انك متعلق فقط ! أهذا ما تود ان تقوله لي ؟

وأخذ يدها وقال لها :

– اسمعي ...

فحرّرت يدها في انتفاضة جافة وقالت :

– كفى ، كفى . لقد عرفت ما كنت اودّ ان اعرفه .

ورفعت بعض خصلات مبللة بالعرق كانت متدلية على جبينها ، وابتسمت فجاة ، كأنها تذكرت امراً وأضافت في اشراقة فرح حاقد :

– ولكن اخبرني ، انك لم تقل لي هذا امس ، على التلفون . لقد قلت لي بقوة : « احبك » ولم يكن احد يطلب منك ان تقول ذلك .

فلم يجب ماتيو . وقالت بلهجة ساحقة :

– لا بد انك تحتقرني ...

قال ماتيو : – انني لا احتقرك .. انما ...

قالت مارسيل : – اذهب عني .

فقال ماتيو : – انك مجنونة . لا اريد ان اذهب ، ويجب ان أشرح لك انني ...

فرددت بصوت اصمّ ، وهي مسبلة الجفنين :

– اذهب عني .

فصاح يائساً : – ولكني احتفظت لك بكل حناني ، وانا لا افكر في ان اهجرك . اريد ان ابقى بالقرب منك طوال حياتي ، وسأتزوجك و ...

قالت : – اذهب عني ، اذهب ، ولا اريد ان اراك بعد . اذهب والا فلست مسؤولة عما قد اصنع ، سوف آخذ في الصراخ ...

وراحت ترتجف بكل جسمها . واقترب ماتيو خطوة منها ، ولكنها دفعته بعنف :

– ان لم تذهب ناديت امي .

وفتح الخزانة فتناول حذاءه ، وكان يشعر انه مضحك وكريه وقالت من ورائه :

– إستعدْ مالك .

فالتفت ماتيو وقال : – كلا . ان هذا على حدة . ليس هـذا سبباً لأن ...

فتناولت الاوراق المالية من على الطاولة وقذفتها في وجهـه ، فتطايرت عبر الغرفة وسقطت على رجل السرير ، بالقرب من حقيبة الادوية . ولم يلمسّها ماتيو ؛ وكان ينظر الى مارسيل . وكانت قـد أخذت تضحك ، في ارتعاش ، مغمضة العينين . وكانت تقول :

– ها ! ما اعجب هذا ! انا التي كنت اظن ...

واراد ان يقترب ولكنها فتحت عينيهـا وارتدت الى خلف وهي تومىء الى الباب . وفكر : « اذا بقيت صاحت » واستدار عـلى عقبيه وخرج من الغرفة وحذاؤه في يده . وحين بلغ اسفل الدرج وضع حذاءه وتوقف لحظة ، ويده على مقبض الباب ، مرهفاً سمعه . وسمع فجأة ضحكة مارسيل ، ضحكة منخفضة كالحة كانت ترتفع صاهلة وتنخفض متقطعة . وصاح صوت :

– مارسيل ! ما بك ؟ مارسيل ؟

وكانت هي الام . وتوقفت الضحكة وسقط كل شيء في الصمت من جديد . وأصغى ماتيو لحظة اخرى ، حتى اذا لم يسمع بعد شيئاً، فتح الباب على مهل وخرج .

١٨

كان يفكر : « إنني دنيء » وكان هذا يدهشه كثيراً . ولم يكن فيه بعد الا التعب والخبل . وتوقف عند سطيحة الطابق الثاني ليلهث . وكانت ساقاه رخوتين ؛ لقد نام ست ساعات في ثلاثة ايام ، بل ربما اقل من ذلك : « انني ذاهب لأنام . » سوف يلقي ملابسه بلا نظام ، وسيترنح حتى يبلغ سريره فيسقط عليه . ولكنه كان يعلم انه سيظل مستيقظاً طوال الليل ، وعيناه مفتوحتان على سعتهما في الظلام . وصعد : كان باب المنزل قد بقي مفتوحاً ؛ لا بد ان ايفيش قد هربت تائهة . وكان القنديل في المكتب ما يزال يشتعل .

ودخل فرأى ايفيش . كانت جالسة على الديوان ، متصلبة جامدة . وقالت :

— انني لم اذهب .

فقال ماتيو بجفاء : — ارى ذلك .

وظلا لحظة صامتين ؛ وكان ماتيو يسمع صوت لهاثه القوي المنتظم. وقالت ايفيش وهي تدير رأسها :

— لقد كنت لئيمة .

فلم يجب ماتيو . كان ينظر الى شعر ايفيش وكان يفكر : « أتراني فعلت هذا من اجلها ؟ » وكانت قد خفضت رأسها ،

فتأمل رقبتها السمراء العذبة في حنان بالغ : كان بوده ان يشعر انـه كان متعلقاً بها اكثر من اي شيء في العالم ، ليكون لعمله على الاقل هذا التبرير . ولـكنه لم يشعر بشيء ، الا بغضب لا موضوع له ، وقد كان العمل خلفه عارياً ، منزلقاً ، غير مفهوم : لقد سرق ، وترك مارسيل حاملاً ، من اجل لا شيء .

وجهدت ايفيش لتقول في تودد :

– كان يجب عليّ ان اتدخل لإعطاء رأيي ...

فهز ماتيو كتفيه وقال :

– لقد قطعت صلتي بمارسيل .

فرفعت ايفيش رأسها .

وقالت بصوت مبتذل :

– وهل تركتها .. بلا مال ؟

فابتسم ماتيو وفكر : « طبعاً ، لو فعلت ذلك ، لوجدت مأخذاً عليّ الآن . »

– كلا ، لقد تدبرت الامر .

– وهل وجدت مالاً ؟

– نعم .

– اين ؟

فلم يجب . ونظرت اليه في قلق :

– ولكنك لم ...

– بلى . لقد سرقته ، ان كان هذا ما تقصدينه . سرقته من لولا . لقد صعدت الى غرفتها حين كانت غائبة عنها .

وطرفت ايفيش بعينيها وأضاف ماتيو :

– سأعيده لها طبعاً . انه قرض قسري . هذا كل ما في الامر .

وكانت البلادة تبدو على ايفيش ، فرددت على مهل ، كما فعلت

مارسيل منذ حين :
— لقد سرقت لولا .
فانزعج ماتيو لمظهرها المندهش ، وقال في حيوية :
— نعم ، ان هذا ليس عملاً مجيداً لو تعلمين كان هناك سُلّم يُرقى ، وباب يفتح .
— ولماذا فعلت ذلك ؟
فضحك ماتيو ضحكة موجزة :
— ليتني أعرف !
فنهضت فجأة وقد أصبح وجهها قاسياً متوحشاً كما كان يبدو اذ تلتفت في الشارع لتتابع بنظرها امرأة جميلة او فتى ناضراً . ولكنها كانت تنظر هذه المرة الى ماتيو . وشعر ماتيو انه كان يحمرّ ، فقال في تردّد :
— لم اكن اريد ان أتخلى عنها . وانما كنت اريد فقط ان أعطيها المال حتى لا اكون مجبراً على الزواج بها .
قالت ايفيش : — نعم ، فهمت .
ولم يكن يبدو عليها قط انها فهمت ؛ كانت تنظر اليه . وألحّ وهو يلفت رأسه :
— ولكن ما وقع قبيح : انها هي التي طردتني . لقد تلقّت ذلك باستياء كبير ، ولا ادري ماذا كانت تنتظر .
ولم تجب ايفيش ، فصمت ماتيو على ضيــق . وكان يفكر : « لا أريد ان تكافئني »
قالت ايفيش : — انك جميل .
وأحسّ ماتيو في إرهاق ان حبّه الحادّ يولد فيه مــن جــديد . وكان يخيّل اليه انه كان يترك مارسيل للمرة الثانية . ولم يقل شيئاً ، وجلس بالقرب من ايفيش ، وتناول يدها . وقالت له :

ـ فظيع كم تبدو عليك الوحدة .

وكان خجلاً . وانتهى الى القول :

ـ اني اتساءل عما عساك تظنين يا ايفيش ؟ ان هـذا كله مثير للشفقة . لقد سرقت ، لو تعلمين ، بدافع الذعر ، وهأنذا الآن اشعر بالندم .

قالت ايفيش وهي تبتسم :

ـ ارى جيداً انك تشعر بالندم . واظن اني كنت اشعر بمثله لو كنت في مكانك : ان المرء لا يستطيع الا ان يشعر بذلك ، في اليوم الاول .

وكان ماتيو يشد بقوة على اليد الصغيرة الحرون ذات الأظافـر المقرنة . وقال :

ـ انك على خطأ ، فلست ...

قالت ايفيش : ـ اسكت .

وسحبت يدها بحركة مفاجئة ، وردت شعرهـا كله الى خلف ؛ كاشفة خديها وأذنيها . وكان يكفيها بضع حركات سريعة ، وحين خفضت يديها ، كان شعرها متماسكاً ، ووجهها عارياً . وقالت :

ـ هكذا .

وفكر ماتيو : « انها تريد ان تنزع مني حتى ندمي . » ومـد ذراعه ، فجذب اليه ايفيش ، واستسلمت ؛ وكان يسمع في داخله لحناً صغيراً جذلاً كان يحسب انه أضاع منه حتى ذكراه . واهتز رأس ايفيش قليلاً على كتفه ، وكانت تبتسم له ، مفترة الشفتين . وبادلها بسمتها ، ثم قبلها قبلة خفيفة ، ثم نظر اليهـا فتوقف اللحن الصغير فجأة ، وقال في نفسه : « ولكنها ليست الا طفلة » . وكان يحس انه وحيد وحدة مطلقة . وقال بعذوبة :

ـ ايفيش !

فنظرت اليه في دهشة .

ـ ايفيش ... لقد اخطأتُ .

وكانت قد قطبت حاجبيها ، وكانت انتفاضات صغيرة تهزّ رأسها وترك ماتيو ذراعيه تسقطان ، وقال في تعب :

ـ انني لا اعرف ما الذي اريده منك .

فانتفضت ايفيش وتخلصت بسرعة . وكانت عيناها ترسلان الشرر ولكنها سترتهما واتخذت هيئة حزينة عذبة . وبقيت يداهـا وحدهما غاضبتين : كانتا تتطايران حولها وتحطّان على رأسها وتشدّان شعرها . وكان ماتيو يُحسّ بالجفاف في حلقه ، ولكنه كان ينظر الى هـذا الغضب بلا اكتراث . كان يفكر : « لقد أفسدتُ هذا ايضاً . » وكان مسروراً تقريباً : لقد كان ذلك بمثابة تفكير . واستطرد يقول وهو يبحث عن النظر الذي كان يصرّ على الافلات منه :

ـ يجب ألاّ ألمسك .

فقالت محمرّة من الغضب :

ـ اوه ، ليس لهذا اهمية .

ثم اضافت بلهجة مغنيّة :

ـ كان يبدو عليك انك فخور جداً لكونك اتخذت قراراً ، وقد ظننت انك كنت قادماً لتبحث عن مكافأة .

وعاد يجلس بالقرب منها واخذ على مهل ذراعها ، ما فوق المرفق قليلاً ، ولم تتخلص منه .

ـ ولكني احبك يا ايفيش .

فتصلبت ايفيش ، وقالت له :

ـ اودّ ان تظنّ ...

ـ ان اظنّ ماذا ؟

ولكنه كان يحزر ما تفكر به . وترك ذراعيها . وقالت ايفيش :

ــ انني ... انني لا اكنّ حبّاً لك .

فلم يجب ماتيو . وكان يفكر : « انها تأخذ بثأرها، هذا مألوف . » والواقع ان ذلك كان على الارجح صحيحاً : فلماذا تراها كانت تحبه ؟ انه لم يكن يتمنى شيئاً بعد ، الاّ ان يبقى فترة طويلة صامتاً بالقرب منها ، وان تذهب في آخر الامر من غير ان تتكلم . ومع ذلك فقد قال :

ــ هل تعودين العام القادم ؟

قالت : ــ سأعود .

وكانت تبتسم له بسمة تكاد تكون رقيقة ، وكانت لا بدّ تقدّر ان كرامته قد حُفظت . وكان هذا هو الوجه نفسه الذي أدارته نحوه مساء أمس ، فيما كانت سيدة المغاسل تضمد يدها . ونظر اليهـا في غير وثوق ، وكان يشعر ان رغبته تولد من جديد ، تلك الرغبة الحزينة المتطامنة التي لم تكن رغبةً في شيء . واخذ ذراعها ، واحسّ تحت اصابعه بتلك البشرة النضرة . وقال :

ــ انني ...

وصمت . كان ثمة من يدق الباب : دقة اولاً ، ثم دقتين ، ثم جرساً غير منقطع . وأحسّ ماتيو بأنه مثلج ، وفكر : « مارسيل ! » وكانت ايفيش قد امتقعت ، لقد جاءت الفكرة نفسها بكل تأكيد . وتبادلا النظر . وهمست :

ــ يجب ان تفتح .

قال ماتيو : ــ اعتقد ان نعم .

ولم يتحرك . وكان الدق على الباب قد اصبح عنيفاً . وقالت ايفيش وهي ترتجف :

ــ فظيع ان يفكر المرء ان وراء هذا الباب احداً .

قال ماتيو : ــ نعم .. هل تريدين .. هل تريدين ان تدلفي الى

المطبخ ؟ سوف اغلق بابه فلا يراك احد .

فنظرت اليه ايفيش نظرة تسلّط هادىء :

– كلا . سوف ابقى .

وذهب ماتيو ليفتح فرأى في الظلّ رأساً كبيراً منقبضاً يشبه القناع : كانت لولا . ودفعته لتدخل بسرعة وسألته :

– اين بوريس ؟ لقد سمعت صوته .

ولم يكن لماتيو الوقت حتّى لإغلاق الباب فدخل الى المكتب على عقبيه . وكانت لولا قد تقدمت نحو ايفيش بلهجة تهديد :

– اخبريني اين بوريس !

فنظرت اليها ايفيش نظرة مذعورة . ومع ذلك فلم يكن يبدو على لولا انها تتجه اليها – او الى اي شخص آخر – بل لم يكن مؤكداً انها رأتها . ووقف ماتيو بينهما :

– انه ليس هنا .

فأدارت لولا نحوه وجهها المتحلّل . كانت قد بكت .

– لقد سمعت صوته .

قال ماتيو وهو يحاول ان يمسك نظرها :

– ان في المنزل ، الى جانب هذا المكتب ، مطبخاً وحماماً . فبوسعك ان تبحثي في كل مكان ان كان ذلك يروقك .

– اين هو اذن ؟

وكانت مرتدية ثوبها الحريري الاسود ومحتفظة بماكياجها المسرحي . كان يبدو على عينيها انهما متخثّرتان . وقال ماتيو :

– لقد ترك ايفيش حوالى الساعة الثالثة . ولا ندري ماذا فعل بعد ذلك .

واخذت لولا تضحك كامرأة عمياء . وكانت يداها تتشنجان على محفظة مخملية صغيرة سوداء كان يبدو انها تحتوي شيئاً واحداً ، قاسياً

وثقيلاً . ورأى ماتيو المحفظة فأخذه الخوف ، وكان لا بدّ من ان يصرف ايفيش على التو .

وقالت لولا : — حسناً ، اذا كنتما لا تعرفان ماذا صنع ، فبوسعي ان اخبركما . لقد صعد الى غرفتي حوالي السابعة اذ كنت قد خرجت، ففتح بابي ونزع قفل صندوق وسرق مني خمسة آلاف فرنك .

ولم يجرؤ ماتيو على ان ينظر الى ايفيش ، وقال لها على مهل ،وهو مطرق الى الارض :

— ايفيش ، من الخير ان تذهبي ؛ يجب ان اتحدث الى لولا . هل ... هل استطيع ان اراك مرة اخرى هذه الليلة ؟

وكانت ايفش ممتقعة فقالت :

— اوه ، كلا اريد ان اعود الى بيت الطـالبات ، فان عليّ ان احزم حقائبي ، ثم انني اريد أن أنام . انني شديدة الرغبة في النوم .

وسألت لولا :

— هل هي مسافرة ؟

قال ماتيو : — نعم . صباح الغد .

— وهل يسافر بوريس ايضاً ؟

— كلا .

واخذ ماتيو يد ايفيش :

— إذهبي فنامي يا ايفيش . لقد قضيت يوماً شاقاً الا تزالين مصرّة على الاّ اصحبك الى المحطة ؟

— نعم . افضّل ان لا .

— اذن ، الى السنة القادمة .

وكان ينظر اليها ، وهو يرجو ان يجد في عينيها بريق حنان ، ولكنه لم يستطع ان يقرأ فيها الا الذعر . وقالت :

— الى السنة القادمة .

وقال ماتيو بحزن : — سأكتب لك يا ايفيش .
— نعم . نعم .
وكانت تهمّ بالخروج ، فسدّت لولا عليها الطريق :
— عفواً ! الذي يثبت لي انها ليست ذاهبة لتلتقي ببوريس ؟
قال ماتيو : — وبعد ؟ أتصور انها حرة .
قالت لولا وهي تقبض بيدها اليسرى على معصم ايفيش :
— إبقي هنا .
فأطلقت ايفيش صرخة ألم وغضب وصاحت :
— دعيني ، لا تمسّيني ، لا اريد ان يمسّني احد .
ودفع ماتيو لولا بقوة فتراجعت بضع خطى وهي تزمجر . وكان ينظر الى محفظتها . وتمتمت ايفيش بين اسنانها :
— يا للمرأة القذرة !
وكانت تجسّ معصمها بابهمها وسبابتها . وقال ماتيو من غير ان ينزع نظره عن المحفظة :
— لولا ، دعيها تذهب . ان لدي اشياء كثيرة اقولها لك ، ولكن دعيها اولاً تذهب .
— وهل تقولين لي اين بوريس ؟
قال ماتيو : — لا ، ولكني سأشرح لك حكاية هذه السرقة .
قالت لولا : حسناً . اذهبي اذن . واذا رأيت بوريس قولي له اني قدمت شكوى .
قال ماتيو : — سوف تُسحب الشكوى .
وظل ينظر الى المحفظة ، واضاف :
— وداعاً يا ايفيش .
فلم تجب ايفيش ، وسمع ماتيو في عزاء وقع قدميها الخفيف . ولم يرها تذهب ولكن الصوت انطفأ : فأحس بانقباض في قلبه . وخطت

لولا الى امام وصاحت :
— قولي له إنه اخطأ العنوان . قولي له انه ما يزال أصغر من ان يتغلب عليّ .
والتفتت الى ماتيو : هذه النظرة المزعجة نفسها التي لم يكن يبدو عليها انها ترى . وسألته في قسوة :
— وإذن ، تفضل فاحكِ قصتك .
قال ماتيو : — اسمعي يا لولا .
ولكن لولا كانت قد عادت الى الضحك ، وقالت :
— انني لم اولد أمس . اوه ! كلا ! لقد قالوا لي كثيراً انني اكاد اكون بعمر أمه .
وتقدم ماتيو منها : — لولا !
— لقد قال لنفسه : « ان العجوز تخبئني في جلدها ؛ وستكون سعيدة جداً بان تجمع ثروتها من جديد ، وسوف تشكرني على ذلك .» إنه لا يعرفني ! إنه لا يعرفني !
وامسكها ماتيو من ذراعيها وهزّها كأنها شجرة خوخ ، فيما كانت تصيح وهي تضحك :
— إنه لا يعرفني !
وقال بخشونة : — هل تراك ستصمتين ؟
فهدأت لولا ؛ وبدت وكأنها تراه للمرة الاولى :
— تفضل .
قال ماتيو : — أصحيح انك رفعت عليه شكوى ؟
— نعم . ما الذي تودّ ان تقوله لي ؟
قال — انا الذي سرقتك .
وكانت لولا تنظر اليه بلا اكتراث ، فكان عليه ان يردّد :
— انا الذي سرقت الخمسة الآف فرنك .
قالت — آه ! انت ؟

وهزت كتفيها .

– لقد رأته صاحبة الفندق .

– كيف تكون قد رأته ، مادمت اقول لك اني انا الذي سرقت.

قالت لولا منزعجة :

– لقد رأته . فقد صعد حوالي الساعة السابعة وهو يتخفّى ، وتركته يفعل لأني كنت قد امرتها بذلك . ولقد انتظرته طوال النهار، وكان قد انقضى على خروجي عشر دقائق . كان لا بدّ يترصدني عند زاوية الشارع ، فما ان رآني أذهب حتى صعد .

وكانت تتكلم بصوت قاتم سريع كان يبدو انه يعبرّ عن اعتقاد لا يتزعزع ، وفكر ماتيو بخيبة: « لكأنها بحاجة الى ان تؤمن بذلك.» وقال :

– اسمعي : في اية ساعة عدت الى الفندق ؟

– المرة الاولى ؟ الساعة الثانية .

– حسناً ! كانت الاوراق المالية آنذاك لا تزال في الصندوق .

– اقول لك ان بوريس قد صعد عند الساعة السابعة .

– من الممكن ان يكون قد صعد ، وربما كان آتياً لرؤيتك . ولكنك لم تنظري في الصندوق ؟

– بلى .

– هل نظرت فيه عند الساعة الثامنة ؟

– نعم .

قال ماتيو : – انك غير صادقة يا لولا . انـــا واثق من انك لم تنظري فيه . فعند الساعة الثامنة كان المفتاح معي ، وما كان بامكانك ان تفتحيه . ولئن اكتشفت السرقة عند الساعة الثامنة ، فكيف تريدين ان اصدّق انك انتظرت منتصف الليل حتى تقصدي منزلي ؟ عنـــد الساعة الثامنة تزيّنت بهدوء ، وارتديت ثوبك الجميل الاسود وذهبت الى « سومطرا » . اليس هذا صحيحاً ؟

فنظرت اليه لولا نظرة مغلقة :

— لقد رأته صاحبة الفندق يصعد .

— نعم ، ولكنك انت لم تنظري في الصندق . وكان المال ما يزال فيه عند الساعة الثامنة . وقد صعدت عند الساعة العاشرة واخذته. وكان في المكتب عجوز رأتني ؛ وبوسعها ان تشهد . اما انت فقد اكتشفت السرقة عند منتصف الليل .

قالت لولا في تعب :

— نعم . عند منتصف الليل . ولكن الامر سواء . لقد اصبت بضيق في « سومطرا » فعدت الى الفندق . وتمدّدت ثم ادنيت الصندوق مني . كان هناك .. كان هناك رسائل كنت اودّ ان أعيد قراءتها .

وفكر ماتيو : « صحيح : الرسائل . لماذا تريد ان تخفي أمر سرقتها ؟ » وكان كلاهما صامتاً ؛ وبين الفينة والفينة ، كانت لولا تنوس من الوراء الا الامام ، كمن ينام واقفاً . وبدت أخيراً وكأنها تستيقظ :

— أنت ، انت الذي سرقتني ؟

— انا .

وضحكت مقتضبة ؟

— احتفظ بتدجيلاتك للقضاة اذا كان يروق لك ان تقضي ستة أشهر في السجن بدلاً منه .

— تماماً يا لولا : فما يُجديني أن أعرّض نفسي للسجن بدلاً من بوريس ؟

فلوت فمها :

— هل أدري ما الذي تفعله معه ؟

— إن هذا سخيف ! إسمعي : أقسم لك اني انا الذي سرقت : كان الصندوق امام النافذة ، تحت حقيبة . وقد أخذت المال وتركت

القفل في المفتاح .

وكانت شفتا لولا ترتجفان ، وكانت تدعك محفظتها في عصبية :

ــ أهذا كل ما تريد ان تقوله لي ؟ إذن دعني أذهب .

وارادت ان تمرّ ، فأوقفها ماتيو :

ــ لولا ، انك لا تريدين ان تدعي نفسك تقتنعين .

فدفعته لولا بضربة من كتفها .

ــ الا ترى إذن في أية حالة أنا ؟ من تظنني بحكاية صندوقك هذه ؟ (واضافت وهي تقلد صوت ماتيو) لقد كان الصندوق تحت حقيبة امام النافذة . لقد جاء بوريس الى هنا ، وانت تحسب اني لا اعرف ذلك ؟ لقد اتفقتما معاً على ما ينبغي ان يُقال للعجوز . (وقالت بصوت مريع) دعني إذن أذهب ، دعني أذهب !

واراد ماتيو ان يأخذها من كتفيها ، ولكن لولا ارتمت الى خلف وحاولت ان تفتح محفظتها ، فانتزعها منها ماتيو وألقى بها الى الديوان. وقالت لولا :

ــ يا لك من وحش

فقال ماتيو وهو يبتسم :

ــ أهو كبريتات ام مسدس ؟

فأخذت لولا ترتجف بكل اعضائها . وفكر ماتيو : « هكذا : انها نوبة الأعصاب » وكان يشعر بأنه يحلم حلماً مشؤوماً غريباً . ولكن كان ينبغي إقناعها . وكفّت لولا عن الارتجاف . كانت قد انزوت بالقرب من النافذة وهي ترقبه بعينين تلتمعان بحقد عاجز . وأدار ماتيو رأسه : إنه لم يكن يخاف حقدها ، ولكن كان على ذلك الوجه قحطٌ بائسٌ لا يُحتمل .

وقال بتمهل : ــ « لقد صعدت الى غرفتك هذا الصباح ، فأخذت المفتاح من حقيبتك . وحين استيقظت ، كنت على وشك ان

أفتح الصندوق . ولم يتح لي الوقت ان اعيد المفتاح الى مكانه ، وهذا ما جعلني افكر بالعودة الى غرفتك هذا الصباح .

قالت لولا : — عبث ما تقول . فقد رأيتك تدخل هذا الصباح . وحين حدّثتك لم تكن قد وصلت حتى الى سريري .

— كنت قد دخلت مرة اولى وعدت .

وقهقهت لولا فأضاف على مضض :

— بسبب الرسائل .

فلم يكن يبدو عليها انها تسمع : كان لا فائدة إطلاقاً من ان يحدثها عن الرسائل ، انها لم تكن تفكر الا بالمال ، وكانت بحاجة الى التفكير به لتُلهب غضبها ، وهو ملاذها الوحيد . وانتهت الى القول في ضحكة صغيرة جافة .

المصيبة انه طلب مني الخمسة آلاف فرنك مساء أمس ، أتفهم ؟ ومن أجل هذا بالذات تخاصمنا .

فأحسّ ماتيو بعجزه : كان الأمر بديهياً ، فان المذنب لا يمكن ان يكون الا بوريس . وقال في إرهاق : « كان عليّ ان افكر بهذا . » وقالت لولا في بسمة خبيثة :

— لا تجهد نفسك إذن . سوف أقبض عليه ، واذا نجحت في ان تضلّل القاضي ، فأحصل عليه بطريقة اخرى . هذا كل ما في الأمر .

ونظر ماتيو الى المحفظة على الديوان ونظرت اليها لولا كذلك . وقال :

— لقد طلبت منك المال لأجلي أنا .

— نعم . ومن أجلك ايضاً سرق كتاباً من احدى المكتبات بعد الظهر ؟ لقد افتخر بهذا بينما كان يرقص معي .

وتوقفت فجأة ثم أردفت بهدوء مهدّد :

– حسناً ! انت الذي سرقتني اذن ؟

– نعم .

– إذن ، أعِدْ لي المال

فظل ماتيو مشدوهاً . واضافت لولا بلهجة انتصار ساخرة :

– أعِدْهُ لي فوراً فأسحب شكواي .

فلم يجب ماتيو . وقالت لولا :

– كفى . لقد فهمت .

وأخذت محفظتها من جديد من غير ان يحاول منعها عن ذلك . وقال في مشقة :

– لو كنت املكه في الحقيقة فماذا يثبت هذا ؟ ان بوسع بوريس ان يستودعني اياه ، في رأيك .

– انا لا اطلب منك هذا . اطلب منك ان تردّه لي .

– ليس المال معي بعد .

– ايّ خلط هذا ! لقد سرقتني عند الساعة العاشرة ، ولم يبق معك شيء عند منتصف الليل ؟ تهانيّ .

– لقد أعطيت المال :

– لمن ؟

– لن اقول لك ذلك .

وأضاف بحيوية :

– لم أعطه لبوريس .

فابتسمت من غير ان تجيب ، وتوجهت الى الباب فلم يوقفها . وكان يفكر : : « ان دائرة الشرطة التي تتبع لها منطقتها تقع في شارع مارتير . وسوف أقصدها لأشرح القضية . » ولكنه حين رأى ظهر هذا الشبح الاسود الذي كان يسير في صلابة كارثة عمياء ، خاف وفكر في المحفظة ، وبذل جهداً أخيراً :

– استطيع في آخر المطاف ان اخبرك لمن اعطيت المال : اعطيته للآنسة دوفيه ، وهي صديقة لي .

وفتحت لولا الباب وخرجت . وسمعها تصرخ في الغرفة الخارجية فوثب قلبه . وبرزت لولا مرة اخرى ، وكانت تبدو عليها هيئة المجانين ، وقالت :

– هناك شخص .

وفكر ماتيو : « انه بوريس . »

وكان دانيال . ودخل في شموخ وانحنى امام لولا . وقال وهو يمد مغلفاً :

– هذه يا سيدتي هي الخمسة آلاف فرنك . تفضلي وتحققي من نها مالك .

وفكر ماتيو في وقت واحد « ان مارسيل هي التي تُرسله » و «لقد اصغى من وراء الباب » وكان دانيال يصغي من وراء الابواب ليتدبّر أمر دخوله . وسأله ماتيو :

– أتراها قد ....

فطمأنه دانيال بحركة وقال :

– كل شيء على ما يرام .

وكانت لولا تنظر الى المغلّف نظرة حذرة تشبه نظرة الفلاحين . وسألت :

– فيه خمسة آلاف فرنك ؟

– نعم .

– ما الذي يثبت لي انها اوراقي المالية ؟

فسألها دانيال : – ألم تسجّلي أرقامها ؟

– اتظن ذلك ؟

قال دانيال في لهجة عتاب :

ـ آه ، ينبغي يا سيدتي ان تسجلي الارقام دائماً .

وجاء ماتيو وحي مفاجيء : لقد تذكر رائحة عطر « قبرص » الكثيفة التي انبعثت من الصندوق فقال :

ـ شميها .

فترددت لولا لحظة ، ثم خطفت المغلف ومزقتها وأدنت الاوراق المالية من أنفها . وخشي ماتيو ان ينفجر دانيال ضاحكاً . ولكن دانيال كان رصيناً كأنه بابا ، كان ينظر الى لولا بعين متفهمة . وسألت :

ـ اذن ؟ لقد أجبرت بوريس على إعادتها ؟

قال دانيال : ـ لا اعرف احداً يُدعى بوريس . انها صديقة لماتيو اعطتني إياها لأردها له . وقد اتيت ركضاً وسمعت نهاية حديثكما . واعتذر من ذلك يا سيدتي .

وظلت لولا جامدة : وذراعاها متدليتان على جنبيها ، تشد محفظتها بيدها اليسرى ، بينما كانت اليمنى متشنجة على الاوراق المالية ؛ وكانت هيئتها قلقة مشدوهة . وسألت فجأة :

ـ ولكن لماذا فعلت ذلك انت ؟ ما هي خمسة آلاف فرنك ، بالنسبة اليك ؟

فابتسم ماتيو بلا مرح :

ـ يبدو انها شيء كثير .

ثم اضاف على مهل :

ـ يجب ان تفكري بسحب شكواك يا لولا . او اذا شئت قدمي شكواك ضدي أنا .

فأدارت لولا رأسها وقالت بسرعة :

ـ لم اقدم شكوى بعد .

وظلت مزروعة وسط القاعة ، تائهة . وقالت :

– كانت هناك ايضاً رسائل .

– ليست هي معي بعد . لقد اخذتها هذا الصباح له . اذ كنّا نظنّك ميتة . وهذا ما اوحى لي بان اعود لآخذ المال .

فنظرت لولا الى ماتيو من غير حقد ، وبقدر كبير من الدهشة ونوع من الاهتمام ، وقالت :

– لقد سرقت مني خمسة آلاف فرنك ! ان هذا ... هذا طريف !

ولكن سرعان ما انطفأت عيناها وقست ملامح وجهها ، وكان يبدو عليها انها تتألم . وقالت :

انني ذاهبة .

فتركاها تخرج في سكون . التفتت عند عتبة الباب :

– اذا لم يفعل شيئاً ، فلماذا لا يعود ؟

– لا ادري .

فندّت عن لولا شهقة قصيرة واعتمدت عارضة الباب . وخطا ماتيو خطوة نحوها ، ولكنها تمسكت :

– اتعتقد انه سيعود ؟

– أظنّ انهما غير قادرين على ان يُسعدا الناس ، ولكنهما مع ذلك لا يستطيعان ان يتخلّيا عنهم ، فان ذلك أشقّ من ان يحملاه :

قالت لولا : – نعم . نعم . هيّا . وداعاً .

– وداعاً يا لولا . انك ... لا تحتاجين شيئاً ؟

– كلا .

وخرجت وسمعا الباب ينغلق . وسأل دانيال :

– من هي هذه السيدة العجوز ؟

– لولا ، صديقة بوريس سرغين . انها « مخلوعة » .

فقال دانيال : – يبدو عليها ذلك .

واحسّ ماتيو بانزعاج ان يبقى معه وحيداً ؛ فقد كان يخيّل اليه

انه قد وضع فجأة في حضور خطيئته . كانت هناك ، تجاهه ، حيّة ، كانت تعيش في اعماق عيني دانيال ، والله يعلم ايّ شكل اتخذته في هذا الوجدان المدلّل المزوّر . وكان يبدو على دانيال انه مستعد لاستغلال الموقف . فقد كان حفياً وقحاً سيء النفس كما كان يبدو في اردأ ايامه . وقسا ماتيو ورفع رأسه ، وكان دانيال بشعاً وقال دانيال في ابتسامة رديئة :

– انك تبدو كريهاً .

فقال ماتيو : – كنت أهمّ بان اقول لك مثل ذلك . اننا نضران !

فهزّ دانيال كتفيه . وسأله ماتيو :

– هل انت قادم من لدن مارسيل ؟

– نعم .

وهي التي أعادت لك المال ؟

فقال دانيال متهرباً : – انها لم تكن بحاجة اليه .

– لم تكن بحاجة اليه ؟

– كلا .

– قل لي على الاقل ان كانت لديها الواسطة ...

قال دانيال : – ليست القضية هكذا بعد يا عزيزي . ان هذه قصة قديمة .

وكان قد رفع حاجبه الأيسر وهو يتأمل ماتيو في سخرية ، كما لو كان ذلك عبر نظارة خيالية . وفكر ماتيو : « اذا كـان قصده ان يدهشني ، فهو يُحسِن صنعاً كذلك اذا منع يديه من الارتجاف . »

وقال دانيال بلا اكتراث :

– انني اتزوجها . وسنحتفظ بالولد .

واخذ ماتيو سيكارة فأشعلها . وكان مخّه يهتزّ كالجرس . وقال في هدوء :

ـ لقد كنت تحبّها إذن !

ـ ولِمَ لا ؟

وفكر ماتيو : « ان المقصودة هي مارسيل » مارسيل ! ولم يكن ينجح في ان يُقنع نفسه بذلك كل الاقناع . وقال :

ـ اسمع يا دانيال : انني لا اصدقك .

ـ انتظر قليلاً ، وسترى جيداً .

ـ كلا ، اقصد انك لن تجعلني اصدق انك تحبها ، وانا اتساءل عمّا وراء هذا كله .

وكان التعب يبدو على دانيال ، وكان قد جلس على حافة المكتب، واضعاً قدماً على الارض ، مؤرجحاً الاخرى غير في اكترث . وفكر ماتيو في غضب : « انه يتسلى »

وقال دانيال : ـ ستكون مندهشاً جداً اذا عرفت ماذا هناك .

وفكر ماتيو : « تفه ! لقد كانت خليلته ! » وقال في جفاء :

ـ اذا لم يكن عليك ان تقول لي ذلك ، فاسكت .

فنظر اليه دانيال لحظة كما لو كان يتسلى بأن يثير فضوله ، ثم نهض دفعة واحدة وأمرّ يده على جبينه وقال :

ـ ان الأمر يسوء .

وكان يتأمل ماتيو في اندهاش :

ـ لم أجيء لأحدثك في هذا . اسمع يا ماتيو ، انني ...

واغتصب ضحكة :

ـ ستعتبر نفسك رجلاً ذا أهمية إن قلت لك ذلك .

قال ماتيو : ـ حسناً . تكلم او لا تتكلم .

ـ إذن ، انني :

وتوقف ايضاً ، فأتمّ عنه ماتيو العبارة ، وقد نفد صبره :

ـ انك عشيق مارسيل ، هذا ما كنت تود ان تقوله .

فباعد ماتيو ما بين عينيه وارسل صفرةً خفيفة . واحسّ ماتيو ان وجهه يحمرّ . وقال دانيال بلهجة اعجاب :

ــ لقد وجدتّها ببراعة ! انك لا تطلب الا هذا ، اليس كذلك ؟ كلا يا عزيزي . إنك لا تملك حتّى هذا العذر .

فقال ماتيو ذليلاً : ــ وانت ايضاً ليس لك الا ان تتكلم .

قال دانيال : ــ انتظر . اليس لديك ما يُشرب ؟ ويسكي ؟

فقال ماتيو : ــ كلا . ولكن عنــدي « روم » ابيض .

(وأضاف) انها فكرة عظيمة : سوف نشرب قدحاً .

ومضى الى المطبخ ففتح الخزانة وفكر : « لقد كنت دنيئاً » وعاد بقدحين وزجاجة « روم » . فأخذ دانيال الزجاجة وملأ القدحين حتّى أترعهما . وقال :

ــ انه من مصنع « الروم » المارتينيكي ؟

ــ نعم .

ــ الا تزال تقصده أحياناً ؟

قال ماتيو : ــ احياناً . نخبك !

فنظر اليه دانيال نظرة استقصاء ، كما لو ان ماتيو كان يخفي عنه شيئاً ما وقال وهو يرفع قدحه :

ــ نخب غرامياتي .

قال ماتيو مغتاظاً : ــ انك سكران .

فقال دانيال : ــ صحيح اني شربت قليلا . ولكن اطمئن . كنت صامتاً حين صعدت الى بيت مارسيل . وبعد ذلك ...

ــ وهل انت قادم من عندها ؟

ــ نعم . وقد توقفت قليلاً في « الفلاستاف »

ــ لا بدّ انك وجدتّها ... فور ذهابـي ؟

فقال دانيال مبتسماً : ــ كنت انتظر ان تخرج . وحين رأيتك

تنفتل في منعطف شارع صعدت .

فلم يتمالك ماتيو حركة انزعاج وقال :

– أكنت تترصدني ؟ اوه .. فليكن . وهكذا لم تبق مارسيل وحدها . حسناً ! ما الذي كنت تودّ ان تقوله لي ؟

قال دانيال في ودّ مفاجيء : – لا شيء على الاطلاق يا عزيزي. كنت اودّ ببساطة ان اعلن لك زواجي .

– أهذا كل شيء ؟

– هذا كل شيء ؛ نعم .. هذا كل شيء .

فقال ماتيو في برودة : – كما تشاء .

وصمتا لحظة ، ثم سأله ماتيو :

– كيف ... كيف حالها ؟

فسأله دانيال بسخرية : – اتريد ان اقول لك انها سعيدة وفرحة ؟ وفّر عليّ تواضعي .

فقال ماتيو بجفاء : – ارجوك . صحيح . ليس لي اي حقّ في سؤالك .. ولكنك في الحقيقة قد جئت الى هنا ..

قال دانيال : – أجل ، كنت أظنّ أني سأجد مشقة اكبر لإقناعها : ولكنها ارتمت على اقتراحي كما يرتمي الفقر على العالم .

ورأى ماتيو مايشبه الحقد يلتمع في عينيه ، فسارع يقول لكي يعذر مارسيل :

– لقد كانت ضائعة ...

فهز دانيال كتفيه وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً . ولم يكن ماتيو يجرؤ على النظر اليه : كان دانيال يتلذّذ بنفسه ، ويتكلم بعذوبة ، ولكنه كان يبدو وكأنه مأخوذ . وشبك ماتيو يديه وحدّد نظره في حذائه . وأضاف على مشقة ، كأنما يحدث نفسه :

– لقد كانت تريد الطفل إذن ؟ انني لم افهم هذا . ولو

قالته لي ...

وكان دانيال صامتاً ، فاستطرد ماتيو في جهد :

– كان الطفـــل . . سيولد . انني انا .. كنت اريد حذفــه وأفرض انه من الأفضل ان يولد .

فلم يجب دانيال . وسأله ماتيو :

– انني لن أراه أبداً ، وبالطبع ؟

ولم يكن يبدو على عبارته انها استفهام . فأضاف من غير ان ينتظر الجواب

– واخيراً ، هذا هو الوضع . اعتقد انّ بوسعي ان اكون مسروراً. فانت تنقذها على نحو ما ... ولكني لا أفهم شيئاً في الأمر . لماذا فعلت ذلك ؟

فقال دانيال بجفاء : – طبعاً ليس ذلك بداعي محبة البشر ، ان كنت ترمي الى هذا . (واضاف) ان شرابك كريه .. ومع ذلك ، فأعطني قدحاً آخر .

فملأ ماتيو القدحين وشربا . وقال دانيال :

– وإذن ، ما الذي ستفعله الآن ؟

– لا شيء . لا شيء بعد .

– وتلك الصغيرة سرغين ؟

– كلا .

– بالرغم من انك تحرّرت الآن ؟

– الأمر لدي سواء !

– قال دانيال وهو ينهض :

– مساء الخير . لقد جئت اردّ لك المال واطمئنك قليلاً : انمارسيل لن تخشى شيئاً ، فهي تثق بي . لقد هزّتها هذه القصة كلها هزّاً عنيفاً ولكنها ليست شقية على كل حال .

فردّد ماتيو : — سوف تتزوجها ! (واضاف بصوت منخفض)
انها تكرهني .
فقال دانيال بقسوة : — ضع نفسك موضعها !
— اعرف ذلك . لقد وضعت نفسي موضعها . هل حدثتك عني ؟
— قليلاً جداً .
قال ماتيو : — اتدري . ان لي رأياً في زواجكما .
— هل انت نادم ؟
— كلا . بل أجد ذلك مشؤوماً .
— شكراً .
— اوه ! بالنسبة لكل منكما . لا ادري لماذا !
— لا تقلق . سيسير كل شيء على ما يرام . فاذا رزقنا ذكـراً أسميناه ماتيو .
فنهض ماتيو وهو يشدّ قبضته وقال :
— إخرس !
قال دانيال : — هيّا ، لا تغضب !
وردّد بلهجة شاردة : — لا تغضب ، لا تغضب .
ولم يعزم على الذهاب . فقال له ماتيو :
— بالاجمال ، لقد جئت ترى هيئتي بعد هذه القصة ؟
قال دانيال : — لا يخلو الأمر من هذا . بكل صراحة . لا يخلو الامر من هذا .. إنك تبدو دائماً ... شديد الصلابة : وكنت تضايقني بذلك .
قال ماتيو : حسناً ، وقد رأيتَ اني لست صلباً الى هذا الحد :
— نعم .
وخطا دانيال بضع خطوات الى الباب ، ثم عاد فجأة الى ماتيو :
وكان قد فقد هيئته الساخرة ، ولكن ذلك لم يغيّر شيئاً من الوضع ،

وقال :

ــ انني يا ماتيو لوطيّ .

فقال ماتيو : ــ ماذا تقول ؟

وكان دانيال قد ارتدّ الى خلف وهو ينظر اليه بعينين مدهوشتين ينبعث منهما شرر الغضب .

ــ ان هذا يثير اشمئزازك ، اليس كذلك .

فردّد ماتيو بهدوء ؛ ــ انت لوطيّ ؟ كلا ، ان هذا لا يثير اشمئزازي ، ولماذا تراه يثير اشمئزازي ؟

قال دانيال : ــ ارجوك ، لا تظنّ انك مجبر على ان تظهر بمظهر المتحررين الواسعي التفكير ...

فلم يجب ماتيو . كان ينظر الى دانيال ويفكر : « انه لوطي » ولم يكن شديد الدهشة .

وتابع دانيال بصوت مصفرّ :

ــ اراك لا تقول شيئــاً . انك على حق . ان ردّ فعلك مناسب تماماً ، وهو الذي يتميّز به كل رجل سليم ، ولكنك تحسن صنعــاً كذلك بان تحتفظ به لنفسك .

وكان دانيال جامداً ، وذراعاه ملتصقتان بجسمه ، وكان يبدو عليه انه في ضيق . وتساءل ماتيو في قسوة : « ما الذي دهاه لكي يأتي فيعذب نفسه عندي ؟ » وكان يفكر بانه لا بد قد وجد شيئاً يقوله ، ولكنه كان غارقاً في لامبالاة عميقة شالّة . ثم ان ذلك كان يبدو له طبيعياً جداً وعادياً جداً : لقد كان دنيئاً ، وكان دانيال لوطيــاً ، وكان هذا في طبيعة الاشياء . وقال اخيراً :

ــ بوسعك ان تكون ما تريد . ان هذا لا يعنيني .

فقال دانيال وهو يبتسم في رفعة : ــ أتصور في الحقيقة ان هذا لا يعنيك . فحسبك ما تعانيه مع ضميرك بالذات .

ـ اذن لماذا تأتي فتروي لي هذا ؟

فقال دانيال وهو يتنحنح : ـ لقد اردت ان اعرف الاثر الذي يخلّفه ذلك على شخص مثلك ... ثم اني ـ الآن وهناك من يعرف ـ ربما توصلت الى تصديق ذلك ...

وكان اخضر اللون وهو يتكلم في صعوبة ، ولكنه كان مستمراً في الابتسام . ولم يستطع ماتيو ان يتحمل هذه البسمة فأدار رأسه . وقهقه دانيال .

ـ أيدهشك هذا ؟ ويزُعج افكارك عن اللوطيّين ؟

فرفع ماتيو رأسه بحيوية وقال :

ـ لا تتحذلق . انك متعب . ولست بحاجة لأن تتحذلق معي . ربما كنت تنفر من نفسك ، ولكن ليس اكثر مما انفر من نفسي ، فنحن متساويان . (وفكر قليلاً واضاف) والواقع انك من أجل هذا تروي لي حكاياتك . لا بد ان الاعتراف امام انسان ضعيف اقل مشقة ، والمرء مع ذلك يملك ميزة الاعتراف .

فقال دانيال بصوت مبتذل لم يكن ماتيو يعهده فيه :

ـ انك خبيث صغير .

وصمتا . وكان دانيال ينظر امامه باستقامة وفي نظر محدّد ، على طريقة العجز . واخترق ماتيو ندمٌ حادّ :

ـ اذا كان الامر كذلك ، فلماذا تتزوج مارسيل ؟

ـ ليس لهذا اية علاقة .

قال ماتيو : ـ اني ... اني لا استطيع ان أدعك تتزوجها .

فانتصب دانيال وانطبعت على وجهه ، وجه الغريق ؛ لطخات حمراء داكنة ، وسأل في عبوس :

ـ صحيح ، ألا تستطيع ؟ وكيف تفعل لتمنعني من ذلك ؟

فنهض ماتيو من غير ان يجيب . وكان التلفون على مكتبه ، فتناول

الساعة وركّب رقم مارسيل . فنظر اليه دانيال في سخرية . وساد صمت طويل . وقال صوت مارسيل :

ــ آلو ؟

فانتفض ماتيو وقال :

ــ الو ، انا ماتيو .. اسمعي .. لقد كنت ، لقد كنا أبلهين منذ ساعة . اودّ ... الو ! مارسيل ؟ هل تسمعيني ؟ (وقال غاضباً) مارسيل ؟ آلو !

ولم تكن تجيب ، ففقد صوابه وصاح في الجهاز :

ــ مارسيل ، اريد ان اتزوجك !

وبعد صمت قصير ، حدثت خربشة في آخر الخطّ ، ثم أُغلق التلفون . واحتفظ ماتيو لحظة بالساعة في يده ، ثم وضعها بهدوء على الطاولة . وكان دانيال ينظر اليه من غير ان يقول كلمة ، ولم يكن يبدو عليه مظهر المنتصر . وشرب ماتيو جرعة « روم » وعاد يجلس في الاريكة وقال :

ــ حسناً !

فابتسم دانيال ، وقال على سبيل التعزية :

ــ ليطمئن بالك : فان اللوطيين هم دائماً ازواج ممتازون ، وهذا معهود .

ــ دانيال ! ان كنت تتزوجها لتقوم ببادرة طيبة ، فانك ستفسد حياتها .

قال دانيال : ــ انت آخر من ينبغي ان يقول لي ذلك . ثم اني لا اتزوجها لأقوم ببادرة طيبة . ثم ان ما تريده قبل كل شيء انما هو الطفل .

ــ وهل ... هل تعرف ؟

ــ كلا !

– لماذا تتزوجها ؟

– بدافع صداقتي لها .

ولم تكن اللهجة مقنعة . وصبّ أحدهما للآخر فشربا ، وقال ماتيو في عناد :

– انني لا اريد ان تكون شقية .

– أقسم لك انها لن تكون شقية .

– وهل تؤمن بأنك تحبّها ؟

– لا اعتقد . لقد عرضت عليّ ان أعيش بجانبها ؛ ولكن ذلك لا يناسبني . انني سأدعوها للإقامة معي . وقد تفاهمنا على ان نترك العاطفة تأتي رويداً رويداً .

واضاف في سخرية شاقة :

– انني مصمّم على ان اقوم بواجباتي كزوج حتى النهاية .

– ولكن هل ...

واحمرّ وجه ماتيو بعنف :

– هل تحب النساء ايضاً ؟

فنخر دانيال نخرة غريبة وقال :

– ليس كثيراً .

– فهمت .

وخفض ماتيو رأسه وامتلأت عيناه بدموع الخجل ، وقال :

– انني ازداد نفوراً من نفسي منذ عرفت انك ستتزوجها .

وشرب دانيال وقال بلهجة شاردة محايدة :

– نعم ، اعتقد انك تحسّ بأنك قذر بما فيه الكفاية .

فلم يجب ماتيو . وكان ينظر الى الارض بين قدميه : « انه لوطي ، وسوف تتزوجه . » وفتح يديه وصفق عقبه بالارض : كان يُحس انه مُطارَد . وثقل الصمت عليه فجأة فقال لنفسه : « ان دانيال ينظر

اليّ » وسارع يرفع رأسه . وكان دانيال ينظر اليه حقاً ، وبهيئة حقد انقبض لها قلب ماتيو ، فسأله :

ـ لماذا تنظر إليّ هكذا ؟

قال دانيال : ـ انت تعلم ! هناك من يعلم !

ـ انك لن تحتقر ان تطلق النار عليّ ؟

فلم يجب دانيال . واحترق ماتيو فجأة بفكرة لا تُحتمل فقال :

ـ دانيال : انك تتزوّجها لتعذّب نفسك .

فقال دانيال بصوت ابيض :

ـ وبعدُ ؟ ان هذا لا يعني احداً سواي .

فوضع ماتيو رأسه بين يديه وقال : « يا إلهي ! »

واضاف دانيال بحيوية : ـ ان هذا لا اهمية له على الاطلاق بالنسبة اليها . لا اهمية له .

ـ هل تكرهها ؟

ـ كلا .

وفكر ماتيو في حزن . « كلا . انما يكرهني انا » .

واستعاد دانيال بسمته وسأله :

هل نُفرغ الزجاجة ؟

فقال ماتيو : ـ لنفرغها .

وشربا ، ولاحظ ماتيو انه راغب في التدخين ، فتناول سيجارة من جيبه واشعلها . وقال :

ـ لا يعنيني ما تكونه . حتى وبعد ان اخبرتني ذلك . ومع هذا، يبقى شيء اريد ان اسألك عنه : لماذا تشعر بالخجل ؟

فضحك دانيال ضحكة جافة :

ـ كنت انتظرك هنا يا عزيزي . اني خجل من كوني لوطياً لأني لوطي . انا اعرف ما سوف تقوله لي : « لو كنت مكانك ، لما

استسلمت لهذا ، بل طالبت بمكاني تحت الشمس ، ان هـذا ذوق كالاذواق الاخرى الـخ ، الخ ... » ولكن ذلك لا يؤثر عليّ . انا اعرف انك ستقول لي هذا كله ، وذلك لأنك لست لوطياً . ان جميع اللوطيين يشعرون بالخجل ، وهذا في طبعهم .

فسأله ماتيو في حياء : — ولكن أليس الافضل ان يقبل المرء نفسه؟ فبدا على دانيال الانزعاج وأجاب في قسوة :

— ستحدثني عن ذلك مرة اخرى ، يوم تقبل ان تكون دنيئاً . كلا . ان اللوطيين الذين يتباهون او يتظاهرون او حتى يقبلون بكل بساطة ... انهم اموات . لقد قتلوا انفسهم لفرط ما شعروا بالخجل . وانا لا اريد هذا الموت .

ولكن كان يبدو وكأنه قد انفرج ، وكان ينظر الى ماتيو بلا حقد وأضاف في عذوبة :

— لقد قبلت نفسي اكثر مما ينبغي . انني اعرف نفسي في الزوايا .

ولم يكن ثمة ما يقال . واشعل ماتيو سيجارة اخرى . ثم انه كان باقياً بعض « الروم » في قعر قدحه فشربه . وكان دانيال يثير اشمئزازه . وفكر : « بعد عامين ، بعد اربعة ... أتراني سأصبح هكذا ؟ » وأخذته الرغبة فجأة بأن يحدث مارسيل في هذا : فانما كان يستطيع ان يحدثها وحدها عن حياته ، عن مخاوفه ، عن آماله . ولكنه تذكر انه لن يراها بعد ابداً ، فتحولت رغبته المعلقة التي لم يكن لها من اسم الى ضرب من الضيق . كان وحيداً .

وكان يبدو على دانيال انه يفكر : كان نظره ثابتاً وكانت شفتاه بين الفينة والفينة تفترّان . واطلق تنهّدة صغيرة ، وبدأ شيء ما يتطامن في وجهه . وأمرّ يده على جبينه : كان يبدو عليه الدهشة . وقال في صوت منخفض :

— ومع ذلك ، لقد فاجأت نفسي اليوم .

وابتسم بسمة غريبة ، تكاد تكون طفولية ، بسمة بدت في غير محلها على وجهه الزيتوني حيث كانت لحيته التي لم تحلق جيداً تخلف لطخات زرقاء . وفكر ماتيو : « صحيح ، لقد مضى الى النهاية ، هذه المرة . » وأتته فجأة فكرة انقبض لها قلبه : « انه حر » واختلط النفور الذي كان دانيال يوحيه له ، اختلط بالحسد وقال :

— لا بد انك في حالة نفسية غريبة .

قال دانيال : — نعم ، في حالة غريبة .

وكان ما يزال يبتسم باخلاص . وقال :

— اعطني سيجارة .

فسأله ماتيو : — انك تدخن ، الآن ؟

— واحدة . هذا المساء .

وقال ماتيو فجأة :

— اود لو اكون في وضعك .

فردد دانيال في غير اندهاش كثير : — في وضعي ؟

— نعم .

فرفع دانيال كتفيه وقال :

— انك في هذه القصة رابح في جميع الميادين .

فضحك ماتيو ضحكة جافة . واوضح دانيال :

— انت حر .

قال ماتيو وهو يهز رأسه :

— كلا ، ليس المرء حراً لمجرد ان يترك امرأة .

فنظر دانيال الى ما ماتيو في فضول :

— ومع ذلك فقد كان يبدو عليك هذا الصباح انك مؤمن بهذا .

— لا ادري . لم يكن ذلك واضحاً . ليس ثمة ما هو واضح . الحقيقة اني تركت مارسيل من اجل لا شيء .

وكان يحدد نظره في ستائر النافذة التي كانت تحركها ريح ليلية خفيفة . وكان متعباً . واضاف :

– من اجل لا شيء . في هذه الحكاية كلها لم اكن الا رقصاً ونفياً : صحيح ان مارسيل ليست بعد في حياتي ، ولكن هناك كل الباقي .

– ماذا ؟

فأشار ماتيو الى مكتبه بحركة عريضة غامضة :

– كل هذا ، كل الباقي .

وكان مسحوراً بدانيال . كان يفكر : « أهذه هي الحرية ؟ لقد عمل ، وهو الآن لا يستطيع ان يتراجع الى خلف : ولا بد ان يبدو له غريباً ان يحس خلفه عملا مجهولا لم يعد يفهمه تقريباً وسيقلب حياته . اما انا ، فان كل ما افعله ، افعله من اجل لا شيء ، فكأن الناس يسرقون لي نتائج اعمالي ؛ وكل شيء يحدث كما لو اني كنت أستطيع دائماً ان استعيد ضرباتي . انني لا ادري ما بوسعي ان ابذل لكي اقوم بعمل لا يمكن اصلاحه » .

وقال بصوت مرتفع :

– مساء أمس الاول ، رأيت شخصاً كان يريد ان ينضوي في حركة الميلشيا الاسبانية .

– وبعد ذلك ؟

– ولكن اخذه الخوف : فهو الآن هنالك .

– ولماذا تقول لي ذلك ؟

– لا ادري . هكذا .

– وهل رغبت يوماً في الذهاب الى اسبانيا ؟

– نعم . ولكنها لم تكن رغبة ملحة بما فيه الكفاية .

وصمتا . وبعد برهة ، رمى دانيال سيجارته وقال :

– اودّ لو اكون أسنّ مما انا بستة أشهر .

قال ماتيو : – اما انا فلا . فبعد ستة اشهر سأكون مشابهاً لما انا الآن.

قال دانيال : – وسيكون قد زال ندمك .

ونهض :

– اني ادعوك الى قدح في مقهى كلاريس .

قال ماتيو : – كلا ، فليست بي رغبة لأن أثمل هذا المساء . فأنا لا ادري ما الذي قد افعله اذا ثملت .

قال دانيال : – لن تفعل شيئاً هاماً . الا تأتي معي اذن ؟

– كلا . وانت ، الا تريد ان تبقى لحظة اخرى ؟

قال دانيال : – يجب ان أشرب . وداعاً .

– مع السلامة .. هل .. هل اراك قريباً ؟

فبدا دانيال مرتبكاً :

– اعتقد ان ذلك سيكون صعباً . لقد قالت لي مارسيل انها لا تريد ان تغيّر شيئاً في حياتي ، ولكني أظنّ انه سيشقّ عليها ان اراك ثانية .

فقال ماتيو بجفاف : – آه ؟ حسناً . في هذه الحالة ادعو لك بالحظ الطيب .

فابتسم دانيال من غير ان يجيب ، واضاف ماتيو فجأة :

– انك حاقدٌ عليّ .

فاقترب منه دانيال وأمرّ يده على كتفه بحركة صغيرة مرتبكة حييّة :

– كلا . ليس في هذه اللحظة .

– اما غداً ...

فحنى دانيال رأسه من غير ان يجيب وقال ماتيو :

– مع السلامة :

وخرج دانيـــال ، فاقترب ماتيو من النافـــذة ورفـــع الستائر . وكان ليلاً رائقاً ، رائقاً وأزرق ؛ وكانت الريح قد كنست الغيوم ، وكانت النجوم تـُرى فوق السطوح . وارتفق الشرفة وتثاءب طويلاً . وفي الشارع ، تحته ، كان رجلٌ يسير بخطوة هادئة ؛ وتوقف عنـــد زاوية شارع هويغنز وشارع فراودفو ، فرفع رأسه ونظر الى السماء . وكان هو دانيال . وكان نغمٌ موسيقي يأتي دفعات من جادّة «مين» ، وتسرّب الى السماء ضوء منارة ابيض ، فتوقف فوق مدخنة ثم تدحرج خلف السطوح . وكانت سماء حفلة قروية ، متقطـّعة بالشرائط ،تذكـِّر بالعـُطـَل وبحفلات الرقص الحقلية . ورأى ماتيو دانيال يختفي ، وفكر : « انني ابقى وحيداً . » وحيد ، ولكن ليس اكثر حرية من السابق . وكان قد قال لنفسه عشية الامس : « ليت ان مارسيل غير موجودة » ولكن هذه كانت اكذوبة . « لم يعترض احد طريق حريتي ، وانما حياتي هي التي شربتها . » وعاد يغلق النافـــذة ويدخـــل الى الغرفة . وكانت رائحة ايفيش ما تزال تخفق فيها . وتنشـّق الرائحة واستعاد هذا اليوم الصاخب . وفكر : « ضجة كثيرة من اجل لا شيء .» من اجل لا شيء : لقد أُعطي هذه الحياة من اجل لا شيء ، ولم يكن شيئاً ، ومع ذلك فهو لن يتغيـّر أبداً : لقد كان مصنوعاً . ونزع نعليه وظلّ جامداً ، وهو جالس على ذراع الاريكة ، ونعلٌ في يده ؛ وكان ما يزال في جوف حلقه حرارة « الروم » المسكـّرة . وتثاءب : لقـــد انهى يومه ، وقد انتهى من شبابه . وكان ثمـــة اخـــلاقياتٌ معاناةً تعرض عليه خدماتها عرضاً خفياً : كان ثمـــة الابيقورية المتبصـّرة ، والرحمة الباسمة ، والاستسلام ؛ وروح الرصانة ، والعزءة الزينونية ،

وكل ما كان يتيح للمرء ان يتذوّق تذوّق العارف ، دقيقة فدقيقة ، حياةً خائبة . ونزع سترته ، واخذ يحلّ عقدة عنقه . وكان يردّد وهو يتثاءب : « هذا صحيح ، هذا صحيح بالرغم من كل شيء : انني في سنّ الرشد . »

انتهى الجزء الاول : سن الرشد
ويليه الجزء الثاني : وقف التنفيذ

جان بول سارتر

دروب الحرية - ٢

وقف التنفيذ

نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل إدريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٦١

الجمعة ٢٣ ايلول

الساعة السادسة عشرة والنصف في برلين ، الخامسة عشرة والنصف في لندن . كان الفندق يشعر بالضجر فوق رابية ، وكان خالياً مزهواً وفي داخله شيخ . وكانوا يفكرون في انغوليم ، وفي مارسيليا ، وفي غاند، وفي دوفر: « ماذا تُراه يفعل ؟ لقد تجاوزت الساعة الثالثة ، فلماذا لا يهبط ؟ » وكان جالساً في الصالة ذات الشبابيك نصف المغلقة ، وعيناه ثابتتان تحت حاجبيه الكثيفين ، وفمه مفترّ بعض الافترار ، كما لو انه كان يبتعث ذكرى قديمة جداً . وكان قد كفّ عن القراءة ، وكانت بيده الهرمة المبقعة التي ما تزال تمسك بالاوراق ، تتدلى على ركبتيه . والتفت نحو هوراس ويلسون وسأل « كم هي الساعة ؟ » فقال هوراس ويلسون : « الرابعة والنصف تقريباً . » ورفع الشيخ عينيه الكبيرتين ، وضحك ضحكة صغيرة محبّبة وقال : « ان الطقس حارّ » وكان حرّ أحمر زافر مليء بنثار مذهّب قد سقط على اوروبا ؛ فكان الناس يشعرون به على ايديهم ، وفي اعماق عيونهم ، وفي شعابهم ؛ وكانوا ينتظرون مشمئزين من الحرّ والغبار والقلق . وفي باحة الفندق ، كان الصحفيون ينتظرون ، وفي الساحة الخارجية ، كان ثلاثة سائقين

ينتظرون ، جامدين ازاء مقاود سياراتهم ؛ وعلى الجانب الآخـــر من الرين ، كان بروسيون فارعو القامـــة مرتدون الثياب السود ينتظرون جامدين في باحة فندق دريسن ، ولم يكن ميلان هلينكا ينتظر بعدُ . انه لم يكن ينتظر بعد منذ امس الاول . فقد حلّ ذلك النهار الطويل الأسود الذي تخلله يقين ساطع : « لقد تخلوا عنا ! » ثم عاد الزمـن يجري ، لحسن الحظ ، ولم تكن الايام تعيش نفسها لنفسها بعدُ ، فهي ليست بعدُ الا أغداء ، ولن يكون ثمة بعدُ ابداً الا أغداء .

وفي الساعة الخامسة عشرة والنصف ، كان ماتيو ما يزال ينتظر ، على حافة مستقبل مريع ؛ وفي اللحظة نفسها ، الساعة السادسة عشرة والنصف ، لم يكن لميلان بعد من مستقبل . ونهض الشيـخ ، فاجتـاز القاعة متصلب الركبتين ، بخطوة مزهوّة واثبة ، وقال «ايها السادة! » وابتسم بحفاوة ؛ ووضع الوثيقة عـلى الطاولة وملّس أوراقها بقبضته المضمومة ؛ وكان ميلان قد انزرع امام الطاولة ؛ وكانت الجريـدة المنشورة تغطي مساحة القماشة المشمّعة كلها . وقرأ ميلان للمرة السابعة :

« لم يستطع رئيس الجمهورية ، ومعه الحكومة ، ان يفعلا شيئاً غير ان يقبلا عروض الدولتين الكبيرتين ، حـول أساس موقف يُتخذ في المستقبل . ولم يكن باقياً علينا ان نفعل شيئاً آخر ما دمنا قد بقينـا وحدنا . » وكـان نفيل هندرسون وهوراس ويلسون قد اقتربا من الطاولة ، فالتفت الشيخ نحوهما ، وكان يبدو انه وديع مستسلم فقال: « ايها السادة ، هذا ما بقي علينا ان نفعله . » وكان ميلان يفكر : « لم يكن ثمة شيء آخر يُفعل . » وكانت تدخل من النافذة ضجـة مختلطة،فكان ميلان يفكر : « لقد بقينا وحدنا . »

وارتفع من الشارع صوتٌ فأريّ : « ليعش هتلر ! »

فعاد ميلان الى النافذة وصاح :

ـــ انتظر قليلاً ، ريثما أهبط .

وحدث فرار مجنون واصطفاق نعال ؛ وفي نهاية الشارع التفت الشقي وفتّش في وزرته ثم أخـذ يدير ذراعه حول رأسه . وانبعث صوت نقرتين جافتين على الجدار . فقال ميلان :

ـ انه ليبكنشت الصغير يقوم بدورنه .

وانحنى : كان الشارع خالياً ، كأيام الأحد . وكانت اسرة شونهوف قد علقت على شرفة بيتها أعلاماً حمراً وبيضاً مع صلبان معقوفـة . وكانت جميع مصاريع البيت الأخضر مغلقة . وفكر ميلان : « ليس لنا مصاريع . » وقال :

ـ يجب ان نفتح جميع النوافذ .

فسألت انّا : ـ لماذا ؟

ـ حين تكون النوافذ مغلقة ، فهم يصوّبون الى الزجاج .

فهزت أنّا كتفيها وقالت :

ـ مهما يكن من أمر .

وكانت اغانيهم وصرخاتهم تصل في موجات كبيرة مبهمة . وقال ميلان :

ـ انهم ما يزالون في الساحة .

وكان قد وضع يديه على قضيب الاستناد ، وهو يفكر : « لقد انتهى كل شيء . » وبرز في زاوية الشارع رجل ضخـم ، كان يرتدي « روكساكاً » ويعتمد على عصا . وكان يبدو عليـه التعب . وكانت تتبعه امرأتان أحنت ظهريهما حزم كبيرة .

وقال ميلان من غير ان يلوي :

ـ لقد عادت أسرة جاغرشميت .

وكان افرادها قـد هربوا مساء الاثنين ، ولا بدّ أنهم اجتازوا الحدود ليلة الثلاثاء . اما الآن فهم يعودون مرفوعي الرأس . واقترب جاغرشميت من البيت الأخضر ورقي الدرجات المسطحة . وكان وجهه

رمادياً من الغبار ، وعليه بسمة غريبة . وأخذ يبحث في جيوب سترته حتى أخرج مفتاحاً . وكانت المرأتان قد وضعتا حزمهما على الارض وراحتا تنظران اليه . وصاح به ميلان يقول !

– انك تعود إذ يزول الخطر !

فقالت أنّا بحيوية : – ميلان !

وكان جاغرشميت قد رفع رأسه ، فرأى ميلان والتمعت عيناه الصافيتان .

– انك تعود إذ يزول الخطر !

فصاح جاغرشميت : – نعم ، أعود . اما انت ، فسوف ترحل!

وأدار المفتاح في القفل ودفع البـــاب ، فدخلت المرأة على أثره . والتفت ميلان وقال :

– جبناء قذرون !

قالت أنّا : – انك تستثيرهم .

قال ميلان : – انهم جبناء ، من عرق الألمان القذر . لقد كانوا منذ عامين يلحسون نعالنا .

– هذا لا يمنع . إن عليك الا تستثيرهم .

كفّ الشيـخ عن الكلام ؛ وظل فمه مشقوقاً كما لو انه كان يتابع في صمت الادلاء بآرائه عن الموقف.وكانت عيناه الكبيرتان المستديرتان قد غامتا بالدمع ، وكان قد رفع حاجبيه ، وهو ينظر الى هوراس ونفيل في هيئة استفهام . وصمتوا ، وتحرك هوراس حركـــة مفاجئة ثم أدار رأسه ؛ ومشى نفيل حتى الطاولة ، فتناول الوثيقة وتأملها لحظة ثم دفعها في استياء . وبدأت على الشيـخ هيئة التململ ، فباعد ذراعيه علامـــة العجز والاستسلام . وقال للمرة الخامسة : « لقد وجدتني بازاء موقف غير مترقّع على الاطلاق ؛ وكنت أظنّ اننا سنناقش بهدوء العروض التي كنت أحملها .. » وفكر هوراس : « يا للثعلب القديم ! مـــن

اين تراه يجيء بهذا الصوت ، صوت الجد العجوز ؟ » وقال : « حسناً يا سيدي الرئيس : سنكون في فندق دريسن بعد عشر دقائق . »

قالت أنّا : — لقد جاءت لرخن . ان زوجها في براغ ، وهي ليست مطمئنة .

— ليس لها الا ان تنزل عندنا .

فقالت أنّا في ضحكة مقتضبة :

— أتظن انهـا ستكون اكثر اطمئناناً .. مع مجنون مثلك يقف على النافذة ليشتم الناس في الشارع ؟

فنظر الى رأسها الصغير الرقيق الهادىء ذي الملامح المشدودة ، والى كتفيها الضيقتين والى بطنها الهائل . وقال :

— اجلسي . إنني لا احب ان اراك واقفة .

فجلست وشبكت يديها على بطنها ؛ وسحب الرجل بعض الصحف وهو يتمتم : « باري — سوار الأخيرة . بقي لديّ نسختان ، فاشترهما . » وكان قد صاح حتى بُحّ صوته . وأخذ موريس الصحيفة . « وجّه رئيس الوزارة شمبرلن الى المستشار هتلر رسالةً سيجيب عليها هـذا الأخير ، كما يُتوقع في الاوساط البريطانية . وعلى هذا ، فان اللقاء الذي كان منتظراً ان يتم هذا الصباح قد أجّل الى ساعة اخرى . »

وكانت زيزيت تنظر الى الصحيفة من فوق كتب موريس . وسألت :

— هل من جديد ؟

— لا . لا يزال الوضع كما هو .

وقلب الصفحـة فرأيا صورة مظلمة تمثّل ما يشبه قصراً من قصور القرون الوسطى ، في قمة رابية ، ذا بروج وأجراس ومئات من النوافذ ؛ قال موريس :

— انه غودسبرغ .

فسألت زيزيت : — ان شمبرلن إذن هناك ؟

– يبدو أنهم ارسلوا نجدة من رجال الشرطة .

قال ميلان : – نعم . دركيان . وقد اصبحوا الآن ستة . وهم متمترسون في مخفر الدرك .

وانصبّت شحنة من الصراخ في الغرفة . فارتعشت أنّا ، ولكن وجهها ظلّ هادئاً . وقالت :

– ما رأيك بان نتلفن ؟

– نتلفن ؟

– نعم . نتلفن لبريسكنيس .

فأراها ميلان الجريدة من غير ان يجيب : « تقول برقيـــة لوكالة د. ن. ب. بتاريخ الخميس ان السكان الالمان في مناطق السوديت قد استولوا على الحكم حتى الحدود اللغوية . »

قالت أنّا : – ربما كان ذلك غير صحيح . لقد قيل لي ان هذا لم يقع الا في « ايجر » .

فضرب ميلان الطاولة بقبضته :

– تفه ! يطلبون مزيداً من النجدة !

وبسط يديه ، وكانتا ضخمتين معقّدتين ، مع بقع سمراء وندوب: لقد كان حطّاباً قبل ذلك الحادث . وكان ينظر اليهما وهو يباعـــد أصابعه . فقال :

– بوسعهم ان يجيئوا . اثنين او ثلاثة . واؤكد لك اننا سنتسلى خمس دقائق .

قالت أنّا : – بل هم سيأتون وعددهم ستمئة »

وخفض ميلان رأسه ؛ كان يحسّ أنه وحيد . وقالت أنّا :

– إسمع !

وأصغى : كانوا يسمعـــون بمزيد من الوضوح ، ولا بدّ أنهم قد بدأوا المسير . وكان يرتجف من الغضب . وغمضت عليه الامور وأخذه

الصداع . واقترب من الطاولة وأخذ يلهث ، فسألته أنا :
– ماذا تفعل ؟
وكان قد مال على درج الطاولة وهو يلهث . وانحنى اكثر قليلاً وهمهم من غير ان يجيب . وقالت له :
– يجب ألاّ تفعل ذلك .
– ماذا ؟
– يجب الا تفعل . أعطني هذا .
والتفت : كانت أنا قد نهضت ، وكانت تستند الى الكرسي ، والجدّ بادٍ على وجهها . وفكر في بطنها ؛ ومدّ لها المسدس وقال :
– كما تريدين . سأتلفن لبريسكنيس .
وهبط الى الطابق الأرضي . وفي باحة المدرسة ، فتح النوافذ ثم تناول التلفون .
– اعطني المخفر ، في بريسكنيس . آلو ؟
وكانت اذنه اليمنى تسمع خشخشة جافــة . وكانت اذنه اليسرى تسمعهم « هم ». وضحكت اوديت ضحكة غامضة : « لم أعرف على الضبط قط اين تقع تشيكوسلوفاكيا . » قالت ذلك وهي تغرز أصابعها في الرمل . وبعد لحظة حدثت خربشة ، وقال صوت :
– نا ؟
وفكر ميلان : « انني اطلب نجدة ! » وكان يضمّ السمّاعة بكل قواه . وقال .
– هنا برافنيتز ، أنا المعــلم . نحن عشرون تشيكياً ، وهناك ثلاثة ديموقراطيين ألمان يختبئون في جوف كهف ، والباقي في « هنلين » ؛ وهم محاطون بخمسين شخصاً من « الفرقة » الحرة اجتازوا الحدود مساء أمس وجمعوهم في الساحة . وان المختار معهم .
وساد صمت ، ثم قال الصوت في وقاحة :

– بت ! دوتش سبريشن .

فصاح ميلان – : شوينكوبف !

وأعاد السمّاعة ثم عاد يرقى السلّم وهو يعرج . وكانت ساقه تؤلمه. ودخل الغرفة فجلس .

وقال : – انهم هنا .

وأقبلت عليه أنّا . فوضعت يديها على كتفيه وقالت :

– حبيبي الغالي !

قال ميلان – : القذرون ! كانوا يفهمـــون كل شيء ، وكانوا يتضاحكون في الطرف الآخر من الخط .

وجذبها بين ركبتيه . وكان البطن الضخم يلامس بطنه . وقال :

– ها نحن الآن وحيدان .

– لا أستطيع ان أصدق ذلك .

ورفع رأسه على مهل ونظر اليها من تحت الى فوق . كانت جادّة وقاسية في العمـــل . ولكن كان فيها من النساء هذا : ينبغي دائماً ان تثق بأحد . وقالت أنّا :

– ها هم اولاء !

وكانت الاصوات تبـــدو كأنها أقرب : لا بدّ انهم يسيرون في عرض في « الغراندروي » . ومن بعيد كانت صيحات الجماهير الفرحة تشبه صرخات ذعر .

– هل الباب محصّن ؟

فقال ميلان : – نعم . ولكن بوسعهم ان يدخلوا من النوافذ او ان يتجاوزوا الحديقة .

قالت أنّا : – واذا صعدوا ؟...

– لا حاجة بك الى الخوف . بوسعهم ان يحطّموا كل شيء من غير ان ارفع اصبعاً واحداً .

وأحسّ فجأة شفتي أنّا الحارتين على خدّه :

– يا حبيبي الغالي . اعرف انك انما تفعل ذلك من أجلي أنا .

– ليس من أجلك . فأنت انا . وانما من أجل الطفل .

وانتفضا : لقد دُقّ الباب . وصاحت أنّا :

– لا تذهب الى النافذة .

ونهض ، فتوجّه الى النافذة . كانت اسرة جاغرشميت قد فتحت كل نوافذها . وكان العلم الهتلري متدلياً فوق الباب . وحين انحنى ، رأى طيفاً صغيراً ، فصاح :

– أنا هابط .

واجتاز القاعة وقال : – انها ماريكا .

وهبط السلّم ، وراح يفتح الباب . مفرقعات ، صراخ ، موسيقى من فوق السطوح : كان ذلك يوم عيد . ونظر الى الشارع الخالي فانقبض قلبه . وسأل :

– ماذا أتيت تفعلين هنا ؟ هل هو يوم عطلة في المدرسة ؟

قالت ماريكا : – امي هي التي ارسلتني .

وكانت تحمل سلة صغيرة فيها تفاح وحلوى .

– ان امك مجنونة . لا بد ان تعودي الى البيت .

– هي تقول بانكم لن تصرفوني .

وبسطت له ورقة مطوية أربع طيات . ففتحها وقرأ : « لقد فقد الاب وجورج رشدهما . فأرجوكم ان تحتفظوا بماريكا حتى المساء . »

فسألها ميلان : – اين ابوك ؟

– لقد وقف خلف الباب مع جورج . وهما يحملان فأسين وبندقيتين ؛ (وأضافت في شيء من الاهتمام) وقد أخرجتني امي من الحديقة ، وقالت انني سأكون في وضع افضل عندكم ، لانكم متعقلون .

قال ميلان : – نعم . نعم . انني متعقل . هيّا ، إصعدي .

الساعة السابعة عشرة والنصف في برلين ، السادسة عشرة والنصف

في باريس . انخفاض خفيف في شمال اسكتلندا . وظهـــر السيد فون دورنبرغ على درج الـ « غران اوتيل » ، فأحاط به الصحفيون ، وسأل بياريل : « أتراه سوف يهبط ؟ » وكان السيد فون دورنبرغ يمسك ورقة في يده اليمنى ؛ ورفع يده اليسرى وقال : « لم يتقرر بعد ما اذا كان السيد شمبرلن سيرى الفوهرر في المساء . »

قالت زيزيت : — هنا . كنت ابيع زهوراً هنا ، في عربة صغيرة خضراء .

فقال موريس : — كنت في موضع طيّب .

وكان ينظر بوداعة الى الرصيف والطريق ، وكان هذا هو ما جاءوا ينظرون اليه منذ بدأت تتحدث عنه . ولكن ذلك لم يكن يعـــني له شيئاً . وكانت زيزيت قد تركت ذراعها . وكانت تضحك وحدها ، بلا ضجة ، وهي تنظر الى السيارات تجري . وسأل موريس :

— وهل كان معك كرسيّ ؟

قالت زيزيت : — احياناً . كرسيّ يُطوى .

— لا بدّ ان ذلك لم يكن شيئاً طريفاً دائماً .

قالت زيزيت : — كان ذلك طيباً في الربيع .

وكانت تحدثه بصوت منخفض ، من غير ان تلتفت اليه ، كما لو لو كان ذلك في غرفة مريض ؛ وكانت منذ لحظة قد أخذت تتحرك حركات متميّزة بكتفيها وظهرها ، ولم تكن تبدو طبيعية . وكان موريس متضايقاً ؛ فقد كان ثمة عشرون شخصاً على الاقل امام واجهة ، فاقترب واخذ ينظر من فوق رؤوسهم . وظلّت زيزيت في نشوتها على حافة الرصيف ؛ ولحقت به بعد برهة وأخذت ذراعه من جديد . وكان على صفيحة زجاجية ذات حافة مائلة طرفان من جلد أحمر وحولها زَبدٌ أحمر شبيه بمنفضة للمسحوق . وأخـــذ موريس يضحك ، فهمست زيزيت :

— انك تضحك ؟

فقال موريس وهو يقهقه : — انها أحذية .
والتفت رأسان او ثلاثة ، فقالت له زيزيت « هس » وسحبته .
قال موريس :
— ماذا ؟ لا أظن اننا في قداس !
ولكن كان مع ذلك قد خفض صوته : كان الناس يتقدمون وهم يسترقون الخطى بعضهم خلف بعض ، وكان يبدو عليهم انهم متعارفون ، ولكن احداً لم يكن ليتكلم . وهمس :
— لقد مضى خمسة اعوام تقريباً من غير ان أجيء الى هنا :
وأرته زيزيت مطعم «مكسيم » بافتخار ، وقالت له في جوف اذنه :
— إنه « المكسيم »
ونظر موريس الى المكسيم وصرف رأسه بحيوية : لقد سبق ان حدثوه عنه ، وكان عبارة عن قذارة ، فهنالك كان البورجوازيون يعبّون الشمبانيا عام ١٩١٤ ، بينما كان العمال يقاتلون . وهمهم بين أسنانه :
— اية نتانة !
ولكنه كان يشعر بالانزعاج ، من غير ان يدري السبب ، وكان يمشي بخطى صغيرة ، وهو يتهادى ؛ وكان الناس يبدون له رخاص العود ، وكان يخشى ان يصدمهم .
وقالت زيزيت : — هذا ممكن ، غير أنه مع ذلك شارع جميل ، ألا ترى ذلك ؟
قال موريس : — إنه لا يسحرني ، وهو بحاجة الى هواء .
فهزّت زيزيت كتفيها وأخذ موريس يفكر في جادة سانت اوان : حين كان يغادر الفندق في الصباح ، كان بعض الأشخاص يتجاوزونه وهم يصفرون وعلى ظهورهم اكياس ، وهم منحنون على مقاود دراجاتهم . وكان يشعر بالسعادة : كان بعضهم يتوقفون في سانت —

دنيس ، بينما يتابع آخرون طريقهم ، وكان الجميع يتجهون وجهة واحدة ، كانت الطبقة العاملة تسير . وقال لزيزيت :

– اما هنا فالمرء موجود بين البورجوازيين .

وخطوا بضع خطوات في رائحة ورق مجلوب من ارمينيا ، ثم توقّف موريس وطلب المعذرة ، فسألته زيزيت :

– ماذا تقول ؟

فقال موريس منزعجاً : – لا شيء . لا اقول شيئاً .

وكان قد اصطدم بشخص آخر ؛ وبالرغم من ان الآخرين كانوا يسيرون خافضي النظر ، فقد كانوا يتدبرون امرهم دائماً لتجنّب الصدمة في آخر لحظة ؛ ولا بدّ ان هذه قضية عادة .

– هل تأخذني ؟

ولكنه لم تكن لديه الرغبة بعد في ان يتابع سيره ، فقد كان يخشى ان يحطّم شيئاً ما ، ثم ان هذا الطريق لم يكن يؤدي الى اي مكان ، فلم يكن له اتجاه ، وكان ثمة أشخاص يصعدون ثانية نحو الجادات ، بينما يهبط آخرون نحو السين ، ويظلّ غيرهم ملتصقي الأنوف بالواجهات : لقد كان ذلك يحدث اندفاعات محلية ، ولكنه لم يكن يحدث حركات جماعية ، وكان المرء يحسّ نفسه وحيداً . ومد يده فوضعها على كتف زيزيت ؛ وكان يضغط بقوة على اللحم الريان عبر القماش . وابتسمت له زيزيت ، وكانت منبسطة النفس ، وكانت تنظر الى كل شيء بنهم من غير ان تفقد هيئتها العارفة ، وكانت تحرك بلطف أليتيها الصغيرتين . ودغدغ عنقها فصحكت وقالت :

– كفى يا موريس !

وكان يحب كثيراً الالوان القوية التي كانت تضعها على وجهها ، والأبيض الذي كان يشبه السكر ، والأحمر الجميل على الوجنتين . وكانت تنبعث منها عن قرب رائحة العسل . وسألها بصوت منخفض :

— هل انت مسرورة ؟

قالت زيزيت وعيناها تلتمعان :

— اني اذكر كل ما أراه .

وترك كتفها وعادا يسيران في صمت : لقد عرفت بعض البورجوازيين الذين كانوا يأتون ليشتروا زهورها ، وكانت تبتسم لهم ، بل كان فيهم من حاول ان يلامسها . وكان ينظر الى رقبتها البيضاء فيحس انه طريف ، وتأخذه الرغبة في ان يضحك ويغضب .

وصاح صوت : — باري — سوار .

فسألت زيزيت : — هل نشتريها ؟

— انها النسخة نفسها التي اطلعنا عليها منذ حين .

وكان الناس يحيطون بالبائع ويتنازعون الصحف في صمت . وخرجت من الجمع امرأة ذات كعبين عاليين وقبعة منتصبة في أعلى الرأس يتلوى المرء ضحكاً لمرآها . وقد فتحت الجريدة وأخذت تقرأ وهي تنطنط . واسترخت جميع ملامحها وارسلت تنهدة طويلة .

قال موريس : — انظري الى المرأة ...

فنظرت اليها زيزيت وقالت :

— لعل رجلها سيرحل .

فهز موريس كتفيه : لقد كانت تبدو من الغرابة بحيث توحي بأنها قد تكون حقاً شقية بهذه القبعة وهذا الحذاء السمكي . وقال :

— وإذن ؟ إن رجلها ضابط .

قالت زيزيت : — حتى ولو كان ضابطاً ، فقد يفقد جلده كسائر الرفاق .

ونظر اليها موريس في غضب :

— انك تضحكيني بضباطك . لا عليك الا ان تتذكري حرب ١٩١٤ ، وما اذا كانوا قد فقدوا فيها جلودهم .

قالت زيزيت : — تماماً . كنت أحسب ان كثيراً منهم قد ماتوا فيها .
فقال موريس : — انما مات الفلاحون ، ونحن الآخرين .
فالتصقت زيزيت به وقالت :
— اوه ! موريس ، أتعتقد حقاً بان الحرب ستنشب ؟
قال موريس : — ما يدريني انا ؟

في ذلك الصباح بالذات ، كان واثقــاً من ذلك ، وكان الرفاق واثقين مثله . كانوا على شاطيء السين ، وكانوا ينظرون الى صف الآلات الرافعة ومجارف الرمل ؛ وكان ثمة فتيان بقمصان قصيرة الأكمام، وشباب أشداء من جينفيليه كانوا يحفرون خندقاً لسلك كهربائي ، وكان واضحاً ان الحرب ستنفجر . ومهما يكن من أمر ، فان ذلك لم يكن ليغيّر فتيان جينفيليه تغييراً كبيراً : فانهم سيكونون في مكان ما من الشمال ليحفروا الخنادق تحت الشمس ، تهددهم القنابل والرصاص ، كما تهددهم اليوم الانهيارات والسقطات وجميع حوادث العمل ؛ وسوف ينتظرون نهاية الحرب كما كانوا ينتظرون نهاية بؤسهم . وكان ساندر قد قال : « اننا سنخوضها ، ولكن حين نعود ، سنحتفظ ببنادقنا . »

اما الآن ، فهو ليس واثقــاً من شيء بعد ؛ ففي سانت — أوان كانت الحرب قائمة بلا انقطاع ، ولكن ليس هنا . كانت السلم قائمة هنا : فهنا واجهات ، واشياء مترفة معروضة ، وأقمشة ملونة ، ومرايا ينظر فيها الناس ، وكل الترف والراحة . صحيح أن هيئة الناس كانت حزينة ، ولكن ذلك قائم منذ ولادتهم . لماذا تراهم يقاتلون ؟ انهم لا ينتظرون بعد شيئاً ، كانوا يملكون كل شيء . انه لا بد مشؤوم الا يأمل المرء شيئاً آخر غير ان تستمر الحياة الى ما لا نهاية كما بدأت ! وقال موريس فجأة موضحاً :

— ان البورجوازية لا تريد الحرب . انها تخشى النصر ، لأنه سيكون نصر الطبقة العاملة .

ونهض الشيخ ، فصحب نفيـل هندرسون وهوراس ويلسون حتى الباب . ونظر اليهما لحظة بهيئة تأثر ، وكان يشبه جميع الشيوخ ذوي الوجوه المتهدمة الذين كانوا يحيطون ببائع الصحف في شارع رويال ، وباكشاك الصحف في بال مال ستريت ، والذين لم يكونوا يطلبون شيئاً آخر غير ان تنتهي حياتهم كما ابتدأت . وكان يفكر بهؤلاء الشيوخ ، وبأولاد هؤلاء الشيوخ ، وقال :

– وبالاضافة الى ذلك ، أرجو ان تسأل السيد فان ريبنتروب عما اذا كان المستشار هتلر يجد مفيداً ان تجري بيننا محادثة أخيرة قبل سفري ، لافتاً انتباهه الى ان قبولاً مبدئياً يؤدي بالنسبة للسيد هتلر الى ضرورة إطلاعنا على اقتراحات جديدة . وارجو ان تلح بصورة خاصة على اني مصمم ان افعل كل ما هـو ممكن بشرياً لتسوية النزاع عن طريق المفاوضات ، لأنه يبدو لي غير معقول ان تغرق شعوب اوروبا التي لا تريد الحرب في نزاعٍ دام من اجل قضية تحقق الاتفاقِ بشأنها الى حد بعيد . حظاً طيباً .

وانحنى هوراس ونفيل ، وهبطا السلّم ، وكان الصوت الفخم ، الخائف ، المنكسر ، المتمدن ، ما يزال يرنّ في مسمعهما ، وكان موريس ينظر الى بشرات الشيوخ العذبة ، المتهدمة ، المتمدنة ، والى بشرات النساء ، ويفكر في اشمئزاز بأنه لا بد من فصدها .

لا بد من فصدها ، وسيكون ذلك أبعث على الاشمئزاز من سحق البزاق ، ولكن لا بد من الانتهاء الى ذلك . سوف تصطفّ الرشاشات في شارع رويال ، ثم يظل الشارع بضعة ايام متروكاً ، مع زجاجٍ محطّم ، وواجهات مثقوبة بشكل أنجم ، وطاولات مقلوبة عند أرصفة المقاهي ، بين شظايا الكؤوس ؛ وستدور طائرات في السماء فوق الجثث؛ ثم يَرفع الأموات ، وتوقف الطاولات ، ويستبدل الزجاج ، وتستعيد الحياة سيرها ، فيعمر الشارع رجال أشداء ذوو رقابٍ حمر وسترات

جلدية وقبعات . ومع ذلك ،فان الأمر كان هكذا في روسيا ، وقد سبق لموريس ان رأى صوراً لجادة نوفسكي ؛ وكان العمال وقد استولوا على هذه الجادة المترفة ، يتنزهون فيها ، ولم تكن القصور والجسور الكبيرة لتدهشهم بعد .

وقال موريس في انفعال : — أطلب المعذرة .

كان قد ارسل ضربة مرفق في ظهر سيدة عجوز نظرت اليه نظرة مغيظة . وأحس بالتعب والانحطاط : فتحت أعمدة الاعلانات الكبيرة ، وتحت الأحرف الذهبية المسودة المعلقة بالشرفة ، وبين دكاكين الحلويات وحوانيت الأحذية ، وأمام أعمدة كنيسة المادلين ، لم يكن من الممكن تصور جمع غير هذا الجمع ، يضم كثيراً من السيدات العجائز المكردحة ، ومن الاولاد في ثيابهم الكحلية . كان النور الحزين المذهب ، ورائحة البخور ، والأبنية الساحقة والأصوات العسلية ، والوجوه القلقة المستنيمة ، وحفيف النعال الذي لا أمل له بالزفت ، كل ذلك كان يجري معاً ، وكل ذلك كان واقعياً ؛ اما « الثورة » فلم تكن الا حلماً . وفكر موريس وهو يرسل نظرة حاقدة الى زيزيت : « ما كان ينبغي لي أن أجيء . فليس هذا مكان عامل . »

ولمست يدٌ كتفه ، فاحمر وجهه سروراً إذ رأى برونيه . وقال برونيه وهو يبتسم :

— مرحباً يا صغيري العزيز .

قال موريس : — مرحباً ، رفيق .

وكانت قبضة برونيه شديدة كانبة كقبضته ، وكانت تشد بقوة . ونظر موريس الى برونيه وأخذ يضحك في غبطة . كان يستيقظ ؛ كان يحس بالرفاق حوله ، في سانت — اوان ، في ايفري ، في مونتروي ، في باريس نفسها ، في بلفيل ، في مونتروج ، في لافيلات ، يتماسكون بالذراع ويهيئون انفسهم للضربة القاسية . وسأله برونيه :

– ماذا تفعل هنا ؟ هل انت عاطل عن العمل ؟

فشرح موريس في شيء من الضيق : – بل هي عطلتي بأجرها . لقد ارادت زيزيت ان تأتي لأنها كانت تعمل هنا في الماضي .

وأضاف موريس : – إنه برونيه . لقد قرأت مقاله هذا الصباح في « الاومانيته » .

فنظرت زيزيت الى برونيه بشجاعة ومدت له يدها . انها لم تكن تخشى الرجال حتى ولو كانوا بورجوازيين او زعماء الحزب . وقال برونيه وهو يشير الى موريس :

– لقد عرفته منذ كان صغيراً . وكان في « الفوكون » الحمر في الجوقة ، ولم اعرف احداً قط ناشز الصوت مثله . واخيراً اتفقنا على ان يتظاهر فقط بالغناء في اثناء الاستعراضات .

فضحكوا ، وقالت زيزيت :

– وبعد ؟ هل ستنشب الحرب ؟ لا بد انك تعرف ذلك ، انت فان مركزك يخولك هذا .

وكان سؤالاً بليداً ، سؤال امرأة ، ولكن موريس حمد لها ان تطرحه . وكان برونيه قد اصبح جاداً فقال :

– لا ادري ان كانت الحرب ستقوم . ولكن ينبغي خصوصاً ألا نخاف منها : فعلى الطبقة العاملة ان تعرف ان امكان تجنبها لا يكون بقبول التنازلات .

وكان يتحدث جيداً . وكانت زيزيت قد رفعت نحوه عينين مليئتين بالثقة ، وكانت تبتسم بعذوبة وهي تصغي اليه . ولكن موريس شعر بالانزعاج . لقد كان برونيه يتحدث كالجريدة ، ولم يكن يضيف شيئاً على ما تقوله الجريدة . وسألته زيزيت :

– اتعتقد ان هتلر سوف يخاف اذا كشفوا له عن انيابهم ؟

وكان برونيه قد تلبّس هيئة رسمية ، ولم يكن يبدو عليه انه فهم

ان المطلوب هو رأيه الشخصي ، وقال :

— هذا ممكن جداً . ومهما يكن من أمر ، فان الاتحاد السوفياتي الى جانبنا ؛

وفكر موريس : « طبعاً ، فان زعماء الحزب لا يمكن ان يتصرفوا هكذا ، ببساطة ، للتعبير عن آرائهم امام عامل صغير من عمال سانت-اوان . » غير انه كان مع ذلك خاطئاً . وقد نظر الى برونيه فتلاشت فرحته تماماً : كان لبرونيه يدان فلاحيتان قويتان وفك قاس وعينان تعرفان ما تريدان ؛ ولكنه كان يضع ياقة وربطة عنق وبذلة من الفلانيل ، وكان يبدو مرتاحاً وسط البورجوازيين .

وكانت واجهة مظلمة تعكس صورتهم : وقد رأى موريس امرأة ذات شعر منفوش ورجلاً قوي البأس ، قبعته الى خلف ، يكاد يتفجر في دراعته ، وهما يتحدثان الى سيد . ومع ذلك ، فانه ظل هناك ، ويداه في جيبه ، ولم يكن يعزم على ترك برونيه .

وسأله برونيه : — الا تزال في « سانت — مانديه » ؟

فأجاب موريس : — لا ، بل في « سانت — اوان » . انني اشتغل عند « فلايف » .

— آه ، كنت أحسبك في سانت مانديه . مُحكِّم ؟

— بل ميكانيكي .

قال برونيه : — حسناً . حسناً . وإذن ! الى اللقاء ، يا رفيق .

فقال موريس : — الى اللقاء ، يا رفيق .

وكان يُحسّ الضيق ، وخيبة غامضة . وقالت زيزيت وهي تفترّ عن كل أسنانها :

— الى اللقاء يا رفيق .

ونظر اليهما برونيه وهما يبتعدان . وكان الجمع قد انغلق عليهما من جديد ، ولكن كتفي موريس الهائلتين كانتا تعومان فوق القبعات . ولا

بدَ أنه كان يمسك زيزيت من قامتها : فقد كانت قبعته تلامس شعرها ، وكانا يتهاديان بين المارة ، ورأسه الى رأسها . وفكّر برونيه : « انه فتى طيب . ولكني لا احب انفجاراته . » واستعاد سيره ، وكان رصيناً ، وكان يشعر بندم يقفّ له شعره . وفكرّ : « ما كان عساي ان أجيبه ؟ » لقد كانوا في سانت – دنيس ، وفي سانت اوان ، وفي سوشو ، وفي كروزو ، مئات الوف ينتظرون وفي عيونهم القلق والثقة نفسها . مئات الوف من الرؤوس الشبيهة بهذا الرأس ، رؤوس طيبة مستديرة قاسية ، مقدودة في غير اتساق ، رؤوس من القطع الكبير ، رؤوس حقيقية لرجال كانوا يتجهون نحو الشرق ، نحو غودسبرغ ، نحو براغ ، نحو موسكو . وبمَ كان يمكن إجابتهم ؟ كل ما كان ممكناً عمله الآن ، هو ان يحموا . ان تُحمى فكرتهم البطيئة الصلبة من جميع القذرين الذين كانوا يحاولون ان يضلّلوها . فاليوم الأم بونينغ ، وغداً دوتين امين سر نقابة المعلمين ، وبعد غد « البيفرتيون » : ذلك كان نصيبه ؛ وهو سينتقل من شخص الى آخر ، وسيحاول ان يسكتهم . سوف تنظر اليه الأم بونينغ نظرة مخملية ، وستحدثه عن « فظاعة إراقة الدماء » وهي تحرّك يديها المثاليتين . لقد كانت امرأة ضخمة في حوالي الخمسين من عمرها ، ذات وجه أحمر ، مع زغب ابيض على الوجنتين ، وشعر قصير ، ونظرة ناعمة تشبه نظرة كاهن وراء نظارتيه ؛ وكانت ترتدي سترة رجل مزينّة القفا بشريط وسام الشرف . « سأقول لها : لن تبدأ النساء بارتكاب الحماقات ؛ ففي حرب ١٩١٤ ، كنّ يدفعن ذكورهم من اكتافهم الى الحافلات ، بينما كان ينبغي لهن ان يستلقين على خطوط السكة ليمنعن القطار من الذهاب . واليوم اذ يمكن ان يكون للقتال معنى ، فهأنتنّ تنظمن جمعيات للسلام ، وتعملن لتخريب معنويات الرجال ! » وظهر وجه موريس مرة اخرى ، فهزّ برونيه كتفيه في

ضيق : « كلمة ، كلمة واحدة تنير لهم الطريق أحياناً ، ولكني لم اعرف ان اجدها . » وفكر في ضغينة : « انها غاطة امرأة ، فان النساء يملكن فن طرح اسئلة بليدة . » خدّا زيزيت الطحينيّان ، وعيناها الصغيرتان الفاجرتان ، وعطرها اللئيم ؛ سوف يذهبن لجمع تواقيع وتواقيع ، ملحّات عذبات ، تلك اليامات الراديكاليات الضخمات ، واليهوديات التروتسكيات ، والمعارضات التابعات لحزب المستقلين ؛ سيدخلن كل مكان .. بوقاحتهن الملعونة ، فيهبطن على فلاّحة تحلب بقرتها ، ويضعن في يدها الضخمة المبتلة قلم حبر : « وقّعي هنا ان كنت ضد الحرب . » لا حرب بعد الآن ، بل مفاوضات دائمـاً ؛ السلام اولاً . وماذا تراها ستفعل ، « زيزيت » هذه ، اذا بُسط لها قلم حبر بصورة مفاجئة ؟ أتراها قد احتفظت بردود فعل من صفتهـا هـي من السلامة والصفاء بحيث تتيح لها ان تضحك على هاتيك السيدات اللطيفات ؟ لقد جرته في الأحياء الجميلة ، وكانت تنظر الى الحوانيت في انتعاش ، وهي تلصق على وجنتيها طرفاً من الحمرة ... مسكين انت ايها الفتى الصغير ، لن يكون الأمر حلواً اذا تعلّقتْ بعنقه لتمنعه من الذهاب ؛ انهم ليسوا بحاجة الى هذا ... « مثقف . بورجوازي ! » اني لا أستطيع ان اطيقها لأن على وجهها جصاً ، ولأن يديها متآكلتان. ومع ذلك ، فلا يستطيع جميع الرفاق ان يكونوا عازبين . وكان يشعر بالتعب والثقل ؛ وفكر فجأة : « اني ألومها ان تضع الأحمر ، لأني لا احبّ الأحمر الرخيص » . « مثقف . بورجوازي . » يُحبّون جميعهم وجميعهن ، كل واحد وكل واحدة ، من غير تمييز . وفكر : « ليس عليّ حتى ان اريد ان احبّهم ، فان ذلك ينبغي ان يتم هكذا، بالضرورة ، كما يتنفّس الانسان . » « مثقف . بورجوازي : معزول الى الأبد . » فمها عملت ، فلن تكون لنا الذكريات نفسها ابـداً . كان جوزيف مرسيه ، البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عامـاً المصاب

بسفلس وراثي ، استاذ التاريخ الطبيعي في « ليسيه بوفون » وفي كلية سيفمينيه ، يصعد شارع الرويال وهو يلهث ويلوي فمه بانتظام مع فرقعة رطبة ؛ وكان وجعه في جنبه الأيسر ، وكان يشعر بأنه بائس ويفكر بين الفينة والفينة : « اتراهم سيدفعون راتب الموظفين المجنّدين ؟ » وكان ينظر الى قدميه حتى لا يرى جميع هذه الوجوه القاسية ، فصدم رجلاً طويلاً احمر يرتدي بذلة من الفلانيل الرمادي دفعه فاصطدم بواجهة ؛ ورفع جوزيف مرسيه عينيه وفكر : « اية خزانة ! » وكان خزانة ، جداراً ، وحشاً من هذه الوحوش القاسية التي لا تحس ، يشبه « شامبرليه » معلم الرياضيات الابتدائية الذي كان يهزأ به في الصف ، وكان احد اولئك الأشخاص الذين لا يشكون قط في شيء ولا في انفسهم ، والذين لم يكونوا يوماً مرضى ، والذين لا عاهات لهم ، والذين يتلقّون النساء والحياة بملء ايديهم ويمشون باستقامة نحو اهدافهم وهم يدفعونك لتصطدم بالواجهات . وكان شارع رويال يسيل بعذوبة نحو السين ، وكان برونيه يسيل معه ، وكان احدهم قد صدمه ، وقد رأى حشرةً ذات أنف متآكل تفر منه ، وهي ترتدي طاقية وياقة بورسلانية زائفة ، وكان يفكر في زيزيت وموريس ، وكان قد وجد من جديد ضيقه القديم المألوف ، وخجله امام هذه الذكريات التي لا تقبل التفكير ، والبيت الأبيض على حافة المارن ، ومكتبة الأب ، ويدي الام الطويلتين المعطرتين اللتين كانتا تعزلانه عنها الى الأبد .

وكان مساءً جميلاً مذهباً ، ثمرةً من ثمرات ايلول . وكان ستيفان هارتلي منحنياً على الشرفة يتمتم : « الاندفاعات الواسعة البطيئة للجموع المسائية . » جميع هذه القبعات ، هذا البحر من اللبّاد ، وبضع رؤوس عارية كانت تطفو بين الموجات البشرية ، وفكر : « كأنها زمّج الماء » . وفكر في انه سيكتب : « كأنها زمّج الماء . » رأسان

اشقران ورأس رمادي ، جمجمة جميلة حمـــراء ، فوق الرؤوس الأخرى ، ادركها الصلع ؛ وكان ستيفان يفكر : « الجموع الفرنسية » فيتأثر لذلك . جمعٌ صغير من رجالٍ قصار ، بطولين ومسنّين . سوف يكتب : « ان الجموع الفرنسية تنتظر الأحداث في هـــدوء وجدارة . » وفي الصفحة الاولى من « نيويورك هيرالــد » بأحرف ضخمة : « لقد استمعت الى الجموع الفرنسية » رجال قصار لا يبدو عليهم انهم مغتسلون جيداً ، قبعات نسائية كبيرة ، جمع صامت ، هادىء ومتسخ ، تذهّبه ساعة هادئة لمساء باريسي بين المادلين والكونكورد ، لدى الغروب . سوف يكتب : « وجه فرنسا » . وسوف يكتب : « وجه فرنسا الخالد » تجمّعات منسربة ، وتمتمات يُخيّل انهــا جادة ومندهشة ، سيكون مبالغاً فيه ان يكتب « مندهشة » . فرنسي طويــل احمر ، اصلع بعض الشيء ، هادىء كغروب شمس ، بعض انعكاسات شمسية على واجهات السيارات ، وبعض صرخات ، وفكـــر ستيفان : « التماعات اصوات » ثم فكر : « لقد كُتب مقالي . » وقالت سيليفا من وراء ظهره :

— ستيفان !

فقال ستيفان بجفاء ، ومن غير ان يلتفت :

— انني أعمل .

قالت سيلفيا : — ولكن ينبغي ان تجيبني يا عزيزي . فانه لم يبق على الباخرة « لافاييت » الا اماكن من الدرجة الاولى :

قال ستيفان : — خذي في الدرجة الاولى ، خذي غرفاً ممتازة : فقد تكون « لافاييت » آخر باخرة تسافر الى اميركا حتى تاريخ بعيد .

وكان برونيه يسير بهدوء ، وكان يستنشق رائحة ورق مجلوب من ارمينيا ، ورفع رأسه فنظر الى احرف ذهبية مسودّة معلقة بشرفة ؛ وانفجرت الحرب : كانت هنا ، في اعماق هـــذا الميْع المضيء ،

مسطورة كأنها بديهة على جدران المدينة الجميلة القابلة للكسر ؛ كان ذلك انفجاراً ثابتاً يمزق شارع رويال الى قسمين ؛ وكان الناس يمرون خلاله من غير ان يروه. وكان برونيه يراه . لقد كان موجوداً هنا دائماً . ولكن الناس لم يكونوا يعرفون ذلك بعد . وكان برونيه قد فكّر : « ستسقط السماء على رؤوسنا ؛ » وقد أخذ كل شيء يسقط ، وكان قد رأى البيوت كما كانت حقاً : سقوطاً موقفاً . كان هذا الحانوت الجميل يحمل أطناناً من الحجارة ، وكان كل حجر ، وهو مشدود الى الاحجار الاخرى ، يسقط في المكان نفسه ، بعناد ، منذ خمسين سنة : بضعة كيلوات اخرى بعد ، ويُستأنف السقوط . وسوف تستدير الاعمدة وهي تصطلك فتصاب بكسور مريعة ذات شظايا ؛ وستنفجر الواجهة ، وستنهار حمولات من الحجارة في الكهف وهي تسحق رزم البضائع . إنهم يملكون قنابل زنتها اربعة آلاف كيلو . وانقبض صدر برونيه . منذ لحظات فقط كان على هذه الواجهات المنتظمة بسمةٌ انسانية ، ممزوجة بمنثور المساء الذهبي . ولكنها انطفأت : مئة الف كيلو من الحجارة ؛ وكان رجال يسيرون تائهين بين ركام مجمّد . جنود بين الانقاض ، وربما قُتل هو . ورأى اثلاماً مسودّة على وجنتي زيزيت المجصّصتين . جدران مغبّرة ، وشقق جدران ذات ثقوب فاغرة ، ومربّعات من ورق زرق وصفر ، هنا وهناك ، وصفائح من برص ، بلاطات حمر بين الردوم ، وبلاطات محطمة يتخللها العشب الطفيليّ . ثم اكواخ من خشب ومعسكرات . وستبنى بعد ذلك ثكنات كبيرة رتيبة كالتي تقوم على الجادات الخارجية . وانقبض صدر برونيه وفكر في ضيق : « أحب باريس » . وانطفأت البديهة دفعة واحدة ، وتشكلت المدينة من جديد حوله . وتوقّف برونيه ، واحس انه مسكّر بعذوبة مائعة وفكر : « حبذا لو لم تكن هناك حرب ! حبذا لو أمكن ان لا تكون حرب ! » وكان ينظر بنهم الى ابواب كبيرة ، والى

واجهة « بريسكول » التي تبعث بالشرر ، والى بُسُط معمل « ويبر » للجعة . وشعر بالخجل بعد برهة ، واستعاد سيره وفكر : « أحب باريس أكثر مما ينبغي . » مثل بيلنياك ، في موسكو ، الذي كان يحب الكنائس القديمة اكثر مما ينبغي . ان « الحزب » على حق في ان يحذر المتقفين . ان الموت مكتوب في الناس ، والدمار مكتوب في الاشياء ؛ وسيأتي رجال آخرون يبنون باريس من جديد ، يبنون العالم من جديد . سأقول لها : « تريدين السلم إذن بأي ثمن ؟ » وسأحدثها برقة وانا انظر اليها بإحداد وسأقول لها : « يجب على النساء ان يتركننا وشأننا ؛ فليس هذا الوقت مناسباً لكي يأتين فيزعجن الرجال بحماقتهن . »

قالت اوديت : — اود لو اكون رجلاً

ونهض ماتيو معتمداً على مرفقه . وكان قد اسمرّ الآن تماماً . فسألها باسماً :

— لكي تمثلي دور الجندي ؟

واحمر وجه اوديت وقالت بحيوية :

— اوه لا ! وانما أجد من الحماقة ان تكون المرأة امرأة في هذه الفترة .

فقال موافقاً : — لا بد ان ذلك ليس مناسباً جداً ؛

وكانت قد اتخذت هيئة الببغاء ، مرة اخرى ؛ وكانت الكلمات التي تستعملها ترتد ضدها دائماً . وكان يخيّل اليها مع ذلك ان ماتيو ما كان يستطيع ان يلومها ، لو انها عرفت كيف تجعل الناس يفهمونها ؛ كان ينبغي ان تقول له ان الرجال كانوا يزعجونها حين يتحدثون عن الحرب امامها ؛ فانهم لم يكونوا طبيعيين ، وكانوا يُبدون من اليقين أكثر مما ينبغي ؛ كما لو انهم كانوا يريدون ان يُفهموها أن هذه قضية رجال ، وكان يبدو عليهم مع ذلك انهم كانوا دائماً ينتظرون منها شيئاً ما : نوعاً من التحكيم لأنها كانت امرأة ولأنها لن تذهب ، ولأنها

فــوق المعترك . وماذا كان بوسعها ان تقول لهم ؟ إبقوا ؟ ارحلوا ؟ ما كان لها ان تقرر ، لأنها لن تذهب حقاً . او انــه كان عليها ان تقول لهم : « افعلوا ما تريدون » . ولكن ، اذا لم يكونوا يريدون شيئاً ؟ كانت تمحي ، وكانت تتظاهر بأنها لا تسمعهم ، وكانت تقدم لهم القهوة او المشروب ، تحيط بها رنات أصواتهم العازمة . وتنهدت ، واخذت حفنة من الرمل في يدها فأسالته ابيض حاراً على ساقها السمراء .
وكان الشاطىء خالياً ؛ وكان البحر يتلألأ ويصخب . وعلى جسر قارب « بروفنسال » الخشبي ؛ كان ثلاث نسوة بلباس البحر يتناولن الشاي . وأغمضت اوديت عينيها ، وكانت مستلقية على الرمل وسط حرارة لا تاريخ لها ولا عمر : حرارة طفولتها اذ كانت تغمض عينيها ، وتستلقي على هذا الرمل نفسه ، وتحاول ان تمثل دور السمندل وسط لهب عظيم احمر اللون اصفره . الحرارة نفسها ، وحفحفة التبان الرطب نفسها ، كانت تحسب انها تحسه وهو يتبخر على مهل تحت الشمس ، وحرقة الرمل نفسها تحت رقبتها ، وقد كانت في السنوات الخوالي تمتزج بالسماء والبحر والرمل ، ولم تكن تميز بعد الحاضر من الماضي . وانتصبت واقفة ، وعيناها مفتوحتان على سعتهما : اليوم ، هناك حاضر حقيقي . كان هناك ذلك الضيق في جوف معدتها ؛ وكان هنــاك ماتيو ، اسمر عارياً ، جالساً على مئزره الابيض . وكان ماتيو صامتاً ؛ وما كانت تفضل شيئاً آخر على ان تصمت هي ايضاً . ولكنها حين لم تكن تجبره على ان يوجه اليها الحديث مباشرة ، كانت تضيعه : كان يتنبه مكرهــاً لفترة يلقي فيها خطاباً قصيراً بصوته الراضح الأبح بعض الشيء ، ثم يذهب تاركاً جسمه رهينة ، جسماً مصقولاً مروضاً . حبذا لو كان بإمكان المرء على الأقل ان يتصور بأنه كان مستغرقاً في افكاره اللذيذة : ولكنه كان في الحق ينظر أمامه باستقامة نظرة تشق القلب ، بينما كانت يداه الكبيرتان منهمكتين في صنع بناء من الرمل . وكان البناء ينهار ،

وكانت اليدان تعيدان بناءه بلا وهن . ولم يكن ماتيو ينظر قط الى يديه ؛ وكان هذا يثير الاعصاب في آخر المطاف . وقالت اوديت :

– إن الأبنية لا تُصنع بالرمل الجاف . والاطفال الصغار يعرفون ذلك !

فأخذ ماتيو يضحك . وسألته اوديت :

– بمَ تفكر ؟

فأجاب : – يجب ان اكتب لايفيش . ان هذا يُربكني .

قالت وهي تطلق ضحكة صغيرة : – ما كنت لأصدق ان ذلك يربكك . إنك ترسل لها كتباً .

– صحيح ، ولكن هناك سخفاء قد أخافوها . لقد أخذت تقرأ الصحف ولا تفهم منها شيئاً ، فهي تريدني ان اشرح لها ، وسيكون ذلك يسيراً : فهي تخلط بين التشيكيين والالبان ، وهي تظن ان براغ واقعة على شاطىء البحر .

فقالت اوديت بخشونة : – هذه عقلية روسية جداً !

قطّ ماتيو شفتيه من غير ان يجيب ، وأحست اوديت بأنها كريهة . وأضاف وهو يبتسم :

– والذي يعقّد كل شيء هو أنها غاضبةٌ عليّ .

فسألت : – ولماذا ؟

– لأني فرنسي . كانت تعيش بهدوء لدى الفرنسيين ، وها هم اولاء يريدون فجأة ان يقاتلوا . فهي تجد ذلك فاضحاً .

قالت اوديت مغتاظة : – هذا جميل !

فبدت على ماتيو بساطة لطيفة وقال برقة :

– يجب ان يضع المرء نفسه في وضعها . انهـا حاقدة علينا لأننا نعرّض أنفسنا للقتل او للجرح ! وهي تجد ان الجرحى يعوزهم الذوق والفطنة لأن الناس مجبرون على ان يفكروا بأجسامهم ، وهي تعتبر ذلك

شيئاً فيزيولوجياً ، وتنفر من الفيزيولوجي ، لديها ولدى الآخرين .

فتمتمت اوديت : — يا للحبيبة الصغيرة !

قال ماتيو : — ان هذا أمر صادق . وانها لتبقى اياماً برمتها من غير ان تتغذى ، لأنها تشمئز من الأكل . واذا أخذها النعاس ليلاً تناولت القهوة لتستيقظ .

فلم تجب اوديت . وكانت تفكر : « ضربة على الأليتين ، هذا ما تحتاج اليه » . وكان ماتيو يحرك يديه في الرمل بهيئة شاعرية وبليدة : « انها لا تأكل ابداً ، ولكني متأكدة من انها تخفي في غرفتها عدة أوان كبيرة من المربّى . ان الرجال حمقى اكثر مما ينبغي ! » وكان ماتيو قد عاد يبني بيوته ؛ كان قد رحل من جديد الى مكان ولمدة لا يعلمهما الا الله . وفكرت في مرارة : « اما انا فإني آكل لحماً احمر وأنام حين يأخذني النعاس » . وعلى جسر « البروفنسال » كان الموسيقيون يعزفون « السيريناد البرتغالية » . وكانوا ثلاثة ايطاليين . ولم يكن حزف الكمان رديئاً جداً ، وكان يغمض عينيه اذ يعزفون . وأحست اوديت بالتأثر : كانت الموسيقى في الهواء الطالق شيئاً طريفاً جداً ، ودقيقاً جداً ، وواهياً جداً . ولا سيما في هذه اللحظة : كانت اطنان من الحر ومن الحرب تثقل على البحر وعلى الرمل ، وكان ثمة تلك الصرخة النأرية التي تصعد باستقامة نحو السماء . والتفتت الى ماتيو ، وكانت تريد ان تقول له : « أحب كثيراً هذه الموسيقى » . ولكنها صمتت : فربما كانت ايفيش تحتقر « السيريناد البرتغالية » .

وتجمدت يدا ماتيو فانهار بناء الرمل ، وقال وهو يرفع رأسه :

— احب كثيراً هذه الموسيقى . ما اسم القطعة ؟

قالت اوديت : — « السيريناد البرتغالية » .

الساعة الثامنة عشرة وعشر دقائق في غودسبرغ . كان الشيخ ينتظر . وفي انغولم . ومارسيليا ، وغاند ، ودوفر ، كانوا يفكرون : « ماذا

يفعل ؟ هل هبط ؟ هل يتكلم مع هتلر ؟ ان من الممكن ان يكونا في هذه اللحظة يعملان لتسوية كل شيء » وكانوا ينتظرون. وكان الشيخ ينتظر ، هو أيضاً ، في الصالة ذات الشبابيك نصف المغلقــة . وكان وحيداً ، وقد استدار واقترب من النافذة . كانت الرابية تنحدر نحو النهر ، خضراء وبيضاء . وكان الرين اسود كله ، وكان يشبه طريقاً معبدة بعد المطر . واستدار الشيخ مرة اخرى ، وكان يشعر بمذاق حامض في فمه . واخذ يدق على الزجاج فيتطاير الذباب حوله مذعوراً . كانت حرارة بيضاء ، مغبّرة ، فخمة ، عنيدة ، باطلة ، حرارة ذات طوق ، من عهد فريدريك الثاني ، وفي أعماق هذه الحرارة كان شيخ انكليزي يشعر بالضجر ، شيخ قديم من عهد ادوار السابع ، وسائر اجزاء العالم كانت في عام ١٩٣٨ . وفي جوان ــ ليبان ، يوم ٢٣ ايلول ١٩٣٨، في الساعة السابعة عشرة وعشر دقائق ، جلست امرأة ضخمــة ترتدي ثوباً من النسيج الابيض على مقعد يُثنى ، ونزعت نظارتيها الزرقاوين ، واخذت تقرأ الجريدة . وكانت جريدة « لوبيتي نيسوا » ، وكانت اوديت دياورم ترى العنوان ذا الحروف الضخمة : « رباطة جأش » وجهدت فاستطاعت ان تقرأ تحت العنوان : « مستر شمبرلن يوجه رسالة الى هتلر . » وتساءلت : « أتراني « حقــاً » استفظع الحرب ؟ » وفكرت : « لا . لا . ليس حتى النهاية . » فلو انها استفظعتها حتى النهاية لكانت قد نهضت بقفزة واحدة ، وعدت حتى المحطــة ، وصاحت : « لا تذهبوا ! ابقوا في بيوتكم ! » وهي تبسط ذراعيها. وتمثلت نفسها ذات لحظــة واقفة مستقيمة ، مصلبة الذراعين تصرخ ، فأخذها الدوار ، ثم احست في عزاء انها كانت غير قابلة لارتكاب مثل هذا الطيش الصفيق . ليس حتى النهاية . امرأة جيدة ، فرنسية ، عاقلة ومتحفظة ، تلتزم ركاماً من الأوامر ، ومنها أمر ألا تفكر بشيء حتى نهايته. وفي لاون ، كانت فتــاة صغيرة حاقدة ومذعورة ، في غرفة

مظلمة ، ترفض الحرب بكل قواها ، رفضاً أعمى عنيداً . كانت اوديت تقول : « الحرب امر فظيع ! » ؛ كانت تقول : « افكر طوال الوقت باولئك المساكين الذين يذهبون . » ولكنها لم تكن تفكر بشيء بعد ، كانت تنتظر ، بلا نفاد صبر : كانت تعلم انه سيقال لها عما قريب كل ما ينبغي ان تفكر فيه وان تقوله وان تفعله . حين قُتـل ابوها عام ١٩١٨ قيل لها : حسناً جداً ، يجب ان تكوني شجاعة ، وتعلمت بسرعة كيف ترتدي ثياب الحداد بحزن عنيد ، وكيف تزرع في عين الناس نظرة يتيمة حرب . وفي عام ١٩٢٤ ، جُرح اخوها في مراكش ، فعاد اعرج ، وقيل لأوديت : حسناً جداً ، ينبغي خصوصاً الا ترثوا له ؛ وقال لها جاك ، بعد بضع سنوات : « عجباً ، كنت احسب « اتيان » اقوى من ذلك ، فهو لم يقبل عاهته قط ، لقـد اصبح مريع الغضب . » سيذهب جاك ، وسيذهب ماتيو ، وسيكون الامر حسناً جداً ، انها من ذلك على يقين . اما الآن ، فما تزال الصحف تتردد ، وكان جاك يقول : « ستكون حرباً حمقاء » وكان «كانديد» يقول : « انـــا لن نقاتل لمجرد ان ألمان السوديت يريدون ان يلبسوا جوارب بيضاء » ولكن البلاد لن تلبث طويلاً حتى تصبح إقراراً هائلاً ؛ سيقر مجلسا الشيوخ والنواب سياسة الحكومة بالاجماع ، وستحيي صحيفة «لوجور» ذكرى ابطالنا ذوي الشعر الغزير. اما جاك فسوف يقول : « إن العمال يبعثون على الإعجاب » ؛ وسيتبادل المارة في الشوارع بسمات تقية وضالعة : ستكون هي الحرب ، وستوافق اوديت ايضاً وهي تحوك قبعات صوفية للرأس والأذنين. لقد كان هناك ، وكان يبدو وكأنه يصغي للموسيقى ، وكان يعلم ما ينبغي التفكير به حقاً ، ولكنه لم يكن ليقوله. كان يكتب لايفيش رسائل ذات عشرين صفحة ليشرح لها الحالة . ولم يكن يشرح لأوديت شيئاً .

— بمَ تفكرين ؟

فانتفضت اوديت :

– اني ... لم اكن افكر في شيء .

قال ماتيو : – انت لست محقّة . فأنا قد أجبتك .

فحنت رأسها وهي تبتسم ؛ ولكنها لم تكن راغبة في الكلام . وكان يبدو مستيقظاً تماماً الآن ، كان ينظر اليها . وسألته منزعجة .

– ماذا هناك ؟

ولم يجب ، وكان يضحك ضحكة اندهاش . قالت اوديت :

– لقد لاحظت اني كنت موجودة ، فأصابتك من ذلك صدمة ؟ أليس كذلك ؟

وحين كان ماتيو يضحك ، كانت عينـاه تتغضنان فيشبه صبياً صينياً . وسأل :

– أتتصورين ان بالامكان ألا يلاحظ الناس وجودك ؟

قالت اوديت : – انني لست كثيرة الحركة .

– أجل . ولا كثيرة الحديث ايضاً . وبالاضافة الى ذلك ، تعملين ما بوسعك لينساك الناس . ولكنك تخفقين : فحتى حين تكونين عاقلة ومحتشمة ،وتنظرين الى البحر وانت لا تحدثين من الحركة اكثر مما تحدثه فأرة ، فان المرء يعرف انك موجودة هنا . في المسرح يسمون هـذا حضوراً . فهناك ممثلون ينعمون بمثل هذا الحضور ، وآخرون لا ينعمون به . اما انت فتنعمين به .

فحُرّت وجنتا اوديت ، وقالت بحيوية :

– لقد افسدك الروس . ولا بد ان الحضور مزية سلافية جداً.ولكني لا احسب ذلك مما يناسبني .

فتأملها ماتيو بجد وسألها :

– وما الذي يناسبك ؟

فأحست اوديت بعينيها تطيشان قليـلاً وتتحركان في محجريهما ،

وضبطت نظرها وأعادته الى قدميها العاريتين بأظافرهما المصبوغة • انها لم تكن تحب ان يحدثها الناس عن نفسها .

وقالت بمرح : – انني بورجوازية ، بورجوازية فرنسية لا أهمية كبيرة لها .

ولا بد انها لم تبدُ له مقتنعة بما فيه الكفاية ، فأضافت بقوة ، لكي تختم المناقشة :

– انني اي شخص .

فلم يجب ماتيو . ونظرت اليه من طرف عينيها : كانت يداه قد عادتا تجرفان الرمل. وتساءلت اوديت عن الغلطة التي قد تكون ارتكبتها. مهما يكن من أمر ، فقد كان بوسعه ان يحتج قليلاً ، ولو كان بدافع الأدب .

وبعد برهة سمعت صوته العذب الأبح :

– انه لقاس ان يحس الانسان بأنه اي شخص ، أليس كذلك ؟

قالت اوديت : – انه يعتاد ذلك .

– هذا ما افترضه . غير اني انا لم اعتد ذلك بعد .

فقالت بحيوية : – ولكنك انت ، لست اي شخص .

وكان ماتيو يتأمل البناء الذي اقامه . وكان هذه المرة بناء جميلاً ينتصب وحده في الهواء . وكنسه بضربة يد . وقال :

– ان كل انسان اي شخص .

وضحك :

– هذا كلام بليد .

قالت اوديت : – كم انت حزين .

– ليس اكثر من الآخرين . اننا جميعاً ثائرو الأعصاب قليلاً بتهديدات الحرب هذه .

ورفعت عينيها وارادت ان تتكلم ، ولكنها التقت بنظره ، نظر جميل

هادىء رقيق . وصمتت . اي شخص : رجل وامرأتان يتبادلان النظر على شاطىء . وقد كانت الحرب هنا ، حولها ، وكانت قد هبطت فيهما وجعلتهما شبيهين بالآخرين ، بجميع الآخرين . انــه يحس نفسه اي شخص ، انه ينظر الي ، انه يبتسم ، ولكنه لا يبتسم لي ، وانما لأي شخص . ولم يكن يسألها شيئاً ، الا ان تصمت وتكون بــلا هوية ، كالعادة . وكان يجب ان تصمت : فلو انها قلت له « انت لست اي شخص ، وإنما انت جميل ، وانت قوي ، وانت بطل روائي حالم ، وانت لا تشبه أحداً » ولو صدّقها ، اذن لكان قد انسرب بين أصابعها ولكان قد مضى مرة أخرى في احلامه ، وربما كان قد جرؤ على ان يحب امرأة أخرى ، مثلاً تلك الروسية التي كانت تشرب القهوة حين تشعر بالنعاس . واخذتها انتفاضة كبرياء ، وأخذت تتكــلم . وقالت بسرعة :

— سيكون الأمر مريعاً هذه المرة .

قال ماتيو :— سيكون حماقة بصورة خاصة . سوف يهدمون كل ما يستطيعون بلوغه ، باريس ، لندن ، روما . وسيكون شيئاً جميلاً ، بعد ذلك !

باريس ، روما ، لندن . ومقصورة جاك ، البيضاء البورجوازية على شاطىء الماء . وارتعشت اوديت ، ونظرت الى البحر . ولم يكن البحر بعد الا بخاراً متلألئاً ، وكان متزلّج مائي عارٍ وأسمر ، منحنٍ الى امام ، ينزلق على هذا البخار ، بجرّه قارب ذاتي . ولم يكن بوسع اي رجل ان يهدم هذا اللألؤ المضيء . وقالت :

— سيبقى هذا على الأقل .

— ماذا ؟

— هذا ، البحر .

وهز ماتيو رأسه وقال :

ـ حتى ولا هذا !

فنظرت اليه بدهشة : لم تكن تفهم دائماً فهماً صحيحاً ما يعنيه ، وفكرت في ان تسأله،ولكن كان عليها فجأة ان تذهب . فقفزت على قدميها ولبست صندلها وتجلببت بمئزرها . وسألها ماتيو :

ـ ماذا تفعلين ؟

قالت : ـ يجب ان أذهب .

ـ لقد جاءتك الفكرة فجأة ؟

ـ تذكرت اني وعدت جاك بمرقة مثومة لهذا المساء ، ولن تستطيع مادلين تدبير امرها وحدها .

فقال ماتيو : ـ ثم انه يندر خصوصاً ان تبقي طويلاً في المكان نفسه . وإذن ، فاني سأغطس ثانية في الماء .

ورقيت الدرجات المرملة حتى اذا بلغت السطيحة التفتت فرأت ماتيو يعدو نحو البحر ، وفكرت : « انه على حق ، فاني مصابة بداء التنقل . » الذهاب دائماً ، والفرار دائماً . لما ان تنشرح قليلاً في مكان ما حتى تضطرب وتشعر بالذنب . وكانت تنظر الى البحر ، وفكرت : « اني ابداً خائفة » وكانت خلفها على بعد مئة متر ، مقصورة جاك ، ومادلين الضخمة ، والمرقة المثومة التي تنتظر الاعداد ، والتبريرات ، والطعام . واستعادت سيرها ، سوف تسأل مادلين : « كيف حال امك ؟ » وستجيب مادلين وهي تنفخ قليلاً : « على حالها » فتقول اوديت : « يجب ان تعدي لها بعض المرق ثم تأتيها ببياض الدجاج فتقصي منه جناحاً ، وسترين كيف تأكله . » فتجيب مادلين : « آه يا سيدتي العزيزة ، إنها لن تمسه ابداً » فتقول اوديت « أعطيني هذه » وتتناول الدجاجة فتقطع بيديها جناحاً ، وستشعر بأنها مبررة « حتى ولا هذا » . وألقت نظرة اخيرة على البحر ولقد قال: حتى ولا هذا » لقد كان مع ذلك خفيفاً جداً ، حتى ليمكن القول

إنه السماء مقلوبة ، فماذا بوسعهم ان يفعلوا ضده ؟ لقد كان عجينياً أخضر ، بلون القهوة بالحليب ، منبسطاً جداً ، رتيباً جداً ، بحر كل يوم ، وكانت تنبعث منـه رائحة اليود والعقاقير ، بحرهم « هم » ونسيمهم البحري ، وسيجعلونهم يدفعون مئة فرنك في اليوم ؛ ونهض على مرفقيه ونظر الى الأولاد الذين كانوا يلعبون فوق الرمل الرمادي ، وكانت الصغيرة سيمون شاسيو تعدو وتضحك وهي تجر خلفها ساقهـا اليسرى المشدودة في حذاء حديدي ؛ وكان بالقرب من الدرج طفل لم يكن يعرفه.لا بد انه جديد، فهو هزل هزلاً يبعث على الخوف ، ذو اذنين هائلتين ، وكان قد دسّ أصبعه في انفه وجعل ينظر الى ثلاث فتيات صغيرات كن يبنين بيوتـاً من الرمل . وكان يقوّس كتفيـه الصغيرتين المقرّنين ويلوي ركبتيه ، ولكن صدره الضخم كان يظلّ على صلابته الحجرية . مشدّ . انحراف سُلّي في العمود الفقري .« ولا بدّ انه معتزه فوق كل شيء » .

قالت جانين : — نمْ وتمدّد جيداً . ذلك الملك اليوم مضطرب .

فأطاع ورأى السماء . أربع غيمات صغيرة بيض . وسمـع صرير عجلات عربة على الطريق : « انهم يعودون به باكراً ، فمن عساه يكون ؟ » وقال صوت ضخم :

— مرحباً ، ايها الرأس الصغير .

فرفع كلتا ذراعيه بجيوية، وأدار المرآة فوق رأسه ، وكانوا قـد مروا، ولكنه عرف ردف الممرضة الضخم : كان داريو . وصاح به:

— متى تقصّها ، لحيتك ؟

فأجاب صوت داريو البعيد :

— حين تقصّ بيضاتك !

وأخذ يضحك مسروراً : كانت جانين تحقر الكلمات البذيئة .

— متى يعودون بي ؟

ورأى يـد جانين تبحث في جيب سترتها البيضاء فتخرج منها ساعـة .

– بعد زهاء ربـع ساعة . هل انت ضجر ؟

– لا .

لم يكن ليضجر قط . ان اواني الزهور لا تضجر . انهم يخرجونها حين تشرق الشمس ، ويدخلونها عند هبوط المساء . وهي لا تُسأل قط عن رأيها ، فليس لها ان تقرر شيئاً ولا ان تنتظر شيئاً . ان المرء لا يستطيع ان يتصور كم يستغرقه ضخّ الهواء والنور من جميع المسامّ . وأصدت السماء كأنها صنج ، ورأى خمس نقط رمادية صغيرة بشكـل مثلث تلتمع بـين غيمتين . فاسترخى وتحركت اصابـع رجليه : كان الصوت يأتي في موجات نحاسية كبيرة ، وكان ذلك لذيذاً يشبه رائحة المخدّر حين يضجعونك على الطاولة الكبيرة . وتنهدت جانين ، فنظر اليها من زاوية عينه : كانت قد رفعت رأسها وبدت قلقة ، وكان ثمة بكل تأكيد ما يذعرها « آه ! صحيـح : ستقوم الحرب . » وابتسم ، وقال وهو يدير عنقه قليلاً :

– وإذن فالواقفون يعزمون على القيام بها ، حربهم هذه ؟

فأجابت بجفاف : – انت تعلم ما قلته لك . فاذا تكلمت هكذا ، امتنعت عن اجابتك .

وصمت ، كان له الوقت بطوله ، وكانت الطائرة تشخر في أذنيه ، وكان يُحسّ بالرضى ، ان الصمت لا يزعجني انا . انهـا لم تكن تستطيـع ان تقاوم ، فالواقفون هم دائماً قلقون ، ويجب ان يتكلموا او يتحركوا ؛ وانتهت الى القول :

– اجل ، انني خائفة : فان الحرب ستنشب .

قالت ذلك بهيئتها التي تأخذها في ايام العمليات ، هيئة الطفل المسكين وكبيرة الممرضات . حين دخلت في اليوم الأول وقالت له : « يجب

إن ترفع جسمك فانني سأرفع الحوض . » كانت لها هذه الهيئة نفسها ، وكان يعرق ، وكان يُحس رائحته ، رائحة الدباغة الفظيعة ، وكانت واقفة ، بارعة ، مجهولة ، تمدّ نحوه يدين فارهتين ، وكانت لهـا هذه الهيئة نفسها .

ولحس شفتيه على مهل . وانتصر عليها منذ ذلك الحين . وقال لها :

– يبدو عليك الانفعال الشديد .

– أتظن ذلك ؟

– ماذا يمكن للحرب ان تفعله معك ؟ إنها لا تعنيك .

فأدارت رأسها ، وربّتت على طرف آلة التثبيت . ما كان لها ان تنشغل بالحرب . فان مهنتها هي ان تعالج المرضى . وقال :

– انني انا لا اهتم بالحرب .

وقالت له : – لماذا تتظاهر بأنك لئيم ؟ انـك لا تحب ان تُهزم فرنسا .

– الأمر لديّ سواء .

– سيد شارل ! إنك تخيفني اذ تكون هكذا .

فضحك قائلاً : – ليس الذنب ذنبي اذا كنت نازياً .

فقالت خائبة : – نازي ؟ ماذا تراك ستخترع ايضاً ؟ نازي ! انهم يقتلون اليهود وجميع الذين لا يشاركونهم الرأي ، وهم يسجنونهم ، وكذلك الكهنة ، وقد احرقوا الريخشتاغ ، وهم لصوص . هذه اشياء لا يحق لك قولها . ان شاباً مثلك لا يحق له ان يقول إنه نازي ، حتى ولو كان يمزح .

وكان يحتفظ على شفتيه ببسمة صغيرة مدروسة ليحملها على الكلام . ولم يكن يكره النازيين . لقد كانوا عنيفين وغامضين ، وكانوا يبدون كأنهم يريدون التهام كل شيء ؛ وسنرى الى اي حد يمكن ان يصلوا . سنرى . وجاءته فكرة طريفة :

– اذا قامت الحرب ، اصبحنا جميعاً متوازين .

وقالت جانين : – آه ! إنه مسرور ، فماذا عساه قد وجد ؟

قال : – ان الواقفين قد تعبوا من وقوفهم ، فهم ذاهبون ليناموا على بطونهم في حفر . انا على ظهري ، وهم على بطونهم : سنكون جميعاً متوزاين .

وكان قد مضى وقت طويل وهم منحنون فوقه ينظفّونه ويسدّونه بايديهم الماهرة ، فيظل جامداً امام جميع هذه الايدي فوق جسمه ، ينظر الى وجوههم ابتداء من الذقن ، وثقوب أنوفهم المتصلّبة فوق رؤوس شفاههم وخطّ الأهداب الاسود في الافق : فقد جاء دورهم بأن يتمدّدوا . ولم يبدُ على جانين ايّ رد فعل : فقد كانت اقل نشاطاً من المألوف . ووضعت يدها برقة على كتفه وقالت :

– انت رديء ، رديء ، رديء !

وكانت تلك لحظة المصالحة ، وقال لها :

– ماذا هناك للعشاء هذا المساء ؟

– ثريدة بالأرز وحساء من البطاطا ، ثم انك ستكون مسروراً : سمك نهري .

– ثم ماذا بعد الطعام ؟ خوخ مجفّف ؟

– لا ادري .

قال : – خوخ مجفّف ولا بدّ . فقد أكلنا بالامس مربّى المشمش .

اكثر من خمس دقائق ، وتمدّد وانتفخ ليصيب مزيداً من المتعة ، ونظر الى طرف عالمه الصغير في عينه الثالثة . عين مغبرّة ثابتة مع بقع سمراء : كان دائماً يحلّل الحركات قليلاً ، وكان هذا مسلّياً ، اذ كانت الحركات تصبح صلبة وآلية مثل افلام ما قبل الحرب . وفي تلك اللحظة بالذات تنسلّ فيها امرأة بالسواد ، وهي ممدّدة على آلة

تثبيت ، تنسلّ وتختفي : كان صبي صغير يدفــع العربة . وسأل جانين :

— من هذه ؟

قالت جانين : — لا اعرفها . انها مقيمة في مقصورة « مونريبو » ، البيت الكبير الاحمر على شاطيء البحر .

— اهناك اجرى اندريه عمليته ؟

— نعم .

وتنفّس بعمق . وكانت شمس رطبة حريرية تسيل في فمه ، وفي منخريه ، وفي عينيه . وهذا الجندي ، ماذا قدم يفعل هنا ؟ أهــو بحاجة الى ان يتنفّس هواء المرضى ؟ ومرّ الجندي في المرآة ، صلباً كأنه صورة فانوس سحري ، وكان يبدو مهموماً ، فاستقام شارل على مرفقه وتبعه بعينيه في فضول : انه يسير ، إنه يُحسّ ساقيه وفخذيه ، وجميع جسمه يثقل على قدميه . وتوقّف الجندي وأخــذ يتحدث الى ممرضة ؛ وفكر شارل متعزياً : « آه ! انه واحدٌ من هنا . » وكان يتكلم برصانة وهو يهز رأسه ، من غير ان يفقد هيئته الحزينة ؛ إنــه يغتسل ويرتدي ثيابه وحده ، وهو يذهب حيث يشاء ، ويجب ان يهتم بنفسه طوال الوقت ، وهو يحس نفسه غريباً لأنه واقف : لقد عرفت هذا . سيحدث له شيء ما . ستقوم الحرب غداً وسيحدث لهم جميعاً شيء ما . لهم لا لي . اما انا ، فاني شيء .

قالت جانين : — لقد آن الاوان .

وكانت تنظر اليه بحزن ، وكانت عيناها مليئتين بالدموع . مــا ابشعها . وقال لها :

— إنك تحبينها جيداً ، لعبتك ؟

— اوه طبعاً .

— لا تهزّيني كما حدث في الذهاب .

ـ كلا .

وتدفقت الدموع وتدحرجت على الوجنتين المتقعتين . ونظر اليهـا في حذر .

ـ ما بك ؟

فلم تجب ، وكانت قد انحنت فوقه وهي تلهث ، وكانت ترتّب غطاء سريره ، وكان يرى ثقبي انفها .

ـ انك تخفين عني امراً .

فظلّت على صمتها .

ـ ماذا تخفين عني ؟ هل تخاصمت مع السيدة « غوفرينه » ؟ هيّا قولي ، فانا لا أُحبّ ان أُعامل كالأطفال .

وكانت قد استقامت ، وكانت تنظر اليه بحنـان يائس . وقالت وهي تبكي :

ـ انهم سينقلونكم .

فلم يفهم جيداً ما تعني . وقال :

ـ انا ؟

ـ جميع مرضى « بيرك » . فهذا المكان اقرب الى الحدود ممـا ينبغي .

فأخذ يرتعش وشرق يد جانين وشدّها اليه :

ـ ولكني اريد ان ابقى .

فقالت بصوت كئيب :

ـ لن يدعوا احداً هنا .

وشدّ على اليد بكل قواه وقال :

ـ لا اريد ، لا اريد !

فخلّصت يدها من غير ان تجيب ، ومرّت وراء العربة وأخذت في دفعها . واستقام شارل وجعل يبرّم بين اصابعه زاوية من الغطاء .

– ولكن الى اين سيرسلوننا ؟ ومتى نذهب ، وهـل تذهب المرضات معنا ؟ قولي شيئاً ما .

فظلت على صمتها ، وكان يسمعها تزفر فوق رأسه : وترك نفسه يسقط الى خلف وقال بصوت عاصف :

– وهكذا يكونون قد تغلبوا علي حتى النهاية .

لا اريد ان انظر في الشارع . ووقف ميلان امـام النافذة ، انه ينظر ؛ وهو مقطب . انهم ليسوا هنا بعـد ، ولكنهم يجرّون اقدامهم حول مجموعة البيوت . انني اسمعهم . وأنحني على ماريكـا واقول لها :

– اجلسي هناك .

– اين ؟

– بين النوافذ ، لصق الجدار .

وتقول لي :

– لماذا ارسلوني الى بيتك ؟

فلا اجيب ، فتقول :

– من الذي يصرخ ؟

فلا اجيب . الأقدام التي تسحب نفسها. صوتها ينبعث شو شو شو او شو . واجلس ارضاً بالقرب منها . انني ثقيلة . وآخذهـا بين ذراعيّ . ميلان على النافذة ، يعض اظافره بهيئة فارغة . وأقول له :

– ميلان ؟ تعال بالقرب منّا ؛ ولا تبق على النافذة .

انه يتمتم ، وينحني فوق المتكأ ، يتقصّد ان ينحـني ؛ الاقدام التي تسحب نفسها . سيكونون هنا بعد خمس دقائق . وتقطب ماريكا حاجبيها الصغيرين :

– من الذي يمشي ؟

– الالمان .

فتقول « ها ؟ » ويستعيد وجهها صفاءه . انها تستمع بوداعة الى الاقدام التي تسحب نفسها ، كما تستمع الى صوتي في الصف او الى المطر او الى الريح في الشجر : لأن ذلك هناك . وانظر اليها فترد لي نظرة صافية . حبذا لو كنت هذه النظرة ، لو لم أكن الا هذه النظرة التي لا تفهم ، ولا تتنبأ . أود لو أكون صماء ، اود لو اسحر نفسي على هاتين العينين ، اود لو اقرأ الضجة في هاتين العينين . ضجة عذبة عارية من المعنى ، كضجة اوراق الشجر . انني انا اعرف ان هذه أقدام تسحب نفسها . انها مائعة ، انهم سيأتون بميوعة وسيضربونه حتى يصبح مائعاً كله في اطراف أذرعتهم . انه هنا ، قاسٍ شديد ، ينظر من النافذة : سوف يمسكونه بأذرعتهم ، وسوف يصبح رخواً وتبدو على وجهه المسحوق هيئة البلاهة ، سوف يضربونه ويقذفونه ارضاً ، وغداً سيشعر امامي بالخجل .

وترتعش ماريكا بين ذراعي فأسألها :

—هل انت خائفة ؟

فتومىء برأسها نفياً . انها ليست خائفة . انها رصينة كما تبدو ، اذ اكتب على اللوح الاسود فتتابع يدي بعينيها وهي تفغر فاها . انها تجدّ وتجتهد : فقد فهمت الاشجار والماء ثم الحيوانات التي تسير وحدها ، ثم الناس ، ثم الاحرف الهجائية . اما الآن ، فان هناك صمت الاشخاص الكبار وتلك الاقدام التي تسحب نفسها في الشارع ؛ وهذا ما ينبغي فهمه ، لأننا بلد صغير . سوف يأتون ، وسيمرون دباباتهم عبر حقولنا ، وسيطلقون نارهم على رجالنا . لأننا بلد صغير . يا إلهي ! إقضِ بأن يأتي الفرنسيون لنجدتنا ، يا إلهي ، امنعهم من ان يتخلوا عنا .

قال ميلان :

— ها هم اولاء .

لا اريد ان انظر الى وجهه . وانما اريد ان انظر الى وجه ماريكا

فقط لأنهـا لا تفهم . انهم يتقدمون في شارعنا ، يجرون اقدامهم في شارعنا ، يصرخون باسمنا ، فاني اسمعهم . انني هنـا جالسة ارضاً ، ثقيلة جامدة ، ان مسدس ملان في جيب وزرتي . انه ينظر الى وجه ماريكا : هي فاغرة الفم . ان عينيها صافيتان ، وهي لا تفهم .

كان يمشي على الخط الحديدي ، وكان ينظر الى الحوانيت ويضحك انشراحاً . كان ينظر الى الخطوط ، وكان ينظر الى الحوانيت ، ينظر باستقامـة الى الشارع الابيض، وهو يطرف بعينيه ويفكر : « انا في مارسيليا » . كانت الحوانيت مغلقة ، وكانت الستائر الحديدية مسدلة ، وكان الشارع خالياً ، ولكنه كان في مارسيليا . وتوقف ووضع محفظته ونزع سترته الجلدية فوضعها على ذراعه ، ثم مسح جبينه ووضع المحفظة على ظهره . وكانت به رغبة لأن يعقد طرفاً من حديث مـع احد . وقال : « معي اثنا عشر عقب سيكارة ، وعقب سيكار واحـد في منديلي » . وكانت خطوط السكة تلتمع ، وكان الشارع الطويل الابيض يبهره ، وقال : « ان في محفظتي نبيذاً احمر . » وكان به عطش ، وكان بوسعه ان يشربه ، ولكنه كان يؤثر ان يشرب جرعة في حانة ، لو لم تكن جميع الحانات مغلقة . وقال : « لم أكن اتوقع ذلك . » واخـذ يمشي بين الخطوط ، وكان الشارع يعكس الاشكـال كالنهر بين بيوت صغيرة سوداء . والى اليسار كان يقوم كثير من الحوانيت ولكن لم يكن مستطاعاً ان يعرف المرء ما كانت تبيعه ، بالنظر الى ان الستائر الحديدية كانت مسدلة ؛ والى اليمين كانت تقوم بيوت متنوعة في الهواء الطلق وخالية تشبه محطات ، وبين وقت وآخر يظهر جدار من قرميد . ولكنها كانت مارسيليا .

وسأل غرو لويس :

— اين يمكن ان يكونوا ؟

وصاح صوت : — عودوا بسرعة .

وكانت في زاوية زقاق حانة مفتوحة . وكان يقف على عتبتها صبي سمين يصيح : « عردوا بسرعة » .

وخرج فجأة من الارض أشخاص لم يسبق لغرو لويس ان رآهم ، وأخذوا يركضون نحو الحانة . فأخذ غرو لويس يركض هو ايضاً . وكان الصبية الآخرون يدخلون وهم يتدافعون ، وقد اراد ان يدخل خلفهم ولكن فى الباب أعطاه ضربة صغيرة جافة على صدره بظاهر يده ، وقال له :

– حُلَّ عني .

وكان ثمة طفل ذو مربول يحمل بين ذراعيه طاولة صغيرة أكبر منه وهو يحاول ان يُدخلها الى المقهى . وقال غرو لويس :

– حسناً ، ايها السمين ، انني داهب . ولكن أليست لديك جُرعة؟

– قلت لك ان تحلّ !

قال غرو لويس : – انني ذاهب . فلا حاجة بك لأن تخاف : فلست ذاك الذي يبقي في جماعة لا يرغبون برفقته .

فأولاه الفتى ظهره ، ثم نزع بضربة واحدة مزلاج الباب الخارجي ودخل المقهى وهو يغلقه خلفه . ونظر غرو لويس الى الباب : كان باقياً في مكان المقبض ثقب صغير مستدير ذو اطراف بارزة . وحكّ رقبته وردد : « انني ذاهب ، وهو ليس بحاجة لأن يخاف » . وقد اقترب مع ذلك من الزجاج وحاول ان يلقي نظرة في المقهى ؛ ولكن أحدهم سحب الستائر في الداخل فلم ير بعد شيئاً . وفكّر : « لم أكن اتوقع ذلك » . وكان يرى الشارع الى اليمين والشمال ممتداً على مدى النظر ، وكانت الخطوط تلتمع ، وكان على الخطوط حافلة صغيرة سوداء مهجورة . وقال غرو لويس : « اود لو أدخل الى مكان ما » وكان يود لو يشرب جرعة في حانة ، ويعقد طرفاً من حديث مع صاحبها . وأوضح وهو يحكّ صلعته : « ليس سبب ذلك اني لم اعتد

أن اكون في الخارج » . ولكن حين يكون في الخارج ، عادة ، يكون الآخرون في الخارج ايضاً ، كان هنـاك الخراف والرعاة ، وكان في ذلك نوع من الرفقة ، ثم انه حين لا يكون ثمة أحد ، لا يكون ثمة احد ، هذا كل ما في الامر . بينما هو الآن في الخارج وجميـع الآخرين في الداخل ، خلف جدرانهم وابوابهم التي ليس لها مقابض . كان وحيداً في الخارج مع الحافلة الصغيرة . ودق على زجاج المقهى وانتظر ، فـلم يجب احد . لو لم يرهم بأم عينه يدخلون لأقسم بأن المقهى كان خالياً . وقال : « انني ذاهب » ، وذهب . وبدأ يشعر باشتداد العطش ، وهو لم يكن يتصور مارسيليا هكذا . وكان يمشي ويفكر بأن الشارع كانت تنبعث منـه رائحة العفونة . وقال : « اين زراني سأجلس ؟ » ، وسمع خلفه جلبة ، كما لو انه قطيع غنم يرعى الكلأ . والتفت فرأى في البعد جماعة تحمل الاعلام . وقال : « آه ، حسناً ، سأراهم يمرون » ، واستشعر الرضى الغامر . والواقع انه كان في الجانب المقابل من الخطوط ساحة ما ، مكان لسوق ، مع كوخين صغيرين قديمين يستندان الى جدار كبير ، وقال : « سأجلس هناك لأراهم يمرون » . وكان احـد الكوخين حانوتاً ، اذ كانت رائحة المقانق والبطاطا المقلية تنبعث حوله . وقد رأى غرو لويس شخصاً مسناً ذا مئزر ابيض يحرك مقلاة داخل الحانوت ، فقال له :

— اعطني بطاطا مقلية يا ابتاه .

فالتفت الشيخ وقال :

— طز !

قال غرو لويس : — انني املك المال .

— طز في مالك . انني أغلق الحانوت .

وخرج ، وأخذ يدير مقبضاً ، فهبط ستار حديدي في صخب .

وصاح غرولويس ليطغى صوته على الصخب .

— لم تبلغ الساعة السابعة .

فلم يجب العجوز . وصاح غرو لويس :

— كنت اظن انك تغلق دكانك لأن الساعة بلغت السابعة .

وكان الستار الحديدي قد أسدل ؟ ونزع العجوز المقبض ، ثم استقام وبصق :

— ألم ترهم قادمين ايها الأبله ؟ انني لست حريصاً على ان اهب بطاطي المقلية مجاناً !

قال ذلك ودخل كوخه الصغير .

ونظر غرو لويس الى الباب الأخضر فترة اخرى ، ثم جلس على الأرض وسط ساحة السوق. واسند ظهره بمحفظته وتدفأ بالشمس . وفكر بأنه كان يملك كسرة من الخبز ، وزجاجة من النبيذ الأحمر ، واثني عشر عقباً من السكاير وعقباً واحداً من السيكار ، فقال : « واذن ، فاني سأكسر الصفرة . » وكان الجمع ، في الجهة المقابلة من الخط الحديدي ، قد بدأوا يسيرون وهم يحركون أعلامهم ويغنون ويصيحون؛ وكان غرو لويس قد أخرج سكينة من جيبه وراح ينظر اليهم يمرون وهو يكسر الصفرة . وكان فيهم من يرفعون قبضاتهم وآخرون يصيحون به : « تعال معنا ! » فكان هو يضحك ، ويحييهم لدى مرورهم ، وكان يحب كثيراً الجلبة والحركة ، اذ كان ذلك يحقق تسلية صغيرة .

وسمع وقع خطى فالتفت . كان زنجي طويل قادماً نحوه ، وكانت ذراعاه عاريتين ، وكان يرتدي قميصاً ذا لون وردي حائل ؛ وكان بنطلونه الأزرق يتسع وينبسط لدى ربلات ساقيه الهزيلتين عند كل خطوة . ولم يكن يبدو مستعجلا . وتوقف ولوى تبان سباحة بين يديه السمراوين الورديتين . وكان الماء يقطر على الغبار فيحدث دوائر صغيرة. وطوى الزنجي التبان في منشفة ثم نظر الى الجمع بلا اكتراث وهو

يصفر . وصاح به غزو لويس :

– ها !

فنظر اليه الزنجي وابتسم له .

– ماذا يفعلون ؟

فأقبل الزنجي عليه وهو يؤرجح كتفيه ، ولم يكن يبدو مستعجلا ، وقال :

– إنهم عمال المرفأ .

– هل هم مضربون ؟

فقال الزنجي : – انتهى الاضراب، ولكن هؤلاء يريدون ان يُستأنف.

قال غرو لويس : – آه ! من أجل هذا !

فنظر اليه الزنجي لحظة من غير ان يقول شيئاً . وكان يبدو عليه كأنه يبحث عن افكاره . وانتهى الى الجلوس على الأرض ، ووضع تبانه على ركبتيه وأخذ يلف سيكارة . وكان يصفر . وسأل :

– من اين انت قادم هكذا ؟

قال غرو لويس : – انني قادم من « براد » .

قال الزنجي : – لا أعرف اين تقع .

فقال غرو لويس : – آه ! لا تعرف اين تقع ؟

وضحك كلاهما ثم أوضح غرو لويس : – لم اكن مسروراً فيها .

قال الزنجي : – وانت قادم تبحث عن عمل ؟

فأوضح غرو لويس : – كنت راعياً ، وكنت ارعى الخراف على « الكانيغو » ولكني لم اكن مسروراً فيها .

فهز الزنجي رأسه وقال بقسوة :

– لم يبق ثمة من عمل .

قال غرو لويس : – اوه ! سأجد عملا ولا شك . (وأراه يديه) بوسعي ان أعمل كل شيء .

فردد الزنجي : — لم يبق من عمل .

وصمتا . وكان غرو لويس ينظر الى الجمع السائر الذي يصيح . كانوا يصرخون : « الى المشنقة ! سابياني الى المشنقة . » وكان معهم نساء محمراوات مشعثات ، وكن يفغرن افــواههن كما لو انهن يوشكن ان يلتهمن كل شيء ، ولكن لم يكن يُسمع ما يروينه ، فقد كان الرجال يصيحون اكثر منهن . وكان غرو لويس مسروراً . فقــد كان ينعم برفاق . وفكر : ان هذا مضحك . ومرت امرأة ضخمة هناك ، مع الأخريات ، وكان ثدياها يتمايلان . وفكر غرو لويس بأنه لن ينزعج اذا مازحها ساعة من زمن ، فسوف تمتلىء منها يداه . وأخذ الزنجي يضحك . وكان يضحك بشدة حتى انه كاد يختنق بدخان سيكارته . كان يضحك ويسعل في وقت واحد . وربت غرو لويس على ظهره وسأله ضاحكاً :

— لماذا تضحك ؟

وكان الزنجي قد استعاد جده فقال :

— هكذا !

قال غرو لويس : — اشرب جرعة .

فتناول الزنجي الزجاجة وشرب من عنقها وشرب غرو لويس ايضاً . وكان الشارع قد خلا من جديد .

وسأله الزنجي : — اين نمت ؟

فقال غرو لويس : — لا ادري ! في ساحة ملأى بالشاحنات ، تحت ستارة ، وكانت تنبعث منها رائحة الفحم .

— هل معك مال ؟

فقال غرو لويس : — قد يكون معي .

وفتح باب المقهى فخرج جمع من الرجال . وظلوا برهة في الشارع ، وكانوا ينظرون الى حيث يسير المضربون ، وهم يحمون عيونهم بأيديهم .

ثم مضى بعضهم بخطى بطيئة وهم يشعلون لفافاتهم ، وبقي الآخرون في الشوارع ، زرافات صغيرة . وكان ثمة شخص أحمر ذو كرش يحرك ذراعيه . وقال بغضب لفتى لم يكن يبدو عليه اليأس :

– إن الحرب في مؤخرتنا وتأتي لتحدثنا عن النقابية ؟

وكان يرشح عرقاً ، ولم يكن يلبس سترة ، وكان قميصه مفتوحاً وعليه بقعتان عريضتان رطبتان لدى الإبطين . والتفت غرو لويس نحو الزنجي وسأل :

– الحرب ؟ اية حرب ؟

قال دانيال : – مقعد ! هذا ما نحتاجه .

وكان مقعداً أخضر ، يستند الى جدار المزرعة، تحت النافذة المفتوحة. ورفع دانيال الحاجز ودخل الى الساحة . وعوى كلب واندفع الى أمام، وهو يشد على سلسلته ؛ وبدت امرأة عجوز على عتبة البيت ، وكانت تحمل قدراً صغيرة ، وقالت وهي تشهر القدر :

– لا ! لا ! بر ! هل تريد ؟

فهمدر الكلب قليلا ثم اضطجع على بطنه.وقال دانيال وهو ينزع قبعته :

– هل تسمحين لنا بان نجلس على هذا المقعد ؟

فجعدت العجوز عينيهـا بحذر : ربما كانت لا تعرف الفرنسية . وردد دانيال بصوت مرتفع :

– ان زوجتي متعبة بعض الشيء .

فانفتلت العجوز نحو مارسيل التي كانت قد استندت الى الحاجز ، فذاب حذرها .

– بكل تأكيد تستطيع زوجتك ان تجلس . فالمقاعد انما جعلت لهذا. وليست هي التي ستتلف مقعدنا منذ وجد هنا . هل انتما آتيان من « بيرهوراد » ؟

فدخلت مارسيل بدورها وأقبلت تجلس وهي تبتسم ، وقالت :

– نعم . لقد كنا نريد ان نمضي حتى مرتفعات الشاطيء ، ولكني

اری الآن انها بعيدة بعض الشيء بالنسبة لي .

فغمزت العجوز بعينها غمزة ضالعة وقالت :

– طبعاً ! يجب ان تكون حكيمة ، من تكون في وضعك .

فتركت مارسيل نفسها تستند الى الجدار ، وعيناها نصف مغمضتين ، وهي تضحك ضحكة صغيرة سعيدة . وكانت العجوز تنظر الى بطنها نظرة العارفة ، ثم التفتت الى دانيال ، فهزت رأسها وابتسمت له بسمة تقدير . وشنج دانيال يده على عصاه وابتسم كذلك . وكان الجميع يبتسمون ، وكان البطن هنا ، واثقاً مطمئناً . وخرج صبي من المزرعة وهو يتعثر ، فتوقف فجـأة وحدد في مارسيل نظرة قلقة . ولم يكن يرتدي سروالا تحتانيـاً ، وكانت فخذاه الصغيرتان محمرتين متصلبتي القشرة . وقالت مارسيل بلهجة يقظة :

– كنت اود ان اری مرتفعات الشاطيء .

فقالت العجوز : – ولكن هناك سيارة تاكسي في بيرهوراد . وهي تخص « لاميلان » الابن ، ومنزله هو آخر منزل على شارع بيداس .

قالت مارسيل : – أعرف ذلك .

فالتفتت العجوز الى دانيال وهددته باصبعها :

– آه ! يا سيدي ، يجب ان تكون لطيفاً مع السيدة ، وان تحقق لها كل رغباتها .

فابتسمت مارسيل وقالت :

– انه لطيف . ولكني انا التي اردت ان اسير .

ومدت ذراعها فلامست رأس الصبي . وكانت تهتم بالاطفال منذ اسبوعين ، وقد جاءها ذلك فجأة ، كانت تلمسهم وتجسهم كلما كانوا في متناول يدها .

– أهو حفيدك ؟

– انه ابن حفيدتي . وهو في حوالى الرابعة من عمره .

قالت مارسيل : — إنه جميل .

— حين يكون هادئاً . (وخفضت العجوز صوتها) : اتراه سيكون صبياً ؟

قالت مارسيل : — آه ! اود ذلك كثيراً .

فأخذت العجوز تضحك :

— يجب ان ترددي كل صباح الصلاة للقديسة مرغريت .

وحدث صمت صريح تعمره الملائكة . وكانت جميع العيون قد اتجهت الى دانيال ، فانحنى على عصاه واسبل جفنيه بهيئة تواضع ورجولة . وقال بلطف :

— سأزعجك مرة اخرى يا سيدتي . فهل استطيع ان اطلب منك كوب حليب لزوجتي ؟ (والتفت الى مارسيل) : هل تأخذين كوب حليب ؟

قالت العجوز : — سأعطيك إياه .

واختفت في مطبخها . وقالت مارسيل :

— تعال اجلس بالقرب مني .

فجلس ، وأخذت يده وهي تقول :

— كم انت متنبّه .

فابتسم . وكانت تنظر اليه بشغف ، وظل يبتسم وهو يخنق تثاؤبة مطّت شفتيه حتى الاذنين . وكان يفكر : « يجب الاّ يكون مسموحاً به ان تبدو المرأة حاملاً الى هذا الحد . » وكان الهواء لزجاً ، محموماً بعض الشيء ، وكانت بعض الروائح تختنق فيه كأنها من نبات الأشنة ؛ وكان دانيال ينظر الى اهتزاز دغل اخضر وأحمر ، فيما وراء الحاجز ؛ وكان منخراه وفمه قد امتلأت من اوراق الشجر . بعد خمسة عشر يوماً . خمسة عشر يوماً خضراء مهتزة ، خمسة عشر يوماً في الريف . وكان يكره الريف . وكان اصبع خجول يتنزه على يده ، وهو يتردد تردد

غصن تؤرجحه الريح . واخفض عينيه ونظر الى الاصبع . وكان ابيض ، سميناً بعض الشيء ، وكان يحيط به خاتم . وفكر دانيال : « انها تعبدني » . معبود . وكانت هذه العبادة المتواضعة المتسللة تسيل فيه كأنها روائح الحقول الحية . وأغمض عينيه نصف إغماضة فسالت عبادة مارسيل مع الأغصان الهامسة ، مع رائحة الزبل والبرجيس . وسألته مارسيل :

ـ بِمَ تفكر ؟

فأجاب دانيال : ـ بالحرب .

وعادت العجوز بكوب من الحليب المزبد . فتناولته مارسيل من يديها وشربت جرعات كبيرة . وكانت شفتها العليا تبحث عن السائل بعيداً في الكوب ، فتشرقه بصوت خفيف . وكان الحليب يغني وهو يمر في حلقها . وقالت متنهدة :

ـ كم هو منعش !

وكان قد ارتسم على شفتها شاربٌ ابيض . وكانت العجوز تنظر اليها نظرة طيبة وقالت :

ـ حليب طازج : هذا ما تحتاجين اليه ، من اجل الصغير .

وضحكتا كلتاهما ، ونهضت مارسيل وهي تستند الى الجدار ، وقالت لدانيال :

ـ أحسني مرتاحة جداً . وسنذهب متى شئت .

قال دانيال وهو يدسّ في يد العجوز ورقة :

ـ الى اللقاء يا سيدتي . اننا نشكر لك ضيافتك الكريمة .

وقالت مارسيل ببسمة حميمة : ـ شكراً يا سيدتي .

قالت العجوز : ـ مع السلامة ، وامشيا على مهل ، في طريق العودة .

وفتح دانيال الحاجز وامحى امام مارسيل : فاصطدمت بحجر كبير

وتعثّرت ، فصاحت العجوز من بعيد :

— هيه !

قال دانيال : — خذي ذراعي .

فقالت مارسيل مضطربة : — كم انا قليلة الحذق !

واخذت ذراعه ، فأحس بها لصقه حارّة وغير متناسبة ؛ وفكر : « لقد وسع ماتيو ان يشتهيها . » وقال :

— احرصي على ان تسيري بخطى صغيرة .

سياجات مظلمة . الصمت . الحقول . خــط الصنوبر الاسود في الافق . وكان رجال يعودون الى المزارع بخطى بطيئة ثقيلة ؛ سوف يجلسون الى الطاولة الطويلة ، وسوف يلتهمون حساءهم ، من كله غير ان يقولوا كلمة . وعبر الطريق قطيع من البقر . وخافت احداها فأخذت تخب وتقفــز . والتصقت مارسيل بدانيال ، وقالت وهــي تخفض صوتها :

— تصوّر : اني اخاف البقر .

فشدّ دانيال ذراعها برقــة وفكر : « لتذهب الى الشيطان ! » وتنفّست بعمق وصمتت . ونظر اليهــا من زاوية عينه ورأى عينيها الغامضتين ، وبسمتها المستنيمة ، وهيئتها المغتبطة . وفكر في رضى : « حسناً . لقد رحلت من جديد ! » وكان ذلك يحدث لها بين الفينة والفينة ، حين كان الطفل يتحرك في بطنها ، او يعبر بهــا إحساس مجهول ؛ وكان لا بد تشعر بأنها متعددة غزيرة ، مجرّدة . ومهــما يكن من امر ، فانها خمس دقائق طويلة من الربح ؛ وفكر : « انني انتزّه في الريف ، وهناك بقرات تمر ، وهــذه المرأة الضخمة هي امرأتي . » وأخذته الرغبة في الضحك ، انه لم ير في حياته هذا العدد من البقر . لقد اردت ذلك ! اردت ذلك ! كنت تتمنى كارثة ، فها ان امنيتك تتحقق ! كانا يسيران على مهل ، كأنهما حبيبان ، وذراعها

في ذراعه ، وكان الذباب يطن حولها . وقد نظر اليهما رجل مسنّ كان يستند الى مِقْلب ، جامداً على حافة حقله ، فبسم لهما . وأحس دانيال انه يحمرّ بعنف . وفي تلك اللحظة ، خرجت مارسيل من خَدَرها وسألت فجأة :

– وهل تظن انت انها واقعة ، هذه الحرب ؟

وكانت حركاتها قد فقدت صلابتها الهجومية ، فاسترخت ووهنت ، ولكنها كانت قد احتفظت بصوتها الايجابي الوعر . ونظر دانيال الى الحقول ، حقول ماذا ؟ لم يكن يميّز بين حقل ذرة وحقل شمندر ، وسمع مارسيل تردّد :

– هل تعتقد بأنها ستقع ؟

وفكر : « ليت ان الحرب تقع ! » انها ستصبح أرملة . أرملة مع الطفل ومع ستمئة الف فرنك من العملة النقدية . بصرف النظر عن بعض ذكريات حول زوج لا مثيل له : فما عساها يمكن ان تطلب اكثر من ذلك ؟ وتوقف فجأة وقد حرّكته الرغبة ؛ وشد عصاه بكل قواه ، وفكر : « يا آلهي ! المهمّ ان تقع الحرب ! » صاعقة وحشية تفجّر هذه العذوبة ، تحرث هذه الارياف حرثاً فظيعاً ، تحفر هذه السهول أقاعاً ، تسوّي هذه الاراضي المنبسطة الرتيبة على شكل بحر منتفض ، الحرب ، مذبحة الرجال ذوي الارادة الصلبة ، ومجزرة الابرياء ، هذه السماء الصافية ، سيمزقونها بأيديهم . وكم سيكره بعضهم بعضاً ! وكم سيخافون ! وانا ، كم سأهتزّ في بحر الكراهية هذا !

وكانت مارسيل تنظر اليه في دهشة . واخذته الرغبة في الضحك ،

– لا ، لا اعتقد بذلك .

وكان على الطريق اطفال ، بأصواتهم الثاقبة الوديعة وضحكاتهم ، السلم . ان الشمس ترف على السياجات كالأمس ، وكالغد ؛ وظهر برج بيرهوراد عند منعطف الشارع ، لكل شيء في العالم رائحته ،

وظله المسائي الطويل الممتقع ، ومستقبله الخاص . ومجموع هذه المستقبلات جميعاً هو السلم : فبالامكان لمسه على خشب هـذا الحاجز المنخور ، وعلى عنق هذا الصبي الرطبة ، وبالامكان قراءته في عينيه النهمتين ، وهو يصعد من القرّاص الذي يدفئه النهار ، وهو يُسمع في رنّة هذه الأجراس . في كل مكـان ، تجمّع رجالٌ حول أواني الحساء التي يتصاعد منهـا البخار ، فهم يكسرون الخبز ، ويصبّون الخمر في الكؤوس ، ويمسحون سكاكينهم ، وتصنع السلامَ حركاتُهم اليومية . انه هناك ، نسجته جميع هذه المستقبلات ، وهو يملك عنـاد الطبيعة المتردد ، وهو عودة الشمس الخالدة ، وجمود الارياف المرتعش ، ومعنى اعمال الرجال . فليس ثمة حركة لا تدعره ولا تختقه ، وحتى تثاقل مشية مارسيل الى جانبي ، وحتّى ضغط أصابعي الرقيق على ذراع مارسيل . ضربات حجارة من النافذة : « اخرجوا من هنا ! اخرجوا من هنا ! » فـلم يملك ميلان من الوقت اكثر من ان يرتد الى خلف . وكان صوت ثاقب يصرخ باسمه : « هلينكا ! ميلان هلينكا ، اخرج من هنا » . وغنى احدهم : « ان التشيكيين هم كالبراغيث في الفرو الالماني » . وكانت الحجارة قد تدحرجت على الارض ، وكسرت بلاطة مرآة المدخنة . وسقطت بلاطـة اخرى على الطاولة فسحقت كوباً مليئاً بالقهوة ؛ وسالت القهوة على القماش المشمع ، واخذت تقطر ببطء على الارض . واستند ميلان الى الجدار ، ونظر الى المرآة والطاولة والارض ، بينما كانوا يصرخون بالالمانية تحت النافذة . وفكر : « لقـد دلقوا قهوتي ، » وأمسك بكرسي من مسنده ، وكان يرشح عرقاً . ورفع الكرسي فوق رأسه ، فصاحت انّا :

— ماذا تفعل ؟

— سأقذف به رؤوسهم .

— ميلان ! لا يحق لك . فلست وحدك .

فوضع الكرسي ونظر الى الجدران في دهشة . انها ليست بعد غرفته ؛ فهم قد يقرروها . وصعدت في عينيه غمامة حمراء ، وغرز يديه في جيبيه وردد : « لست وحدي ، لست وحدي . » وكان دانيال يفكر : « انني وحدي » وحيد مع أحلامه الدامية في هذا السلام الممتد على مدى النظر . فالدبابات والمدافع والطائرات والحفر التي تمزق الحقول، كل ذلك لم يكن إلا ضجيجاً في رأسه . ابداً لن تنشق هذه السماء ؛ كان المستقبل هنا ، قد حط على هـذه الارياف ؛ وكان دانيال في داخله ، كدودة في تفاحة . مستقبل واحد . مستقبل جميع الناس : لقد صنعوه بأيديهم ، على مهل ، منذ اعوام ؛ ولم يدعوا لي فيه أدنى مكان ، أقل حظ . وصعدت الى عيني ميلان دموع غضب ، والتفت دانيال الى مارسيل : زوجتي ، مستقبلي ، المستقبل الوحيد الذي يبقى لي ، ما دام العالم قد قرر أمره بشأن السلم .

إفعل كالجرذ ! وكان قـد انتصب على ساعديه وراح ينظر الى الحوانيت تترى . وقال صوت جانين المبتهل :

– عـد الى الاضطجاع ! ثم لا تلتفت طوال الوقت هكذا ، الى اليمين والى الشمال ؛ إنك تصيبني بالدوار .

– أين تراهم سيرسلوننا ؟

– لقد قلت لك اني لا اعرف .

– انت تعرفين انهم سينقلوننا . ولا تعرفين أين سيرسلوننا ؟ آه ! انني اصدقك كثيراً !

– ولكني أقسم لك انهم لم يقولوا لي . لا تعذبني !

– اولاً ، من قال لك ذلك ؟ انها ليست إشاعـة ! فبوسعهم ان يجعلوك تبلعين كل شيء .

قال جانين على مضض : – انه طبيب العيادة .

– ولم يقل اين سنذهب ؟

كانت العربة تسير في مسمكة « كوزيية »؛ ودخل ، رجلاه اولاً ، في رائحة قذرة .

— اسرعوا ! انها تشبه رائحة الفتاة الصغيرة التي تهمل نفسها !

— لا .. لا استطيع ان اسرع اكثر من ذلك . ابتهل اليك يا لعبتي الصغيرة ، لا تهيج ، والا ارتفعت حرارتك مجدداً الى ٣٩ (وتنهدت كأنما تخاطب نفسها) ما كان لي ان اقول لك ذلك .

— طبعـــاً ! ويوم الرحيل كانوا سيخدرونني او يروون لي انهم يأخذونني للنزهة .

وتمدد من جديد لأنهم أوشكوا على المرور امام مكتبة « ناتيه » : وكان يكره مكتبة « ناتيه » بواجهتها المصفرة القذرة . ثم ان العجوز كانت دائماً تقف على عتبة الباب فتضم يديها حين تراه ماراً .

— انك تهزينني ! فتنبهي !

كالجرذ ! ان في الجرذان من يستطيع ان ينهض ويركض ليختبىء في الكهف او في المخزن . اما انا ، فرزمة . وليس لهم الا ان يأتوا فيأخذوني .

— أأنت التي ستلصقين البطاقات ؟

— أية بطاقات ؟

— بطاقات الانتقال : فوق وتحت ، سريع العطب ، الرجاء نقلـــه بحذر : ستضعين بطاقة على بطني ، وأخرى على مؤخرتي .

قالت :— رديء ! رديء ! رديء !

— حسناً ! سانقلوننا في القطار طبعاً ؟

— نعم . ماذا تريدهم ان يفعلوا اذن ؟

— في القطار الصحي .

فصاحت جانين : — لا ادري ، لا استطيع ان اخترع . أقول لك اني لا اعرف .

– لا تصرخي ! فلست أصم .

وتوقفت العربة فجأة ، فسمع انها كانت تتمخط .

– ما بك ؟ اناك توقفينني في منتصف الطريق ؟

وأخذت العجلات تتدحرج على البلاطات غير المستوية . وعاد يقول:

– ومع ذلك ، فقد قالوا لنا مراراً بأن علينا ان نتجنب السفر بالقطار ..

وحدث شخير متماثل فوق رأسه فصمت : كان يخشى ان تأخذ في البكاء . وكانت الشوارع تغص بالمرضى في تلك الساعة . سيكون جميلاً ذلك الفتى الذي تدفعه ممرضة تبكي . ولكن فكرة جاءته ، فلم يستطع الامتناع عن ان يدمدم :

– انني اشمئز من المدن الجديدة .

لقد قرروا كل شيء ، وقد ارادوا ان يضطلعوا بكل شيء ، وكانوا يملكون الصحة والقوة والفراغ ؛ لقد صوتوا ، واختاروا رؤساءهم ، وكانوا واقفين ، وكانوا يركضون في كل مكان بهيئاتهم المهتمة المنشغلة ، وكانوا يدبرون فيما بينهم مصير العالم ، وخاصة مصير المساكين المرضى الذين هم صبيان كبار . وهذه هي النتيجة : الحرب ، ان هذا عظيم . لماذا يجب عليّ ان ادفع ثمن حماقاتهم ؟ لقد كنت انا مريضاً ، فلم يسألني احد رأيي ! اما الآن ، فهم يتذكرون انني موجود وهم يريدون ان يجرّوني في أقذارهم . سيأخذونني من إبطيّ ومن ابضيّ وسيقولون لي : « عفواً ، المعذرة ، اننا نخوض الحرب . » وسيضعونني في مكان يشبه الطين ، حتى لا أحاول ان أزعج لعبة مجزرتهم . ونفر فجأة الى شفتيه السؤال الذي كان يمسكه منذ نصف ساعة . ستكون به سعيدة جداً ، ولكن فليكن : فلا بدّ من ان يخرج السؤال هذه المرة .

– اسمعي .. هل سترافقنا الممرضات ؟

قالت جانين : — نعم بعضهن .
— و .. انتِ ؟
قالت جانين : — كلا . انا لا .
فأخذ يرتجف ، وقال بصوت أبحّ :
— انك تتركيننا ؟
— لقد عيّنوني في مستشفى دنكرك .
قال شارل : — حسناً . جميع المرضات سواء ، أليس كذلك ؟

فلم تجب جانين ، فاستقام ونظر حوله . وكان رأسه يتهادى من تلقاء نفسه يساراً ويميناً ، ويميناً ويساراً . وكان هذا متعباً جداً ، وكان يُحس بدغدغة جافة في اعماق عينيه . وكانت عربة تسير في اتجاههم يدفعها عجوز طويل أنيق . وعلى آلة التثبيت ، كانت امرأة شابة ذات وجه مجوف وشعر ذهبي ؛ وكان قد ألقي على ساقيها معطف رائع من الفرو . ونظرت اليه لحظة ثم ردت رأسها الى خلف وتمتمت بضع كلمات صعدت في وجه العجوز المنحني فوقها . وسأل شارل :

— من هذه ؟ اني أراها منذ وقت طويل .
— لا أدري . اظن انها فنانة مسرح . لقد كسرت ساقاً ، ثم ذراعاً .
— هل تعرف ؟
— ماذا ؟
— أعني ، هل يعرف المرضى انهم سينقلون ؟
— لا احد يعرف ، لقد منع الطبيب ترديد ذلك .
فقال ضاحكاً : — هذا مؤسف . فربما اصبحتْ اقل كبرياء .
قال بيار قبل ان يصعد الى العجلة :
— ضُخّ هنا ضخّةً من المبيد . ففيه رائحة حشرات .
فضخّ العربي بوداعة بعض المبيد على أغطية الأريكة البيضاء وعلى وسائدها ، وقال : — هكذا .

فقطّب بيار حاجبيه :

– ِهمْ !

فوضعت « مود » يدها على فه وقالت بلهجة ابتهال :

– هس ، هس ! حسنٌ هكذا .

– فليكن . ولكن اذا أصابتك براغيث ، فلا تأتي لتستغيثي بي !

ومدّ لها يده ليعينها على الصعود، ثم جلس بالقرب منها . وخلّفت أصابع مود الهزيلة حرارة حية جافة في جوف راحته : كانت لها دائماً درجة حرارة . وقال بجفاء :

– سوف تتنزّهنا حول الاسوار .

مهما قيل ، فان الفقر يخلف الابتذال . وقد كانت « مود » مبتذلة وكان هو يكره الماسونية التي كانت تشدّها الى الحوذيين والحمالين والأدلّة وصبيان المقاهي : فقد كانت تعطيهم الحق دئماً ، واذا أخذوا بذنبهم، كانت تتدبّر أمرها دائماً لتجد لهم الاعذار .

وساط الحوذي حصانه فتدحرجت المركبة وهي تصرّ . فقال بيار ضاحكاً :

– اية عجلة دون ! انني اخشى دائماً ان ينكسر فيها محور !

وكانت مود تطلّ الى الخارج وتنظر الى كل شيء بعينيها الجادتين المهتمّتين .

– انها نزهتنا الاخيرة .

فقال : –اجل ! أجل!

وأحسّت بأنها شاعرية لأن هذا هو اليوم الأخير واننا سننتقل الباخرة غداً . وكان ذلك مزعجاً ، ولكنه كان اكثر احتمالاً لصمتها وتأملها منه لجذلها . ولم تكن جميلة جداً ، وحين كانت تريد ان تظهر دلالاً او حيوية ، فان ذلك كان ينقلب فوراً الى كارثة . وفكّر : يكفي تماماً هكذا. سيكون هناك يوم الغد وايام الرحلة الثلاثة في اجتياز البحر

حتى اذا بلغا مرسيليا ، مساء الخير ،وكل يمضي في وجهته. وسُر لأنه حجز سريراً في الدرجة الأولى : فان النساء الاربع كن يسافرن بالدرجة الثالثة ؛ وسوف يدعوها الى غرفته حين يرغب فيها ، ولكنها لخجلها لن تجرؤ على الصعود الى الدرجة الاولى اذا لم يأت لمرافقتها . وسأل :

— هل حجزتن امكنتكن في الأوتوكار ؟

فبدا على مود بعض الانزعاج :

— قررنا اخيراً الا نستقل الاوتوكار . فسوف ينقلوننا بالسيارة الى « كازا » .

— من ؟

— احد معارف « روبي » وهو سيّد مسن لطيف جداً سينعطف بنا من طريق « فاس » .

فقال بأدب :— مع الاسف .

وكانت المركبة قد غادرت مراكش ، وكانت تمر في وسط المدينة الاوروبية . وكانت الأرض الشاسعة امامهم تفسُد بصفائحها المبقورة ومعلباتها الفارغة . وكانت المركبة تُسرع بين مكعّبات كبيرة بيضاء ذات زجاج ملتمع ؛ ووضعت مود نظارتها السوداء ، وكان وجه بيار يكز قليلاً بسبب الشمس . ولم تكن المكعّبات المرصوصة بهدوء الى جانب بعضها البعض ، تثقل على الصحراء ؛ فلئن هبت الريح طارت. وكانت قد عُلقت على إحداها صفيحة مرشدة : «شارع المارشال ليوتي» ولكن لم يكن ثمة شارع ؛ وانما ذراع صغيرة من الصحراء مزفتة بين الأبنية . وكان ثلاثة من السكان المحليين ينظرون الى المركبة وهي تمر، وكان اصغرهم ذا عين بيضاء . واستوى بيار قليلاً ورماهم بنظرة حادة . على المرء ان يظهر قوته حتى لا يكون مضطراً لاستعمالها ،عبارة لم تكن مفيدة للسلطات العسكرية فحسب ، بل كانت تملي على المعمّرين، بل وحتى الزوار العاديين ، مسلكهم . ولم يكن ضرورياً ان يستعرض

المرء قوته استعراضاً كبيراً : بل حسبه بكل بساطة الا يسترخي ، وان يستقيم في جلسته . واختفى الضيق الذي كان يضغط عليه منذ الصباح . لقد شعر ، تحت العيون البليدة في وجوه هؤلاء العرب ، انه كان يمثل فرنسا . وقالت « مود » فجأة :

— ماذا ترانا سنجد حين نعود ؟

فشدّ على قبضتيه دون ان يجيب . المعتوهة : لقد ردّت له قلقه دفعة واحدة ، وكانت تلحّ :

— ربما كانت الحرب قائمة . فلك الرحيل ، ولي البطالة .

وكان يشمئز من سماعها وهي تتحدث عن البطالة بهذه اللهجة الجادة ، كأنها عامل . ومع ذلك ، فقد كانت عازفة الكمان الثانية في جوقة « بابيز » النسائية التي كانت تقوم برحلات في البحر المتوسط والشرق الادنى : وكان بالامكان اعتبار ذلك مهنة فنية . وقال بحركة انزعاج :

— أرجوك يا « مود » ، ليتنا لا نتكلم عن الاحداث ؟ فهل تريدين ، إكراماً لي ؟ إن هذه آخر أمسية لنا في مراكش .

فالتصقت به :

— صحيح . هذه آخر أمسية لنا .

ولامس شعرها ؛ ولكنه ظل يحتفظ بهذا المذاق المر في فمه . لم يكن ذلك خوفاً ، كلا ؛ فقد كان ثمة من يعتمد عليه ، وكان واثقاً من انه لن يخاف ابداً . بل كان ذلك ... زوال اوهام .

وكانت المركبة قد بلغت الأسوار . وأرته « مود » باباً أحمر كانت تُرى فوقه رؤوس خضراء .

— اوه ! هل تذكر يا بيار ؟

— ماذا ؟

— منذ شهر تماماً . لقد التقينا هنا .

— آه ! نعم ..

— هل تحبني ؟

وكان لها وجه صغير هزيل ، ناتيء العظام بعض الشيء ، وعينان كبيرتان وفمٌ جميل .

— نعم ، احبك .

— قل ذلك بطريقة أخرى .

فانحنى عليها وقبّلها .

وكان الغضب بادياً على العجوز ، وكان ينظر وهو يقطّب حاجبيه الكثيفين . وقال بصوت حاسم : « مذكرة ! هذه نتيجة التنازلات كلها ! » وهزّ هوراس ويلسون رأسه وكان يفكر : « لماذا يمثّل المهزلة ؟ » ألم يكن شمبرلن يعرف انه ستكون ثمة مذكرة ؟ او لم يقرر كل شيء مساء أمس ؟ ألم يتفقا على هذا الإخراج كله حين بقيا وحيدين وجهاً لوجه مع هذا المنافق المزيّف الدكتور شميت ؟

— خذها بين ذراعيك ، صغيرتك « مود » ، فانها تشعر بالكآبة هذا المساء .

وأحاطها بذراعيه ، فأخذت تتكلم بصوت طفولي دقيق .

— انك لا تخشى الحرب ، انت ؟

فأحسّ برعشة مزعجة لدى رقبته :

— يا صغيرتي المسكينة ، لا ، لست أخشاها . ان الرجل لا يخشى الحرب .

قالت : — ولكني اؤكد لك ان لوسيان كان يخشاها . بل ان هذا ما نفّرني منه ؛ فقد كان هلوعاً اكثر مما ينبغي .

وانحنى فقبّلها في شعرها : وكان يتساءل لماذا اخذته الرغبة فجأة في ان يصفعها .

وتابعت : — اولاً ، كيف يستطيع رجل ان يحمي امرأة ، اذا قضى وقته كله وهو خائف ؟

قال بلطف : — انه لم يكن رجلاً . اما انا فاني رجل :

وأخذت وجهه بين يديها وأخذت تتكلم وهي تلامسه :

— نعم ، كنت رجلاً يا سيدي ، نعـــم كنت رجلاً . فبشعرك الأسود ولحيتك السوداء كنت تبدو وكأنك في الثامنة عشرة .

وتخلّص ؛ وكان يشعر بأنه رقيق مائع ، وكان غثيان يصعـــد من معدته الى حلقه ، ولم يكن يعرف ما الذي يثير اكثر اشمئزازه من هذه الصحراء الملتمعة وهذه الجدران الطينية الحمراء وهذه المرأة التي كانت تقبع بين ذراعيه . ذلك أنني مللت مراكش ! كان يود لو يكون في « تور » ، في بيت اسرته، ويود لو ان الوقت صباح ، ولو ان امه تأتي حاملةً له فطوره الى السرير . حسناً ،ستهبط الى صالة الصحفيين، هكذا قال لنفيل هندرسون ، وستعلن انني نزولاً عنـــد طلب المستشار هتلر ، سأتوجّه الى فندق دربسن حوالي الساعة الثانية عشرة والصف.

وقال : — ايها الحوذي ! ايها الحوذي ! عُد الى المدينة من هذا الباب .

فسألت « مود » مندهشة : — ماذا دهاك ؟

فقال لها بعنف : — لقد مللت الأسوار ، وقد مللت الصحراء ، وقد مللت مراكش !

ولكنه ما لبث ان ضبط أعصابه فأخذ ذقنها بين اصبعيه وقال :

— اذا كنت عاقلة هادئة ، فسوف نشتّري لك بابوجاً .

لم تكن الحرب في موسيقي ميـــدان ترويض الخيل ، ولم تكن في الحانات الصاخبة القائمة في شارع روششوار . ليس ثمة هبة ريح . كان موريس يرشح عرقاً ، وكان يُحس فخذ نينيت الحار لصق فخذه . سنلعب لعبة صغيرة بالورق ثم ينتهي الامر . لم تكن في الحقول ، في اهتزاز الهواء الساخن فوق السياج ، في زعردة العصافير ، في ضحكة

مارسيل ؛ لقد قامت في الصحراء حول جدران مراكش . كانت ريح حارة حمراء قد هبت ، وكانت تدور حول العربة ، وكانت تعدو فوق امواج البحر ، وكانت تصفع ماتيو على وجهه ؛ وكان ماتيو يتجفف على الشاطيء الخالي ، وكان يفكر : « حتى ولا هذا ! » وكانت ريح الحرب تهب عليه .

حتى ولا هذا ! كان الطقس بارداً بعض الشيء ، ولكنه لم يكن راغباً في العودة على التو . وكان الناس قد غادروا الشاطيء واحداً بعد الآخر ؛ فقد كانت تلك ساعة العشاء . وحتى البحر كان قد اخلى سكانه ، وكان قابعاً مستقراً ، مقفراً مشمساً ، نوراً كبيراً منهاراً ، وكان المقفز الأسود للتزلج المائي يثقبه كرأس صخرة .

وكان ماتيو يفكر : « حتى ولا هذا ! » وكانت تشتغل الصوف ، وكانت النافذة مفتوحة ، وهي بانتظار رسائل جاك . وهي سترفع أنفها بين وقت وآخر ، يداعبها أمل غامض ؛ وكانت تبحث بنظرها عن بحرها . بحرها : عوامة ، مقفز ، وبعض الماء الذي يصطدم بالرمل الحار . حديقة صغيرة هادئة على قد الرجال ، مع بعض الجادات الواسعة والممرات التي لا تحصى ، وفي كل مرة ستأخذ صوفها بالخيبة نفسها : لقد غيروا لها بحرها ؛ لقد جذبت الضاحية الخلفية المقنفذة بالحراب والمحملة بالمدافع ، جذبت الساحل اليها ؛ وانحسر الماء والرمل وراح كل منهما يتابع على حدة حياة كئيبة . وكانت ثمة اسلاك شائكة تثلم الحواجز الحجرية البيضاء بظلالها المنجمة ، ومدافع في المنتزهات ، بين شجار الصنوبر ؛ وحرس امام المقاصير ؛ وسوف يجتاز ضباط بلا وعي هذه المدينة المائية الحزينة . وسوف يعود البحر الى وحدته . فالسباحة مستحيلة : وسوف يتخذ الماء ، اذ يحرسه عسكري ، مظهراً ادارياً عند الشاطيء ؛ ولن يكون المقفز والعوامة بعد على بعد معقول من الأرض ؛ وسوف تنمحي جميع الدروب التي رسمتها اوديت على

الأمواج منذ طفولتها . ولكن البحر ، البحر المتلاطم ، اللاإنساني سيكون ضدها بمعاركه البحرية تقوم على بعد خمسين ميلا من مالطه ، وبعناقيده من البواخر المغرقة بالقرب من بالبرمو ، وبأعماقه التي تحرسها أسماك حديدية ؛ سوف تكتشف في كل مكان من الأمواج حضورهـا الثلجي . وسيرتفع البحر العالي الى الأفق كجدار بلا أمل . ونهض ماتيو، كان قد جف ؛ واخذ يفرك تبانه بباطن يده ، ففكر : « لا بد ان تكون مزعجة جداً ، هذه الحرب ! » وبعد الحرب ؟ سيكون ثمة ايضاً بحر آخر. بحر المهزومين ؟ بحر الهازمين ؟ بعد خمس سنوات ، او بعد عشر، ربما كان هنا ، ذات مساء من ايلول ، في الساعة نفسها ، جالساً على هذا الرمل نفسه ، امام هذه الكتلة الضخمة من الجلاتين ، وستمسح هذه الأشعة الحمراء نفسها سطح الماء . ولكن ما عساه سوف يرى؟

ونهض وتدثر بمئزره . وكانت اشجار الصنوبر ، على الرصيف،قد اسودت تجـاه السماء . وألقى نظرة أخيرة على البحر ، ان الحرب لم تنفجر بعد ؛ كان الناس يتعشون باطمئنان في مقاصيرهم ؛ ليس ثمة مدفع ، ولا جندي ، ولا اسلاك شائكة ، وكان الاسطول في الميناء ، في بيزرت وطولون ؛ وكان ما يزال مسموحاً بعد برؤية البحر مزدهراً، بحرُ أمسية من آخر أماسي السلام . ولكنه ظل جامداً محايداً : فان ساحة كبيرة من الماء المالح تغتلم احياناً ، لا تعني شيئاً . وهز كتفيـه ورقي الدرجات الحجرية : منذ بضعة ايام كانت الاشياء تتركه واحداً بعد الآخر . والآن جاء دور البحر . « كالجرذان التي تترك الباخرة الموشكة على الغرق . » وحين يجيء يوم الرحيل ، سيكون جافاً كله فلا يبقى له شيء يتحسر عليه . وعاد بخطى بطيئة الى المقصورة ، وقفز بيـار خارج العربة وقال :

— تعالي ، سنشتري لك بابوجاً .

ودخلا السوق . وكان الوقت متـأخراً ؛ وكان العرب يستعجلون

الوصول الى ساحة جامع الفنا قبل مغيب الشمس . واحس بيار بأنه كان اوفر فرحاً ، فقد خلف ذهاب الناس وايابهم أثراً مريحاً في نفسه . وكان ينظر الى النساء المحجبات ، وحين كن يبادلنه نظرته ، كان يتذوق جماله في عيونهن وقال :

— انظري . هذه بوابيج .

وكان يوجد كل شيء في العرض ؛ كان دكاناً للأقمشة والعقود والأحذية المطرزة . وقالت مود :

— ما اجمل ذلك ! لنقف هنا .

وغمست يديها في هذا الخليط العجيب . فابتعد بيار قليلا : انه لم يكن يريد ان يظهر امام العرب بمظهر الاوروبي الذي يستغرقه تأمل الزينة النسوية . وقال بشرود :

— اختاري ، اختاري ما تشائين .

وكانت تباع على البسطة المجاورة كتب فرنسية ، فتسلى بتقليب اوراقها . وكان فيها خليط من الروايات البوليسية والقصص السينمائية . وكان يسمع الى يمينه زقزقة الخواتم والعقود تحت اصابع مود ، فسألها من فوق كتفها :

— هل تجدين طلبك ؟

— انني ابحث ، انني ابحث . يجب ان افكر .

وعاد الى القراءة . وتحت ركام من « تكساس جاك » و «بيفالوبيل» اكتشف كتاباً ذا صور . وكان مؤلفاً للكولونيل بيكو عن جرحى الوجه ؛ وكانت الصفحات الاولى مفقودة ، بينما كانت الأخرى مطوية . وأراد ان يضعه بسرعة ، ولكن الاوان كان قد فات : فقد انفتح الكتاب من تلقاء نفسه ؛ ورأى بيار رأساً فظيعاً لم يكن من الانف حتى الذقن الا ثقباً بلا شفاه ولا اسنان ؛ وكانت العين اليسرى مفقودة ، وكانت ندبة عريضة تخيط الخد الأيمن . وكان الوجه المعذب يحتفظ

بمعنى انساني ، هيئة ضاحكة بطريقة لئيمة . وكان بيار يحس حكاكاً مثلوجاً على جلدة رأسه وكان يتساءل : كيف وصل هـذا الكتاب الى هنا ؟

وقال البائع : — كتاب جميل .. وسوف تتسلى !

وأخذ بيار يقلب الصفحات ، فرأى اشخاصاً بلا انف او بلا عينين او بلا اجفان مع مُقَل جاحظة كما يبدو ذلك في اللوحات التشريحية . وكان مسحوراً ، وكان ينظر الى الصور واحدة واحدة ، وكان يردد في نفسه : ولكن كيف وصل الى هنا ؟ وكان افظع ما رأى رأس بلا فك اسفل؛ وكان الفك الاعلى قد فقد شفته فكشف عن لثة واربعة اسنان . وفكر ، انه يعيش . ان هذا الشخص حي . ورفع عينيه ، فعكست صورته مرآة منقطعة في إطار مذهب : ونظر الى صورته في رعب .. قالت مود

— بيار ، تعال انظر ، لقد وجدت .

وتردد . كان الكتاب يحرق يديه ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يقرر رميه بين الكتب الأخرى ، والابتعاد عنه ، وايلاءه ظهره . وقال .

— انا قادم .

وأومأ أصبعه الى الكتاب وسأل البائع :

— كم ثمنه ؟

كان الفتى يتنزه كالنمر في المكتب الصغير . وكانت ايرين تضرب مقالاً هاماً عن مساويء النظام العسكري . وتوقفت ورفعت رأسها :

— انك تصيبني بالدوار .

قال فيليب : — لن اذهب ، لن اذهب قبل ان يستقبل ...

فأخذت تضحك .

— ما اعقدك ! هل تريد ان تراه ؟ حسناً ، انه هناك ، خلف الباب ؛ فليس لك الا ان تدخل فتراه .

قال فيليب : – تماماً .

وخطا خطوة الى الأمام ثم توقف .

– اني .. سيكون الأمر عديم الحكمة ، وسوف اضايقه . اوه ! ايرين ، اتريدين إن تعودي فتسأليه ؟ مرة اخيرة ، اقسم لك انهـا المرة الأخيرة .

قالت :

– كم انت سامّ ! لا تهتم بعد بالأمر . فان « بيتو » شخص قذر : اما آن لك ان تفهم ان من حظلك انه لا يريد بعد ان يراك ؟ ان ذلك لن يعود عليك بغير الشر .

قال بهزؤ : – اه ! بغير الشر ! هل بالامكان ان يضرني احد ؟ الحق انك لا تعرفـين أهلي : انهم يملكون جميع الفضائل ، وهم لم يدعوا لي الا جانب « الشر » .

فنظرت ايرين في عينيه :

– وهل تتصور انني لا اعرف ما الذي يريد منك ؟

فاحمرّ وجه الفتى ولم يجب . فقالت وهي تهز كتفيها :

– اوه ، وبعد ...

قال فيليب بصوت مبتهل :

– اذهبي فاسأليه ثانية يا ايرين ، اذهبي فاسأليه ثانية . قولي له انني اوشك ان اتخذ قراراً حاسماً .

– انه لا يكترث بذلك .

– اذهبي فقولي له مع ذلك .

ودفعت البـاب ودخلت من غير ان تدقه . فرفع « بيتو » رأسه وكز وجهه وقال بصوت راعد :

– ماذا هناك ؟

ولم يكن يخيفها ، فقالت :

– اسمع ، لا حاجة بك الى الصراخ : انه الصبي ، وقد ملت ان يظل بين ذراعي : فهل يزعجك ان آتيك به دقيقة ؟

قال بيتو : – لقد قلت لا .

– يقول انه سيتخذ قراراً حاسماً .

– وما عسى ذلك ان يعنيني ، انا ؟

فقالت بنفاد صبر : – آه ! تدبّر الامر ، فانا سكرتيرتك ، ولست مرضعته .

قال والشرر يتطاير من عينيه :

– حسناً ، فليدخل ! آه ، سيتخذ قراراً حاسماً ! حسناً ، اما انا فسأقوم بعملية اعدام حاسم !

فضحكت وعادت الى فيليب :

– ادخل .

فهرع الفتى ، ولكنه توقّف عند عتبة المكتب بهيئة تقى ، فوجب عليها ان تدفعه ليدخل . وأغلقت الباب خلفه وعادت تجلس الى طاولتها . وسرعان ما انبعث الصراخ من الجهة الاخرى . فأخذت تضرب على الآلة بغير ما اكتراث : كانت تعرف ان فيليب قد خسر القضية . كان يمثل دور المعتقين ، وكان فاغر الفم امام بيتو ؛ وقد اراد بيتو ان يفيد من هذا ليستقدمه لمجرّد اللؤم : فانه لم يكن حتى لوطياً . وقد اصيب الفتى في آخر لحظة بالرعب . لقد كان كجميع الصبية ، كان يريد ان يحصل على كل شيء من غير ان يعطي شيئاً ؛ وكان يبتهل الآن الى بيتو ليحتفظ بصداقته ، ولكن بيتو أرسله يفرنقع . وقد سمعته يصيح : « حُلّ عن ظهري ، انك جبان صغير ، بورجوازي صغير ، فتى ثريّ يظن نفسه أزعر » ، فأخذت تضحك وضربت بضعة اسطر من المقال . « هل يمكن ان نتصور حيوانات اشأم من الضباط الذين ادانوا دريفوس ؟ » وفكرت بمرح :

ماذا يأخذ عليهم ؟

وانفتح الباب وانغلق بصخب ، وكان فيليب امامها . كان قد بكى، وانحنى على المكتب وهو يشهر سبّابته في صدر ايرين ، وقال بلهجة وحشية :

– لقد دفعني الى النهاية . ولا يحق لاحد ان يدفع الناس الى النهاية (وارتد برأسه الى خلف وأخذ يضحك) « ستسمعين حديثاً عني ! »

قالت ايرين وهي تتنهد : – لا تعذّب نفسك .

اغلقت الممرضة غطاء الصندوق ، اثنان وعشرون زوج حذاء ، ولا بد انه لم يكن لديه عمل كثير يعطيه للسكاف ، فحين كان زوج يفسد ، كان يقذفه في الصندوق ويشتري غيره ، واكثر من مئة زوج من الجوارب المثقوبة لدى الكعب وعند الابهام ، وست بذلات متعبة في الخزانة ، وبيته قذر ، كوخ عازب حقيقي . وكان بوسعها ان تتركه خمس دقائق ، فتسللت الى الممر ، ودخلت بيت الخلاء فرفعت تنورتها تاركة الباب مفتوحاً على سعته . وقضت حاجتها بسرعة ، وهي مرهفة الاذن ، متنبهة لأدنى ضجة : ولكن ارمان فيغيه كان متمدداً بهدوء ، وحيداً في غرفته ، وكانت يداه الصفراوان ترتاحان على الغطاء ، وكان قد قلب رأسه الهزيل ذا اللحية الرمادية القاسية ، والعينين الغارقتين ، وكان يبتسم بسمة متحفظة . وكانت ساقاه القصيرتان تتمددان تحت الغطاء . وكانت قدماه تشكلان بينهما زاوية من ثمانين درجة ، وكانت اظافره ناتئة ، اظافر اصابعه الرهيبة التي كان يقصها بالسكين كل ثلاثة اشهر ، والتي كانت منذ خمسة وعشرين عاماً تثقب جميع جواربه . وكانت في فخذيه دمامل صلبة ، بالرغم من انه كان يستريح على عجلة من المطاط عند جانبيه ، ولكن الدمامل كانت قد كفت عن النزيف : ذلك انه كان ميتاً . وعلى طاولة الليل ، كانت قد وُضعت نظارته ، ووضع طقم اسنانه في كوب ماء .

ميت : وقد كانت حياته هنا ، في كل مكان ، ناجزة لا تُدرك باللمس ، قاسية ملأى كالبيضة ، حتى ان جميع قوى العالم لن تبلغ ان تُدخل فيها ذرة واحدة ، وكانت ذات مسام غزيرة حتى ان باريس والعالم كله كان يمر عبرها ، وكانت منتثرة في اربعة اركان فرنسا ، متخثرة كلها في كل نقطة من الفضاء ، سوقاً كبيرة جامدة صارخة ؛ وكانت الصرخات هنا ، والضحكات ، وصفير المحركات ، وانفجار قنابل « شرانبل » ، يوم السادس من ايار ١٩١٧ ، وهذا الطنين الدامي في رأسه ، حين يسقط بين الخندقين ، وكانت الضجة هنا مثلجة ، ولم تكن الممرضة المترصدة لتسمع الا همساً تحت تنورتها . ونهضت ولم تشد مضخة الماء ، احتراماً للميت ، وعادت تجلس عند رأس ارمان، محترقة تلك الشمس الكبيرة الجامدة التي تضيء الى الابد وجه امرأة في القارب ، يوم العشرين من تموز ١٩٠٠ ، في « لاغرانــد جات » . كان ارمان فيغيه ميتاً ، وكانت حياته تطفو ، وهــي تحبس الآماً جامدة ، خطاً كبيراً يخترق شهر مارس ١٩٢٢ ، ألماً في الجنب ، جواهر صغيرة لا تتلف ، قوس قزح فوق محطة « بيرسي » ذات مساء سبت ، لقد أمطرت ، البلاط يزلق ، ويمر راكبا دراجتين وهمــا يضحكان ، صوت المطر على الشرفة ، ذات أصيل خانــق من شهر شباط ، لحن غجري يفجر الدمع في عينيها ، قطرات ندى تلتمع في العشب ، تطاير حمام في ساحة سانت مارك : وبسطت الجريــدة ، وركزت نظارتها على أنفها واخذت تقرأ : ، آخر ساعة : « لم يجتمع المستر شمبرلن ، بعد ظهر اليوم ، مع المستشارهتلر : » وفكرت في حفيدها الذي لا شك في انه سيذهب ، ووضعت الجريدة الى جانبها ، وتنهدت . كان السلام هنا ، كقوس قــزح ، كشمس « لا غراند جات » ، كالذراع الشقراء التي يجمدها النور : سلام ١٩٣٩ و ١٩٤٠ و ١٩٨٠ ، سلام الناس الأكبر ؛ وكانت الممرضة تضــم شفتيها

وتفكر : « انها الحرب » ، وكانت تنظر الى بعيد ، وعيناها ثابتتان ، وبصرها يمر عبر السلام . وهز شمبرلن رأسه وقال : « طبعاً ، سأفعل ما بوسعي ، ولكن ليس لدي أمل كبير . » وأحس هوراس ويلسون ان رعشة كريهة تسيل في ظهره ، فقال في نفسه : « واذا كان صادقاً ؟ » وفكرت الممرضة : « زوجي في حرب ١٩١٥ ، وحفيدي في حرب ١٩٣٩ : وهكذا اكون قد عشت بين حربين . » ولكن ارمان فيغيه يعرف ان السلام قد وُلد ، وسأله شانتال ، « لماذا قاتلت ، وانت صاحب تلك الافكار ؟ » فأجاب : « لتكون هذه آخر حرب » . ٢٧ ايار ١٩١٩ . الى الابد . انه يستمع الى بريان الذي يتكلم ، بجسمه القصير فوق المنبر ، تحت سماء خفيفة ؛ إنه ضائع في جمع الحجّاج ، والسلام قد هبط عليهم ، فهم يلمسونه ويرونه ويصرخون « يعيش السلام » الى الابد . انه جالس في اللكسمبورغ ، على كرسي حديدي ، وهو ينظر ابداً شجر الكستناء المزهر ، والحرب قد انغرست في الماضي ، ويمد ساقيه القصيرتين ، وينظر الى الاطفال الذين يركضون ، ويفكر بأنهم لن يعرفوا ابداً فظائع الحرب . ان السنوات المقبلة طريق ملكي هادىء ، والزمن يتفتح كالمروحة . وينظر الى يديه الهرمتين الساخنتين بالشمس ، فيبتسم ويفكر : « ذلك بفضلنا . لن تقوم حرب بعد . لا في حياتي ، ولا بعدي : » ٢٢ نوار ١٩٣٨ . الى الابد : كان شارل فيغيه قد مات ، ولم يكن ثمة من يستطيع ان يصوبه او يخطئه . لم يكن ثمة من يستطيع ان يغير مستقبل حياته الميتة ، ذلك المستقبل الذي هو غير قابل للهدم . يوم آخر ، يوم واحد ، وربما كانت جميع آماله قد انهارت ، اذ يكتشف فجأة ان حياته قد انسحقت بين حربين ، كما بين المطرقة والسندان . ولكنه مات يوم ٢٣ ايلول ١٩٣٨ ، في الساعة الرابعة صباحاً ، بعد سبعة ايام من الإغماء . وكان قد حمل السلام معه .

السلام ، السلام كله ، سلام العالم ، الذي لا يعفو ، والذي يتعذر مأخذه . ودُقّ جرس المدخل فانتفضت ، ولا بد انها ابنة عمه « انجرز » ، قريبته الوحيدة ، فقد أُبلغت مساء أمس برقياً ، وفتحت لامرأة قصيرة سوداء كان لها فم فأريّ وشعرٌ في الوجه .

— انني السيدة فرشو .

— آه ! حسناً جداً ، يا سيدتي .

— هل يمكن بعد ان نراه ؟

— نعم . انه هنا .

واقتربت السيدة فرشو من السرير ، فنظرت الى الخديّن المجوفين ، والعينين الغارقتين وقالت :

— لقد تغير كثيراً .

الساعة العشرون والنصف في جوان ليبان . الحادية والعشرون والنصف في براغ .

— لا تتركوا السمع ، سيذاع بلاغ هام جداً على الفور . لا تتركوا السمع ، سيذاع ...

قال ميلان : — انتهى الامر .

وكان واقفاً في فتحة النافذة . فلم تجب أنّا ، وانحنت ، وبدأت تلمّ شظايا الزجاج ، فوضعت اكبرها في مئزرها وقذفتها من النافذة ، كان المصباح قد انكسر ، وكانت الغرفة مظلمة زرقاء ، وقالت :

— اما الآن ، فسأُجري ضربة منكسة .

ورددت : ضربة مكنسة — وأخذت ترتجف وقالت وهي تبكي :

— سيأخذون منا كل شيء ، سيحطمّون كل شيء ، وسيطردوننا ،

قال ميلان : — اسكتي . بالله عليك لا تبكي !

ومشى الى جهاز الراديو ، فأدار الازرار ، فأضاءت المصابيح ، وقال بلهجة راضية :

– لم يُصب بشيء .

وفجأة ملأ الصوت الآلي الثاقب الغرفة :

– لا تتركوا السمع . سيذاع بلاغ هام جداً على الفور . لا تتركوا السمع ، سيذاع بلاغ هام .

قال ميلان بصوت متغير :

– اسمعي ، اسمعي !

كان بيار يمشي بخطى واسعة ، وكانت مود تركض بجانبه وهي تشدّ بابوجها تحت ذراعها . كانت سعيدة وقالت له :

– ما أجمله ! ستُجنّ روبي من الغيرة ، لقد اشترت بابوجاً في فاس لا يضاهي نصف هذا . ثم إنه مناسب جداً ، فبوسعك ان تلبسه اذ تقفز من السرير ، وانت لست بحاجة حتى لأن تضع فيه يديك ، في حين ان « البانطوفل » قصة معقدة جداً . غير ان هناك ما ينبغي فعله حتى لا يُفقد : يجب تقويس القدمين ، على ما أظن ، وجعل الأصابع هكذا . سوف اسأل خادمة الفندق ، وهي عربية .

وظل بيار على صمته . فقذفته بنظرة قلقة وأضافت :

– كان عليك ان تشتري بابوجاً لك ايضاً ، انت الذي تركض دائماً عاري القدمين في غرفتك ، أتعلم ان ذلك يناسب الرجال كما يناسب النساء ؟

وتوقف بيار في منتصف الشارع ، وقال لها بصوت هائل :

– كفى !

فتوقفت ايضاً مبهوتة :

– ماذا هناك ؟

قال بيار وهو يقلدها :

– هذا يناسب الرجال كما يناسب النساء . كفى ! كفى ! انت تعرفين جيداً ، ما كنت افكر به بينما انت تثرثرين ! وقد كنت

تفكرين به مثلي ؟

أضاف العبارة الاخيرة بقوة ، وأمرّ لسانه على شفتيه وابتسم بسخرية .
وارادت مود ان تتكلم ، ولكنها نظرت وصمتت ، مثلجة . واستطرد :

— ان الناس لا يريدون ان يواجهوا الواقع . ولا سيما النساء : حين يفكرن بشيء ، فيجب ان يتحدثن بسرعة عن شيء آخر . أليس كذلك ؟

قالت مود وقد جن جنونها :

— لقد جننت يا بيار ؟ انني لا أفهم شيئاً مما تقول . فبمَ تظنني كنت أفكر ؟ وبمَ تفكر انت ؟

فأخرج بيار كتاباً من جيبه ففتحه ووضعه تحت أنفها وقال :

— بهذا .

وكانت صورة وجه محطم . وكان صاحبها فاقد الانف ، وكان على عينه عصابة ، فسألته في ذعر :

— لقد .. اشتريته ؟

قال بيار : — نعم ، وماذا في ذلك ؟ انني رجل ، ولست أخاف . اريد ان اعرف الوجه الذي سيكون لي في العام القادم .

وكان يلوّح بالصورة امام عيني مود :

— أتراك تحبينني حين أصبح هكذا ؟

وكانت تخشى ان تفهم ، وكان بودها ان تمنح كل شيء مقابل ان يصمت .

— أجيبي ! هل تحبينني ؟

قالت : — اسكت ، ابتهل اليك ان تسكت .

قال : — هؤلاء الرجال يعيشون في بيت منعزل في « فال دوغاس » وهم لا يخرجون إلا ليلاً ، وعلى وجوههم اقنعة .

وارادت ان تأخذ الكتاب من يده ، ولكنه انتزعه منها ووضعه في

جهيه . ونظرت اليه مرتعشة الشفتين ، وكانت تخشى ان تنفجر باكية ، فقالت بلطف :

– اوه ، بيار ، هل انت خائف اذن ؟

فصمت فجأة ، وحدد فيها عينين بلهاوين . وظلا لحظة جامدين ، ثم قال بصوت ممطوط :

– ان جميـــع الرجال يخافون ، جميعهم . وليس طبيعياً من لا يخاف ، ان هذا لا علاقة له بالشجاعة ، وانت لا يحق لك ان تدينيني لأنك لن تذهبي الى القتال .

واستعادا سيرهما في صمت . وكانت تفكر : « إنـــه جبان ! » وكانت تنظر الى جبينه الكبير الملفوح ، وانفه الفلورنسي ، وفمه الجميل وتفكر : « انه جبان ، كلوسيان . لا حظ لي . »

كان صدر اوديت ينبعث في النور ، وكان جسمها يغيب في ظلام غرفة الطعام ، وكانت ترتشـــف الشرفة ، وتنظر الى البحر ، وكان غرولويس يفكر : « اية حرب » . كان يسير ، وكان نور المغيب الاحمر يرقص على يديه ، وعلى لحيته ، وكانت اوديت تحس عـــلى ظهرها الغرفة الطيبة المظلمة ، والمأوى الطيب ، والخوان الابيض الذي كان يلتمع التماعاً خفيفاً في الظلام ، ولكنها كانت متصبة في النور ، وكان النور والمعرفة والحرب تدخل من عينيها ، وكانت تفكر بأنـــه سيذهب ، وكان الضوء الكهربائي يتجمّد رزماً في ميوعة النهار الغارب . رزماً من أصفر البيض . وكانت جانين قد برمت معكس التيار ، وكانت يدا مارسيل تتحركان في الاصفر تحت المصباح . وطلبت ملحاً فشكلت يداها ظلالاً على الخوان ، وقال دانيال : ان هذا تضليل ، فيجب ان نصمد ، وسينهي لعبته . النور القاسي يبشر العيون كورق الزجاج ، هكذا ، في الجنوب ، حتى آخر دقيقة . انه الظهر ، ثم يتدحرج الليل فجأة . وكان بيار يهذر ، وكان يريد ان يقنعها بأنه قد

إستعاد هدوءه ، ولكنها كانت تمشي الى جانبه في صمت ، وتحدد فيه نظراً في مثل قساوة النور . وحين بلغا الساحة ، خشيت ان يعرض عليها ان تقضي الليل معه ، ولكنه نزع قبعته وقال بجفاف : ما دمنا سننهض باكراً في الصباح،وما دام عليك بعد ان تعدّي الحقائب ، فأظن ان من الافضل ان تعودي لتنامي مع رفيقاتك . فأجابت : اعتقد انا ايضاً ان ذلك افضل . قال لها : الى الغد . قالت : الى الغد ، الى الغد ، على الباخرة .

لا تتركوا السمع ، سيذاع بلاغ هام جداً ، وكان متمدداً ، ويداه تحت رقبته ، وكان يشعر بأنه ثمل تقريباً . وقال : هل تحبين كثيراً لعبتك الصغيرة ؟. وارتعشت ، وقالت : نعم .. — وكانت خائفة ، ككل مساء . اجل ، أحبك كثيراً ! كانت تقبل احياناً ، وكانت تقول « لا » احياناً اخرى ، ولكنها لن تجرؤ هذا المساء . « اذن هل تداعب اللعبة الصغيرة قليلاً ، مداعبة المساء ؟ » فتنهدت ، وكانت تشعر بالخجل الشديد ، وكان ذلك مسلّياً . وقالت : ليس هذا المساء . فلهث قليلاً ، وقال : « مسكينة اللعبة الصغيرة ، انها مهتاجة جداً ، وسيعود ذلك عليها بالخير . ألا تريدين ، لكي تجعليها تنام ؟ لا ، لا تريدين ؟ انت تعلمين ان ذلك يهدئني دائماً .. » وتلبست سحنة كبيرة الممرضات ، كما كانت تفعل اذ تضعه على الحوض ، وأصبح رأسها صلباً على كتفيه ، ولم تكن تغمض عينيها ، ولكن ذلك كان كأنما تتدبر أمرها حتى لا ترى شيئاً ، وكانت يداها تفكان ازراره من تحت ، بخفة ، يـدا اختصاصي ، ووجهه الذي كان حزيناً جداً ، كان ذلك مسلياً ، ودخلت اليد ، عذبة ، عجينة من اللوز . وانتفضت اوديت وقالت : لقد أخفتني ! هل جاك معك ؟.. وتنهد شارل ، وقال ماتيو لا . وقال موريس لا ، لا بد مما ليس منه بد . وكان قد أخذ المفتاح عن اللوحة ، ان رائحة البول والغوط لا تزال . ان ذلك مقرف ،

وقالت زيزيت : أنه طفــل السيدة سلفادور ، فهي تلقيه خارجاً حين تستقبل اشخاصاً ، وعند ذلك يغوّط في كل مكان ليتسلى .

وصعدا السلم : « لا تتركوا السمع ، سيذاع ... » وكان ميــلان وأنّا منحنيين على الجهاز ، وكانت ضجة انتصار تدلف من النوافذ ، وقالت أنّا : اخفضه قليلا ، فيجب الا تثيرهم ، اليد الرقيقة العذبة ، العذبة كعجينــة من لوز ، وتبرعم شارل وازدهر ، وتفتحت الثمرة الضخمة ، وكادت القشرة تنفجر ، ثمرة مستقيمة نحو السماء ، ثمرة ذات عصير ، زبيب برمته ذو عذوبة خانقة ؛ الصمت ، صرير الشوكات ، وتمزقات القماش الطويلة في الجهاز ، ومداعبة الربح للثمرة الضخمة المخملية المزغبرة ، وقفزت أنّا وشدت ذراع ميلان :

« ايها المواطنون »

« قررت الحكومة التشيكوسلوفاكية اعلان التعبئة العامة ؛ فعلى جميع الذين تقل اعمارهم عن ٤٠ سنة وعلى الاختصاصيين مهما بلغت اعمارهم ان يلتحقوا فوراً بمراكزهم . وجميع الضباط وصف الضباط وجنود الاحتياط وفرق الاحتياط الثانية من جميع الدرجات، وجميع المأذونين يجب ان يلتحقوا من غير تأخير بمراكز تجهيزهم . وعلى الجميع ان يرتدوا ثياباً مدنية مستعملة ، وان يحملوا اوراقهم العسكرية ومؤنهم لمدة يومين . والحد الأقصى لكي يلتحقوا بمراكزهم هو الساعة الرابعــة والنصف صباحاً .

« جميع الشاحنات والسيارات والطائرات مجندة . بيع البنزين مسموح به بأذن تمنحه السلطة العسكرية .

« ايها المواطنون ! لقد جاءت اللحظة الحاسمة ، والانتصار يتوقف على كل انسان . فليضع كل منكم جميع قواه في خدمة الوطن.ولتكونوا امناء شجعاناً . ان كفاحنا هو كفاح من اجل العدالة والحرية ! لتعش تشيكوسلوفاكيا ! »

ونهض ميلان ، وكان ملتهباً ، ووضع يديه على كتفي أنا وقال لها :
- واخيراً ، لقد انتهى الأمر يا أنا . انتهى الأمر .

وكرر صوت امرأة القرار باللغة السلوفاكية ؛ ولم يكونوا يفهمون بعد شيئاً ، الا كلمات من هنا وهناك ، ولكن ذلك كان شبيهاً بموسيقى عسكرية . ورددت أنا « واخيراً ! واخيراً ! » وسالت دموع على خديها . ثم فهموا من جديد : « Die Regierung hat entchlossen » وكان ذلك بالالمانية ، وبرم ميلان الزر الى آخره فأخذ الراديو يهدر ، وكان الصوت يسحق على الجدار اغانيهم الكريهة ، وضجيجهم الاحتفالي ؛ انه سيخرج من النوافذ ، وسيحطم زجاج اسرة جاغرشميت ، وسيلحق بهم الى صالونهم الميونيخي في اجتماعهم العائلي الصغير ، وسيثلج عظامهم . وكانت رائحة الغوط والحليب المحمض قد انتظرته ، فشمّها بعمق ، ودخلت فيه كضربة مكنسة ، وكانت تطهّره من عطور شارع رويال النظيفة الشقراء ؛ لقد كانت تلك رائحة البؤس ، كانت رائحته . وانزرع موريس امام باب غرفته ، بينما كانت زيزيت تضع المفتاح في القفل ، وكانت اوديت تقــول بفرح « الى المائدة ، اذن ! الى المائدة . ستكون لك مفاجأة يا جاك ! » وكان يحس نفسه قوياً قاسياً ، وكان قد استعار عالم الغضب والتمرد ؛ وفي الطابق الثاني ، كان الصبية يبكون لأن والدهم قد عاد ثملاً ؛ وفي الغرفــة المجاورة ، كان يُسمع وقع خطى ماريا برانزبي التي كان زوجها بنّاء السطوح قد سقط في الشهر الماضي من فوق سطح ، وكانت الضجة والأاوان والروائح كلها تبدو حقيقية . وكان قد استيقظ فاستعاد عالم الحرب .

والتفت العجــوز نحو هتلر ، وكان ينظر الى هذا الوجه الطفولي الرديء ، هذا الوجه الذبابي ، فيشعر بأنه مغتمّ مغتاظ حتى اعماقه ؛ وكان ريبنتروب قد دخل ، فقال بضع كلمات بالألمانية . فأومأ هتلر الى الدكتور شميت ، وقال الدكتور شميت بالانكليزية : « لقد علمنا انه

حكومة السيد بنيش قد اعلنت التعبئة العامة . » فبسط هتلر ذراعيه بصمت كرجل يشكو من ان الحـــادث يعطيه الحق . وابتسم العجوز بلطف ، واضاء في عينيه شعاع احمر . شعاع حرب . وما كان عليه الا ان يبدأ العبوس ، كالفوهرر ، وما كان عليه الا ان يبسط ذراعيه وكأنه يقول : « واذن ؟ ان الأمر كذلك ! » حتى تنهار على الارض كومة الصحون التي كان يوازنها بين يديه منذ سبعة عشر يوماً . وكان الدكتور شميت ينظر اليه في فضول ، وكان يفكر ان من المغري فتح الذراعين ، حين يحمـــل المرء كومة صحون منذ سبعة عشر يوماً ، وكان يفكر : « هذه هي اللحظة التاريخية » ، وكان يفكر بان الأمر قد بلغ ملجأه الاخير ، حرية تاجر عجوز في لندن ، حرية عارية تماماً . وكان الفوهرر والعجوز اذ ذاك يتبادلان النظر في صمت ، فلم يكن ثمة حاجة الى اي مترجم . وقام الدكتور شميت بخطوة الى الوراء .

جلس على مقعد حجري في ساحة « جيلو » ووضع القيثار بالقرب منه . وكانت السماء مظلمة زرقاء تحت شجر الدلب ، وكان ثمة موسيقى. وكان الوقت مساء ، وكانت صواري قوارب الصيد تخرج من الارض مستقيمة سوداء ، ومن الجهة الاخرى من المرفأ ، كانت النوافذ تلتمع بالمئات . وكان صبي يُجري ماء النبع ؛ وعلى المقعد المجاور ، جاء زنوج آخرون يجلسون ، وحيّوه . ولم يكن جائعاً ، ولم يكن عطشاً ، وكان قد استحم خلف الرصيف ، وكان قد التقى شخصاً طويلا كثيف الشعر يبـــدو وكأنه سقط من القمر ، وقد عرض عليه ان يشرب كأساً ، وكل ذلك ، كان حسناً . واخرج القيثار من علبته ، وكانت به رغبة للغناء . لحظة ، لحظة واحدة ، وسعل وتنحنح ، وسوف يغني بعد لحظة ، وكان شمبرلين وهتلر وشميت ينتظرون الحرب في صمت ، فهي داخلة بعد لحظة ، وكانت القدم قد ورِمَت ، وبعد لحظة سيخرجها من الحذاء ، وكان موريس جالساً على السرير يشد بكل قواه ، وبعد

لحظة سينتهي جاك من شرب حسائه ، ولن تسمع اوديت بعد هذا الهمس الصغير المزعج ، الأسهم النارية ، تحرك القنابل التي توشك ان تنطلق ، وبعد لحظة ستتسرب الشموس في دوامة نحو السقف ، ولعبتها ستنبعث منها بعد لحظة رائحة الأفستين ، ثم يُغرق صمغ غريز حار فخذيه المشلولين ، وسيرتفع الصوت غنياً رقيقاً عبر اوراق الدلب ؛ لحظة ، وكان ماتيو يأكل ، وكانت مارسيل تأكل ، وكان دانيال يأكل ، وكان بوريس يأكل ، وكان برونيه يأكل ، وكانت لهم نفوس آنية تملأها حتى الشفة شهوات متخثرة صغيرة ، لحظة وستدخل ، مصفحة بالفولاذ ، يخشاها بيار ، ويقبلها بوريس ، ويرغب فيها دانيال ، الحرب ، حرب الواقفين الكبرى ، حرب البيض المجنونة . لحظة : كانت قد انفجرت في غرفة ميلان ، وكانت تفر من جميع النوافذ ، وتصب في صخب عند اسرة جاغرشميت ، وتطوف بأسوار مراكش ، وتهب على البحر ، وتسحق بنايات شارع رويال ، وتملأ منخري موريس برائحتها ، رائحة الغوط والحليب المتخثر ، وفي السهول والاسطبلات وساحات المزارع لم تكن موجودة ، وكانوا يتراهنون عليها بين مرآتين ، في صالات فندق دريسن الملبّسة . وأمرّ العجوز يده على جبينه وقال بصوت ابيض : « حسناً ، اذا شئتم ناقشنا بنود مذكرتكم بنداً بنداً . » فادرك الدكتور شميت ان عهد المترجمين قد عاد .

واقترب هتلر من الطاولة ، وصعد الصوت الجميل الأجش في الهواء النقي . وقد سمعته في الطابق الخامس من فندق ماسيليا ، امرأة كانت تستنشق الهواء الطلق على شرفتها ، فقالت : « غوميز ، تعال فاسمع الزنجي ، إنه رقيق الصوت ! » وفكر ميلان بساقه فانطفأ فرحه ، وشد بقوة على كتف أنّا وقال : « انهم لا يريدون مني شيئاً ، فانا لست صالحاً لشيء بعد . » وكان الزنجي يغني . كان شارل فيغيه قد مات ، وكانت يداه الصفراوان تتمددان على الغطاء ، وكانت المرأتان تسهران عليه وهما تتكلمان عن

الأحداث ، وكانتا قد تعاطفتا على التو ، وأخذت جانين منشفة اسفنجية فمسحت يديها ، ثم اخذت تدلك له فخذيه ، وكان شمبرلين يقول : « فيما يتعلق بالبند الاول ، لي اعتراضان » وكان الزنجي يغني : بي مير ، بيست دو شون ، وهذا يعني : انت في نظري اجمل النساء .

وتوقفت امرأتان ، وكان يعرفهما ، انينا ودولوريس ، مومسان من شارع لاكيدون ، فقالت له انينا : « انت ، انك تغني ؟ » فلم يجب. كان يغني ؛ فابتسمت له المرأتان ، ونادت ساره بنفاد صبر : « غوميز ، بابلو ، آن لكما ان تأتيا ! فماذا تفعلان ؟ ان هناك زنجياً يغني ، وانه رقيق الصوت . »

السبت ٢٤ ايلول

في كريفيلي ، حين دقت الساعة السادسة ، دخل الأب كرولار الى مركز الدرك ودق باب المكتب . وكان يفكر : « لقد ايقظوني . » وكان يفكر في انه سيقول لهم : « لماذا تراهم أيقظوني ؟ » كان هتلر نائماً ، وكان شمبرلن نائماً ، وكان أنفه يحدث موسيقى ناي صغيرة ، وكان دانيال قد جلس على سريره ، والعرق يسيل منه ، وكان يفكر : « لم يكن ذلك الا كابوساً . »

وقال ملازم مركز الدرك : — ادخل ! آه ، أهذا انت ايها الاب كرولار ؟ ...

وأنّت ايفيش قليلاً وتقلّبت على جنبها . وقال الاب كرولار :

— ان الصغير هو الذي ايقظني . (ونظر الى الملازم في ضغينة وقال) لا بد ان الامر هام ...

قال الملازم : — آه ، ايها الاب كرولار ، يجب ان تشحّم سوقاءك !

ولم يكن الاب كرولار يحب الملازم ، فقال :

– انني لا اعرف السوقاء ، ولا البس السوقاء ، وانمـا البس القبقاب .

وردد المـلازم : – يجب ان تشحـم سوقاءك ، يجب ان تشحـم سوقاءك : فاذا فعلت كنت رشيقاً كالميزان !

ولولا شاربه لكان يشبه فتاة . وكان يضع نظارات ، وكان مائلاً الى الامام ، مبسوط الذراعين ، وهو يستند الى الطاولة بأطراف أصابعه .
وكان الأب كرولار ينظر اليـه ويفكر : « انـه هو الذي جعلهم يوقظونني » . وقال الملازم :

– لقد قال لك بأن تأتي بوعاء الصمغ ، اليس كذلك ؟

وكان الاب كرولار يمسك بوعاء الصمغ وراء ظهره ، فأراه اياه في صمت . وسأله الملازم :

– والفرشاة؟ يجب ان تعجّل ! فليس لديك الوقت للعودة الى بيتك .

فقال الاب كرولار في رصانة :

– ان الفرشاة في سترتي . لقد ايقظوني بصورة مفاجئة ، ولكن ما كان لي مع ذلك ان انسى الفرشاة .

ومدّ له الملازم مُدرج الورق :

– ضع نشرة منهـا على واجهة دار البلدية ، واثنتين في الساحة الكبيرة ، وواحدة على بيت كاتب العدل .

قال الاب كرولار : – بيت المعـلم بيلوم ؟ ان لصق الاعلانات هناك ممنوع .

قال الملازم : لا يهمني !

وكان ثائر الاعصاب ، ومرحاً ، وقال :

– انني آخذ ذلك على عهدتي . آخذ كل شيء على عهدتي .

– أهي التعبئة العامة حقاً ؟

قال الملازم : حبذا ! فسوف تقع الاشتباكات ، ايهـا الاب

كرولار ، ستقع الاشتباكات !

فقال الاب كرولار : — اوه ! اما انت وانـا ، فأظن اننا سنبقى هنا .

وطُرق الباب فنهض الملازم ليفتحه بخفة . وكان رئيس البلدية ؛ وكان يلبس القبقاب ، وكان قد وضع وشاحه على سترته ، وقال :

— ماذا طلب مني الصغير ؟

قال الملازم : — ها هي المنشورات .

فوضع رئيس البلدية نظارتيه وفكّ المدرج ، وقرأ بصوت منخفض : « تعبئة عامة » ثم وضع المنشورات بسرعة على الطاولة ، كـما لو أنه كان يخشى ان تحرقه . وقال :

— كنت في الحقول ، ومررت لآخذ وشاحي .

ومد الاب كرولار يده ، فلفّ المنشورات ووضـع المدرج تحت سترته ، وقال لرئيس البلدية :

— كنت اقول لنفسي ايضاً : ليس طبيعيـاً ان يوقظني في تلك الساعة المبكرة .

قال رئيس البلدية : — لقد مررت لآخـذ وشاحي (ونظر الى الملازم) ليس هناك ذكرٌ للمصادرة ؟

فقال الملازم : — هناك منشور آخر .

قال رئيس البلدية : — تفه ! تفه ! ها نحن عدنا للحرب !

فقال الاب كرولار : — لقد خضت الحرب ، انا . اثنان وخمسون شهراً بلا جراح .

وثنى عينيه وقد أجذلته الذكرى . وقال رئيس البلدية :

— حسناً . لقد خضت الحرب الاولى ، فلن تخوض هذه . ثم انك لا تكترث انت بالمصادرات .

وضرب الملازم على الطاولة في سلطة وقال :

ـ يجب ان نعمل شيئاً . يجب ان نثبت وجودنا .

وكان رئيس البلدية يبدو شارداً ، وكان قد أدخل يديه في وشاحه وقوّس ظهره وأوضح :

ـ ان ضارب الطبل مريض .

فقال الاب كرولار : ـ انني احسن الضرب على الطبل . فبوسعي ان احلّ محلّه .

وابتسم : انه منذ عشرة اعوام يحلم بأن يكون ضارب طبل .

قال الملازم : ـ ضارب الطبـــل ؟ انك ستضرب لنا السلام التوسكاني ! هذا ما سوف تعمله !

كان شمبرلن نائماً ، وكان ماتيو نائماً ، ووضع القبائلي السلّم على السيارة الكبيرة ، وحمل الصندوق على كتفه ، وأخذ يصعد من غير ان يمسك بالقضبان ، وكانت ايفيش نائمـــة ، وأخرج دانيال ساقيه من السرير ، وكان جرس يقرع على مداه في رأسه ، وكان بيار ينظر الى أخمص قدميّ القبائلي ، المتوردتين السوداوين ، وكان يفكر : « انـه صندوق مود » ولكن مود لم تكن هناك ، فهي ستذهب عما قليل مع دوسيت وفرانس وروبي في سيارة عجوز ثري كن واقعـــاً في حب روبي ؛ وفي باريس ونانت وماكون ، كان رجـــالٌ يلصقون على الجدران مناشير بيضاء ، وكان السلام التوسكاني يضرب في كريفيلي ، وكان هتلر نائماً ، وكان هتلر طفلاً صغيراً ، وكان في الرابعة من عمره ، وكانوا قد ألبسوه ثوبه الجديد ، ومر كلب اسود ، فأراد ان يقبض عليه بشبكته المعدّة لصيد الفراشات ؛ وكان السلام التوسكاني يضرب ، وأفاقت السيدة ريبوليه مذعورة وقالت :

ـ ان شيئاً ما يحترق .

كان هتلر نائماً ، وكان يقطـــع بنطلون أبيه قدداً صغيرة بمقصّ للأظافر ، ودخل ليبي فون ريفنستال ، فلمّ قـــدد الفانيلا وقال :

ـ سأطعمك اياها في السَّلَطة .

وكان السلام التوسكاني يضرب ، ويضرب ، ويضرب . وقال موبلان لزوجته :

ـ أراهن ان المنشرة هي التي احترقت .

وخرج الى الشارع ، فرأته السيدة ريبوليه من وراء مصراعها وهي بقميصها الوردي ، رأتــه يمرّ وينادي الساعي الذي كان يركض . وصاح موبلان :

ـ هيه ! يا أنسلم !

فصاح الساعي : ـ انها التعبئة .

فسألت السيدة ريبوليه زوجها الذي لحق بها :

ـ ماذا ؟ ماذا هناك ؟ أليس هناك ما يحترق ؟

ونظر موبلان الى المنشورين وقرأهما بصوت منخفض ، ثم استدار وعاد الى بيته . وكانت زوجته على عتبة الباب فقال لهـا : « قولي لبول ان يقرن العربة . » وسمع ضجة فالتفت ، فاذا هو « شابان » على عربته ، فقال له : « انك تركض ، فلماذا انت مستعجل الى هذا الحد ؟ » فنظر اليه شابان من غــير ان يجيب . ونظر موبلان خلف العربة : كانت ثمة بقرتان تسيران ببطء ، مربوطتين من الخلف بأرسان . فقال بصوت منخفض : « يا للحيوانين الجميلين ! » قال شابان بغضب : « بوسعك ان تقول ذلك ، بوسعك ان تقول انهما حيوانان جميلان » . وكان السلام التوسكاني يضرب ، وكان هتلر نائماً ، وكن فربنيو الشيخ يقول لابنه : « اذا أخذوا مني الحصانين واخذوك ، فكيف تراني سأشتغل ؟ » . وكانت نانيت تضرب الباب ، فقالت لها السيدة ريبوليه : « أهذه انت يا نانيت ؟ استفهمي لنا في الساحة لماذا يضربون السلام التوسكاني ؟ » فأجابت نانيت : « ولكن ألم تعرف السيدة بعــد ؟ انها التعبئة العامة . »

ككل صباح ، كان ماتيو يفكر « ككل صباح » . وكان بيار قد اندفع الى الزجاج . كان ينظر عبر النافذة الى العرب الجالسين ارضاً ، او الى صناديق ملونة كانت تنتظر سيارة « اوارزازات » . وكان ماتيو قد فتح عينيه ، عبْي طفلٍ وليد ما يزال أعمى ، وكان يفكر : « وما الجدوى ؟ » ككل صباح . صباح إرهاب ، سهمٌ ناريّ يُطاق على الدار البيضاء ، على مارسيليا ، وكانت السيارة الكبيرة ترجّ تحت قدميه ، وكان المحرك يدور ، وكان السائق ، وهو شخص طويل يرتدي قبعة من القماش البيج ذات طرفٍ من الجلد ، يُنهي تدخين سيجارته في الخارج . وكان يفكر : ان مود تحتقرني . صباح ككل صباح ، آسنٌ فارغ ، حفلة يومية فخمة ذات نحاس وأبواق وشروق شمس عانيّ . لقد كان في الماضي أصباحٌ أخرى : بداءات ؛ كان المنبّه يــدقّ ، وكان ماتيو ينهض فجأة ، قاسي العينين ، نضراً ، كأنما يستيقظ على نغمة بوق ،ولم يكن ثمة بعد بداءة ، لم يكن ثمة بعد ما يُعمل . ومع ذلك ، فقد كان لا بد من النهوض والمشاركة في الحفلة ، ورسم دروب وممرات في هذا الحرّ ، والقيام بجميع طقوس العبادة، ككاهن فقــد ايمانه . وأخرج ساقيه من السرير ونهض فنزع منامته : « ما الجدوى ؟ » ثم ترك نفسه يسقط مرة ثانية على ظهره ، عارياً ، ويداه تحت رقبته ، وكان قد بدأ يميز السقف ، عبر غمامة بيضاء . هالك . هالك تماماً ؛ في الماضي ، كنت أحمل الايام على ظهري ، فأنقلها من ضفة الى ضفة اخرى ؛ اما اليوم ، فهي التي تحملني . وكانت السيارة الكبيرة ترجّ ، وكانت تخفق ، وكانت تهتز تحت الاقدام ، وكانت الارض الخشبية تحترق ، فيخيّل اليه انّ نعليه يتفلّعان ، وكان قلب بيار الجبان يرجّ ، وكان يخفق ، يخفق عند الوسائــد الدافئة ، وكان الزجاج محرقاً ، ومع ذلك فقد كان يشعر انه مثلّج ، وكان يفكر : « انها تبتديء » وسوف تنتهي في حفرة بالقرب من ميدان او فردان ، وهي

الآن مبتدئة . وكانت قد قالت له : « انت اذن جبان » وهي تنظر اليه نظرة احتقار . وتمثّل الوجه الصغير الرصين المحموم ، ذا العينين المظلمتين ، والشفتين الرقيقتين ، فأحسّ بصدمة في صدره . وأقلعت السيارة الكبيرة . وكان الجو ما يزال رطباً جداً ؛ وخرجت لويزون كورناي ، اخت حارسة الحاجز ، وكانت قد جاءت من ليزبو لتساعد اختها المريضة في ادارة بيتهـا ، خرجت الى الطريق لتذهب فترفع حواجز الممر الى مستواها . وقالت : « كم هو جو قارص ! » وكان مزاجها صافياً لأنها كانت مخطوبة . لقد مضى عامان وهي مخطوبة ، ولكن كلما فكرت بذلك صفا مزاجها . وأخذت تدير المفتاح الكبير ، وفجأة توقفت . كانت متأكدة من ان ثمـة احداً في الطريق ، خلف ظهرها ، ولم تكن قد فكرت بأن تتطلع ، وهي خارجة من البيت ، ولكنها كانت متأكدة من ذلك . والتفتت فانقطع نفَسها : كان ثمـة أكثر من مئـة عربة ومركبة وعجلة مصطفة تنتظر بسكون . وكان الفتيان جالسين بتصلب على المقاعد ، والاسواط في ايديهم ، والاستياء باد عليهم . وكان آخرون يمتطون الخيل ، وغيرهم كانوا قد جاءوا مشياً على الاقدام وهم يجرّون خلفهم بقرة مربوطة بحبل . وكان منظراً غريباً جداً ، حتى انها خافت . واسرعت تدير المفتاح وترتدّ الى جانب الطريق . وساط الفتيان خيلهم ، فأخذت العربات تسير أمامها ، وكانت السيارة الكبيرة تسير وسط اراض بور حمر ، وكان العرب يتحركون وراء ظهورهم . وقال بيار : « يا للعرب الملاعين ، انني لا أكون مطمئناً حين أشعر بهم خلفي ، فانا أتساءل دائماً ماذا يدبّرون » والقى بيار نظرة الى جوف السيارة : كانوا متراكمين في صمت ، بألوان خضر ورمادية ، مغمضي العيون . وكانت امرأة محجبة قـد استسلمت بين الاكياس والرزم ، وقـد انقلبت على قفاها ، وكان جفناها مسبلين تحت حجابها . وفكر : « مهما يكن ، فهـذا شيء

بائس . بعد خمس دقائق سيأخذون في الصباح . ان هؤلاء الاشخاص ليس لهم معـــدة » . وكانت لويزون تعرفهم لدى مرورهم ، كانوا صبيان كريفيلي ، جميع صبيان كريفيلي ، وكان بوسعها ان تسمّي كلاً منهم باسمه ، ولكنهم لم يكونوا يومذاك يظهرون بوجوههم المألوفة ؛ كان الفتى السمين الاحمر ابن شابان ، وكان قد سبق لها ان رقصت معه في السان مارتان . وصاحت به : « هيه ، مارسيل ! إنك لفخور جداً ! » فالتفت ونظر اليها نظرة مهيبة . وقالت : « هل انت ذاهب الى العرس ؟ » فقال : « انت على حق ، الى العرس » . واجتازت العربة الخطوط الحديدية وهي تهتز ، وكانت ثمـــة بقرتان تتبعانها ، حيوانان جميلان . ومرّت عربات أخرى ، وكانت تنظر اليهـــا وهي تظلل عينيها بيدها . ورأت موبلان وتورنوس وكوشوا ، ولم يكونوا متنبهين لها ، كانوا يمرون وهم جالسون باستقامة فوق مقاعدهم ، حاملين سياطهم كأنها صوالجة ، وكانوا يشبهون ملوكاً اشراراً . وانقبض قلبها فصاحت بهم : « أهي الحرب ؟ » ولكن لم يجبها احد . ومروا وهم في عجلاتهم المهتزة المرتجة ، وكانت الابقار تتبعهم في أبّهة مضحكة . واختفت المركبات واحدة بعد الاخرى ، خلف المنعطف ، فبقيت لحظة ، ولا تزال يدها تظلل عينيها ، وهي تنظر في الشمس المشرقة . وكانت السيارة الكبيرة تجري كالريح ، وتدور وتنعطف وهي تهدر ، وفكرت في جان ماترا ، خطيبها ، الذي كان يؤدي خدمته العسكرية في انغوليم ، في فرقة من المهندين . وعادت المركبات الى الظهور ، ذباباً على الطريق الابيض ، ملتصقة بجانب الرابية . ونفذت السيارة الكبيرة بين الصخور السمر ، فدارت ودارت ، وكان العرب لدى كل منعطف يندافعون ويصيحون « هوش » بصوت مؤثر . ونهضت المرأة المحجبة فجأة ، فأطلق فمها الذي لم يكن يُرى تحت الموسلين الابيض لعنات مريعة ، وشهرت فوق رأسها ذراعين ضخمتين كأنهما فخذان ، وكانت يداها

الخفيفتان السمينتان ترقصان في طرف ذراعيها ؛ وانتهى بها الأمر الى ان تنزع حجابها وتطل من الباب ، ثم تأخذ في القيئ وهي تئن . وقال بيار في نفسه : « حسناً ، حسناً ، سوف يغوّطون علينا . » ولم تكن المركبات تتقدم وانما كانت تبدو مدبّقة على الطريق . ونظرت اليهـا لويزون طويلاً : كانت تتحرك ، كانت تتحرك مـع ذلك ، وكانت تبلغ قمة الرابية واحدة بعد اخرى ؛ ثم لم تعد ترى . وتركت لويزون يدها تسقط من جديد ، وطرفت عيناها المبهورتان ، ثم دخلت لتهتم بالصغار . وكان بيار يفكر في مود ، و كان ماتيو يفكر في اوديت ، و كان قد حلم بها ، و كان كلٌ منهما يمسك بقامـة الآخر ، و كانا يغنيان لحن « حكايات هوفمن » على ظهر سفينة « بروفنسال » . و كان الآن عارياً يرشح عرقاً فوق سريره ، وكانت اوديت تؤنس وحدته : « اذا كنت لم أمت من الضجر ، فهذا بفضلها » . و كانت رطوبة مبيّضة ما تزال ترتجف في عينيه ، وكان طرف من حنـان ما يزال يرتعش في قلبه : حنان ابيض ، حنان يقظة حزين صغير ، ذريعة لكي يبقى مضطجعاً على ظهره لحظات اخرى . بعد خمس دقائق سيسيل الماء البارد على رقبته وفي عينيه ، وزبد الصابون سيفرقع في أذنيه ، ومنظف الاسنان سيعجن لثّتيه ، ولن يكون له بعد أي حنان تجاه احد . ألوان ، أنوار ، روائح ، أصوات ، ثم كلمات ، كلمات ودية ، كلمات رصينة ، كلمات صادقة ، كلمات طريفة ، كلمات حتى المساء : ماتيو ... بفت ! إن ماتيو كان مستقبلاً . ليس ثمة بعد من مستقبل . ليس ثمة بعد من ماتيو الا في الحلم ، بين منتصف الليل والساعة الخامسة صباحاً . وكان شابان يفكر : « حيوانان جميلان الى هذا الحد ! » الحرب : كان لا يكترث بها ، فلا بد من الانتظار لنرى . اما هذان الحيوانان ، فقد كان يُعنى بهما منـذ خمسة أعوام ، وقد خصاهما بنفسه : وكان ذلك يلوي قلبه . وساط حصانه ، ومال به نحو اليسار ؛ واجتازت مركبته

مركبة سيمونون ، وقال سيمونون : « ماذا تعمل ؟ » فقال شابان : « لقــد مللت ، وبودي لو أصل ! » فقال سيمونون : « ولكنك ستتعب دابتيك » ، قال شابان : « طز فيهما الآن ! » وكان بوده ان يصدمهم جميعاً ، وكان قد نهض ، وهو يطقطق لسانه ويصيح : « هو ! هو ! » . وألمّ بمركبــة بوبول • وجاوز مركبة بولاي . وسأله بولاي : « هل تقوم بالسباق ؟ » فــلم يجب شابان ، وصاح بولاي خلفه : « حذار الحيوانان ! انك تتعبهما ! » وفكر شابان : « أود لو ماتا » ، وطرق الباب ، وكان شابان قد أصبح مجلّياً , وكان الآخرون يتبعونه ويضربون افراسهم بدافع التسابق ؛ وكان الباب يطرق ، وكان ماتيو قــد نهض ، وهو يفرك عينيه ، وكان الباب يطرق ، وتنحّت السيارة الكبيرة لتتفادى صدم عربي كان يركب دراجة ويحمل عليها مسلمة سمينة محجّبة، كان الباب يطرق ، وانتفض شامبرلين وقال : « هولا ! ما هذا ؟ من يطرق الباب ؟ » فأجاب صوت : « انها الساعة السابعة ، يا صاحب الدولة » . وكان على مدخل الثكنة حاجز خشبي . وكان حارس منتصباً امــام الحاجز . وشد شابان على الأعنّة وصاح : « هو ! هو ! باسم الرب ! » فقــال الحارس : « حسناً ! حسناً ! من اين انت قادم ، هكذا ؟ » فقال شابان وهو يشير الى الحاجز : « هيا ، ارفع هذا » . فقال الجندي : « ليست لديّ أوامر . فمن اين انت قادم ؟ » «اقول لك : ان ارفع هذا » . وخرج نائب ضابط من مركز الحرس . وكانت جميع العربات قــد توقفت ، فتأملها لحظة ثم صفر سائلاً : « ماذا أتيتم تفعلون هنا ؟ » فقال شابان : « اننا معبأون . يبدو انكم لا تريدوننا بعد في هــذه الساعة ؟ » فسأله نائب الضابط : « هــل معك الكراسة ؟ » فأخذ شابان يفتش في جيوبه . ونظر نائب الضابط الى جميع هؤلاء الفتيان الصامتين العابسين ، الجامدين عــلى مقاعدهم ، الذين كانوا يظهرون

وكأنهم يقدمون السلاح ، فأحسّ بالاعتزاز من غير ان يدري السبب ؛ وتقدّم خطوة وصاح : « والآخرون ؟ هل يحملون الكراسة ايضاً ؟ اخرجوا دفاتركم . » وكان شابان قد وجد دفتره العسكري ، فتناوله نائب الضابط وقلب صفحاته ثم قال : « ان معك الكراسة رقم ٣ ايها المحون . فأنت مستعجل اكثر مما ينبغي ، وهذه الكراسة للمرة القادمة » فقال شابان « قلت لك انني مجنّد . » قال نائب ضابط : « أتراك تعرف ذلك خيراً مني ؟ » فقال شابان غاضباً : « نعم . لقد قرأت ذلك في النشرة . » وكان الفتيان قد نفد صبرهم خلفه ، وكان بولاي يصرخ : « ألم ننته بعد ؟ هل ندخل ؟ » فقال نائب الضابط : « حسب المنشور . خذ ، هذا هو منشورك . وليس عليك الا ان تنظر اليه ، ان كنت تعرف القراءة . » ووضع شابان سوطه ، فقفز الى الارض واقترب من الجدار . وكان ثمة ثلاثة منشورات ، اثنان منها ملوّنان : « تجنّدوا ، تجنّدوا من جديد في جيش المستعمرات » ، وثالث ابيض : « دعوة فورية لعدة فئات من الاحتياطيين » . وقرأ على مهل ، بصوت منخفض ، وقال وهو يهزّ رأسه : « ليس هذا هو الذي وضعوه عندنا . » وكان موبلان وبولاي وفرينيو قد ترجّلوا من المركبات ، وكانوا ينظرون الى المناشير ، وقالوا : « ليس هذا هو منشورنا . » فسألهم نائب الضابط : « من اين انتم ؟ » فقال بولاي : « من كريفيلي . » قال نائب الضابط : « اذن لا اعرف ، ولكن افكر الآن ان في مركز كريفيلي للشرطة حماراً كبيراً ! مهما يكن ، اعطوني دفاتركم واتبعوني الى غرفة الملازم . » وفي ساحة كريفيلي الكبرى ، أمام الكنيسة ، كانت النساء محيطات بالسيدة ربوليه التي كانت تحسن كثيراً للبلدة ، وكان ثمة ماري وستيفاني وامرأة رئيس المكتب الحكومي للدفع وجان فرينيو . وكانت ماري تبكي على مهل ، وكانت السيدة ربوليه ترتدي قبعتها الكبيرة السوداء ، وتتكلم وهي

تحرّك مظلّتها : « يجب ألاّ تبكي يا ماري ، بل يجب ان تضبطي أعصابك . نعم ، نعم ، يجب ان تضبطي اعصابك . سيعيدونه لك ، زوجك ، سترين ، مع مداليات وامتيازات . ولعله لن يكون هو أشقى الجميع ، لو تعلمين ! لأن الجميع هذه المرة مجنّدون ، النساء كالرجال . »

وصوّبت مظلّتها الى الشرق فأحسّت انها تستردّ عشرين سنة من شبابها . وقالت : « سترين ، سترين ! لعلّ المدنيين هم الذين سيربحون الحرب . » ولكن ماري كانت قد اتخذت هيئة البلاهة النتنة ، وكان بكاؤها يهزّ كتفيها ، وكانت تنظر الى مبنى الاموات ، عبر دموعها ، وهي تلزم سكوتاً مغيظاً . وقال الملازم : « بأمرك » وكان يشدّ السمّاعة على اذنه ويقول : « بأمرك ! » وكان الصوت الرخو الغاضب يسيل بلا انقطاع : « وتقول انهم ذهبوا ؟ آه ، يا صديقي العزيز ، لقد عملت عملاً ! ولست اخفيك ، ان هذا عمل جدير ان يطيح بك ! » وكان الاب كرولار يجتاز الساحة وهو يحمل دلو الصمغ وفراشيه ، وتحت ذراعه مُدرج أبيض . وصاحت به ماري : « ما هذا ؟ ما هذا ؟ » فلاحظت السيدة ربوليه بنفاد صبر ان عينيها كانتا تلتمعان بأمل بليد . وكان الاب كرولار يضحك منشرحاً ، فأشار الى المدرج الابيض،وقال : « لا شيء . لقد اخطأ الملازم بالمنشورات ! » وأعاد الملازم السمّاعة وجلس ، مرتخي الساقين . وكان الصوت ما يزال يصدي في اذنيه : « هذا عمل جدير ان يطيح بك ! » ونهض ثانية فاقترب من النافذة المفتوحة : كان المنشور ينفتح على الجدار المقابل ، طرياً رطباً ما يزال ، ابيض كالثلج : « تعبئة عامة » واخذ الغضب بخناقه ؛ وكان يفكر : « لقد طلبت منه ان ينزع هذا اولاً ، ولكنه سيتقصّد ان ينزعه اخيراً » وتجاوز فجأة طرف النافذة ، وركض الى المنشور وأخذ في تمزيقه . وغمس الاب كرولار فرشاته في الصمغ :

وكانت السيدة ربوليه تنظر اليه يفعل ذلك وهي آسفة ، وكان الملازم يحك ، يحك الجدار ، وكان تحت أظافره كرات من العجين الابيض؛ وكان بلومار وكورمييه قد بقيا في الثكنة ؛ أما الآخرون فقد عادوا الى أفراسهم وهم يتبادلون النظر في غير ما اطمئنان ؛ كانت بهم رغبة لأن يضحكوا وان يغضبوا ، وكانوا يحسّون انهم فارغون كما يحدث في اليوم التالي للتبضّع . واقترب شابان من بقراته وربّت عليهما بيده ؛ وكانت أخطامها وصدورها ملأى باللعاب ، وفكّر بحزن : « لو كنت عرفت ، لما اتعبتها الى هذا الحدّ . » وسأل بولاي من وراء ظهره : « ماذا نفعل ؟ » فقال شابان : « لا نستطيع ان نعود فوراً . يجب ان ندع الحيوانات تستريح . » وكان فرينيو ينظر الى الثكنة ، فيعيد له ذلك ذكريات ، وقد لكز شابان بمرفقه وقال وهو يضحك بالخفاء : « قل لي ! ما رأيك في ان نذهب ؟ » فسأله شابان : « الى اين تريد ان تذهب يا بنيّ ؟ » فقال فرينيو : « الى الماخور ! » فالتفّ حوله فتيان كريفيلي وأخذوا يوجهون ضربات خفيفة الى كتفيه وهم يضحكون : « فرينيو الملعون ! ان له دائماً افكاراً جيدة ! » وسُرّي عن شابان نفسه فقال : « انا اعرف المكان ، ايها الفتيان ؛ وليس لكم الا ان تعودوا الى العربة ، وسوف اقودكم ! »

الساعة ٨،٣٠ : كان متزلج يطوف حول المقفز ، يجرّه قارب آلي ، وكان ماتيو يسمع بين لحظة واخرى هدير المحرّك ، ثم يبتعد القارب ، فيصبح المتزلّج نقطة سوداء ، ولا يُسمع شيء بعد . وكان البحر المنبسط ، القاسي ، الابيض يبدو حلبة تزلج مقفرة . وعما قليل سيزرقّ ويخفق ويصبح مائعاً وعميقاً ، وسيكون اذ ذاك بحر الناس جميعاً ، مليئاً بالصراخ ، منقّطاً برؤوس صغيرة سوداء . واجتاز ماتيو السطيحة ، وحاذى المتنزّه لحظة . وكانت المقاهي ما تزال مغلقة ومرّت سيارتان . كان قد خرج على غير هدف محدّد : ليشتري

الجريدة ، وليشم رائحة الفوقس والاوكالبتوس التي كانت تنتشر في المرفأ ، ثم ليقتل الوقت . وكانت اوديت ما تزال نائمة ، وكان جاك يشتغل حتى الساعة العاشرة . وانعطف في شارع تجاري كان يصعد نحو المحطة ، فصادفته فتاتان انكليزيتان تضحكان ، وكان اربعة اشخاص قد تجمّعوا حول منشور . فاقترب ماتيو : ان في ذلك إضاعة لبعض الوقت . وكان رجل قصير ذو لحية يهزّ رأسه . وقرأ ماتيو :

« بأمرٍ من وزير الدفاع الوطني والحرب ووزير الطيران ، يُدعى الضباط ونواب الضباط وأفراد فرق الاحتياط ، حاملو امر التجنيد او كراسته البيضاء ذات الرقم « ٢ » ، الى السير فوراً ودون ابطاء ومن غير ان ينتظروا اشعاراً فردياً ، للالتحاق بمركز الاستدعاء المسجل على امر التجنيد او الكراسة في الظروف التي توضحها هذه الوثيقة . السبت ٢٤ ايلول ١٩٣٨، الساعة التاسعة » .

« وزارة الدفاع الوطني والحرب والطيران »

وقال الرجل بلهجة تأنيب : « تت ، تت ، تت . » فابتسم له ماتيو وأعاد قراءة المنشور بانتباه : كان إحدى تلك الوثائق المضجرة ، ولكن المفيدة، التي كانت منذ حين من الزمن تملأ الصحف باسم « تصريح من وزارة الخارجية البريطانية » او « بلاغ من الكي دورسيه » وكان لا بدّ من قراءتها على دفعتين لإنجازها . وقرأ ماتيو : « للالتحاق بمركز الاستدعاء المسجل » وفكر : « ولكن معي الكراسة رقم ٢ ، أنا ! » وفجأة ، أخذ المنشور يصوّب اليه نظره ، فكان الأمر كما لو أن اسمه كان مكتوباً بالطبشور على الجدار ، مع شتائم وانذارات . مجنّد : كان ذلك على الجدار ، وربما كان كذلك يمكن قراءته على وجهه . واحمرّ وجهه ، وابتعد بسرعة « الكراسة ٢ . تلك هي . انني بسبيل ان أصبح انساناً ذا أهمية » سوف تنظر اليه اوديت بانفعال مكبوت ، وسيتخذ جاك هيئة يوم الأحد ويقول له « يا عزيزي، ليس

عندي ما اقوله لك . » ولكن مـــاتيو كان يُحس بأنه متواضع ، ولم تكن به رغبة لأن يصبح انساناً ذا أهمية . وانعطف الى اليسار في أول شارع برز له ، وحث الخطى : وكان على الرصيف الأيمن جمعٌ صغيرٌ معتم يضج امام منشور . في فرنسا كلها . اثنين اثنين . اربعة اربعة ، امام الوف من المناشير . ولا شك انه كان في كل جمعٍ شخص على الأقل يجسّ محفظته ودفتره العسكري عبر قماش سترته ، ويحسّ بأنه يصبح شخصـــاً ذا أهمية . شارع « لابوست » . منشوران . جمعان : كانوا ما يزالون يتحدثون عنه . ودلف الى زقاق طويل مظلم . وكان واثقاً من أن المنـــاشير الملوّنة قد وفرت هذا الزقاق على الأقل . كان وحيداً ، وكـــان يستطيع ان يفكر في نفسه . وفكّر : « هكذا . » كان كذلك . فهذا النهار المستدير الملآن الذي كان يموت من الشيخوخة، دون ريب ، هناك على الساحة ، في سلام ، كان يتمدّد فجأة كالسهم ، فينفذ الى الليل في ضجة ، ويتسلّل في الظلام ، في الدخان ، في الارياف المقفرة ، عبر خليط من المحاور ، فينسرب داخلها ، ولن يقف الا في آخر الليل ، في باريس ، على رصيف محطة ليون . وكانت انوارٌ كاذبة تلفّ النهار : تلك هي الانوار المقبلة للمحطات الليلية . وكان ألمٌ غامض يلفّ أعماق عينيه : ذلك هو ألم السهد القـــادم . ولم يكن ذلك ليضجره : فهذا او شيء آخر ... ولم يكن ذلك يسلّيه ايضاً : «مهما يكن من أمر ، فانه من نوع الحكاية والطابع البارز . » وفكر : « يجب ان أسأل عن موعد قطار مرسيليا . » وعاد الزقاق يقوده من جديد على طريق الكورنيش ، بغـــير إحساس منه . وأفضى فجأة الى نورٍ كبير فجلس على سطيحة مطعم كان يفتح لساعته . « فنجان قهوة والدليل . » وأقبل سيد ذو شارب فضيّ يجلس بالقرب منه . وكانت تصحبه امرأة ناضجة . وفتح السيد « كشّاف نيس » ، والتفتت السيدة الى البحر . ونظر اليها ماتيو لحظة ، وغدا حزيناً . وفكر : « ينبغي

أن أنظّم أعمالي . استقدام ايفيش الى باريس ، الى منزلي ، واعطاؤها وكالةً لتستطيع ان تقبض راتبي » وعاد رأس السيد يظهر فوق جريدته وقال : « انها الحرب . » فتنهدت السيدة من غير ان تجيب ؛ ونظر ماتيو الى وجنتي السيد الملتمعتين الملساوين ، وسترته التويدية ، وقميصه ذي الخطوط البنفسجية ، وفكر : « انها الحرب . » X

انها الحرب . وانفصل شيء ما لم يكن يتصل به بعد الا بخيط ، ثم تكوّم وسقط الى خلف . وكانت تلك حياته ؛ كانت ميتة . ميتة . والتفت ونظر اليها . كان فيغييه ميتاً ، وكان يبسط ذراعيه على الغطاء الأبيض ، وكانت ذبابة تعيش على جبينه ، وكان مستقبله يمتدّ على مدى النظر ، غير محدود ، خارج التناول ، ثابتاً كنظره الثابت تحت جفنيه الميتين . مستقبله : السلام ، مستقبل العالم ، مستقبل ماتيو . كان مستقبل ماتيو هنا ، مكشوفاً ، ثابتاً وزجاجياً ، خارج التناول . كان ماتيو جالساً الى طاولة في مقهى ، وكان يشرب ، وكان وراء مستقبله وكان ينظر اليه ويفكر : « السلام » وأرت السيدة فيرشو وجه فيغييه للممرضة ، وكانت مصابة بتشنّج العنق ، وكانت عيناها تؤلمانها ، وقالت: « كان رجلاً شجاعاً » ثم بحثت عن كلمة ، كلمة أفخم تصفه بها : كانت اقرب اقربائه ، وكان عليها ان تقرر . وجاءت كلمة «هادىء» على لسانها ، ولكنها لم تكن حاسمة بما فيه الكفاية . وقالت : « كان رجلاً سلمياً . » ثم صمتت . وفكر ماتيو : « لقد كان لي مستقبل سلمي . » مستقبل سلميّ : لقد احبّ ، وكره ، وتألم ، وكان المستقبل هنا ، حوله ، فوق رأسه ، في كل مكان ، كأنه محيط ، وكانت كل سورة من سوراته غضبه ، وكل مصيبة من مصائبه ،وكل ضحكة من ضحكاته تتغذى من هذا المستقبل الحاضر الذي لا يُرى . إن البسمة ، مجرد البسمة ، كانت رهناً على سلام الغد ، على سلام السنة القادمة ، على سلام العصر ؛ وإلاّ لما جرؤت قط على الابتسام .

كانت سنوات وسنوات من سلام المستقبل قد حطّت سلفاً على الأشياء فأنضجتها وذهّبتها ؛ فأن يأخذ المرء ساعته ، او مقبض باب ، او يد امرأة ، فذلك يعني انه يأخذ السلام بين يديه . وفترة ما بعد الحرب كانت بداءة ، بداءة السلم . وكان الناس يعيشونها على غير ما استعجال منهم ، كما يعيشون صباحاً . وكان « الجاز » بداءة ، والسينما التي احببتها كثيراً ، كانت بداءة . والسريالية . والشيوعية. وكنت متردداً، أتخير طويلاً ، فقد كانت لي سعة من الوقت . الوقت ، السلام : كانا امراً واحداً . اما الآن فان هذا المستقبل هنا ، ميت عند قدمي . وكان مستقبلاً زائفاً . خدعة . وكان ينظر الى هذه الاعوام العشرين التي عاشها بطيئة ، مشمسة ، سهلاً بحرياً ، وكان يراها الآن كما كانت : عدداً محدوداً من الأيام المضغوطة بين جدارين عاليين بلا أمل، فترةً مفهرسة ، ذات مقدمة وخاتمة ، ستُذكر في كتب التاريخ تحت عنوان « فترة ما بين الحربين » . عشرون عاماً : ١٩١٨ — ١٩٣٨ . عشرون عاماً فقط ! بالأمس ، كان ذلك يبدو أقصر وأطول في وقت واحد : ومهما يكن ، فما كان لامرىء ان يفكر بالعدّ ، ما دام ذلك لم يكن قد انتهى . اما الآن ، فقد انتهى . كان مستقبلاً زائفاً . كل ما عاشه الناس منذ عشرين عاماً ، عاشوه زائفاً . لقد كنّا مجدّين رصينين ، وقد حاولنا ان نفهم ، وها نحن ذا : كان لتلك الايام الجميلة مستقبل خفيّ أسود ، لقد كانت تخدعنا ، وكانت حربُ اليوم، « الحرب الجديدة الكبرى » تسرقها من تحتنا . كنا مخدوعين من غير ان نعرف ، كالأزواج المخدوعين . وها هي الحرب هنا الآن ، ان حياتي ميتة ؛ تلك كانت حياتي . يجب ان نبدأ كل شيء من جديد . وبحث عن مستقبل ، اي مستقبل ، ذلك الذي يولد من جديد اولاً ، في تلك الامسية التي قضاها في « بيروز » ، جالساً على السطيحة ، يأكل مثلجات بالمشمش وينظر بعيداً الى تلة « اسيز » الهادئه ، عبر

الغبار . إذن ، كان ينبغي ان يكتشف الحزب في احمرار الشمس الغاربة، لو أني استطعت ان أتبين في الشعاعات الحمر التي كانت تذهّب الطاولة والافريز ، نذير عاصفـة ودم ، لكانت هذه الشعاعات ملكي الآن ، وكان بامكاني على الأقل ان انقذ هذا . ولكني كنت بلا حذر ، وكان المرطّب يذوب على لساني ، وكنت افكر « ذهبٌ قديم ، حب ، مجدٌ صوفي » وقد فقدت كل شيء . كان الخادم يمرّ بين الطاولات ، فناداه ماتيو ، ودفع ثم نهض من غير ان يعرف تماماً ما كان يفعله . وخلّف حياته وراءه، لقد تبدّلت . واجتاز السطيحة ، وذهب يرتفق الدرابزون، مواجهاً البحر .

وكان يُحسّ انه كئيب خفيف : كان عارياً ؛ لقد سرقوا منه كل شيء . لم يبق لي شيء بعد ، حتى ولا ماضيّ . ولكنه كان ماضياً زائفاً ، وانا لست آسفاً عليه. وفكر : لقـد حرّروني من حياتي : وكانت حياة رديئة فاشلة ، مارسيل ، ايفيش ، دانيال ، حياة قذرة ، ولكن الامر لديّ الآن سواء ، ما دامت قد ماتت . فمنذ هذا الصباح، منذ ألصقوا هذه المناشير البيضاء على الجدران ، أصبحت جميع الحيوات فاشلة ، جميع الحيوات ميتة . فلو فعلت ما كنت أريد ، لو استطعت مرة ، مرة واحدة ، ان اكون حراً ، لكان هذا مع ذلك ، خديعة قذرة، لأني كنت أكون حراً من اجل السلام ، هذا السلام الخادع ،وكنت اكون الآن هنا ، مع ذلك ، مواجهاً البحر ، مستنداً الى هذا الدرابزون وخلف ظهري جميع المناشير البيضاء ؛ جميع هذه المناشير التي تتحدث عني ، على جميع جدران فرنسا ، والتي تقول ان حياتي قد ماتت ، وانه لم يكن ثمة سلامٌ قط : فما كانت بي حاجةٌ لان أجهد هذا الجهد كله ، ما كانت بي حاجة لان اشعر بهذا الندم كلّه . البحر،الشاطيء، الحيات ، الدرابزون : باردة ، ليس فيها دم . كانت قد فقدت مستقبلها القديم ، ولم تكن قد اعطيت بعـد مستقبلاً جديداً ، كانت تطفو في

الحاضر . كان ماتوران يطفو حياً بعد العاصفة ، عارياً فوق شاطيء ، وسط الاسماك الممتلئة بالماء ، وسط الصناديق المبقورة ، والأشياء التي ليس لها استعمال معين والتي لفظها البحر . وخرج شاب أسمر من خيمة، وكان يبدو هادئاً فارغاً ، فنظر الى البحر متردداً : حيّ بعد العاصفة، اننا جميعاً احياء بعد العاصفة،وكان الضباط الألمان يبتسمون ويسلّمون ، وكان المحرّك يدور ، وكانت المروحة تدور ، وحيّا شمبرلن وابتسم،ثم استدار ووضع قدمه على السلم .

المنفى في بابل ، اللعنة على اسرائيل وحائط المبكي ، لم يكن قد تغيّر شيء على الشعب اليهودي منذ كان ابناؤه يمرّون مقيّدين بين ابراج آشور الحمر ، تحت انظار الفاتحين القساة ذوي اللحى المجعّدة ؛ وكان شالوم ينطنط وسط هؤلاء الرجال ذوي الشعر الاسود والحلق القاسي . وكان يفكر بأنه لم يتغيّر شيء . كان شالوم يفكر بجورج ليفي . كان يفكر : اننا لا نملك بعد حسّ التضامن فيما بين اليهود ، تلك هي اللعنة الالهيّة الحقيقية ، وكان يشعر انه سريع التأثر من غير ان يكون ذا مزاج رديء جداً ، لأنه رأى على الجدران هذه المناشير البيضاء . وكان قد طلب عوناً من جورج ليفي ، ولكن جورج ليفي كان رجلاً صلباً ، يهودياً ألزاسياً : فهو قد رفض ، لم يرفض تماماً ، وانما هو همدر ولوى ذراعيه ، وتحدث عن امه العجوز ، وعن الازمة ؛ ولكن الناس جميعاً كانوا يعرفون انه يحتقر امه ، وانه لم يكن ثمة ازمة في مبيع الفراء . وقد أخذ شالوم هو ايضاً يهمدر ، ورفع ذراعيه المرتعشتين الى السماء ، وكان قد تحدث عن الهجرة الجديدة وعن اليهود المساكين المهاجرين الذين تألموا عن جميع الآخرين، تألموا في اجسامهم ، وكان ليفي رجلاً صلباً ، غنياً لئيماً ، فاذا هو يهمدر اقوى من ذي قبل ، ويدفع شالوم الى الباب ، بيده الضخمة ، وهو يزفر في أنفه ؛ وكان شالوم يهمدر وهو يتقهقر ، وذراعاه في الهواء ، وكانت به

رغبة لأن يبتسم،لأنه كان يفكر في المزاح الذي كان العمال يتبادلونه ولا شك ، خلف الباب . وعند زاوية شارع « كاتر سبتمبر » كانت تقوم ملحمة برّاقة وغنيّة ؛ فتوقف شالوم مسحوراً ، وهو ينظر الى الأمصرة المجمّدة ، والى المعجّنات الجافـــة والى سبحات المقانق ذات اللون النحاسي البرّاق والى الامعاء المنتفخة المجعّدة بشروجها الصغيرة الموردة ، ويفكر في ملاحم فيينا . وكان يتحاشى مـــا وسعه ذلك ان يأكل لحم الخنزير ، ولكن المهاجرين المساكين مضطرون الى ان يغتذوا بما يجدون . وحين خرج من الملحمة كان يحمل باصبعه خيطاً ورديا مربوطاً بعلبة صغيرة يخيّل الى الناظر انها ، لشدة بياضهـــا ودقتها ، علبة حلويات.وكان مستاء . كان يفكر : « ان جميع الفرنسيين اغنياء لؤماء » أغنى شعب في اوروبا كلها . ودلف شالوم الى شارع « كاتر سبتمبر » وهو يستنزل لعنة السماء على الاغنياء اللؤماء ، فرأى بطرف عينه ، كما لو ان السماء استجابت لدعوته ، فريقاً من الفرنسيين الجامدين البكم امام منشور ابيض . فحاذاهم وهو يخفض نظره ويقرص شفتيه ، لأنه لم يكن مستحبا في هذه اللحظة ان يُفاجأ يهودي مسكين وهو يبتسم في شوارع باريس . بيرنانشاتز ، جوهريّ : كان هنا حانوته . وتردّد لحظة ، وقبل ان يمرّ بالباب الكبير ، أدخل علبته في محفظته . وكانت المحركات تدور ، وتدور ، وتهدر ، وكانت الارض الخشبية تهتزّ ، وكانت رائحة اثير وبنزين تتصاعـــد ، وكان الاوتوكار يغرق في اللهب ، « اوه ! انك اذن جبار يا بيار ! » وكانت الطائرة تسبح في الشمس ، وكان دانيال يربّت على المنشور بطرف عصاه ويقول : « انني هادىء جداً ، ولسنا من البلاهـــة بحيث نذهب للقتال بـــلا طائرات . » وكانت الطائرة تمرّ فوق الاشجار ، فوقها تماماً ، ورفع الدكتور شميت رأسه ، وكان المحرك يهدر ، فرأى الطائرة بين الغصون، لعب ميكة في السماء ، وفكر : « رحلة ميمونة ، رحلة ميمونة ! »

وابتسم ؛ وكان العرب مركومين في قعر السيارة، مهزومين، مستسلمين ، مزرقين ، وخرج من الكوخ زنجي صغير ، فلوّح بيده ونظر طويلاً الى السيارة الكبيرة الراحلة ، لقد رأيت اليهودي القصير ، فقد اشترى مني اوقية مقانق ، لا غير ، وكنت اظن انهم لم يكونوا يأكلون لحم الخنزير ! وعاد الزنجي الصغير والمترجم فدخلا بخطى بطيئة ، وما يزال رأساهما ممتلئين بصخب المحركات . وكان ثمة طاولة حديدية مستديرة ، مطلية باللون الاخضر ، وفي وسطها ثقب ليستقرّ فيه ساعد المظلّة ، وكانت مبقّعة هنا وهناك بلون اسمر ، كالإجاصة ، وكانت الجريدة على الطاولة « لوبوتي نيسوا » ، ولم تكن مفتوحة . وسعل ماتيو ، وكانت جالسة بالقرب من الطاولة ، وكانت قد تناولت فطور الصباح في الحديقة ، كيف تراني سأخبرها الخبر ؟ لا مجال للمشاكل على الاطلاق ، فليتها تستطيع ان تسكت ، كلا ، ان السكوت هو ايضاً اكثر مما ينبغي ، ليتها تستطيع ان تنهض وتقول : « إذن ، سأعدّ لكم سندويشات للسفر . » بكل بساطة . كانت ترتدي مغطف النوم ، وكانت تقرأ بريدها . وقالت له : « ان جاك لم يهبط . لقد عمل الى ساعة متأخرة هذه الليلة . » كلما كانا يلتقيان من جديد ، كانت كلماتها الاولى دائماً عن جاك ، وبعد ذلك يصبح غير وارد اطلاقاً . وابتسم ماتيو وسعل . وقالت : « إجلس ، ان هناك رسالتين لك . » وتناول الرسالتين ، وسأل :

— هل قرأت الجريدة ؟

— لم اقرأها بعد . لقد حملتها ماريت مع البريد ، ولم اقرر بعد ان افتحها . انني لم أكن مغرمة قط بقراءة الجرائد ، أما الآن فانني أشمئز منهـا .

وكان ماتيو يبتسم ويهزّ برأسه موافقاً، ولكن أسنانه ظلّت مضغوطة . وكان قد حلّ بينهما ما حل في المرة السابقة . كان حسبها ان يريا

إعلاناً على جدار ، ليحلّ بينهما ما حلّ في المرة السابقة : لقد عادت فأصبحت امرأة جاك،ولم يكن يجد بعد ما يقوله لها . وفكر : « فخذ خنزير نيء ، هذا ما احبّه للسفر . »

وقالت اوديت بحيوية :

— اقرأ ، اقرأ رسائلك ، ولا تهتمّ بي . والحق ان عليّ ان اصعد لأرتدي ثيابي »

وتناول ماتيو الرسالة الاولى التي كانت تحمل طابع بياريتز ، وكان ذلك في الواقـــع كسباً للحظة قصـــيرة . حتى اذا نهضت قال لها : « بالمناسبة ، انني ذاهب .. » لا ، ان ذلك سيبدو عاريـــاً اكثر مما ينبغي . « انني ذاهب . » هذا أفضل : « انني ذاهب . » وعرف خطّ بوريس وفكّر في أسف : « مضى أكثر من شهر من غير ان اكتب له . » وكان المغلّف يحتوي بطاقـــة رسالة . وكان بوريس قد كتب عنوانه الخاص ووضع طابعاً على نصف البطاقة الأيسر . أما على اليمين ، فقد كتب عدة أسطر :

« عزيزي بوريس .

انـــني في حالة { جيدة [1] / سيئة }

وهذا هو سبب صمتي : غيظ مشروع ، غـــير مشروع ، ارادة سيئة ، انقلاب مفاجيء ، جنون ، مرض ، كسل ، مجرّد خجل[2] ؛

سأكتب لك رسالة طويلة بعد ..... ايام .

وتفضّل بقبول اعتذاراتي العميقة والتعبير عن صداقتي المستغفرة ؛

التوقيع :

قالت اوديت : — اراك تضحك وحدك ؛

---

١ — إحذف الكلمة التي لا لزوم لها

٢ انظر الهامش السابق ·

قال ماتيو : — انه بوريس : هو في بياريتز مع لولا.
وبسط لها الرسالة فأخذت هي ايضاً تضحك ، وقالت :
— إن ذلك الشخص لطيف . هل هو ... هل هو في سنّ ... ؟
قال ماتيــو : — إنه في التـاسعة عشرة . ذلك متوقف على مدة الحرب .
ونظرت اليه اوديت في رقة ، وقالت له :
— إن تلامذتك يأكلون حساءهم على رأسك .
وكان التحدث اليها يصعب شيئاً فشيئاً . وفضّ ماتيو الرسالة الاخرى وكانت من غوميز ، زوج ساره . ولم يكن ماتيو قد رآه مرة اخرى منذ ذهــابه الى اسبانيا . كان قد أصبح الآن كولـونيلاً في الجيش النظامي .
« عزيزي ماتيو .
« جئت في مهمة الى مارسيليا حيث لقيتني ساره والطفل . وانا مسافر ثانيــة يوم الثلاثاء ، ولكني اود ان اراك . انتظرني في قطار الساعة الرابعة يوم الاحد واحجز لي غرفــة في اي مكان ، وسأتدبر امري لاقوم بوثبة الى « جوان ليبان » . إن لدينا اشياء كثيرة نريد ان نتبادل الكلام فيها . مع ودّي .

غوميز »

وضع ماتيو الرسالة في جيبه ، وكان يفكّر في تململ « غداً السبت أكون قد ذهبت . » وكانت به رغبة لان يرى غوميز من جديد ؛ إنه في هذه الفترة الصديق الوحيد الذي يرغب في رؤيته : إن هذا كان يعرف قليلاً ما عساها تكون الحرب . « ربمـا استطعت ان ألقاه مرة اخرى في مارسيليا ، بين قطارين .. » وسحب الرسالة من جيبه وقد غدت مدعوكة : إن غوميز لم يكن قد ترك فيها عنوانه . وهزّ ماتيو كتفيه في انزعاج ،وألقى بالرسالة على الطاولة ؛ كان غوميز قــد ظلّ

شبيهاً لنفسه ، بالرغم من انه أصبح كولونيلا : متغطرساً وعــاجزاً .
وكانت اوديت قد قررت ان نفتح الجريدة ، فأمسكت بها في الهواء ، في طرف ذراعيها الجميلتين المتباعدتين ، وراحت تجيل فيها نظرها بعناية، ثم قالت :

— اوه !

والتفتت الى ماتيو وسألته بلهجة خفيفة :

— ولكن انت ، لا تملك الكراسة ٢ ؟

فأحسّ ماتيو بأن وجهه يحمرّ ، وطرف بعينيه وقال مضطرباً :

— بلى .

وكانت اوديت تنظر اليه في قسوة ، كما لو أنه كان مذنباً . وأضافت بسرعة :

— ولكني لن اذهب اليوم ، فأنا باقٍ ثمانياً واربعين ساعة بعد : إن هناك صديقاً قادماً لرؤيتي .

وأحسّ بالانفراج لهذا القرار المفاجيء : إنّ ذلك كان يؤجـل الامر الى اليوم التالي تقريباً : « إن بين « جوان ليبان » و « نانسي » طريقاً قصيرة ، فهم لن يحدثوا لي المشاكل بسبب تأخري بضع ساعات : » ولكن نظر اوديت لم يكن ليبرقّ، وقد كان هو يتخبط تحت هذا النظر، وكان يردّد : « سأبقى ثمانياً واربعين ساعة بعد ، سأبقى ثمانياً واربعين ساعة . » بينما كانت « ايلا بيرنانشاتز » تعقد ذراعيها الهزيلتين السمراوين حول عنق أبيها . وقالت ايلا بيرنانشاتز :

— كم انت حبّوب يا بابا الصغير !

ونهضت اوديت فجأة وقالت :

— انني اذن أتركك . يجب على اي حال ان ارتدي ثيابي ، وأعتقد ان جاك لن يلبث طويلاً حتى يهبط فيجتمع اليك .

ومضت وهي تشد معطف النوم على خاصرتيهــا الدقيقتين ، وفكر

ماتيو : « لقد كانت متحفظـــة ، أجل ، كانت متحفظة » وأحسّ شعوراً من العرفان بداخله . يا لها من فتاة جميلة ، يا لهـا من طائشة صغيرة جميلة ، ودفعها وهو يوسّع عينيه ، وكان « وايس » واقفاً بالقرب من الباب ، وكانت تبدو عليه بهجة يوم الاحد . وقال السيد بيرنانشاتز وهو يمسح خدّه :

– انك تلوثينني ، وتتركين على وجهي آثار الاحمر . يا لك من وجه مخلوط !

وأخذت تضحك :

– انت تخاف مما قد تفكر به الضاربات على الآلة الكاتبة عندك ! إذن خذ ! خذ ! خذ !

وقبّلته في أنفه ، ثم أحسّ شفتيها الحارتين على جمجمته . فقبض عليها من كتفيها وأبعدها على مدى ذراعيه الطويلتين . وكانت تضحك وتتخبّط ، وكان يفكر : يا للفتاة الجميلة ، الفتاة الصغيرة الجميلة ، وكانت الام سمينة رخوة ذات عينين واسعتين ومستسلمتين كانتـا تشعرانه بالانزعاج ، أما « إيلا » فكانت تنتسب اليه ، وكانت على الاخص لا تنتسب لاحد ، فهي قد صنعت نفسها ، وفي باريس ، إنني اقول لهم دائماً : العِرْق ، ما هو العرق ؟ هل تظنون « إيلا » يهودية اذا التقيتم بها في الطريق ؟ انها دقيقة كالباريسية ، ذات بشرة حارّة كفتيات الجنوب ، ووجه صغير متعقّل ومتحمّس ، وجه متوازن ، مريح ، بلا عاهة ، ولا عرق ، ولا مصير ، وجه « فرنسي » حقيقي » .

وتركها وتناول علبة الجواهر من على المكتب فمدّها لها وقال : «خذي» وفيما كانت تنظر الى الجواهر ، أضاف :

– في العام القادم ستصبح أضخم مرتين ، ولكنها ستكون الاخيرة : فان العقد سيكون قد انتهى .

ولرادت مرة اخرى ان تعانقه ، ولكنه قال لها : « هيا ! عيد

سعيد ، عيد سعيد ! أهربي بسرعة ، فسوف تتأخــرين عن ساعة الدرس . »

ومضت وهي ترمي ببسمة لـ « وايس » : صبيّـــة أغلقت الباب فاجتازت مكتب السكرتيرات ، وذهبت ، بيــنما فكّر شالوم ، وهو جالس على أطراف فخذيه ، وقبعته على ركبتيه : يا للفتاة اليهودية الجميلة ! كان لها رأس قرد صغير ، يتجمّع كلّه الى الامام، ويمكن إمساكه في جوف يد ، وعينان كبيرتان حسيرتان ، جميلتان جداً ، ولا بدّ انها ابنة بيرنانشاتز . وقام شالوم وألقى تحية صغيرة لم يبد عليها انها لاحظتها . وعاد فجلس وفكر : يبدو عليها انها اذكى مما ينبغي ، اننا هكذا ، نحن الآخرين ، إن تعابيرنا مطبوعة بالحديد الأحمر عــلى سحنتنا ؛ فكأننا نعانيها كعذاب الاستشهاد. وكان السيد بيرنانشاتز يفكر بالجواهر ويقول لنفسه : « ليس هذا تثميراً سيئاً لها . » كانت تساوي مئة ورقة ، وفكر بأن « ايلا » كانت قد قبلتها على غير حماس بالغ ، او لامبالاة : كانت تعرف ثمن الاشياء ، ولكنها كانت تجـد من الطبيعي ان تملك المال ، وان تتلقى هدايا جميلة ، وان تكون سعيدة . يا إلـهي ، اذا لم أفعل انا غير هذا ، مع المرأة التي عندي ، وخلفي جميع عجائز كاركوفيا ، اذا لم انجح الا في انجاب هذه الصبية الصغيرة، ابنة يهود بولونيين ، لا ترهق نفسهــا اكثر مما ينبغي ، ولا تتسلّى بأن تعذّب نفسها ، صبية وتجد من الطبيعي ان تكون سعيدة، فأحسب اني لم أضع وقتي هدراً . والتفت الى وايس وسأله :

ـ أتدري اين هي ذاهبة ؟ انني أعطيك الفاً . أهي ذاهبة الى محاضرة في السوربون ؟ ان ذلك عجيبة من العجائب !

فابتسم وايس بغموض من غير ان يتخلى عن هيئته المستعارة ، وقال:

ـ لقد جئت اودّعك يا معلم .

فتأمله السيد بيرنانشاتز من فوق نظارتيه :

– هل انت ذاهب ؟

فهزّ وايس رأسه بالايجاب ، ونظـــر اليه السيد بيرنانشاتز بعينين واسعتين :

– كنت على يقين من ذلك ! انت من البلاهة بما فيه الكفاية لتكون حاصلاً على الكراسة ٢ ، أليس كذلك ؟

فقال وايس مبتسماً : – هذا هو الواقع ، انا من البلاهة بما فيه الكفاية لأكون كذلك .

قال السيد بيرنانشاتز وهو يشبك ذراعيه : – انك اذن تضعني في وضع حرج . فما الذي سأفعله بدونك ؟

وردّد بشرود : « مـا الذي سأفعله بدونك ؟ مـــا الذي سأفعله بدونك ؟ » وكان يحاول ان يتذكر كم كان عدد أطفال وايس . وكان وايس يلحظ اليه بهيئة قلقة ، فقال :

– ستجد من يحل محلي طبعاً .

– آه لا ! سيكون عليّ ان أدفع لك من غير ان تعمل شيئـــاً ، وانت لا تريدني ان آخذ على عاتقي شخصاً آخر فوق هذا . إن مكانك ينتظرك ، يا بنيّ .

وكان الانفعال بادياً على وايس ، وكان يفرك أنفـــه وهو يحول عينيه ، وكان قبيحاً قبحاً فظيعاً . وقال :

– يا معلّم ...

فقاطعه السيد بيرنانشاتز : ان عبارات الشكر أمرٌ فاحش ، ثم انه لم يكن ليكنّ لوايس كثيراً من الودّ ، لأنه هو انما كان رجلاً يحمل مصيره على وجهه ، بعينيه اللمّاحتين ، وهذه الشفة السفلى الضخمة التي كانت ترتعش طيبةً ومرارة . وقال :

– حسناً ، حسناً . انك لن تترك المؤسسة ، بـــل ستمثلها امام السادة ضباط الارض . انت ملازم ، اليس كذلك ؟

فقال وايس : — بل انا نقيب :

ففكر بيرنانشاتز : « نقيب هالك ! » وكانت هيئة السعادة بادية على وايس ، وكانت اذناه الواسعتان قرمزيتين . نقيب هالك — وتلك هي الحرب ، النظام العسكري المتسلسل . وقال :

— اية حماقة ملعونة ، اليس كذلك ؟

فقال وايس : — هيم !

— أليست هي حماقة ؟

قال وايس : — بكل تأكيد . ولكني كنت أعني انها بالنسبة الينا ، ليست حماقة الى هذا الحد .

فسأله السيد بيرنانشاتز في دهشة :

— بالنسبة الينا ؟ بالنسبة الينا ؟ من تقصد ؟

فخفض وايس عينيه وقال :

— بالنسبة الينا ، نحن اليهود . فبعـــد الذي صنعوه ليهود المانيا ، نجد مبرّراً لنقاتل .

ومشى السيد بيرنانشاتز بضع خطى ، وكان منزعجاً ، فسأله :

— ماذا تعني : نحن اليهود ؟ انا لا اعرف ذلك . انني انا فرنسي ، فهل تحسّ نفسك يهودياً ؟

قال وايس : — ان قريبي من « غراتز » موجود في بيتي منــذ يوم الثلاثاء . وقد أراني ذراعيه . لقـــد حرقوه بسجائرهم من المرفق حتى الإبط .

فتوقف السيد بيرنانشاتز مبهوتاً ، وأمسك بمسند كرسيٍ بين يديه القويتين بينما ألهبه غضبٌ غامضٌ حتى أعماق عينيه ، وقال :

— ان الذين فعلوا ذلك ، الذين فعلوا ذلك ...

وكان وايس يبتسم ، فهدأ السيد بيرنانشاتز :

— ليس ذلك لأن قريبك يهودي يا وايس . وانمـــا لأنه انسان .

اني لا اطيق ان يُضطهد انسان . ولكن ، ما هو اليهودي ؟ انه انسان يعتبره الناس الآخرون يهودياً . خذ « ايلا » مثلاً . هــل تظنهــا يهودية ، اذا لم تكن تعرفها ؟

ولم يكن وايس يبدو مقتنعاً ، فتقــدم منه السيد بيرنانشاتز ولمس صدره بسبابته الممدودة :

– اسمع يا صغيري وايس ، هذا ما استطيع ان اقوله لك : لقد تركت بولونيا عام ١٩١٠ ، وقدمت الى فرنسا ، فتقبلوني فيها قبولاً حسناً ، ووجدتني فيها سعيداً ، فقلت لنفسي : حسناً ، ان فرنسا هي بلدي الآن . وفي عام ١٩١٤ جاءت الحرب . حسناً : قلت اني أخوض الحرب لأن هذا بلدي . وانا اعرف ما هي الحرب ، فقد كنت في طريق « شومان ديدام » . اما الآن فأقول لك : اني فرنسي ، لا يهودي فرنسي ، بل فرنسي . يهود برلين وفيينا ، يهود معسكرات الاعتقال ، ارثي لهم ، ويملأني غضباً ان افكر بأن هناك اناساً يُعذّبون . ولكن أصغ إليّ جيداً : ان كل ما استطيع ان افعله لأحول دون ان يُقتل فرنسي ، فرنسيّ واحد ، من اجلهم ، سوف أفعله ، انــي أحسّني أقرب الى اول شخص ألقاه الساعة في الشارع مني الى اخوالي في « لنز » او احفادي في كاركوفيا . ان قصص اليهود الألمان امرٌ لا يعنينا .

وكانت هيئة وايس تبدو غامضة وعنيدة ، فقال في بسمة مزرية :

– حتى ولو كان هذا صحيحاً يا معلم ، فانه يحسن بك ألاّ تقوله. ينبغي على الذين يذهبون للقتال ان يجدوا مبررات لذهابهم .

فأحسّ السيد بيرنانشاتز باحمرار الاضطراب يصعد الى وجنتيه . وفكر في أسف : « يا له من مسكين ! » وقال له فجأة :

– انت عــلى حق : انني لست إلاّ إنساناً سقيماً عاجزاً ، وليس لديّ ما أقوله عن هذه الحرب ما دمت لا اشارك فيها . متى تذهب؟

قال وايس : — في قطار الساعة السادسة عشرة والنصف .

— قطار اليوم ؟ وإذن ؟ ماذا تراك تفعل هنا ؟ إذهب ، اذهب بسرعة الى زوجتك . هل انت بحاجة الى مال ؟

— ليس في هذه الفترة ، أشكرك .

— إذهب ، وسوف تُرسل لي امرأتك فأدبّر معها كل شيء. هيا، هيا . وداعاً .

وفتح الباب ودفعه الى الخارج . وكان وايس يسلّم ويتمّم بعبارات شكر غير مفهومة . ولمح السيد بيرنانشاتز ، من فوق كتف وايس ، رجلاً جالساً في غرفة الانتظار ، وقبعته على كتفيه ، فعرف فيه شالوم وقطّب حاجبيه : انه لم يكن يُحبّ ان يُدعى الملتمسون الى الانتظار . وقال :

— ادخل . هل مضى وقت طويل وانت تنتظر ؟

فقال شالوم وهو يبتسم ابتسامة خضوع :

— نصف ساعة صغيرة . ولكن ما هي نصف الساعة ؟ انك مشغول جداً . اما انا ، فأملك الوقت كله . فما الذي افعله من الصباح حتى المساء ؟ انني انتظر . إن الحياة في المنفى ليست الا انتظاراً كما تعلم .

قال السيد بيرنانشاتز : — ادخل ، ادخل . كان عليهم ان يخبروني.

فدخل شالوم ، وكان يبتسم ويسلّم . ودخل السيد بيرنانشاتز خلفه وأغلق البـــاب . وكان يعرف شالوم تماماً : « لقد كان ذا شأن في الحركة النقابية البافـــارية . » وكان شالوم يزوره بين الفترة والفترة ، فيستدين منه الفين او ثلاثة آلاف فرنك ويختفي لبضعة اسابيع .

— خذ سيكاراً .

فقال شالوم وهو يقترب قليلاً : « انني لا ادخن » . وأخذ السيد بيرنانشاتز سيكاراً فأداره بين أصابعه ثم أعاده الى العلبة . وقال :

— إذن ؟ هل الامور عندك كما تروم ؟

وكان شالوم يبحث عن كرسي . فقال له السيد بيرنانشاتز في عجلة :

– اجلس ، اجلس .

لا . لم تكن لدى شالوم رغبة بالجلوس . واقترب من الكرسي فوضع محفظته على المقعد ليكون في وضع أيسر ، ثم التفت الى السيد بيرنانشاتز وأرسل أنّة طويلة منغمة وقال :

– آه ، إن الامور ليست قط على ما يرام . إنه لا يحسن بالانسان ان يعيش على أرض الآخرين ، فهم لا يتحملونـه الا على كره ، ويأخذون عليـه الخبز الذي يأكله . ويا لذلك الاحتراس الذي يقابلوننا به ، ذلك الاحتراس الفرنسي . حين اعود الى فيينا ستكون هذه هي الصورة التي أحفظها من فرنسا : سُلَّم مظلم يُرقى بمشقـّـة ، وزر يُضغط ، وباب يُفتح نصف فتحة : « ماذا تريد ؟ » ثم يُغلق . شرطة الغرف المفروشة ، دار البلدية ، الصف الطويل في مفوضية الشرطة. وهذا طبيعي اذا تعمقنا الموضوع ، فنحن في بلدهم . ومع ذلك فكّر قليلاً : إن بوسعهم ان يشغّلونا . فانا شخصياً لا أطلب الا ان اكون نافعاً لشيء . ولكن من يستطيع ان يجد عملاً محتاج الى بطاقة العمل ، ولكي يحصل المرء على بطاقـة العمل ، فيجب ان يكون مستخدماً في مكان ما . وهكذا لا استطيع ان اكسب قوتي ، ولو كنت مسلّحـاً بأعمق ارادة في العالم . ولعل هذا هو ما يشقّ عليّ احتماله اكثر من أي شيء آخر : أن اكون عبئاً على الآخرين . ولا سيما حـين يُشعرونك بذلك في مثل هذه القسوة . وكم من وقت ضـائع : كنت بدأت في كتابة مذكراتي ، وقد كان من شأن ذلك ان يعود عليّ ببعض المال . ولكن هناك كثيراً من الاعمال التي ينبغي ان تُعمل كل يوم : وهكذا كان لا بدّ لي من ان اترك كل شيء .

وكان قصيراً ، شديد الحيوية ، وكان قد وضع محفظته على الكرسي ، بينما كانت يداه المتحرّرتان تتطايران حول اذنيه الحمراوين : « ما أشد

ما تبدو عليه هيئة اليهودي ، ذلك الشخص . » واقترب السيد بيرنانشاتز من المرآة على غير اكتراث وألقى عليها نظرة سريعة : متر وثمانون ، انف أفطس ، رأس ملاكم اميركي تحت نظارتين سميكتين ؛ كلا ، لسنا من جنس واحد . ولكنه لم يكن يجرؤ على ان ينظر الى شالوم ، فقد كان يحس نفسه مشبوهــاً . « ليرحل . ليته يرحل على الفور » ولكن كان ينبغي الا يعول على ذلك . فان شالوم انما كان يتميز في نظره عن مجرد الشحاذ بطول زيارته وانتعــاش حديثه الفكه . وفكر السيد بيرنانشاتز : « يجب ان اتحدث » وكان لشالوم الحق في ذلك . كان له الحق باوراقه المالية الثلاث وبربع ساعة من الحديث . وجلس السيد بيرنانشاتز على حافة مكتبه . وكانت يده اليمنى التي ادخلهــا في جيب سترته تداعب علبة سكائره . وقال شالوم بصوت كان يصعــد ويتدحرج بلهجة نبوية ، بينما كان شعــاع من المرح يرتعش في عينيه الفاتحتين :

– إن الفرنسيين ناس قساة . ناس قساة . فالأجنبي هو في نظرهم مشبوه مبدئياً ، إن لم يكن مذنباً .

إنه يحدثني كما لو انني لم اكن فرنسياً . عجباً : انا يهودي، يهودي من بولونيا، وصلت الى فرنسا يوم ١٩ تموز ١٩١٠، ولا يذكر ذلك أحد هنا ، أما هو ، فلم ينس ذلك . يهودي كان محظوظــاً . والتفت الى شالوم فتأمله في غيظ . وكان شالوم يخفض رأسه قليلاً ويقدم له جبينه، بدافع الاحترام ، ولكنــه كان ينظر اليه مواجهة ، من تحت حاجبيه المقوسين . وكان ينظر اليه ، وكانت عيناه الكبيرتان الممتقعتان تريانه يهودياً . يهوديان ، في الظل ، معزولان جيداً في مكتب بشارع «كاتر سبتمبر» . يهوديان ، ضائعــان ؛ وحولهما ، في الشوارع وفي البيوت الاخرى ، ليس ثمة إلا فرنسيون . يهوديان ، السمين منهما أصاب النجاح، والقصير السيء التغذية لم يكن له حظ . لوريل وهاردي . وقال شالوم:

– انهم ناس قساة . ناس لا يعرفون الرحمة !

وهزّ السيد بيرنانشاتز كتفيه فجأة ، وقال بجفــاف : « يجب ان يضع المرء نفسه محلهم – ولم يستطع ان يقول : محلنا – اتدري كم تحوي فرنسا من الاجانب منذ ١٩٣٤ ؟ »

قال شالوم : – أعرف ، أعرف . وأجد ذلك شرفاً كبيراً لفرنسا؛ ولكن ما الذي تعمله لتستحقّه ؟ انظر : إن شبانها يعبرون الحي اللاتيني ، فاذا كان ثمة من يشبه يهودياً ، انقضّوا عليه بالقبضات .

فقال السيد بيرنانشاتز ملاحظاً :

– ان وزارة بلوم قد أساءت الينا كثيراً .

كان قد قال : الينا ، فأقرّ مشاركة هذا الاجنبي القصير . نحن . نحن اليهود ، ولكن ذلك كان بدافــع الإحسان . كانت عينا شالوم تتأملانه في إلحاح مبجّل . وكان هزيلاً وقصيراً ، وكانوا قد ضربوه وطردوه من بافاريا ، وها هو الآن هنا ، ولا بدّ انه ينام في فندق قذر ويقضي نهاره في المقهى ؛ وقد أحرقوا قريب وايس بسكائرهم ؛ وكان السيد بيرنانشاتز ينظر الى شالوم فيحس بأنه هو شخصياً مدبّق ، ولم يكن ما يشعر به نحوه وداً ، كلا : وانما كان ... كان ...

« كانت تنظر اليه ، وكانت تفكر : « انه رجل قاس . انهــم موسومون ، والحروب انما تقع بسببهم » ولكنها كانت تشعر بأن حبها القديم لم يكن ميتاً »

وكان السيد بيرنانشاتز يجسّ محفظته . وقال اخيراً بصوت خفيّ :

« مهما يكن من امر ، فلنأمل الاّ يدوم هذا اطول مما ينبغي . »

فغمز شالوم شفتيه ورفع رأسه الصغير بحيوية ،ففكر السيد بيرنانشاتز :

« لقد قمت بالحركة قبل اوانها . »

« رجل قاس . يأخذ النساء ويقتل الرجال ؛ يفكــر بأنه قويّ . ولكن ذلك غير صحيح . كل ما في الامر انه موسوم . »

وقال شالوم : – ان ذلك يتوقف على الفرنسيين . فاذا استعاد الفرنسيون حسّ رسالتهم التاريخية ...

فسأله السيد بيرنانشاتز ببرودة : – اية رسالة ؟

فالتمعت عينا شالوم بالحقد ، وقال بصوت قاسٍ وثاقب :

– ان المانيا تتحداهم وتهينهم بمختلف الاشكال ، فماذا ينتظرون ؟ أتراهم يعتقدون أن بإمكانهم إطفاء غضب هتلر ؟ ان كل تراجع جديد من فرنسا يطيل العهد النازي عشرة أعوام . وفي هذه الاثناء نكون هنا ، نحن الضحايا ، ننتظر ونحن نقضم قبضاتنا . لقد رأيت اليوم المناشير البيضاء على الجدران ، فداخلني بعض الامل . ولكني كنت حتى الأمس ما أزال افكر : لم يبق في عروق الفرنسيين دمٌ بعد ، وسوف أموت في المنفى .

يهوديان في مكتب بشارع « كاتر سبتمبر » . وجهة نظر اليهود في الاحداث العالمية . سوف تكتب جريدة « جوسوي بارتو » غداً : « ان اليهود هم الذين يدفعون فرنسا الى الحرب » . ونزع السيد بيرنانشاتز نظارتيه فمسحها بمنديله : كان ممتلأً من فرط الغضب . وسأل بلطف :

– واذا وقعت الحرب ، هل تخوضها ؟

فقال شالوم : – سيتطوع كثير من المهاجرين ، وانا من ذلك على يقين . (وأضاف وهو يشير الى جسمه الصغير المزيل) ولكن انظر اليّ : ايّ مجلس عسكري يرغب فيّ ؟

فقال السيد بيرنانشاتز بصوت هادر :

– اذن هل ستحلّ عن ظهرنا ؟ هل ستحلّ عن ظهرنا ؟ ماذا اتيت تفعل عندنا ؟ انني انا فرنسي ، ولست يهودياً ألمانياً . طز باليهود الالمان . اذهب فقُمْ بها في مكان آخر ، حربك هذه !

وتأمله شالوم لحظة في ذعر ، ثم استعاد بسمته المتواضعة ، ومدّ

يده فتناول محفظته واقترب من الباب وهو يمشي القهقرى . وسحب السيد بيرنانشاتز محفظة نقوده من جيبه وقال :

– انتظر .

وكان شالوم قد ادرك الباب ، فقال له :

– لست بحاجة لشيء . انني اطلب احياناً معونة من اليهود. ولكنك على حق : انت لست يهودياً ، وقد أخطأتُ العنوان .

وخرج ، فنظر السيد بيرنانشاتز طويلاً الى الباب من غير ان يأتي بحركة . « انه رجل قاس . ان لهم نجماً ،وهم ينجحون في كل شيء، ولكن الحرب تقع بسببهم . وكذلك الموت والعذاب بسببهم . انهم اللهب والحريق ، انهم يؤذون ، وقد آذاني ، وانا أحمله كشظيّة خشبية تحت أظافري ، وكحُمّة محرقة تحت أجفاني ، وكخَبث في قلبي . » هلذا ما تفكره بشأني . ولم تكن به حاجة لأن يذهب فيسألها في ذلك ، لقد كان يعرفها ، ولو كان بوسعه ان يدخل في هذا الرأس الاسود الفـطّ ، فانه واجدٌ في كل لحظة هذه الفكرة الثابتة الصلبة ، فانها قاسية ، على شاكلته ، انها لا تنسى ابداً . وكان ينحني ، وهو في المنامة ، فوق ساحة « جيلو » ، وكان الطقس ما يزال رطباً ، والسماء زرقاء فاتحة، رمادية لدى الاطراف،وكانت تلك هي الساعة التي يسيل فيها الماء على البلاط وعلى الوضم الخشبي لبائعي السمك،وكان ذلك يشعر بالرحيل والصباح ، الصباح ، عرض البحر الكبير ، وهناك ، الحياة بلا نـدم ، ودخان القنابل الخفيف المستدير على ارض كاتالونيا المشقّقـة . ولكن خلف ظهره ، خلف الشباك المفتوح ، في الغرفة الملأى بالنوم والليل ، كانت ثمة تلك الفكرة الميتة التي تترصده ، التي تدينه ، كان ثمـة ندمه : سوف يرحل غداً ، وسوف يعانقهم على رصيف المحطة ، وسوف تعود هي الى البيت مع الصغير ، وستهبط الدرج الضخم وهي تقفز ، وسوف تفكر : لقد رحل مرة اخرى الى اسبانيا : انها لن تغفر له

أبداً رحيله الى اسبانيا ، لقد كان ذلك جلداً ميتاً على قلبها . كان ينحني مطلاً على ساحة « جيلو » ليؤخر لحظة العودة الى الغرفة : كان بحاجة الى صُراخ ، والى اغنيات مريرة ، والى آلام عنيفة وقصيرة ، لا الى هذه العذوبة الفظيعة . وكان الماء يجري في الساحة . الماء وروائح الصباح المبتلة ، وصيحات الصباح الجبلية . وتحت شجر الدلب، كانت الساحة زلقة ، مائعة ، بيضاء خفيفة كسمكة في البحر . وفي هذا الليل ، كان زنجي قد غنى ، فبدا الليل ثقيلاً جافاً ، ليلاً اسبانياً . واغمض غوميز عينيه ، فأحس بشوق اسبانيا والحرب يخترقه عنيفاً قاسياً . انها لا تفهم ذلك . لا الليل ولا الصبح ولا الحرب .

كان بابلو يصرخ بأعلى صوته :

— بان ، بان ! بان ، بان ، بان ، بان !

والتفت غوميز ودخل الى الغرفة . وكان بابلو قد وضع قبعته ، واخذ بندقيته وراح يستعملها كما يستعمل مجموعة من السلاح . وكان يعدو عبر غرفة الفندق وهو يطلق في الفراغ طلقات هائلة كانت تفقده توازنه . وكانت ساره تتبعه بنظرها الميت . وقال غوميز :

— هذه مجزرة .

فأجاب بابلو من غير ان يكف : — انني أقتلهم جميعاً .

— من هم ، جميعاً ؟

كانت ساره جالسة على حافة السرير ، وهي في معطف النوم ، وكانت تلفق جورباً . قال بابلو :

— جميع الفاشيست .

فارتمى غوميز الى خلف وراح يضحك ، ثم قال :

— اقتلهم ، ولا تدع منهم احداً . وذلك الشخص ، هناك ، لقد نسيته .

فعاد بابلو في الاتجاه الذي اوماً اليه غوميز وخطط الهواء ببندقيته ؛

وقال :

– بان ، بان ! بان ، بان ، بان ! ليس من هدنة !

وتوقف والتفت الى غوميز وهو يلهث ، والرصانة والحماسة باديتان عليه . وقالت ساره :

– اوه ! انت ترى يا غوميز ! كيف استطعت ؟

وكان غوميز قد ابتاع عشية الامس مجموعة اسلحة لبابلو . وقال وهو يداعب رأس الصغير :

– يجب ان يتدرّب على القتال ، والاّ لأصبح جباناً كالفرنسيين .

فرفعت ساره عينيها اليه ، فرأى انه قد جرحها جرحاً عميقاً . وقالت :

– انني لا افهم كيف يُتهم الناس بالجبن لأنهم غير راغبين في القتال !

فقال غوميز :

– هناك فترات يجب ان يرغب الناس بها في القتال .

قالت ساره : – ابداً . في اي حال . ليس ثمّة ما يستحق ان اجد نفسي من اجله ذات يوم على الطريق ، وبيتي مهدم الى جانبي ، وطفلي مسحوق بين ذراعي .

فلم يجب غوميز . لم يكن ثمّة ما يُجاب به . كانت ساره على حق . من وجهة نظرها ، كانت على حق . ولكن وجهة نظر ساره كانت من الوجهات التي ينبغي إهمالها مبدئياً ، والاّ لما وصلنا ابداً الى شيء ما . وضحكت ساره ضحكة خفيفة مريرة :

– حين عرفتك يا غوميز ، كنت من دعاة السلام .

– ذلك انه كان ينبغي في تلك الفترة ان اكون من دعاة السلام . ان الهدف لم يتغيّر . وانما اختلفت الوسائل لبلوغ ذلك الهدف .

فصمتت ساره على اضطراب . وظلّ فمها مفترّاً ، وكانت شفتها

المتدلّية تكشف أسنانها النخرة . وراح بابلو يدير بندقيته حول رأسه وهو يصرخ :

– انتظر قليلاً ، أيها الفرنسي القذر ، ايها الفرنسي الجبان !

قالت ساره : – أترى ؟

فقال غوميز بحماسة : – بابلو، ينبغي ألاّ تطلق النار على الفرنسيين . ان الفرنسيين ليسوا فاشيست .

فصاح بابلو : – ان الفرنسيين جبناء .

واخذ يطلق على ستائر النافذة التي تطايرت متثاقلة . ولم تقل ساره شيئاً ، ولكن غوميز كان يؤثر لو لم ير النظرة التي رمت بها بابلو . لا ، لم تكن نظرة قاسية : وانما كانت بالاحرى نظرة دهشة وتردد ، كما لو انها ترى ابنها للمرة الاولى . وكانت قد وضعت على مقربة الجورب الذي كانت تلفقه ، وكانت تنظر الى هذا الاجنبي الصغير ، هذا الوحش الصغير السليم الذي كان يطلق على الرؤوس ويشجّ الجماجم ، ولا بدّ انها كانت تفكـــر مذعورة : « انا الذي صنعته » . وأحسّ غوميز بالخجل ، وفكر : « ثمانية ايام . كانت ثمانية ايام كافية . »

وقالت ساره فجأة : – غوميز ، هل تعتقد حقــاً بأن الحرب واقعة ؟

فقال غوميز : – ارجو . ارجو ان ينتهي الامر بهتلـــر الى قسر الفرنسيين على القتال .

قالت ساره : – أتعرف ما الذي ادركتُه يا غوميز هذه الايام ؟ أدركتُ ان الرجال أشرار .

فهز غوميز كتفيه :

– انهم ليسوا أشراراً ولا أخياراً . فكل امرىء يتبع صالحه .

قالت ساره : – لا ، لا . انهم أشرار .

ولم تكن تنزع بصرها عن بابلو الصغير ، وكان يبدو انها تتنبّأ له

بمدره ، وأضافت :
– أشرار ، ومندفعون لايذاء بعضهم .
قل غوميز : – لست شريراً .
فقالت ساره من غير ان تنظر اليه :
– بلى ، انت شرير ، يا عزيزي غوميز ، انت شرير جداً . وليس لك من عذر : فان الآخرين أشقياء . اما انت ، فشرير وسعيد .
وسادت لحظة صمت طويلة . وكان غوميز ينظر الى تلك الرقبة القصيرة السمينة ، والى هذا الجسم الذي فقد رونقه والذي امسكت به ذراعاه طوال الليالي ، وكان يفكر : « انها لا تكنّ لي الودّ ، ولا اللطف . ولا الاحترام . انها تحبني ، بكل بساطة ، فأينا أشدّ شراً من الآخر؟»
على ان الندم ما لبث ان استبد به فجأة : لقد وصـــل ذات مساء من برشلونة سعيداً ، هذا صحيح ، سعيداً جداً . وكان قد أخذ اذناً لثمانية ايام ، وكان سيرجع في الغد . وفكر : « لست انساناً طيباً . »
– هل هناك ماء حارّ ؟
فقالت ساره : – ماء فاتر . الصنبور الأيسر .
قال غوميز : – حسناً . سأحلق ذقني .
ودخل غرفة التواليت تاركاً الباب مفتوحاً على مصراعيـــه ، فأجرى الماء واختار شفرة ، وفكّر : « حين أذهب ، ستنفذ ذخيرة الاسلحة في وقت قصير . » ولا شك في ان ساره ، بعد ذهابه ، ستخفيها في خزانة الادوية الكبيرة ، الاّ اذا وجدت من الأيسر ان تنساها هنـــا . وفكّر : « انها لن تعلّمه الا على ألعاب البنات » ترى متّى يشاهــد بابلو مرة اخرى ، وماذا تراها تكون قد صنعت به ؟ ان هيئة الصبي على اي حال ، هيئة مقاومة ! واقترب من المغسلة ، ورآهما عبر المرآة : كان بابلو واقفاً في وسط الغرفة ، لاهثاً ، متورداً ، متباعد الساقين ، ويداه في جيبه . اما ساره ، فكانت قد جثت امامه تنظر اليه من غير

ان تنبس بكلمة . وفكر غوميز : « تريد ان تعرف ان كان يشبهني» ؛ وأحسّ بالضيق فأغلق الباب من غير ضجة .

« ... لحقت بي مع الصغير . انتظرني في قطار الساعة الرابعة يوم الأحد واحجز لي ... » وحطّت يدٌ قوية على كتفه اليسرى ، ويدٌ اخرى على كتفه اليمنى . ضغطةٌ حارّة وودية . هوذا اذن : وأعاد الرسالة الى جيبه ورفع عينيه .

– مرحباً .

قال جاك وهو يغرق نظره في عيني ماتيو :

– لقد قالت لي اوديت ... يا عزيزي المسكين !

ومن غير ان ينتزع عينيه عن أخيه ، جلس في الاريكة التي غادرتها اوديت منذ لحظة ؛ وشدّت يدٌ لا تكاد تنتسب اليه بنطلونه ببراعة ، واشتبكت ساقاه وحدهما . كان يجهل هذه الاحداث المحلية الدقيقة : فهو لم يكن بعد الا نظرة . قال ماتيو :

– انني لن اذهب اليوم ، كما قد لا تعلم .

– أعرف ذلك . ألا تخشى ان يسببوا لك المتاعب ؟

– اوه .. قضية بضع ساعات ...

وتنفّس جاك بعمق :

– ماذا تريد ان أقول لك ؟ في الزمن الماضي ، كان بالامكان ان يقال لمن يرحل الى القتال : دافع عن اولادك ، دافع عن حريتك او بيتك ، دافع عن فرنسا . كان بالامكان على اي حال ايجاد اعذار ليجازف بنفسه . اما اليوم ...

وهزّ كتفيه . وكان ماتيو قد خفض رأسه وراح ينكث الارض بكعبه . وقال جاك بصوت نفّاذ :

– اراك لا تجيب . انك تؤثر الاّ تتكلم خشية ان تقول اكثر مما ينبغي قوله . ولكني اعرف ما تفكر به : قل .

وكان ماتيو ما يزال يحكّ حذاءه بالأرض . فقال من غير ان يرفع رأسه :

– كلا ، انك لا تعرفه .

ومضت فترة صمت قصيرة ، ثم سمع صوت اخيه المتردّد :

– ماذا تعني ؟

– انني لا افكر في شيء على الاطلاق .

فقال جاك في انزعاج لم يكد يبين :

– قد يكون هـذا ، انك لا تفكر في شيء ، ولكنك يائس ، فالأمران سيّان .

وجهد ماتيو في ان يرفع رأسه ويبتسم :

– بل اني لست يائساً كذلك .

قال جـاك : – مهما يكن ، فانك لن تقنعني بانك ذاهبٌ وانت مستسلم ، كالخروف الذي يُساق الى المسلخ ؟ /

قال ماتيو : – الواقع اني ، مع ذلك ، اشبه قليلاً ، هذا الخروف ، الا ترى ذلك ؟ انا ذاهب لأني لا استطيع ان افعل شيئاً آخر . وان تكون هذه الحرب عادلة او غير عادلة ، بعد ذلك ، فهذا في نظري أمرٌ ثانوي جداً .

وقلب جاك رأسه الى خلف ليتأمل ماتيو بعينيه نصف المغمضتين :

– انك يا ماتيو تدهشني : تدهشني بصورة هائلة ، فانا لم أعـد أعرفك . كيف ؟ كان لي أخٌ متمرّد ، وقح ، لاذع ، لا يريـد قط ان يكون مخدوعاً ، ولا يستطيع ان يرفع خنصره من غير ان يبحث لماذا يرفع خنصره ولا يرفع سبابته ، خنصر اليد اليمنى لا خنصر اليد اليسرى . وهنا تأتي الحرب ، فيرسلونه في الخط الامامي ، ويذهب متمرّدي ومحطّم الصحون الذي اعرفه ، يذهب بكل وداعة ، من غير ان يتساءل ، وهو يقول : انا ذاهب لأني لا استطيع ان افعل شيئاً آخر .

قال ماتيو : — ليس الذنب ذنبي فأنا لم استطع قط ان انجح في تكوين رأي لي حول هذا النوع من المسائل .

فقال جاك : — ولكن المسألة واضحة: اننا أمام سيد — واقصد به بنيش — يتعهّد تعهداً جازماً بأن يجعل من تشيكوسلوفاكيا اتحاداً على الطراز السويسري . لقد التزم ذلك ، وهذا ما قرأته في محاضر جلسات مؤتمر السلام ، وانت ترى اني اذكر لك مصادري . وكان هذا الوعد يعني منح ألمان السوديت سيادة حقيقية اتنوغرافية . حسناً . ولكن هـذا السيد ينسى، تعهداته تماماً ، فينصب تشيكيين على الألمان يديرونهم ويحكمونهم ويراقبونهم . والألمان لا يحبون ذلك : وهذا حقهم الصريح . لا سيما واني اعرفهم ، انا ، هـؤلاء الموظفين التشيكيـين ، فقد كنت في تشيكوسلوفاكيا : كم هم مزعجون ! واذن ، فالمراد هـو ان تريق فرنسا ، وهي بلد الحرية كما يقولون ، دمها ليستمرّ الموظفون التشيكيون في ممارسة عنتهم على السكان الألمان ، ومن أجل هذا تراك انت ، استاذ الفلسفة في ليسيه باستور ، ذاهباً لتقضي آخر سنوات شبابك على عمق عشرة اقدام تحت الارض ، بين « بتنش » و « و يسمبورغ » . فاذا اتيت تقول لي بأنك ذاهب في استسلام ، وانه لا يهمك كثيراً ان تكون هذه الحرب عادلة او غير عادلة ، فان ذلك يغيظني قليلاً .

كان ماتيـو ينظر الى اخيه في تململ ؛ وكان يفكر : « سيادة اتنوغرافية ، ما كنت لافكر في هذا ابداً » ومع ذلك ، فقد قال ، إراحة لضميره :

— ليست هي السيادة الاتنوغرافية ما يريده السوديت الآن ، وانما يريدون الارتباط بالمانيا .

فبدت على وجه جاك كزازة ألم :

— ارجوك يا ماتيو ، لا تتكلم كحارس بنايتنا ، ولا تسمّهم السوديت . فالسوديت هي جبال . وانما قل : ألمان السوديت اذا اردت ، او الألمان

فقط . ماذا إذن ؟ يريدون الارتباط بالمانيا ؟ ذلك لأنهم قد دُفعوا حتى نفد صبرهم . فلو انهم أُعطـوا في البدء ما كانوا يطلبون ، لما بلغنا ما نحن فيه الآن . ولكن بنيش قد خدع وتثعلب لأن بعض الأعيان الطراطير عندنا تورطوا فجعلوه يعتقد بأن فرنسا تقف وراءه : وهذه هي النتيجة .

ونظر الى ماتيو في حزن وأضاف :

– قد أحتمـل هذا كلّه : فاني اعرف منذ وقت طويل ما الذي يساويه السياسيون . اما ان تفقد انت الرجل العاقل ، الجامعي ، حسن ردود الفعل البدائية بحيث تنقل اليّ بكل هدوء بأنك ذاهب الى المسلخ لأنك لا تستطيع ان تفعل شيئاً آخر ، فاني لا أستطيع ان أحتمل ذلك. فاذا كنتم كثيرين تفكرون على هذا النحو ، فان فرنسا هالكة يا عزيزي المسكين !

فسأله ماتيو : – ولكن ما الذي تريدنا ان نفعله ؟

– ماذا ؟ اننا ما زلنا ، يا ماتيو ، في عهد ديموقراطي . واعتقد انه ما يزال في فرنسا رأيٌ عام .

– وبعد ذلك ؟

– حسناً ! لو أن ملايين من الفرنسيين ، بدلاً من ان يستنفـدوا قواهم في منازعات عابثة ، انتصبوا جميعاً ليقولوا لحكامنا : « إن الذين السوديت يريدون العودة الى احضان جرمانيا ؟ فليعودوا إليهـا : فهذا انما يعنيهم وحدهم ! » لما وُجد رجل سياسي واحد يجازف باشعال حرب من أجل هذه الترّهة .

ووضع يده على ركبة ماتيو وأضاف بلهجة مصالحة :

– انا اعرف انك لا تحب العهـد الهتلري . ولكن يمكن للناس مع ذلك الاّ يقاسموك آراءك المسبقة ضده : فهو عهد فتيّ ناشط قدّم دلّته ، وهو يمارس على امم اوروبا الوسطى جاذبية لا جدال فيها .

ثم إن هذه ، على أي حال ، قضيتهم : فليس لنا ان نتدخل فيها.
وخنق ماتيو تثــاؤبة ، وردّ ساقيه تحت كرسيه ، ثم ألقى نظرة خفية على وجه أخيه المترهل بعض الشيء ، وفكر بأنه كان يشيخ ؛ وقال بوداعة :
— ربما ، ربما كنتَ على حق .
وهبطت اوديت السلّم وجلست بالقرب منها في صمت . وكانت على جمال حيوان وديع وعلى هـــدوئه : كانت تجلس وتنهض وتعود الى الجلوس ، وهي واثقة من انها لم تكن لترى . والتفت اليها ماتيو في ضيق : إنه لم يكن يحب ان يراهما معاً . فاذ يكون جاك موجوداً ، لا يتغيّر وجه اوديت ، بل يبقى أملس هارباً ، كوجه تمثال ذي عينين بلا حدق . ولكن المرء كان مضطراً الى ان يتمعن فيه بطريقة اخرى .
وقال وهو يبتسم :
— إن جاك يرى أني لست حزينــاً ، من جراء ذهابي ، بما فيه الكفاية . وهو يحاول ان يبث الحزن العميق في نفسي بان يوضح لي باني انما اذهب للموت من أجل لا شيء .
فبادلته اوديت بسمة . ولم تكن بسمة المجاملة التي كان ينتظرها ، بل كانت بسمة له وحده ، وفي لحظة ، كان البحر هناك من جديد ، وذبذبة البحر الخفيفة والظلال الصينية التي كانت تعدو على الامواج ، ودفقة الشمس التي كانت تخفق في البحر ، والنبات الأخضر ، والإبر الخضر التي كانت تغطي الأرض ، والظلّ المدبّب لشجر الصنوبر ، والحرّ الأبيض النافذ ورائحة القطران ، وكل كثافة صبيحة ايلولية في « جوان ليبان » . اوديت ، ابنتها العزيزة . متزوجة زواجاً سيئاً ، ومحبوبة حباً سيئاً ؛ ولكن هل يحق القـــول بأنها قد أضاعت حياتها ، حين يكون بوسعها ان تولّد من جديد ، اذ تبتسم ، حديقة على ضفة الماء ، وحرارة الصيف على البحر ؟ ونظر الى جاك ، فألفاه سميناً ممتقع الوجه ، وكانت

يداه ترتجفان ، وكان يصفق بيده الجريدة في حماس ، وفكر ماتيو : « ممّ تراه يخاف ؟ » في الساعة الحادية عشرة من صباح السبت ٢٤ ايلول ، كان باسكال مونتاسترّوك ، المولود في نيم يوم ٦ شباط ١٨٩٩ والملقب بـ « لوبورنيو » [١] لأنه زرع سكيناً في عينه اليسرى يوم ٦ آب ١٩٠٧ إذ كان يحـاول ان يقطع حبل الأرجوحة التي كان يجلس فيها رفيقه الصغير جولو تروفييه ليرى ما عسى يحدث من ذلك — كان باسكال مونتاسترّوك يبيع كعادته كل يوم سبت سوسناً وازراراً ذهبية على رصيف « باسي » ، قرب محطة المترو؛ وكان له تكنيكه الخاص إذ كان يأخذ الباقات ، الباقات الجميلة في سلّته الخيزرانية الموضوعة على مقعد قابل للطيّ ، ويهبط الى الطريق ، والسيارات تجري وهي تطلق اصواتها ، فيصيح ، « الباقات ، الباقات الجميلة لسيدتك » وهو يشهر الباقة الصفراء ؛ فتهجم السيارة عليه ، كالثور في الحلبة ، ولا يتحرك هو ، بل يتراجع بالسلّة ، ويلقي رأسه الى خلف ، ويدع للسيارة ان تمر إزاءه كحيوان ضخم بليد ويصيح من الباب المفتوح : « الباقات ، الباقات الجميلة ! » وكان السائقون عادة يقفون ، فيصعد الى الموطىء ، وتأتي السيارة لتقف بازاء الرصيف ، لأن ذلك كان عطلة نهاية الاسبوع ، ولأنهم كانوا يحبون ان يعودوا الى مساكنهم الجميلة في شارع « فيني » او في شارع « رانولا » وهم يحملون لنسائهم باقات . « البـاقات الجميلة » ، وقفز الى خلف ليتفادى السيارة ، السيارة المئة التي تمر من غير ان تقف ، « إبتعد إذن ! » لا ادري ما بالهم هذا الصباح : انهم يسوقون بسرعة وبوحشية ، وهم منحنون على مقاودهم ، صمّ كأنهم طرشان بالفعل . انهم لم يكونوا ليدوروا الى هذا الحدّ في شارع « شارلز ديكنز » او في جادة « لامبال » ، بل كانوا يدخلون الى المحطات بأبهة كبيرة ، كما لو انهم كانوا يريدون المضيّ حتى « بونتواز » .

---

١ تعني بالعربية « الأعور » .

وإن باسكال لوبورنيو لم يعد يفهم من ذلك شيئاً : « ولكن الى اين هم ذاهبون ؟ الى اين يذهبون ؟ » فأن يمضي هو متأملاً سلته الملأى بالازهار الصفر والوردية ، إن ذلك ليثير الشفقة . وقال : — إن ذلك جنون محض . اجمل انتحـــار في التاريخ . لماذا ؟ لقد اصيبت فرنسا بمذبحتين مريعتين خلال مئة عام ، الاولى في اثناء حروب «الامبراطورية» والاخرى عام ١٩١٤ . وبالاضافة الى ذلك ، فان نسبة المواليد تتدنى كل يوم . وها هم يختارون هذه الفترة ليشنّوا حرباً تكلّفنا ثلاثة ملايين رجل او اربعة ؟ وقال وهو يدقّ كلماته دقـّاً : ثلاثة ملايين رجل او اربعة لن يكون بامكاننا بعد ان نصنعهم مرة اخرى . وسواء خرجنـــا منتصرين او مهزومين ، فان البلاد ستنتقل الى صفّ الدرجة الثانية من الامم : فهذا امر يقينيّ . ثم إن هناك امراً آخر سأقوله لك : سوف تُبتلع تشيكوسلوفاكيا قبل ان يتاح لنا ان نقول « اوف » ليس امامنا الا ان ننظر الى خارطة : انها تشبه قطعة لحم بين شدقي الذئب الالماني. فاذا شدّ الذئب قليلاً على أسنانه ...

قالت اوديت : — ولكن ذلك لن يكون الا موقتـــاً ، فان الدولة التشيكوسلوفاكية ستُبنى من جديد بعد الحرب .

قال جاك وهو يضحك بوقاحة :

— هكذا اذن ؟ آه : انني اصدّقك تماماً ! هناك كل المظاهر في الواقع بان الانكليز سيسمحون باعادة بنـــاء اتون الحريق . خمسة عشر مليون نسمة ، تسع جنسيات مختلفة ، إن ذلك تحدّ للعقل السليم . (وأضاف في قسوة) ينبغي على التشيك الاّ يخطئوا ، فإنّ مصلحتهم الحيوية هي ان يتفادوا هذه الحرب بأي ثمن .

« ممّ هو خائف ؟ » كان ينظر الى السيارات تجري ، وهو يشدّ في يده باقته اللامجدية ، وكانت الطريق تشبه طريق شانتيي ، ذات امسية من امسيات التبضـّع ،اذ يكون ثمة من يحمل صناديق وفراشاً وعربات اطفال

وماكينات خياطة على سقوف سياراتهم ؛ والسيارات كلها تكون ملأى بالمحافظ والرزم والسلال حتى لتنفجر . وقال باسكال لبورنيو : «كفى !» كانت السيارات تجرى وهي محملة جداً حتى أن الحدائد التي تقي من الوحل كانت تصدم العجلات لدى كل ارتجاجة . وفكر بأنهم يهربون ، انهم يهربون . وقفز قفزة خفيفة الى الخلف ليتجنب سيارة «سالمسون» ، ولكنه لم يكن يفكر في الصعود الى الرصيف . كانوا يهربون ، اولئك السادة ذوو الوجــوه الملونة بالمساحيق ، المدلكة ، والاولاد السمان ، والسيدات الجميلات ، كأنما كانت النار في إستهم ، كانوا يفرون امام الالمان ، وامام قصف الغارات ، وامام الشيوعية . وكان يفقد هناك كل زبائنه . ولكنه كان يجد ذلك مضحكاً جداً ، هذا الصف من السيارات ، وهذا الهرب المجنون نحو مقاطعة نورماندي ، وكان ذلك يجزئه عن أشياء كثيرة ، حتى أنه ظل واقفاً في عرض الطريق ، تلامسه السيارات الفارة . وهو آخذ في القهقهة من كل قلبه .

– وكيف نستطيع ، من فضلك ، ان ننجدهم ؟ الواقع انه ينبغي علينا في آخر الأمر ان نهاجم المانيا . ولكن من اين ؟ في الشرق يقوم خط سيغفريد ، وسوف نحطم لعيه أنفنا . وفي الشمال ، تقوم باجيكا ، فهل ترانا سننتهك حياد بلجيكا ؟ إذن ، قل لي ، قل لي : من اين ؟ ام علينا ان نقوم بالدورة عن طريق تركيا ؟ إن ذلك شيء روائي محض . وكل ما نستطيع ان نفعله هو أن نبقى على سلاحنا ، في انتظـــار ان تصفي ألمانيا حسابها مع تشيكوسلوفاكيا . وبعد ذلك ، ستأتي لتصفي حسابنا ...

قالت اوديت : – وإذن ، ففي تلك الفترة ...

فأدار اليها جاك نظرة زوج ، وسألها ببرود :

– ماذا ؟ (وانحنى على ماتيو) هل حدثتك عن « لوران » الذي كان رئيساً أعلى في شركة « اير فرانس » والذي بقي مستشار «كوت»

« غي لاشمبر » ؟ اسمع إذن : انني اقدّم لك من غير تعليق ما قاله لي في تموز الماضي : إن كل ما يملكه الجيش الفرنسي اربعون قاذفة وسبعون مطـاردة . فاذا كان هذا صحيحاً ، فانالالمان سيكونون في باريس في رأس السنة ! »

قالت اوديت غاضبة : — جاك !

« ممَّ هو خائف ؟ » كان باسكال يضحك ويضحك ، وكان قد قد ترك باقته تسقط ليضحك على كيفه ، وقفز قفزة الى الخلف، فمرت عجلة على سوق الباقة . ممّ هو خائف ؟ إنها غاضبة لأن هناك من سمح لنفسه بان يواجه هزيمة فرنسا . إنها ليست قريبة الى النفس تماماً : فالكلام يخيفها . إنهم يخافون المناطيد ، وقد رأيتها انا عام ١٩١٦ ، فلم تكن تذهب بعيداً ، ويعود الامر من جديد ؛ كانت السيارات تمرّ بأقصى سرعتها على السوق المطحونة ، وكان باسكال يُحسّ الدمع في عينيه لفرط ما كان يجد ذلك باعثاً على الضحك . غير ان موريس لم يكن يجد هذا ممتعاً على الاطلاق . كان قد دفع للرفاق تكاليف الدورة ، وكان راساه ما يزالان يحرقانه من الضربات الكثيرة التي تلقّاها . وها هو الآن وحده، وينبغي له عما قليل ان يطلع زيزيت على ذلك . ورأى المنشور الابيض في أعلى الجدار الرمادي لمصانع « بينهويت » فاقترب ، وكان محتاجاً الى قراءته وهو وحده ، وفي بطء :

« بأمر من وزير الدفاع الوطني والحرب ومن وزير الطيران » . الموت ، انّ ذلك لم يكن شيئاً مريعاً جداً ، وانما كان حادثاً من حوادث العمل ، وكانت زيزيت قاسية ، وكانت من الفتوة بحيث تستطيع ان تستأنف حياتها من جديد ، فان الامر يكون يسيراً جداً دائماً حين لا يكون ثمة اطفـال . اما فيما عدا ذلك ، فهو سيذهب ، ثم يحتفظ في النهاية ببندقيته ، فهذا امر متفقٌ عليه . ولكن متى تجيء النهاية ؟ بعد عامين ؟ لقد دامت الحرب الاخيرة اثنين وخمسين شهراً . وطوال اثنين

وخمسين شهراً يجب إطاعة الرقباء والمعاونين ، وجميع اولئك الابقار الذين طالما كرههم . يجب اطاعتهم على الرأس والعين ، وتحيّتهم في الشارع بينما يكون مضطراً الى ادخال يديه في جيوبه ، اذ يلتقي بأحدهم ، حتى يمنع نفسه من الانقضاض عليه ولكمه في وجهه . فاذا كانوا في القطّاع ، كان عليهم ان يقفوا مرتبكين ، كأنهم يستشعرون في ظهورهم رجفة الرصاص ؛ واذا كانوا في الراحة ، وجب عليهم ان يتظاهروا بالطيبة والطاعــة كما لو كانوا في الثكنة . اوه ! متى يأتي يوم الهجوم الاول لأطلق عليه رصاصي ، ذلك المعاون الذي سيمشي امامي ! واستعاد مشيته ، وكان يستشعر الحزن والرقّة كما كان يُحسّ في عهد الملاكمة ، اذ هو في غرفته يخلع ثيابه ، قبيل الحفلة بربع ساعة . لقد كانت الحرب طويلة ، طويلة جداً ، فلا ينبغي التفكير بها اكثر مما ينبغي ، والاّ لانتهى الامر بان يجد الانسان انه لم يكن لشيء معنى ، حتى ولا النهاية ، حتى ولا العودة وفي يده البندقية . درب طويلة ، طويلة جداً . وربما مات وهو في منتصف الطريق ، كما لو لم يكن له هدف آخر غير ان يَدَعهم يثقبون جلده ليدافع عن مصانع شنايدر او عن صندوق السيد « دو واندل » .

كان يمشي في الغبــار الاسود بين جدار مصانع « بينهويت » وجدار ورشات « جيرمان » ؛ وكان يرى عن يمينه ، في البعيد ، السقوف المائلة لمشاغل عمال السكك الحديدية للشمال ، وابعد من ذلك ، المدخنة الكبيرة الحمراء للمحرقــة ، وكان يفكر : « درب طويلة ، طويلة جداً » وكان « لوبورنيو » يضحك بين السيارات ، وكان موريس يمشي في الغبار ، وكان ماتيو جالساً على شاطيء البحر ، يستمع الى جاك ، ويقول لنفسه : « لعلّه على حق » ، وكان يفكر بأنه سيتجرّد من ثيابه ، ومن مهنته ، ومن هويته ، ويذهب عارياً ليخوض أسخف الحروب ، ليخوض حرباً خاسرة مقدّماً ، وكان يُحسّ نفسه يسيل في أعماق الغُفل ؛ انه لم يكن بعد شيئاً ، لا الاستاذ القديم لبوريس ، ولا

العشيق القديم لمارسيل القديمة ، ولا العاشق الاقدم لايفيش ؛ لا شيء الا اسماً غفلا ، بلا عمر ، سُرق منه المستقبل وأصبحت امامه ايام لا يمكن التنبؤ بها . وفي الساعة الحادية عشرة والنصف ، توقف الكار في « سافي » فنزل منه « بيار » ليزيل خدر ساقيه . وكان ثمة أكواخ مسطّحة صفراء على حافة الطريق المزفّتة : وخلفها كانت « سافي » تتدرّج بخفاء نحو البحر . وكان ثمة عربٌ يطبخون ، وهم مقرفصون فوق رقعة واسعة من الارض المحمّرة ، وكانت الطائرة تحلّق فوق رقعة رمادية صفراء ، كانت هي فرنسا . وفكر بيار في حسد : « كم يستطيع هؤلاء ألاّ يبالوا ! » ؛ وكان يمشي بين العرب ، وكان يستطيع ان يلمسهم ، ومع ذلك فهو لم يكن حاضراً بينهم : لقد كانوا يدخنون « كيفهم » بهدوء ، اما هو فكان ذاهباً ليحطّم رأسه في الألزاس ؛ وتعثّر بمدّرة من الارض ، وسقطت الطائرة في جيب هوائي وفكّر الشيخ : « انني لا احب الطائرة » : وكان هتلر ينحني فوق الطاولة، وكان الجنرال يشير الى الخارطة ويقول : « خمس فرق من الدبابات ، الف طائرة تنطلق من « دريسد » و « تمبلهوف » و « ميونيخ » وكان شمبرلن يضغط منديله على فمه ويفكر : « هذه هي رحلتي الثانية في الطائرة . انني لا احب السفر في الطائرة » . انهم لا يستطيعون ان يساعدوني ؛ فهم مقرفصون ، تحت الشمس ، شبيهين باوعية صغيرة من الماء المدخّن ، وهم مسرورون ، وهم وحدهم على الارض ؛ وفكر في يأس : « آه ! يا إلهي ! يا إلهي ! ليتني استطيع ان اكون عربياً ! »

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والاربعين ، صعد « فرنوا هانوكين » ، وهو صيدلي من الدرجة الاولى في « سانت — فلور » ، طوله متر وسبعون ، ذو انف مستقيم وجبين متوسط ، وحول خفيف ، ولحية في شكل اكليل ، ورائحة قوية للفم ولشعر الفرج ، والتهاب في

الامعاء استمر حتى السابعة من عمره ، وعقدة اوديب صُفيت حوالى الثالثة عشرة ، وحائز للبكالوريا في السابعة عشرة ، واستمناء حتى فترة الخدمة العسكرية بمعدل مرتين او ثلاثة في الاسبوع ، مشترك في جريدتي « تان » و « ماتان » . زوج بلا اولاد لـ « اسبيرانس ديولافوا » ، كاثوليكي ممارس لواجبات التناول بمعدل مرتين او ثلاث كل ثلاثة أشهر — صعد فرانسوا هانوكين الى الطابق الاول فدخل غرفة الزواج حين كانت امرأته تجرب قبعة وقال : « هذا هو حقاً ما كنت اقوله لك : انهم يستدعون حملة الكراسة رقم ٢ » ووضعت امرأته القبعة على طاولة الزينة ، ونزعت الدبابيس من فمها وقالت : « انت ذاهب اذن بعد ظهر اليوم ؟ » فقال : « نعم ، في قطار الساعة الخامسة » . قالت زوجته: « اي ارتباك ! انني مضطربة جداً ، ولن يكون لدي الوقت لأعد كل شيء . ماذا ستأخذ معك ؟ قمصان طبعاً وسراويل طويلة ، فانت تملك منها ما هو قطني وما هو صوفي وما هو من المسلين ، وأفضلها الصوفي . اوه ، ثم زنانير من الفلانيل ، حبذا لو تأخذ منها خمسة او ستة بعد ان تلفها » . فقال هانوكين : « لا حاجة للزنانير ، فهي أعشاش للقمل » « اية فظاعة ، ولكن لن يدركك القمل ، فأرجوك ان تأخذها ، إرضاءً لي ؛ حتى اذا كنت هناك عرفت ماذا تصنع بها ، ومن حسن الحظ اني ما زلت احتفظ ببعض المعلبات ، تلك التي اشتريتها عام ١٩٣٦ ، في فترة الاضرابات ، فكنت تسخر مني ، وعندي علبة كرنب بالخمر الابيض ، ولكنك لن تحب ذلك ... » فقال وهو يفرك يديه : « ان ذلك يحدث لدي موضة ، ولكن اذا كان لديك علبة فاصولياء ... » قالت اسبيرانس : « علبة فاصولياء ، ولكن كيف لك ان تسخنها ؟ » قال هانوكين : « هكذا ! » « كيف هكذا ؟ انها تسخن في الماء الغالي » « هل عندك اذن فراخ مجمدة ؟ » « نعم عندي ، بالاضافة الى مورتاديلا بعث بها الاقارب في كليرمون » . وحلم

لحظة وقال : « سآخذ سكيني السويسري » . « نعم » وابن تراني سأضع زجاجة الترموس لقهوتك ؟ » « آه ، نعم ، قهوة ، يجب ان يكون هناك شيء حار ليتماسك به بطني (واضاف وهو يبتسم بكآبة) هذه هي المرة الاولى التي آكل فيها ، منذ تزوجت ، من غير ان ابدأ طعامي بالحساء . ضعي لي بعض الخوخ ، وزجاجة كونياك » . « هل تأخذ الحقيبة الصفراء ؟ » فانتفض : « الحقيبة ؟ على الاطلاق ، ان هذا غير لائق ، ثم اني لست حريصاً على إضاعتها . ان كل شيء يسرق هناك . سوف آخذ مزماري ذا القربة » « ايّ مزمار ؟ » « المزمار الذي كنت آخذه حين اذهب للصيد ، قبل زواجنا . فماذا فعلت به ؟ » « ماذا فعلت به ؟ آه ، لا ادري يا عزيزي المسكين ، لقد أضعتَ لي رأسي ، اعتقد اني وضعته في العلّية » « في العلية ؟ يا إلهي ! مع الفئران ! سيكون ذلك رائعاً ! » « انك تحسن صنعاً اذا أخذت الحقيبة معك ، فهي ليست كبيرة ، وبوسعك ان تراقبها جيداً . آه ! انا اعرف اين هي : عند ماتيلد . لقد اعرتها اياها للنزهة» . « أعرت ماتيلد مزماري ؟ » « ولكن لا ، انت تحدثني عن المزمار ؟ قلت لك زجاجة الترموس » . فقال هانوكين بحزم : « مهما يكن ، فانا اريد مزماري » « آه يا عزيزي ! ما الذي تريده أن اقول لك ، انظر الى ما لديّ من عمل ، فساعدني قليلاً ، وابحث عنه بنفسك ، مزمارك ، وبوسعك ان تنظر في العليّة » وصعد السلم ، فدفع باب العلية ، وأحسّ برائحة الغبار ، ولم يكن يميّز شيئاً ، وفرّت فأرة بين ساقيه ففكر : « لعنة الله عليها ! لا بدّ انه الجرذان قد التهمته ! »

وكان ثمة صناديق ، وتمثال من خيزران ، وخريطة للكرة الارضية ، وفرن قديم ، واريكة طبيب اسنان ، وأرغن ، وكان ينبغي ازاحة هذا كله . ليتها قد خطر لها ان تضعه في صندوق ، بمنجى من كل شيء . وفتح الصناديق واحداً بعد الآخر ، وكان يغلقها في غضب . لقد كان

المزمار لطيفاً سهل الاستعمال ، جلدياً ، وله فتحة ، وكان يمكن ان ندخل فيه اشياء كثيرة ، وكان له قطاعان . والحق ان هذه الاشياء هي التي تساعدك على تمضية اللحظات السيئة ، ولا يشك أحد في أهمية ذلك. وفكر في غضب : « مهما يكن من أمر ، فلن اذهب والحقيبة معي ، فانا أفضل الاّ أحمل شيئاً » .

وجلس على صندوق ، وكانت يداه سوداوين من الغبار ، وكان يحس الغبار كصمغ جاف خشن على جسمه كله ، وكان يرفع يديه في الهواء حتى لا يلطخ معطفه الاسود ، وكان يخيل اليه انه لن يملك الشجاعة ابداً ليخرج من العلية ، لم يبق لي ميل لشيء ، وهذه الليلة التي سيقضيها من غير ان يتناول حتى حساء يمسك عليه بطنه كانت تشعره بأن كل شيء عبث ، وكان يستشعر الوحدة والضياع ، وهو هناك ، فوق ، على صندوقه ، مع تلك المحطة الصاخبة المظلمة التي كان تنتظره على مثني متر تحته ، ولكن صرخة اسبيرانس المرتعشة جعلته ينتفض ، وكانت صرخة انتصار : « لقد وجدته ! لقد وجدته ! » ففتح الباب واسرع الى السلم : « اين هو ؟ » « وجدت مزمارك ، كان موجوداً تحت ، في خزانة القبو » . وهبط السلم فتناول المزمار من يدي زوجته، ففتح قربته وتأملها ومسح عليها بظاهر كفه ، ثم وضعه على السرير وقال : « اسمعي يا عزيزتي : كنت أتساءل اذا كنت احسن صنعاً بان ابتاع لي زوجاً من الأحذية ؟ »

الى المائدة ! الى المـــائدة ! وكانوا قد دلفوا الى نفق الظهر المعمي للابصار ؛ اما في الخارج ، فكانت السماء بيضاء من الحرارة ، والشوارع الميتة البيضاء ، والارض الحرام ، في الخارج كانت الحرب ؛ وخلف المصاريع المغلقة ، كانوا يطبخون على البخار ، ووضع دآنيال منشفته على ركبتيه ، وعقد هانوكين منشفته على عنقه ، وتناول برونيه منشفة الورق من على الطاولة مدعكها ... ... ، ودفع ... سارل الى

قاعة الطعام الكبيرة الخالية تقريباً، ذات الزجاج المخطّط بالأشعة الطبشورية، وعلّقت له المنشفة على صدره ؛ كانت تلك هي المدنة : الحرب ، أجل، الحرب ، ولكن الحرارة ! الزبدة في الماء ، والمدرة الضخمة في القاع ، ذات جوانب فضفاضة زيتية ، والماء الرمادي من فوق ، واطراف الزبدة الصغيرة الميتة التي تطفو وبطنها في الهواء ، وكان دانيال ينظر الى فقاعات الزبدة تذوب في صحيفة الفجل ، ومسح برونيه جبينه ، وكان الجبن يعرق في صحيفته كما يعرق الرجل النشيط في عمـــله ، وكانت بيرة موريس فاترة ، فدفع قدحه وقال : « تفه ! لكأنها بول ! » وكانت قطعة ثلج تسبح في خمر ماتيو ، فشرب ، وأحس اولاً بماء بارد في فمه ، ثم ما لبث مستنقع صغير من الخمر الطائش الذي ما يزال حاراً بعض الشيء ان ذاب ماء ؛ وأدار شارل رأسه قليلاً وقال : « وايضاً حساء ؟ لا بد انهم مجانين حتى يقدموا لنا الحساء في عزّ الصيف » . ووضعوا صحيفتـــه على صدره ، فكانت تبعث الحرارة في جلده عبر المنشفة والقميص ، وكان لا يرى اكثر من طرف الخزف المطلي، فأغرق ملعقته بعد تقدير سريع ، ثم رفعها عمودياً ، ولكن من يضطجع على ظهره لا يكون واثقاً قط من الوضع العمودي ، ولذلك سقط بعض الحساء في الصحن وهو يقرقر ، وأعاد شارل الملعقة بهدوء الى ما فوق شفتيه، وأمالها من جهة ثم طز ! هكذا يحدث له دائماً ، وسال المائع الساخن على خده فأغرق ياقة قميصه . الحرب ، آه ، نعم ، الحرب . قالت زيزيت : لا ، لا ، ليس الراديو ، لا اريد بعد أن افكر فيه . قال موريس : بلى ، قليل من الموسيقى ، شيرسو ، غورب ، ث شرور، يانجي ، اخبار ، اغنية « القبعات والغلالات » ، واغنية « سأنتظر » بطلب من هوغيت ارنال ، ومن بيار دوكروك وزوجته وابنتيـــه في « لاروش كانيلاك » ومن الآنسة اليان في « كالفي » وجان فرلسما روكيت لصغيرته ماري مادلين من فتيات الضاربات على الآلة الكاتبة

في تول لاصدقائهن الجنود . سأنتظر الليل والنهار ، خذ مزيداً من السمك المطبوخ ، فقال ماتيو : لا ، شكراً ، لا يمكن للقضية الا ان تُسوّى ، وكان الراديو يفرقــع ، ويدرج فوق الساحات البيضاء الميتة ، ويحطم الواجهات ، ويدخل في المدينة الى المخانق المظلمة ، وكانت اوديت تفكر : لا يمكن للقضية الا ان تسوّى ، فقد كان هذا يقيناً ، وكان الطقس حاراً جداً . وكانت الآنسة اليان وزيزيت وجان فرنسوا روكيت واسرة دوكروك من بلدة « روش كانيلاك » يفكرون : لا يمكن للقضية الا ان تسوّى ؛ وكان الطقس حاراً جداً . وسأل دانيال : ما تريد ان يفعلوا ، وكان شارل يفكر بانها كانت غارة كاذبة ، وهم سيتركوننا هنا ، ووضعت ايلا بيرنانشاتز شوكتها ، وارتدّت برأسها الى خلف ، وقالت : امَا انا ، فاني لا اؤمن بالحرب . سأنتظر دائماً عودتك ؛ وكانت الطائرة تحلّق فوق زجاج مغبّر ملقىً على ظهره ، وعلى طرف الزجاج ، بعيداً جداً ، كان يُرى بعض المسلك ، وانحنى هنري نحو شمبرلن وصاح في اذنه : انهـــا انكلترا ، انكلترا والجمع الذي يتدافع عند حواجز المطار ، منتظراً رجوعه ، يا حبيبي ، دائماً ، وحدث له وهنٌ قصير ، وكان الطقس حاراً جداً ، وكانت به رغبة لان ينسى الفاتح الذي يشبه رأسه رأس الذبابة ، وفندق دريسن والمذكرة ، رغبة لان يصدق ، يا الهي ، يصدّق بان القضية يمكن ان تسوّى بعـــد ، وأغمض عينيه ، يا لعبتي الحبيبة ، بناء على طلب السيدة دورانتي وحفيدتها الصغيرة ، من بلدة دوكازفيل ، الحرب يا الهي أجل ، الحِرب والحرارة والقيلولة الحزينة الخاضعة ؛ كازا ، هذه كازا ، وتوقف الاوتوكار في ساحة بيضاء مقفرة ، فكان بيار اول الخارجين ودخلت في عينيه الدموع المحرقة ؛ وكان ما يزال في الاوتوكار بعض آثار الصباح ، اما في الخارج ، حيث الشمس مشعة ، فقـــد كان ثمة موت الصباح . انتهى الصباح ، يا لعبتي الحبيبة ، انتهى الشباب ، وانتهت الآمال ، وهذه

كارثة الظهر الكبرى . وكان جان سيرفان قد دفع صحنه ، وكان يقرأ الصفحة الرياضية في « باري – سوار » ، ولم يكن قد بلغه قرار التعبئة الجزئية ، فقد كان في عمله ، وعاد منه ليتناول الغداء ، وسيعود اليه حوالى الساعة الثانية ، وكان لوسيان رينيه يكسر جوزاً بين كفّيه ، وكان قد قرأ المناشير البيضاء ، وكان يفكر : ان ذلك خداع ، وكان فرنسوا ريستوت ، في المختبر في معهد « ديريان » ، يمسح صحنه بالخبز ولا يفكر بشيء ، وكانت زوجته لا تفكر بشيء . في الصباح ، كانت الحرب قطعة ثلج قاطعة في رؤوسهم ثم ذابت فأضحت مستنقعاً صغيراً فاتراً . يا لعبتي الحبيبة ، الطعم السميك المظلم لاحم البقر البورغونيوني ، ورائحة السمك ، وجلد اللحم بين ضرسين ، وبخار الخمر الاحمر ، والحرارة ، الحرارة ! مستمعيّ الاعزاء ، ان فرنسا التي لا تتزعزع ، على كونها مسالمة ، تواجه مصيرها بحزم .

كان تعباً ، وكان سادراً ، وقد أمرّ يده ثلاث مرات امام عينيه ، وكان النهار يؤذيه ، وقال داوبورن الذي كان يمصّ رأس قلمه لزميله في « المورننغ بوست » : « لقد اصيب بضربة الخيزران » . ورفع يده وقال بوهن :

– ان واجبي الاول ، الآن وقد عدت ، هو ان اكتب تقريراً للحكومتين الفرنسية والانكليزية عن نتائج مهمتي ، والى ان انجزه ، يصعب عليّ ان اقول عنه شيئاً .

وكان الظهر يلفّه بكفنه الابيض ، وكان داوبورن ينظر اليه ويفكر في دروب طويلة مقفرة بين صخور رمادية وصدئة تحت نار السماء . وأضاف العجوز بصوت اكثر وهناً :

– سأكتفي بما يلي : انني على ثقة من ان المعنيين جميعاً سيواصلون جهودهم ليحلوا مسألة تشيكوسلوفاكيا حلاً سلمياً ، لان سلام اوروبا في عصرنا هذا متوقف على هذا الحل .

كانت تنقر فتات خبز على الخوان نقراً دقيقاً. وهي منزعجة قليلاً، كما يحدث اذ تكون مصابة بزكام العلف، وقد قالت لي: ان في معدتي كرة من الهواء، وذرفت بعض الدمع، من الذعر: ان ذلك سيعكر كل عاداتها. فقلت لها: «في الاوقات الاولى. في الاوقات الاولى فقط». وهي تفكر بأنها شقية، وهذا البرد الخفيف الغامض في رأسها، تحسبه شقاء. وهي تقف مستقيمة، وتفكر بأنه لا يحق لها ان تسترخي، وان جميع نساء فرنسا شقيات مثلها. انها لائقة، هادئة، مهيبة، وهي تبدو إذ تضع ذراعيها الجميلتين على الخوان، كأنها جالسة بأبهة على صندوق حانوت كبير. وهي لا تفكر، ولا تريد ان تفكر بأنها ستصبح أهدأ كثيراً مما هي، بعد ذهابي. بم تفكر؟ بأن هناك لطخة صدأ على مقبض سكينها. وتقطب حاجبيها، وتحك اللطخة بطرف ظفرها الاحمر. ستكون اهدأ كثيراً. امها، صديقاتها، المعمل، السرير الكبير الخاص بها وحدها، انها لا تكاد تأكل، وهي ستقلي البيض فوق ركن من الفرن، اما الصغيرة فلا يصعب تغذيتها، فهناك الحساء دائماً، وكنت اقول لها: ولكن اعطيني اي شيء، الشيء نفسه دائماً، ولا تحاولي ان تؤلفي لوائح مختلفة، فانا لا اتنبه قط لما آكل، فكانت تعاند: لقد كان ذلك واجبها.

– جورج؟

– عزيزتي؟

– هل تريد بزوراً مغلية؟

– لا شكراً.

وشربت بزورها المغلية وهي تتنهد، وعيناها حمراوان. ولكنها لا تنظر الي، وانما تنظر الى الخزانة، لانها هناك، تجاهها تماماً. وليس لديها ما تقوله لي، او انها ستقول لي: حذار من البرد. ولعل الامر يبلغ بها ان تتخيلني هذا المساء في القطار، شكلاً صغيراً هزيلاً مركوماً

في جوف القاطرة ، غير ان الامر يتوقف هنا ، اذ انه بعد ذلك أصعب مما ينبغي : انها تفكر بحياتها هنا . بأن ذلك سيخلّف فراغاً . فراغاً صغيراً جداً ، يا اندريه : اني قليلاً ما اترك ضجّة . كنتُ في اريكة ومعي كتاب ، وكانت تشمّ رائحة الجوارب ، ولم يكن لدينا ما نقوله. ستكون الاريكة هنا دائماً - المهم ، هو الاريكة . وستكتب لي . ثلاث مرات في الاسبوع . بكل دقة . وستكــون رصينة كل الرصانة ، وستبحث طويلا عن الحبر والريشة ونظارتيها الشقراوين ، ثم تجلس بهيئة مهيبة امام هذه الطاولة غير المريحة التي ورثتها عن جدتها « فاسور » : « الصغيرة تنبت اسنانُهـــا ، امي تزورنا بمناسبة الميلاد ، ماتت السيدة السولان ، اميليان تتزوج في ايلول ، الخطيب ممتاز ، مسنّ بعض الشيء ، يعمل في « التأمينات ». اما اذا اصيبت الصغيرة بالشهاق ، فانها ستخفي عني النبأ ، حتى لا تورث لدي القلق . « مسكين جورج ، ليس هو بحاجة الى ذلك ، فهو يقلق من أجل لا شيء» وسوف ترسل لي رزمة المقانق والسكر وكيس القهوة وكيس التنباك وزوج الجوارب الصوفية ، وعلبة السردين ، واقراص الميتا ، والزبدة المملحة . رزمة بين عشرة آلاف ، شبيهة بالعشرة الآلاف الاخرى ؛ فاذا اخطأوا واعطوني رزمة جاري ، فلن اتنبّه الى ذلك ، الرزم والرسائل وحساء جانيت المطبوخ، واللطخـــات على مقبض السكين . والغبار على الخزانة ، ان ذلك كله يكفيها ؛ وسوف تقول ، في المساء : انني تعبة ، ولا استطيع بعد أن أصمد . ولن تقرأ الصحف ؛ لن تقرأها اكثر مما تقرأها الآن : فهي تكرهها لأنها ورق منثور هنا وهناك ولا يمكن استعماله للمطبخ او للمرحاض قبل مضي ثمان واربعين ساعة . وستأتي السيدة هيبرتو حاملة لها الانباء، لقد احرزنا نصراً كبيراً ، او ان الامور لا تسير على ما يرام ، يا صديقتي الصغيرة ، الامور لا تسير . وقد سبق لهنري وباسكال ان اتفقا مع زوجتيهما على لغة مرقمة لينبئاهما اين يكونان : وذلك بوضع خطوط تحت

بعض الأحرف ، غير ان الامر مع اندريه لم يكن مجدياً . ومع ذلك فقد حاول ، ليرى النتيجة :

– بوسعي ان ابلغك اين اكون .

فسألته في دهشة : – ولكن أليس ذلك ممنوعاً ؟

– طبعاً ، غير أننا سنتدبر الامر . فانت ستقرأين مثلا الاحرف الكبيرة ، كما كان يحدث في حرب ١٩١٤ .

فقالت وهي تتنهد : – ان هذا معقّد جداً .

– ولكن لا ، سترين ، انه سهل جداً .

– نعم ، غير أنهم سيكشفون امرك ، فيضعون رسائلك في السلة ، ويأخذني القلق .

– ان الامر يستحق المخاطرة .

– اوه ! اذا شئت ، ولكنك تعلم يا عزيزي ، أنا والجغرافية ... سأنظر في خارطة ، فأرى دائرة تحتها اسم ، فماذا يجديني ذلك ؟

وهكذا . وهذا أفضل، على نحو ما ، هـــذا أفضل كثيراً ، فهي ستقبض راتبي ...

– هل اعطيتك التوكيل ؟

– نعم يا حبيبي ، لقد وضعته في الخزانة .

هذا أفضل كثيراً ؛ فلا بدّ انه امرٌ مزعج ان نترك شخصاً شديد نفاد صبر ، كثير القلق ، ولا بدّ ان نُحسّ اننا مخطئون . ورفعت كرسيي .

– اوه ، كلا ، لا حاجة بك يا حبيبي الى ان تطوي منشفتك .

– صحيح .

ولم تسألني الى اين انا ذاهب . انها لا تسألني قط ذلك . وقلت لها :

– انني ذاهب لارى الصغيرة .

– لا توقظها .

لن اوقظها ؛ كنت اذا رغبت في ذلك ، أُخفق في احداث ضجة

كافية لإيقاظها ، فانا أخفّ مما ينبغي . ودفع الباب . وكان مصراع قد انفتح ، فدخل منه أصيل طبشوري باهر ؛ وكان نصف الغرفة لما يزل في الظلّ ؛ غير ان النصف الآخر كان يبعث الشرارات تحت نور مغبّر ، وكانت الصغيرة نائمة في مهدها ، فجلس جورج بقربهـا ؛ شعرها الاشقر ، فمها الصغير النقيّ ، وهاتان الوجنتان المليئتان المتهدلتان قليلاً ، واللتان تجعلانها شبيهة بقاضٍ انكليزي . لقد بدأت تحبني ؛ وكانت الشمس تزداد انتشاراً ، فدفع المهد الى الوراء قليلا . أجل ، هكذا ! انها لن تكون جميلة ، فهي تشبهني . يا للطفلة المسكينة ، حبذا لو كانت تشبه أمهـا . انها ما تزال طرية ، فكأنها بلا عظام . ومع ذلك ، فهي تحمل في نفسها هذا القانون الصارم الذي كان قانوني ؛ ان الخلايا ستتكاثر وفق قانوني ، وستصلب الغضاريف وفق قانوني ، وستعظم الجمجمة وفق قانوني . طفلة صغيرة هزيلة ذات ملامح فاقدة المعنى ، وشعر كاب ، وانحراف جانبي في الكتف اليمنى ، ونظر حسير ؛ انها ستعيش بلا ضجة ، ومن غير أن تلامس الارض ، متجنّبة الناس والاشياء بحيل عظيمة ، لانها ستكون أخفّ وأضعف من ان تزيحهم عن امكنتهم . يا إلهي ! يا لجميع هذه الاعوام التي ستجيئها ، واحداً بعد الآخر ، من غير هوادة ، وكل ذلك بلا جدوى ، ولا فائدة ، لان كل شيء مكتوبٌ هنا ، في لحمها ، وينبغي ان تعيش قدرها دقيقة دقيقة ، وان تظنّ انها تخترعه ، وهو في الواقع موجود هنا ، برمته ، يثير الاشمئزاز لسهولة التنبؤ به ، لقد أعديتها ، فلماذا ينبغي ان تعيش قطرةً قطرة كل ما سبق لي ان عشته ، ولماذا ينبغي دائماً ان يتكرّر كل شيء ، الى ما لا نهـاية ؟ طفلة هزيلة ، روح صغيرة متبصّرة متورّعة ، تملك كل ما ينبغي لتتعذّب جيداً . اما انا ، فاني ذاهب ، فانا مدعوّ لاعمال اخرى ، وسوف تنمو ، هنا ، بعناد ، وبلا حكمة ، وسوف تمثلني . والشُهاق ، وفترات النقاهة الطويلة ، وذلك الحمق المسعور

الشقي" برفيقاتها الجميـلات السمينات ذوات اللحم الوردي والمرايا التي ستنظر فيها وهي تفكر : هل اكون من القبح بحيث لا أُحبّ ؟ هذا كلّه ، يوماً بعد يوم ، مع الاحساس بسابق الرؤية ، اتكون يا الهي العظيم بحاجة اليه ؟ واستيقظت لحظة ، ونظرت اليه بفضول رضين ، وقد كانت هذه في نظرها لحظة جديدة تماماً ، وهي تعتقدها جديدة كل الجدّة . واخرجها من المهد وشدّها بين ذراعيه بكل قواه : « يا صغيرتي ! يا طفلي الصغير ! يا صغيرتي المسكينة ! » ولكنها خافت ، فبدأت تصرخ .

« جورج ! » قال من خلف الباب صوت ملي‌ء بالعتاب . واعاد الصغيرة بكل هدوء الى مهدها . ونظرت اليه لحظة اخرى، نظرة قاسية شرسة ثم انغلقت عيناها ، وانفتحتا وهما تطرفان ، ثم انعقدا تماماً . لقد بدأت تحبني . ينبغي ان اكون موجوداً هناك في كل ساعة ، ان اعوّدها على حضوري بعمق كبير حتى لا تستطيع بعد ان تراني . فكم يدوم هذا الفراق ؟ خمسة اعوام ؟ ستة اعوام ؟ سأجد فتاة حقيقية صغيرة تنظر الي" مذعورة وتفكر : « أهذا بابا ؟ » وستشعر بالخجـل امام صديقاتها الصغيرات . هذا ايضاً ، قد عشته . حين عاد ابي من الحرب ، كنت في الثانية عشرة ؛ وكان بعد الظهر قد اكتسح الغرفة كلها تقريباً . بعد الظهر ، الحرب . لا بدّ ان تشبه الحرب بعد ظهر لا نهاية له . ونهض بلا ضجة ، وفتح النافذة برفق وسحب المصراع البرّاني .

الغرفة ١٩ ، هذه هي . لم تكن تجرؤ على الدخول ، وظلت واقفة امام الباب، وحقيبتها في يدها ، وهي تجهد في اقناع نفسها بأنها كانت تحتفظ ببعض الأمل . ولنفرض انها كانت بالمصادفة غرفة صغيرة جميلة ، مع بساط تحت السرير ، وزهور في قدح ، مثلا ، على لوحة المغسلة ! ان هذه امور تحدث ، فغالباً ما تلتقي بأشخاص يقولون لك : « في هذه الباخرة او تلك ، لا حاجة بك الى ان تستأجر درجة ثانية، فالثالثة

لا تقلّ فخامة واناقة عن الاولى » :

وفي تلك اللحظة ، ربما كانت « فرانس » هادئة ، وربما قالت : « آه ! حسنا ! هذه غرفة ليست كالاخرى . حبذا لو كانت الدرجة الثالثة هكذا دائماً ... » وخيِّل الى « مود » انها كانت « فرانس » : فرانس مصالحة ، مائعة ، تقول : « اوه ! يمكننا ان نتدبر الامر هكذا » ولكنها تظل مجلّدة ، في اعماق نفسها ، مجلدة وخاضعة : وسمعت خطى ، ولم تكن تحب ان تفاجأ وهي تتسكع في الممرات ، فقد حدثت يوماً سرقة فاستجوبوها بطريقة مزعجة ، حين يكون المرء فقيراً . فيجب ان يتنبه للأمور الصغيرة ، لأن الناس لا يعرفون الشفقة. ووجدت نفسها فجأة في وسط الغرفة ، ولم تُصب بالخيبة ، فقد كانت تتوقع ذلك . ستة أمكنة : ثلاثة أسرة بعضها فوق بعض الى يمينها ، وثلاثة اخرى الى يسارها : « اجل ... ها نحن ذا ! » ولم يكن ثمة زهور على المغسلة ، ولا بساط تحت السرير ، فهذا لم تصدقه قط . ولم يكن ثمة كرسي ، ولا طاولة . وسوف يشعر اربعة اشخاص بالضيق فيها ، ولكن المغسلة كانت نظيفة . وكانت بها رغبة للبكاء ، ولكن لم يكن في ذلك فائدة : ما دام الامر متوقعاً . لم تكن فرانس تستطيع ان تسافر بالدرجة الثالثة ، فذلك هو الواقع الذي ينبغي الانطلاق منه، وليس فيه مجال للنقاش ، كما انه لا مجال للنقاش بان « روبي » لم يكن يستطيع السفر بالسكة الحديدية ، وهو يولي ظهره للمحرك . وربما كان ممكناً ان يميل المرء الى التساؤل لماذا كانت فرانس تصر على قطع تذاكر في الدرجة الثالثة . ولكن فرانس لم تكن تستحق اي عتاب على هذه الناحية : كانت تقطع تذاكر في الدرجة الثالثة لانها كانت تملك حسّ التوفير ، ولانها كانت تدير مالية جوقة « بابيس » بحكمة ؛ فمن ذا الذي يستطيع اذن ان يُنحي عليها باللائمة ؟ ووضعت « مود » حقيبتها على الارض ، وحاولت لحظة ان تثبت جذورها في الغرفة ، وان تتظاهر

بأنها نازلة فيها منذ يومين ، بحيث تبدو لها السرر والنافذة الصغيرة ورؤوس الحلزونات المطلية باللون الاصفر والتي تشوك الجدران ، مألوفة حميمة . وتمتمت في قوة : « انها جيدة جداً ، هذه الغرفة » ثم شعرت بالتعب ، فتناولت حقيبتها وظلت واقفة بين السرر من غير ان تعرف ما يجب ان تفعله ، فاذا بقيت فيجب ان أخرج امتعتي من الحقيبة ، ولكنني لن ابقى بالتأكيد ، واذا رأت فرانس اني بدأت ارتب اقامتي ، وهي تملك روح المناقضة ، فستجد سبباً آخر لتعزم على الذهاب . وكانت تحس نفسها مؤقتة في الغرفة ، وفوق هذه الباخرة ، وعلى الارض ؛ كان الربان طويلا سميناً ذا شعر ابيض . وارتعشت ، وفكرت: « سنكون مع ذلك في وضع مريح ، نحن الاربع ، ولكن ليتنا نستطيع ان نظل وحدنا . » غير انها كانت تكفيها نظرة لتفقد هذا الامل : فقد وضع أحدهم امتعته على السرير الايمن : سلة من خيزران مقفلة بقضيب صديء وحقيبة من ليف — لا ، بل من ورق مقوى — ذات زوايا مفتقة ؛ ثم انها سمعت ، زيادة في النحس ، صوتاً خفيفاً ، فرفعت عينيها فرأت امرأة في الثلاثين من عمرها ، ممتقعة جداً ، مقروصة المنخرين، مغمضة العينين ، متمددة على السرير الاعلى من الجهة اليمنى. اذن ، فقد انتهى الامر . لقد نظر الى ساقيها حين كانت تمر على ظهر السفينة ، وكان يدخن سيكاراً ، وكانت تعرف جيداً هذا النوع من الرجال الذين تنبعث منهم رائحة السيجار وماء الكولونيا : هكذا ، سيأتين غداً ، صاحبات متزينات ، الى سطح الدرجة الثانية ، حين يكون الناس قد أخذوا امكنتهم ، وتعارفوا فيما بينهم واختاروا كراسيهم الطويلة القابلة للطي ، وسيسير روبي باستقامة ، رافعاً رأسه الضاحك الحسير النظر ، يتهادى مؤخره ، بينما تقول دوسيت بصوت ثاقب : « ولكن لا ، تعال يا ذئبي ، ما دام الربان هو الذي يريد ذلك » وسيتابعها بالنظر السادة المحترمون الجالسون على السطح، وعلى ركبهم اغطية، سيتابعونها

بنظر بارد ، وستطلق النساء افكاراً خبيثة لدى مرورهما ، وفي المساء ، سيلتقيان في الممرات ببعض السادة المفرطين في الود الذين لهـم في كل مكان يد . فاذا بقينا يا إلهي هنا ، بين هذه السرر المصفحة الاربعة المطلية باللـون الاصفر ، كنا في وضع طيب ، يا الهي ، وأصبحنا فيما بيننا .

ودفعت فرانس الباب ، ودخـل روبي خلفها . وسألت فرانس بأقوى صوتها : « ألم يُنزلوا الامتعة ؟ »

فأومأت لهـا مود بأن تصمت ، وهي تشير الى المريضة . ورفعت فرانس عينيها الكبيرتين الصافيتين للتين لا جفون لها نحو السرير الاعلى، وظل وجهها متصلفاً لا تعبير فيه ، على مألوف عادتها ، ولكن مود فهمت ان القضية كانت خاسرة . وقالت مود في حماسة :

– لن نكون هنا في وضع سيء جـداً ، فالغرفة قائمة في الوسط تقريباً : والاحساس بالتمايل والاهتزاز ادنى من امكنة اخرى .

لم يجب روبي الا بهز كتفيه ، وسألت فرانس بصوت متجرد :

– وكيف نتقاسم السرر ؟

– كما تشائين . (واضافت مود) هل تريدين ان آخذ السرير التحتاني ؟

ولم تكن فرانس تستطيع ان تنام اذا كانت تحسّ شخصاً فوقها ، فقالت :

– سنرى ، سنرى ...

وكان للربان عينان صافيتان مثلجتان في وجه أحمر . وفُتح الباب ، فبرزت سيدة ترتدي ثوباً اسود . فتمتمت ببضع كلمات وذهبت تجلس على سريرها ، بين الحقيبة والسلة . وكانت تبدو في الخمسين من عمرها ، وهي ترتدي ثياباً فقيرة جداً فوق جلد مصفرّ متشقّق ، وكانت عيناها تبدوان وكأنهما خارجتان من رأسها . ونظرت اليها مود وفكرت ..

« انتهى الامر . » وأخرجت أصبع أحمر من محفظتها فأخذت تعيد صبغ شفتيها . ولكن فرانس نظرت اليها من زاوية العين نظرة رضى شديد حتى ان مود احست بالانزعاج فتركت اصبع الاحمر يسقط في محفظتها . وساد صمت طويل لم يكن غريباً على مود : فقد سبق له ان ساد في غرفة شبيهة كل الشبه ، حين كانت في الباخرة « سان جورج » الى طنجه ، وقبل ذلك بعام ، على ظهر « تيوفيل غوتيه » حين ذهبن يمثلن على مسرح « البوليتون » في « كورانتيا » . وتعكر الصمت فجأة من جراء خنة خفيفة غريبة : كانت المرأة ذات الثوب الاسود قد سحبت منديلها ونشرته ثم وضعته على وجهها : كانت تبكي بغير عنف ، ولكن بغير احتراس ايضاً ، كمن يستسلم لأزمة قادمة تدوم طويلا . وبعد فترة ، فتحت سلتها واخرجت منها قطعة خبز مزبدة ، وقطعة لحم مشوي وزجاجة ترموس ملفوفة بمنشفة . وأخذت تأكل وهي تبكي ، وفتحت الزجاجة فسكبت منها قهوة حارة في الغطاء ، وفمها ممتلىء ، ودموع كبيرة ملتمعة تسيل على خدها . ونظرت مود الى الغرفة بعينين جديدتين : انها قاعة انتظار ، لا اكثر من قاعة انتظار في محطة صغيرة حزينة من محطات الريف . المهم الا يكنّ داعراً . ونشقت وارتدت برأسها الى خلف بسبب « الرتل » ، وكانت فرانس تنظر اليها ، من جانب ، ببرود . وقالت فرانس بصوت مرتفع :

— هذه الغرفة أصغر مما ينبغي ، فلن نرتاح فيها ابداً . كانوا قد وعدوني في كازابلانكا بان نكون وحدنا في غرفة لستة امكنة .

كانت المشكلة تبتدىء ، وكان في الجو شيء ينذر بالشؤم ؛ وقالت مود بصوت منخفض :

— بوسعنا ان ندفع على التذاكر مبلغاً إضافياً .

فلم تجب فرانس . وكانت قد جلست على السرير الايسر وبدت وكأنها تفكر . وبعد لحظة ، أشرق وجهها وقالت بمرح :

– اذا اقترحنا على الربان ان نقدم حفلة مجانية في قاعات الدرجة الاولى ، فربما وافق على نقل امتعتنا الى غرفة افضل ؟

فلم تجب مود : كان على روبي ان يجيب . وقال روبي بحيوية :

– فكرة ممتازة .

فارتعشت مود فجأة ، وشعرت بالاشمئزاز من نفسها . والتفتت الى فرانس وقالت بصوت مبتهل :

– هيا يا فرانس ! انت رئيسة فرقتنا ، وعليك انت ان تذهبي لرؤية الربان .

فقالت فرانس في دعابة :

– كلا يا عزيزتي .. فماذا تأملين من امرأة مسنة مثلي اذا ذهبت لترى الربان ؟ سيكون اوفر لطفاً مع غندورة صغيرة في مثل عمرك .

رجل طويل أحمر الوجه ذو شعر ابيض وعينين رماديتين . ولا بد انه نظيف الى حد بعيد من الدقة ، فقد كان يبـــدو كذلك دائماً .

ومدت فرانس ذراعها وضغطت على زر الجرس وقالت :

– الافضل ان ننهي المسألة على الفور .

وكانت المرأة ذات الثوب الاسود ما تزال تبكي . ورفعت رأسها فجأة وبدت كأنها تلاحظ وجودهم ، ثم سألت في قلق :

– أتراكم ستغيرون غرفتكم ؟

فنظرت اليها فرانس نظرة مثلجة . وأجابت مود بحيوية :

– ان معنا أمتعة كثيرة يا سيدتي . فسوف يضيق بنـــا المكان وسوف نزعجك .

قالت السيدة : – انكم لا تزعجونني . فانا احب الرفقة .

وطُرق الباب فدخل الخادم ، وفكرت مود « انتهى الامر » وأخرجت اصبع الاحمر وعلبة الابيض ، فاقتربت من المرآة وأخذت تتزين باهتمام

وقالت فرانس :

– هل لك ان تسأل الربـــان اذا كانت لديه دقيقة ليستقبل الآنسة مود اسبني من جوقة « بابيس » .

فقال – كلا ، كلا . اراهنك ان لا .

أرائك الخيزران ، ظل شجر الدلب . كان دانيــال يستحم في ذكريات قديمة ضجرة ؛ في فيشي ، عام ١٩٢٠ ، كان غافياً في اريكة من خيزران ، تحت اشجار الحديقة الكبيرة ، وكانت على شفتيه بسمة المجاملة نفسها ، وكانت امه تسرد بالقرب منه ، وكانت مارسيل تسرد بالقرب منه جوارب للصغير ، وكانت تحلم احلاماً حول الحرب/: فكان نظرها غائماً شارداً . الطنين الابدي للذبابة الضخمة ، كم انقضى من الوقت منذ ايام فيشي وهذه الذبابة ما تنفك تطن،وتنبعث رائحة النعنع، وخلفهم ، كان في صالون الفندق من يوقع على البيانو ، منذ عشرين عاماً ، منذ مئة عام . بعض اشعة الشمس على الاصابع ، تجعد زغب السلاميات ، وكانت بعض اشعة الشمس تسخن ، في قعر الفنجـــان الفارغ ، مستنقع قهـــوة وصخرة سكّر سمراء دقيقة ذات الف رأس ملتمع . وسحق دانيال قطعة السكر ، بدافع من رغبة شرسة لانه يحس تحت ملعقته هذا الانهيار للرمل وهو يصرّ . وكانت الحــديقة تتداعى للانحدار برفق نحو النهر ، والماء فاتر بطيء ، ورائحة النبات مسخنة ، ومجلة « لاريفو دي دوموند » قد تركها السيد دولسيتّراغ ، الكولونيل المتقاعد ، على طاولة تقوم في الناحية الاخرى من الدرج . الموت ، الخلود ، لن نفلت منه ، الخلود العذب الناعم، الاوراق الخضر الدبقة، فوق الرؤوس ؛ التلة الصغيرة الخالدة للاوراق الاولى الميتة . وكان اميل، الحي الوحيد ، يقلب الارض تحت شجر الكستناء . كان ابن اصحاب الملك ، وكان قد رمى بالقرب منه ، على حافة الحفرة ، كيساً من الكتان الرمادي . وكان في الكيس « زيزي » الكلبة الميتة : كان اميل

يحفر لها قبرها ، وعـلى رأسه قبعة كبيرة من القش ؛ وكان العرق يلتمع على ظهره العاري . كان فتى صغيراً متوحشاً ذا وجه فظ ، هو صخرة مع شقين افقيين مزبدين بـدلاً من العينين ، وكان في السابعة عشرة . وكان قد بدأ يرفع تنانير الفتيات ، وكان بطلاً محلياً في لعبة البليار ، وكان يدخن السيكار : ولكنه كان يملك هذا الجسم اللذيذ الذي لا يستحقه .

قالت مارسيل :-

– آه ، ليتني اجرؤ على تصديقك ..

طبعاً . طبعاً لم تكن تجرؤ على ان تصدقه . ومع ذلك ، فما عسى ان يؤثر فيها ، تلك ، ان تقع الحرب ؟ انها تزدد سماً في ثقب ما من الريف . أتراها لن تهرب ؟ وسوف تفوت ساعة القيلولة . كان يضغط قدمه على المقلب ويثقل بكل قواه . ما اشهى ان ترضع اليدان بعذوبة على الجنبين ، وان تصعدا . وهما تضغطان قليـلاً ، كما يفعل المدلـل ، فيما هو يقلب الارض ، وان تلامسا العضلات الظهرية في الذهاب والاياب ، وان تغمسا أطراف الاصابع في ظل الإبطين الرطب . ان عرقه يشبه رائحة الصعتر . وشرب جرعة من عصير الفاكهة .

قالت مارسيل :

– ستقع أشياء جميلة جداً : وها هي النغبشة في باديء الأمر .

– ولكن كيف يمكن لك يا عزيزتي مارسيل ، ان تنخدعي بذلك؟ ان « الهوم فليت » ستقوم برحلتها الصغيرة في بحر الشمال ، وسيجنـد مئتا الف رجل في فرنسا ، وسيحشد هتلر اربع فرق مصفحة عـلى الحدود التشيكية ، وبعد ذلك تقر عيون هؤلاء السادة ، ويسعهم ان يتحادثوا بهدوء حول طاولة .

أجساد النساء ، يمكن الإمساك بها . مطاط ، لحم منزوع عظمه ، تمتليء منه يداك باكثر مما تود . اما ذلك الجسم ، فقد كان ينـادي

أصابع نحات تلامسه ، وينبغي اتخاذه نموذجاً للنحت . واستقام دانيال فجأة في اريكته ، وأدار نحو مارسيل عينين ملتمعتين . هذا لا يعمل ، فتلك دعارة ، وانا لم ابلغ بعد سنها . انني أشرب قدح عصير ، واتحدث بجد عن الحرب الآتية ، وفي هذه الاثناء يلامس النظر ، في غير ما اكتراث ، ظهراً فتياً عارياً ، ردفاً مشرئباً بعض الشيء ، ويتطفل على جميع الخطوط التي يمنحها أصيل يوم صيفي . فلتأت الحرب ، لتأت إذن ، كي تقهر عنفي وتغرقها في محجريهما ، لتكشف لهم اخيراً عن اجسام ملطخة ، دامية ، مقطعة ، لتنزعني من الابدي ، من الشهوات الابدية الصغيرة المائعة ، من البسمات ، من ظلال الاوراق ، من طنين الذباب ، نبع من نار يصعد الى السماء ، لهب يحرق الوجه والعينين ، حتى ليحسب المرء ان خديه ينتزعان ، لتأت اخيراً اللحظة التي ليس لها من اسم ولا تذكر بشيء .

وقالت مارسيل في تسامح لطيف ، ولم تكن تقدر قط كفاءتها السياسية :

— ولكن لنفكر : ان المانيا لا تستطيع ان تتراجع ، أليس كذلك؟ وقد وصلنا نحن الى حد التنازلات ، فماذا بعد ؟

فقال دانيال بمرارة : — لا تخافي ، سنقدم على جميع التنازلات الواجبة ، فليس هناك من حد . ثم ان المانيا يمكنها ان تسمح لنفسها بترف التراجع ، فمن ذا الذي يجرؤ على ان يسمي ذلك تراجعاً ؟ سيقال انه كرم وتسامح .

كان اميل قد نهض ، وكان يمسح جبينه بظاهر يده ، وكان إبطه يلتهب تحت الشمس وكان ينظر الى السماء باسماً ، كأنه رب ، رب فتي ! وجرح دانيال ذراع اريكته بظفره : كم مرة ، يا الهي ، كم مرة يا الهي قال : رب فتي ، وهو يتأمل مراهقاً في الشمس . كلمات تكتمها عمة عجوز في صدرها ؛ انني لوطي ، كان يقولها ، وكانت ما تزال

كلمات ، فلم تكن لتمسه ، وفكر فجأة : ماذا تستطيع الحرب ان تغير في ذلك ؟ سيكون هنا ، جالساً على حافة منحدر ، في فترة هـدأة موقتة ، وسينظر في شرود الى ظهرِ عار لجندي يقلب الارض او يبحث عن قمله ، فتتمتم شفتاه من تلقاء نفسهما ، وهما ممطوطتان : رب فتي ؛ ان الجميع يثورون في كل مكان .

وقال فجأة : — ثم اننا قائمون هنا نقلق انفسنا . وحين تبدأ الحرب؟ أتصور أننا ينبغي ان نعيش كل اسبوع باسبوعه آنذاك .

قالت مارسيل وقد بدا عليها مثل الذعر :

— اوه ! دانيال ... كيف يمكنك ان تقـول ذلك ؟ سيكون الوضع ... مريعاً .

كلمات . دائماً . كلمات .

وقال دانيال وهو يبتسم : — إن ما هو مريع ، أن ليس هنـاك قط ما هو مريع حقاً . ليس ثمة درجات قصوى .

ونظرت اليه مارسيل في شيء من الدهشة ، وكانت عيناها كابيتين متوردتين : كان النعاس يستولي عليها ، هذا ما فكر به دانيال في رضى .

— لو قلت لي ان هذه آلام نفسية ، لفهمت . ولكن هناك الاماً جسدية يا دانيال ..

قال دانيال وهو يهددها باصبعه :

— آه ! لقد بدأت منذ الان تفكرين بآلامك القـادمة . حسناً ، سترين ! سترين ! انا اتصور ان هذا ايضاً مغالى به جداً .

فابتسمت له مارسيل وهي تخنق تثاؤبه . وقال دانيال وهو ينهض :

— هيا ، المهم الا تعذبي نفسك يا مارسيل . انظري ، ها انت، من اجل لا شيء ، تفوتين عليك ساعة القيلولة . انك لا تنـامين نوماً كافياً ؛ وعلى من كان في وضعك ان ينام كثيراً .

فقالت مارسيل وهي تتثاءب وتضحك معاً :

– أنا لا انام نوماً كافياً ؟ على العكس ، انني خجلة لاني لا اقرأ بعد شيئاً ، وانما اقضي النهار فوق سريري .

ففكر دانيال : « من حسن الحظ » وهو يقبّل طرف اصابعها وقال :

– أراهن أنك لم تكتبي للسيدة املك .

قالت :

– هذا صحيح . انني ابنة رديئة (وتثاءبت وأضافت) سأفعل ذلك قبل ان انام .

فقال دانيال بحيوية :

– لا ، لا . استريحي على الفور . فانا الذي سأرسل لها كلمة .

قالت مارسيل متأثرة مفتونة :

– اوه ! يا دانيال : كلمة من صهرها ، كم ستكون فخورا !

ورقيت الدرج وهي تتهادى ، فعاد يجلس في اريكته . وتثاءب ، وسال الزمن ، ثم لاحظ انه كان يستمع الى البيانو . ونظر الى ساعته : كانت الساعة الثالثة والخامسة والعشرين ، وسوف تهبط مارسيل في الساعة السادسة لتقوم بنزهتها المشهّية للاكل . وقال لنفسه في شيء من الخوف المبهم : ان امامي ساعتين ونصفاً . فيما مضى كانت وحدته كالهواء الذي يتنفسه الاسان ، وكان ينعم بها من غير ان يراها . اما الآن ، فإنه يُعطاها اطرافاً صغيرة لاهثة ، ولا يعرف بعد ما عساه يفعل بها . غير ان اعجب ما في الامر ، ان ضجري يخف بالاحرى حين تكون مارسيل حاضرة . وقال في نفسه : لقد اردت ذلك ، لقد اردته ! وكان ما يزال في كأسه بعض شراب العصير فشربه . حين قرر ذلك المساء من حزيران ان يتزوجها ، كان يختنق من الضيق ، وكان يحسب انه يغرق في الهول . حدث ذلك كله لينتهي الى ما انتهى اليه هنا ، في اريكة الخيزران ، الى مذاق العصير يفسُد رويداً رويداً في فمه ، والى هذا الظهر العاري ، وسيكون الشأن في الحرب شبيهاً ،

ان الهول مرصود دائماً لليوم التالي . انا المتزوج ، انا الجندي : انني لا اجد سواي . حتى ولا انا : وانما سلسلة من الجري العجيب ، من الحركات الصغيرة المبعدة عن المركز ولا مركز . ومع ذلك فهنالك مركز : هو انا ، انا – والهول هو الوسط . ورفع رأسه ، وكانت الذبابة تطن على مستوى عينيه ، فطردها . فرار آخر . حركة صغيرة من يده ، لا شيء تقريباً ، ومع ذلك كن يفر ، ماذا تهمني هذه الذبابة ؟ ليتني اكون من حجر ، جامداً ، لا احس ، بلا حركة ، ولا ضجة ، أعمى اصم ، والذباب وابو المقص والدعسوق تصعد على جسمي وتهبط ، تمثالاً فظاً ذا عينين بيضاوين ، بلا هدف ولا هم ، فربما نجحت في ان انطابق مع نفسي . ليس ذلك من اجل ان اقبل نفسي ، كلا ، وانما من اجل ان اكون اخيراً موضوع كرهي بالذات . وحدث تمزق ، اربع انغام من احدى معزوفات البولونيز ، وبرق هذا الظهر ، هناك ، وتنمل في ربلة الابهام ، ثم اشبه نفسه من جديد . ليتني اكون ما انا ، اكون لوطياً ، شريراً ، جباناً ، اكون اخيراً هذا القذر الذي لا يبلغ حتى ان يوجد . وقرب ما بين ركبتيه ، ووضع باطن يديه على فخذيه ، واخذته الرغبة في ان يضحك : لا بد ان هيئتي هيئة عاقلة ، وهز كتفه : أبله ! ليتني أكف عن الاهتمام بهيئتي ، وعن النظر الى نفسي خصوصاً ، فأنا اثنان حين انظر الى نفسي . ليتني اوجد . في الظلام اتفاقاً . وأكون لوطياً ، كما تكون السنديانة سنديانة . وانطفىء . وأطفيء النظر الداخلي . وفكر « أطفيء » ، وانفجرت الكلمة كالرعد وانتشرت اصداؤها في قاعات فارغة هائلة . ليت بالامكان طرد الكلمات ، فهي تفرخ طائفة من وتف التنفيذ ، وكان كل منها يعطيه موعداً في نهاية نفسه ... وحدث تمزق جديد ، فوجد دانيال نفسه وسنان ضجراً ، شخصاً ليس امامه الا ساعتان ، وهو يتلوى كما يطيق . ليتني اكون كما يرونني ، كما يراني ماتيو – ورالف برأسه الصغير القذر ، واطرد

الكلمات كما اطرد الرغش . واخذ يعدُّ في ذهنه : واحــد ، اثنان ، وجاءته كلمات : تسلية مصطاف . ولكنه عدَّ باسرع من ذي قبل ، وقرب حلقات السلسلة فعجزت الكلمات عن المرور . خمسة ، ستة ، سبعة ، ثمانية . الاعماق البحرية ، كانت هناك صورة متلبدة ، قبيحة ، تألفها تلك الاعماق السفلى ، عنكبوت بحري ، وكانت تتفتح ، اثنان وعشرون ثلاثة وعشرون ، ولاحظ دانيال انه كان يحبس نفسه ، فحرره ، سبعة وعشرون ، ثمانية وعشرون ، وكان ذلك ما يزال يقلب الارض ، هناك على صفحة الماء : الصورة كانت جرحاً مفتوحاً ، فما مرأ ، وكانت تنزف ، انها انا ، اما الشفتان المفترّتان ، والـــدم الذي يقرقر بين الشفتين ، ثلاثة وثلاثون ، وكانت الصورة مألوفة لديه ، ومع ذلك فهو يكوّنها للمرة الاولى . لا بد من طرد الصور ايضا ، كان مأخوذاً بخوف خفيف غريب . ليتني استطيع ان انسرب ، ان أتداعى للانسرب كما يحدث حين يود المرء ان ينام . ولكي سأنام ! وتفض نفسه ، وحام على السطح . اي سكوت في الخارج ، هذا السكوت الساحق ، نصف الميت ، الذي كان يبحث عنه عبثاً في نفسه ، كان هناك في الخارج ، وكان يبعث على الخوف . وكانت الشمس المتناثرة تغطي الارض بدوائر متحركة صفراء ، الكلبة الميتة ، ضجة النهر هذه على رؤوس الشجر ، الظهر العاري ، القريب جداً ، البعيد جداً ، وكان يشعر انه غريب عن نفسه غرابة مريعة حتى انه ترك نفسه يمضي من جديد ، ويسيل الى خلف ، وها هوذا الان يرى الحديقة من تحت ، كغاطس يرفع رأسه وينظر الى السماء عبر الماء . لا ضجة ، ولا صوت ، أي صمت حوله ، فوقه ، تحته ، وهو وحده ثقب صغير ثرثار وسط هذا الصمت . واحد ، اثنان ثلاثة ، لا بد من طرد الكلمة ، وليعبر صمت الحديقة . ولينضمّ وليتوحّد عبري ، حتى يساوي نفَسي . وليسحق كل عمود هوائي رويداً وبعمق ، الكلمات التي تحاول ان تولد ، يسحقها على غرار المكبس ، ليتني

اكون كالشجرة ، كالظهر العاري ، كالدوائر الهــلالية المرتعشة فوق الارض الوردية . حبذا لو اغمض عيني : فان العيون تنفذ الى ابعد مما ينبغي ، خارج اللحظة ، خارج نفسي ، فتحط هناك على الورق ،على هذا الظهر : ان النظر المطارد ، الهارب ، المنسرب ، المنتهي في نهاية نفسه ابداً ، يجس من بعيد . ولكنه لم يجرؤ على اغماض جفنيه : فلا بد ان اميل كان ينظر اليه من تحت ، بين الفينة والفينة ، فاذا فعل ، فسوف يظهر بهيئة سيد مسن اخذه النعاس الهضمي ، فالافضل ان يركز نفسه على شيء ، وان يعطي عجينته للنظر ، فيضبطه ويغذيه وينسرب في داخله ذاته ، متحرراً من العيون ، في ليلي الكثيف ، وحدق في حاشية الحديقة ، الى الشمال ، فاذا هي حركة كبيرة خضراء مسمرة : موجة مجمدة في اللحظة التي تنتثر فيها ، والنظر الشـــارد ، المرتد بلا انقطاع من ورقة الى اخرى . كان يذيب نفسه في هذه البرقشة النباتية، واحد « شهيق » اثنان « زفير » ثلاثة « شهيق » اربعة « زفير » . وكان يهبط وهو يستدير ، والتقى في الطريق برغبة ناغلة بالضحك ، اني اقوم بدور الدرويش ، شريطة الا أبتلع لساني ، وكان قد اصبح فوقه ، وكان يتوغل فيلتقي بكلمات في اسمال : خرف ، تحدّ ، كانت تصعد من جديد الى السطح . تحد نحو السماء الصافية ، يفكر فيه من غير صورة ، ولا كلام . وهو يأتي منفتحاً كفم ميزاب . وتحت الشفق، طلب مرّ ، ابتهال غير مجد . ايلي ، ايلي ، لاما ساباشـــتاني ، تلك كانت آخر الكلمات التي التقى بها ، وكانت تصعد كفقاعات خفيفة ، وكانت تلاوين حاشية الحديقة الخضراء هناك ، غير مرئية ولا مسماة ، امتلاء حضور ازاء عينيه ، يجيء ويستمر في المجيء . وشقه ذلك كالمنجل وكان عجيباً ، موئسا ، لذيذاً . مفتوح ، مفتوح ، القشرة تنفجر ، مفتوح ، مفتوح ، ممتليء ، انا نفسي للابد ، لوطي ، شرير ، جبان . انهم يرونني ، لا،حتى هذا لا : وانما ذلك يراني . كان موضوع نظر.

نظر كان يعيث فيه حتى الاعماق ، ينفذ اليه كضربات سكين ، ولم يكن نظرَه . نظر كثيف ، هو الليل بذاته ، ينتظره هناك ، في اعماق نفسه ويحكم عليه بأن يكون هو نفسه ، جباناً ، منافقاً ، لوطياً الى الأبد. هو نفسه ، خافقا تحت هذا النظر ومتحدياً هذا النظر . النظر . الليل . كما لو ان الليل كان نظراً . انني مرئي. شفّاف ، شفّاف ، مخترَق. ولكن من قبل من ؟ قال دانيال بصوت مرتفع : لست وحدي . فاستقام اميل . وسأل :

— ماذا هناك ، ياسيد سيرينو ؟

فقال دانيال — كنت اسألك عما اذا اوشكت ان تنتهي .

فقال اميل — اكاد انتهي : بعد دقيقتين .

ولم يكن يتعجل العودة الى قلب الارض ، بل كان ينظر الى دانيال في فضول وقح . ولكن ذلك كان نظراً انسانياً . نظراً كان من الممكن النظر اليه . ونهض دانيال ، وكان يرتعش خوفاً :

— الا يرهقك ان تعمل في وضح الشمس ؟

فقال اميل — لقد اعتدت .

وكان له صدر جذاب ، ممتلىء بعض الشيء ، ذو نقطتين صغيرتين ورديتين ، وكان يستند على مقلبه بهيئة اثارة ، في ثلاث خطوات ... ولكن كان ثمة ذلك التلذذ الغريب الغريب الذي كان أعنف من جميع الشهوات ، كان هناك ذلك النظر . وقال دانيال :

— إن الحر اثقل من ان اطيقه . واظن اني صاعد لارتاح لحظة . وحنى رأسه قليلاً ورقي الدرج . كان فمه جافاً ، ولكنه كان مصمماً : ففي غرفته ، بعد اسدال الستائر ، واغلاق المصاريع ، سيعيد التجربة .

الساعة ١٥،١٧ في سان فلور ، كانت السيدة هانوكين تصطحب زوجها الى المحطة ، وكانا قد سلكا الطريق الشديدة الوعورة . وكان

السيد هانوكين يرتدي بذلته الرياضية ويحمل مزماره على جنبـــه ، وقد انتعل حذاء جديداً كانت فرعته تجرحه . وفي منتصف الطريق ، التقيا بالسيدة كالفيه التي كانت واقفة بالقرب من بيت كاتب العدل لتلهث قليلاً . وقالت حين لمحتهما :

— آه ! يا للساقين المسكينتين ! انني اصبح امرأة عجوزاً .

قالت السيدة هانوكين : — بـــل انت انضر من اي وقت آخر . انني لا اعرف كثيرين يسلكون الطريق الوعرة من غير ان يستردوا انفاسهم .

وسألت السيدة كالفيه : — والى اين تراكما تركضان هكذا ؟

قالت السيدة هانوكين :— آه يا عزيزتي جان . انني اصحب زوجي، فهو ذاهب . لقد استدعاه الجيش .

فقالت السيدة كالفيه — غير ممكن . انني لم اكن اعرف هذا ! إذن اذن (وخيل الى السيد هانوكين انها كانت تنظر اليه باهتمام خاص) لا بد أن يكون امراً قاسياً ان تذهب في مثل هذا اليوم الجميـــل .

قال السيد هانوكين :—من يدري ! لابأس !

وقالت السيدة هانوكين :— انه شجاع جداً .

قالت السيدة كالفيه وهي تبتسم للسيدة هانوكين :

— من حسن الحظ . هذا ما كنت اقوله امس لزوجي : سيذهب الفرنسيون جميعاً بشجاعة .

واستشعر السيد هانوكين الفتوة والشجاعة ، وقال:

— اعذرينا ، لقد آن لنا ان نذهب .

فقالت السيدة كالفيه :— اذن الى اللقاء القريب .

قالت السيدة هانوكين وهي تهز رأسها : — آه الى اللقاء القريب .

فقال السيد هانوكين بقوة : — بلى الى اللقاء القريب ! الى اللقـــاء القريب !

واستعادا سيرهما ، وكان السيد هانوكين يمشي بخطوة حية ، فقالت له السيدة هانوكين : — مهلاً يا فرانسوا ، فأني لا استطيع ان أتبعك ، بسبب قلبي .

والتقيا الماري التي كان ابنها يؤدي الخدمة العسكرية ، فصاح بها السيد هانوكين :

— اليس لديك ما تريدين ان تقوليه لابنك ، ايتها الماري ؟ فربما التقيت به ، انني اعود جندياً .

فبدت الماري مبهوتة ، وقالت وهي تضم يديها :

— يا يسوع !

فبعث لها السيد هانوكين باشارة خفيفة ودخلا المحطة .

وكان شارلو هو الذي يثقب التذاكر ، فسأل :

— واذن ياسيد هانوكين ، انه اليوم يوم الكبير ، هذه المرة ؟

فأجابه السيد هانوكين وهو يبسط له التذكرة :

— بل هو الزيمبادابوم ، وروميا الحب .

وكان كاتب العدل ، السيد بينو ، على المحطة ، فصاح بهما من بعيد :

— اذن انت ذاهب للقصف في باريس ؟

فقال السيد هانوكين — نعم ! او لألقي القنابل في نانسي (واضاف باقتضاب) : لقد استدعيت .

قال كاتب العدل : — هكذا اذن ! هكذا اذن ! ولكن قل لي : هل لديك الكراسة رقم ٢ ؟

—اجل

قال : — هيا ، ستعود الينا عما قريب ، فهذا كله شيء مصطنع .

فاجاب السيد هانوكين بجفاء :

— لا اعتقد هذا . فعندك في الدبلوماسية ، كما تعلم ، من تلك

الظروف التي تبدأ بالمزاح وتنتهي بالدم :

— وهل ... يدفعك هذا الى القتال من اجل التشيكيين ؟

فاجاب السيد هانوكين — التشيكيين او غير التشيكيين ، ان الناس يقاتلون دائما من اجل ملك بروسيا .

وضحكا وتبادلا السلام . وكان قطار باريس يلج المحطة ، ولكن السيد بينو تمهل ليقبل يد السيدة هانوكين .

وصعد السيد هانوكين الى حافلته من غير ان يستعين بيديه ، ورمى بزماره على مدي يده في الركن الذي كان قد حجزه ، وعاد الى الممر فأخفض الزجاج وابتسم لزوجته .

وقال :

— كوكو ، هأنذا ! انني في حالة جيدة، وهنا مكان متسع جداً، فاذا ظل كذلك ، كان بامكاني ان امد ساقي لانام .

— اوه ! سيصعد ركاب في كليرمون .

— اخشى ذلك .

وقالت له : — اكتب لي . كلمة صغيرة كل يوم : ولا حاجة لأن تكون طويلة .

— اتفقنا .

— لاتنس ان تلبس زنارك الفلانيل ، ارضاء لي .

فقال في مهابة جادة :— اقسم لك بذلك.

ونهض فعبر الممر وهبط الى العتبة ، وقال :

— قبليني يا عزيزتي .

وقبلها على خديها المترهلين . فذرفت دمعتين . وقالت :

— يا آلهي ... هــذه المتاعب كلها ... هل كنا بحاجة الى هذا ؟

فقال : — هيا ! هيا ! شت ! شت ! هل تريدين أن ...

وصمتا . وكان يبسم لها، وكانت تنظر اليه وهي نبتسم وتبكي قليلاً، ولم يبق لديهما شيء يقولانه . وكان السيد هانوكين يتمنى لو ينطلق القطار باسرع ما يمكن .

الساعة السابعة عشرة والدقيقة الثانية والخمسون في « نيور » . عقرب الساعة الكبير يتحرك في رعشات كل دقيقة وينوس قليلاً ثم يقف . القطار اسود ، المحطة سوداء . السناج . لقد حرصت على المجيء بدافع الواجب . وقد قلت لها : « لا حاجة بك الى المجيء ، فنظرت الي نظرة مدهوشة : « ولكن كيف يا جورج ؟ ان هذا غير معقول» فقلت لها : « لا تبقي اطول مما ينبغي . انك لا تستطيعين ان تتركي الصغيرة وحدها . » قالت : « سأطلب من الأم كورنو ان تسهر عليها. ساضعك في القطار ، ثم اعود . » وهي الآن هنا ، أنحنى عند نافذة حافلتي وانظر اليها . ان بي رغبة للتدخين ، ولكني لا اجرؤ ، وافكر بأن ذلك لن يكون محتشماً . وهي تنظر الى نهاية الرصيف ، حامية بيدها عينيها ، بسبب الشمس ، ثم تذكر بين الفينة والفينة أني هنا ، وأن عليها ان تنظر الي . وترفع رأسها وتضع عينيها علي ، وتبتسم لي ، وليس لديها ما تقوله لي . والحق اني كنت قد ذهبت :

– وسائد ، أغطية ، برتقال ، عصير ، سندويش .

– جورج ؟

– حبيبي ؟

– هل تريد برتقالا ؟

ان قربة مزماري مليئة حتى لتنفجر . ولكنها راغبة في أن تعطيني شيئاً . لأني ذاهب . فاذا رفضت ، انتابها الندم . انني لا احب البرتقال .

– لا ، شكراً

– اوه ، لا ؟

— حقاً لا . انت لطيفة جداً .

بسمة ممتقعة . لقد قبلت منذ لحظة هاتين الوجنتين الباردتين الريّانتين ، وزاوية هذه البسمة . وقد قبّلتني ، فشعرت من ذلك ببعض الخجل : لِمَ هذه القصص كلها ؟ ألأني ذاهب يا إلٓهي ؟ هناك كثيرون ذاهبون. صحيح ان هناك من يقبّلهم أيضاً . فما اكثر النساء الجميلات الواقفات هكذا ، عند الشمس الغـــاربة ، في الدخان والسناج ، رافعات بسمة مصبوغة نحو رجلٍ منحنٍ عند نافذة حافلته ! ثم ماذا ؟ اننـــا نحن، لا بد ان نبدو مضحكين بعض الشيء : فهي جميلة اكثر مما ينبغي ، باردة اكثر مما ينبغي ، وانا قبيح اكثر مما ينبغي .

وقالت ، وكانت قد قالتهـــا ، ولكن لا بدّ من ملء الوقت : « اكتب لي ، ما استطعت الى ذلك . لا حاجة الى ان تكون الرسائل طويلة جداً .. »

لن تكون طويلة . فلن يكون عندي ما أقوله ، ولن يحدث لي شيء، ذلك أنه لا يحدث لي شيء قط. ثم اني سبق ان رأيتها تقرأ الرسائل ، بهيئتها الجادّة ، المهتمّة ، المضجرة ؛ انها تضع نظارتيها على طرف أنفها ، وتقرأ بصوت منخفض ، لنفسها ، وتجد وسيلة لتقفز بعض الأسطر .

— اذن سأقول لك يا حبيبي المسكين الى اللقاء . حاول ان تنـــام قليلاً ، هذه الليلة .

أجل ، يجب ان يُقال شيءٌ ما . ولكنها تعلم اني لا انام ابداً في القطار . وهي سوف تردّد ذلك بعد حين للأم كورنو : « لقد ذهب . كان القطار غاصاً . يا لجورج المسكين ، ارجو مع ذلك ان يستطيع النوم » .

انها تنظر حولها ، نظرة شقية ؛ وقبعتها القشّية الكبيرة تتحرك على رأسها . وتوقف بالقرب منها شاب وامرأة شابة .

– يجب ان اذهب ، من اجل الصغيرة (تقول هذا بصوت مرتفع بعض الشيء ، بسببها . انها مهيبـــان لأنهما جميلان ، ولكنهما لا ينتبهان لها) .

– طبعاً يا عزيزتي . الى اللقـــاء . عودي بسرعة . سأكتب فور تمكني من ذلك .

دمعة صغيرة ، مع ذلك . لماذا ، يا إلهي ، لماذا ؟ انها تتردد . ولنفرض انها فجأة تمد لي ذراعيها ، وتقول لي : « ان هذا كله ليس الا سوء تفاهم . اني احبك ، احبك ! »

– حذار من البرد .

– نعم . نعم . الى اللقاء .

ومضت . ايماءة يسيرة من يدها ، وها هي تمضي ، رويداً ، وهي تؤرجح قليلاً ردفها الجميل الصلب ، الساعة السابعة عشرة والدقيقــة الخامسة والخمسون . ليس لدي بعد رغبة في التدخين . وظل الشاب والشابة على رصيف المحطة . اني انظر اليهما ، انه يحمل مزماراً بقربة، وقد تحدثا عن نانسي : فهو ايضاً من المجندين . انهما لا يقولان بعد شيئاً ، وانمـــا يتبادلان النظر . وانا انظر الى يديهما ، يديهما الجميلتين اللتين لا تحملان خاتماً . المرأة ممتقعة ، فارعة دقيقة ، ذات شعر أسود متشعث ؛ اما هو فطويل أشقر ، ذو بشرة مذهبة ، وذراعاه العاريتان تخرجان من قميص حريري ازرق . واصطفقت الابواب وهما لا يسمعانها ؛ بل لقد كفا عن تبادل النظر ، لم تبق لهما حاجة الى تبادل النظر ، انهما معاً من الداخل .

– الى السيارة نحو باريس ؟

وترتعش من غير ان تقول شيئاً . ولا يقبلها هو ، وإنما يحبس في يديه الذراعين الجميلتين العاريتين ، على مستوى الكتفين ؛ ثم يهبط بيديه رويداً على طولها ويقف لدى المعصمين ؛ معصمان هزيلان واهنان . ويبدو

انه يشدّهما بكل قواه . وتدّعه هي يفعل ، وذراعاها متدليتان بسكون ، ووجهها مستنيم .

— الى السيارة .

وينطلق القطار ، فيقفز الى العتبة ، ويظلّ هنا متشبثاً بقضبان النحاس. وتلفتت هي اليه ، فتبيّض الشمس وجهها ، وتغمز بعينيها وتبتسم . انها بسمة عريضة حارة ، واثقــة جداً ، هادئة جداً ، رقيقة جداً : حتى انه لا يمكن لرجل مهما بلغ من الجمال والقوة ان يحمل لنفسه وحده بسمة مثل هذه . انها لا تراني ، وهي لا ترى غيره ، وتطرف بعينيها ، وتقاتل الشمس لتراه لحظة اخرى . وانا ابتسم لها ، ابادلها بسمتها . الساعة الثامنة عشرة . غادر القطار المحطة ، وهو داخلٌ في الشمس ، فجميع واجهاته تلتمع . وقد ظلت على المحطة ، صغيرةٌ غامضة. هناك مناديل يُلوّح بها حولها . وهي لا تتحرك ولا تلوّح بمنديل ، وتتدلى ذراعاهــا على طول جسمها ، ولكنها تبتسم ، وكأنها تستنفد نفسها بالابتسام. وهي ما تني الآن تبتسم ، من غير شك ، ولكن بسمتها لا ترى بعد . وانما هي التي تُرى . انها هنا من اجله ، من أجل جميع الذين يذهبون ، من أجلي انا . ان زوجتي في بيتنا الهادىء ، جالسة بالقرب من الصغيرة ، والصمت والسلام يتشكلان حولها من جديد . اما انا ، جورج المسكين ، فذاهب ، لقد ذهب ، وارجو ان يستطيع النوم . انني اذهب ، أهرب من الشمس وابتسم بكل قواي لشكل صغير مظلم ظلّ على رصيف المحطة .

الساعة الثامنة عشرة وعشر دقائق . كان « بيتو » يذرع الطريق في شارع « كاسيت » ، فقد كان لديه موعد في الثامنة عشرة ، ونظر الى ساعة يده ، الساعــة الثامنة عشرة والدقيقة العاشرة ، سأصعد بعد خمس دقائق . وعلى بعد خمسمئة وثمانين كيلومتراً جنوب غرب باريس ، كان جورج مرتفقاً قضيب الاستناد ، يدلف بين المراعي ، وينظر الى

اعمدة التلغراف ، ويعرق ويبتسم ، وكان بيتو يقول لنفسه : « اية حماقة يمكن لهذا المزعج ان يكون قد ارتكبها بعد ؟ » وانتابته رغبة عنيفة بأن يصعد ويدق ويصيح : « ما الذي فعله بعد ؟ انا لا دخل لي في الأمر » . ولكنه قسر نفسه على ان يستدبر ، سأذهب حتى ذلك المصباح ، هناك ، ومشى ، المهمّ ألاّ يبدو بمظهر المستعجل ، بل كان يأخذ على نفسه مبدأ المجيء . وكان عليه ان يجيب ، على ورق معنون ، اذا كنت ترغبين يا سيدتي في التحدث اليّ ، فانا في مكتبي كل يوم من العاشرة حتى الظهر . وأولى المصباح ظهره ، وحثّ خطاه ، بالرغم منه . باريس : خمسمئة وعشرة كيلومترات ، ومسح جورج جبينه ، وكان ينحدر نحو باريس ، كالسرطان ، وكان « بيتو » يفكر : انها قضية قذرة ، وكان يعلو تقريباً ، وخلفه القطار ، واستدار في شارع « رين » ودخل البنــاية رقم واحد وسبعين وصعد الى الطابق الثالث ودق الجرس ؛ وعلى بعد ستمئة وثمانية وثلاثين كيلومتراً في باريس ، كان هانوكين ينظر الى ساقي جارته ، وكانتا ساقين كبيرتين بارزتي الربلات في جوربين حريريين مزغبرين بعض الشيء ؛ وكان بيتو قد دق الجرس ، وكان ينتظر على الدرج وهو يمسح جبينه ، وكان جورج يمسح جبينه ، في ضجيج الشاحنات ، اية حماقة عساه قد ارتكب ، فتلك حكاية قذرة ، وكان بيتو يشقّ عليه ان يلتهم ، وكانت معدته خصوصاً مبهمة مقرقرة ، ولكنه كان يقف باستقامة ، ورأسه مرفوع بصلابة ، وهو ينفخ منخريه قليــلاً ، وكان يمطّ شفتيه ذلك المطّ المريع ، وانفتح الباب ، ودلف قطار هانوكين الى نفق ، ودلف بيتو الى ظلام رطب كانت تنبعث منه رائحة الغبار ، وقالت له الخادمة : « تفضّل بالدخول » فاذا بامرأة بضّة معطرة ، ذراعاها عاريتــان رخوتان ، رخاوة البشرات الاربعينية اللذيذة النضرة ، ووسط شعرها الاسود خصلة بيضاء ، تهرع اليه فيشمّ رائحتها الناضجة .

– اين هو ؟
وانحنى ، كانت قد بكت . وفكّت جارة هانوكين ساقيها المتشابكتين، فرأى طرفاً من فخذها فوق ربطة الساق ، ومطّ شفتيه مطّتها المريعة وقال :
– عمّن تتحدثين يا سيدتي ؟
قالت :
– اين فيليب ؟
وأحس بحنان شديد ، فلعلّها ستبكي امامه ، وهي تلوي ذراعيها الجميلتين ، ولا بد ان امرأة من وسطها تحلق شعر إيطيها .
وانبعث صوت رجل فجعله ينتفض ، وكان صادراً من غرفة الانتظار .
« اننـــا يا صديقتي العزيزة نضيع وقتنا . فاذا شاء السيد بيتو ان يدخل مكتبي ، أطلعناه على الأمر » .
سقط في الشرك ! ودخل ، وهو يرتجف من الغضب ، وغرق في الحرارة البيضاء ، وكان القطار يخرج من النفق ، ودخل سهم من الدخان الابيض الى الحافلة . وجلسوا وقد اولوا النهار ظهورهم بالطبع ، وانا في وضح النور . وكانا اثنين :
وقال الرجل السمين المرتدي الثياب العسكرية : « انا الجنرال لاكاز » وأشار الى جاره ، وهو عملاق كئيب ، وأضاف :
– هوذا السيد جاردي ، طبيب عقـــلي ، تفضّل بفحص فيليب والاعتناء به قليلا ، في هذه الفترة الاخيرة .
وعاد جورج الى قاطرته وجلس ، وكان رجل قصير أسمر ينحني الى الأمام ، ويتحـــدث ، وكانت له هيئة الاسبان : « ان معلمك يساعدك ، هذا جميل جداً ، وهذا حسنٌ بالنسبة للموظفين . اما انا ، فليس لي راتب ثابت ، انني خادم مقهى ، وكل ما اصيبه تبرعات الزبائن . تقول لي ان هذا لن يدوم ، وانما القصد منه إخافتهم ، اريد

كثيراً ان اصدقك ، ولكن اعترف بان ذلك يدوم منذ شهرين ، فكيف يتأني لها ان تأكل ، زوجتي ؟ »

قال الجنرال :

— ان فيلب ، ابن زوجتي ، ترك البيت ، في ساعات الصباح الاولى من غير ان يعلمنا ، وحوالى العاشرة وجدت امه هذه الرسالة على طاولة غرفة الطعام (ومدّها له من فوق المكتب وهو يضيف بلهجة متسلطة) اطلع عليها ، ارجوك .

وتناول بيتو الرسالة في اشمئزاز ، ذلك الخط القذر ، المنقّط ، غير المنتظم ، المليء بالشطب واللطخ . كان قادماً ، وكان ينتظر ساعات برمتها ، وكنت اسمعه يذرع الطريق جيئة وذهاباً ، ثم يذهب تاركاً قصاصات مدعوكة من الورق ، مليئة باحرفه الذبابية ، في كل مكان ، على الارض ، وعلى الكرسي ، وتحت الباب ؛ وكان بيتو ينظر الى الخط من غير ان يقرأه ، شبيهاً بسلسلة من الرسوم العجيبة الذائعة التي تثير قرفه ، كم اودّ لو اني لم ألتق به قط .

« امي الصغيرة . هوذا زمن القَتَلة . اما انا ، فأختار الاستشهاد، وبما أصبت ببعض الهموم الشاقة : وهذا ما اتمناه لنفسي . فيليب » .

ووضع الرسالة على المكتب وابتسم ، وقال :

— زمن القَتَله . ان تأثير رامبو قد احدث خسائر مريعة .

فنظر اليه الجنرال وقال :

— سنعود عما قليل الى قضية التأثيرات . هل تعرف اين ابن زوجتي ؟

— وكيف تريدني ان أعرف ذلك ؟

— متى رأيته للمرة الاخيرة ؟

وفكر بيتو . « هكذا اذن ! انهم يستجوبونني » والتفت الى السيد لاكاز وقال في لهجة تتسم بعدم الكلفة :

ــ لم اعد اذكر . ربما منذ ثمانية ايام .

وكان صوت الجنرال يأتيه الآن مجانباً :

ــ هل اطلعك على نياته ؟

فقال بيتو وهو يبتسم للام :

ــ كلا، انت تعرفين فيليب ، فهو يتصرف تصرفات مفاجئة . وانا مقتنع بأنه لم يكن يعرف مساء امس ما سيفعله هذا الصباح .

واضـــاف الجنرال : ــ ومنذ ذلك الحين ، هل كتب او اتصل بك ؟

وتردد بيتو ، ولكن اليد كانت قد انطلقت ، يداً وديعة، خاضعة، غرقت في جيب الثوب الداخلي ، وتبعها القرار ، فمدت اليد قصاصة الورق . وخطفت السيدة لوكاز الورقة بشراهة ، انني لا استطيع بعد ان احكم على يدي . كان ما يزال يستطيع ان على يحكم وجهه ، فمط شفتيه تلك المطة المريعة ، وهو يرفع حاجباً :

ــ تلقيت هذا صباح اليوم .

فقرأت السيدة لوكاز بجهد : ــ « ليتوس اي ايراباندوس » : من اجل السلام .

كان القطار يجري ، وكانت الباخرة تهتز ، وكانت معدة بيتو تغني ، فنهض في مشقة وقال موضحاً في تأدب :

ــ ان هذا يعني : فرح ومتسكّع . انه عنوان قصيدة لفيرلين .

فرماه الطبيب النفسي بنظرة .

ــ قصيدة خاصة بعض الشيء ،

وسألت السيدة لاكاز :

ــ هذا كل شيء ؟

وكانت تقلب الورقة بين يديها .

ــ مع الاسف ، نعم ياسيدتي العزيزة ، هذا كل شيء .

وسمع صوت الجنرال القاطع :

– ماذا تريدين اكثر من ذلك يا صديقتي العزيزة ؟ انني أجد هذه الرسالة واضحه كل الوضوح،ويدهشني ان يدّعي السيد بيتو عدم معرفة نوايا فيليب .

والتفت بيتو فجأة اليه ، ونظر الى الثوب العسكري – لا الى وجهه بل الى الثوب العسكري – وصعد الدم الى رأسه . وقال:

– اسمع يا سيدي ، لقد كان فيليب يكتب لي مثل هذه الاوراق الانيقة ثلاث مرات او اربعاً في الاسبوع ، فانتهى بي الامر الى عدم الاهتمام بها ، وتعذرني اذا قلت لك عندي شواغل اخرى .

قال الجنرال :

– لقد كنت يا سيد بيتو تدير منذ ١٩٣٧ مجلة عنوانها «لوباسيفيست»[١] اتخذت فيها موقفاً محدداً ، ليس ضد الحرب فقط ، بل ضـــد الجيش الفرنسي ايضـــاً . وقد تعرفت الى ابن زوجتي في تشرين الاول ٣٧ في ظروف اجهلها فأقنعته بآرائك . ولقد تبنى تحت تأثيرك سلكاً غيرمقبول تجاهي ، لأنني ضابط ، وتجاه امه لانها تزوجتني ، وقد ظهر امـــام الجمهور بمظاهر واضحة العداء للنزعة العسكرية . وهو اليوم يهجر بيتنا في احرج ساعات التوتر العالمي ، وهو يخبرنا ، بواســطة الكلمة التي قرأتها ، انه يريد ان يكون شهيد السلام ، انت في الثلاثين من عمرك يا سيد بيتو ، وفيليب لم يبلغ العشرين ، ولن ادهشـــك اذا قلت لك انني اعتبرك شـــخصياً مسؤولاً عن كل ما يحـــدث لابن زوجتي على اثر فراره .

قال هانوكين لجارته :

« اسمعي ، سأقول لك: انا مجند » . فقالت : آه ، يا الهي . وكان جورج ينظر الى خادم المقهى ، فيجده لطيفاً ، وكانت به رغبة لأن

١– «المسالم»

يقول له : وانا كذلك مجند ، ولكنه لم يكن مجرؤ ، وذلك بدافع من الحشمة ، وكان القطار يهزه هزاً مريعاً ، وفكر : انني جالس فوق العجلات .

قال بيتو بصوت حاسم : — انني ارفض كل مسؤولية . انا افهم مصابك، ولكني لا استطيع مع ذلك ان اقبل ان اكون بالنسبة اليك كبش المحرقة. لقد جاء فيليب غربزيني الى مقر المجلة في تشرين الاول ٣٧ ، وهذا واقع لا افكر في افكاره . وقد اعطانا قصيدة بدت لنا مليئة بالوعود ، فنشرناها في عدد كانون الاول . وعاد بعد ذلك مراراً ، فاستعملنا كل شيء لثنيه : فقد كان متحمساً لنا اكثر مما ينبغي ، واصارحك القول اننا لم نكن نعرف ما نفعل به . (كان يجلس على طرف فخذيه ، ويحدد في « بيتو » نظره الازرق المزعج . وينظر اليه يشرب ويدخن ، وينظر الى شفتيه تتحركان ، ولم يكن يدخن ، ولم يكن يشرب ، وكان يضع بين الفينة والفينة ، اصبعاً في أنفه او ظفراً بين اسنانه من غير ان يكف عن النظر اليه)

وصاحت السيدة لاكاز فجأة :

— ولكن اين يمكن ان يكون ؟ اين يمكن ان يكون ؟ وماذا يفعل؟ انك تتحدث عنه كما لو انه مات ؟

وصمتوا ؛ وكانت قد انحنت الى الامام بوجه قلق يملأه الاحتقار ؛ وكان بيتو يرى منبت صدرها من فتحة القميص ؛ وكان الجنرال متصلباً في اريكته ، وكان ينظر . وكان يمنح بضع دقائق من الصمت لألم أم مشروع . ونظر الطبيب النفسي الى السيدة لاكاز في هيئة ود متنبه . كما لو انها كانت احدى مريضاته . ثم هز رأسه الكبير الكئيب، والتفت الى بيتو وعاد الى الهجوم :

— انني اقرك يا سيد بيتو ، ان فيليب لم يكن قد فهم جميع افكارك . غير ان هذا لا ينفي انه كان في شديد القابلية للتأثر، وكان

يكنّ لك اعجاباً هائلاً .

– اهذه غلطتي ؟

– ربما لم تكن غلطتك . ولكنك كنت تستغل تأثيرك استغلالاً سيئاً .

قال بيتو : – عجيب ! ولكن ما دمت قد فحصت فيليب ، فانت تعلم انه كان مريضا .

فقال الطبيب وهو يبتسم :

– ليس تماماً . لا شك في ان وراثته كانت ثقيلة ، من جهة ابيه (اضافها وهو يرمي الجنرال بنظرة) ولكنه لم يكن تماماً مريضا نفسياً كان فتى متوحداً ، غير متأقلم ، كسولاً وانانيـــاً . كان ذا عادات مضحكة طبعاً ، ومخاوف جنونية ، مع طغيان الافكار الجنسية . وقد جاء يراني عدة مرات ، في هذه الفترة الاخيرة ، وقد ثرثرنا ، فاعترف لي بأنه ... كيف يمكنني القول ؟ (وتوجه الى السيدة لاكاز) اعذري خشونة الاطباء . بالاختصار : استمناء منتظم . انا اعرف ان كثيراً من زملائي لا يرون في هذا الا نتيجة.اما انا فأميل مع الدكتور اسكيرول الى اعتباره سبباً . لقد كان – بكلمة واحدة – يجتاز بمشقة ما يسميه السيد ماندرس ، ازمة اصالة المراهقين : كان بحاجة الى مرشد . وقد كنت راعياً رديئاً يا سيد بيتو ، كنت راعياً رديئا .

وكان يبدو على نظر السيدة لاكاز انه مستقر على بيتو بالانفـــاق ، ولكنه كان غير قابل للتحمل . وقد آثر بيتو ان يلتفت بصراحـــة الى الطبيب النفسي وقال :

– اعتذر عما سأقول امام السيدة لاكاز ، ولكن ما دمت تلجئني الى ذلك ، فاصارحك بكل وضوح اني كنت وما ازال اعتبر فيـــليب نموذجاً كاملاً للمتحلل . فلئن كان بحاجة الى مرشد ، فلماذا لم تهتم به؟ كان ذلك واجبك .

فابتسم الطبيب النفسي بكآبة وامتص شفتيه وهو يتنهد . كانت تبتسم

وكانت مستندة الى باب الغرفة ، وقد قف شعرها ، وكانت تبسم بسمة فاتنة ، وقال لها الربان :

– ينبغي يا صغيرتي ان تعودي اليّ في الساعة التاسعة ، فاقول لك ما امكنني أن افعله لك ولصديقاتك (وكانت له عينان فارغتان صافيتان وقد لامس صدرها وعنقها واضاف) لا تنسي ، موعدنا ، هنـــا ، الساعة التاسعة مساء .

– شاء الجنرال لاكاز ان يعطيني بضع صفحات من مذكرات فيليب فظننت ان من واجبي ان اطلع عليها . اسمع يا سيد بيتـــو : ينتج من قراءة هذه المذكرات انك كنت تمارس نوعاً من « الشانتاج » على هذا الفتى المسكين . كان يبـــدو انك ، بعد وثوقك من مدى حرصه على تقديرك ، كنت تستغل ذلك لتطلب منه بعض الخدمات التي لا يوضحها في مذكراته . وقد اتجه له في الفترة الاخيرة ان يتمرد ، فاظهرت له له احتقاراً ساحقاً كان من نتيجته انه افضى به الى اليأس .

ماذا تراهم يعرفون ؟ ولكن الغضب كان اقوى ، فابتسم بدوره وكانت مود تبسم وتسلّم ، كانت مؤخرتها قد اصبحت في الخارج ، في الهواء الطلق ، بينما كانت قامتها تنحني وتغطس في هواء الغرفـــة المعطر الحار :

– ولكن طبعاً ، يا كابتين. الى الساعة التاسعة اذن ، الساعة التاسعة، هذا مفهوم .

– افضى به الى اليأس ، ولكن من كان يذله كل يوم ؟ أأنا الذي صفعته يوم السبت الماضي والجميع على المائدة ؟ أأنا الذي كنت اتظاهر باعتباره مريضاً وارسله الى طبيب نفسي ، واضطره الى الاجـــابة على اسئلة مذلّة .

وسأل خادم المقهى : – أأنت ايضا مجند ؟

فابتسم له جورج ابتسامة مسكنة ، ولكن كان عليه ان يتكلم ،

ان يجيب على اسئلة المرأتين الشابتين ، فقال :

ــ لا ، انا ذاهب الى باريس لشؤوني .

وانتفض لصوت السيدة لاكاز الثاقب :

ــ اتراكما لن تصمتا ؟ الا تستطيعان أن تسكتا ؟ ما اشد ما تحتقرانه ! فتى في العشرين قد نزعتما ثيابه ولطختماه ، أفلا تحترماني أنا ؟ ربما يكون قد القى نفسه في السين وانتما هنا تتبادلان تحمل المسؤوليات . اننا جميعاً مذنبون : لقد كان يقول : لا يحق لكم ان تدفعوني الى النهاية .

كان الجنرال محمر الوجه كل الاحمرار ، وكانت مود محمرة الوجه كل الاحمرار ، وقالت :

ــ حسناً ، سنأتي لناخذ امتعتنا ، وسننام هذه الليلة في الدرجة الثانية .

قالت فرانس ــ اترين يا عزيزتي ، لقد عقّدت الامور ، وهي لم تكن من الصعوبة كما كنت تتخيلين .

قال من غير ان يرفع صوته ، وهو يحّدد فيها عينيه الخشبيتين : « روز ! » فارتعشت ، ونظرت اليه فاغرة الفم ، وقالت :

ــ هذا قذر ... انني خجلة !

ومدّ يده القوية واطبقها على ذراع زوجته وردد : « روز ! » بصوت لا لحن له . وتجمّع جسم السيدة لاكاز ، واطبقت فمها ،وهزت رأسها وبدأت تستيقظ ، فنظرت الى الجنرال وبسم لها الجنرال ، وكان كل شيء قد عاد الى نصابه . وقال :

ــ انني لا اشاطر زوجتي قلقها ، ان ابن زوجتي قد ذهب بعد ان سرق عشرة آلاف فرنك من خزانة امه . فيصعب عليّ إذن ان اصدّق انه يريد ان يضع حداً لايامه.

وساد صمت . كانت الباخرة قد بدأت ترقص قليلاً ، واحس بيتو بأنه دبق ، وكان قد انزرع بالقرب من سريره وفتح حقيبته التي انبعث منها

رائحة من عطر الخزامى ومعجون الاسنان وتبغ أشقر شعر لها بالدوار، وفكر : — لقد قال لنا الخادم إن سفرتنا ستكون سيئة ! كان الجنرال يتأمل ، وكان يبدو على زوجته مظهر الصبي العاقل ، وكان بيتو لا يفهم ، وغرّدت معدته ، وكان رأسه يؤلمه ، وكان لا يفهم . كان يحس الصعود ، هوب ، ثم يشعر بالسكر ، وكانت الارض الخشبية تهتز تحت قدميه ، كان الهواء حاراً ودبقاً ، وكان ينظر الى الجنرال ، فلا يحس بعد القوة على كرهه . وقــال الجنرال ، كما لو انه ينهي هذا الحديث :

— ارى يا سيد بيتو ان بوسعك ومن واجبك ان تساعدنا للعثــور على ابن زوجتي . لقد اكتفيتُ حتى الآن باعلام مراكز الشرطة ،ولكن اذا لم نجد فيليب بعد ثمان واربعين ساعة ، فان في نيتي ان اضع القضية بين يدي صديقي المدعي العام ديترن، وان اطلب اليه بالمناسبة نفسها اذا كان لا يحسن بالعدالة ان تحقق قليلا في المورد المادي لجريدة «الباسيفيت».

قال : — انني ... طبعاً سأساعــدك . وبوسع الجميع ان يحشروا أنفهم في حسابات « الباسيفيت » ، ونحن نستطيع ان ننشرها في وضح النــهار .

وغطست الباخرة ، وكانت هي الجبال الروسية ، وأضاف وهو يدفع صوته عبر حنجرته المنقبضة :

— ولكن ... ولكني لا ارفض ان اساعدكم . بدافع انساني محض ، يا جنرالي .

وحنى الجنرال رأسه وقال :

— هكذا افهم القضية .

كانت تصعد رويداً ، رويــداً ، بالخفية ، ثم تهبط كذلك ، ولم يكن ثمة من يستطيع ان يمتنــع عن النظر الى السرر او المغسلة ليميز شيئاً يرتفع او يهبط ، ولكن لم يكن يُرى شيء ، باستثناء موجة زرقاء

مظلمة تلامس بين الفترة والفترة ، طرف النافذة السفلي ، وما تلبث ان تختفي . لقد كانت حركة صغيرة حية حيية ، خفقة قلب ، وكان قلب بيار يخفق منسجماً ؛ ولن تكف طوال ساعات وساعات عن ان تصعد وتهبط ؛ وكان لسان بيار ثمرة كبيرة ذات عصير في فمه : وكان يسمع ، لدى كل ابتلاع ، طقطقة غضروفية في مكان ما من اذنيه ، ثم انه كان ثمة ذلك الاكليل الحديدي الذي كان يشد صدغيه ، وتلك الرغبة في التثاؤب . ولكنه كان هادئاً جداً : لن يصاب بدوار البحر الا من يريده . وما كان له الا ان ينهض ، وان يخرج من غرفته ، وان يقوم بنزهة صغيرة على السطح ، حتى يجد نفسه من جديد ، ويذهب هذا الاشمئزاز الخفيف . وقال : « سأرى مود » وترك الحقيبة ونهض صلباً جامداً على حافة السرير ، وكان هذا يشبه اليقظة . وكانت الباخرة الآن تصعد وتهبط تحت قدميه / ولكن المعدة والرأس كانا متحررين ؛ وعادت عينا مود المستهينتان فظهرتا من جديد — والخوف والعار . سأقول لها اني كنت مريضاً ، ضربة شمس يسيرة ، شربت اكثر مما ينبغي . يجب ان اوضح الامر ، سوف يتكلم ، وسوف تخرقه بنظرها القاسي . وكم أن ذلك متعب ! وابتلع رضابه على مشقة ، فانسرب الى اعماق حنجرته في حسيس حريري فظيع ، وكان ماء تفه قد بدأ يسبح في فمه ، متعباً ، متعباً ، وفرّت افكاره فلم يجد بعد الا عذوبة كبيرة مهجورة ، رغبة في الصعود والهبوط بانتظام ، وفي التقيؤ المتمهل الطويل ، وفي ان يستلقي على الوسادة ، هوهيس ، هوهيس ؛ بلا أفكار : محمولاً في اهتزاز العالم الكبير ؛ وسوف يستدرك نفسه قبل فوات الاوان : فلن يصاب بدوار البحر الا من يريده . ووجد نفسه برمته ، صلباً وجافاً ، جباناً ، عاشقاً محتقراً ، ميتاً مقبلاً من اموات الحرب ، وجد كل خوفه المتبصر المثلج . واخذ الحقيبة الثانية من فوق السرير الاعلى ، فوضعها على السرير الاسفل وباشر فتحها . وقد ظل

مستقيماً ، من غير ان ينحني ، بل من غير ان ينظر الى الحقيبة ، وكانت أصابعه المخدرة تتلمس القفل على غير هدى . هل القضية تستحق؟ هل تستحق الصراع ؟ انه لن يكون بعد إلا عذوبة واسعة ، ولن يفكر بعد في شيء ، ولن يشعر بعد بالخوف ، كان حسبه ان يستسلم : « يجب ان اذهب لأرى مود » ورفع يداً فجال بها في الهواء بعذوبة مهتزة احتفالية بعض الشيء . حركات عذبة ، خفقات عذبة لجفوني ، ومذاق عذب في جوف فمي ، ورائحة عذبة للخزامى ولمعجون الاسنان ، والباخرة ترتفع بعذوبة ، وتهبط بعذوبة ، وتثاءب فأبطأ الزمن ، واصبح سكّرياً حوله ، كان حسبه ان يتصلب وان يخطو ثلاث خطوات خارج الغرفة ، في الهواء الطلق ، ولكن ما الغاية من ذلك ؟ أمن اجل ان يجد الخوف مرة اخرى ؟ وكنس الحقيبة بظاهر يده وتداعى للسقوط على السرير . شراب سكّري ، انه لا يشعر بعد بالخوف ، ولا يشعر بعد بالخجل ، وكم هو لذيذ ان يشعر بدوار البحر .

جلس على حافة الرصيف ، وكانت ساقاه تتدليان فوق الماء : كان تعباً ، وقال : « لن تكون مارسيليا رديئة لو لم يكن فيها هذه البيوت الكثيرة . » وكانت القوارب تتحرك تحته قليلا ، لا كثيراً ، وكانت قوارب صغيرة ، كثيرة العدد ، وعليها زهور او ستائر جميلة حمراء او تماثيل عارية .

كان يرى القوارب ، وكان فيها قوارب تقفز كالماعز واخرى لا تتحرك ، وكان يرى الماء شديد الزرقة ، ويرى في البعيد جسراً حديدياً كبيراً ؛ وما هو بعيد يجد المرء لذة في النظر اليه ؛ فهو يريح العينين . وكانت عيناه تؤلمانه : كان ينام تحت قاطرته وكان رجـــال قد أتوا يحملون المصابيح ، فالقوا عليه الضوء وطردوه بكلمات جارحة ؛ وبعد ذلك وجد تلة من الرمل ، ولكن النوم لم يرجع . وسأل : « اين تراني سأنام هذه الليلة ؟ » وكان ثمة بالتأكيد أمكنة جيدة ، مع قليل من

العشب . ولكن كان ينبغي معرفتها : وقد كان عليه ان يسأل الزنجي . كان جائعاً ، وقد وقف ، فأحس ركبتيه متصلبتين ، وقد فرقعتا ، وقال موضحاً : « لا أملك بعد ما آكله ، فيجب ان اذهب الى المطعم. » واستعاد سيره ، وكان قد مشى طوال النهار ، وكان يدخل ويسأل : « هل عندكم عمل ؟ » ثم كان يمضي ؛ كان الزنجي قد قال : « ليس هناك من عمل » والسير في المدن متعب ، بسبب البلاط . وقد اجتاز الرصيف ، مواربا ، بهدوء ، وهو ينظر ذات اليمين وذات اليسار ، ليتجنب الترام ، فحين كان يسمع جرسه ، كان ذلك يرعبه . وكان ثمة ناس كثيرون ، رقعاء يمشون بسرعة وهم ينظرون اقدامهم ، كما لو انهم كانوا يبحثون عن شيء ما ، وكانوا يصطدمون به اذ يحاذونه فيعتذرون له ، حتى من غير ان يرفعوا اليه عيونهم ؛ وقد كان يود لو يوجه اليهم الكلام ، ولكنهم كانوا يبدون من رخاصة العود بحيث انهم كانوا يخجلون من ذلك . وصعد الى الرصيف فرأى مقاهي ذات أسطحة جميلة ، ثم رأى ، مطاعم ، ولكنه لم يدخل : كان على الطاولات خوانات ، والخوانات معرضة للتلطيخ . ودلف الى زقاق مظلم كانت تنبعث منه رائحة الغوط ، وسأل : « ولكن اين تراني سآكل في هذه الحالة كلها ؟ » وفي تلك اللحظة بالذات وجد ما كان يناسبه : فقد رأى ، امام بيت صغير منخفض ، عشر طاولات خشبية تقريباً ؛ وكان قد وضع على كل طاولة صحنان او اربعة ، ومصباح صغير مستدير لا بد انه لا يضيء كثيراً ، ولم يكن ثمة خوانات . وكان على احدى الطاولات رجل قد بدأ يأكل مع سيدة كان يبدو عليها انها شريفة جداً ، فاقترب غرولويس منهما وجلس على الطاولة المجاورة وابتسم لهما . فنظرت اليه السيدة برصانة وأرجعت كرسيها قليلا ، ونادى غرولويس الخادمة ، وكانت امرأة قصيرة جميلة هزيلة بعض الشيء ولكن لها مؤخرة صلبة نشيطة .

— ماذا تقدمون هنا من طعام ، يا جميلتي ؟
كان حلوة ، وكانت رائحتها طيبة ، ولكنها لم تكن تبدو مسرورة برؤيته . ونظرت اليه مترددة ، وقالت وهي تومىء الى ورقة على الطاولة.
— ان لائحة الطعام امامك .
قال غرولويس : — آه ، حسناً .
واخذ اللائحة وتظاهر بأنه ينظر اليها ، ولكنه كان يخشى ان يمسكها بالمقلوب .
وكانت الخادمة قد ابتعدت،وراحت تتحدث الى سيد كان قد انزرع على عتبة الباب . وكان السيد يستمع اليها وهو يهز رأسه فيما هو ينظر الى غرولويس . واخيراً تركها واقترب من غرولويس بهيئة حزينة فسأله:
— ماذا تريد يا صديقي ؟
فقال غرواويس مندهشاً : — ولكنني اريد ان آكل . لا شك ان لديكم حساءً وقطعة من شحم الخنزير .
فهزّ السيد رأسه في حزن وقال :
— لا ، ليس لدينا حساء .
قال غرواويس : — ان معي مالا . فانا لا اطلب دينا .
قال السيد :— انا متأكد من ذلك . ولكن لا بد انك قد اخطأت ، فأنت لن تكون هنا على كيفك ، وسوف تزعجنا .
فنظر اليه غرولويس وسأله :
— ولكن اليس هذا مطعماً ؟
قال المعلم : — بلى ، بلى ، ولكن لنا نوعاً معيناً من الزبائن .. وانت تحسن صنعاً بان تذهب الى الناحية الاخرى من « الكانوبير » ، فستجد هناك عدداً من المطاعم الصغيرة التي تناسبك تماما .
وكان غرولويس قد نهض ، فحك رأسه بارتباك وقال :
— ان معي مالاً . واستطيع ان اريك اياه .

قال السيد بحيوية :

– ولكن لا ، لا ، فانا اصدق كلامك .

وأخذه بلطف من ذراعه وخطا معه بضع خطوات في الطريق وقال:

– اذهب من هنا ، فستجد الرصيف وتتبعه الى اليمين ، ولا يمكن ان تضلّ .

قال له غرولويس وهو يلامس بشرته ، ويحس بالارتباك :

– انت رجل شريف .

ووجد نفسه ثانية على الرصيف ، وسط رجال قصار سود كانوا يركضون بين قدميه ؛ وكان يسير ببطء شديد ، خشية ان يصدم أحدهم ، وكان حزيناً ، وفي تلك الساعة كان يهبط من « كانيغو » الى « فيلفرانش » ، وكان القطيع يقفز امامه ، فيشعر بالرفقة ، وكان غالباً ما يلتقي السيد بأردو صاعداً الى مزرعة « الفتيل » والذي لم يكن يمر من غير ان يقدم له سيكاراً وضربتين لطيفتين في جنبيه، وكان الجبل احمر صامتاً ، وفي جوف الوادي كان يرى دخان « فيلفرانش » . لقد كان ضائعاً ، فجميع هؤلاء الاشخاص كانوا يسيرون بسرعة مفرطة ، ولم يكن يرى الا أعلى رؤوسهم او قلانسهم ، وكانوا من الجنس القزم . وفرّ صبي بين ساقيه ، فنظر اليه ضاحكاً وقال لرفيقه :

– أنظر الى هذا ، الا تظن انه يضجر وحده ، هناك في الاعالي؟

ورآهما غرولويس يركضان ، فشعر بالارتباك ؛ لقد كان يخجل من ان يكون طويلا الى ذلك الحد . وقال : « ان لهم عاداتهم » واستند الى الجدار . كان حزيناً ورقيقاً ، لا يقل حزناً عن اليوم الذي كان فيه مريضاً . وفكر بالزنجي الذي كان لطيفاً ومرحاً الى ذلك الحد ، صديقه الوحيد ، وقال : « كان عليّ الا أدعه يذهب » ثم اخترقت رأسه فجأة فكرة صغيرة مرحة بعض الشيء : ان الزنجي يمكن ان يُرى

من بعيد ، فليس العثور عليه بالأمر الصعب ؛ ثم استعاد سيره ، وهو يحس انه اقل وحدة مما كان ، وكان يبحث عنه بعينيه ويفكر : « سوف ادعوه الى قدح » .

كن جميعاً على الساحة وقد توردت وجوههن بالشمس الغاربة. كانت هناك جان واورسول والشقيقات كلابو والماري وجميع الاخريات . وكن قد بدأن بالانتظار في بيوتهن ، واذ لاحظن ان الوقت يمر ، عدن الى الساحة ، الواحدة تلو الاخرى ، ورحن ينتظرن ، وقد رأين ، عبر المرآة التي ذهب التماعها ، المصابيح الاولى تضيء في مقهى الارملة « ترامبلان » فتحدث ثلاث لطخات مضببة في اعلى الواجهة . رأين هذه اللطخات فشعرن بالحزن : كانت الام ترامبلان قد اضاءت مصابيحها في مقهاها المقفر ، وجلست على طاولة من المرمر ، ووضعت على المرمر سلتها وراحت تلفق جواربها القطنية من غير قلق ، لانها كانت ارملة . اما هن ، فكن يبقين خارجاً في انتظار رجالهن ، وكن يشعرن خلفهن ببيوتهن الفارغة ومطابخهن التي كان الظلام يغمرها رويداً رويداً ، وكان امامهن تلك الدرب الطويلة الخطرة ، وفي نهاية « كان » .

ونظرت الماري الى الساعة في برج الكنيسة فقالت لاورسول : « ستبلغ الساعة التاسعة ، فربما احتفظوا بهم » وكان رئيس البلدية قد قال ان ذلك كان مستحيلاً ، ولكن ما ادراه ، فهو لم يكن يعرف خيراً منهن عادات المدن . فلماذا تراهم قد صرفوا شباباً اشداء اتوا يعرضون أنفسهم؟ ربما قيل لهم : « آه حسناً ! ما دمتم هناك ... » ثم احتفظوا بهم .

ووصلت روز الصغيرة وهي تركض ، وكانت تلهث وتصيح « ها هم اولاء ! ها هم أولاء ! » فأخذت جميع النساء يركضن ايضاً ؛ ولقد ركضن حتى مزرعة « داربوا » ، حيث كان يطل درب طويل ، فرأينهم على الطريق البيضاء ، بين البراري ، وكانوا على عرباتهم يسيرون في صف طويل ، كما في الذهاب ؛ وكانوا عائدين على مهل ،

يغنون : وكان على رأسهم شابان ، وكان منهاراً على مقعده ، ويداه ممسكتان بالاعنة في استرخاء ، وكان ينام، بينما الحصان يمشي بدافع العادة. ورأت الماري ان عيناً من عينيه كانت تحيط بها هالة سواد . ففكرت بأنه تنازع مرة اخرى مع احدهم . وكان واقفاً خلفه ، على عربة ، رونار الابن يغني بأعلى صوته ، ولكن لم يكن المرح بادياً عليه . وكان الآخرون يعقبونه ، فقد اصبحوا اشباحاً سوداء في السماء الصافية : والتفتت ماري نحو الام كلابو وقالت لها :

« لقد ثملوا ، وكانوا بحاجة الى هذا » وكانت عربة شابان تتهادى على مهل وهي تصر ؛ فأفسحت لها النساء المكان لتمر . ومرت فأطلقت لويز شابان صرخة ثاقبة : « يا إلهي ، انه لا يعود الا بحيوان واحد ، فماذا فعل بالآخر ، لقد باعه ليشرب » وكان رونار الابن يغني بأعلى صوته ، وكان يذبذب عربته بين حفرة واخرى ، وكان وراءه آخرون يغنون وقوفاً في عرباتهم ، والسوط في ايديهم . ورأت الماري رجُلها، ولم يكن يبدو عليه انه سكران ، ولكن حين رأت عن كثب وجهه المقطب ، ادركت انه شرب وانه سيضرب . وفكرت منقبضة القلب : « انه أسوأ من حيوان » ولكنها كانت مع ذلك مسرورة انه قد عاد ، فقد كان في المزرعة عمل كثير ، وقد كان من الافضل ان يضرب بين وقت وآخر ، ايام السبت ، وان يكون موجوداً للعمل الكبير : كان قد تداعى للسقوط على كرسي ، على سطيحة حانة ، فطلب قدحاً ، وقدموا له خمراً أبيض في كأس صغيرة جداً ، وكانت ساقاه تؤلمانه ، فمدهما تحت الطاولة وحرك اصابعه في حذائه وقال : « هذا طريف» ، وشرب وقال : « هذا طريف : لقد بحثت عنه طويلاً مع ذلك » ه لو جاء لأجلسه قبالته ، ولنظر الى وجهه الطيب الأسود ؛ وكان حسبه ان يراه حتى يضحك ، ويضحك الزنجي ايضاً ، وكانت تبدو عليه هيئة الاطمئنان والرقة كالبهيمة : « سوف اعطيه تبغاً يدخنه وخمراً

يشربه » .

وكان جاره ينظر اليه : إنه يجدني غريباً لأني اتكلم وحدي ؛ وكان شاباً في العشرين من عمره ، سيء النمو ، هزيلاً ، ذا بشرة بناتية ، وكان جالساً مع شاب أسمر جميل ، أفطس الانف ، في اذنيه زغب وعلى ساعده الأيسر سرطان موشوم . وادرك غرولويس انهما كانا يتحدثان عنه بلغتهما المحلية ، فبسم لهما ونادى الخادم :

— قدح آخر من الخمر نفسه يا صغيري . واذا كان لديك اقداح اكبر ، فلا تتردّد .

ولم يكن الخادم ليتحرك ، ولم يكن ليقول شيئاً ، ولكن كان ينظر اليه بهيئة من له هيئتان . وأخرج غرولويس محفظة نقوده ووضعها على الطاولة .

— ما بك يا صغيري ؟ اتظن اني لا أستطيع ان ادفع ؟ خذ !

وأخرج الاوراق الثلاث ذات الألف وأمرّها تحت أنفه .

— ماذا أقول لك ؟ هيا ، اعطني قدحاً من خمرك القذر .

وأعاد محفظته الى جيبه ولاحظ ان الفتى القصير المجعّد كان يبسم له بأدب . وسأله :

— كيف الحال ؟

— ماذا ؟

— كيف الحال ؟

قال غرولويس : — لا بأس . انني ابحث عن أسوَدي .

— ألست من هنا ؟

قال غرولويس وهو يضحك : — لا . لست من هنا . اتريد ان تشرب قدحاً ؟ انا الذي أدعو .

فقال المجعّد : — ان هذا لا يُرفض . ولكن هل استطيع ان أصحب رفيقي ؟

وقال بضع كلمات لرفيقه ، بلغتهما المحلية . وابتسم الرفيق ونهض في صمت ، وأقبلا يجلسان تجاه غرولويس . وكانت تنبعث من القصير رائحة عطر . وقال غرولويس :

ـ أشمّ منك رائحة عطر .

ـ كنت عند الحلاّق .

ـ آه ! هذا هو السبب . ما هو اسمك ؟

فقال القصير : ـ اسمي ماريو ، والرفيق ايطالي ، واسمه ستاراس. اننا بحريان .

وضحك ستاراس وسلّم من غير ان ينبس بكلمة . وقال ماريو :

ـ انه لا يعرف الفرنسية ، ولكنه ظريف . هل تعرف الايطالية ؟

قال غرولويس : ـ لا .

ـ لا بأس . سترى : انه على كل حال ظريف .

وتحدّثا فيما بينهما بالايطالية . كانت لغة جميلة ، وكانا يبدوان وكأنهما يغنيّان . وكان غرولويس مسروراً بعض الشيء ان يكون معهما ، لأن ذلك كان يحقّق له رفقةً ، ولكنه ظل يشعر ، في أعماقه ، بأنه وحيد .

ـ ماذا تشربان ؟

قال ماريو : ـ أنيسون .

فقال غرولويس : ـ ثلاثة أنيسون . ما هذا ، أهو خمر ؟

ـ لا ، لا ، أفضل من هذا . وسترى .

وملأ الخادم ثلاثة أقداح من مشروب ، وسكب ماريو ماءً في الأقداح ، يتحوّل المائع الى غيمة بيضاء أخذت تدور . قال ماريو :

ـ على صحتك .

وشرب بصخب ، ثم مسح فمه بكمّه . وشرب غرولويس ايضاً : لم يكن ذلك رديئاً جداً ، وكان فيه مذاق الأنيسون . وقال ماريو :

— انظر الى ستاراس ، فهو سوف يسليك .

وكان ستاراس قد بدأ يحول عينيه ، وكان في الوقت نفسه يقطب أنفه ، ويمط شفتيه ويحرك اذنيه كالأرنب . وضحك غرواويس ، ولكنه شعر بأنه مصدوم ومستاء : وفكر بأنه لم يكن يحب ستاراس . وكان ماريو يضحك حتى لتسيل دموعه ، وكان يقول وهو ما يفتأ يضحك :

— لقد انبأتك . انه ظريف ، هذا الأخ . وهو الآن سيقدم لك فصل الصحن .

ووضع ستاراس قدحه على الطاولة ، وقبض على صحنه في كفه العريضة ، ثم أمر ثلاث مرات متواليات يده اليسرى مبسوطة على يده اليمنى . وبعد المرة الثالثة ، كان الصحن قد اختفى . وانتهز ستاراس دهشة غرولويس ، فأدخل يده بين ساقيه ، وأحس غرولويس بان شيئاً صلباً كان يلامس ساقيه ، ثم ظهرت اليد ، وهي تحمل الصحن . وضحك غرولويس باعتدال ، بالرغم من ان ماريو ضرب على فخذيه وهو يبكي من الفرح .

وكان ماريو يقول بين شهقتين : — آه ! ايها القذر ! أقول لك ؟ ألن تنتهي من المزاح معنا ؟

وهدأ تدريجياً ، وحين استرد رصانته ، سقط على الرجال الثلاثة صمت ثقيل . وكان غرولويس يجدهما متعبين ، وكان راغباً بعض الرغبة في ان يذهبا ، ولكنه فكر بان الليل يوشك ان يهبط ، وان عليه ان يستعيد مشيه على غير ما هدى في الشوارع الطويلة الغارقة في الظلام ، وان يبحث بحثاً لا ينتهي عن مكان يأكل فيه وعن آخر ينام فيه ، فانقبض قلبه وطلب دورة اخرى من الأنيسون . وانحنى ماريو اليه ، فشم غرولويس رائحته . وسأله ماريو :

— هكذا إذن ، انت لست من هنا ؟

قال غرولويس : ـ لست من هنا ولا أعرف أحداً . والشخص الوحيد الذي اعرفه لا استطيع ان اعثر عليه (ثم فكر وقال) الا اذا كنتما تعرفانه . إنه الأسود .

فهزّ ماريو رأسه هزّة غامضة .

وانحنى فجأة نحو غرولويس وهو يغضّن عينيه ، وقال :

ـ مارسيليـــا هي البلد التي يهزل فيها الناس ويضحكون . فاذا لم تعرف مارسيليا ، لم تضحك في حياتك قط .

فلم يجب غرولويس . فقد هزل كثيراً في فيلفرانش ، ثم في مواخير « بيربينيان » حين أدّى خدمته العسكرية : ولقد انتهى ذلك . ولكنه لم يكن ليتصوّر أن بوسع المرء ان يهزل في مرسيليا . وسأل ماريو :

ـ اراك غير راغب في الهزل ... ألست تحلم احياناً باللعب الجميلة؟

قال غرولويس : ـ ليس الأمر كذلك . ولكني افضل الآن ان آكل . فاذا كنت تعرف مطعماً فاني ادعوكما الى الطعام بسرور .

حين هبط الليل ، كانت الأجرام قد تبخّرت ، فلم يبق إلاّ كتل غازية غامضة ، سحائب مظلمة ؛ كانت تمشي بسرعة ، خافضة الرأس ، مخسوفة الكتفين ؛ وكانت خائفة من الاصطدام فجأة بالحبال ، وكانت تسير بحذاء الحاجز ؛ تودّ لو يتأكّلها الليل ، ولا تكون الاّ بخـــاراً معلّقاً في هذا البخار الماثل وان تتمزّق شيئاً فشيئاً بالأطراف . ولكنها كانت تعلم جيداً ان ثوبها الأبيض كان فانوساً . كانت تعبر سطح الدرجة الثانية ، فلا تسمع ضجة ، باستثناء شكوى البحر السرمدية ؛ ولكن كان في كل مكان رجال جامدون صامتون ينفذون فوق ظل البحر المنبسط ، وكانت لهم عيون : وبين الفترة والفترة كانت نارٌ مدبّبة تثقب الليل ، فيحمرّ منها وجه ، وتلتمع عينان ، تنظران اليها ، ثم تغيبان . لقد ودّت لو انها تموت .

كان لا بد من هبوط درج ، وعبور سطح الدرجة الثالثة ، وارتقاء

درج آخر ، وهي صلبة كأنها سلّم ، شديدة البياض ؛ اذا رآني أحد ، فلن يكون ثمة مجال للشك ، إن غرفتـــه فوق ، وحيدة ؛ ولدى هذا الرجل عمل ، فلا يمكن ان يحتفظ بي طوال الليل . وكانت تخشى ان يجد في ذلك لذة ، فيرسل في كل مساء خادماً يبحث عنها في الصالون، كالربّان اليوناني ، ولكن لا ، فانا مفرطة الهزال بالنسبة لرجل سمين مسنّ مثله ، فهو سيصاب بالخيبة ، اذ لن يجد الا عظاماً . ولم تكن بها حاجة للطرق ، فقد كان الباب مشقوقاً ، وكان ينتظرها في الظلام، وقال :

— ادخلي ، يا جميلتي .

فترددت لحظة ، وهي منقبضة الحلق ؛ فجذبتهـــا الى الغرفة يد ، وانغلق الباب . وألصقتْ فجأة ببطن كبير ، وانسحق على فمها فمٌ مسنّ تنبعث منه رائحة الفلين . واستسلمت وكانت تفكر في خضوع متكبّر : « تلك هي المهنة ، وهذا جزء من مهنتي » . وضغط الربّان على الزرّ فخرج رأسه من الظلام ، وكان بياض عينيه مائعاً مزرقاً ، مع نقطة حمراء في العين اليسرى . وتخلّصت وهي تبتسم ؛ كان كل شيء قد أصبح أصعب جداً منذ أن أضيئت المصابيح ؛ كانت حتى ذلك الحين تتصوّره بكتل كبيرة ، اما الآن ، فقد أخذ يوجد حتى في ادقّ التفاصيل ، إنها ستضاجع كائناً فريداً في العالم ، كجميع الكائنات ، وستكون هذه الليلة ليلة فريدة ، كجميع الليالي ، ليلة حب فريد غير قابل للتعويض ، ضائع ضياعاً لا يعوّض . وكانت مود تبتسم وتقول:

— مهلاً يا كابتن : مهلاً ، فانت كثير الاستعجال : يجب ان نتعارف.

ما هذا ؟ واستقام على مرفق ، مرتاباً : كانت الباخرة تبدو جامدة ؛ وأخذته ثلاثة تقيؤات او اربعة كان أحدهما قوياً جداً فخرج من أنفه، وكان يُحسّ بأنه فارغ ولكنه صافي الذهن . وفكر : ما هذا ؟ ووجد نفسه فجأة جالساً على سريره ، ودائرة حديدية تحيط رأسه ، وذلك

الضيق الذي كان يألفه أشدّ الألفة يعضّ قلبه . وكان الزمن قد عاد يجري ، وكان آليةً متصلبة متقطعة ، وكانت كل لحظة تمزّقه كأنها سنّ منشار ، وكانت كل لحظة تقرّبه من مارسيليا ومن الارض الرمادية التي سيموت فيها . ومن جديد ، كان العالم هنا ، حول غرفته ، عالم محطات فظيع ، عالم دخان واثواب عسكرية وأرياف مكتسحة ، عالم لم يكن يستطيع ان يعيش فيه ، ولم يكن يستطيع ان يتركه ، وفيه ذلك الثقب الموحل الذي كان ينتظره في « فلاندر » . جبان ، ابن ضابط يخشى خوض الحرب : كان يشمئز من نفسه ، وكان مع ذلك يتشبث بالحياة تشبثاً يائساً . وهذا أشد سوءاً : لا اريد ان اعيش لما انا عليه من قيمة ؛ بل ... من اجل لا شيء ، من أجل لا شيء ، لأني أعيش ، وكان يحس نفسه قادراً على كل شيء ، لينقذ جلده ، على الفرار ، وعلى طلب الإعفاء ، وعلى الخيانة ، ومع ذلك فانه لم يكن حريصاً الى هذا الحد على جلده . ونهض : ماذا سأقول له ؟ أني كنت مصاباً بضربة شمس ، او بنوبة ملاريا ، او اني لم اكن في حالتي الطبيعية ؟ واقترب من المرآة وهو يتهاوى ، فرأى انه كان ممتقعاً كالليمونة . اكتمل الأمر : لا أستطيع ان أعوّل بعد حتى على وجهي . ولا بد ان رائحة القيء تنبعث مني ، فوق كل ذلك . ورش ماء الكولونيا على وجهه وتغرغر بماء « بوتو » . وفكر في غيظ : ما اكثر المشاكل ! هذه هي المرة الاولى التي أهتم فيها بما يمكن لامرأة ان تفكر به عني . نصف بغيّ ، عازفة كمان في فرقة مبتذلة ؛ ولقد عرفت نساء متزوجات ، وربّات أُسر . وفكر وهو يرتدي معطفه : أما هذه ، فانها تمتلكني ، وهي تعرف ذلك .

وفتح البـــاب وخرج ، كان الربان عارياً تماماً ، وكانت له بشرة شمعية ملساء ، بلا شعر ، ما عدا خمس او ست بيضاء ، على الثديين ، ولا بد ان الشعر الباقي قد سقط بسبب السنّ ، وكان يضحك ، وكان يشبه صبياً سميناً عفريتاً ، ولامست مود بطرف أصابعها فخذيه الكبيرتين

الملساوين فتلوّى وهو يقول :
– انك تدغدغينني !
وكان يعرف رقم الغرفة : ٢٧ ؛ وسلك ممراً الى اليمين ، ثم آخر الى اليسار . وكان يسمع ضربات كبيرة منتظمة على الحاجز ؛ هذه هي الغرفة ٢٧ . كانت ثمة امرأة شابة متمدّدة على ظهرها ، صفراء كالميتة ؛ وكانت سيدة عجوز جالسة على السرير محمرة العينين متورمتها ، تأكل خبزاً وجبناً .
وقالت : – اوه ! السيدات الثلاث هنا ؟ لقد كنّ لطيفات جداً ، وقد ذهبن اذ نقلوهن الى الدرجة الثانية ؛ سوف اشتاق لهن .
وكان ينظر اليها في دهشة ، ووضع يده على عظمتها الحرقفية :
– كنت تكونين ملتفة التكوين ، مع هذا الوجه الجميل ، ولكنك في الواقع هزيلة .
وضحكت ؛ حين كان احد يلمس عظمتها الحرقفية ، كان ذلك يضحكها :
– الا تحب الهزيلات يا كابتن ؟
فسارع يجيب : – آه ! انا لا اكرههن على الاطلاق .
وصعد الدرج وهو يركض ؛ كان يجب ان يرى مود . وهذا هو الآن ممر الدرجة الثانية ، ممر جميل ذو سجادة ، وكانت الابواب والحواجز ملمعة بالازرق الرمادي . وكان محظوظاً : فقد ظهر روبي فجأة ، يتبعه خادمٌ يحمل حقائبه . قال بيار :
– مرحباً ، انت في الدرجة الثانية ؟
قال روبي – نعم ! ان فرانس تخشى ان تكون مريضة . وقد اتفقنا جميعـــاً على ذلك : فحين تكون الصحة معرّضة ، فيجب ان نتحمل التضحيات .
– اين هي مود ؟

كانت مود مضطجعة على جنبها ، وكان الربّان يربّت على فخذيها بلطف وشرود ؛ وكانت تحسّ نفسها مهانةً عميق الإهانة : « لو لم اكن الشخص الذي يناسبه ، لما كان مضطراً الى مثل ذلك » . وأمرّت يدها على خاصرتيه لتبادله ملاطفته : كانت بشرته مترهلة . وقال بيار بصوت ثاقب :

— مود ؟ من يعرف اين هي ؟ انكم تعرفونها : لقد أخذتها الرغبة بأن تمضي لمغازلة البحارة ، الا ان تكون المغازلة للربان ! انها تعشق السفر بالبحر ، وهي لا تنفك تعدو في الباخرة من طرف الى طرف .

قال الربان : — ايتها الفضولية الصغيرة !

وضحك وقبض على معصمها وقال :

— اريد ان اطوف بك طوفة الملاّك .

والتمعت عيناه للمرة الاولى . فاستسلمت مود ، وهي متأثرة ، بسبب تغيير غرفتهنّ ، فيجب على اية حال ان يُعوّض عن ذلك ، وكانت آسفة اشد الأسف لكونها مفرطة الهزال ، فهي تشعر كما لو انها خدعته ؛ وكان الربان يبتسم ، وهو يخفض عينيه ، وكانت هيئته بريئة وداخلية ، فيما هو يشد معصم مود ويقودها من يدها في رقة صلبة. وكانت مود مسرورة وهي تفكر : « من اللئيم جداً ان أرفض شيئاً يرغب فيه ، بعد الإزعاج الذي سببناه له ، لا سيما وانه لا يحب المزيلات » .

— شكراً ! شكراً جداً !

أخفض رأسه واستعاد ركضه . كان يجب العثور على مود ؛ ستكون على سطح الباخرة . ورقي سطح الدرجة الثانية في الظلام ، وكان شبه مستحيل ان يُعرف الاشخاص ، الا ان ينظر اليهم المرء عن كثب . اني بليد ، فما عليّ الا ان انتظرها هنا : فمن حيث أنت، لا بد ان تسلك هذا السلّم . وكان الربان قد اغمض عينيه تماماً ، وكان يبدو في

هيئة هادئة دينية راقت كثيراً لمود ، وكانت تحس بمعصمها متعباً ، ولكنها كانت مسرورة ان ترضيه ، ثم انها كانت تحس نفسها وحيدة، كما كان يحدث وهي صغيرة اذ يأخذها الجد « تيغينور » على ركبتيه، وينام فجأة وهو يترنح برأسه . كان بيار ينظر الى البحر ويفكر : « انني جبان » وكان هواء رطب يسبل على خديه ويصفق خصلة شعره ، وكان ينظر الى البحر يهبط ويرتفع ، وينظر الى نفسه في دهشة ويفكر : « جبان . لم اكن لأصدق ذلك قط » . جبان الى حد يدعو الى البكاء. كان حسبه يوماً واحداً حتى يكتشف كينونته الحقيقية ، ولولا اخطار الحرب هذه ، لما عرف شيئاً ابداً . لو كنت في عام ١٨٦٠ مثلاً ، لكان انطلق يتنزه في الحياة بيقين هادىء ، ولكان انتقد بقسوة جبن الآخرين ، ولما كان لشيء على الاطلاق ان يكشف له طبيعته الحقيقية . لا حظ . يوم ، يوم واحد : اما الآن فقد كان يعرف ، وكان وحده . كانت السيارات والقطارات والقوارب تحرث هذا الليل الصافي الرنان ، وتتجه جميعاً نحو باريس ، وهي حاملة شباباً مثله لم يكونوا ينامون ، وهم يطلون من فوق المترسة ، او يلصقون الأنف بالزجاج المظلم . وفكر : ليس هذا بالعدل . ان هنك الوفاً من الناس ، وربما ملايين ، عاشوا في عصور سعيدة ولم يعرفوا قط حدودهم : لقد تُرك لهم ربح الشك . ربما كان الفريد دوفيني جباناً . وموسيه ؟ وسانت بوف ؟ وبودلير ؟ لقد كانوا محظوظين . وتمتم وهو يضرب بقدمه : « اما انا ! ما كان لها قط ان تعرف ، وقد كانت تمضي في ان تنظر اليّ نظرة العبادة ، وما كانت لتبقى اكثر من الأخريات ، وكنت سأهجرها بعد ثلاثة أشهر. ولكنها الآن تعلم . انها تعلم . القحبة ، وهي تمسكني » .

وكان الظلام سائداً في الخارج ، ولكن في الحانة كان النور غزيراً جداً حتى ان غرولويس كان مبهوراً به . وكان ذلك أدعى الى الضحك ،

اذ ان الناس لم يكونوا يرون مصابيح : وانما كان ثمة انبوب طويل أحمر يتلوى حول السقف ، ثم انبوب آخر ، ابيض ، وكان الضوء صادراً من هناك ؛ وكانوا قد ألصقوا مرايا في كل مكان ؛ وفي المرآة المواجهة ، كان غرولويس يرى رأسه برمته ، وجمجمة ستاراس ، ولم يكن يرى ماربو ولا ديزي اللذين كانا قصيرين جـــداً . وكان قد دفع ثمن الطعام وثمن اربع دورات لأقداح الأيسون ؛ وطلب عرقاً ، إذ هم جالسون في جوف الحانة ، تجاه المشرب ، وكان ذلك لذيذاً ، يحيط بهم صخب قطني مهدهد . وكان غرولويس يتفتح ، وكانت به رغبة لأن يصعد على الطاولة ويغني ، ولكنه لم يكن يعرف الغناء . وكان في احيان اخرى يغمض عينيه ، فيسقط في ثقب ويشعر بأنه مرهق كما لو أن شيئاً فظيعاً قد حدث له ، فيفتح عينيه ثانية ، ويحاول ان يتذكر ما وقع ، ولكنه يتأكد آخر الأمر انه لم يحدث له شيء قط . ومهما يكن من أمر ، فقد كان راضياً على الأغلب ، وكان متوتراً بعض الشيء بكل بساطة ، ولكنه مرتاح ؛ وكان يجهد في ان يُبقي عينيه مفتوحتين . وكان قد مدّ ساقيه الطويلتين تحت الطاولة ، احداهما بين ساقي ماربو ، والأخرى بين ساقي ستاراس . وكان يتطلع في المرآة فيضحك ، وحاول ان يقلّد ستاراس ، ولكن لم يكن يستطيع ان يُحوِل عينيه ولا ان يحرك اذنيه . وتحت المرآة ، كان ثمة سيدة صغيرة رصينة تدخن بتفكير ، ولا بد انها ظنته يوجّه اليها حركات وجهه ، لأنها مدّت له لسانها ، ثم حبست قبضتها اليمنى في يدها اليسرى ، وأغلقت القبضة اليمنى ثم أخذت تُديرها وهي تقهقه . وصرف غرولويس عينيه مبهوتاً ، وقد أخذه الخوف من ان يكون قد جرحها .

وكانت ديزي جالسة بلصقه ، صغيرة ، صلبة ، حارة . ولكنها لم تكن تنشغـــل به . كانت رائحتها طيبة ، وكانت مزينة كما ينبغي ، ولكن غرولويس كان يجدها أرصن مما يجب ، فهو يحب المغندرات

الصغيرات الضاحكات اللواتي يقمن ببعض المضايقات ، كأن ينفخن في أذنك ، او يهمسن بكلام بذيء لا تفهمه على الفور . كانت ديزي منتعشة وجادة ، وكانت تتحدث عن الحرب مع ماريو بلهجة جدية ، وكانت تقول :

– سنخوضها هذه الحرب . فان وجب ان نخوضها ، خضناها .

وكان ستاراس جالساً باستقامة على الكرسي ، تجاه ديزي ، وكان يبدو حفياً ، ولكن لا شك في ان ذلك كان بدافع المجاملة ، اذ لم يكن يفهم شيئاً . وكان غرولويس قد بدأ يميل اليه لالتزامه الهدوء وعدم غضبه . وكان ماريو ينظر الى ديزي نظرة خبث ، وكان يهز رأسه ويقول :

– انا لا اقول لا ، لا اقول لا .

ولكن لم يكن يبدو عليه انه مقتنع . وقالت ديزي :

– انا افضل الحرب على الإضراب ، الا تفضل انت الحرب على الإضراب ؟ ما عليك الا ان ترى إضراب عمال أحواض السفن ، كم كلّف الجميع ، نحن والآخرين .

قال ماريو : – انا لا اقول لا .

وكانت ديزي تتكلم باجتهاد وبلهجة شقية ؛ وكانت تهز رأسها وهي تتكلم ، وقالت بقسوة : ففي الحرب تنتهي الإضرابات . الجميع يعملون . آه ! آه ! ليتك رأيت البواخر عام ١٩١٧ ، كنت آنذاك طفلاً . وانا ايضاً كنت طفلة ، ولكني لا زلت اذكرها ، كما ترى . كانت هي « النوبة » اذ كنت ترى النيران حتى « الامتاك » ، وتلك الرؤوس التي كانت تُرى في الشوارع ؟ لقد كنت تحسب نفسك لا ادري اين ، فتشعر بالاعتزاز ، والصفوف الطويلة في شارع بوتاريل ، كان هناك انكليز وامير كان وطليان وألمان وحتى هندوس ... آه ! وكم كانت امي تجمع من المال !!

قال ماريو : — ولكن لم يكن هناك ألمان ، فقد كنا في حرب معهم.

قالت ديزي : — اقــول انه كان هناك ألمان ، في ثياب عسكرية ايضاً ، وعلى قبعاتهم شيء ما . الا تظن اني رأيتهم ؟

قال ماريو : — كنا في حرب معهم .

فهزت ديزي كتفيها :

— هذا صحيح ، ولكن هناك ، في الشمال ، اما هؤلاء فلم يكونوا يأتون من الفنادق ، وانما يصلون من البحر ، ليتاجروا .

ومرّت بغيٌ طويلة ، سمينة شقراء كالزبدة ، ولكن هيئتها كانت أرصن مما ينبغي هي ايضاً . وفكر غرولويس : « انما تأتيهم هذه الهيئة من السكنى في المدينة » وانحنت نحو ديزي ، وهي تبدو غاضبة :

— اما انا ، فلا احب الحرب ، هل تفهمين ؟ لأن أُسَتي مليئــة بالحرب ، واخي قد خاض حرب ١٤ ، فعلك تريدين ان يعود اليها ؟ ومزرعة خالي ، ألم تحترق ؟ الا يعني هذا شيئاً في نظرك ؟

وبدت ديزي مبهوتة لحظةً ما ، ولكنها ما لبثت ان استعادت رباطتها، وسألتها :

— انت اذن تفضلين الإضرابات ؟ قوليها اذن ؟

ونظر ماريو الى الشقراء الطويلة ، فمضت من غير ان تلوي ، وهي تهز رأسها . وجلست غير بعيدة عنهم ، وأخذت تتحدث بحماسة الى رجل قصير حزين كان يمضع قشّة . وكانت تومىء الى ديزي وتتحدث بسرعة مدهشة . ولم يكن الرجل القصير ليجيب ، وكان يمضغ قشّته من غير ان يرفع بصره ، بل كان لا يبدو انه يسمعهـــا . وقال ماريو موضحاً :

— انها من « سيدان » .

فسألت ديزي : — اين هي ؟

— في الشمال .

فهزت كتفيها :

– إذن لماذا تراها تهذي غاضبة ؟ انهم معتادون في الشمال .

وتثاءب غرولويس بكل قواه ، وتدحرجت دموع على خديه ، كان ضجراً ، ولكنه كان مسروراً لانه كان يحب كثيراً ان يتثاءب . ورماه مارو بنظرة سريعة . وأخذ ستاراس يتثاءب ايضاً .

وقال ماريو وهو يشير الى غرولويس :

– ان الرفيق منزعج ، فكوني لطيفة معه يا ديزي .

والتفتت ديزي الى غرولويس ووضعت ذراعها حول عنقه . ولم تكن بعد قط على هيئتها الرصينة :

– صحيح يا حبوبي انك ضجر ، والى جانبك فتاة جميلة ؟

وكان غرولويس يهم باجابتها حين لمح الزنجي . كان واقفاً امام المشرب ، وكان يشرب مائعاً أصفر في قدح كبير . وكان يرتدي ثوباً أخضر وقبعة من قش ذات شريط متعدد الالوان . وقال غرولويس : « آه ! حسناً » وكان ينظر الى الزنجي فيشعر بالسعادة . وسألته ديزي مندهشة :

– ما بك ؟

فأدار رأسه نحوها ونحو ستاراس ونظر اليها في ذهول . كان خجلاً من وجوده معهم . ونفض كتفيــه ، ليُسقط ذراع ديزي ، ونهض مقترباً من الزنجي يسترق الخطى . وكان الزنجي يشرب ، وكان غرولويس يضحك من فرط السرور . وكانت ديزي تقول خلفه بلهجة مرة : « ما الذي دهاه ، هذا المثقوب ؟ لقد آلمني » ولكن غرولويس لم يكن ليكترث بها : لقد تحرر من ماريو وستاراس . ورفع يده اليمنى فوق الزنجي وأرسل له ضربةً كبيرة بين الراسلين . فاوشك الزنجي ان يختنق ، وقد سعل وبصق ثم استدار الى غرولويس بهيئة غاضبة . وقال غرولويس :

– هذا انا »

فقال الزنجي بصوت ثاقب : — ألست مجنوناً يا ترى ؟
فردّد غرولويس : — انت ترى ان هذا انا .
قال الزنجي : — انا لا اعرفك .
فنظر غرولويس الى الزنجي في حزن :
— الا تذكر ؟ لقد التقينا امس ، وكنت قد سبحت في البحر ؟
وسعل الزنجي وبصق . وكان ستاراس وماريو قد نهضا ، ووقفا الى جانبي غرولويس .
وفكر غرولويس في غضب : « اتراهما لن يحلا عن ظهري ؟ »
وشده ماريو برفق من كمه وقال :
— هيا ، تعال . انت ترى جيداً انه غير راغب فيك .
فقال غرولويس بلهجة تهديد :
— بل هو الزنجي الذي ابحث عنه .
قال الزنجي :
— خذاه . ففي اية ساعة تعودانه الى النوم ؟
وكان غرواويس ينظر الى الزنجي وهو يحس بأنه شقي : لقد كان هو نفسه ، وكان جميلا جداً ومرحاً جداً بتلك القبعة القشية الجميلة ، فما الذي يدعوه الى ان ينسى وان يكون عاقاً ؟ وقال :
— لقد سقيتك جرعة خمر .
وردد ماريو : — هيا ، تعال . ليس هو زنجيّك : إنهم جميعاً متشابهون .
وشد غرولويس على قبضتيه والتفت الى ماريو :
— حلّ عن ظهري ، اقول لك . هذا لا يعنيك .
فتراجع ماربو خطوة ، وقال بلهجة قلقة :
— ان جميع الزنوج متشابهون .
وصاحت ديزي : — دعه يا ماريو . إنه وحش . وتعال الى هنا .

وكان غرولويس يهمّ بان يَضرب، حين فُتح الباب وظهر زنجي آخر يشبه الاول كل الشبه ، وهو يضع قبعة من قش ويرتدي ثوباً وردياً. ونظر الى غرولويس في غير اكتراث ، واجتاز الحانة بخطوة راقصة وذهب يرتفق المشرب . وفرك غرولويس عينيه ، ثم راح يجيل نظره بين الزنجيين ، وأخذ يضحك . وقال :

— لكأنه هو نفسه مرتين .

وعاد ماريو يقترب :

— اترى إذن ؟

وكان غرولويس مرتبكاً . ولم يكن يحب كثيراً ستاراس ولا ماريو، ولكنه كان يشعر انه مذنب نحوهما . فأخذهما من ذراعيهما وقال موضحاً:

— كنت أحسب انه الزنجي الذي ابحث عنه .

وكان الزنجي قد اولاه ظهره وعاد الى الشرب . ونظر ماريو الى ستاراس ، ثم التفتا كلاهما الى ديزي . وكانت ديزي واقفة ، ويداها على خاصرتيها ، وكانت تنتظرهما . ولم يكن يبدو عليها انها مطمئنة . قال ماريو :

— هِمْ !

فقال ستاراس : — هِمْ !

واستدارا على عقبيهما ، فأمسك كل منهما باحدى ذراعي غرولويس وسحباه . وقال ماريو :

— سوف نبحث عن زنجيّك .

كان الشارع ضيقاً مقفراً ، وكانت تنبعث منه رائحة الملفوف ؛ وفوق السطوح كانت النجوم تلتمع : وفكر غرولويس بحزن : « انهم جميعاً متشابهون » . وسأل :

— هل هناك كثير منهم في مارسيليا ؟

— كثيرٌ ممّن يا صديقي ؟

– كثير من الزنوج ؟

فقال ماريو وهو يهز رأسه : – لا بأس بعددهم .

وفكر غرولويس : انني اسود تماماً ، وقال الربان : سوف اساعدك، وسأكون وصيفك . وكان ماريو قد امسك غرولويس من قامته، وكان الربان قد امسك القميص من حمالته ، ولم تستطع مود ان تمتنع عن الضحك : « ولكنك تمسك به على المقلوب ! » وكان ماريو ينحني الى أمام ، وكان يشد بقوة قامة غرولويس ويفرك رأسه بمعدته ويقول : « انت صديقي ، اليس كذلك يا ستاراس ؟ انه صديقي الصغير ، وأحدنا يحب الآخر » وكان ستاراس يضحك في صمت ، وكان رأسه يدور ويدور ، وكانت اسنانه تلمع ؛ كان ذلك كابوساً ، وكان رأسه يضج بالصراخ وبالاضواء ، وكان يمضي نحو صراخ آخر واضواء اخرى ، وهما لن يتركاه طوال الليل ، ضحكة ستاراس ، ووجهه الأسمر الذي كان يصعد ويهبط ، وفم ماريو الصغير الذي كان يشبه فم نمس ، لقد كانت به رغبة في التقيؤ ، وكان البحر يصعد ويهبط في معدة بيار ، كان يعرف جيداً انه لن يعثر بعد ابداً على زنجية ، وكان ماريو يدفعه ، وكان ستاراس يجذبه ، كان الزنجي ملاكاً ، وانا في الجحيم . وقال :

– كان الزنجي ملاكاً .

وتدحرجت دمعتان كبيرتان على خديه ، وكان ماريو يدفعه ، وستاراس يجذبه ، وانعطفا الى زاوية الشارع ، واغمض بيار عينيه ، ولم يكن ثمة بعد الا اشعة المصباح الغامزة على البلاط وخرير المياه المزبد عند صدر السفينة .

المصاريع مغلقة ، والنوافذ مغلقة ، وكانت تنبعث رائحة البق والفرمول ، وكان منحنياً فوق الجواز ، وكانت الشمعة تضيء شعره الرمادي المجعّد ، ولكنها كانت تعكس ظل رأسه على الطاولة برمتها ،

« لماذا تراه لا يضيء الكهرباء ، فهو سوف ينتزع عينيه . » وتنحنح فيليب : كان يحس نفسه غارقاً في الصمت والنسيان ؛ انا هناك موجود، موجود أخيراً ، انني صلب ، افرض نفسي . انها لم تستطع ان تبلع لقمة واحدة ، ففي حلقومها كتلة دمع ، وهو مشدوه ، فاليــد التي رفعها علي تتجمد ، وهو لم يكن ليتصورني قادراً على ذلك ، انا هنذا قد ولدت ، ومع ذلك فانا هنا ، تجاه هذا القصير ذي الشارب الرمادي الذي نسيني تماماً . هنا ، هنا ! هنــا حضوري الرتيب وسط العمي والصم ، اذوب ظلا ، وهناك ، تحت نيران الشمعدان ، بين الكرسي والاريكة ، انا موجود ، ولي شأن . وضرب بقدمه ، فرفع الشيخ عينيه ، عينيه الحسيرتين ، القاسيتين ، الدامعتين والمتعبتين .

– هل كنت في اسبانيا ؟

قال فيليب : – نعم . منذ ثلاث سنوات .

– ان الجواز غير صالح بعد . وقد كان ينبغي تجديده .

قال فيليب بنفاد صبر : أعرف ذلك .

– انا ، الامر عندي سواء . هل تتكلم الاسبانية ؟

– كالفرنسية .

– اذا ظنوك اسبانياً ، كنت محظوظاً ، بشعرك الكتّاني .

– هناك اسبان شُقر .

فهز الشيخ كتفيه :

– انا ، اقول لك ، لا يهمني ...

وكان يقلب صفحات الجواز بشرود . « انني انا هنا عند مزوّر . » ولم يكن يبدو ذلك صحيحاً . منذ هذا الصباح ، لم يكن يبدو عــلى شيء أنه صحيح . لم يكن المزوّر يشبه مزوّراً ، وانما كان يشبه دركياً .

– انك تشبه دركياً .

فلم يُجب الشيخ ، وأحس فيليب بالانزعاج . اللامعنى . لقد عاد

الى هنا مرة اخرى ، اللامعنى الشفاف والعشية البارحة ، حين كنت أمرّ عبر نظراتهم ، حين كنت زجاجاً متمايلا على ظهر زجاج وكنت أمر عبر الشمس . اني الآن ، هناك ، كثيف كالميت ، وتساءلت : « اين هو ؟ ماذا يفعل ؟ اتراه مع ذلك يفكر بي ؟ » ولكن لم يكن يبدو على الشيخ انه يعرف ان ثمة على الارض مكاناً اكون فيه جوهرة ثمينة . قال فيليب :

– واذن ؟

فوضع الشيخ عليه نظره المتعب :

– ايكون بيتو هو الذي ارسلك ؟

– هذه هي المرة الثالثة التي تسألني فيها هذا . (وأضاف فيليب في إقدام) أجل ، ان بيتو هو الذي أرسلني .

قال الشيخ : – حسناً . في العادة أقوم بذلك مجاناً . امـا انت ، فهو يكلفك ثلاثة الاف فرنك .

قطّ فيليب شفتيه على شاكلة بيتو :

– ارجو ذلك . فلم تكن لدي نية بان اطلب منك خدمة مجانية .

وقهقه الشيخ . وفكر فيليب في غيظ : ان رنة صوتي مزيفة . لست أملك بعد الوقاحة الطبيعية . لا سيما تجاه الشيوخ . فبيني وبينهم حساب قديم جداً من الصفعات التي لم يوف ثمنها . ويجب ان اردها كلها قبل ان استطيع التحدث اليهم نداً لند .

وفكر في فورة : « ولكن الصفعة الاخيرة ، الاخيرة في الزمن ، قد مُحيت . » وقال :

– تفضّل .

وسحب محفظته بحيوية ووضع ثلاثة اوراق على الطاولة. فقال الشيخ :

– يا لك من ابله صغير ! انني الآن سأقبضها وأرفض ان اقوم بعملك .

فنظر اليه فيليب في قلق ، وتحرك ليستردّ الاوراق . فانفجر الشيخ ضاحكاً . وقال فيليب :

– كنت احسب ...

وكان الشيخ ما ينفك يضحك ، وسحب فيليب يده في ما يشبه الغضب وأخذ يبتسم وقال :

– انني اعرف الناس . اعرف انك ما كنت لتفعل ذلك .

وكف الشيخ عن الضحك . وكان يبدو عليه المرح والاستياء .

– انه يعرف الناس . يا للممحون المسكين ! انك تأتي الي ، ولم يسبق لك ان رأيتني من قبل ، وتخرج فلوسك فتضعها على الطاولة ، وهذا عمل يفضي بك الى الهلاك . هيا ، هيا ، دعني اعمل . انني آخذ منك الف فرنك على الفور ، فقد يخطر لك ان تغير رأيك . وستحمل لي الباقي حين تأتي لتأخذ اوراقك .

صفعة اخرى ، وسأردّها كلها . وجاءته الدموع في عينيه . وكان على حق بان يغضب ، ولكن ما كان يشعر به انما هو الذهول . كيف تراهم يفعلون جميعاً ليكونوا قساة الى هذا الحد ، انهم لا يلقون السلاح قط ، فهم ابداً مترصدون ، وعند ادنى غلطة ينقضّون عليك ويؤذونك . ماذا فعلت له ؟ ولهم هم ، هناك ، في الصالون الازرق ، ماذا فعلت لهم؟ سأتعلم قواعد اللعب ، وسأكون قاسياً ، وسوف اجعلهم يرتجفون .

– متى يكون جاهزاً ؟

– غداً صباحاً .

– كنت اظن ... لم اكن اظن ان ذلك يقتضيك هذا الزمن الطويل .

قال الشيخ : – نعم ؟ والاختام ، اتظن انني اخترعها ؟ هيا ، اذهب ، وعد صباح الغد ، فليس الليل اطول مما ينبغي للقيام بعملك .

وفي الخارج كان الليل ، الليل المغني الفاتر بكل شياطينه ؛ والخطى

التي ترنّ طويلا خلفك ، من غير ان تجرؤ عـلى ان تدير رأسك ، ليلاً في سانت اوان ؛ ان الحي غير مأمون .

وسأل فيليب بصوت ابيض :

– في اية ساعة أستطيع ان أجيء ؟

– في الساعة التي تريد ، ابتداء من السادسة .

– هل هناك ... هل هناك فنادق قريبة ؟

– جادة سانت اوان ، وما عليك الا ان تختار . هيا ، اذهب .

قال فيليب في حزم: – سأعود في الساعة السادسة .

وأخذ صندوقه الصغير ، فأغلق الباب وهبط الدرج . وانبثقت دموعه عند سطيحة الطابق الثالث ، وكان قد نسي ان يأخذ منديلا ، فمسح عينيه بكمه ، وتنشق مرتين او ثلاثاً ، انني لست جبـاناً . كان اللئيم فوق يظنه جباناً ، وكان احتقاره يتبعه كأنه نظر . انهم ينظرون اليّ . وسارع فيليب يهبط الدرجات الاخيرة . « الباب من فضلك » وتثاءب الباب ، فغطس فيليب . انني لست جباناً وليس ثمة من يفكر بهذا الا ذلك الشيخ القذر . والحق انه لا يفكر به بعد ، هكذا قال مقرراً. انه لا يفكر بي بعد ، فقد بدأ العمل . وانطفأ النظر ، وحث فيليب خطوه . « ماذا ، فيليب ؟ هل انت مذعور ؟ » « لست مذعوراً ، لا استطيع . » « الا تستطيع يا فيليب ؟ الا تستطيع ؟ » وكان قد انزوى ثانية لدى الجدار . كان بيتو يلامس جنبيه وصدره ، ويمس حلمة ثدييه عبر القميص ، ثم ارسل له ضربة على فمـه باصبعين من يده اليمنى « وداعاً يا فيليب ، اذهب ، فاني لا احب المذعورين . » وكان الشارع قد عمر بالتماثيل الليلية ، هؤلاء الرجـال المستندين الى الجدران لا يقولون شيئاً ، ولا يدخنون ، وينظرون اليك تمر ، بلا حركة ، بعيونهم الملأى بالليل . كان يعدو تقريباً ، وكان قلبه يخفق خفقاً اسرع ، « ان من يراك يعرف انك جبان ، اذهب ، اذهب »

سيرون ، سيرون جميعاً ، سيأتيها كالآخرين ، سيقرأ اسمي ، وسيقول: « عجباً ! بالنسبة لولد من اسرة غنية ، بالنسبة لشاب صغير ، ليس الامر سيئاً الى هذا الحد . »

الى يمينه فندق مضيء . وكان الخادم واقفاً على العتبة ،وكان يُحوِل عينيه ؛ اتراه ينظر اليّ ؟ وابطأ فيليب في مشيته ، ولكنه خطا خطوة اخرى فعبر الباب ، ولا بد ان الخادم يُحول الآن في ظهره ، وكانت الحشمة تقتضيه الا يعود أدراجه . الساقي يُحول او مبارزة العمالقة ذوي العين الواحدة . او هذا ايضاً : حكاية قذرة للعملاق ذي العين الواحدة ، انه ينظر الى نفسه في المرآة ، ذات يوم ، لأنه كان يشعر بتآكل فوق الخدين : ان عيناً اخرى قد نبتت له بجانب الاولى ! اي يأس ! من المستحيل ان ندعوهم الى القيام بمناورات جماعية ، وبالطبع ، ظلت العين الاولى وحدها اطول مما ينبغي ، كانت عصابة وحدها . وكان على الرصيف المقابل فندق آخر ، فندق « كوتكارنو » ، بناء صغير في طابق واحد . هل اذهب اليه ؟ وفكر : واذا سألوني عن اوراقي ؟ ولم يجرؤ على العبور ، فاستعاد سيره على الرصيف نفسه : لا بدّ من الجرأة ، ولكني هذا المساء لا املك منها ذرة ، فقد افرغني الشيخ ، ونظر الى لافتة « قهوة ، خمور ، مشروبات » وفكر : او ربما كان انفي مصاباً بضربة . ودفع الباب .

كان مقهى صغيراً فيه طاولتان فحسب، وكانت نشارة الخشب تعلق بالنعل . ونظر اليه صاحب المقهى بحذر ، وفكر فيليب في غيظ : « ان ثيابي آنق مما يجب » . وقال وهو يقترب من المشرب : « قدح خمر» فتناول صاحب المقهى زجاجة كانت سدادتها مزودة بصنبور من التنك ، فسكب الخمر ، وكان فيليب قد وضع صندوقه الصغير وراح ينظر اليه مسروراً : كان خيط من الخمر يسيل من صنبور التنك ، وكان كأنه يسقي خضاراً . وشرب فيليب جرعة وفكر : « لا بد انه خمر رديء » ، ولم يكن يشرب منه قط ، فقد كان له مذاق خمر مشيّط،

وقد حرق له حنجرته . وسارع يضع القدح . وكان صاحب المقهى ينظر اليه . أكان في عينيه الهادئتين سخرية ؟ واخذ فيليب القدح ثانية وحمله الى شفتيه بحركة مهملة : كان حلقومه يلتهب ، وكانت عيناه تتبللان ، وشرب القدح جرعة واحدة . وحين وضعه ، أحسّ انه غير مكترث ، وجذل بعض الشيء . وفكر : « هذه فرصة للمراقبة » . وكان قد اكتشف منذ خمسة عشر يوماً ، انه لم يكن يحسن المراقبة ، فانا شاعر ، وانا لا احلل . ومنذ ذلك الحين كان يقسر نفسه على رسم البيانات والجردات ، حيث كان يستطيع ، فكان يقوم مثلا بعدّ الاشياء المعروضة في واجهة . ورمى نظرة دائرية ، مبتدأ بآخر صف من الزجاجات ، فوق ، خلف المشرب .. اربع زجاجات « بير » ، زجاجة « غودرون » ، زجاجتا « نوالي » ، كوز « روم » .

وكان شخص قد دخل ، عامل ذو قبعة . وفكر فيليب : « انه بروليتاري » . ولم تتح له الفرصة من قبل ان يلتقي بكثيرين ، ولكنه كان يفكر كثيراً بهم . كان رجلا في حوالي الثلاثين ، ذا عضلات ، ولكن بنيته غير منتظمة ، ذراعاه أطول مما ينبغي وساقاه ملتويتان ، ولا شك في ان العمل اليدوي هو الذي شوهه ؛ وكان له تحت أنفه زغب صلب أصفر ؛ وكان يضع على قبعته شارة مثلثة الالوان ويبدو مستاءً ومضطرباً . وقال :

— قدح من الخمر الابيض ، بسرعة يا معلم .

فقال صاحب المقهى : — سنُغلق .

فسأله العامل :

— لن ترفض تقديم قدح ابيض لمجنّد !

وكان يتكلم بمشقة ، وبصوت أبحّ ، كما لو انه قضى نهاره وهو يصيح . وقال موضحاً وهو يغمز بعينه اليمنى :

— انني ذاهب صباح الغد .

وتناول صاحب المقهى قدحاً وزجاجة ، وسأله وهو يضع القدح على المشرب .

ــ واين انت ذاهب ؟

فقال الرجل : ــ الى سواسون . فانا تابع للدبابات .

ورفع القدح حتى فمه ، وكانت يده ترتعش ، وسال خمر على الارض . وقال :

ــ سوف ننفذ الى لحومهم .

فقال صاحب المقهى : ــ هيه !

قال الرجل ــ نعم ، هكذا .

وضرب ضربتين بظاهر يده اليمنى على قبضته اليسرى . وقال صاحب المقهى .

ــ يجب ان تحسن ذلك . فالخنازير اقوياء .

ــ اقول لك هكذا .

وشرب ، وطقطق بلسانه ، وغنى . وكان يبدو مهتاجاً ، متعباً ؛ وكانت ملامحه تنفرج كل لحظة ، وعيناه تغمضان ، وشفتاه تتدليان : ولكن سرعان ما كانت ترفع جفنيه قوة شديدة لا هوادة فيها، وتشدّ الى الاعلى شفتيه ، فكان يبدو فريسة منهكة لمرح لم يكن يريد بعد ان ينتهي . والتفت الى فيليب :

ــ وهل انت مجنّد ؟

فقال فيليب وهو يتراجع ــ بعد ...

ــ وماذا تنتظر ؟ يجب ان ننفذ الى لحومهم .

كان بروليتارياً : وابتسم له فيليب ، وجهد في ان يخطو نحوه خطوة . وقال البروليتاري ..

ــ اني اقدم لك جرعة خمر أبيض . قدحان يا معلم : واحد لك ، وواحد له : انها دورتي .

فقال صاحب المقهى بقسوة : — لست عطشاً . ثم انها ساعة الاغلاق، فانا انهض في الرابعة .

ومع ذلك ، فقد دفع امام فيليب قدحاً ، وقال البروليتاري :

— سوف ندقّ اقداحنا .

ورفع فيليب قدحه . كان منذ لحظة في غرفة مزوّر ، وها هو يشرب مع عامل . لو كانوا يرونني ! وقال :

— نخبك !

فقال البروليتاري : — نخب النصر !

فنظر اليه فيليب في دهشة : كان يريد بلا شك ان يمزح ؛ فالعمال من انصار السلام .

وقال الرجل :

— قل مثلي ، قل : نخب النصر !

وكان يبدو عليه الجدّ والاستياء ، وقال فيليب :

— لا اريد ان اقول ذلك .

قال الرجل : — لماذا ؟

وكان يحرّق الأرم . وقطعت جُشأةٌ كلامَه . فبيّض عينيه ، وأرخى فكّه وتمايل رأسه لحظة بميوعة . وقال صاحب المقهى :

— قل مثله !

وكان البروليتاري قد تماسك،فجاء يكلمه عن كثب ، وكانت رائحة الخمر تنبعث منه . لن اقول : نخب النصر .

— الا تريد ان تقــول : نخب النصر ؟ وتفعل هذا لي انا ؟ انا المجنّد ؟ انا عسكري الـ ٣٨ ؟

وقبض عليه البروليتاري من ربطة عنقه ودفعه الى المشرب :

— أتفعل ذلك معي : الا تريد ان تدق قدحك بقدحي ؟

ما عساه كان يفعل ، بيتو ؟ ما عساه كان يفعل ، لو كان مكاني ؟

وقال صاحب المقهى بصوت قاسٍ :

— هيا ، افعل ما يقوله لك : فانا لا اريد مشاكل . ثم ارجوكما ان تخليا المكان ، فأنا أنهض في الساعة الرابعة .

وأخذ فيليب قدحه وتمتم :

— نخب النصر .

وشرب ، ولكن حنجرته كانت منقبضة ، وحسب انه لن يستطيع ان يبتلع . وكان الرجل قد تركه وهو يقهقه بهيئة مكتفية ، ماسحاً شاربه بظاهر يده . وقال موضحاً لصاحب المقهى :

— لم يكن يريد ان يقول : نخب النصر . وأمسكتك من ربطة العنق : أتفعل ذلك معي ، ايها الفرنسي الرديء ؟ مع مجنّد ، مع عسكري الـ ١٤ ؟

ورمى فيليب قطعة من اربعين فلساً على الطاولة ، وتناول صندوقه، وعجّل بالخروج . كان ذلك رجلاً عربيداً ، وكان لا بد من الاستسلام، وقد كان بيتو يستسلم : انني لست جباناً .

— هيه ! اسمع ، ايها الشاب الصغير !

وكان الرجل قد خرج في أعقابه ، وسمع فيليب صاحب المقهى يغلق البـــاب ويدير المفتاح . فأحسّ بأنه مثلج : كان يخيّل اليه انهما كانا يُحبسان معاً . وقال الرجل :

— لا تهرب هكذا . قلت لك ان علينا ان ننفذ الى لحومهم . وهذا يستحق الاحتفال .

واقترب من فيليب ولفّ عنقه بذراعه ، وكان ماريو قد أخذ ذراع غرولويس وراح يشدّه بحنان ، كان ذلك هو الجحيم ، وكانوا يمشون في الأزقّة المظلمـــة ، ولم يكونوا ليقفوا قطّ ، فان غرولويس كان متضايقاً جداً ، وكانت به رغبةٌ في التقيّؤ ، وكانت اذناه تطنّان .

قال فيليب :

– الواقع اني مستعجل بعض الشيء .
وسأل غرولويس : – اين نذهب ؟
– سنبحث عن زنجيّك .
– انك لن تخدعني . فحين ادفع للشرب ، فيجب ان تشرب .
مفهوم ؟

ونظر غرولويس الى ماريو فأخذه الخوف . كان ماريو يقــول : « واذن يا صديقي ، يا صديقي الصغير ، انت متعبٌ يا صديقي ! » ولكن وجهه كان قد تغيّر . وكان ستاراس قد أخذ ذراعه اليسرى ، كان ذلك هو الجحيم . وحاول ان يحرّر ذراعه اليمنى ، ولكنه أحسّ ألماً شديداً في مرفقه ، فقال :

– ولكن اسمع انت ، انك تحطّم لي ذراعي :

وغطس فيليب فجأة وأخذ يعدو . انه عربيد ، ولا بأس من الفرار امام عربيد . وترك ستاراس ذراعه فجأة وتراجع خطوة . واراد غرولويس ان يلتفت ليرى ما كان يدبّره ، ولكن ماريو كان متشبثاً بذراعه ، وكان فيليب يسمع خلفه نفَساً قصيراً : « عكروت صغير ، قذر ، انا لا اخاف ، وسوف اؤدبك ، انا ! » « ماذا دهاك ، يا صديقي الصغير ، ماذا دهاك ؟ ألسنا بعد اصدقاء ؟ » وفكر غرولويس : سوف يقتلانني ، وكان الخــوف يثلجه حتى العظام ، فقبض على ماريو من عنقه بيده الفارغة ورفعه عن الارض ؛ ولكن في اللحظة نفسها ، انشقّ رأسه حتى ذقنه ، فترك ماريو وسقط على ركبتيه ، وكان دمه يسيل على حاجبيه . وحاول ان يتماسك بان يتعلّق بمعطف ماريو ، ولكن ماريو قام بقفزة الى الخلف ، ولم يره غرولويس بعد ذلك . كان يرى الزنجي الذي ينزلق على الارض ولكن من غير ان يمسّها ، ولم يكن يشبه قط سائر الزنوج ، وكان قادماً نحوه ، مفتوح الذراعين ، ضاحكاً ، فمدّ غرولويس يديه ، وكان في رأسه ذلك الألم النحاسيّ الهائل ، وصاح

به : الى النجدة ، فتلقّى ضربة اخرى على أمّ رأسه وسقط وانفه في الساقية ، وكان فيليب ما يزال يركض ؛ فنـــدق كندا ، وتوقّف ، واستعاد نفَسه ونظر خلفه ، فاذا هو قد تخلّص منه . وشدّ ربطة عنقه ، ثم دخل الى الفندق بخطى موزونة .

تمايل ، ارتجاج ؛ تمايل ، ارتجاج . كانت اهتزازات الباخرة تصعد لولبياً في ربلاته وفخذيه وتنتهي ميتة في أسفل بطنه وقد اصبحت ارتعاشات كثيفة . ولكن رأسه ظلّ حرّاً ، وكل ما حدث تقيّؤ او تقيّؤان حامزان بعض الشيء . وكان يشدّ بقوة على دربزون المترسة بين يديه. الساعة الحادية عشرة ؛ كانت السماء تنغل بالنجوم ، وكانت نارٌ حمراء ترقص بعيداً فوق البحر ؛ ربما كانت هذه هي الصورة الاخيرة التي تعود الى عيني ، وتثبت فيهما الى الأبد ، حين أكون في حفرتي مقلوباً، وفكّي منتزَع ، تحت سماء متواترة اللمع . هذه الصورة الصافية السوداء، مع هذا الحفيف من النخيل ، وهذا الحضور للناس ، البعيد جداً خلف ناره الحمراء ، في الظلام . لقد رآهم ، في الثياب العسكرية ، متلاصقين كالسردين خلف منارتهم ، منسربين بصمت نحو الموت . وكانوا ينظرون اليه من غير ان ينبسوا ، وكانت النار الحمراء تنسرب على الماء ، كانوا ينسربون ، وكانوا يمشون صفاً امام بيار وهم ينظرون اليه . إنه يكرههم جميعاً ، وهو يحسّ نفسه وحيداً مصدوماً تحت اعين الليل المزدرية ؛ وقد صاح بهم : انا المحقّ ، انا المحقّ ، انني على حق بان أخاف، فقد صُنعت لأعيش ، لأعيش ، لأعيش ! لا لأمـــوت : فلا شيء هنك يستحق ان أموت من أجله . انها لا تجيء ، فأين عساها تكون ؟ وانحنى فوق الجسر المقفر . ايتها القذرة ! ستدفعين لي ثمن هذا الانتظار. لقد عرفْ عارضات وفتيات رائعات الجسم ، ولكن هذه المزيالة الصغيرة الأقرب الى التشوّه ، كانت اول امرأة يشتهيها بهذا العنف . انه يعبد ان يلامس رقبتها ، عند منبت الشعر الأسود ، وأن يُصعِدَ اغتلام

البطن الى الرأس بهدوء،وان يعكّر أفكاره الصغيرة الواضحة،سأضاجعك، سأضاجعك ، وسأدخل في احتقارك فأثقبه كأنه فقاعة ، وحين تمتلئين مني وتصرخين « يا حبيبي بيار » وانت تديرين عينين بيضاوين ، فسنرى ماذا يحلّ بنظرك المحتقِر ، سنرى اذا كنت ستسمّينني جباناً .

« الى اللقاء ايتها العزيزة ، ايتها الصديقة العزيزة ، الى اللقاء ، عودي ، عودي ! »

كان ذلك همساً نثره الهواء . وأدار بيار رأسه ، فدلف الهواء الى اذنه . هناك ، فوق الجسر الامامي ، كان ثمة مصباح صغير معلّق فوق غرفة الربان يضيء ثوباً ابيض قد نفخه الهواء . وهبطت ذات الثوب الابيض الدرج بهدوء ، وهي تمسك بالحاجز ، بسبب الهواء والارتجاج ، وكان ثوبها المنتفخ تارة والملتصق تارة اخرى بفخذيها يشبه جرساً يدقّ . واختفت فجأة ، ولا بد انها تعبر ما بين الجسرين ، وسقطت الباخرة في ثقب ، وكان البحر فوقها ، ابيض اسود ، ثم صعد بمشقّة ، فبدا رأس المرأة وهي ترقى سلّم الدرجة الثانية . لهذا السبب اذن غيّروا لهنّ الغرفة . كانت عرِقةً دبِقة ، مبعثرة الشعر قليلاً ، وألمّت ببيار من غير أن تراه ، بهيئتها الشريفة الرصينة .

وتمتم بيار : « فحبة ! » وأحسّ نفسه غارقاً في ضجر شديد ، ولم تكن له فيهـا رغبة بعد ، ولم تكن له رغبة بعد في ان يعيش . وكانت الباخرة تسقط وتسقط في جوف البحر ، وكان بيار يسقط خفيفاً كالقطن رخواً ، وتردّد لحظة ، ثم ترك لفمه ان يمتلىء بالصفراء ، فانحنى على الماء الأسود وقاءه من فوق الجسر .

قال الخادم : « القُسيمة الصغيرة ، الآن »

ووضع فيليب صندوقه ، وأخذ الريشة فغطّها في الحبر . وكان الخادم ينظر اليه ، ويداه متشابكتان خلف ظهره : أكان يخنق تثاؤبة ام ضحكة ؟ وفكر فيليب في غضب : لأني انيق اللباس . إن جميع الناس يقفون عند

الملبس ، اما الباقي فلا يرونه . وكتب بيد ثابتة :
ايزيدور دوكاس .
رحالة تجارة .
وقال للخادم وهو ينظر في عينيه : « إصحبني » .
فتناول الخـادم عن اللوحة مفتاحاً كبيراً وصعدا ، أحدهما خلف الآخر . وكان الدرج مظلماً ، فقد كانت المصابيح الزرق تضيئه من بعيد لبعيد ؛ وكان حذاء الخادم يخفق على الدرجات الحجرية . وخلف أحد الابواب ، كان طفل يبكي ؛ وكانت رائحة المراحيض منبعثة . وفكر فيليب « انه بيت مؤنث » . بيت مؤنث ، تلك كانت عبارة حزينة غالباً ما قرأها في روايات طبيعية ، فكان دائماً ينفر منها . وقال الخادم وهو يضع المفتاح في قفل :
— هذه هي .
وكانت غرفة واسعة ذات أرض مربّعـة ؛ وكانت الجدران مطلية بالمغرة حتّى منتصفها ، وبعد ذلك بالأصفر الكابي حتّى السقف. كرسي واحدة ، وطاولة واحدة : وكانتا تبدوان ضائعتين في وسط الغرفة ؛ نافذتان ومغسلة تشبه بلوعة مطبخ ، وسرير كبير عند الجدار . وفكر فيليب : « لقد وضعوا سرير العرس في المطبخ » .
ولم يكن الخادم ليذهب . وقال في بسمة :
— الاجرة عشرة فرنكات . وسأطلب اليك ان تدفع فوراً .
فمد له فيليب عشرين فرنكاً وقال :
— احتفظ بها كلها ، وأيقظني عند الساعة الخامسة والنصف .
فلم يبد على الخادم انه متأثّر ، وقال وهو يمضي :
— مساء الخير يا سيدي . ليلة سعيدة .
وارهف فيليب اذنه لحظة ، وحين كف عن سماع رنين الحذاء على الدركات ، ادار المفتاح مرتين في القفل ، ووضع المزلاج وحمل الطاولة

فأسندها الى الباب ، ثم وضع الصندوق على الطاولة ونظر اليه مرتخي الذراعين . وانطفأ شمعدان الصالون ، وانطفأت شمعة المزوّر ، وأكل الظلام كل شيء . ظلام مغفل . وهذه الغرفة الطويلة العارية ، كانت وحدها تلمع في الظلام ، فاقدة الشخصية كالليل . وكان فيليب ينظر الى الطاولة مخدّراً لا عمل له . وتثاءب . ولم يكن مع ذلك ناعساً : كان فارغاً . ذبابة منسيّة تستيقظ في بدء الشتاء ، اذ يكون جميع الذباب الآخر ميتاً ، ولا تملك بعد القدرة على الطيران . كان ينظر الى الصندوق الصغير ويقول لنفسه : يجب ان افتحه ، فينبغي ان آخذ مناميّ . ولكن الرغاب كانت تتخدر في رأسه ، فلا يتأتى له حتّى ان يرفع ذراعه . كان ينظر الى الصندوق الصغير . وكان ينظر الى الجدار ويفكر : ما الفائدة ؟ ما جدوى الامتناع عن الموت ما دام هذا الجدار موجوداً هنا ، قبالتي ، بألوانه القذرة المزدهية ؟ ولم يكن حتّى خائفاً بعد .

وهوب ! انه يرتفع ، وهوب ! انه يهبط ! لم يكن خائفاً بعد ، كان الطست يصعد ويهبط ، مليئاً بالزبد ، وكان هو يصعد ويهبط ، متمدداً على ظهره ، ولم يكن خائفاً بعد . وسوف يغضب الخادم حين يدخل لأني قئت على الارض ، ولكن طز فيه . كان كل شيء عذباً جداً ، الماء في فمه ، ورائحة القيء ، وهذه الكرة في صدره ، لم يكن جسمه الا عذوبة ، ثم هذه العجلة التي كانت تدور وتدور وتدور وهي تسحق جبينه ، كان يراها وكان يتسلى بان يراها ، كانت عجلة سيارة تاكسي مع دولاب رمادي مستعمل . كانت العجلة تدور ، وكانت الافكار المألوفة تدور وتدور ، ولكنه لم يكن يكترث بها ، فهو يستطيع اخيراً ان لا يكترث بها ، فبعد ثمانية ايام سيطلقون عليّ النار في « أرغون » ولكن لا يهمني ، إنها تحتقرني ، وتفكر بأبي جبان ، ولكن طز ، ما عسى ذلك ان يهمني اليوم ، ما عساه يهمني ؟ طز ، طز ، اني

لا افكر بشيء ، ولا أخاف شيئاً ، ولا آخذ على نفسي شيئاً .

وهوب ! انه يرتفع ، وهوب ! انه يهبط ؛ ما ألذّ ان لا يكترث الانسان بشيء !

الساعة الحادية عشرة ، احدى عشرة ضربة في السكون . ومدّ يده ففتح الصندوق الصغير ، وكان خدّه الأيمن يحرقه كالمشعل ؛ الساعة الحادية عشرة ، وأضاء الشمعدان في الليل ، كانت جالسة في الاريكة ، مكتومة ممتلئة ، بذراعيها الجميلتين العاريتين ، وكان خده يحرقه ، وكان العذاب يعود من جديد ، وكانت اليد ترتفع ، والخد يحرق ، لست جباناً ، لست جباناً ، ونشر منامته ، الساعة الحادية عشرة ، ليلة سعيدة يا ماما ، كنت أقبّل محظيّة الجنرال على وجنتيها المعطرتين ، وانظر الى ذراعيها ، وانحني امامه ، ليلة سعيدة يا ابي ، ليلة سعيدة يا فيليب ، ليلة سعيدة يا فيليب . هذا بالأمس ؛ هذا بالأمس فقط . وكان يفكر في ذهول : كان هذا بالأمس ؛ ولكن ما الذي فعلته ؟ ما الذي حصل منذ ذلك الحين ؟ لقد وضعت منامتي في صندوقي الصغير ، وخرجت كما أخرج كل يوم ، فاذا بكل شيء يتغيّر : لقد سقطت صخرة خلفي على الطريق فحفرتها ، فليس في مكنتي بعد أن اعود ادراجي ؛ ولكن متى ، متى حدث هذا ؟ لقد أخذت صندوقي الصغير وفتحت الباب بهدوء ، وهبطت الدرج ... كان ذلك بالأمس . انها جالسة على الاريكة ، وهو واقف امام المدفأة ، أمس . الجو للديد ورائق في الصالون ، انا فيليب غرازيني ، ابن زوجة الجنرال لاكاز ، ليسانس ادب ، شاعر المستقبل ، أمس ، امس ، امس الى الأبد ؛ كان قد نزع ثيابه ، فارتدى منامته : وفي الغرفة المؤثثة ، كانت حركاته حركات جديدة مترددة ؛ وكان ينبغي تعلمها ؛ كان الـ « رامبو » في الصندوق الصغير ، فتركه فيــه ، ولم تكن له رغبة في القراءة ، مرة واحدة ، لو صدقتني مرة واحدة ، ولو وضعت ذراعيها الجميلتين حول عنقي ، ولو قالت لي ، انني واثقة ، .

فانت شجاع ، وستكون قوياً ، لما ذهبت . انها محظية ، كانت تحمل الى غرفتي كلمات الجنرال ، كلمات متحجرة ، وكانت تلقيها ، فهي أثقل من ان تتحملها ، وتدحرجت الكلمات تحت السرير ، ولقد تركتها تتكدس طوال خمسة اعوام ، يكفي ازاحة السرير للعثور عليها جميعاً ، وطن ، شرف ، فضيلة ، اسرة ، في الغبار ، وانا لم اسيء استعمال اي منها لمصلحتي . وكان قد ظل عاري القدمي على البلاط ، فعطس ، سآخذ برداً ، وكان الزر بالقرب من الباب ، فأطفأه وتوجه الى السرير متلمساً ، وكان يخشى ان يسير على حشرات ، من مثل العنكبوت الكبير الذي له ارجل كأصابع الانسان والذي يشبه يداً مقطوعة ، او رتيلاء ، ماذا لو كانت هنا واحدة ، ماذا لو كانت هنا واحدة ؟ واندس تحت الغطاء ، فصرّ السرير . كان خده يحترق ، مشعل في الليل ، لهب احمر ، فأسنده على الوسادة ، انهم ينامون ، وقد ارتدت هي قميصها الوردي ذا التخاريم : تصوُّرْ ذلك ، هذا المساء ، هو أقل مشقة وألماً ؛ انه لن يستطيع هذا المساء ان يمسّها ، فيشعر بالخجل ، وهي ، المحظية ، لن تتداعى لذلك مهما كان ، بينما يكون ابنها يتضوّر برداً وجوعاً في الطرقات ، انها تفكر فيّ ، وهي تتظاهر بالنوم ، انها تراني ممتقعاً صلباً ، متشنّج الشفتين ، جافّ العينين ، تراني امشي في الليـــل ، تحت النجوم . انه ليس جباناً ، ليس صغيري جباناً ، صغيري ، ولدي ، حبيبي : ليتني هناك ، ليتني استطيع ان اكون هناك ، من اجلهـــا وحدها ، فأشرب هذه الدموع التي تتدحرج على خديها وألامس تينك الذراعين الجميلتين الرقيقتين ، ماما ، يا امي الصغيرة . وقال صوت غريب في اذنيه : ان الجنرال مستشار : وانفلت مثلث أخضر ، واخذ يدور ، الجنرال مستشار :

كان المثلث يدور ، انه رامبو ، وكبُر كالفطر ، وأصبح جافاً متصلب القشرة ، التهاباً في الخد ، في النصر ، في النصر ، « نخب

النصر » . لست جباناً ، صاح فيليب ، وقد استيقظ منتفضاً . كان جالساً على السرير ، والعرق يسيل منه ، وعيناه ثابتتان ، وكان ينبعث من الغطاء رائحة الكبريت ، بأي حق هم شهودي ؟ الغـلاظ . انهم يحكمونني وفق قواعدهم ، وانا لا اقبل الا قواعدي . إن لي اعيادي الزاهية ! ولي كبريائي ! فأنا من جنس السادة . وفكر في غضب : آه ! فيما بعد ! يجب الانتظار ! فيما بعد سيضعون لوحة مرمرية على جدار هذا الفندق : هنا قضى فيليب غرازيني ليلة ٢٤ – ٢٥ ايلول ١٩٣٨ . ولكني سأكون ميتاً . وتسرّب من تحت الباب همس غامض عذب . وفجأة مات الليل . وكان ينظر اليه من اعماق المستقبـل ، بعيون هؤلاء الرجال اللابسين المعطف الاسود والذين كانوا يخطبون تحت اللوحة المرمرية . كانت كل دقيقة تتسرب في الظلام ، ثمينة مقدسة منصرمة . وذات يوم ، ستكون هذه الليلة قد انصرمت ، مجيدة منصرمة كليالي مالدورور ، كليالي رامبو . ليلي . وقـال صوت رجل : « زبزيت » فتهاوت الكبرياء ، وتمزّق الماضي . وكان الحاضر . ودار المفتاح في القفل ، فقفز قلبه الى صدره . لا ، هذا في الباب المجاور . وسمع باب الغرفة المجاورة يصر ، وفكّر : « انهما على الاقل اثنان ، رجل وأمرأة »

كانا يتكلمان . ولم يكن فيليب يسمع كل ما يقولانه . ولكنه فهم ان الرجل كان يدعى موريس ، فطمأنه ذلك قليلاً . وعاد الى النوم ، فمد ساقيه ، وابعد عن ذقنه الغطاء خشية ان يلتـقط بثوراً . وارتفعت اغنية صغيرة على الناي ، اغنية صغيرة غريبة .

قال الرجـل بلطف : – لا تبكي ، لا تبكي ، فهذا لا يفيد شيئاً ..

وكان له صوت حارّ قاس يتناول الكلمات بجفاء ودفع ، فتخرج من جوف حلقه مسرعة تارة بطيئة تارة ، خشنة حازمة ، ولكنها كانت

تمتد كلها في تموّج غامض عذب . وانقطع الناي بعد خرّة او خرتين . وانحنى عليها ، فأخذها من كتفيها . وكان فيليب يحس يدين قويتين على كتفيه ، وكان وجهٌ ينحني فوقه ، وجه هزيل اسمر ، اسود تقريباً ، ذو خدين مزرقّين ، وانف يشبه انف ملاكم ، وفم جميل مرّ ، فم زنجي . وردد الصوت :

— لا تبكي يا صغيرتي ، لا تبكي ، هدئي نفسك .

وهدأ فيليب تماماً . وكان يسمعها يروحان ويجيئان ، وكأنهما في غرفتي . وسحبا شيئاً ثقيلا على الارض ، ربما كان السرير او صندوقاً ، ثم خلع الرجل حذاءه .

قالت زيزيت : — الاحد القادم .

وكان لها صوت اكثر ابتذالاً ولكنه اكثر غناءً . وكان يراها رؤية اسوأ : ربما كانت شقراء ذات وجه ممتقع جداً ، كسونيا في « الجريمة والعقاب »

— واذن ؟

— اوه ! موريس ، لقد نسيت ! كنا متفقين على ان نذهب الى « كورباي » ، لدى جان .

— ستذهبين بدوني .

قالت : — لن تكون لدي الرغبة في الذهاب اليها .

وخفضا صوتهما ، فلم يكن فيليب يفهم ما كانا يقولان ، ولكنه كان يستشعر السعادة لأنهما كانا حزينين . كانا من البروليتاريا بروليتاريين حقيقيين . اما ذاك فقد كان عربيداً فظاً .

وسألت زيزيت : — هل كنت في نانسي ؟

— في الماضي نعم .

— وكيف هي ؟

— لا بأس .

ــ ارسل لي رزمه من البطاقات البريدية . اريــد ان اتصوّر حيث تكون .

ــ ولكنهم لن يتركونا فيها ، لو تعلمين .

بروليتاري حقيقي . إنه لم يكن راغباً في خوض الحرب ، ولم يكن يفكر في النصر : كان ذاهباً ، في حزن عميق ، لانه لم يكن يستطيع ان يفعل شيئاً آخر . قالت زيزيت :

ــ يا حبيبي الكبير .

وصمتا . وكان فيليب يفكر : « انهما حزينان » . وبللت عينيــه دموع عذبة . ملاكان حزينان رقيقان . سأدخل وامد لهما يدي ،واقول لهما : « انا ايضاً حزين ، بسببكما ، من اجلكما . ومن اجلكما تركت بيت اهلي . من اجلكما ومن اجل جميع الذين يذهبون الى الحرب . » سنقف انا وموريس الى جانبيها ، وسأقول لهما : « انني شهيد السلام» واغمض عينيه وقد هدأ : انه لم يكن بعد وحده ، فقــد كان هناك ملاكان حزينان يحرسان نومه : الشهيد ، نائما على ظهره ، كصريــع من حجر ، وملاكان حزينان عند سريره ، ومعهما غصون النخيل . كانا يتمتمان ، يا حبيبي الكبير ، يا حبيبي الكبير، لا تتركني، احبك وكلمة اخرى عذبة وثمينة ، لا يذكرها بعد ، ولكنهــا كانت ارق الكلمات الرقيقة ، كلمة دارت واشتعلت كإكليل من نار ، وحملها فيليب في نومه .

قال غرولويس « هكذا اذن ، هكذا اذن ! » وكان قد جلس على الرصيف ، ولم يكن ليتصوّر قط ان بامكانه ان يعاني مثل هذا الالم في جمجمته ، كان كل وجع يوقظ فيه خدراً جديداً . وقــال : « اوه ! اما ذاك ، آه طز اذن ! » وحمل يده الى خدّه . فأحس باللزوجة وكان ذلك يدغدغه ، ولا بد انه دم . وقال : « إذن سأضمد نفسي برباط . اين تراهما قد وضعا كيسي ؟ » وتلّمس في ما حوله،

فالتقت يده شيئاً قاسياً ، واذا هي محفظة ، وتساءل : « اتراهما قد فقدا محفظتها ؟ » فأخذها وفتحها ، فاذا هي فارغة . وبحث في جيبه فأخذ عود ثقاب وحكّه بالزفت : وكانت المحفظة محفظته . وقال ملاحظاً : « إذن حسناً ، ليس الامر رديئاً الان » وكان دفتره العسكري قد بقي في جيب صدارته ولكن المحفظة كانت خالية . « ما الذي سأعمله ؟ » وكان ما يزال يفتش الارض بيديه ، وقال : « لن اذهب الى رجال الشرطة ، فهذا ما لا يُعمل » واغمض عينيه لحظة واخذ ينفخ: كان رأسه يؤلمه جداً حتى انه كان يتساءل عما اذا لم يكن في داخله ثقب ، ولمس رأسه في حيطة ، فلم يكن يبدو عليه انه مشقوق ، ولكن الشعر كان قد تجمّد في طاقات لزجة ، ثم انه كان يكفيه ان يشد قليلا حتى يحس كما لو انه كان يُطرق بمطرقة . وقال : « لا يروق لي ان اذهب الى الشرطة ، ولكن ما الذي سأفعله ؟ » وكانت عيناه تألفان الظلام ، فميّز كتلة غامضة ، على بعد امتار منه ، على الطريق . انه كيسي . ومشى على اربع ، لانه لم يكن يستطيع ان يتماسك على ساقيه : « ما هذا ؟ » كان قد وضع يده في مستنقع ، وفكر بقلب منتفض : « لقد كسروا زجاجتي » . وأخذ الكيس فإذا القماش مبلل والزجاجة شظايا . وقال غرولويس : « اوه ! لقد بالغا كثيراً ! » وترك الكيس ، وجلس في جدول الخمر ، وسط الشارع واخذ يبكي ، وكانت الغصّات تمر من انفه وتهزه ، وكان لديه إحساس بأن رأسه ينفجر : انه لم يبك مثل هذا البكاء منذ موت العجوز ، كان شارل عارياً تماماً ، وساقاه في الهواء ، امام ست ممرضات خنعت اشدّهن خضرة جناحيها وحركت فكيها ، وكان هذا يعني : صالح للخدمة ، وتضاءل ماتيو واستدار ، وكانت مارسيل تنتظره ، منفرجة الساقين ، وكانت مارسيل لعبة كبيرة الفم ، وحين اصبح

ماتيوكومة كله ، قذفه جاك ، فسقط في ثقب الصواريخ الاسود، سقط في الحرب ، وكانت الحرب مستعرة ، وحطمت قنبلة الزجاج وتدحرجت عند اسفل السرير ، وانتصبت ايفيش ، فتفتحت القنبلة ، فـاذا هي باقة زهر ، خرج منها اوفانباخ ، وقالت ايفيش : « لا ترحل ، لا تذهب الى الحرب ، وإلا فما هو مصيري ؟ » نصر ، وكان فيليب يشك الحربة بالمدفع ، ويهتف بالنصر ، النصر نخب النصر ، فهـرب القياصرة الاثنا عشر ، وكانت القيصرة محررة ، وحل قيوده ، وكانت عارية ، قصيرة وسمينة ، وكانت تُحول نظرها ، وكانت المتفجـرات والمتفرقعات تعدو نحو الربّان بكل قوة اوتيتها قدماها ، وكان بيـار يقبض عليها من ظهورها ويضعها في حزمته ، التي كانت المستودع ، ولكن الرابعة ارادت ان تطير ، فقبض عليها من اغمادها ، وهي ضاجّة ضاحصة ، فانفجر ضاحكاً واخذ ينتف ريشها ، وكانت المفرقعات قد اكلت خدّيه ولثتيه ، ولكن بقيت عيناه ، عيناه الكبيرتـان المليئتان بالاحتقار ، وفرّ بيار مطلقاً لساقيه العنان ، كان يهرب من الجندية ، ويهرب ، ويعدو في الصحراء ، وسألته مود : « هل استطيع ان ارفع أدوات المائدة ؟ » وكان فيغيه ميتاً ، وكان يشعر ، ونزع دانيـال بنطلونه ، وكان يفكر : هناك نظر ، وكان ينتصب امام نظر، جبان لوطي ، لئيم ؛ كأنه تحد . انه يراني ، يراني كـما انا . ولم يكن هانوكين يستطيع النوم ، كان يفكر : انني مجند ، وكان ذلك يبدو له غريباً ، وكان رأس جارته يثقل على كتفه ، وكانت رائحته شعراً وزيتاً ملمعاً ، وكان يترك ذراعه تسقط وتلامس فخذها ، وكان ذلك لذيذاً ، ولكنه متعب بعض الشيء . كان قد سقط على بطنه ، ولم يبق له بعد ساقن . وصاحت : « حبيبي » وقال الصوت النائم : « ماذا تروين ؟ » قالت اوديت : « كنت أحـلم ، نم يا حبيبي ، نم » واستيقظ فيليب منتفضاً : لم تكن تلك صيحة الديك ، وانما كان انين

امرأة رقيقاً ، هاه ، هاه ، هاه ، وظن اولاً انهـا كانت تبكي ، ولكن لا ، فقد كان يعرف جيداً تلك الشكاوى ، وقد استمع اليها غالباً ، اذ كان يلصق اذنه بالباب ، وهو ممتقع من الغضب والبرد ، ولكن ذلك لم يكن يثير اشمئزازه هذه المرة . كان شيئاً جديداً ورقيقاً، موسيقى الملائكة .

قلت زيزيت بصوت أبح : — هاه ، كم أحبك ، اوه ، اوه ، اوهوهو هاها !

وساد صمت : كان يثقل عليها بكل جسمه الصلب ، الملاك الجميل ذو الشعر الاسود والفم المر . فكانت مسحوقة ربّـا . واستقام فيليب فجأة وجلس ، وفي فمه مرارة ، والحسد يفري قلبه . ومع ذلك فقد كان يحب كثيراً زيزيت :

« ها آآه »

وتنفس : كانت صرخة قاطعة ونهائية : لقد انتهيا : وبعد لحظة ، سمع صفقاً مبلّلاً : كانت اقدام عارية تركض على البـلاط ؛ وغنّى الصنبور ، عصفور في الاغصان ، وأجريت جميع مجاري الماء بقرقرات مريعة . وكانت زيزيت قد عادت الى موريس ، نضرة كل النضارة ، باردة الساقين ؛ وصرّ السرير ، واستلقت بالقرب منه ، في السرير المحرق الرطب ، وشدت جسدها الى جسده ، وكانت تشمّ رائحـة عرقه الحمراء .

— اذا متّ ، فلن يبقى لي الا ان انتحر .

— لا تقولي هذا .

— لن يقى لي الا ان انتحر يا مومو :

— سيكون هذا مؤسفاً ، فانت رشيقة وانت عاملة ، تحبين ان تأكلي جيداً ، وتحبين ان تضاجعي جيداً : فانظري كل ما سوف تفقدينه :

قالت زيزيت بهوس :

– انت ، احب ان اضاجعك انت . ولكنك انت لا تهتم بذلك ، فانت ترحل ، وأنت مسرور .

قال موريس : – لا ، لست مسروراً ، ويغيظني ان اذهب .

سوف يذهب ، سيرحل وسيستقل القطار الى نانسي ، ولن أراها ابداً ، لن ارى وجهه ، ولن يعرف ابداً من انا . وخمشت قدماه الغطاء : اريد ان اراها .

– ليتك لا تذهب ، ليتك تستطيع الا تذهب ...

وقال لها موريس بلطف :

– لا تبكي ...

اريد ان اراها . وقفز من السرير ، وكانت الرتيلاء تترصده ، قابعة تحت السرير ، ولكنه ركض باسرع منها ، وضغط على الزر ، فتلاشت في النور . اريد ان اراها .

ولبس بنطلونه ، ووضع قدميه العاريتين في حذائه وخرج . وكان مصباحان ازرقان يضيئان الممر . وعلى الباب التاسع عشر ، كانت ورقة رمادية قد عُلقت بمسمار : « موريس غرنو » واستند فيليب الى الجدار وكان قلبه يثب في صدره ، وكان يلهث كما لو انه عدا . ماذا استطيع ان افعل ؟ ومد يده ولمس الباب لمساً خفيفاً : كانا هناك ، وراء الجدار ، انني لا اطلب شيئاً ، الا ان اراهما . وانحنى وألصق عينه على ثقب القفل . فتلقى لفحة باردة على قرنيته ، وخفق جفنيه ولم ير شيئاً على الاطلاق ، لقد اطفأ النور . وطرق الباب وهو يفكر : « اريد ان اراهما » فلم يجيبا . وانقبض حلقه وطرق طرقاً اشد . وقال الصوت : « من هناك ؟ » وكان صوتاً مفاجئاً قاسياً ، ولكنه سيتغير . سيفتح الباب وسيتغير الصوت . وطرق فيليب : إنه لم يكن يستطيع ان يتكلم . فقال الصوت نافد الصبر :

– ماذا ؟ من هناك ؟

فكفّ فيليب عن الطرق ، وكان يكاد يختنق ، فأخذ نفَساً طويلا ودفع صوته عبر حلقومه المنقبض قائلاً :

– أودّ ان اتحدث اليك .

وساد صمت طويل . وكان فيليب يفكر في ان يذهب، حين سمع وقع خطى ، ونفَساً ازاء الباب ، وطقّة . انه يشعل النور .وابتعدت الخطى، انه يرتدي بنطلونه . وتراجع فيليب واستند الى الجدار ، وكان خائفاً. ودار المفتاح في القفل ، ثم انفتح الباب فرأى رأساً أحمـر منفوشاً ذا وجنتين عريضتين وبشرة مجعّدة . وكان للرجل عينان فاتحتان بلا جفون، وكان ينظر الى فيليب في دهشة هزلية ، وقال :

– لقد اخطأت الباب .

كان ذلك صوته ، ولكنه اذ يمر في فمه ، يصبح متغيراً . وقـال فيليب :

– كلا ، لم اخطىء .

– واذن ، فماذا تريد مني ؟

كان فيليب ينظر الى موريس ويفكر : « ان الامـر لا يستحق بعد » ولكن كان قد فات الاوان وقال :

– اريد ان احدثك .

كان موريس متردداً ، ورأى فيليب في عينيه انه موشك على ان يغلق الباب ، فاستند بقوة الى المصراع وردّد :

– اريد ان احدثك .

قال موريس : – انا لا اعرفك .

وكانت عينـاه الصفراوان قاسيتين خبيثتين . وكان يشبه المرصّص الذي كان قد جاء يصلح الحوض . وقال صوت زيزيت القلق :

– ماذا يا موريس ؟ ماذا يريد ؟

وكان الصوت حقيقياً ، وكذلك كان الوجه الرقيق الذي لا يُرى .

وسحنة موريس الضخمة هي التي كانت حلماً . كابوسا . وانطفأ الوجه الرقيق ، وخرج رأس موريس من الظلام ، قاسيا كثيفا ، حقيقيا .
وقال موريس :
– انه شخص لا اعرفه ، ولا ادري ما الذي يريده مني .
فتمتم فيليب : – يمكنني ان اكون نافعا لك .
وكان موريس يجسه بعينه في حــذر . وفكر فيليب : انه يرى بنطلوني الفلانيل ، ويرى حذائي المصنوع من جلــد العجل ، ويرى صدارة منامتي السوداء ذات الياقة الروسية . وقال وهو يتقوس عند الباب :
– كنت ... كنت في الغرفة المجــاورة . واني ... اقسم لك ان بامكاني ان اكون نافعا لك .
وصاحت زيزيت :
– عد واتركه يا موريس ، اتركه .
وكان موريس ما يزال ينظر الى فيليب . وفكر لحظة ، ثم اشرق وجهه المكفهر قليلا ، فسأله وهو يخفض صوته بعض الشيء :
– ايكون أميل هو الذي ارسلك ؟
فصرف فيليب عينيه وقال :
– نعم ، انه اميل .
– وماذا يريد ؟
فارتعش فيليب :
– لا استطيع ان اتكلم هنا .
فاستتلى موريس متردداً :
– وكيف حدث انك تعرف اميل ؟
فقال فيليب مبتهلا : – دعني ادخل ، فــاذا يضيرك ان تدعني ادخل ؟ ثم انني لا استطيع ان اقول شيئا في هذا الممر .
وفتح موريس الباب وقال :

ـ ادخل . ولكن لا لأكثر من خمس دقائق . انني اريد ان انام .
فدخل فيليب ، وكانت الغرفة شبيهة كل الشبه بغرفته ، ولكن كان على الكراسي ثياب وجوارب وسروال صغير وحذاء امرأة على البلاط الاحمر ، بالقرب من السرير ، وعلى الطاولة موقد غاز وقدر . وكانت تنبعث رائحة شحم قد برد . وكانت زيزيت جالسة في السرير ، وهي تشد غلالة من صوف بنفسجي حول كتفيها . وكانت قبيحة ذات عينين غارقتين متحركتين ، وكانت تنظر الى فيليب نظرة عداء . وأغلق الباب فارتعش .

ـ نعم ، ماذا يريد مني اميل ؟

فنظر فيليب الى موريس بضيق : لم يكن يستطيع بعد ان يتكلم ، وقالت زيزيت بصوت غاضب :

ـ هيا ، عجّل . انه ذاهب صباح الغد ، وليس هذا وقتاً مناسباً لإزعاجنا .

وفتح فيليب فمه وبذل جهداً كبيراً ، ولكن لم يخرج منه اي صوت. وكان يرى نفسه بعيونها ، فيجد ذلك شيئا لا يطاق . وسألت زيزيت:

ـ انني اتحدث اليك بالفرنسية ، اليس كذلك ؟ اقول لك انه ذاهب صباح الغد .

والتفت فيليب الى موريس فقال بصوت مختنق :

ـ يجب الا تذهب .

ـ اذهب الى اين ؟

ـ الى الحرب

وكان موريس يبدو بهيئة مشدوهة ، وقالت زيزيت بصوت ثاقب :

ـ هذا شرطيّ .

وكان فيليب ينظر الى البلاط الاحمر ، وذراعاه متدليتان ، فيحس نفسه مخدراً كل التخدير ، حتى ليشعر من ذلك بما يشبه اللذة . وأخذه

موريس من كتفيه يهزه :
– هل تعرف انت اميل ؟
فلم يجب فيليب ، فعاد موريس يهزه هزاً أشد :
– اتراك ستجيب ؟ اسألك ان كنت تعرف اميل ؟
فرفع فيليب على موريس عينين يائستين ، وقال بصوت خافت وسريع :
– اعرف شيخاً يزوّر الاوراق .
فتركه مويس فجأة ، وخفض فيليب رأسه وأضاف :
– ويمكنه ان يزوّر اوراقك .
وساد صمت طويل ، ثم سمع فيليب صوت زيزيت المنتصر :
– ما الذي كنت اقوله لك ؟ انه مخبر .
فجرؤ على رفع عينيه ، وكان موريس ينظر اليه نظرة مريعة ، وقد مدّ يده الكبيرة المشعرة ، فتراجع فيليب واثباً الى خلف ، وقال وهو يرفع مرفقه :
– ليس هذا صحيحاً ، ليس هذا صحيحاً ، فأنا لست شرطياً .
– ماذا جئت تفعل هنا إذن ؟
فقال فيليب وهو يوشك ان يبكي :
– انني مسالم .
فردّد موريس في ذهول :
– مسالم ! لم يكن ينقصنا غير هذا .
وحك رأسه لحظة ثم انفجر ضاحكاً وقال :
– مسالم ! اتسمعين يا زيزيت ؟
فاخذ فيليب يرتجف ، وقال بصوت منخفض :
– امنعك من الضحك .
وعض على شفتيه ليمنع نفسه من البكاء ، ثم اضاف بمشقة :
« فحتى لو لم تكن مسالماً ، فعليك ان تحترمني »

فردد موريس :– احترمك، احترمك ؟

قال فيلب بهدوء رصين :

– انني فراري . واذا عرضت عليك اوراقاً مزوّرة ، فلأني حصلت على مثلها . وبعد ، غد سأكون في سويسرا .

وتطلع الى موريس مواجهة : كان موريس قد قرّب مـا بين حاجبيه ، فتشكل على جبينه ثلم بشكل Y ، وكان يبدو وكأنه يفكر .

وقال فيليب :

– تعال معي ، فانا أملك مالاً لشخصين .

ونظر اليه موريس في اشمئزاز ، وقال :

– قذرٌ صغير ! أرأيت يا زيزيت كم هو رخو؟ان الحرب بالتأكيد تثير رعبك ، وانت لا تريد بالطبع ان تحارب الفاشيست ، بل انت اميل الى معانقتهم ، أليس كذلك ؟ انهم هم الذين يحمون فلوسك ، يا غلام الاغنياء !

قال فيليب : – لست فاشستياً .

فقال موريس : – لا ، بل انا . هيا ، حـلّ عن ظهري ايها القذر ! والا ارتكبت جريمة .

وكان ساقا فيليب هما اللتين تريدان ان تهربا . ساقاه وقدماه . انه لن يهرب . وجر ساقيه الى الامام ، واقترب من موريس ، واخفض قسراً هذا المرفق الطفولي الذي كان يرتفع من تلقاء نفسه . ونظر الى ذقن موريس ، ولم يكن يتوصل الى رفع نظره حتى العينين الصفراوين اللذين لا اجفان لهما . وقال :

– لن أذهب .

وظلا لحظة وجهاً لوجه ، ثم انفجر فيليب :

– ما اقساكم جميعاً ! جميعاً . لقد كنت هنا ، اسمعكما تتحدثان ، فاؤمل ... ولكنك كالآخرين ، انت جدار . تدينون دائماً ، من غير

ان تحاولوا الفهم ؛ هل تعرف من أكون ؟ انما من أجلكم ، قد هربت ، وقد كان بوسعي ان ابقى في بيتي ، حيث آكل حين أجوع وحيث أعيش في وسط دافيء ، بين اثاث جميل وتحت امرتي الخدم ، ولكني تركت كل شيء من اجلكم . وانتم ، يرسلونكم الى المسلخ ، فتجدون ذلك جيداً ، ولا ترفعون إصبعكم ، ويضعون بندقية بين أيديكم فتفكرون بأنكم ابطال ، واذا حاول أحد ان يتصرف تصرفاً آخر ، وصفتموه بانه غلام الاغنياء ، وبأنه فاشيستي ، وبأنه جبان ، لأنه لا يفعل كما يفعل جميع الناس . انا لست جباناً ، فانت تكذب ، ولست فاشستيا ، وليس الذنب ذنبي اذا كنت غلام اغنياء . ان هذا لو تعلم أسهل ، اسهل جداً من ان اكون غلام فقراء .

قال موريس في صوت أبيض :

— انصحك بان تذهب، لأني لا احب الخليط كثيراً ، وقد أغضب.

فقال فيليب وهو يضرب الارض بقدمه :

— لن أذهب . لقد كفاني ، أخيراً ! حسبي من جميع هؤلاء الاشخاص الذين يتظاهرون بأنهم لا يرونني ، او الذين ينظرون الي من عل ، وبأي حق ؟ بأي حق ؟ انني انا موجود ، وانا أساويكم في القيمة . ولن اذهب ، سأبقى طوال الليل ، اذا لزم الامر ، اريد ان اشرح وجهة نظري مرة والى الابد .

قال موريس : — انك لن تذهب ! لن تذهب اذن !

وامسك به من كتفيه ، ودفعه نحو الباب ؛ واراد فيليب ان يصمد ولكن ذلك كان موئساً : لقد كان موريس قوياً كالجاموس ، وصاح فيليب :

— دعني ، دعني . واذا اخرجتني ، بقيت امام بابك ، وأحدثت ضجة ، انا لست جباناً ، واريد ان تستمعوا الي . (وأضاف وهو يرفسه بقدمه) دعني ، دعني ايها الوحش .

ورأى يد موريس المرفوعة ، فكفّ قلبه عن الخفقان ، وقال :

ـ لا ! لا !

وصفعه موريس مرتين بقبضته . وقالت زيزيت :

ـ مهلا ، مهلاً ، انه طفل .

وترك موريس فيليب ، ونظر اليه في شيء من الاندهاش . وتمتم فيليب :

ـ انني ... انني اكرهك .

وقال موريس بلهجة متّرددة :

ـ اسمع ، يا بني ...

قال فيليب : ـ سترون ، سترون جميعاً ، وسوف تخجلون .

وخرج وهو يركض ، فعاد الى غرفته وأغلق الباب المفتوح . وكان القطار يمضي ، وكانت الباخرة تصعد وتهبط ، وكان هتلر نائمـاً ، وكانت ايفيش نائمة ، وكان شمبرلن نائماً ، وارتمى فيليب على سريره وأخذ يبكي ، وكان غرولويس يترنح ، بيوت ، وايضاً بيوت ، كان رأسه مشتعلاً ، ولكنه لم يكن يستطيع ان يقف ، وكان ينبغي له ان يمشي في الليل على حذر ، في الليل المربع الهامس ، وكان فيليب يبكي ، وكان بلا قوة ، يبكي ويسمع همسها عبر الجدار ، وكان لا يتوصل حتى الى بغضهما ، كان يبكي منفياً في الليل البارد الذي يُرثى له ، في ليل الطرقات الرمادي ، وكان ماتيو قد استيقظ ، فنهض ووقف ازاء النافذة ، وكان يستمع الى همسات البحر ، وابتسم لليل الجميل الرائق .

الاحد ٢٥ ايلول

يوم عار ، يوم راحة ، يوم خوف ، يوم الرب ، كانت الشمس تشرق على يوم احد . المنارة ، الفانوس ، الصليب ، الحد : ان الرب يحمل صليبه في الكنائس ، وأنا احمل خدي في الشوارع المزينة بزينة يوم الأحد ، عجباً ، انت مصاب بورم ، ولكن لا : الواقــع انهم جلدوني على خدي ، يا للشخص الصغير الدنيء الذي يحمل أليتيه على وجهه ، والرأس المشقوق ، المضمد ، القرعة ، اليقطينة ، لقد ضربوا من الخلف ، واحدة اثنتان ، كان يمشي في رأسه ، وكان النعل يخفق في رأسه ، اليوم أخذ ، فأين ابحث عن العمل ، كانت الابواب مغلقة ، الابواب الحديدية الكبيرة ، مسمرة ، صدئة ، مغلقة على ظلام ، على فراغ ذي رائحة نشارة ، وزيت مسوّد وحديد قديم ، عــلى سطح الأرض المزروع نحاتة صدئة ، كانت مغلقةً الابواب الخشبية الصغيرة المربعة ، مغلقة على امتلاء ، على غرف ملأى حتى الانفجار بالاثاث ، والذكريات ، والاولاد ، والاحقاد ، مع تلك الرائحة الكثيفة لبصل عفن ، والياقة المستعارة اللامعة على السرير والنساء المتأمــلات خلف النوافذ ، كان يمشي بين النوافذ ، بين الانظار ، وقد حجّرته الانظار

وصلّبته . كان غرولويس يمشي بين الجدران القرميدية والابواب الحديدية، كان يمشي بلا فلس ولا شيء يأكله ، ورأسه يخفق كأنه قلب ، كان يمشي ونعلاه يضربان في رأسه ، فليك فلاك ، يمشيان ، وقد عرقا ، في الشوارع التي اغتالها الاحد ، وكان خده يضيء الجادة امامه وهو يفكر : « اصبحت شوارع حرب إذن ؟ » كان يفكر : « كيف لي ان آكل ؟ » وكانوا يفكرون : « أليس ثمة من يساعدني ؟ » ولكن الرجال الصغار السمر ، والعمال الكبار ذوي الوجوه المثلّمة كانوا يحلقون ذقونهم وهو يفكرون في الحرب ، يفكرون بأن امامهم يوماً بطوله يفكرون فيه بالحرب ، يوماً فارغاً بطوله يجرّون فيه قلقهم عبر الشوارع المغتالة . الحرب : الحوانيت المغلقة ، الشوارع المقفرة، ثلاثمئة وخمسة وستون احداً في العام : كان فيليب يُدعى « بيدرو كازاريس » وكان يحمل اسمه على صدره . كان بدرو كازاريس ، بدرو كازاريس ، بدرو كازاريس ، بدرو كازاريس راحلا في المساء نفسه الى سويسرا، وكان يحمل الى سويسرا خداً كبيراً مزدهرا موسوماً بخمسة أصابع ؛ وكانت النساء ينظرن اليه من نوافذهن .

وكان الرب ينظر الى دانيال .

أادعوه الرب ؟ كلمة واحدة ويتغيّر كل شيء . كان مستنداً الى المصراعين الرماديين اللذين يغلقان حانوت السرّاج ، وكان الناس يسرعون نحو الكنيسة سوداً على الطريق الوردية ، سرمديين، كل شيء كان سرمدياً. ومرّت امرأة شابة ، شقراء رشيقة ، شعرها مجنون بدقّة ، وكانت تسكن في الفندق ، وكان زوجها يأتي ليراها يومين كل خمسة عشر يوماً ، وهو صناعي من « بو » ؛ وكانت قد ألقت على وجهها قناع النعاس لأن اليوم يوم أحد ، وكانت قدماها الصغيرتان تكردحان نحو الكنيسة ، وكانت روحها بحيرة من فضة . الكنيسة : ثقب ؛ وكانت الواجهة ذات طراز روماني ، وكان ثمة تمثال من حجر للمشاهدة ، في

المعبد الثاني ، الى اليمين وانت داخل . وابتسم لزوجة العقاد وابنهـا الصغير . أأدعوه الرب ؟ لم يكن مندهشاً ، وكان يفكر : لا بد ان يحدث هذا . عاجلاً او آجلاً . كنت أحسُ جيداً انه كان ثمة شيء. كل شيء ، لقـد فعلت دائماً كل شيء كشاهد . فنحن نتبخّر ، بلا شاهد .

قالت نادين بيشون : – صباح الخير ، سيد سبرينو . انت ذاهب الى القداس ؟

فقال دانيال : – انا مسرع لذلك .

وتبعها بعينيه ، وكانت تعرج اكثر من المعتاد ، ولحقت بها فتاتان صغيرتان وهما تركضان ودرتا حولها بفرح . ونظر اليهما . اني ارشقهما بنظري المنظور ! ان نظري مجوّف ، فنظر الرب يخترقه من الطرفين . وفكر فجأة : « اني انشيء أدباً » . ولم يكن الرب بعدُ هنا . كان ثمة حضوره هـذه الليلة ، في عرق الغصاء ، وكان دانيال قد أحسّ نفسه قابين : هأنذا ، هأنذا كما خلقتني ، جبان ، أجوف ، لوطي. وبعد ذلك ؟ كان النظر هنـا ، في كل مكان ، أصمّ ، شفافاً مليئاً بالأسرار . وكان دانيال قد انتهى الى النوم ، ولدى اليقظة ، كان وحده . ذكرى نظر . كان الجمع يتدفق من جميع الابواب الفاغرة ، قفازات سوداء ، وياقات من خزف ؛ وجاود ارانب ، وكتب قدّاس العائلة في اطراف الأصابع . وقال دانيال في نفسه : آه ، لا بد من مخطّط . لقد تعبت من ان اكون هذا التبخّر الذي لا انقطاع له نحو السماء الفارغة . فانا اريد سقفاً . ولامسه الجزّار في مروره ، وكان رجلاً سميناً قرمزيّ الوجه يلبس النظـارات ، يوم الأحد ، ليتميّز بطابع خاص . وكانت يده المُشعرة تقبض على كتاب قداس . وفكر دانيال : سيجتلب اليه النظر ، فيقع عليه من النوافذ الزجاجية ؛ انهم جميعاً سيجتلبون اليهم النظر ؛ ان نصف البشر يعيشون تحت النظر .

أتراه يحس بالنظر عليه حين يضرب بالسكين على اللحم الذي يتفتح تحت الضربات /، فيكشف العظمة المستديرة المزرقة ؟ انه يرى ، ترى قسوته كما ارى يديه ، ويرى بخله كما ارى شعره النادر ، وهذا الطرف من الشفقة الذي يلتمع تحت البخل كما تلتمع الصلعة تحت الشعر ؛ انه يعرف ذلك ، وسوف يقلب الصفحات المقرنة في كتاب القداس، وسوف يئن ، مولاي ، مولاي ، اني بخيل . وسيسقط نظر ميدوز من فوق محجراً . فضائل من حجر ، عيوب من حجر : أية راحة ! ان لهؤلاء الناس اساليب معاناة،هكذا قال دانيال في نفسه غاضباً ، وهو ينظر الى الظهور السوداء التي كانت تنغمر في ظلمات الكنيسة . وكانت ثلاث نساء تكردح معاً في اشراق الصباح الأحمر . ثلاث نساء حزينات مستغرقات، مسكونات . لقد أشعلن النار ، وكنسن الارض ، وسكبن الحليب في القهوة ، ولم يكن شيئاً بعد ، الا ذراعاً في طرف المكنسة ، والا يداً منغلقة على اذن ابريق الشاي . والا هذه الشبكة من الضباب التي تتدفع على الاشياء عبر الجدران ، من الحقول والغابات . وهن الآن يذهبن الى هناك ، في الظل ، وسيكن ماهن . وتبعهن من بعيد ، ماذا لو ذهبت الى حيث يقصدن ؟ قصة للضحك : هأنذا ، هأنذا كما صنعتني، حزين ، جبان ، لا يرجى برئي . انك تنظر الي فيفر كل أمل : لقد تعبت من فرط الفرار من نفسي ، ولكني أعلم تحت نظرك اني لا استطيع بعد ان افر من نفسي . سوف ادخل ، وسوف انتصب واقفاً ، وسط هاتيك النسوة الراكعات ، كبناء من الظلم والطغيان . سوف اقول: « انا قايين ، واذن ؟ انت الذي صنعتني ، فاحملني » نظر مارسيل ، نظر ماتيو ، نظار بوبي ، نظر قططي ، كلها كانت تحط دائماً على جلدي . انني لوطي يا ماتيو . انني ، انني ، انني لوطي ، يا إلهي. كانت الدمعة في عين العجوز ذي الوجه المجعد ، وكان يمضغ شاربه المحمر بالتبغ ، بهيئــة شريرة . ودخل الكنيسة منهوكاً ، عاجزاً ،

مغلقاً ، فدخل دانيال خلفه . وكانت تلك هي الساعة التي يأتي فيها ريبادو الى الملعب وهو يصفّر ، فكان الفتيان يقولون له : « واذن ، يا ريبادو ، هل انت اليوم على ما يرام » . كان ريبادو يفكر في هذا وهو يلفّ سيكارة ، وكان يُحسّ يديه خاويتين ، وكان ينظر بكآبة الى القاطرات والى صفوف البراميل ، فكان يشعر بأن شيئاً ما كان يعوز يديه ، وزن كرة مسمّرة تستقرّ في راحته ؛ كان ينظر الى البراميل ويفكر : « يوم أحد ، يا للحسرة ! » كان ماريوس وكلوديو وريمي قد ذهبوا كلّ بدوره ، وكانوا يلعبون لعبة الجندي الصغير ؛ وكان جول وشارلو يعمــلان ما يستطيعان ، فيدحرجان براميل على الخطوط الحديدية ، ويتعاونان ارفعها ويؤرجحانها في القاطرات ؛ كانا قويين ولكنهما شيخان ، وكان ريبادو يسمعهما يلهثان والعرق يسيل على ظهرهما العاري ؛ وهما لن ينتهيا من ذلك ابداً . وكان ثمة شخص طويل مضمد الرأس يذرع المستودع منذ ربع ساعة جيئة وذهاباً ؛ وقد انتهى بالاقتراب من جول ورأى ريبادو شفتيه تتحركان . وكان جول يستمع اليه بهيئته المخدّرة ثم نهض نصف نهضة وأطبق راحتيه على خاصرتيه واومأ الى ريبادو بحنية من رأسه . وسأل ريبادو :

— ما هذا ؟

فاقترب الرجل على تردد ، وكان يمشي كالبطة ، قدماه الى الخارج؛ لص حقيقي . ولمس ضماده بمثابة تحية ، وسأل :

— هل لديكم عمل ؟

فزدد ريبادو : — عمل ؟

وكان ينظر الى الزجل : لص حقيقي ، كان ضماده مسوداً ، وكان يبدو عليه انه قوي ، ولكن وجهه كان ممتقعاً حتى ليثير الخــوف ؛ وقال ريبادو :

— عمل ؟

وكان احدهما يتفرس في وجه الآخر بتردد ، وكان ريبادو يتساءل

عما اذا كان الرجل لن يسقط مغمى عليه . وقال وهو يحك رأسه :
ـ عمل ؟ ليس هذا ما ينقصنا .
فطرف الرجل بعينيه . لم تكن هيئته عن قرب رديئة جداً . وقال :
ـ اريد ان أعمل .
فقال ريبادو : ـ لا يبدو عليك انك سليم .
قال الرجل : ـ من اي شيء ؟
ـ اقول انك تبدو مريضاً .
فنظر اليه الرجل في دهشة وقال :
ـ لست مريضاً .
ـ انك مصفر جداً . ثم ما هذا الضماد ؟
فأوضح الرجل قائلا : ـ لقد ضربوني على رأسي . وليس هذا بذي بال .
ـ ومن الذي ضربك على رأسك ؟ الشرطة ؟
ـ كلا . رفاق . استطيع ان اعمل فوراً .
قال ريبادو : ـ سوف نرى .
فانحنى الرجل ، وتناول برميلا فرفعه بذراعه . ثم قال وهو يعيده الى الارض :
ـ استطيع ان اعمل .
قال ريبادو في اعجاب :
ـ يا ابن القحبة ! (واضاف) ما هو اسمك ؟
ـ اسمي غرولويس .
ـ هل معك اوراقك ؟
قال غرولويس ـ معي دفتري العسكري .
ـ ارني اياه .
وفتش غرولويس في جيب صدارته الداخلي وسحب دفتره بحيطة

ومده الى ريبادو . ففتحه ريبادو واخذ يصفر وقال :
— ولكن ما هذا ! ولكن ما هذا !
قال غرولويس بلهجة قلقة :
— انها اوراق قانونية .
— قانونية ؟ هل تعرف القراءة ؟
فنظر اليه غرولويس نظرة خبيثة :
— لا حاجة لمعرفة القراءة من اجل حمل البراميل .
ومد له ريبادو دفتره :
— ان معك الكراسة رقم ٢ يا بنيّ . انهم ينتظرونك في مونبليه ، في الثكنة . وانصحك بأن تدبّر امرك ، والا اعتبروك متمرداً .
فقال غرولويس مشدوهاً : — في مونبليه . ليس لدي ما افعله في مونبليه .
فغضب ريبادو وصاح به :
— اقول لك انك مجنّد فمعك الكراسة ٢ . انت مجنّد .
واعاد غرولويس دفتره الى جيبه وسأله :
— انك اذن لا تستخدمني ؟
— لا اريد ان استخدم فرارياً .
وانحنى ريباردو ورفع برميلا ، فقال ريبادو بحيوية :
— حسناً ، حسناً ، انت قوي من غير شك ، ولكن لن يجديني شيء على الاطلاق اذا اوقفوك بعد ثمن واربعين ساعة .
وكان غرولويس قد وضع البرميل على كتفه ، وكان يحدّق في ريبادو وهو يقطّب حاجبيه الكبيرين . وهز ريبادو كتفيه وقال :
— آسف .
ولم يكن ثمة ما يُقـــال بعد . وابتعد ، وفكر : « انا لا اريد متمرداً » وقال :

– ايه شارلو !

فقال شارلو : – ماذا ؟

– انظر الى الرجل هناك ، انه متمرد .

قال شارلو : – مؤسف . كان بامكانه ان يساعدنا قليلاً .

فقال ريبادو : – لا أستطيع ان اوظف متمرداً .

قال شارلو : – طبعاً لا .

والتفتا معاً : كان الرجل الطويل قد وضع البرميل على الارض ، وكان يقلب بهيئة شقية دفتره العسكري بين اصابعه .

كان الجمع يحيط بهم ، يحملهم ، يطوف حولهم ويكثف وهو يطوف ، ولم يكن رنيه يعلم بعد اذا كان جامداً او اذا كان يدور مع الجمع . كان ينظر الى الاعلام الفرنسية التي ترفرف فوق مدخل « غار دوليست » ؛ كانت الحرب هناك ، في نهاية الخطوط الحديدية ، ولم تكن لتزعج ، وكان يستشعر تهديداً بكارثة اشدّ قرباً : ان الجموع شيء رخص ، فهناك دائماً مصيبة تطفو فوقها . « دفن غاليانى ، إنه يزحف ، يجر ثوبه الصغير الابيض بين جذور الجموع السوداء ، تحت فظاعة الشمس ، وينهار البناء ، ولا ينظر ، لقد اخذوا المرأة ، الصلبة ، وقدمٌ مخرّمة حمراء تخرج من حذائها المنفجر » كان الجمع يحيط به ، تحت السماء الصافية الخالية ، اني اكره الجموع ، وكان يشعر عيوناً في كل مكان ، شموساً تفتّح زهوراً في ظهره ، وعلى بطنه ، وتشعل أنفه الطويل الأصفر ، الرحيل الى الضاحية في الآحاد الاولى من نوار ، وفي اليوم التالي تكتب الصحف : « الأحد الاحمر » ويبقى منها دائماً بعض الاعداد على البلاط . كنت ايرين تحميه بجسمها الصغير الملتف « لا تنظر ، انها تجرني من يدي ، انها تشدني والمرأة تمر خلفي ، تنزلق على الجمع ، كما ينزلق ميت على نهر الغانج » . كان ينظر في توبيخ الى القبضات المرتفعة ، في البعيد ، تحت الرايات المثلثة الالوان ، فوق

القبعات . وقالت :

– الاغبياء !

وتظاهر رينه بعدم السماع ، ولكن اخته تابعت ببطء مقتنع :

– الاغبياء . يرسلونهم الى المسلخ ويكونون مسرورين .

وكانت فاضحة . ففي الاوتوبيس وفي السينما وفي المترو ، كانت فاضحة ، اذا كانت تقول دائماً ما لا ينبغي ان يقال ، كان صوتها الصريح يلقي كلمات فاضحة . والقى نظرة خلفه ، فكان ذلك الرجل يشبه وجهه وجه النمس بعينين ثابتتين وانف متآكل ، كان يستمع اليها ووضعت إيرين يدها على كتفه ، وكانت تبدو وهي تفكر . لقد تذكرت انها كانت اخته الكبرى ، وفكر بأنها ستعطيه نصائح مضجرة ، ولكن مهما يكن من أمر فقد أزعجت نفسها لتصحبه الى المحطة ، وها هي الآن وحدها وسط هؤلاء الرجال الذين لا تصحبهم نساء ، كما كان يحدث اذ كان يصحبها لمشاهدة مباراة في الملاكمة في « بوتو » ، فينبغي ألا أؤذيها . كانت تقرأ ، متمددة على ديوانها ، وهي تدخن كثيراً ، وكانت تكون آراءها بنفسها ، كما تصنع قبعاتها . وقالت له:

استمع الي جيداً يا رينه ، انك لن تفعل كهؤلاء الاغبياء :

قال رينه بصوت منخفض : – لا ، لا ، لا .

وأضافت : – استمع الي جيداً ، انك لن تتحمس :

وكان صوتها ، اذ تكون مقتنعة ، يُسمع بعيداً . وقالت :

– ما الذي يجديك ذلك ؟ اذهب ، ما دمت لا تستطيع تجنب الأمر . ولكن لا تدعهم يلاحظونك اذ تكون هناك ، لا خيراً ولا شراً: فالامر سيان . واحم نفسك كلما كان في وسعك ان تحمي نفسك .

قال : – نعم ، نعم .

كان يمسكها بقوة من كتفيها ؛ وكانت تنظر اليه بتمعن ، ولكن من غير شغف ؛ كانت تتابع فكرته .

– لأني أعرفك يا رينه ، فانت مغرور صغير ، تعمل كل شيء ليتحدث الناس عنك . ولكن أحذّرك منذ الآن : اذا عدت ومعك وسام استحقاق ، فلن اكلمك بعد ذلك ابداً . ان ذلك أغبى مما ينبغي . واذا عدت بساق أقصر من الاخرى ، او بثقب في الوجه ، فلا تعتمد عليّ لأرثي لك ، ولا تأت لتروي لي ان ذلك حدث بالاتفاق : فهذه امور يمكن تفاديها بسهولة ، وبقليل من الحكمة .

قال : – نعم ، نعم .

وكان يفكر بأنها على حق ، ولكن ذلك شيء لا يُقـال ، ولا يفكَّر به . وانما هو يُفعل تلقائياً ، وبهدوء ، من غـير كلام ، وبقوة الاشياء ، بحيث لا يكون ثمة بعد ما يؤاخذ به المرء نفسه . قبعات ، بحر من القبعات ، قبعات صباح الاثنين ، قبعات ايام العمل ، قبعات الورش ، اجتماعات السبت ، كان موريس عـلى رضى ، وهو بين الجمهور الكثيف . وكان المـدّ يتقاذف القبضات المرفوعة ، ويحملها بهدوء ، مـع وقفات مفاجئة ، وتردّدات ، وانطلاقات جديدة ، نحو الاعلام المثلثة الألوان « ايها الرفاق ، ايها الرفاق ، قبضات أيار ، القبضات المزدهرة تسيل نحو « غارش » . نحو الساحات الحمراء في سهول « غارش » ، اسمي زيزيت والصقور تغني ، تغني جبال شهر أيار ، العالم الذي يولد . » وكانت تنبعث رائحة المخمل والخمر ، كان موريس في كل مكان ، كان يتكاثر ، وتنبعث منه رائحة المخمل ، ورائحة الخمر ، وكان يحك كمّه بقماشة معطف خشنة ، وكان شاب قصير مجعد يدفع له مزماره في جنبيه ، وكان وطء آلاف الاقدام يتسلل من ساقيه الى بطنه ، وكان ثمة شخير في السماء ، فوق رأسه ، ورفـع أنفه فنظر الى الطائرة ، ثم اطرقت عيناه ورأى تحته وجوهاً مقلوبة ، انعكاسات لوجهه ، فبسم لها ٥ بحيرتان صافيتان في جلد مدبوغ ، شعر قطّ ، ندبة ، وابتسم . وابتسم لصاحب النظارات الذي كان يبدو عليه الاجتهاد ،

وابتسم لصاحب اللحية الهزيل المنقع الذي كان يقرص شفتيه ولا يبتسم:
كان ذلك يصرخ في اذنيه، ويضحك ويضحك ، بلا مزاح يا جوجو،
هذا انت ، أيجب ان تقوم الحرب حتى نلتقي ؟ كان اليوم يوم أحد.
حين تغلق المصانع ، وحين يجتمع الناس وينتظرون ، فارغي الايدي ،
والاكياس على ظهورهم ، في المحطات ، تحت قدر حديدي ، يكون
اليوم يوم أحد ، وليس من اهمية كبيرة ان يكونوا ذاهبين الى الحرب.
او الى غابة فونتنبلو . كان داليال واقفاً امام مركع يشم رائحة كهفية.
وبخورية هادئة ، وينظر الى هذه الرؤوس العارية تحت نور بنفسجي ،
واقفاً وحده وسط هؤلاء الرجال الراكعين ، يحيط به رجال واقفون،
رجال بلا نساء في رائحة الخمر المحمومة ، ورائحة الفحم والتبغ ،
ناظراً الى القبعات تحت نور الصباح ، وهو يفكر : هذا يوم الاحد ،
كان بيار نائماً ، وضغط ماتيو على انبوب،فخرج معجون وردي وهو
يسهس ، ثم التوى وسقط على شعر الفرشاة . ودفع صبي صغير
موريس وهو يضحك : « هيه سيمون ! سيمون ! » فالتفت سيمون،
وكان خداه أحمرين وكان يضحك ، فقال : « اسمع ! يمكننا ان نقول
إنه احد مظلم » وأخذ موريس يضحك ، وردد « احدٌ مظلم » ،
فبادله بسمته شاب جميل كانت بجانبه امرأة ليست ساذجة اكثر مما ينبغي،
وهي انيقة الملبس ؛ وكانت تتشبّث بذراعه وتنظر اليه نظرة ابتهال ،
ولكنه لم يكن ينظر اليها ، ولو قد نظر اليها لانغلق احدهما على الآخر
واصبحا شخصاً واحداً . زوج وحده . كان يضحك ، وكان ينظر
الى موريس ، وكانت المرأة غير موجودة في نظره ، وزيزيت غير
موجودة « انها تلهث ، ورائحتها عنيفة ، وهي رخوة جداً تحتي ،
حبيبي ، حبيبي ، أدخل فيّ » وكان ما يزال ثمة بعض الابل ، كأنه
نضح ، بين جسمه وقميصه ، بعض سناج ، بعض قاق تفيه ورقيق ،
ولكنه كان يضحك في حرية ، وكانت النساء فائضات عن اللزوم ؛

كانت الحرب هنا ، الحرب ، الثورة ، النصر . سنحتفظ ببنادقنا . جميع هؤلاء : المجعّد وصاحب اللحيــة وصاحب النظارات ، والشاب الطويل ، سيعودون ببنادقهم وهم ينشدون « الانترناسيونال » وسيكون يوم أحد . احداً الى الابد . ورفع قبضته .

– انه يرفع قبضته . هذا ذكي ! /

والتفت موريس ، وقبضته في الهواء ، فسأل :

– ماذا ؟ ماذا ؟

كان هو صاحب اللحية الذي سأله :

– اتريد ان تموت من اجل السوديت ؟

قال موريس : – اخرس .

فنظر اليه صاحب اللحية نظرة استياء وتردّد ، فكأنه كان يحاول ان يتذكر شيئاً ما :

وصاح فجأة :

– تسقط الحرب !

فتراجع موريس الى خلف ، واصطدم مزماره بأحد الظهور ، فقال :

– هل ستغلقه ؟ هل ستغلقه بوزك الكبير ؟

فصاح صاحب اللحية : – تسقط الحرب ! تسقط الحرب !

وكانت يداه قد بدأتا ترتجفان وعيناه تقلبان ، فلم يكن يستطيع ان يكفّ بعد عن الصراخ . وكان موريس ينظر اليه في ذهول حزين ، من غير غضب ، وقد فكر لحظة ان يرسل له قبضته في وجهه، ليحمله فقط على الصمت ، كما يُضرب الاولاد اذ يصابون بالفُواق ، ولكنه كان ما يزال يُحسّ لحماً طرياً بين أصابعه ، فلم يكن فخوراً : لقد ضرب فتى صغيراً ؛ ولن يعيد ذلك . وأدخل يديه في جيبيه، واكتفى بالقول :

– حلّ عني ، ايها القذر !

فظل صاحب اللحية يصرخ بصوت متعب ومصالح – صوت ثري ؛ وشعر موريس فجأة شعوراً مزعجاً بأن المشهد كان مزوراً . ونظر فيما حوله فاختفى فرحه . كانت تلك غلطة الآخرين ، فانهم لم يكونوا يعملون ما كان عليهم ان يعملوه . في الاجتماعات ، حين يأخذ احدهم ينهق حماقات ، يرتدّ عليه الجمع فيمحوه ، وتُرى ذراعاه في الهواء لحظة ، ثم لا شيء على الاطلاق . وبدلاً من هذا ، كان الرفاق قد تراجعوا ، وخلّوا المكان حول صاحب اللحية ، وكانت المرأة الشابة تنظر اليه في فضول ، وقد تركت ذراع رجلها ، وكان الفتية ينصرفون ولم تكن هيئتهم صريحة ، بل كانوا يتظاهرون بانهم لا يسمعون .

وصاح صاحب اللحية :

– لتسقط الحرب !

وكان استياء غريب قد سقط على ظهر موريس. كان ثمة تلك الشمس ،وذلك الشخص الذي كان يصيح وحده، وجميع هؤلاء الرجال الصامتين الذين يخفضون رؤوسهم ... وأصبح استياؤه ضيقاً ، فأبعد الجمع بضربات من كتفه، وتوجه الى مدخل المحطة ، نحو الرفاق الحقيقيين الذين كانوا يرفعون قبضاتهم تحت الاعلام . وكان شارع مونبارناس مقفراً . الاحد . وعلى سطيحة « الكربول » كان ثمة خمسة اشخاص او ستة يشربون او يأكلون ؛ وكانت بائعة ربطات العنق واقفة على عتبة بابها ؛ وفي الطابق الاول من البناية ذات الرقم ٩٩ ، فوق « كوسموس » ظهر رجل في قميص قصير على النافذة وارتفق الدرابزون . واطلق موبير وتبريز صيحة فرح ، كان هناك منشور . هناك ، هناك ، هناك ، على الجدار ، بين « الكوبول » والصيدلية ، كان هناك منشور كبير أصفر مؤطر بالاحمر « ايها الفرنسيون » ، وما يزال رطباً . ودلف موبير وقد دخل عنقه في كتفيه وبرز رأسه ، وتبعته تبريز ، وكانت فرحة كمجنونة صغيرة : كانا قد مزّقا ستة مناشير ، تحت انظار البورجوازيين

الطيبين ، كان رائعاً ان يكون للمرء معلم شاب ورياضي طويل القامة يعرف ما يريد .

قال موبير : — قذارة !

ونظر حوله : وكانت فتاة صغيرة قد توقفت ، يمكن ان تكون في العاشرة ، وكانت تنظر اليها وهي تداعب خصلاتها ، وردد موبير بصوت مرتفع :

— قذارة !

وقالت تيريز بصوت قوي خلف ظهر موبير :

— كيف تسمح الحكومة بلصق هذه القذارات ؟

ولم تجب بائعة ربطات العنق : كانت امرأة سمينة ناعسة ، وكانت بسمة مبهمة تتثاءب بين خديها . X

« ايها الفرنسيون

ان المطالب الالمانية غير مقبولة . لقد فعلنا كل شيء للمحافظة على السلام ، ولكن لا يستطيع أحد ان يطلب من فرنسا ان تنكر تعهداتها وتقبل بأن تصبح امة من الدرجة الثانية . فاذا تركنا اليوم التشيكيين ، فإن هتلر سيطلب منا الالزاس غداً ...

وأمسك موبير المنشور من طرف ، ونزع منه شريطاً من الورق الأصفر ، شبيهاً بشريحة من لحم البط . واخذت تيريز المنشور من زاويته اليمنى ، ونزعته ، فاستقرت منه في يدها قطعة كبيرة :

فرنسا ان

وتقبل بان

امة من

فاذا ترك

سيط

وكان باقياً على الجدار نجمة صفراء غير منتظمة . وتراجع موبير

لحظة لينظر الى صنيعه : نجمة صفراء ، نجمة صفراء تماماً ، مع كلمات محطّمة غير مؤذية . وابتسمت تبريز ونظرت الى يديها بقفازيهما؛ فكان عليهما اثر من المنشور ، وورقة رقيقة ملتصقة بقفازها الايمن : « جمهو ... » ففركت ابهامها بسبابتها فالتفّت الجلدة الصغيرة الصفراء في كريّة ، وجفّت وهي تلتفّ ، واصبحت قاسية كرأس دبوس ، وفرجت تبريز ما بين اصابعها ، فسقطت الكريّة ، واحسّت بشعور مسكر من القدرة .

– اني اطلب قطعة بفتاك صغيرة ، يا سيد ديزيريه ؛ قطعة بفتاك صغيرة بثلاثمئة غرام ، شيء جميل ، ولكن اقطعها لي كما ينبغي : أمس ، أعطاني وكيلك لحمتي ، فلم اكن مسرورة ، كنت ملأى بالاعصاب . ولكن قل لي ، ماذا هناك ، قبالتنا ؟ إذن ، بعد اربع وعشرين ساعة ، تكون الستائر سوداء . هل مات أحد ؟ »

فقال اللحام : « لست ادري . بعد اربع وعشرين ساعة ، لا يكون لديّ زبائن ، فهم يشترون بضاعتهم من محل « برتيه » . انظري هذه ان كانت تعجبك : انها وردية ، طرية ، وهي تزبد كالشمبانيا ، ثم ليس فيها عصب ، حتى اني لآكلها نيئة . » قالت السيدة ليوتيه : « بعد اربع وعشرين ساعة ، انا اعرف ، انه السيد فيغيبه ؟ لا اعرفه ، ايكون مستأجراً جديداً ؟ » « اوه ، كلا ، انه السيد القصير ، ولا تعرف غيره ، الذي كان يعطي تبريز ملبّساً . » « اوه ، ذلك الذي كان لائقاً جداً ؟ يا للخسارة ! سأحزن عليه انا ، السيد فيغيبه ، هل هذا ممكن ! » « ولكن اسمع : فقد كان عجوزاً بما فيه الكفاية ، حتى يموت » قالت السيدة ليوتيه : « اوه ، لقد قلت لزوجي ، لو كنت تعلم ، انه مات في وقت مناسب ، هذا العجوز القصير ، إن لديه حاسة شم جيدة ، فربما ندمنا نحن الاخرين ، بعد ستة اشهر ، لأننا لم نكن في مكانه . اتدري انهم صنعوا اختراعاً ؟ » « اوه ! من

هم ؟ » « هم ، الالمان . اختراع يقتل الاشخاص كالذباب ، وفي آلام فظيعة . » « ايكون هذا ممكناً يا إلهي ؟ يا لقطّاع الطـــرق ! ولكن ما هو ؟ ما هو ؟ » « آه ، هو نوع من الغـــاز ، او من الأشعة اذا شئت ، هكذا شرحوا لي . » فقال اللحام وهو يهز رأسه: « انها إذن أشعة الموت ! » « نعم ، شيء من هذا القبيل ، أليس من الأفضل ان نكون تحت الارض ؟ » «انت على حق تماماً . هذا مـــا أقوله دائما ، فليس ثمت بيت بعد ، ولا همّ . هكذا اود لو اموت: انام مساء ، فلا استيقظ في الصباح . » « ويبدو انه مات هكذا . » « من ؟ » « العجوز القصير » « هناك اشخاص محظوظون ، اما نحن فيجب ان نعاني كل شيء ، بالرغم من اننا نساء . لقد رأيت كيف كانت الامور تجري في اسبانيا . كلا . اريد ضلعاً . ثم أليس عندك معاليق لقطني ؟ حين افكر : وهذه حرب اخرى ! لقد اشترك زوجي في حرب ١٤ ، وقد اتى الان دور ابني ، اؤكد لك ان الرجال مجانين. ايكون التفاهم صعباً الى هذا الحد ؟ » « ولكن هتـــلر لا يريد ان يتفاهم الناس، يا سيدة بونوتان ؟ » « ماذا، هتلر ؟ انه يريد السوديت الذين يخصونه ، ذلك الرجل ؟ اما انا ، فأعطيه اياهم ! ولكني لا ادري ان كانوا بشراً ام جبالاً، وابني سيذهب ليحطّم رأسه من اجل ذلك . نعم ، اعطيه اياهم ! اعطيه اياهم ! اتريدهم ؟ هـــا هم ! وهنا يقع في الشرك . واضافت بجد : ولكن قل لي ، اليوم هو موعد الدفن ؟ الا تعرف في اية ساعة ؟ لانني سأقف على النافـــذة لأراهم يمرون . » ماذا يريدون جميعاً مني ، بحربهم هذه ؟ كان يمسك الدفتر وكان يشدّه بكل قواه ، ولم يكن يستطيع تقرير إعـــادته الى جيبه : كان هذا كل ما يملكه في الدنيا . وفتحه من غير ان يكف عن السير ورأى صورته فاستشعر بعض الاطمئنان ، هذه الرسوم الصغيرة السوداء التي تتحدث عنه ، ما دام ينظر اليها ، كانت اقل اثارة للقلق ، ولم

تكن تبدو رديئة الى حد بعيد . وقال : « مهما يكن ! مهما يكن ! أهي مصيبة الآن يعرف المرء القراءة ؟ » فراري ، الشاب الصغير المرهق الذي كان يصعد جادة كليشي وهو يجر صورته من مرآة الى مـرآة ، هذا الشاب الصغير الذي لا حقد له ، كان رجلاً عاصياً ، فرارياً ، حازماً كبيراً ومربعاً ، ذا رأس حليق ، يعيش في برشلونه، في «الباريو ستينو » تخفيه فتاة تحبه . ولكن كيف يمكن للانسان ان يكون فرارياً، بأية عينين ينبغي ان يرى نفسه ؟

كان واقفاً في صحن الكنيسة ، وكان الكاهن يغني له ، وفكّر : « الراحة، الهدوء ، الهدوء، الراحة، كما يغيّره الخلود اخيراً في ذاته، لقد خلقتني كما انا ، وغاياتك لا تدرك ، انني اوفر افكارك عاراً ، انت تراني وانا اخدمك ، انتصب ضدك ، اشتمك ، واذ اشتمك اخدمك ، انني مخلوقاك ، وانت تحب ذاتك فيّ ، وتحملني انت الذي خلقت المسوخ والغيلان . ورن جرس صغير ، فأحنى المؤمنون رؤوسهم ولكن دانيال بقي مستقيما ، حملاق النظر . انت تراني ، وتحبـني » وكان يحس نفسه هادئاً ومقدساً .

– توقفت مركبة الموتى امام باب البناية رقم ٢٤ . وقـالت السيدة بونوتان « ها هم اولاء ، ها هم اولاء » وقالت البوابة : « الطـابق الثالث » وعرفت موظف موكب الدفن فقالت له : « صباح الخير ، يا سيد رينه ، كيف الحال ؟ » فقال رينه : « صباح الخير . ان من يريد ان يُدفن يوم أحد لا يفكر كم سيزعج الآخرين ! » قالت البوابة « ذلك انه كان يؤمن بحرية التدين . » كان جـاك ينظر الى ماتيو ، وضرب على الطاولة وقال : « مع ذلك ، فاذا ربحناها، هذه الحرب ، اتدري من يفيد منها ؟ ستالين . » فقـال ماتيو بهدوء : « واذا لم نتحرك ذهبت الفائدة لهتلر . » « وبعـد ذلك ؟ هتلر ، ستالين ، الامر سواء . ولكن التفاهم مع هتلر يوفّر علينا مليوني رجل

وبجنبنا الثورة . » هكذا اذن . ونهض ماتيو وذهب يلقي نظرة من النافذة: لم يكن حتى مغتاظاً ، كان يفكر : « ما جدوى هذا كله ؟» لقد فر ، وكانت السماء تحتفظ بمظهر ايام الاحد الطيب ، وكانت تنبعث من الشوارع رائحة الطبخ اللذيذ ، اللوز المزبّد ، الدجاج ، الاسرة . ومر رجل وامرأة ، وكان الرجل يحمل حلوى مغطاة بورق لامع ، وكان يحملها بخيط وردي لف طرفه على خنصره : كجميع الآحاد : « هذه ترهات ، ولا قيمة لذلك ، انظر كيف يسود الهدوء كل شيء ، ليس من حركة ، انه الموت الصغير الخاص بيوم الاحد، فليس عليك الا ان تسترد عملك ، السماء موجودة ، وحانوت التغذية موجود ، والحلوى موجودة ، اما الفراريون فلا يوجدون : » الاحد الاخد، الذنّب الاول امام مبولة ساحة كليشي ، وحرارة النهار الاولى ، انه يدخل المصعد الذي هبط منذ لحظة ، ويشم في القفص المظلم رائحة شقراء الطابق الثالث ، ويضغط على الزر الابيض ، الاهتزاز اليسير ، الانزلاق ، العذاب ، ويضع المفتاح في القفل ، ككل ايام الاحد ، ويعلق قبعته على المشجب الثالث ، ويسوّي ربطة عنقه امام مرآة المدخل ويدفع باب الصالون وهو يصرخ : « هأنذا ! » فماذا تراها ستفعل ؟ اتراها لن تأتي اليه ، ككل ايام الاحد ، وهي تتمتم : « يا حبيبي الجميل ؟ » كم كان ذلك متوقعاً ، وكم كان خانقاً من فرط التوقع ، ومع ذلك ، فقد فقد ذلك كله الى الابد . ليتني استطيع فقط ان اغضب ! وفكر : لقد صفعني ، لقد صفعني . وتوقف ، وكان يشعر بوجع في الخاصرة ، فاستند إلى شجرة ، ولم يكن غاضباً ، وفكر في يأس : « آه ! لماذا يجب الا اكون بعد صبيّاً ؟ » وعاد ماتيو يجلس قبالة جاك . كان جاك يتكلم ، وكان ماتيو ينظر اليه ، وكان كل شيء شديد الإضجار ، المكتب في الظل ، والموسيقى الخفيفة المنبعثة من الجهة الاخرى من شجرات الصنوبر ، وقطع الزبدة في صحن

الفجل ، والاقداح الفارغة على الصينية : سرمدية لا اهمية لها .

وأخذته الرغبة في ان يتكلم بدوره . من أجل لا شيء ، لكي لا يقول شيئاً ، ليحطّم هذا الصمت السرمدي الذي لا ينجح صوت اخيه في خرقه . وقال له :

— لا تدوّخ رأسك . الحرب او السلم سيّان .

قال جاك مندهشاً : — سيّان ؟ إذهب فقل هذا إذن لملايين الرجال الذين يتهيأون لمواجهة الموت .

قال ماتيو في طيبة ساذجة :— وماذا اذن ؟ انهم يحملون موتهم في نفوسهم منذ مولدهم . وحين ينتهي ذبحهم عن آخرهم ، ستظل الانسانية ممتلئة كأمتلائها في السابق : بلا فجوة ولا نقص .

قال جاك : — باستثناء اثني عشر الى خمسة عشر مليونا من الرجال .

قال ماتيو :—ليست القضية قضية عدد، انها ليست ممتلئة الا بنفسها، فليس ثمة من ينتقصها، وهي لا تنتظر أحداً. ستظل ماضية الى لا مكان، وسيطرح الرجال انفسهم الاسئلة نفسها على ذواتهم ، ويفوّتون عليهم الحيوات نفسها .

كان جاك ينظر اليه ويبتسم ، ليظهر انه لم يكن مخدوعاً :

— والى اين تريد ان تنتهي ؟

قال ماتيو :— الى لا شيء ، بالضبط .

وصاحت السيدة بونوتان منتعشة جداً : « ها هم اولاء ، ها هم اولاء ! سيضعون النعش في مركبة الموتى . » ليست الحرب شيئاً، كان القطار ينطلق ، مقنفذاً بالقبضات المرتفعة ، وكان موريس قد التقى بالرفاق : وكان دوباش ولوران يسحقانه على النافذة ، وكان يغني ، « سيكون نشيد الانترناسيونال هو الجنس البشري . » فقال له دوباش « انك تغني كأسيّ » فقال موريس : « حبذا ! » وكن يشعر بالحر

وكان صدغاه يؤلمانه ، وكان ذلك إجمل ايام حياته . كان يشعر بالبرد وكان بطنه يؤلمه ، وقد دق الجرس للمرة الثالثة ، وكان يسمع وقع اقدام مستعجلة في الممر ، وكانت ابواب تصطفق ، ولكن لم يكن احد ليأتي : « ماذا تراهن يعملن ؟ سيتركنني ابول في لباسي » وركض احدهم بتثاقل ، ومر امام الغرفة فصاح به شارل :

— هي هو !

فاستمر الركض وانطفأ الوقع ، ولكنهم جعلوا يدقون دقات كبيرة فوق رأسه . ليذهبن فيبولج بهن ، فلو كانت « دورليـاك » الصغيرة التي تمد لهن خمس اوراق كل شهر ، على سبيل الهبة فقط ، لتضاربن من اجل الدخول الى غرفتها . وارتعش، لا بد ان ثمة نوافذ مفتوحة، فقد كان تيار هوائي مثلج يغلي تحت الباب ، انهن يهوّين ، نحن لم نذهب بعد ، وها هن يهوين ، الضجة والهواء البارد والصراخ . كان يدخل كما يدخل في مطحنة ، انني في ساحة عامة . انه لم يعرف مثل هذا القلق ، منذ اخذت له الصورة التخطيطية الاولى للقلب . وصاح :

— هي هو ! هي هو !

الساعة الحادية عشرة الا عشر دقائق ، لم تكن جاكلين قد جاءت، وقد تركوه وحيداً طوال الليل . أتراهم لن ينتهوا قريباً ، فـوق ؟ كانت ضربات المطرقة تصدي في جوف عينيه ، فكأنهم كانوا يسمّرون نعشي . وكان يشعر بعينيه جافتين مؤلمتين ، وكان قد استيقظ منتفضاً ، في الساعة الثالثة صباحا ، بعد حلم مزعج ، او ما يشبه الحلم على اي حال : كان باقياً في « بيرك » ، الشاطيء ، المستشفيات ، كل شيء كان خالياً : ليس من مرضى بعد ، ولا ممرضات، وانما نوافذ سوداء وقاعات مقفرة ، والرمل الرمادي العاري على مدى النظر ، ولكن ذلك الفراغ لم يكن مجرد فراغ ، فإن هذا لا يرى الا في الاحلام . كان الحلم مستمراً ، كانت عيناه مفتوحتين على سعتهما ، وكان الحلم مع

ذلك مستمراً : لقد كان فوق محمله في وسط غرفته ، ومع ذلك فان غرفته كانت خالية ، لم يكن لها بعد أسفل ولا أعلى ، ولا يمين ولا شمال . كان باقياً بين اربعة حواجز ، اربعة حواجز تتصادم على زاوية مستقيمة ، وشيء من الريح البحرية بين اربعة جدران . كن يسحبن في الممر شيئاً ثقيلاً خشناً ، لا شك في انه صندوق كبير لرجل غني ؛ وصاح :

— هي هو ! هي هو !

وفتح الباب ، فدخلت السيدة لويز ، وقال :

— اخيراً !

قالت السيدة لويز :

— آه ! دقيقة ! ان عندنا مئة مريض يجب إلباسهم. فلكلّ دوره .

— اين جاكلين ؟

— أتظن ان لديها الوقت للانشغال بك ؟ انها تُلبس فتيات « بوتيه » الصغيرات .

قال شارل : — اعطيني المبولة بسرعة ! بسرعة !

— ماذا يحدث لك ؟ ليست هذه ساعتك !

قال شارل : — اشعر بضيق ، لا بد ان هذا هو السبب .

— صحيح ، ولكن عليّ قبل ذلك ان اهيئك ، على الجميع ان يكونوا مستعدين عند الساعة الحادية عشرة . مهما يكن من امر ، لا بد من ان تعجّل .

وحلت رباط منامته ، وشدت على بنطلونه ، ثم رفعته من جنبيه ودسّت المبولة تحته. كان الخزف بارداً وقاسياً ، وفكر شارل في ضجر : « ان معي اسهالا »

— ما الذي سأفعله اذا جاءني الإسهال في القطار ؟

— لا تهتم لذلك : لقد احتطنا لكل شيء .

كانت تنظر اليه وهي تداعب سلسلة مفاتيحها ، وقالت له :

– سيكون الطقس جميلا لذهابكم .

فأخذت شفتا شارل ترتجفان وقال :

– لم اكن اود ان اذهب .

قالت السيدة لويز : – عجباً ! عجباً ! هيّا ! هل انتهيت !

وبذل شارل جهداً اخيراً .

– انتهى .

وفتشت في جيب مريولها فأخرجت منه غطاء من ورق ومقصاً ، وقصت الورق الى ثماني قطع ، وقالت :

– انهض قليلا .

وسمع صوت دعك الورق ، واحس بحك الورق ، وقال :

– اوف !

قالت : – حسناً ! استلق على بطنك، بينما انا اضع المبولة ، سأنتهي من مسحك .

فاستلقى على بطنه ، وسمعها تمشي في الغرفة ، ثم احس بملامسة اصابعها الصناع . وكانت تلك هي اللحظة التي يفضلها . شيء . شيء مسكين صغير مهجور . وصلُب فرجه تحته فلامس به الغطاء الرطب .

وقلبته السيدة لويز كأنه علبة ، ونظرت الى بطنه فأخذت تضحك :

– آه ! يا لك من مزّاح ! هيّا ! سنتحسّر عليك يا سيد شارل ، لقد كنت ناشراً حقيقياً للمرح والفرح .

وردّت الغطاء ونزعت منامته ، وقالت له وهي تدلكه :

– بعض ماء الكولونيا على الوجه . ستكون التواليت اليوم مقتضبة . ارفع ذراعيك . حسناً . القميص . السروال الآن . لا تتلوَّ هكذا ، فلن استطيع ان ألبسك جوربك .

وتراجعت لتحكم على صنيعها، وقالت في رضى :

ـ ها أنت ذا نظيف كالفلس .

وسأل شارل بصوت معتكر :

ـ أتكون الرحلة طويلة ؟

فقالت له وهي تلبسه معطفه :

ـ على الارجح .

ـ واين نذهب ؟

ـ لا ادري . اعتقد انكم ستتوقفون اولا في ديجون .

ونظرت حولها ، وقالت :

ـ انظر لأرى اذا نسيت شيئاً . آه ! طبعاً ، وفنجانك ، فنجانك الأزرق ! انك حريص عليه كل الحرص .

وتناولته من على الرف وانحنت فوق الحقيبة . كان فنجاناً من الخزف الأزرق ذا اطراف بيضاء . وكان جميلا جداً .

ـ سأضعه بين القمصان حتى لا ينكسر .

قال شارل : ـ إعطيني اياه .

ونظرت اليه بدهشة ومدت له الفنجان . فأخذه ، واستقام على مرفقه ثم قذفه على الجدار . فصاحت السيدة لويز غاضبة :

ـ مخرّب ! كان يجب ان تعطيني اياه اذا كنت لا تريد ان تأخذه .

قال شارل : ـ لم ارد ان اعطيه ولا ان آخذه .

فهزت كتفيها ، واتجهت الى الباب ففتحته على مصراعيه . وسألها :

ـ اذن ، سنذهب ؟

قالت : ـ نعم . انت لا تريد ان تفوّت القطار ؟

قال شارل : ـ بهذه السرعة ؟ بهذه السرعة ؟

وكانت قد عادت تقف خلفه ، ودفعت المحمل ، ومد يده ليلمس الطاولة في طريقه ، ورأى لحظة النافذة وطرفاً من الجدار عبر المرآة المثبتة فوق رأسه ، ثم لم ير بعد شيئاً ، كان في الممر ، خلف حوالى

اربعين عربة مصطفة على طول الجدار ؛ وخيل اليه ان قلبه كان يلوى ، وبدأ موكب الموت يمشي . وقالت السيدة بونوتان : « ها هم اولاء يذهبون . ولكن عجباً ! ليس هناك كثيرون يصحبونه الى مقره الاخير » كانوا يتقــدمون ببطء ، وتقفة بعد كل دورة عجلة ، وكانت الحفرة المظلمة في النهاية ، وكن يدفعن اليها المحامل اثنين اثنين ؛ ولكن لم يكن ثمة الا مصعد واحد ، وكان هذا يقتضي وقتاً . وقال شارل ،

— ما اطول الزمن !

قالت السيدة لويز : — لن يذهبوا بدونك .

كانت مركبة الموتى تمر تحت النافذة ؛ السيدة القصيرة المرتدية السواد، لا بد انها الأسرة ، وكانت البوابة قد اغلقت غرفتها بالمفتاح ، وكانت تتبع المرضة ، الى جانب امرأة قوية ترتدي ثوباً رمادياً مع قبعة زرقاء، وارتفق السيد بونوتان الشرفة بقرب من زوجته وقال : « الاب فيغييه» كان أخاً ثلاث نقاط » . « وما يدريك ؟ » فقال بلهجة مزهوة : « ها ! ها ! » ثم أضاف بعد لحظة : « كان يرسم لي مثلثات على باطن كفي ، بإبهامه ، حين كان يشد على يدي » . وصعدت الى صدغي السيدة بونوتان موجة من الغضب ، لأن زوجها كان يتحدث بمثل هذا الاستخفاف عن ميت . وتابعت الدفن بنظرها وفكرت : « يا للرجل المسكين ! » كان متمدداً هناك ، بطوله ، على ظهره ، وكانوا يحملونه نحو الحفرة ، وقدماه امامه . يا للرجل المسكين ، ان من المحزن ان لا يكون للانسان اسرة . ورسمت اشارة الصليب . بطوله كانوا يدفعونه نحو الحفرة المظلمة ، سيشعر بالمصعد يفر من تحته . وسأل :

— من يصحبنا ؟

فقالت السيدة لويز : — لا احد من عندنا . لقد عينوا الممرضات الثلاث التابعات للمقصورة النورماندية ، بالاضافة الى جورجيت فوكيه ، السمراء الطويلة التي تعرفها بكل تأكيد ، وهي تعمل في عيادة الدكتور

قال شارل ، بينما كانت تدفعه بهدوء نحو الحفرة :

— آه ، لقد تذكرتها . سمراء ذات ساقين جميلتين . انها لا تبدو دمثة الاخلاق .

وكان قد لاحظها غالباً على الشاطيء وهي تراقب جماعة من الكسحى الصغار وتوزع الصفقات بالعدل ؛ وكان لها ساقان عاريتان ، وكانت تنتعل حـذاء مطاطاً . ساقان جميلتان عصبيتان مشعرتان ، وكان قد حدث نفسه بأنه يود لو تعتني هي بصحته . سينزلونه في الحفرة بالحبال ، ولن ينحني احد فوقه ، الا هـذه المرأة القصيرة التي لا تبدو بمظهر مناسب ، فما أحزن ان يموت الانسان هكذا ؛ ودفعته السيدة لويز الى القمص ، وكان قد صف فيه محمل ، في الظل ، لصق الجدار . وسأل شارل وهو يغمز بعينيه :

— من هناك ؟

فقال صوت : — انا بتروس .

قال شارل : — آه ، ايها الاست العجوز ! اننا اذن ننتقل ؟

فلم يجب بتروس ؛ وحدثت صدمة صغيرة ، فخيل لشارل انه كان يعوم على ارتفاع بضعة سنتمترات فوق محمله ؛ كانوا ينغمرون في الحفرة ، وكانت ارض الطابق الثالث قد اصبحت فوق رأسه ، فكان يترك حياته من تحت ، من ثقب بلوعة . وقال في نشيج مقتضب :

— ولكن اين هي ؟ اين جاكلين ؟

فلم يبد على السيدة لويز انها تسمع ، وابتلع شارل دموعه بسبب بتروس . وكان فيليب يمشي . ولم يكن يستطيع بعد ان يتوقف ، فاذا كف عن السير ، أغمي عليه ؛ وكان غرولويس يمشي ، وكان قد جرح برجله اليسرى . ومر سيد في الشارع المقفر ، رجل سمين قصير ذو شارب وقبعة من قش ، فمد غرولويس يده وقال له :

— قل لي ، هل تعرف القراءة ؟
فوثب السيد وثبة جانبية صغيرة وحث خطاه . فقال غرولويس:
— لا تهرب . فلن آكلك .
ووسّع السيد خطوته ، فأخذ غرولويس يعرج خلفه ، وهو يمد له الدفتر العسكري ، وانتهى الامر بالسيد الى ان يركض وهو يطلق صرخة حيوان مفزع . وتوقف غرولويس ونظر اليه يبتعد وهو يحك رأسه فوق ضماده : وكان السيد قد اصبح صغيراً جداً ومستديراً كالكرة ، وقد تدحرج حتى منعطف شارع ، ثم نط مرة اخرى ، واستدار واختفى .
وقال غرولويس :
— آه ! لا لا ! آه ! لا لا !
قالت السيدة لويز : — يجب الا تبكي .
وكفكفت عينيه بمنديلها ، انني لم اكن اتصور اني ابكي . واستشعر شيئاً من الحنان ، كان لذيذاً ان يبكي المرء على نفسه :
— كنت كثير السعادة هنا .
قالت السيدة لويز : — ما كنت تبدو كذلك . بل كنت دائم الغضب من هذا او ذاك .
وثنت حاجز المصعد ودفعته الى الخارج . وتحامل شارل على مرفقيه ، فرأى توتور والطفلة غافالدا . كانت غافالدا ممتقعة كالحرقة ، وكان توتور قد اندس تحت غطائه وهو يغمض عينيه . وكان رجال ذوو قبعات يمسكون بالعربات لدى خروجها من المصعد ويجتازون بها عتبة العيادة ويختفون معها في الحديقة . واقترب رجل من شارل .
وقالت السيدة لويز : « هيا ، وداعاً وسفراً سعيداً » ارسل لنا بطاقة صغيرة لدى وصولك . ولا تنس : ان الحقيبة الصغيرة مع امتعة التواليت هي عند قدميك ، تحت الغطاء » .
وكان الرجل ينحني فوق شارل ، فصاح شارل :

– ها ! انتبه جيداً . من السهل ان يكون المرء شرساً اذا لم يكن متعوّداً .

قال الرجل :

– كفى ، ليس من البراعة ان تتم قصتك . لم افعل في حياتي شيئاً غير ان ادفع الشياطين الى محطة دانكرك ، والقاطرات الى لنز ، والعربات الى انزان .

وصمت شارل ، كان خائفاً : ان الفتى الذي كان يدفع محمل الطفلة غالفادا انعطف به على عجلتين اثنين فصدمه بالجدار . قالت جاكلين :

– انتظر ! انتظر ! انا التي سوف اقوده الى المحطة .

وكانت تهبط السلم وهي تعدو ، وكانت تلهث ، فقالت :

– السيد شارل .

وكانت تنظر اليه في نشوة حزينة ، وكان صدرها يرتفع بقوة ، وتظاهرت بأنها تسوّي غطاءه حتى تستطيع لمسه ، كان ما يزال يملك شيئاً على الارض ، فحيث يكون سيملك بعدُ هذا : هذا القلب الكبير الخفي المقدّر الذي سيظل يخفق من اجله ، في بيرك ، في عيادة مقفرة . قال :

– لقد تخليت عني !

– اوه ! يا سيد شارل ، كان الوقت ينقضي ، ولم استطع ، ولا بدّ ان السيدة لويز قد اخبرتك .

وكانت تدور حول المحمل ، حزينة منهمكة ، مستقرة على ساقيها ، وكان هو يرتجف من الحقد . كانت « واقفة » من الواقفات ، وكانت لها ذكريات عمودية ، وهو لن يبقى زمناً طويلاً بمنجى ، في هذا القلب . وقال بجفاء

– هيا ، هيا . لنعجل قودبني .

قال صوت ضعيف – ادخلي .

فدفعت مود الباب ، فانقلبت حنجرتها لرائحة قيء تنبعث . كان بيار متمدداً بطوله فوق السرير ، وكان ممتقعاً ، وكانت عيناه تأكلان له وجهه ، ولكنه كان يبدو هادئاً . وتحركت حركة تراجع ، ولكنها جهدت في الدخول الى الغرفة . وعلى كرسي ، عند رأس بيار ، كان ثمة طست مليء بماء مزبد عكر . وقال بيار بصوت طبيعي :

– انني لا أقيء بعد الا البلغم . فقد اخرجت كل ما في معدتي منذ وقت طويل . أبعدي الطست واجلسي .

وحملت مود الطست وهي تمسك انفاسها ووضعته بالقرب من المغسلة وجلست . وكانت قد تركت الباب مفتوحاً لتهوّي الغرفة . وساد صمت وكان بيار ينظر اليها في فضول مزعج وقالت :

– لم اكن اعلم انك مريض ، والا لجئت قبل الان .

فتحامل بيار على مرفقه وقال :

– انني الآن افضل قليلا ، ولكني ما زلت واهناً جــداً . وانا لم انقطع عن الهذيان والانين منذ أمس . وربما كان من الافضل ان آكل شيئاً عند الظهر ، فما رأيك ؟ كنت افكر في طلب جناح دجاجة .

فقالت مود متضايقة :– لا ادري على الاطلاق . فانت نفسك تشعر جيداً ان كنت جائعاً .

وكان بيار يحدق بالغطاء في هيئة قلقة ، وقال :

– طبعاً ، ان هذا يثقل معدتي ، ولكن يمكنه ايضاً ان يثبتها ، ومن جهة اخرى ، اذا اخذني الغثيان من جديد ، فيجب ان يكون لدي ما أقيئه .

فنظرت اليه مود في ذهول ، كانت تفكر : « كم نحتاج الى وقت لمعرفة انسان . »

– سأقول للخادم اذن ان يأتيــك بحساء من الخضار وقطعة بيضاء

من الدجاجة .
وضحكت ضحكة مغتصبة وأضافت :
— اذا فكرت في ان تأكل ، فهذا يعني انك لست مريضاً .
وساد صمت . وكان بيار قد رفع عينيه وراح يراقبها بمزيج مزعج من الاهتمام واللامبالاة .
— احكي لي إذن : انكن الآن في الدرجة الثانية ؟
فسألته مود مستاءة : — من قال لك هذا ؟
— روبي . لقد لقيته أمس في الممرات .
قالت مود : — أجل . نعم ، نحن في الدرجة الثانية .
— كيف تدبرتنّ الامر ؟
— لقد اقترحنا ان نقدم حفلة موسيقية .
قال بيار : — آه ! هكذا إذن !
ولم يكن يكف عن النظر اليها ، ومد يديه على الغطاء وقال باسترخاء :
— ثم انك نمت مع الربان :
قال مود : — ماذا تزعم ؟
قال بيار : — لقد رأيتك خارجة من غرفته ، فليس هناك مجال للانخداع .
كانت مود منزعجة . لم يكن لديها ، على نحو ما ، حساب تؤديه له : ولكن كان مناسباً ، من جهة اخرى ، ان تخبره . وأخفضت عينها وسعلت ، وكنت تشعر بأنها مذنبة ، وهذا ما كان يردّ لها بعض الحنان تجاه بيار . وقالت :
— اسمع ، لو رفضت ، لما فهمت فرانس .
فقال صوت بيار الهادىء : — ولكن ما دخل فرانس في الامر ؟
فرفعت رأسها فجأة : كان يبتسم ، وكان قد احتفظ بهيئة الفضول المسترخي . وأحست بأنها مهانة ، وكانت تفضل ان يصرخ . وقالت

بجفاف :
ـ اذا حرصت على ان تعرف ، فاعرف اني حين اكون على ظهر باخرة ، انام مع الربان، لتستطيع جوقة بابيس ان تقوم بالرحلة في الدرجة الثانية . هكذا .

وانتظرت لحظة ان يحتج ، ولكنه لم ينبس بكلمة . وانحنت فوقه وأضافت بقوة :

ـ انا لست قحبة .

ـ ومن الذي قال إنك كنت قحبة ؟ انك تفعلين ما تريدين او ما تطيقين . وانا لا اجد ذلك سيئاً .

قالت : ـ آه ! انك لا تجد ذلك سيئاً ! انك لا تجد ذلك سيئاً ؟

ـ كلا .

فقالت في اضطراب : ـ انت على خطأ . انت على خطأ اكبر .

فسألها بيار بلهجة مرح : ـ أهذا إذن رديء ؟

ـ آه ! لا تحاول ان تخلط علي الامور . كلا ، ليس هذا رديئاً: ولِمَ يكون رديئاً ؟ من الذين يطالبني بأن امتنع ؟ ليسوا هم الاشخاص الذين يدورون حولي ، طبعاً ، ولا رفاقي الذين يفيدون مني ، ولا امي التي لا تكسب بعد شيئاً والتي ارسل لها فلوساً . ولكنك انت تجد ذلك رديئاً لأنك عشيقي .

وكان بيار قد شبك يديه فوق غطائه ، وكانت هيئته هيئة مريض خفية هاربة ، وقال بهدوء :

ـ لا تصرخي . ان بي صداعاً .

فتمالكت نفسها ونظرت اليه ببرودة ، وقالت بصوت منخفض :

ـ لا تخف ، فلن أصرخ بعد . ولكني احب مع ذلك ان اقول لك ان الامور قد انتهت فيما بيننا ، نحن الاثنين . لأنه يثير اشمئزازي ان انام مع هذا العجوز المليء بالحساء ، ولو كنت قد وبختني او رثيت

لي ، لحسبت انك متعلق بي بعض الشيء ، ولكان ذلك قد عزاني قليلا . ولكن اذا كان بوسعي ان انام مع من اريد ، من غير ان يؤثر ذلك على احد ، حتى ولا عليك انت ، فهذا يعني اني كلبة جرباء ، واني بغي ؟ حسناً يا عزيزي ، ولكن البغايا يركضن وراء الماجنين المستهترين ، ولا حاجة بهن الى ان يعانقهن اجراس من نوعك .

فلم يجب بيار : كان قد اغمض عينيه ، فدفعت كرسيها بقدمها وخرجت وهي تصفق الباب .

كان ينسرب ، متحاملا على مرفقه ، بين مقاصير وعيادات ونزل : كان كل شيء فارغاً . وكانت المئة والاثنتان والعشرون نفنفة في فندق « بران » مفتوحة ؛ وفي ممر مقصورة « مـن ديزير » وفي حديقة مقصورة « اوازيس » ، كان ثمة مرضى ينتظرون ، وهم مستلقون في توابيتهم ، رافعي الرؤوس ؛ وكانوا ينظرون في صمت صف المحامل؛ جمهور برمته من المحامل كان يجري نحو المحطة . ولم يكن ثمة من يتكلم ، ولم يكن يسمع الا انين المحاور واصوات العجلات الصماء وهي تهبط من الرصيف الى الطريق . كانت جاكلين تسير بسرعة ؛ وتجاوزت المحامل عربة قديمة ضخمة يدفعها عجوز قصير كان يبكي ، وتجاوزت زوزو الذي كانت امه تقوده الى المحطة ، وعرجاء مقصورة المحتاجين.

وصاح شارل :

— هي ، هو !

فانتفض زوزو ، وحامل قليلا فنظر الى شارل بعينيه الفاتحتين الفارغتين وقال وهو يتنهد :

— لسنا محظوظين !

وتداعى شارل للسقوط على ظهره ؛ وكان يحس الى يمينه والى يساره هؤلاء الحاضرين الافقيين ، عشرة آلاف عملية دفن صغيرة ؟ وفتح عينيه ثانية فرأى قطعة من السماء ، ثم مئات من الناس ، مطلين من نوافذ « الفراندو » وهم يلوحون بمناديلهم . قذرون ! القذرون !

ليس هذا عيد ١٤ تموز ! ودوّم رف من زمّج الماء فوق رأسه وهو يتصايح ، وتمخّطت جاكلين خلفه . كانت تبكي تحت غلالتها الحريرية وكانت الممرضة تحدق في الاكليل الوحيد الذي كان يرتجّ خلف مركبة الموتى ، ولكنها كانت تسمعها تبكي ، ولا بــد انها لم تكن متحسرة عليه كثيراً ، فقد انقضى عشرة اعوام دون ان تراه ، ولكنها كانت تحفظ دائماً ، في ناحية ما من اعماقها ، بحزن خجول غير مرتو ينتظر بتواضع دفن شخص ما ، او مناولةً ، او زواجاً ، لتحصل اخيراً على الدموع التي لم تجرؤ قط على المطالبة بها ؛ وفكرت الممرضة بامهــا الكسيحة ، وبالحرب ، وبابن اختها الذي سيرحل ، وبوضع الممرضة القاسي ، فأخذت تبكي ايضاً ، كانت مسرورة . وكانت المرأة القصيرة تبكي ، وخلفها كانت البوابة قد بدأت تبكي ، يا للعجوز المسكين ، قليلون جداً هم الذين يصحبونه ، فليظهروا على الاقل بمظهر الحزن ؛ كانت جاكلين تبكي وهي تدفع المحمل ، وكان فيليب يمشي ، سوف يغمى علي ، وكان غرولويس يمشي ، الحرب ، المرض ، الموت ، الرحيل ، البؤس ؛ كان اليوم يوم احد ، وكان موريس يغني امام نافذة حافلته ، ودخلت مارسيل الى حانوت الحلويات لتشتري حلوى بالزبدة .

قالت جاكلين : — انك لا تتكلم قط . كنت اظن انك ستجد بعض المشقة في تركي .

وكانا قد سلكا طريق المحطة ، فسألها شارل :

— الا تجدين اني لست متضايقاً بما فيه الكفاية في وضعي هــذا ؟ انهم يرزمونني ويحملونني لا ادري الى ابن من غير ان يسألوني رأيي ، وتريدين فوق هذا ان انحسر عليك ؟

— انت لا قلب لك .

فقال في جفاء : — كفى . اود لو كنت مكاني ، اذن لرأينا ما الذي تفعلينه بقلبك .

فلم تجب ، ورأى سقفاً مظلماً فوق رأسه، فقالت جاكلين :

ـ لقد وصلنا .

بمن استنجد ؟ من الذي ابتهل اليه حتى لا يأخذني ؟ انني افعل كل ما يريدون شريطة ان يتركوني هنا ، فتعتني بي وتنزهني ، وفي المساء تعمل لي مداعبتي الصغيرة ... وقال لها :

ـ آه ! أحس اني سأموت في اثناء هذه الرحلة .

فقالت جاكلين وقد استطار لبها :

ـ ولكنك مجنون . انت مجنون تماماً ، فكيف تستطيع ان تنطق بمثل هذه الاشياء ؟

وطافت حول المحمل ثم مالت عليه ، وكان يحس نفسها الحار . وقال وهو يضحك لها :

ـ هيا ! هيا ! بلا مظاهرات . فلست أنت التي ستصابين بالمضايقات، اذا مت . وانما هي السمراء الجميلة ، تعرفينها ، ممرضة الدكتور روبرتال.

فاستقامت جاكلين فجأة ، وقالت :

ـ انها جمل . وانت لا تستطيع ان تتصور جميع القصص التي صنعتها مع لوسيان . (واضافت متمتمة بين اسنانها المنقبضة) آه ! سترى حالك معها ، ولا حاجة بك الى ان تدبل لها عينيك ، فهي اقل بلاهة مني .

واستقام شارل ونظر حوله في قلق . كان ثمة اكثر من مئتي محمل مصفوفة في الباحة . وكان الحمالون يدفعونها الى المحطة ، واحداً بعد الآخر . وتمتم بين أسنانه :

ـ لا اريد ان اذهب .

ونظرت اليه جاكلين نظرة شاردة ، وقالت له فجأة :

ـ وداعاً . وداعاً يا لعبتي ، يا لعبتي العزيزة .

واراد ان يجيب ، ولكن المحمل كان قد اندفع . وانتابته رعشة

من قدميه الى رقبته ، فارتد برأسه الى خلف ، فرأى وجهاً محمراً منحنياً فوق رأسه ، وصاحت جاكلين :

– اكتب لي ، اكتب لي .

وكان قد اصبح على المحطـة ، في خليط من صرخات الوداع وطلقات الصفارة .

وسأل في ضيق :

– اليس ... اليس هذا القطار ؟

فقال الموظف في سخرية :

– كلا ؟ وما الذي تحتاجه اذن ؟ قطار الشرق السريـع ؟

– ولكن هذه حافلات لنقل البضائع ؟

فبصق الموظف بين قدميه ، وقال موضحاً :

– انـكم لن تتماسكوا جيداً في قطار للمسافرين . فيجب نزع المقاعد ، انت تفهم الوضع ؟

كان الحمالون يأخذون المحامل من اطرافها ، فيفصلونها عن عرباتها ويحملونها الى الحافلات . وفي الحافلات ، كان موظفون ذوو قبعات يلتقطون المحامل كما يطيقون ويحملونها في الظلام . ومرّ صموئيل الجميل ، دون جوان « بيرك » ، الذي كان يملك ثماني عشرة بذلة ، مرّ بالقرب من شارل ، بين ذراعي حمّالـين ، واختفى في العجلة ، وساقاه في الهواء .

قال شارل في غيظ :

– هناك ، على كل حال ، قطارات صحيّة .

– آه ! انني أصدّقك ! كأنهم ، ونحن في عشية الحرب ، سيرسلون قطارات صحية الى « بيرك » لتلمّ المشلولين .

واراد شارل ان يجيب ، ولكن محمله تأرجح فجأة ، وحُمل في الهواء ، ورأسه في الأسفل وصاح :

— احملوني كما يجب ! احملوني كما يجب !

فأخذ الحمالون يضحكون ، واقترب الثقب الفارغ ، وكبُر ، ومدوا في الحبل ، فسقط التابوت على الارض الرطبة بضجة مائعة . وانحنت الممرضة والبوابة فوق حافة الحفرة ، واخذتا تبكيان بلا تحفظ .

قال بوريس : — انت ترين ، انت ترين : انهم يقصون بعضهم بعضاً .

كانا جالسين في باحة الفندق ، بالقرب من رجل يحمل الاوسمة ويقرأ في الجريدة . وانزل الحمال حقيبتين من جلد الخنزير ووضعهما قرب المدخل ، بالقرب من الحقائب الاخرى . وقال بصوت محايد :

— خمسة رحلوا هذا الصباح .

قال بوريس : — انظري الى هذه الحقائب ، انها من جلد الخنزير . (واضاف بقسوة) وهؤلاء الناس لا يستحقونها .

— ولماذا يا جميلي ؟

— كان يجب ان تكون مغطاة بالبطاقات .

قالت لولا : — واذن ؟ اننا لن نرى بعد جلد الخزير .

— تماماً . يجب على المترف الحقيقي ان يخفي نفسه ، ثم انهم سيعملونها كمفارش . ولو كان لدي انا احداها ، لما كنت هنا .

— اين كنت تكون؟

— في اي مكان.في المكسيك او الصين (وأضاف : معك)

واجتازت الباحة امرأة طويلة ترتدي قبعة سوداء ، وكانت تصرخ باحتداد :

— ماريبت ! ماريبت !

قالت لولا : — انها السيدة دولاريف . وهي راحلة بعد ظهر اليوم.

قال بوريس : — سنبقى وحدنا في الفندق ، وسيكون هذا طريفاً: فسنغير غرفتنا كل مساء .

قالت لولا : — امس في الكازينو ، كانوا عشرة فقط يستمعون اليّ ؛ ثم انني لم اعد أنفلق . وقد طلبت ان يجمعوهم معاً ، على طاولات الوسط ، وانا اهمس لهم أغانيّ في آذانهم .

ونهض بوريس لينظر الى الحقائب عن كثب . وجسّها بالخفية ثم عاد بالقرب من لولا وسألها فيما هو يجلس :

— لماذا هم ذاهبون ؟ انهم هنا سيكونون في وضع آمن كذلك ؛ وقد يحدث ان تقصف منازلهم في اليوم التالي من عودتهم .

قلت لولا:

— هذا صحيح ، ولكن ذلك منزلهم ، الا تفهم ذلك ؟

— لا .

قلت : — هكذا . ان الناس اذا بلغوا سناً معينة ، أخذوا ينتظرون المضايقات في بيوتهم .

فأخذ بوريس يضحك ، واستقامت لولا في قلق ؛ وكانت قد احتفظت بذلك منذ القديم : كان اذا ضحك ظنت دائماً انه يهزأ بها .

— لماذا تضحك ؟

— لأني اجدك شجاعة . انت تشرحين لي ما يشعر به الناس اذا بلغوا سناً معينة . ولكنك لا تفهمين من ذلك شيئاً يا عزيزتي لولا : فانت لم تسكني منزلا قط .

قالت لولا بحزن : — هذا صحيح .

فتناول بوريس يدها وقبّل باطن كفها ، فاحمرت لولا .

— كم انت لطيف معي ! اؤكد لك انك لست بعد بوريس الذي اعرفه .

— إشتكي اذن !

فشدت لولا يده في قوة .

ــ انا لا اشتكي ، ولكني اود ان اعرف لمـــاذا انت لطيف الى هذا الحد .

قال ــ ذلك اني اتقدم في السن .

وكانت قد تركت يده ، وكانت تبتسم وهي مستلقية في الاريكة . وكان مسروراً ان يجدها سعيدة ، فقد كان يريد ان يترك لها ذكرى طيبة . ولامس يدهـــا وفكر . عام ، وليس امامي بعد الا عام واحد أقضيه معها ، واستشعر الحنان . لقد بدأت قصتهما تحمل سحر الماضي . كان من قبل يعاملها بقسوة ، ولكن ذلك كان يُعزى الى انهما كانا على تعاقد غير محدود . وكان ذلك يزعجه ، فهو يحب كثيراً التعهدات ذات المدة المحدودة . عام . وسيمنحها كل السعادة التي كانت تستحقها ، وسيصلح كل اخطائه ، ثم يتركها ، ولكن لا بصورة غادرة ، وليس من اجل امرأة اخرى ، او لأنه شبع منها . ان ذلك سيتدبر من تلقاء نفسه ، بقوة الاشياء ، لأنه سيكون بالغاً ، وسيرسلونه الى الجبهة . ونظر اليها من زاوية عينيه . كانت تبدو شابة ، وكان صدرها الجميل يرتفع من النشوة ، وفكر في كآبة . «وهكذا سأكون رجل امرأة واحدة» . مجند في عام ٤٠ ، مقتول عام ٤١ ، لا ، بل ٤٢ ، لأنه كان ينبغي ان يتاح له الوقت لينهي دراسته ، وهكذا سيعرف امرأة واحدة في اثنين وعشرين عاماً . منذ ثلاثة اشهر ، كان ما يزال يحلم بان يضاجع نساء من الطبقة الراقيـــة ، ذلك اني كنت طفلا ، بهذا فكر من غير ما تسامح . سوف يموت من غير ان يكون قد عرف الدوقات ، ولكنه لن يتحسر على شيء . فسوف يمكنه ، على نحو ما ، في الاشهر القادمة ، ان يجمع ثروات طيبة ، ولكنه لم يكن حريصاً على ذلك اكثر مما ينبغي . فانني سأتوزع بهذا الشكل . ان من ليس امامه الا عامان يعيشهما ، خير له ان يتركز برصانة . لقد سبق لجـــول رونار ان قال لابنه : « لا تدرس الا امرأة واحدة ، ولكن ادرسها جيداً ، تعرف المرأة » . كان

ينبغي ان يدرس لولا بعناية ، في المطعم ، وفي الشارع ، وفي السرير. وأمرّ إصبعه على معصم لولا وفكر : انني لا اعرفها بعد كما ينبغي ؛ كان في جسمها زوايا يجهلها ولم يكن يعرف ما كان يمر في رأسها ؛ ولكن كان امامــه عام ، وسوف يبدأ في التعرف عليها حالاً . وادار رأسه نحوها وتأملها بانتباه ، فسألته لولا :

– لماذا تنظر الي ؟

قال بوريس : – انني ادرسك .

– لا احب ان تنظر الي اكثر مما ينبغي ، فانا اخشى دائماً ان تجدني عجوزاً .

فبسم لها بوريس : – انها تظل حذرة ، وهي لم تكن تألف سعادتها، وقال لها .

– لا تخشي شيئاً .

وحيتها ارملة بحنان وتداعت للسقوط على اريكة بالقرب من حامل الاوسمة .

وقال لها الرجل :

– اسمعي يا سيدتي العزيزة . ان هتلر سيلقي خطاباً .

فسألت الارملة : – اوه ، متى ؟

– سيخطب غداً مساء ، في ساحة الرياضة .

قالت وهي ترتعش :

– بررررر. اذن سآوي الى فراشي باكراً ، وسأضع رأسي تحت الغطاء ، فانا لا اريد إن اسمعــه . اتصور انه لينين لديه شيء لطيف يقوله لنا .

قال الرجل : – هذا ما اخشاه جداً .

وساد صمت، ثم استطرد :

– اسمعي : لقد ارتكبنا غلطتنا الكبيرة عام ٣٦ ، في فترة تنظيم

المنطقة الرينانية تنظيماً عسكرياً. كان ينبغي ان نرسل عشر فرق الى هناك. فلو كشفنا عن نواجذنا ، لنفذ الضباط الالمان امر التراجع الذي كان في جيوبهم . ولكن « سارو » كان ينتظر رضى « الجبهة الشعبية » ، وكانت « الجبهة الشعبية » تفضل ان تعطي سلاحنا للشيوعيين الاسبان .

فقالت الارملة ملاحظة :

– ولكن انكلترا ما كانت لتحذو حذونا .

فردد الرجل ، فاقد الصبر :

– ما كانت لتحذو حذونا ! ما كانت لتحذو حذونا ! حسناً ، اني اريد ان اطرح عليك سؤالا يا سيدتي : أتعلمين ما كان سيفعله هتلر ، لو لجأ « سارو » الى النجدة ؟

قالت الارمله – لا ادري .

– كان سينـ – تـ – حر ، يا سيـــدتي . اني اعرف ذلك من مصدر موثوق . فانا اعرف ضابطاً من المكتب الثاني ، منذ عشرين عاماً .

وهزت الارملة رأسها بحزن وقالت :

– كم من فرص ضائعة !

– ومن هو المسؤول ، يا سيدتي ؟

قالت : – آه !

قال الرجل : – أجل ! أجل ! هذه هي نتيجة التصويت الاحمر . ان الفرنسي غير قابل للإصلاح . ان الحرب على ابوابه ، وهو يطالب بعطل مدفوعة الأجرة .

ورفعت الارملة انفها : كان يبدو عليها مظهر قلق حقيقي .

– انت تعتقد اذن ان الحرب واقعة ؟

وقال الرجل مشدوهاً:

– الحرب ! آه ، لا نتعجـــل الامور . لا ، ان دلاديه ليس

طفلا . فهو سيقوم حتماً بالتنازلات الضرورية . ولكننا سنجابه اصعب المصاعب .

قلت لولا بين اسنانها : — قذرون !

فابتسم لها بوريس في ود . كانت قضية تشيكوسلوفاكيا في نظرها بسيطة جداً . بلدٌ صغير قد هوجم ، فعلى فرنسا ان تدافع عنه. كانت تخبط بعض الشيء ، في السياسة ، ولكنها كانت كريمة . وقالت:

— تعال لنتغدى . انهما يثيران اعصابي .

ونهضت ، فنظر الى خاصرتيها الجميلتين القويتين ، وفكر في «المرأة». كانت « المرأة » ، « المرأة كلها » هي التي سيمتلكها الليلة . وأحس بأن شهوة طاغية تحرُّ اذنيه .

خلف ظهره ، المحطة — وغوميز ، في القطار ، قدماه على المقعد الطويل . كان قد فاجأ الآلهة . « انني لا احب العناق والقبـــل على المحطة » . وكانت تهبط الدرج العظيم ، وكان القطار لا يزال في المحطة ، وكان غوميز يقرأ وهو يدخن ، وقدماه على المقعد الطويل ، وكان ينتعل حذاء جميلا جديداً من جلد البقر . وقد رأت الحذاء على قماش المقعد الرمادي ؛ كان في الدرجة الاولى ؛ فالحرب تُثري . وفكرت . اني اكرهـــه . كانت جافة وفارغة . ورأت فترة اخرى البحر المشرق والمرفأ والبواخر ، ثم لا شيء بعد . فنادق مظلمة ، سقوف وقطارات .

— لا تنزل بهذه السرعة يا بابلو ، فسوف تسقط !

فظل الصغير على الدرجة . وقدمه في الهواء . سيرى ماتيو . كان بامكانه ان يبقى يوماً آخر معي ، ولكنه فضل علي ماتيو . كنت يداها محرقتين ؛ ما دام هنا ، فانه العذاب. اما وقد ذهب الان ، فلست ادري اين ذهب بعد . وسأل :

— هل ذهب بابا ؟

كان ثمة ساعة ، قبالتها ، تشير الى الواحدة والخامسة والثلاثين ،
كان القطار قد سار منذ سبع دقائق . قالت ساره :
— نعم ، لقد ذهب .
قال بابلو ، وعيناه ملتمعان :
— هل سيقاتل ؟
فقالت ساره : — لا ، وانما ذهب يرى صديقاً له :
— نعم ، وبعد ذلك ، هل يقاتل ؟
قالت ساره : — بعد ذلك ، سيذهب لقتال الآخرين .
وكان بابلو قد وقف على الدرجة قبل الاخيرة ، فثنى ركبتيه وقفز مضموم القدين الى الرصيف، ثم التفت ينظر الى امه وهو يبسم لها في زهو . وفكرت : « مهرّج » ، والتفتت من غير ان تبسم له واجالت نظرها في الدرج العظيم . كانت القطارات تجري وتقف ثم تنطلق من فوق رأسها . وكان قطار غوميز يتجه نحو الشرق ، بين كثبان طبشيرية ، او ربما بين بيوت . وكانت المحطة مقفرة ، فوق رأسها ، قاعة رمادية كبيرة ، ملأى بالشمس والدخان ، رائحة خمر وسناج ، وكانت الخطوط الحديدية تلتمع . وخفضت رأسها ، ولم يكن يروق لها ان تفكر بهذه المحطة المهجورة فوق ، في حرارة الاصيل البيضاء .. ففي نيسان ٣٣ ، كان قد سافر ، في هذا القطار نفسه ، وكان يرتدي بذلة من التوند الرمادي ، وكانت الآنسة سمبسون تنتظره في « كان » ، وكان قد امضى خمسة عشر يوماً في « سان روميو » . وفكرت : اني ما زلت افضل ذلك العهد . ولامست يدها قبضة صغيرة ملتمسة ، ففتحت يدها وجست فيها معصم بابلو . وخفضت عينيها ونظرت اليه : كان يرتدي قميصاً ذا ياقة بحرية وقبعة من القماش . وسألها بابلو :
— لماذا تنظرين إلي هكذا ؟
وادارت ساره رأسها ونظرت الى الطريق : كانت مذعورة بأن تحس

نفسها قاسية الى هذا الحد . وفكرت : ليس هو الا صبياً . أجل ، ليس هو الا صبياً . ونظرت اليه من جديد وهي تحاول ان تبتسم له ولكنها لم تنجح في ذلك ، كان فكّاها منقبضين ، وكان فمها من خشب . واخذت شفتا الصغير ترتجفان ، فادركت انه يوشك ان يبكي، فجذبته فجأة واخذت تمشي بخطى كبيرة ، ونسي الصغير دموعه ، في دهشة ، فكان يكردح الى قربها .

– اين نذهب يا ماما ؟

قالت ساره : – لا ادري .

وسلكت الشارع الاول الى يمينها ، وكان شارعاً مقفراً ، وكانت جميع الحوانيت مقفلة ، وحثت خطاها وانعطفت في شارع الى اليسار، بين بيوت مرتفعة ، مظلمة وقذرة . وظلت الشوارع مقفرة . وقال بابلو :

– انك تجعلينني اركض .

وشدّت ساره يده من غير ان تجيب وجرّته ، فسلكا شارعاً طويلا مستقيما ، شارعاً يمشي فيه الترام . ولم يكن يُرى فيه سيارات ولا ترام، لا شيء الا ستائر حديدية مسدلة ، ثم الخطوط الحديدية التي كانت تنسرب نحو المرفأ . وفكرت بان اليوم كان يوم احد ، فانقبض قلبها . وضغطت بعنف على معصم بابلو . وانّ بابلو :

– ماما ! اوه ، يا ماما !

وكان قد اخذ يعدو للحاق بها ، ولم يكن يبكي ، ولكن كان ابيض ممتقعاً ، وتحت عينيه هالات كابية ، وكان يرفع نحوها وجهاً مندهشاً متحدياً . وتوقفت ساره في الطريق ، وقد بللت الدموع وجنتيها فقالت :

– يا للطفل المسكين ! يا للصغير المسكين البريء !

وأقعت بالقرب منه . ماذا يهمها ما عساه يكون فيما بعد ؟ لقد كان

الآن هنا ، بشعاً غير مؤذ مع ظل صغير عند قدميــه ، وكان يبدو وحيداً في العالم ، وكان في عينيه هذا الاندهاش كله ، ومهما يكن من أمر ، فليس هو الذي طلب ان يولد .

وسأل بابلو : — لماذا تبكين ؟ ألأن البابا قد ذهب ؟

فانقطعت دموع ساره على التو واخذتها الرغبة في الضحك . ولكن بابلو كان ينظر اليها مهموماً . ونهضت فقالت وهي تدير رأسها :

— نعم ، نعم ، لأن البابا قد ذهب .

وسأل : — هل نعود بعد قليل الى البيت ؟

فقالت : — هل تعبت ؟ اننا ما نزال بعيدين عن البيت ، تعال ، تعال ، سنمشي على مهل .

ومشيا بضع خطوات ثم توقف بابلو ، ومد اصبعه ، وقــال في نشوة تكاد تكون مؤلمة :

— اوه ! انظري !

كان ذلك اعلاناً ملصقاً على باب دار للسينما زرقاء ، فــاقتربا . وكانت رائحة فرمول تنبعث من القاعة المظلمة الرطبة . وكان عــلى الإعلان بعض رعاة البقر يلاحقون فارساً مقنعاً وهم يطلقون رصاص مسدساتهم . طلقات نارية ايضاً ، ومسدسات ايضاً ! كان ينظر لاهثاً ، سيضيع عما قليل قبعته ، وسيأخذ بندقيته ويعدو في الغرفة ،وهو يمثــل دور اللص المقنع . ولم تؤاتها الجرأة في ان تسحبــه ، واكتفت بأن ادارت رأسها . وكانت قاطعة التذاكر تتروح في غرفتها الزجاجية ، وكانت امرأة سمينة سمراء ، ذات لون ممتقع ، وعينين من نار . وكان على الطاولة ، خلف الزجاج ، زهور في آنية ، وكانت قد تثبتت على الجدار ، بمسامير صغيرة ، صورة لروبرت تايلر . وخرج من القاعة رجل بين الشباب والكهولة ، فاقترب من الصندوق وسأل عبر النافذة:

— كم ؟

قال : — الدخول ثلاثة وخمسون .

— هذا ما حسبته وامس سبعة وستون . فيلم جميل كهذا ، مع مطاردات !

قالت قاطعة التذاكر وهي تهز كتفيها :

— الناس يبقون في بيوتهم .

وكان رجل آخر قد وقف بالقرب من بابلو ، وكان ينظر الى الاعلان وهو يلهث ، ولكن لم يكن يبدو عليه انه يراه . وكان شخصاً طويلا شاحباً ذا ثياب ممزقة ، وحول رأسه ضماد ملطخ بالدم ووحل جاف على خده ويديه . ولا بد انه كان قادماً من بعيد . واخذت ساره بابلو من يده وقالت :

— تعال .

وجهدت في ان تسير ببطء شديد ، بسبب الصغير ، ولكن كانت لديها رغبة للركض ، اذ كان يخيّل اليها ان احداً ينظر اليها من خلف . وامامها كانت الخطوط الحديدية تلتمع ، وكان القطران يذوب تحت الشمس على مهل ، وكان الهواء يرتعش قليلا ، حول فانوس ، ليس هو بعد الاحد نفسه . « الناس يبقون في بيوتهم » . كانت ما تزال منذ لحظة تتخيل خلف صفوف البيوت جادات فرحة غاصّة بالناس الذين تنبعث منهم رائحة مسحوق الرز والتبغ الاشقر ، كانت تمشي في شارع هادىء من شوارع الضاحية ، يرافقها جمع كبير ، قريبٌ وغير مرئيّ . وكانت كلمة واحدة كافيــة لتقفر الطرق . انهم الآن يجرون نحو المرفأ ، بيضاً مقفرين ، وكان الهواء يرتعش بين الجدران العمياء . قال بابلو :

— ماما . ان الرجل يتبعنا .

قالت ساره — لا . انه يتنزه مثلنا .

وانعطفت الى اليسار، فاذا هو الطريق نفسه الذي لا ينتهي، ولم يكن

ثمة بعد الا طريق يتيه عبر مارسيليا . وكانت ساره في هذا الطريق ، خارجاً مع صبي ، وكان جميع المارسيليين في الداخل . ثلاثة وخمسون مدخلاً . كانت تفكر في غوميز ، في ضحكة غوميز ، بالطبع ، جميع الفرنسيين جبناء . ولماذا ؟ انهم يبقون في بيوتهم، هذا طبيعي . انهم يخافون الحرب ، وهم على حق في ذلك . لكنها كانت مع ذلك مستاءة . ولاحظت انها قد حثت خطاها ، فارادت ان تبطىء سيرها ، بسبب بابلو . ولكن الصغير جذبها الى الامام ، وقال بصوت مختنق :

– اسرعي ، اسرعي ، اوه ! يا اماه .

قالت بجفاء : – ماذا هناك ؟

– انه ما يزال خلفنا ..

وادارت ساره رأسها قليلاً فرأت المتشرد ، كان يتبعهما ، بدون ريب ، واخذ قلبها يخفق في صدرها ، وقال بابلو :

– لنركض !

وفكرت بالضماد الدامي فاستدارت فجأة على عقبها . وتوقف الشخص تماماً ورآهما قادمين بعينيه المضببتين . كانت ساره خائفة، وكان الصغير قد تشبث بها بكلتا يديه وهو يجرها الى خلف بكل قواه . « الناس يبقون في بيوتهم » فمهما حاولت ان تنادي او تصرخ طلباً للنجدة ، فلن يأتي احد ، ونظرت الى المتشرد في عينيه وسألته :

– هل انت بحاجة الى شيء ؟

فبسم بسمة تثير الشفقة ، وتلاشى خوف ساره . فسأل :

– هل تعرفين القراءة ؟

ومد لها دفتراً قديماً ممزقاً ، فأخذته ، وكان دفترا عسكرياً . وكان بابلو يحيط ساقيها بذراعيه ، وكانت تحس جسمه الصغير الحار . وقالت :

– ماذا تريد ان تعرف ؟

قال الرجل وهو يشير باصبعه الى ورقة :
— اريد ان اعرف ما هو مكتوب هنا .
كان يبدو عليه الطيبة ، بالرغم من عينه البنفسجية المنغلقة نصف انغلاق . ونظرت اليه ساره لحظة ، ثم نظرت الى الورقــة . وتمتم الرجل بتأثر :
— كم هي مصيبة ، كم هي مصيبة الا يحسن الانسان القراءة .
قالت ساره : — ان معك ورقة بيضاء ، فيجب ان تذهب الى مونبلييه .
ومدت له الدفتر ، ولكنه لم يأخذه على التو ، بل سأل :
— صحيح ان الحرب ستقع ؟
قالت ساره : — لا ادري .
وفكرت ، سوف يذهب . ثم فكرت في غوميز . وسألت :
— من الذي عمل لك الضماد ؟
فقال الرجل : — انا نفسي .
وفتشت ساره في حقيبتها ، وكان معها دبابيس ومنديلان نظيفان ، وقالت له بلهجة تسلط :
— اجلس على الرصيف .
فجلس الرجل بمشقة ، وقال في ضحكة واعتذار :
— ان ساقي مخدرتان .
ومزقت ساره المنديلين . وكان غوميز يقرأ « الاومانيتــه » في الدرجة الاولى ، وقدماه على المقعد الطويل . سوف يرى مــاتيو ثم يذهب الى تولوز ليستقل الطائرة الى برشلونه . وحلّت الضــماد الدامي ونزعته بشدات قصيرة . وانّ الرجل قليلا . وكان ثمــة قشرة سوداء لزجة تمتد وسط رأسه . وبسطت ساره منديلا لبابلو :
— اذهب فبلّله من ماء النبع .

فركض الصغير وهو سعيد بالابتعاد . ورفع الرجل عينيه الى ساره وقال لها :

— انني غير راغب في القتال .

فوضعت ساره يدها بلطف على كتفه . وكان بودها لو تطلب منه الصفح . وقال .

— انا راعٍ .

— وماذا تفعل في مرسيليا ؟

فهز رأسه ، وردّد :

— لست راغباً في القتال .

وكان بابلو قد عاد ، فغسلت ساره الجرح كما اطاقت ثم لفت الضماد بخفة ، وقالت :

— انهض .

فنهض ، وكان ينظر اليها بعينيه المبهمتين .

— يجب اذن ان اذهب الى مونبليه ؟

فبحثت في محفظتها وأخرجت منها ورقتين من ذوات المئة فرنك ، وقالت :

— هذا من اجل رحلتك .

ولم يأخذها الرجل على التو : كان ينظر اليها في اجتهاد . وقالت ساره بصوت منخفض سريع :

— خذ ، خذ ، ولا تقاتل ان كان بوسعك ان تتجنب ذلك .

فأخذ الورقتين ، وشدت ساره بقوة على يده ، ورددت :

— لا تقاتل ، افعل ما بدا لك ، عد الى بيتك ، إختبيء ، فكل شيء خير من القتال .

وكان ينظر اليها من غير ان يفهم ؛ وتناولت يد بابلو ، واستدارت ثم استعادا سيرهما . وبعـــد لحظة ، التفتت : كان ينظر الى الضماد

والمنديل المبلل الذي كانت ساره قد ألقتهما على الطريق . وانتهى بان انحنى ، فلمّهما متلمّساً ، ثم دسّهما في جيبه .

كانت قطرات العرق تتدحرج على جبينه حتى صدغيه ، وتسيل على خديه من منخريه حتى اذنيه . وكان قد حسب اولا انها هوام ، فصفع وجهه ، فاذا يده تسحق دموعاً دافئة . وقال رفيقه الجالس الى يساره:

– اوف ! ما أشد هذا الحر .

وعرف صوته ، انه بلانشار ، الوحش السمين . قال شارل :

– انهم يفعلون ذلك عمداً . فهم يتركون الحافــلات في الشمس طوال ساعات .

وساد صمت ثم سأل بلانشار :

– أهذا انت ، يا شارل ؟

قال شارل : – هذا انا .

وكان يأسف لأنه تكلم . كان شارل يحب المزاح كثيراً ، وكان يرش الناس بمسدس مائي ، او كان يتدحرج عليهم او يعلق رتيلاء من الورق المقوى على اغطيتهم . وقال بلانشار :

– ما اكثر ما نلتقي !

– نعم .

– العالم صغير .

وتلقى شارل دفعة مــاء في وجهه ، فمسح جبينه وبصق ؛ وكان بلانشار يقهقه .

وقال شارل :

– اي فرج انت !

وسحب منديله ومسح عنقه وهو يجهد في ان يضحك :

– انه مسدسك المائي !

قال بلانشار وهو يضحك :

– عظيم ! لقد أصبتك ، اليس كذلك ؟ في وسط وجهك ! لا تغضب . إن جيوبي ملأى بالحبل الصغيرة : وسوف نضحك كثيراً في اثناء هذه الرحلة .

قال شارل في ضحكة سعيدة :

– ايّ فرج ! اي فرج ! اي أزعر انت !

كان بلانشار يخيفه : ان المحامل تتلامس ، فاذا اراد ان يقرصني او يلقي شعراً يشوّك تحت غطائي ، فليس له الا ان يمد يده . وفكر : لا حظّ لي . يجب ان ابقى على حذر طوال الرحلة . وتنهد ولاحظ انه كان ينظر الى السقف ، كان جداراً كبيراً مظلماً ، مقنفذا بالمسامير المثناة . وكان قد ادار مرآته نحو الخلف ، فكانت المرآة سوداء كصفيحة من الزجاج المدخن . وتحامل شارل قليلاً ، والقى حوله نظرة . كانوا قد تركوا باب الممرات مفتوحاً على مصراعيه ، وكان نور ابيض يزبد في القاطرة ؛ راكضاً على الاجسام المتمددة ، مجعداً الأغطية ، مصفّراً الوجوه . ولكن المنطقة المضاءة كانت محددة تماماً باطار الباب ؛ اما الى اليمين واليسار ، فكان الظلام شبه تام . يا للأردياء ! لا بد انهم رشوا الحمالين ، وسوف يستمتعون بالهواء كله ، وبالضياء كله ؛ واذا تحاملوا على مرافقهم بين الفينة والفينة ، رأوا شجرة تمرّ . واسترخى ، مجهداً ، وكان قميصه مبلّلاً . ليت بالامكان ان نذهب على الاقل : ولكن القطار كان باقياً هناك ،مهجوراً ، تكتنفه الشمس من كل جانب : وكانت رائحة غريبة – قش عفن وعطر هوبيغان – تأسن على الأرض ، وقد اطال عنقه ليتجنبها ، لأنها كانت تعطيه الرغبه في التقيؤ ، ولكن العرق أغرقه ، فاستسلم للأمر ، وعاد مستنقع الرائحة يتشكل فوق انفه ؛ وفي الخارج ، كان ثمة خطوط حديدية ، والشمس ، وحافلات فارغة على طرق للمرائب ودوّامات من الغبار بيضاء : الصحراء . ثم ابعد من ذلك : كان الأحد : أحدٌ في « بيرك » : أطفال يلعبون على الشاطيء ،

وعائلات تتناول القهوة بالحليب في المقاهي ؛ وفكر : هذا طريف ، هذا طريف . وارتفع صوت من طرف الحافلة الآخر :

ـ دنيس ! هو ، دنيس !

فلم يجب احد .

ـ موريس ، هل انت هنا ؟

وساد صمت ، ثم ختم الصوت قائلاً .

ـ القذرون !

قطع الصمت ؛ وأنّ أحدهم بالقرب من شارل :

ـ ما اشد الحر !

فأجاب صوت ممتقع مخنّ ، صوت مريض كبير :

ـ سيتحسّن الوضع عما قليل ، حين ينطلق القطار ؛

وكانوا يتحادثون على غير بصيرة ، من غير ان يعرف بعضهم بعضاً . وقال احدهم بضحكة صغيرة :

ـ على هذا النحو ، يسافر الجنود .

ثم سقط الصمت من جديد . الحر ، الصمت ، الضيق ؛ ورأى شارل فجأة ساقين جميلتين في جوربين من الخيط الابيض ، وصعد نظره الى قميص ابيض : كانت هي الممرضة الجميلة . لقد صعدت لتوّها الى الحافلة ، وكانت تمسك حقيبة في يد، وكرسياً يُطوى في الاخرى، وكانت تجيل حولها نظرة مغيظة ، وقالت :

ـ ان هذا جنون ، هذا جنون محض !

فقال صوت خشن كان يصدر عن الخارج : ماذا ؟ ماذا ؟

ـ لو كنتم قد فكرتم دقيقة واحدة ، فربما أدركتم انه ينبغي الا يوضع الرجال مع النساء .

ـ لقد وضعناهم كما حملوهم الينا .

ـ وكيف تريدون ان اعتني بهم ، وبعضهم امام البعض ؟

ـ كان ينبغي ان تكوني هنا ساعة صعدوا بهم ؛

– لا استطيع ان اكون في كل مكان في آن واحد . كنت منهمكة بتسجيل الامتعة .

قال الرجل : – اية فوضى !

– بوسعك ان تقول ذلك .

وساد صمت ثم استطردت :

– ارجو ان تتفضل بدعوة رفاقك ، فسوف ننقل الرجـال الى حافلات الذنب .

– تستطيعين ان تضربي نفسك ! هل انت الـتي ستدفعين اجرة العمل الاضافي .

قالت الممرضة بجفاف : – أرفع شكوى .

قال : – حسناً . ارفعي شكوى يا جميلتي . انني انا أبعصك ، أتفهمين ؟

فهزت الممرضة رأسها واستدارت ؛ سارت بحذر بين الاجسام ثم اقبلت تجلس على كرسيها ، غير بعيدة عن شارل ، على حافة المستطيل المضيء . وقال بلانشار :

– هو ، شارل !

فقال شارل مرتعشاً : – ماذا ؟

– توجد هنا اناث .

فلم يجب شارل . وقال بلانشار بصوت مرتفع :

– كيف تراني افعل اذا اردت ان أخرأ ؟

فاحمر شارل غضباً وخجلاً ، ولكنه فكر في الشعر الذي يشوك ، واطلق ضحكة صغيرة مشاركة .

وندت حركة على الارض ، انهم بلا شك اشخاص يلوون رؤوسهم ليروا اذا كانت لهم جارات . ولكن كان لون من الانزعاج يثقل إجمالا على الحافلة . وتمددت الهمسات وانطفأت ... «ماذا تراني أفعل اذا اردت

ان أخرأ ؟ » كان شارل يُحسّ نفسه قذراً ، في داخله ، رزمة من الامعاء اللزقة المبتلة : اي عار اذا كان ينبغي ان نطلب المبولة امـــام الفتيات . وأغلق على نفسه ، وفكر : « سأقاوم حتّى النهاية » وكان بلانشار يتنفس بقوة ، وكان صوته يحدث موسيقى صغيرة بريئة ، يا إلهي ، ليته يستطيع ان ينام . وأخذت شارل لحظة أمـــل ، فأخرج سيكارة من جيبه واشعل عوداً ، وسألت الممرضة :

ــ ما هذا ؟

وكانت قد وضعت نسيجاً على ركبتيها ، وكان شارل يرى وجهها الغاضب ، عالياً جداً وبعيداً جداً فوقه ، في ظل ازرق . وقال

ــ انني اشعل سيكارة .

وبدا له صوته غريباً ومبتذلاً ، فقالت :

ــ اوه لا ، لا : ان التدخين هنا ممنوع .

ونفخ شارل على العود وتلمّس فيما حوله بأطراف أصابعه : فالتقى بين غطائين بلوحة رطبة وخشنة حكها بظفره قبل ان يضع عليها العود الخشبي الذي احترق نصفه ؛ وفجأة اذعره هذا التماسّ ، فردّ يديه الى صدره وفكر : انني على سطح الارض ، عـــلى سطح الارض تحت الطاولات والكراسي . تحت اكعاب الممرضات والحمالين ، مسحوقاً ، مختلطاً نصف اختلاط بالوحل والقش ، تستطيع جميع الهوام التي تركض في شقوق الارض الخشبية ان تتسلق بطنه . وحرك ساقيه ، وسحب كعبيه على المحمل . بهدوء ، حتّى لا يوقظ بلانشار : كان العرق يسيل على صدره ؛ وأعاد ركبتيه تحت الغطاء . ان هذه التنملات القلقة في الفخذين والساقين ، وهذه التمردات العنيفة المبهمة لجسمه كله كانت قد عذبته بلا انقطاع ، في اول عهده ببيرك : ثم هدأت : كان قد نسي ساقيه ، ووجد من الطبيعي ان يُدفع ويدحرج ويحمل ، كان قد اصبح شيئاً . وفكر في ضيق : « ان ذلك لن يعود . يا إلهي ، اترى ذلك سيعود ؟ »

ومد ساقيه واغمض عينيه . كان ينبغي ان يفكر : لست الا حجراً ، لست قط الا حجراً . وانفرجت يداه المتشنجتان ، واحس جسمه يتحجر رويداً رويداً تحت الغطاء . حجر بين الاحجار .

وانتصب منتفضاً ، وعيناه مفتوحان ، وعنقه متصلب : لقد حدثت رجة وضجة وتدحرج رتيب ، مهدّيء كالمطر ، : لقد تحرك القطار ، وكان يمر محاذياً شيئاً ما ؛ وكان في الخارج اشياء صلبة مثقلة بالشمس تنسرب ازاء الحافلات : كانت ظلال غير متميزة ، بطيئة اولاً ثم متسارعة شيئاً فشيئاً ، تركض على الجدار المضيء في مواجهة البـــاب المفتوح ، فكأنها شاشة سينما ، واصفر الضوء على الجدار قليلا ثم ارمد وحدث بعد ذلك انفجار : « خرج القطار من المحطة » . وكان شارل يحس بألم في رقبته ، ولكنه كان يستشعر بعض الهدوء ؛ فعـــاد الى الاضطجاع ، ورفع ذراعيه وادار مرآنه تسعين درجة . وكان يرى اذ ذاك ، في زاوية المرآة اليسرى ، قطعة من المستطيل المضيء . وكان ذلك يكفيه : كانت تلك المساحة الملتمعة تعيش ، وكانت منظراً برمته ؛ كان الضوء يرتجف تارة ويصفر ، كما لو انه سيتلاشى ، وكان تارة اخرى يقسو فيستمر ويتخذ هيئة طلاء طيني احمر ، ثم انه كان يرتعش برمته بين وقت وآخر اذ تلم به تموجات مائلة كأنما الريح تجعدها . وقد نظر اليه شارل طويلاً : فأحس بعد فترة انه قد تحرر ، كما لو انه جلس على درجة الحافلة ، فدلى ساقيه وراح ينظر الى الاشجار والحقول والبحر تترى . وتمتم :

— بلانشار .

لا جواب . وانتظر لحظة وهمس :

— هل تنام ؟

فــلم يجب بلانشار . وارسل شارل تنهُّدة رضى صغيرة ثم تبسّط وتمدد تماماً ، من غير ان ينزع بصره عن المرآة . انه ينام ، انه ينام ،

وحين دخل ، لم يكن يتماسك في وقوفه ، وقد تداعى للسقوط على المقعد الخشبي ، ولكن عينيه كنتا قاسيتين ، وكانتا تقولان : لن تتغلبوا علينا . وقد طلب قهوته بلهجة سيئة جداً ، ان هناك من يأخذ الخدم هكذا كالاعداء ، شبان صغار : يظنون ان الحياة صراع ، لقد قرأوا ذلك في الكتب ، فهم لذلك يصارعون في المقاهي ، فيطلبون كأساً من شراب الرمان وهم يحدجونك بنظرة جديرة بان ترعشك .

قال فليكس : ــ مقلوب واحد ، واثنان صيني للسطيحة .

فضغطت على الزر وادارت المحرك . وغمزها فليكس واومأ الى الشاب القصير الذي كان نائما . ليس هو صراعاً ، وانما هو مستنقع ، فما ان يفعل المرء حركة ، حتى يغرق ، ولكنهم لا يعرفونه على الفور . فهم يضطربون كثيراً في السنوات الاولى ، وهذا هو السبب في انهم يهبطون هبوطاً اسرع ، وقد حدث لي ذلك ، حدث لي ذلك ، اما واني الآن عجوز فاني ابقى هادئة ، وذراعاي ملتصقتان بجسمي ، فانا لا اتحرك ، ان من يبلغ عمري لا يغرق بعد ابداً . كان نائماً ، فاغر الفم ، وكان فكه يتدلى على صدره ، ولم يكن بعد جميلاً على الاطلاق ، وكانت جفونه المتورمة الحمراء وانفه الاحمر تجعله شبيهاً بخروف . اما انا ، فقد حزرت فوراً حين رأيته داخلا الى القاعة الفارغة ، كأنه اعمى ، والشمس في الخارج ، وجميع هؤلاء الزبائن على السطيحة ، فقلت في نفسي : ان عنده رسالة يريد ان يكتبها ، او انه ينتظر امرأة ، او ان هناك شيئاً ما محطماً . ورفع يده الطويلة الصفراء ، فطرد الذباب من غير ان يفتح عينيه . لم يكن ثمة ذباب . انه مهموم حتى في نومه ، ان الهموم تلاحقك في كل مكان ، كنت جالسة على المقعد ، وكنت انظر الى الخطوط الحديدية والى النفق ، وكان عصفور يغني ، وكنت انا ملأى ، حبلى ، مطرودة ، ولم تكن لدي بعد عيون حتى ابكي ، ولا مال في حقيبتي ، تذكرتي فحسب ، وقد

ثمث ، وحلمت بأنهم يقتلونني ، وانهم كانوا يشدون لي شعري ويصفونني بالفاجرة ، ثم جاء القطار فصعدت اليه . اقول تارة انه سيحصل على منحته ، فهو عامل مسن عاجز ، ولا يمكن ان تمنع عنه هذه المنحة ، واقول تارة اخرى انهم سيتدبرون أمرهم كي لا يعطوه إياها ، فهم قساة ؛ انني هنا ، وانا عجوز ، لا اتحرك بعد ، ولكني افكر ، انه يلبس ثياباً تشبه ثياب الشباب ، ولا شك في ان له أماً تعنى بشؤونه ، ولكن حذاءه ابيض من الغبار ، فماذا تراه قد فعل ؟ وماذا جرّ ؟ ان الدم يشتغل لدى الشبان ، ولو انه قد قال لي اضربي ، لقتلت ابي وامي ، فكم يمكن للمرء ان يكون عنيداً ، واذا قتل عجوزاً ، امرأة في سني ، فسوف يعتقلونه ، انه غير قوي ، وربما جاؤوا يحشرونه هنا ، وسوف تنشر « الماتان » صورته ، فيرى النـاس وجهاً صغيراً قذراً لأليف مواخير لا يشبهه ابداً ، وسيكون ثمـة من يقول ان له وجهاً جديرا بان يفعل هذا ، حسناً ، اما انا فأقول لكي ندينهم ، فيجب الا نكون قد نظرنا اليهم عن كثب ، لأننـا حين ننظر اليهم يغرقون كل يوم اكثر فاكثر ، نفكر بأنه ليس ثمة من يستطيع شيئاً ، وانه سيان بعد ذلك ان يأخذ الانسان قهوة بالحليب على سطيحة مقهى او ان يقتصد ليشتري بيتاً او ليقتل امه . وكان التلفون يدق ، فانتفضت وقالت :

ــ آلو ؟

ــ اريد ان اتحدث الى السيدة كوزان .

قالت : ــ انا هي . ماذا ؟

قال جولو : ــ لقد رفضوا اعطائي المنحة .

قالت ــ ماذا ؟ ماذا ؟

ــ لقد رفضوا اعطائي المنحة .

ــ ولكن هذا غير ممكن .

— لقد رفضوها .

— ولكن رجل عاجز ، عامل قديم ، ماذا قالوا لك ؟

— قالوا ان ليس لي حق بها .

قالت : — اوه ! اوه !

قال جولو : — الى هذا المساء .

واعادت السمّاعة : لقد رفضوا منحه اياها : رجل عاجز ، عامل مسن ، وقالوا له انه لا حق له فيها ، وفكرت :اراني الآن سأغضب . كان الشاب يشخر ، وكانت هيئته هيئة بلهاء متكلفة وخـــرج فليكس حاملا القدحين الصينيين والشراب الاسود ، ودفع الباب فدخلت الشمس وشعت المرآة فوق النائم ، ثم انغلق الباب ، وانطفأت المرآة ، وبقيـــا وحدهما معاً . ماذا فعل ؟ اين تراه قد ذهب ؟ ماذا يحمل في حقيبته ؟ سوف يدفع الآن : طوال عشرين سنة ، طوال ثلاثين سنة ، الا ان يقتل في الحرب ، يا للشاب المسكين ، لقد بلغ سن الذهـــاب . انه ينام ويشخر ، وانه لمهموم ، وعلى السطيحة يتحدث الناس عن الحرب ولن يعطى زوجي منحته . وقال : آه ! الشفقة والرحمة ، الرحمة لنـــا نحن الناس المساكين !

وصاح الشاب : — بيتو !

كان قد استيقظ منتفضاً ، ونظر اليه لحظة ، وعيناه ورديتـــان ، وفمه فاغر ، ثم صفق فكيه ، وقرص شفتيه ، وكان يبـــدو عليه الذكاء والرداءة .

— غارسون !

ولم يكن فيليب يسمع ، كانت تراه ، على السطيحة ، وكان يروح ويغدو ، ويأخذ الطلبات . وفقد الشاب اطمئنانه ، فضرب الطاولة وهو يدير رأسه ذات اليمين وذات اليسار كأنه مطـــارد . واشفقت عليه ، فقالت له :

— عشرون فلساً ، من فوق الصندوق .

ورماها بنظرة حقد ، وألقى قطعة من خمسة فرنكات على الطاولة ، وتناول حقيبته ومضى وهو يعرج . والتمعت المرآة ، فدخلت القاعة موجة من الصراخ والحرّ : دخلت الوحدة . ونظرت الى الطارلات والمرايا والباب . جميع هذه الاشياء المفرطة الالفة التي لم تكن تستطيع بعد ان تمسك أفكارها . وقالت في نفسها : « سيبدأ الامر ، وسوف يثور غضبي » .

لُطّخ بالنور . كان ثمة من يصوب عليه ، من جانب ، مصباح جيب ، فأدار رأسه وهمهم . وكان المصباح يطفو على سطح الأرض ، فأخذ يطرف بعينيه . كان وراء هذه الشمس عين هادئة حاقدة تنظر اليه ، وكان هذا غير مقبول . فقال :

— ما هذا !

قال صوت مغنٍ : — انه هو :

امرأة . ان الرزمة المتطاولة ، الى عيني ، هي امرأة . وشعرت لحظة بالرضى ، ثم فكر في غضب بأنها قد أضاءته كأنه شيء ، لقد أمرّت ضوءها عليّ كما لو كنت جداراً . وقال بجفاء :

— انني لا اعرفك .

قالت : — لقد التقينا مراراً .

وانطفأ المصباح . وظل مبهوراً ، ودوائر بنفسجية تدور في عينيه.

— لا استطيع ان اراك .

قالت — اما أنا ، فأراك ، حتى بلا المصباح ، أراك .

كان الصوت فتياً وجميلا ، ولكنه كان هو على حذر . وردّد

— انني لا اراك ، فقد بهرتني .

قالت بزهو — انني ارى في الليل :

— هل انت مُغربة ؟

فأخذت تضحك :

– مغربية ؟ ان عيني ليستا حمراوين ولا شعري ابيض ، ان كان هذا ما تقصده .

وكانت لها لهجة واضحة تضفي على جميع عباراتها جرساً استفهامياً :

– من انت ؟

قالت : – آه ، إحزر ، ليس الأمر صعباً جداً : لقد التقيت بي أمس الاول فقط ، فرميتني بنظرة حقد .

– حقد ؟ انني لا أحقد على أحد .

قالت : – اوه ، بلى ! بل انا اظن انك تحقد على جميع الناس .

– انتظري ! الم يكن على كتفيك فرو ؟

وكانت ما تزال تضحك ، فقالت :

– مُدّ يدك ، إلمس .

ومدَّ ذراعه ، فلمس كتلة ضخمة لا شكل لها : وكان ذلك فرواً ، وكان تحت الفرو بالتأكيد أغطية ورزم من الثياب ، ثم الجسم الابيض الرخو ، بزّاقة في صدفتها . لا بد انها كانت تشعر بالحر الشديد !

ولامس الفرو قليلاً ، فانبعث منه عطر فاتر ثقيل . هذا اذن هو الذي كان يُشَم منذ لحظة . وكان يلامس الفرو على عكس الزغب ، وكان مسروراً . وقال بلهجة المنتصر :

– انت شقراء . انك تلبسين أقراطاً من ذهب .

فضحكت واضاءت المصباح من جديد . ولكنها كانت قد ادارته هذه المرة الى وجهها بالذات ، وكان ارتجاج القطار يهز المصباح في يدها ، وكان الضوء يصعد من الصدر حتى الجبين ، ويلامس شفتين مصبوغتين ويذهّب زغباً خفيفاً اشقر ، عند زاوية الشفتين ، ويكسب المنخرين بعض الاحمرار ، وكانت الجفون الملوية المسوّدة تنتصب كأرجل صغيرة فوق الاجفان المقبّبة ، فكأنها حشرتان مقلوبتان على ظهرها ، كانت شقراء ، وكان شعرها يزبد في سحابةٍ خفيفةٍ حول رأسها ، وأحس

بضربة في قلبه . وفكر : انها جميلة ، وسحب يده فجأة .
– لقد عرفتك . كان ثمة دائماً رجل مسنّ يدفعك ، وكنت تمرّين من غير ان تنظري الى احد .
– كنت انظر اليك جيداً ، من خلال جفوني .
ورفعت رأسها قليلا ، فعرفها تماماً ، وقال :
– لم اكن لأظن قطّ أنه كان بوسعك ان تنظري اليّ . كان يبدو عليك الغنى الشديد ، وكنت تبدين فوقنا بدرجات ، وكنت احسبك نازلة في نزل « بوكير » .
قالت : – كلا ، بل كنت في « مونشاليه »
– لم اكن اتوقع ان اجدك في قاطرة للدواب .
وانطفأ الضوء وقالت :
– انني فقيرة جداً .
ومد يده وضغط بلطف على الفرو :
– وهذا ؟
فضحكت :
– هذا كل ما يبقى لي .
وكانت قد دخلت في الظلام من جديد . رزمة ضخمة ، مظلمة وبلا شكل . ولكنه كان ما يزال يحتفظ بصورتها في عينيه . وردّ يديه كتيهما الى بطنه وأخذ ينظر الى السقف . كان بلانشار يشخر بهدوء وكان المرضى قد اخذوا يتحدثون فيما بينهم ، كل اثنين ، او كل ثلاثة ، وكان القطار يجري وهو يئن . كانت فقيرة ومريضة ، وكانت ممددة في حافلة للدواب ، وكانوا يلبسونها ثيابها وينزعون ثيابها كاللعبة . كانت جميلة ، جميلة كنجمة سينمائية . بالقرب منه كل هذا الجمال المهان ، هذا الجسم النقي الملطّخ . كانت جميلة . كانت تغني على المسارح ، وكانت قد نظرت اليه من بين جفونها ، ورغبت في التعرّف

اليه . كان الامر كما لو انهم اوقفوه من جديد ، على قدميه الاثنتين.
وسألها فجأة :

ـ هل كنت مغنيّة ؟

ـ مغنيّة ؟ كلا . بل أحسن العزف على البيانو .

ـ كنت احسبك مغنية .

قالت : ـ انني نمساوية . وكل مالي هناك ، بين ايدي الالمان .
لقد تركت النمسا بعد الانشلوس .

ـ وهل كنت مريضة آنذاك ؟

ـ كنت فوق لوحة . وقد صحبني اهلي في القطار . في يوم شبيه بهذا اليوم ، ولكن الجو كان مشرقاً . وكنت ممددة عـلى مقعد في الدرجة الاولى . وكان فوقنا طائرات المانية ، وكنا نظن دائما انها ستلقي قنابل . كانت امي تبكي ، وكنت انا مرفوعـة الرأس وكنت اشعر بالسماء تثقل عليّ عبر السقف . انه آخر قطار تركوه يمرّ .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ جئت الى هنا . امي موجودة في انكلترا ، فيجب ان تكسب لنا القوت .

ـ وذلك السيد المسنّ الذي كان يدفعك ؟

فقالت بقسوة : ـ انه ابله عجوز .

ـ انت اذن وحدك ؟

ـ وحدي .

وردّد :

ـ وحدك في العالم .

وشعر بأنه قويّ وقاس كشجرة سنديان .

ـ ومتى عرفت انني أنا ؟

ـ حين حككت عود ثقابك .

ولم يكن يريد ان يستسلم لفرحه . لقد كانت هناك في الحفظ ، موازنة وغير مميزة ، شبه متروكة ، كانت هي التي تضفي على صوته هذا الاهتزاز الحامز ، ولكنه كان يحفظها لليل ، وكان يريد ان يستمتع بها وحده .

– هل رأيت النور على الجدار ؟

قالت : – نعم ، لقد نظرت اليه طوال ساعة .

– انظري ، انظري ، هذه شجرة تمر .

– او عمود تلغراف .

– القطار لا يسير بسرعة .

قالت : – نعم . هل انت مستعجل ؟

– لا ، فلسنا ندري اين نحن ذاهبون .

قالت بجذل : – طبعاً لا .

وكان صوتها يرتجف ايضاً . وقال :

– في الحقيقة ، لسنا هنا في وضع سيء جداً .

قالت : – هناك نسيم . ثم ان هذه الظلال التي تمر تسلي .

– هل تذكرين اسطورة الغار ؟

– لا ، ما هي اسطورة الغار ؟

– انهم عبيد موثقون في جوف غار ، وهم يرون ظلالاً على جدار .

– ولماذا اوثقوهم هناك ؟

– لا أدرى . ان افلاطون هو الذي كتب ذلك .

قالت بلهجة مبهمة : – آه ! نعم ! افلاطون .

وفكر في سكر : « سأعلمها من هو افلاطون » وكان يحس ببعض الألم في بطنه ، ولكنه كان يتمنى الا تنتهي الرحلة .

هز جورج مقبض الباب . وكان يرى عبر الزجاج رجلاً طويلاً ذا شارب ، وامرأة شابة ذات غلالة معقودة حول رأسها كانت تغسل

الصحون والاقـداح خلف مشرب خشبي . وكان ثمة جندي يأخذه النعاس امام طاولة ، وشد جورج بعنف على المقبض فاهتز الزجاج ، ولكن الباب لم ينفتح . ولم يكن يبدو على المرأة والرجل انهما يسمعان .

– لن يفتحوا .

والتفت : كان ثمـة رجل سمين ناضج ينظـر اليه مبتسماً . وكان يرتدي معطفاً أسود فوق بنطلون عسكري ، وطاقات ، وقبعة طرية وياقة مكسورة . فأراه جورج اللوحة : « المحل يفتح الساعة الخامسة » وقال :

– انها الساعة الخامسة وعشر دقائق .

فهز الآخر كتفه . وكان مزمار ضخم ذو قربة يثقل عـلى جنبه الايسر ، وقناع « واق » على جنبه الايمن ، وكان يباعد ما بـين ذراعيه ويرفع مرفقيه في الهواء .

– يفتحون حين يشاءون .

كانت ساحة الثكنة غاصّة بالرجال الذين تتراوح أعمارهم بـين الشباب والكهولة والذين كانوا يبدون ضجرين . وكان ثمة كثيرون منهم يتنزهون وحدهم ، وهم ينظرون الى الارض . وكان بعضـهم يرتدون معطفاً عسكرياً ، وبعضهم بنطـلوناً كاكياً ، بينما كان البعض الآخر في ثياب مدنية واحذية جديدة تصفق ارض الساحة المعبّـدة . وكان ثمة رجل طويل كان من حظه انه حصل على بذلة كاملة ، يسير بتفكّر ، ويداه في جيوب معطفه العسكري، وقبعته عـلى اذنه . وشق ملازم هذه الجموع ، واتجه بسرعة نحو الحانوت . وسأل السمين القصير وهو يشد على سيور مزماره ليدفعه خلف ظهره :

– الم تذهب لتحصل على ثياب ؟

– انهم لا يملكون بعد شيئاً .

وبصق الرجل بين قدميه :

– اما انا فقد أعطوني هذا . واني لأختنق في داخله ، والانسان يكاد يموت في هذه الشمس . اية فوضى !

وأشار جورج الى الضابط :

– هل نسلم عليه ؟

– بمَ نسلم عليه ؟ انني لا استطيع على اي حال ان ارفع له قبعتي .

وألمّ بها الضابط من غير ان ينظر اليها . فتابع جورج بعينيه ظهره الهزيل ، فأحس نفسه منهكاً . كان الحر شديداً ، وكان زجاج الابنية العسكرية مطلياً بالازرق ، وكان خلف الجدران البيضاء طرق بيضاء ، وساحات للطيران ، خضراء على مدى النظر تحت الشمس ، وكانت جدران الثكنة ترسم في وسط الحقول ساحة صغيرة جرداء مغبرة يدور فيها رجال متعبون كما لو انهم يدورون في شوارع مدينة . كانت تلك هي الساعة التي تشقّ فيها امرأته النوافذ ، فتدخل الشمس الى قاعة الطعام ؛ كانت الشمس في كل مكان ، في البيوت والثكنات والارياف ، وقال في نفسه : « الامور دئما متشابهة . » ولكنه لم يكن يعرف على الضبط ما هو متشابه . وفكر في الحرب فلاحظ انه لم يكن يخشى ان يموت . وصفر قطار في البعيد ، فأحس كما لو ان هناك من كان يبسم له ، وقال :

– اسمع .

– ما هذا ؟

– القطار .

فنظر اليه السمين القصير من غير ان يفهم ، ثم سحب منديلاً من جيبه وبدأ يمسح جبينه . وصفر القطار ثانية . كان يجري مليئاً بالمدنيين وبالنساء الجميلات وبالاولاد ، وكانت الأرياف تنسرب وديعة ، عبر الزجاج . وصفر القطار وأبطأ ، فقال شارل :

ـ سوف يقف .

وصرّت المحاور فتوقف القطار ، وسالت الحركة من شارل ، فظلّ جافاً وفارغاً كما لو انه فقد دمه ، فكان ذلك موتاً صغيراً . وقال :

ـ لا احب ان تقف القطارات .

وكان جورج يفكر في قطارات المسافرين التي تتجه الى الجنوب ، نحو البحر ، وفي البحر ، وفي مقصورات بيضاء على شاطيء البحر ، وكان شارل يحس العشب الاخضر الذي كان ينمو تحت الخشب ، بين الخطوط الحديدية ، كان يشعر من خلال الصفائح الحـديدية ، وكان يرى فوق المستطيل المضيء الذي يرتسم على الحاجز حقولاً خضراء على مدى النظر ، وكان المرج قد اخـذ القطار ، كما تأخذ كتاة الجليـد باخرة ، وكان الريف يخترق القطار الجامد من طرفيه . وكان القطار الذي سقط في الشرك يصفر ، يصفر بنواح ، وكان الصفير البعيد يمتد بشاعرية ، وكان القطار يجري على مهل ، وكان رأس جار موريس يهتز في ياقته الباجية ، وهو رجل سمين تنبعث منه رائحة الثوم ؛ وكان قد غنّى « الانترناسيونال » منذ بدء الرحلة وشرب لترين من الخمر . وانتهى به الأمر الى الاستسلام على كف موريس وهو يهذي . وكان موريس يشعر بالحر الشديد . ولكنه لم يكن يجرؤ على التحرك ، فقد كان قلبه على شفتيه بسبب هذا الحر والخمر الابيض والشمس البيضاء التي كانت تعميه عبر الزجاج المغبر ، وكان يفكر : « اود لو اكون قد وصلت » . ودغدغته عيناه ، واصبحتا كبيرتين قاسيتين ، فأغمض جفونه ، وكان يسمع دمه يضجّ في اذنيه ، وكانت الشمس تخرق جفنيه ؛ وكان يشعر بقدوم نوم ابيض يرشح عرقاً ويعمي النظر ، وكان شعر الرفيق يدغدغ عنقه وذقنه ، كان ذلك بعد ظهر احد لا امل فيه. واخرج الرجل السمين صورة من محفظته وقال.

ـ هذه امرأتي :

وكانت امرأة بلا سنّ ، كهاتيك اللواتي نراهن في الصور ، ولم يكن ثمة ما يُقال عنها .

فقال جورج :

— ان صحتها جيدة .

قال الرجل : — انها تأكل كأربعة .

وكانا جالسين احدهما مقابل الآخر ، مترددين . ولم يكن جورج يشعر بالودّ لهذا الرجل الضخم المحمر الذي كان يلهث وهو يتكلم ، ولكن كانت لديه رغبة بان يريه صورة ابنته .

— متزوج ؟

— نعم .

— اولاد ؟

فنظر اليه جورج من غير ان يجيب ، وهو يقهقه قليلاً . ثم وضع يده فجأة في جيبه ، وأخرج محفظته فتناول منها صورة مدّها له وهو يخفض عينيه :

— هذه ابنتي .

قال الرجل وهو يأخذ الصورة :

— ان لديك حذاء عالياً جميلا . وسوف يخدمك طويلا .

قال جورج في مذلّة :

— ان قدميّ مصابتان بالكنَب . اتعتقد انهم سيتركون لي الحذاء ؟

— سيكونون مسرورين اكثر مما ينبغي ، فربما لم يكن لديهم احذية للجميع .

ونظر لحظة اخرى الى حذاء جورج ، ثم انصرف عنه على مضض ، ورمى بصره على الصورة . وشعر جورج انه كان يحمرّ . وقال الرجل :

— ما اجمل هذه الطفلة ! كم وزنها ؟

قال جورج — لا ادري .

وكان يتأمل في ذهول هذا الرجل الضخم الذي كان يمسك بالصورة بين اصابعه ويُسقط عليها نظره الذي يُحيل الألوان . وقال :

– حين اعود ، فلن تعرفني .

قال الرجل : – هذا ممكن . الا اذا ...

قال جورج : – نعم ، الا اذا ...

سأل سارو : – واذن ؟ هل اذهب ؟

كان يقلّب الورقة بين اصابعه . وكان دلادييه قد بريء عود ثقاب بسكينـه ودسه بين سنّين . وكان متراكماً فوق كرسيه ، مثنياً ، لا يجيب . وردد سارو :

– هل اذهب ؟

قال بونيه على مهل : – انها الحرب . والحرب الخاسرة .

فارتعش دلادييه وألقى على بونيـه نظراً ثقيلا ، فاحتمله بونيه في براءة بعينيه الفاتحتين اللتين لا اعماق لها . وكان شامبوتيه دوريبس ورينو واقفين في الخلف ، صامتين وغير موافقين . واسترخى دلادييه تماماً . وتمتم بحركة مائعة :

– اذهب .

فنهض سارو وخرج من القاعة ، وهبط السلّم وهو يفكر انه كان مصاباً بالصداع . كانوا جميعاً هناك ، فصمتوا لرؤيته وانحلوا هيئتهم المهنية . وفكر سارو : « اية عصابة من البُلهاء ! » . وقال:

– سأقرأ عليكم البلاغ .

فحدثت ضجة ، وانتهزها ليمسح نظارتيه ، ثم قرأ :

« – استمع مجلس الوزراء الى تقارير السيد رئيس الوزارة ، والسيد جورج بونيه عن المذكرة التي سلّمها مستشار الريخ الى السيد تشمبرلين، وقد وافق بالاجماع على التصريحات التي ينوي السيدان ادوار دلادييه وجورج بونيه حملها الى الحكومة الانكليزية في لندن » .

فكر شارل : « اريد ان أغوّط » وحدث ذلك فجأة : لقد امتلأ بطنه حتى ليفيض ».

قال : — نعم ، نعم . اني من رأيك . نعم .

كان الصوتان يرتفعان متوازيين ، هادئين . وقد ود لو يلتجيء برمته الى صوته ، فلا يكون الا صوتاً ثقيلا بالقرب من الصمت الجميل ، المغنّي ، الاشقر . ولكنه كان اولا ذلك الحر ، وذلك القلق الخافق ، وتلك الرزمة من المواد المبلّلة التي كانت تقرقر في امعائه . وساد صمت ؛ كانت تحلم بالقرب منه ، ناضرة ثلجية ؛ ورفع يده في حيطة وأمرّها على جبينه اللزج ، وأنّ فجأة « هان ! »

— ماذا هناك ؟

فقال : — لا شيء . انه جاري الذي يشخر .

وكان شيء قد أخذه من بطنه كضحكة مجنونة ، هذه الرغبة المبهمة العنيفة في ان ينفتح ، وان يمطر من تحت ؛ وكانت فراشة مهووسة تخفق جناحيها بين أليتيه . وشد أليتيه فسال العرق على جبينه ، وجرى نحو اذنيه وهو يدغدغ خديه . وفكر مذعوراً : « سأفلت كل شيء »

وقال الصوت الاشقر : — اراك لا تقول شيئاً بعد .

فقال : — اني .. كنت اتساءل .. لماذا انت راغبة في التعرف اليّ ؟

قالت : — ان لك عينين جميلتين متعجرفتين . ثم اني كنت اريد ان اعرف لماذا كنت تكرهني ؟

وحرك جنبيه قليلا ليخدع حاجته ، وقال :

— كنت اكره جميع الناس لأني كنت فقيراً . ان لي مسلكاً لئيماً.

وكان الامر قد افلت منه تحت تأثير رغبته ؛ لقد انفتح من فوق ؛ من فوق او من تحت ، كان لا بد له من ان ينفتح . وردد وهو يلهث:

— مسلك لئيم . فانا حسود .

ولم يكن قد قال مثل ذلك قط ، لأي انسان . ولامست يده بطرف

اصابعها .

— لا تكرهني : فانا ايضاً فقيرة .

فجالت دغدغةٌ في قضيبه . ولم يكن ذلك بسبب الاصابع الهزيلة الحارة على ظاهر يده ، وانما كان ذلك صادراً من مكان أبعد ، من الغرفة الكبيرة العاربة ، على شاطيء البحر . كان يدق الجرس ، فتصل جانين ، وتُبعد الغطاء ، وتدس الطست تحت جنبيه وتنظر اليه يتميّع ، وتأخذ احياناً مستر جاك بين السبابة والإبهام، وكان يحب ذلك كثيراً . وها هو الآن قد رُوّض لحمه جيداً ، فاكتُسبت العادة . كانت جميع رغباته في التغويط مسمّمة باسترخاء حامز ، برغبة جذلة بان ينفتح تحت نظر . بان ينفغر تحت عيون ممتهنة . وفكر : « هذا انا » وانتـــابه الخوف . كان يشمئز من نفسه ، ونفض رأسه فأحرق العرق عينيه . « تُرى ، ألن يسير القطار » . لو عادت الحافلة الى السير ، لخيّل اليه انه كان يُنتزع من نفسه ، ولكان يخنُف في مكانه رغبته المشتبهة الأليمة ، ولكن يتماسك فترة اخرى . وخنق أنّة جديدة : كان يتألم، وكن يوشك ان يتمزّق كقطعة من قماش ؛ وأغلق في صمت يده على اليد الرقيقة الهزيلة . « يدان من معجون اللوز تأخذان مستر جاك في براعة ، فيبتهج مستر جاك مسترخياً ، ورأسه مائلٌ قليلاً ، فتاة تعمل في حانوت لبيع اللحوم تأخذ بين أصابعها مصراناً موضوعاً على سرير مرّقه المجمّد . عارياً ، مشقوقاً ، مرئياً . قشرة منفجرة . إنه الربيع » . فظاعة ؟ كان يكره جانين .

وقال الصوت : — ما أشدّ الحرارة في يديك .

— اني محموم .

وأنّ احدهم بلطف تحت الشمس ، مريضٌ من المرضى ممدّدٌ باقرب من الباب . ونهضت الممرضة فاتجهت نحوه وهي تتجاوز الأجسام. ورفع شارل ذراعه اليسرى وحرّك مرآته بسرعة ، فالتقطت المرآة الممرضة

فجأة ، وهي منحنية على مراهق ضخم ذي خدين احمرين واذنين متباعدتين. وكان يبدو آمراً مستعجلا . ونهضت ثانية وعادت الى مكانها ، فرآها شارل تبحث في حقيبتها ، وواجهتهم وهي تمسك مبولة بين أصابعها . وسألت بصوت مرتفع :

— أليس هناك من راغب ؟ اذا كان هناك من يرغب ، فالأفضل أن يقول في اثناء التوقف لأن ذلك أنسب . والمهم الا تماسكوا ، ولا يخجل بعضكم امام البعض الآخر . فليس هنا رجال ولا نساء ، ليس هنا الا مرضى .

وأجالت فيهم نظرها القاسي ، ولكن لم يجب احد . وتناول الفتى الضخم المبولة في شراهة واخفاها تحت غطائه . وكان شارل يشد بقوة على يد صديقته . وكان حسبه ان يرفع صوته ، ان يقول : « انا ، انا ، راغب » . وانحنت الممرضة ، فتناولت المبولة ورفعتها . وكانت تلمع في الشمس ، وهي ملأى بماء جميل أصفر ومزبد . واقتربت الممرضة من الباب ، واطلّت الى الخارج ؛ ورأى شارل ظلّها على الحاجز ، وقد رفعت ذراعها ، فبرز على المستطيل المضيء . وكانت تميل المبولة ، فيفلت منها ظلّ مائع ذو شرر . وقال صوت ضعيف :

— يا سيدتي .

قالت : — آه ، لقد قررتم ؟ هأنذا قد جئت .

سيستسلمون الواحد بعد الآخر ؛ سوف تماسك النساء اطول مما يماسك الرجال . انهم سيتنتون جاراتهم ؛ فهل يجرؤون بعد ذلك على محادثتهن ؟ وفكر : « القذرون ! » وحدثت حركة على الارض ، نداءات مهموسة ، خجلة ، كانت ترتفع من جميع الزوايا . وعرف شارل بعض اصوات النساء . وقالت الممرضة :

— انتظروا . لكل دوره .

« ليس هنا الا مرضى » . انهم يحسبون كل شيء مسموحاً به لأنهم

مرضى : لا رجال ولا نساء : وانما مرضى : كان يتألم ، ولكنه كان فخوراً بان يتألم : لن استسلم ؛ انني انا ، رجل . وكانت الممرضة تتنقّل بينهم ، وكان يُسمع صوت حذائها يطق على الخشب ، وبين لحظة واخرى ، دَعْك ورق . وكانت رائحة تفهةٌ حارة تملأ القاطرة، وفكر وهو يتلوّى من العذاب : « لن استسلم » .

قال الصوت الاشقر — يا سيدتي .

وحسب انه لم يسمع جيداً ، ولكن الصوت ردد النـــداء ، وهو خجولٌ يغنّي :

— ياسيدتي ! يا سيدتي ! هنا .

قالت الممرضة — هأنذا .

والتوت اليد الدقيقة الحارة في يد شارل ثم افلتت منه . وسمع طقّة حذاء . كانت الممرضة فوقها ، هائلة قاسية ، ملاكاً . وقال الصوت المبتهل :

— أدِرْ وجهك .

ثم همست مرة اخرى . « ادر وجهك » . فادار رأسه ، وود لو يسد اذنيه وأنفه . وغطست الممرضة ، في رفيف هائل لطيور سوداء، فاظلمت منها مرآته . ولم ير بعد شيئاً . وفكر . « هذه مريضة » : ولا بد انها كانت قد ألقت عنها فروها . فقد غطت لحظة عطرٍ كل شيء ، ثم نفذت شيئاً فشيئاً رائحة زنخة قوية افعمت منخريه . هـــذه مريضة ، هذه مريضة ؛ كانت البشرة الجميلة للنساء مشدودة على اعصاب مائعة ، على امعاء متقيّحة . وتردد ، متوزعاً بين الاشمئزاز وبين رغبة قذرة . ثم اقفل على نفسه ، دفعةً واحدة ، فانغلقت احشاؤه كالقبضة ، ولم يشعر بعد بجسمه . هذه مريضة . كانت جميع الرغبات والشهوات قد امحت ، وكان يحسّ نفسه نظيفاً جافاً ، فكأنما قد استعاد صحته كلها . مريضة ، وفكر في حب : « لقد قاومت ما وسعها » واندعكت

الورقة ، ونهضت الممرضة ، وكانت بضعة اصوات تناديها من الجهة الاخرى من الحافلة . اما هو ، فلن يناديها ابداً ؛ كان يطفو على بعد بضعة بوصات من الارض ، فوقهم . انه لم يكن شيئاً من الاشياء ، لم يكن طفلاً رضيعاً.وفكر في دقة شديدة جداً حتى ان الدموع ترقرقت في عينيه : « لم تستطع ان تقاوم » وكانت قد كفت عن الكلام ، ولم تكن تجرؤ بعد على ان توجه اليه الحديث ؛ انهـا خجلة . وفكر في حب : « سأحميها » . وقوفاً ، وقوفاً ، منحنياً فوقها ، متأملاً وجهها الشارد العذب . وكنت تلهث قليلا ، في الظل . ومد يده وأمرّها في تلمس على الفرو . وتشنج الجسم الفتيّ ، ولكن شارل القى يداً فأمسك بها . وقاومت اليد ، فجذبها الى قربه ، وكان يضغط عليها بكل قواه. مريضة . وكان هو هناك ، جافاً وقاسياً ، متحرراً ، سوف يحميها . وسألها :

— ما هو اسمك ؟

قل شمبرلن نافذ الصبر : — ولكن ، اقرأ .

فأخذ لورد هاليفاكس رسالة مازارياك وأنشأ يقرأ ؛ وفكر شمبرلن: « لا حاجة به الى قراءتها بلهجتها » وقرأ هاليفاكس :

« لقد درست حكومتي الآن الوثيقة والخارطة . انه انذار « على » كالانذار الذي يوجـه عادة الى دولة مهزومة ، وليس هو عرضاً على دولة ذات سيادة اظهرت كل الاستعدادات الممكنة للقيام بتضحيات من اجل تهدئة اوروبا . ولكن السيد هتلر لم يُظهر بعد ادنى اثر لمثل هذا الاستعـداد للتضحية . وان حكومتي تعجب من محتوى المذكرة . فالاقتراحات تتجاوز ما اقررناه فيما سمي بالمشروع الانكلو فرنسي . وهي تحرمنا من جميع ضمانات المحافظة على وجودنا القومي . فعلينا ان نتنازل عن قواعد واسعة من تحصيناتنا المعدة بدقة ، وان نترك للجيوش الالمانية ان تدخل الى اماكن عميقة من ارضنا ، قبل ان نكون قد تمكنا من

تنظيمها على اساس جديد، او استطعنا ان نقوم بأقل التجهيزات الدفاعية. وان استقلالنا الوطني والاقتصادي سيزول آلياً مع تبني مشروع السيد هتلر . وخطة نقل السكان ستتحول الى ازمة قوية بالنسبة لجميع الذين لن يقبلوا النظام النازي الالماني . فعليهم ان يتركوا منازلهم حتى من غير ان يكون لهم الحق بنقل ممتلكاتهم الخاصة ، حتى ولا ابقارهم ، اذا كانوا من الفلاحين .

« وان حكومتي تتمنى ان اعلن بكل صراحة ان مطالب السيد هتلر بشكلها الحالي لا يمكن قط ان تكون مقبولة ، وتحس حكومتي بانها تجاه هذه المطالب الجديدة الطاغية ستلتزم مقاومة عظمى ، وسوف نفعل ذلك بمعونة من الله . ان امة القديس وانسسلاس وجان هوس وتوماس مازارياك لن تكون امة عبيد. ونحن نعول على الدولتين الديموقراطيتين الغربيتين الكبيرتين اللتين تبعنا مشيئتهما ضد اجتهادنا الخاص لتكونا الى جانبنا في ساعة محنتنا » .

وسأل شمبرلن : — هذا كل شيء ؟

— هذا كل شيء .

قال : — ها نحن ذا اذن امام مصاعب جديدة .

ولم يكن اللورد هاليفاكس يجيب ، وكان واقفاً باستقامة كأنه تمثال ، متحفظاً محترماً . وقال شمبرلن بجفاء :

— ان الوزراء الفرنسيين قادمون بعد ساعة . وانا اجد هذه الوثيقة على اقل تقدير ... في غير أوانها .

فسأل هاليفاكس في لهجة تهكم :

— اتعتقد ان من شأنها ان تؤثر على مقرراتهم ؟

فلم يجب الشيخ ، واخذ الورقة بيديه وجعل يقرأ وهو يمهمم. وصرخ فجأة مغتاظاً :

— الابقار ! ما شأن الابقار هنا ؟ ان هذا اخرق الى حد بعيد .

قال اللورد هاليفاكس : – لا اجد ذلك اخرق الى هذا الحد . بل لقد تأثرت شخصياً .

قال الشيخ في ضحكة قصيرة .

– تأثرت ؟ اننا يا عزيزي نعالج قضية . والذين سيتأثرون سيخسرون اللعبة .

أقشة حمراء ووردية وبنفسجية ، أثواب بنفسجية ، اثواب بيضاء ، صدور عارية ، نهود جميلة تحت المناديل ، بقع من الشمس على الطاولات ، أيد ، سوائل لزجة ومذهبة ، أيد اخرى ، افخاذ نابعة من السراويل القصيرة ، اصوات مرحة ، اثواب حمراء ووردية بيضاء ، اصوات مرحة تدور في الهواء ، افخاذ ، فالس « الارملة الطروب » ، رائحة الصنوبر ، رمل حار ، رائحة البحر المعطرة ، جميع جزر العالم غير المرئية والحاضرة في الشمس ، الجزيرة تحت الريح ، جزيرة الفصح ، جزائر ساندويش ، حوانيت فارهة على طول الشاطيء ، مشمع السيدة ذو الثلاثة آلاف فرنك ، الدبابيس ، الزهور الحمراء والوردية البيضاء ، الايدي ، الافخاذ : « الموسيقى صادرة من هنا » ، الاصوات المرحة التي تدور في الهواء ، سوزان ونظامك ؟ آه ، طز ، ولو لمرة . الاشرعة فوق البحر والمتزلجون الذين يقفزون واذرعتهم ممدودة ، من موجة الى موجة ، رائحة الصنوبر في نفحات ، السلام : السلام في جوان ليبان . كان باقياً هناك ، مسترخياً ، منسياً ، يحمز طعمه . وكان الناس يتداعون فيه للاسترخاء ، وكانت اشواك من الالوان وغابات من الموسيقى تخفي عنهم قلقهم الصغير المرتبك ؛ وكان ماتيو يمشي بهينة على ارصفة المقاهي ، وارصفة الحوانيت ، والبحر الى شماله . ولم يكن قطار غوميز ليصل الا في الثامنة عشرة وسبع عشرة دقيقة ؛ وكان ينظر الى النساء ، على مألوف عادته ، والى افخاذهن المسالمة ، والى نهودهن المسالمة . ولكنه كان على خطأ ، انه منذ الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة على خطأ :

ففي الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة انطلق قطار الى مارسيليا . اني لست هنا بعد ، فانا في مرسيليا ، في مقهى من مقـاهي جادة « لاغار » انتظر قطار باريس ، انني في قطار باريس . انني في باريس ذات صباح مشمس ، انا في ثكنة ، ادور وادور في باحة الثكنة ، في « ايسي ليناسي » . وفي ايسي ليناسي كف جورج عن الكلام ، لانه كان مضطراً الى رفع صوته جداً ، ورفعوا رؤوسهم ، وكانت الطائرة تلامس السطوح في هدير راعد ، وتابع جورج الطائرة ، فوق الجدران ، فوق السطوح ، فوق نانسي ، في « نيورت ، كان في نيـورت ، في غرفته مع الصورة ، وفي فمه ذلك المذاق من الغبار . ما عساه يقول لي ؟ سينبثق من القطار ، نشيطاً اسمر كمصطافي جوان ليبان ، اني الآن في مثل سمرته ، ولكن ليس لدي ما اقوله له . كنت في طليطلة ، وفي غواد الاجارا ، وماذا كنت تفعل ؟ كنت اعيش .. كنت في مالاغا ، وقد تركت المدينة مع آخر من تركها ، وماذا فعلت ؟ لقد عشت . وفكر في انزعاج ، آه ، انه صديق ، هذا الذي انتظره ، وليس هو قاضياً على اي حال . كان شارل يضحك ، ولم تكن تقـول شيئاً ، كانت ما تزال خجلة بعض الشيء ، وكان يمسك بيدها ويضحك ، وقل لها في رقة . « ان كاترين اسم جميل » . هو محظوظ ، في آخر المطاف ، فلقد خاض الحرب في اسبانيا ، استطاع ان يشارك فيها ، بلا اسلحة ، بل هناك قنابل وديناميت ضد الدبابات ، اعشاش نسور «سيارا» ، الحب في فنادق مدريد المقفرة ، الدخان الشخصي اليسير في السهل ، المعـارك الفردية ، ان اسبانيا لم تخسر رائحتها ؛ اما انا ، فتنتظرني حرب حزينة ، حرب احتفالية ضجرة ؛ فضد الدبابات المدافعة ، تقوم حرب جماعية وتكنيكية ، وباء . وكانت اسبانيا هنا ، خطأ يعدو بعيداً على صفحة الماء الزرقاء . وكانت مود مرتفقة المترسة تنظر الى اسبانيا . انهم يقاتلون هناك . وكانت البـاخرة تنزلق في محاذاة الشاطيء ؛

انهم هناك يسمعون المدفع ؛ وكان هدير الموج يُسمع ، وتقفزت سمكة طائرة خارج الماء . كان ماتيو يسير باتجاه اسبانيا ، البحر الى يساره ، وفرنسا الى يمينه . وكانت مود تنزلق في محاذاة الشاطيء ، الجزائر الى يسارها ، وهي محمولة نحو اليمين ، نحو فرنسا . وكانت اسبانيا ذلك النَفَس الملتوي وذلك الضباب . كانت مود وماتيو يفكران في الحرب الاسبانية ، وهذا ما كان يريحها من الحرب الاخرى ، الحرب الجنزارية التي تُعَدّ الى يمينها . كان ينبغي الانزلاق نحو جدار الخرائب، والطواف به ثم العودة ، واذ ذاك تُنجز المهمة . كان المراكشي يزحف بين الاحجار المسودة ، وكانت الارض حارة ، وكان ثمة رملٌ تحت أظافر يديه وقدميه ، وكان خائفاً يفكر في طنجه ، ففي اعلى طنجه كان ثمة بيت اصفر بطابق واحد يُرى منه التماع البحر السرمدي . وكان يسكنه زنجي ذو لحية بيضاء ، كان يضع في فمه حيات ليسلي الانكليز . كان ينبغي التفكير بهذا البيت الاصفر . كان ماتيو يفكر باسبانيا ، وكانت مود تفكر باسبانيا ، وكان المراكشي يزحف على ارض اسبانيا المشققة، كان يفكر بطنجه ويحس نفسه وحيداً . وانعطف ماتيو في طريق مغمية، وتهاوت اسبانيا واشتعلت ، فلم تكن بعد الا بخار نار غير متميز ، الى يساره : نيس الى اليمين ، وفيما وراء نيس ، ثقب ، هو ايطاليا . المحطة قبالته ؛ قبالته فرنسا والحرب ، الحرب الحقيقية ، نانسي . كان في نانسي ؛ كان ، فيما وراء المحطة ، يسير نحو نانسي . ولم يكن به عطش ، ولم يكن يشعر بالحر ، ولم يكن تعباً . كان جسمه تحته ، غفلاً وقطنياً ؛ الالوان والاصوات ، اشراقات الشمس ، كانت الروائح تأتي لتدفن نفسها في جسمه ؛ وهذا كله لم يكن يعنيه بعد . وفكر : هكذا يحس المرء حين يداهمه المرض . ونقل فيليب صندوقه الصغير الى يده اليسرى ، كان مرهقاً ، ولكن كان عليه ان يقاوم حتى المساء : سأنام في القطار . وكانت سطيحة « تور دارجان » تطنّ كالخلية ،

اثواب حمراء ووردية وبنفسجية ، جوارب من الحرير الصناعي، خدود محمرة ، سوائل مسكّرة ، حشدٌ مائعٌ لزج ، وكان قلبه ينبض بالشفقة : سوف يُنتزعون من المقاهي ومن غرفهم ، ومعهم سنقوم الحرب . كان مشفقاً عليهم ، وكان مشفقاً على نفسه ؛ كانوا يتألمون في النور وهم لزجون مكتظّون،يائسون. واخذ فيليب فجأةً دوار من التعب والكبرياء: انني ضميرهم .

مقهى آخر .كان ماتيو ينظر الى هؤلاء الرجال السمر الممتلئين الانيقين، فكان يشعر بأنه منفصل. كان الكازينو الى يمينهم ، والى يسارهم البريد، وخلفهم البحر ؛ هذا كل شيء . نفرنسا واسبانيا وايطاليا مصابيح لا تضيء لهم ابداً . انهم هنا مركومون جميعاً ، والحرب شبح؛وفكر: انني شبح، سوف يكونون ملازمين ورؤساء، وسينامون في السرر ، وسيحلقون ذقونهم كل يوم ، ثم ان كثيرين منهم سيعرفون كيف يبتعدون عن خط النار . ولم يكن ليأخذ عليهم ذلك . فما الذي كان يمكن ان يمنعهم من ذلك ؟ أهو التضامن مع الذين يذهبون الى الحرب ؟ ولكني انا ذاهب الى الحرب . ولا اطلب اي تضامن . وفكر فجأة . ولكن لماذا اذهب اليها ؟ صاح فيليب وقد دفعه احدهم « انتبه ! » ، وانحنى ليلم صندوقه ، ولم يتنازل الشخص الطويل ذو الحذاء البالي الى الالتفات . فتمتم فيليب : « وحش ! » وواجه المقهى ، ونظر الى الناس بعينين مريعتين . ولكن لم يكن ثمة من لاحظ الحادث . وكان ثمة طفل يبكي، وكانت امه تمسح له عينيه بمنديل ، وعلى الطاولة المجاورة ، كان ثلاثة رجال جالسين امام اقداح من عصير الليمون ، والارهاق بادٍ عليهم . وفكر وهو يجيل نظره النافذ في الحشد. انهم ليسوا ابرياء الى هذا الحد. لماذا يذهبون ؟ ليس عليهم الا ان يقولوا لا . وكانت السيارة تجري . وكان دلادييه غارقاً في الوسائد يمصُّ سيجارة مطفأة وهو ينظر الى المارّة .

وكان يغيظه ان يذهب الى لندن ، سوف يأكل كالخنزير، وكانت امرأة متطايرة الشعر تضحك فاغرة الفم ، وفكر : « انهم لا يدركون » وهز رأسه ، وفكر فيليب : « يأخذونهم الى المسلخ ولا يدركون . انهم يتقبلون الحرب كما يتقبّلون المرض . الحرب ليست مرضاً . إنها شرٌ لا يحتمل لانه يصدر عن الناس ويتجه الى الناس . » ودفع ماتيو الباب الصغير ، وقال للموظف : « انني في انتظار صديق » . وكانت المحطة ضاحكة وصامتة كالمقبرة . لماذا تراني اذهب اليها ؟ وجلس على مقعد أخضر . هناك من يرفض الذهاب . ولكن ليس هذا من شأني : يرفضون او يشبكون أذرعتهم او يهربون الى سويسرا . لماذا ؟ انني لا افهم ذلك وهذا ليس من شأني . وحرب اسبانيا نفسها لم تكن من شأني ولا الحزب الشيوعي . وتساءل في نوع من القلق : فما هو من شأني إذن ؟ كانت الخطوط الحديدية تلتمع ، سوف يأتي القطار من الشمال . والى الشمال ، في البعيد ، تلك البحيرة اللامعة ، حيث تلتقي الخطوط، كانت تولون ومارسيليا وبوربو واسبانيا . حرب لا معقولة ، وغير مبررة ، ويقول جاك انها خسارة سلفاً . وفكر : الحرب مرض . وشأني ان احتملها كالمرض . من أجل لا شيء . بدافع من النظافة . سأكون مريضاً شجاعاً ، هذا كل ما في الامر . لماذا احوضها ؟ انني لا اقرها . ولماذا لا اخوضها ؟ ان جلدي لا يستحق حتى ان يُنقذ. وفكر : هكذا ، هكذا : انني مسوق ! موظف . والذي كانوا يتركونه له ، انما هو صمود الموظفين الحزين ، اولئك الذين يحتملون كل شيء ، الفقر والمرض والحرب ، احتراماً منهم لأنفسهم . وابتسم، وقال في نفسه : « حتى هذا لا : انني لا احترم نفسي . » وفكر فيليب : « شهيد ، انهم بحاجة الى شهيد . » كان عائماً ، وكان يسبح في التعب، ولم يكن ذلك غير لذيذ، ولكن كان ينبغي الاستغراق فيه ، كل ما هنالك انه لم يكن يرى بعد بتبصّر ، فقد كان الى يمينه

والى يساره مصراعان يسدان عليه الطريق . كان الجمع يحاصره ، وكان الناس يخرجون من كل مكان ، وكان أولاد يعدون بين ساقيه ، وكانت سحن تطرف عيونها من الشمس تنزلق فوق رأسه ، تحت رأسه، السحنة نفسها دائماً ، مهتزة ، متهادية من امام الى وراء ، نعم – نعم – نعم نعم ، سوف نقبل هذه الرواتب المجوعة ، نعم ، سنذهب الى الحرب نعم ، سندع ازواجنا يذهبون ، نعم سنقف في الصف امـــام المخابز واولادنا بين اذرعتنا . الجمع ، كان الجمع ، هـــذا القبول الهائل الصامت . وفكر فيليب ، وخده ملتهب : واذا شرحت لهم حطّموا رأسك ، وركلوك باقدامهم في غضب ، وهم يصرخون : نعم . كان ينظر الى هذه الوجوه الميتة ، ويقيس عجزه : لا يمكن ان نقول لهم شيئاً ، فانماهم بحاجة الى شهيد . الى من ينتصب دفعة واحدة عـــلى أطراف أصابعه، ويصرخ : « لا » فيرتمون عليه ويمزقونه . ولكن هذا الدم المراق من اجلهم ، وعلى ايديهم ، سيمنحهم قوة جديدة ، فتعمر نفوسهم روح الشهيد ، وسيرفعون رؤوسهم ، من غـــير ان تطرف عيونهم ، ويتدحرج هدير رفض من طرف الجمع الى طرفه الآخر ، كالرعد . وفكر : وانا هو هذا الشهيد . وغمرته فرحةُ معذَّب ، فرحة أشد من ان تُحتمل ، فانحنى رأسه ، وترك الصندوق ، وسقط على ركبتيه ، وقد ابتلعته الموافقة العامة .

وصاح ماتيو : – مرحبا .

وكان غوميز يركض اليه ، عاري الرأس ، ما يزال على جماله ؛ وكانت على عينيه غمامة تجعله يخفض جفونه، اين انا ؟ وكانت أصوات تقول فوقه : « ما به ؟ انه مصاب بدوار ، مـــا هو عنوانك ؟ » وكان رأس ينحني فوقه ، رأس امرأة عجوز ، أتراهـــا ستعضني ؟ عنوانك ! كان ماتيو وغوميز يتبادلان النظر وهما يضحكان من فرط الجذل ، عنوانك ، عنوانك ، وبذل جهداً عنيفاً ونهض . كان يبتسم ، وقال :

— ولكن ليس ثمة شيء يا سيدني ، وانما هو الحر . اني اسكن قريباً جداً ، وسأعود الى البيت .

وقال احدهم خلفه ..

— يجب ان يرافق ، فهو لا يستطيع ان يعود وحده(وضاع الصوت في هسيس اوراق) : نعم ، نعم ، نعم ، يجب ان يرافق ، يجب ان يرافق .

وصاح : — دعوني ، دعوني لا تمسوني . كلا ! كلا ! كلا ! كلا ! (ونظر اليهم مواجهة ، نظر الى عيونهم المتعبة ، المندهشة ، موصاح :) « كلا » كلا للحرب ، كلا للجنرال ، كلا للأمهات المذنبات ، كلا لزيزيت وموريس ، كلا ، دعوني وشأني . وابتعدوا ، فأخذ يركض بحذاء من رصاص . كان يركض ويركض ، فوضع احدهم يده على كتفه ، فحسب انه سينفجر باكياً . كان شاباً نضراً ذا شارب صغير ، مد له صندوقه الصغير ، وقال وهو يضحك :

— لقد نسيت صندوقك .

وتوقف المراكشي : كانت حية ظنها غصناً ميتاً . حية صغيرة ، تحتاج الى حجر لسحق رأسها . ولكن الحية التوت فجأة ، وثلمت الارض بومضة سمراء ثم اختفت في الحفرة . وكان ذلك بشيراً ، لم يكن ثمة شيء يتحرك خلف الجدار . وفكر : ستهدأ نفسي .

وأمسك ماتيو بكتفي غوميز قائلا :

— مرحباً ، مرحبا كولونيل !

فبسم غوميز بسمة متكبرة غامضة ، وقال :

— بل جنرال .

فترك ماتيو يديه تسقطان :

— جنرال ؟ هكذا اذن ، انكم تتقدمون هناك بسرعة .

فقال غوميز من غير ان يكف عن الابتسام :

— ان الملاكات ناقصة . ما أشد سمرتك يا ماتيو !

فقال ماتيو منزعجاً :

— انها سمرة الرفاهية،يكسبها الانسان على الشواطيء ، حين لا يفعل شيئاً .

وكان يبحث على يدي غوميز ووجهه آثار تجاربه ومحنه ؛ وكان مستعداً لجميع الوان الندم . ولكن غوميز لم يكن يسلم نفسه بهذه السرعة وهو في حيويته ودقته وبذلته الفلانيل وجسمه الصغير المركوم : فقد كان يشبه في تلك اللحظة مصطافاً .

وسأل : — اين نذهب ؟

قال ماتيو : — سنبحث عن مطعم صغير هاديء . انني اسكن في منزل أخي وزوجته ، ولكني لا ادعوك الى تنـاول العشاء عندهما : فليسا هما طريفين .

قال غوميز :

— اريد مكاناً فيه موسيقى ونساء (ونظر الى ماتيو في غير احتراس وأضاف) لقد قضيت ثمانية ايام مع الاسرة .

قال ماتيو : — آه ، حسنا . سنذهب اذن الى « البروفنسال » .

وكان الخادم ينظر اليهما قادمين من غير قسوة ، في هيئة مهنيّة : وكان واقفاً بجمود ، مقوس الظهر قليلا، بين موزعيّ القسائم الآليتين، وكانت الشمس تحمر بندقيته وقبعته . فناداهما لدى مرورهما .

— الى اين ؟

قال موريس :

— « ايسى ليناسي »

— تخرج فتأخذ الترام الى يسارك وتهبط الى آخر الخط .

وخرجا . وكانت ساحة كثيبة كالتي ترى امـام المحطات ، وفيها مقاه وفنادق ، وكان في السماء دخان . وقال دورنيه وهو يتنهد :

— من الضروري تحريك السافين .

ورفع موريس رأسه وابتسم وهو يطرف بعينيه . قال بيبير :

— ليس هناك من الترامات اكثر مما هناك من الزبدة في الاست !

ونظرت اليهما امرأة في ودّ :

— انه لم يصل بعد ! الى اين انتما ذاهبان ؟

قال موريس : — الى ايسى لينانسي .

— لا بد ان تنتظر ربع ساعة طويلة . فهو يمر كل عشرين دقيقة .

قال دورنيه لموريس : — امامنا وقت لشرب قدح .

كان الجو رطبا ، وكان القطار يجري ، وكان الهواء أحمر ، وأخذته رعشة سعادة فشدّ غطاءه . وقال « كاترين ! » فلم تجب . ولكن شيئاً ما لامس صدره ، عصفوراً ، وصعد على مهل الى عنقه ، ثم طار العصفور وحط فجأة على جبينه . كانت يدها ، يدها الرقيقة المعطرة ، وقد انسربت على انف شارل ، ولامست الاصابع الخفيفة الشفتين . وكان ذلك يدغدغه . وتناول اليد وشدها الى فمه . كانت دافئة ، وامسك المعصم بأصابعه فاحس خفق النبض . وكان مغمضاً عينيه ، يقبل هذه اليد الدقيقة والنبض يخفق تحت أصابعه كقلب عصفور ، وضحكت « كما لو اننا كنا من العميان : التعرف يحدث بالأصابع . » ومد ذراعه بدوره ، وكان يخشى ان يؤذيها ، ولمس قضيب المرآة الحديدي ثم لمس شعراً متدلياً على الغطاء ، أشقر في اطراف اصابعه ، ثم صدغاً ووجنة ، رقيقة ريا كجسم امرأة برمته ، ثم نشق أصابعه فم حار ، وعضتها اسنان ، بينما كان ألف عقرب تنمله من خاصرتيه حتى رقبته ، وقال : « كاترين ! » وفكر : « اننا نتضاجع » وتركت يده وتنهدت ، ونفخ موريس على قدحه فاطار الزبد الى الارض وشرب وقالت : « ما هي تلك القوارب التي ينام فيها الناس جنباً الى جنب؟» وشرق موريس شفته العليا فلحسها وقال : « انها منعشة ! » قال شارل:

« لا ادري ، لعلها قوارب الغندول ؟ »«لا ، ليس الغندول ، على كل حال ، لا بأس ، سنكون في احد هذه القوارب . » فأخذ يدها ، ودلفا جنباً الى جنب ، فوق المـــاء ، وكانت عشيقته ، النجمة ذات الشعر الذهبي الاصفر ، وكان رجلاً آخر ، وكان يحميها . وقال لها: « أود لو ان القطار لا يصل ابداً » . كان دانيـــال يعض ريشته ، وطُرق الباب ، فأمسك نَفَسه ، وكان ينظر الى الورقة البيضاء عـــلى القرطاس من غير ان يراها . وقال صوت مارسيل : « دانيال ! هل انت هنا ؟ » فلم يجب ، وابتعدت خطى مارسيل الثقيلة ، كانت تهبط السلم ، وكانت الدرجات تطق واحدة واحدة ، وابتسم ، وغط ريشته في الحبر وكتب : « عزيزي ماتيو » يد مشدودة في الظل ، هسيس ريشة ، وجه فيليب يخرج من الظل ويأتي للقـــائه ، أصفر في ظلمات المرآة ، حركة اهتزاز صغيرة ، البيرة المثلجة تقرقر في حنجرته وتقطع صفرته . السيارة القاطرة تجتاز ثلاثة وثلاثين متراً بين باريس وروان ، لحظة انسان ، وثلاثة على الالف من لحظة الساعة العشرين من الرابـــع والعشرين من ايلول ١٩٣٨ ، لحظة ضائعة ، متدحرجة خلف شارل وكاترين في الريف الحار ، بين الخطوط ، خلفها موريس في نشارة القهوة المظلمة الرطبة ، سابحة في الثلم الذي تركه قارب شركة « باكيه» مأخوذة في بحيرات الحبر الرطب ، لامعة ومتجففة بين ساقيْ حرف M في اسم ماتيو . فيما تحك الريشة الورق وتمزقه ، بينما يمص دالاديه ، وهو غارق في الوسائد ، سيكارة مطفأة وهو ينظر الى المـــارة . كان يزعجه ان يكون في لندن ، وكان يدير بعناد عينيه نحو الباب حتى لا يرى وجه بونيه القذر ، والوجه المغلق لهذا الانكليزي الحمار ؛ كان يفكر « انهم لا يدركون ! » ورأى امرأة مبعثرة الشعر تضحك فاغرة الفم . وكانوا جميعاً ينظرون الى السيارة بهيئة لا معبرة ، وكان بينهم اثنان او ثلاثة يصيحون « هوراه ! » ولكنهم لم يكونوا بالتـــأكيد

يدركون ان السيارة السوداء التي كانت تجري في طريق لنــدن وهي تمرّ ، انما كانت تحمل الحرب والسلم الى داوننغ ستريت، الحرب أو السلم ، وجه الفلس او قفاه . كان دانيال يكتب . وكان الربـــان قد وقف امام باب صالة الدرجة الاولى ليقرأ « هـــذا المساء في الساعة التاسعة ، تقدم جوقة بابيس النسائية حفلة سمفونية في الدرجة الاولى . جميع المسافرين، بلا تمييز في الدرجة ، مدعوون الى حضورها بترحاب.» وتنشق نفَساً من غليونه وفكر : « انها أهزل مما ينبغي » وفي تلك اللحظة بالذات شم عطراً دافئاً ، وسمع خفق أجنحة صغيراً ، وكانت هي مود، فالتفتت ، وفي مدريد كانت الشمس الغـــاربة تذهّب الواجهة الخربة « للمدينة الجامعية » ، وكانت مود تنظر اليه ، فخطا خطوة ، وكان المراكشي يدلف الى الخرائب ، وصوب اليه البلجيكي ، وكانت مود والربان يتبادلان النظر . ورفع المراكشي رأسه فرأى البلجيكي ، فتبادلا النظر ، ثم فجأة بسمت مود بسمة جـــافه وأدارت رأسها ، وضغط البلجيكي على الزناد ، فمات المراكشي ، وخطا الربان خطوة نحو مود ثم فكر : « انها اهزل مما ينبغي » وتوقف . قال البلجيكي « ايهـــا القذر الملعون ! » وكان ينظر الى المراكشي الميت ويقول « ايها القذر الملعون ! »

قال غوميز : — اذن ، ومارسيل ؟ لقد قالت لي ساره ان الأمر قد انتهى ؟

قال ماتيـو : — نعم ، لقد انتهى ، وتزوجت دانيال ؟

قال غوميز : — دانيال سيرينو ؟ انها فكرة عجيبة . على كل حال ، لقد تحرّرت .

قال ماتيـو : — تحرّرت ، تحررتُ ممّ ؟

قال غوميز : — لم تكن مارسيل تناسبك .

قال ماتيـو : — ربما ! يعني !

وكانت الطاولات المغطاة بالخوانات البيضاء تحيط في شكل نصف دائرة حلبة رملية مزروعة بالصنوبر . وكان مقهى «البروفنسال» مقفراً، وكان ثمة رجلٌ واحد يأكل جناح دجاجة وهو يشرب ماء فيشي ؛ وصعد الموسيقيون باسترخاء الى المنصة ، وجلسوا في صخب للكراسي كبير ، وأخذوا يهمسون فيما بينهم ، بينما هم يوترون آلاتهم ، وكان البحر ما يزال يُرى اسود عبر شجر الصنوبر . ومد ماتيو ساقيه تحت الطاولة وشرب جرعة بورتو ؛ للمرة الأولى منـــذ ثمانية ايام ، كان يشعر أنه في بيته ، وكان قد تجمع دفعة واحدة ، فأقام برمته في هذا المكان الغريب الذي كان نصفه صالة خاصة والنصف الآخر من الخشب المقدس . وكان شجر الصنوبر يبدو مقتطعاً في ورق مقوى ، وكانت المصابيح الوردية الصغيرة ، في وسط الليل الطبيعي الرقيق ، تسيل على الخوان ضوء بهو نسائي أنيق ، وأضـــاء بين الاشجار مطلقٌ للأشعة، فبيّض الحلبة فجأة فبدت من الاسمنت . ولكن كانت فوق رؤوسهم تلك الغيبة ، وفي السماء النجوم التي تشبه حيوانات صغيرة مجهـــدة ، وكانت ثمة تلك الرائحة الصمغية ، ثم ريح البحر تلك متحركة قلقة ، كأنها روح مرهقة ، تتطاير لها الخوانات وترسل دفعـــة واحدة خطمها البارد في عنقك ؛

قال ماتيو : — لنتحدث عنك.

فبدا غوميز مندهشاً ، وسأل :

— الم يحدث لك شيء آخر ؟

قال ماتيو : — لا

— منذ عامين ؟

— لا . ستجدني كما تركتني ؛

فضحك غوميز وقال : — يالفرنسي الملعون ! انكم جميعاً خالدون.

وكان عازف الساكسفون يضحك : كان عازف الكمان يهمس في اذنه ، وانحنت روبي نحو مود التي كانت توتر كمانها ؛ وقالت :

– انظري الى العجوز ؛ في الصف الثاني .

فانفجرت مود ضاحكة : كان العجوز اصلع كالبيضة ، وجال بصرها في المستمعين ، فكانوا يزيدون عن الخمسمئة . ورأت بيار واقفاً بالقرب من الباب فكفت عن الضحك . ونظر غوميز الى عازف الكمان بهيئة غامضة ثم القى نظرة على الكراسي الفارغة ، وقال بصوت مستسلم :

– اظن اننا لن نجد زاوية صغيرة هادئة افضل من هذه .

قال ماتيو : – وهناك موسيقى .

قال غوميز : – ارى ذلك . اراه جيداً .

وكان ينظر الى الموسيقيين نظرة توبيخ . وكانت مود تقرأ التوبيخ في جميع هذه العيون ، وكانت وجنتاها ملتهبتين ، كشأنها كل مرة ، وكانت تفكر : « اوه ! يا إلهي ! ما جدوى ذلك ؟ ما جدوى ذلك ؟ » اما فرانس فكانت واقفة مزبدة ملونة ، تعطي جميع علامات السعادة ؛ وكانت تبتسم وتعطي اشارة القيادة سلفاً وكانت تمسك قوسها مرفوعة الخنصر ، كما لو كان شوكة . قال غوميز :

– لقد وعدتني بالنساء .

فقال ماتيو آسفاً : – اي نعم . لا ادري ماذا هناك : في الاسبوع الماضي ، في مثل هذه الساعة ، كانت جميع الطاولات مأخوذة . وأما النساء ، فاقسم لك انهن كن كثيرات .

قال غوميز بصوته الرقيق : – انها الاحداث .

– بلا شك .

الاحداث ، ان ذلك صحيح : فبالنسبة اليهم ايضاً ، هناك ، كانت « الاحداث » موجودة : انهم يقاتلون ، مستندين الى جبال البيرينيه ، وعيونهم ملتفتة الى فالانس ، والى مدريد ، والى تاراغون ، لكنهم يقرأون الصحف ويفكرون بهذه الحركة الضاجة للرجال والسلاح ،

خلف ظهورهم ، وان لهم آراءهم عن فرنسا وتشيكوسلوفاكيا والمانيا ؛ وتململ قليلاً فوق كرسيه : كانت سمكة قد اقتربت من زجاج حوض الاسماك . واخذت تنظر اليه بعينيها المستديرتين . ومنح غوميز ضحكة صغيرة مشاركة وقال بصوت غير مطمئن :

— ذلك ان الناس بدأوا يفهمون .

قال غوميز : — بل هم لا يفهمون شيئاً على الاطلاق . يمكن للأسباني ان يفهم وللتشيكي أيضاً ، وربما للألماني ، لأنهم مشتركون في العملية . اما الفرنسيون فليسوا في العملية ، انهم لا يفهمون شيئاً : ولذلك فهم خائفون .

وأحس ماتيو بأنه مجروح ، فقال بحيوية :

— لا نستطيع ان نلومهم على ذلك . أنا مثلاً ليس لي ما أخسره ، ولا يزعجني كثيراً ان اذهب ، ان ذلك لا يغيرني . ولكن اذا كان المرء يحرص بشدة على شيء ، فاعتقد انه ليس من اليسير ان ينتقل من السلم الى الحرب .

قال غوميز : — فعلت ذلك في ساعة واحدة . أتظن أنني لم أكن حريصا على رسمي ؟

قال ماتيو : — الامر عندك مختلف .

فهز غوميز كتفيه وقال :

— انك تتكلم كساره .

وصمتا . ولم يكن ماتيو يحترم غوميز الى حد بعيد ، كان يحترمه أقل مما يحترم برونيه ودانيال . ولكنه كان يشعر بأنه مذنب أمامه ، لانه كان اسبانياً . وارتعش. سمكة عند زجاج الحوض ؛ وقد كان فرنسياً تحت هذا النظر ، فرنسياً حتى العظم. مذنب . مذنب وفرنسي ، وكانت به رغبة لان يقول له : « ولكني كنت من دعاة التدخل ! » غير ان هذه لم تكن هي القضية . إن ما كان يتمناه شخصياً لا اهمية له ؛

لقد كان فرنسياً ، وما كان يجديه شيئاً ان ينفصل عن سائر الفرنسيين لقد قررت عدم التدخل في اسبانيا ، ولم ارسل اسلحة ، واغلقت الحدود دون المتطوعين . كان ينبغي ان ادافع عن نفسي مع الجميع ، او ادين نفسي مع الجميع ، مع خادم المقهى ، والسيد المتخوم الذي كان يشرب ماء فيشي ، وقال :

– اني احمق ، فقد تصورت انك ستأتي بالثوب العسكري :

فابتسم غوميز :

– بالثوب العسكري ؟ اتريد ان تراني بالثوب العسكري ؟

وأخرج رزمة الصور من محفظته فدها لماتيو واحدة بعد الاخرى :

– هوذا الرجل .

– كان ضابطاً قاسي الملامح ، واقفاً على درجات كنيسة :

– ان هيئتك غير لطيفة .

قل غوميز : – يجب ذلك :

ونظر اليه ماتيو وأخذ يضحك ؛ وقال غوميز :

– نعم ، انها نكتة .

قال ماتيو : – لم اكن اظن ذلك ، وانما كنت أتساءل عما اذا كانت هيئتي ستكون متوحشة كهيئتك لو لبست الثوب العسكري .

وسأل غوميز في اهتمام :

– هل انت ضابط ؟

– بل عسكري عادي .

فندّت عن غوميز حركة انزعاج :

– ان جميع الفرنسيين عساكر عاديون :

فقال ماتيو بحيوية :

– وجميع الاسبان جنرالية :

فضحك غوميز من كل قلبه ، وقال وهو يمد له صورة :

— انظر الى هذه .

كانت فتاة صغيرة سمراء ، جميلة جداً . وكان غوميز ممسكاً بقامتها وهو يبتسم تلك الابتسامة الراضية التي يطلقها دائماً في الصور . وقال :

— مارس وفينوس .

قال ماتيو : — اني هنا اجدك على حقيقتك . ولكن قـل لي : انك تأخذهن صغيرات .

— في الخامسة عشرة ، ولكن الحرب تنضجهن . وهأنذا في القتال.

ورأى ماتيو رجلا صغيراً قابعاً تحت شق جدار متهدم .

— اين هذا ؟

— في مدريد . المدينة الجامعية . ما زال القتال دائراً فيها .

لقد قاتل . لقد استلقى حقاً خلف هذا الجدار ، وكانوا يطلقون عليه النار . وكان آنذاك في رتبة نقيب ، وربما كان يفتقر الى طلقات فيفكر : « يا للفرنسيين القذرين ! » وكان غوميز قد انقلب عـلى كرسيه ، ينهي شرب قدحه ، وتناول علبة الثقاب بحركة هادئة فأشعل سيجارته ، وانبثقت ملامحه المزهوة الهزلية من الظل ثم انطفأت . لقد قاتل ؛ ولم يبق من ذلك شيء في عينيه . كان الليل يهبط فيلفه بالعذوبة، وكان يزرق فـوق المصباح الوردي ، وكانت الجوقة تعزف « نوتي كيارو ماس » ، وكان الهواء يحرك الخوان بهدوء ، ودخلت امرأة ، غنية ووحيدة ، فجلست بالقرب منهما ، وطفا عطرهـا حتى أنفيهما ؛ وشمه غوميز بنهم وهو يمدد منخريه ، وقسا وجهه ، وأدار رأسه بهيئة بحث ، فقال ماتيو :

— الى اليمين .

وحدد فيها غوميز نظرة ذئبية ، وكان قد اصبح جاداً ، فقال :

— فتاة جميلة .

قال ماتيو : — انها ممثلة . ولديها اثنا عشر تياناً للبحر ، وهناك

صناعي من ليون ينفق عليها .

قال غوميز : — هِمْ !

وبادلته نظرته ثم ادارت عينيها وهي تبتسم نصف بسمة . وقال ماتيو :

— انك لن تضيع أمسيتك ؟

فلم يجب . وكان قد وضع مرفقه على الخوان ، وكان ماتيو ينظر الى يده المشعرة ذات الخاتم التي كانت تورّد ضوء المصباح . انه هنا ، ازرق كل الزرقة ، بيديه الورديتين ، وهو يتنشق رائحة الشقراء هذه، ويناديها بالنظر . لقد قاتل . وان خلفه مدناً محمرة ، ودوامات من الغبار الاحمر ، وقشرات مبشورة ، وانفجارات صواريخ لا تلمع حتى في اذنيه . لقد قاتل ؛ وسيعود الى القتال ، وها هو هنا يرى هذه الخوانات البيضاء التي اراها . وحاول ان ينظر الى شجر الصنوبر والحلبة والمرأة بعيني غوميز ، هاتين العينين اللتين أحرقهما لهيب الحرب ؛ ونجح في ذلك لحظة ، ثم تلاشت الخشونة القلقة الزاهية التي كانت قد اخترقته، لقد قاتل ، وهو ... كم هو حالم ! وفكر ماتيو : امـا انا ، فلست حالماً . قالت اوديت : « كلا ، صحنان فقط ؛ ان السيد ماتيو لن يعود لتناول العشاء . » واقتربت من النافذة المفتوحة ، وكانت تسمع موسيقى « البروفنسال » وكان موسيقى تانغو . كانوا يستمعون الى الموسيقى : وكان ماتيو يفكر « انه يمر مروراً عابراً . » وقدم لها الخادم الحساء ، فقال غوميز « لا ، لا حساء . » كن يعزفن « تانغو القطة » ؛ وكان كمان فرانس يقفز في النور ويغطس فجأة في الظل كسمكة طائرة . كانت فرانس تبتسم ، وهي مغمضة الجفنين نصف إغماض ، وكانت تغطس خلف كمانها وكان القوس يحتك ، والكمان يموء ، وكانت مود تستمع الى الكمان يموء عند اذنها، وتستمع الى السيد الاصلع يسعل، وكان بيار ينظر اليها، وأخذ غوميز يضحك ، ولم تكن هيئته راضية، فقال :

— تانغو ، تانغو ! لو كان فرنسيون يفكرون بان يعزفوا تانغو

كهذا ، في مقهى بمدريد ...

فسأله ماتيو :

– لرموهم بتفاح مطبوخ ؟

فقال غوميز : – بل بالحجارة !

وسأله ماتيو : – الا يحبوننا كثيراً هناك ؟

فقال غوميز : – بلى !

دفع الباب : كان « البار الباسكي » خاليـاً . وقد دخله بوريس يوماً بسبب اسمه : « البار الباسكي » ، وكان ذلك يذكّر بكلمة « باربالك » وهي كلمة لا يستطيع ان يلفظها من غير ان يضحك . ثم حدث ان البار كان عظيماً تماماً، فأضحى بوريس يتردد اليه كل مساء، بينما تكون لولا في عملها . ومن النوافذ المفتوحة ، كانت تُسمع موسيقى الكازينو البعيدة ؛ بل لقد حسب مرة انه يسمع صوت لولا ، ولكن ذلك لم يحدث مرة اخرى . وقال صاحب الحانة :

– مرحباً ، يا سيد بوريس .

قال بوريس: – مرحباً يا معلم . اعطني من فضلك قدح روم ابيض.

وكان يحس نفسه تقياً ، وكان يفكر بان يشرب قدحين من الروم الابيض وهو يدخن غليونه ، وحوالي الساعة الحادية عشرة، يمنح نفسه سندويشاً بالمقانق . وقرابة منتصف الليـل ، سيذهب ليصحب لولا .

وانحنى المعلم عايه وملأ قدحه ، فسأله بوريس :

– أليس المارسيلي هنا ؟

قال المعلم : – لا . لديه وليمة مهنية .

– اوه ! عفواً !

كان المارسيلي وكيلاً للبيع ، وكان هناك ايضاً شخص يدعى شارليه، وهو عامل مطبعة . وكان بوريس يلعب معهما احياناً بالورق ، واحياناً اخرى يتحدثون بالسياسة والرياضة او يبقون جالسين من غير ان يقولوا

شيئاً ، بعضهم عند المشرب ، والبعض الآخر على الطاولات الداخلية ، وبين الفينة والفينة .كان شارليه يقطع الصمت ليقول : « نعم ، نعم ، نعم ، الأمر هكذا » وهو يهز رأسه ، وكان الوقت يمر بمرح ، وقل بوريس :

– الزبائن قليلون اليوم .

فهز المعلم كتفيه ، وقال وهو يعود الى المشرب :

– انهم جميعاً يفرنقعون . وانا عادة أبقى فاتحاً حتى عيد جميع القديسين . ولكن اذا استمر الحال هكذا ،اغلقت الحانة في تشرين الاول وعدت الى ارضي .

فانقطع بوريس عن الشرب وظل مأخوذاً ، فان عقد اولا ينتهي اجله في اول تشرين ، وسيكونان آنذاك قد ذهبا . ولكنه لم يكن يحب ان يفكر بان « البار الباسكي » سيغلق ابوابه خلف ظهرهما . والكازينو ايضاً سيغلق ، وجميع الفنادق ، وتظل بياريتز مقفرة . وكان ذلك يشبه التفكير بالموت : فلو انك واثق بان رجالاً آخرين سيشربون بعدك اقداح روم ، وسيأخذون حمامات شمس ، وسيسمعون ألحان جاز ، اذن لأحسست بالعزاء ؛ ولكن اذا وجب ان تفكر بان الجميع سيموتون في الوقت نفسه ، وان الانسانية بعدك ستغلق ابوابها ، فلن يكون في ذلك اي شيء مفرح . وسأل ليطمئن :

– ومتى تعود الى الفتح ؟

قال المعلم : – اذا وقعت الحرب ، فلن اعود الى الفتح ابداً .

وعدّ بوريس على أصابعه: ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، سأعود الى هنا خمس مرات اخرى ، ثم ينتهي كل شيء ، فلا ارى بعد البار الباسكي ابداً . كان ذلك مضحكاً . خمس مرات . سيشرب الروم الابيض خمس مرات اخرى على هذه الطاولة ، ثم تقع الحرب ، ويغلق البار الباسكي ، وفي تشرين الاول ٣٩ ، سيكون بوريس مجنّداً. وكانت

مصابيح بشكل الشمع مزروعة على تعليقات من خشب السنديان تلقي على الطاولات ضوءاً جميلاً احمر . وفكر بوريس : لن ارى بعد ابداً هذا الضوء ، هذا الضوء بالذات : أحمر على أسود . سيرى طبعاً اضواء كثيرة اخرى ، فالصواريخ الليلية فوق ساحات القتال ليست شيئاً رديئاً . ولكن هذا الضوء بالذات سينطفيء اول تشرين ، ولن يراه بوريس بعد ابداً . وتأمل في هيبة بقعة ضياء كانت تمتد على الطاولة ، وفكر بأنه كان مذنباً . كان يعامل الاشياء دائماً على طريقة الملاعق والشوكات ، كما لو انها كانت دائماً قابلة للتجديد : وكان ذلك خطأ فاضحاً . ان هناك عدداً محدوداً من الحانات ودور السينما والبيوت والمدن والقرى ، ولم يكن فرد معيّن يستطيع ان يذهب الى ايّ منها الا عدداً محدوداً من المرات .

وسأل المعلم : — هل تريد ان ادير الراديو ؟ ان ذلك يذهب هنا الملل .

قال بوريس . — لا ، شكراً . هكذا لا بأس .

في لحظة موته ، عام ٤٢ ، سيكون قد تغذّى ٣٦٥ × ٢٢ مرة تساوي ٨٠٣٠، اذا حسب وقعاته ايضاً كرضيع. واذا أقررنا بأنه قد أكل عجّة بالبيض مرةّ على كل عشر مرات ؛ يكون قد أكل ٨٠٣ عجّات. وقال في نفسه مندهشاً : ٨٠٣ عجّات فقط ؟ آه كلا ! هنك ايضاً العشاء ، مما يجعل الوقعات ١٦٠٦٠ و١٦٠٦ عجّات . مهما يكن من امر ، فليس ذلك بالشيء العظيم ، بالنسبة لهاو . وتابع : والمقاهي ؟ بوسعي ان اعدّ المرات التي اقصد فيها المقاهي بعد . فلنفرض اني اقصدها مرتين كل يوم ، واني سأجنّد بعد عام ، فتكون ٧٣٠ مرة . ٧٣٠ مرة ! كم هو قليل ! ولقد احسّ من ذلك بصدمة ، ولكنه لم يكن مندهشاً بصورة استثنائية . لقد كان يعرف دائماً بأنه سيموت شاباً. وقد حدّث نفسه غالباً بأنه سينتهي مسلولاً او مقتولا بيد لولا . ولكنه

لم يكن يشك في اعماق نفسه لحظة بأنه لن يموت في الحرب. كان يعمل ويُعدّ شهادة البكالوريا او الليسانس ، ولكن ذلك كان غالباً بدافع تمضية الوقت ، كالفتيات اللواتي يحضرن دروساً في السوربون بانتظار ان يتزوجن. وقال في نفسه : هذا طريف. لقد جاءت عهود كان الشبان يُعدّون فيها شهادة الحقوق او الاغريغاسيون بالفلسفة وهم يفكرون بأنهم سيكون لهم مكتب كاتب عدل في الاربعين، او تقاعد استاذ في الستين . وان المرء ليتساءل عما عساه يمكن ان يدور في رؤوسهم. اشخاص ستكون امامهم ١٠٫٠٠٠ او ١٥٫٠٠٠ أمسية في المقهى ، و٤٠٠٠ عجة ، و٢٠٠٠ ليلة غرام ! واذا كانوا يتركون مكاناً يروق لهم ، فان بوسعهم ان يقولوا لانفسهم بالتأكيد: سنعود اليه في السنة القادمة ، او بعد عشر سنوات. اننا لا نستطيع ان نقود حياتنا على بعد اربعين عاماً . وقال مقرراً في قسوة: لا بد انهم يرتكبون حماقات ! اما هو ، فقد كان اكثر تواضعاً. كانت لديه مشاريع لعامين ، وبعد ذلك ، سينتهي كل شيء . يجب ان يكون الانسان متواضعاً . ومرّت سفينة شراعية فوق « النهر الازرق » فحزن بوريس فجأة . انه لن يذهب ابداً الى الهند او الصين او المكسيك ، حتى ولا الى برلين ، وان حياته لأشدّ تواضعاً مما يتمنّى . بضعة اشهر في انكلترا ، في لاون ، في بياريتز ، في باريس — وهنك من طافوا حول العالم : امرأة واحدة . لقد كانت حياة صغيرة جداً ؛ وهي تبدو الآن وكأنها قد انتهت بالفعل، لأننا نعرف سلفاً كل ما لن تحتوي عليه، يجب ان يكون المرء متواضعاً . ونهض ، فشرب جرعة روم وفكر : هذا افضل ، ان المرء لا يتعرّض للتبذير .

— قدح روم آخر ، يا معلم .

رفع رأسه ، وتأمل المصابيح الكهربائية في تدقيق . ودقت الساعة تجاهه ، فوق المرآة ؛ وكان يرى وجهه في المرآة . وفكر : انها التاسعة والخامسة والاربعون . وفكر : « عند الساعة العاشرة » ونادى الخادمة:

ـ واحد آخر .

فذهبت الخادمة وعادت بزجاجة الخمر مع صحن . وسكبت الخمر في قدح فيليب ، ووضعت الصحن على الاقداح الثلاثة الاخرى . وكانت على شفتيها بسمة ساخرة ، ولكن فيليب نظر اليها محدّداً في عينيها بتبصّر ، وتناول القدح بحزم ورفعه من غير ان ينثر منه قطرة ؛ وشرب جرعة ثم وضع القدح من غير ان يغادر بعينيه عيني الخادمة :

ـ كم ؟

فسألته : ـ اتريد ان تدفع ؟

ـ اريد ان ادفع فوراً .

ـ اذن ، اثنا عشر فرنكاً .

واعطاها خمسة عشر فرنكاً وطردها بيـده . وفكر : لست مديناً لأحد بشيء بعد . وضحك قليلا ، خلف يده . وفكر . لست مديناً لأحد ابداً ! ورأى نفسه يضحك عبر المرآة ، فأضحكه ذلك . حين تنتهي آخر دقة من الدقات العشر ، سينهض ، وينتزع من المرآة صورته ، ويبدأ الاستشهاد . اما الآن ، فهو يشعر أنه يميل الى المرح ، وكان يتأمل الموقف كهاو . كان المقهى حفيّاً ، وكان المدينة « كابو » ، وكان المقعد طرياً كفراش من ريش ، وكان غارقاً فيه ، وموسيقى ناعمـة تأتيه من خلف المشرب ، وكذلك ضجة صحون تذكّره باجراس البقر في ساليسبورغ . كان يرى نفسه في المرآة ، وقد كان بوسعه ان يظل جالساً ينظر الى نفسه ويستمع الى هذه الموسيقى الى الأبد . عند الساعة العاشرة سينهض ويأخذ صورته بين يديه ، فينتزعها من المرآة كجلد ميت ، كقذى في عين . « مرايا الشلال ... »

شلالات النهار .

في مرايا الشلال .

او :

غار النهار شلالاً في مرآة الشلال .

او :

نياغارا النهار شلالاً في مرآة الشلال .

وسقطت الكلمات رماداً ، وتشبّث بالمرمر البارد . إن الريح تحملني ، وكان في حلقه ذلك الطعم الخمري اللزج . الشهيد . ونظر الى نفسه في المرآة ، وفكر بأنه كان ينظر الى الشهيد ؛ وبسم لنفسه وحيّا نفسه. الساعة العاشرة إلا عشر دقائق . وفكر في رضى : ها ! انني اجد الوقت طويلاً . خمس دقائق قد مضت ، وكأنها أبد . يبقى بعد أبدان، بلا حركة ، ولا تفكير ، وهو يتأمل وجه الشهيد الجميل الضامر ، ثم يغور الزمن هادراً في سيارة ، في القطار ، حتى جنيف .

طمأنينة الروح .

نياغارا الزمن .

نياغارا النهار .

في مرايا الشلال .

انا ذاهب في سيارة .

الى كوبورج ، الى بيراكت .

ومنها أكت ، ومنها أكت .

ومنها كاتاراكت [1]

وضحك ، وكفّ عن الضحك ، ونظر فيما حوله ، وكان المقهى يبعث رائحة المحطة ، والقطار والمستشفى ؛ وكانت به رغبة الى طلب النجدة . سبع دقائق . وفكر : ما الذي سيكون اكثر ثوروية؟ الذهاب ام عدم الذهاب ؟ اذا ذهبت ، قمت بالثورة ضد الآخرين ، واذا لم

---

(١) الكلمة الأخيرة تعني « الشلال » ، وواضح ان هنا تلاعبا على الالفاظ بالأصل الفرنسي بقصد السجع . (المترجم)

اذهب قمت بها ضد نفسي ، وهذا اقوى . أكون قد أعددت كل شيء . سرقت ، وحملت على تزوير الاوراق ، وقطعت جميع الصلات ، ثم في آخر لحظة : مساء الخير ، انني غير ذاهب ! الحريـــة في درجتها الثانية ؛ الحرية التي تنكر الحرية . وعند الساعة الثالثة إلا عشر دقائق ، قرّر أن يُخضع ذهابه للعبة وجه الفلس او قفاه . وكان يرى بوضوح ساعة محطة « دورساي » وهي مقفرة تسيل نوراً ، والسلّم الذي يغور تحت الأرض ، في دخان المحركات ، وكان في فمــه مذاق دخان ؛ وتناول قطعة الاربعين فلساً . القفا أذهب ؛ وقذفها في الهواء ، قفا ، أذهب ! قفا ، أذهب ! فسقطت قفــا . وقال لصورته : انني اذن أذهب ! لا لأني أكره الحـــرب ، ولا لأني أكره أسرتي ، ولا لأنني قررت ان اذهب : وإنمـــا بدافـــع الصدفة المحض ؛ لأن قطعة نقود سقطت على وجهٍ دون الوجه الآخر . وفكر : رائع ؛ إنني في ذورة الحرية القصوى . الشهيد المجـــاني ؛ حبذا لو رأتني أرمي الفلس في الهواء ! دقيقة بعدُ . ضربة زهر ، دنغ ، أبداً ؛ دنغ ، دنغ ، ضربة ، دنغ ، زهر ، دنغ ، لا تهـ ، دنغ ، دنغ ، ـدم ، دنغ ، دنغ ، الصدفة . دنغ ! ونهض ، وكان يمشي باستقامة ، وكان يضع قدميه إحدهما وراء الأخرى ، وعلى حزّ من الارض الخشبية ، وكان يشعر بنظر الخادمة على ظهره ، ولكنه لن يسمح لها بالضحك . ونادته:

– يا سيد !

فاستدار مرتجفاً .

– صندوقك .

خراء ! واجتاز القاعة وهو يعدو ، فتناول صندوقه ، وأخذ يترنّح. وبلغ الباب على مشقّة وسط الضحك ، وخرج فنادى سيارة تاكسي . وكان يمسك صندوقه بيده اليسرى ، وكان يشدّ بيده اليمنى على قطعة الاربعين فلساً . وتوقفت السيارة أمامه .

ـ الى أين ؟

وكان للسائق شارب ، وعلى خده تؤلول . وقال فيليب :

ـ شارع بيغال . الى « الكابان كوبين » .

قال غوميز : ـ لقد خسرنا الحرب .

كان ماتيو يعرف ذلك ، ولكن كان يفكر بأن غوميز لم يكن يعرفه بعد . وكانت الجوقة تعزف « اني ابحث عن سالي » وكانت الصحون تلمع تحت المصباح وضوء المكبرات يسقط على الحلبة كضوء قمر ممسوخ ، ضوء قمر ـ اعلاني من اجل هونولولو . وكان غوميز جالساً هنا ، وكان ضوء القمر يرقد الى يمينه ، والى يساره امرأة تبسم له نصف بسمة ؛ كان موشكاً على العودة الى اسبانيا ، وكان يعلم أن الجمهوريين خسروا الحرب . وقال ماتيو :

ـ انكم لا تستطيعون أن تكونوا واثقين من ذلك . لا يستطيع أحد أن يكون واثقاً .

قال غوميز : ـ بلى ، اننا نحن واثقون من ذلك .

ولم يكن يبدو حزيناً : كل ما في الأمر أنه كان يُبدي ملاحظة . وكان ينظر الى ماتيو نظرة هادئة متحررة وقال :

ـ ان جميع جنودي واثقون من أننا خسرنا الحرب .

فسأله ماتيو : ـ وهم مع ذلك يقاتلون ؟

ـ وماذا تريدهم ان يفعلوا ؟

وهزّ ماتيو كتفيه :

ـ طبعاً .

إنني آخذ قدحي ، وأشرب جرعتين من « شاتو مارغو » ويُقال لي : انهم يقاتلون حتى آخرهم ، فليس لهم بعد شيء آخر يفعلونه ، وأشرب جرعة من شاتو مارغو ، وأهزّ كتفيّ ، وأقول : طبعاً . قذر .

وسأل غوميز : ـ ما هذا ؟

قال الخادم : — انهما شريحتا روسبني .
قال غوميز : — آه ، نعم، هاتهما .
وتناول منه الصحن ووضعه على الطاولة وقال :
— لا بأس ، لا بأس .
الشريحتان على الطاولة ، واحدة له والأخرى لي . وله الحق في ان يتذوّق قطعته ؛ وله الحق في ان يمزقها بأسنانه البيضاء الجميلة ، وله الحق بأن ينظر الى الفتاة الجميلة الى يساره وان يفكر : الشيطانة الجميلة ! أما أنا ، فلا . فاذا أكلت قفز الى حلقي مئة اسباني . انني لم ادفع .
قال غوميز : — اشرب . اشرب .
وتناول الزجاجة فملأ قدح ماتيو . وقال ماتيو وهو يطلق ضحكة صغيرة :
— أنت الذي تدعوني الى ذلك راجياً .
وأخذ القدح فأفرغه . فاذا بالشريحة فجأة في صحنه . واخذ شوكة وسكيناً ، وتمتم :
— فلو كانت اسبانيا هي التي تدعوني ...
فلم يبد على غوميز انه يسمعه . وكان قد سكب لنفسه قدحاً من « شاتو مارغو » فشرب وابتسم ، وقال :
— اليوم شريحة ، وغداً حمّص . انها الأمسية الأخيرة التي اقضيها في فرنسا . وهذا هو العشاء الوحيد اللذيذ الذي تناولته فيها .
قال ماتيو : — كيف ، وفي مرسيليا ؟
قال غوميز : — ان ساره نباتية .
وكان ينظر باستقامة امامه ، وكان مظهره يُشعر بالود . وقال :
— حين ذهبت في مأذونيتي ، كان قد مضى على برشلونة ثلاثة اسابيع وهي بلا تبغ . فما رأيك بمدينة برمّتها لا تدخن ؟
وأدار عينيه الى ماتيو ، وبدا فجأة وكأنه يراه . واستعاد نظره

ملاءمة مزعجة ، وقال :

— ستعرف هذا كله .

قال ماتيو : — ليس ذلك أكيداً . لا يزال من الممكن تجنب الحرب .

قال غوميز : — اوه ! طبعاً . من الممكن دائماً تجنب الحرب .

وضحك ضحكة قصيرة وأضاف :

— يكفي ان تتخلوا عن التشيكيين .

وفكر ماتيو : « كلا ياعزيزي ، كلا ياعزيزي ! ان بوسع الاسبان ان يعطوني درساً بالنسبة لاسبانيا ، فهذا فرعهم . أما بالنسبة للدروس التشيكوسلوفاكية ، فاني اطلب تشيكياً . »

وسأل : — بصراحة ، يا غوميز ، هل يجب ان نساعدهم ؟ انه لم يمض وقت طويل على مطالبة الشيوعيين بمنح ألمان السوديت استقلالهم .

فسأل غوميز مقلّداً ماتيو :

— هل يجب ان نساعدهم ؟ هل كان يجب ان تساعدونا ؟ هل كان يجب ان تساعدوا النمسويين ؟ وأنتم ، من الذي سيساعدكم حين يأتي دوركم ؟

قال ماتيو : — نحن غير واردين .

فقال غوميز : — بل انتم واردون . من هم الواردون ؟

وقال ماتيو : — كل شريحتك يا غوميز . انني افهم جيداً لماذا تحتقروننا . ولكن هذه آخر أمسية من مأذونيتك ، واللحم يبرد في صحنك ، هناك امرأة تبتسم لك ، ثم انني بعد كل حساب كنت من دعاة التدخّل .

قال غوميز مبتسماً : — أعرف ، أعرف جيداً .

وقال ماتيو : — ثم اسمع : كان الوضع في اسبانيا واضحاً . ولكن حين تحدثني عن تشيكوسلوفاكيا فاني لا أتابعك ، لأن الوضع هنا أشدّ غموضاً . هناك مسألة حقوقية لا اتوصل الى البت فيها : فماذا يكون

الأمر إذا لم يرد ألمان السوديت ان يكونوا تشيكيين ؟
قال غوميز وهو يهزّ كتفيه :
— دع المسائل الحقوقية . هل تبحثون عن سبب لخوضكم القتال ؟ ليس هناك الا سبب واحد : اذا لم تقاتلوا كنتم هالكين . ان ما يريده هتلر ليس هو براغ ولا فينا ولا دانتزيغ : وانما يريد اوروبا .
نظر دالادييه الى شمبرلن ، ونظر الى هاليفاكس ، ثم صرف عينيه لينظر الى ساعة مذهبة موضوعة على منضدة بهو ، وكان العقربان يشيران الى العاشرة وخمس وثلاثين ؛ وتوقفت السيارة امام الكابان كوبين ، وانقلب جورج على ظهره وأنّ قليلاً ، وكان شخير جاره يمنعه من النوم .
قال دالادييه : — لا يسعني الا ان اكرر ما سبق ان صرحت به : لقد أخذت الحكومة الفرنسية التزامات تجاه تشيكوسلوفاكيا . فاذا ظلت حكومة براغ على رفضها للعروض الألمانية ، واذا اصبحت ، بنتيجة هذا الرفض ، ضحية هجوم ، فان الحكومة الفرنسية ستجد نفسها مضطرة الى القيام بالتزاماتها .
وسعل ، ونظر الى شمبرلن ، وانتظر .
قال شمبرلن : — نعم . نعم . طبعاً .
وبدا مستعداً لاضافة بضع كلمات ، ولكن الكلمات لم تأت ، وكان دالادييه ينتظر وهو يخط بطرف قدمه دوائر على السجادة . وانتهى به الامر الى ان يرفع رأسه ويسأل بصوت متعب :
— ما عساه يكون موقف الحكومة البريطانية في هذه الحالة ؟
نهضت فرانس ومود ودوسيت ودوبي ، والقين التحية . وحدث في الصفوف الأولى تصفيق مائع ، ثم انسرب الجمع وسط ضجة كبيرة للكراسي . وبحثت مود بنظرها عن بيار ، ولكنه كان قد اختفى ؛ والتفتت فرانس نحوها ، وكان خدّاها ملتهبين ، فيما كانت تبتسم .

وقالت : — كانت أمسية ناجحة . أمسية ناجحة حقاً .

كانت الحرب هنا ، على الحلبة البيضاء ، كانت الاشراق الميت لضوء القمر الاصطناعي ، والحموضة المزيفة للبوق المسدود ، وهذا البرد على الخوان ، في رائحة الخمر الاحمر ، وهذه الشيخوخة الخفية في ملامح غوميز . الحرب ؛ الموت ؛ الهزيمة . كان دالاديه ينظر الى شمبرلن ، وكان يقرأ الحرب في عينيه ، وكان هاليفاكس ينظر الى بونيه ، وكان بونيه ينظر الى دالاديه ؛ كانوا صامتين ، وكان ماتيو ينظر الى الحرب في صحنه ، وفي مرقة الشريحة السوداء المعظّمة .

— واذا خسرنا نحن ايضاً الحرب ؟

قال غوميز في خفة : — ستصبح اوروبا فاشية اذن . وليس هذا اعداداً رديئاً للشيوعية .

— وما يكون مصيرك يا غوميز ؟

— أعتقد ان انصارهم سيقتلونني في كوخ ، أو أنني اهرب الى اميركا . فماذا في ذلك ؟ أكون قد عشت .

ونظر ماتيو الى غوميز في فضول ، وسأله :

— ولن تتحسر على شيء ؟

— اطلاقاً .

— حتى ولا على الرسم ؟

— حتى ولا على الرسم .

وهز ماتيو رأسه في حزن . كان يحب لوحات غوميز ، وقال :

— كنت ترسم لوحات جميلة .

— لن أستطيع أبداً ان ارسم .

— لماذا ؟

— لا أدري . القضية جسيمة . لقد فقدت الصبر ؛ وسيبدو لي ذلك مضجراً .

— ولكن الحرب تقتضي الصبر ايضاً .
— ليس هو الصبر نفسه ،
وصمتنا . وأتى الخادم باقراص المعجنات على آنية من قصدير ، فرشّها بالروم والخمر ثم أدنى من الآنية عوداً مشتعلاً . وتأرجح طيف من لهب ذات لحظة في الهواء .
وقال ماتيو فجأة : — غوميز ! انك ، انت ، قويّ ، وانت تعرف لماذا تقاتل .
— أتعني انك لن تعرف ذلك انت ؟
— بلى . اعتقد اني سأعرفه . ولكني لم اكن اقصد نفسي . ان هناك اشخاصاً لا يملكون إلا حياتهم يا غوميز . وليس ثمة من يفعل شيئاً من اجلهم . ليس هناك اي شخص ، ولا اية حكومة ، ولا أي نظام . فاذا حلّت الفاشية هنا محلّ الجمهورية فلن يلاحظوا ذلك . خذ راعياً من منطقة « سيغين » . اتعتقد انه سيعرف لماذا هو يقاتل ؟
قال غوميز : — ان الرعاة عندنا أشدّ المقاتلين حماسة .
— لماذا يقاتلون ؟
— هذا يتوقف . لقد عرفت منهم من يقاتل لتعلّم القراءة .
قال ماتيو : — أما في فرنسا ، فالجميع يعرفون القراءة . فاذا التقيت في فرقتي راعياً من « سيغين » ورأيته يموت الى جانبي ليحافظ على جمهوريتي وعلى حرياتي ، فاقسم لك بأني لن أكون فخوراً . اوه يا غوميز ، ألا تشعر احياناً بالخجل : جميع هؤلاء الذين ماتوا في سبيلك؟
قال غوميز : — ان هذا لا يزعجني . فأنا أعرّض حياتي مثلهم .
— ان الجنرالية يموتون في سررهم .
— لم اكن دائماً جنرالاً .
قال ماتيو : — مهما يكن من أمر ، فليست القضية متشابهة .
وقال غوميز : — انني لا أرثي لهم . ولا تأخذني عليهم الشفقة .

ومدّ يده فوق الخوان وقبض علـى معصم ماتيو ، وقال بصوت منخفض بطيء :

– إن الحرب شيء جميل يا ماتيو .

وكان وجهه يشتعل . وحاول ماتيو ان يتخلّص ، ولكن غوميز شدّ ذراعه بقوة وأضاف :

– احب الحرب .

ولم يكن ثمة بعد ما يُقال . وضحك ماتيو ضحكة قصيرة منزعجة فترك غوميز يده . وقال ماتيو :

– لقد تركت تأثيراً قوياً على جارتنا .

والقى غوميز نظره الى يساره ، من بين جفونه الجميلة . وقال :

– أجل . يجب ضرب الحديد حامياً . أتكون هذه الحلبة للرقص ؟

– طبعاً .

ونهض غوميز وهو يزرر سترته . وتوجه الى الممثلة ، فرآه ماتيو ينحني فوقها . وارتدّت برأسها الى الخلف ، ونظرت في ضحـكة مدروسة ، ثم ابتعدا واخذا يرقصان . كانا يرقصان ؛ ولم تكن تشبه الزنجيات قط ، ولا بد انها كانت من المارتينيك . كان فيليب يفكر : « مارتينيكية » وكانت كلمة « مالاباريّة » هي التي طفرتْ على شفتيه وتمتم :

– يا مالاباريّتي الجميلة .

فأجابت :

– انك ترقص جيداً .

وكان في صوتهـا موسيقى ناي صغـيرة ، ولم يكن يخلو ذلك من عذوبة . وقال :

– انت تتكلمين الفرنسية جيداً .

فنظرت اليه في غضب :

– لقد وُلدت في فرنسا .
قال : – لا بأس . انت مع ذلك تتكلمين الفرنسية جيداً .
وفكر : « انني سكران » ثم ضحك . وقالت له ، بلا غضب :
– انك سكران تماماً .
قال – نعم .

ولم يكن يشعر بعد بتعبه ، كان مستعداً للرقص حتى الصباح، ولكنه كان قد قرر ان ينام مع الزنجية ، وكان ذلك أرصن . ان ما هو ممتع حقاً في السكر ، هو هذه القدرة التي كان يمنحها على الاشياء ، فأنت لست بحاجة الى لمسها ، نظرة واحدة ، فاذا انت تمتلكها ، كان يملك ذلك الجبين ، وذلك الشعر الاسود ، وكان يداعب عينيه على هذا الوجه الاملس . اما أبعد من ذلك ، فقد كانت الرؤية مائعة ، كان ثمة ذلك السيد الضخم الذي كان يشرب الشمبانيا ، واشخاص آخرون يميل بعضهم على بعض فلا يميزهم جيداً . وكان الرقص قد انتهى ، فعادا الى الجلوس . وقالت :

– ما أبرعك في الرقص ! ولا بد انك ، وانت على هذا الجمال ، قد عرفت نساء كثيرات !
قال فيليب : – بل انا بكر .
– كذاب !
ورفع يده :
– اقسم لك اني بكر . اقسم برأس امي !
قالت خائبة : – آه ؟ هذا يعني ان النساء لا يثرن اهتمامك .
قال : – لا ادري . يجب ان نجرّب .
ونظر اليها ، فامتلكها بعينيه ، وكزّ وجهه وقال :
– انني اعتمد عليك .
فنفثت دخان سيجارتها في وجهه :

— سترين ما اعرف أن اعمله .

وامسكها من شعرها فجذبها اليه ، وكانت تنبعث منها عن قرب بعض رائحة الشحم .

وقبّلها قبلة خفيفة في شفتيها ، وقالت :

— بكر ! سأربح الجائزة الكبرى .

قال : — ترنحين ؟ ان الانسان يخسر دائماً .

ولم يكن يشتهيها على الاطلاق . ولكنه كان مسروراً لأنها كانت جميلة ولم تكن تخيفه .

واستشعر الرضى التام وفكر : « انني احسن محادثة النساء» وتركها ، فانتصبت واقفة ، وسقط صندوق فيليب على الأرض ، فقال :

— حذار ! انت سكرانة !

فلمّت الصندوق :

— ماذا في داخله ؟

— هس ! لا تلمسيه : انها حقيبة دبلوماسية .

قالت وهي تقلّد الاولاد : — اريد ان اعرف ما في داخله . يا حبيبي ، قل لي ما في داخله .

واراد ان ينتزع منها الصندوق ، ولكنها كانت قد فتحته . ورأت المنامة وفرشاة الاسنان ، وحين اكتشفت الـ « رامبو » قالت :

— كتاب ؟ ما هذا ؟

قال : — هذا ؟ انه شخص قد ذهب .

— الى اين ؟

قال : — ماذا يهمك من ذلك ؟ لقد ذهب .

واستعاد الكتاب من يديها وأرجعه الى الصندوق ، وقال في سخرية:

— انه شاعر . اتراك فهمت الآن فهماً افضل ؟

قالت : — طبعاً . كان ينبغي ان تقول ذلك من البدء .

وأغلق الصندوق ، وفكر : « لم أذهب » وسقط سُكره . « لماذا؟ لماذا لم اذهب ؟ » وكان قد أصبح الآن يميّز جيداً السيد الضخم ، قبالته : لم يكن ضخماً الى الحد الذي تخيّله ، وكانت له عينان نحيفتان . وانفرطت العناقيد البشرية من تلقاء نفسها : كان ثمة نساء ، سوداوات وبيضاوات ، ورجال ايضاً . وخيل اليه انهم كانوا ينظرون اليه ملياً ، « لماذا انا هنا ؟ كيف تراني قد دخلت ؟ ولماذا لم اذهب؟ كان في ذكرياته ثقب : كان قد رمى الفلس في الهواء ، ونادى سيارة تاكسي وها هوذا الآن : إنه جالس الى هذه الطاولة ، امام قدح شمبانيا، مع هذه الزنجية التي تنبعث منها رائحة صمغ السمك . كان ينظر الى هذا الفيليب الذي كان يقذف الفلس في الهواء ، وكان يحاول ان يسبر غوره ، ويفكر : « انا واحد آخر » ؛ كان يفكر : « انني لا اعرفني » وأدار رأسه نحو الزنجية .

وسألته : — لماذا تنظر الي ؟

— هكذا .

— هل تجدني جميلة ؟

— بين بين .

فبلعت ريقها واشتعلت عيناها : ورفعت مؤخرتها بضعة بوصات فوق المقعد فيما ضغطت بيديها الخوان :

— ان كنت تجدني قبيحة ، فيمكنني ان اذهب : فلسنا متزوجين :

وبحث في جيوبه فأخرج ثلاث اوراق مدعوكة من فئة الالف فرنك وقال :

— خذي . خذيها وابقي .

فأخذت الاوراق وفتحتها وملّستها ثم جلست وهي تضحك . وقالت:

— انك صبيّ وسخ . صبي صغير وسخ .

وكانت قد انفغرت امامه هوّة من الخجل : وما كان عليه الا ان

يتداعى للسقوط فيها . انه مصفوع ، مضروب ، مطرود، ولم يذهب. وكان ينحني فوق الثقب فيأخذه الدوار . كان العار ينتظره في القعر، وما كان عليه الا ان يختار ان يشعر بالعار. التعب ، العار ، الموت ، اختيار الشعور بالعار . لماذا لم اذهب ؟ لماذا اخترت الاّ اذهب ؟وخيل اليه انه كان يحمل العالم على كتفيه . وقالت له :

— لست اراك ثرثاراً .

فوضع اصبعه تحت ذقنها :

— ما اسمك ؟

— فلوسّي .

— ليس هو اسماً مالاباريا .

قالت في غيظ : — قلت لك اني ولدت في فرنسا .

— اسمعي يا فلوسّي : لقد اعطيتك ثلاث اوراق ، افلا تريدين ان اتحدث اليك فوق ذلك ؟ فهزت كتفيها وأدارت رأسها . وكان الثقب الأسود ما يزال هناك ، وفي قعره العار . وكان ينظر اليـــه وينحني فوقه ، ثم اذا به فجأة يفهم ، فيلوي القلق قلبه : ان هـــذا شرك ، فاذا وقعت فيه ، كففت عن احتمال نفسي . الى الابد . ونهض ، وفكر في قوة : « انما عدلت عن الذهاب لأني كنت ثملاً . » ثم انغلقت الهاوية : لقد اختار . « انما عدلت عن الذهاب لأني كنت ثملاً . » لقد لامس العار عن كثب ، ولقد شعر بخوف مفرط : اما الآن فقد اختار الا يحسّ بالعار . الى الابد .

— تصوّري انه كان علي ان استقل القطار . ولكني كنت ثملا جداً.

فقالت بلهجة طفولية : — ستسنقلّه غداً .

فانتفض :

— لماذا تقولين لي ذلك ؟

فقالت مندهشة :

— ان من يفوت قطاراً ، يأخذ التالي .

قال وهو يقطب حاجبيه :

— انني لن أذهب . فقد غيّرت رأيي . أتعرفين ما هي العلامة ؟

فردّدت : — العلامة ؟

— ان العالم مليء بالعلامات . فكل شيء علامة . وينبغي ان نعرف فكّ ألغازها . يكون عليك ان تذهبي ، فتثملين ولا تذهبين بعد : لماذا لم تذهبي ؟ ذلك انه وجب عليك الا تذهبي . تلك علامة : إن عندك هنا عملاً أفضل تقومين به .

وهزت رأسها وقالت :

— هذا صحيح . صحيح جداً ما تقوله .

عمل أفضل . جمع الباستيل ، ينبغي القيام بالدليل أمامه . في مكانه ينبغي ان أمزّق نفسي حيث انا . اورفيه . « لتسقط الحرب ! » من ذا الذي يستطيع ان يقول اني جبان ؟ سأريق دمي من اجلهم جميعاً ، من اجل موريس وزيزيت ، من اجل بيتو ، ومن اجل الجنرال ، ومن أجل جميع الناس الذين ستمزقني أظفارهم . والتفت الى الزنجية فنظر اليها بحنان : ليلة ، ليلة واحدة . ليلتي الغرامية الاولى . ليلتي الاخيرة .

— انك جميلة يا فاوستّي .

فبسمت له :

— تستطيع ان تكون لطيفاً حين تشاء .

قال لها : — تعالي لنرقص . سأكون لطيفاً حتى صياح الديك .

كانا يرقصان . كان ماتيو ينظر الى غوميز ، وكان يفكر : « ليلته الاخيرة » ثم يبتسم ، كانت الزنجية تحب الرقص ، وكانت تغمض عينيها نصف اغماضة ؛ وكان فيليب يرقص ، ويفكر: « ليلتي الاخيرة ، ليلتي الغرامية الاولى . » ولم يكن يشعر بعد بالعار ؛ كان تعبا ، وكان الحر شديداً ، غداً سأريق دمي من اجل السلام . ولكن الفجر كان ملء

يزال بعيداً . كان يرقص ، وكان يستشعر الرضى والتبرير ، ووجد نفسه خيالياً . انزلقت الاضواء على طول الجدار ، وكان القطار يتمهّل ، صرير ، هزات ، وتوقف ، ولطّخ النور الحافلة ، فطرف شارل بعينيه وترك يد كاترين ، وصاحت الممرضة :

— لاروش ميجين . لقد وصلنا .

قال شارل : — لاروش مبجين ؟ ولكننا لم نمر بباريس ؟

قالت كاترين : — لقد ضللونا .

وصاحت الممرضة : — اجمعوا حوائجكم . سوف ينزلونكم .

وكان بلانشار قد استيقظ منتفضاً ، فقال :

— ماذا ، ماذا ؟ اين نحن ؟

فلم يجب أحد ، وأوضحت الممرضة :

— سنستقل القطار مرة اخرى غداً . سنقضي الليل هنا .

قالت كاترين وهي تضحك :

— ان عينيّ تؤلمانني . بسبب هذا النور .

فأدار رأسه نحوها ، وكانت تضحك وهي تحمي عينيها بيدها ، وكانت الممرضة تصرخ :

— اجمعوا حوائجكم ، اجمعوا حوائجكم .

وانحنت على رجل أصلع كانت جمجمته تلمع :

— هل انتهيت ؟

قال الرجل : — دقيقة ! يا للشيطان !

قالت : — عجّل . سوف يصل الحمالون .

قال : — هيا ، هيا ، تستطيعين ان تأخذيها ، لقد قطعت لي القابلية !

فنهضت ، وكانت تحمل الطست على مدى ذراعيها ، وتخطّت اجساماً فاتجهت نحو الباب .

قال شارل : — اننا هنا هادئون . ربما كانوا دزينة من الرجال ، وهنا عشرون حافلة ينبغي إفراغها . فحتّى يصلوا الينا ...

— الا اذا بدأوا بالذّنَب .

ووضع شارل معصمه امام عينيه :

— اين تراهم سيضعوننا ؟ في قاعات الانتظار ؟

— اتصور ذلك .

— يزعجني قليلا ان اترك هذه الحافلة . لقد اقمت فيها ركني .وانت ؟

فقال لها : — يكفيني انا ان اكون معك ...

وصاح بلانشار : — ها هم اولاء .

ودخل رجال الى الحافلة . وبدوا سوداً لأنهم كانوا يولون النور ظهرهم ، وقد ارتسمت ظلالهم على الجدار ، فكأنما كانوا يدخلون من الجهتين في وقت واحد . وساد الصمت ، فقالت كاترين بصوت منخفض:

— قلت لك انهم سيبدأون بنا .

فلم يجب شارل . ورأى رجلين ينحنيان فوق مريض،فانقبض قلبه : كان جاك نائماً ، وكان أنفه يغني . ولم تكن تستطيع النوم ؛ انها لن تنام قبل ان يعود،ورأى شارل امام قدميه تماماً ظلاً ضخماً ينحني ، انهم ينقلون الرفيق الأمامي ، وبعد ذلك يأتي دوري ، والليل ، والدخان ، والبرد ، والاهتزاز ، والمحطات المقفرة ، كان خائفـــاً . وكان تحت الباب شعاع من نور ، وسمعت ضجة في الطابق الارضي . ها هوذا : وعرفت مشيته في السلم ، فهبط السلام في اعماقها : انه هنـــا ، تحت سقفنا ، اني املكه . ليلة اخرى . الاخيرة . وفتح ماتيو الباب ، ثم اغلقه ، وفتح النافذة فأغلق المصاريع ، وسمعت الماء يجري . سوف ينام في الطرف المقابل لهذا الجدار ، تحت سقفنا .

قال شارل : — هذا دوري . قولي لهم ان ينقلوك فوراً بعدي : وشد بقوة على يدها ، بينما كان الرجلان ينحنيان عليه فينتقّى في

وجهه نفساً خمرياً .

قال الرجل : — هان ! خلفه .

وأخذه الخوف فجأة فحرك مرآته بينما كانا يحملانه ، وكان يريد ان يرى اذا كانت تتبعه . ولكنه لم يلحظ الا كتفي الحمّال ورأسه الشبيه برأس طير الليل .

وصرخ : — كاترين .

فلم يتلق اي جواب . وكان يتأرجح فوق العتبة ، وكان الرجل يصدر الاوامر خلفه، وانخفض ساقاه فحسب انه يسقط ، وقال :

— على مهل ، على مهل .

ولكنه كان قد بدأ يرى النجوم في السماء السوداء ، وكان الطقس بارداً .

وسأل : — هل هي تتبعني ؟

فسأله الرجل ذو الرأس العصفوري :

— من هي ؟

— جارتي . انها صديقة .

قال الرجل : — سنهتمّ بالنساء فيما بعد . ولن نضعكم في مكان واحد.

فأخذ شارل يرتجف ، وقال :

— ولكني كنت أظن ...

— ولكنكم لا تريدون على اي حال ان يَبلُلْن امامكم ؟

قال شارل : — كنت اظن . . كنت أظن ...

وأمرّ يده على جبينه وجعل فجأة يهذر :

— كاترين ! كاترين ! كاترين !

وكان يتأرجح على اذرعتها ، وكان يرى النجوم ، وكان مصباح ينبثق في عينيه ، ثم النجوم ، ثم مصباح ، وكان يصيح :

— كاترين ! كاترين !

قال الحمّال الخلفي : — ان هذا مجنون ! هل تراك ستخرس ؟

فقال شارل بصوت تخنقه الدموع :

— ولكني لا اعرف حتى اسمها . سوف أفقدها الى الابد .

ووضعاه على الارض ، ثم فتحا باباً ، وحملاه من جديد ، فرأى سقفاً أصفر كئيباً ، وسمع الباب ينغلق ، ووقع في الشرك . وقال بينما كانوا يضعونه ارضاً :

— قذرون ! قذرون !

فقال الرجل صاحب الرأس العصفوري :

— ولكن ، اسمع انت !

قال الآخر : — دعه . فانت ترى انه يشتغل من قبعته .

وسمع خطاهمـــا تتلاشى ، وانفتح الباب ثم انغلق . وقال صوت بلانشار :

— عجباً ، كيف نلتقي من جديد .

وفي اللحظة نفسها ، تلقى شارل دفقـــةً من ماء في وجهه ، ولكنه صمت ، وظلّ جامداً ، كالميت ، ينظر الى السقف ، وعيناه مفتوحتان على سعتهما ، بينما كان الماء يسيل في اذنيه وعلى عنقه . لم تكن تريد ان تنام ، وظلت جامدة على ظهرها ، في الغرفة المظلمة ؛ انه ينام ، ولن يلبث طويلاً حتى يستغرق في النوم ، فأحرسه أنا . انه قوي ، انه نقيّ ، وقد علم هذا الصباح انه ذاهب الى الحرب ، فلم يرتعش حتى جفناه . اما الآن ، فهو منزوع السلاح ؛ سوف ينام ، وهذه هي الليلة الاخيرة . وفكرت : آه ، كم هو خيالي .

كانت غرفة معطرة دافئة ، ذات اضواء أطلسية وازهار في كل مكان . قالت :

— ادخل .

فدخل غوميز ، ونظر فيما حوله ، فرأى دميةً على ديوان وفكر في

« توريبول » . لقد سبق له ان نام في غرفة شبيهة كل الشبه ، ذات مصابيح ودمى وازهار ، ولكن بلا عطر ولا سقف . وكان في وسط الارض الخشبية ثقب .

– لماذا تبتسم ؟

فقال : – هذا مكان لطيف .

واقتربت منه :

– اذا كانت الغرفة تعجبك ، فبامكانك ان تعود اليها متى شئت .

قال غوميز : – اني ذاهب غداً .

قالت : – غداً ؟ واين انت ذاهب ؟

وكانت تنظر اليه بعينيها الجميلتين اللتين لا تعبير فيهما .

– الى اسبانيا ..

– الى اسبانيا ؟ انك اذن ...

قال : – نعم ، انا جندي في مأذونية .

وسألته : – ومع اي جانب انت ؟

– مع اي جانب تريدين ان اكون ؟

– مع جانب فرانكو ؟

– طبعاً !

فأحاطت عنقه بذراعيها :

– يا جنديّ الجميل !

وكان لها نَفَسٌ لذيذ ، فقبّلها . وقالت :

– ليلة واحدة . ليس هذا بالكثير . التقيت اخيراً برجلٍ يروق لي !

قال : – سوف اعود ، حين يكون فرانكو قد ربح الحرب ...

وقبّلته مرة اخرى ثم تخلّصت بلطف :

– انتظرني . ان على الطاولة زجاجتيْ « جن » وويسكي .

وفتحت باب غرفة التواليت واختفت . وذهب غوميز الى الطاولة

فملأ قدحاً من الجن . كانت الشاحنات تجري ، وكان الزجاج يهتز ، وافاقت ساره منتفضة ، فجلست على السرير ، وهي تتساءل : « ولكن كم يبلغ عددهـا ، انها لا تكاد تنتهي » . شاحنات ثقيلة ، سبق ان طليت للتضليل ، وعلى ظهرها أغطية رمادية وخطوط خضراء وسمراء، ولا بدّ انهـا ملأى بالجنود والاسلحة . وفكرت : « انها الحرب » وأخذت تبكي . « كاترين ! كاترين ! » لقد بقيت عامين ، وهي جافّة العينين ، وحين صعد غوميز الى القطار ، لم تجد دمعة واحدة . اما الآن ، فان الدمع يسيل . « كاترين ! » كانت الغصّات تهزّها، فارتمت على الوسادة ، وكانت تبكي وهي تعضّها حتى لا توقظ الصغير. وشرب غوميز جرعة جن فوجده لذيذاً . وخطا بضع خطوات في الغرفة ثم جلس على الديوان . وكان يمسك قدحه بيد ، وباليد الاخرى قبض على الدمية من رقبتها وأجلسها على ركبتيه . وكان يسمع ماء صنبور يجري في غرفة التواليت ، فكانت عذوبة معهودة تصعد في خاصرتيه ، كيدين ملساوين . كان سعيداً ، وشرب ، وفكر : « انني قوي » . وكانت الشاحنات تجري ، والزجاج يهتز ، وماء الصنبور يجري، وغوميز يفكر : « انني قوي ، وانا احب الحياة ، واخاطر بحياتي ، وانتظر الموت غداً ، وفي هذه الساعة، ولا أخشاه ، احب الترف، وسوف اجد البؤس والجوع . اعرف ما اريد ، اعرف لماذا اقاتل ، آمر فأطاع ، زهدت في كل شيء ، في الرسم والمجد ، وانني لسعيد » . وفكر في ماتيو وقال في نفسه : « انني لا اودّ ان اكون في جلده » . وفتحت الباب ، وكانت عارية في ثوبها الوردي وقالت :

— هأنذي .

قال : — هكذا إذن ! آه ! خراء إذن !

وكانت قد قضت نصف ساعة في غرفة التواليت وهي تغتسل وتتعطّر، لأن البيض لم يكونوا يحبون رائحتها دائماً ، واقتربت منه مبتسمة مفتوحة

الذراعين ، وكان ينام عارياً في السرير ، ورأسه غارق في الوسادة . فأخذته من كتفه وهزّته بغضب ، وقلت بصوت مصفّر :

— أتريد ان تستيقظ ، ايها الوسخ الصغير ، اتريد ان تستيقظ ؟

وفتح اجفانه ونظر اليها بعينيه المبهمتين . وضع القدح على الرفّ ، والدمية على الديوان. فنهض على غير عجل وأخذها بين ذراعيه . وكان سعيداً .

سأل غرولويس : — هل تستطيع ان تقرأ هذا ؟

فدفعه العامل : — هذه هي المرة الثالثة التي تطرح عليّ فيها السؤال. قلت لك انك ذاهب الى مونبلييه .

— وأين هو قطار مونبلييه ؟

— انه يتحرك في الساعة الرابعة صباحاً ، وهو لم يصل .

فنظر اليه غرولويس في قلق :

— ما الذي ينبغي ان أعمله إذن ؟

— التصق بقاعة الانتظار ، وخذ لك غفوة حتى الساعة الرابعة . هل معك تذكرتك ؟

قال غرولويس : — لا .

— إذهب اذن فاقطعها ، لا ، ليس من هنا ! آه ! ايّ حمار صغير : بل عند النافذة يا مجنون .

فاتجه غرولويس الى النافذة ، وكان ثمة موظف ذو نظارات يغفو خلف الزجاج . قال غرولويس :

— هيه !

فانتفض الموظف ، وقال غرولويس :

— اني ذاهب الى مونبلييه .

وكان يبدو الاندهاش على الموظف ، ولا ريب في انه لم يكن قد أفاق تماماً . ومع ذلك ، فقد انتاب روح غرولويس شك جديد :

— هل هي مونبلييه المكتوبة هنا ؟
وأراه دفتره العسكري . فقال الموظف :
— مونبلييه . ربع محلّ . خمسة عشر فرنكاً .
فمدّ غرولويس المئة فرنك التي أعطته إياها المرأة ، وقال :
— والآن ، ما الذي ينبغي ان أعمله ؟
— اذهب الى قاعة الانتظار .
— في اية ساعة يسير القطار ؟
— في الساعة الرابعة . الا تعرف القراءة ؟
قال غرولويس : — لا .
وتردّد في الذهاب وسأل :
— أصحيح ان الحرب ستقع ؟
فهزّ الموظف كتفيه :
— ما الذي يدريني ؟ ان هذا غير مكتوب في الدليل ، أليس كذلك؟
ونهض واتجه نحو داخل الغرفة ، وكان يتظاهر بأنه يراجع اوراقاً، ولكنه لم يلبث بعد لحظة ان جلس ، ووضع رأسه بين يديه وعاد الى غفوته . ونظر غرولويس فيما حوله ، وكان يودّ لو يجد شخصاً يدلي له بالمعلومات عن قصص الحرب هذه ، ولكن الساحة كانت مقفرة ، فقال : « إذن سأذهب الى قاعـة الانتظار » وعبر الساحة وهو يجرّ قدميه : كان ناعساً ، وكانت أليتاه تؤلمانه .
وأنّ فيليب : — دعيني انام .
قالت فلوسي : — فيما بعد . بكر ! يجب ان تنتهي منها ، وسوف يُسعدني ذلك .
ودفع الباب فدخل القاعة : وكانت ملأى بالناس الذين ينامون على المقاعد وبالحقائب والرزم ملقاة على الارض . وكان النور حزيناً ، وكان الباب الزجاجيّ ينفتح في الداخل على ظلام . واقترب من مقعد فجلس

بين امرأتين . وكانت احداهما تعرق وتنام فاغرة الفم ، وكان العرق يسيل على وجنتيها ، فيخلّف آثاراً وردية . اما الاخرى فقد فتحت عينيها ونظرت اليه، فقال غرولويس شارحاً :

– لقد دُعيت الى الجندية ، ويجب ان اذهب الى مونبلييه .

فابتعدت المرأة بحيوية ، ورمته بنظرة مليئة بالتوبيخ . وفكر غرولويس بأنها لم تكن تحب الجنود ، ولكنه سألها مع ذلك :

– ترى هل ستقع الحرب ؟

فلم تجب : وكانت قد قلبت رأسها الى الوراء ، وعادت الى النوم ، وكان غرولويس يخشى ان ينام . وقال : « اذا نمت ، فلن استيقظ ابداً » . ومدّ ساقيه ، وكان يودّ لو يأكل شيئاً ما صغيراً ، خبزاً او مقانق مثلاً ؛ كان ما يزال معه مال ، ولكن الوقت كان ليلاً ، وجميع الحوانيت كانت مغلقة . وقال : « ولكن نحن في حرب مع من ؟ » لا ريب في ان ذلك كان مع الألمان . وربما كان هذا بسبب الألزاس واللورين . وكان ثمة جريدة ملقاة على الارض ، عند قدميه ؛ فلمّها ثم فكر بالمرأة الطيبة التي ضمدت له رأسه وقال : كان ينبغي الاّ أذهب . وقال : حسناً ، ولكن اين كنت سأكون ، فليس معي مال بعد . وقال : اما في الثكنة فانهم يطعمونني . ولكنه لم يكن يحب الثكنات . ولا قاعات الانتظار . واحسّ دفعة واحدة انه كان حزيناً ومُفرغاً . لقد اسكروه وضربوه ، وها هم الآن يرسلونه الى مونبلييه، وقال : يا ربي ! اني لا افهم شيئاً من ذلك . وقال : ذلك لأني لا اعرف القـــراءة : وجميع هؤلاء الذين ينامون كانوا يعرفونها خيراً منه ؛ كانوا قد قرأوا الجريدة ، وكانوا يعرفون لماذا ستقع الحرب ؛ اما هو ، فقد كان وحيداً في الليل ، وحيداً وصغيراً ، لم يكن يعرف شيئاً ، ولم يكن يفهم شيئاً ، فكأنه كان قادماً على الموت . ثم انه أحسّ بالجريدة تحت أصابعه : كان ذلك مكتوباً هنا . لقد كتبوا كل

شيء : الحرب ، الطقس غداً ، أسعار الحاجيات ، ساعات القطارات، وفتح الجريدة ونظر ، فرأى الوفاً من اللطخات السوداء ، وكانت تشبه ملفات الاراغن البربرية ، مع هذه الثقوب في الورق التي تحدث اصواتاً حين يُدار المحرّك . ان من ينظر اليها طويلاً يصاب بالدوار . وكان ثمة صورة ايضاً . رجل نظيف مسرّح الشعر يضحك . وترك الجريدة تسقط ، وأخذ يبكي .

الاثنين ٢٦ ايلول

الساعة ١٦٫٣٠ . الجميع ينظرون الى السماء ، وانا انظر الى السماء، وقال دومور : « انهم لم يتأخروا » . وقد اخرج آلته التصويرية ، وهو ينظر الى السماء ، فيكزّ وجهه ، بسبب الشمس . وكانت الطائرة تارة سوداء ، وتارة ملتمعة ، وقد تضخّمت ولكن هديرها ظلّ هو نفسه ، هدير جميل ملىء يروق سماعه . وقالت : « لا تدفعوني » : وكانوا جميعاً هنا ، يتدافعون خلفي . والتفتّ : انهم يقلبون رؤوسهم الى الوراء ، فتكزّ وجوههم ، ويبدون خضراً تحت الشمس ، وتتحرك اجسامهم حركات مبهمة كحركات الضفادع المقطّعة الاوصال . وقال دومور : « سيأتي يومٌ نكون فيه هكذا مرفوعي الأنف في الهواء ، ونحن في معسكر ؛ غير اننا سنكون مرتدين الثوب الكاكي ، وستكون الطائرة من طراز مسرشميت » . فقلت : « لن يكون هذا غداً ، اذا تذكّرنا جميع هذه البيضات الرخوة » ورسمت الطائرة دوائر في السماء ، وهبطت واصطدمت بالارض ، وصعدت واصطدمت مرة اخرى ، ودرجت على العشب وهي تقفز ، وتوقفت . وركضنا نحو الطائرة ، ونحن خمسون ، وركض سارو امامنا منطوياً الى اثنين؛ وهناك زهاء عشرة من السادة بطاقياتهم يعدون على العشب وهم يلوون أقدامهم، ويتجمّد الجميع ، وتفقد الطائرة الروح ، فننظر اليها صامتين ، وبابـ

المقاعد ما يزال مقفلاً ، فكأنهم جميعهم قد ماتوا في الداخل . وحملني شخص في ثوب أزرق سلّماً فأسنده الى الطائرة ، وانفتح الباب ، فنزل شخص على السلّم ثم آخر ثم دلاديه . ويخفق قلبي في رأسي ، ويرفع دلاديه الكتفين ويخفض الرأس ؛ ويقترب منه سارو ، فأسمعه يقول :

– ماذا جرى ؟

فأخرج دلاديه يداً من جيبه وقام بحركة غامضة ، ويدلف وهو خافض الرأس فيرتمي عليه القطيع ويغطّيه ؛ ولا أتحرك ، فانا اعرف انه لن يقول شيئاً . ويقفز الجنرال غاملان من الطائرة . انه نشيط ، وهو ينتعل حذاء جميلا ويحمل رأساً شبيهاً برأس كلب الحراسة . وينظر امامه نظرة فتيّة قارصة .

وسأل سارو : – واذن ، ماذا يا جنرالي ؟ هل هي الحرب ؟

قال الجنرال : – إيه ، يا إلهي .

وجفّ فيّ ، سأموت في ذلك ! وصرخت الى دومور : « انني أفرنقع . خذ صورك وحدك » . وعدوت الى باب الخروج ، وعدوت في الشارع وناديت سيارة تاكسي وقلت : « الى الاومانيته » فابتسم السائق ، وابتسمت له ، فقال :

– واذن ، ايها الرفيق ؟

فاجبته :

– انتهى الأمر ، انهــا في استهم هذه المرة ؛ ولم يستطيعوا ان يتراجعوا .

وجرى التاكسي بأقصى سرعته ، وجعلت انظر الى البيوت والناس ؛ ان الناس لا يعرفــون شيئاً ، وهم لا يتنبهون للتاكسي ، والتاكسي يجري بينهم بأقصى سرعة حاملا شخصاً يعرف . وأضع رأسي على الباب ، وتأخذني الرغبة في ان أصيح بهم ان الأمر قد انتهى . واقفز

خارج التاكسي ، فأدفع وأرقى الدرج بسرعة شديدة . انهم كلهم هنا : دوبريه ، شارفيل ، رونار وشابو . وهم بالقمصان ذات الأكمام القصيرة ، رونار يدخّن ، وشارفيل يكتب ، ودوبريه ينظر من النافذة . وينظرون اليّ في دهشة . فأقول لهم :

— تعالوا ايها الرفاق ، انزلوا ، انها نوبتي .

ولا يكفّون عن النظر اليّ ، ويرفع شارفيل رأسه فينظر اليّ ، وأقول :

— انتهى الأمر ، انتهى الأمر ، انها الحرب ، إنزلوا ، انها نوبتي ، فانا ادفع ثمن الشراب .

قالت صاحبة الفندق : — ان لديك قبعة جميلة .

فقالت فلوسي : — أليس كذلك .

ونظرت في مرآة المدخل وقالت برضى :

— ان لها ريشاً .

قالت صاحبة الفندق : — اوه ، نعم (واضافت) ان لديك شخصاً، ولم تستطع مادلين ان تنظف الغرفة .

قالت فلوسي : — اعرف ذلك ، ولا بأس : سأنظّفها انا نفسي.

ورقيت السلّم فدفعت باب غرفتها . كانت المصاريع مغلقة ، وكانت الغرفة تبعث رائحة الليل . وشدّت فلوسي الباب على مهل وذهبت تدق على الرقم ١٥ .

وقال صوت « زو » الأبحّ : — من هناك ؟

— انا فلوسي .

وانت زو تفتح وهي في سروالها القصير :

— ادخلي بسرعة .

فدخلت فلوسي . ورمت زو شعرها الى الوراء ، وانزرعت في وسط الغرفة ، وشرعت تراكم نهديها الضخمين في رافعة . وفكرت فلوسي بأن

عليها ان تحلق إبطيها . وسألت :
ـ الآن فقط تنهضين ؟
قالت زو : ـ لقد نمت في الساعة السادسة . فماذا هناك !
قالت فلومي : ـ تعالي لتري صاحبي العظيم .
ـ ماذا تحكين ايتها الزنجية ؟
ـ تعالي لتري صاحبي العظيم .
فارتدت زو معطفاً وتبعتها في الممر . وأدخلتها فلومي الى الغرفة وهي تضع إصبعاً على شفتيها . وقالت زو :
ـ انني لا ارى شيئاً .
فدفعتها فلومي نحو السرير وهمست :
ـ انظري .
وانحنتا كلتاهما ، وأخذت زو تضحك بصمت ، وقالت :
ـ طز ! طز ! انه طفل .
ـ اسمه فيليب .
ـ كم هو جميل !
وكان فيليب نائماً على ظهره ، وكان يبدو كأنه ملاك . وكانت فلومي تنظر اليه في مزيج من الافتتان والحقد . وقالت زو :
ـ انه اشدّ شقرة مني .
قالت فلومي : ـ هو بكر .
فنظرت اليها زو وهي تضحك بدقّة :
ـ كان .
ـ ماذا ؟
ـ تقولين : هو بكر . فأقول لك : كان بكراً .
ـ آه ! آه ! نعم ، ولكن ، اظنّ انه بقي كذلك .
ـ بلا مزاح !

قالت فلوسي بجفاء : — انه ينام هكذا منذ الساعة الثانية صباحاً .
وفتح فيليب عينيه ، فنظر الى المرأتين اللتين كانتا منحنيتين فوقه ، وقال : « هو ! » ثم انقلب على بطنه . وقالت فلوسي .
— انظري .
ونزعت الغطاء ، فبدا الجسم ابيض عارياً . وأدارت زو عينيها في محجريها وقالت :
— ميام ! ميام ! غطيّه ، والا ارتكبتُ الحماقات الجنونية .
وأمرّت فلوسي يداً خفيفة على خاصرتي الصغير الضيقتين ، وعلى إليتيه الفتيّتين الدقيقتين ، ثم ردّت الغطاء وهي تتنهّد .
قال السيد بيرنانشاتز : — اعطني واحد « نوايـي — كامي »
وتداعى للسقوط على المقعد وهو يمسح جبهته . وكان يستطيع ان يراقب عبر مرايا الباب مدخل مكتبه . وسأل « نو » :
— ماذا تأخذ ؟
فقال « نو » : — الشيء نفسه .
وكان الخادم يبتعد ، فناداه « نو » :
— إجلب لي « الانفورماسيون » .
وتبادلا النظر في صمت ، ثم رفع نو ذراعه فجأة في الهواء وقال :
— اي ! اي ! اي ! اي ! يا عزيزي بيرنانشاتز !
قال السيد بيرنانشاتز : — نعم .
وملأ الخادم قدحيهما ومدّ الجريدة الى نو . ونظر الى بيان أسعار اليوم ، فكزّ وجهه ووضع الجريدة على الطاولة قائلا :
— سيء .
— طبعاً . ماذا تريدهم ان يصنعوا ؟ انهم ينتظرون خطاب هتلر .
واجال السيد بيرنانشاتز نظرة شرسة على الجدران والمرايا . وكان في العادة يحب هذا المقهى الصغير الناعم ؛ اما اليوم ، فقد كان يغيظه

الا يكون فيه على رضى . واستطرد قائلا :

– ليس ثمة بعد الا الانتظار . لقد فعل دلاديه ما في استطاعته ، وفعل شمبرلن ما في استطاعتــه ، وليس ثمة بعد الا الانتظار الآن . سوف نتعشى بلا قابلية ، ومنذ الساعة الثامنة والنصف ، سندير مفتاح الراديو لنسمع هــذا الخطاب (واضاف فجأة وهو يضرب الطاولة) . ننتظر ماذا ؟ أهواء رجل واحد . رجل واحد . ان الاعمال في كساد ، والبورصة هابطة ، ووكلائي مقاوبو الرؤوس ، وقد جُنِّد « مي » المسكين : كل ذلك بسبب رجل واحد ، فالحرب والسلم هما بين يديه . ان ذلك يجعلني أخجل من أجل الانسانية .

نهض برونيه ، فنظرت اليه السيدة سامبوليه ، وكان يروقها قليلا : فلا بدّ انه يضاجع جيداً ؛ بهدوء وصمم ، وببطء قروي ، وسألته :

– ألا تبقى ؟ سوف تتعشى معي .

واشارت الى جهاز الراديو وأضافت :

– سأقدّم لك كمهضّم خطابَ هتلر .

قال برونيه : – ان لديّ موعداً في الساعة السابعة . ثم بكل صراحة : طز بخطاب هتلر .

فنظرت اليه السيدة سامبوليه من غير ان تفهم . قال برونيه :

– اذا ارادت المانيا الرأسمالية ان تعيش ، فهي بحاجة الى جميع الاسواق الاوروبية. فيجب اذن ان تزيل بالقوة جميع منافسيها الصناعيين . (واضاف بحزم) إن على المانيا ان تخوض الحرب ، وعليها ان تخسرها . فلو قتل هتلر عام ١٩١٤ لكنّا تماماً حيث نحن الآن .

قالت السيدة سامبوليه وحلقها منقبض :

– هذه القضية التشيكية ليست اذن خدعة ؟

قال برونيه : – ربما كانت خدعة في رأس هتلر . ولكن ما في رأس هتلر لا اهمية له على الإطلاق .

وأكّد بيرنانشاتز : — انه ما يزال يستطيع ان يمنعها . اذا اراد ، استطاع منعها . فجميع الوسائل في يده : ان انكلترا لا تريد الحرب ، واميركا أبعد مما ينبغي ، وبولونيا تمشي معهـا ؛ فلو أراد ، أصبح غداً سيد العالم ومن غير ان يطلق طلقة مدفع واحدة.لقد قبل التشيكيون المشروع الفرنسي — الانكليزي ، فليس له الا ان يقبله هو ايضاً،فاذا أعطى دليل الاعتدال هذا ...

قال برونيه : — انه لا يستطيع بعد ان يتراجع . والمانيا كلها من ورائه تدفعه .

قالت السيدة سامبوليه : — ولكننا نستطيع نحن ان نتراجع .

فنظر اليها برونيه وأخذ يضحك ، ثم قال :

— آه ، صحيح ، نسيت انك مسالمة .

وقلب نو العلبة فسقطت قطع الدومينو على الطاولة ، وقال :

— اي ! اي ! اني اخاف اعتدال هتلر . هل تتصور النفوذ الذي سيُكسبه إيّاه ذلك ؟

وكان قد انحنى على السيد بيرنانشاتز واخذ يهمس في اذنه . فابتعد السيد بيرنانشاتز في انزعاج : ان نو لم يكن يستطيع ان يقول ثلاث كلمات من غير ان يهمس بهيئة متآمر ، بينما تكون يداه تطيران في الجو .

— اذا قبل المشروع الفرنسي — الانكليزي ، فان دوريو سيتسلّم الحكم بعد ثلاثة أشهر .

قال السيد بيرنانشاتز وهو يهزّ كتفيه : — دوريو ...

— دوريو او سواه .

— وبعد ذلك ؟

قال نو وهو يخفض صوته : — ونحن ؟

فنظر السيد بيرنانشاتز الى فمه الأليم الضخم وأحس بان الغضب كان يحرّ اذنيه ، فقال بجفاء :

– كل شيء خير من الحرب .

– اعطني الرسالة ، فان الصغيرة ستضعها في البريد .

فوضع الظرف على الطاولة بين آنية ووعاء من القصدير : الآنسة ايفيش سرغين ، ١٢ شارع الميجيسيري ، لاون . وألقت اوديت نظرة على العنوان ، ولكنها لم تعلّق اي تعليق ، وكانت تنتهي من عقد خيط حول رزمة كبيرة .

قالت : – نا ! نا ! نا ! سأنتهي ، فلا تفقد صبرك .

كان المطبخ ابيض نظيفاً ، دار تمريض . وكانت تنبعث منه رائحة الصمغ والبحر .

قالت اوديت : – لقد وضعت جناحي دجاجة ، وبعض الجيليه ، لأنك تحبّه ، ثم بعض قطع من الخبز وسندويش الخنزير النيء . وفي زجاجة الترموس خمر . وليس عليك الا ان تحتفظ بها ، فهي سوف تنفعك هناك .

وبحث عن نظرها ،ولكنها أخفضت عينيها على الرزمة وبدت منهمكة . وركضت الى الخزانة ، فقطعت طرفاً طويلاً من خيط وعادت الى رزمتها وهي تعدو .

قال ماتيو : – انها مربوطة جيداً .

وأخذت الخادمة الصغيرة تضحك ، ولكن اوديت لم تجب . ووضعت الخيط في فمها ، فأمسكته وهي تقرض شفتيها ، وقلبت الرزمة بخفة على ظهرها . وملأت رائحة الصمغ فجأة منخري ماتيو ، وخيّل اليه للمرة الاولى منذ امس الاول ان شيئاً ما كان حوله وسوف يسعه ان يتحسّر عليه . كان سلام هذا الأصيل في المطبخ ، وهذه الاعمال المنزلية الهادئة ، وهذه الشمس التي تصفّح الستارة والتي تسقط فتاتاً على البلاط ، ووراء هذا كله ربما كانت طفولته ، ولوناً من الحياة الهادئة الناشطة رفضه مرة والى الأبد .

قالت اوديت : — ضع اصبعك هنا .

فاقترب وانحنى فوق رقبتها ، وضغط اصبعه على الخيط . وود ان يقول لها بعض كلمات رقيقة ، ولكن صوت اوديت لم يكن يدعو الى الرقة . ورفعت عينيها عليه :

— هل تريد بيضاً مسلوقاً ؟ بوسعك ان تضعه في جيبك .

وكانت تشبه فتاة صبية . انه لن يتحسّر عليها . ربما لأنها كانت زوجة جاك . وفكر في انه سينسى سريعاً هذا الوجه المتواضع الى ذلك الحد . ولكنه كان يود لو ان ذهابه يحدث لديها بعض الأسف . وقال:

— لا ، اشكرك . لا اريد بيضاً مسلوقاً .

فوضعت له الرزمة تحت ذراعه وقالت :

— هكذا . رزمة جميلة .

وقال لها :

— إصحبيني الى المحطة .

فهزّت رأسها نفياً :

— كلا . ان جاك هو الذي يصحبك . واعتقد انه يفضل ان يبقى وحده معك ، للدقائق الاخيرة .

قال : — اذن وداعاً . هل ستكتبين لي ؟

— ان ذلك سيخجلني . فانا اكتب رسائل فتاة صغيرة ، ملأى بالاخطاء الإملائية . كلا ، بل سأبعث لك برزم .

قال : — اود لو تكتبين لي .

— اذن ، بين الفترة والفترة ، ستجد كلمة صغيره بين علبة السردين ورزمة الصابون .

ومد لها يده فصافحته بسرعة . وكانت لها يد ملتهبة جافة . وكان يفكر بغموض : « ان هذا مؤسف » لقد سالت الأصابع الطويلة بين أصابعه كرمل حار . وابتسم وخرج من المطبخ . وكان جاك راكعاً

في الصالون امام آلة الراديو يحرّك ازرارها ؛ واذ كان يقترب من غرفته ، سمع خلفه ضجة خفيفة فالتفت : فاذا هي اوديت . كانت واقفة على آخر درجة ، وكانت تنظر اليه وهي ممتقعة ، وقال :

— اوديت .

فلم تجب ، وظلت تنظر اليه نظرة قاسية . وأحس بالضيق ، فنقل الرزمة الى ذراعه اليسرى ليتمالك نفسه وردّد :

— اوديت .

فاقتربت منه ، فرأى لها وجهاً نبوياً واضحاً لم يكن يعرفه . وقالت:

— وداعاً .

وكانت قريبة منه كل القرب . وأغمضت عينيها ، ثم وضعت شفتيها فجأة على شفتيه . وتحرك ليأخذهــا بين ذراعيه ولكنها افلتت منه ، وسرعان ما استعادت هيئتها المتواضعة ، فهبطت السلم من غير ان تلوي عليه .

ودخل غرفته فوضع الرزمة في حقيبته . وكانت ملأى حتى انه اضطر الى الركوع على قفلها ليغلقها .

قال فيليب : — ما هذا ؟

كان قد استقام منتفضاً ، وهو ينظر الى فلوسي في رعب ، فقال :

— هذه انا ، يا طفلي الصغير .

فتداعى للسقوط الى خلف وهو يرفع يده الى جبينه . وأنّ قائلا :

— ان بي صداعاً .

ففتحت درج طاولة الليل وأخرجت انبوب اسبرين ؛ وفتح درج الطاولة ، فأخرج منها قدحاً وزجاجة « برنو » ووضعها على المكتب الرئيسي واسترخى في أريكته . وكان محرك الطائرة ما زال يدور في رأسه ؛ وكان لديه ربع ساعة ، ربع ساعة بالضبط ، ليسترد هدوءه، وسكب برنو في القدح وتناول ابريق ماء على الطاولة فقلبه فوق القدح.

وكان السائل يتحرك ويتخذ لوناً فضياً في موجات متلاحقة . ونزع عقب سيجارته عن شفته السفلى ورماها في سلة الاوراق . لقد فعلت كل ما في استطاعتي . وكان يستشعر الفراغ . وفكر : « فرنسا ... فرنسا ... » وشرب جرعة من البرنو . لقد فعلت كل ما في استطاعتي ؛ والكلمة الآن لهتلر . وشرب جرعة من البرنو وطقطق لسانه ، وفكر : « ان وضع فرنسا محـــدّد بوضوح » . وفكر : « وليس لي الآن الا ان انتظر » . وكان مجهداً ، ومدّ ساقيه تحت المكتب وفكر في نوع من الرضى : « ليس امامي الا ان انتظر » كجميع النـــاس . لقد لُعبت اللعبة . وكان قد قال : « اذا انتُهكت الحدود التشيكية ، فان فرنسا ستقوم بالتزاماتها » . وكان شمبرلن قد اجاب : « اذا كان من نتيجة هذه الالتزامات ان تجد القوات الفرنسية نفسها منخرطة تماماً في العمليات الحربية ضد المانيا ، فسوف نشعر بواجب مساعدتها » .

وتقدم السير نيفل هندرسون ، وكان السير هوراس ويلسون واقفاً خلفه باستقامة ، ومدّ السير نيفل هندرسون الرسالة الى مستشار الريخ ؛ فتناول مستشار الريخ الرسالة من يديه وأخذ يقرأهـــا . وحين انتهى مستشار الريخ سأل السير نيفل هندرسون :

— أهذه هي رسالة السيد تشمبرلن ؟

وشرب دلادييه جرعة برنو ، وتنهّد ، واجاب السير نيفل هندرسون بحزم :

— نعم ، هذه هي رسالة السيد تشمبرلن .

ونهض دلادييه وذهب يضع زجاجة البرنو في درج الطاولة ؛ وقال مستشار الريخ بصوته الأبحّ :

— تستطيع ان تعتبر خطابي هذا المساء جواباً على رسالة السيد شمبرلن .

وكان دلادييه يفكر : « اي فرْج ! اي فرْج ! ما الذي سيقوله ؟ »

وكان سكر خفيف يصعد الى صدغيه وهو يفكر : ان الاحداث تفلت مني . وكان ذلك كراحة كبرى . وفكر : لقد فعلت كل شيء من اجل تجنّب الحرب ، وليست الحرب والسلم الآن بين يدي ، لم يكن ثمة شيء بعد يُقرَّر ، لم يكن ثمة الا الانتظار ، كجميع الناس. كذلك الفحام في الزاوية . وابتسم ، لقد كان فحّامَ الزاوية ، وكانوا قد جرّدوه من مسؤولياته ، ان موقف فرنسا محدّد بوضوح ... كان ذلك راحة كبرى . وكان يحدّق في زهور السجادة المعتمة ، ويشعر بالدوار يصعد فيه . السلم ، الحرب ، لقد بذلت كل شيء للحفاظ على السلم ، ولكنه كان يتساءل الآن عما اذا كان لم يكن راغباً في ان يحمله هذا الشلال الدافق كذرة من القش ، كان يتساءل عما اذا لم يكن راغباً فجأة بهذه العطلة الهائلة : الحرب .

نظر حوله في ذهول وصاح :

– انني لم اذهب .

وكانت قد ذهبت تفتح المصاريع ، وعادت بالقرب من السرير فانحنت فوقه . وكانت تشكو الحر ، وقد شمّ رائحتها السمكية .

– ما الذي ترويه ايها الداعر الصغير ، ما الذي ترويه ؟

وكانت قد وضعت احدى يديها القويتين السوداوين على صدره . وكانت الشمس قد خلفت لطخة زيت على خدها الأيسر . ونظر اليها فيليب فأحس انه ذليل أعمق المذلة : كان لها تجعدات حول عينيها وعند زاويتي فمها . وفكر : « انها جميلة جداً في وضح النهار » وكانت تنفخ في وجهه وتدع لسانها الوردي يسيل في شفتيه . وفكر : انني لم اذهب . وقال لها :

– انك لست صبية بعد .

فكزت وجهها وأغلقت فمها . وقالت له :

– لست اصبى منك يا داعر .

واراد ان يخرج من مريره ، ولكنها كانت تمسكه بصلابة ؛ كان هارباً فاقد السلاح ؛ وكان يحس نفسه بائساً . وقالت :

– ايها الداعر الصغير ، ايها الداعر الصغير .

وهبطت اليدان السوداوان متمهلتين على خاصرتيه . وفكر : مهما يكن من أمر ، فانه لم يعط للجميع ان يفقدوا بكارتهم مع زنجية . تداعى للسقوط الى خلف ، فرأى تنانير سوداء ورمادية تدور على بضع بوصات من وجهه . وكان الشخص يزعق خلفه بصوت اضعف ، وكان ذلك أقرب الى الحشرجة ، نوعاً من القرقرة . وارتفع حذاء فوق رأسه ، فرأى نعلاً مدبباً ، وكانت قطعة من الوحل عالقةً بالكعب ؛ وحط النعل وهو يطن بالقرب من محمله ؛ كان حذاء ضخماً أسود ذا ازرار . ورفع عينيه فرأى جبة ، وفوقها في العالي ؛ منخرين مشعرين فوق صدره . وهمس بلانشار في اذنه :

– لا بد ان يكون الرفيق في حالة سيئة جداً لكي يأتوه بالكاهن .

فسأل شارل : – ما به ؟

– لا ادري ، ولكن بيارو يقول انه سينتهي .

وفكر شارل : لماذا لا أكون انا ؟ كان يرى حياته وكان يفكر : لماذا لا اكون انا ؟ ومر عاملان بالقرب منه ، فعرف قماش سرواليهما ؛ وكان يسمع خلفه صوت الكاهن العذب الهادىء ؛ وكان المريض قد كف عن الأنين ، ففكر : « ربما مات » . ومرت الممرضة وكانت تحمل طستاً بين يديها ، فقال بخجل :

– يا سيدتي ! الا تستطيعين ان تذهبي اليها الآن ؟

فخفضت نظرها عليه وهي تحمر من الغضب :

– أهذا أنت ايضاً ؟ ماذا تريد ؟

– الا تستطيعين ان ترسلي احداً الى النساء ؟ انها تُدعى كاترين .

فأجابت : – آه ! حل عن ظهري ! انها المرة الرابعة التي تطلب

فيها مني ذلك :
— كل ما اطلبه ان اعرف منها اسم عائلتها واعطيها اسم عائلتي ، ولن يزعجك هذا كثيراً .

فقالت بجفاء : — ان هنا شخصاً يحتضر . فانت ترى كيف أملك الوقت لأهتمّ بسخافتك .

ومضت فعاد الشخص الى انينه ؛ وكان ذلك شاقّ الاحتمال. وحرّك شارل مرآته ، فرأى جمعاً من الاجسام المتمددة جنباً الى جنب ، وفي الداخل ، ردف الكاهن الضخم راكعاً بالقرب من المريض . وكانت فوقهم مدخنة ذات مرآة مؤطّرة . ونهض الكاهن ، فانحنى الحمالون على الجسم وحملوه . وسأل بلانشار :

— هل مات ؟

ولم يكن لمحمل بلانشار مرآة دوّارة . وقال شارل :

— لا ادري .

ومر الموكب امامهم وهو يثير موجة من الغبار . فأخذ شارل يسعل ، ثم رأى ظهر الحمالين المنحني وهم متجهون نحو الباب . واستدار ثوب بالقرب منه ثم تجمّد فجأة . وسُمع صوت الممرضة :

— اننا هنا منقطعون عن كل شيء ، فنحن لا نعرف بعد الاخبار. كيف الحال يا سيدي الكاهن ؟

قال الكاهن : — ان الحال رديئة تماماً . رديئة تماماً . سيتكلم هتلر هذا المساء ، ولست ادري ما سوف يقوله ، ولكني اعتقد انها الحرب.

وكان الصوت يسقط موجات على وجه شارل. وأخذ شارل يضحك. فسأله بلانشار :

— ما الذي يضحكك ؟

— اضحك لأن الكاهن يقول بان الحرب ستقع ؛

قال بلانشار : — انني لا اجد ذلك مضحكاً .

قال شارل : — اما انا فأراه مضحكاً .

« ستكون لهم ، حربهم ؛ ستكون لهم في أستهم » . كان ما يزال يضحك : فعلى ارتفاع متر وسبعين كانت الحرب فوق رأسه ، كانت الحرب ، والشرف المهان ، والواجب الوطني ، اما على سطح الارض، فلم يكن ثمة حرب ولا سلم ، لا شيء الا بؤس الرجال الدون وعارهم، الفاسدين ، المتمددين . لم يكن بونيه يريدها ، وكان شامبوتيه دوريبس يريدها ؛ وكان دلادييه ينظر الى السجادة ، وكان ذلك كابوساً ، ولم يكن يستطيع ان يتحرر من هذا الدوار الذي امسكه خلف اذنيه : لتنفجر ! لتنفجر ! ليعلنها ، هذا المساء ، ذئب برلين الشرير الكبير! وضرب حذاءه بقوة على الارض الخشبية ، وعلى الارض الخشبية ، كان شارل يحس الدوار يصعد من بطنه الى رأسه : العار ، العار العذب ، العذب ، المريح ، انه لم يكن باقياً له غير هذا . وكانت الممرضة قد وصلت قرب البـــاب ، فتخطت جسماً وابتعد الكاهن ليدعها تمر . وصاح شارل :

— يا سيدتي ! يا سيدتي !

فالتفتت ، كبيرة قوية ، بوجه جميل ذي شارب وعينين غاضبتين. وقال شارل بصوت واضح أصدى في القاعة كلها :

— يا سيدتي ! يا سيدتي ! بسرعة ، بسرعة ! اعطيني الطست ، فاني مستعجل .

هوذا ! هوذا ! كانوا يدفعونهم من الخلف ، ودفعوا الشرطي الذي تراجع خطوة وهو يبسط ذراعيه ، وصاحوا : « هوراه ، هوذا ! » وكان يمشي بخطى صلبة هادئة ، وكان يتأبط ذراع زوجته ، وكان فريد متأثراً ، امي وابي ، يوم الأحد ، في غرينووش ، وصاح : « هوراه » كم هو رائع ان نراهما هنا ، هادئين مطمئنين ، فمنذا يجرؤ على ان يخاف ، حين يراهما يقومان بنزهتهما الصغيرة بعد الظهر ، كزوجين

قديمين متحدين كل الاتحاد ؟ وشد بقوة على صندوقه ، ورفعه فوق رأسه وصاح : « ليعش السلام ، هوراه ! » فالتفت كلاهما اليه ، وابتسم السيد شمبرلن له شخصياً ، واحس فريد ان الهدوء والسلام كانا يهبطان حتى اعماق فؤاده ، لقد كان محمياً ، مقوداً ، منتعشاً ، وكان شمبرلن العجوز ما يزال يجد الوسيلة ليتنزه بهدوء عبر الطرقات ، كأي انسان ، وليوجه له بسمة شخصية . وكان الجميع يصرخون « هوراه » حوله ، وكان فريد ينظر الى ظهر السيد شمبرلن الهزيل وهو يبتعد بخطوته الكهنوتية ، وفكر : انها انكلترا ، وصعدت الدموع الى عينيه ، انحنت سادي الصغيرة وأخذت صورة من تحت ذراع الشرطي .

– في الصف ، يا سيدتي ، في الصف كجميع الناس .

– هل يجب ان اقف في الصف لأحصل على نسخة من « باري سوار » ؟

– طبعاً ! وحتى في هذا الوضع ، سيدهشني ان تستطيعي الحصول على نسخة .

ولم تكن تصدق اذنيها .

– إذن ، طز ! انني لن اقف في الصف من اجل « باري سوار » ، فانه لم يحدث لي قط ان وقفت في الصف من اجل جريدة !

واولتهم ظهرها ، وكان راكب الدراجة قادماً ومعه رزمة الاوراق : فوضعها على الطاولة ، بالقرب من الكشك ، واخذوا يعدونها .

– ها هم اولاء ! ها هم اولاء !

وحدث اضطراب في الحشد . وقالت البائعة :

– وبعد ! هل ستتركونني اعدها ؟

قالت السيدة الانيقة : – لا تدفعوني ! اقول لكم لا تدفعوني !

فقال القصير السمين : – انني لا ادفع ، بل هم يدفعونني ، وليس الامران سواء .

وقال الهزيل : — وانا ارجوك ان تكون مؤدباً مع زوجتي .
فالتفتت السيدة المرتدية الثوب الأسود نحو اميلي :
— إنه التنازع الثالث الذي اشهده منذ هذا الصباح .
قالت اميلي : —آه ! ذلك ان الناس في هذه الفترة ثائرو الأعصاب.
وكانت الطائرة تقترب من الجبال ؛ ونظر اليها غوميز ، ثم نظر ، فيما تحته ، الى الانهار والحقول ، وكان الى يساره مدينة مستديرة برمتها ، وكان كل شيء صغيراً يدعو الى الضحك : انها فرنسا ، خضراء وصفراء ، بسجادها العشبي وانهارها المادئة : « وداعاً ! وداعاً ! » سيداف بين الجبال ، فوداعاً يا شرائح روسبني ، ويا نساء جميلات ، سوف يهبط وهو يحلق نحو الارض العارية الحمراء ، نحو الدم . وداعاً ! وداعاً : لقد كان جميع الفرنسيين هنا ، تحته ، في المدينة المستديرة ، في الحقول ، على شاطيء الماء : الساعة ١٨٫٣٥ ، انهم يضطربون كالنمل ، انهم ينتظرون خطاب هتلر . على الف متر تحتي ، ينتظرون خطاب هتلر . اما انا ، فلا انتظر شيئاً . بعد ربع ساعة ، يكفّ عن رؤية هذه البراري العـــذبة ، وستفصله كتلٌ حجريةٌ ضخمة عن ارض الخوف والبخل هذه . بعد ربع ساعة ، سيهبط نحو الرجال الهزيلين ذوي الحركات الحيّة ، والعيون القاسية ، نحو « رجاله » هو . كان سعيداً ، وفي حلقه كتلة من القلق . وكانت الجبال تتقارب وقد أضحت الآن سمراء، ونكر : كيف تراني سألقى برشلونة ؟
قالت زيزيت : — ادخلي .
وكانت سيدة جميلة جداً وممتلئة بعض الشيء ، تضع على رأسها قبعة من القش وترتدي « تايوراً » من قماش « برانس دوغال » . ونظرت فيما حولها وهي تمدّد منخريها ، وما لبثت ان ابتسمت بلطف :
— السيدة سوزان تايور ؟
قالت زيزيت بفضول : — انا هي .

وكانت قد نهضت . وفكرت بان عينيها كانتا محمرّتين واستندت الى النافذة . ونظرت اليها السيدة وهي تطرف بعينيها . إن من يمعن النظر فيها تبدو له اكبر سناً . وكانت تظهر وكأنها مرهقة .

– انني لا أزعجك ، على الاقل .

قالت زيزيت : – طبعاً لا . إجلسي .

وانحنت السيدة فوق الكرسي فنظرت اليها ، ثم جلست . وكانت تجلس مستقيمة من غير ان يمس ظهرها المسند .

– لقد صعدت هذا الصباح زهاء اربعين طابقاً . وقلّما يفكر الناس في ان يقدموا لك كرسياً .

ولاحظت زيزيت انها ما تزل تحتفظ بكشتبانها في إصبعها . فنزعته وأقته في عابة الخياطة . وفي تلك اللحظة بدأ البيفتاك يطقطق في المولد فاحمرّت وركضت الى الفرن وأطفأت الغاز . ولكن الرائحة لم تتلاش .

– يجب الا امنعك من الأكل .

قالت زيزيت : – اوه ، ان امامي متسعاً من الوقت .

وكانت تنظر الى السيدة وتحس نفسها موزّعة بين الضيق والرغبة في الضحك .

– هل زوجك مجنّد ؟

– لقد ذهب صباح امس .

قالت السيدة : – انهم جميعاً يذهبون . هذا مريع . لا بد ان تكوني في وضع مادي ... سيّء ...

قالت زيزيت : – اعتقد اني سأعود الى مهنتي القديمة . كنت بائعة زهور .

فهزت السيدة رأسها : – هذا مريع ! هذا مريع !

وكانت حزينة جداً حتى ان زيزيت احسّت لها بالودّ .

– وهل ذهب زوجك ايضاً ؟

ـ لست متزوجة . (ونظرت الى زيزيت واضافت بحيوية) ولكن لي أخوين يمكن ان يذهبا .

وسألت زيزيت بصوت جاف : ـ ماذا تريدين ؟

قالت الآنسة : ـ نعم ، هـذا (وابتسمت لها) انني لا اعرف افكارك ، وما سوف اطلبه منك خارج عن كل سياسة . هل تدخنين ؟ هل تريدين سيكارة ؟

وترددت زيزيت ثم قالت :

ـ لا باس.

وكانت واقفة بازاء فرن الغاز ، ويداها تضغطان على طرف الطاولة، خلف ظهرها . وكانت رائحة البيفتاك وعطر الزائرة قد اختلطا . ومدت لها الآنسة علبتها ، فخطت زيزيت خطوة الى الامام . وكانت أصابع الآنسة دقيقة بيضاء ذات أظافر مصبوغة . واخذت زيزيت سيكارة بين اصابعهـا الحمراء ، وكانت تنظر الى اصابعها والى اصابع الآنسة ، وهي تتمنى ان تذهب بأسرع وقت ممكن . واشعلتا سيكارتيها وسألت الآنسة :

ـ الا تظنين ان من الضروري منع هذه الحرب بأي ثمن ؟

فتراجعت زيزيت حتى الفرن ونظرت اليها في حذر . وكانت قلقة. ولاحظت على الطاولة زوجاً من المطاط وسروالاً . وقالت الآنسة:

ـ الا تعتقدين اننا اذا نحن وحدنا قوانا ...

وعبرت زيزيت الغرفة بهيئة مهملة : وحين وصلت الى الطـاولة سألت :

ـ من تقصدين بـ « نحن » ؟

قالت الآنسة في قوة : ـ نحن النساء .

فرددت زيزيت : نحن النساء .

ثم فتحت الدرج بسرعة وألقت فيه زوج المطاط والسروال ، ثم

عادت الى الآنسة ، هادئة :

ــ نحن النساء ؟ ولكن ماذا نستطيع ان نفعل ؟

كانت الآنسة تدخّن كأنها رجل ، وهي تنفث الدخان من أنفها ؛ وكانت زيزيت تنظر الى تايورها والى عقدها اليشمي ، فتجد غريباً ان تقول لها : « نحن » وقالت الآنسة في طيبة :

ــ اذا كنت وحدك،لم تستطيعي شيئاً . ولكنك لست وحدك : ففي هذه اللحظة خمسة ملايين امرأة يخشين على حياة كائن عزيز لديهن . في الطابق التحتيّ ، تقيم السيدة بانييه التي ذهب اخوها وزوجها والتي لها ستة اولاد . وعلى الرصيف المقابل حانوت الخبّازة ، وفي « باسي » توجد الدوقة دو شوليه .

فتمتمت زيزيت : ــ اوه ! الدوقة دو شوليه ...

ــ ما بها ؟

ــ ليس متشابهاً .

ــ ما هو الذي متشابهاً ؟ أتقصدين أنّ هناك من يركب السيارة ، بينما تقوم الآخريات بأعمال المنزل بأنفسهن ؟ آه ! يا سيدتي ، انني في طليعة من يطالبون بتنظيم اجتماعي أفضل . ولكن اتظنين ان الحرب هي التي ستعطينا هذا التنظيم ؟ ان قضية الطبقات لا اهمية لها بازاء الخطر الذي يتهدّدنا . اننا اولاً نساء يا سيدتي ، نساء يصيبونهنّ بأعزّ ما يملكن . افرضي اننا تكاتفنا جميعاً وصحنا جميعاً معاً: « لا نريد هذا ! » إسمعي : الا تحبين ان تريه عائداً !

فهزّت زيزيت رأسها : كانت تبدو لها نكتة ان تدعوها هذه الآنسة سيدتي . وقالت :

ــ لا يمكن منع الحرب .

فاحمرّت الآنسة بعض الاحمرار ، وسألت :

ــ ولماذا ؟

فهزت زيزيت كتفيها . كانت هذه تريد منع الحرب. وكان آخرون، كموريس ، يريدون القضاء على البؤس ؛ وينتهي الامر بألا يستطيع احد ان يمنع شيئاً . وقالت :

– هكذا . لا يمكن منعها .

فقالت الزائرة في عتاب :

– ولكن ينبغي الا نفكر على هذا النحو . ان من يفكر هكذا هم الذين يتعجلون مجيء الحرب ؛ ثم ينبغي التفكير قليلا بالآخرين . فمهما فعلتم ، تظلون متضامنين معنا ؛

فلم تجب زيزيت ؛ كانت تشد في قبضتها سيجارتها المطفأة . وكان لديها شعور بأنها في المدرسة الادارية . وقالت الآنسة :

– انك لا تستطيعين ان ترفضي توقيع اسمك . أليس كذلك يا سيدتي : انك لا تستطيعين ان ترفضي توقيعاً ؛

وكانت قد سحبت من محفظتها ورقة ، فوضعتها تحت أنف زيزيت ، فسألتها زيزيت :

– ما هذه ؟

قالت الآنسة : – عريضة ضد الحرب . ونحن نتلقى التواقيع بالالوف ؛

وقرأت زيزيت بصوت منخفض :

« ان نساء فرنسا الموقعات على هذه العريضة يصرحن بأنهن يضعن ثقتهن بحكومة الجمهورية للمحافظة على السلام بجميع الوسائل . ويؤكدن اعتقادهن المطلق بان الحرب ، ايا كانت الظروف التي ستنشب فيها ، هي دائماً جريمة . المفاوضات وتبادل وجهات النظر امر مطلوب دائماً . اما اللجوء الى العنف ، فأمر منكر . وهذا اليوم ، ٢٢ ايلول ١٩٣٨ هو من أجل السلام العالمي ، ضد الحرب بمختلف اشكالها : جامعة الامهات والزوجات الفرنسيات » .

وقلبت الصفحة ، فكان قفاها مغطى بالتواقيع الملصق بعضها ببعض،

افقياً او عمودياً او صعوداً او هبوطاً . بالحبر الاسود او البنفسجي او الازرق . وكان بعض التواقيع يمتدّ عريضاً ، بحروف كبيرة ذات زوايا ، بينما كان البعض الآخر دقيقاً مدبّباً ينزوي بخجل في زاوية صغيرة. وكان الى قرب كل توقيع عنوان : السيدة جان بليمو ، ٦ شارع دوبينياك ؛ السيدة سولانج بيريس ، ١٤٢ جادة سانت اوان . واستعرضت زيزيت بنظرها اسماء جميع هاتيك السيدات. لقد انحنين جميعاً على هذه الورقة . كان فيهنّ من كان قطيع الاولاد عندهـا يصرخ في الغرفة المجاورة ، وقد وقعت اخريات في البهو الانيق ، بقلم حبر ذهبي . اما الآن ، فان اسماءهن كانت جنباً الى جنب ، وهي جميعها متشابهة : السيدة سوزان تايور : ما كان عليها الا ان تطلب قلماً من الآنسة ، فتصبح ، هي ايضاً ، سيدة ، وينبسط اسمها هاماً وقاسياً تحت الاسماء الاخرى ؛ وسألت :

– ماذا ستفعلين بهذا كله ؟

– حين نحصل على عـدد كافٍ من التواقيع ، سنرسل وفداً من النساء يحملها الى رئاسة الوزارة ؛

السيدة سوزان تايور . كانت السيدة سوزان تايور ؛ كان موريس يردّد لها دائماً ان المرء متضامن مع طبقته . وها هي الآن ذات واجبات مشتركة مع الدوقة دو شوليه . وفكرت : « توقيع . لا استطيع ان ارفض تقديم توقيع لهن » ؛

ارتفقت فلوسي الوسادة ونظرت الى فيليب :

– نعم ، ايها الداعر ، ما رأيك في ذلك ؟

قال فيليب : – لا بأس . لا بدّ ان يتحسّن الوضع حين يكفّ الصداع .

قالت فلوسي : – يجب ان انهض . سوف آكل ، ثم اذهب الى المرقص . هل تأتي معي ؟

قال فيليب : — انني متعب اكثر مما ينبغي . اذهبي من دوني .

— ستنتظرني هنا ، أليس كذلك ؟ انقسم لي بأنك ستنتظرني ؟

قال فيليب وهو يقطب حاجبيه : — طبعاً . اذهبي بسرعة ، اذهبي بسرعة . سأنتظرك ؟

قالت الآنسة : — هل توقعين اذن ؟

قالت زيزيت : — ليس لدي قلم .

فمدت الآنسة لها قلم حبر ، فتناولته زيزيت ووقعت في اسفل الصفحة. وخطّت اسمها وعنوانها الى جانب التوقيع ، ثم رفعت رأسها ونظرت الى الآنسة : كان يخيّل اليها ان شيئاً ما سيحدث .

ولم يحدث شيء قط . ونهضت الآنسة ، فأخذت الورقة ونظرت اليها بدقة ، وقالت :

— هذا ممتاز . حسناً ، لقد انتهى نهاري .

وفتحت زيزيت فمها : كان يخيّل اليها ان لديها طائفة من الاسئلة ينبغي طرحها . ولكن الاسئلة لم تأت . واكتفت بالقول :

— واذن ، فستحملن هذا الى دلاديه ؟

قالت الآنسة : — طبعاً ، طبعاً .

وحركت الورقة لحظة ، ثم طوتها واخفتها في محفظتها . واحسّت زيزيت بانقباض في قلبها حين انغلقت تلك المحفظة . ورفعت الآنسة رأسها ونظرت في عينيها وقالت :

— شكراً . شكراً من اجله . شكراً من اجلنا جميعاً . انك امرأة طيبة ، يا سيدة تايور .

ومدت لها يدها قائلة :

— هيا ، يجب ان اذهب .

فشدت زيزيت يدها بعد ان مسحت يدها بمريولها . وكانت تستشعر خيبة مريرة ، فسألت :

– أهذا ... كل شيء ؟

فأخذت الآنسة تضحك . وكانت لها اسنانٌ كاللؤلؤ . وردّدته زيزيت لنفسها : « اننا متضامنون » ولكن الكلمات كانت قد فقدت معناها .

– نعم ، هذا كل شيء ، الآن .

واتجهت الى الباب بخطوة نشيطة ، وفتحته ، وادارت للمرة الاخيرة وجهاً مبتسماً لزيزيت ثم اختفت . وكان عطرها ما يزال يخفق في الغرفة . وسمعت زيزيت خطاها تتلاشى ، فشرقت بأنفها مرتين او ثلاثاً . كان يخيّل اليها ان شيئاً ما قد سُرق منها . وقصدت النافذة ففتحتها وأطلّت الى الخارج . كان ثمة سيارة ازاء الرصيف . وخرجت الآنسة من الفندق ، ففتحت الباب وصعدت الى السيارة التي أقلعت . وفكرت زيزيت : « لقد ارتكبتُ حماقة » وانعطفت السيارة في جادة سانت اوان واختفت ، حاملةً الى الابد توقيعها والمرأة الجميلة المعطّرة . وتنهدت زيزيت ، فأغلقت النافذة وأضاءت الغاز . وأخذ الشحم يطقطق ، وطغت رائحة اللحم الحار على العطر ، وفكرت زيزيت : « اذا عرف موريس ذلك يوماً ، فلا ادري ماذا يحدث » .

– ماما ، اني جائع .

وسألت الأم ماتيو : – كم هي الساعة ؟

انها مارسيلية جميلة ممتلئة وعلى شفتها ظلّ شارب . وألقى ماتيو نظرة الى ساعة يده :

– انها الثامنة وعشرون دقيقة .

فأخذت المرأة من بين ساقيها سلّة مغلقة بقضيب حديدي :

– افرحي ايتها المزعجة الصغيرة ، سوف تأكلين .

وادارت رأسها نحو ماتيو :

– انها جديرة بان تعذّب قدّيساً .

فوجّه اليها ماتيو بسمة غامضة خفية . وفكر « الساعة الثامنة والدقيقة العشرون . بعد عشر دقائق يتكلم هتلر . انهما في الصالون ، وقد مضى اكثر من ربع ساعة وجاك يحرّك مفاتيح الراديو » .

كانت المرأة قد وضعت السلّة على المقعد ، وفتحتها ، وصرخ جاك :

— لقد التقطتها ! التقطتها ! هذه شتوتغارت .

وكانت اوديت واقفة بالقرب منه ، وكانت قد وضعت يدها على كتفه . وسمعت ضجيجاً ، فخيِّل اليها أنّ نفحة قاعة طويلة مقبّبة كانت تصفعها على وجهها . وأزاح ماتيو نفسه قليـــلاً ليُفسح للسلة : لم يكن قد غادر جوان ليبان . كان بالقرب من اوديت ، ملتصقاً باوديت ، ولكنه أعمى أصمّ ، فقد كان القطار يحمل اذنيه وعينيه نحو مرسيليا . لم يكن يكنُّ لها حباً ، وانما شيئاً آخر : لقد نظرت اليه كما لو انه لم يمت تماماً . وشاء ان يعطي وجهاً لهذا الحنان الناقص الصورة الذي كان يثقل عليه ؛ وبحث عن وجه اوديت ، ولكنه كان يفرّ ، وقد ظهر وجه جاك مرتين بدلاً منه ، وانتهى الامر بماتيـــو الى لمح شكل جامد في اريكة ، مع طرفٍ من رقبةٍ منحنية وهيئة تنبهٍ على وجهٍ لا فم له ولا أنف . قال جاك وهو يلتفت اليها :

— لقد آن الاوان . انه لم يبدأ الكلام .

« عيناي هنا » . كان يرى السلة : وكانت منشفة جميلة بيضاء ذات خطوط حمراء وسوداء تغطي محتواها . وتأمل ماتيو لحظة اخرى الرقبة السمراء ثم تركها : كان ذلك قليلا جداً بالنسبة لهذا الحنان الثقيل. وغرقت في الظلّ ، وأخذت المشفة تتطلب تطلباً شديداً ، فأقامت في عينيه ، طاردةً الصور والافكار اشتاتاً . « عيناي هنا » وانتفض لسماع جرس مخنوق .

قالت المارسيلية : — كوكوت ، أسرعي ، أسرعي .

واستدارت نحو ماتيو بضحكة اعتذار :

ـ انه المنبه . فانا اربطه دائماً على الساعة الثامنة والنصف .

وفتحت الصغيرة بسرعة صندوقاً صغيراً فأدخلت فيه يديها ، وسرعان ما توقف جرس المنبه . الساعة الثامنة والنصف . سيدخل قصر الرياضة. انا في جوان ليبان ، انا في برلين ، ولكنّ « عينيّ هنا » . وفي مكان ما توقفت سيارة طويلة سوداء امام باب ، فنزل منهـــا رجال يرتدون القمصان السمراء . وفي مكان ما من الشمال الشرقي ، الى يمينه وخلفه: ولكن كان هنا هذا الحوان الذي يسد عليه النظر . وسحبتها من الزوايا اصابع ريا ذات خواتم ، فاختفت ، ورأى ماتيو زجاجة ترموس ملقاةً على جانبها وركاماً من معجنات الحلوى : فأخذه الجوع . انني في جوان ليبان ، انني في برلين ، انني في باريس ، ليست لي من حياة بعد ، ولا من مصير . غير اني هنا جائع ، هنا بالقرب من هـــذه السمراء الضخمة وهذه الفتاة الصغيرة . ونهض ، فمد يده الى حقيبته في الشبكة ففتحها وتلمس فيها رزمة اوديت . وجلس فأخذ سكينه وقطع الخيط ؛ وكان يتعجل الأكل ، كما لو انه كان لا بد ان ينتهي على عجل ليسمع خطاب هتلر . دخل ؛ هدير عظيم جعل الزجاج يرتجف ، وهدأ الهدير ، ومد يده .

وفي مكان ما ، كان ثمة عشرة آلاف رجل مسلحين ، استقامت رؤوسهم وارتفعت اذرعتهم . في مكان ما ، في ظهره ، كانت اوديت منحنيةً على جهاز راديو . وتكلم ، فقال : « يا مواطنيّ » وكان صوته قد كف عن ان يكون له ، واصبح عاليـــاً . كان يُسمع في برست ـ ليتوسك ، في براغ ، في اوسلو ، في طنجه ، في كان ، في مورلي ، على الباخرة الكبيرة البيضاء التابعة لشركة « باكيه » التي تسير بين كازابلانكا ومرسيليا .

سألت اوديت : ـ هل انت متأكد من انك التقطت شتوتغارت ؟ اننا لا نسمع شيئاً .

قال جاك : — هس ، هس ، نعم انا متأكد من ذلك .

توقفت لولا امام مدخل الكازينو ، فقالت له :

— اذن الى اللقاء بعد حين .

قال بوريس : — غنّي جيداً .

— نعم ، اين انت ذاهب يا حبيبي ؟

قال بوريس : — انا ذاهب الى « البار الباسكي » . هناك رفاق لا يعرفون الالمانية طلبوا مني ان اترجم لهم خطاب هتلر .

قالت لولا وهي ترتعش : — برررر ، انك اذن لن تتسلى .

قال بوريس : — احب كثيراً ان اترجم .

انه يخطب ! وبذل ماتيو جهداً عنيفاً ليسمعه ، ثم احس بأنه اجوف فترك كل شيء وكان يأكل ؛ وقبالته ، كانت الفتاة الصغيرة تعض فطيرة مربى ؛ ولم يكن يسمع الا لهاث الشموع الهـــاديء ، وكانت امسية من عسل ، كل شيء مغلق . وادار ماتيو عينه فنظر الى البحر عبر الزجاج . كان المساء الوردي المستدير ينغلق فوقها . ومع ذلك فقد كان صوتٌ يخرق هذه البيضة من السكر . انه في كل مكان ، القطار يقتحمه ، وهو في القطار ، تحت اقدام الطفلة ، في شعر سيدة ، في جيبي ، ولو كان معي جهاز راديو لفتحته في الشبكة او تحت المقعد . انه هنا ، ضخم ، يغطي ضجة القطار ، ويجعل الزجاج يرتج — ولا اسمعه . كان متعباً ، ولمح في البعيد شراعاً فوق الماء ، ولم يفكر بعد الا به . قال جاك منتصراً :

— اسمعي ، اسمعي .

وخرج هدير عظيم من الجهاز فجأة . فتراجعت اوديت خطوة ، كان ذلك شيئاً لا يُطاق . وفكرت : « ما اكثر عددهم ، وكم هم معجبون به ! » هناك ، على بعد آلاف الكيلومترات ، عشرات الألوف من المعـــذبين . وكانت اصواتهم تملأ صالون العائلة الهاديء — وكان

مصيرها نفسه هو الذي يتقرر هناك . قال جاك :

– ها هم اولاء ! ها هم اولاء !

وكانت العاصفة تهدأ رويداً رويداً ؛ وكانت تُسمع اصوات انفية وقاسية ، ثم ساد الصمت ، فأدركت اوديت انه سيتكلم . ودفع بوريس باب الحانة ، فأشار له المعلم ان يعجل ، وقال :

– استعدوا ، سوف يبدأ .

وكانوا ثلاثة قد ارتفقوا المشرب : كان هناك المارسيلي ، وشارلييه، وعامل المطبعة الرواني ، ثم شخص كبير ضخم ذو بنية فظيعة كان يبيع آلات خياطة ويُدعى شومي .

قال بوريس بصوت منخفض : – مرحباً .

فحيوه بسرعة ، واقترب من الجهاز : وكان يقدرهم لأنهم لم يكونوا يخافون ان يقصّروا عشاءهم ليأتوا فيتبادلوا فيما بينهم كلاماً غير مستحب، كانوا اشخاصاً قساة يواجهون الاشياء على حقيقتها .

كان قد استند على الطاولة بيديه الاثنتين ، وكان ينظر الى البحر الهائل ، ويسمع هدير البحر . ورفع يده فهدأ البحر . وقال :

– مواطنيّ الاعزاء .

« ان هناك حداً لا يمكن الاستسلام بعده ، لان ذلك يصبح ضعفاً مضراً . كان يوجد عشرة آلاف الماني خارج الريخ فوق ارضين كبيرتين، وهم الالمان الذين يريدون العودة الى الريخ . ولن يكون لي الحق بان أظهر امام تاريخ المانيا اذا شئت ان اتركهم بلا اكتراث ، وان يكون لي كذلك الحق معنوياً بان اكون فوهرر هذا الشعب . ولقد قبلت حتى الآن تضحيات كافية ، وتنازلات . وهنا يقوم الحد الذي لم اكن استطيع ان اتجاوزه . وقد اثبت الاستفتاء في النمسا مشروعية هذا الاحساس . لقد قُدمت آنذاك شهادة حية لم يكن يأملها سائر العالم . ولكن سبق لنا ان رأينا ان الاستفتاء في نظر الديموقراطيات يصبح لا

جدوى منه بل يصبح مشؤوماً بمجرد انه لا ينتج النتيجة التي يأملونها .
ومع ذلك ، فان هـذه المسألة قد حُلّت لسعادة الشعب الالماني الكبير كله :

« وامامنا الآن المسألة الاخيرة التي ينبغي ان تُحل ، وسوف تُحل »

وانفرط البحر تحت قدميه ، وبقي لحظة من غير ان يتكلم وهو ينظر الى هذه الامواج الهائلة . وضغطت اوديت يدها على صدرها ، كان ذلك الهدير يجعل قلبها يقفز كل مرة . وانحنت فوق اذن جاك الذي ظل حاجباه مقطبين ، وهو مستغرق في هيئة تنبه متطرفة ، بالرغم من ان هتلر قد انقطع عن الكلام منذ لحظات . وسألته ، من غير امل كبير :

— ماذا يقول ؟

وكان جاك يزعم انه يفهم الالمانية لانه قد سبق له ان قضى ثلاثة شهر في هانوفر ، وهو لا يكف منذ عشرة اعوام عن الاستماع بانتظام الى جميع خطبـاء برلين في الراديو ، بل هو قد اشترك في جريدة « فرانكفورتر زايتونغ » بسبب مقالاتها المالية . ولكن المعلومات التي كان يعطيها عما قرأ او سمع كانت تظل مبهمة دائماً . ورفع كتفيه :

— الشيء نفسه دائماً . تكلم عن تضحيات الشعب الالماني وسعادته .

فسألت اوديت بحيوية : — هل يوافق على بذل التضحيات ؟ أهذا يعني انه سيقوم بتنازلات ؟

— نعم ، لا ... ان ذلك قد بقي في الهواء .

مد يده ، فكف كارل عن الصراخ : كان ذلك امراً . والتفت يميناً وشمالا وهو يتمتم : « اسمعوا ! اسمعوا ! » وكان يخيل اليه ان امر هتلر الابكم يخترقه من الجانبين ويتجسد في فمه . وقال : « اسمعوا ! اسمعوا ! » لم يكن بعـد الا اداة طيعة ، ناقل صدى : وقد جعلته النشوة يرتعش من رأسه الى قدميه . وصمت الجميع ، وغرقت القاعة كلها في السكوت والليل ، وكان هس وغورنغ وغوبلز قد اختفوا ،

ولم يبق ثمة احد في الدنيا الا كارل وفوهرره . كان الفوهرر يتحدث امام العلم الكبير الاحمر ذي الصليب المعكوف ، كان يتكلم من اجل كارل ، من اجله وحده : صوت، صوت واحد في العالم . انه يتحدث من اجلي ، ويفكر من اجلي ، ويقرر من اجلي . يا فوهرري .

« ان هذا هو المطلب الاخير المتعلق بالارض الذي اطالب به في اوروبا ، ولكنه مطلب لن اتزحزح عنه وسوف احققه بمشيئة الله » .

وتوقف لحظة . ففهم كارل انه قد أعطي الإذن بالصراخ ، فصرخ بكل قواه . واخذ الجميع يصرخون ، وتضخم صوت كارل ، وصعد حتى الاقواس فارتج منه الزجاج . كان يحترق فرحاً ، وكان له عشرة آلاف فم ، وكان يحس انه تاريخي .

وصاح ميميل في الجهاز : « اخرس ! اخرس ! » والتفت الى روبير فقال له : « أترى ايه عصابة من الفروج ! ان هؤلاء الاشخاص لا يكونون مسرورين الا حين يستطيعون ان يصيحوا معاً . فيبدو ان تسلياتهم هي هي نفسها . ان لهم قاعات كبيرة في برلين تستطيع ان تستوعب عشرين الف شخص . فيجتمعون هناك يوم الاحد ، ويأخذون في الغناء المشترك وهم يشربون البيرة » .

وكان الجهاز ما يزال يهدر . قال روبير :

— اوه ! ما قولك في ان « نفركشه » ؟

وادار المفتاح ، فانطفأت الاصوات ، وخيل اليهما فجأة ان الغرفة كانت تخرج من الظل ، وكانت هناك ، حولهما ، صغيرة هادئة ، وكان الخمر في متناول ايديهما ، لم يكن عليهما الا ان يديرا مفتاحاً فاذا بجميع صرخات هؤلاء المعذبين تعود الى علبتها ، واذا بمساء جميل متزن يدخل من النافذة ، مساء فرنسي ، واذا هما بين الفرنسيين .

« هذه الدولة التشيكية بدأت بكذبة كبيرة . وكان مؤلف هذه الكذبة يُدعى بنيش » .

صواعق في الجهاز :

« لقد مثل السيد بنيش هذا في فرساي واكد اولا انه كان ثمة امة تشيكوسلوفاكية »

قهقهات في الجهاز . واضاف الصوت ، بشراسة :

« لقد كان مضطراً الى اختراع هذه الكذبة ليضفي على العدد الهزيل من جنوده المواطنين اهمية اكبر قليلا وبالتالي اكثر تبريراً. ورجال الدولة الانكلوساكسون الذين لم يأنفوا بما فيه الكفاية القضايا البشرية والجغرافية، لم يجدوا ضرورياً آنذاك ان يحققوا في تأكيدات السيد بنيش :

« ولما لم تبد هذه الدولة قابلة للحياة ، فقد اخذوا بكل بساطة ثلاثة ملايين ونصف المليون من الالمــان ، منتهكين حقهم بتقرير مصيرهم بانفسهم تقريراً حراً » .

وصاح الجهاز : « في ! في ! في ! » وصاح السيد بيرنانشانز : « كذاب ! لقد جلبوا هؤلاء الالمان من المانيا ! » وكانت إيلا تنظر الى ابيها محمراً من شدة الغضب ، وهو يدخن سيجاراً في اريكته ، وكانت تنظر الى امها والى اختها ايفي فتشعر لهم بما يشبه الكراهية : « كيف يستطيعون ان يسمعوا ذلك ؟ »

« ولما لم يكن ذلك كافياً ، وجب اضافة مليون من « الماغيار » ثم من الروس الكارباتيين ، واخــيراً بضعة مئات من الالوف من البولونيين .

« هذه هي الدولة التي سمت نفسها فيما بعد تشيكوسلوفاكيا، منتهكة حق الشعوب في تقرير مصيرها بحرية ، ورغبة الامم المغتصَبة وارادتها التي عبّرت عنها بوضوح . واني اذا اتحدث اليكم ، فاني أعطف طبعاً على مصير جميع هؤلاء المضطهدين : اعطف على مصير السلوفاكيين والبولونيين والهنغاريين والاوكرانيين ، ولكني لا اتكلم طبعاً الا عن مصير الالمان التابعين لي » :

وملأ القاعة هتاف عظيم ، كيف يستطيعون ان يسمعوا ذلك ؟ ثم ان هذه الـ « يعيش ! يعيش ! » تلوي لها قلبها . وفكرت في غيظ : مهما يكن من أمر ، فنحن يهود ، وليس لنا ان نسمع جلادنا . قد احتمله هو ، فلقد سمعته دائماً يقول ان اليهود غير موجودين ؛ ونظرت الى امها وفكرت : أما هي ، فهي تعلم انها يهودية ، انها تشعر بذلك ، وتبقى مع هذا هنا . وكانت السيدة بيرنانشاتز ، التي تحب التنبؤات ، قد قال مساء الليلة البـــارحة فقط : « انها الحرب يا اولادي ، واذا كانت الحرب خاسرة ، فليس على الشعب اليهودي بعد الا ان يأخذ خرجه » . اما الآن فهي تغفو وسط المتاقات ، وتغمض بين الفينـــة والفينة عينيها المطليّتين ، وينوس رأسها الضخم المعمّم ذو الشعر الملوّن. واستأنف الصوت كلامه وهو يضبط العاصفة :

« والآن تبدأ الوقاحة . ان هذه الدولة التي لا تحكمها الا أقلية ، تجبر وطنييهـــا على سلوك سياسة ستضطرهم يوماً الى اطلاق النار على إخوتهم » .

ونهضت ايلا . هذه الكلمات الخشنة التي كانت تُنتزع بمشقّة من حنجرة مستعدة دائماً للسعال ، انما كانت طعنات سكين . لقد عذّب يهوداً : وفيما هو يتكلم ، ثمة الوف ينازعون في معسكرات الاعتقال ، ومع ذلك يتركون صوته يلعلع عندنا ، في هذا الصالون الذي استقبلنا فيه امس فقط قريبنا داشوير باجفانه المحترقة .

« ان بنيش يطلب هذا من الالمان : اذا قمتُ بالحرب ضد المانيا ، فيجب ان تطلقوا ناركم على الالمان ، واذا رفضتم كنتم خونة ، وسوف أعدمكم بالرصاص » . ويطلب الشيء نفسه من الهنغاريين والبولونيين » .

كان الصوت هنا ، فظيعاً ، صوت الحقد ؛ لقد كان الرجل بازاء ايلا . وكان سهل المانيـــا الكبير وجبال فرنسا قد انهارت ، فاذا هو بازائها تماماً ، من غير مسافة ، وكان يتحرّك في علبته ، ينظر اليّ ،

يراني . والتفتت ايلا نحو امها ، نحو ايفي : ولكنهما كانتا قد قفزتا الى خلف ، وكان بوسع ايلا ان تراهما بعد ، ولكن لا ان تلمسهما . وكانت باريس ايضاً قد تراجعت حتى اصبحت لا تُدرك ، وكان النور الذي يدخل من النوافذ يسقط ميتاً على السجادة . لقد حدث تفتتٌ لا يُلحظ بين الناس والاشياء ، وكانت هي وحيدة في العالم مع هـــذا الصوت .

« في ٢٠ شباط من هـــذا العام ، صرخت في الريخستاغ ان من الضروري ان يحدث تغيير في حياة الملايين العشرة من الالمان الذين يعيشون خارج حدودنا . وقد تصرف السيد بنيش غير هذا التصرف ، فقد أقام عهداً من الاضطهاداً تاماً » . .

كان يحدثها وحدها ، عيناه في عينيها ، بغيظ ينمو وينمو مع رغبة في ان يخيفها وان يؤذيها . وقد ظلت مسحورة ، ولم تكن عيناهـــا تغادران الصفيحة اللامعة . ولم تكن تسمع ما يقول ، ولكن صوته كان يسلخها .

« وارهاباً اكبر ، وفترة من الفساد .. »

وانفتلت فجأة فغادرت الغرفة . ولحقها الصوت الى الممر ، مسحوقاً ، غير متميز ، ما يزال ينضح بالسم . ودلفت الى غرفتها وأغلقت بابها بالمفتاح . وهنـــاك ، في الصالون ، كان ما يزال يتوعد . ولكنها لم تسمع بعد الا نمتمة مختلطة . وتداعت للسقوط على كرسي : أليس ثمة احد ، ليس من ام ليهودي معذّب . ولا من زوجة لشيوعي مغتال ، يتناول مسدساً ويذهب لقتله ؟ كانت تحرّق الأرّم ، وتفكر في انها لو كانت المانية لاوتيت الشجاعة لقتله .

نهض ماتيو ، واخـــذ من مشمعه سيجاراً مما اعطاه جاك ودفع باب الحافلة .

قالت المارسيلية : ـــ اذا كنت خارجاً اكراماً لي ، فلا تُزعج

نفسك ، أن زوجي يدخن الغليون : فانا معتادة .

قال ماتيو : — اني اشكرك ، ولكني راغب في تحريك ساقيّ لازيل خدرهما .

وكان راغباً خصوصاً في الا يراها بعد ، ولا يرى الصغيرة ، ولا السلة . وخطا بضع خطوات في الممر وتوقف واشعل سيجارة . وكان البحر ازرق هادئاً ، وكان يتسلل بمحاذاة البحر ، ويفكر : « ماذا يحدث لي ؟ » وهكذا كان جواب هذا الرجل اكثر من اي يوم : « لنُعدم ، ولنعتقل ، ولنسجن » وكان هذا الجواب موجهاً لجميع الذين لا يناسبونه لسبب او لآخر » كان يريد ان يجتهد ويفهم . لم يحدث له شيء قبل الآن لم يفهمه . وكانت تلك قوته الوحيدة ، ودفاعه الوحيد ، وكبرياءه الاخيرة . كان ينظر الى البحر ويفكر : « انني لا افهم — وعند ذلك جاء مطلبي في نورمبرغ ، وكان هـذا المطلب واضحاً تماماً : من اجل الإذ — وقال في نفسه : الذي يحدث لي هو اني ذاهب الى الحرب . ولم يكن ذلك يبدو خبيثاً ، ومع ذلك فهو لم يكن واضحاً على الإطلاق . اما ما يخصه شخصياً ، فقد كان كل شيء بسيطاً وواضحاً : لقد لعب وخسر ، وكانت حياته خلفه ، قد فسدت ، انني لا اترك شيئاً ، ولست آسفاً على شيء ، حتى ولا على اوديت ، ولا على ايفيش ، انني لست احـداً . يبقى الحادث نفسه — أصرّح الآن بان حق تقرير المصير ينبغي اخيراً ، بعد عشرين سنة من تصريحات الرئيس ويلسون ، ان يدخل في حيز التطبيق بالنسبة لهذه الملايين الثلاثة والنصف — وكل ما كان اصابه حتى الآن كان على سويته كرجل ، الإزعاجات الصغيرة والكوارث ، لقد رآها مقبلة ، فنظر اليها مواجهة ، حين ذهب يأخذ المال من غرفة لولا ، رأى الاوراق المالية ولمسها ، وشم العطر الذي كان يطفو في الغرفة ، وحين تخلى عن مارسيل ، كان ينظر اليها في عينيها فيما كان يتحدث اليها ، ولم تكن مصاعبه قط الا

مع نفسه ، كان بوسعه ان يقول لنفسه : لقد اصبت، ولقد اخطأت، كان يستطيع ان يحكم على نفسه ، اما الآن فقد اصبح الامر مستحيلا ـ ومن جديد اعطى السيد بنيش جوابه : موتى جدد ، وشهداء جدد ـ وفكر : اني ذاهب الى الحرب ، ولم يكن ذلك يعني شيئاً . لقد حدث له شيء ما كان يتجاوزه . كانت الحرب تتجاوزه . ليست القضية حقاً هي في انها تتجاوزه ، وانما هي في انها لم تكن موجودة هنا . فأين هي ؟ في كل مكان : انها تولد من كل مكان ، القطار يَلِجُ الحرب، وغوميز يهبط الى الحرب ، وهؤلاء المصطافون بثيابهم البيضاء يتنزهون في الحرب ، فليس ثمة خفقة قلب لا تغذيها ، وليس ثمة وعيٌ لم تخترقه . ومع ذلك ، فهي كصوت هتلر الذي يملأ هذا القطار والذي لا استطيع ان اسمعه : ـ لقد صارحت السيد شمبرلن بما نعتبره الآن الامكانية الوحيدة للحل ؛ ـ يخيل الينا بين الفينة والفينة اننا سنلمسها ، على اي شيء ، في مَرَق شريحة ، فنمد يدنا ، فاذا هي تختفي : ولا يبقى الا قطعة لحم في مرق . وفكر : آه ! ينبغي ان يكون المرء في كل مكان معاً .

يا فوهرري ، انك تخطب فأتحوّل الى حجر ، وأكف عن التفكير، ولا اريد بعد شيئاً ، فلست الا صوتك ، سأنتظره لدى الخروج ، وسأصوّب اليه في قلبه ، ولكني في الدرجة الاولى لسان حال الالمان ، ومن اجل هؤلاء الالمان خطبت، مؤكداً اني لست مستعداً بعد ان ابقى متفرجاً صامتاً هادئاً بينما يحسب معتوه براغ هذا انه قادر ، سأكون هذا الشهيد ، اني لم اذهب الى سويسرا ، ولا استطيع الآن ان اعمل شيئاً الا ان اعاني هذا الاستشهاد ، واقسم بان اكون هذا الشهيد ، اقسم ، اقسم ، هس ، قال غوميز ، اننا نستمع الى خطاب البهلوان .

« هنا راديو باريس ، لا تتركوا السمع : سننقل اليكم بعد لحظة

الترجمة الفرنسية للقسم الاول من خطاب المستشار هتلر » :

قال جرمين شابو : — آه ! أترى ! لم يكن الامر يستحق ان نهبط ونركض ساعتين بحثاً عن جريدة « الانترانسيجان » . لقد قلت لك : انهم يفعلون ذلك دائماً .

ووضعت السيدة شابو نسيجها في السلة وقربت اريكتها ، وقالت :

— سنعرف ما الذي قاله . انني لا احب هــذا . فهو يُحدث لي مثل الحفرة في معدتي . الا يُحدث لك ذلك انت ؟

قال جرمين شابو : — بلى .

وكان الجهاز يشخر ، ثم ندت عنه ثلاث كركرات او اربع ، فأمسك شابو بذراع زوجته وقال لها :

— اسمعي .

فانحنيا قليلا ، مرهفين اذنيهما ، واخذ احدهما يغنّي « الكوكوراشا » فسألت السيدة شابو:

— هل انت متأكد انك تأخذ راديو باريس ؟

— متأكد .

— ان هذا اذن ليطلبوا منا الصبر .

وغنّى الصوت ثلاثة مقاطع ، ثم توقفت الاسطوانة ، فقال شابو :

— ها نحن ذا .

وحدثت خربشة خفيفــة ، ثم اخذت جوقة هوايانية تعزف « هوني مون »

يجب ان يكون المرء في كل مكان . وتأمّل في حزن طرف سيجارة. في كل مكان ، والا كان مخدوعاً ، انني مخدوع . انا جندي ذاهب الى الحرب ، وما ينبغي ان اراه : الحرب والجندي، طرف سيجار ، مقاصير بيضاء على شاطىء الماء ، انسراب الحافلات الرتيب على الخطوط الحديدية ، وهذا الرحالة المألوف جداً ، فاس ، مراكش ، مدريد،

بيروز ، سيان ، روما ، براغ ، لندن ، الذي يدخن للمرة الألف في ممر حافة من الدرجة الثالثة . لا حرب ؛ ولا جندي : يجب ان يكون المرء في كل مكان ، يجب ان ارى نفسي من كل مكان ، من برلين كواحد على ثلاثة ملايين من الجيش الفرنسي ، وفي عيني غوميز كواحد من هؤلاء الفرنسيين الكلاب الذين يُركلون ركلا نحـــو المعركة ، في عيني اوديت . يجب ان ارى نفسي بعيون الحرب . ولكن اين هي عيون الحرب ؟ انني هنا ، تتسرب امام عيني مساحات كبيرة مشرقة ، انني متبصّر ، ارى — ومع ذلك فانني اتجه بالتلمّس ، وبتحسّس الأعمى ، وكل حركة من حركاتي تشعل مصباحاً او تُطلق جرساً في عالم لا أراه . كانت زيزيت قد اغلقت المصاريع ، ولكن النهار المنتهي كان ما يزل يتسرب من الشقوق ، وكانت تحسُّ نفسها متعبةً ومينة ، وقذفت قميصها الداخلي على كرسي ثم اندست عارية في السرير ، انني انام دائماً براحة حين احس الأسى ؛ ولكنها حين استقرت تحت الغطاء ، كان مومو في هذا السرير قد داعبها ليلة امس الاول ، وكانت ما تكاد تستسلم حتى يقتحمهـــا فيسحقها ، فاذا ما فتحت عينيها من جديد ، لم يكن هناك بعد ، كان ينام بعيداً في ثكنته ، ثم انه كان ثمة هذا الراديو اللعين الذي يزعق باللغة الاجنبية ، وكان هو جهاز اسرة هاينمن ، اللاجئين الالمان في الطابق الاول ، صوت خشن لغوي يدق اعصابك دقاً ، اتراه لن ينتهي ! اتراه لن ينتهي ؟ وحسد ماتيو غوميز ثم قال في نفسه : ان غوميز لا يرى من ذلك اكثر مما ارى ، انه يتخبّط ضد اشياء غير مرئية — وكفّ عن حسده اياه. ماذا يرى : جدراناً ، جهاز تلفون على مكتبه ، وجه ضابطه الآمر . انه يخوض الحرب ، ولكنه لا يراها . فاذا كانت القضية قضية خوض حرب ، فاننا نخوضها جميعاً ، انني ارفع يدي ، وأسحب نفساً من هذا السيجار ، فأخوض الحرب ، ان ساره تلعن جنون الرجال ، وتضم بابلو بين ذراعيها ، فتخوض

الحرب . واوديت تخوض الحرب حين تلف بالورق سندويشات من لحم الخنزير . ان الحرب تأخذ كل شيء ، تلمّ كل شيء ، ولا تترك شيئاً يضيع ، حتى ولا فكرة ، ولا حركة ، ولا يستطيع احد ان يراها ، حتى ولا هتلر . لا أحد . وردد : لا أحد – ثم فجأة ، لمحها : كانت جسماً غريباً ، لا يمكن تصوّره .

« هنا راديو باريس ، لا تتركوا السمع : سننقل اليكم بعد لحظة الترجمة الفرنسية للقسم الاول من خطاب المستشار هتلر » .

ولم يتحركا . وان احدهما يحدج الآخر بطرف عينه ، وحين اخذت رينا كيتي تعنّي : « سأنتظر » تبادلا بسمة . ولكن في نهاية المقطع الاول ، انفجرت السيدة شابو ضاحكة ، وقالت :

– سأنتظر ! هذا مناسب تماماً ... انهم يهزأون بنا .

جسم ضخم ، كوكب ، في فضاء ذي مئة مليون بُعد ، حتى ان الكائنات ذات الثلاثة الأبعاد لم تكن تستطيع ان تتصوره . ومع ذلك ، فان كل بُعد كان وعياً مستقلاً . فاذا كان المرء يحاول ان ينظر الى الكوكب مواجهة ، انهار متفتتاً ، ولم يبق بعد الا الوعي . مئة مليون وعي حر كان كلّ منها يرى جدراناً ، وطرف سيجار محمّراً ، ووجوهاً مألوفة . ويبني مصيره تحت مسؤوليته الخاصة . ومع ذلك فاذا كان المرء وعياً منها ادرك بتلمسات غير محسوسة ، وبتغيرات طفيفة ، انه كان متضامناً مع حظيرة ضخمة غير مرئية للحيوانات الشبيهة بالنبات . الحرب : ان كل انسان حر ، ومع ذلك فان الالعاب قد لُعبت . انها هنا ، هي في كل مكان ، وهي مجموعة افكاري كلّها ، وكلمات هتلر كلّها ، وافعال غوميز كلها : ولكن ليس ثمة احد ليُجري الجمع . انها غير موجودة الا بالنسبة لله ، ولكن الله غير موجود . ومع ذلك فان الحرب موجودة .

– ولم ادع اي شك حول فكرة ان للصبر الالماني بعد الآن حداً .

لم ادع اي شك حول فكرة أنّ من خصائص العقلية الالمانية دون ريب التمسك بالصبر الطويل ، ولكن حين يحين الاوان ، فيجب ان ينتهي هذا الصبر .

سأل شومي : — ماذا يقول ؟ ماذا يقول ؟

فشرح بوريني : — يقول ان للصبر الالماني حدوداً .

قال شارليه : — وكذلك لصبرنا .

واخذ الجميع يزعقون في الجهاز ، ودخل « هيريرا » الى القاعة، فقال حين رأى غوميز :

— آه ! مرحباً ! قل لي ، هل قضيت مأذونية طيبة ؟

قال غوميز : — بين بين .

— الا يزال الفرنسيون حكماء ؟

— ها ! انك لا تتصور حالتهم . اعتقد انها ستصيبهم في استهم ! (واشار الى جهاز الراديو) ان بهلوان برلين ثائر !

— بلا مزاح ؟ (واشتعلت عينا هيريرا) ولكن قل لي : ان هذا سيغير اشياء كثيرة !

قال غوميز : — اعتقد ذلك .

ونظر احدهما الى الآخر لحظة وهما يبتسمان ، وعاد اليهما تيلكان الذي كان على النافذة :

— اخفضوا صوت الجهاز ، فاني اسمع شيئاً .

فأدار غوميز المفتاح ، فضعفت الضجة .

— تسمع ؟ ماذا تسمع ؟

وأرهف غوميز أذنه ، فسمع هديراً أصمّ . وقال هيريرا :

— هكذا ! انها صفارة الانذار . الرابعة منذ هذا الصباح .

قال غوميز : — الرابعة .

قال هيريرا : — نعم . آه ! سوف تجدون تغيراً .

وكان هتلر قد استأنف كلامه ، فانحنوا على الجهاز . وكان غوميز يستمع الى الخطاب بأذن ، ويتابع بالاخرى هدير الطائرات . وحدث انفجار أصمّ في البعيد .

– ماذا يصنع ؟ انه لم يتنازل عن الارض ، وها هو الآن يطرد الالمان ! ان السيد بنيش ما كاد يتكلم حتى عادت تدابير الاضطهاد العسكرية متفاقمة . ونحن نلاحظ هذه الارقام المرعبة : ففي يوم واحد عشرة آلاف شخص يهربون ، وفي اليوم التالي عشرون الفاً .

وخف المدير ثم ازداد فجأة ، وحصل انفجاران طويلان . وهمس تيلكان :

– انه المرفأ يشتعل ...

– .. وفي اليوم التالي سبعة وثلاثون الفاً ، وبعد يومين واحد واربعون ، ثم اثنان وستون ، ثم ثمانية وسبعون الفاً ، والآن تسعون الفاً ، مئة وسبعة آلاف ، مئة وسبعة وثلاثون الفاً . واليوم مئتان واربعة عشر الفاً . ان مناطق برمّتها قد خلت من سكانها ، واحياء قد أحرقت ، وهم يحاولون طرد الالمان بالقنابل والغاز . اما السيد بنيش فهو يقيم في براغ ، وهو يقول لنفسه : « لا يمكن ان يحدث شيء ، فان ورائي نهائياً انكلترا وفرنسا » .

وقرص هيريرا ذراع غوميز وقال :

– انتبه ! انتبه ! سوف يهاجمها !

وكان وجهه قد تلوّن ، وكان ينظر الى الجهاز في ودّ . وانبثق الصوت صاعقاً ، قاسياً :

– والآن ، يا مواطنيّ ، لقد آن الوقت كما اعتقد لقول الاشياء بصورة صريحة .

وغطّت سبحة من الانفجارات المتوالية ضجة التصفيق . ولكن غوميز لم يكد ينتبه اليها : فقد كان محدداً نظره في الجهاز ، يستمع الى هذا

الصوت المتوعد ، فيحس بانبعاث شعورٍ كان مكمّناً لديه منذ وقت طويل ، شعور كان يشبه الأمل .

« انت الذي تمر من غير ان تراني

« بل من غير ان تقول لي مساء الخير

« إعطني بعض الأمل

« فهمومي هذا المساء كثيرة » .

قال جرمين شابو : — لقد فهمت . لقد فهمت هذه المرة .

فقالت زوجته : — ماذا ؟

— اسمعي ، هذا اتفاق مع صحف المساء ، فهم لا يريدون اذاعة الترجمة قبل ان تنشرها الصحف .

ونهض فتناول قبعته وقال :

— أنا هابط . وسوف اجد نسخة من « الانتران » على جادة باريس .

آن الاوان . واخرج ساقيه من السرير ، وفكر : « آن الاوان » سوف تجد العصفور قد طار وستجد ورقة من ألف فرنك مشكوكة بالغطاء ، واذا اتسع لي الوقت أضفت اليها قصيدة وداع . وكان رأسه ثقيلاً ، ولكن لم يكن به صداع . وأمرّ يديه على وجهه ثم أخفضها باشمئزاز : كانت تنبعث منها رائحة الزنجية . وعلى الطاولة الزجاجية ، فوق المغسلة ، كان ثمة صابونة وردية ، الى جانب رشّاشة واسفنجة من المطاط . وأخذ الاسفنجة . ولكن غثياناً صعد مرة اخرى الى فمه ، فذهب يأخذ من الصندوق الصغير قفازه وصابونته . واغتسل من الرأس الى القدمين ، وكان الماء يجري على الارض ، ولكن لم تكن لذلك اية اهمية . وتسرّح واخرج من الصندوق قميصاً نظيفاً فارتداه . قميص الشهيد . وكان حزيناً وحازماً ، وكان على الحاجز فرشاة ، فنظف سترته بعناية . وتساءل : « ولكن اين عساني قد دسست بنطالي ؟ » ونظر

تحت السرير وحتى بين الاغطية : ليس هناك من بنطال . وقال لنفسه: « أتراني ثملاً ؟ » وفتح الخزانة ذات المرآة ، فبدأ يتنابه القلق : ان البنطال لم يكن فيها . ومكث لحظة في وسط الغرفة ، وهو في قميصه، يحك رأسه فيما ينظر حوله ، ثم اخذه الغضب لانه كان وضعاً مضحكاً تماماً بالنسبة لشهيد قادم ان يبقى هكذا مزروعاً بجواربه في غرفة نوم مومس وأطراف قميصه تخنق ركبتيه . وفي تلك اللحظة لمح الى يمينه خزانة محفورة في الحائط ، فهرع اليها ولكن المفتاح لم يكن في القفل ، وحاول ان يفتحه بأظافره ثم بمقص وجده على الطاولة ، ولكنه لم ينجح في ذلك . فقــذف بالمقص وجعل يضرب بقدمه وهو يتمتم بصوت غاضب : « يا للقحبة اللعينة ! يا للفاجرة ! لقد اقفلت على بنطالي لتمنعني من الخروج » .

– وهنا ، لا يسعني الآن الا ان اقول شيئاً واحداً : رجلان يقفان وجهاً لوجه : فهناك السيد بنيش ، وهنا ، انا !

واخذ الجمع كله يهدر . وكانت انّا تنظر الى ميلان في قلق . وكان قد اقترب من الجهاز يتأمله ويداه في جيبه . وكان وجهه قد اسودّ ، وكان ثمة شيء يتحرك في خده .

قالت انّا : – ميلان !

– ونحن رجلان من نوع مختلف . فحين كان السيد بنيش في عهد صراع الشعوب الكبير يروح ويجيء في العالم ، مبتعداً عن الاخطار ، أنجزت انا واجبي كجندي الماني شريف . وهأنذا واقف اليوم قبالة هذا الرجل كجندي لشعبي .

فصفقوا من جديد . ونهضت انّا فوضعت يدها على ذراع ميلان : كانت عضلته متشنجة وكان جسمه كله من حجر . وفكرت : « سوف يسقط » وقال متأنئاً :

– يا للقدر !

فشدت على ذراعه بكل قواها ، ولكنه دفعها . وكان في عينيه دم . وتمتم :

– بنيش وأنا ! بنيش وانا ! لان وراءك خمسة وسبعين مليون نسمة .

وخطا خطوة الى امام ، وفكرت : « ماذا يريد ان يفعل ؟ » واندفع ، ولكنه كان قد بصق مرتين على الجهاز .

وكان الصوت يتابع :

« ليس لدي الا القليل من الامور أصرح به : انني اعترف بالجميل للسيد شمبرلن على جميع جهوده . وقد اكدت له ان الشعب الالماني لا يريد شيئاً آخر غير السلام: ولكني صرحت له ايضاً بأني لا استطيع أن أبعد حدود صبرنا . واكدت له كذلك ، وانا اردد هذا هنا ، بأنه لن يكون لالمانيا ، حين تحل هذه المسألة ، اية قضية في اوروبا تتعلق بالارض . كما اكدت له انني ،بعد ان تحل تشيكوسلوفاكيا هذه المسائل، اي بعد ان يتفاهم التشيكيون مع باقي الاقليات ، لا بالضغط ، بل بالسلم ، لن اهتم بعد بالتشيكيين على الاطلاق . واني اضمن له ذلك ! ليس لنا لدى التشيكيين اي مطمع . ولكني اريد الآن ان اصرح امام الشعب الالماني بأن صبري ، فيما يتعلق بمسألة السوديت ، اوشك ان ينفد . لقد قدمت للسيد بنيش عرضاً ليس هو شيئاً آخر غير تحقيق ما اكده هو نفسه . وهو الآن يملك التقرير : سلم ام حرب . فاما ان يقبل هـذه الاقتراحات فيعطي الالمان الآن الحرية ، واما ان نذهب لنأخذها بأنفسنا » .

رفع هيريرا رأسه وقال متهللا :

– يا الهي ! يا الهي ! هل سمعتم هذا ؟ انها الحرب .

قال غوميز : – نعم . ان بنيش رجل صلب ، وهو لن يخضع . وانها الحرب .

قال تيلكان : — يا الّهي ! ليت هذا يحدث ! ليت هذا يحدث !
سأل شمبرلن : — ما هذا ؟
قال وودهاوز : — التتمة .
فأخذ شمــبرلن الاوراق وجعل يقرأ . وكان وودهاوز يرقب وجهه في قلق . وبعد لحظة ، رفع رئيس الوزارة رأسه وبسم له بتودّد وقال:
— حسناً ، لا شيء جديداً .
فنظر الى وودهاوز بدهشة ، وقال ملاحظاً :
— ولكن المستشار هتلر عبّر عن آرائه بعنف كثير .
قال شمبرلن : — يعني ، يعني . كان مضطراً لذلك .
— انني اليوم أسير امام شعبي كجنديّه الأوّل ، وليعلم العالم الآن ان شعباً يمشي الآن ورائي ، شعباً يختلف عن شعب ١٩١٨ . ففي هذه الساعة سيتحد الشعب الالماني كله معي . وسيشعر بارادتي كارادته ، وكذلك اعتبر مستقبله ومصيره كمحرك لعملي ! ونحن نريد ان نعزز هذه الارادة المشتركة ، كما كانت في عهد النضال ، يوم ذهبت كجندي بسيط مجهول لأحصل على « ريخ » غير مرتاب قط بالنجاح والنصر النهائي . لقد تكاتف حولي فريق من الرجال الشجعان والنساء الشجاعات، ثم ساروا معي . والآن اطلب منك يا شعبي الالماني هذا : « سر ورائي رجلا بعد رجل ، وامرأة بعد امرأة . فنحن نريد في هذه الساعة ان تكون لنا جميعاً ارادة مشتركة . وينبغي ان تكون هذه الارادة أقوى من أية محنة ومن اي خطر ، واذا كانت هذه الارادة اقوى من المحنة والخطر ، فسوف تقهر المحنة والخطر ، نحن مصمّمون ، فعلى السيد بنيش الآن ان يختار !
والتفت بوريس الى الآخرين وقال لهم :
— انتهى .
ولم تكن ردود فعلهم سريعة : كانوا يدخنون بهيئة متنبهة . وبعد

لحظة ، سأل صاحب المقهى :

— هل تلوي رقبته اذن ؟

— تستطيع ان تفعل .

فانحنى صاحب المقهى فوق الزجاج وأدار المفتاح ، واحس بوريس بالانزعاج لحظة : لقد نتج عن ذلك ما يشبه فراغاً كبيراً . وكانت نفحة ريح وليل تدخل من الباب المفتوح .

وسأل المارسيلي : — اذن فماذا قال ؟

— قال في النهاية : ان شعبي كله ورائي ، وانا مستعد للحرب ، فعلى السيد بنيش ان يختار .

قال المارسيلي : — مأتم ! انها الحرب اذن ؟

فهز بوريس كتفيه . وقال المارسيلي :

— لقد انقضت عليّ ستة أشهر لم ار فيها زوجتي ولا ابنتي ، فسوف اعود الى مرسيليا ومساء الخير : تحية صغيرة من اليد وأذهب الى ثكنة .

قال شومي : — اما انا فربما لم أجد الوقت لرؤية امي (وأوضح انني من الشمال.

قال المارسيلي وهو يهز رأسه : — هكذا !

وسكتوا . وأفرغ شارلبيه غليونه عند كعب حذائه . وقال صاحب المقهى :

— هل تأخذون شيئاً ؟ ما دامت هي الحرب ، فاني اقدم لكم النوبة .

— هات نوبة .

وكان الهواء الخارج رطباً أسود ، وكانت تُسمع موسيقى الكازينو من بعيد : ربما كانت لولا هي التي تغني . وقال الشمالي :

— لقد كنت انا في تشيكوسلوفاكيا . وانا مسرورٌ اني كنت فيها : فهكذا يعرف المرء لماذا يقاتل .

فسأله بوريس : – هل مكثت فيها طويلاً ؟

– ستة اشهر . في عملية قطع غابات . كنت اتفــاهم جيداً مع التشيكيين . انهم نشيطون .

قال صاحب الحانة : – فيما يخص النشاط ، الالمان ايضاً نشيطون .

– نعم ولكنهم يُخرّبون العالم . بينما التشيكيون هادئون .

قال شارلييه : – نخبكم .

– نخبكم .

ودّقوا اقداحهم فيما بينهم ، وقال المارسيلي :

– لقد بدأ الطقس يبرد .

نهض ماتيو منتفضاً ، فسأل وهو يفرك عينيه :

– ما هذا ؟

– انها مارسيليا ، محطة سان – شارل ، الجميع ينزلون .

قال ماتيو : – حسناً ، حسناً .

واخذ مشمّعه وتناول حقيبته من الشبكة . وكان يحس نفسه مبهماً ، وفكر في عزاء : لا بد ان هتلر قد انهى خطابه .

وقال الشمالي : – لقد رأيتهم يذهبون ، شبان ١٤ . وكنت في العاشرة . كان شيئاً مختلفاً عما هو الآن .

– هل كانوا يريدون الحرب ؟

– ها ! وكم ! كانوا يتوهجون ، كانوا يغنّون ، كانوا يملأون الدنيا حركة !

قال المارسيلي : – يجب القول بأنهم لم يكونوا يدركون .

– طبعاً لا .

قال بوريس : – اما الآن ، فنحن ندرك .

وساد صمت . وكان الشمالي ينظر امامه باستقامة . وقال :

– لقد رأيتهم عن كثب ، الالمان . لقد احتلونا أربعة أعوام . فماذا

استنفدنا ! لقد قُسمت القرية ، وكان الناس يختبئون اسابيع برمّتها في المقالع . تفهمون اذن رأيي حين أفكر : يجب ان يُؤجَّل ذلك ...
(وأضاف) ان هذا لا يعني اني لن أفعل كالآخرين .

قال صاحب الحانة : — اما انا ، فاني مصابٌ بذعر الموت ، منذ كنت صغيراً . ولكني كوّنت لي فكرة ، في هذه الايام الاخيرة . قلت لنفسي : ان يموت الانسان ، فهذا قبيح جداً . ولكن ليكن بالحمى الاسبانية او بشظية قنبلة ...

وكان بوريس يضحك مفتوناً : كان يجدهم ظرفاء ، وفكر : « انني افضل الرجال على النساء » .

ولقد كان من مزايا الحرب انها تقوم بين الرجال ، فهو لن يرى طوال ثلاثة اعوام او خمسة الا رجالا « وسوف اتنازل عن مأذونيتي لآباء العائلات » .

قال شومي : — المهم ان نستطيع القول باننا قد عشنا . انني الآن في السادسة والثلاثين ، ولم استمتع دائماً بالحياة . ان هناك قمّاً وسفوحاً ، ولكني عشت . فبوسعهم ان يقطعوني إرباً ، فهم لن يمنعوا ذلك .
(والتفت الى بوريس) اما بالنسبة لفتى مثلك ، فلا بدّ ان الأمر أشقّ .

قال بوريس بحيوية : — آه ، صحيح ، منذ اللحظة التي بدأوا يرددون لي فيها ان الحرب ستقع .

واحمرّ قليلا وأضاف : « ولكن من يجدها شاقة رديئة ، انما هو المتزوّج » .

قال المارسيلي وهو يتنهد : — نعم . ان زوجتي شجاعة ، ثم ان لها مهنة : فهي حلاقة . والامر يزعجني بالاحرى بسبب الصغيرتين . غير ان من الافضل ان يكون ثمة أب ، أليس كذلك ؟ وليس من الضروري ان يموت الانسان لمجرد ان يذهب الى الحرب .

قال بوريس : — هذا صحيح .

وكانت الموسيقي قد انطفأت . ودخل الى الحانة رجل وامرأة : كانت المرأة حمراء الشعر ترتدي ثوباً أخضر طويلاً وعارياً . وجلسا على طاولة في الداخل . قال شارلييه :

— مهما يكن ، فان الحرب غبية . انني لا أعرف ما هو أغبى منها.

وقال صاحب الحانة : — ولا أنا .

قال شومي : — ولا أنا .

قال المارسيلي : — كم انا مدينٌ لك ؟ ان عليّ تكاليف نوبة .

قال بوريس : — وعليّ ايضاً تكاليف نوبة .

ودفعا . وخرجا شومي والمارسيلي وأحدهما يتأبط ذراع الآخر . وتردّد شارلييه لحظة ، واستدار على عقبيه وذهب يجلس وهو يحمل قدحه . وكان بوريس قد بقي امام المشرب ، وفكر : كم هم ظرفاء، وغمره الفرح ، سيجد مثلهم في الخنادق ، آلافاً وآلافاً ، في مثل ظرفهم . وسوف يعيش بوريس معهم فلا يتركهم ليلاً ولا نهاراً ، سيكون لديه ما يعمله . وفكر : انني محظوظ ، حين كان يقارن نفسه بالاشخاص المساكين الذين سُحقوا او ماتوا بالكوليرا وهم في مثل سنه، كان مضطراً الى الاقرار بأنه كان محظوظاً،وهو لم يعتبر خائناً ، فليست القضية قضية حرب من هذه الحروب التي تقلب،من غير اعداد ، حياة الانسان ، كأنها حدث بسيط : فان هذه الحرب كانت تبشر بنفسها منذ ستة اعوام او سبعة مقدماً ، وقد اتيح للناس ان يروها قادمة . ولم يشكّ بوريس شخصياً انها لا بد ان تنفجر ، لقد انتظرنا كولي عهد يعرف منذ طفولته انه ولد ليحكم . ولقد وضعوه في الدنيا من اجل هذه الحرب ، وربوه من اجلها ، فأرسلوه الى الليسيه والى السوربون ومنحوه ثقافة . كانوا يقولون انهم يفعلون ذلك لكي يصبح استاذاً ، ولكنه كان دائماً يشك في ذلك ، كان يعلم الآن انهم كانوا يريدون ان يجعلوا منه

ضابط احتياط ، وهم لم يوفروا شيئاً لكي يتيحوا له ميتةً جميلة وجديدة وسليمة . وفكر : وأظرف ما في الأمر اني لم اولد في فرنسا ، وانما استوطنتها، غير ان ذلك لم يكن ذا اهمية في نهاية المطاف ، فلو انه بقي في روسيا ، او لو لجأ ذووه الى برلين او بودابست، لما تغير الوضع : فليست القضية قضية جنسية ، وانما هي قضية سن . لقد كان الشبان الالمان والشبان الهنغاريون والشبان الانكليز ، والشبان اليونان ، مرصودين للحرب نفسها ، للمصير نفسه . وفي روسيا ، قام اولاً جيل «الثورة» ثم جيل مشروع السنوات الخمس ، والآن جيل الصراع العالمي : فلكل جيل نصيبه . والمرء يولد في آخر المطاف إما من اجل الحرب او من أجل السلم ، كما يولد عاملاً او بورجوازياً ، فليس له في الأمر حيلة، ولم يوهب جميـــع الناس حظ ان يكونوا سويسريين . وفكر : ان الشخص الذي يملك حق الاحتجاج انما هو ماتيو : فهو بلا شك قد ولد للسلام ؛ لقد وثق كل الثقة انه سيموت ميتة الشيخوخة ، فاكتسب عاداته كلها ، ومن كان في عمره لا يغير عاداته . اما انا ، فهذه هي حربي . هي التي صنعتني ، وانا الذي سأخوضها ، فنحن لا نفترق ؛ بل اني لا استطيع ان اتخيل ما عساني أكون اذا لم تنفجر . وفكر في حياته فلم تبدُ له بعد أنها كانت أقصر مما ينبغي : إن الحيـــاة ليست قصيرة ولا طويلة ، وانما هي حياة ، هذا كل ما في الأمر . والحرب في نهايتها . واستشعر فجأة انّ جدارة جديدة تتلبّسه ؛ لأنه كان ذا رسالة في المجتمع ، ولأنه كذلك سيهلك في ميتة عنيفة ، وشعر بانزعاج في تواضعه . لا ريب في ان الساعة كانت قد أزفت ليذهب الى اصطحاب لولا . وبسم لصاحب الحانة وخرج مسرعاً .

كانت السماء ملبّدة بالغيوم ، ولكن كانت تُرى هنا وهناك نجوم ، وكانت الريح تعصف من البحر . وذات لحظة ، كان في رأس بوريس سحاب ، ثم فكر : « حربي » واخذته الدهشة لانه لم يألف التفكير

مدة طويلة في الامور نفسها . وقال في نفسه : « كم سيتملكني الخوف! آه ! لا ، لا ! » واخذ يضحك عجباً ورضى لصورة هذا الرعب الشديد . ولكنه كف عن الضحك بعد بضع خطوات تحت تأثير قلق مفاجيء : ذلك انه لا ينبغي ان يخف المرء خوفاً مفرطاً. صحيح انه لن يشيخ ، ولكن ذلك لم يكن سبباً ليفوّت عليه حياته ويسمح لنفسه بأي شيء . لقد رصدوه منذ ولادته ، ولكنهم تركوا له كل حظّه ، فكانت حربه رسالةً اكثر منها قدراً. كان بوسعه طبعاً ان يتمنّى رسالة اخرى : رسالة فيلسوف كبير مثلاً ، او رسالة دون جوان او رسالة مالي عظيم . ولكن المرء لا يختار رسالته : فاما ان ينجح فيها او يخسر، هذا كل ما في الامر ، وأغبى ما في رسالته ، انه لم يكن مسموحاً ان يُستدرك فيها شيء . كان ثمة حيواتٌ تشبه البكالوريا : على الطالب ان يقدم عدة مسابقات ، فاذا قصّر في مسابقة الفيزياء ، كان بامكانه ان يستدرك نفسه في مسابقة العلوم الطبيعية ، او الفلسفة . اما حياته هو ، فهي تذكّر بشهادة الفلسفة العامة حيث يحكم عليك من مسابقة واحدة ؛ وقد كان ذلك يثير الخوف الشديد . ولكن مهما كان من أمر ، فقد كان عليه ان ينجح في هذه المسابقة ، لا في سواها — وسيكون عليه ان يعمل . ينبغي ان يتصرف تصرفاً نظيفاً بالطبع ، ولكن ذلك لم يكن كافياً . فينبغي خصوصاً ان يقيم في الحرب ، وان يحفر فيها زاويته ويحاول ان يفيد من كل شيء . وينبغي ان يقول لنفسه : ان كل شيء يستحق شيئاً ، على نحو ما : فهجومٌ في الارغون يستحق نزهة في الغندول ، والعصير الذي يُشرب في الخنادق صباحاً ، يستحق قهوة صباحية في المحطات الاسبانية . وهناك بعد ذلك الرفاق ، والحياة في الهـواء الطلق ، والرزم ولا سيما المشاهد ؛ فالقصف بالقنابل ليس مشهداً قذراً . المهم ان لا يخاف الانسان . فاذا خفت، عرّضت حياتي للسرقة . انني الشرغوف ؛ وقرّر : لن أخاف .

وايقظته انوار الكازينو من حلمه ؛ وكانت لفحات من الموسيقى تتسرّب من النوافذ المفتوحة ، وأقبلت سيارة سوداء تقف بصمت امام الحاجز . وفكر في ضيق : لا يزال هناك عام اجرجره .

كان الوقت قد تجاوز نصف الليل ، وكان قصر الرياضة مظلماً مقفراً ، الكراسي مقلوبة ، وأطراف السيكارات مسحوقة ، وكان السيد شمبرلن يتحدث في الراديو ، وكان ماتيو يتيه على رصيف « فيو — بور » وهو يفكر : « انه مرض ، مرض ليس الا ، وقد سقط عليّ اتفاقاً ، فهو لا يعنيني ، ويجب ان أعالجه بالشدة وبالصبر كالنقرس او وجع الاسنان » . وقال السيد شمبرلن :

« ارجو ان لا يطرح المستشار هذا العرض الذي صيغ بروح الصداقة نفسها التي قوبلت بها في المانيا والذي اذا قبل ارضى الرغبة الالمانية في اتحاد السوديت مع الريخ ، من غير اراقة نقطة دم في اي جزء من اوروبا » .

وأشار بيده اشارة يدل بها على انه انتهى وابتعد عن المكبر . وكانت زيزيت ، التي لم تكن تستطيع النوم ، قد وقفت امام النافذة تنظر الى النجـوم فوق السطوح ، وكان جيرمان شالو ينزع بنطاله في غرفة التواليت . وكان بوريس ينتظر لولا في ساحة الكازينو ، وكانت زهرة كالحة تحاول ، في كل مكان من الاجواء ، ان تتفتح ، وهي تكاد لا تسمع : « اذا أصبح القمر أخضر » تعزفهـا فرقة الجاز في فندق استوريا وتنقلها دافانتري .

الثلاثاء ٢٧ ايلول

الساعة ٣٠ر٢٢ . قالت البوابة : « السيد دولارو ! انها لمفاجأة ! فانا لم اكن انتظر وصولك الا بعد ثمانية ايام » .

فابتسم لها ماتيو . كان يؤثر لو انه دخل من غير ان تلحظه : ولكن كان لا بد له من طلب المفاتيح .

– انك غير مجنَّد ، على الاقل ؟

قال ماتيو : – انا ، نعم ، لست مجنداً .

قالت : – آه ! هذا أفضل ! أفضل ! فهذا يأتي دائماً قبل الاوان . ولكن ، قل لي ، ما هذه الاحداث ؟ لقد وقعت اشياء واشياء منذ ذهابك : وهل تظن انها الحرب ؟

قال ماتيو : – لا ادري ، ايتها السيدة غارينيه . (واضاف بحيوية) هل هناك بريد لي ؟

قالت السيدة غارينيه : – الواقع اني ارسلت لك كل شيء . وأمس فقط ، حولت لك مطبوعاً الى جوان ليبان : فليتك كنت اخبرتني عن عودتك . ثم وصلك هذا ، هذا الصباح .

ومدت له ظرفاً طويلا رمادياً ، فعرف ماتيو خط دانيال . وأخذ الرسالة فوضعها في جيبه من غير ان يفضها . قالت البوابة :

– أتريد المفاتيح ؟ آه ! من المزعج انك لم تستطع ان تخبرني :

فلو فعلت لكان امامي وقت للتنظيف . اما الآن ... فحتى المصاريع لم تفتح .

قال ماتيو وهو يأخذ المفاتيح :

– لا بأس على الاطلاق ، على الاطلاق . مساء الخير يا سيدة غارينيه .

وكان البيت مقفــراً . وكان ماتيو قد شاهد من الخارج جميع المصاريع مغلقة . وكانت سجادة الدرج قد نُزعت بسبب الصيف . ومر متمهلا امام شقة الطابق الاول . كان أطفال في الماضي يصرخون فيها، فيتململ ماتيو في فراشه وقد خُرقت اذناه ببكاء المولود الجديد . اما الآن ، فقد كانت الغرف سوداء خالية خلف المصاريع المغلقة . العطلة. ولكنه كان يفكر في اعماق نفسه : الحرب . لقد كانت هي الحرب ، هذه العطلة المخدرة التي قُصّرت للبعض ، ومُددت للبعض الآخر . وفي الطابق الثاني كانت تسكن امرأة ينفق عليها رجل : كان عطرها غالباً ما يتسرب من تحت الباب وينتشر حتى سطيحة السلّم . لا بد انها في بياريتز ، في فندق كبير ترهقه الحرارة وخمود الاعمال . وبلغ الطابق الثالث وأدار المفتاح في القفل : كان تحته وفوقه حجارة ، والليـل والصمت . ودخل في الظلام ، ووضع في الظلام حقيبته ومشمّعه : وكانت رائحة الغبار تنبعث من المدخل . وبقي جامداً وذراعاه ملتصقتان بجسمه ، مجلبباً بالظلام ، ثم أدار المفتاح الكهربائي فجأة وعبر غرف بيته واحـدة بعد الاخرى ، تاركاً جميع الأبواب مفتوحة ؛ وأضاء النور في المكتب ، وفي المطبخ ، وفي المرحاض ، وفي غرفته . كانت جميع المصابيح تلمع ، وكان تيار من النور المتصل يسري بين الغرف. وتوقف عند حافة سريره .

كان ثمة من نام هناك . فالغطاء كان ملتوياً ، وكان غشاء الوسادة متسخاً ومدعوكاً ، وكان فتات من الخبز منتثراً على الفراش . أحدهم:

أنا . كان يفكر : انا الذي نمت هنا . يوم ١٥ تموز ، للمرة الاخيرة. ولكنه كان ينظر الى السرير في اشمئزاز : كان نومه القديم قد برد في الاغطية ، اما الآن ، فهو نوم شخص آخر . لن انام هنا .

واستدار ودلف الى المكتب : واستمر اشمئزازه . قدح قذر على المدخنة . وعلى الطـــاولة ، بالقرب من العقرب البرونزي ، سيكارة مكسورة : وكانت وفرة من السبائب خارجة منها . متى كسرت هذه السيجارة ؟ وضغط على بطنها فأحس تحت أصابعه بهسيس لاوراق ميتة. الكتب . مؤلف لأربوليه ، وآخر لمارتينو ، ولامبال ، ولوسيان لون، وذكريات الأنا . هناك من فكر بكتابة مقال عن ستاندال . كانت الكتب باقية هناك ، اما المقال المحجّر فقد اصبح شيئاً . ايار ٣٨ : لم يكن غير مجد بعد كتابة مقال عن ستاندال . شيء. شيء كأغطيتها الرمادية، كالغبار الذي حط على ظهورها . شيء كثيف ، جامد ، حضور لا لا ينفذ اليه . مشروعي .

مشروعه للشرب ، الذي حطّ صفائح كابية على شفافية القدح ، مشروعه للتدخين ، مشروعه للكتابة ، كان الرجل قد علق مشاريعه في كل مكان . كان ثمة تلك الاريكة الجلدية الخضراء حيث كان الرجل يجلس مساء . كان ذلك في المساء : نظر ماتيو الى الاريكة وجلس على طرف كرسي . « ان ارائكك مفسدة » كان صوت قد قال ، هنا بالذات : ان أرائكك مفسدة . وعلى الديوان ، كانت فتاة شقراء قد نفضت خصلاتها في غضب . في ذلك الوقت كان الرجل يكاد لا يرى الخصلات ، ولا يسمع الاصوات : كان يرى ويسمع مستقبله من جهة الى جهة . اما الآن ، فان الرجل كان قد رحل ، حاملا مستقبله القديم الكاذب ؛ كانت اشكال الحضور قد بردت ، فظلت هناك ، قشرة من شحم مجمدة على الاثاث ، وكانت الاصوات تطفو على مستوى الأعين: كانت قد صعدت حتى السقف ، ثم سقطت ، وكانت طافية . واحس

ماتيو بأنه مبذول ، فاتجه الى النافذة ورفع المصاريع : وكان ما يزال في المساء بعض النهار ، إشراق غفل : وتنفس .

رسالة دانيال . مد يده ليأخذها ، ثم ترك يده تسقط على عمود الاستناد . كان دانيـــال قد ذهب من هذه الطريق ، ذات مساء من حزيران ، وكان قد مر تحت هذا الفانوس : وكان الرجل قد وقف على النافذة يتابعه بعينيه . لهذا الرجل كتب دانيال . ولم تكن لدى ماتيو رغبة بقراءة رسالته . واستدار فجأة . فأجال نظره في مكتبه ، بفرح جاف . كانوا جميعاً هنا ، محبوسين ، امواتاً ، مارسيل ، ايفيش ، برونيه ، بوريس ، دانيال . كانوا قد جاءوا ، فأخذوا ، فبقوا ، سورات غضب ايفيش ، ومواعظ برونيه ، كان ماتيو يتذكرها كما يتذكر موت لويس السادس عشر ، بالتجرد نفسه . كانت تنتمي الى ماضي العالم ، لا الى ماضيه : فانه لم يكن له ماض بعد .

وعاد يغلق المصاريع ، ثم عبر الغرفة ، وتردد ، وبعد تفكير ، ترك المصباح مضاءً . صباح الغد ، سأعود لآخذ حقائبي . وعاد يغلق الباب الخارجي عليهم جميعاً ، وهبط الدرج ، خفيفاً . فارغاً وخفيفاً. وخلفه ، فوق ، كانت المصابيح الكهربائية تضيء طوال الليل حياته الميتة .

سألت لولا : — بمَ تفكر ؟

فقال بوريس : — بلا شيء .

وكانا جالسين على الشاطيء . ولم تكن لولا لتغني ذلك المساء،بسبب حفلة خاصة تقام في الكازينو . وكان قد مر امامها رجل وامرأة ، ثم جندي . وكان بوريس يفكر في الجندي . وقالت لولا بصوت ملحّ :

— كن لطيفاً وقل لي بمَ تفكر ؟

وهز بوريس كتفيه :

— كنت افكر بالجندي الذي مرّ .

قالت لولا مندهشة : — آه ! وبأي موضوع حوله كنت تفكر ؟

— بمَ تريدين ان يفكر المرء حول جندي ؟

فهمهمت لولا : — بوريس ، ما بك ؟ كنت رقيقاً جداً ولطيفاً ، وها ان كل شيء يعود كالسابق . انك لم تحدثني طوال النهار تقريباً ،

فلم يجيب بوريس ، كان يفكر بالجنـــدي . كان يفكر : « انه محظوظ : اما انا ، فان امامي سنة اخرى اجرجرها ، سنة : سيعود الى باريس ، وسيتنزه على جادة مونبارناس ، وعلى جادة سان ميشال التي يعرفها عن ظهر قلب ، ويذهب الى الدوم والى الكوبول ، وينام في بيت لولا كل يوم . ليتني استطيع ان ارى ماتيو ، اذن لسارت الامور سيراً رائعـــاً ، ولكن ماتيو سيكون مجنداً . وفكر فجأة : ودبلومي ! فانه سيكون ثمة ، فوق ذلك كله ، هذه النكتة السمجة : دبلوم الدراسات العليا . سوف يطلب منه ابوه بالتأكيد ان يتقدم الى امتحانه ، وسيكون بوريس مضطراً الى تقديم اطروحة عن « الذاكرة عند رنوفييه » او عن « العادة عند مين دوبيران » . وفكر في غيظ : لماذا تراهم جميعاً يمثلون ؟ كانوا قد ربّوه للحرب ، وكان هذا حقهم ، ولكنهم الآن يريدون ان يقسروه على التقدم لامتحان دبلومه ، كما لو كانت امامه حياة سلام برمتها . سيكون الوضع مرحاً : سيتردد طوال عام الى المكتبات ، وسيتظاهر بأنه يقرأ جميع آثار مين دوبيران في طبعة تيسران ، وسيتظاهر بأنه يسجل ملاحظات ، وسيتظاهر بأنه يعدّ امتحانه ، ولن ينقطع عن التفكير بالتجربة الحقيقية التي تنتظره ، ولن يكف عن التساؤل عما اذا كان سيخاف ام يصمد . وفكر وهو يلقي نظرة انزعاج على لولا : « لو لم تكن هذه موجودة لتطوعت على الفور ، وتكون هذه حكاية جميلة أعملها معهم » .

وصاحت لولا مذعورة — : بوريس ! لماذا تنظر اليّ هكذا ؟ اتراك لا تحبني ؟

فقال بوريس منقبض الاسنان : — على العكس . لا تستطيعين ان تدركي كم أحبك . بل انت لا تقدرين مدى ذلك .

كانت ايفيش قد اضاءت مصباحها الليلي وتمددت على سريرها ، عارية تماماً . وكانت قد تركت البـــاب مفتوحاً وهي تراقب الممر . وكان في السقف دائرة مضيئة ، وباقي الغرفة كلها أزرق . وكانت سحابة زرقاء تطفو فوق الطاولة ، تنبعث منها رائحة الليمون والشاي والسيجارة .

وسمعت حفيفاً في الممر ، ثم مرت كتلة هائلة امام الباب صامتة . فصاحت :

— هيب !

وأدار ابوها رأسه فنظر اليها نظرة توبيخ :

— ايفيش ! لقد رجوتك قبل الآن : اما ان تغلقي البـــاب او ترتدي ثيابك .

وكان قد احمر قليلا ، وكان صوته اكثر غناء من المألوف .

— بسبب الخادمة .

قالت ايفيش من غير ان تتأثر :

— لقد اوت الخادمة الى فراشها (وأضافت) كنت اترصدك . فانت تحدث ضجة يسيرة جداً حين تمر . وقد كنت اخشى ان تفوتني . ارجع.

فرجع السيد سرغين ، ونهضت فوضعت معطفها . وكان ابوها يقف مستقيماً ، مولياً ظهره ، في فتحة البـــاب . ونظرت الى رقبته ، والى كتفيه العتليتين واخذت تضحك بلا ضجة .

— تستطيع ان تنظر .

وادار وجهه ، ونشق مرتين او ثلاثاً ثم قال :

— انك تفرطين في التدخين .

فقالت : — بسبب ثورة اعصابي .

وصمت . وكان المصباح يضيء وجهه الكبير المخدد . ووجدته ايفيش جميلا . جميلا كالجبل ، كشلالات نياغارا . وانتهى الى القول :

ـ سآوي الى النوم .

فقالت ايفيش مبتهلة : ـ كلا ، كلا ، يا بابا : اريد ان استمع الى الراديو .

وصاح السيد سرغين : ـ ماذا ؟ في هذه الساعة ؟

ولم تستسلم ايفيش لهذا الغضب : كانت تعلم انه كان يخرج ثانية من غرفته كل مساء حوالى الساعة الحادية عشرة ليذهب فيستمع الى الاخبار في مكتبه ، بصوت منخفض ، وكان خفياً وخفيفاً كأنه جني ، بالرغم من كيلوغراماته التسعين .

قال : ـ اذهبي فاستمعي وحدك . اما انا ، فاني انهض باكراً غداً.

قالت ايفيش بلهجة تدعو الى الاشفاق :

ـ ولكنك تعرف يا بابا انني لا أعرف إدارة الراديو .

فأخذ السيد سرغين يضحك وقال :

ـ ها ! ها ! ها ! ها !

وسألها وهو يستعيد جده :

ـ هل تريدين سماع الموسيقى ؟ ولكن امك المسكينة تنام ؟

قالت ايفيش غاضبة : ـ كلا يا بابا . لا اريد سماع الموسيقى ، وانما اريد ان اعرف اين صاروا في حربهم .

ـ اذن ، تعالي .

فتبعته الى المكتب ، وقدماها عاريتان ، وانحنى على الجهاز . وكانت يداه الطويلتان القويتان تحركان المفاتيح بلطف شديد ، حتى ان قلب ايفيش قد خفق وتأسف على حميميتها السابقة . حين كانت في الخامسة عشرة ، كانا دائماً معاً ، وكانت السيدة سرغين تغار . وحين كان السيد سرغين يصطحب ايفيش الى المطعم ، كان يجلسها قبالته ، على

المقعد ، وكانت هي تختار وجبتها بنفسها ؛ وكان الخـدم ينادونها « مدام » فتضحك مرحاً ويستشعر هو الفخر ، وكان يبدو في بحبوحة من العيش . وسمعت آخر انغام نشيد عسكري ، ثم أخذ الماني يتكلم بصوت مغتاظ . وقالت في عتاب :

— بابا ، انني لا اعرف الألمانية .

فنظر اليها نظرة ساذجة ، وفكرت : « لقد تقصد ذلك . »

— انها ، في هذه الساعة ، افضل الاخبار .

وأصغت ايفيش بتنبه لترى اذا كانت ستسمع في هذه الاثناء كلمة « كريغ » التي كانت تعرف معناها . وصمت الالماني ، ثم بدأت الجوقة نشيداً عسكرياً آخر تجرحت منه أذنا ايفيش ، ولكن السيد سرغين استمع حتى النهاية : انه لم يكن يحتقر الموسيقى العسكرية .

وسألت ايفيش ، في ضيق :

— ماذا هناك ؟

فصرح السيد سرغين : — الامور سيئة جداً .

ولكنه لم يكن يبدو متأثراً اكثر مما ينبغي . وقالت، وحلقها جاف :

— آه ! دائماً بسبب هؤلاء التشيكيين ؟

— نعم .

قالت بحماسة : — ما اشدّ ما اكرههم ! (وأضافت بعد لحظة) ولكن اذا كان ثمة بلد يرفض الحرب ، فلن يكون بالامكان إجباره عليها ؟

قال السيد سرغين بقسوة :

— ايفيش ، انك حقاً طفلة .

قالت ايفيش : — آه ؟ آه نعم ، طبعاً .

كانت تتهم أباها بأنه لم يكن يعرف الموضوع خيراً منها .

— اهذه كل الاخبار ؟

فتردد السيد سرغين :

– بابا !

إنه غاضب لاني جئت ، فانا أفسد عليه حفلته الصغيرة ، كان السيد مرغين يحب الأسرار ، وكان لديه ست حقائب مقفلة ، وصندوقان محكما الاغلاق ، وكان يفتحها احياناً اذ يكون وحده . وتأملته ايفيش في حنان ، كان لطيفاً جداً حتى انها اوشكت ان تطلعه على قلقها ؛ وقال على مضض :

– بعد لحظة ، سنسمع الفرنسيين .

وخفض نحوها عينيه المتقعتين ، فاحست بأنه لم يكن يستطيع ان يعينها في شيء .

واكتفت بالسؤال :

– كيف تكون الامور ، اذا وقعت الحرب ؟

– سيهزم الفرنسيون .

– هكذا ! وهل يدخل الألمان الى فرنسا ؟

– طبعاً .

– ويأتون الى لاون ؟

– أفترض ذلك . افترض ان ينزلوا الى باريس ؛

وفكرت ايفيش : « انه لا يعرف من الامر شيئاً ؛ انه مهرج ؛ » ولكن قلبها كان يقفز في صدرها .

– سيأخذون باريس ، ولكنهم لن يهدموها ؟

وندمت لإلقائها السؤال ؛ فمنذ ان احرق البولشفيك قصور أبيها ، اكتسب حس الكوارث ؛ وهز رأسه وهو يغمض عينيه نصف إغماض ، وقال :

– هيه ! هيه ! هيه !

الساعة ٢٣٫٣٠ . كان شارعاً ميتاً يغرقه الظلام ؛ مصباح من بعيد

لبعيد . شارع من لا مكان تحفّ به أضرحة مغفلة . جميع المصاريع مغلقة ، وليس من شق للضوء . « كان ذلك شارع دولامبر . » وكان ماتيو قد اجتاز شارع « سيل » ، وشارع « فروادفو » وتابع جادة دوبين وحتى شارع لاغيتيه : كانت كلها متشابهة ، فهي ما تزال دافئة ، يكاد المرء لا يعرفها ، إذ هي قد أصبحت شوارع حرب .

ودلف ماتيو الى الدوم لان الدوم كان قائماً هناك . وأسرع اليه خادم وهو يبتسم بلطف : كان فتى قصيراً ذا نظارات ، ضعيف الصحة ، يفيض بروح الرضى . انه خادم جديد : فقد كان القدامى يتركون زبائنهم ينتظرون طوال ساعة ، ثم يقبلون في غير اكتراث ويأخذون الطلب من غير ان يبتسموا .

– اين هنري ؟

فسأل الخادم : – هنري ؟

– اسمر طويل ذو عينين تجحظان من رأسه .

– آه ! لقد جُنّد .

– وجان ؟

– الاشقر ؟ لقد جُنّد ايضاً . فانا أحلّ محله .

قال ماتيو – : اعطني قدح خمر .

فمضى الخادم وهو يعدو . وطرف ماتيو بعينيه ، ثم تأمّل القاعة في دهشة . في تموز ، لم يكن للدوم حدود دقيقة ، كان يسيل في الليل ، عبر واجهاته وبابه ، وكان ينتثر على الطريق ، وكان المارة يسبحون في ذلك الحليب النليل الذي ما يزال يرتجف على ايدي السواقين الواقفين في وسط جادة مونبارناس . وخطوة الى الامام ، فاذا هم يسبحون في الاحمر ، لأن الجانب الايمن من وجوه السواقين أحمر : كان هناك مقهى الروتوند ، اما الآن ، فقد كانت ظلمات الخارج تتدافع على الواجهات فاذا الدوم مقتصر على نفسه : مجموعة من الطاولات والمقاعد والزجاج

الجاف المقبض ، المحروم من هذا الإشراق المنتشر الذي كان ظلالها الليلي . لقد اختفوا ، المهاجرون الالمان ، وعازف البيانو الهنغاري ، والاميركية العجوز المدمنة على الكحول . ذهبوا ، جميع اولئك الازواج اللطفاء الذين كانوا يتماسكون بالايدي تحت الطاولة ، ويتحدثون عن الحب حتى الصباح ، وعيونهم متوردة من النعاس . وكان الى يساره رئيس عسكري يتناول العشاء مع زوجته ؛ وقبالته كانت مومس صغيرة ألمانية تحلم امام فنجان قهوة بالحليب ، وعلى الطاولة المجاورة نقيب يأكل الكرنب المهرّم . والى اليمين ، كان فتى في الثياب العسكرية يضمّ اليه امرأة، وكان ماتيو يعرفه بالوجه ، فقد كان طالباً من طلبة البوزار ، طويلا، ممتقعاً ، برماً ؛ وكان الثوب العسكري يكسبه هيئة متوحشة؛ ورفع النقيب رأسه فاخترق نظره الجدار ؛ وتابع ماتيو هذا النظر : في البعيد كانت ثمة محطة وأنوار وانعكاسات على خطوط حديدية ، ورجال ذوو وجوه مرحلة وقد اتسعت عيونهم من فرط الارق ، وهم جالسون بتصلّب في القاطرات ، وايديهم على ركبهم . في تموز كنا جالسين تحت المصابيح في حلقة ، لا يترك احدنا الاخر بنظره ، ولم يكن نظر احدنا ليضيع . اما الان ، فهم يضيّعون بعضهم بعضاً ، يمضون نحو ويسمبورغ ونحو مونتميدي ، وبين الاشخاص كثير من الفراغ وكثير من السواد . لقد جنّدوا الدوم . وجعلوا منه آنية ذات اهمية اولية : مقصفاً .

وفكّر في فرح : « آه ! انني انكر هذا كله ، ولا أتحسر على شيء ، ولا أخلّف شيئاً ورائي . »

وابتسمت له الفتاة الهندصينية . كانت رقيقة دقيقة ذات يدين صغيرتين جداً ؛ وكان قد مضى على ماتيو عامان وهو يَعِدُ نفسه بأن يقضي ليلة معها . وإنها لفرصة مناسبة . سوف أمرُّ فمي على بشرتها البـاردة ، وسوف انتشق رائحتها الخشَرية الصندوقية ، وسأكون عـارياً ومطلق

شخص تحت اصابعها الممتهنة ؛ وإن في بعض النفاهات التي ستموت على يديها . وكان حسبه ان يبادلها بسمتها .

– غارسون :

فهرع الخادم :

– عشرة فرنكات :

ودفع ماتيو وخرج : انني ما زلت اعرفها اكثر مما ينبغي .

وكان الظلام هابطاً . ليلة حرب اولى : كلا ، ليس تماماً ، كان ما يزال هناك كثير من الانوار المعلقة على جنبات البيوت . وبعد شهر، بعد خمسة عشر يوماً ، ستطفئها الغارة الاولى ؛ اما الان ، فليس الأمر إلا تمريناً عاماً غير ان باريس كانت مع ذلك قد فقدت سقفها القطني المورد . وللمرة الاولى ، كان ماتيو يرى بخاراً كثيفاً معتماً معلقاً فوق المدينة : السماء : سماء جوان ليبان ، وتولوز ، وديجون ، واميان ، سماء واحدة للريف والمدينة ، لفرنسا كلها . وتوقف ماتيو فرفع رأسه ونظر اليها . سماء لمطلق مكان ، من غير امتيازات . وانا تحت هذه المعادلة الكبيرة : مطلق شخص، مطلق شخص في مطلق مكان : انها الحرب . كان يحدد عينيه في مستنقع نور ، وكرر مرة اخرى ، ليرى : « باريس ، جادة راسباي . » ولكنهم كانوا قد جندوها ايضاً ، هذه الاسماء المترفة ، كانت تبدو وكأنها تخرج من خارطة اركان حرب او من بلاغ . لم يكن باقياً شيء من جادة راسباي : طرق ، ليس غير طرق ، تمتد من الجنوب الى الشمال ، ومن الغرب الى الشرق ، طرق مرقمة . وبين فينة وفينة ، كانوا يبلطونها لمسافة كيلومتر او اثنين ، وكانت ارصفة وبيوت تنبع من الارض ، وكان ذلك يسمى طريقاً وشارعاً وجادة : ولكنها لم تكن قط الا طرفاً من درب ؛ كان ماتيو يسير ، ووجهه ملتفت نحو الحدود البلجيكية ، على قطعة من درب متفرع من الطريق الوطنية ١٤ . واستدار في طريق

المركبات المستقيمة التي كانت تعليل الطرق الحديدية لشركة الغرب التي كانت في الماضي شارع « رين ». وجلبه لهب قذف خارج الظل فانوساً ثم انطفأ : مرت سيارة تاكسي ، جارية نحو محطات الشاطيء الأيمن . وتبعتها سيارة سوداء تغص بالضباط ، ثم سقط كل شيء مرة اخرى في الصمت . وعلى طرف الطريق ، تحت هـذه السماء غير المميزة ؛ كانت البيوت قد تقلصت الى اخشن ما في رسالتها : مساكن للإيجار : مخادع – مطاعم للمرشحين للتجنيـد ، ولأسر المجندين . وان المرء ليستشعر منذ الآن مصيرها الابعد : انها ستصبح « نقطاً استراتيجية » ، وفي النهاية اهدافاً ومرامي . وبعد ذلك ، يمكن بيسر هدم باريس : فهي قد سبق وماتت . وكان عالم جديد بسبيل ان يولد ، عالم الاواني العملي القاسي .

كانت اشعة من ضوء تتسلل بين ستائر مقهى « دوماغو » : وجلس ماتيو على السطيحة . وكان خلفه اشخاص يهمسون في الظلام : الزبائن الأخيرون . وكان الطقس قد بدأ يرطب . قال ماتيو :

– قدح بيرة .

قال الخادم : – سيدق منتصف الليل . فلا خدمة بعد على السطيحة .

– قدح بيرة واحد .

– إذن بسرعة .

وفي ظهره ، اخـذت امرأة تضحك . وكانت تلك هي الضحكة الأولى الذي يسمعها منذ عودته : ولهذا أحس بصدمة منها . غير انه لم يكن يشعر انه حزين ، ولكن لم تكن به رغبة للضحك . وفي السماء تمزقت غيمة وبرزت نجمتان . وفكر ماتيو : « انها الحرب » .

– هل تريد ان تدفع لي فوراً : وبعد ذلك اتركك وشأنك .

ودفع ماتيو ، فعاد الخادم الى الداخل . ونهض زوج من الظلال ، فتسلل بين الطاولات ثم مضى . وكان ماتيو وحيداً الآن على السطيحة .

ورفع رأسه فرأى ، من الجهة الأخرى للساحة ، كنيسة جميلة جديدة كل الجدة ، بيضاء في السماء السوداء . كنيسة قرية . كان يرتفع في مكانها امس بناء باريسي ، كنيسة سان جرمان ديبريه ، بناء تاريخي ، كان ماتيو غالباً ما يواعد ايفيش على اللقاء عند مدخله المسقوف . لعلّه لن يبقي غداً ، تجاه مقهى « دوماغو » ، إلاّ آنيـــة محطّمة ستصرّ مئة مدفع على اطلاق نارها عليها . امـــا اليوم . . . اليوم كانت ايفيش في لاون ، وكانت باريس ميتة ، وكان السلام قد دفن ، ولم تكن الحرب قد أعلنت بعد . لم يكن ثمة إلا شكل كبير ابيض موضوع في ساحة ، هو قشرة الليل البيضاء . كنيسة قرية . كانت جديدة ، وكانت جميلة ؛ ولم تكن تنفع شيئاً . وهبت ريح خفيفة ؛ ومرت سيارة مطفأة النور ، ثم راكب دراجة ، ثم شاحنتان ارتجت لها الأرض . وتعكرت الصورة الحجرية لحظـــة . ، ثم سكنت الريح ، وساد الصمت ، وتشكلت من جديد بيضاء غير مجدية ، لا انسانية ، ناصبة وسط كل شيء ، هذه الآلات العمودية ، على طرف طريق الشرق ، مستقبل الصخرة العاري العادم الاحساس : سرمدية . كان حسبها نقطة صغيرة سوداء ليفجّرها رماداً ، وقد كانت مع ذلك سرمدية : رجل وحيـــد ، منسيّ يأكله الظلام تجاه هذه السرمدية القابلة للفناء . وارتعش وفكر : انني ايضاً سرمدي خالد .

ولقد تم ذلك من غير ألم . كان ثمة رجل رقيق معتدل يحب باريس ويتنزّه فيها . وقد مات الرجل . مات مثـــل « والدك — روسو » و « تورو دانجان » ؛ وكان قد استغرق في ماضي العالم ، مع السلام ، وكانت حياته قد سُكبت في دقائق « الجمهورية الثالثة » . وسوف تغذي نفقاته اليومية الاحصائيات المتعلقة بمستوى حياة الطبقات الوسطى بعد عام ١٩١٨ ، وستصلُح رسائله وثائق لتاريخ البورجوازية لفترة ما بـــين الحربين ، وستكون حيراته وتردّداته ونقائصه وندمه ثمينة جـــداً لدراسة

الأخلاق الفرنسية بعد سقوط الامبراطورية الثانية . كان هذا الرجل قد شق لنفسه مستقبلاً على قدّه ، مسوّداً ، مدخّناً ، خاضعاً ، مثقلاً بالعلامات والمراعيد والمشاريع. مستقبل صغير تاريخي وقابل للموت: وكانت الحرب قد سقطت عليه بكل ثقلها فسحقته . ومع ذلك ، وحتى هذه اللحظة ، كان ما يزال ثمة شيء يمكن ان يسمّى ماتيو : شيء كان يتشبث به بكل قواه . ولن يعرف ان يقول ما هو . فربما كان بعض عادة قديمة ، او ربما كان طريقة ما لاختيار افكاره على صورته ، لاختيار نفسه يوماً فيوماً على صورة افكاره ، لاختيار مآكله وملابسه والاشجار والبيوت التي كان يراها . وفتح يديه واستسلم ؛ كان ذلك يتم بعيداً جداً في اعماق نفسه ، في منطقة ليس للكلمات فيها من معنى بعد . استسلم ، ولم يبق بعد الا نظراً . نظراً جديداً كل الجدة ، من غير حماسة ، مجرد شفافية . وفكّر في فرح : « لقد فقدت روحي. » وعبرت امرأةٌ هذه الشفافية . وكانت على عجل ، وكان كعباها يطقطقان على الرصيف . وانسلّت في النظر الجامد ، مهمومة ، ميّتة ، زمنية ، يفترسها ألف مشروع صغير ، وامرّت يدها على جبينها ، فيما هي تمشي ، لتلقي خصلة الى الوراء . كنت مثلها ، خليّة مشاريع . ان حياتها حياتي ؛ فتحت هذا النظر ، تحت السماء اللامبالية ، كانت جميع الحيوات تتعادل . واخذها الظلام ، وكان كعباها يطقطقان في شارع بونابرت ؛ وذابت جميع الحيوات البشرية في الظلام ، وانطفأت الطقطقة .

نظري . كان ينظر الى بيـــاض برج الجرس المخنوق . كل شيء ميت . نظري وهذه الاحجار . خالدٌ ومعدنيّ ، مثلها . كان ثمة ، في مستقبلي القديم ، رجال ونساء ينتظرونني يوم ٢٠ حزيران ١٩٤٠ ، ويوم ١٦ ايلول ١٩٤٢ ، ويوم ٨ شباط ١٩٤٤ ، وكانوا يومئون لي . اما الآن ، فإن نظري وحده هو الذي ينتظر نفسه في المستقبل ، على مدى النظر ، كما تنتظر هذه الأحجار نفسها ، تنتظر نفسها احجاراً ،

غداً ، وبعد غد ، والى الأبد . وفرحةٌ هائلة كالبحر ؛ كان ذلك جيداً . ووضع يديه على ركبتيه ، وكان يودّ ان يكون هادئاً : منذا الذي يثبت لي انني لن أعود غداً ما كنته بالأمس ؟ ولكنه لم يكن خائفاً ، يمكن للكنيسة ان تنهار ، ويمكن لي ان اسقط في حفرة قنبلة، واسقط مرة اخرى في حياتي : فلا شيء يستطيع ان ينتزع مني هذه اللحظة الخالدة . لا شيء : فان هذا الإشراق الجاف الذي يُلهب أحجاراً تحت سماء سوداء ، سيكون قد وُجد الى الأبد ؛ المطلق ، الى الابد ، المطلق ، بلا سبب ، ولا حجة ، ولا هدف ، ولا ماضٍ آخر ، ولا مستقبل آخر غير الديمومة ؛ مجانية ، اتفاقية ، رائعة . وقال لنفسه فجأة : « انني حر . » وسرعان ما تحول فرحه الى قلق ساحق .

كانت ايرين ضجرة . ولم يكن يحدث شيء ، الا ان الجوقة كانت تعزف . وان مارك كان ينظر اليها بعينين مُفعمة . والواقع انه لم يكن يحدث شيء ، قط ، واذا اتفق ان شيئاً ما كان يحدث ، فانه لم يكن يُلحظ على التوّ . كانت تتابع بنظرها امرأة اسكندينافية ، شقراء طويلة كانت ترقص منذ اكثر من ساعة ، حتى من غير ان تجلس بين الرقصات ، وفكرت في تجرّد : ان هذه المرأة أنيقة الملبس ، وكذلك فان مارك أنيق الملبس ؛ الجميع كانوا انيقي الملبس ، باستثناء ايرين التي كانت تُحسّ نفسها قذرة في ثوبها العقيقي ، وكانت لا تكترث بذلك . فأنا اعرف جيداً أنه لم يكن لي ميلٌ للاهتمام بزينتي ، ثم من اين عساي آخذ المال لاجدد ملابسي ، فمجرد التردد على الاغنياء يقتضي إيجاد الوسيلة حتى لا يلاحظ الناس ذلك ، وكان ثمة نصف دزينة قد اصبحوا ينظرون اليها : ثوب رخيص ملتمع بعض الشيء ، كان يثير قابليتهم ، فيشعرون انهم أقل خوفاً وتهيباً. كان مارك مرتاحاً راضياً ، لانه كان غنياً ، وكان يحب ان يصحبها الى بيوت الاغنياء ، لان ذلك كان يضعها في موضع التدني ، فتخفّ

مقاومتها كما كان يظن .

وسأل : — لماذا لا تريدين ؟

فانتفضت ايرين :

— ما الذي لا أريده ؟ آه ، نعم ...

وابتسمت من غير ان تجيب .

— بِمَ كنت تفكرين ؟

— كنت أفكر بأن قدحي كان فارغاً . فاطلب لي قدحاً آخر من « الشيري غوبلر » .

فطلب مارك قدح شيري غوبلر آخر . وكان طريفاً بعض الطرافة ان تحمله على الدفع ، لأنه كان يسجل نفقاته كل يوم بيومه على دفتر . سوف يكتب هذا المساء : خروج مع ايرين ، قدح جن فز ، قدحا شيري غوبلر : مئة وخمسة وسبعون فرنكاً . ولاحظت انه كان يلامس ذراعها بطرف سبابته ، ولا بد انه كان يتسلّى بذلك منذ حين .

— قولي ، ايرين ، قولي ، لماذا ؟

قالت وهي تتثاءب : — هكذا . لا أدري .

— اذن ، من اجل هذا بالذات : اذا كنت حقاً لا تدرين ...

— آه ، كلا ! انما هو العكس : فحين أنام مع احد ، اريد ان اعرف لماذا . يكون ذلك من اجل عينيه ، او من اجل عبارة قالها ، او لأنه جميل .

قال مارك بصوت منخفض : — انا جميل .

فأخذت ايرين تضحك ، واحمرّ وجهه . ثم قال بحيوية :

— مهما يكن ، فأنت تفهمين ما أقصده .

قالت : — افهمه جيداً ، جيداً جداً .

فامسك بمعصمها :

— ايرين ، بربك ، ما الذي ينبغي ان افعله ؟

وانحنى عليها في ذل مكشّر ، وكان الانفعال يعكر تنفسه ، وفكّرت « كم انا ضجرة ؟ »

– لا شيء . لا فائدة من شيء ؟

قال : – هكذا !

وتركها وارتدّ برأسه الى الخلف ، وهو يكشف عن اسنانه . وكانت ترى نفسها في المرآة انسانة متسخة ذات عينين جميلتين ، وكانت تفكر : « يا إلهي ! كم من مشاكل من أجل هذا ! » كانت خجلة من اجله ومن أجلها ، وكان كل شيء تفهاً مضجراً ؛ انها لم تكن لتفهم بعد لماذا كانت تتمنّع : انني احدث كثيرا من الارتباك ؛ كان افضل ان تقول له : « اتريد ذلك ؟ حسناً ، هيا بنا : نصف ساعة في غرفة فندق . ماذا ! رذالة صغيرة بين غطاءين ، ثم نعود بعد ذلك لننهي امسيتنا ، وتدّعني وشأني . » ولكن كان ينبغي ان تؤمن بأنها كانت ما تزال تعلّق اهمية مفرطة على جسدها المسكين : كانت تشعر جيدا بأنها لن تستسلم .

وقال : – انني اجدك غريبة ؟

وكان يدير في محجريه عينين كبيرتين جميلتين خبيثتين . انه سيحاول ان يؤذيني ، وهذا مألوف ، ثم يستميحني العذر . وقال في سخرية :

– ما أشدّ ما تدافعين عن نفسك ! لو لم اكن اعرفك منذ اربعة اعوام ، لكان باستطاعتي ان اظن انك تمثلين الفضيلة !

ونظرت اليه باهتمام مفاجىء واخذت تفكر . حين كانت تفكر ، يخفّ ضجرها . وقالت :

– انت على حق ، هذا غريب جدا : انني سهلة ، وهذا واقع ، ومع ذلك افضل ان أقطّع على ان انام معك . فهل تستطيع ان تشرح لي ذلك ؟ ! (وتفحصته بتجرد وأضافت) بل اني لا استطيع حتى ان اقول اني اشمئز منك حقاً .

قال : — بصوت منخفض . تكلمي بلهجة أخفت . (واضاف بحقد) ان لك صوتاً صغيراً ثاقباً يُسمع بعيدا .

وصمتا . وكان الناس يرقصون ، والجوقة تعزف « كارافان » .
وكان مارك يُدير قدحه على الخوان ، فتصادم في داخله قطع الثلج الصغيرة . وسقطت ايرين مرة اخرى في ضجرها .

وقال فجأة : — الواقع اني اظهرت لك اكثر مما ينبغي اني اشتهيك.
وكان قد وضع يديه على الطاولة يملّسها بهدوء ؛ كان يحاول ان يستّرد عزته البشرية، ولم تكن لذلك اهمية ، فانه سيفقدها مرة اخرى بعد بعد خمس دقائق . وقد بسمت له مع ذلك ، لأنه كان يتيح لها الفرصة لكي تتساءل عن نفسها . وقالت :

— صحيح ، في هذا شيء من الحق . لا بد ان في ذلك شيئاً من الصحة .

كان مارك يبدو لها عبر سحابة . سحابة دهشة صغيرة هادئة صعدت من قلبها الى عينيها . وكانت تحبّ كثيرا ان تُحسّ نفسها مندهشة على هذا النحو ، مع جميع الأسئلة التي يطرحها الانسان على نفسه والتي ليس لها من جواب . وشرحت له :

— إني اعجب كثيرا حين اجد أحدا راغباً فيّ رغبة مفرطة . اسمع يا مارك انني اجدني مضحكة : ربما يكون هتلر قد هاجمنا غدا ، بينما انت هنا تتململ لاني لا اريد ان انام معك . لا بد ان تكون حقاً شخصاً مسكيناً حتى تضع نفسك في حالات مثل هذه بصدد امرأة مثلي أنا.

فقال بصوت غاضب : — إن هذا يعنيني .

— وهذا يعنيني انا ايضاً : فأنا أكره ان يقدرني الناس اكثر مما أستحق .

وساد صمت . اننا حيوانات . نضع الكلمات على غريزة . ونظرت اليه من زاوية عينها : حسناً سوف تزول نفخته . كانت ملامحه تنبسط

وكانت اشقّ لحظة على وشك ان تجيء ؛ لقد حدث مرة في مقهى « الميلوديز » ان بكى . وفتح فمه ، فقالت له بحيوية :

– اسكت يامارك . ارجوك : فانك ستقول حماقة او قذارة .

فلم يسمعها ؛ كان يحرّك رأسه من اليمين الى الشمال ، وكان يبدو بهيئة شؤم ، وقال بصوت منخفض :

– ايرين ، سوف اذهب .

– تذهب ؟ الى اين ؟

– لا تتباهي . لقد فهمتني .

– يعني ؟

– أظن ان ذلك يؤثر لديك على كل حال .

فلم تجب : كانت تنظر اليه بإحداد . وبعد لحظة ، استطرد وهو يدير رأسه :

– في سنة ١٤ ، استسلمت نساء كثيرات لرجال كانوا يحبّونهنّ ، لمجرّد انهم كانوا ذاهبين الى الحرب .

وصمتت ؛ وأخذت يدا مارك تهتزان .

– إن هذا يا ايرين أمرٌ لا اهمية كبيرة له عندك ، اما بالنسبة لي، فان له اهمية كبيرة ، ولا سيما في هذه الفترة ...

قالت ايرين : – لا فائدة .

فالتفت اليها بعنف وقال :

– وأخيرا ، يا الله ! انما من اجلك سأقاتل !

قالت ايرين : – قذر !

وسرعان ما تراخى ، واحمرّت عيناه .

– لا استطيع ان احتمل التفكير بأني سأموت من غير ان اكون قد امتلكتك .

ونهضت ايرين :

– تعال لنرقص .

ونهض بوداعة فرقصا . وكان ملتصقا بها ، وقد استدار بها بخطى واسعة حول القاعة ، وفجأة انقطع نفَسها ، فسألها :

– ما بك ؟

– لا شيء على الأطلاق .

كانت قد رأت فيليب جالساً بهدوء قرب امرأة جميلة ، ولكنها بدأت تشيخ . « كان هنا ! كان هنا ، بينما كانوا يفتشون عنه في كل مكان !» ووجدته ممتقعاً ، وتحت عينيه دوائر كالحة . ودفعت مارك الى وسط الجمع : يجب خصوصاً الا يراها فيليب . وكفّت الموسيقى ، فعادا الى طاولتها . وتداعى مارك للسقوط على المقعد . وكانت ايرين توشك ان تجلس حين رأت رجلا ينحني امام الزنجية.

قال مارك : – اجلسي . لا احب انا اراك واقفة .

قالت بنفاد صبر : – دقيقة !

ونهضت الزنجية في كسل ، فضمّها الرجل . ونظر فيليب اليهما لحظة بهيئة مذعورة ، فأحسّت ايرين بقلبها يقفز في صدرها . وفجأة نهض وتسلّل الى الخارج .

قالت ايرين : – اعذرني لحظة .

– اين انتِ ذاهبة ؟

– الى المرحاض . هل انت مسرور الآن ؟

– ستتظاهرين بانك ذاهبة اليه ، ثم تفرنقعين .

فأشارت الى محفظتها على الطاولة .

– لقد بقيت محفظتي في مكاني .

وهمهم مارك من غير ان يجيب ؛ واجتازت الحلبة وهي تزيح الراقصين بضربات من كتفيها .

قالت امرأة : – ان هذه مجنونة !

وكان مارك قد نهض خلفها ، فسمعته يصيح :

— ايرين !

ولكنها كانت قد اصبحت خارجاً : مهما يكن من امر ، فهو محتاج الى خمس دقائق ليدفع ثمن المشروب . كان الشارع مظلماً ، وفكرت : « شيء مزعج . لقد أضعته . » ولكن حين ألفت عيناها الظلام ، رأته يسرع في أتجاه « الترنيتيه » محاذياً الجدران . وأخذت تعـــدو : « لنذهب حتميتي ، فاني سأخسر فيها علبـــة المسحوق ، ومئة فرنك ورسالتي مكسيم : » ولم تكن تُحسّ بعد بالضجر قط ؛ واجتازا على هذا النحو زهاء مئة متر وهما يركضان ، ثم توقّف فيليب فجأة حتى ان ايرين حسبت انها تصدمه . وجنحت جنوحاً سريعـــاً . فتخطته ، واقتربت من باب بناية فقرعت جرسه مرتين . وانفتح البـــاب اذ كان فيليب قد ادركها . وتلبثت لحظة ثم صفقت المصراع بعنف ، كما لـــو انها دخلت البيت . وكان فيليب يسير الان ببطء ، فكان اللحـــاق به لعبة . وبين الفينة والفينة ، كان الظلام يبتلعه ، ثم كان بعد ذلك بقليل ينبثق من الليل تحت مطر فانوس مضيء . وفكرت : « ما اشدّ مـــا أنسلّى ! » كانت مغرمة بملاحقة النـــاس ؛ وكانت تستطيع ان تمشي ساعات خلف اشخاص لم تكن حتى لتعرفهم .

وكان ما يزال على الجادّات كثير من النـــاس ، وكان الجو اكثر إشراقاً بسبب المقاهي والواجهات . وتوقف فيليب للمرة الثالثة ، ولكن ايرين لم تدع نفسها تؤخذ على حين غرة ، فظلت متخفّية خلفه ، في زاوية مظلمة ، وانتظرت . « لعله على موعد . » والتفت اليها ، وكان ممتقعاً ؛ وأخذ فجأة يتكلم ، فحسبت انه قد عرفها ؛ غير انها كانت واثقة من انه لم يكن يستطيع ان يراها . وتراجع خطوة ، ودمـــدم بكلمات ، وكان يبدو مذعوراً ، وفكرت : « لقد أصبح مجنوناً . »

ومرّت امرأتان . شابة وعجوز ، تضعان قبعتين ريفيتين . فاقترب منهما . وكان له رأس استعراضي ، فقال :

– لتسقط الحرب !

فحثّت المرأتان خطاهما : لا بـد انهما لم تفهما . وكان ضابطان يتقدمان خلفهما ؛ وصمت فيليب وتركهما يمـران . وكانت تتبعهما عن كثب بغي معطرة صدمت رائحتها ايرين في أنفها . وانزرع فيليب امامها بهيئة شرسة ، وكانت قد بدأت تبسم له ، ولكنه قال لها بصوت مخنوق:

– لتسقط الحرب ! ليسقط دالادييه ! ليحي السلم !

وقالت المرأة : – اي منفوخ مغرور !

ومرّت . وهز فيليب رأسه ، ونظر ذات اليمين وذات اليسار بهيئة غاضبة ، ثم اندسّ فجـأة في ظلمات شارع ريشيليو . وكانت ايرين تضحك بشدة حتى انها اوشكت ان تفضح نفسها .

– دقيقتان بعد .

كان يُرعش المفتاح ، فينبثق نغم جاز ، واربعة الحان ساكسوفون ، ونجمة مذنّبة .

قالت ايفيش : – اوه ، دعه . هذا جميل .

وأدار السيد مرغين المفتاح ، فحلّ محل شكوى الساكسوفون نغمٌ ممتد معقّد ، ثم تأمل ايفيش في قسوة :

– كيف تستطيعين ان تحبّي موسيقى المتوحشين هذه ؟

كان يحتقر الزنوج . وكان قد احتفظ من حياته كطالب في ميونيخ بذكريات ساطعة ، وشغف بواغنر . وردّد :

– لقد آن الاوان .

وارتجّ الجهـاز بصوت ، صوت فرنسي حقيقي رزين ، ودي ، يجهد في ان يعبر بتثنيات منغّمة عن جميع ذبذبات الخطاب، صوت نافذ مقنع لأخ كبير . انـني احتقر الاصوات الفرنسية . وابتسمت لأبيها وقالت بجبن ، لتستعيد قليلا من مشاركتهما القديمة :

– انني احتقر الأصوات الفرنسية .

وكان الصوت يقول : « استقبل المستشار هتلر اليوم ، للمرة الثانية مبعوث رئيس الوزارة البريطانية ، فأعلمه انه اذا لم يتلق قبـــل الساعة الرابعة عشرة من بعد ظهر الغد جواباً مرضياً من براغ بشأن وعد اخلاء منطقة السوديت ، فانه يحتفظ بحق اتخاذ التدابير الضرورية .

« ويُقدر بصورة عامة ان المستشار هتلر قد اراد ان يشير الى التعبئة العامة التي كان الأمر بها منتظراً ليوم الاثنين ، والذي لم يؤخّر بلا شك الا بسبب رسالة رئيس الوزارة البريطانية . »

وصمت الصوت . ورفعت ايفيش ، وقد جفت حنجرتها ، عينيها الى أبيها . وكان قد شرب هذا الكلام في غبطة بليدة كل البلادة . وسألت في تجرد :

– ماذا تعني التعبئة تماماً ؟

– انها تعني الحرب .

– هل تعني ذلك بالضرورة ؟

– يعني ! يعني !

قالت بعنف : – اننا لن نقاتل ، لا نستطيع ان نقاتل بسبب التشيكيين .

فابتسم السيد سرغين في عذوبة وقال :

– تعرفين انه حين يعلنون التعبئة ...

– ولكن ما دمنا لا نريد الحرب .

– لو كنا لا نريد الحرب لما أعلنّا التعبئة .

فنظرت اليه في ذهول :

– هل اعلنّا التعبئة ، نحن ايضاً ؟

قال وهو يحمرّ : – لا ، اعني الألمان .

قالت ايفيش في جفاف :

– آه ؟ انا كنت اتحدث عن الفرنسيين .

وعاد الصوت يقول ، مهدّئاً وديعاً :

« وفي اوساط برلين الاجتماعية ، يرون بصورة عامة ... »

قال السيد سرغين : « هس » . ثم عاد الى الجلوس ، وقد أدار وجهه الى الجهاز . وفكرت ايفيش : « انني يتيمة » . وغادرت الغرفة على رؤوس أصابعها ، فعبرت الممر ، وأغلقت على نفسها باب غرفتها وكانت اسنانها تصطك : سيمرّون في لاءن ، وسيحرقون باريس ، وشارع السين ، وشارع لاغيتيه ، وشارع لاروزيه ، ومرقص جبل سانت جنفياف : اذا احترقت باريس ، قتلت نفسي . وفكرت وهي تتداعى للسقوط على سريرهــا : « اوه ! ومتحف غريفين ؟ » انها لم تقصده قط ، وكان ماتيو قد وعدها بان يصحبها اليه في تشرين الاول ، وهم سيحيلونه بقنابلهم الى رماد . واذا حدث ذلك هذه الليلة ؟ كان قلبها يقفز في صدرها ، وكانت تشعر بالبرد في ساعديها وكفّيها ، ما الذي يمنعهم من ذلك ؟ ربما كانت باريس في هذه الساعة بالذات قد تحولت الى رماد ، وانهم يخفون ذلك حتى لا يرعبوا السكان . الا اذا كان هذا ممنوعاً باتفاقات دوليــة ؟ كيف السبيل الى معرفة ذلك ؟ وفكرت في غضب : « اوه ، انني متأكدة ان هناك من يعرف ، وانا لا افهم من الامر شيئاً ، فلقد تركوني في الجهل ، كانوا يقسرونني على تعلم اللاتينية ، ولم يقل لي أحد شيئاً ، وهذا هو الوضع الآن ! (وفكرت في سرور) ولكن لي الحق بان احيــا . لقد وُلدت لكي احيا ، ان لي الحق بذلك . » وكانت تُحس بانها مجرّحة تجريحاً عميقاً حتى انها ارتمت على وسادتها تهزّها خمس غصات ، أو ستّ . وتمتمت : « ان هذا ظلم لا يحتمل ، فاذا افترضنا احسن الفروض ، فان الحرب ستستغرق ستة اعــوام ، عشرة ، وسوف تلبس النساء جميعاً مثل ثياب الممرضات ، حتى اذا انتهت الحرب . اصبحتُ عجوزاً . » ولكن دموعها لم تنحدر ، وكان في قلبها قطعة ثلج صغيرة . وانتصبت فجأة : « من ؟ من الذي يريد الحرب ؟ » إننا لو اخذنا الناس واحداً

واحداً لم نجدهم يحبون الحرب ، انهـــم لا يفكرون الا بأن يأكلوا ، وان يربحوا المال . وأن ينجبوا الاطفال . حتى الالمان . ومع ذلك ، فان الحرب كانت هنـــا ، وكان هتلر قد اعلن التعبئة . وفكرت : « غير انه مع ذلك لا يستطيع ان يقرر هذا وحده . » ومرت عبارة في رأسها ، اين تراها قد قرأتها ؟ لا بد انها قرأتها في جريدة ، الا ان تكون قد سمعتها عند الغداء ينطق بها زبون لأبيها : من تراه يكون خلفه ؟ ورددت بصوت منخفض وهي تقطب حاجبيها وتنظر الى اطراف حذائها : « من تراه يكون خلفه ؟ » وكانت تأمل قليلا ان يتجلى كل شيء ، واستعرضت اسماء جميع تلك القوى الكبيرة التي تقود العالم ، الماسونية ، اليسوعيين ، المئتي اسرة ، تجـــار المدافع ، اسياد الذهب ، جدار الفضة ، شركات الحصر الاميركية ، الانترناسيونال الشيوعي ، الكوكلوكلان ؛ لا بد ان ثمة بعضاً من هذه كلها ، وربما كان هناك شيء آخر ايضاً ، جمعية سرية تماماً وقوية جداً يجهل الناس حتى اسمها . وتساءلت بينما كانت دمعتان من الغضب تسيلان على خديها : « ولكن ما عساهم يريدون ؟ » وحاولت لحظة ان تحزر حججهم ، ولكنها كانت تشعر بأنها فارغة ، وان دائرة من معدن كانت تدور تحت جمجمتها . « ليتني فقط أعرف اين هي تشيكوسلوفاكيا ! » وكانت قد ثبّتت على الجدار ، بمسامير صغيرة ، لوحة مائية كبيرة زرقاء مذهبة : تلك هي اوروبا ، وكانت قد تسلّت برسمها ، في الشتاء الماضي ، نقلاً عن خارطة ، وهي تصحّح قليلا زواياها ؛ وكانت قد رسمت أنهاراً في كل مكان ، وقعّرت الشطآن المسطّحة اكثر مما ينبغي ، وحاذرت خصوصاً ان يكتب ايّ اسم على الخـــارطة : فذلك كان أوحى بالعلم والادراك ؛ ولم يكن ثمة حدود ايضاً : فقد كانت تكره خطوط النقط. واقتربت : كانت تشيكوساوفاكيـــا هنا ، في مكان ما ، في أكثف الاراضي . هنا ، مثلا ، الا أن تكون هذه روسيا . والمانيا ، اين هي ؟

كانت تنظر الى الشكل الكبير الأملس الاصفر ، المؤطّر بالازرق ، وهي تفكر : « هذه الارض كلها ! » ثم تشعر بأنها ضائعة . وانفلتت، وتركت ثوبها يسقط وترآت عارية في المرآة ، وكان ذلك في العـــادة يعزيها كلما احسّت بالهموم . ولكنها رأت نفسها فجأة صغيره جداً ، تُرّهة ، ذات بشرة جلطيّة ، لأنّ شعرها كان قد قفّ ، وحلمتي نهديها قد انتصبتا ، وكانت تحتقر جسمها ، جسم مستشفى حقيقياً ، يقال انهم سيغتصبون جميع النساء ، وهم يستطيعـــون ان يقطعوا لي ساقاً . لئن دخلوا غرفتها ، ووجدوها عارية تماماً تحت غطائها : امامك خمس دقائق لترتدي ثيابك ، ثم انهم سيديرون ظهورهم ، كما حدث لماري انطوانيت ، ولكنهم سيسمعون كل شيء ، حفيف القدمين الناعم على السرير ، وهسهسة القماش على البشرة . وتناولت بنطالها وجوربيها فارتدتها بسرعـــة ، فعليّ ان انتظر المصيبة وانا واقفة لابسة ثيابي ؛ وحين ارتدت تنورتها وقميصها ، أحسّت انها محميّة بعض الشيء ؛ ولكنها سمعت وهي تنتعل حذاءها صوتاً منخفضاً يدمدم بالالمانية ، في الممرّ .

« إيش هات اينان كاميراد » ...

فهرعت ايفيش الى الباب وفتحته ، فاذا هي وجهاً لوجه مع أبيها، وكان يبدو مزهواً مرحاً . وقالت غاضبة :

— ماذا تغنّي ؟ ما الذي تسمح لنفسك أن تغنّيه ؟

فنظر اليها ببسمة موافقة وقال :

— انتظري ، انتظري قليلاً يا ضفدعتي الصغيرة : فسوف نراها مرة اخرى ، روسيّتنا القدّيسة .

ودخلت غرفتها وهي تصفق الباب : « إنني أهزأ بروسيا القديسة ، وانا لا اريد ان يهدموا باريس ، واذا استباحوا اي شيء ، فسنرى كيف تنطلق الطائرات الفرنسية لإلقاء قنابلها على ميونيخك ! »

وخفّ صوت القدمين في الممر ، وسقط كل شيء مرة اخرى في السكون . وكانت ايفيشي واقفة متصلبّة وسط الغرفة ، وهي تتجنب ان تنظر الى نفسها في المرآة . وفجأة انطلقت ثلاث صفارات آمرة ، وكانت صادرة من الشارع ، فارتعشت من رأسها الى قدميهـا . في الخارج ، في الشارع : كل شيء كان يجري في الشارع : لقد كانت غرفتها سجناً . كانوا يقرّرون حياتها في كل مكان ، في الشمال ، في الشرق ، في الجنوب ، في كل مكان في هذه الليلة المسممة ، المثقوبة بالبرق ، الملآى بالهمس والمشاورة ، في كل مكان إلا هنا حيث كانت مسجونة ، وحيث لم يكن ثمة ما يحدث قط . واخذت يداها وساقاها ترتجف ، فتناولت محفظتها ، وامرّت مشطها على شعرها ، وفتحت الباب بلا ضجة ، وانسلّت الى الخارج .

في الخارج . كل شيء في الخارج : الشجر على رصيف المحطة ، بيتا الجسر اللذان يورّدان الليل ، عدْو حصان هنري الرابع الجامد فوق رأسي : كلّ ما يثقل ، في الداخل ، لا شيء ، حتى ولا دخان ، ليس ثمة من داخل ، ليس ثمة شيء . انا : لا شيء . وقال في نفسه وفمه جاف : انني حر .

وفي وسط جسر « بونيف » ، توقف وأخذ يضحك : هذه الحرية ، بحثت عنهـا بعيداً جداً ، وكانت من القرب بحيث لم اكن استطيع رؤيتها ، ولم استطع لمسها ، وهي لم تكن الا يّ ، انني حريتي . وكان قد أمّل ان يفيض ذات يوم فرحاً ، وان تخترقه الصاعقة من جانب الى جانب . ولكن لم يكن ثمة صاعقة ولا فرح : وانما كان هناك هذا العوز ، هذا الفراغ المأخوذ بالدوار أمام نفسه : هذا الضيق الذي كانت شفافيته بالذات تمنعه من ان يرى نفسه الى الأبد . ومد يديه وأمرّهما متمهلاً على حجر الدرابزون ، وكان خشناً ، متصدعاً ، اسفنجـة متحجّرة ، حارةً ما تزال من شمس الأصيل . كان هنا ضخماً ،

كثيفاً ، حابساً في نفسه السكون السحيق والظلمات المضغوطة التي هي قلب الاشياء . كان هنا : امتلاء . وقد كان يود لو يتعلق بهذا الحجر ، ويمتزج به ، ويمتلىء من كثافته ، ومن راحته . ولكن الحجر لم يكن يستطيع ان ينجده بشيء : كان في الخارج الى الأبد . ومع ذلك ، فقد كانت هناك يداه ، على الدرابزون الابيض : إذا ما نظر اليهما ، حسبهما من البرونز . ولكنهما لم تكونا يديه ، لأنه انما كان يستطيع ان يراهما . كانتا يدي رجل آخر ، في الخارج ، كالاشجار ، وكالاشعاعات التي كانت ترتعش في السين ، يدين مقطوعتين . وأغمض عينيه ، فاذا هما من جديد يداه : ولم يبق من الحجر الحار الا مذاق حامض مألوف ، مذاق نملة تافه . يداي : المسافة الزهيدة التي تكشف لي الاشياء وتفصلني عنها الى الأبد . انني لست شيئاً ، وليس عنــدي شيء . انني شديد الالتصاق بالعالم ، كالنور ، ومع ذاك ، منفيٌّ عنه كالنور ، منزلق على سطح الحجارة والماء دون ان يربطني او يرملني شيء . في الخارج . في الخارج . خارج العالم ، خارج الماضي ، خارج نفسي : ان الحرية هي المنفى ، وانا محكومٌ عليَّ بان اكون حراً .

وخطا بضع خطوات ، وتوقف من جديد ، فجلس على الدرابزون ونظر الى المــاء يجري . وماذا تراني سأصنع بكل هذه الحرية ؟ ماذا تراني سأصنع بنفسي ؟ لقد طبعوا مستقبله بطوابع دقيقة : المحطة ، القطار الى نانسي ، الثكنة ، استعمال السلاح ، ولكن هذا المستقبل وتلك الطوابع لم تكن لتخصه بعد . لم يكن ثمة بعد ما يخصه : كانت الحرب تحرث الارض ، ولكنها لم تكن حربه . كان وحيداً على هذا الجسر ، وحيداً في العالم ، ولم يكن ثمة من يستطيع ان يصدر اليه امراً . وفكر في ضجر : « انني حر من أجل لا شيء » . لا علامة في السماء ولا على الارض ، ان حربهم قد استغرقت أشياء العالم اكثر مما ينبغي ، فكانت تدير رؤوسها المتعـــددة الى الشرق ، وكان ماتيو يركض على

سطح الأشياء ، فلا تحس به : منسي . منسيٌ من الجسر الذي كان يحمله من غير اكتراث ، ومن هذه الدروب التي كانت تنساب نحو الحدود ، ومن هذه المدينة التي كانت تتحامل قليلا على نفسها لتنظر في الافق حريقاً لم يكن يعنيها . منسي ، مجهول ، وحيد : متأخر ؛ كان جميع المجندين قد رحلوا منذ أمس الاول ، ولم يكن له هنا ما يفعله بعد . أأستقل القطار ؟ لا أهمية لذلك اطلاقاً . أأرحل ، ام أبقى ، ام أفر ، لم تكن هذه هي الاعمال التي تضع حريته في خطر . ومع ذلك فقد كان ينبغي ان يخاطر بها . وتشبث بالحجر ، بكلتا يديه ، وانحنى فوق الماء . كان حسبه غطسة واحدة ، فيلتهمه الماء ، وتصبح حريته ماء . الراحة . ولِمَ لا ؟ ان هذا الانتحار الغامض سيكون ايضاً مطلقاً . قانوناً برمته ، اختياراً برمته ، أخلاقاً برمتها . عملاً فريداً لا مثيل له يضيء ، لمدة لحظة ، الجسر والسين . حسبه ان ينحني اكثر قليلا ، فيكون قد اختار نفسه للخلود . وانحنى ، ولكن يديه لم تكونا لتتركا الحجر ، وكانتا تحملان ثقل جسمه كله . لِمَ لا ؟ لم يكن لديه سببٌ خاص ليتداعى الى الغرق ، ولكن لم يكن لديه كذلك سبب ليتمنع عن ذلك . وقد كان العمل هنا ، أمامه ، فوق الماء الأسود ، وكان يرسم له مستقبله . كانت جميع الحبال قد قُطعت ، وما كان لشيء في الدنيا ان يمسكه : وكان ذلك هو الفظيع ، الحرية الفظيعة . كان يشعر بقلبه المستطار يخفق في أعماق نفسه ، حركة واحدة ، يدان تنفتحان ، فأكون ماتيو . وارتفع الدوار بيطء على النهر ؛ وانهارت السماء والجسر : فلم يبق بعد الا هو والماء ؛ وكان الماء يصعد اليه ، ويلمس قدميه المتدليتين . الماء ، مستقبله . هذا صحيح الآن ، سوف أقتل نفسي . وفجأة ، قرر ألا يفعل ذلك . وقرر : لن تكون هذه الا تجربة . وألفى نفسه واقفاً ، ماشياً ، منسرباً على قشرة كوكب ميت . سيكون ذلك للمرة القادمة .

كانت تركض في الشارع الكبير ، وسمعت مرة اخرى صفرتين او ثلاثا ، ثم لا شيء ، وها ان الشارع الكبير يصبح هو ايضاً سجناً : لم يكن يحدث فيه شيء ، وكانت واجهات البيوت عمياء مسطحة ، وجميع المصاريع مغلقة ، كانت الحرب في مكان آخر ، واستندت لحظة الى حاجز عين ، وكانت قلقة وخائبة ، ولكنها لم تكن تعرف ما املته : ربما كان انواراً ، او مخازن مفتوحة ، او اناساً يعلقون على الاحداث . لم يكن ثمة شيء على الاطلاق: كانت الانوار تضيء السفارات والقصور ، في المدن السياسية الكبيرة ؛ اما هي ، فكانت محبوسة في ليل يومي . وقالت لنفسها وهي تضرب بقدمها الارض : « كل شيء يحدث دائماً في مكان آخر » . وسمعت حفيفاً : فكأنه كان ثمة من ينسل وراءها . وحبست نفسها وتسمعت طويلا ، ولكن الضجة لم تحدث مرة أخرى . كانت تحس بالبرد ، وكان الخوف يقبض حلقها : وتساءلت عما اذا كانت لا تحسن صنعاً بالعودة الى البيت. ولكنها لم تكن تستطيع ان تعود ، ان غرفتها كانت فظيعة ، فهنا على الاقل ، كانت تمشي تحت سماء جميع الناس ، وكانت على اتصال بباريس وبرلين ، عبر السماء . وسمعت خربشة متطاولة خلفها ، فجرؤت هذه المرة على الالتفات : ولم تكن الا قطة : ولقد رأت عينيها تلتمعان ، بينما كانت تجتاز الطريق من اليمين الى اليسار ، وكانت تلك علامة سيئة . واستعادت ركضها ، فانعطفت الى شارع « تيبر » وتوقفت ، يكاد نفسها ينقطع : « الطائرات » : كانت تهدر هديراً أصم ، فلا بد أنها ما تزال بعيدة بعيدة جداً . وأرهفت أذنها : لم يكن الصوت قادماً من السماء . فكأن... وفكرت جزعة : « نعم ، انه انسان يشخر » وكان هو « ليسكا » ، كاتب العدل ، فقد رأت الاعلام فوق رأسها : كان يشخر ، والنوافذ مفتوحة ، ولم تتمالك نفسها من الضحك ، ثم تسمرت ضحكتها فجأة : انهم ينامون جميعاً . انني وحيدة في الشارع ، يحيط بي أشخاص

ينامون ، وليس ثمة من يكترث بي .

انهم جميعاً في الارض ينامون او يهيئون حربهم في المكاتب ، وليس اسمي في رأس واحد منهم . وفكرت مندهشة : ولكني هنا ! انا هنا أرى وأحس ، وأوجد كما يوجد هتلر !

واستعادت سيرها بعد لحظة فبلغت الساحة ، وكان السهل ، تحت لاون ، يمتد ، كابياً . وكانوا قد زرعوا فيه أنواراً ، من بعيد لبعيد، ولكنها لم تكن توفر الطمأنينة ؛ كانت ايفيش تعرف جيداً ما كانت تنيره : خطوطاً حديدية وعوارض خشبية وحصىً وقاطرات مهجورة على سكك للمرائب . وكانت باريس قائمة في آخر السهل . وتنفست: لو كانت تحترق ، لرؤي في الافق ضياء . وكانت الريح تصفق ثوبها على ركبتيها ، ولكنها لم تكن تتحرك : « ان باريس هناك ، ما تزال تقطر نوراً ، وربما كانت هذه آخر ليلة لها » . وفي هذه اللحظة نفسها، كان اشخاص يصعدون ويهبطون على جادة سان ميشال ، وآخرون في « الدوم » ربما كانوا يعرفونها وهم يتحدثون فيما بينهم . « آخر ليلة وانا هنا ، في هذا الماء الأسود ، وحين أصبح حرّة ، لن أجد بعد الا ركاماً من الانقاض وخياماً بين الحجارة . وقالت : يا إلٓهي ، يا إلٓهي ! دعني أراها للمرة الاخيرة . وكانت المحطة هنا ، تحتها تماماً. انها ذلك الاحمرار في أسفل الدرج ؛ وكان قطار الليل يسير في الساعة الثالثة وعشرين دقيقة . وفكرت بانتصار : « ان معي مئة فرنك ، مئة فرنك في محفظتي » .

وكانت قد هبطت درج الطريق الوعرة وهي تركض ، وكان فيليب يهبط شارع مونتمارتر وهو يركض ، جبان ، جبان ، جبان قذر . آه ! أأنا جبان ؟ حسناً ، سوف يرون . وأفضى الى ساحة . وكان فمٌ كبيرٌ مظلم طنّان ينفتح من جهة الطريق المقابلة ، وتنبعث منه رائحة الملفوف واللحم النيء . وتوقف امام حـــاجز محطة مترو ، وكان على طرف

رصيف سلال فارغة ، ورأى عند قدميه فتات قش وورق خضار ملوثة بالوحل ، والى اليمين كانت أطياف تروح وتغدو في ضوء مقهى أبيض . اقتربت ايفيش من نافذة التذاكر .

– تذكرة درجة ثالثة الى باريس .

فسألها الموظف : – ذهاباً واياباً ؟

فأجابت بحزم : – ذهابا .

لتنحنح فيليب وصاح بأعلى صوته :

– لتسقط الحرب .

ولم يحـدث شيء ، واستمر ذهاب الاشباح وايابهم امام المقهى . وكوّر يديه امام فمه :

– لتسقط الحرب .

وبدا له صوته رعداً . وتوقفت بعض الاشباح ورأى رجالاً مقبلين عليه . وكان عددهم كبيراً ، وكان معظمهم يرتدي قبّعات : كانوا يقتربون بلامبالاة وينظرون اليه باهتمام . وصاح بهم :

– لتسقط الحرب .

وكانوا يحاذونه تماماً ، وكان بينهم امرأتان وشاب أسمر جميل الهيئة. ونظر اليه فيليب في ودّ وأخذ يصرخ ، من غير ان ينزع عنه عينيه :

– ليسقط دالادييه ، ليسقط شمبرلن ، ليحي السلام .

وكانوا قد أصبحوا محيطين به ، فشعر بالرضى ، للمرة الاولى منذ ثمان واربعين ساعة . كانوا ينظرون اليه وهـم يرفعون حواجبهم ولا يقولون شيئاً . واراد ان يشرح لهم أنهم كانوا ضحايا الاستعمار الرأسمالي، ولكن صوته لم يكن يستطيع بعد ان يتوقف ، فكان يصيح : « لتسقط الحرب ! » وكان ذلك نشيد نصر . وتلقى ضربة عنيفة على أذنه فظل يصرخ ، ثم ضربة على فمه ، وضربة على عينه اليمنى : فسقط على ركبتيه وكف عن الصراخ . وكانت امرأة قد وقفت امـامه ، فكان

يرى ساقيها وحذاءها ذا الكعب المسطح ، وكانت تتخبط وهي تقول :

– قذرون ! قذرون ! إنه طفلٌ فلا تمسّوه .

وسمع ماتيو صوتاً ثاقباً يصرخ : « قذرون ! قذرون ! انه طفل فلا تمسوه » وكان ثمة من يتخبط وسط زهاء عشرة أشخاص ذوي قبّعات ؛ انها امرأة قصيرة كانت ذراعاها في الهواء وشعرها يملأ وجهها . وكان شاب اسمر ذو نُدب تحت اذنه يهزها بعنف وهي تصرخ:

– انه على حق ، وانتم جميعاً قذرون ؛ كان ينبغي ان تكونوا في ساحة الكونكورد لتتظاهروا ضد الحـــرب ، ولكنكم تفضلون ضرب طفل لأن هذا اقل خطراً .

وكانت أمام ماتيو قوادة ضخمة تنظر الى الحادث بعينين ملتمعتين ، فقالت :

– اقصفوا عمرها !

والتفت ماتيو في انزعاج : لا بدّ ان حوادث كثيرة كهذه تقــع لدى كل منعطف عشية الحرب ، عشيّة حمل السلاح : إن هذا شيء بارز ، لم يكن ليعنيه . وفجأة ، فكر بان ذلك كان يعنيه ، فأبعد القوادة بدفعة من يده ، ودخل الى الدائرة ، فوضع يده على كتف الشاب الأسمر ، وقال :

– شرطة . ماذا هناك ؟

فنظر اليه الشاب في حذر :

– ان الصبي سقط على الارض ؛ لقد صاح : « لتسقط الحرب ! »

فقال ماتيو بقسوة : – فهجمت عليه تضربه ؟ ألم تكن تستطيع ان تنادي شرطياً ؟

قالت القوادة : – ليس هناك من شرطي ، يا سيدي المفتش ؛

قال ماتيو : – انت يا حضرة الكارمن ، تتكلمين حــين أوجّه

لك الكلام .

وكان الضيق يبدو على الاسمر ، فقال وهو يلحس أصابعه المجروحة :

– اننا لم نؤذه ، وانما ارسلنا له صفعة لتسجيل الاحتجاج .

فسأله ماتيو : – من الذي ارسل له صفعة ؟

فنظر ذو الندب الى يديه وهو يتنهد وقال :

– انا .

وكان الاخرون قد تقهقروا خطوة ، فاستدار اليهم ماتيو :

– هل تريدون ان تسجّلوا كشهود ؟

فازدادوا تقهقراً دون ان يجيبوا . وكانت القوّادة قد اختفت . فقال ماتيو :

– انفضّوا والا أخذت اسماءكم . اما انت ، فابق ..

قال الشاب :

– اذن يُرسل الفرنسيون الى السجن في هذه الساعة اذا ضربوا احد الدعاة الالمان الذين يقومون بالاثارة والتحدي ؟

– لا تهتم بذلك . سوف نحقّق في الامر .

كان الطفيليون قد تفرقوا . وكان اثنان او ثلاثة منهم واقفين على عتبة مقهى ينظرون . وانحنى ماتيو على الفتى : كانوا قد ضربوه ضرباً قاسياً . إن الدم يسيل من فمه ، وإن عينه اليسرى مقفلة . وكان ينظر الى ماتيو بعينه اليمنى في إحداد ، وقال باعتزاز :

– لقد صرخت .

قال ماتيو : – ليس هذا أفضل ما صنعت . هل تستطيع ان تنهض ؟

فنهض الفتى على مشقة ؛ وكان قد سقط في الخضار ، فعلقت ورقة خسّ في مؤخرته ، وتشبّث بعض القش الموحل بسترته . ونفضت المرأة الصغيرة ثيابه بظاهر يدها ، فسألها ماتيو :

– هل تعرفينه ؟

فترددت : – للا ...

فأخذ الفتى يضحك :

– طبعاً تعرفني . انها ايرين سكرتيرة بيتو :

ونظرت ايرين الى مانيو نظرة غامضة .

– انك لن تقبض عليه من اجل ذلك ؟

– سوف يزعجني ذلك !!

وشدّه ذو الندب من كمّه : ولم يكن يبدو فخوراً ، فقال :

– اني اكسب حياتي ، يا سيدي المفتش ، انا اعمل . فاذا صحبتك الى دائرة الشرطة ، فقدت ليلتي .

– هويتك .

فأخرج الرجل جواز سفر ، وكان يدعى كانارو . فاخذ مانيو يضحك ، وقال :

– مولود في القسطنطينية ! ولكن اسمع : أينبغي ان تحب فرنسا لكي تهدم هكذا اول شخص يهاجمها ؟

فقال الرجل بوقار :

– انها وطني الثاني .

– اظن انك ستتطوع ؟

فلم يجب الرجل ، وسجل مانيو اسمه وعنوانه على دفتر صغير ، وقال له :

– حلّ عن ظهري . سوف تُستدعى . اما انتما ، فتعالا .

ودلفوا ثلاثتهم الى شارع مونمارتر ومشوا بضع خطى . وكان مانيو يمسك بالفتى الذي كان يترنح على ساقيه . وسألت ايرين :

– قل لي ، هل ستطلق سراحه ؟

فلم يجب مانيو : انهم لم يكونوا بعد قد ابتعدوا عن « المال » بما

فيه الكفاية . ومشوا بضع خطى اخرى ، وحين وصلوا الى فانوس ه
انزرعت ايرين امام ماتيو ونظرت اليه في حقد ، وقالت :

ــ تحرّي قذر !

فأخذ ماتيو يضحك : كانت خصلة من شعرها قد سقطت على وجهها ، وكانت تحول عينيها لتنظر اليه عبر الخصلات التي كانت تتدلى امام عينيها . وقال :

ــ لستُ تحرياً .

ــ بلا مزاح !

وكانت تنفض رأسها لتتخلص من شعرها ، وانتهى بها الامر الى ان قبضت على خصلاتها بغضب وردتها الى خلف . وبدا وجهها كامداً مع عينين كبيرتين . كانت جميلة جداً ، ولم يكن يبدو انها مندهشة جداً وقالت ملاحظة :

ــ اذا لم تكن تحرياً ، فقد انتصرت عليهم .

فلم يجب ماتيو . ان هذه الحكاية لم تكن لتسلّيه بعد . وجاءته رغبة مفاجئة في ان يتنزه في شارع مونتورغاي . وقال :

ــ اسمعا : سوف اضعكما في سيارة تاكسي .

وكان ثمة سيارتان او ثلاث واقفة في وسط الشارع ، فاقترب ماتيو من احداهما وهو يجر الفتى خلفه . وتبعتهما ايرين . وكانت تمسك شعرها بيدها اليمنى ، فوق رأسها :

ــ ادخلا هنا .

فاحمرّت .

ــ يجب ان اقول لك : لقد فقدت محفظتي .

وكان ماتيو يدفع الفتى الى السيارة ، وكان قد ألصق احدى يديه بين راسليه ، بينما كان يفتح الباب بالثانية ، وقال :

ــ فتّشي في جيب سترتي ، الجيب الايمن .

وبعد لحظة اخرجت ايرين يدها من الجيب :

– وجدت مئة فرنك ودراهم .

– احتفظي بالمئة فرنك .

ودفع الفتى دفعة اخيرة فاسترخى عـلى المقعد . وصعدت ايرين وراءه وسألت :

– ما هو عنوانك ؟

قال ماتيو : – ليس لي بعد من عنوان . الى اللقاء .

صاحت ايرين : – هيه ؟

ولكنه كان قد أدار عقبيه : كان يريد ان يرى مرة أخرى شارع مونتورغاي . كان يريد ان يراه على التو . ومشى مدة دقيقة ، ثم أقبلت سيارة تقف بحذاء الرصيف ، على مستواه تماماً ، وفُتح الباب ، فأطلت امرأة ، وكانت ايرين، فقالت :

– إصعد ، بسرعة :

فصعد ماتيو الى السيارة.

– اجلس على هذا الكرسي .

فجلس .

– ماذا تريدين ؟

– إن الفتى قد فقد رشده . فهو يقول إنه سيستسلم حتى يسجن ، وهو يعالج الباب طوال الوقت ويريد ان يرمي نفسه خارجاً . وأنا لست من القوة بحيث أستطيع ان امسكه :

وكان الفتى منزوياً فوق المقعد ، وكانت ركبتاه أعلى من رأسه : وأوضحت ايرين :

– انه مصاب بحس الاستشهاد .

– ما هو عمره ؟

– لا ادري : تسع عشرة سنة .

وكان ماتيو يتأمل ساقي الفتى الطويلتين : كان في عمر أقـدم تلامذته . وقال :

– اذا كان راغباً في سجن نفسه ، فليس لك الحـق في ان تمنعيه من ذلك .

قالت ايرين مغتاظة : – انك عجيب حقاً . ولا تقدّر ما يعرض نفسه له .

– هل ضرب أحداً ؟

– كلا .

– ماذا فعل إذن ؟

قالت بهيئة كزة : – انها حكاية طويلة .

ولاحظ انها كانت قد عقدت جديلتيها فوق رأسها ، وكان ذلك يكسبها هيئة هزلية معاندة ، بالرغم من فمها الجميل المتعب . قال ماتيو :

– مهما يكن من أمر ، فهذا يعنيه . إنه حرّ .

قالت : – حرّ ! ما دمت اقول لك إنه قد فقد رشده .

ولدى كلمة « حرّ » فتح الفتى عينه الواحـدة وتمتم شيئاً لم يفهمه ماتيو ، ثم ، من غير ان ينبّه أحداً ، ارتمى على مقبض الباب وحاول ان يفتحه . وفي اللحظة نفسها كانت سيارة اخرى تكاد تلامس السيارة الواقفة . وأسند ماتيو يده على صدر الفتى وألقاه مرة اخرى على المقعد وأضاف وهو يلتفت الى ايرين :

– اذا كانت لديّ الرغبـة في دخول السجن ، فاني لا احب ان أمنع من ذلك .

وصاح الفتى : – لتسقط الحرب !

قال ماتيو : – نعم ، نعم . انت على حق . (وكان مـا يزال يشده الى المقعد ، ثم التفت نحو ايرين) أعتقد انه بالفعل قد فقد رشده .

وفتح السائق الزجاج :

– هل نسير ؟

قالت ايرين بلهجة انتصار :

– ١٥ ، جادة بارك مونسوري .

وخمش الفتى يد ماتيو ، ولكنه حين اقلعت السيارة، اعتزم ان يلتزم الهدوء . وظلوا صامتين برهة ؛ وكانت السيارة تجري في شوارع سوداء لم يكن ماتيو يعرفها . وبين الفينة والفينة كان وجه ايرين يخرج من الظل وما يلبث ان يغرق فيه مرة اخرى . وسألها ماتيو :

– هل انت من بريتاني ؟

– انا من متز . لماذا تسألني ذلك ؟

– بسبب جديلتك .

– إنها بشعة ، أليس كذلك ؟ ان صديقة هي التي تريد ان اسرّح شعري على هذا النحو .

وصمتت لحظة ثم سألت :

– اني لا افهم كيف لا يكون لك عنوان .

– اني انتقل من منزلي .

– نعم ، نعم ... فانت مجنّد ، أليس كذلك ؟

– طبعاً ، كجميع الرجال .

– هل يروقك ان تخوض الحرب ؟

– لا ادري شيئاً من ذلك : فانا لم اخضها بعد .

قالت ايرين : – انا ضد الحرب .

– لاحظت ذلك .

وانحنت نحوه في حركة مشاركة :

– قل لي : هل فقدت احداً ؟

قال ماتيو : – ان لك هيئة غريبة . انتبه ! انتبه !

كان الفتى قد مد يده خفية يحاول ان يفتح البـــاب ، فالقاه

ماتيو في مقعده قائلا :

ــ انريدُ ان تظل هادئاً ؟ (والتفت الى ايرين) اية حقنة !

ــ انه ابن الجنرال .

ــ آه ؟ إذن ، لا بد انه غير فخور بأبيه .

وكانت السيارة قد توقفت . فكانت ايرين اول النازلين ، ثم وجب إخراج الفتى . وكان يتشبّث بالمساند ويركل بقدميه . وأخذت ايرين تضحك :

ــ كم هو مشاكس : إنه الآن لا يريد ان يخرج .

وتمكن ماتيو في آخر الأمر من حمله تحت ذراعه ووضعه على الرصيف

ــ اوف !

قالت ايرين : ــ انتظر لحظة . كان المفتاح في محفظتي ، فيجب ان ادخل من النافذة .

واقتربت من بيت صغير ذي طابق واحد كانت احدى نوافذه مفتوحة . وكان ماتيو يمسك الفتى بيد ، ويفتش باليد الاخرى في جيبه ثم مد المال الى السائق :

ــ احتفظ بالمبلغ كله .

وسأل السائق جذلاً : ــ ما باله ، الاخ ؟

قال ماتيو : ــ لقد نال نصيبه .

واقلعت السيارة . وانفتح خلف ماتيو باب، فبدت ايرين في مستطيل من الضوء وقالت :

ــ ادخل .

فدخل ماتيو وهو يدفع الفتى الذي كفّ عن قول شيء . وأغلقت ايرين الباب خلفه .

قالت : ــ الى اليسار . ان المفتاح الكهربائي على يدك اليمنى .

فبحث ماتيو بالتلمس عن المفتاح ، وانبثق النور . فرأى غرفة مغبرة،

فيها سرير مؤطّر ، ودلو ماء وطست على الطاولة ، وكانت دراجة بلا عجلات معلقة في السقف بخيوط .

ـ اهذه غرفتك ؟

قالت ايرين : ـ لا ، بل هي غرفة الأصدقاء .

فنظر اليها وأخذ يضحك :

ـ جواربك ،

كانت مبيضة من الغبار ، وممزقـة لدى الركبتين . واوضحت في غير اكتراث :

ـ حدث ذلك وأنا أصعد من النافذة .

وكان الفتى قد انزرع في وسط الغرفة ، وهو يترنح بصورة مقلقة وينظر الى كل شيء بعينه الواحدة . وعادت اليه ايرين وهي تحمل طستاً وقطناً ، وقالت :

ـ لا ، لا ! هيا يا فيليب ، كن عاقلا !

وكانت قد انحنت فوقه وأخذت تمر بارتباك قطعة قطن على حاجبيه. وأخذ الفتى يئن ، فقالت بصوت رؤوم :

ـ نعم ، هذا يقرص ، ولكنه يعود بالخير عليك .

وذهبت تضع الطست على الطاولة . ونهض ماتيو قائلاً :

ـ حسناً ، إنني انسحب .

قالت بحبوية : ـ اوه ، كلا (واضافت بصوت منخفض) اذا كان يريد ان يذهب ثانية ، فلست قوية بما فيه الكفاية لأمنعه من ذلك.

ـ انت لا تعتقدين مع ذلك اني سأسهر عليه طوال الليل ؟

قالت في غيظ :

ـ ما أقل ميلك للإحسان !

وأضافت بعد لحظة بلهجة مصالحة :

ـ انتظر على الاقل حتى ينام ؛ ولن يتأخر ذلك .

وكان الفتى يتململ في السرير وهو يتمتم بكلمات مختلفة . وسألت ايرين :

– اين تراه كان يجرجر نفسه حتى وقع في مثل هذه الحالة ؟

كانت ممتلئة وقصيرة بعض الشيء ، ذات بشرة جامدة ، رقيقة اكثر مما ينبغي ، لزجة بعض الشيء ، ولم تكن تبدو نظيفة تماماً ؛ فكأنها كانت ناهضة من النوم لتوّها . ولكن الوجه كان رائعاً : فم صغير جداً ذو زاويتين متعبتين ، وعينان كبيرتان واذنان صغيرتان ورديتان .

قال ماتيو : – حسناً ، لقد نام .

– أنظن ذلك ؟

وانتفضا : كان الفتى قد استقام ، وقال بصوت قوي :

– فلومي ! بنطلوني !

قال ماتيو : – خراء !

فابتسمت ايرين :

– انت هنا حتى الصباح .

ولكن ذلك كان هذياناً تمهيدياً للنوم : فان فيليب تداعى للسقوط الى خلف ، وتمتم بضع لحظات ، وما لبث أن بدأ يشخر .

قالت ايرين بصوت منخفض :

– تعال .

وتبعها الى غرفة كبيرة مفروشة بنسيج وردي . وكانت قد علّقت على الجدار غيتاراً .

– انها غرفتي . سأترك الباب مفتوحاً لأسمع الفتى .

ورأى ماتيو سريراً كبيراً ، غير مرتب ، ذا مظلة ، ومقعداً محشواً ، وغرامافوناً واسطوانات على طاولة من طراز هنري الثاني ، وكانت قد ألقيت على أريكة ذات أرجوحة جوارب مستعملة ومباذل نسائية .

وتابعت ايرين نظره :
— لقد أثثت بيتي من « متحف البراغيث »
قال ماتيو : — لا بأس به ، لا بأس به على الاطلاق .
— إجلس .
فسأل ماتيو : — اين ؟
— انتظر .
كان على المقعد المحشو سفينة داخل زجاجة ، فأخذتها ووضعتها على الارض ، ثم حررت الاريكة ذات الارجوحة من الاغطية التي عليها والتي حملتها الى المقعد المحشو .
— هنا . اما انا ، فسأجلس على السرير .
وجلس ماتيو وأخذ يتأرجح .
— كانت آخر مرة جلست فيها على اريكة ذات ارجوحة ، في ليم، في باحة فندق « أرين » . وكنت في الخامسة عشرة .
فلم تجب ايرين . واستعاد ماتيو صورة الباحة الكبرى المعتمة ببابها الزجاجي المشع تحت نور الشمس : كانت تلك الذكرى ما تزال تخصه، وكانت ثمة ذكريات أخرى ، صميمية وغير متميزة ، ترتعش حولها : انني لم أفقد طفولتي . كانت السن الناضجة ، سن الرشد ، قد انهارت، ولكن كانت الطفولة باقية ، حارة كل الحرارة : وهو لم يكن يوماً اقرب اليها مما هو الآن ، وفكر في الطفل الصغير المضطجع على رمل البحر في « اركاشون » والذي كان يطلب ان يكون حراً : وكان ماتيو ، امام هذا الصبي العنيد ، قد كف عن ان يشعر بالعار . ونهض.
قالت ايرين : — انت ذاهب ؟
قال : — سوف أتنزه .
— الا تريد ان تبقى قليلا ؟
فتردد ، ثم قال : — بكل صراحة ، كانت لدي بالاحرى رغبة

بان اكون وحدي .

فوضعت يدها على ذراعه :

ـ سوف نرى . سيكون الامر معي كما لو كنت وحدك .

ونظر اليها : كانت لديها طريقة غريبة في الكلام ، رخوة وساذجة في رصانتها بعض الشيء ، كانت لا تكاد تفتح فمها الصغير وتهز قليلا رأسها لتساقط منه الكلمات . وقال :

ـ سأبقى .

فلم تبدِ اي فرح . وكان وجهها في الحق يبدو قليل التعبير. وخطا ماتيو بضع خطوات في الغرفة ، واقترب من الطـــاولة ، فأخذ بعض الاسطوانات . وكانت مستعملة جداً ، وكان بعضها مشعوراً ، وكن معظمها قد فقد غلافه . كان ثمة بعض الحان الجاز ، واغنية مهترئة لموريس شفالييه ، والكونسرتو لليد اليسرى ، ورباعية دوبوسي ، وسيريناد توسيللي ونشيد الانترناسيونال تغنيه جوقة روسية . وسألها :

ـ انت شيوعية ؟

قالت : ـ لا ، ليس لي من رأي . وأظن اني كنت أكون شيوعية لو لم يكن النـــاس اشراراً أردياء (وفكرت قليلا وقالت) انني من دعاة السلام .

قال ماتيو : ـ انك ظريفة ، فاذا كان الناس اشراراً فينبغي ان يستوي لديك ان يموتوا في الحرب او بطريقة اخرى .

فهزت رأسها برصانة عنيدة وقالت :

ـ بل من أجل هذا بالذات . فما داموا أشراراً ، فان خوض الحرب مع ذلك أشد اثارة للاشمئزاز .

وساد صمت. ونظر ماتيو الى نسيج عنكبوت في السقف وأخذ يصفر. قالت ايرين :

ـ لا أستطيع ان اقدم لك شيئاً للشرب ، الا اذا كنت تحب عصير

اللوز . فلا يزال في الزجاجة بقية منه .

قال ماتيو : ـ هم .

ـ أجل ، كنت أتوقع ذلك . آه ، هناك على المدخنة سيجار ، فخذه اذا شئت .

ونهض فأخذ السيجار ، وكان جافاً ومكسوراً .

ـ هل أستطيع ان أحشو به غليوني ؟

ـ افعل به ما يروق لك .

وعاد الى الجلوس وهو يفتت السيجار بين أصابعه ، وكان يحس نظر ايرين عليه . وقالت :

ـ خذ راحتك . فاذا لم تكن راغباً في الكلام ، فلا تتكلم .

قال ماتيو : ـ حسناً .

وبعد برهة ، سألت :

ـ ألا تريد ان تنام ؟

ـ اوه ! كلا .

وكان يخيل اليه أنه لن يرغب بعد ابداً في النوم .

ـ اين تراك كنت تكون ، في هذه اللحظة ، لو لم تلتق بي ؟

ـ في شارع مونتورغاي .

ـ وما الذي كنت ستفعله فيه ؟

ـ أتنزه .

ـ لا بد ان يبدو لك غريباً ان تكون هنا .

ـ لا .

قالت في عتاب مبهم : ـ صحيح ، فانك قلما تكون هنا .

فلم يجب : كان يفكر بأنها كانت على حق . هذه الجدران الاربعة ، وهذه المرأة على السرير : كان ذلك حادثاً عارضاً لا أهمية له ، وجهاً من وجوه الليل المائعة . كان ماتيو في كل مكان يمتد فيه الليل من

حدود الشمال الى الكوت دازور ؛ لم يكن والليل الا شيئاً واحداً ، وكان ينظر الى ايرين بعيون الليل كلها : فهي لم تكن الا نوراً ضئيلا ، في الظلام . وندت صرخة نافذة جعلته ينتفض .

– اي سم ! سأرى ما به .

وخرجت على أطراف أصابعها ، وأشعل ماتيو غليونه . ولم تكن به رغبة بعد لأن يقصد شارع مونتورغاي : فقد كان شارع مونتورغاي هنا ، وكان يخترق الغرفة ، كانت جميع طرق فرنسا تمر بها ،وكانت جميع الاعشاب تنبت فيها . وكانت قد وضعت اربعة حواجز خشبية حيثما اتفق . وكان ماتيو في حيثما اتفق . وعادت ايرين تجلس : وكانت مطلق شخص . ولم تكن لتشبه امرأة من بريتـــاني : بل كانت اشبه بأناميت ،صغيرة مقهى « الدوم » . كانت تملك منها البشرة الزعفرانية، والوجه اللامعبر والجمال الواهن .

قالت : – لا شيء . انه يحس الكوابيس .

وسحب ماتيو بهدوء أنفاس غليونه .

– لا بد انه عاني كوابيس شديدة ، هذا الطفل .

فهزت ايرين كتفيها ، وتغيّر وجهها فجأة فقالت :

– أشك في ذلك !

قال ماتيو : – أراك فجأة تصبحين قاسية .

– آه ! ذلك انه يزعجني ان يُرثى لفتى من جنسه ، فهذه كلها حكايات طفل اغنياء .

– إن ذلك قد لا يمنع ان يكون شقياً .

– انت تجعلني أضحك . لقد طردني ابي حين كنت في السابعة عشرة : اريد ان اقول لك اني لم أكن على وفاق معه . ولكني لن اقول اني كنت شقية .

ولمح ماتيو ، ذات لحظة ، على وجهها المترف ، سحنة قاسية واعية

لامرأة قد عانت . وكان صوتها يسيل ، بطيئاً ضخماً ، مع شيء من الرتابة في الغيظ ، وقالت :
— ان الانسان يكون شتيماً ، حين يشكو البرد او المرض او الجوع . وكل ما عدا ذلك أبخرة .
فأخذ يضحك : كانت تقطب أنفها بعناية وتفتح فمها الصغير بقوة لتقيء الكلمات . وكان لا يكاد يصغي اليها : كان يراها . نظر . نظر هائل ، سماء فارغة : كانت تتخبط في هذا النظر كحشرة في ضوء منارة .
وقالت : — لا ، اريد طبعاً ان أؤويه وأعنى به وأمنعه من ارتكاب الحماقات ، ولكني لا اريد ان يُرثى له . لاني انا ، عرفت ما هو البؤس! وحين يزعم البورجوازيون أنهم أشقياء ...
ونظرت اليه بتنبه وهي تسترد نفَسها :
— صحيح انك انت ، بورجوازي .
قال ماتيو : — نعم ، انا بورجوازي .
انها تراني ؛ وخيِّل اليه أنه كان يقسو ويصغر بسرعة تامة . كان وراء عينيه سماء بلا نجوم ، وكان كذلك نظر ، انها تراني كما ترى الطاولة والغيتار . وانا في رأيها جزء صغير معلق في نظر ، بورجوازي. صحيح اني بورجوازي . ومع ذلك ، فانه لم يكن ينجح في الإحساس بذلك . وكانت ما تزال تنظر اليه .
— ما الذي تفعله في الحياة ؟ لا ، دعني أحزر . طبيب ؟
— لا .
— محام ؟
— لا .
قالت : — عجباً ، ربما كنت نشالا .
قال ماتيو : — انني استاذ .

قالت وهي خائبة بعض الشيء : — هذا غريب (ولكنها اضافت بحيوية) لا أهمية لذلك .

انها تنظر الي . ونهض فأخذ ذراعها ، فيما تحت مرفقها بقليل . وكان اللحم الرقيق الدافىء ينغمس قليـــلاً تحت الأصابع . وسألته :

— ماذا دهاك ؟

— كانت بي رغبه الى لمسك ، وذلك لسبب واحـــد : هو انك تنظرين الي .

وتداعت مقتربة منه ، وتغشّى النظر ، وقالت :

— انك تروق لي .

— وانت تروقين لي ايضاً .

— هل لك امرأة ؟

— ليس لي أحد .

وجلس بالقرب منها ، على السرير :

— وانت ، هل من أحد في حياتك ؟

— في حياتي ... آحاد . (وأشارت اشارة أسف وقالت) انني سهلة.

وكان النظر قد اختفى . وكان باقياً لعبةً صينية صغيرة تنبعث منها رائحة البلاذر .

قال ماتيو : — سهلة ؟ وبعد ذلك ؟

فلم تجب . وكانت قد وضعت رأسها بـــين يديها وراحت تنظر الى الفراغ في رصانة . وقال ماتيو في نفسه: « إنها امرأة تميل الى التفكير» .

وقالت بعد لحظة :

— حين تكون امرأة لابسةً ثياباً رديئة ، فلا بدّ ان تكون سهلة .

والتفتت الى ماتيو في قلق :

— انني لست مخيفة ، اليس كذلك ؟

قال ماتيو أسفاً : — كلا . هذا نستطيع ان نؤكده .

ولكنها بدت من شدة الأسى بحيث انه اخذها بين ذراعيه .
كان المقهى مقفراً . وسألت ايفيش الخادم :
— انها الساعة الثانية صباحاً ، أليس كذلك ؟
فسح عينيه بظاهر يده والقى نظرة على الساعة المعلقة . كانت تشير الى الثامنة والنصف .
وتمتم : — ربما .
وتراكمت ايفيش بوداعة في زاوية وهي ترد تنورتها على ركبتيها . سأكون يتيمة تلحق بعمتها في ضاحية باريس . وفكرت بأن عينيها كانتا تلتمعان اكثر مما ينبغي ، فأسدلت شعرها على وجهها . ولكن قلبها كان ينبض بهيجان يكاد يكون فرحاً : ساعة انتظار ، وشارع يعبر ، ثم تقفز الى القطار ؛ وسأكون حوالي الساعة السادسة في «غاردنور» فأقصد اولاً « الدوم » وآكل برتقالتين ، ومن هناك الى بيت ريناتا لأبلصها بخمسمئة فرنك . وكانت بها رغبة لأن تطلب قدح خمر ، ولكن اليتيمة لا تشرب الكحول .
وسألت بصوت دقيق : — أتريد ان تعطيني فنجان زيزفون ؟
فاستدار الخادم على عقبيه ، وكان فظيعاً ، ولكن كان ينبغي اغراؤه . وحين حمل الزيزفون رفعت اليه نظراً رقيقاً مجفلاً ، وتنهدت قائلة :
— شكراً .
فانزوع أمامها ونشق في تبرم :
— الى أين انت ذاهبة هكذا ؟
قالت : — الى باريس ، لدى عمتي .
— ألست ابنة السيد سرغين ، ذاك الذي يملك المنشرة ، فوق ؟ البليد !
قالت : — اوه ، كلا ! لقد مات أبي عام ١٩١٨ ، وأنا ربيبة الدولة .

فهز رأسه عدة مرات وابتعد : لقد كان فلاحاً فظاً كالفلاحين الروس؛ أما في باريس فان لخدم المقاهي نظرات مخملية وهم يصدّقون ما يقال لهم . سأرى باريس من جديد. وسوف تعرف ما ان تبلغ «غاردونور» : فقد كانوا ينتظرونها : كانت الطرق تنتظرها ، والواجهات ، واشجار مقبرة مونبارناس و ... الاشخاص . بعض الاشخاص الذين لا يكونون قد رحلوا – مثل ريناتا – او يكونون قد عادوا . سوف اجد نفسي من جديد . هناك فقط كانت ايفيش ، بين جادة « مين » والأرصفة. وسوف يُرونني تشيكوسلوفاكيا على خارطة . وفكرت في هوس : اوه! ليقصفوا اذا شاءوا بالقنابل ، فسنموت معاً ، ولا يبقى إلاّ بوريس ليتحسّر علينا .

– أطفيء .

فأطاع ، وذابت الغرفة في ليل الحرب الكبير ، وامتزج النظران في الليل ، ولم يكن باقياً إلا خيط من نور ، بين مدخل الباب ومصراعه المشقوق ، عين مستطيلة كانت تبدو وكأنها تراهما . واتجه ماتيو متزعجاً الى الباب ، فقال الصوت في ظهره :

– لا ، دعه مفتوحاً : بسبب الفتى ؛ فاني اريد ان اسمعه .

فعاد أدراجه في صمت ، ونزع حذاءه وبنطاله ، واحدث الحذاء الأيمن صوتاً وهو يرتطم بالأرض الخشبية .

– ضع ثيابك على الأريكة .

فوضع بنطاله وسترته ثم قميصه على الأريكة ذات الأرجوحة، فتأرجحت وهي تصرّ . وظل عارياً كلّه ، ذراعاه متدليتان ، وأصابع رجليه مشنّجة ، في وسط الغرفة . وكان راغباً في ان يضحك .

– تعال .

فتمدّد على السرير لصق جسد حارّ وعارٍ . وكانت قد استلقت على ظهرها ، ولم تأت بحركة ، وكانت ذراعاها ملتصقتين على جنبيها .

ولكنه حين قبّل صدرها ، تحت عنقها بقليل ، أحسّ بخفق قلبها ، خفقات مطرقة كبيرة كانت تزعزعه من رأسه الى قدميه . وظلّ فترة من غير ان يتحرك ، وقد شمله هذا الجمود الخافق : وكان قد نسي وجه ايرين ؛ ومدّ يده ، وأمرّ اصابعه على لحم أعمى. مجرد انسانة . ومرّ اشخاص بالقرب منهما ، وسمع ماتيو احذيتهم تطقطق : كانوا يتكلمون بصوت مرتفع ويتضاحكون فيما بينهم .

قالت امرأة : — قل ، يا مارسيل : لو كنت هتلر ، أتراك تستطيع أن تنام هذه الليلة ؟

وضحكوا ، وابتعدت خطاهم ، وظلّ ماتيو وحيداً .

وقال صوت ناعس :

— اذا كان ينبغي لي ان آخــذ احتياطات ، فالأفضل ان تقول ذلك فوراً .

قال ماتيو : — لا حاجة بك الى اتخاذ احتياطات، فأنا لست قذرا .

فلم تجب . وسمع نفَسها القوي المنتظم. مرج ، مرج في الليل ، كانت تتنفّس كالاعشاب ، كالاشجار ؛ وتساءل عما اذا لم تكن قد نامت . ولكن يداً مرتبكة ومنغلقة نصف انغلاق لامست بسرعة خاصرته وأليتيه: كان يمكن اعتبار ذلك على الاكثر مداعبة . وتحامل قليلاً وانزلق عليها.

انسحب بوريس فجأة ، وردّ الغطاء وتداعى للسقوط الى جانب . ولم تكن لولا قد تحركت ، وظلت متمددة على ظهرها ، مغمضة العينين. وتقوقع بوريس ليتجنب ما وسعه ملامسة الغطاء لجسمه العَرِق . وقالت لولا من غير ان تفتح عينيها :

— بدأت اومن بأنك تحبني .

فلم يجب . هذه الليلة ، كان قد احب جميع النساء من خلالها ، الدوقات والاخريات . ويداه اللتان كانت حشمةٌ لا تقهر قد امسكتهما حتى ذلك الحين على كتفي لولا ونهديها ، نزّههما في كل مكان ؛

ونزّه شفتيه في كل مكان ، والتمس في جنون الاغماء النصفي الذي كان يسقط فيه عادة وهو في ابان لذته ، والذي كان يثير اشمئزازه : كانت ثمة افكار يريد ان يهرب منها . وكان يشعر بنفسه الآن لزجاً ملطخاً، وكان قلبه يخفق حتى لينفطر ؛ لم يكن ذلك غير لذيذ : ففي تلك اللحظة ينبغي التفكير أقل ما يمكن . كانت ايفيش تقول له دائماً : انك تفكر اكثر مما ينبغي — وكانت على حق . ورأى فجأة بعض قطرات تنبثق عند زاويتي عيني لولا المغمضتين ، فتشكل بحيرتين صغيرتين كان مستواهما يصعد رويداً على جانبي الأنف . وتساءل: « ماذا هناك ايضاً؟» كان يعيش منذ اربع وعشرين ساعة مع قلق جاف في جوف معدته ، فلم يكن ذا ميل الى الرقة والتعطّف .

وقالت لولا : — اعطني منديلي ، انه تحت الوسادة .

ومسحت عينيها ثم فتحتهما . وكانت تنظر اليه نظرة حذرة قاسية : « ماذا تراني قد فعلت ايضاً ؟ » ولكن لم يكن الأمر كما يظن ، فقد قالت بصوت مخنوق :

— سوف تذهب .

— الى اين ؟ اه ! نعم ... ولكن ليس على الفور ، وانما بعد عام .

— وما هو العام ؟

كانت تنظر اليه في إلحاح ، وأخرج يداً من تحت الغطاء ورد خصلته على عينيه ، وقال في حكمة :

— ربما تكون الحرب بعد عام قد انتهت .

— انتهت ؟ آه ! اصدقك تماماً : اننا نعرف متى تبدأ الحرب ، ولكننا لا نعرف أبداً متى تنتهي .

وانبثقت ذراعها البيضاء من تحت الغطاء ، فأخذت تجس وجه بوريس كما لو كانت عمياء . وملّست صدغه ووجنتيه ، وتابعت استدارة اذنيه ، ولامست انفه بطرف اصابعها : وكان يحس نفسه مضحكاً . وقال في

مرارة :
— ان العام وقت طويل ، فلدينا مجال للتفكير في ذلك :
— واضح جداً أنك طفل . ليتك تدري كم ينقضي العام بسرعة بالنسبة لمن كان في سني .
قال بوريس في عناد : — اما انا ، فأجده طويلاً .
— هل انت راغب اذن في القتال ؟
— ليس الأمر كذلك .
وأصبح أشد احتمالاً للحر ، فانقلب على ظهره ومد ساقيه فالتقتا طرفاً من قماش في جوف السرير ، بنطال منامته . وقال موضحاً ، ونظره في السقف :
— مهما يكن من أمر ، فما دام عليّ ان أخوضها ، هذه الحرب ، فليكن ذلك على التو ، ولنكف عن الحديث عنها .
وصاحت لولا : — ها ! وأنا ؟ (وأضافت بصوت لاهث) انك لا تبالي بأن تتركني ، ايها الوحشي الصغير ؟
— ولكن ما دمت سأتركك على أي حال ؟
قالت بهوس : — آه ، في ابعد وقت ممكن . سأموت من ذلك . لا سيما وانك ، كما اعرفك الآن ، ستظل ثلاثة ايام من غير ان تكتب لي ، بداعي الكسل ، وسوف اظنك انا ميتاً . انك لا تقدر ذلك .
قال بوريس : — وانت ايضاً لا تقدرينه . انتظري ريثما يحدث قبل ان تحطمي رأسك تفكيراً .
وساد صمت ، ثم قالت بصوت خشن متقطع كان يعرفه جيداً :
— مهما يكن من أمر ، فانه لا يبدو صعباً جداً ان يُهجر انسان ماء ان العجوز تعرف من الناس اكثر مما تعتقد .
وانقلب بحيوية على جنبه ونظر اليها مغضباً .
— لولا ، اذا ما فعلت ذلك ...

ـ ماذا يحدث ؟

ـ فلن اراك في حياتي بعد ابداً .

وكانت قد هدأت ، فقالت له ببسمة غريبة :

ـ كنت احسب ان الحرب تثير نفورك ؟ لقد كررت لي كثيراً انك كنت مناهضاً للعسكرية .

ـ وما زلت .

ـ وإذن ؟

ـ ليس الأمر متشابهاً .

وكانت من جديد قد اغمضت عينيها ، وكانت تلتزم الهدوء، ولكن وجهها كان قد تغير : فلقد بدت على زاويتي شفتيها تجعدتا التعب والضيق القديمتان . وبذل بوريس جهداً ، فقال بلهجة مصالحة :

ـ انني مناهض للعسكرية لأني لا استطيع ان أطيق الضباط . امـا الجنود العاديون فأحبهم كثيراً .

ـ ولكنك ستصبح ضابطاً . سيجبرونك على ذلك .

فلم يجب بوريس : كان الامر أعقد مما ينبغي ، حتى انه كان هو نفسه يضيع فيه . صحيح انه كان يحتقر الضباط ، ولكن لمـا كانت الحرب حربه ، من جهة اخرى ، وكان هو مرصوداً لحيـاة عسكرية قصيرة ، فلا بد ان يصبح معاون ملازم . وفكّر : « آه ! ليتني استطيع ان اكون هناك وأتبع الفرقة ، بقوة الاشياء ، وأنتهى من كل هـذه المزعجات . »

وقال فجأة :

ـ اتساءل عما اذا كنت سأخاف .

ـ تخاف ؟

ـ ان ذلك يرعدني .

وكان يفكر بأنها لن تفهم : كان الافضل ان يتحدث في ذلك الى

ماتيو ، او حتى ايفيش ولكن ما دامت موجودة هنا ...

– طوال العـام ، سنقرأ في الصحف : الفرنسيون يتقدمون تحت طوفان من الحديد والنار ، او نقرأ شيئاً من هذا القبيل ، فهمت مـا اقصد . وسوف اتساءل كل مرة : هـل تراني سأصمـد ؟ او انني سأسأل مأذونين : أيكون الامر قاسياً ؟ وسوف يجيبونني : قاسٍ جداً فأحسّني طريفاً . ان ذلك سيبعث على الفرح .

فأخذت تضحك وقلدته من غير جذل :

– انتظر حتى تمر بها قبـل ان تحطم رأسك تفكيراً ، حتى ولو كنت خائفا ، ايها الساذج الصغير !

وفكر : « لا حاجة الى ان اشرح لها : فهي لا تفهم شيئاً . » وتثاءب وسأل :

– هل نطفيء ؟ انني ناعس .

قالت لولا : – اذا شئت . قبّلني .

فقبّلها وأطفأ . وكان يكرهها ، وفكر : « انها لا تحبني من أجل نفسي ، والا لفهمت . »

كانوا جميعاً متشابهين ، وكانوا يتظاهرون بأنهم عُمي : لقد جعلوا مني ديك قتال ، ثوراً للصراع ، وها هم الآن يسدّون أعينهم ، ابي يريد ان أتقدم لدبلومي ، وهذه تريد ان تجعلني أقع في كمين لأنها ضاجعت في الماضي كولونيلا . وبعد لحظة احس جسماً ملتهباً عارياً يسقط على ظهره . وفكر : « دائماً هذا الجسد الملتصق بجسدي طوال عام آخر . انها تستثمرني . » واستشعر القسوة والانغلاق . واندفـع بقرب الجدار . فسألته لولا :

– الى اين تذهب ؟ الى اين تذهب ؟ ستسقط على الارض .

– ان حرارتك تحرقني .

فابتعدت وهي تدمدم . عام . عام ستسألني فيه ان كنت جباناً ،

وطوال عام سأخاف من ان اكون خائفاً . وسمع تنفس اولا المنتظم ، كانت تنام ؛ ثم تدحرج الجسم عليه من جديد ؛ ولم يكن الذنب ذنبها ، فقد كان في وسط الفراش فجوة ؛ ولكن بوريس أحس برعشة غضب ويأس : ستسحقني حتى صباح الغد . وفكر : اوه ! اعيش مع الرجال، ولكل سريره . وفجأة ، أخذه نوع من الدوار ، وكانت عيناه مفتوحتين ثابتتين في الظلام ، وسرت في ظهره العَرِق رعدة مثلجة : لقد ادرك انه قرر التطوع في اليوم التالي .

انفتح الباب وبدت السيدة بيرنانشاتز في قميص الليـــل وعلى رأسها وشاح ، فقالت وهي تصيح لتغطي صوت جهاز الراديو :

— غوستاف ، ارجوك ، تعال فنم .

قال السيد بيرنانشاتز : — نامي ، نامي ، ولا تهتمي بي .

— ولكني لا استطيع ان انام اذا لم تأو الى فراشك .

فقال بحركة ضيق : — آه ! ترين جيداً اني انتظر شيئاً ما .

قالت : — ما هو ؟ لماذا تحرك طوال الوقت هذا الراديو اللعين ؟ سينتهي الأمر بالجيران الى رفع شكوى . فماذا تنتظر ؟

فالتفت السيد بيرنانشاتز اليها وقبض على ذراعيها بقوة قائلاً :

— اراهن أن هذه خدعة ؛ اراهنك أن بلاغ تكذيب سيصدر ليلاً ؛

فسألته مستطارة اللب : — ولكن ماذا ؟ عم تتكلم ؟

فأشار اليها ان تصمت ؛ واخذ صوت هادىء رصين يتكلم :

« تكذب الاوساط المأذون لها في برلين جميع الانباء التي ظهرت في الخارج ، فيما يخص انذاراً قيل ان المانيا أرسلته الى تشيكوسلوفاكيا وحددت فيه الساعة الرابعة عشرة بعد ظهر اليوم كآخر موعد ، وفيما يخص تعبئة عامة مزعومة ستعلن بعد انتهاء هذا الاجل . »

وصاح بيرنانشاتز :

— اسمعي ، اسمعي ؛

« وتعتبر هذه الانباء وسيلة لبث الذعر وخلق جو من التشوش الحربي »

« ويكذبون كذلك تصريحاً زعم ان الوزير غوبلز ادلى به الى جريدة اجنبية حول مدة هذا الانذار ، ويؤكدون ان الدكتور غوبلز لم ير ولم يستقبل منذ اسابيع اي صحفي أجنبي . »

واستمع السيد بيرنانشاتز لحظة أخرى ، ولكن الصوت كان قد صمت ، فنهض يرقص مع السيدة بيرنانشاتز رقصة فالس وهو يصرخ :

– لقد قلت لك ، لقد قلت لك ، انه التّراجع ، إنه التراجع الاصفر ، لن تقع الحرب يا كاترين ، لن تقع الحرب ، وقد بُعِص النازيون !

النور . وانتصبت الجدران الاربعة فجأة بين ماتيو والليل . فتحامل على يديه ونظر الى وجه ايرين الهادىء : كان عُري هذا الجسد الانثوي قد تقلص حتّى الوجـه ، وكان الجسم قد استردّه كما تستّرد الطبيعة الحدائق المهجورة ؛ ولم يكن ماتيو ليستطيع بعدُ ان يعزله عن الكتفين المستديرتين ، والنهدين الصغيرين المقرّنين ، إنه لم يكن الا زهرة من لحم ، آمنة وغامضة . وسألت :

– هل كان الامر باعثاً على الملل ؟

– الملل ؟

– هناك من يجدني مملة ، لأني لست نشيطة جداً . وقد حدث مرة ان شعر أحدهم معي بانزعاج شديد ، حتّى انه ذهب في الصباح ولم يعد بعد ذلك قط .

قال ماتيو : – انني لم انزعج ؟

وأمرّت إصبعاً خفيفاً على عنقه :

– ولكن يجب الا تظن اني باردة .

قال ماتيو : – أعرف . اصمتي .

وأخذ رأسها بين يديه وانحنى على عينيها . كانتا بحيرتين من جليد، شفافتين وبلا اعماق . انها تنظرني ، وكان الجسم والوجه ، خلف هذا النظر ، قد اختفيا . وفي اعماق هاتين العينين ، كان الليل : الليل البكر . لقد ادخلتني في عينيها ، فأنا موجود في هذا الليل : رجلاً عارياً . سأغادرها بعد ساعات ، ومع ذلك ، فسأبقي فيها الى الابد . فيها ، في هذا الليل المغفل . وفكّر : « وهي لا تعرف حتّى اسمي . » وفجأة ، أحسّ بأنه متعلّق بها تعلقاً عميقاً حتّى شعر بالحاجة الى مصارحتها بذلك ، ولكنه صمت : كانت الكلمات ستكذب ؛ فهو انما كان متعلقاً بهذه الغرفة مثل تعلقه بها ، بالغيتار على الجدار، وبالفتى الذي كان ينام في السرير المقفص، بهذه اللحظة ، بهذا الليل كله .

وابتسمت له :

— انك تنظر اليّ ولكنك لا تراني .

— بل أراك .

وتثاءبت :

— اود ان انام برهة .

قال ماتيو : — نامي ، ولكن اربطي منبهك على الساعة السادسة ، فيجب ان اعود الى بيتي قبل ان اقصد المحطة .

— انت ذاهب هذا الصباح ؟

— هذا الصباح في الساعة الثامنة .

— هل استطيع ان اصحبك الى المحطة ؟

— اذا شئت .

قالت :

— انتظر . يجب ان أخرج من السرير لأربط المنبّه وأطفيء النور .

ولكن لا تنظر ، فانا أخجـــل من مؤخرتي لضخامتها وانخفاضها المفرطين .

فصرف وجهه وسمعها تروح وتغدو في الغرفة ، ثم اطفأت . وقالت له وهي تعود الى النوم :

– يتفق لي أحياناً ان أنهض وأنا نائمة ، وان اتنزه في الغرفة ، فما عليك الا ان تصفعني .

الاربعاء ٢٨ ايلول

الساعة السادسة صباحاً ...

كانت معتزّة جداً ، فهي لم تغمض عينها طوال الليل ، ومع ذلك فانها لم تكن وسنى . كل ما هناك حُرقٌ جاف في جوف المحجرين ، وتأكّل في العين اليسرى ، وذلك الرفيف في الاجفان ، وبين الفينة والفينة ارتعاشات من التعب تسري في ظهرها ، من الصلب حتّى الرقبة. كانت قد سافرت في قطار مقفر بصورة فظيعة ، وكان آخر مخلوق حي رأته رئيس المحطة في سواسون وهو يلوّح بقلمه الاحمر . ثم رأت دفعة واحدة الجمهور الحاشد في باحة « غاردوليست » وكان حشداً قبيحاً جداً ، محشواً بالعجائز والجنود ؛ ولكن كانت له عيون كثيرة وأنظار كثيرة ، ثم ان إيفيش كانت تحب هذا النموج السرمدي الصغير وهذه اللكزات من المرافق والظهور والاكتاف ، وتأرجح الرؤوس بعضها وراء البعض بعناد ؛ وكم كان لذيذاً ان لا تشعر بنفسها وحيدةً بعد في تحمّل ثقل الحرب . وتوقفت عند عتبة احد ابواب الخروج الكبرى ، وتأملت بتديّن جادّة ستراسبورغ ؛ كان ينبغي ان تملأ منها عينيها وتلم في ذاكرتها الاشجار ، والحوانيت المغلقة ، والسيارات الكبيرة ، وخطوط الترامواي ، والمقاهي التي كانت قد بدأت تفتح ، وهواء الصباح المدخن . حتّى ولو القرا قنابلهم بعد خمس دقائق ، بعد

ثلاثين ثانية ، فانهم لن يستطيعوا ان ينتزعوا مني ذلك . وتأكدت من أنها لم تكن تترك شيئاً يفلت منها ، حتى ولا الاعلان الكبير ديبون — ديبون — ديبونيه ، الى اليسار ، ثم فجأة أخذها سعر صغير . يجب ان تدخل المدينة قبل ان يصلوا . ودفعت امرأتين من بريتاني كانتـا تحملان أقفاص عصافير ، واجتازت العتبة ، فوضعت قدمها على رصيف حقيقي لباريس . وخيّل اليها أنها كانت داخلة الى أتون ، وكان ذلك يثير النشوة والشؤم : « سيحترق كل شيء : النساء والاطفال والعجز ، وسوف أهلك في اللهب » . ولم تكن خائفة : فعلى أي حال كنت سأستفظع أن أشيخ ، غير ان التعجل كان يجفف حلقها ، فليست ثمة دقيقة للإضاعة : ان هناك اشياء كثيرة ينبغي ان تُرى مرة اخرى ، متحف « البراغيث » ، المقابر ، منيلمونتان وأشياء اخرى لم تكن تعرفها بعد ، كمتحف غريفان ، فاذا تركوني ثمانية ايام ، اذا لم يأتوا قبل يوم الثلاثاء القادم ، سيكون لدي متسع من الوقت لأزور كل شيء : وفكرت في هوس : ثمانية أيام تعاش ؛ اريد ان أتسلى اكثر مما اتسلى في عام برمته ، اريد ان اموت وانا أتسلى . واقتربت من سيارة تاكسي :

— ١٢ شارع هويغنز .

— إصعدي .

— ارجو ان تمر في جادة سان ميشال ، وشارع اوغست كومت ، وشارع فافين ، وشارع دولمبر ، ثم شارع « لاغيتيه » وجادة مين :

قال السائق : — هذا يطيل الطريق .

— لا بأس .

ودخلت السيارة وأغلقت الباب : كانت قد خلّفت لاون وراءها ، الى الأبد : سنموت هنا . وفكرت : « ما أجمل الطقس ! ما اجمل الطقس ! بعد ظهر هـذا اليوم سنذهب الى شارع ديروزييه وجزيرة سان لويس » .

صاحت ايرين : — عجّل ، عجّل ، تعال .

كان ماتيو في قميصه القصير ، يسرّح شعره امام المرآة . ووضع المشط على الطاولة وأخذ سترته تحت ذراعه ودخل « غرفة الاصدقاء » .

— ماذا هناك ؟

فأرته ايرين السرير بحركة مؤثرة :

— لقد فركها !

قال ماتيو : — بلا مزاح ، بلا مزاح !

وتأمل السرير المدعوك لحظة ، وهو يحك رأسه ، ثم انفجر ضاحكاً. ونظرت اليه ايرين نظرة رصينة دهشة ، ولكن ما لبث الضحك أن أعداها . وقال ماتيو :

— لقد قهرنا تماماً !

وارتدى سترته . وكانت ايرين ما تزال تضحك :

— الموعد في « الدوم » الساعة السابعة .

قالت : — الساعة السابعة .

وانحنى عليها وقبّلها قبلة خفيفة .

صعدت ايفيش السلّم وهي تركض ، وتوقفت على سطيحة الطابق الثالث وهي تلهث . وكان الباب مشقوقاً . فأخذت ترتجف . « ألا ان تكون البوابة هنا ؟ » ودخلت : كانت جميع الابواب مفتوحة ، وجميع المصابيح مضاءة . وفي المدخل ، رأت حقيبة كبيرة : انه هنا :

— ماتيو !

فلم يجب أحـد . وكان المطبخ خالياً ، ولكن في غرفة النوم كان السرير غير مرتب . « لقد قضى الليل هنا » . ودلفت الى المكتب ، ففتحت النوافذ والمصاريع . وفكرت في رقة : « ليس ذلك قبيحاً الى حد بعيد ، لقد كنت غير عادلة » . ستعيش هنا ، وستكتب له اربع مرات في الاسبوع ، لا ، بل خمساً . ثم يقرأ ذات يوم في الصحف :

« قصف باريس بالقنابل » ولا يتلقى بعد ذلك رسائل على الاطلاق ؛ ودارت حول المكتب ، ولمست المكتب ، وضاغطة الورق التي تشبه العقرب . وكان ثمة سيجارة مكسورة بالقرب من كتاب لمارتينو عن ستاندال ؛ فأخذتها ووضعتها في محفظتها مع البقايا ؛ ثم جلست بهدوء على الديوان ؛ وبعد لحظة سمعت أقداماً على السلم فوثب قلبها .

كان هو . وتأخر لحظة في المدخل ، ثم دخل حاملاً حقيبته ، وفتحت ايفيش يديها فسقطت محفظتها على الارض .

– ايفيش !

ولم تكن الدهشة بادية عليه . ووضع حقيبته ، فلمّ المحفظة وأعادها اليها .

– انت هنا منذ وقت طويل ؟

فلم تجب ، كانت عاتبة قليلا ، لانها تركت محفظتها تسقط ؛ وأقبل يجلس بالقرب منها . ولم تكن تراه . كانت ترى السجادة وطرف حذائها. وقال بفرح :

– اني محظوظ . فلو تأخرت ساعـة لما كنت ادركتني : سأستقل قطار نانسي في الساعة الثامنة .

– ولكن كيف ؟ هل تذهب على الفور ؟

وصمتت مستاءة من نفسها، كارهة لصوتها بالذات . ان امامها وقتاً قصيراً جـداً ، وكم ودّت لو تكون بسيطة ، ولكن ذلك كان اقوى منها : حين تكون قد بقيت وقتاً طويلا من غير ان ترى الناس ، فلن يكون باستطاعتها ان تلقاهم ببساطة . وكانت قد تركت لخدر قطني يشبه الجهامة ان يغمرها . وكانت تخفي عنه وجهها بعناية ، ولكنها كانت تظهر له اضطرابها ، وكانت تشعر بأنها أقل حشمة مما لو نظرت اليه في عينيه . وامتدت يدان نحو الحقيبة ففتحتاها وتناولتا منها منبهاً فربطتاه.ونهض ماتيو ليذهب فيضع المنبه على الطاولة،ورفعت ايفيش عينيها

قليلا فرأته أسود كله في الظل . وعاد الى الجلوس . وكان مستمراً في صمته ، ولكن ايفيش استعادت بعض الشجاعة . كان ينظر اليها ، وكانت تعلم انه كان ينظر اليها . لم يسبق لأحد منذ ثلاثة اعوام أن نظر اليها على هـذا النحو ، وكانت تحس نفسها ثمينة ورخيصة : تمثالا صغيراً أبكم ، كان ذلك لذيذاً ، ومزعجاً ، وأليما بعض الشيء . وفجأة سمعت تكتكة المنبه ، وفكرت في انه سيذهب. « لا اريد ان اكون رخصة ، لا أريد ان اكون تمثالا » . وبذلت جهداً عنيفاً ، فتمكنت من ان تلتفت اليه . ولم يكن له النظر الذي كانت تتوقعه .

— ها أنت ذي يا ايفيشى ، ها أنت ذي .

ولم يكن يبدو أنه ينكر بما كان يقوله . ومع ذلك ، فقد بسمت له ، ولكنها كانت مثلوجة من الرأس حتى القدمين . ولم يبادلها بسمتها، بل قال بهدوء :

— هذه انت ...

وكان يتأملها في دهشة ، وأضاف بلهجة اكثر انتعاشاً :

— كيف تراك قد أتيت ؟

— بالقطار .

وكنت قد طابقت راحتيها فيما بينهما وأخذت تشدهمـا بقوة لتجعل أصابعها تطقطق .

— كنت أقصد ان اقول : هل يعرف أهلك ذلك ؟

— لا .

— وهل هربت ؟

— تقريباً .

قال : — نعم ، نعم ، حسناً : سوف تسكنين هنا ، (واضف باهتمام) أكنت منزعجة في لاون ؟

فلم تجب : كان الصوت يسقط على رقبتها ، بارداً مطمئناً ، كساطور.

– يا لايفيش المسكينة !

وبدأت تشد شعرها خصلا . واستطرد :

– بوريس في بياريتز ؟

– نعم .

كان بوريس قد نهض متحسساً. فلبس بنطاله وسترته وهو يرتعش، وألقى نظرة على لولا التي كانت نائمة فاغرة الفم ، وفتح الباب بلا ضجة ، وخرج الى الممشى ، وحذاؤه في يده .

وألقت ايفيش نظرة الى المنبه ، فرأت ان الساعة قد أصبحت السادسة وعشرين دقيقة .

فسألت بصوت شاك :

– كم الساعة ؟

قال : – السادسة وعشرون دقيقة . انتظري : سأضع بعض الحوائج في قربتي ، وسأفعل ذلك بسرعة ، وبعد ذلك اكون حراً تماماً .

وركع بالقرب من الحقيبة . وكانت تنظر اليه جامدة . ولم تكن تحس بعدُ جسمها ، ولكن تكتكة الساعة كانت تحطم أذنيها . وبعد برهة نهض :

– كل شيء جاهز .

وظل واقفاً بالقرب منها،ورأت بنطاله وقد تهرأ قليلا لدى الركبتين، وقال في لطف :

– إسمعي جيداً يا ايفيش . سوف نتحدث في أمور جدية : إن البيت هو لك ، المفتاح معلق بالمسمار ، قرب الباب ، فاسكني هنا حتى نهاية الحرب . ولقد تدبرت الامر من أجل راتبي : لقد أعطيت وكالة لجدك ، وسوف يقبض الراتب ويرسله لك كل شهر . ستكون هناك بعض الحسابات التي لا بد من تصفيتها بين الفينة والفينة : اجرة البيت مثلا ، ثم الضرائب ، الا اذا أعفي الجنود منها – ثم ترسلين لي احياناً

رزمة صغيرة. وما يتبقى فهو لك. واعتقد انك تستطيعين ان تعيشي.
وكانت تستمع في ذهول الى هذا الصوت المتساوي الرتيب الذي كان يشبه صوت مذيع الراديو. كيف تراه يجرؤ على ان يكون مملاً الى هذا الحد؟ انها لم تكن تفهم تماماً ما كان يقوله، ولكنها كانت تتمثل بوضوح الهيئة التي كان يبدو عليها: نصف مبتسم، وأجفانه ثقيلة، وسمة غبطة رصينة على وجهه. ونظرت اليه لتتمكن من الحقد عليه حقداً اكبر، ولكن حقدها تهاوى: انه لم يكن يبدو على الهيئة التي كان يوحي بها صوته. أتراه يتألم؟ ولكن لا، انه لا يبدو شقياً. كل ما في الامر ان وجهه كان وجهاً لم تكن تعهده قط. وسأل وهو يبتسم:

– هل تسمعينني يا ايفيش؟

قالت: – بالتأكيد. (ونهضت) ماتيو، أريد ان تُريني تشيكوسلوفاكيا على خارطة.

فقال: – ولكن ليست لدي خارطات. بلى، لا بد ان عندي أطلساً قديماً.

وذهب يبحث عن مجموعة مجلدة في مكتبته، فأتى بها ووضعها على الطاولة وفتحها وقلب اوراقها: «اوروبا الوسطى». وكانت الالوان مزعجة: ليس الا اللونان البيج والبنفسجي. لا لون ازرق: فلا بحر ولا اوقيانوس. ونظرت ايفيش بتنبه الى الخارطة، فلم تكتشف تشيكوسلوفاكيا.

قال ماتيو: – ان تاريخ هذه الخارطة يعود الى ما قبل ١٤.

– وقبل ١٩١٤، لم يكن ثمة من تشيكوسلوفاكيا؟

– كلا.

وتناول قلمه الحبر ورسم في وسط الخارطة خطاً مغلقاً وغير منتظم، وقال:

ـ انها هكذا تقريباً .

ونظرت ايفيش الى هذه المساحة العريضة من الارض الخالية من الماء، ذات الالوان الحزينة ، وهذا الخط من الحبر الاسود ، غير المستقر ، البشع بالقرب من حروف المطبعة ، فقرأت كلمة « بوهيميا » في داخل الخط وقالت :

ـ آه ، هكذا ! هذه هي تشيكوسلوفاكيا ...

وبدا لها كل شيء عبثاً ، فأخذت تنشج .

قال ماتيو : ـ ايفيش !

والفت نفسها فجأة نصف ممددة على الديوان ، وكان ماتيو يأخذها بين ذراعيه ، وقد تصلّبت اول الامر : انني لست بحاجة الى شفقته ، انني مضحكة ، ولكنها بعد لحظة تداعت للاسترخاء ، فلم يكن ثمة بعد لا حرب ، ولا تشيكوسلوفاكيا ، ولا ماتيو ، وانما هذه الضغطة العذبة الحارّة حول كتفيها . وسأل :

ـ أتراك قد نمت هذه الليلة ؟

فقالت بين غصّتين : ـ كلا .

ـ يا لصغيرتي المسكينة ايفيش ! انتظري .

ونهض فخرج ، وكانت تسمعه يروح ويجيء في الغرفة المجاورة ، وحين عاد ، كان قد استرد بعض تلك الهيئة الساذجة المغتبطة التي كانت تحبها . وقال وهو يجلس الى قربها :

ـ لقد وضعت أغطية نظيفة ، والسرير مرتب ، فبوسعك ان تنامي، بمجرد ذهابي .

فنظرت اليه :

ـ ألا .. ألا اصحبك الى المحطة ؟

ـ كنت احسب انك تكرهين الوداع على المحطات .

قالت بلهجة مصالحة : ـ اوه ، في مثل هذه المناسبة الفخمة ...

ولكنه هز رأسه : — انني افضل ان اذهب وحيداً . ثم ان عليك ان تنامي .

قالت : — آه ، آه ، حسناً !

وفكرت : — « كم كنت بليدة ! » واحست نفسها فجأة باردة مغلقة . وهزت رأسها بقوة ، فسحت عينيها وابتسمت .

— انت على حق ، فأنا ثائرة الأعصاب اكثر مما ينبغي . انه التعب . وسأرتاح .

وأخذها من يدها فأنهضها :

— يجب ان اطوف بك البيت .

وفي غرفته ، توقف امام خزانة :

— ستجدين هنا ستة ازواج من الأغطية ورؤوس وسائد وملاحف ، وهناك لحاف في مكان ما ، ولكني لا أدري اين وضعته ، وسترشدك البوّابة .

وكان قد فتح الخزانة وهو ينظر الى ركام الأقمشة البيضاء . وأخذ يضحك ، ولم تكن هيئته راضية . فسألته ايفيش بأدب :

— ما بك ؟

— كل هذا كان لي ، ان ذلك مضحك .

والتفت اليها :

— سأريك ايضاً خزانة الطعام . تعالي .

ودخلا المطبخ ، فأراها خزانة :

— هنا . يبقى زيت وملح وفلفل ، ثم هذه معلبات (وكان يرفع العلب الاسطوانية الواحدة بعد الأخرى على مستوى نظره ويُديرها تحت المصباح) هذا سمك سليمان ، وهذا مزيج خضار ، وهذه ثلاث علب من الكرنب . تضعينها في الموقد ...

وتوقف . وعاودته ضحكته السيئة . ولكنه لم يضف شيئاً ، ونظر

الى علبة من البازلاء بعينيه الميتتين ثم أعادها الى الخزانة .

– انتبهي للغاز يا ايفيش . يجب ان تخفضي يد العداد قبل ان تنامي .

وكانا قد عادا الى المكتب . وقال :

– بالمناسبة ، سأبلغ البوّابة وانا هابط انني أترك لك البيت. وسترسل لك غداً السيدة بالين . وهي منظفة البيت ، وليست رديئة .

قالت ايفيش : – بالين ، أيّ اسم غريب ! [1]

وأخذت تضحك ، فابتسم ماتيو . وقال :

– ان جاك لن يعود قبل مطلع تشرين الأول ، فيجب ان اعطيك بعض المال لأتيح لك ان تنتظريه .

وكن في محفظته الف فرنك وورقتان من فئة المئة فرنك ، فأخذ ورقة الالف واعطاها اياها . قالت ايفيش :

– اشكرك جداً .

وتناولت الورقة واحتفظت بها في يدها المنقبضة .

– اذا حدث ايّ شيء ، فنادي جاك . سأكتب لـه اني اعهد اليـه فيك .

فرددت ايفيش : – شكراً ، شكراً ، شكراً .

– هل تعرفين عنوانه ؟

– نعم . نعم . شكراً .

– الى اللقاء (واقترب منها) الى اللقاء يا عزيزتي ايفيش . سأكتب لك بمجرد ان احصل على عنوان .

وأخذها من كتفيها وجذبها اليه .

– يا صغيرتي العزيزة ايفيش .

فمدت له بوداعة جبينها فقبّله . ثم شد على يدها وخرج ، وسمعته يصفق باب غرفة الدخول ، عند ذلك بسطت ورقة الالف فرنك ونظرت

---

(١) تعني كلمة « بالين » بالفرنسية : الحوت (المترجم)

الى نقشها الصغير ، ثم مزقتها الى ثماني قطع القتها على السجادة .

كان معمّر عجوز ذو لحية شقراء واضعاً احدى يديه على كتف شاب حديث التجنيد ، يشير له باليد الأخرى الى الشاطىء الافريقي . « عودوا الى التطوع في الفرقة الاجنبية » . وكان المجنّد الحديث ذا هيئة بليدة تماماً . لا بد بالتأكيد من المرور بهذه المرحلة : فطول ستة اشهر سيبدو بوريس في هيئة الأبله . لنقل طول ثلاثة اشهر : فإن اعوام الحرب تعدّ مضاعفة . وفكّر وهو يكز على اسنانه : « سيقصّون لي غرّتي ، المتوحشون ! » ولم يسبق له ان شعر بمناهضته للعسكرية بمثل هذا الشعور العنيف . وألمّ بحارس منتصب بجمود في محرسه ، فرماه بوريس بنظرة خفيّة فشعر فجأة بالخوف . وفكر : « خراء ! » ولكنه كان مصمماً ، وكان يحسّ نفسه شريراً من الرأس حتى القدمين : ودخل الثكنة وساقاه رخوتان . وكانت السماء تلمع ، وكانت ريح خفيفة جداً تحمل رائحة البحر حتى هذه الاحياء البعيدة ؛ وفكر بوريس : « وا أسفاه . وا أسفاه ان يكون الطقس رائعاً هذه الروعة . » وكان شرطي يرود الطريق عند باب المفوضية . وكان فيليب ينظر اليه . ويشعر انه متروك تماماً ، وكان يحس بالبرد ، وكان خده وشفته العليا يؤلمانه . سيكون استشهاداً بلامجد. بلا مجد ولا فرح : السجن ، ثم ذات صباح ، نهاية المطاف في حُفَر برج « فانسين » ؛ ولن يعرف احد ذلك ، فلقـد رفضوه جميعاً . وسأل :

– مفوض الشرطة ؟

فنظر اليه الشرطي :

– في الطابق الأول .

سأكون شاهدي بالذات ، ولست مديناً بعد بحساب لسواي .

– مكتب التطوع ؟

وتبادل الجنديان نظرة ، فأحس بوريس خدّيه يلتهبان وفـكّر :

« إن صحتي جيدة . »

– البناء في داخل الباحة ، الباب الاول الى اليسار .

فسلّم بوريس سلاماً سريعاً باصبعيه واجتاز الباحة بقدم ثابتة ؛ ولكنه كان يفكر : « انني أبدو ابله » وتأثر لذلك تأثراً شاقاً . وفكر : « لا بد ان يتسلّوا . رجل يأتي من تلقاء نفسه ، من غير ان يكون مجبراً ، لا بد ان يجدوا ذلك مزاحاً . » كان فيليب واقفاً ، في وضح النور ، وكان ينظر في عيني رجل قصير يحمل أوسمة ، ذي فكّ مربع ، ويفكّر في رسكولنيكوف .

– هل انت المفوض ؟

قال الرجل : – انا سكرتيره .

كان فيليب يتكلم بصعوبة بسبب شفته المتورمة ، ولكن صوته كان واضحاً . وتقدم خطوة وقال بحزم :

– أنا فراري ، واني استعمل هوية مزورة .

فحدجه السكرتير بانتباه ، وقال بأدب :

– إجلس .

كانت السيارة تجري نحو محطة « غار دوليست » . وسألت ايريك :

– سوف تتأخر .

قال ماتيو : – لا ، ولكني سأصل على الوقت تماماً . (وأضاف على سبيل الإيضاح) كانت لدي فتاة .

– فتاة ؟

– كانت قادمة من لاون لتراني .

– هل تحبك ؟

– كلا .

– وأنت ، هل تحبها ؟

– لا : وانما اعطيتها بيتي .

— هل هي فتاة جيدة ؟
قال ماتيو : — ليست هي فتاة جيدة ، ولكنها ليست سيئة كذلك.
وصمتا . وكانت السيارة تجتاز سوق « الهال » . وقالت ايرين فجأة:
— هنا ، هنا ، كان الامر هنا .
— نعم .
— كان ذلك امس ، يا إلهي ، إنه بعيد ...
وارتمت في جوف السيارة لتنظر عبر الزجاج ، وقالت وهي تستوي في مقعدها :
— انتهى .
فلم يُجب ماتيو . كان يفكر في نانسي : إنه لم يزرها من قبل قط .
وقالت ايرين :
— انك لا تتحدث كثيراً ، ولكني لا اضجر معك .
فقال في ضحكة مقتضبة :
— لقد تحدثت في الماضي اكثر مما ينبغي .
والتفت اليها :
— ماذا ستعملين اليوم ؟
قالت ايرين : — لا شيء فأنا لا أعمل قط شيئاً : ان صاحبي ينفق عليّ .
وتوقف التاكسي ، فترجّلا ودفع ماتيو . قالت ايرين :
— إنني لا أحب المحطات . فهي توحي بالشؤم .
ودسّت يدها فجأة تحت ذراعه . وكانت تمشي بجانبه ، صامتةً أليفة : وكان يخيّل اليه انه كان يعرفها منذ عشر سنين .
— يجب ان اقطع تذكرتي .
واخترقا الجمع . وكان جمعاً مدنياً ، بطيئاً صامتاً ، مع بعض الجنود .
— : هل تعرف نانسي ؟

قال مانيو : — لا .
— انا اعرفها . قل لي ، الى اين انت ذاهب ؟
— الى ثكنة طيران « ايسي ليناسي » .
قلت : — أعرفها . أعرفها .
وكان ثمة رجال يحملون القرب ويصطفّون امام نافذة التذاكر .
— أتريد ان أذهب فآتيك بجريدة بينما انت تنتظر في الصفّ ؟
قال لها وهو يضغط ذراعها :
— لا ، إبقيْ بالقرب مني .
وابتسمت له بهيئة سرور . وتقدّما ، خطوة خطوة .
— ايسي ليناسي .
ومدّ دفتره العسكري فأعطاه الموظف تذكرة . واستدار اليها :
— إصحبيني حتى البـــاب . ولكني افضّل الاّ تأتي الى رصيف المحطة .
وتقدما بضع خطوات وتوقفا . قالت :
— اذن ، وداعاً .
قال مانيو : — وداعاً .
— ان ذلك لم يدم الا ليلة .
— ليلة . أجل ، ولكنك ستكرنين ذكراي الوحيدة في باريس.
وقبّلها . فسألته :
— هل ستكتب لي ؟
قال مانيو : — لا أدري .
ونظر اليها برهة من غير ان يتكلم ، ثم ابتعد . قلت له :
— هيه !
فالتفت . كانت تبتسم ، ولكن شفتيها كانتا ترتعشان قليلا :
— ولكني لا اعرف حتى اسمك . .

ـ اسمي ماتيو دولارو .

ـ ادخلي .

كان جالساً في سريره ، وهو في منامته ، مسرّحاً جيداً على مألوف عادته ، جميلا على مألوف عادته ، وتساءلت عما اذا كان لا يضع على رأسه شبكة لليل . وكان ينبعث من غرفته عطر الكولونيا . ونظر اليها بهيئة مندهشة ، وتناول على عجل نظارتيه من على طاولة الليل فوضعها على أنفه :

ـ ايفيش !

فقالت في طيبة : ـ اي نعم .

وجلست على طرف السرير وابتسمت له . وكان قطار نانسي يغادر محطة « غار دوليست » ، وفي برلين ، ربما كانت القاذفات قد طارت، « اريد ان أتسلى ! اريد ان أتسلى ! » ونظرت فيما حولها : كانت غرفة فندق ، قبيحة وفخمة . ستخترق القبلة سقف السادس وأرضه : وهنا سوف أموت . وقال في رصانة :

ـ لم اكن اعتقد اني سأراك ثانية .

ـ لماذا ؟ لانك تصرفت كما يتصرف القذر !

ـ كنا قد شربنا .

ـ كنتُ قد شربت لأني علمت اني قد سقطت في شهادة الفيزياء والكيمياء وعلم النبات . اما انت ، فلم تكن قد شربت : كنت تريد ان تأخذني الى غرفتك ، كنت تترصّدني .

وكان شارداً ضائعاً تماماً . وقالت :

ـ حسناً ، هأنذي في غرفتك . فماذا تريد ؟

فأصبح لونه قرمزياً :

ـ ايفيش !

وضحكت في وجهه :

— إن هيئتك لا تبدو مخيفة جداً .

وساد صمت طويل ، ثم لامست قامتها يدٌ مرتبكة . كانت القاذفات قد عبرت الحدود . كانت تضحك حتى الدموع : مهما يكن من أمر ، فلن اموت وانا عذراء .

— هذا المكان شاغر ؟

فقال العجوز الضخم : — هون !

ووضع ماتيو قربتــه في الشبكة وجلس . وكانت الحافلة ملأى ، وحاول ماتيو ان ينظر الى رفاقه في السفر ، ولكن الجو كان ما يزال معتماً . وظل جامداً لحظة ، ثم حدثت هزّة مفاجئة وانطلق القطار . وانتفض ماتيو انتفاضة فرح ، لقد انتهى الأمر . فغداً ، نانسي ، الحرب ، الخوف ، وربما الموت ، الحرية . وقال : سنرى . سنرى . ووضع يده على جيبه ليأخــذ غليونه ، فاندعك ظرف تحت أصابعه . كانت رسالة دانيال . وكانت به رغبة لإعادتها الى جيبه ، ولكن نوعاً من الحشمة منعه من ذلك : كان ينبغي على اي حال قراءتها . وحشا غليونه ، واشعله ، وفضّ الظرف فأخرج منها سبع اوراق تغطيها كتابة مستوية ملتصقة ، من غير شطب ، وفكر في ضجر : « لقد كتب مسودة . ما أطولها ! » ومن حسن الحظ ان القطار كان قد خرج من المحطة ، بحيث كانت الرؤية أوضح . وقرأ :

« عزيزي ماتيو .

« إنني أتصوّر ذهولك اكثر مما ينبغي بحيث لا يمكنني الا أن أشعر شعوراً عميقاً بمجيء هذه الرسالة في غير أوانها . والحق اني لا ادري انا نفسي تماماً لماذا اتوجّه اليك : يجب ان نفترض ان طريق المسارّاة ، هي كالجريمة ، منحدر زلق . وحين كشفت لك ، في حزيران الماضي ، مظهراً بارزاً من مظــاهر طبيعتي ، فربما جعلت منك ، على غير علم مني ، شاهداً ممتازاً . وسأكون من ذلك على أسف ، لأني اذا كان

صحيحا أنه كان عليّ ان أطبع بخاتمك جميع احداث حياتي ، كنت مجبراً على أن أكنّ لك كراهية فعّالة ، مما سيجعل الأمر متعبا لي ، وضاراً لك . انك تفكر جيداً بأني اكتب هذا وأنا أضحك . فمنذ بضعة ايام ، أعرف خنة رصاصية — اذا كان هذا النعت لا يخيفك — وقد أعطاني « الضحك » نعمة إضافية . ولكن لندع ذلك ، ما دام الذي سأرسمه لك ليس هو العادي من حياتي ، وانما هو مغامرة عجيبة . وهي لن تبدو لي واقعية تماما من غير شك الا اذا وجدت ايضا بالنسبة لآخرين . وليس مرد ذلك الى اني أعوّل كثيراً على ايمانك ، حتى ولا ربما على حسن ظنك. فان العقلانية التي هي حرفتك منذ اكثر من عشرة أعوام ، اذا طلبت منك ان تضعها جانبا لفترة من الزمن لكي تتبعني ، فاني اشك بان توافق على التخلي عنها . ولكن من اجل هذا ربما اخترت ان انقل هذه التجربة الغريبة الى واحد من اصدقائي هو اقلهم استعداداً لسماعه ؛ ربما وجدت في ذلك حجة مضادة . ولست اقصد ان اطلب منك جوابا : فانه يسوءني ان تعتقد انك مجبر على ان تكتب لي هذه النصائح بالعودة الى العقل التي لم أن اوجهها لنفسي بصوت مرتفع — وارجو ان تشرفني بتصديق ذلك . بل ينبغي ان اعترف لك : انما يهبط عليّ من الضحك حين افكر غالبا بالعقل السليم والعلوم الوضعية . والحق اني اعتقد بأن مارسيل ستكون مغمومة اذا وجدت في بريدي رسالة منك : فهي ستظن انها تكتشف مراسلة سرية ، وربما تصورت ، وهي تعرفك كما تعرفك ، انك تضع نفسك ببذل في خدمتي ، لتقود خطواتي الاولى في حياتي الزوجية . ولكن اسمع لماذا يمكن لصمتك ان يخدمني كحجة مضادة : اذا كان بامكاني ان اتصور « بسمتك الكريهة » من غير ان أضطرب ، وأن أتخيل السخرية الخفية التي ستواجه بها « حالتي » من غير ان اترك الدرب الاستثنائي الذي اخترته ، فسأربح اليقين بأني في الطريق المستقيم . وأضيف، تفادياً لكل

سوء تفاهم ، وشاكراً عالم النفس الدقيق لمساعيه الحميدة ؛ اني هذه المرة انما اتوجه للفيلسوف ، لأنّ من المناسب ان اوضع الحكاية التي ارسلها لك على الصعيد الميتافيزيقي . سوف تحكم بلا شك أن هذا من قبيل الادعاء المغرور لاني لم أقرأ هيغل ولا شوبنهاور ، ولكن لا تستأ من ذلك : فاني لن أكون قادراً بالتأكيد على ان اثبت بالتصورات الذهنية الحركات الحالية لفكري ، وأدع لك أمر العناية بذلك ، ما دامت هذه مهنتك ، وسأكتفي بأن أعيش بالتامس ما تتصورونه انتم المتبصرين. غير اني لا اظن انك تستسلم بهذه السهولة : فهذا الضحك ، وهذه الأوان من الضيق والقلق والحدس الخفي ، من الارجح مع الاسف ان تجد نفسك مضطراً الى تصنيفها بين « الحالات » البسيكولوجية وان تفسرها على ضوء شخصيّ وأخلاقي ، مستغلا الاسرار التي تركت نفسي افضي بها اليك . ان هذا لا يعنيني : فما قبل يبقى مقولا ، فأنت اذن حر في ان تستخدمه على هواك ، حتى ولو كان من أجل ان ترتكب بحقي اخطاء رئيسية . بل اني اصارحك بأني مستعد بكل سرور ان اعطيك جميع المعلومات الضرورية من أجل إعادة تشكيل الحقيقة ، فيما انا مدرك انك ستستعملها لتستغرق عن تصميم في خطأك .

« لنأت الى الوقائع : ان الضحك هنا يسقط القلم من يدي : دموع من فرط الضحك ! ان ما لا أباشره الا وانا ارتجف ، ما لم أحدث به نفسي قط ، بدافع من حشمة واحترام ، سوف اصرفه في كلمات عامة ، وهذه الكلمات انما اوجهها لك انت ، فهي باقية على هذه الاوراق الزرقاء ، وسيكون بوسعك ان تقرأها بعد عشرة اعوام التماسا للمرح ؟ ويخيل الي اني ارتكب خطأ تدنيس ضد نفسي ، وهذا اشد ما لا يغتفر ، ولكني تنبأت بذلك ايضا ، واني اعطيك اياه كما اعطيك الباقي : ان التدنيس يضحك . ان اشد ما احبه لن يكون عزيزاً علي تماما اذا لم أضحك منه مرة على الاقل : حسنا ، سوف أجعلك تضحك من

معتقدي الجديد ؛ فانا أحمل في نفسي يقيناً ذليلا سيتجاوزك بكل امتداده، وسيكون مع ذلك بين يديك بكليته؛ ان ما يسحقني هنا سيكون مصغراً هناك بمقدار فظاظتك . اعلم اذن ، اذا سررت بقراءة هذه الرسالة ، اني قد سبقتك : انني أضحك ، يا ماتيو ، أضحك ، ان الرب يصبح انساناً متجاوزاً جميعاً الناس ، ومستهزأ به من الجميع ، معلقاً على الصليب ، فاغر الفم ، مخضراً ، أشد بكماً من شبوط تحت السخريات، فأي شيء أجدر بالضحك ، هيا ، هيا ، فهيا فعلت ، فان اعذب دمعات الضحك لن تسيل على خديك .

«لنر اذن ما يمكن للكلام ان يفعله . أتراك ستفهمني اولا اذا قلت لك اني لم أعرف قط ما انا ؟ ان أنفي فوق عيوبي وفوق فضائلي ، فلا استطيع ان أراها ، ولا ان آخذ قدراً من التراجع كافياً ليجعلني اتأمل نفسي كمجموع . ثم اني احس بأني مادة رخوة متحركة تدوم فيها الكلمات ، وما كدت أجرب ان أسمي نفسي حتى كان الذي سمي قد اختلط بالذي يسمي ، وعاد كل شيء من جديد موضع جدال ؛ لقد تمنيت غالباً ان اكره نفسي ، وانت تعلم انه كان لدي اسباب وجيهة لذلك . ولكن كنت ما اكاد اجرب هذه الكراهية على نفسي حتى تغرق في ميمي ، فلا تكون بعد الا ذكرى . ولم يكن باستطاعتي كذلك ان احب نفسي – وانا على يقين من هذا ، بالرغم من اني لم اجربه قط . ولكن كان ينبغي ابداً ان اكون انا نفسي ، كنت عبئي بالذات . ولم يكن عبئاً ثقيلا بما فيه الكفاية ، يا ماتيو ، لم يكن تعلم كذلك . وقد حسبتني ذات لحظة ، في هذا المساء من حزيران الذي راق لي فيه ان اعترف لك ، حسبتني ألمس نفسي في عينيك الذاهلتين. كنت تراني ، وفي عينيك كنت صلباً قابلا للتوقع ، ولم تكن اعمالي ولا حالاتي النفسية الا نتائج جوهر ثابت . وهذا الجوهر انما عرفته انت بواسطتي ، وقد وصفته لك بكلماتي ؛ وكنت قد كشفت لك عن وقائع

كنت تجهلها وهي التي اتاحت لك ان تتعرف عليه . ومع ذلك فانت الذي كنت ترى هذا الجوهر ، وكل ما هو شأني اني كنت أراك تراه. وذات لحظة ، كنت الوسيط بيني وبين نفسي ، أثمن وسيط في الدنيا في نظري ، ما دام هــذا الكائن الصليب الكثيف الذي كنته ، والذي كنت اريد ان أكونه ، انما كنت تدركه بمثل البساطة والمشاركة اللتين كنت أدركك بهما ، لأنني ، في آخر المطاف ، موجود ، فانا كائن حتى ولو لم أحسني موجوداً ، وانه لتعذيب نادر ان يجد المرء في ذاته مثل هذا اليقين من غير ادنى اساس ، ومثل هذا الفخر من غير مادة. ولقد فهمت آنذاك ان المرء لا يستطيع ان يبلغ ذاته الا بحكم من الآخر، وربما بحب من الآخر ، ولكن ليست القضية هنا هي هذه . فلقـد أكننت لك من هذا الاكتشاف عرفاناً معتدلا . ولست ادري ما هو الاسم الذي تطلقه اليوم على علاقاتنا ، فليست هي الصداقة ، ولا الحقد تماماً. لنقل ان بيننا جثة . جثتي .

وكنت ما ازال في هذه الاوضاع النفسية حين سافرت الى «سوفتير» مع مارسيل . كنت تارة اريد ان الحق بك ، وتارة أحلم بأن أقتلك ؛ ولكني ذات يوم جميل خطرت بذهني صفة التبادل في علاقاتنا . فماذا عساك كنت تكون بدوني ، الا هذا النوع من المبنع الذي هو انا بالنسبة لي بالذات ؟ فانما بتدخلي تستطيع ان تحرز نفسك احياناً كما انت ـ في شيء من الغيظ ـ : عقلاني، قصير النظر قليلاً ، مطمئن جداً في الظاهر ، اما في الحقيقة فغير واثق ابداً ، ممتليء بالرضى عن كل ما هو بطبيعته متصل بعقلك ، أعمى وكاذب في كل ما دون ذلك . انك محاكم بدافع الحــذر ، عاطفي بالتذوق ، ضعيف الحس الشهواني ، وبالاجمال مثقف متزن ، معتدل ، ثمرة عذبة لطبقاتنا الوسطى . واذا كان صحيحاً اني لا استطيع ان ابلغ نفسي الا بوساطتك، فان وساطتي ضرورية لك اذا اردت ان تعرف نفسك . لقد رأيتنا آنذاك ندعم

عدمينا أحدنا بالآخر ، وللمرة الاولى ضحكت تلك الضحكة العميقة التي تحرق كل شيء ، ثم سقطت ثانية في نوع من اللامبالاة اسود ، لا سيا وان التضحية التي قمت بها في شهر حزيران ذاك، والتي كانت تبدو لي ساعتئذ بمثابة تكفير مؤلم، قد تكشفت على مدى الزمن قابلة للاحتمال بصورة فظيعة . ولكن ينبغي هنا أن أصمت : فانا لا استطيع ان اتحدث عن مارسيل من غير ان اضحك ، وانا لا اريد ان أهزأ بها معك ، وذلك بدافع من الاحتشام لا بد من ان تقدره . في تلك الفترة وقع لي الحظ الذي هو اوفر الحظوظ جنوناً وعدم احتمال . ان الله يراني يا ماتيو ، وانا احسه واعرفه . هأنذا قد قلت كل شيء دفعة واحدة ، فأود لو اكون بالقرب منك واستمد يقيناً اقوى ، اذا امكن ذلك ، من مشهد الضحك الكثيف الذي سيهزك لفترة طويلة :

« والآن ، حسبي ذلك . لقد ضحك أحدنا من الآخر بما فيه الكفاية ، واني استأنف حكايتي . لا شك في انك عانيت ، وانت في المترو ، او في باحة مسرح ، او في قاطرة ، احساسا مفاجئا وغير محتمل بأن ثمة خلفك من يترصدك . وتلتفت ، ولكن الفضولي يكون قد غطس أنفه في كتابه ، فلا تستطيع ان تتوصل الى معرفة منذا الذي كان يراقبك : وتعـود الى وضعك الاول ، ولكن تعلم ان المجهول يكون قد رفع عينيه ثانية ، وتحسه عبر تنمل خفيف في ظهرك ، شبيه بانقباض عنيف وسريع لجميع أنسجتك أجل هذا هو الذي شعرت به للمرة الاولى يوم ٢٦ ايلول ، في الساعة الثالثة بعد الظهر ، في باحة الفندق . ولم يكن ثمة أحد ، أتسمع يا ماتيو ، لم يكن ثمة أحد.ولكن النظر كان هناك . افهمني جيداً : اني لم التقطه ، كما نلتقط وجها جانبيا ، او جبينا او عينين ، لأن ميزته الذاتية هي عدم قابليته للالتقاط. كل ما هنالك اني انقبضت ، وتراكمت، فكنت في وقت واحداً مخروقا وكثيفا ، كنت موجوداً في حضور نظر . ومنذ ذلك الحين ، لم أكف

عن ان اكون امام شاهد . امام شاهد ، حتى في غرفتي المغلقة ، واحيانا ، كان الاحساس بان هذا النصل يخترقني ، وبأني انام امام شاهد ، يوقظني منتفضا . وبالاختصار ، فقدت النوم تماما . آه ! يا ماتيو ، اي اكتشاف : كان ثمة من يراني ، وكنت اضطرب لأعرف نفسي ، وكنت أحسبني أنسال من جميع الأطراف ، وكنت أطالب بوساطتاك الخفية ، وفي هذه الاثناء ، كان ثمة من يراني ، وكان النظر هنا ، غير معتكر ، فولاذاً لا يرى . وانت ايضا ، ايهـا الضاحك الجاحد ، انك ترى . ولكنك لا تعرف ذلك . سيكون يسيراً علي ان اقول لك ما هو النظر : لأنه لا شيء . انه غيبة ، خذ مثلا : تصور ليلاً شديد الظلام . ان الليل هو الذي ينظر اليك ، ولكنه ليل باهر ، الليل في وضح النور ، الليل السرّي للنهار . انني اقطر نوراً أسود ، وهو يسيل على يدي وعيني ، وفي قلبي ، ولا اراه . صدقني ان هذا الانتهاك الابدي كان باديء ذي بدء كريها جداً لي : فأنت تعلم أن اقدم احلامي هي ان اكون غير مرئي ، وقد تمنيت مئة مرة الا اترك اي أثر ، لا على الارض ولا في القلوب ، فأي ضيق في ان اكتشف فجأة هذا النظر كبؤرة كونية لا استطيع ان افر منها . ولكن اية راحة ايضاً . انني أعرف اخيراً اني موجود . انني أحوّل لصالحي ، وعلى غيظ شديد منك ، كلمـــة نبيّك البليدة المجرمة ، عبارة « انا افكر فانا موجود » التي عذبتني طويلا – لأني كلما أمعنت في التفكير ، ضعف احساسي بوجودي – واقول : انني ارى ، فانا موجود . انه ليس لي بعد ان اتحمل مسؤولية انسيالي الدبق : الذي يراني ويوجدني ، انني كما يراني . وأدير نحو الليل وجهي المظلم الخالد ، وانتصب كتحدٍ ، وأقول لله : هأنذا . هأنذا كما تراني ، كما انا . فماذا استطيع : انك تعرفني وانا لا أعرف نفسي . فماذا عساني أفعل الا ان أحتمل نفسي ؟ وانا الذي يهرب مني نظرك ابداً ، احتملني . اي فرحة ، يا ماتيو ،

واي عذاب ! لقد تغيرت اخيراً فأصبحت نفسي . يكرهونني ، يحتقرونني ، يحتملونني ، ولكن حضوراً يدعمني في ان اكون ما انا الى الابد . انني لا محدود وانا مذنب الى ما لا حد ، ولكنني موجود ، يا ماتيو ، موجود . امام الله ، وامام الناس موجود .

« لقد ذهبت ارى كاهن « سوفير » . انه فلاح مثقف داهية ، ذو وجه متخرك متعب يشبه وجوه الممثلين المسنين . وهو لا يعجبني قط ، ولكن لم يكن مزعجا لي ان يتم اتصالي الاول بالكنيسة عن طريقه . وقد استقبلني في مكتب مزين بمجموعة من الكتب لم يقرأها كلها بالتأكيد . وقد اعطيتـــه اولا الف فرنك برسم فقرائه ، ورأيت انه يعتبرني مجرما تائبا . وشعرت اني اكاد أضحك ، فكان علي ان اواجه كل ما كان في وضعي من طابع مأساوي حتى احتفظ برصانتي .

« وقلت له : سيدي الكاهن ، انني لا اتمنى الا معرفة شيء واحد : هل يعلّم دينكم ان الله يرانا ؟ »

« فاجابني مندهشا : انه يرانا . ويقرأ في قلوبنا »

« فسألته : ولكن ماذا يرى فيها ؟ هل يرى هذا الزبد الذي منه تصنع افكاري اليومية ، ام ان نظره يدرك جوهرنا الابدي ؟ »

« فقدّم لي الخبيث العجوز هذا الجواب الذي وجدت فيه حكمة سرمدية :

« يا سيدي ، ان الله يرى كل شيء » .

« ففهمت ان ... »

ودعك ماتيو الاوراق وقد نفد صبره . وفكر : « يا لها من افكار مبتذلة ! » وكان الزجاج قد أُخفض ، فلف الرسالة في كتلة وقذف بها من النافذة من غير ان يمضي في القراءة .

قال المفوض : — لا ، لا ، خذ الجهاز : فانا لا احب ان اتحدث الى هؤلاء الضباط العالين ، فهم يتخذونك خادما لهم .

فقال السكرتير : — اظن ان هذا سيكون اوفر لطفا . ثم اننا في نهاية الأمر نعيد له ابنه ، وهو بالاجمال على خطأ : فما كان عليه الا ان يحسن مراقبته ...

قال المفوض : — سترى ، سترى ، فسيتدبر امره ليكون مزعجا. ولا سيما في الظروف الحالية : ففي عشية حرب ، تستطيع دائما ان تحاول حمل جنرال على الاعتراف بخطأه .

وتناول السكرتير التلفون وركب الرقم . واشعل المفوض سيجارة ، وقال :

— كن لبقا يا ميران . لا تتخل عن اللهجة المهنية ولا تتكلم اكثر مما ينبغي ؛

قال السكرتير : — آلو ؟ آلو ؟ الجنرال لاكاز ؟

فقال صوت خشن : — نعم . ماذا تريد مني ؟

— انني سكرتير مفوضية شرطة شارع دولامبر :

فبدأ الصوت ينم عن اهتمام اكثر :

— نعم . ماذا تريد ؟

فقال السكرتير بصوت محايد مائع :

— حضر شاب الى مكتبي في الساعة الثامنة من هذا الصباح . وهو يدعي انه فراري وحامل هوية مزورة . والواقع اننا وجدنا معه جوازاً اسبانيا مزوراً . وقد رفض ان يعترف بهويته الحقيقية ، ولكن المحافظة قد اعطتنا صوراً لابن زوجتك فعرفناه على الفور .

وساد صمت ، ثم اضاف السكرتير بلهجة حائرة :

— بالطبع ، ليس هناك ، يا جنرالي ، اي دليل إدانة ضده : هو ليس فراريا ما دام لم يدع لخدمة العلم ، صحيح انه يحمل جوازاً مزوراً ، ولكن هذا لا يشكل جنحة ، لأنه لم يتح له ان يستعمله ؛ ولقد احتفظنا به ليكون تحت تصرفك ، ويمكنك ان تأتي لاصطحابه

متى شئت .

وسأل الصوت الجاف :

ـ وهل ضربتموه ؟

فانتفض السكرتير ، فسأله المفوض .

ـ ماذا يقول ؟

فغطى السكرتير الجهاز بيده :

ـ يسأل عما اذا كنا قد ضربناه .

فرفع المفوض ذراعيه الى السماء ، بينما كان السكرتير يجيب :

ـ لا ، يا جنرالي ، بالطبع ، لا .

قال الجنرال : ـ شيء مؤسف .

فسمح السكرتير لنفسه بضحكة مهذبة . وسأل المفوض :

ـ ماذا يقول ؟

ولكن السكرتير اولاه ظهره نافد الصبر ، وانحنى على الآلة :

ـ سآتي هذا المساء او غداً . فحتى ذلك الحين ، احتفظوا به في المركز . وسيكون ذلك درساً له .

ـ حسنا ، يا جنرالي .

وعلق الجنرال السماعة . فسأل المفوض :

ـ ماذا كان يقول ؟

ـ كان يريد ان نضرب الفتى .

وسحق المفوض سيجارته في المنفضة ، وقال في سخرية :

ـ أعتقد ذلك !

الساعة ١٨٫٣٠ : الشمس على البحر ، وهي لا تكفّ عن الهبوط ، ولا تكف الدبابير عن الطنين ، ولا الحرب عن الاقتراب ، وطردته دبوراً لم يكن ليكف ، وكان جاك خلفها لا يكف عن شرب كأسه من الويسكي جرعات صغيرة . وفكرت : « ان الحياة لا تنتهي » كانت

الاب والأم والاخوة والاعمام والعمات، قد اجتمعوا طوال خمس عشرة سنة متتالية ، في هذا الصالون ، في اصائل ايلول الجميلة ، قساةً بكماً كصور أسرة ، كانت قد انتظرت العشاء كل مساء ، اولاً تحت الطاولات، ثم فوق كرسي صغيرة ، وهي تتساءل ما جدوى الحياة . لقد كنّ جميعاً هنا ، بعد ظهر كل يوم ضائع ، في الذهب الاحمر لهذه الساعة اللاجدية . كان الاب هنـــا ، خلفها ، يقرأ « التان » . ما جدوى العيش ؟ ما جدوى العيش ؟ وكانت ذبابة تتسلّق في ارتباك على الزجاج، فتتدحرج ثم تصعد من جديد ، وكانت اوديت تتابعها بعينيها ، وكانت بها رغبة في البكاء :

قال جاك : — تعالي اجلسي ، سوف يخطب دلادييه .

والتفتت اليه : كان قد أرق في نومه ، وكان جالساً في الاريكة الجلدية ، وهو في تلك الهيئة الطفولية التي كان يأخذها حين يكون خائفاً . وجلست على ذراع الاريكة . ستكون جميع الايام متشابهة . جميع الايام . ونظرت الى الخارج وفكرت : « كان على حق ، فقـــد تغيّر البحر ».

— ما الذي سيقوله ؟

فهزّ جاك كتفيه وقال :

— سيخبرنا ان الحرب قد أعلنت .

واهتزّت اهتزازة صغيرة ، لا غير . خمس عشرة ليلة . طوال خمس عشرة ليلة قلق كانت قد ابتهلت في الفراغ ، كانت مستعدّة لأن تعطي كل شيء ، بيتها ، صحتها ، عشرة اعوام من حياتها لتنقذ السلام . ولكن لتنفجر ، يا إلهي ! لتنفجر الحرب الآن . ليحدث اخيراً شيء ما : ليدقّ جرس العشاء ، لتسقط الصاعقة على البحر ، وليعلن صوت معتم : لقد دخل الالمان الى تشيكوسلوفاكيا . ذبابة . ذبابة غارقة في قعر فنجان ، ستتداعى للغرق في هذا الأصيل الهادىء ذي الكارثة ،

وكانت تنظر الى شعر زوجها الذي وخطه الشيب ، ولم تكن تفهم بعد جيداً لماذا كان الامر يستحق وقاية الناس من الموت وبيوتهم من الدمار. ووضع جاك قدحه على الطاولة وقال بحزن :

– أنها النهاية .

– نهاية ماذا ؟

– نهاية كل شيء . انني لا اعلم بعد ما الذي ينبغي ان نتمناه من النصر او الهزيمة .

قالت باسترخاء : – اوه !

– اذا هُزمنا ، فسوف « يجرمنوننا » ، ولكني اقسم لك ان الالمان سيعرفون كيف يفرضون النظام . ولن يبقى على الشيوعيين واليهود والماسونيين الا ان يحزموا حقائبهم . اما اذا انتصرنا ، فسوف يبلشفوننا ، وسيكون ذلك انتصار الفوضى وربما أسوأ (وأضاف بلهجة شاكية) آه ! يجب الا تُعلن هذه الحرب ، يجب الا تعلن !

ولم تكن تسمع كثيراً ما كان يقوله لها . كانت تفكر : « انه خائف ، وهو شرّير ، وهو وحيد » . وانحنت فوقه وداعبت شعره . « يا لصغيري المسكين جاك ! »

– عزيزي الصغير بوريس .

كانت تبتسم له ، وكانت تبدو في هيئة كريهة ، واحس بوريس ان الندم يخترق قلبه ، يجب على ان حال ان اخبرها بالأمر . واستطردت لولا :

– انني ثائرة الأعصاب ، وهذا مزعج . وانا راغبة في معرفة ما سوف يرويه لنا ، ولكن ذلك ليس كما لو انك ذاهبٌ على الفور .

ونظر بوريس الى قدميه وأخذ يصفر . كان الافضل التظاهر بأنه لم يسمع ، وإلا لاتهمته بالنفاق ، بالاضافة الى كل شيء . وكان الوضع يزداد صعوبة بين دقيقة واخرى . سوف تتخذ هيئتها المسكينة الشاردة ،

وستقول له : « لقد فعلت هذا ! فعلت هذا ولم تقل لي كلمة عنه ؟ » (وانتهى الى القول) انني لا اراني مرتاحاً.

قالت لولا : — اعطني قدح مارتيني ، وانت ، ماذا تأخذ ؟

— الشيء نفسه .

وعاد يصفر . ربما اتيحت هناك فرصة ، بعد خطاب دلادييه : ستعلم ان الحرب قد اعلنت ، وسوف يدوخها ذلك قليلا دون ريب : واذا ذاك يهجم بوريس فيقول لها : « لقد تطوّعت ! » من غير ان يدع لها مجال استعادة نَفَسها . كانت ثمة حالات تحدث فيها المصيبة البالغة ارجاعاً غير منتظرة : كالضحك مثلا ، سيكون الامر طريفاً اذا اخذت تضحك . وقال في تجرد : « سيكون مع ذلك منزعجاً بعض الشيء » . وكان جميع زبائن الفندق قد تجمّعوا في الباحة ، بما فيهم الكاهنـــان . وكانوا غارقين في ارائكهم يتخذون هيئات راضية لانهم كانوا يحسون انفسهم مراقبين ، ولكنهم لم يكونوا يمضون طويلا في ذلك ، وقد فاجأ بوريس اكثر من واحد منهم ينظر خفية الى الساعة : حسناً ! ان عليكم ان تنتظروا نصف ساعة اخرى . كان بوريس مستاءً ، انه لم يكن يحب دلادييه ، وكان ينفره ان يفكر بأنه كان في جميع انحاء فرنسا مئات الألوف من الازواج ، ومن الأسر الكثيرة العدد ومن الكهنة ، وهم على استعداد لتلقّي كلام هذا الرجل — الذي نسف « الجبهة الشعبية » — على انه منّ من السماء. وفكر : « ان ذلك يمنحه اهمية لا يستحقها » . والتفت الى جهاز الراديو ، وتثاءب علانية .

كان الجو حاراً ويدعو الى العطش ، وكان ثمة ثلاثة ينامون : الاثنان القريبان من الممر ، والعجوز القصير الذي كان يبدو وكأنه يصلّي وهو مضموم اليدين . وكان الاربعة الآخرون قد بسطوا منديلا على ركبهم يلعبون الورق . كانوا في سن الشباب ، ولم يكونوا بشعين اكثر مما ينبغي ، وكانوا قد علقوا بالشباك ستراتهم التي كانت تتأرجح خلف

رقابهم وتناثر شعرهم احياناً ؛ وبين فترة وفترة ، كان ماتيو ينظر من زاوية عينه الى ساعـــدي جاره الاسمرين المجعدين ، وهو قصير اشقر كانت يداه بأظافرها العريضة السوداء تتلاعبان بالورق في مهارة . كان عامل مطبعة ، اما الشخص الذي كان الى جانبه ، فهو صانع أقفال ؛ واما الآخران الجالسان قبـــالته ، فقد كان احدهما ، وهو الأقرب الى ماتيو، وكيل شركة،وكان الآخر عازف كمان في مقهى في «بواكولومب»، وكانت تنبعث من الحافلة رائحة الرجال والتبغ والخمر ، وكان العرق يسيل على وجوههم القاسية ، فيصفرها ويجعلها تلتمع . وكان هذا العرق، على ذقن العجوز القصير المترنح ، بين عروق خدّيه الصلبة البيضاء ، يبدو اوفر زيتاً وحموضة : افرازاً من الوجه ؛ وكان فيما وراء النافذة ، سهل رمادي منبسط يتمطى تحت شمس غائمة ؛

ولم يكن عامل المطبعة محظوظاً ، كان يخسر ، وكان ينحني فوق الورق وهو يقوّس حاجبيه في هيئة مندهشة مصدومة ، وكان يقول :

– آه ! عجيب !

ولمّ الوكيل الورق بخفّة وخلطه ؛ وكان عامل المطبعة يتبعه بنظره حين كان ينقله من يدٍ الى اخرى ؛ وقال في حقد :

– لا حظّ لي !

ولعبوا في صمت ؛ وبعد لحظة ، جمع عامل المطبعة كل ما كان امامهم قائلاً في لهجة انتصار :

– « أتو » ! آه ، سيتغير الوضع قليلاً ، ايها الاولاد ! وقد تثور أعصابي قليلاً.

ولكنّ الوكيل بسط اوراقه : « أتو ، اتو ، وراتاتو ؛ لا مشاكل بعد : الملكة الأم لا تريد المشاكل » ؟

فدفع عامل المطبعة اوراقه قائلاً :

– انني لن ألعب بعد : فانا أخسر اكثر مما ينبغي ؛

قال صانع الأقفال : — انت على حق ، ثم ان المرء ينزعج اكثر مما ينبغي .

وطوى الوكيل المنديل ووضعه في جيبه . وكان رجلا طويلا سميناً ذا سحنة ممتقعة ، ورأس ضفدعي رخو ، وفكين عريضين ، وجبين ضيق . كان الثلاثة الآخرون يحدثونه بلهجة الاحترام لأنه كان متعلماً وكان رقيباً في الجيش . ولكنه كان هو يحدثهم بلا كلفة . وقد ألقى نظرة استياء الى ماتيو ونهض وهو يترنح :

— اريد ان اشرب جرعة .

— هذه فكرة طيبة .

وأخرج صانع الاقفال وعامل المطبعة زجاجات من قربتيهما ، فكرع صانع الاقفال من زجاجته كرعاً ومدها الى عازف الكمان :

— جرعة خمر ؟

— ليس الآن .

— انت لا تعرف ما هو جيد .

وصمتوا ، مرهقين بالحر . ونفخ صانع الاقفال خديه وتنهد على مهل ، واشعل الوكيل سيجارة هاي لايف . وكان ماتيو يفكر : «انهم لا يحبونني ، فهم يجدونني متكبراً » . ومع ذلك ، فقد احس نفسه مجذوباً نحوهم ، حتى نحو النائمين ، وحتى نحو الوكيل : كانوا يتثاءبون، وينامون ، ويلعبون الورق ، وكان الارتجاج يمايل رؤوسهم الفارغة ، ولكن كان لهم قدر ، كالملوك وكالأموات . قدر ساحق كان يمتزج مع الحر والتعب وطنين الذباب : كانت الحافلة المقفلة كالمختنق ، والمحاصرة بالشمس والسرعة ، تحملهم وهي تترجح الى المغامرة نفسها. وكان التماع من ضوء يطرز اذن عامل المطبعة القرمزية، فكانت شحمتها تشبه حبة فريز دموية ، وفكر ماتيو : « بمثل هذا تصنع الحروب » . وكانت قد بدت له حتى ذلك الحين خليطاً متشابكاً من الفولاذ الملتوي،

والاعمدة المحطّمة ، والصلب والحجارة . اما الآن فقد كان الدم يرتجف في أشعة الشمس ، وكان إشراق أحمر قد غمر القاطرة : ان الحرب كانت قدَراً من دم ، انها ستصنع بدم هؤلاء الرجال الستة ، بالدم الذي كان يأسن في شحمات آذانهم ، بالدم الذي كان يجري أزرق تحت جلودهم ، بدم شفاههم . إنهم سوف يُشقَّون كالقِرَب ، فتثب جميع القذارات الى الخارج ، وأمعاء صانع الاقفال الماجنة والتي كانت تقرقر وتترك أحياناً ضرطةً صمّاء ، سوف ترتمي في الغبار ، فاجعةً كأمعاء حصانٍ بُقِرَ في الحلبة .

قال عامل المطبعة كأنما يحدث نفسه : انني سأتمشّى قليلا لأزيل تخدّر ساقيّ .

ونظر اليه ماتيو وهو ينهض ويخرج الى الممر : لقد أصبحت هذه العبارة تاريخية منذ تلك اللحظة . فلقد نطق بها ميّت بصوت منخفض ، في يوم صيف ، اذ كان حياً . ميت او ما يؤدي الى النتيجة نفسها حيٌ بين الاموات . اموات – اموات انتهوا . من اجل هــذا ، لا أجد ما أقوله لهم . كان ينظر اليهم في نوع من الدوار ، وقد كان يود لو يكون منخرطاً في المغامرة التاريخية الكبيرة ، ولكنه كان منفياً عنها . كان يُنتِن في حرارتهم ، وسينزف دماً على الدروب نفسها ، وهو مع ذلك لم يكن معهم ، انه لم يكن الا هالةً ممتقعة وخالدة : انه لم يكن له قدَر .

والتفت عامل المطبعة اليهم فجأة ، وكان يدخّن في الممر :

– هناك طائرات .

– آه ؟

وانحنى الوكيل . وكان صدره يلامس ساقيــه الضخمتين ، وكان يرفع رأسه وحاجبيه .

– اين ذلك ؟

— هناك ، هناك ! خراء !

قال صانع الاقفال : — اني ... آه ! ولكن ، عجباً !

وسأل عازف الكمان وهو يرفع نحو عامـــل المطبعة عينيه الجميلتين الشاردتين :

— أهي طائرات فرنسية ؟

— انها مرتفعة اكثر مما ينبغي ، فهي لا تُرى .

قال صانع الاقفال : — لا شك في أنها فرنسية . ماذا تريدها ان تكون ؟ ان الحرب لم تعلن .

ومال عامل المطبعة عليهم وهو يستند بكلتا يديه على إطار الباب .

— ما يدريك ؟ لقد انقضت احدى عشرة ساعة وانت في القطار . ربما كنت تظن انهم ينتظرون وصولك حتى يعلنوها ؟

فبدا صانع الاقفال مرتبكاً ، وقال :

— خراء ! انك على حق ، ايها الحصان الصغير ! ما رأي الاخوان: ربما كنّا في حرب منذ هذا الصباح .

والتفتوا الى الوكيل :

— ما رأيك انت ؟ أتظن اننا في حرب ؟

وكان الوكيل في هيئة مطمئنة . وقد هزّ كتفيه بروحة وقال :

— ماذا تراكم تتخيّلون ؟ انهم سيقاتلون من اجل تشيكوسلوفاكيا ؟ هل نظرتم الى تشيكوسلوفاكيـــا على خارطة ؟ كلا ، اما انا ، فقد نظرت اليها . واكثر من مرة . ان هذا خراء . وهو كبير كمنديل جيب . ربما كان هناك مليونا رجل مسكين لا يتكلمون حتى اللغة نفسها . اتعتقدون ان هتلر تهمه تشيكوسلوفاكيا ؟ ودلادييه ؟ ان دلادييه ليس هو قبل كل شيء دلادييه : بل هو المثنا أسرة . والمثنا اسرة تمسح مؤخراتها بتشيكوسلوفاكيا .

واجال نظره في مستمعيه وانتهى قائلا :

ـ الحقيقة ان الامر كان يتحرك عندنا وعندهم منذ عام ٣٦ . فماذا فعل أمثال شمبرلن وهتلر ودلادييه ؟ لقد قالوا لانفسهم : سنغلق عليهم، هؤلاء الناس ، ووقعوا معاهدة صغيرة خفية . وكانت عملية هتلر الكبرى هي ان يحشر العمال تحت العلم اذا احتجوا ، وبذلك تخاط افواههم ، هل تحتج ؟ اذن ساعتا تمرين . ما تزال تحتج ؟ خذ ست ساعات اذن. وبعد ذلك ، يكون الفتية راكعين على ركبهم ، ولا يفكرون بعد الا بأن يطيعوا ، حسناً ، اما باقي الوزراء فقالوا في انفسهم : سنفعل مثله. فالامر هو : ليس هناك من حرب ، اكثر مما هناك من زبدة على المؤخرات . لا من اجل تشيكوسلوفاكيا ، ولا من أجل التركي الكبير. غير اننا نحن قد جندنا ، وسوف نجرجر انفسنا ثلاثة اعوام او اربعة، وفي هذه الاثناء ، سوف يحطمون في الخلف اضلاع البروليتاريا .

كانوا ينظرون اليه نظرة غير يقينية ، انهم لم يكونوا مقتنعين ، او ربما كانوا لم يفهموا . وقال صانع الاقفال بلهجة مبهمة :

ـ ان ما هو مؤكد هو ان الكبــار هم الذين يحطمون الاقداح ، وان الصغار هم الذين يدفعون ثمنها .

وهز عازف الكمان رأسه إيماءة الموافقة ، ثم سقطوا في الصمت من جديد ، وانفتل عامل المطبعة فألصق جبينه على احدى مرايا الممر الكبرى. وقال ماتيو في نفسه : « طبعاً ، ليسوا هم متحمسين جداً للقتال » . وكان يفكر برجال الـ ١٤ بأفواههم الفاغرة وبنادقهم المزدهرة . وبعد ذلك ؟ ان هؤلاء هم على حق . انهم يتكلمون بالامثال ولكن الكلام يخونهم ، ففي رؤوسهم اشياء لا يمكن التعبير عنها بالكلام . لقد قام آباؤهم بمذبحة لا معقولة ، وها قد مرّت عشرون عاماً وهنــاك من يشرح لهم ان الحرب لا تفيد . فهل يراد بهم ، بعد هذا ، ان يصرخوا: الى برلين ! الواقع ان كل ما كانوا يقولونه ، وكل ما كانوا يفكرون به لا اهمية له : انها النأمات صغيرة خفيفة على هامش قدرهم . سوف

يقال عما قريب : جنود الـ ٣٨ ـ كما كان يقال ؟ جنود العام II ، وجنــود الـ ١٤ . سوف يحفرون حفرهم كالآخرين ، لا احسن ولا أسوأ ، ثم يناموون فيها ، لان ذلك كان نصيبهم . وفكر فجأة : «وانت؟ أنت الذي تجعل نفسك شاهدهم ، من غير ان يطلب اليك احد ذلك، من انت ؟ وماذا ستفعل ؟ واذا نجوت من ذلك ، فمن عساك تكون ؟

ودقّ عامل المطبعة على الزجاج :

ـ انها ما تزال هنا .

فسأله عازف الكمان منتفضاً :

ـ من هي ؟

ـ الطائرات : انها تطوف حول القطار .

ـ تطوف ؟

ـ انني اراها .

قال صانع الاقفال : ـ عجيب ! عجيب !

وكان العجوز القصير قد افاق ، فسأل وهو يكوّر يده على اذنه :

ـ ماذا هناك ؟

ـ طائرات.

ـ آه ! طائرات !

فابتسم للملائكة وعاد الى النوم . وقال عامل المطبعة :

ـ تعالوا ! تعالوا ! ربما كانت ثلاثين طائرة . انني لم ار مثل عددها منذ « فيلاكوبلي » .

وكان صانع الاقفال والوكيل قد نهضا ، فتبعهما ماتيو الى الممر : ورأى زهــاء عشرين حشرة شفافة ، سمكت في ماء السماء . وكانت تبدو وكأنها توجــد بالتقطع : فقد كانت تمحي حين لا تكون في الشمس .

ـ واذا كانت ألمانية ؟

ـ لا تتحدث عن المصائب ، اذن سنكون في وضع لطيف ، فانت تتحدث عن مرمى .

وكان عدد الاشخاص الذين تجمعوا في الممر قد اصبح زهاء عشرين، وانوفهم في الهواء .

وقال الوكيل :

ـ يبدو لي ان الأمر جدّ .

وكان يبدو انهم ثائرو الأعصاب . وكان ثمـة شخص يطبّل على الزجاج ، وكان ثمة آخر يضرب بقدمه في إيقاع . وانعطف سرب الطائرات واختفى فوق القطار .

وقال صوت : ـ اوف !

قال عامل المطبعة : ـ انتظروا ، انتظروا ! لقد سبق ان فعلت ذلك ، واؤكد لكم انها تطوف حول القطار .

ـ ها هي ذي ! ها هي ذي !

وكان رجل طويل ذو شارب قد اخفض زجاجاً وانحنى بالمقلوب ، عبر الباب . كانت الطائرات قد ظهرت مرة اخرى ، وكانت احداها تترك خلفها خطّاً ابيض .

قال صاحب الشارب وهو يستقيم :

ـ انها طائرات المانية .

وانتصب عازف الكمان فجأة خلف ماتيو ، وأخذ يهزّ النائميْن ، ففتح احدهما عينين ورديتين وسأل باسترخاء :

ـ ماذا هناك ؟

قال عازف الكمان : ـ لقد أُعلنت الحرب . وستنفجر الامور : ان فوق القطار طائرات المانية .

شدّت لولا بعصبية على معصم بوريس وقالت :

ـ اسمع ، اسمع !

كان جاك قد امتقع وقال :

— اسمعي ، سوف يتكلم .

وكان صوتاً بطيئاً ، منخفضاً ، أصمّ ، يخنّ قليلا :

« كنت قد اعلنت انني سأصدر هذا المساء بلاغاً للسكان عن الوضع العالمي ، ولكني فوجئت بعد ظهر هذا اليوم بدعوة من الحكومة الالمانية للاجتماع غداً في ميونيخ مع المستشار هتلر والسيدين موسوليني وشمبرلن. وقد قبلت هذه الدعوة .

« وانكم لتدركون ، في عشية مفاوضات هامة كهذه ، لماذا يجب علي ان ارجيء الايضاحات التي كنت اود ان أعطيكم اياها . ولكن قبل سفري،أحرص على ان اقدّم لشعب فرنسا شكري لموقفه المليء بالشجاعة والكرامة .

« واحرص خصوصاً على شكر الفرنسيين الذين دُعوا لخدمة العلم على رباطة الجأش والتصميم اللذين دلّلا عليهما من جديد .

« ان مهمّتي قاسية . ومنذ بدء المصاعب التي نجتازها ، لم اكفّ عن العمل بكل قواي من أجل الحفاظ على السلام وعلى مصالح فرنسا الحيوية . وسأتابع غداً هذا الجهد وانا واثق بانني متفق تمام الانفاق مع الامة » .

قالت لولا : — بوريس ! بوريس !

فلم يجب ، فقالت له :

— افق يا حبيبي ، فماذا دهاك ؟ انه السلام : سيعقد مؤتمر عالمي .

وكانت تستدير نحوه محمّرة مهتاجة . فتمتم على مهل بين اسنانه :

— دين ملعون ! دين ملعون في ماخور خراء !

فسقط فرح لولا :

— ولكن ما بك يا حبيبي : انك مخضرّ .

قال بوريس : — لقد تطوّعت لمدة ثلاثة اعوام .

كان القطار يسير ، والطائرات تدور . وصرخ رجل :

ـ ان السائق مجنون . فماذا ينتظر ليتوقف ؟ انهم إذا اخذوا يرمون قنابلهم ، متنا كالحيوانات .

وكان عامل المطبعة ممتقعاً هادئاً ، وكان يحتفظ برأسه مرفوعاً ولا يكف عن ترصّد الطائرات . وقال بين اسنانه :

ـ يجب ان نقفز .

قال الوكيل : ـ خراء خراء ! نقفز بهذه السرعة ، انني لا اجرؤ . (وأخرج منديله فمسح جبينه) الأفضل ان نشدّ على اشارة الخطر .

وتبادل عامل المطبعة وصانع الاقفال النظر ، فقال عامل المطبعة :

ـ افعل ذلك ، انت .

ـ ولكن اسمع : اذا كانت طائرات فرنسية ، فماذا يحدث لنا ؟

وتلقّى ماتيو صدمة في ظهره : كان رجل ضخم يعدو نحوهم وهو يصرخ :

ـ إن القطار يبطيء : الجميع على الابواب !

والتفت عامل المطبعة الى الوكيل ، وكان يأتي بحركات غريبة مرتبكة ، وبسم بسمة صغيرة تكشف عن اسنانه . وقال وهو يقلد الوكيل :

ـ انت ترى ، ان القطار يبطيء في سيره : فهي طائرات المانية . ان هذا لا فائدة منه ، هذا لا فائدة منه !

فقال الآخر برخاوة : ـ انني لم اقل هذا ، بل قلت ...

فأولاه عامل المطبعة ظهره واتجه الى مقدمة القطار . وكان الناس يخرجون من جميع الحافلات ويتزاحمون في الممرات ليكونوا اول من يقفز الى الحقول . ولامس احدهم ذراع ماتيو ، وكان هو العجوز القصير ، وكان يرفع رأسه نحوه ويتأمله في قلق .

ـ ماذا هناك ؟ ماذا هناك ؟

قال ماتيو متزعجاً : ـ لا شيء . عُدْ الى النوم .

واطل من النافذة . وكان شخصان قد هبطا على درجة القاطرة ، ووثب احدهما وهو يصرخ ، فلامس الارض ، وقام بخطوتين جانبيتين ، وهو مأخوذ بسرعـة ، فصدم بكفه عموداً تلغرافياً ، وتدحرج على الاكمة ، ورأسه الى الامام ، وكان القطار قد تجاوزه . وأدار ماتيو رأسه ، فرآه ينهض من جديد ، فيبدو صغيراً ، ويرفع ذراعيه في الهواء ويعدو عبر الحقول . اما الآخر ، فكان متردداً وهو منحنٍ الى أمام ، وكان يتماسك بيدٍ عند القضيب النحاسي .

وقال صوت مخنوق : — بربكم لا تدفعوا ! اننا نختنق .

واستمر القطـار في تمهله ، وكان ثمة رؤوس مطلة من جميع النوافذ ، وحول الدرجات ،كان ثمة رجال يتأهبون للقفز . وعند المنعطف ، ظهرت محطة ، وكانت على بعد ثلاثمئة متر . ولمح ماتيو مدينة صغيرة في البعيد . وقفز رجلان آخران فتجاوزا طريقاً هناك . وكان القطار قد دخل المحطة ، وفكر ماتيو : « بمثل هؤلاء ، سيصنعون ابطالا » .

وكان ضجيج عظيم يصدر عن المحطة ، وكانت اثواب مشرقة تتلألأ في الشمس ، وترتفع ايدٍ ترتدي قفازات من الخيوط البيضاء ، وكان ثمة فتيات فارعات ذوات قبعات من قش يلوّحن بمناديلهن ، واولاد يركضون ضاحكين صائحين على طول المحطة . ودفع عازف الكمان ماتيو بعنف وانحنى من النافذة حتى البطن . ثم وضع يديه بشكل بوقٍ حول فمه وصاح في الجمع :

— توقفوا ! توقفوا ! الطائرات !

وكان رجال المحطة ينظرون اليه من غير ان يفهموا . ورفع ذراعه فوق رأسه وأومأ باصبعه الى السماء . فأجابه صراخ عظيم ، ولم يسمع ماتيو باديء الأمر شيئاً ، ثم فهم فجأة :

— السلام ! انه السلام ! ايها الناس !

ورعد القطار برمته :

– الطائرات ! الطائرات !

فكانت الفتيات يصرخن :

– هوراه ! هوراه !

وانتهى الامر بهن الى رفع ابصارهن نحو السماء ، واخذن يلوحن بمناديلهن تحية للطائرات . وكان الوكيل يقرض اظافره بأعصاب ثائرة ويتمتم :

– انني لا افهم ، انني لا افهم !

وبعد طقتين او ثلاث ، توقف القطار تماماً . وصعد موظف في المحطة على مقعد ، وتحت ذراعه علم احمر ، فصاح :

– السلام ! مؤتمر في ميونيخ . دلادييه يسافر هذا المساء .

ويظل القطار صامتاً ، جامداً ، غير متفهم . ثم اخذ فجأة يهدر :

– هوراه ! ليعش دلادييه ! ليعش السلام !

واختفت اثواب الفتيات الزرقاء والوردية في مدّ من السترات السمراء والسوداء ، واضطرب الجمع وضجّ ، كاوراق شجر كثيفة ، وكانت اشراقات من الشمس تتلألأ في كل مكان ، وكانت القبعات القشية تدور وتدور ، فكأنها في رقصة فالس . وراقص جاك اوديت رقصة فالس في وسط الصالون ، وكانت السيدة بيرنانشاتز تضم ايلا الى صدرها وتئن قائلة :

– انني سعيدة يا ايلا ، يا صغيرتي ، يا ابنتي ، انني سعيدة .

وتحت النافذة وثب فتى احمر الوجه ، يضحك كأنه مجنون ، على فلاحة فقبلها من وجنتيها . وكانت هي ايضاً تضحك ، مبعثرة الشعر ، وقد ارتدت قبعتها الى خلف ، وكانت تصرخ : « هوراه ! » تحت القبلات . وقبّل جاك اوديت في اذنها ، وكان منتشياً :

– السلام . وتأكدي انهم لن يكتفوا بتسوية قضية السوديت . الحلف الرباعي . كان ينبغي البدء من هنا .

وشقت الخادم الباب :

– هل استطيع يا سيدتي ان اقدّم الطعام ؟

قال جاك : – طبعاً ، قدّميه ، قدّميه ! ثم اهبطي الى القبـو هاجلبي زجاجة شمبانيا وزجاجة شمبرتان .

وكان عجوز طويل ذو نظارات سوداء قد جلس على مقعد ، وهو يرفع باحدى يديه زجاجة خمر ، وبالاخرى قدحاً .

– قدح خمر ايها الاخوان ، قدح خمر ، نخب السلام ؟

فصاح صانع الاقفال : – هنا ، هنا ! ليعش السلام !

– آه ! يا سيدي الأب ! انني أقبّلك !

وتراجـع الكاهن ، ولكن العجـوز ادركته بسرعة ، وفعلت كما قالت ، وغمس غريسبيه المغرفة في اناء الحساء : « آه ! يا اولادي ! يا اولادي . انها نهاية كابوس » : وفتحت زيزيت الباب : « هذا صحيح اذن ، يا مدام ايزيدور ؟ » « نعم يا صغيرتي ، صحيح ، لقد سمعته ،وأذاعه الراديو ،ان حبيبك مومو سيعود ،وقد سبق ان قلت لك إن الرب الرحيم لا يريد ذلك » . كان يرقص في محله ، فقد غروره ، فقد غروره ،لقد فقد هتلر غروره ، بل انا اعتقد اننا نحن الذين فقدنا غرورنا ، ولكن كم انا انأرجح منذ علمت ان القتال لن يقع ، ولكن لا ، ولكن لا ، لقد تنبّهت ، فاشتريت كل شيء في الساعة الثانية ، وكلفني ذلك مثتي ورقة مالية ، اسمعني جيداً يا صديقي ، ان هـذه مناسبة استثـ ـنا ـ ئية ، فللمرة الاولى ، تستبعد ارادة اربعة رؤساء دول حرباً كانت تبدو لا مفر منها ، فتتجاوز أهمية قرارهم الساعة الراهنة : ان الحرب هي الآن غير ممكنة اطلاقاً ، وميونيخ هي اول تصريح للسلم ، يا إلٰهي ، يا إلٰهي ، لقد صليّت وصليّت ، فقلت : « يا إلٰهي ، خذ قلبي ، خذ حياتي » . وقد استجبت دعائي يا إلٰهي ، فانت الأكبر ، وأنت الأحكم ، وانت الأرقّ . » وتخلّص الأب ، ولكني

قلت لك ذلك دائماً يا سيدتي : ان الله رائع : وطن في التشيكيين ، ليتدبّروا أمرهم وخدمهم ، كانت زيزيت تمشي في الشارع ، كانت زيزيت تغني ، جميع العصافير في قلبي ، كان للناس رؤوس طيبة باسمة ، وكانوا يقولون فيما بينهم « مرحباً » من زاوية العين ، وحتى ولو كانوا لا يعرف بعضهم بعضاً . كانوا يعرفون ، كانت تعرف ، كانوا يعرفون أنها كانت تعرف ، وكان الجميع يفكرون بالشيء نفسه ، وكان الجميع سعداء ، فلم يكن ثمة مناص من ان نفعل كما يفعل الجميع ، يا للمساء الجميل . وتلك المرأة التي كانت تمر ، انني اقرأ حتى اعماق فؤادها ، وهذا السرير الطيب القديم في قلبي ، منفتحة كل الانفتاح للجميع ، فالجميع ليسوا الا واحداً ، واخذت تبكي ، كان الجميع متحابين ، وكان الجميع سعداء ، وكان الجميع كالجميع ، ولا بد ان مومو هنـــاك مسرور بالرغم من كل شيء ، كانت تبكي ، وكان الجميع ينظرون اليها ، وكان هذا يبعث الحرارة في ظهرها ، وفي صدرها ، جميع هذه الانظار ، وكانت تزداد بكاءً ما ازدادوا نظراً اليها ، وكانت تستشعر الاعتزاز والشهرة كأم ترضع طفلها.

قال جاك : — ولكنك تشربينه صرفاً !

وكانت اوديت تضحك وحيدة . وقالت :

— اظن انهم سوف يسرّحون الآن الاحتياطيين ؟

قال جاك : — من الآن حتى خمسة عشر يوماً ، أو شهر ؛

وضحكت ايضاً وشربت جرعة خمر . ثم طفر الدم فجـــأة الى خدّيها ، فسألها جاك :

— ما بك ؟ لقد احمرّ وجهك تماماً .

قالت : — لا شيء . كل ما في الامر اني شربت اكثر قليلاً مما ينبغي ؛

لم اكن لأقبّله قط لو كنت أعرف انه سيعود بهذه السرعة ؛

– اصعدوا ! اصعدوا !

وكان القطار يتحرك ببطء ، واخذ الناس يركضون وهم يصرخون ويضحكون ، وكانوا يتعلقون عناقيد بالدرجات . وظهر على النافذة وجه صانع الاقفال يقطر عرقاً ، وكان متشبثاً بالحاجز بكلتا يديه ، وقال :

– يا إلهي ، ساعدوني بسرعة ، سوف افلت .

فرفعه مانيو ، فتجاوز النافذة ووثب في الممر ، وقال وهو يمسح جبينه :

– اوف ، حسبت انني سأترك ساقيّ تحت !

وظهر عازف الكمان بدوره .

– حسناً ، لقد اكتمل العدد .

– هل نلعب الورق ؟

– أحبذ ذلك .

ودخلوا الى الحافلة ، وكان مانيو ينظر اليهم عبر الزجاج . وبدأوا يتبادلون شرب جرعات صغيرة ، ثم اخرج الوكيل منديله ، فبسطره على رُكبهم :

– انت تُعطي .

فضرط صانع الاقفال وقال :

– اوه ! يا للزرقاء الجميلة (وأشار الى صاروخ وهمي في السقف)

فقال عامل المطبعة بفرح : – يا للممحون !

وفكر مانيو : « ماذا يفعلون هنا ؟ وانا ماذا أصنع ؟ » كان قدرهم قد تلاشى، وكان الزمن قد عاد يجري على هينة، من غير هدف، كان القطار يسير بلا هدف ، بدافع العادة ، وبمحاذاة القطار كانت ثمة طريق عائمة جامدة : انها الآن لا تفضي الى ايّ مكان ، وهي ليست بعد الا ارضاً معبدة . وكانت الطائرات قد اختفت. سماء صفراء

كان السلام يستيقظ فيها مع المساء على مهل ، ريف مخدّر ، لاعبو ورق ، نائمون ، زجاجة مكسورة في الممر ، اعقاب سجاير في مستنقع من الخمر ، رائحة بول قوية ، جميع هذه البقايا التي لا مبرّر لها.
وفكر ماتيو : « لكأننا في اعقاب عيد » وكان منقبض القلب.

كانت دوس ومود وروبي يصعدن الى « الكانوبير » وكانت دوس منتعشة جداً : فقد كانت تميل دائماً الى السياسة . وأوضحت :

– يبدو أنه كان ثمة سوء تفاهم . كان هتلر يظن ان شمبرلن ودلادييه يريدان به شراً ، وفي هذه الاثناء ، كان شمبرلن ودلادييه يظنّان انه كان ينوي مهاجمتهما . فذهب موسوليني اليهما ، وافهمهما انهما على خطأ. وقد سُوّي الآن كل شيء : انهم غداً يتناولون الغداء معاً .

وتنهدت روبي : – يا له من غداء لذيذ !

وكانت « الكانوبير » تبـــدو في حالة عيد ، كان الناس يسيرون بخطى صغيرة ، وكان فيهم من يضحك وحده . وكانت مود متشائمة. صحيح انها كانت مسرورةً ان يُسوّى كل شيء ، ولكنهـــا كانت تُسرّ خصوصاً من اجل الآخرين . ومهما يكن من أمر ، فعليها ان تقضي بعد ليلةً في غرفتها المنتنة في فندق « جنيافر » ، ثم تأتي بعد ذلك المحطـــات والقطارات وباريس والبطالة والمطاعم الحقيرة واوجاع المعدة : ان مؤتمر ميونيخ ، مهما كانت نتيجته ، لن يغيّر في الامر شيئاً . كانت تستشعر الوحدة . واذ مرّت امام مقهى « ريش » ، انتفضت ، فسألتها روبي :

– ما بك ؟

فأجابت مود : – هذا بيار . لا تنظري . انه امام الطاولة الثالثة، الى الشمال . هنا ، انتهى الامر : لقد رآنا .

ونهض ، وكان يشعّ في بذلته الكتّانية ، وكان في مظهره الأرجل والاغنى . وفكرت : « طبعاً ، الآن ليس من خطر بعد » . وحاولت،

فيما هو مقبل عليها ، ان تتذكر وجهه الأخضر في تلك الغرفة التي كانت تنبعث منها في الباخرة رائحة القيء . ولكن الرائحة والوجه كانا قد كنسا بريح البحر . وحياها ، وكان يبدو واثقاً من نفسه كل الثقة ؛ وكانت تريد ان توليه ظهرها ، ولكن ساقيها المترنحتين حملتاها اليه بالرغم منها . وقال لها باسماً .

ـ اذن ، هكذا نفترق ، حتى من غير ان نأخذ شيئاً ؟

ونظر اليها مواجهة ، فقالت في نفسها : انه جبان . ولكن ذلك لم يكن ليُرى . كانت ترى شفتين ساخرتين جسورين ، وخدّين رجوليين ، وتلك الحنجرة البارزة .

وتمتم : ــ تعالي . ان ذلك كله حكاية قديمة .

وفكرت في غرفتها بالفندق التي كانت تنبعث منها رائحة الامونياك ، فقالت :

ـ يجب ان تدعو دوس وروبي :

فتقدم نحوهما وابتسم لهما ، وكانت روبي تحبه كثيراً لانه كان متميزاً . وجلست ثلاث زهرات حول طاولة على سطيحة مقهى « ريش » . كانت حديقة زهور ، زهور ، ووجوه مشمسة ضاجّة ، واعلام ، ونوافير ماء ، وشموس ؛ وخفضت جفنيها وتنفست بعمق : بين هذه الأعين ، كانت شمس تدور ، ليس لنا الحق بأن ندين رجلاً يحس بدوار البحر ، من اجلها ايضاً ، كان ذلك السلام .

« لماذا لا يحبونني ؟ » كان وحده في القاعة الرمادية ، وكان منحنياً الى امام ، ومرفقاه على فخذيه ، ممسكاً رأسه الثقيل بين يديه ؛ وكان قد وضع بالقرب منه ، على المقعد ، الفطائر وركوة القهوة التي كان الشرطي قد جاءه بها ظهراً ، ما جدوى الأكل ؟ لقد انتهى امره ؛ يودّون ان يجندوه بالإكراه ، وسوف يرفض ، وستكون ثمة المشنقة ، او على الاقل ، عشرون عاماً في الزنزانة ، كانت حياته تقف هنا ،

كان ينظر اليها في دهشة عميقة : كانت مشروعاً فاشلا من اولها الى آخرها . وكانت افكاره تسيل ذات اليمين وذات الشمال ، مائعة غير ذات لون ، بيد ان فكرة واحدة كانت تظل ثابتة ، سؤالا لا يحتمل جواباً : لماذا لا يحبونني ؟ وحدثت في القاعة المجاورة انفجارات ضحك كبيرة ، لقد كان رجال الشرطة في جذل . وصاح صوت عريض :

– هذا جدير بان يُشرب نخبه !

ربما كان هناك شرطة يتحابون فيما بينهم ، ثم الناس ، في الخارج ، في الشوارع والبيوت ، كانوا يتبادلون البسمات ، ويعاون بعضهم بعضاً، ويتحادثون في اعتبار ومجاملة ، وكان بينهم من يتبادلون الحب بكل قواهم ، كريزيت وموريش . ربما كان ذلك لانهم كانوا اكبر سناً : فقد اتيح لهم ان يتآلفوا فيما بينهم . اما الشاب ، فهو مسافر يدخل ليلا الى حافلة نصف ممتلئة : ان الناس يحتقرونه ويتآمرون لحمله على الاعتقاد بأنه ليس ثمة بعد من مكان.مع ذلك ، فان مكاني كان مسجلا، ما دمت قد وُلدت . وإلا فاني قد تعفنت . وعاد الشرطة يضحكون ، خلف البـــاب ، ولفظ احدهم كلمة « ميونيخ » . الشوارع والبيوت والقاطرات ومفوضية الشرطة : عالم غاصّ الى حد الانفجار ، عالم الناس ، ان فيليب لم يكن يستطيع ان يدخله . سوف يبقى طوال حياته في زنزانة كهذه ، الحُجر الذي يحفظه الناس لمن لا يريدونهم ، ورأى امرأة صغيرة سمينة ضاحكة ، ذات ذراعين ملساوين ، البغيّ . وفكر : « مهما يكن من امر ، فسوف تحـــدّ عليّ » . وفتح الباب ، ودخل الجنرال . وتراجع فيليب على المقعد حتى الزاوية المظلمة ، وصاح :

– دعني ، اريد ان انال عقابي ، ولست بحاجة الى حمايتك .

فانفجر الجنرال ضاحكاً ، وعبر القاعة بخطوته الجافة السريعة وجاء يتزرع امام فيلب :

– تنال عقابك ؟ من تظن نفسك ايها الأبله الصغير ؟

المرفق : نهض المرفق بالرغم من فيليب ، ووقف امام خــده ، مستعداً لتفادي الصفعات . ولكن فيليب اخفضه وقال بصوت حازم :

ـ انني فراري .

ـ فراري ! ان هتلر ودلاديه سيوقعان غداً اتفاقاً ، يا صديقي العزيز : فلن تكون ثمة حرب ، ولم تكن قط فرارياً .

وكان يتأمل فيليب في سخرية مهينة .

ـ ان على المرء ان يكون رجلا يا فيليب ، حتى من اجل ان يفعل الشر ، يجب عليه ان يتحلى بالارادة والتبعات . وانت لست الا صبياً عصبياً وسيء التربية ، انك لم تحترمني على الإطلاق ، واغرقت امك في قلق عنيف : هذا كل ما استطعت ان تفعله .

وكان رجال شرطة ضاحكون يمدّون رؤوسهم من فتحة الباب . ووثب فيليب على قدميه . ولكن الجنرال امسكه من كتفه وقسره على الجلوس .

ـ ما هذا ؟ سوف تستمع الي حتى النهاية . إن تصرفك المنحرف الاخير يدل على انك يجب ان تربى من جديد . وقد اقرت امك هذه اللحظة انها كانت مفرطة الضعف تجاهك . اما الآن ، فانا الذي سأتولى امرك .

وكان قد زاد قرباً من فيليب . ورفع فيليب مرفقه وصرخ :

ـ اذا لمستني قتلت نفسي .

قال الجنرال : ـ هذا ما سوف نراه .

واخفض له مرفقه بيده اليسرى ، وباليمنى صفعه مرتين . فانهار فيليب على المقعد وانخرط في البكاء .

كانت في الممر حركة صغيرة مرحة ،وكانت ثمة امرأة تغنّي «اذهب ايها الضعيف» . كان يكرههن جميعاً . انهن يحطمن رأسي . ودخلت الممرضة ، حاملة العشاء على صينية ، فقال :

ـ لست جائعاً .

ـ آه ! يجب ان تأكل يا سيد شارل ! والا زدت ضعفاً . ثم ها هي انباء طيبة تمنحك القابلية : لقد تجنبنا الحرب. ان شمبرلن ودلاديه سيقابلان هتلر .

فنظر اليها في ذهول : هذا صحيح ، ان قصتهم المتعلقة بالسوديت ما تزال تجرجر نفسها . وكانت محمرة بعض الشيء وعيناها تلتمعان :

ـ واذن : ألست مسروراً ؟

لقد جرّوني خارج بيتي ، وحملوني كرزمة ، وارهقوني ، وهم مع ذلك لا يتقاتلون. ولكنه لم يكن بعد قد غضب : فان ذلك كله أضحى بعيداً جداً . وقال :

ـ ماذا تريدين ان يُحدِث لي ذلك ؟

ليلة ٢٩ الى ٣٠ ايلول

الساعة ١٫٣٠ :

كان السيدان هوبرت مازاريك وماستني ، عضوا الوفد التشيكوسلوفاكي ، ينتظران في غرفة السير هوراس ويلسون بصحبة السيد اشتون ـ غواتكن . كان ماستني ممتقعاً ، وكان يرشح عرقاً ، وكانت تحت عينيه هالة سوداء . اما هوبرت مازاريك فكان يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وكان السيد اشتون ـ غواتكن جالساً على السرير ، وكانت ايفيش قد انزوت في جوف السرير ، ولم تكن تحس به ، ولكنها كانت تحس بحرارته وتسمع تنفّسه ، لم تكن تستطيع ان تنام ، وكانت تعلم انه هو ايضاً لم ينام . وكانت شحنات كهربائية تسري في ساقيها وفخذيها ، وكانت تموت رغبة في ان تنقلب على ظهرها ، ولكن اذا تحركت لمسته ، فما دام يظن انها كانت نائمة ، فسيدعها وشأنها . والتفت ماستني نحـــو اشتون ـ غواتكن وقال :

ـ لقد طال الامر .

فاتى السيد اشتون ـ غواتكن بحركة اعتذار ولامبالاة . وصعد الدم الى وجه مازاريك ، فقال بصوت اصمّ :

ـ ان المتهمين ينتظرون الحكم .

فلم يبد على السيد اشتون ـ غواتكن انه سمع ، وفكرت ايفيش :

« ترى ، الا ينقضي الليل ؟ » وأحست فجأة بلحم طري يلامس خاصرتها ، كان ينتهز نومها ليحتك بها ، فيجب الا تتحرك ، والا لاحظ اني مستيقظة . واندس اللحم بهدوء الى جانبها ، وكان محرقاً طرياً ، إنه ساق . وعضت بعنف على شفتها السفلى ، وتابع مازاريك:
– ولكي يكون الشبه كاملاً ، وضعوا في استقبالنا رجال الشرطة ؛
قال السيد أشتون – غواتكن وهو يتخذ مظهر الدهشة :
– ولكن كيف ؟
فأوضح ماستني :
– لقد أخذنا الى فندق « ريجينا » في سيارة للشرطة .
فقال السيد اشتون – غواتكن في توبيخ : « تس ، تس ، تس ! »
واصبحت الآن يداً ، وكانت تهبط على طول خاصرتيها ، خفيفة شبه شاردة ؛ ولامست الأصابع بطنها ، وفكرت : « ليس هذا شيئاً ، انها حشرة . وانا انام ، انام . أحلم ، ولن اتحرك . » وتناول مازاريك الخارطة التي كان السير هوراس ويلسون قد سلمه اياها . وكانت الاراضي التي ينبغي ان يحتلها الجيش الالماني فوراً مخططة بالأزرق . فنظر اليها لحظة ، ثم رماها على الطاولة في غضب ، وقال وهو ينظر الى السيد اشتون – غواتكن في عينيه :
– اني ... انني ما زلت غير فاهم: أترانا ما زلنا امة ذات سيادة؟
فهز السيد اشتون – غواتكن كتفيه ، وكان يبدو وكأنه يريد ان يقول انه لم يكن له دخل في القضية ؛ ولكن مازاريك فكر بأنه كان أشد انفعالا مما شاء ان يظهر . وقال ملاحظاً : – ان هذه المفاوضات مع هتلر صعبة جداً ، فخذا ذلك بعين الاعتبار .
فأجاب مازاريك بعنف :
– ان كل شيء يتوقف على حزم الدول الكبرى ؛
واحمر الانكليزي قليلاً ، فاستقام وقال بلهجة فخمة :

– اذا لم تقبلوا هذا الاتفاق ، فيجب ان تتدبروا الامر وحدكم مع المانيا (وتنحنح وأضاف بلهجة ألطف) وربما قال لكم الفرنسيون ذلك في مزيد من اللياقة . ولكن صدقني أنهم من رأينا . ففي حال الرفض ، سيكفّون عن الاهتمام بكم . »

فضحك مازاريك ضحكة استياء ، وصمتوا . وهمس صوت :

– هل تنامين ؟

فلم تجب ، ولكن سرعان ما احسّت فماً لدى اذنها ، ثم جسماً برمته يثقل بلصق جسمها . وتمتم :

– ايفيش ! ايفيش !

كان ينبغي الا تصرخ ولا تتخبط ، فانا لست فتاة تُغتصب . وانقلبت على ظهرها وقالت بصوت واضح :

– لا ، لا انام . وبعد ؟

قال : – أحبك .

قنبلة ! قنبلة ستسقط من علو خمسة آلاف متر فتقتلهم على الفور ! وفُتح باب فدخل السير هوراس وباسون ، وكانت عيناه خافضتين ؛ إنه منذ وصولهما يخفض عينيه ، وكان يحدثهما وهو مطرق الى الارض وكان لا بد ان يشعر بذلك ، بين الفينة والفينة : ويرفع رأسه فجأة ، ويُغرق في عيونهما نظراً فارغاً .

– ايها السادة ، اننا في انتظاركم .

فتبعه الرجال الثلاثة ، واجتازوا ممرات طويلة مقفرة . وكان خادم ينام على كرسي ، وكان الفندق يبدو ميتاً ؛ كان جسمه محرقاً ، واطبق صدره على نهدي ايفيش ، فسمعت صوتاً طرياً يشبه صوت المحجم ، وكانت غارقة في عرقها . وقالت :

– اذا كنت تحبني فابتعد عني . اني اشعر بحرّ لا يطاق .

قال السير هوراس ويلسون وهو يتنحّى: «هنا» : ولم يكن ليبتعد، بل نزع الغطاء بيد ، وكان يمسك باليد الاخرى كتفها بقوة ، ومـا لبث ان نام عليها وكان يعجن كتفيها وذراعيها بيديه العنيفتين ، يدي الفريسة ، فيما كان صوته الطفولي المبتهل يتمتم :

ـ احبك يا ايفيش ، حبيبتي ، احبك :

كانت قاعة صغيرة مضاءة بطريقة حيـة . وكان السادة شمبرلن ودالاديه وليجيه واقفين خلف طاولة محملة بالاوراق . وكانت المنافض ملأى بأعقاب السكاير ، ولكن الجميع كانوا قد كفوا عن التدخين : ووضع شمبرلن كلتا يديه على الطاولة ، وكان يبدو متعباً . وقال في بسمة ودية :

ـ ايها السادة :

فانحنى مازاريك وماستني من غير ان يتكلما : وابتعد اشتون ـ غوانكن عنها بسرعة ، كما لو انه لم يكن يستطيع بعد ان يحتمل صحبتها ، وذهب يقف خلف السيد شمبرلن مـع السير هوراس ويلسون . وكان امام الرجلين التشيكيين الآن خمسة رجال في الجهة المقابلة من الطاولة ؛ وخلفها كان الباب وممرات الفندق المقفرة . وحلت لحظة صمت ثقيلة . ولكن ليجيه كان يضع الوثائق في محفظة . وقال السيد شمبرلن :

ـ تفضلوا ايها السادة بالجلوس :

وجلس الفرنسيون والتشيكيون ، ولكن السيد شمبرلن ظلّ واقفاً ؛ وكانت عيناه ورديتين من النعاس : وقد تأمّل يديه في هيئة مترددة ثم استقام فجأة وقال :

ـ حسناً ... لقد وقّعت فرنسا وبريطانيا العظمى اتفاقاً يتعلق بالمطالب الالمانية في موضوع السوديت . ويمكن اعتبار هذا الاتفاق ، بفضل النية الحسنة لدى الجميع ، تقدماً محسوساً على مذكرة غودسبرغ :

وسعل وصمت : وكان مازاريك جالساً في اريكته جلسة صلبة ؛

كان ينتظر . وبدا على شمبرلن انه يريد الاستمرار ، ولكنه هدل ومدّ ماستني ورقة :

– هل تريد ان تطلع على هذا الاتفاق ؟ ربمـا كان الافضل ان تقرأه بصوت مرتفع .

فتناول ماستني الورقة ؛ ومر شخص مـا في الممر بخطىً خفيفة ، ثم ابتعد صوت القدمين . وبدأ ماستني يقرأ ، وكان له جرسٌ مخنٌ رتيب ؛ كان يقرأ ببطء ، كما لو انه كان يفكّر بعد كل عبارة ، وكانت الورقة ترتعش في يديه :

« ان الدول الكبرى : المانيا والمملكة المتحدة وفرنسا وايطاليـا قد اتفقت ، بعد ان اخذت بعين الاعتبار التسوية التي تمت مبدئيـاً بشأن التنازل لألمانيا عن اراضي المان السوديت ، عـلى الترتيبات والشروط التالية التي تنظّم هذا التنازل والتدابير التي يحتملها . وتتعهد كل دولة، في هذا الاتفاق ، بتحقيق الطلبات الضرورية لتأمين تنفيذه :

« ١ : يبدأ الجلاء في اول تشرين الأول ؛

« ٢ : اتفقت المملكة المتحدة وفرنسا وايطاليا على ضرورة انجـاز الجلاء عن الاراضي المذكورة في ١٠ تشرين الاول ، من غـير ان تُهدم اية انشاءات قائمة فيها . وتتحمل الحكومة التشيكوسلوفاكية مسؤولية اتمام هذا الجلاء من غير ان يلحق بهذه الانشاءات اي ضرر ؛

« ٣ : تحدّد شروط هذا الجلاء في تفاصيلها من قبل لجنة دولية مؤلفة من ممثلين عن المانيا والمملكة المتحدة وفرنسا وايطاليـــا وتشيكوسلوفاكيا :

« ٤ : تبدأ فرق الريخ بالاحتلال التدريجي للاراضي ذات الاغلبية الألمانية في اول تشرين الاول . والمناطق الاربع المشار اليها على الخارطة المرفقة تحتلها القوات الالمانية كما يلي :

« المنطقة الاولى ، يومي ١ و ٢ تشرين الاول .

« المنطقة الثانية ، يومي ٢ ، ٣ تشرين الاول :

« المنطقة الثالثة ، ايام ٣ و ٤ و ٥ تشرين الاول .
« المنطقة الرابعة ، يومي ٦ و ٧ تشرين الاول .
« اما سائر المناطق ذات الاغلبية الألمانية فستحددها اللجنة الدولية وتحتلها القوات الالمانية من الآن حتى العاشر من تشرين الاول »

كان الصوت الرتيب يرتفع في الصمت ، وسط المدينة النائمة . وكان يصطدم ويقف ثم ينطق من غير هوادة مخناً بعض الشيء ، وكان ملايين من الالمان ينامون على مدى النظر حوله ، فيما كان يعرض بدقة الطرق المختلفة لعملية اغتيال سياسي . وكان الصوت المبتهل الهامس ، حبيبي ، شهوتي ، احبّ نهديك ، احب رائحتك ، هل تحبيني ، يرتفع في الليل ، وكانت اليدان ، تحت جسمها المحرق ، تغتالان .

قال مازاريك : — اريد ان اطرح سؤالاً . مـا الذي يُفهم من عبارة « ارض ذات أغلبية المانية ؟ »

وكان يوجه سؤاله لشمبرلن ، ولكن شمبرلن تأمّله من غير ان يجيب — بهيئة مذهولة بعض الشيء . وكان واضحاً انه لم يستمع الى القراءة . واخذ ليجيه الحديث ، في ظهر مازاريك . وسجّل مازاريك حركة استدارة في أريكته فرأى ليجيه من زاوية جانبية . قال ليجيه :

— المقصود أغلبية معدودة وفق اقتراحات قبلتموها .

وسحب ماستني منديله فسح جبينه ، ثم تابع القراءة :

« ٥ : تحدد اللجنة الدولية المنصوص عنها في المادة ٣ الاراضي التي ينبغي ان يجري فيها الاستفتاء .

« وهذه الاراضي ستحتلها فرق دولية حتى انتهاء الاستفتاء ... »

وقطع قراءته وسأل :

— هذه الفرق ، أتكون حتماً دولية ، ام انها لن تضم الا فيالق انكليزية ؟

وتثاءب السيد شمبرلن خلف يده ، وتدحرجت دمعة على خـــده ؛ ثم سحب يده :

– هذه القضية لم توضح بعد تمـــام التوضيح ؛ فإن اشراك الجنود البلجيكيين والطليان امرٌ وارد .

وتابع ماستني : « كما ان هـــذه اللجنة ستحدد الشروط التي يجري فيها الاستفتاء انطلاقاً من شروط استفتاء السار . وستضرب بالاضافة الى ذلك موعداً لبدء الاستفتاء لا يمكن ان يتجاوز آخر تشرين الثاني ؛ »

وتوقف مرة اخرى وسأل شمبرلن في عذوبة ساخرة :

– هل سيتمتع العضو التشيكوسلوفاكي في هذه اللجنة بحق الاقتراع نفسه للذي يتمتع به الاعضاء الآخرون ؟

فقال السيد شمبرلن في لهجة حسنة : – طبعاً .

وكانت لزوجة كدرة كأنها الدم تلطّخ فخـــذي ايفيش وبطنها ، وانزلق في دمها، لست فتاةً تُغتصب، وانفتحت، وتركت نفسها تُطعن، ولكن بينما كانت رعشات من ثلج ونار تصعد حتى صدرها ، كان رأسها يظلّ بارداً وكانت تصرخ فيه ، في رأسه : إنني اكرهك !

« ٦ : تحدّد اللجنة الدولية التخطيط النهائي للحدود . وستكون لهذه اللجنة كذلك صلاحية ايصاء الدول الاربع : المانيا والمملكة المتحدة وفرنسا وايطاليا ، في حالات استثنائية ، باجراء تعديلات ذات مدى محصور بتحديد المناطق القابلة للانتقال من غير استفتاء تحديداً اتنولوجيا محضاً . »

وسأل مازاريك : – هل نستطيع ان نعتبر هذه المادة بنداً يضمن حماية مصالحنا الحيوية ؟

وكان قد استدار الى دالادييه ينظر اليه في إلحاح ؛ ولكن دالادييه لم يجب ؛ كانت تبدو عليه هيئة الشيخوخة والارهاق . ولاحظ مازاريك انه كان قد احتفظ ، في زاوية فمه ، بعقب سيكارة مطفأ . وقـــال مازاريك بقوة :

— لقد وُعدنا بهذا البند ؟

قال ليجيه : — يمكن لهذه المادة ، من نحو ما ، ان تعتبر بمثابة البند الذي تتحدث عنه . ولكن يجب ان يكون المرء متواضعاً ، في بدء الامر ، ان قضية ضمان حدودكم هي من صلاحية اللجنة الدولية ؟

فضحك مازاريك ضحكة مقتضبة وشبك ذراعيه ، وقـال وهو يهز رأسه :

— حتى ولا ضمانة :

وقرأ ماستني : « ٧ : سيكون هناك حق اختيار يتيح للناس ان يُدرجوا في الاراضي المنقولة ، او ان يُبعدوا عنها . وسيجري هذا الاختيار في مهلة ستة أشهر ابتداء من تاريخ هذا الاتفاق .

« ٨ : — تحرر الحكومة التشيكوسلوفاكية ، في مهلة اربعة اسابيع ابتداء من انجاز هذا الاتفاق ، جميع الالمان السوديت الذين يريدون ، من التشكيلات العسكرية او من الشرطة التي ينتمون اليها .

« وفي المهلة نفسها ، تطلق الحكومة التشيكوسلوفاكية الاسرى من الالمان السوديت الذين سجنوا لأسباب سياسية ؟

ميونيخ ، في ٢٩ ايلول ١٩٣٨ . »

قال : — هكذا ؛ انتهينا .

كان ينظر الى الورقة ، كما لو انه لم ينته من قراءتها . وتثـاءب السيد شمبرلن طويلاً ، ثم اخذ يربّت على الطاولة ؟

وقال ماستني ثانية — هكذا، انتهى .

كان الامر قد انتهى ، فان تشيكوسلوفاكيا ١٩١٨ قد كفّت عن الوجود ؛ وتابع مازاريك بعينيه الورقة البيضاء التي كان ماستني يوشك ان يضعها على الطاولة : ثم التفت الى دالادييه وليجيه وحدد فيهما بصره، وكان دالادييه مسترخياً في أريكته ، وذقنه عـلى صدره ؛ وسحب سيجارة من جيبه ، فتأملها لحظة ، ثم اعادها الى علبتها . وكان ليجيه

محمراً بعض للشيء ، وكان يبدو نافد الصبر : وقال مازاريك لدالادييه:
— هل تنتظرون تصريحاً او جواباً من حكومتي ؟
فلم يجب دالادييه . وخفض ليجيه بصره وقال بسرعة :
— ان السيد موسوليني مضطر للعودة الى ايطاليا هذا الصباح ، فنحن لا نملك وقتاً طويلا .
وكان مازاريك ما يزال ينظر الى دالادييه . وقال : « حتى ولا جواب ؟ هل ينبغي ان أفهم اننا مجبرون على القبول ؟ »
فأتى دالادييه بحركة متعبة واجاب ليجيه من ورائه :
— ماذا تستطيعون ان تفعلوا غير ذلك ؟
كانت تبكي ، ووجهها متجه الى الجدار ، كانت تبكي في صمت، وكانت الشهقات تهز كتفيها .
وسأل بصوت غير رائق : — لماذا تضحكين ؟
فأجابت : — لأنني اكرهك ؟
ونهض مازاريك ، ونهض ماستني ايضاً . وكان السيد شمبرلن يتثاءب حتى ليكاد ينزع فكه :

الجمعة ٣٠ ايلول

أقبل الجندي القصير على غرولويس وهو يلوّح بجريدة ، وقال :
– إنه السلام .
فوضع غرولويس دلوه :
– ماذا تقول ياصاحبي ؟
– أقول لك إنه السلام .
فنظر اليه غرولويس بارتياب :
– لا يمكن ان يكون هذا هو السلام ما دمنا لم نخض الحرب .
– لقد وقّعوا يا عزيزي . وليس لك الا ان تنظر الجريدة :
ومدها له ، ولكن غرولويس دفعها بيده :
– لا اعرف القراءة .
فقال الرجل القصير في شفقة :
– آه ، يا للمعتوه ! طيّب ، انظر الصورة .
فأخذ غرولويس الجريدة في نفور ، واقترب من نافذة الاسطبل ونظر الى الصورة . فعرف دلادييه وهتلر وموسوليني الذين كانوا يبتسمون : وكان يبدو انهم أصدقاء قدامى .
وقال : – طيب ! طيب !
ونظر الى الرجل القصير وهو يقطب حاجبيه ، ثم أخذه الجذل فجأة

وقال ضاحكاً :

– ها هم قد تصالحوا الآن! ولم اكن اعرف حتى لماذا كانوا متخاصمين.

فاخذ الجندي يضحك ، وضحك غرولويس ايضاً . وقال الجندي :

– الى اللقاء يا عزيزي !

وابتعد ، واقترب غرولويس من الفرس السوداء واخذ يلامس مؤخرتها، وقال :

– لا ! لا ! يا جميلتي !

وكان يحس نفسه غائماً ، وقال :

– طيب ، ماذا افعل الآن ؟ ماذا افعل ؟

كان السيد بيرنانشاتز يختبىء وراء جريدته ، وكان يُرى دخان قليل مستقيم صاعداً فوق اوراق منشورة . وكانت السيدة بيرنانشاتز تتململ في أريكتها .

– يجب ان أرى « روز » من أجل حكاية آلة التنظيف .

وكانت هي المرة الثالثة التي تتحدث فيها عن آلة التنظيف ، ولكنها لم تكن لتذهب . وكانت ايلا تتأملها في غيرما ودّ . كانت تريد ان تبقى مع ابيها . والتفتت السيدة بيرنا نشاتز الى ابنتها وسألت :

– أتظنين انهم سيأخذونها مني ؟

– تسأليني عن ذلك طوال الوقت ، ولكني لا ادري ، يا ماما .

وكانت السيدة بيرنا نشاتز قد بكت امس من فرط السعادة ، وهي تضمّ ابنتها وحفيداتها الى صدرها . اما اليوم فهي لا تدري ما عساها تفعل بفرحها ، كان فرحاً ضخماً رخواً مثلها ، لن يلبث طويلا حتى يتحول الى النبوءة ، الا اذا نجحت في مشاركة سواها به .

والتفتت نحو زوجها وتمتمت :

– غوستاف !

فلم يجب السيد بيرنا نشاتز :

– أراك لا تحدث اليوم اية ضجة .

فقال السيد بيرنا نشاتز : – صحيح .

ومع ذلك فقد اخفض جريدته ونظر اليها من فوق نظارتيه ، وكان يبدو شائخاً متعباً : واحست ايلا بانقباض في قلبها ؛ وكانت بها رغبة لتقبيله ، ولكن كان من الأفضل الا تبدأ بالتعبير العاطفي امـــام السيدة بيرنا نشاتز التي كانت مفرطة الميل الى ذلك . وسألت السيدة بيرنانشاتز :

– هل انت مسرور على الأقل ؟

فسأل في جفاء : – مسرور مم ؟

فقالت وهي تئن : – ولكن اسمع . لقد قلت لي مئة مرة انك لم تكن تريدها ، هذه الحرب ، وانها ستكون كارثة ، وان من الضروري التعاقد مع الألمان ، وكنت احسب انك ستكون مسروراً .

فهز السيد بيرنا نشاتز كتفيه واخذ جريدته من جديد . وحددت السيدة بيرنا نشاتز نظرها الممتلىء دهشة وعتاباً على هذا المتراس من الورق ، وكانت شفتها السفلى ترتجف ، ثم تنهدت ونهضت في مشقة وتوجهت نحو الباب . وقالت وهي تخرج :

– انني لا افهم بعد لا زوجي ولا ابنتي :

واقتربت ايلا من ابيها وقبلته بلطف في رأسه :

– ما بك يا بابا ؟

فوضع السيد بيرنا نشاتز نظارتيه ، ورفع رأسه اليها :

– ليس لي ما اقوله . هذه الحرب ، لست في سن تسمح لي بعد في خوضها ، اليس كذلك ؟ اذن فلأصمت .

وطوى جريدته بدقة ، وكان يدمدم كانما يحدث نفسه :

– كنت من مؤيدي السلام ...

– واذن ؟

– اذن ؟...

وحنا رأسه الى اليمين ورفع كتفه اليمنى بحركة طفولية غريبة ، وقال بصوت معتم :

— انني اشعر بالعار .

افرغ غرولويس دلوه في الاقذار ، واستخرج بعناية كل مـاء الاسفنجة ، ثم وضع الاسفنجة في الدلو وحملها الى الاسطبل . واغلق باب الاسطبل ، فاجتاز الساحة ودخل في المبنى « ب » . كانت الحجرة خالية . وقال غرولويس : « انهم لا يتعجلون الذهاب قـط ، فكأن الاقامة هنا تروق لهم » وسحب من تحت السرير بنطاله وسترته المدليين وقال وهو يبدأ في نزع ثيابه : « اما انا فلا تروق لي : » ولم يكن يجرؤ بعد على الابتهاج ، وقال : « هذه ثمانية ايام وهم يبعصونني . » وارتدى بنطاله ووصف بعناية على سريره حاجاته العسكرية ولم يكن يعرف اذا كان المعلم مستعدا لاخذه ثانية . « ومن الذي يحرس غنمه الآن ؟ » واخذ قربته وخرج . وكان امام المغسل اربعة اشخاص نظروا اليـه وقهقهوا . فحياهم غرولويس بيده وعبر الباحة . ولم يكن معه بعـد درهم واحد ، ولكنه سيعود مشياً على الاقدام . « سأعينهم قليلا في المزارع فيعطونني ما اكسر به الصفرة . » وفجأة رأى السماء ثانية ، مزرقة صفراء فوق اعشاب الكانيغو ، ورأى اليات الخرفان المرتجة فأدرك انه كان حراً .

— انت ، هناك ، الى اين انت ذاهب ؟

فالتفت غرولويس فاذا هو المعاون الضخم بولتييه قد هرع اليه وهو يلهث ، وقال وهو يعدو :

— عجباً ! هكذا اذن !

وتوقف على خطوتين من غرولويس ، وقد احمرّ من فرط الغضب واللهاث ، وردّد :

— الى انت ذاهب ؟

قال غرولويس : — اني راحل :

فقال المعاون وهو يشبك ذراعيه : — انت راحل ! انت راحل ! (واضاف بغيظ يائس) ولكن الى اين انت راحل ؟

قال غرولويس : — الى بلدي :

قال المعاون : — الى بلده ! انه راحل الى بلده ! لا ريب في ان لائحة الطعام لا تعجبه ، او ان سريره يصرّ : (واستعار لهجه رضية وقال) تفضل وارجع ، وبسرعة ! وسوف أعنى انا بك ، يا صاحبي !

وفكر غرولويس : « انه لا يعرف انهم قد تصالحوا » وقال :

— ولكنهم قد وقّعوا على السلام ، يا سيدي المعاون :

فبدا على المعاون انه لا يصدق ما سمع :

— هل تتظاهر بالحمرأة . ام انك تريد ان تخدعني ؟

ولم يكن غرولويس يريد ان يغضب ، فاستدار وتابع سيره : ولكن الرجل الضخم لحق به فشده من كمه ، واقبـــل يقف امامه ، فلمسه بكرشه وصاح :

— اذا لم تطع فوزاً ، فستحال على المجلس الحربي :

وتوقف غرولويس وحك رأسه : وفكّر في مارسيليا فأخذه الصداع ، وقال في رقّة :

— انقضت ثمانية ايام وهم يعصونني :

وكان المعاون يهزّه من سترته ويهدر :

— ماذا تقول ؟

فصاح غرولويس بصوت راعد :

— انقضت ثمانية ايام وهم يعصونني :

وقبض على كتف المعاون واخذ يصفعه على وجهه : وبعـــد برهة اضطر ان يُمرّ ذراعه تحت إبطه ليُسنده ،واستمر يضربه ؛ واحسّ بأنه

محاطٌ من الخلف ، ثم ُقبض على ذراعيه ولُويتا . فترك المعاون بولتيبيه الذي سقط على الأرض دون ما نبسة ، واخذ ينفض عنه جميع اولئك الأشخاص المتشبثين به ، ولكن احدهم شغْزبه فوقع عــلى الأرض . وبدأوا يضربونه ، وكان يدير رأسه يميناً وشمالاً ليتجنب للضربات ، وكان يقول وهو يلهث : « دعوني اذهب يا اخوان ، دعوني اذهب، ما دمت اقول لكم انه السلام . »

حك غوميز جوف جيبه بأظافره فأخرج منه بضع قشّات من التبغ الممزوج بالغبار وبأطراف الخيطان . ووضع ذلك كله في غليونه فأشعله. وكان للدخان مذاق حامز خانق . وسأل غارسان :

ــ هل انتهت مؤونة التبغ ؟

قال غوميز : ــ منذ مساء الأمس . لو كنت اعــلم لجلبت معي كمية اكبر .

ودخل لوبيز ، وكان يحمل صحفاً . ونظر اليه غوميز ثم اخفض عينيه على غليونه . كان قد فهم . ورأى كلمة ميونيخ بأحرف كبيرة على الصفحة الأولى من الجريدة . وسأل غارسان :

ــ ماذا هناك ؟

وكان ُيسمع في البعيد صوت اطلاق المدافع . فقال لوبيز :

ــ لقد ُبعصنا .

وضغط غوميز بأسنانه على انبوب غليونه . كان يسمع المدفع ويفكر في ليل جوان ليبان الهادىء ، وفي موسيقى الجاز على شاطيء الماء : سيكون لماتيو بعد كثيرٌ من هذه الأمسيات .

وتمتم : ــ القذرون !

ظل ماتيو لحظة عند باب المستودع العسكري ، ثم خرج الى الساحة واغلق الباب ، كان ما يزال يرتدي ثيابه المدنية : فانه لم يكن باقياً اية سترة عسكرية في مخزن الثياب . وكان الجنود يتنزهون زرافــات

صغيرة ، وكان يبدو عليهم الذعر والقلق . وأخذ رجلان كانا متجهين اليه يتثاءبان في الوقت نفسه ، فقال لهم ماتيو :

– اراكما تضحكان وتمزحان !

فأغلق اصغرهما سناً فمه وقال في لهجة اعتذار :

– اننا لا نعلم ما ينبغي ان نفعل .

وقال صوت خلف ماتيو : – مرحباً .

فالتفت ، فاذا هو بذلك الذي يُدعى جورج ، جاره في السرير ، الذي كان ذا رأس قرويّ جميل كئيب . وكان يبتسم له . قال ماتيو :

– وإذن ؟ كيف الحال ؟

قال الآخر : – لا بأس ، لا بأس !

قال ماتيو : – لا تشكُ . فما كان ينبغي ان تكون هنا ، هذه الساعة ، بل كان ينبغي ان تكون في البوم – بوم .

قال الآخر : – صحيح (وهز كتفيه) سواء أكنا هنـاك او في مكان آخر ..

قال ماتيو : – نعم .

وقال : – انني مسرور لأني سأرى طفلي ؛ وإلا ... فسأعود الى المكتب ؛ انني غير متفاهم تماماً مع زوجتي ... سنقرأ الصحف ، وسنقلق بسبب دانتزيغ : فيعود الأمر كما كان في السنة الماضية (وتثاءب وأضاف) ان الحياة متشابهة في كل مكان ، أليس كذلك ؟

– متشابهة في كل مكان .

وتبادلا بسمة رخوة . ولم يكن لديهما بعد ما يقولانه .

قال جورج : – الى اللقاء .

– الى اللقاء .

وكان ثمة من يعزف على الاكورديون في الجهة المقابلة للحاجز ؛ في الجهة المقابلة ، كانت ثمة نانسي ، وباريس ، واربع عشرة محاضرة

في الاسبوع . وايفيش ، وبوريس ، وربما ايرين ، ان الحياة متشابهة في كل مكان ، متشابهة دائماً . وتوجه بخطى بطيئة نحو الحاجز .

ــ اخطأت !

وأشار له بعض الجنود بأن يبتعد : كانوا قد رسموا خطاً على الأرض وكانوا يلعبون بالدراهم ، في غير حماسة كبيرة . وتوقف ماتيو لحظة : فرأى دراهم تتدحرج ، ثم دراهم اخرى ، ثم سواها : وبين فترة واخرى ، كان درهم يدور على نفسه كالبلبل ثم يتعثر على درهم آخر فيغطي نصفه . واذ ذاك كانوا ينتصبون ويطلقون الصيحات . واستعاد ماتيو سيره .

كثير من القطارات والشاحنات التي تخدّد فرنسا . وكثير من الهمّ ، وكثير من المال ، وكثير من الدموع ، وكثير من الصياح في جميع اذاعات العالم ، وكثير من التهديدات والتحديات بجميع اللغات ، وكثير من المؤتمرات تنتهي بالدوران في ساحة او بقذف الدراهم في الغبار . كان جميع هؤلاء الناس قد مارسوا العنف فيما بينهم ليذهبوا وعيونهم جافة ، وكانوا جميعاً قد رأوا الموت فجأة في وجههم ، وكانوا جميعاً بعد كثير من الارتباك او التواضع ، قد صمموا على ان يموتوا . اما الآن ، فقد ظلوا مذهولين ، ايديهم متدلية ، واقدامهم مشربكة بهذه الحياة التي ارتدّت عليهم ، والتي تُترك لهم لفترة اخرى ، فترة صغيرة ، والتي لا يعلمون بعد ماذا هم صانعون بها . وفكر : ان هذا هو نهار المخدوعين . وقبض بكلتا يديه على قضبان الحاجز ونظر الى الخارج : الشمس على الشارع الخالي . منذ اربع وعشرين ساعة ، كان السلام هو الذي حل في شوارع المدن التجارية . ولكن كان باقياً حول الثكنات والقلاع ضباب حرب غامض ينزع الى التلاشي . وكان الاكورديون الذي لا يُرى يعزف « المادلون » ، وتهبّ ريح خفيفة فاترة فتثير على الطريق زوبعة من الغبار . « وحياتي انا ، ماذا عساني اصنع بها ؟ »

كان الأمر يسيراً جداً : ففي شارع هويغنز ، بباريس ، كان ثمة بيت ينتظره ، ذو غرفتين ، وتدفئة مركزية ، وماء ، وغاز ، وكهرباء وارائك خضراء وعقرب برونزي علـى الطاولة . سيعود الى بيته ، وسيضع المفتاح في القفـل ، وسيستعيد كرسيه في ليسيه بوفون ، ولا يكون قد حدث شيء ، لا شيء على الاطلاق . كانت حياته تنتظره ، مألوفة ، وكان قد تركها في مكتبه ، في غرفة نومه ، سينسرب اليها من غير مشاكل — لن يفعل احد مشاكل ، ولن يشير احد الى اجتماع ميونيخ ، وبعد شهر سيُنسى كل شيء — ولن يبقى بعـد الا ندب صغير لا يُرى في دوام حياته ، كِسْرٌ صغير : ذكرى ليلة حسب فيها انه ذاهب الى الحرب .

وفكر وهو يشد على القضبان بكل قواه : « لا اريد ! لا أريد ! لن يكون هذا ! »

وانفتل فجأة ، ونظر وهو يبتسم الى النوافذ المتـلألئة بالشمس . كان يحسّ نفسه قوياً ، وكان في اعماقه قلق صغير كان قد بدأ يعرفه ، قلق صغير كان يمنحه الثقة . مطلق انسان ، في مطلق مكان ، إنه لم يكن يملك بعد شيئاً ، ولم يكن بعد شيئاً . ان ليلة أمس الاول المظلمة لن تذهب سدى : ولن يذهب ذلك الهياج والاضطراب سدى تماماً . فليغمدوا سيوفهم اذا شاؤوا ؛ ليخوضوا حربهم او ليمتنعوا عن خوضها ، فانا اهزأ بذلك ، انني غير مخدوع ، وكان الاكورديون قد صمت ، واستعاد ماتيو سيره حول الساحة ، وفكر : « سأظل حراً »

كانت الطائرة ترسم دوائر عريضة فـوق بورجيه ، وكان قطرانٌ اسود متموج يغطي نصف أرض الهبوط . وانحنى ليجيه نحو دالادييه وصاح وهو يشير باصبعه :

— أي حشد !

فنظر دالادييه بدوره ، وتكلم للمرة الاولى منذ ذهابهم الى ميونيخ ،

ـ لقد عادوا ليحطّموا رأسي .

فلم يحتج ليجيه . وهز دالاديبه كتفيه :

ـ انني افهمهم .

فقال ليجيه متنهداً : ـ كل شيء يتوقف على رجال الشرطة .

دخل الغرفة ، وكان يحمل صحفاً ، وكانت ايفيش جالسة على السرير ، مطرقة الرأس .

ـ انتهى الامر ، لقد وقّعوا هذه الليلة .

فرفعت عينيها ، وكان يبدو سعيداً ولكنه صمت ، وقد أزعجه فجأة النصر الذي كانت تحدجه به . وسألته :

ـ أتعني انه لن يكون هناك حرب ؟

ـ طبعاً .

لا حرب ، لا طائرات فوق باريس ، ولن تنفجر السقوف تحت القنابل : فينبغي اذن ان اعيش . وقالت وهي تنشج :

ـ لا حرب ، لا حرب ، وتبدو انت مسروراً !

اقترب ميلان من أنّا ، كان يترنّح ، وكانت عيناه ورديتين ، ولمس بطنها وقال :

ـ وهذا واحد لن يكون له حظ .

ـ ماذا ؟

ـ الطفل . اقول انه لن يكون له حظّ .

وبلغ الطاوَلة وهو يعرج ، فصبّ لنفسه قدحاً . وكان القدح الخامس منذ الصباح .

وقال : ـ اتذكرين حين تعثّرث على الدرج ؟ لقد ظننت انك ستجهضين .

قالت بجفاء : ـ وماذا تقصد ؟

وكان قد استدار إليها ، والقدح في يده ، وكان يبدو وكأنه يحمل

نخباً . وقال وهو يقهقه :

– كان ذلك أفضل !

فنظرت اليه : كان يرفع القد الى فه بيدح ترتجف قليلا .

قالت : – ربما . ربما كان ذلك أفضل.

كانت الطائرة قد حطت ، وخرج دالاديية في مشقة من بين المقاعد، ووضع قدمه على السلم ؛ كان ممتقعاً . وحدث ضجيج هادر ، وأخذ الناس يركضون ، خارقين صف رجال الشرطة ، مقتلعين الحواجز ، وشرب ميلان وقال ضاحكاً :

– نخب فرنسا ! نخب انكلترا ! نخب حلفائنا الامجاد !

ثم قذف القدح بكل قواه الى الجدار . كانوا يصرخون :

– لتعش فرنسا ! لتعش انكلترا ! ليعش السلام !

وكانوا يحملون أعلاماً وباقات . وكان دالادييه قد توقف عند الدرجة الاولى : وكان ينظر اليهم في ذهول . والتفت الى ليجيه ، وقال بين اسنانه :

– يا للفروج الحمير !

جان بول سارتر

دروب الحرية - ٣

الحزن العميق

نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، ايلول (سبتمبر) ١٩٦١

القسم الأول

نيويورك ، الساعة ٩ ق . ظ . السبت ١٥ حزيران ١٩٤٠

أخطبوط ؟ تناول سكينه ، وفتح عينيه ، كان ذلك حلماً . لا ؛ فان الأخطبوط كان هنا ، يجتذبه بأفواهه : الحرّ . كان يرشح عرقاً . وكان قد نام حوالي الساعة الواحدة ؛ وعند الساعة الثانية ، أيقظه الحرّ ، فقذف نفسه في مغطس بارد ، ثم عاد الى النوم من غير ان يمسح جسمه ؛ وبعد ذلك مباشرة ، عاد الكور يزفر تحت جلده ، وعاد هو يرشح عرقاً . وعند الفجر أخذه النوم ، فحلم بحريق ؛ والآن ، كانت الشمس بالتأكيد مرتفعة في السماء ، وكان غوميز ما يزال يرشح : كان يرشح بلا انقطاع منذ ثمان واربعين ساعة . وتنهّد قائلاً : « يا إلهي ! » وهو يمرّ يده الرطبة على صدره المبتلّ . لم يكن ذلك حرّاً ، وانما كان مرضاً في المناخ : كان الهواء مصاباً بالحمّى ، وكان الهواء يرشح عرقاً ، وكان هو يرشح عرقاً في العرق . كان عليه ان ينهض ، وان يرشح وهو في قميصه . وانتصب : « ايّ حظ ! ليس لديّ بعدُ من قميص . » كان قد بلّل آخر قميص ، الأزرق ، لأنه كان مضطراً الى تغيير ثيابه مرتين في اليوم . اما الآن ، فقد انتهى : سيلبس هذه الخرقة الرطبة المنتنة ، الى ان تعاد الثياب من الغسل . ونهض واقفاً في حيطة ، ولكن من غير ان يستطيع تجنّب فيض العرق ؛ كانت القطرات تركض على جانبيه كالقمل ، وكان ذلك يدغدغه . القميص مدعوك ،

مكسّر في الف ثنية ، على مسند الأريكة . وجسّه : لا شيء يجف في هذا البلد القحبة . وكان قلبه يخفق ، وكان فمه متخشّباً من شدة الجفاف، حتى كأنه قد ثمل في الليلة البارحة .

وارتدى بنطاله ، واقترب من النافذة فسحب الستائر : في الشارع كان النور ابيض كأنه الكارثة ؛ ثلاث عشرة ساعة اخرى من النور . ونظر الى الطريق في ضيق وغضب . الكارثة «نفسها» : هناك ، على الأرض الطينية السوداء ، تحت الدخان ، كان ثمة دم وصراخ ؛ وهنا ، بين البيوت الصغيرة ذات القرميد الأحمر ، كان ثمة نور ، نورٌ فقط وعرق . ولكنها كانت الكارثة «نفسها» . ومرّ زنجيّان وهما يضحكان، ودخلت امرأة الى الصيدلية . وتنهّد : «يا إلهي ! يا إلهي ! » كان ينظر الى هذه الألوان جميعاً وهي تصرخ : حتى ولو كان لدي الوقت ، حتى ولو كان ذهني صافياً ، فكيف تريدونني ان «ارسم» في هذا النور ! وقال : « يا إلهي ! يا إلهي ! » .

ودق جرس الباب ، فقام غوميز يفتح ، وقال ريتشي وهو يدخل :

— هذه عملية قتل .

فانتفض غوميز :

— ماذا ؟

— هذا الحرّ : إنه عملية قتل . (وأضاف في عتاب) كيف ، ألم ترتد ثيابك ؟ إن رامون ينتظرنا في الساعة العاشرة .

فهزّ غوميز كتفيه :

— لقد نمت متأخراً .

فنظر اليه ريتشي وهو يبتسم ، فأضاف غوميز بحيوية :

— إن الحرّ لا يطاق ، ولا استطيع ان أنام .

فقال ريتشي بلهجة حليمة :

— الأمر كذلك ، في الأوقات الاولى . وسوف تعتاده . (ونظر

اليه في تنبّه) هل تأخذ أقراص ملح ؟

– طبعاً ، ولكن ذلك لا يحدث عندي أثراً .

فهزّ ريتشي رأسه ، وتلوّنت ملاطفته ببعض القسوة : « فلا بدّ » للاقراص من منع العرق . فاذا لم تكن تؤثّر على غوميز ، فلأن غوميز « لم يكن » كسائر الناس . وقال ريتشي فجأة وهو يقطّب حاجبيه :

– ولكن عجباً ! كان ينبغي ان تكون معتاداً : فالطقس حار كذلك في اسبانيا .

وفكر غوميز في أصباح مدريد الجافّة الفاجعة ، وفي ذلك النور الرائع الذي كان كذلك أملاً ، فوق « الألكالا » ؛ وهزّ رأسه :

– ليس هو الحرّ نفسه .

قال ريتشي في لهجة اعتزاز :

– انه اقلّ رطوبة ، أليس كذلك ؟

– نعم . واكثر انسانية .

وكان ريتشي يحمل جريدة ، فمدّ غوميز يده ليتناولها منه ، ولكنه لم يجرؤ ، وسقطت اليد ، وقال ريتشي بمرح :

– إنه يوم عظيم : عيد « ديلاوار » ؛ انا من هناك ، كما تعلم .

وفتح الجريدة على الصفحة الثالثة عشرة ، فرأى غوميز صورة : كان « لاغوارديا » يصافح يد رجل ضخم ، وكان كلاهما يضحك في استسلام . وقال ريتشي :

– هذا الشخص الى اليسار ، هو حاكم « ديلاوار » ، وقد استقبله لاغوارديا أمس في « وورلد هول » . وكان استقبالاً عظيماً .

وكان غوميز يرغب في انتزاع الجريدة منه وفي النظر الى الصفحة الأولى . ولكنه فكر : « خراء ! » ودخل غرفة الحمام ، فأجرى في المغطس ماءً بارداً وحلق ذقنه بسرعة . واذ كان يدخل الى المغطس ، صاح به ريتشي :

– اين أصبحت ؟

– لقد أفلست تماماً . فليس لديَّ بعدُ اي قميص ، وقد بقي معي ثمانية عشر دولاراً . ثم ان مانويل عائد يوم الاثنين ، فيجب ان أعيد له شقّته .

ولكنه كان يفكر في الجريدة : كان ريتشي يقرأ وهو ينتظره ؛ وقد سمعه غوميز يقلب الصفحات . وتجفّف بعناية ؛ ولكن عبثاً : فقد كان الماء يفور في المنشفة . وارتدى وهو يرتعش قميصه الرطب وعاد الى غرفة النوم .

– مباراة عمالقة .

فنظر غوميز الى ريتشي من غير ان يفهم .

– مباراة البيسبول امس . لقد ربح « العمالقة » .

– آه ، نعم ، البيسبول ...

وانحنى ليعقد سير حذائه . وكان يجهد ، من تحت ، لقراءة عناوين الصفحة الاولى . وانتهى الى السؤال :

– وباريس ؟

– الم تسمع الراديو ؟

– ليس لديَّ راديو .

قال ريتشي بهدوء : – انتهت ، صُفّيت . لقد دخلوها هذه الليلة .

واتجه غوميز نحو النافذة ، فألصق جبينه بالزجاج المحرق ، ونظر الى الشارع ، هذه الشمس اللامجدية ، هذا النهار اللامجدي . لن يكون ثمة بعد الا نهارات لامجدية . وانفتل ، وتداعى للسقوط على سريره . وقال ريتشي :

– عجّل ، إن رامون لا يحبّ الانتظار .

ونهض غوميز ثانية . وكان قميصه قد أصبح للعصر ، وذهب يعقد ربطة عنقه امام المرآة :

ـ هل هو موافق ؟

ـ مبدئياً ، نعم . ستون دولاراً في الاسبوع على ان تقدّم صفحة المعارض . ولكنه يريد ان يراك .

قال غوميز : ـ سيراني ، سيراني .

والتفت فجأة :

ـ انني بحاجة الى سلفة . أتعتقد أنه سيوافق ؟

فهزّ ريتشي كتفيه ، وقال بعد لحظة :

ـ قلت له إنك قادم من اسبانيا ، وهو يميل الى الاعتقاد بأنك لا تحب فرانكو ؛ ولكني لم احدثه عن ... امجادك . فلا تذهب لتروي له انك كنت جنرالاً : فلا ندري ما الذي يفكر به حقاً .

جنرال ! ونظر غوميز الى بنطاله المتهرّيء والى اللطخات الكالحة التي كان العرق يخلّفها على قميصه . وقال بمرارة :

ـ لا تخف ، فليست لدي الرغبة في التباهي بها . انني أعرف كم يكلفني هنا ان اكون قد حاربت في اسبانيا : فأنا منذ ستة أشهر بلا عمل .

فبدا ريتشي مصدوماً ، وأوضح في جفاء :

ـ إن الاميركيين لا يحبون الحرب .

ووضع غوميز سترته على ذراعه :

ـ هيّا بنا .

فطوى ريتشي جريدته على مهل ونهض . وعلى الدرج ، سأله :

ـ زوجتك وابنك في باريس ؟

فقال غوميز بحيوية :

ـ أتمنى الا يكونوا هناك . ارجو كثيراً ان تكون ساره من الذكاء بحيث تكون قد هربت الى مونبلييه .

وأضاف : ـ ان اخبارها منقطعة عني منذ اول حزيران .

قال ريتشي : — اذا حصلت على الراتب ، امكنك استقدامهما ـ
قـال غوميز : — نعم ، نعم . سنرى .

الشارع ، بهرة النوافذ ، الشمس على الثكنات الطويلة المسطحة التي لا سقف لها ، ذات القرميد المسودّ . وامام كل باب ، درجات من الحجر الأبيض ؛ ضبـاب حرّ من جانب « الايست ريفر » ؛ كانت المدينة تبـدو داسية . ليس ثمة ظـل : وان المرء ، في اي شارع من شوارع العالم ، لا يحسّ انه في الخـارج ، بمثل الفظاعة التي يحسّ بها ذلك هنــا . إن ابراً محمّرة بالنـار تثقب عينيه ؛ ورفع يده ليحتمي بها ، فالتصق قميصه بجلده . وارتعش :

— إنه لقتل !

قال ريتشي : — بالأمس ، سقط عجوز مسنّ امامي : ضربة شمس . (واضاف) بررر . اني لا احب رؤية الأموات .

وفكر غوميز : « اذهب الى اوروبا تجد ما يعجبك ! »

واضـاف ريتشي :

— انه عليّ بعد اربعين اشارة . يجب ان نأخـذ الباص .

وتوقفا امام عمود أصفر . وكانت امرأة شابة تنتظر . ونظرت اليهما بعين متفحصة شرسة ثم اولتهما ظهرها . وقال ريتشي بلهجة مدرسية :

— فتاة جميلة .

قال غوميز في ضغينة :

— ان عليهـا مظهر البغيّ .

وكان قد أحسّ ، تحت ذلك النظر ، بأنه قذر يرشح عرقاً . ولم تكن هي ترشح . وكذلك ريتشي : فقـد كان متورداً نضراً في قميصه الجميل الابيض ، وكان انفه الأخنس لا يكاد يلمع . يا لغوميز الجميل . الجنرال الجميل غوميز . وكان الجنرال قد انحنى على عينين زرقلوين ، خضراوين ، سوداوين ، يغشّيهما خفقُ أجفان ؛ إن البغي لم تكن قـد

رأت إلا رجلاً جنوبياً قصيراً يتقاضى خمسين دولاراً في الاسبوع ويرشح عرقاً في ثوبه المبتذل . « لقد حسبتني من جزيرة داغو » ومع ذلك ، فقد نظر الى الساقين الجميلتين الطويلتين ، ومسح عرقه . « اربعة أشهر لم أضاجع فيها » . من قبل ، كانت الشهوة شمساً جافة في بطنه . اما الآن ، فان للجنرال الجميل غوميز رغبات خجلة ومداورة .

وعرض عليه ريتشي :

— سيجارة ؟

— لا . إن حلقي يحترق . أفضّل ان أشرب .

— ليس لدينا الوقت .

وربت على كتفه بهيئة انزعاج ، وقال له :

— حاول ان تبتسم .

— ماذا ؟

— حاول ان تبتسم . فاذا رأى رامون هيئتك هذه ، فلا شك انه سيخاف .

وأشار غوميز إشارة لامبالاة ، فقال ريتشي بحيوية :

— انني لا أطلب منك ان تكون مفرطاً في المجاملة ، بل ان تضع على شفتيك ، وانت داخل ، بسمة غير شخصية تماماً ، وتنساها عليها ؛ وفي هذه الاثناء تستطيع ان تفكر بما تشاء .

قال غوميز : — سأبتسم .

فنظر اليه ريتشي في ملاطفة :

— أمن أجل طفلك انت مهموم ؟

— لا .

فبذل ريتشي جهداً مؤلماً للتفكير :

— أمن اجل باريس إذن ؟

قال غوميز بعنف : — طز بباريس !

– من الأفضل ان يكونوا قد اخذوها بلا قتال ، أليس كذلك ؟
فأجاب غوميز بصوت محايد :
– كان بوسع الفرنسيين ان يدافعوا عنها .
– أشكّ في ذلك ! مدينة فوق ارض مسطحة .
– كان بوسعهم ان يدافعوا عنها . لقد قاومت مدريد عامين ونصف العام ...
فردّد ريتشي بحركة مبهمة :
– مدريد ... ولكن ما جدوى الدفاع عن باريس ؟ إن هذا في غاية البلادة . كانوا سيهدمون اللوفر والاوبرا ونوتردام . كلما قلّت الأضرار ، كان الأمر أفضل . (وأضاف في رضى) والآن ستنتهي الحرب بسرعة .
فقال غوميز في سخرية :
وكيف ! اذا استمر العمل بهذه السرعة ،فستعقد السلم النازية بعد ثلاثة اشهر .
قال ريتشي : – إن السلم ليست ديمقراطية ولا نازية : انها السلم وحسب . انت تعرف جيداً اني لا احب الهتلريين . ولكنهم بشر كالآخرين . فحين ينتهي احتلالهم لاوروبا ، تبدأ المصاعب امامهم ، وعليهم ان يعتدلوا ويرقّوا . واذا كانوا عاقلين ، تركوا كل بلد يحكم نفسه داخل اتحاد اوروبي . شيء قريب من ولاياتنا المتحدة .
وكان يتحدث متمهلاً وفي جهد . وأضاف :
– اذا كان هذا سيمنعكم من القيام بالحرب كل عشرين عاماً ، فسيبقى هذا هو الكسب .

ونظر اليه غوميز في غيظ : كان في عينيه الرماديتين صدق واخلاص كبيران . كان مرحاً ، وكان يحب الانسانية ، والاولاد والعصافير والفن التجريدي ؛ وكان يفكر بان درهمين من العقل كافيان لحل جميع المنازعات . ولم يكن يكنّ كثيراً من الود للمهاجرين ذوي العرق

اللاتيني ، بل كان اكثر تفاهما مع الألمان . « احتلال باريس ، ماذا يمثل ذلك في نظره ؟ » ولفت غوميز رأسه ينظر الى بسطة بائع الجرائد الملونة : كان ريتشي يبدو له فجأة شديد القسوة ؛ وقال ريتشي :

ـ انتم الاوروبيين تتشبثون دائما بالرموز . لقد انقضت ثمانية ايام والناس يعرفون ان فرنسا قد هزمت . صحيح : لقد عشتَ فيها ، وخلّفت فيها ذكريات ، وانا أفهم ان يحزنك ذلك . ولكن الاستيلاء على باريس ، ما عسى ذلك ان يحدث لديك ، ما دامت المدينة سليمة لم تُمس ؟ اننا سنعود اليها في نهاية الحرب .

وأحسّ غوميز نفسه محمولاً بفرح عظيم غاضب ، فسأل في صوت مرتجف :

ـ ما يُحدث ذلك لديّ ؟ إنّ ذلك يسرّني ! حين دخل فرانكو الى برشلونة ، كانوا يهزّون رؤوسهم لامبالين ، وكانوا يقولون ان ذلك مؤسف ، ولكن لم يكن ثمة من رفع إصبعه الصغير . حسناً ! انه الآن دورهم ، فليتذوّقوا ! (وصاح في صخب الباص الذي وقف ازاء الرصيف) إن ذلك يسرّني ! إن ذلك يسرّني !

وصعدا وراء المرأة الشابة ، وتدبّر غوميز امره ليرى ساقيها في هذه الاثناء ؛ وظلاّ واقفين في المؤخرة . وسارع رجل ضخم ذو نظارتين ذهبيتين بالابتعاد عنهما، ففكر غوميز «لا بد ان رائحتي كريهة» وفي الصف الأخير من المقاعد ، كان رجل قد فتح جريدة . فقرأ غوميز من فوق كتفه : « الهتاف لتوسكانيني في ريو حيث يعزف للمرة الاولى منذ اربعة وخمسين عاماً . » وتحت ذلك : « العرض الاول في نيويورك : راي ميلاند ولوريتا يونغ في فيلم « الدكتور يتزوج » . وكانت جرائد اخرى ، هنا وهناك ، تبسط اجنحتها : لاغوارديا يستقبل حاكم ديلاوار ، لوريتا يونغ ؛ حريق في الايلينوا ، راي ميلاند ؛ احبني زوجي منذ اليوم الذي استعملت فيه مزيل

الروائح « بيتش » ؛ اشتروا شريسارغيل ، مُلين شهر العسل ؛ رجل في منامته يبتسم لزوجته الشابة ؛ لاغوارديا يبتسم لحاكم ديلاوار ؛ بادي سميث يصرّح : « لا حلويات « كيك » للقاصرين ، » كانوا يقرأون ؛ وكانت الصفحات العريضة البيضاء والسوداء تحدثهم عن أنفسهم ، عن همومهم وعن مسرّاتهم ؛ كانوا يعرفون من هو بادي سميث ، ولم يكن غوميز يعرفه ؛ وكانوا يقلبون نحو الأرض ، ونحو ظهر السائق ، أحرف الصفحة الأولى الكبيرة : « سقوط باريس » او « مونتمارتر تحترق » . كانوا يقرأون وكانت الصحف تصرخ بين ايديهم ، فلا يسمعونها . وأحسّ غوميز بالشيخوخة والوهن . كانت باريس بعيدة ؛ وكان وحده الذي يهتم بها ، وسط مئة وخمسين مليون نسمة ؛ انها لم تكن بعد الا هماً شخصياً صغيراً ، لا يكاد يجاوز في أهميته ذلك العطش الذي كان يحرق حلقه . وقال لريتشي :

ــ أعطني الجريدة .

« الالمان يحتلون باريس . ضغط نحو الجنوب . سقوط الهافر . هجوم من خط ماجينو »

كانت الحروف تصرخ ، ولكن الزنوج الثلاثة الذين كانوا يتحدثون خلفه استمروا يضحكون من غير ان يسمعوا .

« الجيش الفرنسي سليم لم يُمس ، اسبانيا تستولي على طنجة . »

وبحث الرجل ذو النظارات الذهبية في محفظته بانتظام فاخرج منها مفتاح « يال » . تأمله في رضى . وأحسّ غوميز بالخجل ، وكانت به رغبة لأن يطوي الجريدة ، كما لو انها كانت تتحدث على غير حذر عن أشد أسراره حميمية . إن هذه الصيحات الهائلة التي كانت تُرعش يديه ، هذه النداءات التي تطلب النجدة ، هذه الحشرجات ، انما كانت مجوناً فاحشاً قليل التهذيب ، كعرقه عرق الغريب ، وكرائحته تلك القوية اكثر مما ينبغي . « الشك في وعود هتلر ؛

الرئيس روزفلت لا يصدق ... الولايات المتحدة ستفعل ما في استطاعتها من أجل الحلفاء » ؛ حكومة جلالته ستفعل ما في استطاعتها من أجل التشيك ؛ الفرنسيون سيفعلون ما في استطاعتهم من أجل جمهوريي اسبانيا . ضمادات ، عقاقير ، علب حليب . يا للبؤس ! « مظاهرة طلاب في مدريد للمطالبة بعودة جبل طارق الى الاسبان . » ورأى كلمة مدريد ، فلم يستطع المضيّ في القراءة . « حسناً فعلوا ، قذرون ! قذرون ! فليشعلوا النار بأربعة اركان باريس ، وليحيلوها الى رماد . » « تور (من مراسلنا الخاص ارشامبو) : المعركة مستمرة ، الفرنسيون يصرحون بان ضغط العدو يتناقص : خسائر نازية فادحة ، الضغط طبعاً يتناقص ، وسوف يتناقص حتى آخر يوم وحتى آخر صحيفة فرنسية ، خسائر فادحة ، كلمات مسكينة ، آخر كلمات أمل لا تخدع أحداً ؛ خسائر فاشستية فادحة حول تاراغون ؛ الضغط يتناقص ؛ ستقاوم برشلونة ... وفي اليوم التالي ، كان الفرار الجنونيّ . »

« برلين (من مراسلنا الخاص بروك بترز) : خسرت فرنسا كل صناعتها ، سقطت مونتميدي ؛ هجوم اكتساحي من خط ماجينو ؛ العدو ينهزم » نشيد مجد ؛ نشيد نحاسي ، شمس : انهم يغنون في برلين ، في مدريد ، بأثوابهم العسكرية ؛ برشلونة ، مدريد ، فالانس ، فارصوفيا ، باريس ؛ وغداً لندن . وفي تور ، كان رجال بسترات سود يركضون في ممرات الفنادق . لقد أحسنوا صنعاً ! لقد أحسنوا صنعاً ، فليأخذوا كل شيء ، فرنسا ، انكلترا ، ولينزلوا في نيويورك ، لقد أحسنوا صنعاً !

كان الرجل ذو النظارات الذهبية ينظر اليه ، وأحس غوميز بالخجل كما لو انه صاح . وكان الزنوج يبتسمون ، وكانت المرأة الشابة تبتسم ، وكان قاطع التذاكر يبتسم .

قال ريتشي وهو يبتسم : — لنهبط هنا .

كانت اميركا ، على الاعلانات وعلى غلاف المجلات ، تبتسم . وفكر غوميز في رامون، واخذ يبتسم . وقال ريتشي :

— انها الساعه العاشرة ، فلن نتأخر اكثر من خمس دقائق .

الساعة العاشرة ، الساعة الثالثة في فرنسا . كان أصيل يوم يختبيء ممتقعاً ، بلا أمل ، في قعر هذا الصباح الاستعماري .

الساعة الثالثة في فرنسا .

قال الرجل — ها نحن في أزمة !

وظلّ متحجراً في مقعده ؛ وكانت سارة ترى العرق يسيل على رقبته ، وكانت تسمع ضجيج الزمامير .

— لقد نفد الوقود !

وفتح الباب ، فقفز الى الطريق وانزرع امام سيارته . وكان يتأملها برقة ، وقال وهو يكز أسنانه :

— تفه ! تفه !

وكان يمر يده على ظهرها المحرق : وكانت سارة تراه ، عبر الزجاج ، واقفاً تحت السماء المشعة، وسط هذا الصخب الهائل ؛ وكانت السيارات التي كانوا يتبعونها منذ الصباح تبتعــد في غيمة من غبار ـ وخلفهم كانت أصوات الزمامير والصفارات والمنبهات : صداحٌ لطيور من حديد ، وأغنية كراهية وحقد .

وسأل بابلو : ـ لماذا هم غاضبون ؟

— لأننا نسد عليهم الطريق .

وكانت تود لو تقفز خارج السيارة، ولكن اليأس كان يسحقها على المقعد . ورفع الرجل رأسه ، وقال في غيظ :

— ولكن انزلا ! الا تسمعانهم ؟ ساعداني في دفعها .

فنزلا . وقال الرجل لساره :

– اذهبي الى الخلف ، وادفعي بشدة .

وقال بابلو : – اريد ان أدفع ايضاً .

وانحنت ساره بازاء السيارة ودفعت بكل قواها ، وعيناها مغمضتان كأنها في كابوس . وكان العرق يبلل قميصها : وعبر جفونها المغضمة كانت الشمس تفقأ عينيها . وفتحتها : كان الرجل امامها يدفع بيده اليسرى الملتصقة بالباب ؛ وباليد اليمنى ، كان يحرك المقود ؛ وكان بابلو قد قفز الى واقية الصدم الخلفية وتشبث بها وهو يطلق صيحات متوحشة . وقالت ساره :

– حذار من الانزلاق !

ودرجت السيارة على هينة فوق طرف الطريق ، فقال الرجل :

– كفى ! كفى ! حسناً ، كفى يا إلهي !

وصمتت الزمامير ؛ وعاد النهر يجري . وكانت تحاذي السيارة الواقفة ، وعلى زجاجها تلتصق وجوه ؛ وأحست ساره بالاحمرار تحت الانظار ، فاحتمت بالسيارة ، وأطل نحوهما رجل طويل هزيل ، من خلف مقود شفروليه وصاح :

– يا للفروج القذرة !

سيارات شحن ، عربات وطيئة ، سيارات فخمة ، سيارات تاكسي ذات أعلام سوداء ، مركبات . وكانت ساره ، كلما ألمت بهم سيارة ، تفقد بعض رباطتها ، وكانت « جيان » تزداد بعـداً . ثم جاء صف العربات ، وكانت «جيان» ما تفتأ تتقهقر ، وهي تصر ؛ واخيراً غطى قار المشاة الاسود الطريق باكملها ، ولجأت ساره الى جانب الحفرة : كانت الحشود تخيفها . كانوا يسيرون ببطء ومشقة ، وكان العذاب يكسبهم هيئة عائلية : وكان بد لمن يدخل في صفوفهم ان يشبههم رويداً رويداً . لا اريد. لا اريد ان أصبح مثلهم. ولم يكونوا لينظروا اليها . وكانوا يحيدون عن السيارة من غير ان ينظروا اليها : فانهم لم تكن

لهم بعدُ عيون . وحاذى السيارة عملاق يرتدي قبعة ، حاملا حقيبة في كل ذراع ، فاصطدم على غير هدى بالقضيب الواقي من الوحل ، فاستدار على نفسه ، ثم استعاد سيره المترنح . وكان ممتقعاً . وكانت على احدى الحقيبتين طوابع متعددة الالوان : اشبيلية ، القـاهرة ، ساراجيفوا ، ستريزا .

وصرخت ساره : — انه يموت من فرط التعب . وسوف يسقط .

ولكنه لم يسقط . وتابعت بعينيها القبعة ذات الشريط الاحمر التي كانت تتأرجح بمرح فوق بحر القبعات .

— خذي حقيبتك وتابعي السير دوني .

فارتعشت ساره من غير ان تجيب : كانت تنظر الى الحشود بنفور مذعور .

— الا تسمعين ما اقوله لك ؟

فالتفتت اليه :

— اليس من الممكن انتظار سيارة وطلب صفيحة وقود منها ؟ فلا بدّ ان تأتي سيارات بعد المشاة .

فابتسم الرجل بسمة خبيثة :

— أنصحك ان تجرّبي .

— ولِمَ لا ؟ لماذا لا نجرّب ؟

فبصق باحتقار ، وظل لحظة من غير ان يجيب . وقال اخيراً :

— ألم تريهم اذن ؟ انهم يتدافعون بالمؤخرات : فكيف تريدين ان يقفوا ؟

— ولكن اذا وجدت وقوداً ؟

— أقول لك انك لن تجدي . أتظنين انهم سيفقدون صفهم من أجلك ؟ (وأشار اليها باصبعه وهو يقهقه) لو كنت صبية جميلة ما تزالين في العشرين من عمرك ، لما قلت لا .

فتظاهرت ساره بأنها لم تسمع ، وألحت :
– ولكن افرض مع ذلك اني وجدت لك وقوداً ؟
فهزّ رأسه بهيئة مصدومة :
– لا فائدة . فانا لن اذهب أبعد من هذا . حتى ولو وجدت لي عشرين ليتراً ، بل حتى لو وجدت مئة ليتر . لقد فهمت .
وشبك ذراعيه وأضاف :
– هل تدركين ما افعل ؟ اني اقف ، واقلع ، وامشي كل عشرين متراً . أغيّر السرعة مئة مرة في الساعة : هذا ما يناسب السيارات تماماً !
وكانت على الزجاج لطخات سمراء . فاخرج منديله ومسحها في ملاطفة .
– ما كان ينبغي لي ان استسلم للخروج .
قالت ساره : – لم يكن عليك الا ان تأخذ وقوداً كافياً .
فهزّ رأسه من غير ان يجيب ؛ وكانت بها رغبة لأن تخمشه ، ولكنها تماسكت وقالت بصوت هادىء :
– وإذن ، فماذا تفعل ؟
– أبقى هنا وانتظر .
– تنتظر ماذا ؟
فلم يجب ، فتناولت معصمه وشدّت عليها بكل قواها :
– اتدري ماذا يحدث لك اذا بقيت هنا ؟ إن الألمان سينفون جميع الرجال الأصحّاء .
– بالتأكيد ! وسيقطعون يدي صبيك ، ويقفزون عليك اذا جرؤوا ! إن هذا كله خلط : فليسوا هم بالتأكيد على ربع ما يقال عنهم من الشرّ .
وكان حلق ساره جافاً وشفتاها ترتجفان . وقالت بصوت ابيض :
– حسناً . اين نحن الآن ؟

— على بعد اربعة وعشرين كيلومتراً من «جيان» .

« اربعة وعشرون كيلومتراً ! انني مع ذلك لن ابكي امام هذا الوحش » .

ودخلت الى السيارة فتناولت حقيبتها وخرجت ثم أخذت بابلو من يده :

— تعال يا بابلو .

— الى اين ؟

— الى جيان .

— هل هي بعيدة ؟

— بعض الشيء . ولكني سأحملك حين تتعب (واضافت بتحد) ثم اننا سنجد بالتأكيد رجالاً طيبين يساعدوننا .

وانزرع الرجل امامهما فسد عليهما الطريق . وكان يقطب حاجبيه ويحك رأسه بهيئة حائرة . وسألته ساره بجفاء :

— ماذا تريد ؟

ولم يكن يدري ما يريد . وكان ينقل نظره بين ساره وبابلو ، كأنما كان يبحث عن شيء . وقال في ثقة :

— وإذن ؟ انتما ذاهبان ؟ هكذا ، حتى بلا كلمة شكر ؟

قالت ساره على عجل : — شكراً ، شكراً .

وكان الرجل قد وجد ما كان يبحث عنه : الغضب . فغضب واحمر وجهه :

— والمئتا فرنك ، اين هي ؟

قالت ساره : — لست مدينة لك بشيء .

— ألم تعدي عمتي فرنك ؟ هذا الصباح بالذات ؟ في مولين ؟ في مرأبي ؟

— نعم ، اذا كنت ستقودني الى جيان : ولكنك تتركني مع صبي

في منتصف الطريق .
— لست انا الذي اتركك ، وانما هي السيارة .
ونفض رأسه فانتفخت عروق صدغيه . وكانت عيناه تلتمعان ويبدو مسروراً ، ولم تكن ساره خائفة منه :
— اريد المئتي فرنك .
وفتشت في محفظتها :
— هذه مئة فرنك . انني لست مدينة لك بها ، وانت لا شك أغنى مني ، وانما اعطيك اياها تفادياً للنزاع .
فتناول الورقة المالية ووضعها في جيبه ؛ ثم مدّ يده مرة اخرى . وكان شديد الاحمرار بفمه الفاغر وعينيه المتأملتين :
— يبقى لي معك مئة فرنك اخرى .
— لن تحصل على درهم واحد بعد . دعني أمرّ .
ولم يكن يتحرك ، كأنما هو فريسة نفسه . إنه لا يريدها حقاً ، المئة فرنك هذه . انه لا يعرف ماذا يريد : ربما كان يريد ان يعانقه الصغير قبل ان يذهب ، إنه يترجم هذا بلغته . واقترب منها ، فحزرت بأنه يريد ان يأخذ الحقيبة .
— لا تلمسني .
— اريد المئة فرنك ، والا أخذت الحقيبة .
وكان احدهما ينظر في عيني الآخر . لم تكن به رغبة على الأطلاق لأخذ الحقيبة ، كان هذا امراً واضحاً ؛ وكانت ساره تعبةً جداً حتى انها كانت مستعدة بكل رضى ان تتركها له . ولكن كان لا بدّ الآن من تمثيل الفصل حتى النهاية . وترددا ، كما لو انهما لم يكونا يتذكران دوريهما ؛ ثم قالت ساره :
— حاول اذن ان تأخذها ! حاول !
فتناول الحقيبة من حمالتها واخذ يشدّ ، وكان بوسعه ان ينتزعها

منها بجذبة واحـــدة ، ولكنه كان يكتفي بالشدّ وهو يصرف رأسه ؛ وجذبت ساره من جهتهـا ؛ فأخذ بابلو يبكي . وكان قطيع المشاة قد ابتعد ؛ وكان صف السيارات قد عاد الى الظهور . وأحست ساره بأنها في وضع مضحك ، فجذبت الحقيبة بعنف ؛ وجـذب هو جذباً اقوى فانتزعها منهـا . ونظر الى ساره والى الحقيبة في دهشة ، لعلّه لم يرد قط ان يأخذها ، ولكن هذا اصبح الآن واقعاً : كانت الحقيبة في يده .

قالت ساره : — اعد لي هذه الحقيبة .

ولم يكن يجيب ، وكان يبـدو في هيئة بلاهة وعنـــاد . واستخفّ الغضب بساره وقذفها باتجاه السيارات فصاحت :

— السارق !

وكانت سيارة بويك طويلة سوداء تمرّ امامهم . وقال الرجل :

— هيا ، بلا مشاكل !

وقبض على كتفها ، ولكنها تخلّصت ؛ وكانت الكلمات والحركات تخرج منهـــا في يسر ودقة . وقفزت عـــلى مصعـــد البويك فتشبثت بمقبض الباب :

— السارق ! السارق !

وانبثقت من السيارة ذراع دفعتها :

— انزلي ، ستقتلين نفسك .

وكانت تحسّ انها تجن : وكان ذلك لذيذاً . وصاحت :

— قف ! السارق ! النجدة !

— ولكن آن لك ان تنزلي ! كيف تريدين ان اقف ؟ اذا وقفت تعرقل السير .

فانحسر غضب ساره ، وقفزت الى الأرض فتعثّرت . ولكن صاحب المرأب تلقّاها وأوقفها . وكان بابلو يصرخ ويبكي . كانت الحفلة قد انتهت : وكانت ساره راغبة في الموت . وبحثت في محفظتها فأخرجت

مئة فرنك :

– خذ ! ستشعر بالخجل عما قليل !

واخذ الرجل الورقة المالية من غير ان يرفع عينيه وترك الحقيبة .

– والآن ، دعنا نمرّ .

فابتعد ؛ وكان بابلو مـا يزال يبكي . وقالت ، في غير ما رقة :

– لا تبك يا بابلو . هيا ، لقد انتهينا ، ونحن ذاهبان .

وابتعدا . وتمتم الرجل خلفهما :

– من الذي كان سيدفع لي ثمن الوقود ؟

وكان النمل الطويل المعتم يغطي الطريق كلها ؛ وحاولت ساره لحظة ان تمشي بينها ، ولكن زعيق الزمامير عاد يلقي بها في الحفرة .

– إمش ورائي .

ولوت قدمهـا ، فتوقفت .

– إجلس .

وجلسا في العشب . وكـانت الحشرات تزحف امامهما ، هائلة ، بطيئة ، عجيبة ؛ وكـان هو يوليهما ظهره ، وهو مـا يزال يضغط بيده على المئة الفرنك اللامجدية ؛ وكانت السيارات تصرّ كأنها سرطان البحر ، وتغني كأنهـا صراصير . لقـد بُـدّل البشر حشرات . وكانت خائفة .

قال بابلو : – انه شرير ، شرير ، شرير !

قالت ساره بحماسة : – ليس ثمة من هو شرير .

– لماذا أخذ الحقيبة اذن ؟

قالت : – كان خائفاً .

وسأل بابلو : – ماذا ننتظر ؟

– ان تمرّ السيارات لنستطيع ان نسير على الطريق . اربعة وعشرون كيلومتراً . إن الصغير يستطيع ان يمشي منها ثمانية

على الأكثر . وفجأة رقيت التلة ولوحت بيدها . وكانت السيارات تمر أمامها ، فكانت تحس نفسها « مرئية » بعيون مختبئة ، بعيون ذباب ونمل غريبة .

— ماذا تفعلين يا ماما ؟

فقالت ساره بمرارة : — لا شيء . حماقات .

وعادت فهبطت إلى الحفرة ، فأخذت يد بابلو وراحا ينظران الى الطريق في صمت . الطريق والظهور السلحفائية التي تجرجر نفسها فوقها . جيان ، اربعة وعشرون كيلومتراً . بعد جيان ، نيفر ، ليموج ، بوردو ، هنداي ، في هنداي القنصليات والمساعي والانتظارات المذلة في المكاتب . ستكون محظوظة جداً اذا وجدت قطاراً الى لشبونة . وستكون معجزة اذا وجدت في لشبونة باخرة الى نيويورك . وفي نيويورك ؟ إن غوميز لا يملك فلساً ؛ وربما كان يعيش مع امرأة ؛ سيكون ذلك مصيبة وعاراً حتى النهاية . سيفض البرقية ويقول : « تفه ! » ويلتفت نحو شقراء سمينة ذات شفتين وحشيتين تدخن سيكارة فيقول لها : « إن زوجتي عائدة ، فما اقساها ضربة ! » إنه على المحطة ، والآخرون يلوحون بمناديلهم ؛ اما هو فلا يلوح بمنديله ، وإذا ... نظرة استياء .

ها ! لو كنت وحدي لما سمعت من اخباري ان أعيش لأربي الطفل الذي أولدتني اياه. »

تفت ، فظلت الطريق خالية . وفي الطرف قول صفراء وتلال . ومر رجل يركب قاً ؛ وكان يحرك رجليه في وحشية من غير ان يقف :

قة .

ولكن كان قد لحق بسلسلة السيارات ، ورأته يتعلق بمؤخرة سيارة رينو . باريس تشتعل . ما جدوى العيش ؟ ولماذا تراني أحمي حياة هذا الصغير ؟ ألكي يتيه من بلد الى بلد ، مذعوراً يائساً ؟ ألكي يمضغ طوال نصف قرن اللعنة التي تثقل على بني جنسه ؟ ألكي يموت وهو في العشرين على طريق مقصوفة بالرشاشات ، وهو يمسك امعاءه بيديه ؟ بأبيك ستكون معتزاً ، شهوانياً وشريراً . اما بي ، فستكون يهودياً . وتناولت يده :

– هيا ، تعال ، لقد آن الاوان .

واكتسح الحشد الطريق والحقول ، كثيفاً ، عنيداً ، لا تمكن تهدئته: إنه طوفان . ليس من ضجة سوى احتكاك النعال الهامسة بالأرض . وغمرت ساره لحظة ضيق ، فارادت ان تهرب الى الحقول ، ولكنها تمالكت نفسها ، واخذت بابلو تجره مستسلمة . الرائحة . رائحة الرجال حارة ، آسنة ، مكبرتة ، حامزة ، معطرة . رائحة غير طبيعية لحيوانات تفكر . وبين رقبتين حمراوين كانتا تحتميان بطاقيتين ، رأت السيارات الأخيرة تنسل في البعيد ، الآمال الأخيرة . واخذ بابلو يضحك ، فانتفضت ساره ، وقالت وهي تحس الخجل :

– هس . يجب الا تضحك .

وكان ما يزال يضحك ، من غير ان يحدث صوتاً .

– لماذا تضحك ؟

فاجاب موضحاً : – إن ذلك يشبه الدفن .

وكانت ساره تحدس بوجوه وعيون ، الى يمينها والى يسارها ، ولكنها لم تكن تجرؤ على النظر اليها . كانوا يسيرون ؛ كانوا يصرون على السير كما كانت تصر هي على العيش : وكانت جدران من غبار ترتفع وتهوي عليهم ؛ وكانوا يسيرون ابداً . وكانت ساره مستقيمة مرفوعة الرأس ، تحدد نظرها بعيداً ، بين الرقاب ، وتردد

لنفسها : « لن أصبح مثلهم ! » ولكن بعد لحظة ، اخترقها هذا السير الجماعي ، وصعد من ساقيها الى بطنها . وأخذ يخفق فيها كقلب كبير مقسور ، قلب « الجميع » .

وسأل بابلو فجأة : — هل يقتلنا النازيون اذا أخذونا ؟

قالت ساره : — هس ! لا ادري .

— سيقتلون جميع الناس الموجودين هنا ؟

— ولكن اسكت ، اقول لك إني لا ادري .

— يجب إذن ان نركض .

وشدّت ساره على يده .

— لا تركض ، إبق هنا . إنهم لن يقتلونا .

والى يسارها ، كان ثمة نَفَس خشن . كانت تسمعه منذ خمس دقائق ، من غير ان تتنبه اليه . وقد انسلّ فيها ، وأقام في رئتيها ، وأصبح « نَفَسها » هي . وأدارت رأسها فرأت امرأة عجوزاً ذات خصلات رمادية كان العرق يدبقها . وكانت عجوزاً من المدن ، ذات خدين ابيضين وجيوب مائية تحت العينين ؛ وكانت تزفر . ولا بد انها قد عاشت ستين عاماً في باحة بـ « مونتروج » ، في بيت تابع لدكان بـ « كليشي » ؛ اما الآن ، فقد تركوها في الطرق ، وكانت تشدّ على خاصرتها حزمة مستطيلة الشكل ؛ وكانت كل خطوة تخطوها سقوطاً : كانت تسقط بقدم على الأخرى ، ورأسها يسقط في الوقت نفسه : « من الذي نصحها ان ترحل ، وهي في تلك السن ؟ أليس يكفي الناس ما يعانونه من شقاء حتى يذهبوا الى اختراع المزيد منه؟» كانت الطيبة تصعد في ثدييها كأنها الحليب : سوف اساعدها ، سآخذ منها حزمتها ، وتعبها ، وهمومها . وسألت في رقة :

— هل انت وحيدة ، يا سيدتي ؟

فلم تُدر العجوز حتى رأسها . فقالت ساره بصوت أعلى :

— يا سيدتي ! هل انت وحدك ؟

فنظرت اليها العجوز نظرة مغلقة . وقالت ساره :

— استطيع ان احمل حزمتك .

وانتظرت لحظة ، .وكانت تنظر الى الحزمة في شهوة . واضافت بصوت ملحّ :

— أعطيني اياها ، ارجوك : فسأحملها ما دام الصغير يستطيع المشي.

قالت العجوز : — انني لا أعطي حزمتي .

— ولكنك مرهقة ، ولن تستطيعي المضي حتّى النهاية .

فقذفتها العجوز بنظرة حاقدة ، وحادت خطوة وأجابت :

— انني لا اعطي احداً حزمتي .

فتنهدت ساره وصمتت . وكانت طيبتها التي لم تنفقها تملأها كأنها غاز . انهم لا يريدون ان نحبهم . وكانت بضعة رؤوس استدارت اليها، فاحمرت خجلا . انهم لا يريدون ان نحبهم ، فهم لم يألفوا ذلك.

— الا يزال المكان بعيداً ، يا ماما ؟

فاجابت ساره منزعجة : — مثل ما كان تقريباً منذ حين .

— إحمليني يا ماما .

فهزت ساره كتفيها : « انه يمثل .. لقد غار لاني اردت ان احمل حزمة العجوز . »

—جرب ان تمشي قليلا بعد .

— لا استطيع بعد ، يا ماما . إحمليني .

فتركت يـــده في غضب ، سوف يأخذ مني كل قوايِ ، ولـــن استطيع بعد ان أساعد أحـــداً . سوف تحمل الصغير ، كما تحمل العجوز حزمتها ، وستصبح شبيهة بهم .

وقال يفحص برجله الارض :

— إحمليني . إحمليني .

فهمست بقسوة : — انك لم تتعب بعد ، يا بابلو . فقد خرجت الساعة من السيارة .

فأخذ الصغير ينطنط ؛ وكانت سارة تمشي رافعة الرأس ، جاهدة ألا تفكر به بعد ، وبعد لحظة ، رمته بنظرة مواربة فرأت انه كان يبكي . كان يبكي بهدوء ، في غير ما صوت ، لنفسه وحدها ، وكان بين الفينة والفينة يرفع أصابعه الصغيرة ليسحق الدموع على وجنتيه . واستشعرت الخجل ، وفكرت : « انني مفرطة القسوة . طيّبة مع الجميع بدافع الفخر ، قاسية معه لانه لي . » كانت تعطي نفسها للجميع وتنسى نفسها ، تنسى انها كانت يهودية ، وانها كانت هي نفسها معذبة ، وكانت تهرب الى احسان عظيم غير ذاتي ، وفي تلك اللحظات ، كانت تحتقر بابلو لانه كان لحم لحمها وكان يعكس لها جنسها . ووضعت يدها الكبيرة على رأس الصغير ، وفكرت : « ليس الذنب ذنبك ان كان لك وجه ابيك وجنس امك . » وكانت حشرجة العجوز الصافرة تدخل رئتيها . « ليس لي الحق بان اكون كريمة الإحسان » ونقلت حقيبتها الى يدها اليسرى وجثت وهي تقول بمرح :

— ضع ذراعيك حول عنقي . وخفّف جسمك . هوب ؟ انني أرفعك .

وكان ثقيلا ، وكان يضحك بملء فمه ، وكانت الشمس تجفف دموعه ، لقد أصبحت شبيهة بالآخرين ، واحداً من القطيع ، وكانت السنة من نار تلحس رئتيها لدى كل زفرة؛ كان ألم حاد ينشر كتفها ، وكان تعب ليس هو بالسخي ولا بالمراد يخفق في صدرها كالطبل .تعب امرأة وتعب يهودية ، «تعبها» ، «قدَرها» وامحى الأمل. انها لن تصل ابداً الى « جيان » . لا هي ولا احد . لم يكن لأحد أمل ، لا العجوز ، ولا الرقبتان ذواتا القبعتين ، ولا الزوجان اللذان كانا

يدفعان دراجة منفجرة العجلتين . ولكننا مأخوذون في الجمع ، والجمع يمشي ونحن نمشي . اننا لسنا بعد الا ارجل هذا القمل الذي لا ينفد . فما جدوى السير اذ يكون الامل ميتاً ؟ ما جدوى الحياة ؟

وحين بدأوا يصرخون ، لم تكد تدهش ؛ وتوقفت بينما كانوا يتبددون ويقفزون على التلال وينبطحون في الحفر . وتركت محفظتها تسقط ، وظلت في وسط الطريق ، مستقيمة ، وحيدة ، معتزة ؛ وكانت تسمع هدير السماء ، وكانت تنظر عند قدميها الى ظلها الذي أصبح طويلا ، وكانت تشدّ بابلو الى صدرها ، وامتلأت اذناها صخباً وضجيجاً ، وكانت ، للحظة ، كائناً ميتاً . ولكن الهدير تناقص ، ورأت شراغيف تجري في ماء السماء ، وخرج الناس من الحفر ، وكان لا بد من العودة الى الحياة ، والى السير .

قال ريتشي : — إنه بالاجمال لم يكن لئيماً : فقد دعانا للغداء وأعطاك مئة دولار مسبقاً .

فقال غوميز : — نعم ! صحيح ..

وكانا في الطابق الارضي من « متحف الفن الحديث » ، في قاعة « المعروضات الموقتة » . وكان غوميز يولي ريتشي واللوحات ظهره ، مسنداً جبينه الى الزجاج ، ينظر في الخارج الى الزفت والى عشب الجنينة الدقيق . وقال من غير ان يلتفت :

— ربما كان في استطاعتي الآن ان افكر بشيء آخر غير طعامي .

فقال ريتشي في طيبة :

ـ لا بد انك مسرور تماماً .

وكانت تلك دعوة خفية : لقد وجدت عملا ، فكل شيء على خير ما يرام ، في خير العوالم ؛ ويحسن بك ان تظهر حماسة بناءة .

ورمى غوميز من فوق كتفــه نظرة معتمة لريتشي : مسرور ؟ انك انت المسرور ، لأنك لن تحملني بعد على ظهرك .

وكان يحس أنه عاق الى ابعد الحدود الممكنة . وقال :

— مسرور ؟ سوف نرى .

فقسا وجه ريتشي قليلاً :

— ألست مسروراً؟

فردّد غوميز وهو يقهقه :

— سوف نرى .

وترك جبينه يتداعى ثانية على الزجاج ، ونظر الى العشب في مزيج من الطمع والنفور . كانت الألوان قد تركته حتى تلك الحين هادئاً ، ولله الحمد : كان قد دفن ذكريات ذلك الزمن الذي كان يتيه فيــه عبر شوارع باريس ، موسوساً مأخوذاً ، ، مسعور الكبرياء امــام قدَره ، ومردداً مئة مرة في اليــوم : انني رسام . ولكن رامون كان قد أعطى المال ، وكان غوميز قد شرب خمرة « شيلي هوايت » وتحدث عن بيكاسو للمرة الاولى منذ ثلاثة أعوام . وكان رامون قد قال : « بعد بيكاسو ، لا ادري ما يمكن لرسام ان يفعل » فابتسم غوميز ، وقال : « اما انا ، فأدري . » ، وكانت شعلة جافة قــد انتعشت في قلبه . واذ خرج من المطعم : أحسّ كما لو انــه قد اجريت له عملية السادّة [1] : فان جميع الألوان كانت قد أضاءت في الوقت نفسه تدعوه للعيد ، كما في عام ٢٩ ، كان مهرجان «رودوت» الراقص ، والكارنفال ، والفانتازيا ؛ وكان الناس والاشياء قد احتقنت الوانهم ، فكان بنفسج ثوب ما يحول الى العقيق ، وباب دكان احمر يميل الى القرمز ، وكانت الألوان تخفق خفقاً شديداً في الأشياء ، كأنها نبضات مجنونة ؛ كانت انطلاقــات واهتزازات تتضخم حتى

(١) الماء الازرق في العين

لتنفجر ؛ وكانت الاشياء على وشك ان تتحطم او تسقط هامدة ، وكان ذلك كله يصيح ويشتم ، فكأنها السوق الحافلة . وكان غوميز قد رفع كتفيه : ان الالوان تعاد اليه وقد كفّ عن الايمان بقدره ؛ إن ما ينبغي ان يعمل ، أعرفه جيداً ، ولكن سيقوم به شخص آخر . وكان قد تعلق بذراع ريتشي ، وحث خطاه ، محدّد البصر ، ولكن الالوان كانت ترهقه من لجانب ، وكانت تنفجر في عينيه ككرات من دم وصفراء . وكان ريتشي قد دفعه في المتحف ، وها هو الآن هنا ، وهناك تلك الخضرة ، من الجانب الآخر من الزجاج ، هـذه الخضرة الطبيعية المبهمة التي لم تكتمل ، كأنهـا افراز عضوي شبيه بالعسل ، واللبن السميك . كان ثمة تلك الخضرة التي ينبغي ان تؤخذ: سوف اجتذبها وأحيلها الى حالة التأجج بالبياض ... وما عساني أفعل بها : لقد كففت عن الرسم . وتنهد : إن الناقد الفني لا يؤجر على عمله ليهتم بالعشب الطاغي ، وانما هو يفكر في افـكار الآخرين . وخلفه كانت الوان الآخرين تتمدد عـلى اللوحات : مقتطفات ، وجواهر ، وافكاراً . لقد حظيت تلك الألوان بأن تصل ؛ فقد نُفخت ودُفعت الى اقصى حدود نفسها وقد حققت قدرَها ، فليس ثمة بعدُ إلا ان تحفظ في المتاحف . الوان الآخرين ، إنها الآن نصيبه . وقال :

ــ اسمع ، يجب ان اكسبها ، المئة دولار .

والتفت : كان ثمة خمسون لوحة « لمودريان » على جدران هذه العيادة البيضاء : رسم معقم في قاعة مكيفة ؛ ليس ثمة ما هو مريب ؛ إن المرء بمنجى من الميكروبات والعواطف المهووسة . واقترب من لوحة فتأملها مطولا . وكان ريتشي يرقب وجه غوميز ويبتسم مقدّمـاً . وتمتم غوميز :

ــ انها لا توحي لي بشيء .

فكفّ ريتشي عن الابتسام ، ولكنه بـدا متفهماً جداً ، فقال

في لباقة :

– طبعاً ؛ ليس من الممكن ان تستعيد حسك الفني على الفور ، بل ينبغي ان تمارسه من جديد .

فردد غوميز مغتاظاً :

– أمارسه من جديد ؟ لا بصدد «هذه» .

وأدار ريتشي رأسه نحو اللوحة . كان خط عمودي أسود يقطعه خطان افقيان ، يرتفع على أرضيـة رمادية ؛ وكان الطرف الأيسر للخط الاعلى تكلله اسطوانة زرقاء .

– كنت أحسب انك تحبّ موندريان .

قال غوميز : – وانا ايضاً كنت احسب ذلك .

وتوقفا أمام لوحة اخرى ؛ وكان غوميز ينظر اليهـا محاولا ان « يتذكر » وسأله ريتشي في قلق :

– أمن الضروري حقاً ان تكتب عنها ؟

– ليس ذلك ضرورياً . ولكن رامون يريد ان اكرّس له مقالي الاول . واعتقد انه يجد ان ذلك يوحي بالجدّ .

قال ريتشي : – كن حكيماً ، ولا تبدأ بنقد شديد .

فسأل غوميز منتفضاً : – ولِمَ لا ؟

وابتسم ريتشي في سخرية هادئة :

– واضح انك لا تعرف الجمهور الاميركي ، انه لا يريد خصوصاً ان يُذعر . ابدأ بتحقيق شهرة لنفسك : قل اشياء بسيطة ومعقولة ، وقلها بطريقة لذيذة . واذا أصررت على مهاجمة احد ، فلا تختر على كل حال موندريان : انه إلهنا .

قال غوميز : – عجباً . انه لا يثير قضية .

فهزّ ريتشي رأسه وطقطق بلسانه مرات ، علامة المعارضة وقال :

– بل هو يثير قضايا كثيرة .

– نعم ، ولكنها ليست قضايا مزعجة .

قال ريتشي : – آه ، تعني قضايا حول الجنسية او معنى الحياة او الفقر ؟ صحيح انك تلقيت دروسك في المانيا .

وأضاف وهو يربت على كتفه :

– « الغروندليشكايت » ؟ أليس كذلك ؟ الا ترى ان زمن ذلك قد تولّى ؟

فلم يجب غوميز .

وقال ريتشي :– رأيي هو ان الفن لم يجعل ليطرح قضايا مزعجة ، افرض أن أحداً جاء يسألني ان كنت قد اشتهيت أمي : انني اسارع بطرده ، إلا ان يكون محققاً علمياً . ففي هذه الظروف ، لا أفهم لماذا يسمح للرسامين ان يسألوني علناً عن عُقَدي . (وأضاف بلهجة مصالحة) انني كسائر البشر ، ولي مشكلتي ، غير انها اذا ارهقتني فلا اقصد المتحف ، بل أتصل بعالم نفسي . فلكل مهنته : ان العالم النفسي يوحي لي بالثقة لانه قد سبق له ان درس نفسيته بالذات . وما لم يفعل الرسامون مثل ذلك ، فسيظلون يتحدثون عن كل شيء خبط عشواء ، ولن اطلب منهم ان يضعوني تجاه نفسي .

وسأله غوميز في شرود :

– وماذا تطلب منهم ؟

وكان يرقب اللوحة في عناد شرس ، ويفكر : « انه ماء رائق . »

وقال ريتشي :

– إنني اطلب منهم البراءة . فهـذه اللوحة ...

– ما بها ؟

فقال في نشوة : – انها ساروفيمية . اننا ، نحن الاميركيين ، تريد رسماً للبشر السعداء او الذين يحاولون ان يكونوا سعداء .

قال غوميز : – انا لست سعيداً ، وسأكون قذراً جباناً إن حاولت ان اكونه حين يكون جميع رفاقي في السجن او اعدموا رمياً بالرصاص .

وطقطق لسان ريتشي من جديد وقال :

– انني يا عزيزي افهم جيداً همومك كانسان . الفاشية ، هزيمة الحلفاء ، اسبانيا ، زوجتك ، طفلك : بكل تأكيد ! ولكن يحسن احياناً الارتفاع فوق هذا .

قال غوميز : – لن افعل ذلك لحظة واحدة ! لحظة واحدة !

فاحمر ريتشي بعض الشيء ، وسأله :

– ما الذي كنت ترسم إذن ؟ اضرابات ؟ مجازر ؟ رأسماليين يرتدون قبعاتهم ؟ جنوداً يطلقون النار على الشعب ؟

فابتسم غوميز .

– انت تعلم اني لم اؤمن قط ايماناً كبيراً بالفن الثوري . والآن ، كففت عن الايمان به تماماً .

قال ريتشي : – وإذن ؟ نحن على اتفاق .

– ربما . ولكني في الوقت نفسه أتساءل عما إذا لم اكفّ عن الايمان بالفنّ اطلاقاً .

فسأله ريتشي : – وبالثورة اطلاقاً ؟

فلم يجب غوميز ، واستعاد ريتشي بسمته :

– انتم المثقفين الاوروبيين ، تسلّوني : إنكم تشعرون بعقدة نقص تجاه «العمل» .

فالتفت غوميز فجأة وامسك بذراع ريتشي :

– تعال ! لقد رأيتهم بما فيه الكفاية . انني اعرف موندريان عن ظهر قلب ، فبوسعي ان اخربش مقالاً . فلنصعد .

– الى اين ؟

– الى الطابق الاول . اريد ان أرى الآخرين .

– أيّ آخرين ؟

وكانا يجتازان قاعات العرض الثلاث . وكان غوميز يدفع ريتشي أمامه من غير ان ينظر الى شيء . وردّد ريتشي في انزعاج :

– أيّ آخرين ؟

– جميع الآخرين . كلي ، روو ، بيكاسو : اولئك الذين يطرحون قضايا مزعجة .

وكانا عند اسفل السلم . وتوقف غوميز . فنظر الى ريتشي في تململ وقال بما يشبه الخجل :

– انها اللوحات الاولى التي اراها منذ عام ٣٦ .

فردّد ريتشي مشدوهاً : – منذ ٣٦ ؟

– انما سافرت الى اسبانيا في تلك السنة بالذات . وكنت في تلك الفترة أنقش الصور على النحاس . وهناك صور لم يتح لي ان أنجزها ، وهي باقية على طاولتي .

– منذ ٣٦ ؟ ولكن في مدريد ؟ لوحات « البرادو » ؟

– لقد ُنهبت وأخفيت وُبعثرت .

فهزّ ريتشي رأسه :

– لا بدّ انك تألمت كثيراً .

فضحك غوميز ضحكاً خشناً وقال : – كلا .

فتلونت دهشة ريتشي بالعتاب :

– انا شخصيـــاً لم ألمس قط فرشاة ، ولكن « يجب » ان اذهب الى جميع المعـارض : فهـــذه حاجة . فكيف يستطيع رسّام ان يبقى اربعة اعوام من غير ان يرى رسماً ؟

قال غوميز : – انتظر ، انتظر قليلاً ! فسأعرف بعد دقيقة ان كنت ما ازال رساماً .

ورقيا السلم فدلفا الى القاعة . وكانت عـــلى الجدار الايسر لوحة لروو ، حمراء وزرقاء . وانزرع غوميز امامها ، فقال ريتشي :

– انه ملك مرزبان !

فلم يجب غوميز ، وقال ريتشي :

– انا شخصياً لا أتذوّق كثيراً روو . اما انت ، فلا بد ان ذلك

يروق لك .

– ولكن اسكت لحظة !

ونظر فترة اخرى ، ثم خفض رأسه وقال :

– هيّا بنا .

قال ريتشي : – ان كنت تحب لوحات روو ، ففي الداخل لوحة أجدها اجمل كثيراً .

قال غوميز : – لا حاجة الى ذلك . فقد أصبحت أعمى .

فنظر اليه ريتشي فاغر الفم وصمت . وهزّ غوميز كتفيه قائلا :

– كان ينبغي ألا اطلق النار على الناس .

وهبط السلم ، وكان ريتشي متصلباً جداً ، متكلف الوقار . وفكر غوميز : « انه يجدني مشبوهاً » . اما ريتشي ، فقد كان ملاكاً ، بالطبع ؛ وكان بالامكان ان يقرأ الانسان في عينيه عناد الملائكة ؛ وقد سبق لأجداده ، الذين كانوا ملائكة كذلك ، ان أحرقوا بعض السحَرة في ساحات بوسطن . « انني أعرق ، وانا مسكين . ولي افكار مشبوهة . افكار من اوروبا ؛ وسينتهي الأمر بملائكة امير كا الى احراقي . » هناك كانت المعسكرات ، أما هنا ، فالمحرقة : ولم يكن له الا حيرة الاختيار .

وكانا قد بلغا قاعة البيع ، بالقرب من المدخل . فقلّب غوميز في شرود مجموعة من صور اللوحات المنسوخة . إن الفنّ متفائل . وقال ريتشي :

– اننا ننجح في صنع صور رائعة . انظر هذه الألوان : انها اللوحة نفسها .

جندي ميت ، وامرأة تصيح : انعكاسات على قلب هادىء . إن الفن متفائل ؛ والآلام مبررة ما دامت تصلح لخلق الجمال . انني « لست » هادئاً ، ولا « اريد » ان أبرر الآلام التي رأيت . باريس..

والتفت فجأة الى ريتشي :

– اذا لم يكن الرسم « كل شيء » كان مزاحاً .

— ماذا تقول ؟

فأغلق غوميز المجموعة بعنف وقال :

— ليس بالامكان رسم « الشر » .

وكان الحذر قـد ثلّج نظر ريتشي ، فكان يتأمـل غوميز بطريقة بلدية . وضحك فجأة في طلاقة ، ودسّ إصبعه بين جنبيه :

— انني افهمك يا عزيزي ! اربعة اعوام من الحرب : اناك بحاجة الى تربية جديدة كاملة .

فقال غوميز : — لا حاجة بـي الى ذلك . فانـا عـلى وشك ان اصبح ناقداً .

وساد صمت ، ثم قال ريتشي على عجل :

— هل تعلم ان في الطابق الارضي قاعة سينما ؟

— انني لم اضع قدمي هنا قط .

— وهم يعرضون افلاماً كلاسيكية وافلام وثائق .

— أراغب إنت في الذهاب اليها ؟

قال ريتشي : — ينبغي ان ابقى في هذه الانحاء ، فعندي موعد في الساعة الخامسة ، على بعد سبع محطات .

واقتربا من عمود خشبي فقرأا البرنامج ؛ وقال ريتشي :

— « القافلة نحو الغرب » : رأيتها ثلاث مرات . ولكن استخراج اللآلىء من « الترانسفال » يمكن ان يكون مسلياً (وأضاف برخاوة) هل تأتي ؟

فقال غوميز : — لا أحبّ اللآلىء .

فبدا على ريتشي العزاء . وبسم له بسمة عريضة برزت معها شفتاه بروزاً ظاهراً ، وربت على كتفه ، وقال له بالانكليزية ، كما لو أنه يسترد في وقت واحد لغته الام وحريته :

الى اللقاء .

ففكر غوميز : « لقـــد آن الاوان لشكره » ولكنه لم يستطع ان ينتزع كلمة ، فشدّ على يده في صمت .

وفي الخارج ، كان الاخطبوط ؛ وجذبه الف فم ، وكان المـاء يلتمع من مسامه ، فبلل قميصه دفعة واحدة ، وكانت تمر امام عينيه شفرة محمرّة . لا بأس ! لا بأس ! كان فرحاً لأنه غادر المتحف : كان الحر بلاء عظيماً ، ولكنه كـــان حقيقيـــاً . وكانت حقيقيةً تلك السماء الهندية التي كانت رؤوس ناطحات السحاب تدفعها فتعليها عـــلى جميع سماوات اوروبا ؛ وكان غوميز يمشي بين بيوت قرميدية حقيقية هي من فرط البشاعة بحيث لا يفكر احد بدهنهـا ، وتلك البناية العالية البعيدة التي كانت تشبه ضربة فرشاة خفيفة على قماشة ، كسفن كلود لورين ، كـــانت حقيقية ، ولم تكن سفن كلود لورين حقيقيـــة : فاللوحات هي احلام . وفكر في تلك القرية من مقاطعة « سيارامادر » حيث جرى قتال دام من الصباح حتى المساء : لقد كان على الطريق حمرة حقيقية . وصمم في سرور مرير : لن ارسم بعد الآن ابداً . من هـذه الناحية من المرآة ، « هنا » بالذات ، « هنا » ، مسحوقاً في كثافة هـــذا الأتون ، عـــلى « هـــذا » الرصيف المحرق ؛ كـــانت « الحقيقة » تنصب حوله جدرانهـــا العـالية ، فتسد جميـــع منافـــذ الأفق ؛ لم يكن ثمة شيء آخر في العـــالم ، غير هـــذا الحر وهـــذه الحجـــارة ، لولا الأحلام . وانعطف في الجـــادة السابعـــة ، ودحرجت الجموع مدّها عليه ، وكانت الامواج تحمل في قممهـــا باقات من عيون ملتمعة وميتة ، وكان الرصيف يرتجف ، وكانت الألوان المحررة تلطخه ، وكانت الجموع ترسل بخاراً شبيهاً بالذي يرسله قماش رطب تحت حرارة الشمس ؛ بسمات وعيـــون ، إثمّ ألاّ تبتسم ، عيون غائمة او واضحة ، عجلة او بطيئـــة ، كلها ميتة . وحاول ان يتابع المهزلة : ناس حقيقيون ، ولكن لا :

مستحيل ! واصطفق كل شيء في يديه ، وانطفأت فرحته ؛ كانت لهم عيون كتلك التي في الصور . اتراهم يعلمون ان باريس قد سقطت ؟ اتراهم يفكرون في ذلك ؟ كانوا جميعاً يمشون مشية مستعجلة ، وكان زبد انظارهم الابيض يلامسه لدى المرور . وفكر : ليسوا هم الحقيقيين ، وانما هم الأشباه . فاين هم الحقيقيون ؟ انهم في اي مكان، ولكنهم ليسوا هنا . ليس ثمة من هو هنا حقاً ، وانا والآخرون في ذلك سواء . كان شبه غوميز قد استقل الاوتوبيس ، وقرأ الجريدة وبسم لرامون ، وتحدث عن بيكاسو ، ونظر الى لوحات موندريان . كنت أجتاز باريس ، شارع رويال خال ، وساحة الكونكورد خالية ، وعلم ألماني يرفرف على مجلس النواب ، وفرقة من الجستابو تمر تحت قوس النصر ، والسماء منقّطة بالطائرات ، وانهارت جدران القرميد ، ودلفت الجموع تحت الارض ، وكان غوميز يمشي وحيداً في باريس. في باريس ، في الحقيقة ، « الحقيقة » الوحيــدة ؛ في الدم ، وفي الحقد ، في الهزيمة وفي الموت ، وتمتم وهو يحرّق الأرّم : « يـــا للفرنسيين القذرين ! انهم لم يستطيعوا المقاومة ، بل فروا كالأرانب . كنت أعرف ذلك، كنت أعرف انهم هالكون » . وانعطف الى اليمين وسلك الشارع ٥٦ ، وتوقف امام حانة ـ مطعم فرنسية : « ألابيتيت كوكيت » ونظر الى الواجهة الحمراء والخضراء ، وتردد لحظة ، ثم دفع الباب : كان يريد ان يرى الهيئة التي يبــدو عليها الفرنسيون .

وفي الداخل ، كان الجو معتماً ورطبـــاً تقريباً ؛ وكانت الستائر مسدلة ، والمصابيح مضاءة .

وسرّ غوميز للعودة الى النور الاصطناعي . وكانت القاعة الداخلية الغارقة في الظلام والصمت هي المطعم . وكان شاب قوى البنية مقصوص الشعر جالساً الى المشرب ، وعيناه ثابتتان خلف نظارته ؛ وكان رأسه يسقط الى الامام بين الفينة والفينة ، ولكن سرعان ما يرفعه في كثير

من الوقار . وجلس غوميز على مقعد مرتفع امام المشرب ، وكان يعرف الساقي بعض المعرفة ، فقال بالفرنسية :

– زجاجة ويسكي سكوتش مزدوجة . وهل لديك صحيفة من صحف اليوم ؟

فأخرج الساقي جريدة « النيويورك تايمس» من درج وأعطاه اياها . وكان فتى اشقر ذا هيئة حزينة ودقيقة ؛ ولو لم تكن لهجته بورجيّة ، لكان يُحسب من سكان « ليل » . وتظاهر غوميز بانه يقرأ التايمس ثم رفع رأسه فجأة . كان الساقي ينظر اليه نظرة متعبة .

قال غوميز : – الأخبار ، ليست سارة اليس كذلك ؟

فهزّ الساقي رأسه ، وقال غوميز :

– لقد سقطت باريس .

فأرسل الساقي صفرة كئيبة ، وملأ قدحاً صغيراً بالويسكي ثم أفرغ محتواه في قدح كبير ؛ وأعاد العملية ، ثم دفع القدح أمام غوميز . وأدار الاميركي ذو النظارة عينين زجاجيتين اليهما لمدة لحظة ، ثم انحنى رأسه بارتخاء ، كما لو انه كان يحييهما .

– سودا ؟

– نعم .

وأضاف غوميز من غير ان تثبط عزيمته :

– اعتقد ان فرنسا قد ضاعت .

فتنهد الساقي من غير ان يجيب ، وفكر غوميز في فرحة قاسية ، انه كان اشقى من ان يستطيع التكلم . فألحّ بما يشبه الحنان :

– ألا تظن ذلك ؟

وكان الساقي يسكب مـــاء غازياً في قدح غوميز . ولم يكن غوميز يغادر بعينيه هذه السحنة القمرية التي تنزع الى البكاء . سيقول له في اللحظة المناسبة : « ماذا فعلتم من اجل اسبانيا ؟ حسناً ! لقد جـــاء

دوركم في الرقص . »

ورفع الساقي عينيه واصبعه ؛ وتكلم فجأة بصوت هـادىء ، يخن بعض الشيء ، في لهجة « بورجية » فقال :

– إن لكل شيء ثمناً .

فقهقه غوميز وقال :

– أجل ، إن لكل شيء ثمناً .

واجال الساقي اصبعه في الهواء فوق رأس غوميز : نجم مذنب يعلن نهاية العالم . ولم يكن يبدو عليه انه شقي على الاطلاق ، وقال :

– ستعرف فرنسا ما يكلفها ان تتخلى عن حلفائها الطبيعيين .

ففكر غوميز مندهشاً : « مـا الذي يقول ؟ » ان النصر الوقح الحاقد الذي كان ينوي تفجيره على وجهه ، انما يفاجئه الآن في عيني الساقي . وبدأ يقول في حذر ، محاولا جسه :

– إن تشيكوسلوفاكيا حين ...

فهزّ الساقي كتفيه وقاطعه قائلا في ازدراء :

– تشيكوسلوفاكيا !

فقال غوميز : – ماذا ؟ لقد تخليتم عنها !

وكان الساقي يبتسم ، وقال :

– اسمع يا سيدي .. إن فرنسا حين كانت تحت سلطة « لويس » المحبوب ، لم يكن قد بقي لها غلطة لم ترتكبها .

قال غوميز : – آه انت كندي ؟

فقال الساقي : – انني من مونتريال .

– كان ينبغي ان تخبرني .

ووضع غوميز الجريدة على المشرب . وسأل بعد لحظة :

– الا يأتي الى هنا فرنسيون على الاطلاق ؟

فأومأ الساقي بسبابته الى نقطة تقـع خلف ظهر غوميز ، فالتفت

غوميز ، فاذا هو بعجوز جالس الى طاولة يغطيها خوان ابيض ، وهو يحلم امام صحيفة . فرنسي « حقيقي » ذو سحنة كثيفة ، مشققة ، محروثة ، وعينين براقتين قاسيتين ، وشارب رمادي . وكانت وجنتاه بالنسبة لوجنتي الاميركي الجميلتين ، تبدوان مقدودتين من مادة مسكينة على الأقل . فرنسي « حقيقي » ، في قلبه يأس حقيقي . وقال :

— عجباً : انني لم اتنبه لوجوده .

قال الساقي : — هذا السيد هو من «روان» . انه زبون .

وشرب غوميز قدحه جرعة واحدة وقفز الى الارض الخشبية . « ماذا فعلتم من أجل اسبانيا ؟ » ورآه العجوز قادماً من غير ان يظهر دهشة . وانزرع غوميز امام الطاولة وتأمل هذا الوجه المسن في شراهة :

— انت فرنسي ؟

قال العجوز : — نعم .

فقال غوميز : — انني ادعوك الى تناول قدح .

— شكراً ليس هذا يوماً مناسباً .

فسأله وهو يضع اصبعه على عنوان الجريدة :

— بسبب هذا ؟

— بسبب هذا .

قال غوميز : — انما ادعوك الى قدح ، بسبب هذا بالذات . لقد سكنت فرنسا عشر سنوات ، وما زالت زوجتي وابني فيها . ويسكي ؟

— ما دام الأمر كذلك ، فبلا سودا .

فطلب غوميز : — سكوتش بلا سودا ، وسكوتش بسودا .

وصمتا ، وكان الاميركي ذو النظارة قد استدار فوق كرسيه وأخذ ينظر اليهما صامتاً .

وفجأة سأل العجوز :

— اتراك لست ايطالياً ؟

فابتسم غوميز وقال :

ـ لا . لست ايطالياً .

فقال العجوز :

ـ إن الطليان قذرون .

« والفرنسيون ؟ » واستعاد غوميز صوته الرقيق ليسأل :

ـ هل لك هناك من احد ؟

ـ في باريس ، لا . ولكن احفادي في « مولين » .

ونظر الى غوميز في تنبّه :

ـ اني ألاحظ انك لست هنا منذ وقت طويل .

فسأله غوميز : ـ وانت ؟

ـ اني مقيم هنا منذ ٩٧ . لقد أصبح ديناً ثقيلا .

واضاف :

ـ اني لا احبهم .

ـ ولماذا انت باقٍ هنا ؟

فهزّ العجوز كتفيه وقال :

ـ اني اكسب المال .

ـ هل انت تاجر ؟

ـ بل حلاق . وحانوتي على بعد محطتين . وقد كنت اقضي شهرين في فرنسا ، كل ثلاثة اعوام . وكان المفروض ان اذهب اليهـا هـذا العام ، ولكن ها نحن ذا .

قال غوميز : ـ أجل ، ها نحن ذا .

واستطرد العجوز :

ـ منذ هذا الصباح ، قصد حانوتي اربعون زبوناً . يحدث هذا في بعض الأيام . وقد كانوا يريدون كل شيء : حلاقة الذقن ، وقص الشعر ، وشامبوانغ ، وتدليك بالكهربـاء . ربمـا ظننتَ انهم كانوا

يحدثوني عن بلدي ؟ على الاطلاق ! لقد كانوا يقرأون جرائدهم من غير ان ينبسوا بكلمة ، وكنت ارى العناوين بينما كنت أحاق ذقونهم . وكان بينهم زبائن في العشرين ، ولم يقولوا شيئاً . ولقد كان من حظهم اني لم اجرحهم ، كانت يدي ترتجف . واخيراً تركت عملي وجئت الى هنا .

قال غوميز : — انهم لا يبالون .

— ليست القضية انهم الى هذا الحدّ لا يبالون ، ولكنهم لا يجدون الكلمة التي ترضي . ان باريس كلمة تعني شيئاً في نظرهم . فهم لن يتحدثوا عنها : لأن ذلك يمسّهم بالذات هكذا ، هم .

وكان غوميز يتذكر جموع « الجادة السابعة » ، وقال :

— جميع هؤلاء الاشخاص في الشارع ، أتظنّ انهم يفكرون بباريس؟

— نعم ، على نحو ما . ولكنهم لو تعلم لا يفكرون كما نفكر نحن . فاذا اراد الاميركي ان يفكر في شيء يزعجه ، بذل كل ما في وسعه كيلا يفكر فيه .

وجاء الساقي بالقدحين ، فأخذ العجوز قدحه ونهض قائلاً :

— طيب ! نخبك .

قال غوميز : — نخبك !

وابتسم العجوز بحزن :

— اننا لا نعرف تماماً ما الذي ينبغي ان يتمناه احدنا للآخر ، أليس كذلك ؟

واستدرك ، بعد لحظة تفكير ، قائلاً :

— بلى : اني اشرب نخب فرنسا ، نخب فرنسا ، رغم كل شيء .

ولم يكن غوميز يريد ان يشرب نخب فرنسا .

— نخب دخول الولايات المتحدة الحرب .

فضحك العجوز ضحكة قصيرة وقال :

— من اجل هذا ، تستطيع ايضاً ان تشرب .
وافرغ غوميز قدحه ، والتفت الى الساقي :
— قدحان آخران .

كانت به حاجة الى الشرب . كان منذ لحظة يحسب نفسه وحيداً للاهتمام بفرنسا ، وكان سقوط باريس « قضيته » : مصيبة بالنسبة لاسبانيا ، وفي الوقت نفسه عقاباً بالنسبة للفرنسيين . ولكنه يعلم الآن انها كانت تطوف حول المشرب ، وانها تدور وتدور بشكل مبهم ومجرد عبر ستة ملايين روح . وكان ذلك امراً لا يحتمل تقريباً : فقد قطعت صلته الشخصية بباريس ، فليس هو بعد الا مهاجراً حديث العهد يستولي عليه ، ككثير غيره ، وسواس جماعي .

قال العجوز : — لا ادري ان كنت ستفهمني ، ولكن ها قد مر عليّ اكثر من اربعين عاماً وانا اعيش هنا ، ولكن منذ هذا الصباح فحسب وانا احسب نفسي في بلد اجنبي حقاً ، انني اعرفهم ولا اقع من ذلك في الاوهام ، اقسم لك . ولكني كنت اظنّ مع ذلك انني لا بدّ ان اجد شخصاً يمدّ لي يده او يقول كلمة .

واخذت شفتاه ترتعشان ؛ وردّد :
— زبائن في العشرين من العمر .

كان غوميز يقول في نفسه : « هذا فرنسي . واحد من الذين كانوا ينادوننا : **Frente Crapular** » ولكنه لم يكن ينجح في ان يبتهج ؛ وقرر اخيراً انه « عجوز اكثر مما ينبغي » وكان العجوز ينظر في الخلاء ، وقال من غير ان يؤمن كثيراً بما يقول :
— لاحظ : ربما كان ذلك بدافع التحفّظ .
فهمهم غوميز . وقال العجوز :
— هذا ممكن . هذا ممكن جداً . ان كل شيء ممكن معهم .
واضاف باللهجة نفسها :

– كان لي بيت في « روان »، وكنت انوي ان اركن اليه . اما الآن ، فانا اقول في نفسي بأنني سأموت هنا : وهذا يغيّر وجهة النظر .

ففكر غوميز : « طبعاً ، طبعاً ، ستموت هنا . » ولوى رأسه ، وكانت به رغبة في الذهاب ، ولكنه استدرك نفسه ، واحمر فجأة ، فزرع نظره في عيني العجوز وسأل بصوت صافر :

– هل كنت من مؤيدي التدخل في اسبانيا ؟

فسأل العجوز مذعوراً : – ايّ تدخل ؟

وتأمل غوميز في اهتمام :

– هل انت اسباني ؟

– نعم .

– لقد لحق بكم انتم ايضاً كثير من المصائب .

فقال غوميز بصوت محايد :

– إن الفرنسيين لم يساعدونا كثيراً .

– أجل ، انظر الآن : إن الاميركيين لا يساعدوننا . إن البشر والبلاد متشابهون : كلّ لمصلحته .

قال غوميز : – نعم ، كل لمصلحته .

إنه لم يرفع اصبعه ليدافع عن برشلونة ؛ وها قد سقطت الآن برشلونة ؛ وسقطت باريس ، ونحن كلانا في المنفى ، كلانا متشابهان ، ووضع الخادم القدحين على الطاولة ، فأخذاهما في وقت واحد ، من غير ان يغادر احدهما الآخر بنظره .

وقال العجوز : – انني اشرب نخب اسبانيا .

فتردد غوميز ثم قال بين اسنانه :

– انني اشرب نخب تحرير فرنسا .

وصمتا . كان ذلك يدعو الى الرثاء : دميتان عجوزان مكسورتان ، داخل حانة نيويوركية ، يشربان نخب فرنسا واسبانيا . مصيبة ! وطوى

العجوز جريدته بعناية ثم نهض :
— يجب ان اعود الى الحانوت . ان الدورة الاخيرة على نفقتي .
قال غوميز : — كلا ، كلا ، كلا . ايهـا الساقي . الدورتـان على نفقتي .
— اشكرك ، اذن .
وقصد العجوز الباب . ولاحظ غوميز انه كـان يعرج ، ففكر : « يا للعجوز المسكين ! » وقال للساقي :
— قدح آخر .
ونزل الاميركي عن كرسيه العالي وتوجه اليه وهو يتهادى ، فقال:
— اني سكران .
قال غوميز : — هكذا ؟
— ألم تلاحظ ؟
— كلا .
فسأله : — وهل تعلم لماذا انا سكران ؟
قال غوميز : — طز في ذلك !
فأطلق الاميركي تجشؤة مرنة وتداعى ساقطاً على الكرسي الذي كان قد غادره العجوز .
— لأن الألمان قد اخذوا باريس .
واظلم وجهه واضاف :
— انه اسوأ نبأ منذ عام ١٩٢٧ .
— وفي عام ١٩٢٧ ، اي نبأ سيء كـان هناك ؟
فوضع إصبعاً على فه وقال :
— هس ! أمر شخصي .
ووضع رأسه على الطاولة ، وبدا انه يغرق في النوم . وغادر الساقي المشرب مقترباً من غوميز وقال :

– احتفظ لي به دقيقتين . فهذه ساعته : فيجب ان اذهب فآتي له بالتاكسي .

فسأله غوميز :

– ما هذا الزبون ؟

– انه يعمل في وول ستريت .

– أصحيح انه سكر لأن باريس قد سقطت ؟

– اذا قال ذلك ، فلا بدّ انه صحيح . غير انه سكر في الاسبوع الماضي بسبب حوادث الارجنتين ، وفي الاسبوع الذي سبقه بسبب كارثة « سالت ليك سيتي » . انه يسكر كل يوم سبت ، ولكن لا بدون سبب .

قال غوميز : – إنه مفرط الحساسية .

وخرج الساقي على عجل . فوضع غوميز رأسه بين يديه وراح ينظر الى الجدار ؛ وكان يرى مرة اخرى ، بوضوح، النقش الذي تركه على الطاولة . كانت تنقصه كتلة داكنة الى اليسار لاقامة التوازن . ربما دغل . أجل دغل . واستعاد صورة النقش والطاولة ، والنافذة الكبيرة ، وأخذ يبكي .

الأحد ١٦ حزيران

– هناك .. هناك .. فوق الاشجار تماما .

كان ماتيو نائما ، وكانت الحرب قد خسرت . كانت قد خسرت حتى اعماق نومه ، وايقظه الصوت منتفضاً : كان مستلقياً على ظهره ، مغمض العينين ، وذراعاه لاصقتان بجسمه ؛ وكان قد خسر الحرب ، ولم يذكر جيداً ايان كان ، ولكن كان يعلم انه قد خسر الحرب .

قال شارلو بحيوية :

— الى اليمير ، قلت لك هناك فوق الاشجار تماماً . ترى ، أليس لك عينان في ثقبيك ؟.

وسمع ماتيو صوت نيبير الهادىء . وقال نيبير :

— آه .. آه .. هكذا .. هكذا !.

اين نحن ؟ في العشب . ثمانية مدنيين في الحقول ، ثمانية مدنيين باللباس العسكري تغطى كل اثنين منهم اغطية الجيش ، وكلهم نائمون على شراع خيمة وسط حديقة فاكهة ، لقد خسرنا الحرب ، استودعونا اياها فخسرناها . لقد تسالت من بين اصابعهم ، وانطلقت تخسر نفسها في ضجيج ، في مكان ما من الشمال .

— آه .. هكذا .. هكذا ..

وفتح ماتيو عينيه فرأى السماء ، وكانت رمادية متلألئة من غير سحاب ، ولا عمق ، لا شيء الا الغياب . وكان صباحٌ يتشكل فيها بهدوء ، قطرة نور تكاد تسقط على الأرض وتغمرها بالذهب . ان الألمان في باريس ، وقد خسرنا الحرب . بداءة ، صباح . صباح العالم الأول ، كجميع الاصبحة : كل شيء للصنع ، والمستقبل كله كان في السماء . واخرج يداً من تحت الغطاء فحك اذنه : انه مستقبل الآخرين . في باريس ، كان الالمان يرفعون عيونهم نحو هذه السماء ، فيقرأون فيها نصرهم ونتائجه . اما انا ، فليس لي بعد من مستقبل . وكان حرير الصبح يلامس وجهه ، ولكنه كان يشعر بازاء جنبه الايمن حرارة نيبير ، وبازاء فخذه اليسرى حرارة شارلو . سنوات اخرى للعيش : سنوات للقتل . هذا النهار المنتصر الذي يبزغ ريحَ صبح شقراء في شجر الحور ، وشمسَ ظهر على سنابل القمح، وعطرَ ارض ساخنة في المساء ، يجب قتله تفصيلا، دقيقة بعد الاخرى، فعندما يهبط الليل ، سوف يأسرنا الالمان . وتضخّم صوت الازيز ، ورأى الطائرة في الشمس المشرقة ، وقال شارلو :

— انها ايطالية .

واطلقت اصوات نائمة شتـــائم نحو السماء ، كانوا قـــد الفوا قافلة الطائرات الالمانية اللامبـالية ، وحربــا وقحة ثرثارة غير مؤذية : تلك كانت (حربهم) . امـــا الطليـان فلم يكونوا يلعبون اللعبة : كانوا يلقون قنابل . وقال لوبيرون :

— ايطالية ؟ آه .. انني اصدقك تمامـــا .. فانت لا تسمع المحرك كيف يدور بانتظام . هذه طائرة مستر شميدت ، نعم ، طراز ٣٧ .

فحدث انفراج تحت الاغطية وابتسمت الوجوه المقلوبة للطائرة الالمانية.

وسمع مـــاتيو بضعـة انفجـــارات مخنوقـــة ، وتشكلت في السماء اربـع غيوم مستـديرة .

قال شارلو :

— يا للحمقى !. ها هم الآن يطلقون النار على الالمان ..

وقال لونجان مغتاظا :

— ان هذا عمل يقودنا الى المذبحة .

واضاف شوارتز في ازدراء :

— حمقى لم يفهموا بعد .

وحدث انفجاران آخران ، وظهرت غيمتان قطنيتان مظلمتان فوق شجر الحور .

وردد شارلو :

— يا للحمقى .. يا للحمقى .

وكان بينيت قد انتصب مستندا الى مرفقه . وكـان وجهه الباريسي الصغير الجميل مورداً نضراً ، وكان ينظر الى رفاقه في صلف ، وقال في جفاء :

— انهم يقومون بمهنتهم .

وهز شوارتز كتفيه :

– وما جدوى هذا ، الآن ؟

وكانت المدفعية المضادة للطائرات قد صمتت : وكانت الغيوم تتبدد ، ولم يكن يُسمع بعد الا ازيز منتصر ومنتظم . وقال نيبير :

– انني لا اراهم بعد .

– بلى ، بلى : هناك ، باتجاه طرف اصبعي .

وخرج عود ابيض من الارض مصوباً نحو الطائرة : كان شارلو ينام عارياً تحت الغطاء ، وقال الرقيب بيارنيه بصوت قلق :

– الزم الهدوء ، فسوف تهديهم الينا .

– اي كلام .. انه في هذه الساعة يظننا قرنبيطاً ..

ومع ذلك فقد ادخل ذراعه ، وحين مرت الطائرة فوق رأسه ، تابع الرفاق بعيونهم باسمين قطعة الشمس الصغيرة هذه ، حمراء لامعة : كانت تلك تسلية الصباح ، الحادثة الاولى ذلك النهار . وقال لوبيرون :

– انها تقوم بنزهتها الصغيرة المشهيّة .

كانوا ثمانية قد فقدوا الحرب ، خمسة امناء سر ، ومراقبين ، واخصائياً بالاحوال الجوية ، مضطجعين جنباً الى جنب وسط الكرّات والجزَر ، لقد خسروا الحرب كما يخسر المرء وقته : من غير ان يشعر بذلك . ثمانية: شوارتز المرصص ، ونيبير موظف البنك، اونجان قاطع التذاكر ، ولوبيرون السمسار ، وشارلو روكلاو بائع المظلات ، وبينيت المراقب في المترو ، والاستاذان : ماتيو وبيارنيه . وكانوا قد قضوا تسعة اشهر في ضجر ، تارة بين الصنوبر ، وطوراً في كروم العنب ، وذات يوم ، ابلغهم صوت من بوردو هزيمتهم ، ففهموا انهم كانوا مذنبين . ولامست يد مرتبكة خد ماتيو ، فالتفت الى شارلو :

– ماذا تريد ، ايها العنيد ؟

وكان شارلو قد اضطجع على جنبه ، بحيث كان ماتيو يرى خديه الاحمرين وفمه الكبير ، وقال شارلو بصوت منخفض :

– اود ان اعرف . ترى ؟ هل نسافر اليوم ؟

وكان مظهرُ قلقٍ يدور على وجههالفرح من غير ان ينجح بالاستقرار في مكان ما .

– اليوم ؟ لا ادري .

وكانوا قد غادروا مورسبرون يوم ١٢ ، وكان قد حـــدث ذلك السباق المضطرب ، ثم هذا التوقف المفاجىء .

– ماذا نفعل هنا ؟ . اتستطيـع ان تخبرني ؟ .

– يقولون اننا ننتظر جيش المشاة .

– اذا لم يكن بوسع المشاة ان ينسحبوا ، فليس ذلك سبباً يكفي لان ننتن معهم .

واضاف في تواضع :

– انني يهودي كما تعلم . ولي اسم بولوني .

قال ماتيو بحزن : – اعرف ذلك .

قال شوارتز : – اسكتوا .. اسمعوا ..

وكان ذلك هديراً مخنوقاً متصلا . وكان قـــد استمر امس الاول وامس ، من الفجر حتى الليل ، ولم يكن احد يعرف من الذي يطلق وعلامَ يطلق .

وقال بينيت : – لا بد ان الساعة تقارب السادسة . فبالامس ، بدأوا في الخامسة وخمس واربعين دقيقة .

ورفع ماتيو معصمه فوق عينيه وقلبه ليستشير ساعته .

– انها السادسة وخمس دقائق . سيكون عجيباً ان نذهب اليـــوم (وتثاءب وقال) هيا . . ما يزال امامنا يوم نقضيه في هذا البلد .

وتثاءب الرقيب بيارنيه ايضاً وقال :

– حسناً .. لقد آن ان ننهض .

فلم يتحرك احد . وألمت بهم قطة باقصى سرعتها في خط متعرج

ثم كمنت فجأة ، وبدت مستعدة للوثوب ،ثم نسيت مشروعها فابتعدت بغير اكتراث وكان ماتيو قد نهض على مرفقه يتابعها بنظره . ورأى فجأة ساقين مقوستين في عصابتهما الجلدية الكاكية ، فرفع رأسه : كان الملازم الاول اولمان قد انزرع امامهم مشتبك الذراعين ، وهو يتأملهم مقطب الحاجبين ، ولاحظ ماتيو انه لم يكن حالقاً ذقنه : .

– ماذا تفعلون هنا ؟ ماذا تفعلون هنا ، اتكونون مجانين تماماً ؟ ولكن قولوا لي ماذا تفعلون هنا ؟

وانتظر ماتيو بضع لحظات ، واذ لم يجب احد ، قال من غير ان ينهض :

– لقد فضلنا ان ننام في الهواء الطلق ، يا سيدي الملازم .

– اسمعوا هذا .. مع الطائرات العدوة التي تحلق فوق المنطقة ؟ ان تفضيلكم يوشك ان يكلفنا غالياً : فجدير بهذا ان يسبب قصف الفرقة.

قال ماتيو بصبر :

– ان الالمان يعرفون جيداً اننا هنا ، ما دمنا قد قمنا بجميع تنقلاتنا في وضح النهار .

فلم يبد على الملازم انه سمع ، وقال :

– لقد سبق ان منعتكم من ذلك ، منعتكم من مغادرة العنبر . ثم ما هذه الطرق في ان تظلوا مضطجعين بحضرة رئيس لكم ؟

فحدثت حركة صغيرة متثاقلة على سطح الارض ، وجلس الرجال الثمانية على الاغطية ، ما تزال عيونهم تطرف من النعاس . ووضع شارلو ، الذي كان عارياً ، منديلا على عورته . وكان الطقس رطبا . وارتعش ماتيو فبحث عن سترته فيما حوله ليلقيها على كتفيه .

– وانت هنا ايضاً ، يا بيارنيه ؟ الا تشعر بالعار ، وانت صاحب درجة ؟ ينبغي ان تعطي الامثولة .

فقرص بيارنيه شفتيه من غير ان يجيب .

وقال الملازم :

ـ هذا لا يُصدَّق ... ولكن، هل تشرحون لي لماذا غادرتم العنبر ؟
كان يتكلم من غير اقتناع ، وبصوت عنيف ضجر ، وكان تحت عينيه دوائر مزرقة ، وكان لونه النضر مغتلماً .

ـ كنا نشعر بحرّ لا تطاق ، يا سيدي الملازم ، فلم نكن نستطيع النوم .

ـ حرّ لا يطاق ؟ إلامَ تحتاجون ؟ الى غرفة نوم مكيّفة؟ سأرسلكم هذه الليلة لتناموا في التـــدريب . مع الآخرين . اتراكم لا تعرفون اننا في حالة حرب ؟

فأشار لونجان اشارة بيده، وقال ببسمة غريبة :

ـ لقد انتهت الحرب ، يا سيدي الملازم .

ـ انها لم تنته ، ويجب ان تشعر بالعار ، اذ تقول انها انتهت ، حين يكون هناك شبان صغار يعرضون انفسهم للموت على بعد ثلاثين كيلو متراً من هنا ليغطّونا .

ـ يا للمساكين .. انهم يؤمرون بان يواجهوا الموت ويُقتلوا ، بينما يُوقَّع علي الهدنة .

فاحمرّ الملازم احمراراً شديداً.

ـ على كل حال ، انتم ما تزالون جنوداً. فما لم تعادوا الى بيوتكم تظلون جنوداً وتطيعون رؤساءكم .

فسأل شوارتز : ـ وحتى في معسكرات الاعتقال ؟

فلم يجب الملازم . كان ينظر الى الجنود في خجل محتقر ، وكان الرجال يبادلونه نظرة في غير ما انزعاج ولا نفاد صبر : انهم يكادون يتمتعون باللذة الجديدة ان يحسوا انفسهم مخيفين . وبعد لحظـــة ، هز الملازم كتفيه واستدار على عقبيه ، وقال من فوق كتفه :

ـ تفضلوا بالنهوض سريعاً .

وابتعد مستقيماً ، بخطوة راقصة . وفكر ماتيو : « رقصته الاخيرة» فبعد ساعات يطردنا الرعاة الالمان جميعاً نحو الشرق ، في هوشة من

غير تمييز للرتبة . »

وتثاءب شوارتز وبكى ، واشعل لونجان سيجاراً ، وكان شارلو ينزع العشب ركاما من حوله . كانوا جميعاً يخافون ان ينهضوا . وقال لوبيرون :

ـ هل رأيتم ؟ لقد قال : سوف ارسلكم لتناموا في التدريب . هذا يعني اننا لن نذهب .

قال شارلو : ـ لقد قال ذلك هكذا . فهو ليس ادرى منا بالامر .

وانفجر الرقيب بيارنيه فجأة ، متسائلا :

ـ من الذي يدري اذن ؟ من الذي يدري ؟

فلم يجب احد ، وبعد لحظة ، قفز بينيت على قدميه ، وسأل :

ـ هل نغتسل ؟

فقال شارلو متثائبا : ـ انني شخصياً موافق .

ونهض ، وكذلك نهض ماتيو والرقيب بيارنيه . وصاح لونجان :

ـ الطفل كادوم ..

كان شارلو عارياً متورداً لا شعر في جسمه ، ذا خدين ازهريين ، تداعب بطنه الصغير البارز اشعة الصباح الشقراء فيشبه اجمل اطفـال فرنسا . وجاء شوارتز خلفه بخطى خفية ، على عادته كل صباح ، وقال له وهو يدغدغه :

ـ انت مقشعر ، انت مقشعر ، ايها الطفل ..

فضحك شارلو وصاح وهو يتلوى ، كعادته ، ولكن بمرح اقل ، والتفت بينيت الى لونجان الذي كان يدخن بعناد :

ـ الا تأتي ؟

ـ لماذا ؟

ـ لتغتسل .

قال لونجان : ـ طز .. اغتسل ؟ ولمن ؟ للالمان ؟ سوف يأخذونني كما انا .

قال لونجان : — هيا ... هيا .. كفى !
قال بينيت : — يمكننا ان نفلت منهم .
— اتراك تؤمن ببابا نويل ؟
— حتى ولو كانوا سيأخذونك، فليس ذلك سبباً يكفي لكي تبقى قذراً متسخاً .
— لا اريد ان اغتسل من اجلهم .
قال بينيت : — ان ما تقوله سخيف ، سخيف جداً ..
فقهقه لونجان من غير ان يجيب ، وظل مسترخيا فوق الغطاء بهيئة تعال . ولم يكن لوبيرون قد تحرك هو ايضاً : كان يتظاهر بالنوم . واخذ ماتيو قربته واقترب من الحوض ، وكان الماء يسيل من انبوبين حديديين في الجرن الحجري ، وكان بارداً عارياً كانه بشره . وكان ماتيو قد سمع طوال الليل همسه المليء ، بالامل ، وتساؤله الطفولي ؛ وغطس رأسه في الحوض ، فاصبحت الاغنية البدائية تلك الطراوة البكماء النضرة في اذنيه ومنخريه ، ، وهذه الباقة من الورود المبتلة ، والزهور المائية في قلبه : الحمامات في نهر « اللوار » ، والخيزران ، والجزيرة الصغيرة الخضراء ، والطفولة . وحين نهض ، كان بينيت يغسل عنقه بالصابون في غضب ، فابتسم له ماتيو . كان يحب بينيت كثيراً . وقال بينيت :
— ان لونجان سخيف حقاً ، اذا جاء الالمان ، فيجب ان نكون نظيفين .
وادخل اصبعا في اذنه فاداره بقوة . وصاح به لونجان من مكانه :
— اذا كنت تحب النظافة الى هذا الحد ، فاغسل ايضاً قدميك . .
فرماه بينيت بنظرة شفقة وقال :
— ان الاقدام لا تُرى .
وأخذ ماتيو يحلق ذقنه . وكانت الشفرة مستعملة ، فكانت تحرق

بشرته : « في الاسر ، سأترك لحيتي تنبت . » وكانت الشمس تنهض ، وكانت اشعتها الطويلة المائلة تحصد العشب ؛ وكان العشب تحت الشجر طرياً نضراً ، فجوة نعاس في جنبي الصبـــاح . وكانت الارض والسماء ممتلئتين بالعلامات ، علامات الامل . وبين اوراق الحور أخذ رف من العصافير يغني ملء حناجره ، مستجيباً لداع غير مرئي، فكان ذلك أشبه بهبة طلقات نحاسية عنيفة جداً ، ثم صمت فجأة ، بصورة عجيبة . وكان القلق يطوف بالعشب والخضار الكثيفة كما كان يطوف على وجه شارلو ، من غير ان يحط في مكان . ومسح ماتيو شفرته بعناية وأعادها الى قربته . وكانت أعماق قلبه ضالعة مع الفجر والندى والظل ؛ وفي اعماق قلبه كان ينتظر عيداً . لقد نهض باكراً واغتسل كما يفعل يوم العيد . عيد في حديقة ، بمناسبة التناول الاول او بمناسبة عرس ، تدور فيه أثواب جميلة بين العرائش ، عند طاولة قائمة فوق العشب ، يتصاعد حولها طنين الزنابير الثملة بالسكّر. ونهض لوبيرون وذهب يبول عند السياج ؛ ودخل لونجان الى العنبر ، وتحت ذراعيه الاغطية ؛ وحين خرج اقترب من الحوض على غير اكتراث فغط إصبعه في الماء بهيئة لامبالاة وبطالة . ولم يكن ماتيو بحاجة الى ان ينظر طويلا الى وجهه المتقفع ليحس بأنه لن يكون ثمة عيد ، الآن ، ولا في المستقبل ابـــداً .

وكان المزارع الشيـخ قد خرج من بيته ، وكان ينظر اليهم وهو يدخن غليونه ، فقال شارلو :

— مرحباً يا بابا !

فقال المزارع وهو يهز رأسه : — مرحباً ! نعم ! مرحباً !

وخطا بضع خطوات ثم انزرع أمامهم :

— اراكم لم تذهبوا بعد ؟

فقال بينيت بجفاف : — كما ترى .

وقهقه الشيـخ ، ولم تكن تبدو عليه الطيبة .

ــ لقد سبق ان قلت لكم انكم لن ترجعوا .

ــ هذا ممكن .

وبصق بين قدميه ومسح شاربه :

ــ والألمان ؟ اتراهم يأتون اليوم ؟

فأخذوا يضحكون ، وقال لوبيرون :

ــ ربما أتوا وربما لم يأتوا . فنحن هناك ننتظرهم ؛ ونحن نتجمل لنستقبلهم .

وكان الشيـخ ينظر اليهم بهيئة غريبة ، وقال :

ــ ولكنكم انتم لستم مثلي . فانكم ستعودون من الأسر .

وسحب نفَساً من غليونه وأضاف :

ــ اما انا ، فاني الزاسي .

قال شوارتز : ــ نعرف هذا يا بابا . فغيّر الاسطوانة .

فهزّ الشيخ رأسه وقال :

ــ ما أعجب هذه الحرب ! ان المدنيين هم الذين يقتتلون الآن، بينما الجنود ينجون .

ــ كفى ، كفى ! انت تعلم جيداً انهم لن يقتلوك .

ــ اقول لك اني الزاسي .

قال شوارتز : ــ وانا ايضاً ألزاسي .

فقال الشيـخ ــ هذا ممكن ؛ ولكني حين تركت انا الالزاس ، كانت ما تزال لهم .

قال شوارتز : ــ انهم لن يؤذوك . فهم بشر مثلنا .

قال الشيـخ في غيظ مفاجيء :

ــ مثلنا ؟ خراء ! هل تستطيـع انت ان تقطع يدي طفل ؟

فانفجر شوارتز ضاحكاً ، وقال وهو يغمز ماتيو :

ــ انه يروي لنا خزعبلات الحرب الماضية .

وأخذ منشفته فمسح بها ذراعيه الضخمتين البازرتي العضلات وقال موضحاً ، وهو يلتفت الى العجوز :

انهم ليسوا مجانين . سوف يعطونك سجاير ، وشوكولا ، نعم وهذا ما يسمى بالدعاية ، وليس لك الا ان تأخذها ، فهي لا تُلزمك بشيء .

واضاف وهو ما يزال يضحك :

– اؤكد لك يا بابا انه من الافضل في يومنا هذا ان تكون من مواليد ستراسبورغ على ان تكون من مواليد باريس .

فقال المزارع : – لا اريد ان أصبح ألمانياً وانا في هذه السن ! طز ! انني أفضل ان يقذفوني برصاص بنادقهم .

فصفق شوارتز مؤخرته بيده ، وقال مقلداً اياه :

– أتسمعونه ؟ طز ! اما انا ، فافضل ان اكون المانياً حياً على على ان اكون فرنسياً ميتاً :

ورفع ماتيو رأسه باهتمام ونظر اليه ؛ وكان بينيت وشارلو ينظران اليه ايضاً . وكف شوارتز عن الضحك ثم احمر وهزّ كتفيه. وصرف ماتيو عنه عينيه ؛ ولم يكن لديه ميل ليمثل دور القضاة ، ثم انه كان يحب هذا الشخص الكبير السمين ، الهادىء ، الذي يقاوم الشقاء ؛ ولم يكن يريد ان يزيده اضطراباً بأي ثمن . ولم يكن احد ينبس بكلمة ؛ وهزّ الشيخ رأسه وأجال فيها حوله نظراً حقوداً . ثم قال :

–آه ! كان ينبغي ألاّ تخسر هذه الحرب . كان ينبغي الا تخسر .

وصمتوا ! وسعل بينيت، واقترب من الحوض فأخذ يجس الصنبور جساً بليداً . وأفرغ الشيخ غليونه على الحصى ، ونكث الارض بعقبه ليدفن الرماد ، ثم أولاهم ظهره وعاد يخطى بطيئة الى منزله . وساد صمت طويل ؛ كان شوارتز واقفاً بصلابة ، متباعد الذراعين . وبعد لحظة بدا انه يستيقظ ، فضحك بمشقة :

— لقد قلت ذلك سخريةً به .

لا جواب : كان الجميع ينظرون اليه . ثم فجأة ، ومن غير ان يتغيّر شيء في الظاهر ، تطامن شيء ما ، فحدث انفراج ، نوعٌ من التبعثر الجامد ؛ فانهارت الجماعة الصغيرة الغاضبة التي كانت قد تشكّلت حوله ؛ لقد اخذ لونجان ينظّف اسنانه بمديته ، وتنحنح لوبيرون ، وأخذ شارلو يدمدم بنظرة بريئة : انهم لم يكونوا ينجحون في الاستمرار على غضب ، الا اذا كانت القضية قضية استئذان او طعام . وتنسّم ماتيو فجأة عطر نعناع وافستين : كانت الاعشاب والزهور تستيقظ ، بعد العصافير ، فتلقي عطورها كما ألقت تلك غناءها ؛ وفكر ماتيو : « هذا صحيح ، هنا ايضاً الروائح . » روائـــح خضراء مرحة ، ما تزال نافذة وحامزة : انها ستصبح مسكّرةً اكثر فأكـــثر ، وستزداد ثراءً وانوثة ، ما ازرقّت السماء واقتربت المركبات الالمانية . ونشق شوارتز بقوة،ونظر الى المقعد الخشبي الطويل الذي سبق لهم ان جرّوه في الليلة السابقة وأسندوه الى جدار البيت وقال :

— حسناً ، حسناً ، حسناً .

وذهب يجلس على المقعد . وترك يديه تتدليان بين ركبتيه ، وقوّس كتفيه ، ولكنه كان يحتفظ بارتفاع رأسه وينظر امامه باستقامة نظرةً قاسية . وتردد ماتيو لحظة،ثم لحق به وجلس الى جانبه . وبعد حين ، انفصل شارلو عن الجمع وانزرع امامهما . ورفع شوارتز رأسه ونظر الى شارلو في جدّ ، وقال :

— يجب ان اغسل ثيابي .

وساد صمت ، وكان شوارتز ما يزال ينظر الى شارلو .

— لست انا الذي خسرها ، هذه الحرب ...

وكان يبدو الانزعاج على شارلو ، واخذ يضحك . ولكن شوارتز كان يتابع فكرته :

– لو ان الجميع عملوا مثلي ، فلربما كنا ربحناهـا . فليس لي ما اؤاخذ به نفسي .

وحكّ خده بهيئة اندهاش وقال :

– إن هذا لطريف !

وفكر ماتيو : هذا طريف ، أجل ، طريف . انه ينظر في الفراغ ويفكر : « انا فرنسي » فيجد ذلك طريفاً للمرة الاولى في حياتـه . « هذا طريف » اننا لم نر « فرنسا » قط : وانما كنا في داخلها ، لقد كانت ضغطَ الهواء ، وجاذبيـة الارض ، والفضاء ، والرؤية واليقين الهادىء بأن العالم قد خُلق للانسان ؛ وقد كان طبيعياً جداً ان يكون فرنسياً ، فتلك هي ابسط الوسائل واوفرها ليُحسّ نفسه عالمياً . لم يكن ثمة شيء للشرح : فقد كان على الآخرين ، عـلى الالمان ، والانكليز ، والبلجيكيين ان يشرحوا سوء حظهم او غلطتهـم بأن لا يكونوا رجالاً تماماً . لقد انقلبت فرنسا الآن على قفاها ،ونحن نراها ، نرى آلةً كبيرة معطلة ونفكر : هذا ما كان . « هـذا » : حادث ارضي ، حادث تاريخي . اننا ما نزال فرنسيين ، ولكن هـذا ليس طبيعياً بعد . فقد كان حادث واحد كافياً ليجعلنا نفهم اننا كنا عارضين . ان شوارتز يفكر بأنه عارض ، وهو لا يفهم نفسه بعد ، وهو مرتبك مع نفسه ؛ انه يفكر : كيف يمكن ان نكون فرنسيين ؟ هو يفكر : « لو كان لي بعض الحظ لَولدت المانياً . » واذ ذاك يتخـذ هيئـة القسوة ويرهف اذنه ليسمع وطنه البديل يتدحرج نحوه ؛ انـه ينتظـر الجيوش اللامعة التي ستقيم له العيد ، ينتظر اللحظة التي يستطيع فيها ان يستبدل بهزيمتنا نصرهم ، اللحظة التي يبدو له فيها « طبيعياً » ان يكون منتصراً والمانياً .

ونهض شوارتز وهو يتثاءب ، وقال :

– هيا ، سوف اغسل ثيابي .

فاستدار شارلو ولحق بلونجان الذي كان يتحدث مع بينيت . وظل ماتيو وحيداً على مقعده .

وتثاءب لوبيرون بدوره في صخب ، ثم قال :

— ما أشد ما ينزعج المرء هنا .

وتثاءب شارلو ولونجان . ونظر اليهما اوبيرون يتثاءبان ، فتثاءب من جديد ، وقال :

— إن ما ينقصنا هو ماخور .

فسأله شارلو في غيظ :

— هل تستطيع ان تضاجع في الساعة السادسة صباحاً ؟

— انا ؟ في اية ساعة أستطيع .

— امـــا انا ، فلا . ليست رغبتي في المضاجعة أشدّ منها في تلقي الركلات في المؤخّرة .

وقهقه لوبيرون :

— لو كنتَ متزوجـــاً لتعلّمت ان تفعل ذلك بلا رغبة ! والأمر الحسن حين تضاجع هو انك لا تفكر بشيء .

وصمتوا . وكانت شجرات الحور ترتعش ، وكانت شمس قديمـــة ترتجف بين أوراقها ؛ وفي البعيد كان يسمع هـدير القصف الطيب ، ذلك الهدير الذي كان يوماً قوياً جيداً ومطمئناً جداً حتى ليُظن أنه ضجةّ للطبيعة . وانقلب شيء ما في الهواء ، فسقط بينهم زنبور سقطة طويلة مطّاطة . وقال لوبيرون :

— اسمعوا !

— ماذا ؟

كان قـــد ساد حولهم نوعٌ من الفراغ ، هدوء غريب . كانت العصافير تغرد ، وكان ديكٌ يصيح في القنّ ؛ وفي البعيد ، كان ثمة من يضرب ضربات منتظمة عـــلى قطعة من حديد ، ومع ذلك ، فقد

كان هذا السكون : كان القصف قد انقطع .
قال شارلو :
— هيه ! هيه ! ولكن اسمعوا !
— نعم .
وكانوا مرهفين آذانهم من غير ان يكفّوا عن تبادل النظر . وقال بيارنيه في لهجة محايدة :
— سيبدأ الأمر هكذا . وذات لحظة يشمل الصمت كل الجبهة .
— اية جبهة ؟ ليس هناك من جبهة .
— أقصد كل مكان .
وخطا شوارتز في خجل خطوةً نحوهم وقال :
— اظن انه لا بدّ اولاً من اطلاق صوت بوق .
قال نيبير : — طز ! ليس ثمة من اتصالات بعد : ربما يكونون قد وقّعوا الهدنة منذ اربع وعشرين ساعة ، بينما نحن لا نزال ننتظرها هنا!
فقال شارلو وهو يضحك املاً :
— لعل الحرب قد انتهت منذ منتصف الليل . إن « وقف اطلاق النار » يكون دائماً في منتصف الليل .
— او عند الظهر .
— ولكن لا ، ايها العنيد ، بل في منتصف الليل : في الساعة الصفر ، أتفهم ؟
قال بيارنيه : — ولكن اصمتوا قليلاً .
فصمتوا . وكان بيارنيه يرهف سمعه وعلى وجهه علامات عصبية ؛ وظل شارلو فاغر الفم ؛ كانوا يستمعون الى « السلام » ، عبر السكون الضاجّ . سلام بلا مجد ولا قرع أجراس ، بلا طبول ولا أبواق ، سلام يشبه الموت .
قال لوبيرون : — خراء !

وكان الهـــدير قد عاد : ولكنه كان يبدو أقرب واكثر تهديداً . وشبك لونجان يديه الطويلتين وفرقع أصابعه . وقال في مرارة :

ــ ولكن ، يا إلـهي ،ماذا ينتظرون .؟ اتراهم يجدون اننا لم نقاتل بما فيه الكفاية ؟ ولم نفقد من الرجال عدداً كافيـاً ؟ أينبغي ان تهلك فرنسا هلاكاً كاملاً حتى يصمموا على وقف المذبحة ؟

كانوا موهونين وأعصابهم ثائرة ، مغتاظين في الضعف ، ذوي لون رصاصي هو الذي يخلفه سوء الهضم . كان حسبهم ان يسمعوا هدير طبل في الأفق لتسقط عليهم من جديد موجة الحرب الكبيرة . والتفت بينيت فجأة الى لونجان ، فأذا عيناه تقدحان العاصفة ، واذا يده متشنجة على حافة الحوض :

ــ أية « مذبحة » ، أليس كذلك ؟ أية مذبحـة ؟ أيان كانوا ، القتلى والجرحى ؟ اذا كنت قد رأيتهم ، فذلك لأنك محظوظ . امـــا انا ، فأني لم أر إلا ضراطين مثلك يركضون في الطرق وهم يرتعشون ذعراً .

وسأل لونجان في تعطف مسموم :

ــ ولكن ما بك ايها العنيد ؟ هل تشكو شيئاً ؟

ورمى نحو الآخرين بنظرة ضالعة :

ــ لقد كان صاحبنا بينيت فتى صغيراً طيباً ، وكنا نحبه لأنه كان مثلنا في المؤخرة ؛ ولم يكن هو الذي يتقدم الصف حين كانوا يطلبون متطوعاً . فالمؤسف ان يبدأ بقد المراجل عند انتهاء الحرب .

وتطاير الشرر من عيني بينيت وقال :

ــ انني لا أقد المراجل ، ايها الفرج الأحمق !

ــ بلى ، تقد المراجل ! تريد ان تمثل دور الجندي الصغير .

ــ هذا أفضل من أن أخرأ مثلك في لباسي .

ــ انتم تسمعونه : انني اخرأ في لباسي لأني اقول بأن الجيش الفرنسي

قد اسلم ساقيه للريح .

فسأله بينيت وهو يتمتم من الغضب :

ــ هل انت واثق من ان الجيش الفرنسي أسلم ساقيه للريح ؟ ايكون ويغان قد كشف لك أسراره ؟

فابتسم لونجان بسمة وقحة متعبة :

ــ لا حاجة الى اسرار ويغـان : إن نصف القوات في حالة هزيمة، والنصف الآخر محاصر في مكانه : ألا يكفيك هذا ؟

فكنس بينيت الهواء بحركة قاطعة :

ــ سوف نتجمع ثانية على ضفاف اللوار ، فنلتقـي بجيوش الشمال في « سومور » .

ــ أتعتقد بذلك انت ، ايها النابغة ؟

ــ بل قاله لي الكابتين . فليس لك الا ان تستخبر في « فونتينا ».

ــ اذا كان الامر كذلك ، فعلى جيوش الشمال ان تتدبّـر امرها ، لأن الالمان في مؤخرتها كما تعلم . اما فيما يخصّنا ، فانـــه يدهشني ان نصل في الموعد المحدّد .

وكان بينيت ينظر الى لونجان من تحت ، منخفض الجبين ، وهو يصفر ويضرب الارض بقدمه . وهز كتفيه بعنف كما لو انه يريد ان يتخلص من حشد ثقيل . وانتهـى به الامر الى القول ، وهو غاضب مذعور :

ــ حتّى ولو تراجعنا حتّى مارسيليا ، حتّى ولو اجتزنا فرنسا كلها، فتبقى امامنا افريقيا الشمالية .

وشبك لونجان ذراعيه وابتسم في ازدراء :

ــ ولماذا لا تقول جزيرة « سان ــ بيار ــ ايميكيلون » ايها الغبيّ ؟

قال بينيت وهو متجه اليه :

ــ أتحسب نفسك قوياً ؟ قل ، أتحسب نفسك قوياً ؟

فارتمى شارلو بينهما يقول :

– كفى ! كفى ! أظنكما لنا تتنازعا ؟ إن الجميع متفقون على ان الحرب لا تجدي شيئاً وانه يجب الانقطاع عن القتال (وأضاف بلهجة اقتناع حارة) يجب الانقطاع عن القتال الى الابد .

وكانوا جميعاً ينظرون اليه نظرة عميقة فيما كان يرتجف من الحماسة، حماسة ان يوفّق بين كل شيء : بين بينيت ولونجان ، وبين الالمان والفرنسيين . وما لبث ان اضاف بصوت يكاد يكون مبتهلاً :

– مهما يكن ، فينبغي ان نستطيع التفاهم معهم ، فهم على كل حال لا يريدون ان يلتهمونا .

فحوّل بينيت اليه غضبه قائلاً :

– لئن خسرنا الحرب ، فلأن امثالك مسؤولون عنها .

وكان لونجان يقهقه :

– هذا شخص آخر لم يفهم ، ذلك كل ما في الامر .

وساد صمت ، ثم التفتت الرؤوس جميعاً الى ماتيو على مهل . وكان يتوقع ذلك : فقد كانوا، اثر كل نقاش، يطلبونه للتحكيم لأنه كان ذا ثقافة . وسأله بينيت :

– ما رأيك في الامر ؟

فخفض ماتيو رأسه ولم يجب .

– هل انت أصمّ ؟ اننا نسألك رأيك ؟

قال ماتيو : – ليس لي من رأي .

واجتاز لونجان الممر وانزرع امامه :

– غير ممكن ! فالاستاذ شخص يفكر طوال الوقت .

– ولكنك ترى : ليس طوال الوقت .

– مهما يكن من امر ، فلست غبياً : انك تعلم جيداً ان المقاومة مستحيلة .

– كيف لي ان اعرف ذلك ؟

واقترب بينيت بدوره . فكانا يقفـــان الى جانـــبي ماتيو كملاكه وشيطانه . وقال بينيت :

– انت لست انهزامياً يائساً ، ولا يمكـــن ان ترغب بأن يضـــع الفرنسيون السلاح قبل ان يقاتلوا حتى النهاية !

فهزّ ماتيو كتفيه :

– لو كنت « انا » الذي يقاتل ، لأمكن ان يكون لي رأي . ولكن الواقع ان الآخرين هم الذين يتساقطون ، وسوف يقاتلون على اللوار : فليس بوسعي ان اقرّر بدلاً منهم .

قال لونجان وهو يتأمل بينيت بهيئة هازئة :

– اسمع جيداً : ان الانسان لا يقرر الحرب بدلاً من الآخرين .

وكان ماتيو ينظر اليهما في قلق :

– انني لم أقل هذا .

– كيف لم تقل ذلك ؟ لقد قلته منذ لحظة .

قال ماتيو : – اذا كان ثمة حظ ما ، ولو كان حظاً صغيراً جداً ...

– وإذن ؟

فهز ماتيو رأسه :

– ولكن انّى لنا ان نعرف ؟

فسأل بينيت : – ولكن ماذا يعني هذا ؟

فقال شارلو موضحاً :

– هذا يعني انه لن يبقى لنا الآن إلا أن ننتظر ، وألاّ نقلق بعد اكثر مما ينبغي .

فصاح ماتيو : – كلا ! كلا !

ونهض فجأة وهو يحرق الأرم :

– انني انتظر منذ طفولتي .

وكانا ينظران اليه من غير ان يفهما ؛ ونجح في ان يهدىء نفسه ، وقال لهما :

– ماذا يجدينا ان نقرّر او لا نقرّر ؟ فمنذا الذي يطلب رأينا ؟ اتراكما مدركين وضعنا ؟

فتراجعوا مذعورين ، وقال بينيت :

– كفى ، كفى ، اننا نعرفه .

– قال لونجان : – انت على حق ، فالعسكري البسيط لا رأي له.

فاستفظع ماتيو بسمته الباردة الدبقة ، وأجاب بجفاف :

– وأسوأ من ذلك وضع الأسير .

« كل شيء » يطلب منا رأينا . « كل شيء » واستفهام كبير يحاصرنا : إن هذه دعاية . انهم يطرحون علينا السؤال كما يطرحونه على رجال ؛ انهم يريدون ان يقنعونا بأننا ما زلنا رجالاً . ولكن لا، لا ، لا ! أية دعاية ، ظلّ هذا السؤال يطرحه ظلُّ حرب ، على مظاهر رجال .

– ماذا يجديك ان يكون لك رأي ؟ فلست انت الذي ستقرّر .

وصمت . وفكر فجأة : لا بدّ من العيش ، لا بد من ان يعيش وان يقطف يوماً فيوماً ثمار الهزيمة المتعفّنة ، وان يحوّل هذا الاختيار الكلي الذي يرفضه اليوم الى هزائم بالتفصيل . ولكني يا إلـهي ، لم اكن اريدها انا ، هذه الحرب ، ولا هذه الهزيمة ، فبأي تزوير يقسرونني على ان اتحمّلها ؟ وشعر بغضب حيوان وقع في الشباك يملأ نفسه ، واذ رفع رأسه ، رأى هذا الغضب نفسه يلتمع في عيونهما . ليتهم يصرخون في وجه السماء جميعاً : «لا شأن لنا قط بهذه الحكايات كلها ! اننا ابرياء! » وتلاشى اندفاعه : كانت البراءة تشع بكل تأكيد في الشمس الصباحية ، وقد كان بالامكان لمسها على اوراق العشب ولكنها كانت تكذب : فالبراءة الحقيقية هي هذه الغلطة المشتركة التي

لا يمكن لمسها ، « غلطتنا » . شبح حرب، شبح هزيمة ، وشبح إثم . ونظر الى بينيت ولونجـــان وهو يفتح يديه : لم يكن يعرف اذا كان يريد ان يساعدهما ام يطلب منهما المساعدة . ونظرا اليه ايضاً ثم لفتـــا رأسيهما وابتعدا . وكان بينيت ينظر الى قدميه ؛ وكان لونجان يبتسم لنفسه بسمة مرتبكة صلبة ؛ وكان شوارتز في ركن مع نيبير يتحدثان بالالزاسية ، ويكتسبان هيئة المشاركين الضالعين ؛ اما بيارنيه فكان يفتح يده اليمنى ويغلقها بحركة تشنجيّة . وفكّر ماتيو : « هذا هو مـــا صرنا اليه وأصبحناه . »

مارسيليا ، الساعة ١٤

طبعاً ، كان يشجب الحزن « بقسوة » ، ولكن من يسقط فيـــه بحاجة الى الشيطان ليخرجه منه . وفكر « لا بد ان لي طبعاً شقياً . » كان له كثير من المبررات لكي يبتهج : وكان بوسعه خاصة ان يهيء نفسه بأنه قضى على الصفاق وشُفي منه . ولكن بدلاً من ذلك كان يفكر : « ما زلت حيّاً » ويأخـــذه الاسى . اذا ما كان الانسان حزيناً ، فان اسباب الابتهاج هي التي تصبح حزينة ، فاذا هو يبتهج بحزن . وفكر : والواقع اني ميت . اذا كان الامر متعلقاً به ، فهو قد مات في « سيدان » في شهر ايار . والمصيبة هي كل هذه السنوات التي تبقى له ليعيشها . وتنهد من جديد ، وتابع بنظره ذبابة كبـــيرة خضراء كانت تمشي على السقف وانتهى الى التقرير : انني انسان قليل الذكاء . وكانت هذه الفكرة تزعجه بعمق . وكان بوريس حتى ذلك الحين قد اختطّ لنفسه ألاّ يتساءل قط عن ذاته ، وكان من ذلك في حالة رضى تام ؛ ومن جهة اخرى ، فما دامت القضية تقتصر على ان يعرّض نفسه للقتل ، فأنه ليس ذا أهمية كبيرة ان يكون قليل الذكاء،

بل على العكس ، إن ما يؤسف عليه كان أقلّ . اما الآن فقد تغيّر كل شيء : انه مرصود للحياة ، وقد كان مضطراً للاعتراف بأنه لم يكن يملك غايةً ولا موهبة ولا مالاً . وبالاجمال ، لم يكن يملك اي مزية مطلوبة ، ما عدا الصحة طبعاً . وفكر : ما أشدّ ما سأضجر ! واستشعر الخيبة . وطارت الذبابة وهي تطنّ ، وأمرّ بوريس يده تحت قميصه ولامس الجرح الذي كان يسطّر بطنه ، على مستوى الاربيّة ؛ وكان يحب ان يُحسّ تحت أصابعه بذلك المجرى اللحمي . وكان ينظر الى السقف ، ويلامس جرحه ، فيحس قلبه ثقيلاً . ودخل «فرانسيون» الى القاعة ، فاتجه الى بوريس على غير عجل ، بين الأسرّة الفارغة ، ثم توقف فجأة ، متظاهراً بالدهشة ، وقال :

— كنت ابحث عنك في الباحة .

فلم يجب بوريس ؛ وشبك فرانسيون ذراعيه في غيظ :

— أنها الساعة الثانية بعد الظهر ، ولا تزال في السرير !

فقال بوريس :

— هل انت مهموم ؟

— لست مهموماً :

فقال فرانسيون : — لا تحزن ، لا بد ان يزول ذلك .

وجلس على سرير بوريس واخذ يلفّ سيجارة . وكان لفرانسيون عينان كبيرتان جاحظتان وأنف شبيه بمنقار نسر ؛ وكان يبدو مريعاً . غير أن بوريس كان يحبه كثيراً، وكان حسبه احياناً ان يراه حتى يضحك ضحكاً جنونياً . وقال فرانسيون :

— بقي لنا قليل .

— كم ؟

— اربعة .

فعدّ بوريس على أصابعه :

ـ اي يوم ١٨ .

فهمهم فرانسيون علامة الاقرار ، ولحس الورقة المصمغة واشعل السيكارة ، ثم انحنى على بوريس يُساره :

ـ أليس ثمة احد هنا ؟

كانت جميع الأسرّة خالية : فقد كان الأشخاص في الباحة او في المدينة . قال بوريس :

ـ انت ترى .. الا ان يكون هناك جواسيس تحت الأسرّة .

فازداد فرانسيون انحناءً وأوضح قائلاً :

ـ في ليلة ١٨ ، يكون دور « بلين » في الخدمة . وستكون الطائرة على المدرج مستعدةً للاقلاع ، وهو يدخلنا عند منتصف الليل لنقلع في الساعة الثانية . وفي الساعة السابعة نكون في لندن . ما رأيك في ذلك!

ولم يكن بوريس ليقول شيئاً . كان يجسّ جرحه ويفكّر . انهم محظوظون . ثم يشعر بمزيد من الحزن . سوف يسألني عما صممت عليه.

ـ ماذا ؟ ماذا ؟ ما رأيك في ذلك ؟

قال بوريس : ـ رأيي انكم محظوظون .

ـ كيف ، محظوظون ؟ ما عليك إلا أن تأتي معنا . ولن تقول اننا لم نطلب منك ذلك .

قال بوريس : ـ لا ، لن اقول هذا .

ـ طيّب ، فماذا قررت ؟

فقال في أسى : ـ لم أقرر شيئاً .

ـ انك لن تبقى مع ذلك في فرنسا ؟

ـ لا ادري .

فقال فرانسيون بلهجة مصدومة :

ـ إن الحرب لم تنته ، والذين يقولون انها انتهت جبناء كذابون . يجب ان تكون حيث يجري القتال ، ولا يحق لك ان تبقى في فرنسا .

قال بوريس بمرارة : — تقول هذا لي انا !

— واذن ؟

— إذن ، لا شيء . انني انتظر رفيقة ، كما اخبرتك . وسأقرر بعد ان أراها .

— ليس ثمة من رفيقة هنا : فهذه قضية رجال .

قال بوريس بجفاف : — الامر كما ذكرت لك .

فبدا الخوف على فرانسيون وصمت . لعله سيظنّ اني خائف؟ وتأمله بوريس في عينيه ليتحقق ، ولكن فرانسيون وجّه له بسمة واثقة اعادت له اطمئنانه .

وسأل بوريس : — تصلون في الساعة السابعة ؟

— في الساعة السابعة .

— لا بد انها رائعة ، شواطيء انكلترا عنـــد الصباح . ان هناك جروفاً كبيرة بيضاء من جانب « الدوفر » .

قال فرانسيون : — آه !

قال بوريس : — لم يسبق لي قط ان ركبت الطائرة .

و حب يده من تحت قميصه وأضاف :

— هل يتفق لك انت ان تحكّ جرحك ؟

— لا .

— انني أحكّه طوال الوقت : وهذا يزعجني .

قال فرانسيون : — بالنظر الى موضع الجرح عندي ، فمن الصعب ان أحكّه امام الناس .

وساد صمت ، ثم استطرد فرانسيون :

— متى تأتي رفيقتك ؟

— لا ادري ، كان المفروض ان تأتي من باريس ، فتأمل !

قال فرانسيون : — يجب ان تحرّك مؤخرتها ، لأننا نحن الآخرين

لا نستطيع الانتظار .

فتنهد بوريس وانقلب على بطنه . وتابع فرانسيون بلهجة مجردة :

– اما رفيقتي ، فلا أُطلعها على شيء ، ومع ذلك أراها كل يوم . وفي المساء الذي نسافر فيه ، سأترك لها كلمة،وحين تتسلمها ، نكون قد اصبحنا في لندن .

فهزّ بوريس رأسه من غير ان يجيب . وقال فرانسيون :

– انك لتدهشني ! يا سرغين ، انك تدهشني !

قال بوريس : – انك لا تستطيع ان تفهم .

فصمت فرانسيون ومدّ يده فتناول كتاباً . سيمرّون فوق جروف الدوفر عند الصباح . ولم يكن ينبغي التفكير في ذلك : ان بوريس لم يكن يؤمن ببابا نويل ، فهو واثق من ان لولا ستقول لا . وقرأ فرانسيون :

– « الحرب والسلم » . ما هذا ؟

– رواية عن الحرب .

– حرب ١٤ ؟

– كلا . حرب اخرى . ولكن الامور متشابهة .

قال فرانسيون ضاحكاً : – نعم الامور متشابهة .

وكان قد فتح الكتاب على صفحة واخذ يقرأ مقطّباً حاجبيه في هيئة اهتمام مؤلم .

وتداعى بوريس للسقوط على سريره . كان يفكر : انني لا أستطيع ان « افعل » لها ذلك ، لا أستطيع ان اذهب للمرة الثانية من غير ان اسألها رأيها . وفكر : واذا كنت ابقى من أجلها ، فسيكون هذا دليل حب وفكر : آه ! كفى ! كفى ! دليل عجيب للحب . ولكن هل كان يحق للمرء البقاء من أجل امرأة ؟ لو سئل فرانسيون وغابيل لأجابا نفياً ، ولكنهما كانا صغيري السن اكثر مما ينبغي ، ولم يكونا

يعرفان ما عساه يكون الحب . وفكر بوريس : إن ما كنت اودّ ان يقال لي ، ليس ما عساه يكون الحب : فأنما يُدفع لي لأعرفه، ولكن كنت اود ان أعلم قيمة ذلك . هل يحق للمرء ان يبقى لكي يُسعد امرأة ؟ اذا عرضت القضية على هذا النحو ، كان جوابي نفياً . ولكن أيحق لنا اننذهب ، اذا كان ذلك يشقي كائنـاً آخر ؟ وكان يتذكّر عبارة لماتيو : « انني لست جباناً بما فيه الكفاية حتى أخشى ان أعذّب اذا لزم الأمر . » نعم ، بكل تأكيد : ولكن ماتيو كان دائماً يفعل عكس ما كان يقول ؛ انـه لم يكن يملك الجـرأة قط على ايذاء الناس . وتوقف بوريس ، وقد انقطع نفَسه : واذا لم يكن الامر إلا ضرباً من العناد ؟ اذا كانت رغبتي في الذهاب قد أملتها الانانية الصرف والخوف من الانزعاج في الحياة المدنية ؟ ربما كنت شخصاً مغامراً ، وربما كان من الاسهل ان يعرّض الأنسان نفسه للقتل من ان يحيـا . وماذا لو كنت أبقى بدافع من طلب الراحـة ، او من الخوف ، او من الرغبة في ان تكون امرأةٌ تحت يدي ؟ والتفت : كان فرانسيون ينحني فوق الكتاب في اجتهاد مليء بالتحدي، ، كما لو انه أخذ على عاتقه ان يكتشف أكاذيب المؤلف . اذا استطعت ان اقول له : انني ذاهبٌ معكم ، اذا امكن للكلمة ان تخرج من فمي ، لقلتها . وتنحنح وفتح شفتيه وانتظر . ولكن الكلمة لم تأت ؛ انني لا استطيع ان اسبّب لها هذا الشقاء . وفهم بوريس انه لم يكن يريد ان يذهب من غير ان يستشير لولا . ستقول بكل تأكيد لا وينتهي الأمر . وفكّر مأخوذاً : واذا لم تصل في الموعد المحدّد ؟ اذا لم تصل قبل ١٨ ؟ هل ينبغي ان يقرر وحده ؟ لنفرض انني بقيت ، وانها وصلت يوم ٢٠ وانهـا قالت لي : كنت سأدعك تذهب . ستكون لي آنذاك سحنة لطيفة ! افتراض آخر : أذهب ، فتصل هي يوم ١٩ ، وتقتل نفسها . اوه خراء ! والتاث كل شيء في ذهنه ، فأغمض عينيه وتداعى للاستغراق

في النوم .

وصاح بيرجيه من وراء الباب :

– سرغين ، هناك انثى تنتظرك في الباحة .

فانتفض بوريس ورفع فرانسيون رأسه :

– انها رفيقتك .

واخرج بوريس ساقيه من السرير وحكّ جلدة رأسه . وقال وهو يتثاءب :

– سيكون هذا اروع مما انتظر . كلا : بل هو يوم زيارة اختي.

فردّد فرانسيون بهيئة بليدة :

– آه ، انه يوم زيارة اختك ؟ انها الصبية التي كانت معك ، في ذلك اليوم ؟

– نعم .

فقال فرانسيون من غير حماسة :

– لا بأس بها .

ولفّ بوريس طماقاته وارتدى سترته ، ثم حيّا فرانسيون بأصبعين من يده واجتاز القاعة فهبط السلّم وهو يصفر . وفي منتصف الدرج توقّف واخذ يضحك ، وفكّر : إنّ هـــذا لطريف ! طريف كم انا حزين . ولم يكن يسلّيه قط ان يرى ايفيش ؛ وفكر : « حين يكون المرء حزيناً ، فهي لا تُساعده ، بل تُرهقه . »

وكانت تنتظره في باحة المستشفى : كان ثمة جنود يطوفون المكان وهم يتطلعون اليها ، ولكنها لم تكن متنبهة لهم . وبسمت له من بعيد:

– مرحباً ، ايها الاخ الصغير .

وحين رأى الجنود بوريس قادماً ضحكوا وصاحوا : كانوا يحبونه كثيراً . وحيّاهم بوريس بيده ، ولكنه لاحظ بغير سرور ان احداً لم يقل له « ايها المحظوظ » او « افضل ان تكون في سريري على ان

يكون الرعد . » والواقع ان ايفيش كانت قد شاخت كثيراً وقبُحت منذ إجهاضها . وبالطبع كان بوريس ما يزال فخوراً بها ، ولكن على نحو آخر . وقال وهو يلامس عنق ايفيش بأطراف أصابعه :

— مرحباً ايتها العفريتة الصغيرة .

وكانت رائحة حمّى وعطر كولونيا تخفق حولها الآن بصورة دائمة . وتأملها في تجرّد ثم قال لها :

— انك سيئة المنظر .

— اعرف ذلك . فانا قبيحة .

— انك لا تضعين بعد الأحمر على شفتيك ابداً .

قالت بقسوة : — نعم .

وصمتا . وكانت ترتدي قميصاً احمر ذا ياقة مرتفعة ، من طراز روسي جداً ، يجعلها تبدو اكثر اصفراراً . ليتها على الأقل وافقت على ان تكشف قليلاً من كتفيها او صدرها : فقد كانت لها كتفان جميلتان جداً ! ولكنها كانت قد صممت على ارتداء القمصان المرتفعة والتنانير المفرطة في الطول : فكأنما كانت تخجل من جسمها . وسألته :

— هل نبقى هنا ؟

— استطيع ان اخرج ، ويحقّ لي ذلك .

قالت ايفيش : — إن السيارة تنتظرنا .

فسألها بوريس مذعوراً : — أليس هو هنا ؟

— من ؟

— العم .

— كلا .

واجتازا الباحة وخرجا من البوابة ، وحين رأى بوريس سيارة البويك الخضراء الضخمة التي تخص السيد « ستوريل » أحسّ بالانزعاج ، فقال :

– في المرة القادمة ، إجعليها تنتظر في زاوية الشارع .

وصعدا الى السيارة ، وكانت واسعة سعةً مضحكة بحيث كان المرء يضيع فيها .

وقال بوريس بين أسنانه :

– يمكن ان نلعب فيها لعبة « التخفّي » .

والتفت السائق فبسم لبوريس ، وكان رجلاً ضخماً مفرط المجاملة ذا شاربين رماديين . وسأل :

– الى اين امضي بالسيدة ؟

فسألها بوريس : – ما هو مشروعك ؟

ففكرت ايفيش :

– اريد ان ارى بشراً .

– اذن ، جادة الكانوبيير ؟

– الكانوبيير ، اوه كلا ! نعم ، نعم ، اذا شئت .

قال بوريس : – الى المرفأ عند زاوية الكانوبيير .

– طيب ، يا سيد سرغين .

وفكر بوريس : « تنبل ! » واقلعث السيارة فأخذ بوريس ينظر عبر الزجاج : ولم تكن له رغبة في الكلام ، لأن السائق كان يمكن ان يسمعها . وسألته ايفيش :

– ولولا ، ما اخبارها ؟

فالتفت اليها : كانت تبدو في وضع مطمئن كل الاطمئنان ؛ فوضع اصبعاً على فمه ، ولكنها ردّدت بصوت ممتليء قوي ، كما لو ان السائق لم يكن في نظرها اكثر من قطعة لفت مطبوخة :

– هل لديك اخبار عن لولا ؟

فهز كتفيه من غير ان يجيب . فقالت :

– ماذا ؟

قال : ليس لديّ اخبار .

حين كان بوريس يتـــداوى في « تور » ، جاءت لولا فأقــامت بالقرب منه . وفي مطلع حزيران نُقــل الى مرسيليــا ، فمرت هي في باريس ، تنبؤاً بالاسوأ ، لتسحب مالاً من المصرف قبل ان تلحق به . وفي تلك الاثناء ، وقعت « الاحداث » وبات لا يعرف عنها شيئاً . ودفعته رجّة الى لصق ايفيش ، وكانـا يحتلان مكانـاً صغيراً جداً في مقعد البويك حتى ان ذلك ذكره يوم هبطـا باريس : كانــا يتسليان باعتبار نفسيهما يتيمين ضائعين في العاصمة ، وغالباً ما كان احدهما يلتصق هكذا بالآخر ، على مقعد من مقاعــد « الدوم » او « الكوبول » . ورفع رأسه ليحــدث ايفيش في هــذا ، ولكنه رأى مظهرهــا المظلم فاجتزأ بالقول :

ــ لقد سقطت باريس ، أرأيت ؟

قالت ايفيش بلامبالاة :

ــ نعم ، رأيت .

ــ وزوجك ؟

ــ لا انباء عنه كذلك .

وانحنت نحوه وقالت بصوت سريع منخفض :

ــ اودّ لو انه يموت .

فألقى بوريس نظرة الى السائق ورأى انه كان ينظر اليهما في المرآة العاكسة ، فلكز ايفيش في مرفقها فصمتت ، ولكنها ظلت محتفظة على شفتيها ببسمة خبيثة جادة . وتوقفت السيارة في اسفل جادة الكانوبيير ، فقفزت ايفيش الى الرصيف وقالت للسائق في سهولة آمرة :

ــ عُد لتأخذني من مقهى « ريش » في الساعة الخامسة .

فقال السائق بصوت رقيق :

ــ الى اللقاء ، يا سيد سرغين .

قال بوريس منزعجاً : — مع السلامة .

وفكر : سأعود في الترام . وتناول ذراع ايفيش وعادا يصعدان الكانوبيير . ومر ضباط ، فلم يحيّهم بوريس ولم يبد عليهم الاهتمام بذلك . وكان بوريس منزعجاً لالتفات النساء اليه لدى مروره . وسألته ايفيش :

— الا تحيي الضباط ؟

— ولماذا ؟

فقالت : — إن النساء ينظرن اليك .

فلم يجب بوريس ، وبسمت له سمراء ، فالتفتت ايفيش باهتمام وقالت موجهة اليها الكلام :

— نعم ، نعم ، انه جميل .

فقال بوريس مبتهلا :

— ايفيش ، لا تجذبي الينا الانظار .

كانت تلك هي اللازمة الجديدة . فقد حدث ان قال له احدهم ذات صباح انه كان جميلا ، ومنذ ذلك الحين والناس يرددون له ذلك ، وكان فرانسيون وغابيل يدعوانه « وجه الحب » . وبالطبع ، لم يكن بوريس ليغتر ، ولكن ذلك كان مزعجاً ، لأن الجمال ليس ميزة في الرجال . وقد كان يؤثر لو ان جميع هاتيك الاناث ينشغلن بمؤخراتهن ، ويؤثر لو ان الذكور يعمدون في الطريق الى بعض المغازلة لايفيش بقدر كاف لإشعارها بأنها جميلة .

وعلى سطيحة مقهى « ريش » كانت جميع الطاولات مشغولة تقريباً ، فجلسا وسط نساء سمراوات وضباط وجنود انيقين ورجال مسنين ذوي ايد سمينة ؛ جمع وديع هادئ ، أشخاص يستحقون القتل ولكن من غير ايذاء . وكانت ايفيش قد بدأت تشدّ على خصلات شعرها فسألها بوريس :

– هل تشكين شيئاً ؟

فهزت كتفيها . ومدّ بوريس ساقيه فلاحظ انه كان منزعجاً . وسألها :

– ماذا تريدين ان تشربي ؟

– هل قهوتهم جيدة ؟

– هكذا .

– انني اموت شوقاً الى شرب قهوة جيدة. إنهم هناك يصنعون قهوة منتنة .

قال بوريس للخادم :

– فنجانا قهوة (والتفت الى ايفيش فسألها) كيف الحال مع عمك وامرأة عمك ؟

فانطفأت الحماسة على وجه ايفيش وقالت :

– لا بأس . انني أصبح شبيهة بها (واضافت بضحكة صغيرة) ان امرأة عمي تقول إنني اشبهها.

– وماذا تفعلين طوال النهار ؟

– اوه ، بالامس مثلا ، نهضت في العاشرة ، فقمت بزينتي بأبطأ ما أستطيع ، حتى صارت الساعة الحادية عشرة والنصف ؛ وقرأت الصحف ...

فقال بوريس بقسوة : – انك لا تحسنين قراءة الصحف .

– نعم ، لا احسن ذلك . وعند الغداء ، تحدثنا عن الحرب ، وذرفت الام ستوريل دمعـــة وهي تفكر بابنها العزيز ؛ وحين تبكي، ترتفع شفتاها حتى لأظن دائماً بأنها موشكة على الضحك . وبعد ذلك اشتغلنا بالصوف ، فأطلعتني على بعض أسرارها : لقد كان جورج ذا صحة رقيقة حين كان صغيراً ، فتصوري انه اصيب بالتهاب الامعاء في الثامنة من عمره ؛ فاذا كان لا بدّ لها من الاختيار بين ابنها وزوجها فسيكون ذلك فظيعاً ، ولكنهـا تؤثر ان يموت زوجهـا لأنها كانت اماً

اكثر منها زوجة . ثم حدثتني عن امراضها ، عن الرحم والامعاء والمثانة ، ويبدو ان الامور عندها سيئة جداً .

وكانت على شفتي بوريس « دعابة » عظيمة ، جاءته بسرعة كبيرة حتى شكّ في ان لا يكون قد قرأها في صحيفة ما . ولكن لا . « إن النساءيتحدثن فيما بينهن عنداخل بيوتهن او عن داخل اجسامهن.» وكانت العبارة لا تخلو من التصنّع والحذلقة،وتشبه مثلاً من امثال لاروشفوكو.. وتساءل عما اذا كان سيطلع ايفيش عليها ، ولكن ايفيش كانت تزداد عدم فهم للدعابات . واكتفى بالقول :

– نعم . وبعد ذلك ؟

– بعد ذلك ، عدت الى الغرفة ومكثت فيها حتى العشاء .

– وماذا فعلت فيها ؟

– لا شيء . وبعد العشاء استمعنا الى اخبار الراديو وعلّقنا عليها . يبدو اننا لم نخسر شيئاً ، وان علينا ان نحتفظ برباطة جأشنا ، وان فرنسا شاهدت ما هو اسوأ من ذلك . وبعد ذلك عدت الى غرفتي ثانية فأعددت فنجان شاي على موقدي الكهربائي الذي أخفيه ، لأنه يعطّل الكهرباء مرةً على كل ثلاث مرات أستعمله فيها . وقد جلست في اريكة وانتظرت حتى يناموا .

– وبعد ذلك ؟

– تنفّست .

قال بوريس : – يحسن بك ان تأخذي اشتراكاً للمطالعة .

قالت : – حين اقرأ تتراقص الأحرف امام عيني ، فأفكر طوال الوقت في جورج . انني لا أستطيع الامتناع عن التأميل بأن نتلقى نبأ موته .

ولم يكن بوريس يحب زوج اخته ، وهو لم يكن يفهم قط مـاذا حدا بأيفيش في ايلول ٣٨ الى الفرار من البيت لترتمي على رأس تلك

الهليونة . ولكن كان يلذّه الاقرار بأنه لم يكن الحصان الرديء ؛ حتى ان جورج حين علم بأنها حامل ، سلك سلوكاً طيباً : فهو الذي ألحّ على ان يتزوجها . ولكن كان ذلك بعد فوات الاوان : كانت ايفيش تكرهه لأنه جعلهـا تحمل . كانت تقول بأنها تستفظع نفسها ، وقد اختبأت في القرية ولم تشأ حتى ان ترى أخاها مرة اخرى . ولا ريب في انها كانت تقتل نفسها لو لم تكن تخاف خوفاً شديداً من ان تموت .

– اية قذارة !

فانتفض بوريس :

– ماذا ؟

فقالت وهي تومىء الى فنجان القهوة :

– هذا .

وذاق بوريس القهوة وقال بهدوء :

– صحيح انها ليست عظيمة (وفكر لحظـة ثم أضاف) ولكنها ستزداد سوءً مع الايام ، كما أتصوّر .

قالت ايفيش :

– يا لبلاد المهزومين !

ونظر بوريس في حذر فيما حوله . ولكن لم يكن ثمـة من يتنبه لها : كان الناس يتحدثون عن الحرب في احترام وندم . فكأنهم كانوا عائدين من دفن عزيز . ومرّ الخادم وهو حاملٌ وعاءً فارغاً ، فأدارت له ايفيش عينين حبريتين وقذفته بقولها :

– انها منتنة !

فنظر اليها الخادم في دهشة . وكان له شارب رمادي ؛ وقد كان يمكن لايفيش ان تكون في سن ابنته . وقالت ايفيش :

– هذه القهوة منتنة ، وتستطيع أن تأخذها .

وكان الخادم يحدجها في فضول : لقد كانت اصغـر سناً من ان

يستطيع إخافتها . وحين ادرك من يكونان ، راودته بسمة قاسية :

– كنت تنتظرين قهوة يمنية ؟ لعلك لا تعرفين اننا في حرب ؟

فأجابت بحيوية :

– ربما كنت لا أعرف ذلك ، ولكن اخي الذي جُرح يعرفها خيراً منك بالتأكيد .

وصرف بوريس عينيه وقد احمر من فرط الاضطراب . لقد اصبحت أشدّ نباهة ولم تكن تفتقر الى سرعة البداهة ، ولكنه كان يتأسف على العهد الذي كانت تمضغ فيه غضبها بصمت، وشعرها منتثر في وجهها : لقد كانت أقلّ مشاكل .

وتمتم الخادم مغتاظاً :

– لن ارسل الشكوى من اجل فنجان قهوة ، في اليوم الذي يدخل فيه الالمان باريس !

ومضى ، فضربت ايفيش بقدمها الارض :

– ليس في فهمهم الا الحرب ، انهم لا يكفّون عن دعوى القتال وكأنهم فخورون بذلك . فليخسروها، حربهم ، ليخسروها مرة والى الابد ، ولنكفّ عن الكلام فيها .

وخنق بوريس تثاؤبة : إن انفجارات ايفيش لا تسلّيه بعد . حين كانت فتاة ، كان يروقه ان يراها تشدّ شعرها وهي تخبط وتُحول عينيها ، وقد كان هذا يجعلك مرحاً طوال النهار . اما الآن ، فإن عينيها تظلان كثيبتين ، فكأنها تركن الى الهدوء ، فتشبه امها في تلك الحالات . وفكر مندهشاً : « انها امرأة متزوجة ، امرأة متزوجة لها عم وامرأة عم ، وزوج في الجبهة وسيارة عائلية . » ونظر اليها في تبرم ، ثم صرف عينيه لأنه كان يشعر بأنها سترعبه . « سوف أذهب ! » وانتصب فجأة : إن قراره قد اتُخذ . « سأذهب . سأذهب معهم . اني لا استطيع ان ابقى بعد في فرنسا . » وكانت ايفيش

تتكلم . فسألها :

– ماذا ؟

– الوالدان .

– ماذا تقصدين ؟

– أقول انهما كان عليهما ان يبقيا في روسيا ؛ يبدو انك لا تسمعني.

– لو بقيا فيها ، لدخلا السجن .

– على اي حال ، ما كان ينبغي لهما ان يجنّسانا بالجنسية الفرنسية، والا لكان بوسعنا ان نعود الى بلادنا .

قال بوريس : – بلادنا هي فرنسا .

– كلا ، بل هي روسيا .

– هي فرنسا ، ما داما قد جنّسانا .

قالت ايفيش : – تماماً ، من أجل هذا ما كان ينبغي لهما ان يفعلا ذلك .

– نعم ، ولكنهما فعلاه .

– الامر عندي سواء . ما دام ان عليهما الا يفعلا ذلك ، فكأنهما لم يفعلا شيئاً على الاطلاق .

قال بوريس : – لو كنت في روسيا ، لبصقت عليها .

– سيكون الأمر عندي سواء ، لأنها بلاد عظيمة لا بد ان أشعر فيها بالاعتزاز . اما هنا ، فاني أقضي وقتي وانا أشعر بالعار .

وصمتت لحظة ، وكان يبدو انها مترددة . وكان بوريس ينظر اليها في حنان ؛ ولم تكن لديه أية رغبة في معاكستها ، وفكّر في تفاؤل : « ستضطر حتماً الى التوقف . فأنا لا أدري ما عسى تستطيع ان تضيفه» ولكن ايفيش كانت تتمتع بالاختراع : فقد رفعت يداً في الهواء،ورسمت بها غطسةً صغيرة ، كما لو أنها كانت تقذف نفسها في الماء ، وقالت:

– انني أحتقر الفرنسيين ..

ورفع رجل رأسه عن صحيفة كان يقرأها الى جانبها وتأملها بهيئة حالمة . ونظر اليه بوريس مواجهــة في عينيه ؛ ولكن ما لبث الرجل ان نهض ليستقبل امرأة كانت متجهة نحوه ، فانحنى لها وجلست،ويدها في يده وهما يبتسمان . واطمأن بوريس فعاد الى ايفيش . وبدأ النزاع الكبير : كانت تدمدم بين أسنانها :

ـ احتقرهم ، احتقرهم !

ـ تحتقرينهم لأنهم يصنعون قهوة رديئة ؟

ـ أحتقرهم لكل شيء .

وكان بوريس قد أمّل ان تهدأ العاصفة من تلقاء نفسها ؛ ولكنــه يدرك الآن انه كان مخطئاً ، وانه لا بدّ من مواجهتها بشجاعة . وقال :

ـ اما انا ، فأحبهم كثيراً . إن الجميع سيسقطون فوقهم ، الآن وقد خسروا الحرب ؛ ولكني رأيتهم في الخط الاول ، وأؤكد لك أنهم فعلوا كل ما في طاقتهم .

قالت ايفيش :

ـ أترى ؟ أترى ؟

ـ ماذا أرى ؟

ـ لماذا تقول : « انهم » فعلوا كل ما في طاقتهم ؟ لو كنت تشعر بأنك فرنسي لقلت « نحن » .

وانما لم يقل بوريس « نحن » بدافع التواضع . وهز رأسه وقطّب حاجبيه وقال :

ـ انا لا أحسّني فرنسياً ولا روسياً . ولكن حين كنت هناك ، مع سائر العساكر ، كان ذلك يلذّ لي .

قالت : ـ انهم أرانب .

فتظاهر بوريس بأنه أخطأ فقال وكأنه يستدرك :

ـ نعم ، ارانب مدهشة .

— كلا ، كلا ، بل ارانب تهرب . هكذا (وأركضت يدها على الطاولة) .

قال بوريس : — انك كجميع النساء . فأنت لا تقدّرين الا البطولة العسكرية .

— ليس الأمر كذلك . ولكن ما داموا يريدون ان يخوضوا هذه الحرب ، فما كان عليهم الا ان يخوضوها حتى النهاية .

فرفع بوريس يده بحركة موهونة . « ما داموا يريدون ان يخوضوها ، فما كان عليهم إلا ان يخوضوها حتى النهاية . » بكل تأكيد . هذا ما كان يردّده أمس مع غـابيل وفرانسيون . ولكن ... وسقطت يده باسترخاء : إن الشخص الذي لا يفكر مثلك ، عسيرٌ ومتعبٌ ان تبرهن له أنه عـلى خطأ . غير انه حين يكون من رأيك ، ثم يترتب عليك ان تشرح له انه مخطيء ، فانك تضيع . قال :

— دعيني !

قالت ايفيش وهي تبتسم من فرط الغضب :

— ارانب !

قال بوريس : — ان الذين كانوا معي لم يكونوا ارانب . بل كان فيهم شجعان الى حد بعيد .

— لقد قلت لي انهم كانوا يخافون الموت .

— انت ؟ الا تخافين الموت ؟

— انا ، انني امرأة .

قال بوريس : — حسناً ، انهم هم يخافون الموت ، وهم مع ذلك رجال . وهـذا ما يسمى بالشجاعة . كانوا يعرفون ما يعرّضون له أنفسهم .

فنظرت اليه ايفيش نظرة ارتياب :

— لن تزعم لي انك « انت » كنت خائفاً ؟

– لم أكن أخشى الموت لأني كنت مؤمناً بأني انما كنت هناك لهذه الغـاية .

ونظر الى اظافره وأضاف بلهجة متجردة :

– الطريف في الأمر اني مع ذلك غوّطت في ثيابي .

فارتعدت ايفيش :

– ولكن لأي سبب ؟

– لا ادري . ربما كان بسبب الضجة .

والواقع ان ذلك لم يدم اكثر من عشر دقائق – ربمـا عشرين ، في بدء الهجوم تماماً . ولكنه لم يغضب ان تعتبره ايفيش خافاً [1] : فقد كان ذلك يدعم رأيه . وكانت تنظر اليه نظرة مترددة ، مذعورة من ان يشعر بالخوف من كان روسياً ، ان يشعر به سرغين ، أخوها بالذات . وأحسّ أخيراً بالخجل فسارع يضيف :

– الحقيقة انني لم أخف طوال الوقت .

فابتسمت له وقد شعرت بالعزاء ، وفكر بحزن : « لسنا بعد متفقين على شيء . » وساد صمت : وشرب بوريس جرعـة من قهوة فكاد يلفظها : كانت كما لو انهم وضعوا له حزنه كله في فمه . ولكنه فكر بأنه سيذهب ، فاستشعر بعض العزاء . وسألته ايفيش :

– ماذا تنوي ان تفعل الآن ؟

قال بوريس : – أعتقد انهم سيسرّحونني . والواقع اننا قد شفينا جميعاً تقريباً ، ولكنهم يحتفظون بنا هنا لأنهم لا يدرون ما يفعلون بنا .

– وبعد ذلك ؟

– سوف ... أطلب وظيفة استاذ .

– ولكنك لست « اغريجيه » ؟

– صحيح . غير أني أستطيع ان اكون استاذاً في كلية .

– وهل يلذّك ان تلقي محاضرات ؟

[1] الخاف هو الشديد الخوف .

فقال باندفاع : ــ آه ، كلا (واحمر وجهه فأضاف) انــني لم أُخلق لهذا .

ــ ولأي شيء خُلقت ، يا اخي الصغير ؟

ــ هذا ما أتساءل عنه .

والتمعت عينا ايفيش :

ــ أتريد ان أقول لك لأيّ شيء خُلقنا ؟ خُلقنا لنكون اغنياء .

فقال منزعجاً : ــ ليس الامر كذلك .

ونظر اليها لحظة وهو يردد : « ليس الامــر كذلك ! » فيما كان يضغط فنجانه بين أصابعه .

ــ كيف هو اذن ؟

فقال : ــ كنت منفوخاً حتى الانفجار ، ثم سرقوا مني موتـي . انني لا اعرف شيئاً ، ولست موهوباً لشيء ، وليس لي بعد رغبةٌ في شيء .

وتنهّد وصمت ، مستشعراً الخجل ان يكون قد تحدث عن نفسه : ان القضية هي اني لا أستطيع ان اعزم على ان اعيش عيشة وسطاً . وهذا في حقيقته هو ما قالته تقريباً .

وكانت ايفيش تتابع فكرتها ، فسألته :

ــ ولولا ، ألا تملك مالاً ؟

فقفز بوريس وضرب الطاولة : لقد اوتيتُ موهبة ان تقرأ فكرته وتترجمها بعبارات غير مقبولة :

ــ انني لا اريد مال لولا .

ــ لماذا ؟ كانت تعطيك منه ، قبل الحرب .

ــ لم تعد تعطيني منه .

فقالت في حرارة : ــ اذن ، لننتحر كلانا .

وتنهّد ، وفكر : ها هي ذي تعود سيرتها . إن هــذا لا يناسب

سنّها بعد . وكانت ايفيش تنظر اليه وهي تبتسم :

– لنستأجر غرفة في الميناء القديم ولنفتح انبوب الغاز .

فاكتفى بوريس بأن يحرّك سبابة يده اليمنى علامـــة الرفض . ولم تلحّ ايفيش : بل خفضت رأسها وأخذت تشدّ على خصلاتها : وفهم بوريس أنه كان لديها ما تطلبه منه . وقالت بعد لحظة ، من غير ان تنظر اليه :

– كنت قد ظننت ...

– ماذا ؟

– كنت ظننت انك ستأخذني معك ونعيش نحن الثلاثة على مال لولا.

واستطاع بوريس ان يبلع ريقه من غير ان يختنق ، وقال :

– آه ! لقد فكرت بذلك .

وقالت ايفيش في حماسة مفاجئة :

– اسمع يا بوريس . ليس باستطاعتي بعد ان أعيش مـــع هؤلاء الناس .

– هل يسيئون معاملتك ؟

– على العكس : فهم يعيشونني في الحرير : زوجـــة ابنهم ، لو تعلم ! ولكني أحتقرهم ، أحتقر جورج ، احتقر خدمهم ...

فقال بوريس : – لاحظي انك تحتقرين لولا ايضاً .

– لولا ، ليس الامر متشابهاً .

– ليس الامر متشابهاً لأنها بعيدة وانك لم تريها منذ عامين .

– إن لولا تغني ، ثم هي تشرب ، ثم انها جميلة ... يا بوريس !

(وصاحت) اما هم ، فقبيحون ؛ فاذا تركتني بين ايديهـم ، قتلت نفسي ، كلا ، لن اقتل نفسي بل سيكون الامر أسوأ من ذلك .

ليتك تعسـرف كم أحستني عجوزاً وشريرة بعض الاحيان .

« طق ! » فكر بوريس . وشرب بعض القهوة ليزلق لعابـــه في

حلقومه ؛ وكان يفكر : لا يستطيع المرء ان يسيء الى شخصين . وكانت ايفيش قد كفّت عن الشدّ على شعرها ، وكانت سحنتها العريضة الممتقعة قد تلوّنت ، وكانت تنظر اليه نظرة ثابتة قلقة ، فتشبه قليلاً ايفيش الماضية . لربما تستعيد شبابها ؟ وربما تستعيد جمالها ؟ وقال :

ــ شرط ان تطبخي لنا ، ايتها العفريتة الصغيرة .

فأخذت يده وشدّتها بكل قواها :

ــ هل توافق اذن ؟ اوه ، بوريس ! أتوافق إذن ؟

سأكون استاذاً في « غيريه » . كلا ، ليس في غيريه ، فهناك ليسيه . بل في كاستلنوداري . وسأتزوج اولا : فان استاذاً في كلية لا يستطيع ان يعيش مع خليلة ؛ وسأبدأ منذ الغد في اعداد محاضراتي . وأمرّ يده خلل شعره ، وشدّ برفق على خصلة ليتحقق من متانتها ، ثم فكر : سأكون أصلع ؛ إن هذا مؤكّد الآن : سيسقط شعري قبل ان اموت .

ــ طبعاً ، اوافق .

وكان يرى طائرة تدور عند الصباح الباكر ، وكان يردد : الجروف ، الجروف الجميلة البيضاء ، جروف دوفر .

السّاعة الثالثة في بادو

كان ماتيو جالساً فوق العشب ؛ وكان يتابع بعينيه الدوامات السود فوق البحر . وبين الفينة والفينة كان قلب من نار يصعد في الدخان فيصبغه بدمه وينفجر : واذ ذاك تثب شرارات في السماء كأنها البراغيث . قال شارلو : ــ سوف يشعلون النار .

وكانت فراشات من السناج تتطاير حولهم ؛ فالتقط بينيت احداها

وسحقها بين يديه بتفكر وقال وهو يبرز ابهامه المسودّ :
ــ هذا كل ما يبقى من خـــارطة اذا احيلت الى جزء من عشرة آلاف .
ورفع لونجان الباب ذا الشقوق ودخل الحديقة : وكان يبكي . وقال شارلو :
ــ إن لونجان يبكي !
فمسح لونجان عينيه .
ــ الحيوانات ! لقد حسبت انهم سيسلخون جلدي .
وتداعى للسقوط على العشب ؛ وكان يحمل كتاباً ذا غلاف ممزّق .
ــ كان عليّ ان أؤرث النار بواسطة منفخ بينما كانوا يقذفون اوراقهم فيها . وكنت اتلقى الدخان كله في فمي .
ــ وهل انتهوا ؟
ــ لا يهمّني . لقد اخلونا لأنهم سيحرقون الوثائق السرية . يتحدثون عن الاسرار : الاوامر التي ضربتها بنفسي على الآلة الكاتبة .
قال شارلو : ــ هناك رائحة رديئة .
ــ رائحة شواء .
ــ كلا ، اني اقول : اذا أحرقوا الوثائق ، انبعثت رائحة رديئة.
ــ نعم ، رائحة رديئة ، رائحة شواء . هذا ما أقوله .
وضحكوا ، وأشار ماتيو الى الكتاب وسأل :
ــ أين وجدته ؟
فقال لونجان بغموض : ــ هناك .
ــ اين ، هناك ؟ المدرسة ؟
قال : ــ نعم .
وشدّ الكتاب اليه في حذر ، وسأله ماتيو :
ــ هل هناك سواه ؟

— كانت هناك كتب اخرى ، ولكن رجال « الوكالة » استعملوها .
— وما هو هذا الكتاب ؟
— كتاب تاريخ .
— ولكن ما هو ؟
— لا أعرف عنوانه .
وألقى نظرة على الغلاف ، ثم اضاف في استياء :
— « تاريخ عودة الملكيتين » .
وسأل شارلو : — ومن المؤلف ؟
فتهجأ لونجان : — فو — لا — بيل .
— فولابيل ، من هذا ؟
— وما يدريني ؟
وسأله ماتيو : — هل تعيرني إيّاه ؟
— بعد ان اقرأه .
وتسلّل شارلو في العشب فأخذ الكتاب من يديه :
— ولكن اسمع . انه الجزء الثالث .
فانتزعه منه لونجان :
— وماذا يهم ؟ المقصود ان اركز انتباهي .
وفتح الكتاب بالاتفاق وتظاهر بأنه يقرأ ليزيد استملاكه إياه . وبعد ان أنهى المهمة ، رفع رأسه وقال :
— لقد أحرق الكابيتن رسائل زوجته .
وكان ينظر اليهم مرفوع الحاجبين ، بسيط الهيئة ، مقلّداً سلفاً ، بعينيه وشفتيه ، الدهشة التي كان يتوقّع إثارتها فيهم . وخرج بينيت من حلمه العابس والتفت اليه باهتمام :
— صحيح ؟
— نعم ، وقد احرق أيضاً صورها ، فرأيتها في اللهب . انها

جميلة ؟
ـ صحيح ؟
ـ اؤكد لك ذلك .
ـ وماذا كان يقول ؟
ـ لم يكن يقول شيئاً ، بل كان ينظر اليها تحترق .
ـ والآخرون ؟
ـ لم يكونوا يقولون شيئاً كذلك . سوى ان اولريش اخرج رسائل من محفظة نقوده والقاها في النار .
فتمتم ماتيو : ـ فكرة عجيبة .
والتفت اليه بينيت يسأله :
ـ أتراك لن تحرق صور امرأتك ؟
ـ ليس لي من امرأة .
ـ آه ! من أجل هذا .
فسأله ماتيو : ـ وهل أحرقت انت صور امرأتك ؟
ـ أنتظر حتى يظهر الالمان .
وصمتوا . وكان لونجان قد اخذ يقرأ في جد ، فرمى اليــه ماتيو بنظرة حسد ونهض . ووضع شارلو يده على كتف بينيت .
ـ هل نلعب الثأر ؟
ـ اذا شئت .
فسألها ماتيو : ـ وبمَ تلعبان ؟
ـ لعبة « الموربيون » .
ـ وهل يمكن ان يلعبها ثلاثة ؟
ـ لا .
وجلس بينيت وشارلو منفرجي الساقي على المقعد الخشبي ، فأفسح لهما الرقيب بيارنيه الذي كان يكتب على ركبته .

– هل تكتب مذكراتك ؟

قال بيارنيه : – كلا ، وانما أحلّ عملية فيزيائية .

وأخذا يلعبان . وكان نيبير نائماً وهو مستلقٍ على ظهره ، متصالب الذراعين . وكان هواء السماء يُفرغ في فمه الفاغر بقرقرة تشبـــه خرير البلوعة . وكان شوارتز منتحياً ركناً آخر يحلم . لم يكن ثمة من يتكلم ، لقد ماتت فرنسا . وتثاءب ماتيو ، ونظـــر الى الوثائق السرية تتلاشى دخاناً في السماء ، ونظر الى الارض الكثيفة السوداء بين الخضار ، ففرغ رأسه : لقد كان ميتاً ، وهذا الاصيل الابيض الميت ، كان قبراً .

ودخل لوبيرون الى الحديقة . وكان يأكل ، وجفونـــه تخفق تحت عينيه الكبيرتين المغربتين ، وكانت اذناه تتحركان على حركة فكّيه . وسأله شارلو :

– ماذا تأكل ؟

– كسرة خبز .

– ومن اين اتيت بها ؟

فأومأ الى الخارج من غير ان يجيب ، واستمر يمضـــغ . وصمت شارلو فجأة وتأمله في شيء من الذعر : وكان الرقيب بيارنيه يتأمله هو ايضاً ، مقلوب الرأس ، مرتفع القلم . وظل لوبيرون يمضغ ، في غير ما عجلة : ولاحظ ماتيو هيئته الجادّة ، فأدرك انه كان يحمـل انباء ؛ واذ ذاك أحسّ بالخوف كالآخرين ، وتراجع خطوة الى الوراء. وانتهى لوبيرون من المضغ في هدوء ، ومسح يديه بثوبه،ففكر ماتيو : « لم يكن ما يأكله خبزاً . » واقـــترب شوارتز وجعلوا ينتظرون صامتين .

وقال لوبيرون : – ماذا ؟ انتهى الامر ؟

فسأل بيارنيه بقسوة : – ماذا ؟ ماذا ؟ ما الذي انتهى ؟

– انتهى الامر .

– الـ ...

– نعم .

برق نحاسي ، ثم ساد الصمت ؛ وكان لحم هذا النهار الأزرق الطري قد تلقى الخلود كضربة منجل . لم يكن ثمة ضجة ، ولا نفخة هواء، كان الزمن قد تجمد ، وانسحبت الحرب : وقد كانوا منذ لحظة فيها ، بمنجى ، وكان بوسعهم بعدُ ان يؤمنوا بالمعجزات ، بفرنسا الخالدة ، بالمساعدة الاميركية ،بالدفاع المطّاط ، بدخول روسيا الحرب ؛ اما الآن فقد كانت الحرب وراءهم ، منغلقة ، ناجزة ، خاسرة . وأصبحت آمال ماتيو الأخيرة ذكريات أمل .

وكان لونجان أول من استردّ وعيه ، فمدّ يديه الطويلتين كما لو انه يريد ان يجسّ النبأ بحذر ، وسأل في خجل :

– وإذن ... هل وُقّع ؟

– منذ هذا الصباح .

وكان بيارنيه قد تمنّى الصلح طوال تسعة أشهر . الصلح بأي ثمن . وها هو الآن هنا ، ممتقع يسيل منه العرق . وكان الانفعال المفاجيء قد اثار جنونه ، فصاح :

– وكيف عرفت ذلك ؟

– لقد أخبرني به غيكيولي .

– وكيف عرف هو ؟

– من الراديو . لقد التقطوا الساعة هذا النبأ .

وكان يتكلم بلهجة مذيع صابرة محايدة ؛ وكان يتسلّى بالتظاهر بمظهر القسوة .

– ولكن صوت المدافع ؟

– إن وقف اطلاق النار سيتم في منتصف الليل .

وكان شارلو محمّر الوجه ايضاً ، ولكن عينيه كانتا تلتمعان :

— هذا مزاح !

ونهض بيارنيه وسأل :

— هل من تفاصيل ؟

قال لوبيرون : — لا .

وتنحنح شارلو :

— ونحن ؟

— ماذا ، نحن ؟

— متى نعود الى بيوتنا ؟

— أقول لك ان ليس هناك من تفاصيل .

وصمتوا . وضرب بينيت بقدمه حصاة تدحرجت وسط الجَزَر ، وقال هادراً في غضب :

— الهدنة ! الهدنة !

فهزّ بيارنيه رأسه ؛ وكان جفنه الأيسر قد أخذ يخفق في وجهه الرمادي كمصراع في يوم عاصف . وقال في قهقهة راضية :

— ستكون الشروط قاسية .

فأخذوا جميعاً يقهقهون .

وكان شوارتز يقهقه ايضاً ، فالتفت اليه شارلو وتطلّع اليه في دهشة . وكفّ شوارتز عن الضحك واحمرّ وجهه بعنف . وظل شارلو ينظر اليه : فكأنه يراه للمرة الاولى . وقال له بهدوء :

— ها انت ذا الماني ، في هذه الساعة .

فأتى شوارتز بحركة عنيفة غامضة ، واستدار على عقبيه فغادر الحديقة : وأحسّ ماتيو نفسه مسحوقاً بالتعب . فتداعى للسقوط على المقعد الخشبي ، وهو يقول :

— ما أشد الحرّ !

« انهم ينظرون الينا » . وكان الجمهور الذي يتزايد رويداً رويداً

ينظر اليهم وهم يبتلعون هذا القرص التاريخي ، وكان يشيخ ويتراجع القهقرى وهو يهمس : « مهزومو ٤٠ ، جنود الهزيمة ، انما نحن في القيود – بسببهم . » وكانوا باقـين هناك ، لا يتغيّرون تحت تلك الانظار المتغيّرة ، محكوماً عليهم ، معيّرين ، مبرّرين ، متّهمين ، معذورين ، مُدانين ، مسجونـين في هذا النهار الذي لا يمّحـي ، مكفّنين في هدير الذباب والمدفع ، في رائحـة الخضرة الدافئة ، في الهواء الذي كان يرتعش فوق الجَزَر ، مذنبين الى ما لا نهاية في عيون اولادهم واحفادهم وأحفاد أحفادهم،مهزومي ٤٠ الى الابد . وتثاءب ، ورآه ملايين الناس يتثاءب : « انه يتثاءب ، وهذا جميل ، احـد مهزومي ٤٠ يجرؤ على التثاؤب ! » وقطع ماتيو هذه التثاؤبـة التي لا تنتهي ، وفكر : لسنا وحدنا .

ونظر الى رفاقه ، فالتقى نظره عليهم بنظر التاريخ الخالد المحجِّر : للمرة الاولى كانت العظمة قد هبطت على رؤوسهم ؛ « كانوا » الجنود الاسطوريين لحرب خاسرة . لقد حُجِّروا ! يا إلـهي ، لقـد قرأت وتثاءبت ، وكنت احرِّك جـرس مشكلاتي ، ولم أكن اعزم عـلى الاختيـار ، ولكني كنت قد اخترت حقاً ، كنت قد اخترت هذه الحرب ، وهذه الهزيمة ، وكنتُ منتظراً في قلب هذا النهار . ان كل شيء ينبغي عمله مرة اخرى ، وليس بعد ما يُعمل : وتداخلت الفكرتان وانهدمتا معاً ؛ وبقي سطح « العدم » الهادىء .

ونفض شارلو الكتفين والرأس ؛ واخذ يضحك ، وعاد الزمن الى جريه . كان شارلو يضحك ، كان يضحك في وجه التاريخ ، وكان يدافع عن نفسه بالضحك في وجه التحجّر ؛ وكان ينظـر اليهم في خبث ويقول :

– إن لنا وجهاً مشرقاً ، يا جماعة . نعم ، إن وجهنا مشرق ! والتفتوا اليه مشدوهين ، ثم انحـاز لوبيرون الى الضحك . وكان

يغضّن أنفه في مشقّة ، فتخرج الضحكة من منخريه :

— تستطيع ان تقول ذلك ! كيف انهم تغلبوا علينا !

وقال شارلو في لهجة سكرى :

— إن هذا هو العقاب ، هو الضرب ، هو الفلَق !

فضحك لونجان بدوره وقال :

— جنود ٤٠ او ملوك الركض !

— عمالقة الطريق !

— الابطال الاولمبيون للركض على القدمين !

قال لوبرون :

— لا تحزنوا : فسوف يُحسنون استقبالنا لدى عودتنا ، وسيزفون لنا التهاني !

فصرخ لونجان صرخة سعيدة :

— بل سيأتون لاستقبالنا على المحطة مع الموسيقى والجمعيات الرياضية.

وقال شارلو وهو يضحك حتّى كاد يسيل دمعه :

— وانا اليهودي ، ما رأيكم ؟ هل تتصورون الأشخاص المناهضين للسامية في الحيّ الذي أسكنه !

واستسلم ماتيو لعدوى هذا الضحك المزعج ، وحدثت لحظة شديدة القسوة . فلقد رموه وهو يرتجف من الحمّى عـلى فراشٍ مثلج ، ثم تحطّم خلوده الصنمي ، فتطاير شعاعاً من الضحك . كانوا يضحكون ، وكانوا يرفضون واجبات العظمة باسم الرعاع ؛ لا حاجة لأن نحزن ما دمنا نتمتع بالصحة والشراب والطعام ، انني أخرأ على نصف الدنيـا وأشخّ على النصف الآخر ، كانوا يرفضون تعزيات العظماء بدافع من التبصّر الزاهد ، بل انهم يرفضون لأنفسهم حق الألم ؛ نحن «فاجعيون» حتّى ولا هذا ، « تاريخيون » حتّى ولا هذا ، بل نحن ممثلون هزليون من طراز رخيص ، لا نساوي دمعة ؛ نحن « مرصودون » مسبقاً :

حتى ولا هذا ، فالعالم هو مصادفة واتفاق . كانوا يضحكون ، وكانوا يصطدمون بجدران « العبث » و « القدر » اللذين كانـا يتداولانهم فيما بينهما ؛ كانوا يضحكون ليعاقبوا أنفسهم ، ليتطهّروا ، ليثأروا : انهم لا بشر مفرطون في البشرية ، مقذوفون فيما وراء اليأس: انهم بشر .

وفترة اخرى ، فتحت الافواه نحو الأفق شكوى جروحها السود ؛ كان نيبير ما يزال يشخر ، وكان فمه الفاغر هو ايضـاً شكوى . ثم ثقُل الضحك وجرجر نفسه وتوقف بعـد بضع انتفاضات : كانت الحفلة منتهية ، والهدنة مكرّسة ؛ لقد كانوا رسمياً « البَعد » . وكان الزمن يجري على مهل ، ماءً صحياً مغلياً بالشمس : كان لا بدّ من العودة الى الحياة ثانية .

قال شارلو : — هكذا !

فقال ماتيو : — هكذا !

وأخرج لوبيرون،على خفية،يده من جيبه ، فأطبقها على شفتيه وأخذ يمضغ ؛ وكان فمه يثب تحت عينيه الأرنبيتين . وقال :

— هكذا ! هكذا ! ها نحن ذا !

واتخذ بيارنيه هيئة التنطّس والانتصار :

— ما الذي قلته لكم ؟

— ما الذي قلته لنا ؟

— لا تتظاهروا بالبلاهة . اتذكر يا دولارو ما قلته بعد عملية فنلندا؟ وبعد نارفيك ، هل تتذكر ؟ كنت تنعتني بطير الشؤم ، ولمـا كنت ابرع مني ، فقد كنت دائماً تُربكني .

وكان قد تورّد : كانت عيناه خلف نظارتيه تلتمعان بالحقد والمجد.

— ما كان ينبغي خوضها ، هذه الحرب ؛ لقد قلت دائماً اننـا ينبغي الاّ نخوضها ؛ ولو حدث هذا لما كنا قد بلغنا هذا المبلغ .

قال بينيت : — لو لم نخضها لكان الوضع اسوأ .

— لا يمكن ان يكون الوضع اسوأ من هذا : ليس اسوأ من الحرب.

وكان يفرك يديه بعذوبة ، ووجهه يلتمع براءة : كان يفرك يديه، كان يغسل يديه من هذه الحرب ، فهو لم يخضها ، بل هو لم يعشها؛ كان قد عبس عشرة أشهر ، رافضاً ان يرى ، وان يتكلم ، وان يشعر ، محتجاً على جميع الاوامر بالحماسة الهوساء التي كان ينفذها بها ، وهو شارد ، ثائر الأعصاب ، غائب الروح . وها هو الآن يجازى على ما عاني . كانت يداه نظيفتين ، وقد تحققت تنبؤاته : كان المهزومون هم « الآخرين » ، امثال بينيت ، ولوبيرون، ودولارو، والآخرين . وليس هو . وأخذت شفتا بينيت ترتجفان . وسأل في صوت متقطع :

— واذن ، كل شيء على ما يرام ؟ هل انت مسرور ؟

— مسرور ؟

— هل حصلت عليها ، هزيمتك ؟

— « هزيمتي » ؟ ولكنها لك بالمقدار نفسه .

— كنت تتمناها : فهي لك . واما نحن الذين لم نكن نتمناها ، فلا نريد ان نحرمك منها .

وبسم بيارنيه بسمة من يعتقد انه لم يُفهم . وسأله في صبر :

— من قال لك اني كنت أتمناها ؟

— انت بالذات ، منذ لحظة غير بعيدة .

— قلت اني كنت أتنبأ بها . فالتنبؤ بها وتمنّيها ، شيئان ، أليس كذلك ؟

وكان بينيت ينظر اليه من غير ان يجيب،ووجهه قد تلكّد برمّته ، وشفتاه قد برزتا كأنهما خطم ؛ وكان يدير في محجريه عينين كبيرتين مهانتين . وتابع بيارنيه :

— ولماذا تراني كنت أتمنّاها ؟ أتشرح لي ذلك ؟ ربما كنت من

الطابور الخامس ؟

فأجاب بينيت في مشقة :

– انك من دعاة السلام .

– وما معنى ذلك ؟

– الامران سواء .

فهزّ بيارنيه كتفيه وهو يباعد يديه في إرهاق . وهرع شارلو الى بينيت ووضع ذراعه حول عنقه ، وقال في طيبة :

– ارجوكما ، لا تختصما ، فما جدوى الخصام ؟ لقد خسرنا ، وليست هذه غلطة احد ، وليس لأحد ما يؤاخذ به نفسه عليه . كل ما في الامر اننا وقعنا في مصيبة .

فبسم لونجان بسمة سياسية :

– أهذه مصيبة ؟

فقال شارلو بصوتٍ مصالح :

– أجل ، يجب ان نكون منصفين : انها مصيبة ، بل مصيبة كبيرة . ولكن ما حيلتنا ؟ انني انا اقول : لكلٍ دوره . لقد ربحنا في المرة الماضية ، اما هذه المعركة ، فلهم ، والمعركة القادمة لنا .

قال لونجان : – لن يكون ثمة معركة قادمة .

ورفع اصبعه ، واضاف بلهجة متناقضة :

– لقد قمنا بآخر حرب لآخر محاربين ، تلك هي الحقيقة . فالوضع سواء ، أكنا منتصرين ام مهزومين : لقد نجح فتية ٤٠ الصغار بما اخفق به آباؤهم انتهت الامم،وانتهت الحرب . نحن اليوم راكعون ؛ وغداً يأتي دور الانكليز : فالالمان يأخذون كل شيء وينظّمون في كل مكان ، والى الامام من اجل تكوين ولايات اوروبا المتحدة .

قال بينيت :

– ولايات إسّي المتحدة . سنكون خدّام هتلر .

فسأل لونجان بروعة :

– هتلر ؟ ما هذا ، هتلر ؟ بالطبع كان لا بد من واحد . فكيف تريد ان تتفاهم البلاد اذا تركتها حرة ؟ انهم كالبشر : كلّ يجذبه من ناحيته . ولكن منذا الذي سيتحدث عن هتلرك بعد مئـــة عام ؟ سيكون ميتاً ، والنازية معه .

فصاح بينيت :

– ايّ فرج أحمق انت ؟ ولكن منذا الذي سيعيشها ، هذه الاعوام المئة ؟

فبدت على لونجان الدهشة الاستنكارية :

– ينبغي ألا تفكر على هذا النحو ، ايها الرأس الصغير : بل يجب ان ترى الى ابعد من انفك قليلاً ؛ يجب ان تفكر بأوروبا ما بعد الغد.

– وهل تكون اوروبا ما بعد الغد هي التي تقدّم لي طعامي ؟

فرفع لونجان يداً مسالمة وأرجحها في الشمس وقال :

– يعني ! يعني ! إن الاذكياء يستطيعون ان يتدبروا امرهم دائماً.

فانخفضت اليد الاسقفية ، ولامست شعر شارلو المجعّد .

– أليس هذا هو رأيك ؟

قال شارلو : – ان رأيي لا يخرج عما يـــلي : ما دام علينا ان نوقّعها ، هذه الهدنة ، فالخير ان توقّـــع على الفور : فيكون عدد الموتى اقل ، ولا يتاح للألمان ان يغضبوا .

وكان ماتيو ينظر اليه في ذهول . كلهم ! كلهم ! كانوا يفرّون: شوارتز يغيّر جلده ، ونيبير يتشبث بالنوم ، وبينيت غاضب ، وبيارنيه بريء . اما لوبيرون ، فقد اختبأ في اللحظة ، يأكل ويسدّ كل منافذه بالطعام . وكان لونجان قد ترك العصر . كان كل منهم قـــد كوّن لنفسه ، بسرعة ، الوضع الذي يمكّنه من ان يعيش . وانتصب ماتيو فجأة وقال بصوت قوي :

– انكم تثيرون اشمئزازي .

فتأملوه بلا دهشة ، وبابتسامات مسكينة : وكان هو اكثر دهشة منهم ؛ وكانت العبارة ما تزال تصدي في اذنه ، وتساءل كيف تأتى له ان ينطق بها . وتردد لحظة بين التأثـــر والغضب ، ثم انحاز الى الغضب : فأولاهم ظهره ودفع الباب الصغير واجتاز الطريق . وكانت باهرة خالية ؛ وقفز ماتيو في العوسج الذي خدش طاقاته وهبط منحدر الغاب الصغير حتى بلغ الساقية ، وقال بصوت مرتفع : « خراء ! » . ونظر الى الساقية وردد : « خراء ! خراء ! » من غير ان يعرف لماذا . وعلى بعد مئة متر منه ، كان جندي عار حتى النطاق ، تخططه أشعة الشمس ، يغسل ثيابه ؛ انه هناك يصفر ، ويعجن ذلك الطحين الرطب ، لقد خسر الحرب وهو لا يدري ذلك . وجلس ماتيو ؛وكان يشعر بالخجل : من الذي اعطاني الحق بأن أكون قاسياً الى هذا الحد؟ لقد علموا انهم قد خسروا ، فهم يتدبرون امرهم كما يطيقون لأنهم لم يعتادوا ذلك . اما انا فقد اعتدت ، ولكن هذا لا يجعلني افضل منهم. ثم انني بعد هذا كله قد اخترت الفرار ، انا ايضاً . والغضب . وسمع طقطقة خفيفة ، واقبل بينيت يجلس على حافة الماء . وبسم لماتيو ، فبسم له ماتيو ، وظلا لحظة طويلة من غير ان يتكلما .

وقال بينيت : — انظر الفتى هناك ، انه يجهل الحقيقة .

وكان الجندي منحنيـــاً فوق الماء يغسل ثيابه بعناد غـير مألوف ؛ وكانت طائرة ضالة تهدر فوقهم . ورفع الجندي رأسه الى السماء عـــبر الأغصان في كراهية اثارت ضحكها : فقد كان هذا المشهد كله يحمل طابع تجديد الوقائع التاريخية .

— هل نخبره ؟

قال ماتيو : — اوه ! كفى ! دعه يشخ !

وصمتا . وغطس ماتيو يده في الماء وحرك أصابعه . كانت يـــده ممتقعة ملتمعة وحولها هالة زرقاء . وصعدت فقاقيع الى السطح . وأتت

قشّة حملتها دوّامة محلّية فالتصقت بمعصمه وهي تدور ثم قفزت واصطدمت مرة اخرى . وسحب ماتيو يده وقال :

— الطقس حارّ .

قال بينيت :

— نعم ، وهو يغري بالنوم .

— هل انت راغب في النوم ؟

— لا . ولكني مع ذلك سأحاول .

وتمدّد على ظهره ، عاقــداً يديه خلف رقبته ، وأغمض عينيه . وغطّس ماتيو غصناً ميتاً في الماء وحرّكه . وبعد لحظة ، فتح بينيت عينيه :

— خراء !

وانتصب وأخذ يخلّل أصابعه في شعره .

— لا أستطيع ان انام .

— لماذا ؟

— انني ثائر الأعصاب .

قال ماتيو : — لا بأس في هذا ، فهو صحيّ .

قال بينيت : — حين اكون كذلك ، فلا بدّ لي من ان أضرب؛ وإلاّ اختنقت .

ونظر الى ماتيو في فضول :

— الا يثور غضبك انت ؟

— بلى .

وانحنى بينيت على حذائه وأخذ يفكّه ، وقال في مرارة :

— لو كنت اعرف هذا ، لما أطلقت رصاصة واحدة .

ونزع جوربيه ، وكانت له قدمان صغيرتان ناعمتان كقدمي طفل ، تخططها خطوط من الوسخ .

– سآخذ حمّام أقدام .

وبلّل قدمه اليمنى في الماء ، ثم أخذها بيده وانشأ يدلكها ؛ وكان الوسخ يسقط عنها في كرّيات . وفجأة نظر الى ماتيو من تحت :

– سوف يجمعوننا ، أليس كذلك ؟

فأومأ ماتيو برأسه .

– وسينقلوننا الى بلادهم ؟

– على الأرجح .

وفرك بينيت قدمه في غضب :

– لولا هذه الهدنة ، ما كانوا ليقبضوا عليّ بهذه السهولة .

– وماذا كنت ستعمل ؟

– كنت سأقاوم .

قال ماتيو : – يا لك من ثور صغير !

وتبادلا البسمة ، ولكن وجه بينيت ما لبث ان أظلم وبدا في عينيه التحدي :

– لقد قلت اننا نثير اشمئزازك .

– لم اقصدك انت .

– لقد قلتها للجميع .

وكان ماتيو ما يزال يبتسم .

– اتريد ان تضربني أنا ؟

فخفض بينيت رأسه من غير ان يجيب .

وقال ماتيو : – اضرب . وسوف أضرب انا ايضاً ، فربما هدّأنا ذلك .

فقال بينيت : – لا اجرؤ على ان اؤذيك .

– خسارة !

وكانت قدم بينيت اليسرى تقطر ماءً وشمساً . فنظر اليها كلاهما

وحرّك بينيت اصابعه ، فقال ماتيو :

– إن قدميك طريفتان !

– انهما صغيرتان جداً ، اليس كذلك ؟ انني أستطيع ان آخذ علبة ثقاب وأفتحها .

– بأصابع قدميك .

– نعم .

وكان يبتسم ، ولكن الغضب نفضه فجأة ، فقبض على كعب قدميه في وحشية :

– بل لم اكن لأقتل ألمانياً ! انهم قادمون ، ولن يكون عليهم إلاّ ان يقطفوني !

قال ماتيو : – هذا صحيح .

– إن هذا غير عادل .

– ليس هو عادلاً ولا غير عادل . وانما هو هكذا .

– ليس هذا عدلاً : اننا ندفع عن الآخرين ، عن جنود جيش كوراب وعن غاملان .

– لو كنا في جيش كوراب لفعلنا كما فعل الرفاق .

– تحدّثْ عن نفسك .

وفتح ذراعيه وتنشّق بقوة ، وشدّ قبضتيه وهو ينفخ صدره ،ونظر الى ماتيو في تعجرف :

– هل املك وجهاً يلوذ بالفرار امام العدو ؟

فابتسم له ماتيو :

– لا .

وابرز بينيت العضلات الطويلة لذراعيه الشقراوين ، وتمتّع لحظة ، لنفسه ، بشبابه ، وبقوته ، وبشجاعته . كان يبتسم ، ولكن عينيه ظلتا عاصفتين وحاجبيه منخفضين :

– بل كنت أظلّ في مكاني حتى أُقتل .

– إن المرء يقول ذلك .

فابتسم بينيت ومات : كأن رصاصة تخترق صـدره . والتفت الى ماتيو ، ميتاً ومنتصراً . وردّد تمثال بينيت ، الذي مات من اجل الوطن :

– كنت أظلّ في مكاني حتى أُقتل .

ثم عاد الغضب والحياة ينعشان هذا الجسم المحجّر .

– لست مذنباً . لقد فعلت كل ما طلب مني ان افعل . وليست هي غلطتي اذا لم يُحسنوا استعمالي .

وكان ماتيو ينظر اليه نظرة حنان ؛ وكان بينيت شفّافاً في الشمس، وكانت الحياة تصعد وتهبط وتدور بسرعة شديدة في شجرة عروقـه الزرقاء ، وكان يشعر ولا بد بأنه هزيل جداً ، وسليم جداً ، وخفيف جداً : فكيف كان له ان يصدّق ذلك المرض غير المؤلم الذي كان قد بدأ يتأكله ، والذي سيُحني جسمه الشاب الجديد فوق حقول البطاطا في سيليزيا او على شوارع بوميرانيا، والذي سيملأه وهناً وحزناً وثقلاً . إن الهزيمة شيء يُتعلم .

قال بينيت :

– لم اكن اطلب من احد شيئاً ، وانما كنت اقوم بعملي في هدوء. الالمان : لم أكن ضـدهم ، فانه لم يسبق لي ان رأيت قفـا أحد منهم . النازية ، الفاشستية ، انني لا اعرف حتى ما هما . ودانزيغ : المرة الاولى التي رأيت فيها هذا البلد الصغير على خارطة ، كنت قـد جُندّت : طيّب : وهنا نجد انفسنا امام دالادييه الذي يعلن الحرب وغاملان الذي يخسرها . فما هو شأني انا في هذا ؟ اين هي غلطتي ؟ ألعلك تظن انهم استشاروني ؟

فهزّ ماتيو كتفيه :

— ها قد مضت خمس عشرة سنة ونحن نراها قادمة . فقــد كان ينبغي مواجهتها في حينها . إما لتفاديها او لربحها .

— انني لست نائباً .

— ولكنك كنت تصوّت .

فقال بينيت من غير ثقة :

— طبعاً .

— لمن ؟

فظلّ بينيت صامتاً . وقال ماتيو :

— انت ترى اذن .

فقال بينيت في ضجر : — كان لا بــدّ من ان اقوم بالخــدمة العسكرية . وبعد ذلك كنت مريضــاً : فلم يكن بامكاني ان اصوّت اكثر من مرة واحدة .

— وهل صوّتّ في تلك المرة ؟

فلم يجب بينيت ، وابتسم ماتيو ، وقال على مهل :

— وانا ايضاً لم أكن أصوّت .

وكان الجندي يعصر قمصانه ويضعها في منشفة حمراء ، ثم صعد الى الطريق وهو يصفر :

— أتعرف اللحن الذي يصفره ؟

فقال ماتيو : — لا .

— « سوف نجفّف غسيلنا على خط سيغفريد . »

وضحكا . وبدا على بينيت بعض الانفراج ، وقال :

— لقد عملت بقسوة ، ولم آكل دائمـاً حتى الشبع . ثم وجــدت ذلك العمل في السكك الحديدية وتزوجت امرأتي : وكــان ينبغي أنْ أطعمها ، أليس كذلك ؟ انها من عائلة طيبة ، لو تعلم . بالرغم من ان الامور لم تكن على ما يرام فيما بيننا باديء ذي بدء . (واضــاف

بحيوية) ولكن الحال مشى فيما بعد : اقول ذلك لأفهمك اننا لا يمكن ان نهتمّ بكل شيء في الوقت نفسه .

قال ماتيو : — طبعاً .

— وما كان عساي ان افعل غير ذلك؟

— لا شيء .

— لم يكن لدي الوقت لأهتمّ بالسياسة . كنت أعود الى بيتي مرهقاً، ثم كانت تحدث المنازعات ، ولكن اذا كنتَ قد تزوجت فلكي تضاجع زوجتك كل مساء ، أليس كذلك ؟

— أفترض .

— وإذن ؟

— اذن لا شيء . هكذا تُخسر الحروب .

فأصيب بينيت بوثبة غضب جديدة .

— انك تضجرني تماماً ! حتى ولو اهتممت بالسياسة ، حتى ولو لم أهتمّ الا بالسياسة ، فماذا كان ذلك سيغيّر ؟

- كان بامكانك ان تفعل ما في وسعك .

— وهل فعلته انت ؟

— كلا .

— حتى ولو كنتَ قد فعلته ، تستطيع ان تقول لنفسك انك لست انت الذي خسرت الحرب ؟

— نعم .

— إذن ؟

فلم يجب ماتيو ، وسمع طنين بعوضة راعشاً فحرّك يده على مستوى جبهته ، فكفّ الطنين . هذه الحرب ، كنت انا ايضاً اعتقـــد اول الأمر أنها كانت مرضاً . فأية بلاهة ! انها انا ، وهي بينيت ، وهي لونجان . انها بالنسبة لكلٍ منّا ذاته ؛ انهـا مصنوعة على صورتنـــا ،

ونحن نصاب بالحرب التي نستحقّها . ونشق بينيت طويلاً من غير ان يغادر ماتيو بنظره ؛ ووجد ماتيو هيئته بليدة ، فامتلأ فمه وعيناه بمدّ من الغضب : كفى ! كفى ! حسبي ان اكون الشخص الـذي يرى بتبصّر ! وكـانت البعوضة ترتعش حول جبينه ، كأنهـا تاج مجـد مضحك . لو انني حاربت ، لو ضغطت على الزناد ، لسقط رجل مكان ما ... ورفع يده فجأة وصفع صدغه صفعة شديدة ؛ وأخفض أصابعه فرأى على سبابته تطريزاً دموياً دقيقـاً ، انسانـاً ينزف حياته على الحصى ، صفعة على الصدغ ، ضغطةُ سبابة على الزناد ، وستتوقف زجاجات صندوق الدنيا الملونة ، ويطرّز الدم عشب الساقية ، كفاني ، كفاني ! ليتني أغرق في عملٍ مجهول كأنه الغابة . عمل . عملٍ ملزم لا يُفهم قط تماماً . وقال بهوس :

— لو كان ثمة « ما » يُعمل ...

فنظر اليه بينيت باهتمام :

— ماذا ؟

فهزّ ماتيو كتفيه وقال :

— لا شيء . لا شيء لهذه اللحظة .

وكان بينيت يلبس جوربيه ؛ وكان حاجباه المتقعـان يقطّبان في أعلى جبينه . وسأل فجأة :

— هل أريتك صورة امرأتي ؟

قال ماتيو : — لا .

فنهض بينيت وفتّش في جيب سترته وأخرج صورة مـن محفظة . ورأى ماتيو امرأة جميلة ذات هيئة قاسية ، مع ظـلّ من زغب في زوايتي فمها . وكانت قد كتبت على ظهرها : « من دنيز الى لعبتها ، ١٢ كانون الثاني ١٩٣٩ . » وتورّد خد بينيت :

— هكذا تسمّيني ، ولا استطيع ان أغيّر لها هذه العادة .

ـ لا بدّ لها من ان تسمّيك باسم .

قال بينيت بجدارة : ـ ذلك لأنها تكبرني بخمسة أعوام .

وأعاد له ماتيو الصورة :

ـ انها جميلة .

قالت بينيت : ـ انهـا ، في السرير ، هائلـة . بـل انك لا تكاد تتصوّر .

وكان قد زاد احمراراً . وأضاف بلهجة بَرمة :

ـ هي من عائلة طيبة .

ـ لقد سبق ان قلت لي ذلك .

فقال بينيت مندهشاً : ـ آه ، هـل قلتها لك ؟ هـل قلت لك ان اباها كان استاذاً للرسم ؟

ـ نعم .

وأعاد بينيت الصورة الى المحفظة بعناية .

ـ إن الأمر يبعصني .

ـ ما الذي يبعصك ؟

ـ ان اعود هكذا .

وكان قد شبك كفيه على ركبتيه . وقال ماتيو :

ـ يعني .

قال بينيت : ـ إن اباها بطـل من ابطـال ١٤ ، ثلاثة أوسمة ، صليب الحرب . وهو يتحدث بذلك طوال الوقت .

ـ واذن ؟

ـ سوف يبعصه ان نعود هكذا .

قال ماتيو : ـ يـا لك من رأس مسكين ! إنك لن تعود باكراً كما تظن .

وكان غضب بينيت قد انحسر ، فهزّ رأسه بحزن وقال :

— انني افضل ذلك . فليست لديّ رغبة في العودة .
فردّد ماتيو : — يا لك من رأس مسكين !
قال بينيت : — انها تحبني ، ولكن اخلاقها صعبة . وهي تعتزّ بذلك . وهناك امها ايضاً ، وهي تُدفع من ياقتها دفعاً . المرأة ، يجب ان تحترمك ، أليس كذلك ؟ وإلا حلّ الشيطان في بيتك .
ونهض فجأة وقال :
— ضجرت من هذا المكان . هل تأتي ؟
فقال ماتيو : — الى اين ؟
— لا ادري . الى حيث الآخرون .
فقال ماتيو بلا حماسة : — اذا شئت .
ونهض بدوره ، فصعدا الى الطريق ، وقال بينيت :
— عجباً ! هذا غيكيولي .
وكان غيكيولي واقفاً ، مباعداً ما بين ساقيه ، حامياً حاجبيه بيده ، وهو ينظر اليهما مقهقهاً . وقال :
— كانت لطيفة !
— ما هي ؟
— كانت لطيفة . لقد انطلت عليكم كالطبول .
— ولكن ماذا ؟
قال غيكيولي وهو ما يزال يضحك :
— الهدنة .
فأشرق وجه بينيت :
— وهل كانت دعابة ؟
قال غيكيولي : — قليلاً . لقد اتى « ليكيه » يضايقنا بطاليه الانباء ، فأعطيناه إياها !
فقال بينيت في اندفاع :

ـ إذن ، ليس هناك هدنة ؟

ـ ليس هناك من هدنة ، اكثر مما هناك من زبدة بين الفخذين ..

ونظر ماتيو الى بينيت من زاوية العين :

ـ وماذا يغيِّر هذا ؟

قـال بينيت : ـ هـذا يغيِّر كـل شيء . سترى ! سترى كم سيتغير الوضع .

الساعة الرابعة

لا أحد في جادة سان جرمان ؛ ولا أحد في شارع دانتون . حتى الستائر الحديدية لم تكن مسدلة ، وكانت الواجهات تلتمع : كل ما في الأمر أنهم قد نزعوا مزلاج الباب حين ذهبوا . كـان اليوم يوم أحد . منذ ثلاثة ايام كان اليوم يوم أحد تماماً ، ايّ أحـد ، أصلب قليلاً من المـألوف ، واكثر كيمائية ، مفرط في الصمت ، ممتـلىء بالانتانات الخفية . واقترب دانيـال من حانوت كبير لبيع الأصواف والأقمشة ؛ وكانت اللفائف المتعدّدة الألوان المصفوفة بشكل أهرام قد بدأت تصفرّ وتبعث رائحة القدَم ؛ وفي الحوانيت المجاورة ، كانت الأقمطة والقمصان تذبل ، وكان غبـار طحيني يتراكم فوق الرفوف ، وكانت خطوط طويلة بيضـاء توسِّخ الزجاج . وفكر دانيال : « إنّ الزجاج يبكي » . وخلف الزجاج ، كان العيد قائماً : كان الذباب يطنّ بالملايين . يوم أحد . حين يعود الباريسيون ، سيجدون أحـداً عفناً مسترخياً فوق مدينتهم الميتة .. اذا عادوا ! وأطلق دانيال العنـان لتلك الرغبة الهائلة في الضحك التي كان ينزّهها عبر الشوارع منـذ الصباح ، اذا عادوا !

وكـانت ساحة سانت ـ اندريه ـ ديزار الصغيرة تستسلم جامـدة

للشمس ؛ كان الجو اسود قاتماً في وضح النور . كـانت الشمس شيئاً صناعياً : برق مانييزيوم يخفي الليل ، وسوف ينطفيء بعد جزء عـلى عشرين من الثـانية ، وهو مع ذلك لا ينطفيء ، وألصق جبينه بواجهة « البراسوري الزاسين » ، لقد تناولت فيها الغداء مع ماتيو : وكان ذلك في شباط ، اثناء مأذونيته ، وكانت ملأى بالابطال والملائكة . وميّز في الظلّ لطخات متردّدة تشبه قُطر الأقبية : وكـانت خوانات من ورق . اين هم الأبطال ؟ وكانت كرسيـان حديديتان متروكتين على السطيحة ، فتناول دانيال احداهما من مسندها ، وحملهـا الى حافة الرصيف وجلس كصـاحب الدخـل الوفير تحت السماء العسكرية ، في ذلك الحرّ الأبيض الذي كان يغلي بذكريات الطفولة . وكـان يستشعر في ظهره ضغط الصمت الممغنط ، وينظر الى الجسر الحـالي ، وعلب الأرصفة المقفلة ، والساعة التي لا عقرب لها . وفكّـر : « لا بدّ أنهم ضربوا هـذا كله بعض الضرب . بضع قنابل ، ليجعلونـا نرى . » وانسرب شبح ازاء مفوضية الشرطة ، في الجهة المقـابلة من السين ، كانما يحمله رصيف متدحرج . إن باريس لم تكن خالية بكـل معنى الكلمة : فقـد كـانت مسكونة بصوى صغيرة كانت تنبع في جميع الاتجاهات ومـا تلبث ان تتلاشى تحت هـذا النور السرمـدي . وفكر دانيال : « المدينة جوفاء » وكان يُحسّ تحت قدميه ممرات المترو ، ويحسّ خلفه وامامه وفوقه جروفاً مثقوبة : فبين السماء والأرض كانت آلاف الصالونات من طراز لويس فيليب ، وغرف الطعام من طراز « امبير » وزوايا الدواوين تنقصف تحت الهجر ، فتثير الضحاك حتى الموت . والتفت فجأة : لقد طرق احدهم على الزجاج . ونظر دانيال فترة طويلة الى الواجهة الكبيرة ، ولكنه لم ير انعكاس صورته بالذات . ونهض ، وحلقه منقبض بضيق غريب ، ولكنه لم يكن مستاءً جداً : كان طريفـاً ان يشعر بمخاوف ليلية في وضح النهـار . واقترب من

نبع سان ميشال ونظر الى التنّين المخضرّ . وكان يفكّر : كل شيء مباح . كان بوسعه ان يُنزل بنطاله تحت نظر هذه النوافذ السوداء ، وان ينزع بلاطة ويقذف بها في اتجاه واجهة المطعم ، وكان بوسعه ان يصرخ : « لتعش المانيا » فلا يحدث شيء . على الأكثر ستلتصق سحنة مذعورة بزجاج احدى النوافذ ، في طابق سادس من بناية ، ولكن لن تكون لذلك عاقبة : انهم لا يملكون بعدُ الطاقة على ان يغتاظوا : سيلتفت رجل الحبر ، هناك في الطابق الأعلى ، الى زوجته ليقول لها بلهجة متجردة جداً : « إن في الساحة رجلاً قد نزع لباسه التحتي » فتجيبه من جوف غرفتها : « لا تقف اذن على النافذة ، فاننا لا ندري ما يمكن ان يحدث . » وتثاءب دانيال . هل يكسر الزجاج ؟ عجباً ! ستتضح الامور كثيراً حين يبدأون النهب . وفكر : « ارجو كثيراً ان يخربوا ويسلبوا كل شيء . . » وتثاءب مرة اخرى : كان يُحسّ في نفسه حرية هائلةً وبلا جدوى . وكان فرحه احياناً يفري قلبه .

واذ كان يبتعد ، أطلت قافلة من شارع « لاهوشيت » . « انهم الآن يتنقلون في قوافل » . وكانت هي القافلة العاشرة التي يلتقيها منذ الصباح . وأحصى دانيال تسعة أشخاص : عجوزين تحملان سلالا وطفلتين وثلاثة رجال أشداء جدد ذوي شوارب ؛ وكانت خلفهم امرأتان صبيتان ، اولاهما جميلة وممتقعة ، والأخرى حامل تطوف على شفتيها بسمة . وكانوا يسيرون على مهل ، من غير ان يتكلموا . وسعل دانيال ، فالتفتوا اليه جميعاً : ولم يكن في عيونهم ود ولا توبيخ ، لم يكن الا دهشة غير مصدقة . ومالت احدى الطفلتين على الاخرى من غير ان تنقطع عن النظر الى دانيال ، فتمتمت بضع كلمات وضحكت كلتاهما ضحكة اعجاب وافتتان : وكان دانيال يحس انه ليس أقل غرابة من شمواة تحدّد في المتسلقين على الجبال نظرَها

الهادىء البكر . ومرّوا خياليين ، اسطوريين ، غارقين في وحدتهم ، واجتاز دانيال الطريق ليذهب فيرتفق الحاجز الحجري لمدخـــل جسر سان ميشال . وكان السين يلتمع ؛ وفي البعيد البعيد ، باتجاه الشمال الغربي ، كان الدخان يرتفع فوق البيوت . وفجأة بدا له المشهد سيئاً لا يطاق ، فانفتل وعاد على عقبيه وأخذ يصعد الجادة مرة أخرى .

وكانت القافلة قد تلاشت ، وحل الصمت والفراغ على مدى النظر هاوية افقية . وكان دانيال متعباً : ان الشوارع لم تكن تفضي الى اى مكان ؛ وكانت لفراغها من الناس متشابهة ، فاذا بجادّة سانميشال التي كانت بالامس دفقة طويلة من الذهب نحو الجنوب ، تصبح هذا الحوت الميت ، المنتثر البطن في الهواء . وخفق دانيال خطواته على هذا البطن الاجوف المنتفخ ، وجهد في ان يرتعش من السرور ، وقال بصوت مرتفع : « كنت احتقر باريس . » عبثاً : لم يكن ثمة ما هو حيّ إلا الخضرة ، إلا اذرعة شجر الكستناء الكبيرة الخضراء ؛ وكان يحسّ احساساً مائعاً بأنه يمشي في نبت الحراج . وكان جنـــاح الملل القذر قد بدأ يلامسه حين لاحظ لحسن الحظ اعلانـــاً ابيض وأحمر ملصوقاً على حباك ، فاقترب وقـــرأ : « سننتصر لأننا الاقوى . » ففتح ذراعيه وابتسم في تلذّذ ، متحرراً : انهم يركضون ويركضون ولا ينفكون يركضون . وكان قد رفع رأسه وأدار بسمته نحو السماء وهو يتنفس بقوة : دعوى قائمة منذ عشرين سنة ، جواسيس حتّى الى ما تحت سريره ؛ إن كل مار كان شاهد اثبات او قاضياً او الاثنين ؛ وكل ما كان يقوله كان يمكن ان يدينـــه . ثم فجأة يأتي التشتث . انهـــم يركضون ، الشهود والقضاة ورجال الخبر ، يركضون تحت الشمس ، فيبيض الافق طائرات فـــوق رؤوسهم . وكانت اسوار باريس ما تزال تتحدث عن كبريائهم ومزاياهم : اننا الأقوى ، والاوفر فضيلة ، اننا صليبيو الديموقراطية ، المدافعون عن

بولونيا ، وعن الجدارة الانسانية ، وعن الفوارق الجنسية ، وستظل طريق الحديد مسدودة ، وسوف نجفف ثيابنـــا على خط سيغفريد . وكانت الاعلانات في شوارع باريس ما تزال ترسل انشودة صغيرة للمجد أصابها البرد والوهن ، «هم» ، فقد كانوا يركضون ، وقـــد جُنّوا من الخوف ، وكانوايتمددون في الحفر ، ويطلبون الصفح . بشرف ، طبعاً ، لقد فُقِد كل شيء ما عدا الشرف ، خذوا كل شيء في الشرف : هذا قفاي ، فاركلوه في الشرف ، وسوف ألحس قفاكم اذا تركتم لي الحياة . انهم يركضون ، يزحفون . وانا، المذنب أحكم مدينتهم .

كان يمشي خافض العينين ، متلذذاً ، وكان يسمع السيارات تنسل بقربه في الشارع ويفكر : « ان مارسيل تنشف طفلها في داكس : ولا بد ان يكون ماتيو أسيراً ، والأرجح ان يكون برونيه قد قتل ، فجميع شهودي قد ماتوا او شردوا ؛ لقد استعدت نفسي .. » وقال في نفسه فجأة : « اية سيارات ؟ » ورفع رأسه ، فأخذ قلبه يخفق حتى يبلغ خفقه صدغيه ، ثم « رآهم » . كانوا واقفين بصفـــاء ورصانة ، كل خمسة عشر او عشرين ، في سيارات طويلة مطليـــة للتضليل تسير ببطء نحـــو السين ، كانوا ينسلّون محمولين ، واقفين ، منسيين ، كانوا يلامسونه بنظرهم الذي لا يعبر عن شيء ، وكان آخرون يأتون في أعقابهم ، ملائكة اخرى متشابهة تنظر اليـــه نظرة واحدة . وسمع دانيال في البعيد موسيقى عسكرية ، وكان يخيل اليه ان السماء تمتلىء بالاعلام ، فكان عليه ان يستند الى شجرة كستناء . كان « وحيداً » في هذه الجادة الطويلة ، الفرنسي الوحيد ، المدني الوحيد ، والجيش العدو برمته ينظر اليه . ولم يكن خائفاً ، بل كان يستسلم بثقة الى الوف العيون هـــذه ، ويفكر : « قاهرونا » فتغمره اللذة . وبادلهم نظرتهم بشجاعة، وتملى من هذا الشعر الأشقر ، ومن

هذه الوجوه الملفوحة التي تشبه فيها العيون بحيرات الجليد ، ومن هذه القامات الضيقة ، وهذه الافخاذ التي لا يصدق طولها واكتنازهـــا بالعضلات . وتمتم : « ما اجملهم ! » ولم يكن يلمس الارض بعد. كانوا قد رفعوه الى أذرعتهم ، وكانوا يضمونه الى صدورهم وبطونهم المسطحة . وتدحرج شيء من السماء : إنه القانون القديم ، لقد انهار مجتمع القضاة ، وامحى الحكم ، وكان الجنود الصغار لابسو الكاكي وابطال حقوق الأنسان والمواطن ، مهزومين . وفكر : « اية حرية » وكانت عينياه مبللتين . كان الحي الوحيد الذي خلفتـه الكارثة ، « الانسان » الوحيد تجاه ملائكة الحقد والغضب هؤلاء، هؤلاء الملائكة المبيدين الذين كانت نظراتهم تردّ له طفولته ، وفـكر : « ها هم القضاة الجدد ، وهذا هو القانون الجديد ! » وكم كانت تبدو هزيلة مضحكة فوق رؤوسهم عجائب السماء العذبة، وبراءة الغيوم الصغيرة : كان ذلك انتصار الاحتقار والعنف والنية السيئة، كان انتصار «الارض». ومرت دبابة ، متعجرفة بطيئة ، تغطيها الاغصان ، ولا يكاد صوتها يُسمع وكان واقفاً في مؤخرتها شاب نضر قد القى سترته على كتفيه ورفع كمي قميصه الى ما فوق المرفقين ، وشبك ذراعيه الجميلتين العاريتين . وابتسم له دانيال ، فنظر اليه الشاب طويلا ، بهيئة قاسية، ملتمع العينين ، ثم أخذ فجأة يبتسم ، فيما كانت الدبابة تبتعد . وفتش سريعاً في جيب بنطاله ثم رمى شيئاً صغيراً التقطه دانيال من الهواء : كان علبة من السكاير الانكليزية . وكان دانيال يشد العلبة شداً قوياً حتى انه كان يحس السكاير تنفجر تحت أصابعه . وكان ما يزال يبتسم . وصعد اغتلام لذيذ لا يطاق من فخذيه الى صدغيه . ولم يكن يرى بعد بوضوح ، وكان يردد وهو يلهث قليلا : « كما في زبدة — انهم يدخلون في باريس ، كما يدخلون في زبدة . » ومرت وجوه اخرى امام نظره الغائم ، واخرى وغيرهـــا ، وهي كلها جميلة ؛ سوف

يحدثون لنا « شراً » . إن هذا هو « عهـــد الشر » الذي يبدأ ، يا للعذوبة ! كان يود لو كان امرأة حتى يرميهم بالزهور .

طيران صارخ ، خراء ، خراء ، عجلوا في السير ، وخلا الشارع فملأه ضجيـج آنية على مستوى الحوافي ، وحرث السماء لمع فولاذ ، انها تمر بين البيوت ، وصاح شارلو بماتيو ، في ظلال العنبر ، وكان ملتصقاً به : انها تطير وهي تكاد تلامس الارض . ودارت القبرات النهمة المتثاقلة قليلا فوق القرية ، باحثة عن قوتها ، ثم مضت وهي تجر خلفها آنيتها التي كانت تقفز من سقف الى سقف ، وبدت رؤوس حذرة ، وخرج أشخـــاص من العنبر والبيوت ، وقفز آخرون من النوافذ ، فكأنهـــا السوق الصاخبة . صمت . كانوا جميعاً هناك الصمت ، زهاء مئة ، هندسة ، راديو ، محطة سبرالغور ، عمـــال تلفون ، امناء سر ، جميعاً ، ما عدا السائقين الذين كانوا منذ العشية ينتظرون وراء مقاودهم ؛ وأخذوا اماكنهم لمشاهدة « اي » حفلة ؟ وجلسوا وسط الشارع ، لأن الطريق كان خالياً ولأن السيارات كفت عن المرور ، جلسوا على حافة الرصيف ، وعلى خشب النوافذ ، بينما ظل آخرون وقوفاً ، مستندين الى واجهات البيوت . وكان ماتيو قد جلس على مقعد صغير ، امام حانوت البقالة، ولحق به شارلو وبيارنيه، ولم يكن ثمة من يتكلم ، لقد كانوا هناك ليكونوا معاً ولينظر بعضهم الى بعض ، وكانوا يرون أنفسهم على حقيقتهم ، السوق الكبيرة ، الجمهور المفرط في الهدوء ذو المئة وجه رمادي ؛ وكان الشارع يتكلس تحت الشمس ، ويتلوى تحت السماء المبقورة ويحرق الاقدام والافخاذ ، وكانوا يستسلمون للحرق؛ وكان الجنرال يسكن في بيت الطبيب : النافذة الثالثة في الطابق الاول ، وكانت تلك عينه ، ولكنهم كانوا يستخفون بالجنرال : كانوا ينظرون بعضهم الى بعضهم، فيخيف بعضهم بعضاً . كانوا يعانون من رحيل مكبوت لا يتحدث عنه احد ، ولكنه

كان يضرب في صدورهم ضرباً كبيراً ؛ وكانوا يحسونه في أذرعتهم وأفخاذهم ، مؤلماً كأنه تشنج ؛ لقد كان خذروفاً يدور في القلوب . وتنفس شخص كما يتنفس كلب بحلم ؛ وقال في الحلم : « ان في « الادارة » علباً للقرود . » وفكر ماتيو : « نعم ، ولكنهم وضعوا الدرك على الباب للحراسة » وأجاب غيكيولي : « اسمع ايها الاحمق ، لقد وضعوا الدرك على الباب للحراسة . » وحلم شخص — بدوره — بصوت ابيض مستنيم : « ان ذلك كالخباز ، عنده خبز، اؤكد لك ، فلقد رأيت الأرغفة ، ولكنه سد حانوته بحواجز . » وتابع ماتيو الحلم ، ولكن من غير ان يتكلم ، ورأى شريحة لحم ، فامتلأ فمه باللعاب ، وتحامل غريمو قليلا مشيراً الى المصاريع المغلقة وقال : « مـا بالهم في هذا البلد ؟ كانوا بالأمس يحدثوننا ، وهم اليوم يختبئون ! » كانت البيوت بالأمس تتثاءب كالمحار ، اما الآن ، فقد انغلقت على نفسها ؛ وفي داخلها كان رجال ونساء يظهرون بمظهر الموتى ويعرقون في الظلام ؛ وقال نيبير : « انما نحن موبوءون لأننا مهزومون » وغنت معدة شارلو ، فقال ماتيو : « ان معدتك تغني » فأجاب شارلو : « انها لا تغني ، بل تصرخ » وسقطت في وسطهم كرة من المطاط ، فالتقطها لاتيكس ، وبرزت فتاة صغيرة في الخامسة او السادسة ونظرت اليه في خجل وسألها لاتيكس : « اهي كرتك ؟ تعالي خذيها . » وكان الجميع ينظرون اليها . وكانت لدى ماتيو رغبة بأن يأخذها على ركبتيه ؛ وكان لاتيكس يحاول ان يرقق صوته الخشن : « هيا ! تعالي ! تعالي ! تعالي الى ركبتي . » وانطلقت همسات كل مكان ! تعالي ! تعالي ! تعـالي ! ولم تكن الصغيرة تتحرك ؛ تعالي ، فرختي ، تعالي ، تعالي يا دجاجتي ، تعـالي ! وقال لاتيكس : « يا إلهي ! اننا في هذه الساعة نخيف الاطفال » وكان الآخرون يضحكون ، وقالوا له : « انت الذي تخيفها بسحنتك

هـــذه ! » وكان ماتيو يضحك ، ولاتيكس يردد بصوت مغن : « تعالي يا طيبتي ! » ثم أخذه الغضب فجأة فصاح : « اذا لم تأتي أحتفظ بها ! » ورفع الكرة فوق رأسه ليريها اياها ، وتظاهر بأنه يضعهـــا في جيبه ، فصرخت الصغيرة ، ونهض الجميع ، وأخذوا يصرخون : « أعدها لها ؛ إنك تُبكي طفلة، امها القذر ، لا، لا ، ضعها في جيبك ، اقذفها على السطح . » وكان ماتيو يحرك ذراعيه وهو واقف ، فابعده غيكيولي وعيناه تبرقان غضباً ، وراح ينزرع امام لاتيكس : « أعدها لها ، بالله عليك ، اننا لسنا متوحشين ! » وضرب ماتيو بقدمه وقد أثمله الغضب ، وكان لاتيكس اول الهادئين فخفض عينيه وقال : « لا تغضبوا ، فستعاد اليها . » وقذف الكرة بارتباك ، فصدمت جداراً ، وقفزت ، فارتمت الطفلة فوقها ولاذت بالفرار . الهدوء . وعاد الجميع الى الجلوس، وعاد ماتيو الى الجلوس حزيناً ساكناً ؛ وكان يفكر : « اننا لسنا موبوئين . » لا شيء غير ذلك ، لا شيء غير افكار الجميع . لم يكن احياناً الا فراغاً قلقاً ، وكان يصبح احياناً اخرى جميع الناس ، فكان ضيقه يهدأ ، وتضج افكار الجميع نقاطاً ثقيلة في رأسه وتتدحرج خارج فمه. لسنا موبوئين . ومــد لاتيكس يديه وتأملها بحزن . « ان لي ستة ، انا الذي احدثكم ، وكبيرهم في السابعة ولم أرفع يدي عليهم قط . »

وكانوا اقدعادوا للجلوس موبوئين، جائعين، كمدين تحت السماء المسكونة، ازاء هذه البيوت الكبيرة العمياء التي كانت ترشح حقــداً . كانوا صامتين : ولم يكن لها الا ان تصمت ، تلك الهوام الكريهة التي كانت تلطخ هذا اليوم الجميل من ايام حزيران . صبراً ! إن المبيد آت ، وسنجتاز جميع الطرق الى فليتوكس . وأشار لونجان الى المصاريع وقال : « انهم ينتظرون ان يأتي الالمان ليخلصوهم منا » وقال نيبير : « تستطيع ان تراهن انهم سيكونون مع الألمان اوفر لطفـــاً . » وقال

غيكيولي : « انهم يفضلون ان ينشغلوا مع المتصرين؛ هذا أشد مرحاً ؛ ثم ان التجارة سائرة . اما نحن ، فنحمل النحس . » وقال لاتيكس: « ستة اولاد ، كبيرهم في السابعة . ولم أُخف احداً منهم قط . » وقال غريمو : « اننا محتقَرون . »

وارتفعت جميع الرؤوس لصوت أقدام ، ولكنها ما لبثت ان انخفضت ، واجتاز القائد «برات» الشارع بين الرؤوس ، فلم يُحيِّه أحد ؛ وتوقف امام بيت الطبيب ، فعادت الرؤوس الى الانتصاب وحدّقت الانظار بكتفيه المحشوتين فيما كان يرفع مطرقة الباب الحديدية ويطرق ثلاث طرقات . وانشق الباب فانسل من الفتحة الصغيرة الى البيت . ومن الساعة الخامسة والخامسة والاربعين الى الخامسة والسادسة والخمسين ، مرّ جميع ضباط اركان الحرب ، منزعجين متصلبين ، بين الجنود الصامتين : وكانت الرؤوس تضطجع لدى مرورهم ، ثم ترتفع بعد ذلك مباشرة . وقال باين : « إن عنـــد الجنرال عيداً . » فالتفت شارلو الى ماتيو وقال: « ما عساهم يفبركون ؟ » فأجاب ماتيو : « بوزك ! » فنظر اليـه شارلو وصمت . ومنذ مرّ الضباط ، زاد الناس رمادية وكمداً وتثاقلاً ؛ وكان بيارنيه ينظر الى ماتيو في مفاجأة قلقة : انما هو يلقى على خدّي امتقاعه هو بالذات .

وسُمع صوت غناء ، فانتفض ماتيو ، واقترب الغناء :

ما دام في الوعاء خراء
فالجو منتن في الغرفـــة

وانعطف في زاوية الشارع زهاء ثلاثين فتى ، سكارى ، بلا بنادق ولا سترة ولا قبعات . وكانوا يجتازون الشارع بخطى واسعة وهم يغنّون ويبدو عليهم الغيظ والفرح ، وكانت وجوههم حمراء من الشمس والخمر . وحين لمحوا هذه الدودة الرماديـــة التي كانت تتحرك على مهل فوق سطح الارض وترسل نحوهم رؤوسها المتعددة ، توقفوا فجـــأة وكفّوا

عن الغناء . وخطا ملتحٍ ضخمٌ خطوة الى الامام ؛ وكان عارياً حتى النطاق وأسود ذا عضلات مستديرة وسلسلة ذهبية حول عنقه . وسأل :

— هل هذا يعني انكم أموات ؟

فلم يجب أحد ؛ فصرف رأسه وبصق ؛ وكان يجد مشقّة في الاحتفاظ بتوازنه .

ونظر اليهم شارلو نظرة حسيرة وهو يطرف بعينيه . وسأل :

— ألست من عندنا ؟

فسأله الملتحي وهو يربت على فرجه :

— وهذا ، هل هو من عندكم ؟ لا يا سيدي . لست من عندكم ، ولو كنت من عندكم لكان هذا يؤذيني .

— من اين انت قادم ؟

فقام بحركة مبهمة :

— من فوق .

— وهل حدثت معارك ، فوق ؟

— خراء ! كلا ، لم تحدث معارك ، الا ان قائدنا انسحب حين بدأت الرائحة الكريهة تتصاعد ، وفعلنا نحن مثله ، ولكن لا من الجهة نفسها ، حتى لا نلتقي به .

فضحك الافراد خلف الملتحي ، واخذ شابان طويلان يغنّيان في تحدٍّ :

جرجر بيضاتك على الارض
وخُذْ عضوك في يدك ايها الرفيق
فنحن ذاهبون الى الحرب
الى صيد القحبات .

والتفتت جميع الرؤوس نحو عين الجنرال ؛ وحرّك شارلو يده بهيئة مذعورة :

— اسكتوا .

فسكت المغنّون ، وظلّوا فاغري الأفواه ، متهادين ؛ وبدا عليهم الارهاق فجأة .

وقال شارلو موضحاً ، وهو يشير الى البيت :

– إن ضباطنا هناك .

فقال صاحب اللحية بصوت قوي :

– انني أشخّ على ضباطكم .

وكانت سلسلته الذهبية تلتمع في الشمس ؛ وخفض بصره نحو الافراد الجالسين في الشارع واضاف :

– واذا كان الفتيان يزعجونكم ، فليس لكم الآن ان تأتوا معنا ، وهكذا يكفّون عن ازعاجكم .

فكان الآخرون يقولون خلفه مردّدين :

– معنا ! معنا ! معنا ! معنا !

وساد صمت . وكان نظر الملتحي قد توقّف عند ماتيو . وصرف ماتيو عينيه :

– وإذن ؟ من يأتي ؟ مرة ، مرتين ، ثلاث مرات .

فلم يتحرك أحد ، فانتهى الملتحي الى القول بلهجة ازدراء :

– ان هؤلاء ليسوا رجالاً ، وانما هم ضرّاطون . تعالوا يا رفاقي ، فاني لا اريد ان اعفن هنا : سوف يجعلونني أغضب .

واستعادوا سيرهم ، وكان الأفراد يبتعدون ليدعوهم يمرون ، وأدخل ماتيو قدميه تحت المقعد .

جرجر بيضاتك على الأرض

كان الافراد ينظرون الى عين الجنرال : كانت وجوه قد التصقت بالزجاج ، ولكن الضباط لم يظهروا .

فنحن ذاهبون الى الحرب ...

واختفوا : ولم ينبس أحد بكلمة ، وتلاشت الاغنية آخر الأمر .

واذ ذاك فقط ، تنفّس ماتيو . وقال نيبير من غير ان ينظر الى رفاقه:

— اولاً ، ليس هناك دليل على اننا لن نرحل .

قال لونجان : — بلى ، هناك دليل .

— وما هو ؟

— لقد نفد الوقود .

فقال غيكيولي :

— يبقى دائماً للضباط وقود . إن المستودعات ملآى .

— ولكن شاحناتنا تفتقده .

فضحك غيكيولي ضحكة جافة :

— طبعاً .

وصاح لونجان وهو يضخّم صوته الدقيق :

— اقول لك انهم قد خانونا . خانونا ، وسلمّونا للألمان !

قال مينار في لهجة ضجر :

— دعنا !

فردد ماتيو : — دعنا ! دعنا !

وقال احد عمال التلفون : — ثم خراء ! لا تتحدثوا طوال الوقت عن الرحيل ، فسنرى . إن هذا يبعص في آخر الأمر .

وكان ماتيو يتصورهم ، سائرين منشدين على الطريق، وربما يقطفون الزهور . كان يستشعر الخجل ، ولكنه كان الخجل الكبير المشترك . ولم يكن يجد ذلك رديئاً الى حد بعيد .

قال لاتيكس : — ضرّاطون ! لقــد وصفنا بالضراطين ، ذلك الصبي . نحن آباء العائلات . وهل رأيت السلسلة التي يحملها في عنقه؟ يا له من لوطيّ !

قال شارلو : — اسمعوا ! اسمعوا !

وسُمع هدير ، فتمتم صوت متعب :

– اختبئوا ايها الرفاق . انهم يؤجّلون ذلك .

قال نيبير : – انها المرة العاشرة منذ هذا الصباح .

– هل عددت ؟ اما انا ، فقد كففتِ حتى عن العدّ .

ونهضوا على غير عجل ، فركنوا الى الابواب ، ولاذوا بالممرات . ولامست طائرةٌ السطوح ، ثم خفتّت الضجة ، فخرجوا وهم يرقبون السماء ، وعادوا الى الجلوس .

قال ماتيو : – انها مطاردة .

فقال لوبيرون : – طز ! طز !

وسُمع في البعيد صوت رشاش .

– مدفعية مضادة للطائرات ؟

– مدفعية مضادة للطائرات في قفـــاي ! ان الطائرة هي التي تطلق نارها !

وتبادلوا النظر . وقال غريمو :

– لا يحسن التنزه في الطرقات اليوم :

فلم يجيبوا ، ولكن العيون كانت تبرق ، وبسمة صغيرة تجول على الافواه . وبعد لحظة ، اكتفى لونجان بالقول :

– ذلك دليل على انهم غير بعيدين .

ونهض غيكيولي واضعاً يديه في جيبيه ، وطوى ركبتيه ثلاث مرات ليزيل خدَرهما ، ثم رفع الى السماء وجهاً فارغاً مع ثنية استياء حول فمه .

– الى اين انت ذاهب ؟

– اقوم بدورة صغيرة .

– اين ؟

– هناك . اريد ان أرى ما حدث لهم .

– إحذر الطليان .

– لا تخف .

وابتعد في كسل . وكان الجميع راغبين في مرافقته ، ولكن ماتيو لم يجرؤ على النهوض ، وساد صمت طويل ؛ وكانت الوجوه قد استردّت بعض ألوانها واخذت تلتفت بعضها الى بعض في انتعاش .

— ما اجمل ان نستطيع القيام بنزهاتنا الصغيرة على الطرق ، كما في زمن السلم .

— ماذا كانوا يحسبون ؟ انهم سيصلون حتّى بانام ؟ ان هناك اشخاصاً لا يشكّون في شيء .

— لو ان ذلك قابل للتطبيق ، لما انتظرناهم حتى يقوموا به .

وصمتوا متوترين ، ثائري الأعصاب ؛ كانوا ينتظرون ؛ وكان ثمة شخص طويل هزيل ، مستند الى ستار حانوت البقالة الحديدي ، ويداه ترتجفان . وعاد غيكيولي بعد لحظة،وهو ما يزال يمشي مشية اللامبالاة .

وصاح ماتيو :

— ماذا إذن ؟

فهز غيكيولي كتفيه : وكان الافراد قد تحاملوا على مرافقهم يديرون نحوه عيوناً بارقة .

قال : — لقد تلاشوا .

— جميعاً ؟

— كيف تريدني ان اعرف ؟ انني لم أعدّ .

وكان ممتقعاً ، وكانت تجشّؤات صامتة تنفخ شفتيه .

— واين كانوا ؟ على الطريق ؟

— خراء ! اذا كنت فضولياً الى هذا الحد ، فليس لك إلا ان تذهب لترى .

وعاد الى الجلوس ؛ وأخذت سلسلة ذهبية صغيرة تلتمع في عنقه : فحمل اليها يده ، وبرمها بين اصابعه ، ثم تركها فجأة . وقال ، كأنما يتحدث على مضض :

– لقد اخبرت ناقلي الجرحى .

يا للمساكين ! وكانت السلسلة تلتمع وتبهر . ترى ، ايكون هناك من يقول : « يا للمساكين ! » ؟ كانت العبارة على جميع الأفواه، ولكن هل ثمة من يراني فيقول : يا للمساكين ! ايكون ذلك رياءً حقاً ؟ كانت السلسلة الذهبية تلتمع على العنق الاسمر ؛ الوحشية ، الفظاعة، الشفقة ، الحقد ، كل ذلك كان يطوف هناك ، وكان ذلك قاسياً ومريحاً ، اننا حُلم الهوام ، ان افكارنا تتكاثف ، فتصبح أقلّ بشرية، افكارٌ ذات شعر وارجل تركض في كل مكان ، وتقفز من رأس الى آخر : ان الهوام على وشك ان تستيقظ .

– دولارو ؟ هل انت أصم ؟

دولارو ، هو انا . والتفت فجأة . كان بينيت يبسم له من بعيد : « انه يرى دولارو » .

– هيه !

– تعال .

فارتعش ، وقد أحسّ فجأة انه وحيد وعار ، انه رجل . «انا» . وقام بحركة ليطرد بينيت ، ولكن الجمع كان قد تشكّل ثانية ضدّه ، وكانت عيونهم الهوامية تنفيه ، وكانوا ينظرون اليه برصانة مندهشة ، كما لو انهم لم يروه من قبل قط ، كما لو انهم كانوا يرونه عبر اعماق آنية . انني لا اسوى اكثر منهم ، ولا يحق لي ان اخونهم .

– تعال .

ونهض دولارو ، دولارو الهائل ، دولارو الرقيق ، الاستاذ دولارو ذهب بخطى بطيئة للقاء بينيت . وكان خلفه المستنقع ، الحيوان ذو المئتي رجل . خلفه ، مئتا عين : وكان خائفاً في ظهره . وجاء الضيق من جديد . بدأ على حذر ، كأنه تربيتة ، ثم اقام متواضعاً مألوفاً ، في جوف معدته . ولم يكن هو شيئاً : لم يكن اكثر من خواء . خواء في

نفسه ، وحولها . وكان يتنزّه في غازٍ مخفّف . ورفع الجندي الشجاع دولارو قبعته ، وأمرّ الجندي الشجاع دولارو يده في شعره ، وادار الجندي الشجاع دولارو الى بينيت بسمة متعبة ، فسأله :

ـ ماذا هناك ايها العنيد ؟

ـ هل انت مسرور معهم ؟

ـ كلا .

ـ فلماذا انت باقٍ معهم ؟

قال ماتيو : ـ اننا متشابهون .

ـ مَنْ ، المتشابهون ؟

ـ هم ونحن .

ـ وإذن؟

ـ إذن ، الأفضل ان نبقى معاً .

فاشتعلت عينا بينيت ، وقال وهو يرتدّ برأسه الى الخلف :

ـ اما انا فلست متشابهاً معهم .

وصمت ماتيو . قال بينيت :

ـ تعال .

ـ الى أين ؟

ـ الى البريد .

ـ الى البريد ؟ وهل هناك بريد ؟

ـ نعم . هناك فرع في اسفل القرية .

ـ وماذا تريد ان تفعل في البريد ؟

ـ لا تهتمّ بذلك .

ـ انه مغلق بكل تأكيد .

قال بينيت : ـ سيكون مفتوحاً بالنسبة لي .

وأمرّ ذراعه تحت ذراع ماتيو وجرّه وهو يضيف :

— لقد وجدت انثى .

وكانت عيناه تلتمعان بمرح محموم ، وكان يبتسم بسمة متعالية :

— اريد ان أعرّفك عليها .

— ولماذا ؟

فنظر اليه بينيت بقسوة :

— انك صديقي ، أليس كذلك ؟

قال ماتيو : — بكل تأكيد (وسأله) أهي موظفة البريد ؟

— نعم ، انها آنسة البريد .

— كنت أظنّ انك لم تكن راغباً في قصص النساء ؟

فضحك بينيت ضحكة مغتصبة :

— ما دمنا لا نقاتل ، فيجب ان نقضي الوقت .

والتفت اليه ماتيو فوجد هيئته مزهوة ، وقال :

— انك لم تعد تشبه نفسك ، يا رفيقي الصغير . ايكون الحب هو الذي غيّرك ؟

قال بينيت : — هيه ! هيه ! كان بالامكان ان اسقط اسوأ من هذه السقطة . سوف ترى نهديها : يأخذان العقل . وهي مثقفة : انها في الجغرافية او الحساب تضاهيك .

وسأله ماتيو : — وامرأتك ؟

فبدّل بينيت سحنته ، وقال بقسوة :

— على قفاي !

وكانا قد وصلا الى بيت صغير بطابق واحد ، وكانت المصاريع مغلقة ، وكان مزلاج الباب مرفوعاً . وطرق بينيت ثلاث طرقات وصاح :

— هذا انا .

والتفت الى ماتيو وهو يبتسم :

— انها تخشى ان يغتصبوها .

وسمع ماتيو صوت مفتاح ، وقال صوت امرأة :

– ادخل بسرعة .

وغطسا في رائحة حبر وصمغ وورق . وكان مقعد طويل يعلوه حاجز يقسم الحجرة الى قسمين . ولمح ماتيو في الداخل باباً مفتوحاً . وتراجعت المرأة حتى ذلك الباب ، واغلقته دونها ، وسُمعت وهي تدير المفتاح في القفل ، وظلا لحظات في الممر الضيق المخصص للجمهور ، ثم بدت عاملة البريد مرة اخرى وراء نافذتها . وانحنى بينيت فأسند جبينه الى الحاجز :

– انك تضعيننا في القصاص ؟ هذا غير لطيف .

قالت : – آه ! يجب ان يكون الانسان عاقلاً .

وكان لها صوت جميل ، حار ومعتم . ورأى ماتيو عينيها السوداوين تبرقان .

وقال بينيت : – إنك إذن خائفة منا ؟

فضحكت :

– لست خائفة ، ولكني لست واثقة كذلك .

– ايكون هذا بسبب صديقي ؟ ولكنه في الواقع مثلك : فهو موظف : وهذا قاسم مشترك للتعارف ، وينبغي لذلك ان يطمئنك .

وكان يتكلم بصوت انيق وهو يبتسم بدماثة ، وقال :

– هيا ، أخرجي على الأقل اصبعاً من خلال الحاجز ، اصبعاً واحداً فقط .

فأخرجت اصبعاً طويلا هزيلا من خلال الحاجز ، فوضع بينيت على ظفره قبلة . وقالت :

– كف عن هذا ، وإلا سحبته .

قال : – لن يكون ذلك مؤدباً . يجب ان يشد صديقي على اصبعك .

والتفت الى ماتيو :

— اسمح لي ان اقدم لك الآنسة التي — لا — تريد — ان — تقول اسمها . انها فرنسية صغيرة شجاعة : كان بوسعها ان تطلب نقلها ، ولكنها لم ترد ان تترك وظيفتها ، فربما كانوا بحاجة اليها .

وكان يهزّ كتفيه ويبتسم ، كان لا ينفك يبتسم . وكان صوته مائعاً ومغنياً ، ذا لكنه انكليزية خفيفة .

قال ماتيو : — مرحباً ايتها الآنسة .

فحركت اصبعها عبر الحاجز . فشد عليه بين أصابعه . وسألته :

— انت موظف ؟

— انني استاذ .

- وانا عاملة بريد .

— ارى ذلك .

وكان يشكو الحرّ والضجر ؛ كان يفكر بالوجوه الرمادية البطيئة التي خلفها وراءه .

قال بينيت : — ان الآنسة هي المسؤولة عن جميع رسائل القرية الغرامية .

قالت بلهجة متواضعة : — اوه! تعرف ان الرسائل الغرامية هنا...

قال بينيت : — لو كنت اسكن هذا البلد ، لكنت ارسل رسائل غرامية لجميع الفتيات هنا حتى تمرّ بين يديك . وبذلك تكونين « ساعية الغرام » .

وكان يضحك في شيء من الشرود :

— ساعية الغرام ! ساعية الغرام !

قالت : — سيكون هذا عظيما ، لأنه يضاعف عملي !

وساد صمت طويل ، وكان بينيت قد احتفظ ببسمته اللامبالية ، ولكنه كان متوتر المزاج ، وكان نظره يبحث في كل مكان . وكانت

حاملة ريشة معلقة الى الحاجز بخيط ، فتناولها بينيت ، وغطها بالحبر ، وسطر بضع كلمات على بطاقة بريدية مدّها لها وهو يقول :

– ها هي ذي .

فسألته من غير ان تأخذها :

– ولكن خذيها ! انت موظفة بريد : فقومي بمهنتك .

وأخذتها آخر الأمر وقرأت :

– ادفعوا الف قبلة الى الآنسة « بلا اسم » ... (وقالت وهي متوزعة بين الغضب والضحك الشديد) ها أنه قد عطل لي بطاقة بريدية.

وبلغ الضجر من ماتيو منتهاه فقال :

– حسناً . انني اتركما .

فبدا على بينيت الامتعاض :

– ألا تبقى ؟

– يجب ان ارجع الى هناك .

قال بينيت على عجل :

– اني ارافقك .

والتفت الى موظفة البريد :

– سأعود بعد خمس دقائق : فهل تفتحين لي الباب ثانية ؟

فقالت في انين :

– اوه ! كم هو مزعج! انه يقضي وقته كله في الدخول والخروج : لقد آن لك ان تقرر !

قال : حسناً ، حسناً . انني باق . ولكنك ستتذكرين : فانت التي طلبت مني ان أبقى .

– لم اطلب شيئاً على الاطلاق .

– بلى !

– لا !

وتمتم ماتيو بين اسنانه :

– اوه ! خراء !

والتفت الى الصغيرة وقال :

– وداعاً ، يا آنسة .

فقالت موظفة البريد في برودة :

– وداعاً .

وخرج ماتيو ومشى فـــارغ الرأس . وكان الليل يهبط ، وكان الجنود ما يزالون جالسين كما تركهم . ومرّ في وسطهم فارتفعت من الأرض أصوات :

– ما هي الاخبار ؟

قال ماتيو : – ليس ثمة من اخبار .

وعاد الى مقعده وجلس بين شارلو وبيارنيه وسأل :

– الا يزال الضباط عند الجنرال ؟

– لا يزالون .

وتثاءب ؛ كان ينظر بأسى الى الافراد الغارقين في الظلّ ؛ وتمتم « نحن » . ولكن ذلك لم يكن مقنعاً بعد : لقد كان وحيداً . وقلب رأسه الى الوراء ونظر الى النجوم الاولى . كانت السماء رقيقة كامرأة ؛ وكان حب الارض كله قد صعد ثانية الى السماء. وطرف ماتيو بعينيه :

– نجم مذنّب ، يا جماعة . تمنّوا شيئاً .

فضرط لوبيرون وقـال :

– هذه هي امنيتي !

وتثاءب ماتيو من جديـد ، وقال :

– حسناً ، انني ذاهب لأنام . هل تأتي يا شارلو ؟

– أشكّ : فقد نرحل هذه الليلة ، وأفضل ان اكون مستعداً .

فضحك ماتيو ضحكة خشنة وقال :

— يا لك من رأس فرج !

قال شارلو بسرعة :

— كفى ، كفى . اني آت معك .

ودخل ماتيو الى العنبر فارتمى في التبن مرتدياً كل ثيابه . وكان يموت من شدة النعاس : كان دائماً يُحسّ بالنعاس حين يكون شقياً . وأخذت كرة حمراء تدور ، واطلت وجوه نسائية من الشرفة وأخذت تدور هي ايضاً ، وكان ماتيو يحلم بأنه السماء ؛ وكان يطلّ من الشرفة وينظر الى الأرض . وكانت الأرض خضراء ذات بطن أبيض ، وكانت تقفز البراغيث . وفكر ماتيو : يجب ألا تمسّني ، ولكنها رفعت خمسة اصابع هائلة وقبضت على ماتيو من كتفيه .

— انهض ! بسرعة !

فسأل ماتيو : — كم هي الساعة ؟

وكان يُحس نفساً حارّاً على وجهه ، فقال صوت غيكيولي :

— الساعة العاشرة والثلث . انهض على مهل ، وتوجه الى الباب ، ثم انظر من غير ان تُرى .

فجلس ماتيو وتثاءب :

— ماذا هناك ؟

— إن سيارات الضباط تنتظر في الطريق ، على بعد مئة متر من هنا .

— واذن ؟

— افعل ما أقوله لك وسترى .

واختفى غيكيولي ؛ وفرك ماتيو عينيه ، ونادى بصوت منخفض :

— شارلو ! شارلو ! لونجان !

ليس من جواب . فنهض ومشى متهادياً من النعاس حتى الباب . وكان مفتوحاً على سعته . وكان رجل مختبئاً في الظلّ .

— مَن هنا ؟

قال بينيت : — انا .

— كنت احسبك تضاجع .

— انها تداور وتماطل ، ولن أحصـــل عليهـــا قبل الغد (وتنهّد واضاف) يا إلهي ! إن شفتيّ تؤلمانني من فرط ما ابتسمت .

— اين بيارنيه ؟

فأشار بينيت الى ركن مظلم ، في الزاوية الاخرى من الشارع :

— هناك ، مع شارلو ولونجان .

— وماذا يفعلون هناك ؟

— لا ادري .

وانتظرا في صمت . وكان الليل بارداً ومشرقـــاً تحت ضوء القمر . وكانت حزمة من ظلال تتحرك تجاهها ، تحت المدخل . وادار ماتيو رأسه نحو بيت الطبيب : كانت عين الجنرال مغلقـــة ، ولكن ضوءاً أصفر كان يتسلل من تحت الباب . انني « انا » هنا . وانهار «الزمن» ، مع مستقبل — فزّاعة كبير . ولم يبق غير مدّة محلية ، صغيرة نائسة . لم يكن ثمة سلم ولا حرب ، ولا المانيا ولا فرنسا : لم يكن الا هـــذا الشعاع المتقع تحت باب ربما كان عـــلى وشك ان ينفتح . فهل تراه ينفتح ؟ لم يكن ثمة ما هو هامّ غير هذا ، ولم يكن لماتيو بعد غـــير هذا المستقبل الصغير . أينفتح الباب ؟ وأضاء قلبه الذابل فرحٌ شبيـــه بفرح المغامرات . أينفتح الباب ؟ كان ذلك هاماً : كان يخيل اليه ان الباب اذ ينفتح يقدّم أخيراً جواباً على جميع الاسئلة التي طرحها على نفسه طوال حيـــاته . وأحسّ ماتيو بأن رعشة فرح ستولد في جوف كليته ؛ وشعر بالخجل ، وقال لنفسه في جهد : لقد خسرنا الحرب . وفي تلك اللحظة ، رُدّ له « الزمن » وذابت لؤلؤة المستقبل الصغيرة في مستقبل ضخم مشؤوم . الماضي ، المستقبل على مدى النظر ، منذ الفراعنة حتى ولايات اوروبا المتحدة . وانطفأ فرحه ، وانطفـــأ النور

تحت الباب ، وصرّ الباب ، ودار على مهل ، وانفتح عـلى ظلام ؛ وخفق الظلّ تحت المدخل ، وطقطق الشارع كأنه غابة ، ثم سقط في الصمت . لقد فات الاوان : فليس ثمة من مغامرة .

وبعد لحظة ، برزت اشباح على الدربزين ؛ وهبط الضباط الدرج واحـداً اثر الآخر ؛ وتوقف أول الهابطين في وسط الطريق بانتظار الآخرين ، فتبدلت الطريق: ١٩١٢ ، طريقُ حاميةٍ تحت الثلج ،والوقت متأخر ، وكانت حفلة الليل لدى الجنرال قد انتهت ؛ وكان الملازمان سوتان وكادين متشابكي الذراعين ، جميلين كصورتين ؛ وكان القائد برات قد وضع يـده على كتف الكابتن مورون ، وكانوا ينحنون ويبتسمون ويقفون تحت مانيزيوم القمر ، صورة اخرى ، الأخيرة ، اني اصوّر الفريق كله ، انتهى . واستدار القائد برات على عقبيه ، فنظر الى السماء ورفع اصبعين في الهواء ، كما ليبارك القرية . وخرج الجنرال بدوره ، فأغلق الكولونيل الباب خلفه بهدوء : كـان اركان حرب الفرقة بكامل عـدده ، عشرين ضابطاً ، في امسية مثلوجة ، ذات سماء صافيـة ، وكانوا قد رقصوا حتى منتصف الليل ، أجمل ذكرى للحامية . وأخذ الجمع الصغير يسير بخطىً ذئبية ؛ وكانت نافذة في الطابق الاول قد انفتحت بغير ضجة ؛ وكان شكل ابيض يطلّ منها وينظر اليهم ذاهبين .

وتمتم بينيت :

— ايّ مزاح !

كانوا يسيرون بهدوء ، في كبرياء رقيقة ؛ وكان على وجوههـم الصنمية التي تقطر بنور القمر وحدة وصمت شديدان،حتى ان النظر اليها كان تدنيساً . وكان ماتيو يستشعر الذنب والتطهّر :

— ايّ مزاح ! اي مزاح !

وتردّد الكابيتين مورون . أيكون قد سمع ؟ وناس جسمه الكبـير

الرائع والتفت نحو العنبر ؛ وكان ماتيو يرى عينيه تلتمعان . وهمدر بينيت وقام بحركة ليقذف بنفسه الى الخارج . ولكن ماتيو قبض على معصمه وأمسكه بقوة . وبحث الكابتين بنظره في اعماق الظلمات فترةً اخرى ثم استدار وتثاءب بغير اكتراث وهو يربت على شفتيه بأطراف اصابعه اللابسة القفاز . ومرّ الجنرال ، ولم يكن قد سبق لماتيو ان رآه على هذا القرب . وكان رجلاً ضخماً يفرض شخصيته ، ذا وجه منضّد ، وكان يستند بتثاقل الى ذراع الكولونيل ؛ وكانت تتبعهما حاشية تحمل الحقائب ؛ وكان فريق هامس ضاحك من الملازمين يُنهي الموكب .

وقال بينيت بصوت مرتفع تقريباً :

– ضباط !

ففكر ماتيو : « الاحرى انهم آلهة . آلهة يعودون الى جبال الاولمب بعد مكوث قصير على الارض ». وغرق الموكب الاولمبي في الليل ؛ ورسم مصباح كهربائي دائرةً راقصة على الطريق وانطفأ . والتفت بينيت الى ماتيو ؛ وكان القمر يضيء وجهه الجميل اليائس .

– ضباط ؟

– اي نعم .

واخذت شفتا بينيت ترتجفان ؛ وكان ماتيو يخشى ان ينفجر باكياً. فقال :

– كفى ! كفى ! هيّا ايها العنيد الصغير ، استعد رباطتك .

قال بينيت : – يجب ان نراه حتى نصدقه . انه العالم مقلوباً .

واخذ يد ماتيو يشدّها ويتشبث بها ، كما لو كان يحتفظ بأمل اخير :

– لعل السائقين يرفضون الرحيل ؟

فهزّ ماتيو كتفيه : كانت المحركات قد بدأت تهدر، فيؤلّف ذلك

انشودة زيزان عذبة ، بعيداً ، في اعماق الليل . وبعد لحظة ، اقلعت السيارات وضاع صوت المحركات . وشبك بينيت ذراعيه :

ـــ ضباط ! بدأت الآن اصدق ان فرنسا قد هلكت .

والتفت ماتيو : كانت ثمة اشباح تنفصل عن الجدار عناقيد عناقيد ، وكان جنودٌ يخرجون في صمت من الأزقة والبوابات والعنابر . جنود حقيقيون من الصف الثاني ، ذوو اجسام ضعيفة وثياب رثة ، ينسلّون ازاء بياض الواجهات المعتّم ؛ وفي لحظة ، امتلأ الشارع . وكانت لهم وجوه حزينة جداً انقبض لها قلب ماتيو ، فقال لبينيت :

ـــ تعال .

ـــ الى اين ؟

ـــ الى الخارج مع الرفاق .

قال بينيت : ـــ اوه ! خراء ! انني ناعس ، ولا رغبة لي في التحدث .

وتردّد ماتيو : كان يشعر بالنعاس ، وكانت اوجاع عنقه تثقب له رأسه ؛ وكان يود لو ينام ولا يفكر في شيء بعد . ولكن هيئتهم كانت حزينـة ، وكان يرى ظهورهم تلتمع تحت القمر فيشعر بأنه أحدهم . وقال :

ـــ اما انا ، فاني راغب في التحدث . مساء الخير .

واجتاز الشارع وضاع في الجمع . وكان ضوء القمر الطبشوري ينير سحنات متحجرة ، ولم يكن ثمة من يتكلم . وفجـأة ، سُمع صوت المحركات واضحاً . فقال شارلو .

ـــ لقد عادوا ، لقد عادوا !

ـــ ولكن لا ، ايها الابله ! لقد سلكوا طريق المقاطعات .

ومع ذلك ، فقد ارهفوا آذانهم ، يداخلهم امل غامض . وخفّ الهدير وتلاشى . وتنهد لاتيكس :

ــ انتهى الأمر .

قال غريمو : ــ ها نحن اخيراً وحدنا .

فلم يضحك أحد . وسأل أحدهم بصوت منخفض قلق :

ــ وماذا سيكون من أمرنا ؟

فلم يكن ثمة جواب ؛ كان الافراد لا يأبهون لما سيصيرون اليه ؛ فقد كان لديهم همّ آخر ،همّ غامض ، كانوا يائسين من التعبير عنه . وتثاءب لوبيرون ، وقال بعد صمت طويل :

ــ لا يجدينا شيئاً ان نسهر . الى النوم ، يا جماعة ، الى النوم .

فقام شارلو بحركة يأس كبيرة ، وقال :

ــ طيّب ، انا ذاهب لأنام ، ولكن على مضض .

وكان الافراد يتبادلون نظرات قلقة ، فلم تكن لديهم اية رغبة في الافتراق ، ولا اي مبرّر للبقاء معاً . وفجأة ارتفع صوت ، صوت مرير .

ــ انهم لم يحبّونا قط .

وكان هذا يتكلم عن الجميع ، وأخذ الجميع يتكلمون :

ــ نعم ! نعم ! نعم ! بوسعك ان تقول هذا ، انت على حق . وما تقوله صحيح . انهم لم يحبونا قط ، ابداً ، ابداً ، ابداً . ولم يكن الألمان اعداءهم ، بل كنا نحن ؛ لقد قمنا بالحرب كلها معاً ، ومع ذلك فقد تخلّوا عنا .

وكان ماتيو يردّد مع الآخرين :

ــ انهم لم يحبونا قط .

قال شارلو : ــ حين رأيتهم يمرون ، كنت من شدة الخيبة قد اوشكت ان اسقط ميتاً .

وغطّى صوته ضجيج حائر : لم يكن هذا بعد ما ينبغي ان يقوله تماماً . كان ينبغي الآن فقء الدمّل ، ولم يكن ثمة سبيل للتوقف بعد ،

كان ينبغي القول : ليس هناك من يحبنا . لا احد يحبنا : إن المدنيين يأخذون علينا اننا لم نحسن الدفاع عنهم ، ونساؤنا غير فخورات بنا ، وضباطنا تخلوا عنا ، والقروبون يحقدون علينـا والألمـان يتقدمون في الليل ، كان ينبغي القول : اننا كبش المحرقة ، اننـا المهزومون ، الجبناء ، الهوام ، حثالة الأرض ، لقد خسرنا الحرب ، اننا بشعون ، مذنبون ، وليس هناك احد يحبنا ، لا أحد في الدنيا ، لا أحد . ولم يجرؤ ماتيو ، ولكن لاتيكس قال خلفه ، بلهجة متجردة :

— اننا منبوذون !

وصمتت الأصوات . وكان ماتيو ينظر الى لونجان ، بلا سبب معيّن ، هكذا ، لأنه كان تجاهه ، وكان لونجـان ينظر اليه . وكـان شارلو ولاتيكس يتبادلان النظر ؛ كان الجميع يتبادلون النظر ، وكان الجميع وكأنهم ينتظرون ، كما لو كان باقياً شيء ما يُقال . ولم يكن ثمة بعد ما يقال ، ولكن فجأة ابتسم لونجان لماتيو ، فبـادله ماتيو بسمته ؛ وابتسم شارلو ، وابتسم لاتيكس ؛ وعلى جميع الأفواه ، فتّح القمر زهوراً صفراء .

الاثنين ، ١٧ حزيران .

قال بينيت : — تعال ، هيا ، تعال .

— كلا .

— هيا ، هيا ، تعال .

وكان ينظر الى ماتيو بهيئة رجاء واغراء . وقال ماتيو :

— حُلّ عن ظهري .

وكانا معاً تحت الأشجار ، وسط الساحة ، والكنيسة تجـاههما ، ودار البلدية الى اليمين . وكان شارلو يحلم امام دار البلدية ، جالس

على الدرجة الاولى من السلم . وكان على ركبتيه كتاب . وكان جنود يتنزهون بخطى بطيئة ، زرافات ووحداناً : وكانوا لا يدرون ما يفعلون بحريتهم . وكان رأس ماتيو ثقيلاً موجعاً كما لو انه قد شرب.

وقال بينيت :

– تبدو عليك السآمة .

قال ماتيو : – أجل ، انني في سأم .

كانت قد حدثت ذلك السكر المضني للصدقة : كان الافراد ملتهبين تحت القمر ، وكان هذا يستحق جهد ان يحيا الانسان . ثم ان المصابيح كانت قد اطفئت ، فذهبوا ينامون ، لأنه لم يكن لديهم شيء آخر يفعلونه ، ولأنهم لم يكتسبوا بعد عادة تبادل المحبة ، ان الوقت الآن يشبه اليوم التالي لعيد ، فان المرء يحس الرغبة في الانتحار.

وسأل بينيت : – كم الساعة ؟

– الخامسة وعشر دقائق .

– خراء ! لقد تأخرت .

– إذن ، عجل بالذهاب .

– لا اريد ان اذهب وحدي .

– أتخاف بأن تلتهمك ؟

قال بينيت : – ليس الامر كذلك ، ليس الامر كذلك .

وألمّ بهما نيبير من غير ان يراهما ، وهو مستغرق ، وعيناه في داخله .

قال ماتيو : – اصحب نيبير .

– نيبير ؟ هل انت مجنون ؟

وتابعا بعينيهما نيبير ، مندهشين بهيئته العمياء وخطوته الراقصة .

وسأل بينيت – علامَ تراهن بأنه داخل الى الكنيسة ؟

وانتظر لحظة ثم صفع بيده قفاه :

— انه يدخل اليها ، يدخل اليها ! لقد ربحت .
وكان نيبير قد اختفى؛ والتفت بينيت الى ماتيو فتأمله بهيئة برمة :
— يبدو أنهم اكثر من خمسين في الداخل ، منذ هذا الصباح . وبين الفينة والفينة يخرج احدهم ليبول ثم يعود على الفور . فماذا تظن أنهم يفبركون ؟

فلم يجب ماتيو . وحك بينيت رأسه :
— لديّ رغبة بان القي نظرة عليهم .
قال ماتيو : — ولكنك متأخر عن موعدك .
قال بينيت : — طز في الموعد !

وابتعد بلا اكتراث ، واقترب ماتيو من شجرة كستناء . حزمة ضخمة متروكة على الطريق : هذا ما خلفه اركان حرب الفرقة ؛ وكان ثمة مثلها في جميع القرى ؛ سوف يلتقيها الالمان لدى مرورهم. « ما عساهم ينتظرون ، يا آلهي ؟ ماذا ينتظرون ؟ » كانت الهزيمة قد أصبحت يومية : كانت هي الشمس والشجر وهيئة الزمن وهذه الرغبة الخفية بان يموت ؛ ولكن العشية كانت قد خلفت في فمه مذاق أخوة قد برد . وكان ضابط البريد يقترب ، وحوله الطبّاخان ؛ ونظر اليهم ماتيو : لقد سبق لهذه الافواه ان بسمت له في الليل ، تحت ضوء القمر . اما الآن ، فلم يبق شيء ، وكانت وجوههم القاسية المغلقة تنادى بانه ينبغي الحذر من ضربات القمر ومن نشوات منتصف الليل : كل لنفسه والله للجميع ، لسنا على الارض لنتزعج ، لقد كانوا هم ايضاً في يوم تال لعيد . وسحب ماتيو مديته من جيبه وشرع يقص لحاء شجرة الكستناء . كان راغباً ان يحفر اسمه في مكان ما من العالم .

— انك تكتب اسمك ؟
— نعم .

– ها ! ها !

وضحكوا ومضوا . وكان جنود آخرون يتبعونهم عن كثب : افراد لم يسبق لماتيو ان رآهم قط . كانت ذقونهم طويلة وعيونهم لامعة وهيئتهم غريبة ؛ وكان بينهم شخص يعرج . وقد اجتازوا الساحة ليذهبوا فيقتعدوا الرصيف ، امام الفرن المغلق . ثم جاء آخرون وآخرون لم يكن يعرفهم ماتيو كذلك ، بلا بنادق ولا طاقات ، ذوو وجوه رمادية ووحل جاف على أحذيتهم . هؤلاء كان بالامكان ان يحبهم المرء . وحين لحق بينيت بماتيو ، حدجهم بنظرة استياء ، فسأله ماتيو :

– ماذا رأيت ؟

– الكنيسة ملآى . (وأضاف بلهجة خائفة) انهم ينشدون .

وأخذ ماتيو مديته ، فسأله بينيت :

– انك تكتب اسمك ؟

فأجاب ماتيو وهو يضع مديته في جيبه :

– كنت اريد ، ولكن ذلك يستغرق وقتاً اطول مما ينبغي .

وتوقف بالقرب منهما شاب طويل ذو وجه متعب ضائع الملامح ، فكأنه ضباب فوق ياقته المفتوحة . وقال من غير ان يبتسم :

– مرحباً بالرفاق .

فتأمله بينيت ، وقال ماتيو :

– مرحباً .

– هل في هذه الانحاء ضباط ؟

فأخذ بينيت يضحك ، وسأل ماتيو :

– أتسمعه ؟ (والتفت الى الرجل فأضاف) لا ، يا عزيزي ، لا ليس من ضباط هنا ، فنحن في جمهورية .

قال الرجل : – ارى ذلك .

– من اية فرقة أنت ؟

– من الثانية والاربعين .

فدمدم بينيت : – الثانية والاربعين ؟ لم اسمع بها قط . واين انتم ؟

– في « الابينال » ؟

– وماذا تفعل هنا ؟

فهزّ الجندي كتفيه ، وسأل بينيت فجأة ، بلهجة قلقة :

– اتراها ستأتي الى هنا ، فرقتك ؟ مع جميع الضباط وباقي الماخور ؟

فضحك الجندي بدوره ، واومـــأ الى اربعة افراد جالسين عـــلى الرصيف ، قائلاً :

– هذه هي الفرقة .

فالتمعت عينا بينيت :

– هل الوضع شديـد في الابيبال ؟

– كان شديداً . اما الآن ، فلا بد انه هادىء جداً .

وأدار عقبيه ومضى الى رفاقه . وكان بينيت يتابعه بعينيه :

– الثانية والاربعون ، تأمل ! هل تعرفها انت ، الثانية والاربعين ؟ اني لم اسمع بها حتى الآن .

قال ماتيو : – لم يكن ذلك سبباً كافياً لتهاجمه !

فهزّ بينيت كتفيه وقال في ازدراء :

– لا يكاد ينقطع سيل الافراد الذين يأتون لا تدري حتى من اين . فانت تشعر انك لست بعد في بيتك .

فلم يجب ماتيو : كان ينظر الى الجروح في جذع شجرة الكستناء . وقال بينيت :

– هيا ! تعال ! سنذهب الى الحقول ، نحن الثلاثة ؛ ولن نرى بعد احداً ، وسنكون مرتاحين .

– ولكن ماذا تريد ان افعـــل بينك وبين صاحبتك ؟ إنك لست

بحاجة الي لتفعل ما تريد ان تفعله .
قال بينيت بلهجة مسكينة :
— ولكننا لن نفعله على التو ، فيجب ان نتحدث .
وقطع كلامه فجأة :
— انظر هناك ! انظر هناك ! أجنبي آخر !
وكان جندي قصير سمين متجهاً اليهما باستقامة . وكان ضماد ملطخ بالدم يخفي عينه اليمنى . وقال بينيت بصوت مرتعش بالأمل :
— لعلنا في قلب معركة كبيرة . ولعل القتال سينشب .
فلم يجب ماتيو . ونادى بينيت الجندي ذا الضماد .
— اسمع !
فتوقف الرجل ونظر اليه بعينه الوحيدة .
— هل حدثت هناك معارك ؟
وكان الرجل ينظر اليه من غير ان يجيب . والتفت الى ماتيو :
— لا يمكن للمرء ان يسحب منهم شيئاً .
واستعاد الرجل سيره . ولكنه توقف بعد بضعة أمتار ، فأسند ظهره الى شجرة كستناء وتداعى للسقوط على الأرض ، فاذا هو جالس وركبتاه عند ذقنه . قال بينيت :
— لعله يشكو شيئاً .
قال ماتيو : — تعال .
واقتربا . فسأله بينيت :
— أبك شيء ؟
فلم يجب الجندي .
— هيه ! أبك شيء ؟
وقال ماتيو للجندي : — سوف نساعدك .
وانحنى بينيت ليأخذه من ابطيه ، ولكنه ما لبث ان استقام .

ــ لا فائدة .

وكان الرجل ما يزال جالساً ، مفتوح العين ، فاغر الفم . وكانت هيئته رقيقة باسمة .

ــ لا فائدة .

ــ أجل ! انظر اليه .

فانحنى ماتيو ووضع رأسه على صدر الجندي ، ثم قال :

ــ انت علي حق .

قال بينيت : ــ يجب ان نغلق له عينيه .

وفعل ذلك بطرف أصابعه ، وقد غرق رأسه في عنقه وتدلت شفته السفلي . وكان ماتيو ينظر اليه ، ولا ينظر الى الميت : إن الميت ليس بعد ذا أهمية . وقال :

ــ لكأنك ألفت ذلك طوال حياتك .

قال بينيت : ــ اما اني رأيت امواتاً ، فقد رأيت . ولكن هذا هو الاول منذ دخلنا الحرب .

وكان الميت يبتسم لأفكاره ، مغمض العين . وكان يبدو سهلا ان يموت المرء ، سهلا ومرحـــاً تقريباً . « ولكن ، لماذا العيش ؟ » واخذ كل شيء يخفق في السماء . الأحياء والاموات والكنيسة والشجرة . وانتفض ماتيو . كانت يد قد لامست كتفه ، وكان هو ذلك الشاب الطويل ذا الوجه الضبابي ؛ وكان ينظر الى الميت بعينيه الحائلتين .

ــ ماذا هناك ؟

ــ لقد مات .

فأوضح قائلا : ــ انه غارين .

والتفت الى الشرق .

ــ هيه ، يا جماعة ، عجلوا بالمجيء !

فنهض الجنود الأربعة وأخذوا يركضون ؛ وصاح بهم :

ـ لقد مات غارين .

ـ خراء !

وكانوا يحيطون بالميت وينظرون اليه في حذر :

ـ عجيب الا يكون قد سقط على الأرض .

ـ هذا يحدث احياناً . هناك من يبقى واقفاً .

ـ هل انت متأكد من انه مات ؟

ـ هما اللذان يقولان ذلك .

فانحنوا جميعهم معاً على الميت . وكان احدهم يمسك بمعصمه ، وآخر يستمع الى قلبه ، وأخرج الثالث مرآة جيب فألصقها بفمه ، كما يحدث في الروايات البوليسية . ثم نهضوا مسرورين ؛ وقال الرجل الطويل وهو يهزّ رأسه :

ـ يا لذلك الأحمق !

وهزوا رؤوسهم الأربعة ورددوا معاً :

ـ يا لذلك الأحمق !

والتفت قصير سمين الى ماتيو يقول :

ـ لقد مشى عشرين كيلو متراً . ولو بقي ساكناً . لظلّ حياً .

قال ماتيو وكأنه يعتذر عنه : ـ انــه لم يكن يريد ان يأخذه الألمان .

ـ وبعد ذلك ؟ إن عند الالمان سيارات اسعاف . وقد حدثته انا في الطريق . كان دمه يسيل كالخنزير ، ولكنك لم تكن تستطيع ان تقول له شيئاً . فحضرته لم يكن يفعل الا ما في رأسه . كان يقول انه يريد ان يعود الى بيته !

ـ في كاهور . إنه خباز هناك .

فهز بينيت كتفيه :

ـ على كل حال ، ليس هذا هو الطريق .

— نعم .

وصمتوا ونظروا الى الميت في ارتباك :

— ماذا نفعل به ؟ هل ندفنه ؟

— لا نستطيع ان نفعل غير هذا .

وحملوه من إبطيه وركبتيه ؛ وكان ما يزال يبسم لهم ، ولكنه كان يبدو اكثر موتاً بين الفينة والفينة .

— سوف نساعدكم .

— لا حاجة الى ذلك .

قال بينيت بحيوية : — بلى ، بلى . فليس لدينا ما نعمله ، وهذا ما يلهينا .

فنظر اليه الجندي الطويل بجدّ وقال :

— كلا ، يجب ان يبقى ذلك فيما بيننا . انه من بلدنا ، فعلينا نحن ان ندفنه .

— واين ستضعونه ؟

فأشار القصير السمين برأسه الى الشمال .

— هناك .

وأخذوا يمشون حاملين الجثة : وكانوا يبدون موتى اكثر منه .

وسأل بينيت : — ربما كان له دين ، هذا الرفيق ؟

فنظروا اليه في ذهول . واومأ بينيت الى الكنيسة :

— انها ملآى بالخوارنة الصغار .

فرفع الجندي الطويل يده بصورة استعلاء وقسوة .

— لا . لا . لا . يجب ان يظل ذلك فيما بيننا .

واستدار على عقبيه وتبع الآخرين ، فعبروا الساحة واختفوا .

وصاح شارلو :

— ما كان به ، يا جماعة !

فالتفت ماتيو : كان شارلو قد رفع رأسه ووضع كتابه الى مقربة منه ، على الدرجة .

— كان به أنه كان ميتاً !

قال شارلو : — هذه بلاهة ، انني لم افكر في ان أنظر ، وانما رأيته حين كانوا يحملونه . انه ليس منّا ، على الأقل ؟

— كلا .

قال — آه حسناً .

واقتربوا . ومن نوافذ دار البلدية ، كانت تخرج اناشيد وصيحات لا إنسانية ، فسأل ماتيو :

— ماذا يحدث في الداخل ؟

فابتسم شارلو : — انه الماخور .

— وتستطيع ان تقرأ ؟

فقال شارلو في ذل : — لم اكن اقرأ تماماً .

— وما هو الكتاب ؟

— انه الـ « فولابيل » .

— كنت احسب ان لونجان هو الذي كان يقرأه .

قال شارلو في سخرية :

— لونجان ! هكذا ! إن لونجان ليس بعد في حالة تسمح له بالقراءة .

وأشار بابهامه الى البناء ، من فوق كتفه :

— إنه هناك في الداخل ، محشو كأنه خنزير .

— لونجان ؟ انه لا يشرب غير الماء .

— إذهب لترى إن لم يكن محشواً .

وسأل بينيت : — كم الساعة ؟

— الساعة الخامسة وخمس وثلاثون .

والتفت بينيت الى ماتيو :

ــ الا تأتي ؟

ــ لن آتي .

فوجه الى شارلو عينيه الجميلتين الحسيرتين :

ــ كم يبعصني هذا .

ــ ما الذي يبعصك ، ايها العنيد الصغير ؟

قال ماتيو : ــ لقد وجد سمكة .

ــ اذا كانت تبعصك ، فما عليك إلا ان تحولها لي .

قال بينيت : ــ لا أستطيع . إنها تعبدني .

ــ اذن ، تدبر أمرك .

فقام بينيت بحركة تستنزل عليها اللعنة ، وأولاها ظهره ومضى . وتبعه شارلو بعينيه وهو يبتسم :

ــ انه يروق للنساء .

قال ماتيو : ــ صحيح .

فقال شارلو : ــ انا لا أحسده .. فيكفي مجرد التفكير بان اقفز ، في هذه اللحظة ، علي امرأة ..

ونظر ماتيو في فضول :

ــ يقال بان الخوف يوتّر .

ــ يعني ؟

ــ ان هذا ليس حالي : فهو قد التوى .

ــ وهل انت خائف ؟

ــ خائف ، كلا . ولكن شيئاً يثقل علي معدتي .

ــ فهمت .

وأمسك شارلو فجأة بكمّ ماتيو . وقال له بصوت منخفض :

ــ أجلس . عندي ما اقوله لك .

فجلس ماتيو ؛ وقال شارلو بصوت منخفض :

ـ هنالك من يروى حماقات ضخمة مثلهم .

ـ اية حماقات ؟

قال شارلو منزعجاً :

ـ لو تعلم ، انها « حقاً » حماقات .

ـ تكلم لنرى .

ـ اسمع إذن : إن الكابورال كابيل يقول إن الالمان سيخصوننا .

وضحك من غير ان يغادر ماتيو بنظره . وقال ماتيو :

ـ نعم ، انها حماقات .

وكان شارلو ما يزال يضحك :

ـ ولكن لاحظ : انني لا أصدق ذلك . فان هذا يعطيهم عملاً مجهداً .

وصمتا . وكان ماتيو قد تناول كتاب « الفولابيل » ؛ وكان يأمل بغموض ان يدع له شارلو ان يأخذه . وقال شارلو باهمال :

ـ وهل يخصون اليهود عندهم ؟

ـ كلا .

فقال شارلو باللهجة نفسها :

ـ لقد حدثوني عن ذلك .

وفجأة أخذ ماتيو من كتفيه ، فلم يستطع ماتيو ان يحتمل رؤية هذا الوجه المذعور ، وخفض نظره على ركبتيه . وسأل شارلو :

ـ ما عساهم يفعلون بي ؟

ـ لن يفعلوا غير ما يفعلونه بالآخرين .

وساد صمت ، ثم أضاف ماتيو :

ـ مزق دفترك العسكري واقذف صفيحتك في الهواء .

ـ لقد فعلت هذا منذ زمن طويل .

ـ وإذن ؟

قال شارلو : ــ انظر اليّ .
ولم يكن ماتيو يستطيع ان يصمّم على ان يرفع عينيه :
ــ اقول لك ان تنظر إليّ !
قال ماتيو : ــ اني انظر اليك ، فماذا ؟
ــ هل يبدو عليّ اني يهودي ؟
قال ماتيو : ــ كلا ، ليست عليك هيئة اليهود .

فتنهد شارلو ؛ وخرج جنديّ من دار البلدية وهو يتهاوى ، فنزل ثلاث درجات ، ولكنه اخطأ الرابعة فتدحرج بين ماتيو وشارلو ليمضي فينسحق في وسط الشارع .

قال ماتيو : ــ انه شديد البأس !

ونهض الرجل على مرفقيه وتقيأ ، ثم سقط رأسه من جديد وكفّ عن الحراك .

وقال شارلو موضحاً :

ــ لقد غاوا خمــراً في « الادارة » . ليتك رأيتهم يمــرون وهم يحملون أباريق لا ادري اين وجدوها وقدراً كبيرة مليئة بالخمر ! كان ذلك يثير الاشمئزاز .

وظهر لونجان على احدى نوافذ الطابق السفلي وتجشأ . وكانت عيناه حمراوين وأحد خدّيه أسود برمته . فصاح به شارلو بقسوة :

ــ لقد تدبّرت امرك جيداً !

فنظر اليها لونجان وهو يطرف بعينيه ؛ وحين عرفها ، رفع يديـه في الهواء بصورة مأساوية وصاح :

ــ دولارو ؟
ــ ماذا ؟
ــ اني أضيع اعتباري .
ــ ليس عليك إلا ان تذهب .

— لا أستطيع ان اذهب وحدي .

قال ماتيو : — انني قادم معك .

ونهض وهو يضمّ كتاب الفولابيل الى صدره . وقال شارلو :

— انك طيّب في الحقيقة .

— يجب ان نمضي الوقت .

وصعد درجتين ، فصاح شارلو من خلفه :

— هيه ! أعد لي كتابي .

فقال ماتيو مغتاظاً : — طيّب ، لا تصرخ هكذا .

وقذف له بالكتاب . ثم دفع الباب ، فولج ممراً ذا جدران بيضاء وتوقّف وقد شعر بضيق : كان صوت مرتفع متناوم ينشد انشودة « مدفعيّ متز » . وذكّره ذلك بمصحّ روان ، عام ٢٤ ، حين كان يذهب ليرى عمته الأرمل التي جُنّت من الحزن ، فيسمع بعض المجانين يغنّون وراء النوافذ . وعلى الجدار الأيسر ، كان قد عُلّق إعلان تحت حاجز . فاقترب وقرأ : « تعبئة عامة . » وفكر : لقد كنت مدنياً . وكان الصوت يغفو احياناً ، فيسقط على نفسه ويفرغ وهو يحشرج ، ثم يستيقظ في صيحة . لقد كنت مدنياً ، وهذا بعيد العهد . وكان ينظر في الاعلان ، الى العلمين الصغيرين المتصالبين ، ويتمثل نفسه مرتدياً سترة ألبكة وياقة منشاة . وكان لم يسبق له ان ارتدى الاولى ولا الثانية ، ولكنه كان يتمثل المدنيين هكذا . وفكر : « سيكون فظيعاً ان اعود مدنياً . والحق ان هذا جنس يتلاشى . » وسمع لونجان يصيح «دولارو» ورأى باباً مفتوحاً الى يساره فولجه . وكانت الشمس قد انخفضت ، وكانت أشعتها الطويلة المغبرة تقسم الحجرة قسمين من غير ان تنيرها ، وأخذت بخناق ماتيو رائحة خمر قوية ، فطرف بعينيه ولم يميّز اولاً سوى خارطة جدارية كانت تبدو لطخة في بياض الحائط ؛ ثم رأى مينار جالساً ، متدلّي الساقين ، فوق خزانة صغيرة ، يحرّك حذائيه

في ارجوان الشمس الغاربة . وكان هو الذي يغني ، وكانت عيناه المرحتان حتى الجنون تدوران فوق فمه الناغر ، وكان صوته ينسحب منه من تلقاء نفسه ، فيعيش منه كنبتة طفيلية ضخمة تمتصّ امعاءه ودمه لتحيلها الى اغنيات ؛ وكان جامداً متدلّي الذراعين ينظر في ذهول الى هذه الهامة التي تخرج من فمه . لم يكن ثمة من أثاث : فلا بد انهم قد استولوا على الطاولات والكراسي . وصعدت صيحة ترحيب في القاعة .

— دولارو ! مرحباً ، دولارو !

فخفض ماتيو عينيه ورأى رجالاً . وكان ثمة رجلٌ قد استرخى في قيئه ، وكان آخر يشخر ، متمدّداً على طوله ؛ وكان ثالث مستنداً الى الجدار ، فاغر الفم كما كان مينار ، ولكنه لم يكن يغني : وكانت له لحية رمادية تمتد من اذنه الى اذنه الاخرى ، وكانت عيناه مغمضتين خلف نظارتيه :

— مرحباً ، دولارو ، دولارو ، مرحباً !

والى يمينه ، كان ثمة اشخاص آخرون ذوو اوضاع ارصن . كان غيكيولي جالساً على الارض ، وبين ساقيه المنفرجتين قصعة مليئة بالعرق. وكان لاتيكس وغريمو مقرفصين على الطريقة التركية : وكان غريمو يمسك قدحه من عروته ويضربه بالأرض لينغّم اغاني مينار ؛ اما لاتيكس ، فقد كانت يده مختفية حتى المعصم في فتحة بنطاله . وقال غيكيولي بضع كلمات غطّاها صوت المغنّي ، فسأله ماتيو وهو يكوّر يده حول اذنه :

— ماذا تقول ؟

فرفع غيكيولي عينين غاضبتين الى مينار :

— ولكن اخرس لحظة ، بالله عليك ! انك تحطّم آذاننا .

فكفّ مينار عن الغناء ، وقال وهو يكاد ينتحب :

- لا استطيع التوقف .

وما لبث ان بدأ اغنية « فتيات الكاماريه » وكأنه ضحية صوته . وقال غيكيولي :

- اصبحنا في وضع جميل !

ولم يكن شديد الاستياء ؛ ونظر الى ماتيو في اعتزاز وقال :

- الواقع انه جذلان . اننا كلنا هنـــا جذالى : فنحن سوقة فاقدو الاعتبار ؛ عصابة محطّمي الصحون !

ووافق غريمو برأسه وضحك . وقال في جهد ، كما لو انـه كان يتكلم لغة اجنبية :

- اننا لا نصاهر الكآبة .

قال ماتيو : - ارى ذلك .

وسأل غيكيولي : - أتريد ان تشرب قدحاً ؟

وفي وسط القاعة ، كانت تقوم قدرٌ نحاسية مليئة بخمر احمـر من خمر « الادارة » وكانت تعوم فيها اشياء .

قال ماتيو : - انها قدرٌ للمربّيات . فمن اين اخذتموها ؟

فقال غيكيولي : - لا تهتمّ بذلك . فهل تشرب ، نعم ام خراء؟

وكان يتكلم بمشقة ، وكان يجهد في إبقاء عينيه مفتوحتين ، ولكنه كان يحافظ على لهجة الهجوم . قال ماتيو :

- لا ، فأنا قادم لأصحب لونجان .

- تصحبه الى اين ؟

- نشمّ الهواء .

فأخذ غيكيولي قصعته بكلتا يديه وشرب ثم قال :

- لن امنعك من اخذه ، فهو لا ينفك يتحدث عن اخيه ، فيزعج الجميع . تذكّر ان هذه هي هنا عصابة المزّاحين : فمن كان خمـــره حزيناً ، فنحن لا نريده بيننا .

واخذ ماتيو بذراع لونجان :

– هيّا ، تعال !

فتخلّص لونجان بغيظ :

– دقيقة ! دعْ لي وقتاً لأتعوّد !

قال ماتيو : – ان امامك الوقت كله .

وأدار عقبيه ليذهب فيلقي نظرة على الخزانة . ومن خلال الزجاج رأى مجلدات ضخمة يغطّيها قماش . شيء للقراءة . انه مستعد لقراءة اي شيء : وحتّى القانون المدنـي . وكانت الخزانة مقفلة بالمفتاح ، وحاول عبثاً ان يفتحها . وقال غيكيولي :

– اكسر الزجاج .

فقال ماتيو منزعجاً : – كلا .

– لماذا لا تكسره ؟ انتظر لحظة لترى اذا كان الالمان سينزعجون لكسره .

والتفت الى الآخرين :

– إن الالمان سيحرقون كل شيء ، ودولارو لا يريـد ان يكسر الخزانة .

فأخذ الافراد يضحكون ويمزحون ، وقال غريمو في احتقار :

– بورجوازي !

وكان لاتيكس يشدّ ماتيو من سترته :

– هيه ! تعال دولارو فانظر !

فالتفت ماتيو :

– انظر ماذا ؟

فأخرج لاتيكس عضوه من فتحة بنطاله وقال :

– انظر ، وارفع قبعتك : لقد صنعت به ستة .

– ستة ماذا ؟

– ستة اولاد . وهم جميلون لو تعلم ، وكان كل منهم يزن في كل ضربة عشرين ليبرة تقريباً ؛ ولا ادري من الذي سيطعمهم الآن ، ولكنك (وانحنى بحنان على عضوه) ستصنع لنا آخرين بالدزينة ، ايها الفاجر !

وصرف ماتيو عينيه ، فصاح لاتيكس في غضب :

– ارفع قبعتك ، ايها التلميذ !

قال ماتيو : – ليس لي قبعة .

فرمى لاتيكس نظرة دائرية :

– ستة في ثمانية اعوام . من يفعل افضل ؟

وعاد ماتيو الى لونجان :

– وإذن ، هل تأتي ؟

فنظر اليه لونجان نظرة غائمة :

– لا احب ان أُباغت .

– انني لا اباغتك ، فأنت الذي ناداني .

فوضع لونجان اصبعه تحت انفه :

– انني لا احبك كثيراً ، يا دولارو ، ولم يسبق لي ان احببتك كثيراً .

قال ماتيو : – هذا متبادل .

فقال لونجان مسروراً : – حسناً ، من الممكن هكـذا ان نتفاهم (وسأل ماتيو وهو ينظر اليه في حذر) لماذا اولاً لا اشرب ؟ اية فائدة لي في ألاّ أشرب ؟

فقال غيكيولي : – ان خمرك حزين .

– اذا لم اشرب ، كان ذاك اسوأ .

وغنّى مينار :

اذا متّ . فأريد ان يدفنوني

في القبو الذي فيه خمر

ونظر ماتيو الى لونجان وقال له :

— بوسعك ان تشرب ما تشاء .

فدمدم لونجان خائباً : — ماذا ؟

فصاح ماتيو : — اقول إن بوسعك ان تشرب ما تشاء . فأنا أهزأ بذلك .

وكان يفكر : « لم يبق لي إلا ان أذهب . »ولكنه لم يكن يستطيع التصميم على ذلك . كان ينحني فوقهم ، وكان يشمّ رائحة سكرهم الغنية المسكّرة ورائحة شقائهم ؛ كان يفكر : « واين اذهب ؟ » ثم يشعر بالدوار . انهم لم يكونوا يشربون اشمئزازه ، هؤلاء المهزومون الذين كانوا يشربون الهزيمة حتى الثمالة ، ولئن كان يشمئز من أحد ، فمن ذاته هو . وانحنى لونجان ليتناول قدحه ، فسقط على ركبتيه .

— خراء !

وزحف حتى القِدر ، وغطّس ذراعه في الخمر حتى المرفق ،وأخرج القدح الذي كان يقطر ،ثم انحنى ليشرب . ومن زاويتي فمه المرتعش ، كان السائل يقطر في القدر .

وقال : — لست في حالة جيدة .

فنصحه غيكيولي : — تقيأ .

فسأله لونجان ، وكان ممتقعاً وهو يتنفّس بمشقة :

— وكيف تفعل ؟

فأدخل غيكيولي اصبعين في فمه ، ومال الى جانب ، فحشرج قليلاً وتقيأ بعض البلاغم . وقال وهو يمسح فمه بظاهر يده :

— هكذا .

وكان لونجان ما يزال على ركبتيه ، فنقل قدحه الى يده اليسرى وأدخل اليمنى في حلقه ، فصاح لاتيكس :

— ايه ! انك ستقيء في الخمر !

وصاح غيكيولي : — ادفعه يا دولارو ، ادفعه بسرعة .

فدفع ماتيو لونجان الذي سقط جالساً من غير ان يخرج يده من فمه. وكان الجميع ينظرون اليه نظرة تشجيع . وسحب لونجان يده وتجشأ . وقال غيكيولي :

— لا تغير يدك . إن القيء يجيء .

فسعل لونجان وأصبح قرمزي اللون ، فقال محتجاً :

— إنه لا يجيء ابداً .

فصاح غيكيولي غاضباً :

— ذلك انك ضراط . إن من لا يعرف ان يقيء ، لا يشرب .

وبحث لونجان في جيبه ، وعاد يركع على ركبتيه ؛ ثم قرفص بالقرب من القِدرْ ، فصاح غريمو :

— ماذا تفعل ؟

قال لونجان وهو يُخرج من القدر منديله الذي يقطر خمراً :

— انني أصنع لنفسي رفادة رطبة .

وألصقها على جبينه وقال بصوت طفولي :

— دولارو ، ارجوك ، هل تستطيع ان تعقدها لي من الخلف ؟

فأخذ ماتيو طرفي المنديل وعقدهما على رقبة لونجان ، فقال لونجان :

— آه ، لقد تحسن الحال .

وكان المنديل يخفي عينه اليسرى ؛ وكانت خطوط من الخمر الأحمر تسيل على وجنتيه وعنقه .. وقال غيكيولي وهو يضحك :

— انك تشبه المسيح !

قال لونجان : — معك حق ، فأنا شخص من نوع المسيح ..

ومدّ قدحه الى ماتيو ليملأه له ، فقال ماتيو :

— آه ! كلا ، كفى ما شربته حتى الآن .

فصاح لونجان : – افعل ما أقوله لك ، افعل ما أقوله لك ، بالله عليك (وأضاف بصوت شاك) ان السويداء تتملكني .

قال غيكيولي : – بالله عليك ، أعطه ليشرب بسرعة ، وإلا عاد يحدثنا عن أخيه .

فنظر اليه لونجان بتعال :

– ولماذا لا أتكلم عن أخي اذا كنت راغباً في ذلك ؟ أتكون انت الذي يمنعني ؟

قال غيكيولي : – اوه ! دعنا منك .

فالتفت لونجان الى ماتيو وقال موضحاً :

– إن أخي في « هوسيغور » .

– هو إذن ليس جندياً ؟

– كلا : إنه معتوق . وهو يتنزه في الصنوبر مع امرأته الصغيرة، ويقولان بينهما : يا لبول المسكين ، انه غير محظوظ ، ثم يحتكان فيما بينهما وهما يفكران بي . ولكنهما في الحقيقة لا يكترثان ببول المسكين .

وصمت لحظة متأملاً ، ثم انتهى الى القول :

– انني لا احب أخي .

وكان غريمو يضحك حتى تسيل دموعه . فسأله لونجان مغتاظاً :

– ما الذي يجعلك تضحك ؟

فسأله غيكيولي في غضب :

– لعلك ستمنعه من الضحك ؟ (وقال لغريمو بلهجة أبوية) استمر يا صغيري ، إضحك وقهقه ما حلا لك ، فنحن هنا لنتسلى .

قال غريمو : – انني اضحك بسبب زوجتي .

قال لونجان : – لا تهمني امرأتك .

– انت تتكلم عن اخيك ، فأستطيع ان أتكلم عن زوجتي .

– وما بالها زوجتك ؟

فوضع غريمو إصبعاً على شفتيه وقال :

– هس ! (وانحنى على غيكيولي وقال في مسارّاة) إن لي امرأة قبيحة كالقفا .

واراد غيكيولي ان يتكلم ، فقال غريمو بتسلّط :

– ولا كلمة . كالقفا ، ولا مجـال للمناقشة . (واضاف وهو يتحامل قليلاً ويمرّ يده اليسرى على مؤخرته ليبلـغ جيب مسدسه) انتظر ، سأريك اياها ، وسوف تضحك !

وبعد جهود غير مثمرة ، تداعى للسقوط .

– مهما يكن ، فهي قبيحة كالقفا . صدّقـني . وانا لا اكذب عليك في هذا ، فليست لي مصلحة .

فبدا لونجان مهتماً ، وسأله :

– أهي « حقاً » قبيحة ؟

– أقول لك : كالقفا .

– ولكن ما هو القبيح فيها ؟

– كل شيء . ان ثدييها يبلغان ركبتيها ، ومؤخرتها تبلغ كعبها ، واذا رأيت ساقيها ، جنازة ! وهي تبول بين هلالين .

فقال لونجان ضاحكاً :

– يجب اذن ان تحوّلها لي ، فهي امرأة تناسبني . انني لم أتمتـع قط الا بالبشعات . اما الجميلات ، فمن نصيب اخي .

فطرف غريمو بعينه في خبث :

– اوه ، كلا ، لن احوّلها لك يا صديقي ؛ لأنـي اذا حولتها لك ، فليس مضموناً ان اجد غيرها ، نظراً الى اني لست جميـلاً ايضاً (وانهى كلامه متنهداً) انها الحياة ، ويجب ان نكتفي بما نملك .

وغنّى مينار :

– « وهكذا ، الحياة الحياة »

« التي يعيشها الرهبان الطيّبون »

قال لونجان : — انها الحياة ! انها الحياة ! نحن اموات يتذكرون حياتهم . واقسم انها لم تكن حياة جميلة !

فقذفه غيكيولي بقصعته ، فلامست خدّه وسقطت في القدر . وقال غيكيولي في غضب :

— غيّر الاسطوانة . انّ لي أنا ايضاً همومي ، ولكني لا أُخرّي الناس بها . اننا هنا للمزاح ، أتفهم ؟

فأدار لونجان الى ماتيو عينين يائستين ، وقال بصوت منخفض :

— خذني من هنا ، خذني من هنا !

فانحنى ماتيو ليلتقطه من إبطيه ، فتلوّى لونجـــان كالحنش وافلت منه . وفقد ماتيو صبره فقال :

— لقد ضجرت منك . فهل تأتي ام لا ؟

وكان لونجان قد اضطجع على ظهره ينظر اليه بمكر :

— أتريد حقاً ان آتي ؟ أتريد حقاً ؟

— لا يهمني . كل ما اريده ان تصمّم في هذا الاتجاه او ذاك .

قال لونجان :

— حسناً ! إشرب جرعة . إن لديك الوقت لتشرب جرعة ، بينما انا افكر .

فلم يجب ماتيو ، ومدّ له غريمو قدحه :

— خذ !

فرفضه ماتيو بحركة وقال : — شكراً .

فسأله غيكيولي مندهشاً :

— لماذا لا تشرب ؟ إن هناك خمراً للجميع : فلا تنزعج !

— لست عطشاً .

فأخذ غيكيولي يضحك وقال :

— يقول انه ليس عطشاً ! ألا تعلم اذن ايها الشقي اننا عصبة الشاربين

— بلا — عطش ؟

— لا رغبة لي في الشرب .

فقطّب غيكيولي حاجبيه :

— لماذا لا تكون لك الرغبة كالآخرين ؟ لماذا ؟

ونظر الى ماتيو بقسوة :

— كنت أحسبك قد تهذّبت . انك تخيّب ظني يا دولارو .

وانتصب لونجان على مرفقيه :

— الا ترى أنه يحتقرنا ؟

وساد صمت . ورفع غيكيولي على ماتيو عينين مستفهمتين ، ثم استرخى فجأة وانغلق جفناه . وابتسم بطريقة بائسة ، وقال وهو يحتفظ بعينيه مغلقتين :

— إن هؤلاء الذين يحتقروننا ، ليس لهم الا ان يذهبوا . فنحن لا نمسك أحداً ، ونحن فيما بيننا .

قال ماتيو : — انا لا أحتقر أحداً .

وتوقّف : « انهم سكارى ، وانا لم أشرب » وكان ذلك يضفي عليه بالرغم منه تفوقاً كان يخجله . كان خجلاً من الصوت الصابر الذي كان مضطراً الى اتخاذه معهم . « لقد ثملوا لأنهم لا يطيقون بعدُ وضعهم ! » ولكن لم يكن ثمة من يستطيع ان يشاطرهم بؤسهم ، إلاّ ان يكون ثملاً مثلهم . وفكر : « ما كان ينبغي لي ان آتي قط. »

وردد لونجان في غضب لمفاوي :

— انه يحتقرنا . فهو هنا كأنه في السينما ، ويزعجه ان يرى أشخاصاً سكارى يفلتون .

قال لاتيكس : — تحدّث عن نفسك ، فأنا لا افلت .

قال غيكيولي في ضجر :

– اوه ، دعنا من هذا .

وكان غريمو ينظر بتفكّر الى ماتيو :

– اذا كان يحتقرنا ، فأني أشخّ على رأسه .

فأخذ غيكيولي يضحك ، ويردّد :

– انهم يشخّون على رأسك . انهم يشخون على رأسك .

وكان مينار قد كفّ عن الغناء ؛ وتداعى للتراخي ازاء الخزانة ، ونظر حوله نظرة رعب ، ثم بدأ يسترد اطمئنانه ، وارسل زفرة تحرّر ثم سقط على الارض مغمىً عليه . ولم يتنبّه له احد : كانوا ينظرون امامهم باستقامـــة ، وكانوا بين الفينة والفينة يلقون عـــلى ماتيو نظرة استياء ؛ ولم يكن ماتيو ليعرف بعد ما يصنع بنفسه : كان قـــد دخل من غير ان يفكر بالأذى ، لينجد لونجان . ولكن كان عليـه ان يتنبأ بأن العار والفضيحة سيدخلان معه . ولقد وعى هؤلاء الافراد انفسهم بسببه ؛ انه لم يكن يتحدث بعد بلغتهم ، ومع ذلك فقد اصبح عـــلى غير ارادة منه قاضيهم وشاهدهم . وكان يشمئز من هذه القدر المليئة بالخمر والأقذار ، وفي الوقت نفسه يستنكر هذا الاشمئزاز : « من اكون حتى ارفض الشرب حين يكون رفاقي سكارى ؟ »

وكان لاتيكس يربّت بتفكّر على اسفل بطنه . وفجأة ، التفت نحو ماتيو ، وفي عينيه بريق تحدّ ؛ ثم جذب قصعته الى ما بين ساقيه ، وجعل يغطس عضوه في الخمر وهو يقول :

– اني اعمل له حمّاماً ، لأن ذلك منعش .

فخنق غيكيولي ضحكة ؛ وأدار ماتيو رأسه فالتقى بنظـــر غريمو الساخر ، فقال غريمو :

– انك تتساءل اين وقعت ؟ آه ، انت لا تعرفنـــا ، يا صديقي الصغير : فمعنا ، يجب ان تتوقع كل شيء .

وانحنى الى امام وصاح وهو يغمز غمزة مشاركة :

– ايه ؟ اتحدّاك يا لاتيكس ان تشرب خمرك ؟

فردّ له لاتيكس غمزته :

– لن انزعج أبداً .

ورفع القصعة وشرب بصخب وهو يراقب ماتيو . وكان لونجان يقهقه ، والجميع يبتسمون . كل ذلك بسبي . ووضع لاتيكس قصعته وطقطق لسانه :

– ان له مذاقاً طيباً .

قال غيكيولي : – وإذن ، ما رأيك ؟ ألسنا مزّاحين ؟ ألسنا ماجنين صغاراً ؟

وقال غريمو : – ولم ترَ شيئاً بعد . لم تر شيئاً بعد .

وأخذ يفكّ بيديه المرتجفتين ازرار فتحة بنطاله . وانحنى ماتيو على غيكيولي ، وقال على مهل :

– أعطني قصعتك . اريد ان اشارككم المزاح .

فقال غيكيولي : – لقـــد سقطت في القدر . وليس عليك الا ان تُخرجها .

فغطّس ماتيو يده في القدر ، وحرّك اصابعه في الخمر ، متلمّساً القعر ، ثم اخرج القصعة ملآى . وتجمّدت يدا غريمو ؛ فنظر اليهما ، ثم اعادهما الى جيبه ونظر الى ماتيو . وقال لاتيكس وقد رقّت لهجته:

– آه ! كنت واثقاً من انك لن تستطيع ان تمنع نفسك .

وشرب ماتيو . وكان في الخمر كرات من مادة رخوة لا لون لها، فلفظها وملأ القصعة من جديد . وكان غريمو يضحك بطيبة وقال :

– إن من يرانا يُسقط في يده : فيجب ان يشرب ، آه ! إننا نثير رغبته .

فقال غيكيولي مقهقهاً :

– الافضل ان نثير الرغبة لا الشفقة .

وتريّث ماتيو حتى ينقذ ذبابة كانت تتخبّط في الخمر ، ثم شرب. وكان لاتيكس ينظر اليه نظرة معرفة وقال :

– ليس هذا سُكراً ، وانما هو انتحار .

وكانت القصعة فارغة ، وقال ماتيو :

– اني اعاني مشقة كبيرة حتى اسكر .

وملأ القصعة مرة ثالثة . وكان الخمر ثقيلاً ، ذا طعم مسكّر غريب . وسأل ماتيو وقد خامره شك :

– أتراكم قد بُلْتُم فيه ؟

فسأله غيكيولي غاضباً :

– أتكون لئيماً ؟ أتظنّ اننا نريد ان نفسد الخمر ؟

قال ماتيو :

– اوه ! لا يهمني !

وجرع القصعة كلها ثم صفر ، فسأله غيكيولي باهتمام :

– ماذا ؟ هل تحسّ نفسك في حالة أفضل ؟

فهزّ ماتيو رأسه :

– لم ابلغ هذا بعد .

وأخذ القصعة ، وكان منحنياً فوق القدر ، منقبض الاسنان ، حين سمع خلف ظهره صوت لونجان المقهقه :

– يريد ان يثبت لنا انه يقاوم الخمرة خيراً منا .

فالتفت ماتيو :

– هذا غير صحيح ! فأنا أشرب لأستطيع المزاح .

وكان لونجان قد عاد للجلوس متصلباً . وكانت العصابة قد سقطت على انفه ، وكان ماتيو يرى فوق العصابة عينيه الثابتتين المستديرتين اللتين تشبهان عيني دجاجة عجوز . وقال لونجان :

– انني لا احبك كثيراً ، يا دولارو !

– لقد سبق ان قلتها .

قال لونجان : – والرفاق ايضاً لا يحبونك كثيراً . انك ترهبهم لأن لك ثقافة ، ولكن لا يجب ان تظنّ انهم يحبّونك .

وسأل ماتيو بين اسنانه :

– وعلامَ تريدهم ان يحبوني ؟

فتابع لونجان : – انك لا تفعل اي شيء كالجميع . حتى حين تسكر ؛ فانك لا تسكر مثلنا .

فنظر ماتيو الى لونجان في تبرّم ، ثم التفت ورمى قصعته على زجاج الخزانة ، وقال بصوت قوي :

– انني لا استطيع ان اسكر . لا استطيع . ترون جيداً اني لا استطيع .

فلم ينبس احد بكلمة ؛ ووضع غيكيولي على الارض الخشبية شظية زجاج كبيرة سقطت على ركبتيه . واقترب ماتيو من لونجان ، فأخذه بقوة من ذراعه ، وانهضه على قدميه . فصاح لونجان :

– ما هذا ؟ ما دخلي في الموضوع ؟ إهتم بمؤخرتك ، ايها الارستقراطي !

قال ماتيو : – لقد جئت لأصحبك ، وسأذهب معك .

وكان لونجان يتخبّط في غضب :

– حُلّ عن ظهري ، اقول لك ، حلّ عن ظهري ، وإلاّ آذيتك .

وشرع ماتيو يعمل لإخراجه من القاعة . ورفع لونجان يده محاولاً ان يُدخل اصابعه في عينيه . فقال ماتيو :

– ايها القذر !

وترك لونجان ، وارسل له ضربتين غير قويتين تحت ذقنه . فأصبح لونجان خرِعاً واستدار على نفسه ، فأدركه ماتيو وحمله على كتفيه

كالكيس ، وقال :

— انتم ترون ، فأنا ايضاً استطيع ان أمزح وأمجن،حين اريد ذلك.

كان يحقد عليهم . وخرج فهبط درجات السلّم مع عبئه ـ وانفجر شارلو ضاحكاً حين ألمّ به :

— ما أشدّ تماسك الأخ !

وعبر ماتيو الطريق فأسند لونجان الى جذع شجرة كستناء . وفتح لونجان احدى عينيه ، واراد ان يتكلم ، فتقيأ . فسأله ماتيو :

— هل ارتحت قليلاً ؟

فتقيأ لونجان من جديد ، وقال بين شهقتين :

— إنّ هذا يريح .

قال ماتيو : — انني اتركك . حتى اذا انتهيت ، حاول ان تنام نومة طيبة .

وكان يلهث حين وصل الى مكتب البريد . فطرق ، وفتح له بينيت ، وتأمله بهيئة مسحورة قائلاً :

— آه ! لقد قررتَ اخيراً !

قال ماتيو : — اخيراً ، نعم .

وبدت موظفة البريد في الظلام ، خلف بينيت . وقال بينيت :

— ليست الآنسة خائفة اليوم . وسنقوم بنزهة صغيرة عبر الحقول .

فرمته الصغيرة بنظرة غامضة . وابتسم لها ماتيو ، وكان يفكر : « انها لا تطيقني » ولكنه كان لا يهتم بذلك إطلاقاً . وقال بينيت :

— إن رائحة الخمر تنبعث منك .

فضحك ماتيو من غير ان يجيب . وارتدت عاملة البريد قفازيها الاسودين وأقفلت الباب بالمفتاح ، ثم اخذوا يسيرون . وكانت قد وضعت يدها على ذراع بينيت ، وكان بينيت يعطي ذراعه لماتيو . وحيّاهم جنود ألمّوا بهم في الطريق ، فصاح بهم بينيت :

ـ اننا نقوم بنزهة يوم الأحد .

فقالوا :

ـ آه ، إن كل الايام يوم أحد ، ما دام الضباط غائبين ؟

صمتٌ قمريٌ تحت الشمس ؛ تماثيل ضخمة من الجبس ، مصفوفة في دائرة بالصحراء ، « سوف تذكّر الانواع القادمة ، بما كان عليه الجنس البشري » . وكانت خرائب طويلة بيضاء تبكي رشحها الأسود جداول جداول . في الشمال الغربي ، قوس نصر ، وفي الشمال معبد روماني ؛ وفي الجنوب جسر يفضي الى معبد آخر ؛ وماء يأسن في حوض ، ومدية من حجر تنفذ نحو السماء. حجر ، حجر مربب في سُكّر التاريخ ؛ روما ، مصر ، العصر الحجري : ذلك مـا كان باقياً من ساحة شهيرة . وردّد : « كل مـا كان باقيـاً » ، ولكن اللـذة كانت قد ضعفت قليلا ، ليس ثمة ما هو رتيب كالكارثة ؛ وكان قد بدأ يألفها . واستند الى الحاجز ، ما يزال سعيداً ، ولكنه متعب ، وفي جوف فمه مذاق صيف محموم : كان قد تنزه طوال النهار ؛ وكانت ساقاه الآن تعانيان في حمله ، ومع ذلك ، فلم يكن بد من السير . لا بد من السير ، في مدينة ميتة . وقال في نفسه : « انني استحق حظاً صغيراً غير متوقع . » اي شيء ، شيء ما يزدهر له وحده في زاوية شارع . ولكن لم يكن ثمة شيء . كانت الصحراء في كل مكان : وكانت تقفز فيها شظايا قصور ، بيضاء وسوداء ، حمام وطيور لا تاريخ لها وقد أصبحت حجارة من فرط ما تغذت بالتماثيل . وكانت العلامة الوحيدة المرحة بعض الشيء في هذا المنظر المعدني ، العلم النازي على فندق « كريون » .

« اوه ! يا لراية اللحم تنزف على حرير البحار والزهور القطبية.»

وفي وسط خرقة الدم ، كانت الدائرة بيضاء ، كدائرة الفوانيس السحرية على اغطية طفولتي ، وفي وسط الدائرة ، عقـدة الافاعي السود ؛ « رمز الشر » ، رمزي . ونقطة حمراء تتشكل كل لحظة في ثنايا العلم ، ثم تنفصل وتسقط عـلى الأرض : « الفضيلة » تنزف . وتمتم : « الفضيلة تنزف ! » ولكن ذلك لم يكن يسليه بعد كما كان يسليه عشية الأمس . وطوال ثلاثة ايام ، لم يكن قد وجه الحديث الى احد ، وكان فرحه قد قسا ؛ وذات لحظة غشي التعب نظره ، فتساءل عما اذا كان لن يعود . كلا . لم يكن يستطيع العودة : إن حضوري مطلوب « في كل مكان » فيجب ان امشي . وتلقّى في عزاء تمزّق السماء المصدي : كانت الطائرة تلمع تحت الشمس ؛ وذلك كان هو التبديل ، فقد كان للمدينة الميتة شاهد آخر ، وكانت ترفع نحو عيون اخرى رؤوسها الالف الميتة . وكان دانيال يبتسم : انما كانت الطائرة تبحث بين القبور عنه ، هو بالذات . انما هي هناك من أجلي أنا وحدي . وكانت به رغبة لأن يقذف بنفسه في وسط الساحة ويلوّح بمنديله . ليتها تلقي قنابلها ! سيكون ذلك بعثاً ، وستصدي المدينة بضجيج الحـديد ، كما انها لو كانت تعمل ، وستلتصق بالواجهات ازهار طفيلية جميلة . ومرت الطائرة ؛ فعاد صمت كوني يتشكل حول دانيال . يجب ان يسير ، ان يسير بلا انقطاع على سطح هذا الكوكب الذي تبرّد .

واستعاد مشيه وهو يجرجر قدميه ؛ وكان الغبار يبيّض حذاءه . وانتفض : كان ثمة جنرال عاطل ومنتصر ، ملصقاً جبينه بزجاج ما ، ويداه خلف ظهره ، يراقب هذا الضائع في متحف الاثريات الباريسية . وأصبحت جميع النوافذ عيوناً ألمانية ؛ وانتصب وعـاود سيره في مرونة ، وهو يتهادى قليلاً ، على سبيل المرح : انني حارس المقبرة . التويلري ، رصيف التويلري ؛ وقبل ان يجتاز الطريق ، أدار رأسه

الى اليسار واليمين ، بداعي العادة ، ولكن من غير ان يرى الا نفقاً طويلاً من اوراق الشجر . وكان علي وشك ان يبلغ جسر سولفرينو حين توقف خافق القلب : ذلك هو الحظّ غير المتوقع . وسرت في جسمه رعشة من ساقيه حتى رقبته ؛ وبردت يداه ورجلاه ، فتجمد وأمسك نفَسه . وكمنت حياتـــه كلها في عينيه : كان يأكل بعينيه الفتى الدقيق الذي كان يوليه ظهره ببراءة ، منحنياً فوق الماء . « يا للقاء الرائع ! » وما كان دانيال ليكون أشد تأثراً وانفعالا لو أن ريـح المساء تحولت صوتاً لتناديه ، او لو ان الغيوم قد كتبت اسمه في السماء البنفسجية ، فقد كان واضحاً جداً ان هذا الفتى قد وُضع هناك من أجله هو ، وأن يديه الطويلتين العريضتين ، في نهاية اكمام الحرير ، كانتا كلاماً من لغته السرية : لقد وُهبته ، وكان الفتى طويلا رقيقاً ، ذا شعر أشعث وكتفين مستديرتين ؛ تكادان تكونان نسويتين ؛ وخاصرتين ضيقتين ، وردفين صلبين ، واذنين صغيرتين لذيـــذتين ؛ وكان في حوالي التاسعة عشرة او العشرين . وكان دانيـــال ينظر الى اذنيه ويفكر : « يا للقاء الرائع ! » وكان ينتابه ما يشبه الخوف . وكان جسمه كله « يتكلف الموت » كالحشرات التي يتهددها خطر ؛ إن شرّ الاخطار بالنسبة لي ، هو الجمال . وكانت يداه تزدادان برودة، وكانت أصابعَ من حديد تغرز في عنقه . كان الجمال ، أخفى الاشراك ، يتقدم ببسمة مشاركة ويسر ، يوميء اليه ، ويبدو وكأنه ينتظره . اية كذبة : إن تلك الرقبة المبذولة لم تكن تنتظر شيئاً ولا أحداً ؛ كانت تداعب ياقة تلك السترة وتتمتع بنفسها ، وكانتا تتمتعان بنفسهما وبحرارتهما، تانك الفخذان الحارتان الشقراوان المختبئتان في الفلانيل الرمادي . انه يعيش وينظر الى النهر ، ويفكر ، وحيداً ، غير قابل للفهم ، كأنه نخلة ؛ إنه لي ، وهو يجهلني . وأحسّ دانيال بغثيان ضيق ، واهتزّ كل شيء للحظة واحدة : كان الفتى الدقيق ، البعيد ، يناديه من جوف

الهاوية ؛ كان الجمال يناديه ؛ « الجمال » ، قدَري ؛ وفكر : سيبدأ كل شيء من جديد . كل شيء : الأمل ، الشقاء ، العار ، الحماقات . ثم تذكر فجأة بان فرنسا كانت مهزومة : « إن كل شيء مباح ! » فشعّت الحرارة من بطنه الى اطراف أصابعه ، وامحى تعبه ، وتدفق الدم الى صدغيه : « اننا كلينا الممثلان الوحيدان المرثيان للجنس البشري ، الحيان الوحيدان الباقيان من امة قد زالت ، فلا مفر لنا من ان نتبادل الحديث : أهناك ما هو اشد طبعية من ذلك ؟ » وخطا خطوة الى الأمام باتجاه الذي كان قد عمّده بأنه « المعجزة » ، وكان يحس نفسه شاباً وطيباً ، مثقلا بالرسالة الممجدة التي كان يحملها له . وما لبث ان توقف : فقد لاحظ ان « المعجزة » كان يرتجف بجميع أعضائه ؛ وكانت حركة تشنجية تقذف بجسمه الى الوراء تارة ، وطوراً تلصق بطنه بالدربزين وهي تلوي له رقبته فوق الماء . وفكر دانيال مغتاظاً « يا للأبله الصغير ! » إن الفتى لم يكن جديراً بهذه الدقيقة المدهشة ، لم يكن حاضراً تماماً في الموعد المحدد ، بل كانت هموم طفولية تشرّد هذه النفس التي كان ينبغي ان تظلّ على استعداد لتلقّي النبأ الطيب . « يا للأبله الصغير ! » وفجأة ، رفع المعجزة رجله اليمنى بحركة غريبة مقتسرة ، كما لو انه كان يريد ان يجتاز الحاجز . وكان دانيال يتهيأ للقفز حين التفت الفتى قلقاً ، وساقه في الهواء ، ولمح دانيال ، فرأى دانيال عينين عاصفتين في وجه طبشوري ؛ وتردد الفتى لحظة ، وسقطت قدمه وهي تصدم الحجر ، ثم شرع يمشي بلا اكتراث ، وهو يجرجر يده على حافة الحاجز . انت ، تريد ان تقتل نفسك !

وتحوّل افتتان دانيال فجأة الى جليد ، إنه لم يكن الا كذلك : صبياً قذراً مستطار اللب ، غير جدير بأن يتحمل عواقب حماقاته . ونفخت عضوه دفقة شهوة ؛ فأخذ يسير خلف الفتى بفرحة الصياد

المثلوجة . كان يبتهج على البارد ؛ وكان يحس نفسه متحرراً ، نظيفاً ، خبيثاً الى أبعد حد ممكن . وكان في أعماقه يؤثر ذلك ، ولكنه كان يتسلى بأن يحفظ ضغينة للفتى : أتريد ان تقتل نفسك ايها الأبله الصغير ؟ لعلك تظن ان هـــذا يسير ! إن من كانوا ادهى منك أخفقوا في ذلك . وكان الفتى يستشعر حضوراً في ظهره ؛ فكان الآن يخطو خطوات واسعة تشبه خطوات حصان مفرطة الارتفاع والصلابة . وفي وسط الجسر ، أحسّ فجأة بوجود يده اليمنى التي كانت تلامس الحاجز : وارتفعت يده في طرف ذراعه ، متصلبة ، قدَرية ؛ فأخفضها قسراً ودسّها في جيبه ، وواصل سيره وهو يُدخل عنقه في كتفيه ؛ وفكر دانيال : انه ذو هيئة « مريبة » ، هكذا أحبهم . وحث الفتى خطاه ، فحذا دانيال حذوه . وكانت ضحكة قاسية تصعد الى شفتيه : انه يتألم ، وهو مستعجل لينتهي من ذلك ، ولكن لا يستطيع لأنني خلفه . هيا ، هيا ، فإني أتركك . وفي نهاية الجسر ، تردّد الفتى ، ثم سلك رصيف « دورسيه » وبلغ سلماً يفضي الى الضفة ، فتوقف والتفت الى دانيال في نفاد صبر ، وجعل ينتظر . ورأى دانيال في لمحة خاطفة وجهاً ساحراً ممتقعاً ذا أنف قصير وفم صغير مسترخ ، وعينين فخورين . فأسبل جفنيه في تقيّ زائف ، واقترب على مهل ، فتجاوز الفتى من غير ان ينظر اليه ، ثم ألقى بعد بضع خطوات نظرة سريعة من فوق كتفه : فاذا الفتى قد اختفى . وانحنى دانيال من غير عجل فوق الحاجز فلمحه على الضفة ، مطرقاً، غارقاً في تأمل حلقة قلس كان يركلها بقدمه في تفكر ؛ كان يجب ان يهبط بأقصى سرعة ومن غير ان يدَعه يتنبه اليه . ومن الحظ انه كان ثمة على بعد عشرين متراً سلّم آخر ، درج ضيق من الحديد كان يخفيه نتوء من جدار . وهبط دانيال على مهل ، ومن غير ضجة : كان يجد تسلية عظيمة في ذلك . واذ بلغ أسفل الدرج ، التصق بالجدار ، وكان الفتى ، عند

طرف الضفة الاقصى ، ينظر الى الماء . وكان « السين » مخضوضراً ذا إشعاعات كبريتية بجحف بمجراه أشياء غريبة رخوة ومعتمة ؛ ولم يكن مغرياً جداً ان يغطس المرء في هذا النهر المريض . وانحنى الفتى فالتقط حصاة وألقى بها في الماء ، ثم عاد الى تأمله المهووس ، هيّا ، هيّا ، لن يتم ذلك اليوم : بعد خمس دقائق ، سيصاب بالخوف . فهل ينبغي انأدع له الفرصة لذلك ؟ هل يجب ان أظلّ مختبئاً . وانتظر حتى يتملى جيداً من حقارته . وحين يبتعد ، أطلق ضحكة كبيرة ! ان هذا لا يخلو من مخاطرة : فربما دفعني ذلك الى احتقار نفسي الى الابد . فاذا ارتميت عليه فوراً ، كما لو اني اريد ان أمنعه من الغرق ، فسيكون مسروراً ان اكون قد حسبته جديراً بذلك ، حتى ولو احتج على الشكل ، وان أجنّبه لقاء فردياً مع نفسه . وأمرّ دانيال لسانه على شفتيه ، وتنفس نفساً عميقاً ، وخرج من مخبأه. فالتفتالفتى مذعوراً وكان يوشك ان يقع لو لم يمسك به دانيال من ذراعه ، وقال :

— انني ...

ولكنه عرف دانيال فبدا وكأنما عاوده اطمئنانه ، فحلّ الغضب في عينيه محل الذعر . انما كان يخشى « شخصاً آخر » . وسأل في تعالٍ :

— ما هذا ؟

ولم يستطع دانيال ان يجيبه على الفور : فقد كانت الشهوة تقطع نفَسه . وقال بمشقة :

— ايها الفتى النرجسي ! ايها الفتى النرجسي !

وأضاف بعد لحظة :

— لقد بالغ نرجس في الانحناء ، ايها الفتى ، فسقط .

قال الفتى : — لست بنرجس . ولديّ حسّ التوازن ، وأستطيع ان استغني عن خدماتك .

وفكر دانيال : انه طالب . وسأله بقسوة :

— كنت تريد ان تنتحر ؟

— هل انتِ مجنون ؟

فأخذ دانيال يضحك ، واحمرّ الفتى ، وقال بلهجة كئيبة :

— حلّ عني !

فقال دانيال وهو يشد ضمته :

— حين يحلو لي ذلك !

فخفض الفتى عينيه الجميلتين ، وأتيح لدانيال الوقت الكافي للارتداد إلى خلف حتى يتفادى ضربة من كعبه . وفكر دانيال وهو يستعيد توازنه : ركلات ! ركلات كيفما جاءت ، حتى من غير ان ينظر إليّ . كان مفتوناً . ولهثا في صمت : كان الفتى مطرق الرأس ما يزال ، وكان بوسع دانيال ان يتأمل شعره الرقيق رقة مدهشة .

— وإذن ؟ أراك ترسل ركلات بقرية ، كأنك امرأة !

فحرك الفتى رأسه من اليمين الى اليسار ، كما لو انه كان يحاول عبثاً رفعه . وبعد لحظة ، قال بفظاظة جاهدة :

— إذهب فانبعص !

وكان في صوته عناد اكثر مما كان فيه ثقة ، ولكنه كان قد رفع رأسه ينظر الى دانيال مواجهة في جرأة مذعورة من نفسها . واخيراً ، انزلقت عيناه الى جانب ، فتمكن دانيال من ان يتأمل على هواه هذا الرأس الكئيب الذي كان كأنه مبذول . وفكر « فخر وضعف ، ونية سيئة . بورجوازي صغير يزرع الاضطرابَ فيه شرودٌ مجرد ؛ ملامح فاتنة ، ولكن بلا سماح . » وفي تلك اللحظة ، تلقى ركلةً في ساقه ، فلم يستطع ان يخفي كزازة ألم في وجهه .

— ايها الابله الصغير اللعين ! انني لا ادري ماذا يمسكني عن ان أدفيء لك مؤخرتك بجلدة طيبة .

فبرقت عينا الفتى وقال :

ــ حاول !

فأخذ دانيال يهزّه :

ــ واذا حاولت ؟ اذا أخذتني الرغبة في ان انزع سروالك على الفور ، أتظن انك انت الذي ستمنعني من ذلك ؟

فاحمرّ الفتى بعنف وأخذ يضحك .

ــ انك لا تخيفني .

قال دانيال :ــ عجباً !

وقبض عليه من رقبته وحاول ان يثنيه الى امام ، فصاح الفتى بصوت يائس :

ــ لا ! لا ! لا !

ــ هل تحاول مرة اخرى ان تركلني ؟

ــ لا ، ولكن دعني .

فتركه دانيال يستقيم . وظل الفتى فاغر الفم ، وكان يبدو وكأنه مطارَد . « لقد سبق لك ، ايها الحصان الصغير ، أن عرفت الشكيمة ؛ وقد ادّى لي احدهم خدمةَ ان ابدأ الترويض . أب ؟ عم ؟ عشيق ؟ كلا ، ليس عشيقاً : فيما بعد ، سنعيد هذا ، اما الآن فنحن ابكار »

وقال من غير ان يتركه :

ــ وإذن ، كنت تريد ان تنتحر ، فلماذا ؟

وكان الفتى يلزم صمتاً عنيداً . وقال دانيال :

ــ اصمت ما حلا لك ، فماذا يهمني في ذلك : لقد فشلت على كل حال في تحقيق غايتك .

فوجه الفتى لنفسه بسمة إقرار صفراء . وفكر دانيال منزعجاً : « اننا غارقــان في الرمل . يجب ان نخرج من الطريق المسدود . »

وعاد يهزّه :

ــ لماذا تبتسم ؟ اتريد ان تقول لي السبب ؟

فنظر اليه الفتى في عينيه :

ـ لا بد ان ينتهي بك الامر الى تركي وشأني .

قال دانيال : ـ هذا صحيـح . بل اني سأتركك على التو .

وحلّ ضمته ووضع يديه في جيبه ، وسأله :

ـ وبعد ذلك ؟

فلم يتحرك الفتى ؛ وكان ما يزال يبتسم . « انه يسخر مني » .

ـ اسمع جيداً . انني سبّاح ماهر . وقد سبق لي ان انقـــذت شخصين ، أحدهما في بحر عاصف .

فضحك الفتى ضحكة فتاة هازئة :

ـ هذا هوى مهووس !

قال دانيال : ـ ربما كان ذلك . ربمـــا كان هوى مهووساً . (وأضاف وهو يباعد ما بين ذراعيه) اغطس ! اغطس اذا شئت . فسأدعك تشرب كمية من الماء ، وسترى مـــا أعذب ذلك . ثم أنزع ثيابي واقفز الى الماء ، فأضربك على أمّ رأسك واعود بك نصف ميت .

واخذ يضحك .

ـ لا بد انك تعرف ان من النادر ان يكرر المرء عملية انتحـــار فاشلة ! فحين اكون قـــد أعدت لك حواسك ، فلن تفكر في ذلك بعد ابداً .

وخطا الفتى خطوة نحوه كما لو انه سيضربه :

ـ ما الذي يمنحك الحق بان تحدثني بهذه اللهجة ؟ ما الذي يمنحك الحق في ذلك ؟

وكان دانيال مـا يزال يضحك :

ـ ها ! ها ! ما الذي يمنحني الحق ؟ ابحث ، ابحث جيداً !

وشدّ على معصمه فجأة :

ـ ما دمت هنا ، فلن تستطيع ان تقتل نفسك ، حتى ولو كنت

تموت رغبة في ذلك . اني سيد حياتك وموتك .

فقال الفتى بهيئة غريبة :

– لن تكون هنا دائماً .

قال دانيال : – هذا ما يجعلك تخطيء . سأكون « دائماً » هنا .

وارتعش لذة : فقد فاجأ في العينين الجميلتين اللوزيتين بريق فضول .

– حتى ولو كان صحيحاً اني اريد ان أقتل نفسي ، فماذا يعنيك من ذلك ؟ انك لا تعرفني حتى اية معرفة .

فأجاب دانيال بمرح :

– لقد قلتها : هذا هوس . اني مهووس بمنع النـــاس من ان يفعلوا ما يريدون .

ونظر اليه في طيبة :

– ايكون الامر خطيراً الى هذا الحد ؟

فلم يجب الفتى . وكان يبذل كل ما في وسعه حتى لا يبكي . وكان من فرط تأثر دانيال ان أحسّ الدموع تطفر في عينيه .. ومن حسن الحظ ان الفتى كان من شدة الاستغراق بحيث لم يلاحظ ذلك . وتمكن دانيال ، في لحظات اخرى ، من ان يتمالك رغبته في ملامسة شعره ؛ ثم تركت يده اليمنى جيبه من تلقاء نفسها وأقبلت تحط بحركة متلمسة عمياء على رأسه الأشقر . وسرعان ما سحبها كما لو انه احترق: « قبل الاوان ! هذه غلطة ... » ونفض الفتى رأسه بعنف ، وخطا بضع خطوات على الضفة : وكان دانيال ينتظر وهو يمسك أنفاسه : « قبل الاوان ، ايها الاحمق ، كان ذلك مبكراً جداً . » وانتهى الى القول في غضب ، ليعاقب نفسه : « اذا ذهب ، فسأتركه يذهب من غير ان آتي حركة » ولكنه ما كاد يسمع الشهقات الاولى حتى هرع اليه واحاطه بذراعيه . فاستسلم الفتى الى صدره . وقال دانيال مضطرباً :

– يا للفتى المسكين ! يا للفتى المسكين !

وكان مستعداً لمنح يده اليمنى ليستطيع ان يواسيه او يبكي معه . وبعد لحظة ، رفع الفتى رأسه ، وقد كفّ عن البكاء ، ولكن دمعتين كانتا تتدحرجان على وجهه اللذيذ ؛ وقد ودّ دانيال لو يلتقطهما بضربتين من لسانه ويشربهما ليحس في جوف حلقه بمذاق هذا الألم المالح . وكان الفتى ينظر اليه في تحدّ :

ــ وكيف حدث انك كنت موجوداً هناك ؟

قال دانيال : ــ كنت ماراً .

ــ ألست اذن جندياً ؟

سمع دانيال السؤال بغير رضى :

ــ ان حربهم لا تهمني .

وسارع يضيف :

ــ سأقدّم لك اقتراحاً ، الا تزال مصمماً على الانتحار ؟

فلم يجب الفتى ، ولكنه بدا بمظهر معتم عازم . وقال دانيال :

ــ حسناً جداً . اسمع إذن . لقد تسليت في إخافتك ، ولكني لست ضد الانتحار اذا فكر فيه المرء بنضج ، ولا ارى في موتك الا حظاً سيئاً ما دمت لا اعرفك . ولهذا لا افهم لماذا امنعك من الانتحار، اذا كانت لك اسباب وجيهة .

ورأى في فرح خدي الفتى يمتقعان ، وفكر : «كنت تحسب انك سوّيت الأمر » وتابع وهو يريه فص خاتمه :

ــ انظر . إن في داخله سماً صاعقاً . وانا ألبس دائماً هذا الخاتم، حتى في الليل ، حتى اذا ألفيتني في وضع لا تستطيع كبريائي احتماله... وكف عن الكلام وفتح الفصّ . فنظر الفتى الى القرصين الأسمرين في حذر مليء بالنفور .

ــ ستشرح لي قضيتك . فاذا حكمت بوجاهة دوافعك ، فسيكون احد هذين القرصين لك : وهو على كل حال ألذّ من حمام بارد .

وسأله ، كما لو انه غيّر رأيه فجأة :
ــ أتريده على التوّ ؟
فأمرّ الفتى لسانه على شفتيه من غير ان يجيب .
ــ هل تريده ؟ انني اعطيك إياه ، وسوف تبتلعه تحت انظاري ، ولن أتركك .
واخذ يده وقال :
ــ سأمسك بيدك ، وسأغمض عينيك .
فنفض الفتى رأسه ، وسأل في مشقة :
ــ وما الذي يثبت لي أنّ هذا سمّ ؟
فانفجر دانيال بضحكة خفيفة نضرة :
ــ أتخشى ان يكون مسهّلا ؟ ابتلعه ، وسترى جيداً .
فلم يجب الفتى : وكان خداه ما يزالان ممتقعين وحدقتاه متمددتين ، ولكنه بسم بسمة خفية مدللة وهو يرمق دانيال .
ــ إنك اذن لا تريده ؟
ــ ليس على التوّ .
فأغلق دانيال فصّ خاتمه ، وقال ببرودة :
ــ كما تشاء . ما هو اسمك ؟
ــ أمن الضروري ان اقول لك اسمي ؟
ــ اسمك الاول ، نعم .
ــ طيب ، اذا كان ضرورياً ... فيليب .
قال دانيال وهو يمرّ ذراعه تحت ذراع الفتى :
ــ اسمع يا فيليب ، ما دمت حريصاً على ان توضح موقفك ، فلنصعد الى بيتي .
ودفعه الى السلم وجعله يصعد الدرجات بخفة ؛ ثم حاذيا الأرصفة ، متشابكي الذراعين . وكان فيليب يخفض رأسه بعناد ، وقد عاودته

الرجفة ، ولكنه كان مستسلماً لدانيال يلامسه بخاصرته في كل خطوة . حذاء بيكاري جميل يكاد يكون جديداً ولا يرجع عهده الى اكثر من عام ، وبذلة من الفلانيل جميلة التفصيل ، وربطة عنق بيضاء ، فوق قميص من الحرير الازرق . وكان ذلك شائعاً عام ٣٨ في مونبارناس .

وتسريحة شعر مهملة بعناية : ولم يكن في هذا كله نصيب قليل من النرجسية . ترى ، لماذا لم يكن جندياً ؟ لا شكّ في انه اصغر سناً من ان يكون كذلك ؛ ولكن كان ممكناً ان يكون اكبر سناً مما يبدو ؛ إن الحداثة تطول لدى الصبية المضطهدين . ومهما يكن من أمر ، فايس البؤس هو الذي يدفعه للانتحار . وسأله فجأة اذ ألمّا بجسر هنري الرابع :

– أبسبب الألمان كنت تريد ان تُغرق نفسك !

فبدت على فيليب الدهشة ، ولوى رأسه . كان جميلاً كملاك . وفكر دانيال في حماسة : سأساعدك ، سأساعدك . كان يريد ان ينقذ فيليب ، ويجعل منه رجلا ، سوف أعطيك كل ما أملك ، وستعرف كل ما أعرف . وكانت سوق « الهال » خالية وسوداء ، ولم تكن تنبعث منها الروائح بعد . ولكن المدينة كانت قد تغيّرت مظهراً . فقبل ساعة ، كانت نهاية العالم ، وكان دانيال يُحسّ انه تاريخي . اما الآن ، فقد كانت الشوارع تعود ببطء الى نفسها ، وكان دانيال يتنزه في جوف أحد من آحاد ما قبل الحرب ، في تلك الساعة الدائرة التي يبزغ فيها يوم اثنين جميل جديد ، في احتضار الاسبوع والشمس . كان شيء ما سيبدأ : اسبوع جديد ، قصة حب جديدة . ورفع رأسه وابتسم : كان زجاج واجهة مشعة يعكس له المغرب كله ، وكانت تلك علامة ؛ وافعمت منخريه فجأة رائحة لذيذة لفريز مسحوق ، وكانت تلك علامة اخرى ؛ وفي البعيد عبر شارع مونبارس شبح يعدو ، علامة ثالثة . كلما كان الحظ يضع في طريقه الجمال المشعّ لفتى – إله ،

كانت السماء والأرض ترسلان له غمزات خبيثة . وكان يخور من الشهوة ، وكان نفسه ينقطع لدى كل خطوة ، ولكنه كان من فرط الألفة للمشي الصامت بالقرب من الحيوات الفتيّة التي لا تثير الريب بحيث انه أصبح يحبّ الصبر اللواطي الطويل لذاته . انني ارصدك ، فانت عار في جوف نظري ، وانا امتلكك على البعد ، من غير ان اعطي شيئاً من نفسي ، بالشمّ والنظر ؛ وقد أصبحت اعرف خاصرتيه الجوفاوين ، وألامسها بيديّ الجامدتين ، وأدخل فيك فلا تشعر بذلك ولو شعوراً . وانحنى ليشمّ عطر هذه الرقبة المحنية ، فأدركته فجأة رائحة نفتلين قوية . وسرعان ما عاد الى استقامته ، وقد برد حسّه وشعر بالتسلية : وكان مغرماً بهذه التنقلات بين الاغتلام والجفاف ، وكان يعبد ثورة الأعصاب . وقال في نفسه بمرح : لنرَ اذا كنت رجل تحرّ ناجحاً . هوذا شاعر شاب يريد ان يلقي بنفسه في الماء ، في اليوم الذي يدخل فيه الألمان باريس ؛ لماذا؟ دلالة فريدة ، ولكنها رئيسية : ان رائحة النفتلين تنبعث من بذلته ، وهذا يعني انه لم يكن يرتديها بعد . لماذا تراه يغير ثوبه يوم انتحاره ؟ لانه لم يكن يستطيع بعد ان يرتدي ما كان يرتديه أمس فقط .. انه اذن جندي ، ولكن ماذا يفعل هنا ؟ فلو كان مجنداً في فندق كونتيننتال او في خدمات وزارة الطيران ، لكان قد فرّ منذ وقت طويل الى « تور » مع الآخرين . واذن ، فالامر واضح تماماً . وتوقف ليشير الى البوابة :

– هنا :

فقال فيليب فجأة – : لا اريد .

– ماذا ؟

– لا اريد الصعود .

– أتفضل ان يلتقطك الألمان ؟

فردد فيليب وهو ينظر الى قدميه :

ـ لا اريد . ليس لديّ ما اقوله لك ، ولست أعرفك .

قال دانيال : ـ هكذا اذن . هكذا إذن !

وأخذ له رأسه بكلتا يديه فرفعه قسراً ، وقال له :

ـ انت لا تعرفني ، ولكني أعرفك . واستطيع ان ارويها لك ، حكايتك .

واستطرد وهو يُغرق نظره في عيني فيليب :

ـ كنتَ في جيش الشمال ، ووقع الذعر في الصفوف فهربت . وبعد ذلك ، لم تجد وسيلة للعودة الى فرقتك ، على ما افترض . فعدت الى بيتك ، وكانت اسرتك قد اختبأت ، ولبست انت الثياب المدنية ، وذهبت تواً لتلقي بنفسك في السين . وليس مرد ذلك انك وطني بصورة استثنائية ، ولكنك لا تستطيع ان تحتمل التفكير بأنك جبان . أتراني قد اخطأت ؟

ولم يكن الفتى ليتحرك ، ولكن عينيه كانتا قد زادتا اتساعاً ؛ وكان دانيال جافّ الفم ، وكان يشعر بالضيق يصعد في داخله كالمدّ ، فردَّد بصوت اميل الى العنف منه الى الوثوق :

ـ أتراني قد اخطأت ؟

فأرسل فيليب همدرة خفيفة واسترخى جسمه ؛ وتراجع الضيق ، وقطع الفرح نَفس دانيال ، وجُن قلبه وخفق في صدره كالأصم ، فتمتم :

ـ إصعد . إنني اعرف العلاج .

ـ علاج أي شيء ؟

ـ علاج هذا كله . عندي أشياء كثيرة أعلمك إياها .

وكان يبدو على فيليب التعب والتأسي ؛ ودفعه دانيال تحت المظلة . ولم يكن قد جرؤ بعد قط على ان يأتي الى بيته بالصبية الجميلين اللذين كان يصطادهم في مونمارتر او مونبارناس . ولكن البوابة ومعظم المستأجرين كانوا اليوم يركضون في الطرق ، بين مونتارجي وجيان ،

فأليوم كان يوم عيد . وصعدا في صمت . ووضع دانيال المفتاح في القفل من غير ان يترك ذراع فيليب . وفتح الباب وامحّى :

– ادخل .

فدخل فيليب بخطوة ناعسة .

– الباب المواجه : هناك الصالون .

وأولاه ظهره ، فأقفل الباب بالمفتاح ، ووضع المفتاح في جيبه . وحين عاد الى فيليب ، كان هذا قد انزرع امام الرفوف ينظر الى التماثيل الصغيرة نظرة منتعشة .

– انها عظيمة .

قال دانيال : – لا بأس بها ، لا بأس بها . وهي خصوصاً « حقيقية » . لقد اشتريتها بنفسي من الهنود .

وسأل فيليب : – وهذه ؟

– هذه صورة صبي ميت . ففي المكسيك ، حين يموت شخص ما ، يستقدمون رسام الموتى ، فيقيم هناك ويرسم الجثة تحت ملامح رجل حي . فينتج مثل هذا .

فسأل فيليب في شيء من الاعتبار :

– وهل سبق ان كنت في المكسيك ؟

– بقيت فيها عامين .

وكان فيليب ينظر في نشوة الى صورة هذا الصبي الجميل الكابي الذي كان يردّ له نظره عن صدر الموت برصانة ممتهن عارف واكتفائه . وفكر دانيال : انهما متشابهان . كلاهما أشقر ، وكلاهما شامخ ممتقع ، احدهما من هذا الجانب من اللوحة ، والآخر من الجانب الآخر ، الصبي الذي اراد ان يموت ، والصبي الذي مات حقاً : كانا يتبادلان النظر ، وكان الموت هو ما يفصل بينهما : لا شيء ، سطح القماشة المنبسط . وردّد فيليب :

– عظيم .

وفجأة سحق دانيال تعبٌ هائل . فتنفس وتداعى للسقوط في اريكة .

وقفزت ملفينا على ركبتيه ، فقال وهو يداعبها :

– لا لا ! كوني عاقلة : يا ملفينا ، كوني جميلة .

والتفت الى فيليب وقال بصوت ضعيف :

– وهناك ويسكي في خزانة المشروب : كلا ، إلى اليمين ، الخزانة الصينية الصغيرة ؛ هناك . وتجد ايضاً اقداحاً ، فتقدّمها لنا ، وتقوم بدور فتاة المنزل .

وملأ فيليب قدحين فناول دانيال أحدهما وبقي واقفاً امامه . وكرع دانيال قدحه بجرعة واحدة فاستشعر النشاط ، وقال له فجأة بلهجة احترام :

– لو كنت شاعراً ، لشعرت بما في لقائنا من شيء خارق للعادة .

فضحك الفتى ضحكة صغيرة مثيرة :

– ومن قال لك اني لست شاعراً ؟

وكان ينظر الى دانيال مواجهة : فمنذ دخل البيت ، تغيّر مظهراً وحركات . وفكر دانيـــال منزعجاً : إن ارباب العائلة هم الذين يخيفونه : وهو ليس خائفاً مني بعد ، لأنه ادرك اني لست منهم . وتظاهر بالتردّد ، وقال بتفكر :

– اني أتساءل عما اذا كنت ستثير اهتمامي .

فقال فيليب : – كان خيراً لك ان تتساءل عن ذلك قبل هـــذا بقليل .

وابتسم دانيال :

– لم يفت الاوان . فاذا اضجرتني ، أخرجتك .

قال فيليب : – لا تتحمل هذا الهمّ .

وكان يتجه نحو الباب . فقال دانيال :

– إبقَ . انت تعلم انك بحاجة إليّ

فابتسم فيليب بهدوء وعاد يجلس على كرسي . وكانت بوبيه تمرّ بقربه ، فقبض عليها ووضعها على ركبتيه من غير ان تحتج . وكان يداعبها برقة ، وشهوة ، فقال دانيال مندهشاً :

– نقطة طيبة لك . فهذه هي المرة الاولى التي تستسلم فيها لأحد .

فبسم فيليب بسمة طوياة متعرجة مزهوة ، وسأله خافض العينين :

– كم قطة عندك ؟

– ثلاث .

– نقطة طيبة لك .

وكان يحك رأس بوبيه التي أخذت تهمهم . وفكر دانيال : هذا العفريت ، يبدو اكثر سروراً مني ، فهو يعرف انه يروق لي . وسأله فجأة ، ليشوّشه :

– وإذن ؟ كيف حدث ذلك ؟

فترك فيليب بوبيه وهو يباعد ما بين ركبتيه ، فقفزت القطة الى الارض وفرّت .

وقال : – حدث كما تصوّرته . وليس لديّ ما أضيفه .

– واين كنت ؟

– في الشمال . بلدة صغيرة تدعى « باني » .

– وماذا حدث ؟

– لا شيء . كان قد مضى على مقاومتنـــا يومان حين جاءت الدبابات والطائرات .

– معاً ؟

– نعم .

وهل خفت ؟

– حتى هذا لا : الا ان يكون الخوف شيئاً آخر غير ما نفكر به .

وكان وجهه قد قسا وشاخ . كان ينظر في الفراغ نظرة متعبة :

- وكان الافراد يركضون ، فركضت معهم .
- وبعد ذلك ؟
- مشيت ، ثم وجدت شاحنة ، ثم مشيت من جديد ، فوصلت الى هنا امس الاول .
وبمَ كنت تفكر وانت تسير ؟
- لم اكن افكر .
- ولماذا انتظرت حتى اليوم لتقتل نفسك ؟
قال فيليب : - كنت اريد ان ارى امي ثانية .
- ألم تكن هنا ؟
- كلا . لم تكن هنا .
ورفع رأسه وتأمل دانيال بعينين تبرقان ، وقال بصوت واضح قاطع :
- ستكون على خطأ اذا اعتبرتني جباناً .
- صحيح ؟ اذن لماذا فررت ؟
- ركضت لان الآخرين كانوا يركضون .
- ومع ذلك ، فقد كنت تريد ان تنتحر ؟
- صحيح كنت افكر بذلك .
- لماذا ؟
- يحتاج شرح ذلك الى وقت اطول مما ينبغي .
قال دانيال :- وهل ثمة ما يدعوك الى العجلة ؟ خذ فصبّ لك قدح ويسكي.
وصب فيليب لنفسه وكان خداه قد توردا . وضحك ضحكة صغيرة ، وقال :
- لو لم يكن هناك سواي ، لكان سواء عندي ان اكون جباناً او لا أكون . انني من دعاة السلام . فما هي الفضيلة العسكرية ؟ انها قصور في الخيال . لقد كان الافراد الشجعان هناك فلاحين ، وحوشاً

حقيقيين . كل ما هنالك ان المصيبة قد ارادت ان اولد في اسرة أبطال.
قال دانيال : — فهمت . إن اباك ضابط .
فقال فيليب : — ضابط احتياط . ولكنه مات عام ٢٧ من نتائج الحرب : لقد اختنق بالغاز ؛ قبل الهدنة بشهر واحد . وهذه الميتة المجيدة جعلت امي تستذوق: فتزوجت مرة اخرى عام ١٩٣٣ بجنرال .
قال دانيال : — سوف تصاب بخيبة . ان الجنراليـــة يموتون في أسرّتهم .
فقال فيليب بكراهية : — ليس هذا شأنه ، فهو من اسرة بايار : انه يضاجع ويقتل ويصلي وهو لا يفكر .
— وهل هو في الجبهة ؟
— واين تريده ان يكون ؟ لا بد انه هو نفسه وراء رشاش او انه يزحف نحو العدو على رأس فرقة، فبوسعك ان تعتمد عليه ليضحي برجاله حتى آخرهم .
— أتصوره اسود ذا شعر كثيف وشاربين .
قال فيليب : — تماماً . إن النساء يعبدنه لان له رائحة التيس .
وضحكا وهما ينظران فيما بينهما . وقال دانيال :
— لا يبدو عليك انك تحبه كثيراً .
قال فيليب : — انني أحتقره .
وتورّد ، ونظر الى دانيال باحداد ، وقال :
— اني اعاني عقدة اوديب . الحالة النموذجية .
فسأله دانيال بعدم تصديق .
— أأنت عاشق امك ؟
فلم يجب فيليب : كان يبدو بمظهر جـــدّي وقدَري . وانحنى دانيال الى امام ، وسأله في رقة :
— الست بالأحرى عاشق زوج امك !

فانتفض فيليب واصبح قرمزي اللون ، ثم انفجر ضاحكاً وهو ينظر الى دانيال في عينيه وقال :

— ما اوسع خيالك !

فقال دانيال وهو يضحك كذلك :

— اسمع إذن ! فانما بسببه هو كنت تريد ان تنتحر !

وكان فيليب ما يزال يضحك :

— ولكن على الاطلاق ! اطلاقاً !

— بسبب من اذن ؟ انك تركض الى السين لأنك جبنت ، وتعلن مع ذلك انك تحتقر الشجاعة . انك تخاف ان يحتقرك .

قال فيليب : — بل أخاف ان تحتقرني امي .

— امك ؟ انني متأكد انها تتحلى بكل الرحمات .

فعض فيليب على شفتيه من غير ان يجيب . وقال دانيال :

— حين وضعت يدي على كتفك ، أصبتَ بالذعر . كنت تظن انه هو ، اليس كذلك ؟

فنهض فيليب ، وعيناه تبرقان :

— لقد .. لقد رفع يده عليّ .

— متى ؟

— منذ اقل من عامين . ومنذ ذلك الحين ، وانا أحس به ورائي .

— ألم تحلم قط بأنك عارٍ بين ذراعيه ؟

فقال فيليب وقد أخذه غيظ صادق :

— انت مجنون .

— على كل حال ، ان ما هو مؤكد ، هو أنه يمتلكك . انت تمشي على أربع ، فيركب الجنرال على ظهرك ، ويجعلك تنطنط كالفرس . لست ابداً انتَ نفسك : فتارة تفكر مثله ، وتارة ضدّه . دعوة السلام ، يعلم الله انك لا تكترث لها ، بل لم تكن لتفكر بها لو لم

يكن زوج امك جندياً .

ونهض فأخذ فيليب من كتفيه :

— اتريد ان احررك ؟

فتخلص منه فيليب ، وقد عاوده الحذر :

— وكيف تستطيع ذلك ؟

— قلت لك ان عندي اشياء كثيرة أعلّمك اياها .

— أأنت طبيب نفساني ؟

— شيء من هذا القبيل .

فهزّ فيليب رأسه وسأل :

— اذا افترضنا هذا صحيحاً ، فلأيّ سببٍ تهتمّ بي ؟

فقال دانيال مبتسماً :

— انني هاوي ارواح . (واضاف بانفعال) ولا بد ان روحك لذيذة ، بمجرد ان تحرّر من كل ما يزعجها .

فلم يجب فيليب ، ولكنه بدا مفتوناً ؛ وخطا دانيال بضع خطوات وهو يفرك يديه ، وقال في استثارة فرحة :

— ينبغي البدء بتصفية جميع القيم . انت طالب ؟

قال فيليب : — كنت طالباً .

— حقوق ؟

— ادب .

— حسناً . انك اذن تفهم ما اعني : الشك المنهجي ، نعم ؟ اختلال رامبو النظامي . اننا نهدم كل شيء . ولكن لا بالكلمات : بل بالاعمال . إن كل ما استعرته سيتلاشى دخاناً . وما يبقى ، هو انت . اتفقنا ؟

وكان فيليب ينظر اليه في فضول . واستطرد دانيال :

— بِمَ عساك تخاطر ، وقد بلغت النقطة التي انت فيها الآن ؟

فهز فيليب كتفيه :

— بلا شيء .

قال دانيال — عظيم ، انني أتبنّاك . ونحن نبدأ على التو الهبوط الى الجحيم (واضاف وهو يقذفه بنظرة حادة) ولكن على الأخص ، لا تقم بـ « تحويل » علي .

قال فيليب وهو يبادله نظرته : — لست احمق الى هذا الحد .

فقال دانيال من غير ان ينزع عنه بصره :

— سوف تشفى حين تطرحني كقشرة عفنة .

قال فيليب : — لا تخف .

فقال دانيال ضاحكاً : — كقشرة عفنة .

فردد فيليب : — كقشرة عفنة .

وكانا يضحكان كلاهما ، وملأ دانيال كأس فيليب .

قالت الفتاة فجأة : — لنجلس هنا .

— لماذا هنا ؟

— انه مكان أعذب .

قال بينيت : — انظر الى هذا . انهن يحببن ما هو عذب ، آنسات البريد هؤلاء !

ونزع سترته وألقى بها الى الأرض ، وقال :

— تفضلي . ضعي عذوبتك على سترتي .

وتداعوا للسقوط على العشب عند حافة سهل للقمح . وأغلق بينيت قبضته اليسرى ، وهو يراقب الفتاة بطرف عينه ، ثم ادخل ابهامه في فمه وتظاهر بأنه ينفخ : فبرزت عضلته ، كما لو ان منفاخاً نفخها . وضحكت الفتاة قليلا .

— تستطيعين ان تلمسيها .

فوضعت إصبعاً حيّياً على ذراع بينيت : وفي اللحظة نفسها اختفت العضلة وقلد بينيت صوت كرة تنفّس . وصرخت الفتاة :

— اوه !

والتفت بينيت الى ماتيو :

— هل تتصوّر هذا ؟ ان « مورون » اذا رآني بلا سترتي ، جالساً على حافة الطريق ، فكم تراه سيسعل !

قال ماتيو : — إن مورون ما يزال يركض .

— انه يركض بسرعة شديدة ، كما لو اني أبعصه !

وانحنى نحو موظفة البريد وقال موضحاً :

— إن مورون هو الكابيتن . انه في الطبيعة .

فرددت : — في الطبيعة ؟

— هو يظن ان ذلك أفضل لصحته (وقهقه) اننا أسياد أنفسنا ؛ فليس ثمة بعد من يأمر ، وبوسعنا ان نفعل ما نشاء ؛ فاذا شئت ؛ صعدنا الى المدرسة ونمنا في سرير الكابيتن ؛ إن القرية لنا .

قال ماتيو : — لا لفترة طويلة .

— سبب إضافي للافادة من الوقت .

قالت الفتاة : — افضّل ان ابقى هنا .

— ولكن لماذا ؟ اقول لك ان ليس هناك من يستطيع ان يقول شيئاً .

— ما زال في القرية بعض الافراد .

فرمقها بينيت باغراء وقال :

— صحيح ، انت موظفة . فيجب الا ترتكبي خطــأ ، بالنسبة للادارة . اما نحن (والتفت الى ماتيو ضاحكاً بهيئة مشاركة) فليس لنا من نراعيه . اننا بلا مكان ولا زمان . بلا ايمان ولا قانون . اننا عابرون : اما انتم فباقون ، ونحن نمضي ، نحن طيور عابرة ، تورَ . أليس كذلك ؟ اننــا ذئاب ، حيوانات قتال ، اننــا ذئاب كبيرة

خبيثة ، ها !

وكان قد انتزع قشة عشب وراح يدغدغ بها ذقن الفتاة ، وغنى ، وهو ينظر اليها بعمق ، ومن غير ان يبتسم :

— « من الذي يخشى الذئب الكبير الخبيث ؟ » .

فاحمرّ وجه الفتاة وابتسمت وغنّت :

— « لسنا نحن ، لسنا نحن » .

فقال بينيت مبتهجاً :

— ها ؟ يا لعبة (وتابع بشرود) ها يا لعبة صغيرة ، يا لعبة صغيرة ، يا آنسة لعبة !

وصمت فجأة . كانت السماء حمراء ؛ وعلى الارض ، كان الجو رطباً أزرق . وكان ماتيو يُحس حياة العشب المتشابك ، تحت يدية وتحت فخذيه؛ حياة الحشرات والارض، كأنها شعر كثيف خشن ومبتل ، مليء بالقمل ؛ وكان ضيقاً عارياً لصق راحتيه . محاصرون ! ملايين الرجال محاصرون ، ملايين الرجال محاصرون ، بين جبال الفوج ونهر الرين . محاصرون باستحالة ان يكونوا رجالا : وتلك الغابة المسطحة ستعيش بعدهم ، كما لو اننا لا يمكن ان نبقى في العالم ، إلا ان نكون منظراً طبيعياً او مرجاً او اي حضور كلي غير شخصي . وتحت الايدي ، كان العشب مغرياً كالانتحار ؛ العشب والليل الذي يسحقه على الارض ، والافكار الاسيرة التي كانت تعدو على الارض في هذا الليل ، وهذا العنكبوت الذي كان يتأرجح بالقرب من حذائه ، والذي تشرّم فجأة من جميع أرجله الهائلة واختفى . وتنهّدت الفتاة ، فسألها بينيت :

— ما بك يا صغيرتي !

فلم تجب . كان لها وجه صغير محتشم ومحموم ذو أنف طويل وفم دقيق تبرز شفته السفلى قليلا الى الأمام .

— ما بك ؟ ماذا هناك ؟ قولي لي ما بك ؟

فظلت على صمتها . وعلى مئة متر منهم ، بين الشمس والحقل ، كان اربعة جنود يمرون معتمين في بخـار مذهب . وتوقف أحدهم والتفت نحو الشرق ، ممحواً بالنور ، غير اسود ، بل هو بنفسجي بالنسبة لاحمرارات المغرب ؛ وكان عاري الرأس . وأقبل التالي يصطدم به ويدفعه فيتسلل شبحاهما فوق القمح كأنهما سفينتان ؛ وانزلق ثالث خلفهما ، مرفوع الذراعين ؛ وكان الرابع المتخلف يصفع السنابل بعصا رقيقة .

قال بينيت : — ايضاً !

وكان قد أخذ الفتاة من ذقنها ينظر اليها : كانت عيناها مليئتين بالدمع .

— ولكن ما هذا ؟ انك غير لطيفة .

وكان يجهد في ان يحدثها بقسوة عسكرية ، ولكن كانت تعوزه الثقة : فلقد كانت الكلمات ، اذ تمر بفمه الطفولي ؛ تمتليء ضجراً . وقالت :

— ان هذا اقوى مني .

فجذبها اليه .

— يجب الا تبكي . (وأضاف ضاحكاً) هل نبكي نحن الآخرين ؟

فتركت رأسها يميل على كتف بينيت ، ولامست شعره ؛ وكان يبدو فخوراً .

قالت : — سوف يأخذونكم .

— ما هذا الكلام !

فرددت وهي تبكي : — سوف يأخذونكم .

فقست ملامح بينيت :

— لا حاجة بي الى من يرثي لي .

ـ لا أريد أن يأخذوكم .

ـ من قال لك انهم سيأخذوننا ؟ سترين كيف يقاتل الفرنسيون ؛ وسوف تكونين في وضع طيب .

فرفعت نحوه عينيها الكبيرتين وقد اتسعتا ؛ كانت من شدة الخوف بحيث انها كفت عن البكاء .

ـ يجب ألاّ تقاتلوا .

ـ تا ، تا ، تا .

ـ يجب الا تقاتلوا ؛ فقد انتهت الحرب .

فتأملها بوجه ماتع ، وقال :

ـ ها ! ها ! ها !

والتفت ماتيو ؛ كان راغباً في الذهاب . وعادت الصغيرة تقول :

ـ تعارفنا منذ الأمس فقط .

وكانت شفتها السفلى ترتجف ، وكانت تميل بوجهها الطويل ، فتبدو نبيلة المظهر ، جافلة حزينة ، كالحصان .

وقالت : ـ غداً ...

قال بينيت : ـ اوه ؛ من الآن حتى الغد ..

ـمن الآن حتى الغد ليس ثمة الا ليلة واحدة .

قال وهو يغمز بعينيه :

ـ تماماً : ليلة ، كافية لنتسلّى قليلا .

ـ لا رغبة عندي في التسلية .

ـ لا رغبة عندك في التسلية ؟ أصحيح انك غير راغبة في التسلية؟

كانت تنظر اليه من غير ان تجيب . قال :

ـ هل انت مهمومة ؟

فظلت تنظر اليه ، فاغرة الفم . وسألها :

ـ من أجلي ؟

ومال عليها في حنو لا يخلو من شرود ، ولكنه سرعان ما استقام وهو يلوي شفتيه ، وكان سيء المظهر ، فقال :

– هيــا ! يجب ألاّ تهتمي بذلك ، يا صغيرتي : فسوف يأتي آخرون . . يُفقد واحد ، فيوجد عشرة .

– إن الآخرين لا يهمونني .

– لن تقولي ذلك بعد ان تريهم. انهم فتيان طريفون ، لو تعلمين، وأشدّاء ! اكتاف هكذا ، وأجناب هكذا !

– من تعني ؟

– الألمان طبعاً !

– انهم ليسوا رجالا .

– إلى من تحتاجين ؟

– انهم في نظري وحوش .

فبسم بينيت بسمة متجردة وقال بهدوء :

– انت مخطئة . انهم فتيان جميلون ، وجنود اقوياء . صحيح انهم لا يساوون الفرنسيين ، ولكنهم جنود اقوياء .

فردت : – انهم في نظري وحوش .

قال لها : – لا ترَددي ذلك ، لأنك ستنزعجين جداً لانك قلتهـا اذ تغيرين رأيك . انهم منتصرون ، فافهمي ذلك . انك لا تستطيعين ان تقاومي انساناً شديداً قد ربح الحرب ، فيجب ان تنحني امامه ، وسوف تشعرين هنـاك بالتأكل . اذهبي فأسألي الباريسيات ! إنهن يتسلّين الأن كثيراً ، الباريسيات !إنهن يقمنبتمرينات للسيقان في الهواء.

فتخلصت الفتاة فجأة وقالت :

– انك تبعث لدي الاشمئزاز .

فسأل بينيت : – ماذا دهاك ، ايتها الصغيرة ؟

قالت الفتاة : – انني فرنسية .

– الباريسيات ايضاً فرنسيات : هذا لا يمنع .

قالت – دعني ؛ اريد ان اذهب .

فاصفر بينيت وأخذ يقهقه . وقال ماتيو :

– لا تغضبي . لقد قال ذلك ليثيرك .

قالت : – انه يبالغ ! فمن تراه يعتبرني ؟

فقال ماتيو على مهل :

– ليس سهلا ان يكون المرء مهزوماً . انه محتاج الى الوقت ليتعود ذلك : انت لا تعرفين كم هو لطيف عادة . انه حمل .

قال بينيت : – ها ! ها ! ها !

قال ماتيو : – انه يغار .

فسألت الصغيرة وقد عادت اليها رقتها :

– يغار عليّ ؟

– بكل تأكيـــد . فهو يفكر بجميع الافراد الذين سيحاولون ان يغازلوك فيما هو يكسر الحصى .

وقال بينيت الذي كان ما يزال يقهقه :

– او فيما هو يأكل الهندباء البرية من جذورها .

وصاحت : – انني امنعكم من ان تعرّضوا انفسكم للقتل !

فابتسم وقال :

– تتحدثين كامرأة . كفتاة صغيرة (واضاف وهو يدغدغهـــا) كفتاة صغيرة جداً .

فقالت وهي تتلوى تحت دغدغاته :

– خبيث ! خبيث ! خبيث !

فقال ماتيو منزعجاً :

– لا تهتمي بأمره كثيراً . سينجلي عنه هذا بكل بساطة ، ثم اننا لا نملك ذخيرة .

فالتفتا اليه في وقت واحد ، وقذفاه بالنظرة الحاقدة المستيقظة نفسها، كما لو انه قد منعهما من ان يناما معــاً للمضاجعة . ونظر ماتيو الى بينيت في قسوة ؛ وبعد لحظة ، خفض بينيت رأسه ونزع ضمة عشب من بين ركبته ، ووجهه متجهم . وعــلى الطريق ، كان ثمة جنود يتسكعون . وكان بينهم واحد يحمل بندقية ؛ وكان يمسك بها كأنهـا شمعة طويلة ، وهو يضحك .

وقال رجل قصير أسمر ، سمين وأقفد :

ــ هيا !

فأخذ الجندي البندقية بكلتا يديه من انبوبها ، وأرجحها كعصـــا الغولف ، ثم ضرب بعقبها حصاة قفزت عشرين خطوة . وكان بينيت ينظر اليهما مقطب الحاجبين فقال :

ــ هناك من يسيء استعمالها على التو .

فلم يجب ماتيو . وكانت الفتاة قد أخذت يد بينيت على ركبتيهـا تداعبها ، وقالت :

ــ ارى معك خاتمـاً .

فسألها وهو يقبض يده قليلا : ــ ألم تريه قبل الآن ؟

ــ بلى ، رأيته ، هل انت متزوج ؟

ــ ما دام معي خاتم .

قالت بأسى : ــ نعم .

ــ انظري ما افعل بخاتمي .

وشد على اصبعه بكزازة ، فنزع خاتمه ورماه في القمح ، فقالت الفتاة مندهشة :

ــ اوه ! مع ذلك ...

« أخذ السكين من على الطاولة ، وكانت ايفيش تنزف ، فطعن بها راحته .. » حركات ، حركات ، تهديمات صغيرة ، ماذا يجديك

ذلك ، أخذت هذا من اجل الحرية ، وتثاءب .

– كان من ذهب ؟

– نعم .

فتحاملت وقبلته في شفتيه قبلة خفيفة . واستقام ماتيو ثم جلس قائلا :

– انني انسحب .

فنظر اليه بينيت في قلق :

– إبق بعد قليلا .

– لستَ بحاجة إلي .

قال بينيت : – بل إبق ، من اجل ما ستعمله ...

فابتسم ماتيو واومأ الى الفتاة :

– ليست لها رغبة كبيرة بأن أبقى .

– هي ؟ بلى بكل تأكيد ، فهي تحبك كثيراً (وانحنى عليها وقال بصوت ملح) انه صديق . اليس صحيحاً انك تحبينه كثيراً ؟

قالت الصغيرة : – بلى .

وفكر ماتيو : انها تحتقرني ؛ ولكنه بقي ، ولم يكن الوقت ليتقدم : لقد كان يرتجف ، مسترخياً على هذا الحقل الأحمر . حركة مفاجئة وسيحسه ماتيو من جديد في عظمه ، كوجع روماتيزم قديم العهد . وتمدّد على ظهره . السماء ، السماء وردية ومعدومة ؛ ليت بوسع الانسان ان يسقط في السماء ! ولكن عبثاً ، اننا مخلوقات تنتمي الى تحت ، والشر كله صادر من هناك .

وكان الجنود الاربعة الذين رآهم ينسلون بين القمح قد استداروا حول الحقل ليبلغوا الطريق ، وافضوا الى المرج ، في صف هندي . وكانوا من قسم الهندسة لا يعرفهم ماتيو ؛ كان العريف الذي يمشي على رأسهم يشبه بينيت ، وكان يرتدي قميصاً قصير الأكمام ، مثله ، وكان قد فتح قميصه على صدره المشعر ؛ وكان الثاني ، وهو اسمر

ملفوح ، قد ألقى سترته على كتفيه من غير ان يرتديها ، وكان يمسك في يده اليسرى سنبلة ، ويتلقى بيده اليمنى حباتهـا ؛ وقلب يده ، فحملها الى فمه ، واخرج لسانه فولغ في هذه الحبات المذهبة وهو يحرك رأسه . اما الثالث ، وهو اطولهم قامة واكبرهم سناً، فهو يسرح شعره الأشقر بأصابعه . كانوا يمشون على مهل ، حالمين ، في مرونة المدنيين . وخفض الأشقر يديه اللتين كانتا تتخللان شعره ، فأمرّهما بعذوبة على كتفيه وعنقه ، كما لو انه يود ان يستمتع بزوايا هذا الجسم الذي انبثق اخيراً تحت الشمس ، خارج الغلاف العسكري الذي لا شكـل له ، وتوقفوا الواحد خلف الآخر ، في وقت واحـد تقريباً ، ونظروا الى ماتيو . وتحت هذه العيون المنتمية الى عصر آخر ، احس ماتيو نفسه يذوب حشيشاً ، فكان مرجاً تنظر اليه الدواب . وقال الأسمر :

– لقد فقدت حمالتي .

ولم يزعج الصوت هذا العالم اللاإنساني الرقيق : فانه لم يكن كلمة وانما كان واحداً من هذا الهمس الذي يسهم في خلق الصمت . ومن شفتي الأشقر ، أفلت همس مشابه :

– لا تحزن ، فلا بد ان الألمان قد أخذوه .

ووصل الرابع بلا ضجة . فتوقف ورفع انفه ، فعكس وجهه خلاء السماء . وقال :

– هيه !

وجلس القرفصاء ، فقطف زهرة منثور ، ووضعها في فمه . وحين نهض ، رأى بينيت وهو يضم الفتاة الى صدره ، فأخذ يضحك :

– الامور صعبة .

فأقرّه بينيت : – صعبة كفاية .

– ولكن الطقس يترطّب ، اليس كذلك ؟

– لكأنّه .

— هذا ما لا يؤسف له .

فاهتزت الرؤوس الأربعة في هيئـة ذكاء ذات طابع فرنسي ؛ وامّحى الذكاء ، فلم يبق الا فراغ هائل ، واستمرت الرؤوس في اهتزازها . وفكر ماتيو : « انهم للمرة الاولى في حياتهم يرتاحون .»

كانوا يرتاحون من السير القسري ، ومن استعراضات الثيـاب ، ومن التمرين ، ومن المأذونيات ، ومن انتظاراتهم ، ومن آمالهـم ؛ كانوا يرتاحون من الحرب ومن تعب أقدم عهداً : من السلام . وفي وسط القمح ، وعلى تخوم الغابة ، وعند مخرج القرية ، كان ثمـة آخرون في زرافات صغيرة يرتاحون كذلك : كانت قـوافل من الناقهين تعبر الريف . وصاح العريف :

— هو بيرار .

فالتفت ماتيو . كان بيرار ، مرافق الكابتين موررون ، قد توقف عند حافة الطريق ليبول : لقد كان فلاحاً من مقاطعة بريتـاني ، متوحشاً وأبرص . وقد نظر اليه ماتيو في اندهاش : كان المغيب يحمر سحنته الموحلة، وكانت عيناه قد اتسعتا ، وفقد هيئته المتحدية الماكرة؛ كان ينظر ، ربما للمرة الاولى ، العلامات المرسومة في السماء ورقم الشمس السري . وكان دفق فاتح ينبع من يديه اللتين كانتا تبدوان وكأنهما نُسيتا عند فتحة بنطاله .

— هو بيرار !

فانتفض بيرار . وسأله الكابورال :

— ماذا تفعل ؟

فقال بيرار : — انني أشم الهواء العليل .

— بل انت تبول ايها الخنزير ! إن هناك أوانس .

فخفض بيرار عينيه عـلى يديه ، وبدا مندهشاً ، فسارع يزرر بنطاله ، وقال :

– فعلت ذلك من غير تفكير .

قالت الفتاة : – ليس في ذلك اذى .

وقبعت ملتصقةً بصدر بينيت وابتسمت للكابورال . وكان ثوبها قد انحسر ، فلم تفكر في رده : كانت تعيش في البراءة . ونظروا الى فخذيها ، ولكن بلطف ، وبافتتانٍ حزين . لقد كانوا ملائكة، وكانت لهم نظرات مسطحة .

وقال الأسمر : – حسناً . تحية . اننا نتابعها ، نزهتنا .

فقال الأشقر الطويل ضاحكاً :

– النزهة المشهية .

قال ماتيو : – شهيّة طيبة .

وضحكوا : كان الجميع يعلمون أنه لم يكن ثمة ما يؤكل بعدُ في القرية ؛ وكانت جميع محفوظات « الادارة » قد نُهبت في الساعات الاولى من الصباح .

– ليست الشهية هي التي تنقصنا .

ولم يكونوا يتحركون ؛ وكفوا عن الضحك ، وبان بعض الضيق في عيني العريف ؛ فكأنهم كانوا يخشون ان يذهبوا . وكاد ماتيو يدعوهم الى الجلوس . وقال العريف بصوت مفرط في الهدوء :

– هيا بنا !

فاستعادوا سيرهم في اتجاه الطريق ؛ وأحدث ذهابهم شقاً سريعاً في رطوبة المساء ؛ وقد سال بعض الوقت من خلال التصدع ، فقام الألمان بقفزة الى الأمام ، وتشنجت خمس أصابع من حديد على قلب ماتيو : ثم كف النزف ، وتجمد الزمن من جديد ، فلم يكن ثمة الا مرج يتنزه فيه ملائكة . وفكر ماتيو : « ما أهول هذا الفراغ ! » وكان شخص هائل قد انسحب فجأة ، تاركاً « الطبيعة » في حراسة جنود من الصف الثاني . « صوت يعدو تحت شمس قديمة : لقد مات «بان»

فاستشعروا الغياب نفسه . » فمن الذي مات ، هذه المرة ؟ فرنسا ؟ المسيحية ؟ الأمل ؟ لقد كانت الارض والحقول تعود على مهل الى لاجدواها الاولى ؛ وكان هؤلاء الرجال يصبحون مجانين ، وسط هذه الحقول التي لم يكونوا يستطيعون حرثها ولا حمايتها . كان كل شيء يبدو جديداً ، ومع ذلك فقد كان المساء مطرزاً بنجوم الليل الأسود القادم ؛ وفي وسط هذا الليل ، سترتمي على الارض نجمة مذنبة . اتراهم سيقصفون ؟ كانت الحفلة منتظرة عما قليل . اتراه كان يوم العالم الاول ام يومه الاخير؟ كان القمح والمنثور اللذان يسودّان تحت العين يبدوان وكأنهما يولدان ويموتان في الوقت نفسه . واجتاز ماتيو بنظره هذا الالتباس الهادىء وفكر : تلك هي جنة اليأس .

قال بينيت : — ان شفتيك باردتان .

وكان قد انحنى على الفتاة يقبلها . وسألها :

— هل تحسين البرد ؟

— لا .

— أتحبين إن أقبلك ؟

— نعم . كثيراً .

— لماذا إذن شفتاك باردتان ؟.

فسألت : — أصحيح انهم يغتصبون النساء ؟

— انت مجنونة .

فقالت بوس : — قبّلني . لا اريد ان افكر بعد بشيء .

وأخذت رأسه بين يديها وجذبته اليها وهي تتقاب . وقال :

— يا صغيرتي ، يا لعبتي !

ونام عليها ، ولم يرَ ماتيو بعد الا شعراً في العشب . ولكن سرعان ما ارتفع الرأس ، وقد سقط عنه القناع المتجهم الرائع ؛ وكانت العينان ، في عري رقيق أملس ، تنظران الى ماتيو من غير

ان ترياه ؛ وكانتا تطفحان بالوحدة .

وتنهّدت الفتاة : — يا حبيبي ، تعال ، تعال .

ولكن الرأس كان صلباً ، ابيض ، اعمى ، لا ينحني . وفكر ماتيو وهو ينظر الى هاتين العينين المظلمتين : انه يفعل مهنته كرجل . وكان بينيت قد أضجع هذه المرأة تحته ، وكان يسحقها في الارض ، كان يذيبها بالارض ، وبالعشب المتردد . كان يمسك المرجة مستلقية تحت بطنه ، وكانت تناديه ، وسوف يوصل فيها جذوره بالبطن ، وكانت هي ماءً ، امرأة ، مرآة ؛ فكانت تعكس على كل سطحها البطل البكر للمعارك القادمة ، الذكَر ، الجندي المجيد المنتصر ، كانت « الطبيعة » لاهثة مقاوبة ، تبرئه من جميع الهزائم ، وتتمتم : يا حبيبي ، تعال . ولكنه كان يريد ان يمثل دور الرجل حتى النهاية ، فكان يستند براحتيه على الأرض ، فتبدو ذراعاه المتقلصتان طرفي جناح ، وكان ينصب رأسه فوق هذه الوداعة المتلبدة ، فقد كان يريد ان يكون موضع اعجاب ، وان يكون مشتهى من تحت ، في الظل ، على غير علم منه ، وان يهمل هذا المجد الذي كان ينتقل من الأرض الى جسده ، كأنه حرارة بشرية ، وان يطفو في الفراغ ، في الضيق والقلق ، ليفكر : « وماذا بعد ؟ » وعقدت الفتاة ذراعها حول عنقه وشدت على رقبته . وغرق الرأس في المجد والحب ، وانغلق المرج . ونهض ماتيو بلا ضجة فضى ؛ واجتاز الحقل ، فأصبح احد اولئك الملائكة الذين كانوا يتسكعون في الطريق المضيئة ، بين ظلال الحور . وكانا هما قد اختفيا في العشب الاسود ، ومر جنود يحملون الباقات ؛ ورفع احدهم ، فيما هو سائر ، باقته نحو وجهه ، فأغرق انفه في الزهور ، وتشمم وسط الزهور بطالته وهمه ومجانيته التي لا مبرر لها . وكان الليل يتأكل اوراق الشجر والوجوه : فكان الجميع متشابهين ؛ وفكر ماتيو : انني اشبههم . ومشى بعد قليلا ، ورأى نجماً يضيء

ولامس متنزهاً غامضاً كان يصفر . والتفت المتنزه ، فرأى ماتيو عينيه؛ وتبادلا بسمة من بسمات عشية الأمس ، بسمة صداقة .

قال الرجل : — الطقس رطب .

قال ماتيو : — نعم ، بدأ الطقس يبرد .

ولم يكن لديهما شيء آخر يقولانه ، ومضى المتنزه ، فتبعه ماتيو بنظره ؛ اينبغي ان يكون الناس قد فقدوا كل شيء ، وحتى الأمل ، لنقرأ في عيونهم ان بوسع الانسان ان يربح ؟ كان بينيت يضاجع ، وكان غيكيولي ولاتيكس قد تدحرجا ثملين حتى الموت على ارض البلدية ؛ وكان ملائكة متوحدون ينزهون في الدروب ضيقهم : لا حاجة لأحد بي . وتداعى للسقوط على الأرض ، على حافة الطريق ، لأنه لم يكن يعرف بعد الى اين يذهب . ودخل الليل في رأسه من فمه، وعينيه ، ومنخريه ، واذنيه : فلم يكن بعد احداً ، ولا شيئاً . لا شيء الا الشقاء والليل . وفكر : شارلو ! ثم قفز على قدميه : كان يفكر بشارلو ، وحيداً مع خوفه ، وكان يشعر بالعار ؛ لقد تصرفت تصرفاً سيئاً مع هؤلاء الخنازير السكارى ، وفي تلك الفترة ، كان هو وحده ، وكان خائفاً ، بتواضع ، وكان بوسعي ان اساعده .

وكان شارلو جالساً في المكان نفسه ؛ وكان منحنياً فوق كتابه ، فاقترب ماتيو وأمرّ يده في شعره :

— انك ستقتلع عينيك .

قال شارلو : — اني لا اقرأ . بل افكر .

وكان قد رفع رأسه ، وكانت شفتاه الغليظتان ترسمان بسمة .

— بمَ تفكر ؟

— بحانوتي ، اتساءل عما اذا كانوا قد نهبوه .

قال ماتيو : — هذا غير مرجح .

واشار الى نوافذ دار البلدية :

— ماذا يفعلون في الداخل ؟

قال شارلو : — لا ادري . مضت فترة من غير ان اسمع شيئاً .

فجلس ماتيو على درجة :

— الامور ليست على ما يرام ، أليس كذلك ؟

فابتسم شارلو بحزن ، وسأله :

— أتكون قد عدت من اجلي ؟

— انني ضجر . وقد فكرت بانك ربما كنت في حاجة الى رفيق . وهذا بالأحرى في صالحي .

فهز شارلو رأسه من غير انْ يجيب . وسأله ماتيو :

— اتريد ان اذهب ؟

قال شارلو : — لا ، فانك لا تزعجني . ولكنك لا تستطيع ان تساعدني . ما عساك تقول لي : ان الألمان ليسوا متوحشين ؟ ان علينا ان نكون شجعاناً ؟ انني اعرف هذا كله .

وتنهد ووضع الكتاب الى جانبه ، في حيطة ، وقال :

— يجب ان تكون يهودياً ، وإلا لم تستطع ان تفهم .

ووضع يده على ركبة ماتيو وقال له بلهجة اعتذار :

— لست انا الخائف ، وانما هو جنسي في داخلي . ولا حيلة لأحد في ذلك .

وصمت ماتيو ، وظلا جنباً الى جنب ، صامتين ، احدهما ممزق ، والآخر لا جدوى منه على الاطلاق ، منتظرين ان يلفهما الظلام .

كانت تلك هي الساعة التي تفيض فيها الاشياء عن نطاقها وتذوب في ضباب المساء القطني ؛ كانت النوافذ تنزلق في ظــل حركة طويلة جامدة ، وكانت الغرفة زورقاً شراعياً تائهاً ؛ امــا زجاجة الويسكي

فكانت إلهاً ازتيكياً ؛ وكان فيليب تلك النبتة الرمادية الطويلة التي لا تخيف ؛ والحب ، كان اكثر كثيراً من الحب ، ولم تكن الصداقة هي الصداقة تماماً . وكان دانيال يتحدث ، مختبئاً ، عن الحب ، فلم يكن بعد الا صوتاً هادئاً حاراً . واسترد نفسه ، فانتهزها فيليب فرصة ليقول :

– ما أشدّ الظلام هنا ! الا تظنّ أن بوسعنا ان نضيء النور ؟

قال دانيال بجفاف : – اذا لم تكن الكهرباء مقطوعة .

ونهض على مضض : كانت اللحظة قد آنت لتقبّل امتحان الضوء. وفتح النافذة ، وأطلّ فوق الفراغ وشمّ رائحة بنفسج الصمت : كم من مرة ، في هذا المكان نفسه ، اردت ان أهرب ، وكنت اسمع صوت خطى يتنامى ؛ كانوا يمشون على افكاري . كان الليل عذباً ووحشياً ، وكان لحم الليل الذي تمزّق مرات قد التأمت جراحه . ليلة ريّا وعذراء ، ليلة جميلة بلا رجال ، برتقالة حمراء بلا بزور . وأغلق المصاريع على مضض ، فأدار المفتاح ، فارتمت الغرفة خارج الظل ودخلت الاشياء في نفسها من جديد . واندفع وجه فيليب بازاء عيني دانيال ، وكان دانيال يُحسّ هذا الرأس الكبير الدقيق يتحرك في نظره ، وهو حديث عهد بقصّ الشعر ، مرتدّ الى خلف ، بتينك العينين الطافحتين بالذهول واللتين كانتا تسحرانه كما لو انهما تريانه للمرة الاولى . « يجب ان أتصرّف بدقة وحكمة . » ورفع يده ، منزعجاً ، ليضع حداً لتمثيلية الأشباح ، فقرص ظاهر سترته بين اصابعه ، وابتسم ؛ كان خائفاً من ان يُكتشف .

– ما بالك تنظر إليّ ؟ هل تجدني جميلاً ؟

فقال فيليب بصوت محايد :

– جميلاً جداً .

وانفتل دانيال فوجد في المرآة ، من غير استياء ، وجهه الجميل

الغامض . وكان فيليب قد أسبل جفنيه ؛ وخنق ضحكة وراء يده .

— انت تضحك كطالبة داخلية .

فكفّ فيليب عن الضحك . وألح دانيال :

— لماذا تضحك ؟

— هكذا .

وكان نصف ثمل ، من الخمر ، وعدم الثقة ، والتعب . وفكر دانيال : إنه في الحالة المناسبة . شريطة ان يفعل كل شيء «بالضحك» كمزاح مدرسي ؛فسيدع الفتى نفسه ينقلب على الديوان، ويلامس،ويقبّل وراء الاذن : ولن يدافع عن نفسه إلا بالضحكة المجنونة . وأولاه دانيال ظهره فجأة ، وخطا بضع خطوات في الغرفة : إن هذا مبكر جداً ، مبكر اكثر مما ينبغي ، فحذار من الحماقات ! سوف يذهب غداً فينتحر ، او انني سأقتله . وقبل ان يعود باتجاه فيليب ، زرّر سترته وشدها على فخذيه ليخفي بداهة اضطرابه .

وقال : — واخيراً هكذا !

قال فيليب : — هكذا !

— انظر إليّ .

وغطس نظره في عينيه وهزّ رأسه في رضى ؛ وقال على مهل :

— لستَ بالجبان . وقد كنت متأكداً من ذلك .

ومدّ سبابته وضرب صدره :

— انت تهرب خوفاً ؟ كفى ، كفى ! إن هذا لا يناسبك : كل ما هنالك انك ذهبت ؛ تركت هذه القضية تسوّى بدونك . ولماذا تراك تقتل نفسك من أجل فرنسا ؟ لماذا ؟ ان فرنسا لا تهمك ، أليس كذلك ؟ انها لا تهمك ، انها المكار الصغير !

فأومأ فيليب برأسه ، واستعاد دانيال مشيته عبر الغرفة ، وقال في

انفعال مليء بالمرح :

— لقد انتهى هذا كله . انتهى وُصفّي . إن لك حظاً لم يكن لي في عمرك . لا ، لا (قالها في حيوية بحركة من يده) لا ، لا ، لا أقصد بذلك لقاءنا . إن حظك هو الاتفاق « التاريخي » : أتريد ان تهدم الاخلاقية البورجوازية ؟ حسناً : إن الألمان هنا لمساعدتك . ها ! سترى ضربة المكنسة هذه ؛ سترى آباء الأسر يزحفون ، ستراهم يلحسون الأحذية ، ويمدون أقفيتهم الضخمة لركلات الأرجل ؛ سترى زوج امك مقلوباً على بطنه ؛ إنه هو المهزوم الأكبر في هذه الحرب ، وكم ستستطيع ان تحتقره !

وضحك حتى سالت دموعه : « اية ضربة مكنسة ! » ثم التفت فجأة نحو فيليب :

— يجب ان تحبهم .

فسأله فيليب مذعوراً : — من ؟

— الألمان ، انهم حلفاؤنا .

فردد فيليب : — أن احبّ الألمان ؟ ولكني ... لا اعرفهم .

— لا تخف ، فسنعرف بعضهم : سنتعشى لدى قادة المقاطعات ، ولدى الفيلدمرشالات : وسوف يأخذوننـــا للتنزه معهم في سياراتهم المرسيدس السوداء الضخمة ، بينما يتنزه الباريسيون على اقدامهم .

وخنق فيليب تثاؤبة ، فهزّه دانيال من كتفيه وقال له بلهجة كثيفة :

— يجب ان تحب الألمان . ستكون تلك تجربتك الروحية الاولى .

فلم يبد على الفتى انفعال خاص ؛ فتركه دانيـــال ، وفتح ذراعيه على سعتهمـا وقال :

— ها هو زمن القتلة يجيء .

وتثاءب فيليب للمرة الثانية : فرأى دانيال لسانه المروّس . وقال فيليب بلهجة اعتذار :

— انني ناعس . ها هما ليلتان لم اغمض فيهما عينيّ .

فبدا لدانيال ان يغضب ، ولكنه كان مرهقاً ، هو ايضاً ، كما يحدث له على اثر كل لقاء جديد . ولفرط ما اشتهى فيليب ، فقد أحسّ بنهك ثقيل في أربيّته . وأحسّ فجأة بتعجّل ليجد نفسه وحيداً ، فقال :

— حسناً ، انني اتركك . وستجد منامة في درج الخزانة .

فقال الفتى برخاوة : — لا حاجة بي الى ذلك ، فيجب ان اعود الى البيت .

فنظر اليه دانيال باسماً :

— ستفعل ما تشاء ؛ ولكنك توشك ان تقع على دورية ، والله وحده يعلم ما سيصنعون بك : انت جميل كفتاة ، والألمان جميعاً لوطيون . وحتى لو فرضنا انك بلغت منزلك ، فانك ستجد فيه ما تريد ان تهرب منه . إن على الجدران صوراً لزوج امك ، اليس كذلك ؟ وعطر امك يطفو في غرفتها ؟

فلم يبد على فيليب انه كان يسمعه . وبذل جهداً لينهض ، ولكنه تداعى على الديوان وقال بصوت نائم :

— هاههه ...

ونظر الى دانيال فبسم له بهيئة حائرة :

— اظن ان من الأفضل لي ان ابقى هنا .

— إذن ، تصبح على خير .

فقال فيليب متثائباً : — تصبح على خير .

واجتاز دانيال القاعة ؛ وإذ ألمّ بالمدخنة ، كبس على مربّع ناتيء ، فاستدار رفّ من المكتبة على نفسه ، كاشفاً صفاً من الكتب ذات الغلاف الاصفر . وقال :

— هذا هو «الجحيم» . ستقرأ هذا كله فيما بعد : فهو يتحدث عنك .

فردد فيليب من غير ان يفهم :

– عني ؟

– نعم ، اقصد عن حالتك .

ودفع الرف الى مكانه ثم فتح الباب . وكان المفتاح قد بقي في الخارج ، فأخذه دانيال ورمى به الى فيليب وهو يقول ساخراً :

– اذا خفت من الأشباح او من اللصوص ، فبوسعك ان تقفل على نفسك .

واغلق الباب عليه ، ودلف في الظلام الى جوف الغرفة ، فأضاء المصباح وجلس على سريره . ها انا وحدي اخيراً ! ست ساعات من المشي ، وطوال اربع ساعات ، هذا الدور أمثله مرتدياً مشد امير الشر : انني مرهق . وتنهد ، رغبة منه في ان يحس وحدته ؛ ورغبة في الا يُسمع ، أنّ بنعومة : « إن بيضتيّ تؤلمانني كثيراً . » ورغبة منه في ألا يُرى ، حرّك وجهه حركة بكائية ، ثم ابتسم وتداعى للسقوط الى خلف كما لو انه في حمّام دافيء : وكان قد تعود هذه الرغبات التجريدية ، وهذه التورمات الخفية اللامجدية ؛ وكانت التجربة قد علمته ان ألمه يخف اذا ظل متمدداً . وكان المصباح يعكس دائرة نور على السقف ، وكانت الوسائد رطبة ، كان دانيال يرتاح ، ساكناً ، ميتاً ، مبتسماً . « هاديء ، هاديء : لقد اقفلت باب الدخول بالمفتاح ، والمفتاح في جيبي ، والواقع انه من جهة اخرى ، سوف ينهار تعباً ، وسينام حتى الظهر ، من دعاة السلام : فتأمل ! بالاجمال ، لم تسر الأمور جيداً . ولا شك في انه كان ثمة خيوط للشد ، ولكني لم اعرف ان اعثر عليها . » كان دانيال يجعل من امثال « ناتانايل » و « رامبو » قضيته ؛ ولكن الجيل الجديد كان يحيّره : « اي مزيج غريب : نرجسية ، وافكار اشتراكية . إن هذا لا يجاري المعقول . » ومع ذلك ، فان الامور بالاجمال لم تسر سيراً

رديئاً : كان الفتى هنا ، مقفلا عليه . ففي حالة الشك ، لن يكون سيئاً ان يلعب المرء ورقة الاختلال النظامي . فلقـــد كان ذلك ينجح دائماً بعض الشيء . كان يثير الغرور . وفكر : « سأحصل عليك ، وسأغسل مبادئك ، يا ملاكي . افكار اشتراكية ! سترى مـــا سوف تنتهي اليه ! » وكانت هذه الحميّا التي بردت تثقل عـــلى معدته ، وكان بحاجة الى كمية طيبة من الوقاحة ليكنسها : « اذا استطعت ان احتفظ به وقتاً طويلا ، كانت مسألة طيبة : فانا بحاجة الى التخفف ، وافتقر الى شخص في البيت . » حفلات الكرميس ، غراف وتوتو ، العمّة دونفلور ، ماريوس ، « الحسّ » الممنوع : كل ذلك قـــد انتهى . وانتهت الانتظارات عند حواشي محطة « غارديست » وابتذال المأذونين الذين تنبعث من اقـــدامهم الروائح الكريهة : انني اصلح سيرتي . (انتهى الارهاب !) وجلس على السرير وبدأ ينزع ثيابه ، وصمم : ستكون علاقة جدية رصينة . وكـــان يحس النعاس ، وكان هادئاً ، ونهض ليأخذ حوائجه ، فلاحظ انه كان هادئـــاً ، وفكر : عجيب ألا اكون في ضيق وقلق . وفي تلك اللحظة ، كان خلف ظهره احد ، فالتفت ، فلم ير احداً ، فشقه الضيق شقين . « مرة اخرى بعد ! مرة اخرى بعد ! » وكان كل شيء يبدأ من جديد ، وكان يعرف كل شيء ، وكان بوسعه ان يتنبأ بكل شيء ، كان يستطيع ان يروي دقيقة فدقيقة سنوات الشقـــاء التي ستلي ، السنوات الطويلة ، الطويلة ، اليومية ، المملة التي لا أمل فيها ، ثم النهاية القذرة الأليمة: كل شيء كان هنا . ونظر الى الباب المغلق ، وكان يلهث ، وكـــان يفكر : « هـــذه المرة ، سأموت بذلك » وكـــان في فمه مرارة الآلام القادمة .

قال عجوز : — انها تحترق جيداً .

وكان الجميع في الطريق ، جنوداً وعجائز وفتيات . وكان المدرس يصوّب عصاه نحو الأفق ؛ وفي اقصى العصا ، كانت شمس زائفة تدور ، كرة من نار تخفي فجراً ممتقعاً : كانت تلك « روبيرفيل » التي تحترق .

— انها تحترق جيداً .

— اجل ! اجل !

وكان المسنّون يتراقصون قليلا ، وايديهم خلف ظهورهم ، وكانوا يقولون : اجل ! اجل ! باصواتهم العميقة الهادئة وترك شارلو ذراع ماتيو ، وقال :

— إن هذه مصيبة !

فأجابه عجوز :

— انه قَدَر الفلاح . فحين لا تكون الحرب ، يكون الثلج او الجليد : فليس ثمة سلام على الأرض ، بالنسبة للفلاح .

وكانت ايدي الجنود تجس الفتيات في الظلام فتثير الضحكات ؛ وكان ماتيو يسمع خلف ظهره صرخات الصبية الذين كانوا يلعبون في ازقة القرية المهجورة . وتقدمت امرأة ، وكانت تحمل صبياً بين ذراعيها ، فسألت :

— ايكون الفرنسيون هم الذين اشعلوا النار ؟

فقال لوبيرون : — هل انت مجنونة ، ايتها الأم الصغيرة ؟ انهم الألمان ، نعم .

فهزّ عجوز رأسه وقال غير مصدّق :

— لقد سبق للألمان ان جاءوا ، في الحرب الماضية ، ولم يفعلوا شراً كبيراً : انهم لم يكونوا رجالاً مؤذين .

فسأل لوبيرون مغتاظاً :

— ولماذا ترانا نشعل نحن النار ؟ اننا لسنا متوحشين .
— ولماذا تراهم يشعلونها ، هم ؟ أين سيقيمون ؟
ورفع جندي ملتح يده فقال :
— لا بدّ ان بعض اللؤماء عندنا ارادوا ان يتخابثوا : فأطلقوا النار . فاذا سقط قتيل واحد من الألمان ، أحرقوا القرية .
فالتفتت اليه المرأة قلقة ، وسألت :
— وانتم ؟
— ماذا ، نحن ؟
— ألن تفعلوا حماقات ؟
فأخذ الجنود يضحكون ، وقال أحدهم في أقتناع :
— آه ! تستطيعين ان تنامي قريرة العين، معنا . اننا نعرف الحياة.
وكانوا يتبادلون النظر ويضحكون بهيئة مشاركة :
— نعرف الحياة ، نعرف الحياة .
— اتظنّين ، اننا سنختلق اسباب الخصام مع الألمان ، عشية توقيع السلام ؟
وكانت المرأة تداعب رأس صغيرها ؛ وسألت بصوت متردّد :
— أهو السلام ؟
فقال المدرّس في قوة :
— نعم ، هو السلام . هو السلام . هذا ما ينبغي ان نقوله :
فحدثت رعشة في الجمع ، وسمع ماتيو خلف ظهره نسمةً صغيرة من كلام فرح :
— انه السلام ، انه السلام .
كانوا ينظرون الى روبيرفيل تحترق ويرددون فيما بينهم : لقد انتهت الحرب ، انه السلام ؛ وكان ماتيو ينظر الى الطريق : كانت تفلت من الليل ، على بعد مئتي متر ، وتسيل بياضاً متردداً حتى قدميه

ثم تمضي خلفه فتغسل البيوت ذوات المصاريع المغلقة . طريق جميلة تغري بالمغامرة والموت ، طريق جميلة ذات اتجاه واحد . كانت قد وجدت وحشية الأنهار القديمة : وهي ستحمل غداً حتى المدينة سفناً محمّلة بالقتلة . وتنهّد شارلو ، فشدّ ماتيو على ذراعه من غير ان يقول شيئاً .

وقال صوت : — ها هم اولاء !

— ماذا ؟

— الالمان ، اقول لك : ها هم أولاء !

وكان الظلام قد تحرّك ، وكان جنود في وضع استكشاف ، يخرجون واحداً اثر واحد من ماء الليل الأسود، وبنادقهم تحت اذرعهم . كانوا يتقدمون على مهل ، وحذر ، مستعدّين للإطلاق .

— ها هم اولاء ! ها هم اولاء !

وصُدم ماتيو ودُفع : كان اهتزاز واسع مبهم ينفض الجمع حوله . وصاح لوبيرون :

— لنهرب ايها الرفاق !

— هل انت مجنون ؟ لقد رأونا ، فلم يبق الا ان ننتظرهم .

— ننتظرهم ؟ سوف يطلقون النار علينا ، نعم .

وأطلق الجمع زفرة هائلة مرهقة ؛ وثقب الليلَ صوت المدرّس الحاد:

— النساء الى الوراء . والرجال : اتركوا بنادقكم اذا كان لديكم بنادق ، وارفعوا ايديكم في الهواء .

وصاح ماتيو مجروحاً :

— يا لكم من فروج حمقى ! انكم ترون جيداً انهم فرنسيون .

— فرنسيون ...

وسادت لحظة توقّف ، ووطء مُراوِح ، ثم قال واحد بلهجة تحدّ :

— فرنسيون ؟ ومن أين يخرجون ؟

كانوا فرنسيين ، زهاء خمسة عشر رجلا يقودهم ملازم : وكانت لهم وجوه قاسية سوداء . واصطف أهالي القرية على حافتي الطريق ينظرون اليهم قادمين ، بلا صداقة . فرنسيون ، أجل ، ولكنهم كانوا قادمين من مقاطعة اجنبية وخطرة . ومعهم بنادق . عند الليل الهابط . فرنسيون يخرجون من الظلام والحرب ، ويعودون بالحرب الى هذه القرية التي سبق للسلام ان قام فيها . فرنسيون . باريسيون ، ربما ، او من سكان بوردو ؛ ليسوا ألماناً تماماً ؛ ومرّوا بين سياجين من العداء الرخو ، من غير ان ينظروا الى أحد ؛ وكان يبدو عليهم الفخر . وأطلق الملازم امراً فتوقفوا .

وسأل : — أية فرقة هنا ؟

ولم يكن يوجّه كلامه الى احد معين. وساد صمت ، فكرّر سؤاله، فقال رجل بلهجة مستاءة :

— الواحدة والستون .

— واين هم رؤساؤكم ؟

— مشطوبون .

— ماذا ؟

فكرر الجندي في اعتزاز واضح :

— مشطوبون .

ولوى الملازم حنكه ولم يجب .

— اين دار البلدية ؟

فتقدم شارلو وقال بملاطفة :

— الى اليسار ، في آخر الطريق . امامك مئة متر تمشيها .

فانفتل الضابط فجأة على نفسه ورمقه قائلاً :

— ما هذه الطريقة في التحدث الى رئيس ؟ الا يمكنك ان تقوّم الوضع ؟ وهل يخنقك ان تقول لي : يا سيدي الملازم ؟

ومرّت لحظات صمت . وكان الضابط ينظر الى شارلو في عينيه ، وحول ماتيو ، كان الافراد ينظرون الى الضابط . وأدى شارلو التحية العسكرية .

ــ سمعاً وطاعة ، يا سيدي الملازم .

ــ حسناً .

والقى الضابط نظرة احتقار دائرية ، وقام بحركة ، فعاود الفريق سيره . وتطلع اليهم الافراد ينغمسون في الليل دون ان ينسبوا بكلمة . وسأل لوبيرون بمشقة :

ــ ألم ننته من الضباط بعد ؟

فردّد صوت عصبي بمرارة :

ــ الضباط ؟ انك لا تعرفهم . سيظلون يبعصوننا حتى النهاية .

وصاحت امرأة فجأة :

ــ انهم لن يقاتلوا هنا ، على الاقل ؟

فندت ضحكات من الجمع ، وقال شارلو بصوت مفرط الحلم :

ــ لا تخافي يا ماما ، فليسوا مجانين .

وعاد الصمت من جديد . وكانت جميع الرؤوس قد التفتت نحو الشمال . كانت روبيرفيل المعزولة التي أصبحت خارج نطاق الادراك ، وباتت اسطورية ، تحترق من نكد الطالع في بلد أجنبي ، من الجهة الاخرى من الحدود. ان الصدام والقتال والحريق امور تناسب روبيرفيل، وليست اموراً يمكن ان تحدث لنا نحن . وعلى مهل ، وبلا اكتراث ، أنفصل افراد عن الجمع وتوجهوا نحو القرية . كانوا عائدين ليناموا نومتهم القصيرة ، حتى يكونوا على استعداد ، حين يصل الألمان عند الفجر . وفكر ماتيو : « اية قذارة ! » .

قال شارلو : ــ انني إذن انسحب .

– انت ذاهب للنوم ؟

– يقولون .

– اتريد ان أصحبك ؟

قال شارلو وهو يتثاءب :

– لا تزعج نفسك .

وابتعد ؛ وبقي ماتيـــو وحده . وفكر : « اننا عبيد ، نعم ، عبيد . » ولكنه لم يكن عاتباً على الرفاق ، فلم تكن تلك غلطتهم : لقد قضوا عشرة أشهر في الأشغال الشاقة ، وكان ثمة الآن نقل السلطة ، فهم ينتقلون الى ايدي الضباط الألمان ، وسوف يحيّون « الفيلدووبل » و « الاوبرلوتنان » . ولم يكن الفرق كبيراً ، فان طبقة الضباط عالمية ؛ كل ما في الأمر ، أن الأشغال الشاقة مستمرة . وفكر : انما أعتب على نفسي . ولكن كان يعتب على نفسه انه عتب على نفسه ، لأن تلك كانت طريقة في التعالي على الآخرين . كان رحيماً مع الجميع ، قاسياً مع نفسه : حيلة اخرى من حيل الكبرياء . بريء ومذنب ، مفرط القسوة ومفرط الرحمة ، عاجز ومسؤول ، متضامن مع الجميع ، ومرفوض من كل انسان ، متبصّر غاية التبصّر ، ومخدوع غاية الخداع ، عبدٌ وسيّد : الواقع اني كجميع الناس . وأحس بيدٍ على ذراعه . وكانت يد موظفة البريد . كانت عيناها تحرقان وجهها .

– إمنعه ، إن كنت صديقه .

– ماذا ؟

– انه يريد ان يقاتل : فامنعه .

وبدا بينيت خلفها ، ممتقعاً ، ميت العينين ، وعلى شفتيه بسمة رديئة .

فسأله ماتيو :

– ماذا تريد ان تفعل إذن ، ايها العنيد الصغير ؟

— أقول لك انه يريد ان يقاتل ، لقد سمعته : فهو قد ذهب يلقي الكابيتن ويقول له انه يريد ان يقاتل .

— اي كابيتن ؟

— الذي مر مع رجاله .

وكان بينيت يقهقه ، ويداه خلف ظهره .

— لم يكن « كابيتن » ، بل هو ملازم .

وسأله ماتيو : — أصحيح انك تريد ان تقاتل ؟

فأجاب : — انكم جميعاً تزعجونني !

وقالت موظفة البريد : — أترى ! أترى ! لقد قال انه يريد ان يقاتل . وقد سمعته .

— ولكن من قال لك انهم سيتقاتلون ؟

— ألم ترهم اذن ؟ ان في عينيهم الجريمة . وهو (واومأت بأصبعها الى بينيت) انظر اليه ، انه يخيفني . فهو شيطان !

وهز ماتيو كتفيه :

— ماذا تريدين مني ان افعل به ؟

— ألست صديقه ؟

— بلى .

— اذا كنت صديقه ، فعليك ان تقول له انه لا يحق له ان يعرّض نفسه للقتل .

وتشبثت بكتفي ماتيو :

— لا يحق له ذلك !

— ولماذا ؟

— انت تعرف السبب جيداً .

فبسم بينيت بسمة قاسية ورخوة :

— انا جندي ، فيجب ان أقاتل : إن الجنود قد خلقوا لذلك .

– كان ينبغي اذن الا تأتي للبحث عني .

وقبضت على ذراعه ، وأضافت بصوت راعش :

– انك لي .

فتخلص بينيت :

– لست لأحد .

قالت : – بلى ، انت لي (والتفتت الى ماتيو ونادته بلهجة نارية) ولكن ، قل له انت ! قل له انه لا يحق له بعد ان يعرّض نفسه للقتل ! انه واجبك ، ان تقول له ذلك .

وصمت ماتيو ، فتقدمت نحوه ، ووجهها يلتهب : وللمرة الاولى، وجدها ماتيو قابلة للاشتهاء .

– انت تزعم انك صديقه ، وسواء لديك ان يناله بعد ذلك أذى ؟

– كلا ، ليس الأمر سواء لدي .

– أتجد من المستحسن ان يذهب فيطلق بندقيته كالأحمق على جيش برمته ؟ وليت ذلك يفيد شيئاً بعد ! ولكنك تعلم جيداً ان ليس ثمة من يقاتل بعد .

قال ماتيو : – أعلم .

– ماذا تنتظر اذن لتقول له ذلك ؟

– انتظر أن يسألني رأيي .

– هنري ! أبتهل اليكِ : اطلب منه النصيحـــة ، فهو اكبر منك سناً ، ولا بد ان يعرف .

فرفع بينيت يده علامة الرفض ، ولكن جاءته فكرة فترك ذراعه تسقط وهو يغض عينيه بهيئة مرائية لم يكن ماتيو يعهدها فيه :

– أتريدين ان أناقش الأمر معه ؟

– نعم ، ما دمت لا تحبني حباً كافياً لتصغي الي .

– حسناً . اتفقنا . ولكن يجب ان تذهبي .

ـ لماذا ؟

ـ لأني لا اريد ان اناقش بحضورك .

ـ ولكن لماذا ؟

ـ هكذا ! ليست هذه شؤوناً نسائية .

ـ انها « شؤوني » ما دام الأمر متعلقاً بك .

فقال مغتاظاً : ـ آه ، انك تفقرين لي بيضتيّ !

وغرس مرفقه في جنب ماتيو ، فقال ماتيو بحيوية :

ـ لا حاجة بك حتى لأن تذهبي : فسوف نتمشى قليلاً على الطريق، وليس عليك الا ان تنتظرينا هنا .

ـ نعم ، ثم لا تعودان .

قال بينيت : ـ انك مجنونة ! اين تريديننا ان نذهب ؟ سنكون على بعد عشرين متراً منك ، وستريننا طوال الوقت .

ـ واذا قال لك صديقك بالا تقاتل ، فهل تصغي اليه ؟

قال بينيت : ـ بالتأكيد . انني افعل دائماً ما يقوله .

فتعلقت بعنق بينيت .

ـ أتقسم لي بأن تعود ؟ حتى ولو قررت ان تقاتل ؟ حتى ولو نصحك صديقك ؟ انني أفضل تحمّل كل شيء على الا اراك ثانية . أتقسم لي ؟

ـ نعم ، نعم ، نعم .

ـ قل انك تقسم ! قل : أقسم على ذلك .

قال بينيت : ـ أقسم على ذلك .

فقالت لماتيو : ـ وانت ، هل تقسم على ان تعيده الي ؟

ـ طبعاً .

قالت : ـ لا تبقيا طويلاً ، ولا تبتعدا .

ومشيا بضع خطوات على الطريق ، في اتجاه روبيرفيل ، وكانت

ادغال واشجـــار تنبثق من الظلام . وبعد لحظة ، التفت ماتيو : فاذا موظفة البريد منتصبة متوترة ، يكاد الليل يمحوها ، وهي تجهد لتميّزهما في الظلمات . خطوة اخرى ، وامحت تمـــاماً . وفي تلك اللحظة ، صاحت :

— لا تذهبا بعيداً ، فانا لا اراكما بعد .

فأخذ بينيت يضحك ، وكور يديه فوق فمه وصاح :

— اوهو ! اوهوهو ! اوهوهوهو !

فتابعا سيرهما . وكان بينيت ما يزال يضحك :

— كانت تود ان تجعلني اصدّق انها عذراء ؛ هذا هو السبب .

— آه !

— هذا ما تقوله هي . اما انا ، فلم ألاحظ ذلك .

— هناك فتيات على هذا النحو : تحسب انهن يكذبن عليك ، ثم تتبين انهن عذراوات حقاً .

فقال بينيت مقهقهاً : — هكذا اذن ؟

— هذا يحدث .

— ماذا تقول ! حتى ولو أقررت ذلك ، فسيكون اتفاقاً عجيباً ان يحدث هذا لي بالذات .

فابتسم ماتيو من غير أن يجيب ، وهز بينيت رأسه في الخلاء .

— ثم اسمع . انني لم أغتصبها . حين تكون الفتاة رصينة ، فهي تجعلك تجهد كثيراً حتى تصل اليها . خذ مثلاً زوجتي : لقد كنـــا كلانا نموت رغبة ، ولكن لم يحدث شيء قط قبل ليلة العرس .

وشق الهواء بيد قاطعة :

— لا نخلط الامور : فهذه الفتاة ، كان يتأكلهـــا حيث افكر ، واعتقد جيداً انني انا الذي اديت لها خدمة .

— واذا جعلتها تحمل ؟

فقال بينيت دهشاً : — انا ؟ آه ، لا ، لا ! انك لا تعرفني . فانا النكّاح القــانوني . لم تكن زوجتي تريد اولاداً لأننا كنا فقيرين اكثر مما ينبغي ، فتعودت ان اراقب نفسي . لا ، لا . لقد حصلت على لذتها ، وانا كذلك : فنحن سواء .

قال ماتيــو : — اذا كانت هذه هي المرة الاولى حقاً ، فسيكون امراً نادراً جداً ان تكون قد حصلت على لذة .

قال بجفاء : — طز ! انها في هذه الحالة هي المخطئة .

وصمتا . وبعد لحظــة ، رفع ماتيو رأسه وبحث عن عيني بينيت في الظلام .

— أصحيح انهم سيقاتلون ؟

— صحيح .

— في القرية ؟

— واين تريد ان يقاتلوا ؟

فانقبض قلب ماتيو ، ثم فكر فجأة في لونجان متقيئاً تحت شجرته ، وفي غيكيولي متمرغاً على الارض الخشبية ، وفي لوبيرون الذي كان ينظر الى روبيرفيــل تحترق فيصيح : « انه السلام » . وضحك من فرط الغضب .

— لماذا تضحك ؟

قال ماتيو : — بسبب الرفاق . سيواجهون مفاجأة طريفة .

— صحيح ؟

— هل يريدك الملازم ؟

— اذا كان معي بندقية . قال لي : تعال اذا كانت معك بندقية .

— وهل انت مصمم تماماً ؟

فضحك بينيت ضحكة متوحشة . وبدأ ماتيو يقول :

— هناك ...

فالتفت بينيت فجأة اليه :

– اني بالغ سد الرشد . فلست بحاجة الى نصيحة .

قال ماتيو : – حسناً . اذن ، لنرجع .

فقال بينيت : – لا ، بل تقدّم .

فتقدما بضع خطى . وقال بينيت بغتةً :

– اقفز في الحفرة .

– كيف ؟

– هيا ! اقفز !

وقفزا ، وتسلقا الكثيب ، فالفيا نفسهما وسط القمح ، وقال بينيت موضحاً :

– الى اليسار ، هناك ممر يفضي الى القرية .

وتعثّر ماتيو ، فسقط على ركبته ، وقال :

– يلعن دين ! أية حماقة تجعلني ارتكبها ؟

فأجاب بينيت : – انني لا أطيق ان أراها بعد .

وسمعا صوت امرأة آتياً من الطريق :

– هنري ! هنري !

قال بينيت : – كم هي لصقة ملحاح !

– هنري ! لا تتركني !

وجذب بينيت ماتيـــو من ذراعه ، فانبطحا بين القمح ، وكان صوت موظفة البريد يسمع وهي تعدو في الطريق ، وتطايرت حزمة سنابل على وجه ماتيو ، وفرّ حيوان من بين يديه .

–هنري ! لا تتركني ، افعل ماتشاء ، ولكن لا تتركني . عد اليّ . هنري ، لن اقول شيئاً ، أعدك بذلك ، ولكن عُدْ ، ولا تتركني هكذا ! هنري – ي – ي – ي ! لا تتركني من غير ان تقبّلني .

ومرّت الفتاة بقربهما ، لاهثة . وهمس بينيت :

– من حسن الحظ ، ان القمر لم يظهر بعد .

وكان ماتيو يتنسم رائحة ارض قوية ؛ كانت الارض رطبة ورخوة تحت يديه ، وكان يسمع نفَسَ بينيت الأبح ويفكر : « سوف يقاتلون في القرية . » وصاحت الفتاة مرتين اخريين بصوت يقطعه القلق ، وفجأة ارتدت على اعقابها وأخذت تعدو باتجاه معاكس .

قال ماتيو : — انها تحبك .

فأجاب بينيت : — طز فيها !

ونهضا . فرأى ماتيو ، الى الشمال الشرقي ، فوق السنابل تماماً ، الكرة النارية التي كانت تنوس . « اذا سقط للالمان قتيل واحد ، احرقوا كل شيء . »

وسأله بينيت في تحدٍّ :

— وإذن ؟ أتراك لن تؤاسيها ؟

قال ماتيو : — انها تزعجني . ومهما يكن ، فان حكايات الفرج لا تثير حماستي اليوم . ولكنك قد أخطأت في مضاجعتها ، اذا كان قصدك ان تتركها بعد ذلك .

قال بينيت : — آه ، خراء ! الانسان معك ، دائماً على خطأ .

قال ماتيو : — هذا هو الممر .

ومشيا لحظة . وقال بينيت :

— القمر !

فرفع ماتيو رأسه ، ورأى ناراً اخرى في الافق : كان ذلك حريقاً فضياً .

قال بينيت : — سنكون لهم كرتوناً سهلاً !

قال ماتيو : — على اي حال ، لا اعتقد انهم سيأتون قبل صباح الغد .

وأضاف بعد لحظة ، من غير ان ينظر الى بينيت :

— ستعرّضون انفسكم حتى يقتلوكم عن آخركم .

قال بينيت بصوت أبح :

— انها الحرب .

قال ماتيو : — الحقيقة ان لا . انها ليست الحرب « بعد » .

— لم توقّع الهدنة .

وأخذ ماتيو يد بينيت فشدّها قليلا بين اصابعه : كانت مثلجة .

— هل انت متأكد بأنك راغب في ان تُقتل ؟

— لست راغباً في ان أُقتل : وانما انا راغب في قتل الماني ..

— الأمران مرتبطان .

وخلص بينيت يده من غير ان يجيب . وأراد ماتيو ان يتكلم ، وكان يفكر :

« انه يموت من اجل لا شيء » وكان هذا يخنقه . ولكنه أصيب فجأة بالبرد ، فصمت : « بأي حق امنعه من ذلك ؟ وماذا لديّ لأهبه إياه ؟ » والتفت الى بينيت وصفر بهدوء : كان بينيت غير قابل للادراك ؛ كان يمشي اعمى في ليله الاخير ؛ كان يمشي ، ولكنه لم يكن يتقدم : كان قد وصل ، وكان موته ومولده قد اتصلا ، كان يمشي تحت القمر ، وكانت الشمس القادمة قد بدأت تضيء جروحه . كان قد كف عن ان يجري وراء نفسه ، فقد كان حاضراً كله في ذاته ، بينيت برمته ، كثيفاً ومغلقاً . وتنهّد ماتيو وأخذ له ذراعه في صمت ، اخذ ذراع موظف شاب في المترو ، نبيل وعذب وشجاع ورقيق كان قد قتل يوم ١٨ حزيران ١٩٤٠. وبسم له ، ومن اعماق الماضي ، بسم له بينيت ؛ ورأى ماتيو البسمة واحس بأنه وحيد تماماً. ينبغي لتحطيم هذه القشرة التي تفصله عني ألاّ اريد بعدُ مستقبلا آخر غير مستقبله ، ولا شمساً اخرى غير التي سيراها غداً للمرة الاخيرة ؛ ولكي اعيش الدقائق نفسها ، في الوقت نفسه ، يجب ان اريد ان اموت الميتة نفسها . وقال بهدوء :

– الحقيقة ان عليّ أنا ان اذهب للقتال بدلاً منك. لأنـــني انا ، لا املك بعد اسباباً للحياة كما تملك .

فنظر اليه بينيت في فرح ، كانا قد عادا فأصبحا تقريباً متعاصرين.

– انت ؟

– لقد خدعت نفسي منذ البدء .

قال بينيت : – حسناً ، ليس لك الا ان تأتي . اننـــا نمحو كل كل شيء ونبدأ من جديد .

فابتسم ماتيو وقال :

– نمحو كل شيء ، ولكننا لا نبدأ من جديد .

فوضع بينيت يده حول عنقه ، وقال في شغف :

– دولارو ، يا صديقي الصغير ، تعال معي ، تعال . انه ليسرني، لو تعلم ، ان نكون معاً نحن الاثنين : فأنا لا اعرف الآخرين .

وتردد ماتيو : ان يموت ، فيدخل في خلود هذه الحياة التي سبق لها ان ماتت ... ان يموتا معاً ... وهز رأسه :

– لا

– ماذا ، لا ؟

– لا اريد .

– هل انت خائف ؟

– لا ، بل اجد ذلك سخيفاً .

ان يشق يــــده بضربة سكين ، ان يقذف خــــاتم الزواج ، ان يطلق النار على الالمان: ثم ماذا بعد ذلك ؟ التحطيم والتخريب: ليس ذلك بالحل ؛ وضربة عناد ، ليس هذا هو الحرية . ليتني فقط استطيع ان اكون « متواضعاً » . وسأل بينيت مغتاظاً :

– ولماذا تراه سخيفاً ؟ اريد ان اقتل المانياً ؛ ليس في ذلك ايّ سخف .

— بوسعك ان تقتل مئة ، فان الحرب ستكون خاسرة مع ذلك .

فقهقه بينيت :

— سأنقذ الشرف !

في نظر من ؟

وكان بينيت يسير خافض الرأس ، من غير ان يجيب. وقال ماتيو :

— وحتى لو نصبوا لك تمثالاً ، حتى ولو نثروا رمادك تحت «قوس النصر» . ايستحق ذلك تعريض قرية برمتها للحرق ؟

قال بينيت : — لتحترق ، فهذه هي الحرب .

— هناك نساء واطفال .

— ليس عليهم الا ان يلتجئوا الى الحقول . آه ! (واضاف بهيئة بلهاء) يجب ان تنفجر الفرقعات !

ووضع ماتيو يده على ذراعه :

— ألى هذا الحد تحبها اذن ، زوجتك ؟

— ما دخلها في هذا ؟

فسأله ماتيو : — أمن اجلها تريد تعريض نفسك للموت ؟

فصاح بينيت : — انك تضحكني ! لقد مللت تفسيراتك . اذا كان هذا هو كل ما تنتجه الثقافة ، فسوف أتعزّى من انني لا املكها.

وكانا قد بلغا بيوت القرية الاولى؛ وبغتة، اخذ ماتيو يصيح هوايضاً:

— كفى ! كفى ! كفى !

وتوقف بينيت لينظر اليه :

— ماذا دهاك ؟

فقال ماتيو مشدوهاً :

— لا شيء . انني اصبح مجنوناً .

فهز بينيت كتفيه وقال :

— يجب ان ادخل الى المدرسة . ان البنادق موجودة في غرفة الدرس.

وكان الباب مفتوحاً : فدخلا . وكان ثمة جنود يتامون على بلاط الرواق . واخرج بينيت مصباح جيبه ، فارتسمت على الجدار دائرة مضيئة .

— هنا .

وكان ثمة ركام من البنادق ، فأخذ بينيت احداها ، وتفحصها طويلاً على ضوء مصباحه ، ثم وضعها وأخذ غيرها وفحصها بعناية . وكان ماتيو يستشعر الخجل لكونه قد صرخ : يجب ان ينتظر المرء وان يحتفظ بذهنه صافياً . ان يحتفظ بنفسه لفرصة مناسبة . إن ضروب العناد لا تيسر أمراً . وبسم لبينيت .

— يبدو عليك وكأنك تختار سيكاراً .

وأخذ بينيت السلاح فوضعه راضياً على كتفه :

— اني آخذها . هيا بنا .

قال ماتيو : — اعطني مصباحك .

وأمرّ نور المصباح على البنادق : فكانت تبدو ضجرة ، ادارية ، كأنها آلات كاتبة . وقد كان صعباً ان يفكر المرء ان بوسعه ان يقتل بمثل هذه الادوات . وانحنى فتناول احداها بلا تمييز .

وسأله بينيت مندهشاً :

— ماذا تفعل ؟

قال ماتيو : — كما ترى : انني آخذ بندقية .

قالت المرأة ، وهي تصفق الباب في وجهه :

— لا .

وظل على الدرج ، مسترخي الذراعين ، على تلك الهيئة المظلومة التي يتخذها حين لا يستطيع بعدُ ان يخيف ، وتمتم « ابنتهـــا الساحرة

العجوز » بصوت مرتفع بما فيه الكفاية حتى اسمعه ، ومنخفض بما فيه الكفاية حتى لا تسمعه ، كلا ، كلا ، ياعزيزي المسكين جاك : كل شيء ما عدا « ســاحرة عجوز » . اخفض الآن ، اخفض عينيك الزرقاوين ، وانظر ما بين قدميك : إن العدالة، لعبتك الرجالية الجميلة، هي مهشمة ، عد الى السيارة « بخطوتك » الأليمة الى ابعد حد ، انا اعرف : ان الاله الرحيم مدين لك بحساب ، ولكنكما ستسويان الأمر يوم الحساب (وعاد الى السيارة « بخطوته » الأليمة الى ابعد حد) . اما بشأن « ساحرة عجوز » فلا ؛ كان بوسعه ان يجد شيئاً آخر ، ان يقول « جلد قديم ، حطام قديم ، شيء قديم ، ولكن لا « ساحرة عجوز » انك تحسدينه على لغتـــه العامية ؛ كلا ، ما كان ليقول شيئاً ، كان الناس ليفتحوا لنا ابوابهم على سعتها ، وليعطونا سريرهم وأغطيتهم وقمصانهم ، وكان ليجلس على حافة السرير ، فيضع باطن يده الكبيرة على الغطاء الاحمر ، وكان ليقول في احمرار : « اوديت ، انهم يظنوننا زوجاً وامرأة » وما كنت لأقول شيئاً ، وكان ليقول : « سأنام على الارض الخشبية » وكنت لأقول : « ولكن لا ، لا بأس ، انها ليلة وتنقضي بسرعة ، فلننم في السرير نفسه ؛ تعال يا جاك ، تعال ، فأغلق عيني ، واسحق فكري ، اشغلني ، كن ثقيلاً ، متطلباً ، مستأثراً ، لا تتركني وحدي معه » وأتى ، فهبط الدرج ، شفافاً ، متوقعاً جداً حتى ليشبه ذكرى ، سوف تنشق وأنت ترفع حاجبك الأيمن ، وستطبل على الغطاء ، وستنظر الي بعمق ، وقام بنشقته ، وبرفع حاجبه ، وبنظرته العميقة المفكرة ، وكان هنا ، منحنياً فوقها ؛ كان يطفو في هذا الليل الضخم القاسي الذي كانت تداعبه بأطراف اصابعها ، يطفو ، بلا كثافة ، عادياً وعتيقاً ، فأرى عبره المزرعة المظلمة الكثيفة ، والطريق ، والكلب الذي يروح ويجيء ، كل شيء جديد ، كل شيء ما عداه ، انه ليس زوجـــاً ، بل فكرة عامة ، اناديه ، ولكنه لا

يساعد . وبسمت له ، لأنه ينبغي دائماً ان تبسم لهم ، ومنحته الهدوء وعذوبة الطبيعة ، تفاؤل المرأة السعيدة الواثق ؛ وكانت من تحت تذوب في الليل ، تذوب في هذا الليل النسائي الكبير الذي كان يخفي ماتيو ، في مكان ما من قلبه ؛ ولم يبتسم ، وحك أنفه ، تلك حركة استعارها من أخيه ، وانتفضت : ولكن بمَ تراني قد فكرت ، انني أنام واقفة ، فلست بعد هذه المرأة العجوز الوقحة ، لقد حلمت ، واستغرق الكلام في ليل حلقها ، ونُسي كل شيء ، ولم يكن باقياً على السطح الا عموميتهما المزدوجة الهادئة . وسألت بمرح :

— وإذن ؟

— غير وارد . يدعون ان ليس عنـدهم عنبر ؛ ولكني أراه ، عنبرهم . إنه في اقصى الحـديقة . ليست لي مع ذلك هيئة لص يجوب الطرقات .

قالت : — اسمع ، لا شك في اننا لا نبدو في حالة لامعة ، بعد اربع عشرة ساعة من السير .

فنظر اليها بمزيد من التنبه ، فأحست ان انفها ، تحت النظر ، يبرق كأنه منارة ؛ سيقول لي إن انفي يبرق ، وقال :

— ان تحت عينيك جيوباً ، يا عزيزتي المسكينة : فلا بـدّ انك مرهقة .

فأخرجت بحيوية علبة البودرة من حقيبتهـا ، ونظرت في المرآة بقسوة ؛ انني أخيف : لقد كان وجهها ، تحت ضوء القمر ، يبدو مرخماً بلطخات سود ؛ قد تكون البشاعة محتملة ، ولكني استفظع القذارة. وسأل جاك في تبرّم :

— ما عسانا نفعل ؟

وكانت قد سحبت ممسحتها ، فجعلت تمررها على وجنتيها وتحت عينيها ، وقالت :

– ما تشاء .

– اني أستشيرك .

وكان قد التقط اليد التي تمسك بالممسحة فجمدها بسلطة باسمة . انني استشيرك ، استشيرك هذه المرة ، كلما استشرتك ؛ يا صديقي العزيز ، انت تعلم جيداً انك لن تتبع رأيي . ولكنه كان بحاجة الى نقد افكار الآخرين ، ليعي أفكاره . وقالت كيفما تأتى لها :

– لنتابع ، فربما وجدنا اناساً ألطف .

– لا ، شكراً ! إن التجربة تكفيني . ها ! (وأضاف بقوة) انني احتقر الفلاحين !

– اتريد ان نظل سائرين طوال الليل بالسيارة ؟

– طوال الليل ؟

– سنكون صباح الغد في غرنوبل ، فيكون بوسعنا ان نرتاح لدى اسرة « بليريو » ، ثم نستأنف بعد الظهر لننام في كاستيلان : وسنصل الى « جوان » بعد الظهر .

– انك لا تقدرين هذا !

واتخذ هيئته الرصينة ليضيف :

– انني متعب جداً ، وسوف أنام وراء المقود ونستيقظ في الحفرة .

– أستطيع ان أحل محلك .

– يا حبيبتي ، ضعي دائماً في رأسك فكرة انني لن ادعك ابداً تسوقين في الليل . فستكون العملية ، بسبب نظرك الحسير ، عملية قتل . إن الطرقات مزدحمة بالعربات والشاحنات والسيارات : أشخاص لم يمسوا المقود في حياتهم ، وقــد انطلقوا مع ذلك ، يخبطون خبط عشواء ، بدافع الذعر . كلا : اننا بحاجة الى أعصاب رجل .

وانفتحت مصاريع ، فبرز رأس على نافذة ، وقال صوت خشن :

– اترانا نستطيع ان ننام بهدوء ؟ إذهبا فتحدثا بعيداً ! يلعن دين !

فقال جاك بسخرية صافعة :

ـ شكراً كثيراً يا سيدي ، انك مؤدب جداً ومضياف !

وغرق في السيارة ، فصفق البـــاب وأقلع بوحشية ؛ ونظرت اليه اوديت بطرف عينها : كان الأفضل ان تصمت ؛ انه يسير ثمانين على الاقل ، مطفئاً كــل أنواره لأنه كان يخشى الطائرات ؛ ومن حسن الحظ ، ان القمر بدر . وانقذفت الى الباب :

ـ ماذا تفعل ؟

كان قــد حاد بالسيارة ، من غير ان يخفف السير ، الى طريق معترضة . وسار فترة اخرى ، ثم توقف فجأة . فصف السيارة في آخر الطريق ، تحت باقة من الشجر .

ـ سننام هنا .

ـ هنا ؟

وفتح الباب ، فهبط من غير ان يجيب ، فانسلت خلفه ، وكان الهواء رطباً تقريباً .

ـ اتريد ان ننام خارجاً ؟

ـ كلا .

فنظرت بأسف الى العشب الأسود الرقيق ، وانحنت فجسته كما تجس الماء .

ـ اوه ! جاك ! سنكون في وضع مريح ؛ وبوسعنا ان نخرج الأغطية مع وسادة .

فردد : ـ كلا (وأضاف بحزم) سننام في السيارة ، فنحن لا نعرف من يمر على الطرقات في هذه اللحظة .

وكانت تنظر اليه يذرع الطريق جيئة وذهاباً ، يداه في جيبه ، وخطوته فتية راقصة ؛ فاي شيطان يغني في الأشجار ، فيضطر جاك الى القفز والرقص على الإيقاع . وأدار نحوها سحنة مهمومة شائخة ،

ذات عينين هاربتين : هناك أمرٌ ذو بال ؛ لكأنه كان يشعر بالعار ؛ وعاد الى السيارة ، وكانت نضارة الآلة السحرية وانطلاقها قـــد ذابا فيه ، وسالا حتّى قدميه يستخفّانه بجذل . كان يكره النوم في السيارة . فمن تراه يعاقب ؟ أيعاقب نفسه ، ام يعاقبني ؟ وكانت تحس نفسها مذنبة ، من غير ان تعرف الذنب . وسألها :

— لماذا تبدين متجهمة هكذا ؟ ها نحن على دروب المغامرة الكبيرة : فينبغي ان تكوني مسرورة .

فخفضت عينيها : لم اكن اريد الرحيل ، يا جاك ، انني أسخر بالألمان ، وكنت اريد ان ابقى في بيتي : فـــاذا استمرت الحرب ، قُطعنا عنه ، بل لن نعرف إن كان قد قتل . وقالت :

— افكر في اخي وفي ماتيو .

قال جاك في بسمة مريرة :

— إن راوول في هذه اللحظة، موجود في كاراكاس ، في سريره .

— وليس ماتيو .

فاجاب جاك : — اذكري جيداً ان أخي قد عُيّن في الخدمات الفرعية . وهو بهذا لا يجابه ايّ خطر . كل مـــا في الامر انه قد يكون أسيراً . انت تتصورين ان جميع الجنود أبطال . ولكن لا ، يا عزيزتي المسكينة : إن ماتيو كاتب بسيط في اركان حرب غير محدد؛ فهولا يقل اطمئناناً عما اذا كان في المؤخرة، بل لعله اكثر اطمئناناً منا في هذه اللحظة . وهم يسمون هذا « مخبأ » في لغتهم الخاصة . والحق اني أهنيء نفسي من أجله .

فقالت اوديت من غير ان ترفع عينيها :

— ليس طريفاً ان يكون المرء أسيراً .

فتأملها برصانة .

— لا تقوّليني ما لم أقله ! إن مصير ماتيو يُحدث لي قلقاً كبيراً .

ولكنه شخص صلب ، يعرف ان يتدبر أمره بشطارة . بلى ، بلى ، شاطر اكثر مما تظنين ، بالرغم من منظره الشارد ، وانا اعرفه خيراً مما تعرفينه . إن في ترداداته ، السرمدية عمقاً وصلابة ، وهو صاحب شخصية . وسوف يتدبر امره هناك لايجاد الوضع المناسب : انني أتمثله ناجحاً في ان يكون سكرتيراً لضابط ألماني ، او طباخاً ... إن هذا يناسبه كما يناسب القفّاز يداً ! (وابتسم وردد بتلذذ) طباخ ، أجل ، طباخ ، كالقفاز (وأضاف في مسارّاة) اذا اردت ان تعرفي فاني اعتقد ان الأسر سيثقل رأسه ويزيل شروده ، فيعود الينا رجلاً آخر .

فسألت اوديت ، منقبضة الحلق :

— وكم يدوم الأسر !

— كيف تريدينني أن أعرف ذلك ؟

وهز رأسه وقال :

— ان ما يمكنني ان اقوله لك هو اني لا ارى ان الحرب يمكن ان تدوم وقتاً طويلاً . ان الهدف التالي للجيش الالماني هو انكلترا ... و « الشانيل » ضيق جداً ...

قالت اوديت : — سيدافع الانكليز عن أنفسهم .

— بكل تأكيد . بكل تأكيد (وباعد بين ذراعيه في ارهاق) وانا لا ادري ان كان علينا ان نتمنى ذلك .

ماذا ينبغي ان نتمنى ؟ ماذا ينبغي ان نتمنى ؟ كان الامر في البدء يبدو بسيطاً : كانت قد ظنّت انها ينبغي ان تتمنى النصر ، كما في عام ١٤ . ولكن لم يكن ثمة من يبدو عليه انه يشتهيه . لقد ابتسمت في جذل . كما رأت امها تبتسم ، ساعة هجوم « نيفل » ، ورددت بقوة : « أجل ! سننتصر : ويجب ان نقول بيننا اننا « لا يمكن » الا ننتصر . » وكان ذلك يوحي لها بالاشمئزاز من نفسها ، لأنها كانت تحتقر الحرب حتى ولو في النصر . ولكن الناس كانوا يهزون رؤوسهم

من غير ان يجيبوا ، كما لو انها كانت تعوزها البصيرة ، فلازمت اذ ذاك الصمت ، وحاولت ان تجعل الجميع ينسونها ؛ كانت تسمعهم يتحدثون عن ألمانيـا ، وعن انكلترا ، وعن روسيا ، فلم تكن تدرك حتى ما يريدونه ؛ وكانت تفكر : « لو كان هنا ، لشرح لي . ولكنه لم يكن هنـا ، بل هو لم يكن حتى ليكتب : فطوال تسعة أشهر ، أرسل رسالتين لجاك . ما هو رأيه ؟ لا بدّ انه يعرف ، لا بد انـه يدرك ، واذا لم يكن يدرك ؟ اذا لم يكن ثمة أحد يدرك ؟ ورفعت رأسها فجأة : كانت تودّ لو تجد لدى جاك تلك الهيئة من الوثوق القرير الذي كان ما يزال يطمئنها احياناً ، كانت تودّ لو تقرأ في نظره ان كل شيء على ما يرام ، وان الناس كانوا يملكون اسباباً للامل كانت تغيب عنها . أمل في اي شيء ! أصحيـح ان انتصار الحلفاء لا يمكن ان يفيد غير روسيا ؟ كانت تسأل هذا الوجه المألوف اكثر مما ينبغي ، وفجأة بدا لها وجهاً جديداً : لقد رأت عينين مسودّتين بالقلق ؛ وكان قد بقي بعض العبوس عند زاويتي الشفتين ، ولكن ذلك كان غطرسة متجهمة لصبي اكتُشفت غلطته . « إنه يشكو شيئاً ، فهو غير مطمئن . » والواقع انه كان يتصرف بغرابة ، منذ تركا باريس ، فيبدو تارة اعنف مما ينبغي ، وطوراً أرق مما ينبغي . انه لمريـع ان يبدو الرجال وكأنهم يُحسّون بأنهم مذنبون . وقال :

— انني اموت رغبة في التدخين .

— اليس معك سكاير بعد ؟

— لا .

قالت : — خذ ، بقي معي اربـع منها .

وكانت سكاير « دوريزك » ، فمطّ شفتيه ، وتناول احداهـا متحدياً ، وقال وهو يضع العلبة في جيبه :

— انها من القش !

ولاول نفثة نفثها ، شمّت اوديت رائحة التبغ ؛ وجففت حلقهـا رغبةٌ في التدخين . لمدة طويلة ، وبالرغم من انها كفت عن ان تحبه، كان يروق لها ان تستشعر العطش حين كان يشرب بقربها ، والجوع بينما يأكل ، وان تنعس إذ تنظر اليه نائماً ، كان ذلك يطمئنها : لقد كان يأخذ منها رغباتها ، فيطهّرها ، ويُشبعها لها ، على نحو اكثر رجولة واخلاقية وحسماً . اما الآن ..

وقالت بضحكة خفيفة :

ـ اعطني منها واحدة على الاقل .

فنظر اليها من غير ان يفهم ، ثم رفع حاجبيه .

ـ اوه ! عفـواً ، يا عزيزتي المسكينة : لقـد كانت مني حركة آلية .

وأخرج العلبة من جيبه ، فقالت :

ـ تستطيع ان تحتفظ بالعلبة ، ولكن أعطني منها واحدة .

ودخنا في صمت ، وكانت خائفـة من نفسها ؛ كانت تتذكر الرغبات العنيفة والتي لا تقاوم التي كانت تزرع فيها الاضطراب اذ كانت فتاة . ربما كانت ستعاودها الآن . وسعل مرتين او ثلاثـاً ليصفي صوته : انه يريد ان يحدثني . ولكنه يتباطأ كالعادة . وكانت تدخن بصبر : انه سيدخل موضوعه من جانب ؛ كالعقارب . وكان قد استقام ، فألّف ملامح وجهه ونظر اليها في قسوة . وقال :

ـ هكذا ، يا عزيزتي المسكينة اوديت !

فبسمت له بإبهام . لمجرد ما سيقول . ووضع يده على كتفها :

ـ يجب ان تقرّي الآن انها مغامرة شاقة .

قالت : ـ نعم . نعم . انها كذلك .

وظلّ ينظر اليها . واطفأ سيجارته على عتبة السيارة وسحقها تحت

قدمه ؛ واقترب منها ، وقال لها بقوة ، كأنما ليقنعها :

ــ ولكننا لا نواجه اي خطر .

فلم تجب ؛ وتابع بصوت ملحّ ورقيق :

ــ انني على ثقة من ان الألمان سيتصرفون جيداً ، سيحرصون على ان يتصرفوا تصرفاً جيداً .

وكان هذا هو ما فكرت به دائماً . ولكنها قرأت في عيني جاك الجواب الذي كان ينتظره منها ؛ فقالت :

ــ من يدري ؟ واذا أغرقوا باريس بالخراب ؟

فهزّ كتفيه :

ــ ولكن كيف تظنين ذلك ؟ الحق ان هذه افكار نسوية !

وانحنى عليها ، وأوضح لها بصبر :

ــ اسمعي يا اوديت ، وحاولي بان تفهمي : لا شك في ان برلين ستكون لديها الرغبة ، بعد الهدنة مباشرة ، ان تجعل فرنسا ممثلة في عداد اعضاء « المحور » ، بل ربما كانوا يعتمدون هناك على نفوذنا في اميركا ليبقوا الولايات المتحدة خارج الحرب . هل تتابعينني جيداً ؟ وبكلمة واحدة ، إن لنا مزايا كثيرة ، حتى ولو هُزمنا . (وأضاف بضحكة صغيرة) بل سيكون هناك دور هام يلعبه رجالنا السياسيون اذا أحسوا انهم قادرون على ذلك . حسناً . في مثــل هذه الشروط ، لا يمكن حتى ان نتخيّل الألمان وهم يوشكون ان يثيروا عليهم الرأي العام الفرنسي بارتكاب أعمال عنف غير مجدية .

فقالت منزعجة : ــ هذا رأيي بالذات .

ــ آه ؟

وكان ينظر اليها وهو يعضّ شفته ؛ وكان يبدو من شدة الحيرة ، بحيث اسرعت تضيف :

ــ ولكن مع ذلك ، كيف لنا ان نتأكد ؟ افرض انهم أطلقوا

عليهم النار من النوافذ ؟
فالتمعت عينا جاك :
– لو كان ثمة من خطر ، لبقيت . فانما صممت على الذهاب لأني كنت متأكداً من انه لم يكن هناك خطر .
وكانت تتمثله يدخل الصالون في هدوء كبير مستطـــار ، وتسمعه مرة اخرى يقول بأوضح صوت يملكه ، وهو يشعل سيجارة بيـــد ترتجف : « اوديت ، احزمي امتعتك ، فالسيارة تحت ، وسنرحـــل بعد ثلاثين دقيقة . » فما الذي يقصده ؟ وندّت منه ضحكة سيئة ؛ وقال في شكل من اختتام الحديث :
– على كل حال ، هذا ما يُسمّى « ترك المركز » .
– ولكن لم يكن لك مركز ؟
قال : – بل كنت قائد حاملة طائرات . (ودفع براحته اعتراضاً ممكناً) اعرف ان هذا مضحك ؛ وانا لم اقبل الا على إلحاح شامبوتوا. ولكن حتى هناك ، كان يمكنني ان اقدم خدمة . ثم انه كان علينا ان نكون قدوة .
وكانت تنظر اليه بلا ود : نعم ، نعم ، « نعم » كان عليك ان تبقى في باريس ، فلا تعتمد عليّ لأقول لك العكس . وتنهد :
– مهما يكن . ما حصل قد حصل . كان الامر يكون مريحاً اكثر مما ينبغي لو لم يكن لدينا الا واجبات متوافقة . (واضاف) انني أضجرك يا عزيزتي المسكينة . فهذه وساوس رجالية .
قالت : – احسب اني استطيع ان أفهمها .
– طبعاً ، يا صغيرتي ، طبعاً (وبسم بسمة رجولية متوحدة ثم أخذ معصمها وقال لها بصوت مطمئن) ولكن لنفكر : ماذا كان عساه يحدث لي ؟ في اسوأ الظروف كانوا ليأخذوا الرجـــال الأصحاء الى المانيا ، وبعد ذلك ؟ إن ماتيو هنـــاك . صحيح أنه ليس له قلبي

الملعون . ولكن تذكرين ، حين سرّحني ذلك الماجور الأبله ؟

— نعم .

— لقد كنت مجنوناً من الغضب ، وكنت مستعداً ان افعل اي شيء : اتذكرين ؟ اتذكرين كم كنت غاضباً ؟

— نعم .

وجلس على عتبة السيارة ، ووضع رأسه بين يديه ؛ وكان ينظر امامه باستقامة ؛ وقال وعيناه ثابتتان :

— لقد بقي شرفوز .

— ماذا ؟

— لقد بقي . التقيت به هذا الصباح في المرأب ، وقد بدت عليه الدهشة ان أرحل .

فقالت بآلية : — ولكن الامر معه يختلف .

قال في مرارة : — نعم . في الواقع . فهو عازب .

وكانت اوديت واقفة الى يساره ، تنظر الى جلدة رأسه التي كانت تلمع ، في اماكن ، تحت شعره ، وتفكر : هذا هو السبب إذن !

وكانت عيناه غائمتين . وقال بين أسنانه :

— لم يكن ثمة من أستودعه إياك .

فتصلبت :

— ماذا ؟

— اقول اني لم اكن استطيع ان استودعك احداً . ولو جرؤت على أنْ ادعك تذهبين وحدك الى بيت عمتك ...

فسألته بصوت مرتجف :

— أتعني انك انما رحلت بسببي ؟

فأجاب : — كانت هذه حالة ضميرية .

وكان ينظر اليها بشغف :

– في هـــذه الايام الأخيرة ، كنت ثائرة الأعصاب جداً : كنت تخيفيني .

وكانت بكماء من الذهول : ولكن لماذا يجب ؟ لماذا يعتقد نفسه مضطراً ؟

وكان يتابع بمرح يثير الأعصاب :

– كنت تبقين النوافذ مغلقة ، وكنا نعيش طوال النهار في الظلام ، وكنت تراكمين المعلبات ، وكنت امشي على عاب السردين .. وأظن بعد ذلك ان لوسيان كانت تسيء اليك كثيراً ، وحين كانت تخرج من بيتنا ، تتغيرين تماماً : لقد كانت شديدة الذعر ، وساذجة جداً ايضاً ، وتميل الى تصديق جميع قصص الاغتصاب والأيدي المقطوعة .

لا اريد . لا اريد ان اقول له ما يريد ان يحملني على قوله . فماذا يبقى لي في الدنيا اذا احتقرته ؟ وتراجعت خطوة الى الوراء ، وكان يحدد فيها نظراً فولاذياً ، ويبـــدو وكأنه يقول : « قوليها ، ولكن آن لك ان تقوليها ! » ومن جديد كان يشعر تحت هذا النظر النسري، هذا النظر الزوجي ، بأنه مذنب ، ربمـــا ظن بأنه كانت لي رغبة في الرحيل ، وربما كنت ابدو خائفة ، وربما كنت خائفة من غير ان ادري . فما هو الصحيح ؟ ان ما كان صحيحاً حتى الآن ، هو ما كان يقوله جاك ، فاذا كففت عن تصديقه ، فماذا أصدق ؟ وقالت وهي تخفض رأسها :

– ما كنت احب ان أبقي في باريس .

فسألها بطيبة : – هل كنت خائفة ؟

قالت : – نعم . كنت خائفة .

وحين رفعت رأسها ، كان ينظر اليها وهو يضحك ، وقال :

– كفى ! كل هـــذا ليس خطيراً : صحيح ان قضاء ليلة تحت ضوء القمر لا يناسب عمرنا بعد ، ولكننا ما نزال نجد في ذلك بعض

السحر . (وداعب رقبتها قليلاً) اتتذكرين « هيار » عام ٣٦ ؟ لقد نمنا تحت الخيمة ، وهذه من ذكرياتي الجميلة .

فلم تجب ، وكانت قد وضعت يدها على مقبض الباب تشده بكل قواها . وخنق تثاؤبة .

– ولكن اصبح الوقت متأخراً . اتريدين ان ننام ؟

فأومأت برأسها ايجاباً . وصاح حيوان ليلي ، فانفجر جاك ضاحكاً، وقال :

– إن هذا ريفي ! ادخلي الى السيارة (قالها بملاطفة) وتستطيعين ان تمدّي ساقيك قليلاً ، اما انا ، فسأنام على المقود .

ودخلا السيارة ، وأقفل بالمفتاح الباب الأيمن ، ودفع كاب الأيسر .

– هل انت مرتاحة ؟

– مرتاحة جداً.

وأخرج المسدس وتفحّصه في متعة ، وقال :

– هذا وضع كان يمكن ان يسحر جدّي القرصان (وأضاف بمرح) اننا كلنا في الاسرة لا نخلو من طبع القرصنة .

ولم تكن تقول شيئاً . والتفت من مقعده فأخذ بيده ذقنها :

– قبّليني يا حبيبتي .

وشعرت بفمه الحار المفتوح ينسحق على فمها ، ولحس قليلاً شفتيها كما كان يفعل في السابق ، فارتعشت ، وفي الوقت نفسه احست يداً تتسلل تحت إبطها وتداعب نهدها ، وقال بحنان :

– عزيزتي المسكينة اوديت ، عزيزتي الصغيرة .

وارتمت الى خلف . وقالت :

– انني اموت من النعاس .

قال باسماً : – تصبحين على خير ، يا حبيبتي .

وانفتل فشبك ذراعيـــه على المقود وترك رأسه يسقط على يديه .

وظلت هي جالسة ، مستقيمة الصدر ، منزعجة : كانت تترصده . زفرتان ، ليس هذا بعد . فهو ما يزال يتحرك . ولم تكن تستطيع ان تفكر بشيء ما دام ساهراً وفي رأسه هذه الصورة عنها ، لم تستطع قط ان تفكر بشيء ما دام بالقرب منهـــا . حسناً : لقد ارسل أناته الثلاث ، واسترخى قليلاً : فهو ليس بعد الا حيواناً . كان نائماً ، وكانت الحرب نائمة . وكان عالم البشر نائماً ، غارقاً في هذا الرأس ، المستقيم في الظلام ، بين النافذتين المغبرتين ، في جوف بحيرة قمرية . كانت اوديت ساهرة ، وعاود ذهنها انطباع قديم جداً ، كنت أعدو على درب صغير وردي ، وكنت في الثانية عشرة ، فتوقفت وقلبي يخفق بفرحة قلقة ، وقلت بصوت مرتفع : انني لازمة ولا غنى عني . ورددت : انني لازمة ولا غنى عني ، ولكنهـــا لم تكن تعرف لأي شيء ، وحاولت ان تفكر في الحرب ، وكان يخيل اليها انها ستجد الحقيقة : « أصحيح ان النصر لن يفيد الا روسيا ؟ » وسرعان ما تركت ، وانقلبت فرحتها الى اشمئزاز : انني لا اعرف من الأمر ما فيه الكفاية .

وأخذتها الرغبة في التدخين . ليست حقاً رغبة ، وانما هي عصبية. وانتفخت الرغبة وانتفخت ، فملأت نهديها . رغبةٌ حاسمةٌ وفاتحة ، كما كان يحـــدث في زمن طفولتها المتغطرسة ، لقد وضع العلبة في جيب سترته ، لماذا تراه يدخن بعد ؟ ان مذاق التبغ ذاك في فمه ، لا بد ان يكون مضجراً جـــداً ، اصطلاحياً جداً ، فلماذا تراه يدخن ولا أدخن ؟ وانحنت فوقه ، وكان يتنفس ، فدست يدها في جيبه ، وأخرجت السكاير ثم فتحت الباب على مهل وهي ترد الكلب ، وانسلت الى الخارج . ان القمر عبر الاوراق ، وبحيرات القمر على الطريق ، وهذه النسمة الرطبة ، وصرخة ذلك الحيوان . كل هذا لي انا . وأشعلت سيكارة ، ان الحرب تنام ، وبرلين تنام ، وموسكو ، وتشرشل ،

والمكتب السياسي ، ورجالنا السياسيون ينامون ، كل شيء ينام ، وليس ثمة من يرى ليلي ، انني لازمة ولا غنى عني ، والمعلمات كانت لجنودي الذين أهتم بهم في الحرب . ولاحظت فجأة انها كانت تحتقر التبغ ، وسحبت نفسين آخرين من سيكارتها ثم رمتها : انها لم تكن لتعرف لماذا شاءت ان تدخن . وكان حفيف الشجر ينبعث بعذوبة ، وكان الريف يقضقض كالأرض الخشبية . وقد كانت النجوم حيوانات : وكانت هي خائفة ، كان ينام ، وكانت هي قد وجدت ثانية عالم طفولتها المظلم ، غابة الاسئلة التي ليس لها أجوبة ، كان هو الذي يعرف اسماء النجوم ، والمسافة الدقيقة التي تفصل الأرض عن القمر ، وعدد سكان المنطقة ، وتاريخهم وشواغلهم ، هو ينام ، وانا احتقره ولا اعرف شيئاً ، وكانت تحس نفسها ضائعة في هذا العالم غير القابل للاستعمال ، في هذا العالم الذي « يُرى ويُلمس » . وهرعت الى السيارة ، وكانت تود ان توقظه على الفور ، ان توقظ « العلم » و « الصناعة » و « الاخلاق » . ووضعت يدها على المقبض ، وانحنت على الباب ، فرأت عبر الزجاج فماً كبيراً فاغراً . وقالت في نفسها : ما الفائدة ؟ وجلست على العتبة ، وأخذت ككل مساء ، تفكر في ماتيو .

كان الملازم يرقى السلم المظلم راكضاً ، وكانوا يركضون ويدورون حوله ، وتوقف في وضح الليل ، فدفع برقبته باب سقف ، فبهرهم ضوء فضي .

— اتبعوني .

فانبثقوا في السماء الباردة النيرة المليئة بالذكريات وبالأصوات الخفيفة . وقال صوت :

— ما هذا ؟

قال الملازم : — هذا أنا .

— انتبهوا !

قال : — استراحة .

وكانوا يجدون انفسهم فوق سطح مربع ، في رأس برج الأجراس. وكانت اربعة اعمدة تسند السقف ، لدى الزوايا الأربع . وبين الأعمدة كان يركض إفريز حجري بارتفاع متر تقريباً . وكانت السماء في كل مكان . وكان القمر يعكس على الارض الخشبية ظل عمـــود مائلاً . قال الملازم :

— هل الامور على ما يرام ، هنا ؟

— لا بأس ، يا سيدي الملازم .

وكان ثلاثة افراد يواجهونه : وكانوا ثلاثتهم طوالاً هزالاً يحملون البنادق . وكان ماتيو وبينيت واقفين خلف الملازم ، خائفين . وسأل احد الجنود الثلاثة :

— هل نبقى هنا ، يا سيدي الملازم ؟

قال الملازم : — نعم (وأضاف) لقد أقمت « كلاسون » واربعة افراد في دار البلدية ، اما البـــاقون فيحتلون المدرسة معي . وسيقوم درايير بعملية الاتصال .

— وما هي الاوامر ؟

— اطلاق النار كما تريدون . وباستطاعتكم تصفية الذخيرة .

— ما هذا ؟

نداءات مخنوقة ، وجرجرة اقدام : وكانت الاصوات صادرة عن الشارع . وابتسم الملازم :

— انهم فاتنـــو اركان الحرب الذين حبستهم في قبو البلدية . ان المكان ضيّق عليهم ، ولكن ذلك سيكون لليل فحسب : فغداً صباحاً ، يتسلمهم الالمان بعد ان يفرغوا منا .

ونظر ماتيو الى الجنود ، كان يشعر بالعار من أجل الرفاق ، ولكن الوجوه الثلاثة ظلت جامدة . وقال الملازم :

— آه ! في الساعة الحادية عشرة سيجتمع سكان القرية في الساحة، فلا تطلقوا عليهم النار . انني ارسلهم ليقضوا الليل في الغابات . وبعد مرورهم ، أطلقــوا النار على كل من يعبر الطريق . ولا تهبطوا لأية ذريعة : فاذا فعلتم ، اطلقنا نحن النار عليكم .

وتوجه نحو باب السقف . وكان الجنــود يحدجون ماتيو وبينيت في صمت .

قال ماتيو : — يا سيدي الملازم ...

فالتفت الملازم ، وقال :

— لقد نسيتكما . ان هذين يريدان ان يقاتلا (متوجهاً الى الآخرين) إن معهما بندقيتين ، وقد اعطيتهما جرابين للطلقات. فانظروا ما تفعلون بهما . فاذا أساءا اطلاق النار ، فاستردوا منهما الجرابين .

ونظر الى الجنود في صداقة .

— وداعا ايها الرفاق ، وداعا .

فقالوا بأدب : — وداعا يا سيدي الملازم .

وتردد لحظة وهو يهز رأسه ، ثم هبط درجات السلم متقهقراً، ورد دونه باب السقف . وكان الافراد الثلاثة ينظرون الى ماتيو وبينيت من غير فضول ولا ود . وقام ماتيو بخطوتين الى الخلف ، فاستند الى عمود . وكانت بندقيته تزعجه ؛ كان احياناً يحملها في كثير من اللامبالاة، وأحياناً اخرى يمسكها كشمعدان . وانتهى بأن أضجعها على الارض في حيطة . ولحق به بينيت ، وكــان كلاهمــا يولي القمر ظهره ، وعلى العكس ، كان الجنود الثلاثة في صميم النور . وكان الزبد الأسود نفسه يلطخ وجوههم الطبشورية ؛ وكان لهم نظر واحد يشبه نظر طيور الليل .

قال بينيت : – لكأننا في زيارة .

فابتسم ماتيو ، ولم يبتسم الافراد الثلاثة . واقترب بينيت من ماتيو وهمس :

– لا يبدو انهم يتقبلوننا تقبلاً حسناً .

قال ماتيو : – صحيح !

وسكتا منزعجين . ومال ماتيو ، فرأى تحته تموّج اشجار الكستناء. وقال بينيت :

– انني ذاهب للتحدث معهم .

– لا ، إلزم هدوءك .

وكان بينيت قد تقدم باتجاه الجنود :

– اسمي بينيت . اما رفيقي ، فهو دولارو .

وتوقف ينتظر . وأومأ اكبرهم برأسه ، ولكنهم لم يعرّفوا انفسهم. وتنحنح بينيت وقال :

– نحن هنا لنقاتل .

فظلوا على صمتهم ، وكزّ الطويل الاشقر وصرف رأسه . وتردد بينيت مرتبكاً .

– فأي عمل نعمله ؟

وكان الطويل الاشقر قد ارتد الى خلف يتثاءب . ورأى ماتيو انه كان « عريفاً » .

وكرر بينيت :

– اي عمل نعمله ؟

– لا شيء .

– كيف ، لا شيء ؟

– لا شيء ، الآن .

– وبعد ذلك ؟

ـ سنبلغكما .

وابتسم ماتيو لهم :

ـ اننا نبعصكم ، أليس كذلك ؟ انكم تفضلون ان تكونوا وحدكم.

ونظر اليه الاشقر الطويل بتفكر ، ثم التفت الى بينيت :

ـ ما مهنتك انت ؟

ـ موظف في المترو .

فضحك الكابورال ضحكة قصيرة ، ولكن عينيه لم تكونا تضحكان .

ـ أتحسب نفسك قد عدت مدنياً ؟ انتظر قليلاً .

ـ آه ! تعني : هنا ؟

ـ نعم .

ـ مراقب .

ـ وهو ؟

ـ على المخابرات التلفونية .

ـ مساعد ؟

ـ نعم .

فنظر اليه العريف في جهد ، كما لو انـه يجـد مشقة في تثبيت انتباهه عليه :

ـ ما الذي تشكوه ؟ يبدو عليك القوة والشدة ...

ـ القلب ...

ـ هل اطلقت النار في حياتك على رجال ؟

قال ماتيو : ـ ابداً .

فالتفت العريف نحو رفاقـه . وكانوا ثلاثتهم يهزون رأسهم . وقال بينيت بصوت مخنوق :

ـ سنبذل جهدنا للتصويب جيداً .

وحدثت لحظة صمت طويـلة . وكان العريف ينظر اليهم وهو يحك

رأسه . وأخيراً تنهد وبدا عليه انه صمّم . ونهض فقال بصوت اجش:
– إنني أُدعى كلابو . ويجب ان تطيعاني انا . اما الآخران فهما شاسيريو ودانديو ، وما عليكما ان تفعلا الا ما يقولانه لكما ، لأن خمسة عشر يوماً قد انقضت ونحن نقاتل ، فألفنا ذلك .
فردد بينيت غير مصدق :
– منذ خمسة عشر يوماً ؟ وكيف حدث ذلك ؟
فأجاب دانديو : – كنا نغطي انسحابكم .
فاحمر بينيت وخفض انفه . وأحس ماتيو بفكيه ينقبضان . وأوضح كلابو بلهجه اكثر مصالحة :
– مهمه تأخير .
وتبادلوا النظر من غير ان يقولوا شيئاً . وأحس ماتيو بالضيق ؛ وكان يفكر : « لن نكون ابداً منهم . لقد قاتلوا خمسة عشر يوماً متتالية ، وكنا نحن نهرب على الطرقات ، وسيكون الامر ايسر مما ينبغي اذا كان يكفي ان ننضم اليهم حين يطلقون الاسهم النارية النهائية. لن نكون ابداً منهم ، ابداً . ان الذين نمتّ اليهم هم تحت ، في القبو ، يأسنون في العار والشقاء ، ومكاننا بينهم ، وقد تخلينا عنهم في اللحظة الاخيرة بدافع الكبرياء . » وانحنى فرأى البيوت السوداء ، والطريق التي تلمع ؛ وكان يردد لنفسه : « ان مكاني هو تحت ، مكاني تحت . » وكان يعلم في صميم قلبه انه لن يستطيع بعد ان يهبط من جديد . وجلس بينيت راكباً الافريز ، ليمنح نفسه التماسك من غير شك .
وقال كلابو : – انزل من هنا ، فانك قد ترشدهم الينا .
– ان الالمان ما يزالون بعيدين !
– وما ادراك ؟ اقول لك ان تنزل .
فقفز بينيت على الارض الخشبية في استياء ، وفكر ماتيو: «انهم لن

يقبلونا ابداً . » وكان بينيت يزعجه : كان يتحرك ويتحدث حين كان ينبغي له ان يمحّي ويُمسك انفاسه ويجعل الناس ينسونه . وانتفض ماتيو : فقد انفجر في اذنه انفجار هائل ، ثقيل ودبق ، ثم انفجار آخر ، وثالث : صرخـات برونزية ، وكانت الارض الخشبية تهتز تحت قدميه . وضحك بينيت ضحكة عصبية :

– لا حاجة بك للخوف : انها الساعة تدق .

وألقى ماتيو نظرة على الجنود ، فلاحظ برضى انهم كانوا هم ايضاً قد انتفضوا مذعورين .

قال بينيت : – انها الساعة الحادية عشرة .

وارتعش ماتيو : كان يحس البرد ، ولكن ذلك لم يكن بلا لذة . كان عالياً جداً في السماء ، فوق السقوف ، وفوق الرجال ، وكان يشعر بالبرد ، وكان الظلام سائداً . « كلا ، لن انزل ثانيـة ، لن انزل بأي ثمن . »

– ها هم المدنيون يرحلون .

وانحنوا جميعاً فوق الافريز . ورأى حيوانات سوداء تتحرك تحت الاوراق ، فكأنها اعماق البحر تتحرك . وفي الشارع الكبير ، انفتحت ابواب ببطء ، وكار رجال ونساء واطفال ينسلّون الى الخارج ، وكان معظمهم يحملون حزماً او حقائب. وتشكّلت جماعات صغيرة في الشارع : وكان يبدو انهم ينتظرون . ثم ذابت الجماعات في موكب واحد تحرك ببطء نحو الجنوب .

قال بينيت : – لكنها جنازة !

قال ماتيو : – يا للمساكين!

فأجاب دانديو بجفاء :

– لا ترْثِ لهم . فسوف يعودون الى بلدهم . ونادراً ما يشعل الالمان النار في القرى .

قال ماتيو وهو يشير الى روبيرفيل :
— وتلك ؟
— ليس الامر سواء : فقد كان الفلاحون يطلقون النار معنا .
واخذ بينيت يضحك :
— لم يكن الامر اذاً كما هو هنا ! فكم كان الفلاحون هنا هادئين !
فنظر اليه دانديو :
— انكم لم تكونوا تقاتلون : واظن ان ليس على المدنيين ان يبدأوا.
فسأل بينيت في غضب :
— ومن هو المذنب ؟ من هو المذنب اذا لم نكن نقاتل ؟
— لا ادري .
— الضباط ! ان الضباط هم الذين خسروا الحرب .
قال كلابو : — لا تتحدث بالسوء عن الضباط . فليس لك الحق ان تتحدث عنهم بالسوء .
— ان هذا لا يزعجني .
قال كلابو بحزم : — لن تتحدث عنهم بالسوء امامنا . لأني سأقول لك : فباستثناء الملازم ، وهي ليست غلطته ، فان جميع ضباطنا بقوا .
وأراد بينيت ان يوضح رأيه ، فمد ذراعيه نحو كلابو ، ثم تركهما تسقطان ، وقال في ارهاق :
— اننا لا نستطيع ان نتفاهم .
وكان شاسيريو ينظر الى بينيت في فضول :
— ولكن لماذا اتيت الى هنا اذن ؟
— لقد جئنا لنقاتل ، كما قلت لك من قبل .
— ولكن لماذا ؟ انت لست مجبراً على ذلك .
وكان بينيت يقهقه بهيئة بليدة .
— هكذا ! لنتلوى من الضحك !
قال كلابو بلا عذوبة :

– حسناً ! ستتلويان من الضحك ! أؤكد لكما ذلك !

وكان دانديو يضحك اشفاقاً :

– اسمعهما : لقد جاءا يزوراننا ، ليتلويا من الضحك ، ليريا كيف يكون البارود ؛ وهما يريدان ان يتمرنا على اصابة المرمى ، كما في صيد الحمام . ثم انهما غير مجبرين حتى على ذلك !

فسأله بينيت : – وانت ، يا ابله ، من يجبرك على ان تقاتل ؟

– نحن ، ليس الامر مشابهاً : فاننا جنود مطاردة .

– يعني ؟

– لو كنتَ كذلك ، لقاتلت .

فهز رأسه :

– انت تتحدث كما لو انني سأطلق النار على الرجال لمجرد لذتي .

وكان شاسيريو ينظر الى بينيت في مزيج من الذهول والنفور :

– هل تدرك انك تجازف بروحك ؟

فهز بينيت كتفيه من غير ان يجيب . وتابع شاسيريو :

– اذا كنت مدركاً ذلك ، فانك اشد بلاهة مما يبدو عليك . فليس من سلامة الحسّ ان يجازف المرء بحياته اذا لم يكن مجبراً على ذلك .

قال ماتيو فجأة :

– كنا مجبرين على ذلك . كنا مجبرين . فقد كنا ضجرين ، ولم نكن نعرف ما ينبغي لنا ان نعمل .

وأشار الى المدرسة تحتهم .

– كان امامنا ان نختار بين برج الاجراس والقبو .

فبدا على دانديو الاهتمام ، وتقلصت ملامحه قليلاً . وتابع ماتيو :

– فما عساكم تفعلون ، لو كنتم في وضعنا ؟

ولم يكونوا يجيبون ، فألحّ قائلاً :

– ما عساكم تفعلون ؟

فهز دانديو رأسه :

– ربما كنت اختار القبو . فسترى : ان عملنا ليس بالطريف .

قال ماتيو : – صحيح ، ولكن ليس من الطريف ايضا ان نبقى في القبو حين يحارب الآخرون .

قال شاسيريو : – لا انكر ذلك .

وأقرّه دانديو : – نعم ، لن يشعر المرء في هذا الوضع بالاعتزاز.

وبدا عليهم انهم اصبحوا اقل عداء . وحدج كلابو بينيت في شيء من الدهشة ، ثم انتقــل واقترب من الافريز . وامّحت قسوة نظره المحمومة ، وكانت هيئته مبهمة عذبة ، وكان ينظر بابهام الى الليل العذب ، والريف الطفولي الاسطوري ، ولم يكن ماتيو يعرف اذا كانت عذوبة الليل هي التي تنعكس على هذا الوجه ، ام ان وحدة هذا الجو هي التي تنعكس على ذلك الليل .

قال دانديو : – هو ! كلابو !

فاستقام كلابو واستعاد هيئة الاخصائي الجادة :

– ماذا تريد ؟

– اريد ان اقوم بجولة في الغرفة التحتية : فقد رأيت فيها شيئاً ما.

– اذهب .

واذ كان دانديو يرفع باب السقف ، صعد اليهم صوت امرأة :

– هنري ! هنري !

وأطل ماتيو على الشارع . فكان ثمة متخلّفون يعدون في كل اتجاه، كأنهم نملٌ مجنون ؛ ورأى في الشارع ، بالقرب من البريد ، طيفا صغيراً :

– هنري !

فاسود وجه بينيت ولكنه لم يقل شيئا . وكان ثمة نساء يمسكن بذراع

عاملة البريد ويحاولن أن يجررنها . ولكنها كانت تتخبط وهي تصيح :

ــ هنري ! هنري !

وتحللت منهن ، ثم ارتمت داخل قاعة البريد ، واغلقت الباب دونها ، وقال بينيت بين اسنانه :

ــ إن هذا لبلاهة !

وكان يحك اظافره بحجر الافريز :

ــ يجب ان تذهب مع الآخرين .

قال ماتيو : ــ صحيح .

ــ وإلا أصيبت بشر .

ــ من المسؤول عن ذلك ؟

فلم يجب . وارتفع باب السقف :

ــ ساعدوني .

فردوا الباب الى خلف ، وانبثق دانديو من الظل ؛ وكان يحمل على ظهره فراشين .

ــ لقد وجدت هذا .

فابتسم كلابو للمرة الاولى : وكان يبدو على هيئته ابتهاج ، وقال :

ــ اننا محظوظون .

وسأل ماتيو : ــ ماذا تريدون ان تفعلوا بهذا ؟

فنظر اليه كلابو في دهشة :

ــ لأي شيء يستعمل هذا ، في رأيك ؟ لإخفاء الجواهر ؟

ــ هل تراكم ستنامون ؟

قال شاسيريو : ــ سنكسر الصفرة اولاً .

ونظر اليهم ماتيو ينشغلون حول الفراشين ، ويخرجون من قربهم علبا من لحم القرد : اتراهم لا يدركون انهم سيموتون ؟ وكان شاسيريو قد عثر على مفتاح علب ، ففتح ثلاث علب بحركات سريعة

ودقيقة ، ثم جلسوا وسحبوا مُداهم من جيوبهم .

والقى كلابو نظرة الى ماتيو ، من فوق كتفه ، وسأل :

– هل انتما جائعان ؟

وكان قد انقضى يومان لم يأكل ماتيو فيهما شيئا ؛ وكان اللعاب يملأ فمه . فقال :

– انا ؟ كلا .

– ورفيقك ؟

فلم يجب بينيت . كان مطلاً من فوق الافريز ينظر الى بناية البريد. قال كلابو :

– هيا ، كُلا : فليس الطعام هو ما ينقصنا .

قال شاسيريو : – ان من يقاتل يحق له ان يأكل .

وفتش دانديو في قربة ، فأخرج منها علبتين مدّهما لماتيو . وتناولهما ماتيو وضرب على كتف بينيت ، فانتفض بينيت :

– ماذا تريد ؟

– هذا لك : كل !

وأخذ ماتيو مفتاح العلب الذي مدّه له دانديو ، فأسنده على حافة العلبة وشد بكل قواه ؛ ولكن الشفرة انزلقت من غير ان تعض ، وقفزت خارج الخط فأتت تصدم ابهامه الايسر .

وقال بينيت : – كم انت عادم الحذق ! هل آذيت نفسك ؟

قال ماتيو : – لا .

– هاته .

وفتح بينيت العلبتين ، واخذا يأكلان في صمت ، بالقرب من من عمود : ولم يكونا قد جرؤا على الجلوس . وكانا يحفران بمديتهما في لحم القرد ، ويعلّقان القطع على رأس الشفرتين . وكان ماتيو يمضغ باهتمام ، ولكن حنجرته كانت مشلولة : انه لم يكن يحس طعم اللحم ،

وكان يشق عليه ان يبتلع . وكان الجنود الثلاثة جالسين على الفراشين، منحنين فوق طعامهم بهيئة مجدة ؛ وكانت مداهم تبرق تحت ضوء القمر.

وقال شاسبريو حالماً :

— لذيذ ان نأكل في برج كنيسة .

في برج كنيسة . وخفض ماتيو عينيه . كانت تحت أقدامهم رائحة البهار والبخور تلك ، وهذه الرطوبة ، وذلك الزجاج المقطع الذي كان يلمع لمعاناً خفيفاً في ظلام الايمان . كان تحت اقدامهم الثقة والأمل . وكان يشعر بالبرد ، وكان يرى السماء ، ويتنشق السماء ، وكان يفكر تفكيراً ممزوجاً بالسماء ، كان عارياً على كومة جليد ، في الأعـــالي ؛ وبعيداً جداً تحته ، كانت طفولته .

وكان كلابو قد قلب رأسه ، وكان يأكـــل وهو ينظر الى السماء. وقال بصوت منخفض :

— انظر الى القمر .

قال شاسبريو : — ما به ؟

— أليس هو اليوم اكبر من العادة ؟

— كلا .

— آه ! انني أجده اكبر من العادة .

وخفض عينيه فجأة :

— تعالا فكلا معنا : إن المرء لا يأكل واقفاً .

فتردد ماتيو وبينيت . قال كلابو :

— هيا ! هيا !

قال ماتيو لبينيت : — تعال !

وجلسا ؛ وكان ماتيو يشعر بحرارة كلابو ازاء خاصرته . وكانوا صامتين : كانت هذه آخر وجبة لهم ، وكانت مقدسة .

وقال دانديو : — عندنا «روم» ولكنه غير كثير : جرعة واحدة لكل انسان .

وأمرّوا تنكة ، ووضع كل منهم شفتيه حيث شرب الآخرون .

وانحنى بينيت على ماتيو .

ــ أظنّ انهم تبنّونا .

ــ نعم .

ــ ليسوا جماعة سيئين . إنني أحتملهم جيداً .

ــ وانا ايضاً .

واستقام بينيت في انتفاضة كبرياء ، وكانت عيناه تلتمعان .

ــ كنا نكون شبيهين بهم ؛ لو كان لنا قائد .

ونظر ماتيو الى وجوههم الثلاثة وهز رأسه .

ــ أليس صحيحاً ما أقول ؟

قال ماتيو : ــ ربما .

وكانت قد مضت لحظة على بينيت وهــو ينظر الى يدي ماتيو ؛ وانتهى بان لامس مرفقه :

ــ ما بك ؟ انك تنزف ؟

فأخفض ماتيو عينيه على يديه : كان قــد جرح ابهامه الايسر . وقال :

ــ آه ، لا بدّ ان ذلك حدث بمفتاح العلب ، منذ لحظة .

ــ وتركته ينزف ، ايها الثقيل ؟

قال ماتيو : ــ لم أحسّ بشيء .

فقال بينيت بلهجة توبيخ وافتتان :

ــ آه ! ما عساك كنت تفعل ، لو لم أكن هنا !

وكان ماتيو ينظر الى ابهامه ، دهشاً ان يكون له جسم : انه لم يكن يشعر بعــد بشيء ، لا بطعم اللحم ، ولا بطعم الخمر ، ولا بالألم ، كنت أحسبني من ثلج . وضحك .

ــ ذات مرة ، كان معي مدية في مرقص ..

وتوقف . وكان بينيت ينظر اليه في دهشة :

ـ وماذا حدث ؟

ـ لا شيء . لاحظ لي مع الآلات القاصة .

قال كلابو : ـ هات يدك .

وكان قد اخرج من رزمته ملفاً من الشاش وزجاجة زرقاء .وسكب المائع المحرق على ابهام ماتيو ولفه بالشاش . وحرك ماتيو الدمية وتأملها مبتسماً : هذه العناية كلها للحؤول دون ان يسيل الدم قبل الاوان .

قال كلابو : ـ هكذا !

قال ماتيو : ـ هكذا !

واستشار كلابو ساعته :

ـ الى الفراش ، ايها الرفاق : سيحل منتصف الليل .

وأحاطوا به ، فقال وهو يلفت نظر دانديو الى ماتيو :

ـ ستقوم بالحراسة معه يا دانديو .

ـ حسناً .

وتمدد شاسبريو وبينيت وكلابو جنباً الى جنب على الفراشين . وأخرج دانديو غطاء من رزمته فألقاه على أجسامهم الثلاثة . وتمطى بينيت بشهوة ، وغمز ماتيو غمزة خبيثة وأسبل جفنيه .

وقال دانديو : ـ انا احرس من هنا ، وانت من هناك . فاذا سمعت طلقات ، فلا تفعل شيئاً قبل ان تخبرني .

ومضى ماتيو الى ركنه فاستعرض الريف بعينيه ؛ وكان يفكر بأنه سيموت ، فيبدو له ذلك طريفاً . كان ينظر الى السقوف المظلمة ، وتلألؤ الطريق بين الأشجار الزرقاء وكل هذه الأرض الفخمة غير المسكونة ويفكر : انني اموت من اجل لا شيء . وانبعث شخير ناعم فجعله ينتفض ، والتفت : فاذا النوم قد استغرق الافراد ؛ وكان

كلابو يبتسم للملائكة ، مغمض العينين ، منتعش الشباب ؛ وكان بينيت يبتسم ايضاً . وانحنى ماتيو فوقه ونظر اليه طويلا ؛ وكان يفكر : « يا للخسارة ! » . وفي الجهة المقابلة من السطيحة ، كان داندبو قد انحنى الى امام ، ويداه على مؤخرته ، في وضع حارس مرمى . وقال ماتيو بصوت منخفض :

– هيه !

– هيه !

– أكنت حارس مرمى ؟

فالتفت اليه داندبو مندهشاً :

– وما ادراك بذلك ؟

– هذا واضح .

وأضاف :

– وهل كنتَ موفقاً ؟

– مع بعض الحظ ، كنت سأصبح محترفاً .

وتبادلا تحية صغيرة باليد ، وعاد ماتيو الى مركزه . وكان يفكر : سأموت من أجل لا شيء . وأخذته الشفقة على نفسه . وذات لحظة ، أصدت ذكرياته كاوراق الشجر تحت الريح . جميع ذكرياته : كنت أحب الحياة . وكان سؤال حائر يكمن في جوف حلقه : أكنت على حقّ بأن اترك الرفاق ؟ واستقام . فاستند بكلتا يديه على الافريز ، وهزّ رأسه في غضب « كفى ، كفى ! هم وشأنهم اولئك ، هم وشأنهم ، الجميع . لقد انتهى الندم ، والتحفظات ، والتقييدات : ليس هناك من هو قاضيّ ، فليس ثمة من يفكر بي ، ولن يكون هناك من يتذكرني ، ولا يستطيع أحد ان يقرر بدلاً مني . » وقرر بلا ندم ، واعياً كل الوعي . لقد قرر ، وفي اللحظة نفسها ، تدحرج قلبه الموسوس المشفق من غصن الى غصن ؛ ولم يبق ثمة قلب

بعد : لقد انتهى . انني اقرر ان الموت كان المعنى السّري لحياتي ، وانني عشت لأموت ؛ انني اموت لأشهد بان من المستحيل ان يعيش الانسان ؛ وسوف تطفيء عيناي العالم وتغلقانه الى الأبد .

وكانت الأرض ترفع نحو هذا المقبل على الموت وجهها المقلوب ، وكانت السماء المقلوبة تسيل عَبْره بكل نجومها : ولكن ماتيو كان يترصّد ، من غير ان يتنازل لالتقاط هذه الهدايا اللامجدية .

الثلاثاء ١٨ حزيران ، الساعة ٥,٤٥

– لولا !

وأفاقت على اشمئزاز ، ككل صباح ، وعادت تقيم ككل صباح في جسمها القديم الفاسد .

– لولا ، هل تنامين ؟

قالت : – لا . كم هي الساعة ؟

– الخامسة وخمس واربعون .

– الخامسة وخمس واربعون ؟ وقد أفاق سارقي الصغير ؟ لقد غيّروه لي .

قال : – تعالي .

ففكرت « لا . لا اريد ان يلمسني »

– بوريس ...

ان جسمي يثير اشمئزازي ، فاذا لم يكن يثير اشمئزازك ، فهذا تدجيل ؛ انه فاسد ، وانت لا تعرف ذلك ، ولو كنت تعرفه لآثار نفورك .

– بوريس ، انني متعبة .

ولكنه كان قد أمسك بها من كتفيها ؛ وكان يثقل عليها . انك

انما « سوف تدخل في جرح » . حين كان يلمسني ، كنت أصبح مخملاً . اما الآن ، فان جسمي تراب جافّ ؛ وتحت أصابعه أتصدّع وأتفتت ؛ انه يدغدغني . كان يمزقها حتى أعماق بطنها ، وكان يحرك في بطنها ما يشبه السكين ، وكان يبدو وحيداً ذا هوس ، حشرة ، ذبابة تصعد زجاجاً فتسقط ثم تصعد ثانية . ولم تكن تُحس، إلاّ الوجع ؛ إنه يلهث ، وهو غارق في العرق ، انه يكابد اللذة ؛ في دمي يكابد لذته ، في ألمي . وفكرت : طبعاً ، انقضت ستة أشهر عليه بلا امرأة ؛ وهو الآن يضاجع كجندي في ماخور . وتحرك فيها شيء ما ، خفق أجنحة ، ولكن لا : لا شيء . والتصق بها ، وكان نهداها وحدهما يتحركان ، ثم ابتعد فجأة ، فأحدث نهدا لولا صوت محجم يُنزع عن اللحم ؛ وأخذتها الرغبة بان تضحك ، ولكنها نظرت الى وجه بوريس فزالت الرغبة ؛ وكان قد اتخذ هيئة قاسية متوترة ، إنه يضاجع كما يثمل المرء ، فلا شك في انه يريد ان ينسى شيئاً ما . وانتهى بان تداعى للسقوط عليها ، نصف ميت ، ولامست رقبته وشعره بآلية ؛ كانت باردة وهادئة ، ولكنها كانت تشعر بخفقات جرس كبيرة تصعد سريعة من بطنها الى صدرها : لقد كان ذلك قلب بوريس يخفق فيها . اني مسنة اكثر مما ينبغي ، مسنة جداً . وبدت لها هذه الرياضة الجسدية غريبة مضحكة ، فدفعته عنها على مهل .

— انسحب مني .

— ماذا ؟

وكان قد رفع رأسه ينظر اليها باندهاش ، فقالت :

— بسبب قلبي . انه يخفق أقوى مما يجب ، وانت تخنقني .

وبسم لها ، وانزلق عنها ، وظلّ نائماً على بطنه ، وجبينه في الوسادة ، وعيناه مغمضتان ، وفي زاوية فمه ثنية غريبة . وتحاملت على مرفقها فنظرت اليه ، فاذا هيئته من شدة الألفة والاعتياد بحيث لم تكن

تستطيع بعد ان تراقبه . ليس إكثر مما لو كان يدها بالذات ، انني لم احسّ شيئاً . أمس ، حين ظهر في الباحة ، جميلا كفتـــاة ، لم أحس شيئاً ، حتى ولا ذلك المذاق من الحمى في فمي ، حتى ولا ذلك الثقل الكثيف في بطني : كانت تنظر الى هذا الرأس الذي تألفه ألفة مفرطة وتفكر : انني وحيـــدة . يا للرأس الصغير ، الرأس الصغير الذي كانت تتدحرج فيه غالباً اسرار مرائية ، كم أخذته بين يديهـــا وضمته ؛ كانت تتهالك ، وتسأل ، وتبتهل ، وكانت تود لو تفتحه كرمانة وتلحس ما كان في داخله ؛ وفي النهاية ، كان السر يفلت ، فلا يكون ، كما في الرمّان ، الا بعض ماء مسكر . كانت تنظر اليه في حقد ، وكانت تأخذ عليه انه لم يُحسن إثارتها ، وكانت تنظر الى ثنية فمه المريرة : اذا فقد مرحه ، فماذا يبقى له ؟ وفتح بوريس عينيه فبسم لها :

— كم انا مسرور ان تكوني هنا ، ايتها العجوز المجنونة .

فبادلته بسمته : انا الآن من يكنُّ سراً ، وبوسعك ان تحاول ان تحملني عـــلى البوح به . ونهض فدفع الغطاء ونظر الى جسم لولا في تنبُّه ؛ ولامس نهديها بيد خفيفة ، فكانت تشعر بالانزعاج .

وقال : — عاج .

وفكرت في الحيوان القذر الذي كان يتكاثر في ليل لحمها ، فصعد الدم الى رأسها .

وقال بوريس : — انني فخور بك .

— لماذا ؟

— هكذا ! لقد جعلتُ الافراد ، في المستشفى ، ينقلبون على أقفيتهم.

فضحكت لولا ضحكة صغيرة :

— ألم يسألوك عما عساك تفعل مع هذه العجوز ؟ ألم يظنُّوني أمك ؟

فقال بوريس معاتباً : — لولا ...

وضحك ، وقد أجذلته ذكرى ، فعادت الفتوة تفيض على وجهه .

— ما الذي يضحكك ؟

— انه فرانسيون . فان صاحبته مكونة تكويناً رائعاً ، وهي لما تبلغ الثامنة عشرة ؛ ومع ذلك ، فقد قال لي : اذا اردت ، قمتُ بالمبادلة على الفور .

قالت لولا : — انه مؤدب جداً .

وتسللت فكرة ، كالغيمة ، على وجه بوريس ، فاسودّت عيناه ؛ وكانت تنظر اليه من غير ودّ : طبعاً ، طبعــاً ، إن لك همومك كجميـع الناس . لو كنت أطلعه على همومي : فماذا يفعل ؟ ما عساك تفعل لو قلت لك : « ان في رحمي دمّلاً ، ويجب ان اجري عملية ؛ وقد تكون نتيجة ذلك ، بالنظر لعمري ، سيئة جداً . » إنك إذن ستفتح عينيك البغيتين ؛ وتقول لي : « هذا غير صحيـح ! » فأقول لك بلى ، فتقول ان هذا غير ممكن ، وان ذلك يُشفى جيداً بالعقاقير ، والأشعة ، وأنني واهمة . وسأقول لك : انني لم أعد الى باريس من أجل المال ، وانما من اجل استشارة « لوغوبيل » وقد كان قاطعاً . » فتقول لي ان «لوغوبيل» حمار ، وليس هو الشخص الذي كان ينبغي ان أتوجه اليه : وسوف تنكر وتحتج وتحرك رأسك بهيئة من هو مطارد ، ثم ينتهي بك الأمر الى السكوت ، على ضيق شديد ، وستنظر إليّ بعينين مكروثتين طافحتين بالحقد . ورفعت ذراعها العارية وأمسكت بوريس من شعره :

— هيا ؟ ايها الدجال الصغير ! لِدْ ! قل لي ما الذي تشكوه .

فقال بلهجة مزيفه : — كل شيء على ما يرام .

— انك تدهشني . فليس من عادتك ان تستيقظ في الخامسة صباحاً .

فردّد بلا اقتناع :

— كل شيء على ما يرام .

— ارى ذلك . ان عندك ما تقوله لي ، ولكنك تريد ان أحملك على ان تلد .

فابتسم ووضع رأسه في إبط لولا ، فتشممه وقال :

— إن رائحتك لذيذة .

فهزّت كتفيها :

— وإذن ؟ هل تتكلم ام لا تتكلم ؟

فهزّ رأسه مسحوقاً . وصمتت ، واستلقت بدورها على ظهرها : حسناً ، لا تتكلم! فما عسى ذلك ان ينفعني ؟ إنه يحدثني ، ويضاجعني ولكني سأموت وحيدة . وسمعت بوريس يتنهد ، فأدارت رأسها اليه . وكان له فم حزين قاس لم تكن تعهدُه فيه . وفكرت بلا حماسة : « حسناً سأهتم بأمرك . » كان لا بـــدّ من سؤاله ، وترصّده ، وتفسير هيئاته ، كما في العهد الذي كانت تغار فيه ، واجهـــاد نفسها لتحمله على ان يعترف اخيراً بما كان يموت رغبة للاعتراف به وجلست :

— حسناً ! أعطني الروبديشامبر وسيجارة .

— ولماذا الروبديشامبر ؟ انت هكذا أفضل .

— أعطني الروبديشامبر . انني أشعر بالبرد .

فنهض ، أسمر عارياً ، وأدار عينيه ، وتناول الروبديشامبر عند قدم السرير فمدّه لها ، فارتدته : وتردّد لحظة ، ثم انزلق في بنطاله وجلس على كرسي .

وسألته : — هل وجدت عذراء ، وتريد ان تتزوج ؟

فنظر اليها بانشداه شديد ، حتى انها احمرت وقالت :

— حسناً ، لحسناً .

وساد صمت قصير ، ثم استطردت :

— ما الذي تنوي ان تفعله إذن ، حين يسرحونك ؟

قال ـ أتزوجك .
فتناولت سيكارة وأشعلتها ، وسألته :
ـ ولماذا ؟
ـ يجب ان أكون محترماً . وليس بوسعي ان آخذك الى كاستيلنوداري اذا لم تكوني زوجتي .
ـ وماذا انت ذاهب تفعل في كاستيلنوداري ؟
فقال في قسوة : ـ أكسب معيشتي . كلا ، بلا مزاح : سأكون استاذاً في كلية .
ـ ولكن لماذا في كاستيلنوداري ؟
قال : ـ سترين ، سترين . ستكون كاستيلنوداري .
ـ وهل تعني انني سأدعى السيدة سرغين ، وسأضع قبعة لأذهب فأرى زوجة مدير المدرسة ؟
قال بوريس : ـ إنه يدعى رئيساً . نعم . هذا ما ستفعلينه . وأنا سألقي في آخر العام خطاب حفلة توزيع الجوائز .
فقالت لولا : ـ هكذا !
قال بوريس :ـ وستأتي ايفيش فتعيش معنا .
ـ انها لا تستطيع ان تطيقني .
ـ صحيح ، ولكن هذا هو الوضع .
ـ وهي التي تريد ؟
ـ نعم . انها مبعوصة جداً لدى أهل زوجها ، وهي تكاد تجنّ معهم ، حتى انك ستنكرينها اذ ترينها .
وساد صمت . وكانت لولا تراقبه من طرف عينها . وسألته :
ـ وهل رتّبتَ كل شيء ؟
ـ نعم .
ـ واذا كان ذلك لا يروق لي ؟

قال : — اوه ، لولا ، فكيف تريدين ؟

قالت لولا : — لأنك تفكر طبعاً بأنني سأكون دائماً مسرورة لمجرد ان أعيش معك .

وحسبت شعاعاً يضيء في عيني بوريس ؛ وسألها بوريس :

— أليس ذلك صحيحاً ؟

قالت : — بلى ، صحيح . ولكنك دجّال صغير ، وانت تبالغ في الثقة بمفاتنك .

وانطفأ الشعاع ؛ كان ينظر الى ركبتيه ، وكانت لولا ترى فكيه يتحركان .

وسألته : — وهل تروقك ، تلك الحياة ؟

فقال بوريس بأنس : — سأكون دائماً مسروراً اذا استطعت ان اعيش معك .

— كنت تقول انك تستفظع ان تكون استاذاً .

— ماذا تريدين ان افعل غير ذلك ، الآن ؟ (واضاف) سأشرح لك الأمر : حين كنت اقاتل ، لم اكن أطرح على نفسي الأسئلة . غير انني اتساءل الآن لأي شيء خلقت ؟

— كنت تريد ان تكتب .

— انني لم افكر بذلك قط بصورة جدية : فليس لديّ ما أقوله . انت تدركين ، كنت احسب اني سأبقى في الميدان ، فأخذتُ على حين غرّة .

فنظرت اليه لولا بتنبه :

— ايؤسفك ان تكون الحرب قد انتهت ؟

قال بوريس : — انها لم تنته . فالانكليز يقاتلون ، وقبل مضي ستة أشهر سيدخل الاميركيون الحلبة .

— على كل حال ، انتهت بالنسبة اليك .

قال بوريس : — بالنسبة لي ، نعم .
وكانت لولا ما تزال تنظر اليه . وقالت :
— بالنسبة لي ، ولجميع الفرنسيين .
فقال في حماسة :
— لا بالنسبة للجميع ! إن هناك من هم في انكلترا ، وسيحاربون حتى النهاية .
قالت لولا : — فهمت .
وسحبت نفساً من سيكارتها وألقت بالعقب على الأرض الخشبية . وقالت بلطف :
— هل تملك الوسائل للسفر الى هناك ؟
فقال بوريس بلهجة اعجاب وعرفان :
— اوه ، لولا ! نعم ، نعم . املك الوسائل .
— اية وسائل ؟
— طائرة ؟
فرددت من غير ان تفهم :
— طائرة ؟
— بالقرب من مارينيان . هناك مطار صغير خاص ، بين تلتين . وقد حطت فيه طائرة عسكرية منـــذ خمسة عشر يومـــاً ، لأنها كانت مضطرة . وقد أصلحت الآن .
— لكنك لست طياراً .
— عندي اصدقاء طيارون .
— اي اصدقاء ؟
— هناك فرانسيون : الشخص الذي قدمته لك . ثم غابيل ، وتيراس .
— وقد اقترحوا عليك أن تذهب معهم ؟
— نعم .

ـ وماذا قلت ؟

فقال بسرعة : ـ لقد رفضت .

ـ صحيح ؟ الم تقبل بكل رضى وانت تقول لنفسك : سأمهد للعجوز قليلا قليلا ؟

قال : ـ لا .

وكان ينظر اليها بحنو . وكان نادراً ان يظهر بهساتين العينين المائعتين تقريباً : في الماضي ، كنت مستعدة لقتل نفسي من أجل نظرة كهذه .

وقال : ـ انت امرأة عجوز ومجنونة . ولكني لا أستطيع ان اتركك : فلن ترتكبي الا الحماقات اذا لم أكن هنا لأحملك على السير باستقامة .

قالت لولا : ـ وإذن ؟ متى نتزوج ؟

فقال بلامبالاة : ـ متى شئت . المهم ان نكون متزوجين عند بدء الفصل الدراسي .

ـ بدء فصل الدراسي في ايلول ؟

ـ كلا : في تشرين الاول .

قالت : ـ حسناً . ان لدينا متسعاً من الوقت .

ونهضت وأخذت تذرع الغرفة . وكان على الارض الخشبية أعقاب ملطخة بالأحمر : وكان بوريس قد انحنى ليلمّها بهيئة بلهاء . وسألته :

ـ متى يسافر رفاقك ؟

وكان بوريس يصفّ الأعقاب بعناية على بلاط طاولة الليل ، فقال من غير ان يلتفت :

ـ غداً مساء .

قالت : ـ أبهذه السرعة ؟

– نعم : يجب ان يعجلوا .

– بهذه السرعة !

ومشت حتى بلغت النافذة ففتحتها : وكانت تنظر الى سواري قوارب الصيد المهتزة ، والى الارصفة الخالية ، والى السماء الوردية وتفكر : غداً مساء . وكان ثمة قلس واحد بعد ينبغي ان يقطع ، قلس واحد . وحين يقطع القلس ، سوف تلتفت ، وفكرت : فليكن غـــداً مساء بدلاً من يوم آخر . وكان الماء يحرك بهدوء موجاته الفجرية ، وسمعت لولا في البعيد صفارة سفينة ، وحين احست انها أصبحت حرة تماماً ، التفت اليه ، وقالت :

– اذا اردت ان تذهب ، فلست انا التي أحول بينك وبين ذلك .

وكانت العبارة قد خرجت بمشقة وجهد ، ولكن لولا كانت تشعر الآن بالفراغ والعزاء . كانت تنظر الى بوريس ، وتفكر ، من غير ن تعرف السبب : يا للفتى المسكين ، يـــا للفتى المسكين ، وكان بوريس قد نهض فجأة ، فأقبل عليها وأمسك بذراعها :

– لولا .

قالت : – انك توجعني .

فتركها : ولكنه كان ينظر اليها نظرة ارتياب .

– إن ذلك لن يعود عليك بالهم ؟

فقالت بصوت متعقل : – بلى ، سيشق علي ذلك ، ولكني افضل ذلك على ان تكون استاذاً في كاستيلنوداري .

فبدا مطمئناً بعض الاطمئنان ، وسألها :

– انت ايضاً ، لا تستطيعين ان تعيشي فيها ؟

قالت : – نعم . انا ايضاً لا أستطيع .

وكان يحني كتفيه ويتهالك بذراعيه ؛ للمرة الاولى في حياته ، كان يبدو مرتبكاً بجسمه . وحمدت له لولا ان لا يظهر فرحه . وقال :

ـ لولا !

ومد يده فأراحها علي كتف لولا ، فكانت بها رغبة لأن تنزع هذه اليد عن كتفها ، ولكنها تمالكت نفسها . كانت تحس بثقل يده، وبأنه كفَّ عن ان يكون لها ، فقد كان في انكلترا الآن، وقد ماتا ، كل من جهته .

وقال بصوت راجف :

ـ لقد سبق ان رفضت ، لو تعلمين ، لقد رفضت ،

ـ أعرف ذلك .

قال : ـ انني لن اخونك . لن انام مع أحد .

فابتسمت :

ـ يا لصغيري المسكين !

وكان وجوده في تلك اللحظة « زائداً عن اللزوم » . فقد كانت تود لو تكون الآن في مساء اليوم التالي . وضرب جبينه فجأة :

ـ خراء !

فسألته : ـ ماذا هناك بعد ؟

ـ انني لن اذهب ! لا استطيع ان اذهب !

ـ لماذا ؟

ـ ايفيش ! لقد قلت لك انها كانت تريد ان تعيش معنا .

فقالت لولا غاضبة : ـ اسمع يا بوريس ! اذا لم تبق من أجلي ، فأمنعك ان تبقى من أجل ايفيش .

ولكن ذلك كان غضباً « سابقاً » ما لبث ان انطفأ . وقالت :

ـ سأهتم بأمر ايفيش .

ـ أتأخذينها معك ؟

ـ ولِمَ لا ؟

ـ ولكن احداكما لا تطيق الأخرى .

قالت لولا : ــ وماذا يمكن لذلك ان يُنتج ؟
وكانت تحس بتعب فظيع ، فقالت :
ــ ارتد ثيابك ونم ، فسوف تُلحق بنفسك الأذى .
وتناول منشفة واخذ يدلك صدره . وكان يبدو مشدوهاً . وفكرت : هذا طريف : لقد قرر الآن حياته كلها . وجلست على السرير ، وكان يدلك نفسه بقوة ، ولكنه ظل متجهماً . وسألته :
ــ ماذا هناك بعد ؟
قال : ــ كل شيء على ما يرام . ولكن كم نزفت من العرق !
ونهضت على مشقة ، فأمسكته من خصلته ورفعت له رأسه :
ــ انظر إلي ؛ ماذا هناك بعد ؟
فصرف بوريس عينيه :
ــ انني أجدك غريبة .
ــ لماذا غريبة ؟
ــ لا اراك غاضبة لذهابي كما كنت أتوقع . وهذا ما يصدمني !
فرددت لولا : ــ هذا ما يصدمك ؟ هذا ما يصدمك ؟
وانفجرت ضاحكة .

دمدم ماتيو وجلس ، ثم حكّ رأسه . وكان ديك يغني ، وكانت الشمس حارة جذلة ، ولكنها كانت ما تزال منخفضة .
قال ماتيو : ــ الطقس جميل .
فلم يجب احد : كانوا جميعاً راكعين وراء الافريز . ونظر ماتيو الى ساعته فرأى انها كانت السادسة : وسمع هديراً بعيداً ومتعدداً ، فركع على ركبتيه وانضم للرفاق :
ــ ما هذا ؟ طائرة ؟

– لا : انهم هم ، فرقة المشاة الآلية .
فارتفع ماتيو فوق اكتافهم ، فقال كلابو :
– حذار ! تخفَّ جيداً ، فان معهم مناظير .
وكانت الطريق ، على بعد مئتي متر قبل البيوت ، تنعطف نحو الغرب ، وتختفي خلف رابية معشبة ، وتنساب بين ابنية المطحنة العالية التي كانت تقنّعها ، لتأتي فتحاذي القرية بشكل مائل ، في اتجاه الجنوب الغربي . ورأى ماتيو ، في البعيد البعيد ، سيارات كانت تبدو ثابتة ، ففكر : « انهم الالمان ! » واصابه الخوف، خوف غريب ، يكاد يكون دينيا ، نوع من الرعب المقدس . كانت الاف العيون الاجنبية تلتهم القرية ، عيون رجال فوق الرجال ، وحشرات . وغمرت ماتيو بدهية فظيعة :
« سوف يرون » جثتي .
وقال بالرغم عنه :
– سيكونون هنا بعد دقيقة .
فلم يجيبوا . وبعد لحظة ، قال دانديو بصوت ثقيل بطيء :
– لو نطلق النار وقتاً طويلا !
قال كلابو : – الى الخلف .
فتراجعوا وجلسوا هم الاربعة على فراش . لكأن شاسيريو ودانديو خوختان متشابهتان ، وكان بينيت قد اخذ يشبههما : كانت لهم جميعاً السحنة المتربة نفسها والعيون الكبيرة العذبة التي لا جوف لها ؛ وفكر ماتيو : « ان لي هاتين العينين الوعليتين . » وكان كلابو قد تداعى للسقوط على عقبيه ، فأخذ يحدثهم من فوق كتفه :
– سوف يتوقفون عند مدخل القرية ، وسيرسلون عيوناً للاستطلاع فحذار ان تطلقوا عليهم .
وتثاءب شاسيريو ، وهذه التثاؤبة نفسها ، اللذيذة كالغثيان ، كانت

تفتح فم ماتيو . وحاول ان يقاوم الضيق وان يحرّ نفسه بالغضب ، فقال في نفسه « اننا مقاتلون ، ولسنا ضحايا ! » ولكن ذلك لم يكن غضباً « حقيقياً » . وتثاءب من جديد ، وكان شاسيريو ينظر اليه في ود ، وقال :

— البداءة قاسية ، وفيما بعد ، سيتحسن الوضع .

واستدار كلابو على نفسه وجلس القرفصاء تجاههم ، وقال لهم :

— ليس هناك الا امر واحد : الدفاع عن المدرسة ودار البلدية ، فيجب الا يقتربوا منهما ، والرفاق تحت هم الذين سيعطون الاشارة ، فما ان يبدأوا بالاطلاق ، حتى تطلقوا كما تشاءون . وتذكروا : لن يكون دورنا الا دور حماية ، ما استطاعوا ان يقاتلوا .

وكانوا ينظرون اليه بهيئة وادعة مجدة . وسأل بينيت :

- وبعد ذلك ؟

فهز كلابو كتفيه وقال :

— اوه ! بعد ذلك ..

قال دانديو : — لا اعتقد اننا سنقاوم طويلا .

— لا نستطيع ان نعرف . من المرجح ان يكون معهم مدفع للمشاة . فيجب ان نحاول منعهم من تركيزه . سنواجه مصاعب ، ولكن اذا وجدت هذه المصاعب ، فستكون لهم ايضاً ، لان الطريق والساحة يكوّنان زاوية .

وعاد يركع على ركبتيه ، وزحف حتى الافريز . كان يراقب الريف مختبئاً وراء عمود .

— دانديو ؟

— نعم ؟

— تعال .

واوضح من غير ان يلتفت :

ـ كلا يا دانديو ، سنأخـــذهم مواجهة ، وانت يا شاسيريو قف الى اليمين ، ودولارو الى اليسار . وانت يا بينيت ، ستنتقل الى الجهة الاخرى ، اذا انعطفوا حولنا .

وسحب شاسيريو فراشاً الى الغرب ، فأسنده الى الافريز ، واخذ ماتيو الغطاء ، فتداعى للسقوط فوقه على ركبتيه . وكان بينيت يقول في غضب :

ـ انني أريهم ظهري ، هؤلاء الملعونين .

قال شاسيريو : ـ اراك تشكو . ستكون الشمس في صميم وجهي .

وكان ماتيو ملتصقاً بالعمود ، ودار البلدية تجاهه ، فكان اذا انحنى قليلا الى اليمين يستطيع ان يرى الطريق . اما الساحة ، فكانت حفرة ظل سامة ، شركا : وكان يؤذيه ان ينظر اليها . وكانت عصافير تغني في شجر الكستناء .

ـ حذار !

فأمسك ماتيو نفسه : كان راكبا دراجتين اسودان يرتديان قبعتين يدلفان الى الشارع ، فارسان من فرسان ما فوق الطبيعة : وحاول عبثا ان يتميز وجهيهما : فانه لم يكن لهما وجهان . قامتان دقيقتان ، اربع سيقان طويلة متوازية ، رأسان اسودان املسان ، لا عينان فيهما ولا فم . وكانا يسيران بتقطعات آلية ، وفي كبرياء صلبة تشبه كبريـــاء الاشخاص الاليين الذين يتقدمون تحت وجه الساعات القديمة حين تدق الساعة . وكانت الساعة على وشك ان تدق .

ـ لا تطلقوا النار !

وقامت الدراجتان بدورة الارض وهما تضرّطان ، ولم يتحرك شيء . باستثناء بعض عصفور الدوري الذي تطاير : كانت تلك الساحة المزورة تظهر بمظهر الموت وكان ماتيو يفكر ، مسحوراً : « انهم ألمان » . وارتدا الى مقربة من دار البلدية ، ومرا تحت ماتيو تماماً فرأى ايديهما

الضخمة الجلدية ترتجف على المقودين ، ودلفا الى الشارع الكبير . وبعد لحظة ، عـادا الى الظهور ، مستقيمين ، مركوزين فوق سرجيهما المترجرجين ، ثم عادا بسرعة الى الطريق الذي جاءا منه . وكان ماتيو مسروراً ان كلابو قد منعهم من الاطلاق : فقد كانا يبدوان له غير قابلين للجرح . وتطايرت العصافير مرة اخرى ، ثم اندست بين الاوراق.

وقال كلابو : — جاء دورنا .

وأنّت فرملة ، واصطفقت ابواب ، وسمع ماتيو اصواتاً وخطى . فسقط في اشمئزاز يشبه النعاس : كان عليه ان يجالـد ليُبقي عينيه مفتوحتين ، وكان ينظر الى الطريق عبر جفنيه نصف المغلقين ، ويشعر بنفسه ميالا للمصالحة ؛ اذا هبطنا ونحن نلقي بنادقنا ، فسيحيطون بنا ، وربما قالوا لنا : « ايها الاصدقاء الفرنسيون ، لقد انتهت الحرب . » وكانت الخطى تقترب ، انهم لم يفعلوا لنا شيئاً ، وهم لا يفكرون بنا، ولا يريدون بنا شراً . واغمض عينيه تماماً : ان الحقد سيتدفق حتى يبلغ السماء . سيرون جثتي ، وسيركلونها باقدامهم . ولم يكن يخاف ان يموت ، وانما كان يخاف الكراهية والحقد .

انتهى الامر ! وطقّ الطلق شديداً في اذنيه ، ففتح عينيه : فاذا الشارع خال صامت ، وحاول ان يصدق انه حلم . فان احداً لم يطلق ..

وتمتم كلابو : — يا للحمقى !

فانتفض ماتيو : — اي حمقى ؟

— افراد دار البلدية ، لقد تعجلوا اطلاق النار ، لا بـد ان في الهواء اصوات انفجار ، والا لتركوهم يجيئون .

وتطلع ماتيو في مشقة الى الطريق ، وانزلق نظره على البلاط ، وعلى ادغال من العشب بين البلاط ، حتى زاوية الشارع . لا احد . الصمت . « انها قرية في شهر آب ، فالرجال في الحقول . » ولكنه كان يعلم انهم كانوا يخترعون موته فيما وراء هذه الجدران : انهم يعملون على

ان يلحقوا بنا اكبر اذى ممكن . وغرق في الحنو ، كان يحب جميع الناس : الفرنسيين ، الالمان ، هتلر . وفي حلم دبق ، سمع صرخات ، تبعها انفجار عنيف وتكسر زجاج ، ثم تتابعت اصوات الانفجـــار . وشنّج يده على قبضة بندقيته ليحول دون سقوطها .

قال كلابو بين اسنانه : — ان مدى القنبلة اقصر مما ينبغي .

وكانت الطلقات تتوالى دون انقطاع ، وكان الالمان قـــد اخذوا يطلقون ، وانفجرت قنبلتان اخريان . ليت هذا يمكن ان يتوقف دقيقة لأتنفس ، ولكن الطلقات كانت مستمرة ، والانفجارات تتزايد ، وفي رأسه كانت عجلة مخرمة تدور بسرعة متنامية : وكانت كـــل تخريمة طلقة نارية ، يلعن دين ! واذا كنت ، فوق هذا كله ، جبانـــاً ! والتفت فنظر الى رفاقه : كان كلابو ودانديو يراقبان مقرفصين على اعقابهما ، ممتقعين ، وعيونهما تلتمع في قسوة . وكان بينيت موليـــاً ظهره ، متصلب الرقبة ، وكانت كتفاه تقفزان ، فكأنه كـــان في رقصة ، او في ضحك جنوني . واحتمى ماتيو بالعمود ، واطل بحذر . ونجح في الاحتفاظ بعينيه مفتوحتين ، ولكنه لم يستطع ان يقسر نفسه على لفت رأسه نحو دار البلدية : كان ينظر الى الجنوب القاحل الهاديء، وكان يفر نحو مارسيليا ، نحو البحر . وحدث انفجار جديـــد تبعته تدحرجات جافة على احجار برج الاجراس . فحملق ماتيو بعينيه ولكن الطريق كانت تجري تحته باقصى سرعتها ، فالاشياء تنسرب وتنسرب وتنزلق وتختلط وتبتعـــد ، فكأن ذلك حلم ، وكانت الحفرة تنحفر وتجذبه ، كان ذلك حلما ، وكانت عجلة النار تدور وتدور كعجلة باعة الحلويات الناعمة ، وكان موشكاً على ان يستيقظ في سريره حين لمح ضفدعاً يزحف نحو المعركة . ونظر ماتيو لحظة الى هذا الحيوان المسطح في غبر اكثراث ، ثم اصبح الضفدع رجلا ، وكان ماتيو يرى بوضوح مدهش ثنيّي رقبته الحليقة ، وسترته الخضراء ، ونطاقه وحذاءه

الطري الاسود . « لا بد انه قام بالدورة عبر الحقول ، وهـا هو يزحف الآن باتجاه البلدية ليلقي قنبلته . » وكان الالماني يزحف على مرفقيه وركبتيه ، وكانت يده اليمنى التي كان يرفعها في الهواء تشد عصًا تنتهي باسطوانة معدنية في شكل مرجل . وقال ماتيو : « ولكن ، ولكن ... » وتوقفت الطريق عن الجري ، وجمدت العجلة ، وقفز ماتيو على قدميه ، وركز بندقيته على كتفه ، وقست عينـاه : كان واقفاً كثيفاً ، في عالم يتكون من شديدي الاسر ، وهو يمسك عدواً في طرف انبوب بندقيته ، ويصوب بهدوء الى جبينه . وقهقه قهقهة ترفُّع قصيرة : ان الجيش الالماني العظيم ، جيش الرجـال الذين هم فوق الرجال ، جيش الجراد ، انما كان هذا الشخص المسكين ، الذي يبعث على الرأفة لفرط ما هو مخطيء ، والذي كان يستغرق في الخطأ وفي الجهل ، والذي كان منهمكـاً انهماك صبي مضحك ، ولم يكن ماتيو ليعجل ، كان يحدج صاحبه بفضول ، وكـان لديه متسع من الوقت : ان الجيش الالماني « قابل للجرح » . واطلق ، فقام الرجل بقفزة غريبة على بطنه وهو يرمي ذراعيه الى امـام ، فكان يشبه من يتعلم السباحة ، واطلق ماتيو مرة اخرى ، وقد ابهجه ذلك ، فانتفض الرجـل المسكين باعين او ثلاثة وهو يترك القنبلة التي تدحرجت على الطريق من غير ان تنفجر . انه الآن هاديء ، مضحك ، لا خطر منه ، ميت ، وقال ماتيو بصوت منخفض : « لقد هدّأته ، لقد هدّأته . » وكان ينظر الى الميت ويفكر : « انهم كسائر البشر » وكان يحس بنفسه قوياً نشيطاً .

وحطت يد على كتفه : كان كلابو قد اتى ينظر الى عمل الهاوي . وتأمل الحيوان الميت وهو يهز رأسه ، ثم التفت :

— شاسيريو !

فجرّ شاسيريو نفسه على ركبتيه حتى بلغهما ، فقال كلابو :

– راقب قليلا من هنا .

فقال ماتيو متضايقاً :

– لست بحاجة الى شاسيريو .

قال كلابو : – سيأتون لاخــذه ، فاذا كان عددهم كبيراً ، تغلبوا عليك .

وانطلق صوت رشاش ، فرفع كلابو حاجبيه ، وقال وهو يعود الى مركزه :

– هيه ! لقد بدأ الاطلاق جدياً .

والتفت ماتيو الى شاسيريو ، وقال في حيوية :

– حسناً ! اظن اننا نحدث للالمان مصاعب .

فلم يجب شاسيريو ، كان يبدو ، ثقيلا ، خاماً ، شبه نائم ، وسأله ماتيو منزعجاً :

– الا ترى كم هم بطيئون ؟ كنت احسب انهم سيصفّون حسابنا في ضربتي ملعقة !

فتأمله شاسيريو في دهشة ، ثم نظر الى ساعة يده ، وقال :

– لم تنقض ثلاث دقائق على مرور الدراجات .

فانحسر هياج ماتيو ، واخذ يضحك . لقد حاول طوال اعوام ان يعمل ولكن عبثاً : فقد كانت افعاله تُسرق منه بالتتالي . اما هذا العمل ، فلم يسرق منه شيء على الاطلاق . لقد ضغط على الزناد ، فحدث شيء ما ، في هذه المرة ، وفكر وهو يزداد ضحكاً : شيء حاسم . وكانت اذنه مثقوبة بالانفجارات والصراخ ، ولكنه كان لا يكاد يسمعها ، كان ينظر الى ميته في رضى ، وكان يفكر : « يلعن دين ! لقد احس به يمر . لقد فهم ، ذاك ، لقد فهم ! » ميته « هو » ، عمله « هو » ، اثر مروره « هو » على الارض ، واخذته الرغبة بان يقتل آخرين : كان ذلك مسلياً وسهلا ، كان يريد ان يُغرق المانيا في الحداد .

– حذار !

كان شخص يزحف بحذاء الجدار ، وفي يده قنبلة ، وصوب ماتيو على هذا الكائن الغريب المرغوب فيه ، وكان قلبه يخفق خفقات كبيرة .

– خراء !

لقد اخطأه . وانطوى الشيء على نفسه ، فاصبح رجلا تائهاً ينظر فيما حوله من غير ان يفهم ، واطلق شاسيريو ، فتمدد الرجـــل كأنه زنبرك ، وانتصب ، فقفز في الهواء وهو يطوي ذراعه ، وقذف قنبلته ، ثم انهار على ظهره في وسط الشارع . وفي اللحظة نفسهـــا ، تطايرت الواح زجاج ورأى ماتيو ، في نهار ممتقع باهر ، اشباحـــاً تتلوى في الطابق الاسفل من دار البلدية ، ثم عاد الليل ، وكانت سمادير صفراء تنسحب في عينيه ، وكان غاضباً على شاسيريو ، وردد :

– خراء ! خراء ! خراء !

قال شاسيريو : – لا تحزن ، فقد اخطأ هدفه على كل حال : ان الرفاق في الطابق الاول .

وكان ماتيو يطرف بعينيـــه وينفض رأسه ليتخلص من السمادير الصفراء التي كانت تبهره . وقال :

– حذار ! انني اعمى .

قال شاسيريو : – سيزول ذلك ، يلعن دين ! انظر الى الشخص الذي رميته ، انه يحرك ساقيه .

فاطل ماتيو ، وكانت قد تحسنت رؤيته ، فاذا الالماني الملقى على ظهره ، مفتوح العينين على سعتهما ، يحرك ساقيه ، وركز ماتيو البندقية على كتفه فقال شاسيريو :

– هل انت مجنون ؟ لا تبذر طلقاتك !

فاراح ماتيو بندقيته في كزازة . وفكر : « ربما استطاع هذا الفرج ان ينجو بنفسه . »

وانفتح باب البلدية على سعته ، وظهر شخص على العتبة ، فتقدم بخيلاء . وكان عارياً حتى النطاق : لكأنه رجـل مسلوخ . وكانت تتدلى من خدَيه الاحمرين اللذين يبدوان كأنهما منحوتان ، برايات من اللحم . واخذ فجأة يصرخ ، فانطلقت عشرون بندقية في وقت واحد ، فتهاوى ، وهوى بانفه ثم سقط على درجات الحاجز .

وقال شاسبريو : — انه ليس من فرقتنا .

فقال ماتيو بصوت يخنقه الغضب :

— كلا ، بل هو من فرقتنا ، واسمه لاتيكس .

وكانت يداه ترتجفـان ، وكانت عيناه تؤلمانه ، وكـان يردد بصوت مبحوح :

— كان يدعى لاتيكس . وعنده ستة اولاد .

ثم انحنى فجأة ، فصوب الى الجريح الذي كانت عيناه الكبيرتان تبدوان وكأنهما تنظران اليه :

— ستدفع الثمن ، ايها القذر .

قال شاسبريو : — انت مجنون . قلت لك ألا تبذر طلقاتك .

قال ماتيو : — حلّ عن ديني !

ولم يكن يعجل في الاطلاق : اذا رآني ، هذا القذر ، فسيكون في وضع شاق ، وكان يصوّب على رأسه ، واطلق : فانفجر الرأس، ولكن الرجل ظل يحرك رجليه .

وصاح ماتيو : — قذر ! قذر !

— حذار ! يلعن دين ! حذار ! الى اليسار !

وكان خمسة المان أو ستة قد ظهروا ، فأخذ شاسبريو وماتيو يطلقان ، ولكن الالمان كانوا قد غيروا خطتهم . كانوا يبقون واقفين ، مختفين في الزوايا ، وكأنهم ينتظرون . وقال شاسبريو :

— تعال يا كلابو ! يا دانديو ! لقد تكاثروا .

قال كلابو : — لا استطيع .
فصاح ماتيو : — بينيت !
فلم يجب بينيت ، ولم يجرؤ ماتيو على الالتفات .
— حذار !
كان الالمان قد اخذوا يركضون ، واطلق ماتيو ، ولكنهم كانوا قد عبروا الشارع ، وصاح بهم كلابو من مكانه :
— عجباً ! ان هناك المانا تحت الاشجار في هـــذه الساعة ، فمن تركهم يمرون ؟
فلم يجيبوا ، كانت ثمة تحركات تحت الاشجار . واطلق شاسيريو على هواه .
— سيكون مستحيلا ان نخرجهم من اماكنهم .
وكان افراد المدرسة قد اخذوا يطلقون ، وكان الألمان يجيبونهم ، وهم في مخابئهم خلف الاشجار . وكفت البلدية عن اطلاق النار بتاتاً . وكان الشارع يصعد الدخان ببطء ، على مستوى الارض .
وصاح كلابو : — لا تطلقوا في الاشجار ، فسيكون ذلك بارودا ضائعا .
وفي اللحظة نفسها ، انفجرت قنبلة على واجهة البلدية ، في مستوى الطابق الاول ، وقال شاسيريو : — انهم يتسلقون الاشجار .
فقال ماتيو : — اذا تسلقوا الاشجار ، سهل علينا اصطيادهم .
وكان نظره يحاول ان يخرق الاوراق ، ورأى ذراعاً ترتفع فأطلق. ولكن ذلك بعد فوات الاوان : لقد انفجرت البلديـــة ، فانتزعت نوافذ الطابق الاول ، ومن جديد ، اعماه ذلك النور الاصفر الفظيع ، واطلق كيفما تأتى له : فسمع ثماراً ضخمة ناضجة تتدحرج من غصن لغصن ، ولم يكن يعلم ان كان الاشخاص يسقطون ام يهبطون .
قال كلابو : — لقد كفت البلدية عن الاطلاق .

وارهفوا آذانهم ، ممسكين انفاسهم ، كان الالمان ما يزالون يطلقون ولكن البلدية لم تكن تجيب . وارتعش ماتيو ، ماتوا ، قطع من اللحم الدامي فوق ارض مبعوجة ، في قاعات فارغة .

وفجأة ، خرجت من نوافذ الطابق الاول دوامات دخان ، وتميز ماتيو ، عبر الدخان ، لهبا احمر واسود . واخذ احدهم يصيح في دار البلدية ، وكان صوتاً حادا ابيض ، صوت امرأة . واحسّ ماتيو فجأة انه سيموت . وأطلق شاسيريو النار .

وقال له ماتيو : — انك مجنون ، هأنت الآن تطلق على دار البلدية ، انت الذي تأخذ علي ان ابذر الطلقات .

وكان شاسيريو يصوب على نوافذ البلدية ، واطلق ثلاث مرات في اللهيب ، وقال :

— انه هذا الذى يزعق ، لا استطيع بعد ان اسمعه .

قال ماتيو : — ما يزال يزعق .

وكانا يصغيان ، مثلوجين ، وضعف الصوت .

— انتهى .

ولكن الصرخات ما لبثت ان عادت بصورة اقوى ، وكانت لا انسانية ، كانت اصداء هائلة ضخمة تزداد حدة وثقوبا. واطلق ماتيو بدوره على النافذة ، ولكن بلا جدوى .

قال شاسيريو : — انه لا يريد ان يموت .

وفجأة انقطع الصراخ ، فقال ماتيو :

— أف !

قال شاسيريو : — انتهى . مات . شُوي .

ولم يكن ثمّة بعد ما يتحرك ، لا تحت الشجر ، ولا في الشارع ، وكانت الشمس تذهّب مثلث دار البلدية الملتهب . ونظر شاسيريو الى ساعته . فقال :

– سبع دقائق .
وكان ماتيو يتلوى في اللهب ، انه لم يكن بعد الا حرقاً ، وكان يختنق ، ووجب عليه ان يشد يديه على صدره ويهبط بهما رويداً حتى بطنه ، ليتأكد من انه كان سليما . وقال كلابو فجأة :
– هناك جنود على السقوف .
– على السقوف ؟
– تجاهنا تماماً . انهم يطلقون على المدرسة ، خراء ! هكذا اذن !
– ماذا !
– انهم ينصبون رشاشاً ، (وصاح) بينيت !
فانزلق بينيت الى الخلف .
– تعال الى هنا ! ان افراد المدرسة سيتعرضون للقتل .
وانحنى بينيت على اربع : وكان ينظر اليهم بهيئة غائبة ، وكان وجهه رماديا .
وسأل ماتيو : – هل تشكو شيئاً ؟
فقال بجفاء : – الامور على أحسن ما يرام .
وجر نفسه نحو كلابو ، وركع .
قال كلابو : – اطلق ، اطلق في الشارع لتشغلهم ، اما نحن ، فسنتولى امر الرشاش .
واخذ بينيت يطلق ، من غير ان يقول كلمة . فقال كلابو :
– اطلق بطريقة افضل ، يلعن دين : ان الانسان لا يطلق ، وعيناه مغمضتان .
فارتعش بينيت وبدا وهو يبذل جهداً عنيفاً على نفسه ، فعاود خديه بعض الاحمرار ، وصوّب وهو يحملق بعينيه ، وكان كلابو ودانديو ، الى جانبه ، يطلقان بلا انقطاع ، ثم اطلق كلابو صيحة انتصار :

— حسناً ! حسناً ! لقد اغلق الرشاس فمه .

وارهف ماتيو اذنه : لم يكن يُسمع شيء بعد ، وقال :

— نعم ، ولكن الرفاق لا يطلقون بعد .

كانت المدرسة صامتة ، واجتاز الطريق ركضا ثلاثة ألمان كانوا قد اختبأوا تحت الاشجار وارتموا على باب المدرسة فانفتح . ودخلوا، ثم ظهروا بعد لحظة مطلين من نوافذ الطابق الاول ، يصرخون ويأتون بالحركات . واطلق كلابو ، فاختفوا ، وبعد لحظات ، سمع ماتيو ، للمرة الاولى منذ الصباح ، ازيز رصاصة ، ونظر شاسيريو الى ساعته :

— عشر دقائق .

قال ماتيو : — نعم ، انها بداية النهاية .

كانت البلدية تحترق ، وكان الالمان يحتلون المدرسة : فكأن فرنسا هُزمت مرة اخرى .

— اطلقوا ، يلعن دين !

وكان بعض الالمان قد ظهروا، حذرين ، في مدخل الشارع الكبير واطلق شاسيريو ، وكلابو : فاختفت الرؤوس .

— لقد اهتدوا الى مكاننا ؛ هذه المرة .

وعاد الصمت من جديد ، صمت طويل ، وفكر ماتيو : « ماذا تراهم يُعدّون ؟» في الشارع الخالي ، كان ثمة اربعة قتلى ، وعلى بعـــد قليل ، اثنان آخران : هذا كل ما استطعنا ان نفعله . اما الآن ، فيجب ان ننجز مهمتنا : ان نُقتَل . وبالنسبة اليهـــم ، ماذا يشكل ذلك ؟ عشر دقائق تأخير عما هو مقرر .

وقال كلابو فجأة : — عليهم !

كان شيطان صغير كثيف يجري نحو الكنيسة ، وكان يلتمع في الشمس ، وقال دانديو بين اسنانه :

— « شنلفوراكنون » .

وزحف ماتيو نحوهم . كانوا يطلقون ، ولكن لم يكن يُرى احد ، وكان يبدو ان المدفع يسير من تلقـــاء نفسه . كانوا يطلقون ارضاء لضمائرهم ، لانه كان ثمة بعد طلقات ، وكانت لهم وجوه جميلة هادئة ومتعبة ، وجوههم الاخيرة .

— الى الوراء !

وبدا فجأة الى شمال المدفع رجل يرتدي قميصاً بنصف كم ، ولم يكن يسعى للاحتماء بشيء ، بل كان يصدر اوامره في هدوء ، وهو يرفع ذراعه . وانتصب ماتيو بغتة : كان هذا الرجل القصير ذو العنق العارية يُلهبه رغبة .

— الى الوراء ، وعلي بطونكم !

وارتفع فم المدفع في هدوء ، ولم يكن ماتيو قد تحرّك : كان علي ركبتيه يصوّب ناره على نائب الضابط ، وصاح به كلابو :

— هل سمعت امري ؟

فدمدم ماتيو : - اسكت !

واطلق ، فصدم مقبض بندقيته كتفه ، وحدث انفجار هائل كأنه صدى مضخم لطلقة بندقيته ، ورأى لوناً احمر . ثم سمع ضجة تمزّق ، طويلة ، مائعة .

قال كلابو : — أخطأوا الهدف ، لقد صوّبوا اعلى مما ينبغي .

وكان نائب الضابط يتخبط ، وساقاه في الهواء . وكان ماتيو ينظر اليه وهو يبتسم . وكان يوشك ان يجهز عليه حين بدا جنديان فحملاه ، وزحف ماتيو القهقرى ، واتى يتمدد بالقرب من دانديو ، وكان كلابو قد بدأ برفع باب السقف .

— عجّلوا ، لنهبط !

فهز دانديو رأسه :

— تحت ، ليس ثمة من نوافذ .
وتبادلوا النظر ، وقال شاسيريو :
— اننا لا نستطيع ان ندع الطلقات تذهب هدرا .
— وهل بقي معك منها كثير ؟
— مشطان .
— وانت ، يا دانديو ؟
— مشط واحد .
فعاد كلابو يغلق باب السقف ، وهو يقول :
— انت على حق ، لا نستطيع ان ندعها تذهب هدرا .
وسمع ماتيو خلفه نفساً أبح ، فالتفت : كان بينيت قد امتقع حتى الشفتين وكان يتنفس بمشقة .
— هل انت مجروح ؟
فنظر اليه بينيت نظرة قاسية :
— لا .
ونظر كلابو الى بينيت بتنبه :
— اذا اردت ان تهبط ، يا صغيري ، فلست مجبرا على البقاء ، ليس ثمة من هو مدين لاحد بشيء . انها كما تعلم طلقاتنا . ولا نستطيع ان ندعها تذهب هدرا .
قال بينيت : — خراء اذن ! ولماذا تراني اهبط ، اذا لم يهبط دولارو ؟ .
وزحف حتى الافريز ، واخذ يطلق .
وصاح ماتيو : — بينيت !
فلم يجب بينيت . وكان الرصاص يصفر فوقهم ، وقال كلابو :
— دعه وشأنه . فان هذا يشغله .
واطلق المدفع طلقتين متتاليتين ، فسمعوا صدمة قاسية فوق رؤوسهم ، وانفصل عن السقف وابل من احجار الجبس ، وسحب شاسيريو ساعته :

– اثنتا عشرة دقيقة .

وزحف ماتيو وشاسيريو حتى الافريز . وجلس ماتيو القرفصاء ، بالقرب من بينيت ، وكان شاسيريو ، الى يمينه ، واقفاً منحنياً الى امام . وقال شاسيريو :

– لا بأس بها ، اثنتا عشرة دقيقة حتى الآن . لا بأس بها .

وهبت الريح وأنّت وصفعت ماتيو على وجهه : ريح حارة ثقيلة كأنها الحساء ، وسقط ماتيو جالساً على الارض . وكان الدم يعميه ، كانت يداه حمراوين حتى المعصمين ، وكان يفرك عينيه فيمزج دم يديه بدم عينيه ، ولكن ذلك لم يكن دمه : فان شاسيريو كان جالساً على الافريز ، بلا رأس . كان مزيج من الدم والفقاعات يخرج من عنقه .

قال بينيت : – لا اريد ، لا اريد !

ونهض فجـــأة ، فركض الى شاسيريو وضربه في صدره بمقبض بندقيته ، فتهاوى شاسيريو وهوى من فوق الافريز . ورآه ماتيو يسقط بلا انفعال : كان ذلك بداية موته هو بالذات .

وصاح كلابو : – اطلقوا النار كما تشاءون .

وفجأة ، اصبحت الساحة تنغل بالجنود ، وعاد ماتيو الى مركزه واخذ يطلق . وكان دانديو يطلق بالقرب منه .

وقال دانديو ضاحكاً : – ان هذه مذبحة !

وترك بندقيته التي سقطت في الشارع ، ونام على ماتيو وهو يقول :

– يا عزيزي ! يا عزيزي !

فدفعه ماتيو عنه بضربة كتف . فسقط دانديو الى الخلف ، واستمر ماتيو يطلق النار . وكان ما يزال يطلق حين انهار السقف عليه . وتلقى عارضة عـــلى رأسه ، فترك بندقيته وسقط . وفكر في جنون ، خمس عشرة دقيقة ، انني اهب كل شيء لاقاوم خمس عشرة دقيقة ! وكانت قبضة بندقيته تخرج من فوضى الخشب المحطم والاحجـــار المتناثرة ،

فسحبها اليه ، كانت البندقية دبقة بالدم ، ولكنها معبأة بالطلقات .

وصاح بينيث : — ماتيو !

فلم يجب احد ، كان انهيار السقف يسد شمال السطيحة كله . وكانت الانقاض والعوارض تسد باب السقف ، وكانت عصا من حديد تتدلى من السقف الفاغر ، كان ماتيو وحيداً .

وقال بصوت مرتفع : — يلعن دين ! لن يقال اننا لم نقاوم خمس عشرة دقيقة .

واقترب من الافريز واخذ يطلق واقفاً . وكان ذلك ثأراً هائلا . كانت كل طلقة تثأر له من وسواس قديم ، طلقة عــلى لولا التي لم اجرؤ على سرقتها ، وطلقة على مارسيل التي كان علي ان اهجرها ، وطلقة على اوديت التي لم ارد ان اضاجعها . وهذه للكتب التي لم اجرؤ على كتابتها ، وتلك للرحلات التي امتنعت عن القيام بها ، وهذه الاخرى على جميع الاشخاص ، جملة ، الذين كنت راغباً في احتقارهم والذين حاولت ان افهمهم ، كان يطلق ، وكانت القوانين تتطاير في الهواء ، ستحب قريبك كما تحب نفسك ، طق في فم هذا الفرج ، لن تقتــل ابداً ، طق في الطرح المزيف الساكن قبالتي . كان يطلق على الانسان ، على « الفضيلة » على العالم : « الحرية » هي « الارهاب » ، كانت النار تشتعل في البلدية ، تشتعل في رأسه : كان الرصاص يئز ، حراً كالهواء ، سينفجر العالم ، وانا معه ، واطلق ، ونظر الى ساعته : اربع عشرة دقيقة وثلاثون ثانية ، لم يبق ما يُطلب بعدُ الا مهلة نصف دقيقة ، ما يكفي فحسب لاطلاق النار على الضابط الجميــل الفخور الذي كان يعدو نحو الكنيسة : واطلق على الضابط الجميل ، على كل « جمال » الارض ، على الشارع ، على الازهار ، على الحدائق ، على كل مـــا سبق له ان احبه ، وغطس « الجمال » غطسة داعرة ، واطلق ماتيو مرة اخرى . اطلق : وكان نقياً ، وكان قديراً ، وكان حراً .

خمس عشرة دقيقة .

القسم الثاني

الليل ، النجوم ؛ نار حمراء في الشمال ، انهـــا دسكرة تحترق في الشرق والغرب ، بروق حرّ طويلة وجافة : انها مدافعهم . إنهم في كل مكان ، وسيعتقلونني غداً . ويدخل الى القرية النـــائمة ؛ ويعبر الساحة ، ويقترب من بيت يراه ، فيطرق بابه ، لا جواب ، ويشد على المقبض ، فينفتح الباب . ويدخل ، ويغلق الباب خلفه : الظلام . عود ثقاب . هو في الممر ، وتخرج مرآة من الظلام بغموض ، فيرى فيها نفسه : انني بأشد الحاجة الى حلق ذقني . وينطفيء عود الثقاب . وقد أُتيح له ان يامح سلماً يهبط الى اليسار . ويقترب منه متحسساً : السلم يهبط منعطفاً ، وينعطف برونيه ، فيلمح ضياء غامضاً منتشراً ، وينعطف مرة اخرى : القبو . إن رائحة الخمر والفطر تنبعث منه . براميل ، كومة قش . رجل ضخم في قميص الليل والبنطلون ، جالس على القش بالقرب من شقراء نصف عارية تمسك طفلا بين ذراعيها . وينظرون الى برونيه ، فاغري الافواه ، خائفين . ويهبط برونيه درجات السلم ، والرجل لا ينفك ينظر اليه . ويظـــل برونيه يهبط ، ويقول الرجل فجأة :

— إن زوجتي مريضة .

فيسأل برونيه : — يعني ؟

— لم ارد ان تقضي الليل في الغابات .

قال برونيه : — تقول لي هذا ، وهو لا يهمني على الاطلاق .

وهو الآن في القبو . وينظر اليه الرجل في تحدّ :

— ولكن ماذا تريد ؟

قال برونيه : — اريد ان أنام هنا .

فكزّ وجه الرجل ، وظل ينظر :

— هل انت ملازم ؟

فلم يجب برونيه . فسأله الرجل بارتياب :

– اين هم رجالك ؟

قال برونيه : – لقد ماتوا .

واقترب من كومة القش ، وقال الرجل :

– والألمان ، اين هم ؟

– في كل مكان .

قال الرجل : – لا اريد ان يجدوك هنا .

ونزع برونيه سترته فطواها ووضعها علي برميل . وصاح الرجل :

– أتسمع ؟

فقال برونيه : – أسمع .

– إن لي امرأة وطفلا : فلا اريد ان ادفع ثمن حماقاتكم .

قال برونيه : – لا تهتمّ بالأمر .

وجلس . ونظرت اليه المرأة في حقد . وقالت :

– هناك فرنسيون سيقاتلون فوق . فكان ينبغي لك ان تكون معهم .

ونظر اليها برونيه ، فرفعت قميص النوم علي نهديها ، وصاحت :

– اخرج من هنا ، اخرج من هنا . يكفي انكم خسرتم الحرب ، فلا تعرّضونا فوق ذلك للقتل .

فقال لها برونيه : – لا تخافي . فليس عليكما الا ان توقظاني حين يصبح الالمان هنا .

– وماذا ستفعل ؟

– سوف استسلم .

قالت المرأة : – قذارة ! بينما هناك اخيراً أناس يعرّضون انفسهم للذبح .

وتثاءب برونيه وتمطى ثم ابتسم . انه يقاتل منذ ثمانية ايام ، من غير أن ينام ، ومن غير ان يأكل تقريباً ، وقد اوشك عشرين مرة ان يُقتل . ولقد انتهى القتال الآن ، لقد خُسرت الحرب ، وهناك ما ينبغي ان يعمل . عمل كثير . وتمدّد على القش ، وتثاءب ، ونام .

قال الرجل : — هيا ! ها هم اولاء !

وفتح برونيه عينيه ، فرأى وجهاً ضخماً أحمر ، وسمع طلقــات وانفجارات .

— هل وصلوا ؟

— نعم . والقتال دائر . انني لا استطيع ان احتفظ بك عندي .

ولم تتحرك المرأة . انها تنظر الى برونيه بعينيها المتوحشتين ، وهي تضمّ ولدها النائم في ذراعيها .

وقال برونيه : — انني ذاهب .

ونهض ، وتثاءب ، واقترب من نافذة ، وفتّش في قربته ، فأخرج منها قطعة مرآة وآلة للحلاقة . ونظر اليه الرجـــل ، مذهولا من شدة الغيظ :

— اتراك ستحلق ذقنك ؟

فسأله برونيه : — ولِمَ لا ؟

ويحمرّ وجه الرجل :

— اقول لك انهم سيرموننا بالرصاص اذا وجدوك هنا !

ويقول برونيه : — سأنتهي بسرعة .

ويشدّه الرجل من ذراعه ليخرجه :

— انني لا اريد ذلك ، فلي امرأة وطفل ، ولو علمت ، لمـــا تركتك تدخل .

فتخلص برونيه بانتفاضة ، ونظر باشمئزاز الى هـــذا المائع الخرع الذي يُصرّ على الحياة ، والذي سيحيا في جميع العهود ، متواضعـــاً ، مخاتلا ، وسيحيا من اجل لا شيء . وارتدّ الرجل عليه ، فقذفه برونيه على الجدار :

— اهدأ والا

وتوقف

الكحوليتين ؛ وكانت تنبعث منه رائحة موت وزبل . واخذ برونيه يحلق ذقنه ، بلا صابون ولا ماء ، وكان جلده يحرقه ؛ والى جانبه ، كانت المرأة ترتجف خوفاً وغيظاً ، وعجّل برونيه : اذا استمر ذلك طويلا ، أصبحت مجنونة . ووضع آلته في قربته : إن الشفرة ما زالت تصلح مرتين :

– ارأيت ؟ لقد انتهيت . إن الامر لم يكن يستحق كل هذه المشاكل .

فلم يجب الرجل ، وصاحت المرأة :

– اخرج من هنا ، ايها القذر ، ايها الجبان ، إنلك ستعرّضنا للقتل !

وارتدى برونيه سترته ، وأحسّ نفسه نظيفاً ، جديداً وصلباً ، وكان وجهه أحمر .

– اخرج من هنا ! اخرج من هنا !

وحيّا باصبعين وقال :

– شكراً على اي حال .

ورقي السلم المظلم ، واجتاز مدخلا : وكان باب الدخول مفتوحاً على سعته ؛ وفي الخارج ، كان شلال النهار الابيض ، وطقطقة الرشاشات العنيدة ، كان البيت مظلماً ورطباً . واقترب من الباب : يجب ان يغطس في زبد هذا النور . ساحة صغيرة ، الكنيسة ، المقبرة ، زبل امام الأبواب . وبين بيتين يحترقان ، كانت الطريق الوطنية ، مورّدة بالصباح . وكان الألمان هناك ، زهاء ثلاثين رجلا منهمكين ، عمال في اثناء عملهم ، يطلقون النار على الكنيسة ، ويُطلق عليهم من برج الأجراس ، فكأنهم في ورشة . وفي وسط الساحة ، كان الجنود الفرنسيون في قمصانهم تحت النيران المتشابكة ، وعيونهم متوردة من النعاس ، يمشون على رؤوس أصابعهم ، بخطى صغيرة مسرعة ، كما لو أنهم يسيرون في استعراض لاحدى مسابقات الجمال . وكانوا رافعين

أيديهم المتقعة فوق رؤوسهم ، والشمس تتلاعب بين أصابعهم . وينظر اليهم برونيه ، وينظر الى برج الاجراس ، والى يمينه بنــاء ضخم يحترق . ويحسّ الحرارة على خده ، ويقول : « خراء ! » ، ويهبط درجات السلم الثلاث . وهكذا : لقد أُخذ . ويحتفظ بيديه في جيبه ، وهما ثقيلتان كأنهما من رصاص . « ارفع يديك ! » ويصوّب عليه ألمانيّ ببندقيته . ويحمّر وجهه ، وترتفع يداه ببطء ، وها همـــا في الهواء فوق رأسه : سيدفعون لي ذلك دماً . وينضمّ الى الفرنسيين فيرقص معهم ، فكأنه فيلم سينمائي ، لا شيء يبدو حقيقياً ، وهذا الرصاص الذي يئز لا يمكن ان يقتل ، والمدفع يطلق باروداً ابيض . وينحني فرنسيّ في شكل تحية ثم يسقط ، فيتجاوزه برونيه . وينعطف غير معجل عنـــد زاوية البيت الأسمر ثم يسلك الشارع الكبير ، في الوقت الذي ينهار فيه برج الأجراس . ليس من ألمان بعـــد ، وليس من رصاص ، انتهى الفيلم ، وها هو الريف الحقيقي ، ويعود فيضع يديه في جيبيه . انهم فرنسيون فيما بينهم . جمع من الفرنسيين القصار في ثيـــاب الكاكي ، متسخون ، طويلو اللحى ، مسودّة وجوههم من الدخان ، يضحكون ويمزحون ويهمسون ، موجة من الرؤوس العارية ، أو طاقيات رجال الشرطة ، وليس من قبعة واحدة ؛ ويعرف بعضهم بعضاً ، ويتبادلون التحيات : « لقد رأيتك في سافيرن في شهر كانون الاول . هيد ! جيرار ، مرحباً ، يجب ان تحدث الهزيمة لنلتقي من جديد ، كيف حال ليزا ؟ » ويحرس قطيع المهزومين الصغار جندي ألماني يبدو عليه الضجر ، وسلاحه على كتفه ، وهو يرافق كردحتهم المستعجلة بخطوات واسعة بطيئة . ويكردح برونيه مع الآخرين ، ولكنه في طول الألمان ، وهو حليق الذقن مثلهم . والطريق الوردية تسيل بين العشب ، ليس من نسمة هواء ، والحر حرّ هزيمة . إن رائحة الرجال منبعثة ، وهم يثرثرون والعصافير تغني . ويلتفت برونيه الى جاره ،

وهو رجل سمين يبدو عليه اللطف ويتنفس من فمه فيسأله :

— من اين انتم قادمون ؟

— كنا نازلين من « سافيرن » وقد قضينا الليل في المزارع .

قال برونيه : — اما أنا فقد جئت وحدي . إن هذا لطيف ، فقد كنت أحسب القرية خالية .

وكان شاب أشقر برونزي يسير على بعد صفين منه ، عارياً حتى النطاق ، وبين راسليه قشرة ضخمة دامية . وارتفع في ظهر برونيه ضجيج طبيعي هائل ، من الضحك والصراخ واصطدام الاقدام بالأرض ، مما يشبه صوت الريح في الشجر . والتفت : إن آلاف الرجال هم الآن خلفه ، وقد جُمعوا من كل مكان ، من الحقول ، ومن الدساكر ، ومن المزارع . وانتصبت كتفا برونيه ورأسه متوحدة فوق هذا السهل المتموّج .

وقال الشخص السمين : — اسمي مولو ، وانا من « بارلودوك » . وأضاف باعتزاز : — انني اعرف المنطقة .

وفي طرف الشارع ، كانت مزرعة تحترق ، وكان اللهيب اسود في وجه الشمس ، وكان كلب يعوي . وقال مولو لجاره :

— أتسمع الكلب ؟ لقد سجنوه في الداخل .

والجار هو بكل تأكيد من الشمال ، أشقر ، وليس قصيراً جداً ، وله بشرة حليبية ، وكان يشبه الألماني الذي يحرسهم . ويقطّب حاجبيه ويدير عينيه الكبيرتين الزرقاوين ، نحو مولو :

— ماذا ؟

— الكلب مسجون في الداخل ؟

قال « الشتيمي » : — يعني ؟ إنه كلب .

— اواه ! اواه ! اواه ! اواه !

ولم يكن الكلب هو الذي ينبح ، هذه المرة : وانما كان الفتى ذا

الظهر العاري . وأقبل واحد يجرّه ويضع يده على فمه ؛ وأتيح لبرونيه ان يلمح وجهه المتقع الضخم المشدوه ذا العينين اللتين لا أجفان لها . وقال مولو للشتيمي :

— لا يبدو على «شاربان» انه في حالٍ طيبة .

فنظر اليه الشتيمي :

— ماذا تقول ؟

— اقول إن رفيقك شاربان لا يبدو في حال طيبة .

وضحك الشتيمي فبدت اسنانه البيضاء :

— لقد كان دائماً غريباً .

وكانت الطريق صاعدة ، وكانت ترافقهم رائحة طيبة لأحجار ساخنة وحطب محروق ، وكان الكلب يعوي في ظهرهم . وبلغوا قمة الشاطيء ، فانحـــدرت الطريق في مهبط صلب . وأشار مولو باصبعه الى العمود الذي لا ينتهي :

— اوه ! من اين تراهم يخرجون ، هؤلاء ؟

والتفت الى برونيه :

— كم يبلغ العدد ؟

— لا ادري . ربما عشرة آلاف ، وربما اكثر .

فنظر اليه مولو غير مصدق :

— وتستطيع ان ترى ذلك هكذا ، بمجرد نظرة ؟

ويفكر برونيه في ايام ١٤ تموز ، وايام اول ايار ؛ كانوا يوقفون الأفراد في جادة ريشار — لونوار ، ثم يقومون باحصائهم وفقـــاً لمدة العرض ، جموع صامتة وحارّة ؛ وكان يحترق اذ يكون في وسطهم . أما هذا الجمع ، فهو صاخب ، ولكنه بارد وميت . ويبتسم ويقول :

— لقد ألفت ذلك .

فسأل الشتيمي :

– واين هم ذاهبون ؟
– لا أدري .
– واين هم الألمان ؟ ومن الذي يقود ؟

ولم يكن ثمة المان ، باستثناء زهاء عشرة يتفكهون في الشارع . كان القطيع الهائل ينسرب حتى منخفض الشاطيء ، كما لو انه يستجيب لثقله وحده ، وقال مولو :

– هذا طريف .

قال برونيه : – نعم ، هذا طريف .

هذا طريف ؛ كان بوسعهم ان يرتموا عـــلى الألمان ، فيخنقوهم ويفروا عبر السهول : ولكن ما جدوى ذلك ؟ كانوا يسيرون باستقامة ، أيان تقودهم الطريق . وها هم اولاء في اسفل الشاطيء ، في حفرة شبه مغلقة . وهـــا هم الآن يصعـــدون ثانية ، وهم يحسون بالحر . ويسحب مولو من جيبه رزمة من الرسائل يربطها خيط من المطاط ، فيقلبها لحظة بين أصابعه الضخمة المرتبكة . ويخلف العرق لطخات على الورق ، فيكمـــد الحبر البنفسجي في مواضع . وينزع مولو الخيط المطاط ، ويأخذ بمزّق الرسائل بانتظام ، من غير ان يعيد قراءتها ، الى قصاصات صغيرة ينثرها شيئاً فشيئاً ، في حركة باذر . ويتـــابع برونيه بعينيه طيران القصاصات اللاهث : وكان معظمها يسقط نثاراً على اكتاف الجنود ، ومن ثمّ تحت أقدامهم ؛ وتطايرت قصاصة لحظة ، ثم حطّت على باقة عشب ، فانثنى العشب قليلا وحملها كمظلة . وعلى طول الطريق ، كان ثمة اوراق اخرى ، ممزقة ومدعوكة ومكوّرة ، في الحفر ، وبين البنادق المحطمة ، والقبعات المبعوجة . وكان برونيه يلتقط كلمة في عبوره ، اذ يكون الخطّ كبيراً وعالياً : كُلْ جيداً ، تغط جيّداً ، جاءت هيلين مع الصغـــار ، في ذراعيك يا حبيبي . الطريق كلها رسالة غرام ملطخة . وكانت مسوخ صغيرة مائعة تزحف

على الارض ، وتنظر الى قطيع المهزومين المرح بعيونها التي لا حدق فيها : اقنعة للوقاية من الغازات السامة . ويدفع مولو مرفق برونيه ، ويومىء الى قناع :

– إن من حظنا على كل حال اننا لم نحتج اليها للاستعمال .

فلا يجيب برونيه ؛ ويبحث مولو عن مشاركين آخرين :

– ايه ! لامبير !

فالتفت رجل كان بالقرب من برونيه ، فنبهه مولو الى قناع ، من غير تعليقات ، فأخذا يضحكان ، وكان الباقون يضحكون حولهما : كانوا يحتقرونهم ، هؤلاء الدعاميص الطفيليين ، وكانوا يخافون منهم ، ومع ذلك فقد كان ينبغي إطعامهم والاعتناء بهم . انهم الآن ملقون تحت اقدامهم ، امواتاً ، وهم يرونهم فيتذكرون بان الحرب قد انتهت . وكان فلاحون آتون ، على مألوف عادتهم كل يوم ، ليشتغلوا في الحقول ، ينظرون اليهم يمرون وهم يستندون على مقالبهم ؛ وأخذ لامبر الجذل ، فصاح بهم : « مرحباً يا اولادي ! هذا هو الصف ! » فرددت عشرة أصوات ، مئة صوت ، في لهجة تحدّ : « هذا هو الصف ! هذا هو الصف ! اننا عائدون الى بيوتنا » . ولم يجب الفلاحون ،بل لم يكن يبدو عليهم انهم يسمعون . وسأل شاب أسمر مجعد الشعر يبدو عليه انه باريسي ، سأل لامبر :

– كم تظنّ عددهم ؟

قال لامبر : – قليل ، يا بلوندنيه ، قليل .

– اتعتقد ؟ هل انت متأكد ؟

– ما عليك الا ان ترى . اين هم الأشخاص الذين يجب ان يحرسونا ؟ لو كنا حقاً من الأسرى ، لرأيت كيف كنا نكون محاطين .

فسأل مولو : – لماذا أخذونا اذن ؟

– أخذونا ؟ انهم لم يأخذونا : وانما هم ركنونا جانباً حتى لا

نكون بين سيقانهم ، فيما هم يتقدمون .

فتنهـد الأشقر : — حتى في هـذا الوضع ، يمكن لذلك ان يدوم طويلاً .

— هل انت مجنون ؟ انهم لا يستطيعون حتى ان يركضوا في مثل السرعة التي نهرب بها .

وكان يبدو جذلا ويقهقه :

— إن الالمان لا يكترثون بذلك ، فهم يتنزهون : دجاجة صغيرة في باريس ، قدح خمر في ديجون ، وسمك مطبوخ في مارسيليا . ولكن ينتهي الأمر في مارسيليا ، فعليهم ان يتوقفوا هناك : لأن البحر أمامهم . وفي تلك اللحظة يتركوننا ، فنكون في بيوتنا ، في منتصف آب .

ويهز بلوندنيه رأسه :

— شهران ! إن هذا طويل .

— يبدو انك مستعجل جـداً . ولكن اسمع : يجب ان يصلحوا الخطوط ، حتى يستطيع القطار ان يمرّ .

قال مولو : — القطار ؟ انني اهديهم إياه . اذا كان الأمر مقتصراً على ذلك ، فاني مستعد للعودة الى بيتي مشياً على الاقدام .

— خراء إذن ! أما انا فلا ، لقد انقضى عليّ خمسة عشر يوماً وأنا أمشي ، وقد امتلأت مؤخرتي مشياً ، واريد ان ارتاح .

— أليست لك رغبة إذن في ان تضاجع صاحبتك ؟

— ولكن بأيّ شيء أفعل ذلك ؟ لقد أفرطت في المشي ، حتى لم يبق لي شيء في البنطلون . اريد ان أنام ، وأنام وحدي .

وكان برونيه يستمع اليهم ، وينظر الى رقابهم ، ويفكر بأن هناك عملا كثيراً يُعمل . شجر الحور ، شجر الحور ، جسر على ساقية ، شجر الحور . وقال مولو :

— انني عطشان .

فقال الشتيمي : — ليس هو العطش ، وانما الجوع : فانا لم أقضم لقمة منذ الأمس .

وكان مولو يكردح ويعرق ، ويلهث ، ونزع سترته ، ووضعها على ذراعه ، وفكّ ازرار قميصه وقال مبتسماً :

— نستطيع الآن ان نخلع ستراتنا ، فنحن أحرار .

توقفٌ مفاجيء . وصدم برونيه بصدره ظهر لامبير . والتفت لامبير ؛ وكانت لحيته متصلة بسالفيه ، وكانت له عينان حيتان تحت حاجبين كثيفين اسودين .

— الا تستطيع ان تنظر امامك ، ايها الابله ؟ أليست عيناك في ثقبيك ؟

وكان ينظر الى ثوب برونيه العسكري في قحة :

— انتهى عهد المائعين . وليس هناك من يأمر . ليس هناك إلا بشر .

ونظر اليه برونيه بلا غضب ، وصمت الرجل . وتساءل برونيه عما يستطيع ان يعمل اذ يعود مدنياً . تاجر صغير ؟ عامل ؟ طبقة وسطى ، على أي حال . إنهم مئات الوف على هذا الوضع : ليس ثمة أي حس للسلطة أو للنظافة الشخصية . ولا بد من نظام حديدي . وسأل مولو :

— لماذا توقفنا ؟

فلم يجب برونيه . إن هذا هو أيضاً بورجوازي صغير ، شبيه كل الشبه بالآخر ، ولكنه اكثر بلاهة : فلن يكون مناسباً العمل هنا . وتنهد مولو رضى وتروّح :

— لعل لدينا متسعاً من الوقت للجلوس على الأرض .

ووضع قربته في الطريق وجلس عليها ، واقترب منهم الجندي الألماني ، فأدار نحوهم وجهه الجميل الخالي من التعبير ، وكانت غشاوة مبهمة من الودّ تطوّف بعينيه الزرقاوين ، وقال في اهتمام :

– يا للفرنسيين المساكين ، لقد انتهت الحرب : فعودوا الى بيوتكم ، عودوا الى بيوتكم .

– ماذا يقول ؟ ماذا يقول ؟ اننا سنعود الى بيوتنا ؟ طبعاً سنعود الى بيوتنا ، خراء ، يا جوليان ، أتسمع ؟ سنعود الى بيوتنا ، إسأله متى ، أجل ، إسأله متى نعود الى بيوتنا ؟

– قل لي ، يا ألمانيّ ، متى نعود الى بيوتنا ؟

كانوا يكلمونه بلا كلفة ، بألفة وودّ . إنه الجيش المنتصر كله ، وليس هو الا عسكرياً بسيطاً . وردد الألماني ، فارغ العين :

– عودوا الى بيوتكم ، عودوا الى بيوتكم .

– ولكن متى ؟

– ايها الفرنسيون المساكين ، عودوا الى بيوتكم .

ويستأنفون السير ، ايتها الحور ، ايتها الحور . ويئنّ مولو ، انه يعاني الحر ، ويعاني العطش ، ويعاني التعب ، ويودّ لو يقف ، ولكن ليس ثمة من يستطيع ان يوقف هذا السير العنيد الذي لا يقوده احد . وأنّ شخص آخر : « إن بي صداعاً » ومشى ، وثقلت الثرثرة ، تقطعها لحظات صمت طويلة ؛ وقالوا فيما بينهم : « أنظل نمشي هكذا حتى برلين ؟ » وظلوا يمشون ؛ وكانوا يتبعون من يسبقهم ، مدفوعين بمن يليهم . قرية ، كومة قبعات وأقنعة وبنادق في الساحة الكبرى . وقال مولو :

– بودرو : لقد مررت من هنا أمس الاول .

فقال بلونديته : – عجباً ، وأنا ، أمس . وكنت في الشاحنة : وكان ثمة ناس على عتبات بيوتهم ، ولم يكن يبدو عليهم انهم ينظرون الينا باحترام .

وكانوا ما يزالون هناك ، على عتبات بيوتهم ، صامتين ، متشابكي الذراعين . نساء ذوات شعر أسود ، وعيون سوداء ، وثياب سوداء ،

وشيوخ . انهم ينظرون . وامام هؤلاء الشهود ، كان الأسرى ينتصبون، فتصبح وجوههم وقحة مروّسة ، وتتحرك أيديهم ويضحكون ويصرخون: « مرحباً بالأم الصغيرة ! مرحباً بالأب ! هذه هي العودة الى الصف ، انتهت الحرب ، مرحباً . » ويمرّون ويحيّون ، ويرسلون غمزات وبسمات مثيرة ، فيصمت الشهود وينظرون . وتتمتم السمّانة الطيبة السمينة وحدها : « يا للشباب المساكين ! » . ويبتسم الشتيمي باقتضاب ، ويقول للامبير :

– من حسن الحظ اننا لسنا في الشمال .

– لماذا ؟

– لو كنا هناك ، لقذفونا بالكراسي والصحون .

نبع ، عشرة أشخاص ، مئة شخص ينفصلون عن الصفوف ، ويذهبون ليشربوا . ويهرع مولو ، فينحني بارتباك ونَهَم . وكانوا يتلامسون من التعب فترتعش اكتافهم ، ويسيل الماء على وجوههم . ولم يكن يبدو على الحارس انه يراهم : لسوف يبقون في القرية اذا شاءوا وإذا كانت لديهم الجرأة على مجابهة الأنظار . ولكن لا ، انهم يعودون واحداً واحداً ، معجلين كما لو انهم يخشون ان يفقدوا مراكزهم ، ويعدو مولو كأنه امرأة ، وهو يلوي ركبتيه ، ويتدافعون ويضحكون ويصرخون ، يثيرون الدهشة والتحدي ؛ وكانت افواههم تنشقّ عن جروح ضاحكة تحت عيون تشبه عيون كلاب مضروبة . ومسح مولو شفتيه وقال :

– كان ذلك منعشاً .

ونظر الى برونيه في دهشة :

– ألم تشرب أنت ؟ ألست عطشاً ؟

فهزّ برونيه كتفيه من غير ان يجيب ؛ مؤسف الا يكون هذا القطيع محاطاً بخمسمئة جندي مسلح ينغزون مؤخرات المتخلفين ،

ويقتلون الثرثارين بأعقاب البنادق : لو كـــان الأمر كذلك ، لكانت هيئتك مختلفة الآن . ونظر الى يمينه ، والى يساره ، والتفت ، باحثاً عن وجه شبيه بوجهه في هذه الغـــابة من الوجوه المهجورة ، الثملة ، التي يعذّبها مرَحٌ لا يُقهر . اين هم الرفاق ؟ إن الشيوعي يُعرف من النظرة الاولى . وجه ، وجه واحد قاس وهادىء ، وجه انسان . ولكن لا : انهم يمشون منحنين الى أمام ، قصاراً ، قبيحين ، تسوق السرعة أجسامهم السقيمة المفتشة ، ويلهو على سحنهم القذرة كـــلّ الذكاء الفرنسي ، فيشدّ على زوايا الافواه بخيوط ، ويقلص المناخر أو يمدّدهـــا ، ويجعّد الجبـــاه ، ويلهب العيون ؛ انهم يقدّرون ، ويميّزون ، ويحاكمون ، ويحكمون ، وينتقدون ، ويزنون الحسنات والسيئات ، ويتذوقون اعتراضاً ، ويدللون وينتهون الى نتائج ، جَدَل لا ينتهي يشكل كل وجه فيه طرفاً . انهم يسيرون بوداعة ، ويحاكمون وهم سائرون ، انهم هادئون : فلقد انتهت الحرب ؛ ولم تحدث معارك ضارية ، فالألمان لا يبدون مفرطين في الوحشية . هادئون لأنهم يحسبون أنهم قدّروا بلمحة واحدة أسيادهم الجدد ؛ وقد عادت وجوههم تفرز ذكاء ، لأن هـــذا صنفٌ كماليّ باذخ يختص به الفرنسيون ، ويمكن منحه للألمان في الوقت المناسب لقاء منافع دقيقة . شجر الحور ، شجر الحور ، والشمس تصفع ، والوقت ظهر : « ها هم اولاء ! » ويمحي الذكاء . ويئنّ القطيع برمته من الشهوة ، ولم يكن ذلك صرخة ، حتى ولا تنهدة ، بل كان نوعاً من التهالك الإعجابي ، وحفيفـــاً عذباً لاوراق شجرٍ تنحني تحت ثقل المطر . « ها هم اولاء ! » وكـــان ذلك يعدو من أمام الى خلف ، وينتقل من رأس الى رأس كنبأ سارّ . ها هم اولاء ! هـــا هم اولاء ! وتتزاحَم الصفوف ، وتتدافع في الجوانب ، وترتعش دودة الفراش الطويلة : إن الألمان يمرون في الطريق ، على الدراجات ، وفي العربات والشاحنات ، حليقي الذقون ، مرتاحين ،

برونزيين ، بوجوه جميلة هادئة غامضة كأنها المراعي . انهم لا ينظرون الى أحد ، ونظرهم محدّق في الجنوب ، انهم يلجون في فرنسا ، وينقلون بالمجان ، انهم فرقة المشاة راكبة ، وانا أسمّي ذلك خوض الحرب ، انظر الى الرشاشات ، اوه ! والمدافع الصغيرة ، ما اروع ذلك ، وليس مستغرباً بعد ان نكون قد خسرنا الحرب . انهم مفتونون بان يكون الألمان اقوياء الى هذا الحد . ويحسون بأنهم غير مذنبين : « انهم لا يُقهرون ، فليس هناك من شك ، انهم لا يقهرون ! ».

وينظر برونيه الى هؤلاء المهزومين المشدوهين ، ويفكر : هذه هي المادة . صحيح انها تساوي ما تساوي ، ولكن لا أملك سواها . بوسعنا ان نعمل في كل مكان ، ولا شك في ان هناك ، في النصيب ، من هم قابلون للاسترداد . ويمرّ الألمـــان ، وتزحف الدودة الى خارج الطريق ، وها هم اولاء على ساحة لكرة السلة يملأونها بضمغهم الأسود ، فيجلسون ويضطجعون ، ويصنعون من صحف شهر ايار قبعات كبيرة تقي من الشمس ، فكأنهـــا الارض الخضراء لحلبة سباق ، أو غابة « فانسين » يوم أحد .

— كيف حدث ان توقفنا ؟

قال برونيه : — لا ادري .

ونظر في غيظ الى هذا الجمع المقلوب ، ولم تكن به رغبة للجلوس ، ولكن تلك حماقة ، فينبغي ألا يُحتقروا ، فتلك خير وسيلة للقيام بعمل سيء ، ثم من يدري الى اين نحن ذاهبون ، فلا بدّ له من مراعاة قواه ، وجلس . ومرّ ألمانيّ خلفه ، ثم آخر : فنظر اليه وهما يضحكان بودّ ، وسألا في سخرية أبوية :

— أين هم الانكليز ؟

ونظر برونيه الى حذاءيهما الأسودين الطريين ، ولم يجب ، فضيا ؛ وظلّ نائب ملازم طويل في الخلف وردّد في حزن مليء بالعتاب :

– اين هم الانكليز ، ايها الفرنسيون المساكين ، أين هم الانكليز ؟

فلم يجب أحد ؛ وهزّ رأسه بضع مرات . وحين ابتعد الألمان ، أجابهم لامبير من بين أسنانه :

– في مؤخرتي هـم الانكليز ؛ وانت لا تستطيع ان تركض بالسرعة التي يبعصونك بها !

قال مولو : – اويه !

– ماذا ؟

فأوضح مولو : – من الممكن ان يبعص الانكليز الألمان ، ولكن ليس هنـاك كيلومترات طويلة حتى يصبحوا مبعوصين بدورهم ، وبطريقة قذرة !

– ليس هذا مؤكداً .

– بلى ، بالتأكيد ، ايها المحون ! إنهم يتطاوسون لأنهـم في جزيرتهم ، ولكن انتظر قليلاً لترى كيف يجتـاز الالمان المانش ، وسترى ! وانا اقول لك ، اذا لم يستطع الجندي الفرنسي ان يقاوم ، فليس الانكليز هم الذين سيربحون الحرب !

اين هم الرفاق ؟ وُيحسّ برونيه بأنه وحيد . ها هي عشرة اعوام تنقضي من غير ان يشعر بمثل هذه الوحدة . انه جائع وعطش ، وهو خجلٌ ان يحسّ الجوع والعطش . ويلتفت اليه مولو :

– سيعطوننا طعاماً .

– صحيح ؟

– يبدو ان نائب الملازم قد قـال ذلك : سوف يوزعون خبزاً ومعلبات .

وابتسم برونيه : هو يعلم بأنهم لن يعطوهم شيئاً يأكلونه . يجب ان يسيل لعابهم لذلك ، ولن يسيل لعابهم بما فيه الكفاية ابداً . وفجأة نهض رجال ، وتبعهـم آخرون ، ثم نهض الجميع ، ومضوا .

ويستبدّ الغضب بمولو ، ويُبدي استياءه :

– من الذي أمر بأن نمضي ؟

فلم يجب أحد ، فصاح مولو :

– لا تذهبوا ، يا جماعة ، فسوف يعطوننا ما نأكله .

ولكن القطيع كان قد انخرط في السير ، أعمى أصمّ . كانوا يمشون . غابة ؛ أشعة صفراء وحمراء تتخلل الاوراق ، ثلاثة مدافع عيار ٧٥ متروكة ، ما تزال تهدّد الشرق ، الرجال مسرورون لأن هناك ظلاً ؛ وتمرّ فرقة من ممهدي الطرق الألمان . فينظر اليهم الأشقر ببسمة دقيقة ، ويتسلّى بان يراقب المنتصرين عليه عبر أجفانه نصف المغلقة ، ويلاعبهم كما يلاعب القط الفأرة ، ويتنعّم بتفوقه ، ويقبض مولو على ذراع برونيه ويهزّه .

– انظر هناك ؟ المدخنة الرمادية !.

– يعني ؟

– انها «بكارا» .

وينتصب على رؤوس أصابعه ، ويكوّر يده حول فمه ويصيح :

– بكارا ! عجّلوا يا رفاق : اننا نصل الى بكارا .

الرجال متعبون ، والشمس في عيونهم ؛ وهم يردّدون بوداعة : « بكارا ، بكارا » ولكنهم لا يبالون . ويسأل بلونديته برونيه :

– بكارا ، أهي التخريم ؟

قال برونيه : – كلا ، هي معمل الزجاج .

فقال بلونديته بلهجة غموض واحترام .

– آه ! آه !

والمدينة سوداء تحت السماء الزرقاء ، والوجوه تحزن ، ويقول رجل بحزن : – طريف ان نرى مدينة .

وهبطوا شارعاً خالياً مسرعين ؛ وكانت شظايا زجاج تملأ الرصيف

والطريق ، ويضحك بلوندينه مشيراً اليها باصبعه، ويقول :

ـ هذا هو مصنع زجاج بكارا .

ويرفع برونيه رأسه : البيوت سليمة ولكن جميع الزجاج محطم ، ويردّد صوتٌ خافه :

ـ طريف ان نرى مدينة .

جسر ؛ ويتوقف العمود ، وتلتفت ملايين العيون نحو النهر : خمسة ألمان عراة تماماً يلعبون في الماء ، ويتراشقون به وهم يطلقون صرخات صغيرة ؛ وعشرون الف فرنسي ترشح اثوابهم بالعرق ينظرون الى تلك البطون والأفخاذ التي حماها متراس المدافع والدبابات مدة عشرة أشهر والتي تعرض نفسها الآن بطراوتها في قحة هادئة . كان الأمر كذلك ، ولم يكن الا كذلك : إن المنتصرين عليهم هم هـذا اللحم الأبيض الرخص. ومزّقت الجمع تنهدة منخفضة وعميقة: لقد تحمّلوا بلا غضب عرض جيش منتصر على دبابات النصر ؛ اما هؤلاء الألمان العراة الذين يلعبون في الماء ، فانهم إهانة . وانحنى لامبير فوق الإفريز ، فنظر الى الماء وتمتم :

ـ لا بدّ انه ماء لذيذ !

وكان ذلك اقلّ من رغبة : لم يكن إلا أسفَ ميت . وعـاد الجمع ، وهو ميت ، منسيّ ، مدفون في حربٍ فات أوانها ، عاد يسير في الجفاف والحرّ ودوّامات الغبار ، وانفتحَ باب كبير وهو يصرّ ، وتقاربت جدران عالية ، داخل ساحة هـائلة ، عبر الهواء الذي يرتعش ، ورأى برونيه ثكنة ذات نوافذ مغلقة ؛ وتقدم ، ودفع من الخلف ، فالتفت :

ـ كفى دفعاً ، سندخل جميعاً .

واجتاز العتبة ، وضحك مولو راضياً :

ـ انتهينا اليوم .

انتهى عالم المدنيين والمنتصرين ، عالم الحور والانهار المرتعشة من الشمس ، وهم سيكمّنون بين هذه الجدران حربهم القديمة القذرة ، سينسلقون في مرقهم ، بلا شاهد ، فيما بينهم . ويتقدّم برونيه ، ويُدفع من خلف ، يتقدّم حتى داخل الساحة ، ويتوقف عند الجرف الرمادي . ويدفعه مولو من مرفقه :

هذه ثكنة الحرس المتحرك .

مئة شباك مغلق ؛ وسلم من ثلاث درجات يفضي الى باب مقفل . والى يسار السلم ، على بعد مترين من الثكنة ، أقيم متراس صغير من القرميد ارتفاعه متر وطوله متران ؛ واقترب منه برونيه فأسند جانبه اليه . وامتلأت الساحة ، وكان تيار متصل يركم القادمين الاول بعضهم لصق بعض ويدفعهم الى جدار الثكنة ، وكانوا لا ينقطعون لحظة ؛ وفجأة دار مصراعا الباب الثقيلان على نفسها وانغلقا . وقال مولو :

ــ حسناً ، ها نحن في بيتنا .

ونظر لامبير الى الباب وقال في رضى :

ــ هناك جمع لم يستطع ان يدخل : فينبغي ان يناموا خارجاً .

وهزّ برونيه كتفيه :

ــ ان تنام في الساحة او في الشارع ..

قال لامبير : ــ ليس الأمر سواء .

فوافق الأشقر برأسه ، وقال موضحاً :

ــ نحن هنا ، لسنا خارجاً .

وأضاف لامبير :

ــ اننا في بيت لا سقف له .

واستدار برونيه ، فأخذ يتفحص الأمكنة ، مولياً الثكنة ظهره : كانت الساحة امامه تهبط في منحدر دقيق حتى جدار السور ، وكان مركزا مراقبة يقومان على قمة الجدار ، يفصل بينهما مئة متر : وكانا

خالين . وكان صف من الاوتاد المغروسة حديثاً والتي مُدت بينهما أسلاك حديدية وحبال ، يقسم الساحة الى قسمين غير متساويين ، كان أصغرهما — وهو رقعة أرض ضيقة نسبياً تمتد بين السور والاوتاد — فارغاً . اما في القسم الآخر ، بين الاوتاد والثكنة ، فقد كان الجميع متراكمين . الرجال منزعجون ، وكأنهم في زيارة ، وليس ثمة من يجرؤ على الجلوس ؛ وهم يحملون قربهم ورزمهم في ايديهم وفوق أذرعتهم ، والعرق يسيل على خدودهم ، وقد غادر الذكاء الفرنسي وجوههم ، ودخلت الشمس الى عيونهم الفارغة ، وهم يفرون من الماضي والمستقبل القريب الى موت صغير مزعج وموقت . ولم يكن برونيه ليعترف لنفسه بأنه عطش ، وقد أراح قربته ووضع يديه في جيبه ، وأخذ يصفر . وأدى رقيبٌ التحية العسكرية له ، فبسم له برونيه من غير ان يرد له التحية . واقترب الرقيب :

— ماذا ننتظر ؟

— لا ادري .

وكان رجلا طويلا هزيلا صلباً ذا عينين كبيرتين كدّرهما الكبر ؛ وكان شارب يعترض وجهه المعظم ، وكانت له حركات حية قاسية قد تعلمها . وسأل :

— من يأمر ؟

— ومن تريد ان يأمر ؟ انهم الألمان .

— ولكن عندنا ؟ اين هم المسؤولون ؟

فضحك برونيه وقال :

— إبحث عنهم .

فأمتلأت عينا الرقيب بلوم محتقر : كان بوده ان يأمر في المحل الثاني ، ان يجمع شكر الطاعة الى لذة اصدار الأوامر ؛ ولكن برونيه لا يريد بعد ان يأمر قط ؛ لقد انتهت قيادته حين سقط آخر رجاله

ميتاً . اما الآن فان في رأسه شيئاً آخر . وسأل الرقيب بنفاد صبر :

– لماذا يترك هؤلاء المساكين على أهبة الاستعداد ؟

فلم يجب برونيه ؛ ورماه الرقيب بنظرة غاضبة ، وقرر ان يأمر في المحل الاول . وتجمهر ، وأحاط فمه بيديه وصاح :

– ليجلس الجميع !

فـالتفتت رؤوس ، حيرى ، ولكن الأجسام لم تتحرك . وكرر الرقيب :

– ليجلس الجميع ! الجميع !

فجلس البعض بهيئة مستنيمة ، ورددت أصواتُ الصدى : ليجلس الجميع ؛ وتماوج الجمع ورقد . واستدارت الصيحة فوق الرؤوس ، ليجلس الجميع ، وانسلت الى الجانب الآخر من الساحة ، فاصطدمت بالجـدار ، وعادت مقلوبة بطريقة سرية : ليقف الجميع ، ليبقوا واقفين ، انتظروا الاوامر . وينظر الرقيب الى برونيه في حيرة : إن له هناك منافساً ، من جانب الباب الكبير . ونهض بعض الرجال قافزين ، فتناولوا قربهم وضموها الى صدورهم وهم يرسلون نظرات مطاردة في كل مكان . ولكن معظمهم يظل جالساً ، ثم يعود من كان وقف الى الجلوس رويداً رويداً . ويتأمل الرقيب عمله في ضحكة بلهاء :

– لم يكن ثمة إلا ان آمر .

فنظر اليه برونيه وقال له :

– اجلس ، يا رقيب .

فطرف الرقيب بعينيه ، فردد برونيه :

– اجلس : الأمر هو ان تجلس .

فتردد الرقيب ثم تداعى للسقوط على الأرض بين لامبير ومولو : وأحاط ركبتيه بذراعيه ، ونظر الى برونيه من تحت الى فوق ، فاغر الفم . وشرح له برونيه :

– انا أبقى واقفاً لأني ضابط صف .

ولا يريد برونيه ان يجلس : لقد كانت الاوجاع تصعد من ركبتيه الى فخذيه ، ولكنه لا يريد ان يجلس . ويرى الوفاً من الظهور وأمشاط الأكتاف ، ويرى رقاباً تتحرك ، واكتافاً تهتز ؛ إن لهذا الجمع حركاته وعاداته . وكان ينظر اليه يحترق ويخفق ، وكان يفكر بلا ضجر ولا لذة : تلك هي المادة . انهم ينتظرون متوترين ؛ ولا يبدو عليهم بعد أنهم جائعون .. فلا بد ان الحرارة قد أفسدت معدهم . فهم خائفون، منتظرون . وما عساهم ينتظرون ؟ أمراً أو كارثة أو الليل : اي شيء يحررهم من ذواتهم . ويرفع احتياطي ضخم رأسه الممتقع ، ويومي‌ء الى احد برجي المراقبة :

– لماذا يتغيب الحراس عنه ؟ ماذا تراهم يفعلون ؟

ويتلبث لحظة ، وتغمر الشمس عينيه المقلوبتين ، ثم ينتهي الى انه يهز كتفيه ويقول بصوت خائب قاس :

– عندهم كما عندنا ، ينتهزون عدم التنظيم .

وينظر برونيه ، وهو واقف وحده ، الى الرؤوس ويفكر : إن الرفاق هنا في الداخل ، ضائعين كالإبر في التبن ، ويحتاج تجميعهم من جديد الى الوقت . وينظر الى السماء ، والى الطائرة السوداء في السماء ، ثم يخفض عينيه ويدير رأسه ، فيلمح الى يمينه شخصاً طويلا لم يجلس . انه عريف ؛ وهو يدخن سيكارة . وتمر الطائرة في ضجة هادرة ، ويحول الجمع ، وهو مقلوب كالسهـــل ، من الاسود الى الابيض ، ويزدهر : فبدلا من الرؤوس القاسية السوداء ، تتفتح بالألوف زهرات كاميليا كبيرة : وتلتمع نظارات ، شظايا زجاج وسط الزهرات . ولم يتحرك العريف : بل انه يقوس كتفيه العريضتين وينظر الى الأرض بين قدميه . ويلاحظ برونيه في ودّ انه كان حليق الذقن . ويلتفت العريف وينظر الى برونيه بدوره : إن له عينين كبيرتين محاطتين بدائرة مزرقة ؛

ولولا أنفه الأفطس ، لكان جميلا على وجه التقريب ، وفكر برونيه : « لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما . » ولكن اين « انه لا يذكر بعد » فكثيرة هي الوجوه التي رآها ! وتخلى عن التذكر ؛ ليس لذلك كبير أهمية ، ثم إن الرجل لم يبد عليه انه عرفه . وفجأة صاح برونيه:

ــ ايه !

فرفع الرجل عينيه :

ــ ماذا ؟

ولا يبدو السرور على برونيه : لم تكن به رغبة قط في ان ينادي هذا الشخص . غير ان الآخر كان واقفاً ، ونظيفاً تقريباً ، وحليقاً .. وقال برونيه بغير حماسة :

ــ تعال من هنا . اذا اردت ان تظل واقفاً ، فبوسعك ان تستند الى الجدار الصغير .

فانحنى الرجل ، والتقط رزمته ، ولحق ببرونيه وهو يتخطى الأجسام . إنه شديد البأس ، ولكنه سمين بعض الشيء .

وقال : ــ مرحباً ، يا صاح .

قال : ــ مرحباً .

قال الرجل : ــ سأقف هنا .

فسأله برونيه : ــ هل انت وحدك ؟

قال الرجل : ــ لقد مات رجالي .

قال برونيه : ــ ورجالي أيضاً . ما اسمك ؟

فسأله الرجل : ــ ماذا تقول ؟

ــ أسألك عن اسمك .

ــ آه ، نعم : اسمي شنايدر . وأنت ؟

ــ برونيه .

ولزما الصمت : ما حاجتي الى مناداة هذا الرجل ؛ انه سيزعجني .

ونظر برونيه الى ساعته : انها الخامسة ؛ الشمس مختبئة خلف الثكنة ، ولكن السماء تظل ساحقة ؛ لا غيمة ، ولا رعشة : البحر الميت . ليس ثمة من يتكلم ؛ وحول برونيه ، يحاول البعض ان ينام ، وهم يدسون الرأس بين الـذراعين ، ولكن القلق يخلفهم يقظين : فيستقيمون أو يتنهدون أو يحكّون رؤوسهم ، وقال مولو :

– ايه ! ايه ! ايه !

فالتفت برونيه : كان عشرة من الضبـاط يقودهم حارس ألماني يمرّون خلفه وهم يلامسون الجدران ، وسأل الأشقر ، من بين اسنانه:

– الا يزال هناك بعضهم ؟ ألم يلوذوا جميعاً بالفرار ؟

ويبتعد الضباط في صمت ، من غير ان ينظروا الى احد ؛ ويقهقه الرجال في انزعاج ويصرفون رؤوسهم لدى مرورهم : فكأنهم يخافون بعضهم بعضاً . ويبحث برونيه عن نظر شنايـدر ، ويتبادلان بسمة . انفجار صيحات على الأرض : انه الرقيب يضحك مع بلوندينه . وقال البلوندينه الأشقر :

– جميعاً ! في السيارات ، وعلى الدراجات ، لقد افرنقعوا جميعاً وتركونا في الخراء .

وشبك الرقيب ذراعيه :

– من المؤلم ان نسمع هذا . من المؤلم ، بالرغم من كل شيء .

فأجاب الأشقر :

– والدليل ان الألمان قالوها لنا . قالوها لنا حين اصطادونا ، قالوا لنا : الجيش الفرنسي جيش بلا قائد !

– والحرب الماضية ، ألم يربحها القواد ؟

– لم يكونوا القواد انفسهم .

– بل كانوا هم انفسهم ! ولكن كانت لديهم فرقٌ اخرى .

– يعني ؟ أنحن الذين خسرنا الحرب ؟ الصف الثاني ؟ ولكن قلها،

ما دمت تعنيها !

فأجاب الرقيب : — انني أقولها . اقول انكم هربتم امام العدو وسلمتم فرنسا .

واحمر لامبير الذي كان يستمع اليهما من غير ان يقول كلمة ، وانحنى على الرقيب :

— ولكن قل لي : يا صديقي الصغير ، كيف حدث انك هنا ، لو لم تهرب ؟ لعلك تظن انك متّ في ساحة الشرف ، واننا الآن في الجنة ؟ اما انا ، فأظن انهم قبضوا عليك لأنك لم تكن تستطيع ان تركض بسرعة كافية !

— لست صديقك الصغير : فانا رقيب ، ويمكنني ان اكون اباك . ثم انني لم اهرب : فقد قبضوا عليّ حين نفد رصاصي .

وزحف اليهم رجال من كل صوب ، فاستشهدهم الأشقر وهو يضحك :

— أتسمعونه ؟

فضحك الجميع . والتفت الأشقر الى الرقيب :

— نعم ، يا بابا ، نعم ، لقد أسقطت عشرين مظلياً ، واوقفت دبابة بمفردك . وبوسعي ان أقول مثل ذلك : فليس هناك من أدلة .

فأشار الرقيب الى ثلاثة أمكنة فاتحة على سترته ، والتمعت عيناه :

— المدالية العسكرية ، جوقة الشرف ، صليب الحرب : لقد حصلت عليها في حرب ١٤ ، حين لم تكونوا قد ولدتم بعد ؛ هذه هي أدلتي .

— وأين هي أوسمتك ؟

— لقد نزعتها حين وصل الألمان .

وكان الجميع يصرخون حوله ، مستلقين على بطونهم ، أو مقوسين من الأقدام حتى الرقبة ، فكأنهم الفقم ؛ كانوا ينبحون ، وكانت الحماسة تلون وجوههم ؛ وكان الرقيب في جلسته يشرف عليهم ،

وحيداً ضد الجميع . وصاح رجل :

– ايه ! قل لي ايها المنفوخ ، اتظن اني كنت مستعداً للقتال حين كانت اذاعة الاب بيتان تهتف في آذاننا أن فرنسا طلبت الهدنة ؟

وقال آخر : – وكنت تريد ان نعرّض نفوسنا للقتـــل بينما كان الجنرالية يُصفّون الحساب مع الألمان في قصر تاريخي ؟

فأجاب الرقيب في غضب :

– ولِمَ لا ؟ إن الحرب قد صنعت لقتل الناس ، أليس كذلك ؟

فصمتوا لحظة ؛ مشدوهين بالغيظ ، فانتهزها الرقيب فرصة ليتابع :

– مضى وقت طويل وانا اراكم قادمين ، انتم فتيان الـ ٤٠ ، الضراطين الصغار ، والسحن الغرامية ، وجماعة الاحتجاجات . لم يكن أحد يجرؤ على التحدث اليكم ، وكان يجب على الكابتين ان يضع قبعته بيده حتى يوجه اليكم الكلام : عفواً ، المعذرة ، هل يزعجكم كثيراً ان تقشروا البطاطا ؟ وكنت اقول لنفسي : حذار ! سيأتي يوم تقع فيه الحرب ، فماذا تراهم سيفعلون ، قوّادي الأشداء ؟ ثم جاءت نهاية كل شيء : المأذونيات . آه ! حين رأيت المأذونيات قلت لحقيبتي وداعاً ! مأذونيات! لا بد انهم كانوا يجدونكم منفوخين جداً ، فكانوا يرسلونكم سريعاً لتمصكم صاحباتكم حتى يزلن نفختكم قليلاً . أكنا نأخذ مأذونيات في عام ١٤ ؟

– نعم ، كنتم تأخذون مأذونيات . لقد أخذتم بالفعل !

– وكيف عرفت ذلك ايها الطفل ؟ هل كنت في تلك الحرب ؟

– لم اكن فيها، ولكن كان لي فيها صديق ، وهو الذي أخبرني.

– إن صديقك كان يخوض الحرب في مارسيليا . اما نحن ، فقد انتظرناها عامين، هذه المأذونيات؛ ومع ذلك ، فقد كانت تُلغى لادنى سبب ، أتعرف كم قضيت من الوقت في بيتي خلال اثنين وخمسين شهراً من الحرب؟ قضيت اثنين وعشرين يوماً . أجل ، اثنان وعشرون

يوماً ، يا صغيري ، فهل يدهشك هذا ؟ وهناك من يقول اني كنت محظوظاً .

قال لامبير : — كفى ، لا تقصّ علينا حياتك .

— اني لا أقصّ عليكم حياتي ، وانما اشرح لكم لماذا ربحنا حربنا ، ولماذا خسرتم حربكم .

والتمعت عينا بلونديته بالغضب :

— ما دمت ذكياً الى هذا الحد ، فربما كان باستطاعتك ان تشرح لنا لماذا خسرتم السلم ؟

فقال الرقيب مندهشاً : — السلم ؟

فصاح الآخرون : — نعم ! السلم ! لقد فقدت السلم .

قال بلونديته : — انتم المحاربين القدامى ، كيف تراكم قد حميتم ابناءكم ؟ هل جعلتم المانيا تدفع الثمن ؟ هل نزعتم سلاحها ؟ وريننانيا؟ والرور ؟ وحرب اسبانيا ؟ والحبشة ؟

وقال فتى طويل ذو رأس شبيه برغيف سكّر :

— ومعاهدة فرساي ! أأنا الذي وقعتها ؟

فقال الرقيب ضاحكاً من الغيظ :

— بل ربما كنت أنا !

— نعم ، أنت ! انت تماماً ! كنت تنتخب ، أليس كذلك ؟ انا لم اكن انتخب ، لانني في الثانية والعشرين ، انني لم انتخب قط .

— وعلامَ يدلّ هذا ؟

— هذا يدلّ على انك كنت تنتخب كالحمار ، وانك ألقيت بنا في الخراء . كان امامك عشرون عاماً لتُعدّها او لتتجنبها ، هذه الحرب ، فماذا فعلت ؟ اقول لك يا صديقي انني انا اساويك ، ولو كان لي ذادة وسلاح ، لحاربت مثلك . ولكن قل لي : بمَ تريدني ان احارب ؟ لم يكن معي حتى الرصاص .

فسأله الرقيب : — وعلى من يقع الذنب ؟ من الذي كان يصوّت لستالين ؟ من الذي كان يعلن الاضراب لمجرد ضرطة ، لا لشيء إلاّ ليبعص رب العمل ؟ من الذي كان يطالب بالزيادات ؟ من الذي كان يرفض الساعات الاضافية ؟ السيارات والدراجات ، أليس كذلك ؟ المومسات الصغيرات ، العطل المدفوعة ، ايام الأحد في الارياف ، نوادي الشبيبة والسينما ؟ لقد كنتم كسالى الى ابعد حد . اما انا ، فقد اشتغلت حتى في ايام الأحد ، وطوال حياتي الكلبة كلها .

وأصبح وجه الاشقر أحمر ، فاقترب من الرقيب زاحفاً على اربع وصاح في وجهه :

— كرّرها ، كرّر اني لم أشتغل ! قلها ثانية ! انني ابن ارمل ، ايها الفرج ! وقد تركت المدرسة وانا في الحادية عشرة لأساعد امي .

كان يحتمل ، في أقسى الظروف ، ان يكون قد خسر الحرب ، ولكنه لا يسمح ان يتهم بأنه لم يعمل . وفكر برونيه : قد يكون في هذا ما يفيد . وركع الرقيب ، هو ايضاً ، على اربع ، وأخذا يصيحان معاً ، جبيناً لجبين . وانحنى شنايدر ، كما لو انه يريد التدخل؛ فوضع برونيه يده على ذراعه :

— دعهما : انهما يمضيان الوقت .

فلم يُصر شنايدر ، واستوى وهو يرمق برونيه بنظرة غريبة .

وقال مولو : — كفى ، كفى ، لا تتقاتلا .

فعاد الرقيب الى الجلوس وهو يطلق ضحكة قصيرة ، وقال :

— انت على حق في ذلك ! لقد فات الاوان قليلاً لنتقاتل . لو كان يرغب في ذلك ، فما كان عليه الا ان يفعله مع الألمان .

فهزّ الأشقر كتفيه وعاد يجلس بدوره . وقال :

— عجباً ! إنك تحدث لي ألماً في بطني !

صمت طويل . انهم جالسون جنباً الى جنب ؛ وينتزع الأشقر باقات

عشب ، ويتسلى في جدلها ؛ وينتظر الآخرون لحظة ، ثم يعودون الى أمكنتهم زاحفين ، ويتمطى مولو ويبسم ، ويقول بصوت مصالح :

— هذا كله غير جدّي ، هذا غير جدي .

ويفكر برونيه بالرفاق : كانوا يخسرون معارك ، وأسنانهم منقبضة ، ومن هزيمة الى هزيمة ، كانوا يسيرون الى النصر . وينظر الى مولو . انني لا اعرف هذا النوع . انه بحاجة الى ان يتكلم : إن شنايدر هنا . ويتحدث اليه برونيه :

— اترى ؟ لم تكن بك حاجة الى التدخل .

فلا يجيب شنايدر . ويقهقه برونيه ، مقلداً مولو :

— هذا غير جدّي !

فلا يجيب شنايدر بشيء : ويظلّ وجهه الثقيل الجميل محايـداً . وينزعج برونيه ويوليه ظهره : إنه يكره المقاومة السلبية .

ويقول لامبير : — اريد ان آكل .

فيومىء مولو باصبعه الى الحيّز الذي يفصل السور عن الاوتاد ، ويتكلم بصوت بطيء حارّ ؛ كأنه ينشد قصيدة :

— سيأتي الطعام من هناك ، سينفتح الحاجز ، وتدخل الشاحنات ، فيلقون الينا بالخبز من فوق الشريط الحديدي .

وينظر برونيه الى شنايدر من زاوية عينه ويقهقه مردّداً :

— أترى ؟ يخطيء من ينفعل . فالهزيمة ، والحرب ، ليسا شيئاً جدياً . إن الطعام هو المهم .

فتسيل نظرة هازئة قصيرة بين أجفان شنايدر ، ويقول بلهجة مشاركة :

— ماذا فعلوا لك ، يا صديقي المسكين ؟ فانه لا يبدو عليك انك تطيقهم .

قال برونيه بجفاء : — لم يفعلوا لي شيئاً ، ولكني أسمعهم .

ويخفض شنايدر عينيه على يده اليمنى نصف المغلقة ، وينظر الى أظافره ، ويقول بصوته الأجشّ اللامبالي :

– من الصعب ان نساعد الآخرين حين لا نكنُّ لهم الودّ .

ويقطب برونيه حاجبيه : كانت صورتي غالباً ما تظهر في الصفحة الاولى من « الاومانيتيه » ، فمن السهل معرفتي .

– ما الذي يجعلك تعتقد اني أريد مساعدتهم ؟

فانطفأ وجه شنايدر ، وقال برخاوة ،

– يجب علينا جميعاً ان نساعد بعضنا بعضاً :

قال برونيه : – بكل تأكيد .

ويحنق على نفسه : كان ينبغي عليه اولاً ألاّ يغضب . ولكنه كان يؤاخذ نفسه خاصة لأنه أظهر غضبه لهذا الأبله الذي يرفض ان يشاطره إياه . وابتسم ، وهدأ .

وقال وهو يبتسم :

– اني لست الومهم هم .

– ومن تلوم إذن ؟

فنظر برونيه الى شنايدر بتنبّه :

– الذين تلاعبوا بهم .

فضحك شنايدر ضحكة رديئة ، وصحّح :

– الذين تلاعبوا بنا . فكلنا مركونون تحت لافتة واحدة .

وأحسّ برونيه غيظه يولد من جديد ، فكاد يختنق ، وقال بصوت مفرط الحلم :

– اذا شئت . ولكني انا ، لو تعلم ، لم اكن مخدوعاً بذلك .

قال شنايدر : – وانا ايضاً . وماذا يؤثر ذلك ؟ فمخدوعين كنا ام لا ، فنحن هنا .

– وبعد ذلك ؟ لماذا لا نكون هنا ، وفي مكان آخر ايضاً ؟

أصبح الآن هادئاً تماماً ، وفكر : ان لي مكاني وعملي ، حيثما يوجد الرجال . وكان شنايدر قد أدار عينيه نحو الباب ؛ ولم يقل شيئاً بعد . وينظر اليه برونيه بلا كراهية : ترى ، ما هذا الشخص ؟ مثقف ؟ فوضوى ؟ ما كانت مهنته في عهد السلم ؟ انه مفرط السمنة وبه شيء من عدم الكلفة ، ولكنه بالاجمال متماسك ، ربما كان باستطاعته ان يخدم .

وهبط المساء ، رمادياً مورداً على الجدران ، وعلى المدينة السوداء التي لا ترى ؛ إن الرجال محدّدو النظر ، وهم يتطلعون الى المدينة عبر الجدران . انهم لا يفكرون بشيء، ولا يتحركون بعد قط ، فقد هبط الصبر العسكري الطويل عليهم مع المساء : انهم ينتظرون . لقد انتظروا البريد ، والمأذونيات ، والهجوم الالمــاني ، وكانت تلك طريقتهم في انتظار نهاية الحرب . ولقد انتهت الحرب ، وما يزالون ينتظرون . ينتظرون الشاحنات المليئة بالخبز ، والحرّاس الالمان ، والهدنة ليحتفظوا فقط بكسرة مستقبلٍ أمامهم ، وحتى لا يموتوا . وبعيداً في المساء ، في الماضي يقرع جرس . ويبتسم مولو :

– ايه يا لامبر ! لعلها الهدنة !

فأخــذ لامبر يضحك ، وتبــادلا غمزة مفهومة . وشرح لامبر للآخرين :

– لقد تعاهدنا على أن نأكل وجبة لذيذة هائلة !

قال مولو : – سنفعل ذلك يوم الصلح .

وقهقه البلوندينه الأشقر لهذه الفكرة وقال :

– اما انا ، فلن افيق من سكري خمسة عشر يوماً .

وقال الافراد من حوله :

– خمسة عشر يوماً ، بل شهراً ! حتى نموت من السكر ، يلعن ديو!

كانوا بحاجة الى ان تُهدم آمالهم واحداً واحداً ، وفي صبر ، وأن

تفجّر اوهامهم وان يُكشف لأعينهم وضعهم المريع عارياً ، وان يُثار اشمئزازهم من كـــل شيء ، ومن الجميع ، ومن أنفسهم باديء ذي بدء . اذ ذاك فقط ... وكان شنايدر هو الذي ينظر اليه هذه المرة ، كما لو انه كان يقرأ فكرته . نظرة قاسية . وبادله برونيه نظرته .

وقال شنايدر : — سيكون صعباً .

وانتظر برونيه ، مرفوع الحاجبين .

وردّد شنايدر : — سيكون صعباً .

— ما الذي سيكون صعباً ؟

— ان نُعطى وعياً . فنحن لسنا طبقة . لسنا اكثر من قطيع . قليل من العمال : فلاحون ، وبورجوازيون صغار . بل نحن لا نعمـــل : فنحن مجرّدون .

فقال برونيه بالرغم منه :

— لا تحزن ، فسوف نعمل ...

— نعم ، بكل تأكيد . ولكن كعبيد ، وليس هذا عملا محرر ، ولن نكون ابداً الا تكملة . فأي عملٍ مشترك يمكن ان يُطلب منا ؟ إن الاضراب يمنح المضربين وعياً بقوتهم . ولكن حتى ولو شبك جميع الاسرى الفرنسيين أذرعتهم ، فان الاقتصاد الألماني لن يتأثر بذلك .

وتبادلا النظر ببرودة ، وفكر برونيه : لقـــد عرفتني إذن ؛ لا بأس ، سوف أسهر عليك . وفجأة أضاء الحقد وجه شنايدر ، ثم انطفأ كل شيء . ولم يدر برونيه الى من كان هذا الحقد متجهـــاً . وندّ صوت مندهش مفتون :

— ألماني !

— اين هو ؟ اين هو ؟

ورفع الجميع أنوفهم ، فاذا بجنديّ يبرز في برج المراقبة الأيسر ، مرتديـــاً قبعة ، والرشاش في يده ، والقنبلة في الرزمة ؛ وتبعه آخر يحمل بندقية .

وقال رجل : — اوه ! لقد تأخروا في الاهتمام بنا .

فبدا على الجميع العزاء : هـا هو عالم الرجـال يعود ، بقوانينه ونواميسه وممنوعاته ؛ هذا هو النظام البشري . والتفتت الرؤوس نحو برج المراقبة الآخر . إنه ما يزال خالياً ولكن الناس ينتظرون بثقة ، كما ينتظرون فتح النوافذ في البريد أو مرور القطار الأزرق. وبدت قبعة على ارتفاع الجدار ، ثم اثنتان : مسخان يرتديـان قبعتين ويحملان رشاشاً يركزانه على محمله ويصوّبانه الى الأسرى . ليس ثمة من يخاف، ويقيم الجنود في البرجين ، ويعلن هؤلاء الحرس الواقفون على قمة الجدار ليلاً لا مغامرة فيه ؛ لن يأتي أي امر فيخرج الأسرى من سباتهم ليلقي بهم في الطرقات ؛ انهم يستشعرون الطمأنينة . وسحب فتى كبير يضع نظارتين من حديد كتاباً كهنوتياً من جيبه وجعل يقرأه مدمدماً . وفكر برونيه : « انه يمارس البغاء » ولكن الغضب انزلق عليه من غير ان يخترقه . وارتاح . للمرة الاولى منذ خمسة عشر عاماً ، يسير نهار ببطء شديد ، وينتهي بمساء جميل ، من غير ان يكون لديه مـا يفعله . وصعدت بطالة قديمة من ايام حداثته ، وكانت السماء هنا ، قد حطت على الجدار ، متوردة ، قريبة ، غير صالحة للاستخدام . ونظر اليها برونيه في خجل ، ثم نظر الى الافراد عند قدميه يتحركون ويهمسون ويحلون رزمهم ويربطونها : مهاجرون عـلى ظهر سفينة . وفكر : « ليس الذنب ذنبهم » وأخذته الرغبة في ان يبتسم لهم . وفكر بان قدميه تؤلمانه ؛ وجلس بالقرب من شنايدر ، فحـلّ سير حذائه . وتثاءب ، وأحسّ بجسمه ، غير صالح للاستخدام كالسماء ، وقال : « بدأ الطقس يبرد » غداً سوف يبدأ العمـل . وكان اللون الرمادي يشمل الأرض ، وسمع صوت مصفّقات ، صوتاً صغيراً عذباً ، ضجة صغيرة متلاحمة وغير منتظمة ، فأصغى اليها ، وحاول ان يتابع إيقاعها، وتسلى بالتفكير بأنها « مورس » وفكر فجأة : « بل هو شخص يصفق

أسنانه » واستوى ، فميّز أمامه ظهراً عارياً عليه قروح متصلبة سوداء ، انه الشخص الذي كان يصرخ في الطريق ، وزحف اليه : كان الرجل مقشعراً .

قال برونيه : — ايه !

فلم يجب الرجل ، فأخرج برونيه صدرة من قربته .

— ايه !

ولمس الكتف العارية ، فأخذ الرجـــل يهمدر ، والتفت فنظر الى برونيه لاهثاً ، وكان المخاط يسيل من منخريه حتى فمه . ورآه برونيه مواجهة للمرة الاولى : انه فتى جميل نضر ذو خدين أزرقين وعينين عميقتين ، ولكن بلا جفون . وقال له برونيه بهدوء :

— لا تنفعل ايها الصغير . اردت ان أعطيك صدرة .

فأخذ الفتى الصدرة بهيئة خائفة ، فارتداها بوداعة وظلّ جامداً ، متباعد الذراعين . وكان كلاهما مفرطين في الطول بحيث كانا يبلغـــان أظافره . وضحك برونيه :

— شمرهما .

فلم يجب الفتى ، وكانت اسنانه تصطك ؛ وأخـــذ برونيه ذراعيه فشمّر كميه ، وقال الفتى :

— انها لهذا المساء .

قال برونيه : — ما الذي هو لهذا المساء ؟

قال الفتى : — المجزرة .

قال برونيه : — حسناً ، حسناً .

وبحث في جيب الفتى ، فأخرج منه منديلا قذراً وملطخاً بالدم ، فرماه وأخذ منديله الخاص فمدّه له :

— بانتظار ذلك ، تمخّط .

فتمخّط الفتى ، ووضع المنديـــل في جيبه وبدأ يهذي . فلامس

برونيه رأسه بلطف ، كما يلامس رأس حيوان ، وقال له :

ـ أنت على حق .

فهدأ الفتى ، وكفّت أسنانه عن الاصطكاك . واستـــدار برونيه الى جيرانه :

ـ من يعرفه ؟

فتحامل قصير أسمر ذو هيئة حيّة على مرفقيه وقال :

ـ انه شاربان .

قال برونيه : ـ راقبه بين وقت وآخر ، حتى لا يرتكب حماقات .

قال الرجل : ـ سأراقبه .

وسأله برونيه : ـ ما اسمك ؟

ـ فيرنييه .

ـ ماذا كنت تفعل ؟

ـ كنت عامل مطبعة في ليون .

عامل مطبعة : حظ من ثلاثة ؛ سأتحدث اليه غداً .

قال برونيه : ـ ليلة سعيدة .

فقال عامل المطبعة : ـ ليلة سعيدة .

وعاد برونيه الى مكانه ، فجلس ، واستعرض الوضع . مولو : تاجر ، هـــذا مؤكد . لن نفيد شيئاً كثيراً منه . وكذلك الرقيب ، لا يمكن إصلاحه ؛ فهو من نوع كاغول . لامبير : شرس معاند . وهو الآن في إبان التحلـــل تحت وقاحته . يمكن كسبه . الشتيمي : فلاح . جدير بالاهمال . ولم يكن برونيه يحب الفلاحين . البلوندينه الأشقر : هو ولامبير من طينة واحدة ؛ ولكن الأشقر اكثر ذكاء ، ثم انه يملك حسّ احترام العمل . انه ثمرة ناضجة . عامل المطبعة : هو بالأغلب رفيق جديد ؛ وألقى برونيه نظرة على شنايدر الذي يدخن ، جامداً ، مفتوح العينين على سعتهما . « اما هذا ، فسنرى أمره . »

ووضع الكاهن كتابه ، وتكلم ؛ وكان ثلاثة فتية مضطجعين بالقرب منه ، يصغون اليه في ألفة تقيّة . لقد كسب ثلاثة : سوف يهزمني بسرعة ، في الفترة الاولى على الأقـــل . وفكر برونيه : إن هؤلاء الفتية محظوظون . فبوسعهم ان يعملوا في وضح النهار ؛ سيتلون يوم الأحد قدّاسهم . وتنهد مولو :

ـــ لن تأتي بعد هذا المساء .

فسأله لامبير : ـــ من تعني ؟

ـــ الشاحنات . فالليل مفرط الظلام .

ونام على الأرض ، واضعاً رأسه علي قربته . وقال لامبير :

ـــ انتظر . إن عندي شراع خيمة . كم يبلغ عددنا ؟

قال مولو : ـــ سبعة .

قال لامبير : ـــ سبعة . انه يسعنا جميعاً . وسننام عليه نحن السبعة.

وبسط شراعه امام السلم .

ـــ ومن معه لحاف ؟

فأخرج مولو لحافه ، وبسط الرقيب والشتيمي لحافيهما . ولم يكن بلوندينه يملك لحافاً . وكذلك برونيه . وقال لامبير :

ـــ لا بأس . سوف نتدبر الأمر .

وخرج من الظل وجه خجول مبتسم :

ـــ اذا تركتموني أنام على شراع الخيمة ، شاركتكم بغطائي .

فنظر لامبير وبلوندينه الى الدخيل ، وقال بلوندينه :

ـــ لم يبق مكان لك .

وأضاف مولو في لهجة اكثر وداً :

ـــ انك تفهم ، فنحن رفاق فيما بيننا .

واختفت البسمة ، وقد التهمها الليل . وهكذا : تشكل فريق وسط هذا الجمع ، فريق مصادفة ، بلا صداقة ولا تضامن حقيقي ، ولكنه

قد بدأ ينغلق من دون الآخرين ؛ وكان برونيه في داخله . وقـــال له شنايدر :

ـ تعال . فسوف ننام كلانا تحت غطائي .

فتردد برونيه :

ـ بعد قليل . لا رغبة لي بالنوم .

قال شنايدر : ـ وأنا كذلك .

وظلا جالسين جنباً الى جنب بينما كان الآخرون يلتفون بأغطيتهم ، وكان شنايدر يدخن وهو يخفي سيكارته في يـــده بسبب الحرس . وأخرج علبة « غولواز » فمدها الى برونيه .

ـ سيكارة ؟ اذا اردت ان تشعلها فاذهب وراء الجدار الصغير ، فانهم لا يرون اللهب .

وكان برونيه راغباً في التدخين . ورفض :

ـ شكراً . ليس الآن .

إنه لن يلعب لعب التلاميذ ، فهو ليس بعـــد في السادسة عشرة : ان معصية الألمان في الامور الصغيرة هي طريقة للاعتراف بسلطتهم .

وأضاءت النجوم الاولى . وفي الجانب الآخر من الجدار ، كانت تسمع موسيقى حامزة ، موسيقى المنتصرين . وكان النوم يتدحرج على عشرين الف جسم مهترىء ، وكل جسم موجة . وكان هذا التموّج يهدر كالبحر . وبدأ برونيه يشعر بالضجر من ان لا يفعل شيئاً ؛ إن من الممكن تقليب اوراق سماء جميلة ، ونحن في الانتظار . ومثل ذلك النوم . والتفت الى شنايدر وهو يتثاءب ، وفجأة قست عيناه ، فاستوى : لم يكن شنايدر متنبهاً ، فقد انطفأت سيكارته ولم يشعلها من جديد ، وتدلت من شفته السفـــلى ، وكان ينظر الى السماء بأسى ، آن الاوان لمعرفة ما بداخله .

وسأل برونيه : ـ أنت من باريس ؟

ـ لا .

فاتخذ برونيه هيئة اللامبالاة وقال :

ـ امـــا انا فأسكن باريس ، ولكني من كومبلو ، بالقرب من سانت إتيان .

صمت . وبعد لحظة ، قال شنايدر على مضض :

ـ انني من بوردو .

قال برونيه : ـ آه ! آه ! انني أعرف بوردو جيـــداً . مدينة جميلة ، ولكنها حزينة ، أليس كذلك ؟ أهناك كنت تعمل ؟

ـ نعم .

ـ وماذا كنت تعمل ؟

ـ ماذا كنت أعمل ؟

ـ نعم .

ـ مساعد . مساعد محام .

قال برونيه : ـ آه !

وتثاءب ؛ لا بدّ من ان يتدبّر الأمر لرؤية دفتر شنايدر العسكري . وسأله شنايدر :

ـ وأنت ؟

فانتفض برونيه :

ـ انا ؟

ـ نعم .

ـ وكيل .

ـ وعمّ كنت تتوكل ؟

ـ كل شيء تقريباً .

ـ فهمت .

وتداعى برونيه للاستناد الى الجدار الصغير ، ثم رفع ركبتيه حتى

نفه وقـال بصوت قصي ، كما لو انه يستعرض أحداث يومه قبـل أن ينام :

ـ وهكذا !

قال شنايدر بالصوت نفسه :

ـ هكذا ! هكذا !

قال برونيه : ـ لقد عرّوا لنا مؤخراتنا .

قال شنايدر : ـ كان ذلك مؤكداً .

قال برونيه : ـ بالرغم من هزيمتنا ، فمن حسن الحظ ان ذلك انتهى بسرعة : إن النزف أقلّ .

فقهقه شنايدر : ـ سوف ينزفوننا شيئاً فشيئاً : وستكون النتيجة واحدة .

فرمقه برونيه : ـ يبدو لي انك انهرامي .

ـ لست انهزامياً ، ولكني أحقّق الهزيمة .

فسأله برونيه : ـ اية هزيمة ؟ ليس ثمة من هزيمة اكثر مما هناك من خراء !

وتوقف ظاناً ان شنايدر سيحتجّ ، ولكنه لم يبال . وكان ينظر الى قدميه في كسل : وكان عقب سيكارته ما يزال متدلياً من زاوية شفته . ولم يكن برونيه ليستطيع ان يتوقف الآن : فيجب ان يبسط فكرته ؛ ولكنها « ليست بعد » الفكرة نفسها . فلو ان هذ الأحمق قد سأله مجرّد سؤال ، لألقاها برونيه عليه كالخاطوف ؛ اما الآن ، فينفره ان يتكلم . إن الكلمات ستنزلق على هذه الكتلة الضخمة اللامبالية من غير ان تخلف فيها أثراً .

ـ يظنّ الفرنسيون ان الحرب خاسرة ، بدافع من الشوفينية . انهم يتصورون دائماً انهم وحدهم في الدنيا ، فاذا تلقّى جيشهم الذي لا يُقهر صفعةً ما ، أقنعوا أنفسهم بأن كل شيء قد ضاع وهلك .

فأرسل شنايدر صوتاً مخناً صغيراً ، وعزم برونيه على ان يكتفي

به واستطرد :

– إن الحرب في بدايتها يا صديقي . وبعد ستة أشهر سنقاتل من « الكاب » الى مضيق « بهرنغ » .

فقهقه شنايدر وقال :

– نحن ؟

قال برونيه : – نحن الفرنسيين ، سنتابع الحرب في ميادين اخرى : إن الالمان يريدون ان يجعلوا صناعتنا عسكرية ؛ وتستطيع البروليتاريا ويجب عليها ان تمنعهم من ذلك ..

فلم يكن لدى شنايدر اي ردّ فعل ، وظل جسمه العتليّ جامداً . ولم يكن برونيه يحبّ ذلك ، فان الصمت الثقيل المربك ، هو من اختصاصه ؛ لقد هُزم على أرضه بالذات ؛ كان يريـــد ان يحمل شنايدر على الكلام ، وكان هو الذي ابتلع الصنّارة في آخر المطاف . وصمت بدوره ، وظلّ شنايدر على صمته : وكان يمكن لذلك ان يدوم طويلاً . وبدأ برونيه يقلق : إن هذا الرأس افرغ مما ينبغي ، او أملأ مما ينبغي . وكان ثمة ، غير بعيد عنها ، رجلٌ يعوي عواء خفيفاً . وكان شنايدر هو الذي قطع الصمت هـــذه المرة ، فتكلم في شيء من الحرارة :

– أتسمعه ؟ إنه يظنّ نفسه كلباً .

فهز برونيه كتفيه : لم يكن ذلك اوان التعطّف على فتىً يحلم ، وليس لي وقت أضيعه . وقال شنايدر بصوت ثقيل متحمّس :

– يا للمساكين ! يا للمساكين !

وصمت برونيه ، فأضاف شنايدر :

– انهم لن يعودوا ابداً الى بيوتهم . ابداً .

والتفت الى برونيه وجعل ينظر اليه في كراهيـــة ، فقال برونيه ضاحكاً :

– هيه ! لا تنظر اليّ هكذا ، فليس لي في الامر دخل .
فأخذ شنايدر يضحك ، وارتخى وجهه ، وانطفأت عيناه :
– صحيح ، لا دخل لك في الأمر .
وصمتا ؛ وخطرت لبرونيه فكرة ، فاقترب من شنايدر وسأله بصوت منخفض :
– اذا كان هذا ما تفكر به ، فلماذا لا تحاول ان تفرّ ؟
قال شنايدر : – يعني !
– هل انت متزوج ؟
– وعندي طفلان .
– ألست متفاهماً مع زوجتك ؟
– انا ؟ بل نحن نعبد بعضنا بعضاً .
– واذن ؟
قال شنايدر : – لا ادري . وانت ؟ هل ستفرّ !
قال برونيه : – لا ادري ، سنرى ذلك فيما بعد .
وحاول ان يرى وجه شنايدر ، ولكن الليل لفّ الساحة ، فلم يكن يُرى شيء بعد ابداً ، الا ظلّ برجي المراقبة دون السماء . وقال برونيه وهو يتثاءب :
– أظنّ انـي سأنام .
قال شنايدر : – طيّب . وانا ايضاً .
وتمدّد على شراع الخيمة ، ودفعا قربتيهما الى الجدار ؛ ونشر شنايدر غطاءه فالتفّا به . وقال شنايدر :
– مساء الخير .
– مساء الخير .
وانقلب برونيه على ظهره ووضع رأسه على قربته ، واحتفظ بعينيه مفتوحتين ، وأحسّ بحرارة شنايدر ، وحدس بان عيني شنايدر

مفتوحتان . وفكر : «كنت بحاجة شديدة الى ان أرتبك بهذا الشخص.»
وتساءل أيهما حاور الآخر وناوره . وبين الفينة والفينة ، كان انهيار
مضيء صغير يخطّ السماء بين باقات النجوم ؛ وتحرّك شنايدر على مهل
تحت الغطاء وقال :

– هل نمت يا برونيه ؟

فلم يجب برونيه ، وكان ينتظر . ومرّت لحظة ، فسمع شخيراً
صغيراً مخنّاً ؛ لقد نام شنايدر . وسهر برونيه وحده : ضوءاً وحيداً
وسط هذه الليالي العشرين ألفاً . وابتسم ، وأغمض عينيه واستسلم ؛
وكان عربيان يضحكان في الغابة الصغيرة :

– اين عبد الكريم ؟

فأجابت العجوز : – لن يدهشني كثيراً ان يكون في مخزن الثياب .
وكان ، في الواقع ، هناك ، جالساً امام طاولة عمل ، هادئاً جداً
وهو يهدر « قتـلة ! قتلة ! » وينزع ازرار ثوبه ، فيحدث كل زرّ
انفجاراً جافاً والتماعاً .

وقال شنايدر : – خلف الجدار ، اسمع !

فاستوى برونيه جالساً ، وحكّ رأسه ، فاذا هو امام ليل غريب
مليء بالضجيج :

– ماذا هناك ؟

– اسمع ! اسمع !

فرمى برونيه الغطاء وانبطح خلف الجدار الصغير مع شنايدر .
وانتحب صوت :

– قتـلة !

وصرخ أحدهم بالالمانية، ثم كانت طلقات الرشاش الجافة . وتطلع
برونيه بحذر من فوق الجدار ، فرأى على ضوء الالتماعات ، فرقةً
برمّتها من الشجر الكسيح ، رافعاً نحو السماء أغصاناً معقدة وملويّة ،

فآلمته عيناه ، وأحسّ رأسه فارغاً فقال :

— الانسانية المتألمة .

فجرّه شنايدر الى خلف :

— الانسانية المتألمة ، طز فيها ؛ انهم يضحّون بنا .

فبكى الصوت : — كالكلاب ! كالكلاب !

وكفّ الرشّاش عن الإطلاق ، وأمرّ برونيه يده على جبينه ، واستيقظ تماماً

— ما الذي يحدث ؟

قال شنايدر : — لا أدرى . لقد أطلقوا مرتين ؛ في المرة الأولى ربما كان ذلك في الهواء ، اما في الثانية ، فقد كان الأمر جدّاً .

وكانت الغابة تنغل حولها : ما هذا ؟ ماذا حدث ؟ ويجيب قادة مرتجلون : اسكتوا ، لا تتحركوا ، ابقوا نائمين . ويبدو برجا المراقبة أسوديْن ازاء السماء الحليبية ، وفيهما رجال يرصدون ، والاصبع على زناد الرشاشات . وكان برونيه وشنايدر راكعين خلف الجدار ، يريان في البعيد العين المستديرة لمصباح كهربائي . ويقترب المصباح ، تؤرجحه يد غير مرئية : فيكنس بضوئه حشرات رمادية ومسطحة . ويتحدّث صوتان أجشان باللغة الالمانية ، ويتلقى برونيه المصباح ملء وجهه ؛ فيغمض عينيه ، وقد أعماه النور ، ويسأل صوتٌ بلهجة قوية :

— من الذي صرخ ؟

فقال برونيه : — لا أدري .

ونهض الرقيب ، وكان بالغ السرور ، منتصباً باستقامة تحت النور الكهربائي ، قريباً وبعيداً في وقت واحد :

— انه جندي أصيب بالجنون ، فأخذ يصرخ ، وخاف رفاقه فنهضوا ، وعند ذاك أطلق الحارس النار .

فلم يفهم الألمانيان ، فحدّثهما شنايدر بالألمانية ، ودمدم الألمانيان

بدورهما ، فالتفت شنايدر نحو الرقيب .

ـ يقولان ان تسأل ان كان هناك جرحى .

فاستوى الرقيب ، ووضع يديه حول فمه بحركة دقيقة حيّة وصاح :

ـ أخبرونا عن الجرحى .

فأجابته أصوات ضعيفة من كل صوب ، وأضاءت منارتان فجأة ، وهبط كالثلج نور ساحر يداعب الجمع الراكع ، وأجتاز ألمان الساحة بالحمّالات ، فلحق بهم ممرضون فرنسيون ، وسأل الضابط الألماني في جهد :

ـ اين المجنون ؟

فلم يجب أحد ، ولكن المجنون كان هناك واقفاً ، مرتجف الشفتين أبيضهما ، ودموع تسيل على خديه ، فأحاط به الجنود وأخذوه ، فاستسلم لهم مذهولاً ، ومسح أنفه وفمه بمنديل برونيه . وكان الرجال منتصبين نصف انتصاب ، ينظرون الى هذا الشخص الذي تألم ألمهم حتى ذروته ؛ وكان لذلك مذاق الهزيمة والموت . واختفى الألمان ، وتثاءب برونيه ، وكان النور يؤلم عينيه . وسأل مولو :

ـ ماذا سيفعلون به ؟

فهزّ برونيه كتفيه ، واكتفى شنايدر بالقول :

ـ ان النازيين لا يحبون المجانين .

وكان رجال يروحون ويجيئون بالحمالات ، وقال برونيه :

ـ اعتقد ان بوسعنا ان نعود الى النوم .

فعادوا الى النوم . وضحك برونيه : ففي المكان نفسه الذي كان متمدّداً عليه ، كان ثمة ثقب في شراع الخيمة ، ثقب ذو أطراف مشيّطة ؛ وأشار اليه ، فاخضرّ مولو وارتجفت يداه وقال :

ـ اوه ! اوه ! اوه !

وقال برونيه وهو يبتسم لشنايدر :

– لقد انقذت حياتي بالاجمال .

فلم يبتسم شنايدر ، بل نظر الى برونيه نظرة جدّ وتبرم وقال ببطء :

– نعم ، لقد انقذت حياتك .

وقال برونيه وهو يلتفّ بالغطاء :

– شكراً على كل حال .

قال مولو : – اما انا ، فسأنام خلف الجدار .

وانطفأت المنارتان فجأة ، وصرّت الغابة ، وطقطقت ، وضجت ، وهمست ، واستوى برونيه ، وملء عينيه شمس ، وملء رأسه نعاس ، ونظر الى ساعته : الساعة السابعة . وكان الرجال منهمكين في طيّ أشرعة الخيم ، ولفّ الأغطية . وأحسّ برونيه بأنه متسخ َدبِق : لقد رشح في اثناء الليل وكان قميصه يلتصق بجسمه . وقال بلوندينه :

– يلعن دين ! انني جائع !

وبحزن ، سأل مولو بعينيه الباب الكبير المغلق :

– يوم آخر بلا طعام !

ففتح لامبير عينه غاضباً :

– لا سمح الله !

ونهض برونيه ، فحدج الساحة ، فرأى تجمّعاً حول انبوب سقاية ، فاقترب ؛ كان رجل ضخم عارٍ تماماً يغتسل وهو يطلق صرخات امرأة . ونزع برونيه ثيابه ، فأخذ دوره ، وتلقى على ظهره وعلى بطنه وابلاً مثلجاً قاسياً ؛ وارتدى ثيابه من جديد من غير ان يتجفف ، وراح يُمسك بالانبوب ، ويغسل الثلاثة التالين . وكان هواة « الدوش » قليلين ، فقد كان الرجال يحرصون على عرقهم الليلي . وسأل برونيه :

– دور َمنْ ؟

فلم يجب أحد ، فوضع الانبوب في شيء من الغضب ، وفكر : « هكذا ! هكذا الرجال ! » سيكون الأمر قاسياً . ووضع سترته تحت

ذراعه ، ليخفي أوسمته ، واقترب من جمع يتحدث بصوت منخفض رغبة منه في معرفة الجوّ . إن هنـــاك تسعة حظوظ على عشرة أنهم يتكلمون عن الطعام . ولن يشكو برونيه من ذلك : فالطعام نقطـــة ممتازة ؛ ان ذلك شيء بسيط ومحسوس ، انه حقيقيّ : فان الانسان الجائع عجينة يسهل العمل فيهـــا . ولكنهم لم يكونوا يتحدثون عن الطعام ؛ وعرفه شاب طويل هزيل ذو عينين حمراوين :

— أأنت الذي كنت الى جانب المجنون ؟

قال برونيه : — نعم .

— ماذا فعل ، تماماً ؟

— لقد صرخ .

— هذا كل شيء ؟ خراء إذن ! المجموع : اربعة قتلى ، وعشرون جريحاً .

— كيف عرفت ذلك ؟

— لقد أبلغنا ذلك غارتيزر .

وكان غارتيزر رجلاً مربوعاً ذا خدين رخوين ، وعينين كئيبتين تنمّان عن الاهتمام . وسأله برونيه :

— انت ممرّض ؟

فأومأ غارتيزر برأسه : نعم ، انه ممرض ، وقد أخذه الألمان الى الاصطبلات ، خلف الثكنة ، ليُعنى بالجرحى .

— وكان في الجرحى من مات بين يديّ .

وقال رجل : — إن هـذا لؤم . لؤم ان نموت هنا ، قبل ثمانية ايام من العودة .

فسأل برونيه : — ثمانية أيام ؟

— ثمانية ايام او خمسة عشر اذا شئت . فلا بدّ ان يُطلقونا مـــا داموا لا يستطيعون إطعامنا .

وسأل برونيه : ــ والمجنون ؟

فبصق غارتيزر بين قدميه :

ــ لا تتحدث عنه !

ــ ماذا ؟

ــ لقد ارادوا ان يسكتوه ، فقام أحدهم يضع يده على فمه ، واذ ذاك عضّه . اوه ؟ يا امي ليتك رأيتهم ! لقد أخذوا يصرخون بلغة غير مفهومه ، ودفعوه الى زاوية من الاصطبل وراحوا يضربونــه بقبضات ايديهم وأعقاب بنادقهم ، وكان ذلك في النهاية يسليهم ويثير ضحكهم ، وكان ثمة أشخاص من عندنا يحمّسونهم لأن ابن البغي هذا هو ، على حد قولهم ، سبب كل شيء . واخيراً ، لم يكن الفتى جميلاً ، كان فمه شورباء ، وعينه جاحظة ، فوضعوه على حمّالة وساقوه الى حيث لا ادري ، ولكن لا بدّ انهم تسلوا معه مرة اخرى ، لأني سمعته يزعق حتى الساعة الثالثة صباحاً .

وأخرج من جيبه شيئاً ما ملفوفاً بقصاصة جريدة :

ــ انظروا هذا .

وفتح الورقة :

ــ إنها سنّ . لقد وجدتها هذا الصباح في المكان الذي سقط فيه .

ثم طوى الورقة بعناية ، ووضعها في جيبه ، وقال :

ــ انني احتفظ بها كتذكار .

واولاهم برونيه ظهره ، وعاد بهدوء الى السلّم . وصاح به مولو من بعيد :

ــ هل عرفت النتيجة ؟

ــ اية نتيجة !

ــ نتيجة هذه الليلة : عشرون قتيلا وثلاثون جريحاً .

قال برونيه : ــ فظاعة !

قال مولو : — لا بأس .
وابتسم بسرور غامض وردّد :
— كنتيجة ليلة اولى ، لا بأس على الاطلاق .
وسأل لامبير : — ما حاجتهم الى تبذير رصاصهم ! اذا ارادوا ان يتخلصوا منا فليس عليهم الا ان يتركونا نموت جوعاً ، كما بدأوا .
قال مولو : — لن يدعونا نموت جوعاً .
— وما يدريك ؟
فابتسم مولو : — ليس لك الا ان تفعل مثلي : انظر الى الباب الكبير ، فهذا يسليك ، ثم ان الشاحنات ستأتي من هنا .
وغطّى صوته ضجيج محرّك ، فصاح الشتيمي :
— انظر الى الطائرة .
وكانت طائرة مراقبة تحلق على ارتفاع خمسين متراً ، سوداء لامعة ، وكانت تمرّ فوق الساحة ، ثم انعطفت على جناحها الايسر مرتين ، ثلاث مرات ، وكان عشرون الف رأس تتابعها ، والساحة كلها تدور معها . وقال المجعّد الشعر في لامبالاة :
— واذا قصفونا ؟
قال مولو : — قصفونا ؟ ولماذا ؟
— لأنهم لا يستطيعون إطعامنا .
ونظر شنايدر الى الطائرة وهو يطرف بعينيه ؛ وقال وهو يكزّ في الشمس :
— بل أعتقد انهم يصوروننا ...
فسأل مولو : — لماذا ؟
فأوضح شنايدر بغموض : — مراسلو حرب .
فاحمر خدّا مولو السمينان ، وتحوّل خوفه الى غضب ، فاذا به يستوي فجأة . ويمدّ ذراعيه نحو السماء ويصيح :

– مدّوا لهم ألسنتكم ايها الرفاق ، مدّوا لهم ألسنتكم ، فيبدو انهم يصوروننا .

وتسلّى برونيه : إن رعشة غضب قد سرت في الجموع ؛ فمدّ جنديّ قبضته ، بينما ابرز جندي آخر بطنه ، وأدخل بنصره في شقّ بنطاله ونصب إبهامه نحو الطائرة كأنه عضو تناسلي ، وارتمى الشتيمي على أربع ، فخفض رأسه ورفع مؤخرته :

– قفاي ، سيصورونه !

ونظر شنايدر الى برونيه وقال :

– اترى ، ما تزال لدينا قوة .

ومضت الطائرة في الشمس . وقال برونيه :

– هذا لا يدل على شيء .

وقال مولو : – إذن سيرون مخي في جريدة « الفرنكفورتر » ؟

وكان لامبير قد اختفى وعاد هائجاً :

– يبدو ان باستطاعتنا ان نؤثث انفسنا بثمنٍ غير مرتفع .

– ماذا تقول ؟

– إن وراء الثكنة أثاثاً ، كالفُرُش والدلاء ، والآنية ، وليس علينا الا ان ننحني لنأخذها ، ولكن يجب ان تعجّلوا لأن هذه سوق السرقة !

ونظر الى رفاقه بعينين ملتمعتين :

– هل يأتي الرفاق ؟

قال المجعد وهو يقفز على قدميه :

– انا آتي .

ولم يحرّك مولو ساكناً ، فقال لامبير :

– تعال يا مولو .

قال مولو : – لا ، فأنا أقتصد . فما دمت لم آكل ، فلن أتحرّك .

فقال الرقيب : — اذن ، احرس الامتعة .

ونهض وانضمّ الى الآخرين وهو يعدو . وحين بلغوا زاوية الثكنة ، صاح بهم مولو بصوت رخو :

— انكم تبذرّون قواكم ، ايها الفروج الحمير !

وتنهّد ، ونظر الى برونيه وشنايدر في قسوة ، وقال هامساً :

— ما كان ينبغي لي حتّى ان أصرخ .

وسأل شنايدر : — هل نلحق بهم ؟

فسأله برونيه : — وماذا نفعل بدلو ماء ؟

— اوه ! لنُذهبَ فقط خدرَ سيقاننا .

وكان في الجهة الاخرى من الثكنة ساحة اخرى وبناية طويلة ذات طابق واحد ذي اربعة ابواب : الاصطبلات . وكان مركوماً في زاوية منها فرش قديمة ورفاصات وسرر ذات أُطر ، وخزائن مرتعشة ، وطاولات عرجاء . وكان الجنود يتدافعون حول هذه البقايا ؛ واجتاز احدهم الساحة حاملا فراشا ، بينما احتمل آخر تمثالا من الخيزران . وطاف برونيه وشنايدر بالاصطبلات ، فاكتشفا تلة صغيرة معشبة . وسأل شنايدر :

— هل نرقاها ؟

— لنصعد .

وأحسّ برونيه بالضيق : ماذا يريد ، صاحبنا ؟ صداقة ؟ إن ذلك لا يناسب بعدُ عمري . وفي أعلى التلة ، رأيا ثلاث حفر مردومة حديثاً ، فقال شنايدر :

— اترى ، انهم لم يقتلوا الا ثلاثة .

وجلس برونيه على العشب بالقرب من القبور .

— أعطني مديتك .

فناوله شنايدر إياها ، ففتحها برونيه وبدأ يفتق أوسمته . فقال

شنايدر :

— أنت على خطأ ، إن نواب الضباط معفون من العمل .

فهزّ برونيه كتفيه من غير ان يجيب ، ووضع الأوسمة في جيبه ثم نهض . وعاد الى الساحة الأولى ، فاذا بالاشخاص ينتقلون ؛ وكان فتى جميل ذو وجه وقح يتأرجح في أريكة هزّازة ؛ وامام خيمة منصوبة ، جرّ رجلان طاولة وكرسيين ، وراحا يلعبان بالورق في انتصار ؛ وكان غارتيزر جالساً على حافة سرير فارسي منقطة بالحروق . وقال برونيه :

— إن ذلك يذكرني « بسوق البراغيث »[1]

وقال شنايدر : — أو بسوق عربية .

واقترب برونيه من لامبير :

— بمَ تراك قد عُدت ؟

فرفع لامبير رأسه في زهو وقال :

— صحون .

وأشار الى نضد من الصحون المثلمة ذات القعر المسودّ .

— وماذا تريد ان تفعل بها ؟ أن تأكلها ؟

قال مولو : — دعه وشأنه ، فربما جاء ذلك بالطعام .

وكانت الصبيحة بطيئة : وقد سقط الرجال مرة اخرى في الخدر ؛ وكانوا يحاولون ان يناموا ، أو يتمددون على ظهورهم ، وسحنهم متجهة الى السماء ، وعيونهم مفتوحة ثابتة ؛ كانوا جائعين . وانتزع المجعد الشعر العشب الذي ينبت بين الحصى وأخذ يمضغه ؛ وأخرج الشتيمي مديته وأخذ ينقش قطعة من خشب . وأشعلت جماعة من الرجال ناراً تحت قدر صدئة . ونهض لامبير ، فذهب يرى ، وعاد خائباً ،

(١) هي سوق يباع فيها الاثاث القديم الذي قد تعشش فيه الحشرات والبراغيث لقدمه ، وهي معروفة في باريس (المترجم) .

وقال موضحاً وهو يتداعى للسقوط بين المجعد ومولو :

ـ انه حساء القرّاس . وهو لا يغذّي .

تبديل الحراس الألمان ، وقال الرقيب بلهجة غائبة :

ـ ذهبوا يأكلون .

وقام برونيه يجلس بالقرب من عامل المطبعة ، وقال له :

ـ هل نمت جيداً ؟

قال عامل المطبعة : ـ لا بأس .

ونظر اليه برونيه في رضى : كان على هيئة واضحة ونظيفة ، مع شعاع مرح في عينيه ؛ حظان من ثلاثة .

ـ قل لي ، كنت اودّ ان أسألك : أفي باريس كنت تعمل ؟

قال عامل المطبعة : ـ لا ، بل في ليون .

ـ اين ؟

ـ في مطبعة ليفرو .

قال برونيه : ـ آه ! ليفرو ، لا أعرف غيرها . لقد قمتم باضراب رائع عام ٣٦ ، اضراب جريء ومنظم .

فضحك عامل المطبعة ضحكة اعتزاز . وسأله برونيه :

ـ لا بدّ اذن ان تكون قد عرفت بيرنو ؟

ـ بيرنو ، الممثل النقابي ؟

ـ نعم .

ـ طبعاً .

ونهض برونيه : ـ تعال لنقم بدورة . اريد ان اكلمك :

وحين أصبحا في الساحة الثانية ، نظر اليه برونيه مواجهة :

ـ هل أنت في الحزب ؟

فتردّد العامل ، وقال له برونيه :

ـ أنا برونيه ، من جريدة « الاوما » .

قال العامل : — هكذا إذن . كنت اقول لنفسي ...

— هل لك رفاق هنا ؟

— اثنان أو ثلاثة .

— أشخاص شجعان ؟

— اشداء جداً . ولكني أضعتهم أمس في الصفوف .

قال برونيه : — حاول ان تجدهم . وتعال لتراني معهم : فيجب ان نتجمّع من جديد .

وعاد يجلس بالقرب من شنايدر ، فرماه بنظرة سريعة ، فاذا وجه شنايدر هادىء لا يعبّر عن شيء .

وسأل شنايدر : — كم الساعة ؟

قال برونيه : — الساعة الثانية .

وقال المجعّد : — انظر الى الكلب .

وكان يعبر الساحة كلب كبير أسود ، متدلي اللسان ، وكان الرجال ينظرون اليه نظرة غريبة . فسأل الرقيب :

— من اين هو قادم ؟

قال برونيه : — لا ادري .

وربما كان في الاصطبلات . وتحامل لامبير على مرفق ، وتابع بعينيه الكلب في تململ . وقال كأنما يحدث نفسه :

— إن لحم كلب ليس رديئاً بالدرجة التي يقولون .

— هل أكلت منه ؟

فلم يجب لامبير ؛ واتى بحركة انزعاج ، ثم تداعى للسقوط على ظهره في استسلام قدري . وكان الشخصان اللذان يلعبان بالورق امام الخيمة قد تركا ورقهما على الطاولة ونهضا بهيئة اهمال ؛ وكان أحدهما يحمل تحت ذراعه شراع خيمة . وقال لامبير :

— بعد فوات الاوان .

لقد اختفى الكلب خلف الثكنة ، فتبعاه بلا عجلة ، واختفيا خلفه
وقال الشتيمي :
— اتراهما سيقبضان عليه ؟ ام لا ؟
وبعد لحظة ، عاد الرجلان : وكانا قد عقدا الشراع حول شيء ضخم وحمــلاه كلٌّ بطرف ، كأرجوحةٍ للنوم . وحين ألمّـا ببرونيه ، سقطت نقطة من الشراع ، وانسحقت حمراء على الحصى . وقـال الرقيب ملاحظاً :
— مادة رديئة . فقد كان على القماش ان يكون كتيماً .
فهزّ رأسه ودمدم :
— كل شيء متشابه . فكيف كنت تريد ان نربح الحرب ؟
وألقى الرجلان رزمتها في الخيمة ، ودخلها احدهما على أربع ، بينما ذهب الآخر يبحث عن خشب لإيقاد النار . وتنهّد المجعّد :
— على كل حال ، سيخلّف ذلك اثنين من الأحياء .
وكان برونيه نائماً ، فأيقظه في ذعر صرخة من مولو :
— ! هاي ؟ هاي ! الطعام .
وانفتح الباب على مهل . ونهض مئة شخص : سيارة شحن .
ودخلت السيارة مغطّـاة ، وعلى ظهرها زهور واوراق ، كأنهـا المدفع ، ونهض الف شخص . وسلكت السيارة الطريق بين جدران السور والحاجز . ونهض برونيه ، فـاذا هو مدفوع ، مسحوب ، ملقى على الاسلاك الحديدية . وكانت السيارة فارغـة . وكان ألمانيٌّ عارٍ حتى النطاق ينظر اليهم قادمين بتثاقل . بشرة سمراء ، شعر أشقر . عضلات طويلة مغزلية الشكل ، عليه هيئة رجل مترف ، من هؤلاء الشباب الجميلين الذين يتزلقون نصف عراة في سان موريتز . وارتفع نحوه الف زوج من العيون ، فكان ذلك يسلّيه : كان ينظر في ابتسام الى هذه الحيوانات الليلية الجائعة التي تلتصق بقضبان قفصها لتراه رؤية

أفضل . وبعد لحظة انحنى الى خلف ، ونادى حراس البرجين الذين أجابوه وهم يضحكون . وانتظر الجمــع مبهوراً ، وكان يترصد حركات سيّده ، ويهذي من فرط السرور ونفـــاد الصبر . وانحنى الألماني ، فالتقط كرة من الخبز في قعر السيارة ، وأخرج مدية من جيبه ففتحها وسنّها بنعله وقطع شريحة . وخلف برونيه ، أخذ شخص يلهث . وحمل الألماني الشريحة الى أنفه وتظاهر بأنه يشمّها في تلذّذ ، وعيناه نصف مغمضتين ، وكانت الحيوانات تزمجر ، وأحسّ برونيه بان الغضب يلوي حلقه . ونظر اليهم الألماني من جديد ، فابتسم وتناول الشريحة بين الابهام والسبابة كالمطثّة ، وصوّب الى مكان أقرب مما ينبغي — وربما عن قصد — فسقطت بين السيارة والاوتاد . وكان رجال قد انحنوا لينسلّوا تحت الاسلاك الحديدية : فصاح حارس البرج بأمر جافّ وصوّب اليهم رشّاشه . وظلّ الرجـــال ملتصقين بالحاجز ، فاغري الفم ، وفي عيونهم الجنون . وتمتم مولو وهو ملتصق ببرونيه :

— سيسوء الوضع ، فأريد ان اذهب .

ولكن ضغط الجمع يسحقه على برونيه ، فيحاول عبثاً ان يتحلّل ويصيح :

— ارجعوا ، ارجعوا ، ايها الحمقى ؛ الا ترون ان الأمر سيُعاد من جديد ، كما حدث هذه الليلة ؟

...

وفي السيارة ، كان الألماني يقطع شريحة ثانية ؛ وقذف بها فدارت في الهواء وسقطت بين الرؤوس المرفوعـــة ؛ وأخذ برونيه في اهتزاز هائل ، فأحسّ بأنه مدفوع ، مُزاح ، مضروب ، ورأى مولو تحمله دوّامة فيرفع يديـــه في الهواء ، كما لو انه كان يغرق . وفكر : « يا للقذرين ! يا للقذرين ! » وكان يودّ لو يضرب الرجال الذين يحيطون به ، بيديه او بقدميه . وسقطت شريحة اخرى ، وثالثة ، وكان الرجال يتنازعون : وتخلّص شخص شديد البأس وهو يضغط في

يده شريحة ، فقبضوا عليه ،وحاصروه ، فدسّ الشريحة برمتها في فمه وهو يدفعها بظاهر يده ليدخلها ؛ وتركوه ، فمضى يخطى بطيئة وهو يدير عينين قلقتين . وظلّ الألماني يتسلّى ، فيرسل الشرائح الى اليمين والشمال ، ويتصنّع حركات ليخيّب الجمهور . وسقطت قطعة خبز تحت قدمي برونيه ، فرآه عريف اول ، فانزلق وهو يصدم برونيه ؛ وقبض عليه برونيه من كتفيه فألصقه به . وكان الجمع قد انقذف على القطعة الراقدة في الغبار. ووضع برونيه قدمه على القطعة ونكث الارض بنعله ، ولكن عشر أيد قبضت على ساقه ، فأزاحتها والتقطت الفتات الملوّث بالتراب . وكان العريف الاول يتخبّط بغضب : لقـد سقطت قطعة اخرى ازاء حذائه .

– هل لك ان تتركني ، ايها الفرج القذر ! هل تتركني ؟

ولكن برونيه يقاوم بشدّة ، فيحاول الرجل ان يضرب ، ويتفاداه برونيه بمرفقه ، ويضغط بكل قواه : وكان مسروراً . وقال الرجل بصوت أبيض :

– انك تخنقني !

ويظلّ برونيـه يشدّ ، ويرى الشرائح تمرّ فوق رأسه في طيران أبيض ، فيظلّ يشدّ ويزداد سروراً ، فيستسلم الرجل بين ذراعيه . وقال صوت :

– انتهى .

فارتدّ برونيه برأسه الى خلف : كان البربري يُغلق مديته . ويفتح برونيه ذراعه : فيتهادى العريف الاول ، ثم يخطو خطوتين جانبيتين ليستعيد توازنه ، ويسعل وهو ينظر الى برونيه في ذهول حاقد . وابتسم برونيه ، ونظر الرجل الى كتفي برونيه ، فتردد ثم تمتم :

– فرج قذر !

وانفتل . وسال الجمع ببطء خائباً ، ولكن فخوراً . وكان بعض

المحظوظين ما يزالون يمضغون ، في إحساس من العار ، وايديهم امام أفواههم ، وهم يديرون عيوناً طفولية. وكان العريف الاول قد انزرع بازاء وتد ، وكانت شريحة خبز ترقد في الغبار المفحم ، بين سيارة الشحن والحاجز ، فكان ينظر اليها . وقفز الألماني من سيارة الشحن ، فسار محاذياً الجدار ، وفتح باب كوخ والتمعت عينا العريف الاول ، وراح يترصد . وأدار الحراس رؤوسهم ، فأرتمى على أربع ، وانسل تحت اسلاك الحديد ، فمدّ يده ؛ همدرة : وصوّب اليه الحارس . واراد ان يتقهقر ، فأومأ له الحارس الآخر بان يظلّ جامداً . وانتظر ممتقعاً ، لا تزال يده ممدودة ، ومؤخرته في الهواء . وكان ألماني سيارة الشحن قد عاد أدراجه ، فاقترب على غير عجل ، ورفع الرجل بيده ، وباليد الاخرى ارسل له صفعة شديدة ، وضحك برونيه حتى سالت دموعه وقال صوتٌ وراءه بهدوء :

– انك لا تحبنا كثيراً .

فانتفض برونيه واستدار . انه شنايدر . وساد صمت ؛ وتابع برونيه بعينيه العريف الاول الذي كان الألماني يقوده بركلات شديدة نحو الكوخ ، ثم قال شنايدر بصوت محايد :

– اننا جائعون .

فهزّ برونيه كتفيه :

– لماذا تقول « اننا » ؟ هل التقطت الشرائح انت ؟

قال شنايدر : – طبعاً ، فانا جائع كجميع الآخرين .

قال برونيه : – ليس هذا صحيحاً . لقد رأيتك .

فهزّ شنايدر رأسه :

– سواء التقطت الشرائح ام لا ، فالأمر سواء .

وراح برونيه ، خافض الجبين ، ينكث الأرض بعقبه ليدفن الفتات في الغبار ؛ وعراه إحساس غريب جعله يرفع رأسه بسرعة ؛ وفي اللحظة نفسها ، انطفأ شيء ما في عيني شنايدر ، فلم يبق بعدُ الا

غضب مائعٌ يثقل وجهه ، وقال شنايدر :
– نعم ، نحن جشعون ! نعم ، نحن جبنــاء ، نحن منحطّون . اتكون هذه غلطتنا ؟ لقد سرقوا منا كل شيء : مهننا ، وأسرنـا ، ومسؤولياتنا . ولكي تكون شجاعاً ، فيجب ان يكون لديك شيء تفعله ، وإلا فانت تحلم . ولم يكن لدينا « شيء » ما نفعله بعد ، حتى ولا ان نكسب قوتنا ، لم يُحسب لنا بعد حساب . اننا نحلم ؛ واذا كنا جبناء، ففي الحلم . أعطنا عملا ، وسترى كيف نستيقظ .
وكان الألماني قد خرج من الكهف ؛ وكان يدخن ؛ وخرج العريف الاول خلفه وهو يعرج : وكان يحمل مجرفة ومعولا . قال برونيه :
– ليس عندي عمل اعطيك إياه . ولكن ، حتى بلا عمل ، يستطيع المرء ان يتصرف تصرفات سليمة .
فرفعت رعشةٌ شفة شنايدر العليا ، ثم سقطت . وابتسم شنايدر :
– كنت أحسبك اكثر واقعية . تستطيع بكل تأكيــد ان تتصرف تصرفاً سليماً ، ولكن ماذا يغيّر ذلك : إنك لن تساعد احداً ، ولن يفيد ذلك الا بخلق رضى شخصي . (وأضاف بسخرية) الا ان كنت تؤمن بفضيلة القدوة .
ونظر برونيه ببرودة الى شنايدر وقال له :
– لقد عرفتني ، أليس كذلك ؟
قال شنايدر : – نعم ، انت برونيه من « الاوما » ، غالباً مــا رأيت صورتك .
– هل كنت تقرأ « الاوما » ؟
– كان يتفق لي ذلك أحياناً .
– هل أنت منّا ؟
– كلا ، ولكني لست ضدكم .
فكزّ وجه برونيه . وعادا بهدوء الى السلم وهما يتخطيان الأجسام :

كان الرجال قد عادوا الى النوم،بعد ان أرهقهم عنف رغبتهم وخيبتهم، فهم مزرقّون وعيونهم ملتمعة. وكان لاعبا الورق قد بدأا لعبة «المانيل» بالقرب من خيمتهما ؛ وكان تحت الطاولة عظامٌ ورماد . وحدج برونيه شنايدر من طرف عينه ؛ وكان يسعى لأن يجد على هذا الوجه هيئة الألفة التي لاحظها بالأمس . ولكنه كان قد رأى ملياً هذا الأنف الكبير وهذين الخدّين : فتلاشى انطباعه . وقال بين أسنانه :

— انت تعلم ما يعني ان يكون المرء شيوعياً حين يسقط بين ايدي النازيين ؟

فابتسم شنايدر من غير ان يجيب . وأضاف برونيه :

— سنكون قساة مع الثرثارين .

وظل شنايدر يبتسم ، وقال :

— لست ثرثاراً .

وتوقف برونيه ، فتوقف شنايدر ايضاً ، وسأله برونيه :

— أتريد ان تعمل معي ؟

— وماذا ستفعل ؟

— سأقول لك . ولكن أجبْ اولا .

— لِمَ لا ؟

وحاول برونيه ان يستقريء هذا الوجه الضخم الناعم المائع تقريباً ، وقال من غير ان يغادر شنايدر بنظره :

— لن يكون العمل طريفاً كل يوم .

قال شنايدر : — لم يبق لي ما أفقده بعد . ثم إن ذلك سيشغلني .

وعادا الى الجلوس ، وتمدّد شنايدر ، عاقداً يديه خلف رقبته ، وقال وهو يغمض عينيه :

— هذا لا يمنع انك لا تحبنا قط ، وهذا ما يقلقني .

واضطجع برونيه بدوره . ما عساه يكون هــذا الشخص ؟ ايكون

من المؤيدين المتعاطفين ؟ وفكر : لقد قبلت ذلك ، لقد قبلت ذلك ، فلن اتركك بعد . ونام ، ثم استيقظ ، فكان المساء ، وعاد ينـــام ، فكان الليل ، ثم كانت الشمس ، واستوى ونظر فيما حوله ، وتساءل اين يكون، ثم تذكر واحس برأسه فارغاً. وكان بلوندينه الأشقر جالساً، وعليه هيئة الخبل والأسى ، وكانت ذراعاه تتدليان بين ساقيه المنفرجتين. وسأله برونيه :

— هل تشكو شيئاً ؟

— انني جائع . أتظن انهم سيطعموننا هذا الصباح ؟

— لا ادري .

— اتظن أنهم يريدون ان يميتونا جوعاً ؟

— لا أظن .

وتنهّد بلوندينه : — انني مبعوص . فانا غير معتادٍ ان أظـــل بلا عمل .

— تعال إذن فاغتسل .

فنظر الأشقر جهة انبوب السقاية بغير حماسة .

— سيكون الماء بارداً .

— تعال .

ونهضا . وكان شنايدر نائماً . وكان مولو نائماً ، وكان العريف راقداً على ظهره مفتوح العينين على سعتهما ، وكـــان يمضغ شاربه ؛ وكان على الأرض آلاف العيون . آلاف العيون المفتوحة ، وأخرى كانت الحرارة والشمس تفتحانهـــا رويداً رويـــداً ؛ وتهادى الأشقر على ساقيه :

— خراء ! لا استطيع بعد ان أتماسك على ساقيّ ، وسوف اسقط في الهواء .

وفكّ برونيه انبوب السقاية ، فأثبته في الصنبور وأداره . وكان

يحس نفسه ثقيلا . وتعرّى الأشقر : انه قاس ومشعر ، ذو عضلات ضخمة مكتلة . واحمرّ لحمه وتكوم تحت الفوارة ، ولكن وجهه ظل رمادياً . وقال برونيه :

ــ هذا دوري .

فأخذ الأشقر الانبوب وقال :

ــ الحقيقة انه ثقيل الوزن .

وتركه ثم التقطه . ووجه الفوارة نحو برونيه ، فاصطكت ركبتاه وترك الانبوب فجأة ، ثم قال :

ــ إن ذلك يتعبني .

وارتديا ثيابهما . وظــل الاشقر جالساً على الارض فترة طويلة ، واحدى طاقتيه في يده ، وهو ينظر الى الماء الذي ينبجس بين الحصى ، ويتابع بعينيه الانبوب الموحل وقال :

ــ اننا نفقد قوانا .

وأغلق برونيه الصنبور ، وساعد المجعد على النهوض ، فعاد به الى السلم . وكان لامبير قد استيقظ ، فنظر اليهما مقهقهاً :

ــ انكما لا تسيران سيراً مستقيما وتبدوان مرهقين .

وتداعى المجعد للسقوط على شراع الخيمة ، ودمدم :

ــ لقد أتعبني ذلك ، ولن استعيد ما فقدت .

ونظر الى يديه الضخمتين المرتجفتين المشعرتين :

ــ بمثل هاتين اليدين ، لا يمكن لرد الفعل ان يحدث .

قال برونيه : ــ تعال نتنزّه .

فالتفّ بغطائه وأغمض عينيه . ومضى برونيه الى الساحة الخلفية ، وكانت فارغة . ثلاثون دورة بخطوة رياضية . ولدى الدورة العاشرة ، كان رأسه يدور ؛ ولدى التاسعة عشرة اضطر للاستنــــاد الى جدار ، ولكنه كان متماسكـــاً ، وكان يريد ان يروّض جسمه ، ومضى حتى

النهاية ، ثم توقف لاهثـاً . وكان قلبه ينبض حتى رأسه ، ولكنه سعيد : إن الجسم قد خُلق ليطيع . سأقوم بهذا كل يوم ، وسأتابع حتى أتمكن من القيام بخمسين دورة . ولم يكن يشعر بالجوع ، وكان سعيداً بالا يشعر بالجوع : إن هذا هو اليوم الخامس من صيـامي ، وما زلت متماسكاً بما فيه الكفاية . وعـاد الى الساحة الأمامية . وكان شنايدر ما يزال نائماً ، فاغر الفم ؛ وكان جميع الافراد مضطجعين ، جامدين وبكماً ، فكأنهم الجثث . وكان برونيه يودّ ان يتحدث الى عامل المطبعة ، ولكن عامل المطبعة كان ينام ايضاً . وعاد يجلس ، ما يزال خفق قلبه على شدّته ؛ وأخذ الشتيمي يضحك ، فالتفت برونيه : كان الشتيمي يضحك وعيناه منخفضتان على العصا التي ينقشها ؛ وكان قد نقش تاريخاً ، وهـا هو الآن يرسم زهوراً برأس مديته . وسأل لامبير :

— ما بك تضحك ؟ اتجد هذا طريفاً ، انت ؟

فظل الشتيمي يضحك ، وقال موضحاً ، من غير ان يرفع عينيه :

— أضحك لأنه قد انقضت ثلاثة ايام عليّ دون ان أخرأ .

قال لامبير : — هذا طبيعي . فمّ تريد ان تخرأ ؟

قال مولو : — هناك مع ذلك من يخرأون . وقد رأيت بعضهم .

قال لامبير : — انهم محظوظون صغار . أشخاص جلبوا معهم علباً من لحم القرود .

واستوى الرقيب ، ونظر الى مولو وهو يشدّ على شاربه :

— ما هي اخبار سيارات شحنك ؟

قال مولو : — سوف تصل ، سوف تصل .

ولكن لم يكن في صوته بعدُ كثير من الاقتناع . وقال الرقيب :

— ولكن يجب عليها ان تستعجل ، وإلا فلن تجد بعدُ احداً .

وظل مولو ينظر الى البوابة ، وسمعت قرقرة مائعة منغمة ، فاعتذر

مولو وقال :

— انها معدتي !

واستيقظ شنايدر ، فأخذ يفرك عينيه ، وابتسم وتمتم :

— واحد قهوة بحليب .

فقال المجعد : — مع « الكرواسان »[١] .

قال الشتيمي : — اما انا فأفضل حساء طيباً ، مع قليل من الخمر الأحمر فيه .

وسأل الرقيب : — أليس مع احد منكم سكاير ؟

فمدّ له شنايدر علبته ، ولكن برونيه أوقفه منزعجاً : إنه لم يكن يحب حركات السخاء الفردية :

— الأفضل ان نجعلها مشتركة .

قال شنايدر : — كما تريد . إن معي علبة ونصف العلبة .

فقال برونيه : — وانا معي علبة .

واخرجها من جيبه ووضعها على شراع الخيمة . وأخرج مولو علبة من الحديد الابيض من قربته ففتحها :

— بقي معي سبع عشرة .

فسأل برونيه : — أهــذا كل شيء ؟ وانت يا لامبير ، أليس معك سكاير ؟

قال لامبير : — لا .

فقال مولو : — غير صحيح . كانت علبتك ملأى ، مساء امس .

— دخنتها هذه الليلة .

— تدجيل ! لقد سمعتك تشخر .

قال لامبير : — خراء اخيراً ! اريد عن رضى ان اعطي الرقيب

(١) نوع من المعجنات على شكل هلال — المترجم .

سيكارة ، اذا لم تكن معه سكاير ، ولكن اذا لم ارد ان اجعل سكايري مشتركة ، فهذا يعنيني .

قال برونيه : — انت حر يا لامبير في ان تلمّ شراع خيمتك وان تذهب الى مكان آخر ، ولكن اذا شئت ان تبقى معنـــا ، فينبغي ان تتبنى روح الجماعة وتألف ان تضع كل شيء في حالة الاشتراك . هات سكايرك .

فهزّ لامبير كتفيه وقذف علبته بغضب على غطاء شنايدر . وجعل مولو يعدّ السكاير .

— ثمانون . اي احدى عشرة لكـــل رأس ، وتبقى ثلاث تجري عليها القرعة . فهل نوزعها ؟

قال برونيه : — لا . إذا وزعتها ، فهناك اشخاص يدخنونها كلها من الآن حتى المساء . اني احتفظ بها . وسوف اعطيكم ثلاثاً منها كل يوم لمدة ثلاثة ايام ؛ وفي اليوم الرابع اعطيكم اثنتين . اتفقنا ؟

كان الافراد ينظرون اليه ، ويدركون بغموض انهم بسبيـــل ان يتخذوا قائداً لهم . وكرر برونيه :

— اتفقنا ؟

إنهم لا يكترثون بهذا ، في آخر المطاف : فانهم يودون ان يأكلوا ، هذا ما كان همهم . وهزّ مولو كتفيه وقال :

— اتفقنا .

ووافق الآخرون بايماءة رأس ، فوزع برونيه ثلاث سكاير لكـــل منهم ووضع الباقي في قربته . واشعل الرقيب سيكارة ، فسحب منهـــا اربع مجّات واطفأها ، ثم وضعها خلف اذنه . وأخذ الشتيمي احـــد سكايره ، فشق ورقتها ووضع التبغ في فمه ، وقال موضحاً ، وهو يمضغ :

— إن ذلك يخدع الجوع .

ولم يقل شنايدر شيئاً : انه اكثرهم خسراناً في هذه الصفقة ، ولكنه

لم يقل شيئاً . وفكر برونيه : « ربما كان كسباً طيباً في جماعتنا . » وفكر في شنايدر ثم في شيء آخر ؛ وتساءل فجأة بمَ كان يفكر ، ولم يبلغ ان يتذكر ذلك بعد . وظــل لحظة ثابت العينين ، وقبضة من الحصى في يده ، ثم نهض بتثاقل ؛ وكان عامل المطبعة قد استيقظ ، فسأل برونيه :

— وإذن ؟

قال عامل المطبعة : — لا ادري أين هم . لقد طفت بالساحة ثلاث مرات ، فلم استطع العثور عليهم .

قال برونيه : — استمر ولا تثبط همتك .

وراح يجلس ، ونظر الى ساعته وقال :

— هذا غير ممكن . كم هي الساعة ، ايها الرفاق ؟

قال مولو : — الرابعة وخمس وثلاثون .

— إذن هذا هو الأمر ، هذا هو تماماً .

الساعة الرابعة وخمس وثلاثون ولم أفعل شيئاً ، كنت احسب انهــا كانت الساعة العاشرة صباحاً . وخيل اليه ان الوقت قــد سُرق منه . « وعامل المطبعة الذي لم يعثر على رفاقه ... » إن كل شيء هنا بطيء . بطيء ، متردد ، معقد ؛ ولا بد من اشهر طويلة قبل تحقيق شيء ما . إن السماء ذات زرقة فجة ، والشمس قاسية . ورقت شيئاً فشيئــاً ، وتوردت السماء ، ونظر برونيه الى السماء ، وفكر في طير الزمج ، وكان به نعاس ، ورأسه يطن ، ولم يكن جائعاً ، وكان يفكر : لم اشعر بالجوع طوال النهار ، واستنام ، وحلم بأنه جائع ، واستيقظ ، فلم يكن جائعاً ، وانما كان ثمة غثيــان خفيف ودائرة من نار حول رأسه . السماء زرقاء مرحة ، والهواء رطب ؛ وبعيداً في الريف ، كان صوت ديك أبحّ يصرّ ، وكانت الشمس مختفية ، ولكن أشعتها كانت تتسلل ضباباً ذهبياً من فوق قمة جدار ؛ وكانت ظلال بنفسجية كبيرة

ما تزال تتمدد في الساحة . وصمت الديك ، وفكر برونيه : اي صمت! وخيل اليه لحظة انه وحيد في العالم ، واستوى على مشقة وجلس : كان الرجال هناك ، حوله ، الوف الرجال الجامدين النائمين . فكأنها ساحة معركة . ولكن جميع العيون مفتوحة على سعتها . ورأى برونيه حوله سحناً مقلوبة وسط شعر متناثر ، وعيون تترصد . والتفت نحو شنايدر ورأى عينيه الثابتتين ، فقال برقة :

– شنايدر ! ايه ! شنايدر !

فلم يجب شنايدر . ورأى برونيه في البعيد افعى طويلة رخوة يسيل لعابها : انبوب السقاية . وفكر : يجب ان اغتسل . وكان رأسه ثقيلا، وخيل اليه انه يشده الى خلف ، فعاد يضطجع ، وانتابه شعور الطفو . « يجب ان أغتسل » وحاول ان ينهض من جديـد ، ولكن جسمه لم يكن ليطيعه بعد ؛ كانت ساقاه وذراعاه رخوة ، ولم يكن يحس بهـا بعد ، فقد كانت موضوعة الى جانبه كأنها امتعة . وبدت الشمس من فوق الجدار : يجب ان اغتسل ، وكان يزعجه ان يكون ميتـاً بين هؤلاء الموتى المفتحي العيون ، وتشنّج ، وجمع اعضاءه ، وانقذف الى امام . وها هو ذا واقف ، ولكن ساقيه تصطكان ، وجسمه يرشح ، وخطا بضع خطوات ، وكان يخشى ان يسقط ؛ واقترب من عامـل المطبعة فقال :

– مرحباً !

فاستوى العامل ونظر اليه نظرة غريبة . قال برونيه :

– مرحباً ! مرحباً !

فسأله العامل : – الا تريد ان تجلس ؟ هل تشكو شيئاً ؟

قال برونيه : – كلا ، فالامور على ما يرام . وانا افضـل ان أبقى واقفاً .

اذا جلس ، فليس هو على ثقة من انه يستطيع ان ينهض ثانية .

وجلس عامل المطبعة ، وكان يبـــدو منتعشاً ، وكانت عيناه اللوزيتان تلتمعان في وجهه الانثوي الجميل . وقال بفرح :

— لقد عثرت على احدهم ، واسمه بيران . وهو عامل في السكة الحديدية باورليان . وقد أضاع رفاقه ، فهو يبحث عنهم ، فاذا وجدهم ، جاءوا ثلاثتهم ظهراً .

ونظر برونيه الى ساعته : انها العاشرة ، ومسح بكمه جبينه الذي يرشح عرقاً وقال : « ممتاز » ، وخيل اليه انه يريد ان يقول شيئاً آخر ، ولكن لا يدري بعد ما هو . وظلّ لحظة يتهادى فوق عامـــل المطبعة وهو يكرر : « ممتاز ! ممتاز ! » ثم عاد الى السير في جهد ، ورأسه يشتعل ناراً ؛ وتداعى للسقوط بتثاقـــل على شراع الخيمة ، وفكر : « انني لم اغتسل » وتحامل شنايدر على مرفقه في قلق :

— هل تشكو شيئاً ؟

فقال برونيه منزعجاً : — لا ، لا ، لا أشكو شيئاً .

واخرج منديلا فمدّه على وجهه بسبب الشمس . ولم يكن به نعاس : ليس هو تماماً بالنعاس . كان رأسه فارغاً ، وكان يخيل اليه أنه يهبط في مصعد . وسعل احدهم فوق رأسه ، فنزع منديله : إنه عامـــل المطبعة مع ثلاثة اشخاص آخرين ، ونظر اليهم برونيه في دهشة ، وقال بصوت دبق :

— هل جاء وقت الظهر ؟

ثم حاول ان يستوي : كان يحس الخجل ان تأخذه الدهشة ؛ وفكر في انه لم يحلق ذقنه وانه لا يقل قذارة عن الآخرين ؛ وبذل جهـــداً عنيفاً فاستقام على قدميه ، وقال :

— مرحباً .

فنظر اليه الأشخاص في فضول ؛ انهم فتيان كما يحبهم ان يكونوا : شديدو البأس ، نظيفون ، ذوو عيون قاسية . ادوات طيبة . وكانوا

ينظرون اليه ، فيفكر :

« ليس لهم هنا بعد غيري » واحس بالانتعاش . وقال :

— هل نسير قليلا ؟

فتبعوه . وانعطف عند زاوية الثكنة ، فمضى حتى الساحة الاخرى ، والتفت فبسم لهم . وقال رجل شديد السمرة ذو رأس حليق :

— انني اعرفك .

فقال برونيه : — كان يخيل إلي جيداً اني سبق ان رأيتك في مكان ما .

فقال الأسمر : — لقد جئت اراك عام ٣٧ ، واسمي ستيفان ؛ وكنت من « الفرقة العالمية » .

وقال الآخران اسميهما : بيران ، من اورليان ، وداوروكير ، من لانس .

واستند برونيه الى جدار الاصطبلات . ونظر اليهم وفكر ، في غير ما رضى ، بأنهم شبّان . وتساءل عما اذا كانوا جائعين . وقال ستيفان:

— وإذن ماذا ينبغي لنا ان نفعل ؟

فنظر اليهم برونيه ، ولم يتذكر بعد ما كان يريد ان يقوله لهم ؛ وصمت ، وقرأ الدهشة في عيونهم ، ثم فتح فمه :

— لا شيء . ليس هناك ما يُعمل في الوقت الحاضر . سوى ان تعدّوا بعضكم ، وتظلوا على اتصال .

وسأله بيران : — أتريد ان تجيء معنا ؟ ان معنا خيمة .

فقال برونيه بحيوية : — كلا . لنبق حيث نحن ، وحاولوا ان تروا اكبر عدد ممكن من الاشخاص ، وميّزوا الرفاق ، وتدبروا الأمر لتعرفوا قليلاً ما يدور في رؤوس الآخرين. ولا تقوموا بالدعاية، لا تقوموا بها بعد .

فكزّ وجه داوروكير وقال :

— إن ما يدور في رؤوس الآخرين ، أعرفه. ليس هناك شيء على الاطلاق . انهم يفكرون في معَدهم .

وخيّل لبرونيه ان رأسه بدأ ينتفخ ، فأغمض عينيه نصف إغماضة وقال :

— يمكن ان يتغيّر هذا . هل في قطاعاتكم كهنة ؟

قال بيران : — نعم ، في قطاعي . بل هم يقومون بأعمال مجدية .

قال برونيه: — دعوهم يعملون، ولكن احترسوا من ان يعرفوكم . اما اذا فتحوا لكم ابواباً ، فلا تسدّوها في وجوههم . مفهوم ؟

فأومأوا برؤوسهم علامة الايجاب ، وقال لهم برونيه :

— الموعد ، غداً عند الظهر .

ونظروا اليه ، وترددوا قليلاً ، فقال لهم في لهجة لا تخلو من انزعاج :

— هيا : اذهبوا ! انني باق هنا .

فذهبوا . ونظر اليهم برونيه ذاهبين ، وانتظر حتى انعطفوا عند الزاوية ليقدّم رجلاً : لم يكن متأكداً من أنه لن ينهار . وفكر : « ثلاثون دورة تخطوة رياضية . » وخطا خطوتين وهو يتهادى ، وأصعد الغضبُ الدمَ الى وجهه ، وكانت تصفق رأسه ضربات عنيفة : ثلاثون دورة ، على الفور ! وانتزع نفسه عن الجدار ، وتقدم ثلاثة امتار ، ثم تمدّد على بطنه . وعاد ينهض ويسقط ، وهو يمزّق يده . ثلاثون دورة كل يوم . وتشبث بحلقة حديدية معلقة في الجدار ، فاستوى واقفاً ، وقام باندفاعة . عشر دورات ، عشرون دورة . واصطكت ركبتاه ، وكانت كل خطوة تشبه سقطة ، ولكنه كان يعلم أنه سيسقط اذا توقف . تسع وعشرون دورة ؛ وبعد الثلاثين ،انعطف لدى زاوية الثكنة وهو يعدو ، ولم يبطيء الا حين ولج الساحة الامامية . وتخطى الأجسام ، فبلغ السلّم . ولم يتحرك أحد : كانوا

كومة طافية من السمك الميت ، وبطونه في الهواء . وابتسم . واقف وحده . اما الآن ، فيجب ان أحلق ذقني . والتقط قربته ، واقترب من نافذة ، فأخذ آلة الحلاقة ، ووضع قطعة المرآة بطريقة جانبية على طرف النافذة ، وحلق ذقنه بلا ماء ؛ الألم الذي يغمض العينين نصف إغماضة . وسقطت آلة الحلاقــة ، فانحنى ليلمها ، وترك المرآة التي انكسرت تحت قدميه ، فوقع على ركبتيه . وكان « يعلم » هذه المرة انه لن يستطيع بعد ان ينهض . وعاد الى مكانه ، زحفاً على أربـع ، وتداعى للسقوط على ظهره ؛ وجنّ جنون قلبه ، فكان يطرق طرقات كبيرة في صدره، ولدى كل ضربة، كان حدٌ من نار يثقب رأسه.ورفع شنايدر له رأسه بلا كلمة فدسّ تحت رقبته غطاء مطوياً الى اربـع . ومرت غيوم ، وكانت فيها غيمة تشبة راهبة ، واخرى تشبه غندولا . وشده أحدهم من كمّه :

ــ قف ! اننا ننتقل !

فنهض من غير ان يفهم، فدفعوه الى السلم، وكان الباب مفتوحاً، ودلفت موجة لا تنقطع من الاسرى تتجه الى الثكنة . وأحسّ بأنـه يصعد درجاً ، واراد ان يقف ، ولكنه دُفع من الخلف ، وقــال له صوت :

ــ استمرّ في الصعود .

ولكن قدميه لم تحتملاه ، فسقط ويداه الى أمام . وأخذه شنايدر وعامل المطبعة كل من ذراع ، فحملاه . واراد ان يتخلص ، ولكنه لم يكن يملك القوة لذلك . وقال :

ــ انني لا أفهم .

فضحك شنايدر بلطف :

ــ انت بحاجة الى طعام .

ــ مثلك تماماً ، لا اكثر .

فقال عامل المطبعة :

– انت اطول وأصلب . فأنت بحاجة الى طعام اكثر .

ولم يستطع برونيه أن يتكلم بعد ، فرفعاه حتى العنبر ، وكان ممرّ طويل مظلم يخترق الثكنة من جانب الى جانب ، وعلى جانبيه شقق تفصل بينها حواجز ذات شقوق . وولجوا أحداهـا . ثلاثة صناديق فارغة ، هذا كل شيء . لا نوافذ . كانت ثمة كوة بين كل شقتين او ثلاث ؛ وكانت كوّة الشقة المجاورة تنثر عليهم نوراً مائلا يعكس على الأرض الخشبية ظلالاً كبيرة للحواجز الخشبية . ومدّ شنايدر غطاءه على الأرض ، فتداعى برونيه للسقوط عليه . ورأى ذات لحظة وجه عامل المطبعة مائلاً عليه ، فقال له :

– لا تبق هنا ، بل اذهب الى بعيد ، وموعدنا غداً عند الظهر .

واختفى الوجه ، فبدأ الحلم . وانسلّ ظلّ الحواجز متمهلاً على الارض ، انسل واستدار على الأجسام المقلوبة ، وتسلق الصناديق ، ودار ودار وامتقع ، وصعد الليل على طول الجدار ؛ وبدت الكوة ، عبر القضبان ، أشبه بجرح ، جرح ممتقع ، جرح أسود ، ثم بدت فجأة عيناً صافية مرحة ، فاستعادت القضبان دورتها ، فدارت ، ودار الظلّ كالمنارة . الوحش في القفص ، وتحرّك رجالٌ لحظة ثم اختفوا، وجنحت الباخرة مع جميع المحكومين الذين ماتوا جوعاً في أقفاصهم . لهب عوّد ثقاب ، وانبثقت من الظل كلمة مرسومة بأحرف حمراء ، وانعكست على احد الصناديق : « **سريع العطب** » وكان في القفص المجاور قرود شامبانزي تحشر رؤوسهـا الفضولية بين الحواجز ، وتمد أذرعها الطويلة نحو القضبان ، وكانت لها عيون حزينة ومجعدة ، فالقرد هو الحيوان الذي يملك أحزن العيون بعد الانسان . لقد حدث شيء ما ، وتساءل: ما الذي حدث، كارثة . اية كارثة ؟ ربما بردت الشمس ؟ وارتفع صوت من جوف الاقفاص : « سأقول لك ذات

مساء أشياء رقيقة . » كارثة ، والجميع في المغطس . اية كارثة ؟ ما الذي سيفعله الحزب ؟ إنه لمذاق عذب لأناناس نضر ، مذاق طري مرح بعض الشيء ، طفولي ، ومَضغَ الأناناس وفتت مرونتها العضلية الناعمة ، متى أكلت منها للمرة الأخيرة ؟ لقد أحببت الأناناس ،وكان أشبه بخشب مقشور لا يملك الدفاع عن نفسه ، ومضغ ، فصعد المذاق الطريّ الخشبي الأصفر من جوف حلقــه كبزوغ الشمس المتردد ، وتفتح على اللسان ، وهو « يريد ان يقول » شيئاً ، فما الذي يريد أن يقوله ، هذا الشراب الشمسي ؟ لقد احببت الأناناس ، اوه ! منذ وقت طويل ، يعود الى العهد الذي كنت أحبّ فيه التزحلق والجبال والملاكمة واليخوت الشراعية الصغيرة ، والنساء . سريـع العطب . ما الذي هو سريـع العطب ؟ اننا جميعاً سريعو العطب ، ويدور المذاق على اللسان ، زوبعة شمسية ، مذاق قديم ، منسيّ ، لقد نسيت نفسي . «تنمّل الشمس في اوراق شجر الكستناء ، سطر الشمس على جبيني ، كنت اقرأ في ارجوحة النوم ، البيت الابيض ورائي ، ورائي منطقة التورين ، كنت أحب الشجر ، والشمس والبيت ، كنت احب العالم ، والسعادة ، اوه ، سابقاً ! » وتحرك وتخبط : إن عليّ شيئاً أفعله ، شيئاً افعله على التو. إن له موعداً عاجلا ، مع من ؟ مع كروبسكايا. وسقط من جديد : سريـع العطب . ماذا فعلت بغرامياتي ؛ لقد قالوا لي ، انك لا تحبنا بما فيه الكفاية ، فهزموني ، لقد قشروني فرخَ نبات طرياً دبقاً بالنسغ ، وحين اخرج من هنا ، سآكل حبة اناناس كاملة . وانتصب : موعد مستعجل ؛ فعاد يسقط في طفولة هادئة ، في حقل ، « أزيحوا العشب وستجدون شمساً ؛ ماذا فعلت بشهواتك ؟ ليست لي شهوات ، فانا قشرة ، وقــد مات النسغ ؛ وكانت القرود المعلقة بالقضبان تنظر اليه بعيونها المحمومة ، لقد حدث شيء ما . وتذكر فتحامل للنهوض ، وصاح : « عامل المطبعة » وسأل :

– هل جاء عامل المطبعة ؟

فلم يجب أحد ، وعاد يسقط في النسغ الدبق ، في « الذاتية » ، لقد خسرنا الحرب ، وسوف أموت هنا ، وانحنى ماتيو وهمس : انك لم تحبنا بما فيه الكفاية ، لم تكن تحبنا بما فيه الكفاية ؛ وانفجرت القرود ضاحكة وهي تضرب مؤخراتها . لم تكن تحب شيئاً ، أجل ، لم تكن تحب شيئاً على الاطلاق . ودار ظلّ القضبان ببطء على وجهه ، الظل، الشمس ، الظلّ إن هـذا يسليه . انني من أعضاء « الحزب » وانا احب الرفاق ؛ اما الآخرون فليس لدي وقت أضيعه من أجلهم ، إن عندي موعداً . « سأقول لك ذات مساء أشياء رقيقة ، سأقول لك ذات مساء اني احبك . » وجلس ، وكان يلهث ، وينظر اليهم ، وابتسم مولو ذاهلاً ، ووجهه ملتفت نحو السقف ، وداعبه ظلّ طريّ منسلا على خده ، فالتمعت أسنانه من الشمس .

– ايه ! مولو !

وظلّ مولو يبتسم ، وقال ، من غير ان يتحرك :

– هل تسمعها ؟

فسأل برونيه : – ماذا أسمع ؟

– سيارات الشحن .

فلم يسمع شيئاً ، وكان يخاف هذه الرغبة الهائلة التي أغرقته فجأة، رغبة ان يعيش ، رغبة ان يداعب نهدين أبيضين ، وكان شنايدر مضطجعاً الى يمينه ، فاستنجد به :

– هو ! شنايدر !

فقال شنايدر بصوت ضعيف :

– الامور سيئة .

قال برونيه : – خذ السكاير من قربتي . ثلاث كل يوم .

وانزلقت كليتاه بهدوء على الارض الخشبية ، فألفى نفسه راقداً ،

مقلوب الرأس ، ونظر الى السقف ، انني احبهم ، بكل تأكيد احبهم ، ولكن « يجب ان يخدموا » ، ما عساها تكون هذه الرغبة ؟ الجسد ، الجسد الميّت ، غابة الشهوات ، على كل غصن عصفور ، يقدمون لحم الخنزير في « ويستفالي » على صحون من خشب ، المدية تقطع اللحم ، فيحس من يسحبها التحاماً خفيفاً للخشب الرطب ، لقد هزموني ، فلست الا رغبة ، ونحن جميعاً في الخراء ، وسوف أموت هنا . اية رغبة ؟ وحملوه ، واجلسوه ، وسقاه شنايدر حساء .

— ما هذا ؟

— حساء شعير .

واخذ برونيه يضحك : كان الامر هكذا ، ولم يكن الا هكذا . تلك الرغبة الهائلة المذنبة لم تكن الا الجوع . ونام ، وسهروا عليه ، وأكل حساءه الثاني . وأحس بحروق في معدته ؛ كانت القضبان تدور ، وصمت الصوت . وقال :

— كان هناك شخص يغني .

قال مولو : — اجل .

— انه لا يغني بعد .

فقال مولو : — لقد مات . وقد نقلوه أمس .

حساء آخر ، مع الخبز هذه المرة ، وقال :

— لقد تحسنت .

وجلس بلا مساعدة ، وابتسم : الحداثة ، الحب ، « الذاتية » ، لم تكن كلها شيئاً ، لم تكن اكثر من حلم تضوّر . ونادى مولو بجذل :

— لقد انتهى الأمر بها الى المجيء ، سيارات الشحن ؟

فقال مولو : — أي نعم ! أي نعم !

وكان مولو يحك كرة خبز بمديته ، فيجوفها ويفرغها في بعض اماكن . انه ينحتها . وشرح من غير ان يرفع عينيه :

ـ انها كرة خبز عفنة . فاذا أكلت الأزرق ، كان ذلك خراء ، ولكن هناك ما يؤكل حولها .

ومدّ لبرونيه كسرة خبز ، ودس في فمه الكبير مثلهـا ، قائلاً باعتزاز :

ـ ظللنا ستة ايام بلا طعام . وكاد يجن جنوني .

فضحك برونيه ، وفكر في « الذاتية » ، وقال :

ـ وأنا ايضاً .

ونام ، ثم ايقظته الشمس ، وأحس انه مـا يزال واهناً ، ولكنه يستطيع ان ينهض .

وسأل : ـ هل جاء عامل المطبعة ليراني ؟

ـ تعلم .. اننا في هذه الأيام لم نتنبه كثيراً للزوار .

وسأل برونيه : ـ واين شنايدر ؟

ـ لا ادري .

وخرج برونيه الى الممر ، فاذا بشنايدر يتحدث الى عامل المطبعة ، وكانـا يضحكان ، فنظر اليهما برونيه في ضيق . وجاء اليه عامـل المطبعة يقول :

ـ لقد قمنا كلانا ، شنايدر وأنا ، بعمل محترم .

فالتفت برونيه الى شنايدر وفكر : انه يندسّ في كل مكان. وابتسم له شنايدر وقال :

ـ لقد تنقلنا هنا وهناك ، منذ أمس الاول ، فاكتشفنا رفاقاً جدداً .

فقال برونيه بجفاء : ـ هِم ! يجب ان أراهم .

وهبط السلم ، فتبعه شنايدر وعامل المطبعة . وفي الساحة ، توقف وهو يطرف بعينيه ، مبهوراً : انه يوم جميل . وكان رجال جالسون على درجات السلم يدخنون في سكينة ، كأنهم في بيوتهم ، يستريحون بعد كـدّ الاسبوع ؛ وبين الفينة والفينة ، كان فيهم من يهزّ رأسه

ويساقط بضع كلمات ، فيأخذ الجميع في هزّ رؤوسهم . ونظر اليهم برونيه في غضب ، وفكر : « ها هم اولاء يستقرّون . » إن الساحة والبرجين وجدار السور « لهم » ، وهم جالسون على عتبات بيوتهم يعلقون في حكمة قروية بطيئة على جميع احداث القرية : « ماذا يمكننا ان نفعل بفتية كهؤلاء ؟ انهم مصابون بهوس الامتلاك ؛ تحشرهم في الزنزانة ، وبعد ثلاثة ايام ، لا تدري ان كانوا اسرى ام مالكي السجن . » وكان آخرون يتنزهون ، كل اثنين أو كل ثلاثة ، وكانوا يسيرون بنشاط ، ويتحدثون ، ويضحكون ، ويستديرون : انهم بورجوازيون يقومون بالعرض . ويمرّ مرشحون ، بثوب عسكري خاص ، من غير ان ينظروا الى أحد ، ويسمع برونيه أصواتهم المتميّزة : « كلا ، يا عزيزي ، أستميحك العذر ، انهم لم يضعوا ميزانيتهم ؛ كان المفروض ان يضعوها ، ولكن بنك فرنسا ساعدهم». وكان ثمة شخصان يلبسان النظارات ، وهما راكعان يلعبان الشطرنج ، يحيط بهما كثيرون؛ وكان رجل قصير أصلع يقرأ وهو مقطّب الجبين ، وكان بين فترة وفترة يضع كتابه ويقلب في هياج صفحات كتاب ضخم . ومر برونيه خلفه : وكان الكتاب قاموساً . وسأله برونيه :

— ماذا تفعل ؟

— أتعلّم الألمانية .

وحول انبوب السقاية ، كان رجال عراة يصرخون ويتدافعون ضاحكين ؛ وكان غارتيزر الالزاسي مرتفقاً احد الاوتاد يتحدث بالألمانية مع حارس ألماني يصغي اليه وهو يشير برأسه علامة الموافقة . إن لقمة خبز كانت كافية ! لقمة خبز ، فاذا بهذه الساحة الكئيبة التي كان الجيش المهزوم يحتضر فيها تتحول الى شاطيء ، الى مشمسة ، الى سوق خيرية ، وكان ثمة شخصان عاريان يسمّران جسميهما في الشمس ، مضطجعين فوق غطاء ؛ وودّ برونيه لو يركل أفخاذهما المذهبة بقدمه:

أحرقوا مدنهم وقراهم ، خذوهم الى المنفى ، فسيصرّون في كل مكان على اعادة بناء سعادتهم الصغيرة العنيدة ، سعادة الفقراء ؛ إذهبوا إذن، فاعملوا في هذا الميدان . وأولاهم ظهره ومضى الى الساحة الاخرى ؛ وتوقف مأخوذاً : ظهور ، آلاف الظهور ، قرع جرس صغير ، وتنحني الوف الرؤوس . وقال :

— بلا مزاح !

فأخذ شنايدر وعامل المطبعة يضحكان :

— أي نعم ! أي نعم ! اليوم هو الاحد . ولقد اردنا ان نطلع عليك بمفاجأة .

قال برونيه : — هكذا إذن ! إنه يوم الاحد !

ونظر اليهما مشدوهاً : أي عناد ! لقد صنعا لنفسيهما « احداً تركيبياً » ، أحداً من المدينة والريف ، لانهما قرأا في رزنامة ان اليوم يوم أحد . وفي الساحة الاخرى ، كان يوم الأحد في القرية ، يوم الاحد في شارع الريف الكبير ، اما هنا ، فكان يوم الاحد في الكنيسة ؛ ولم يكن ناقصاً الا السينما . والتفت الى عامل المطبعة :

— أليس من سينما ، هذا المساء ؟

فابتسم عامل المطبعة :

— إن عمال الشبيبة المسيحية سيقيمون احتفال العاب نارية .

فحرّق برونيه الأرم ، وفكر في الخوارنة الصغار ، فكر : لقد عملوا بجدّ ، بينما كنت مريضاً . ينبغي للمرء الا يمرض قط . وقال عامل المطبعة في خجل :

— انه نهار جميل .

فقال برونيه بين أسنانه : — بكل تأكيد .

بكل تأكيد ، نهار جميل ، نهار جميل على فرنسا كلها : إن الخطوط الحديدية المنتزعة الملوية تلمع تحت الشمس ، والشمس تذهّب

الاوراق المصفرّة في الأشجار المقتلعة ، والماء يبرق في جوف اوعية القنابل، والموتى يخضرّون بين القمح، وبطونهم تغني تحت سماء لا غيوم فيها . اتراكم قد نسيتم ؟ إن الرجال هم من المطاط . وارتفعت الرؤوس ، وتكلم الكاهن . ولم يكن برونيه يصغي الى ما يقول ، ولكنه كان يرى رأسه المحمرّ ، وشعره الرمادي ، ونظارته الحديدية ، وكتفيه القويتين؛ وعرفه : إنه الرجل ذو الكتاب الديني الذي لاحظه في المساء الاول . واقترب . وعلى بعد خطوتين منه ، كان الرقيب ذو الشارب يصغي اليه بحماسة ، ملتمع العينين ، متواضع الهيئة :

— ... ان كثيرين منكم مؤمنون ، ولكني أعرف كذلك أن هناك آخرين يصغون إليّ بدافع الفضول ، أو ليتثقفوا ، أو بكل بساطة ليقتلوا الوقت . إنكم جميعاً اخوتي ، اخوتي الأعزاء ، اخوتي في السلاح ، واخوتي في الرب ، وانا اتوجه اليكم جميعاً ، كاثوليكيين وبروتستانت وملحدين ، لأن كلمة الرب للجميع . والرسالة التي أحملها اليكم في يوم الحداد هذا ، الذي هو يوم الرب ايضاً ، تتلخص في هاتين الكلمتين البسيطتين : « لا تيأسوا !... » لأن اليأس ليس فقط إثماً ضد الرحمة الإلهية المعبودة : فحتى الجاحدون يوافقونني على أنه اعتداء من الانسان ضد نفسه . وهو اذا صح القول انتحار روحي . ولا ريب في ان فيكم ، يا اخوتي الاعزاء ، من خدعهم التعليم المتعصب فحملهم على الا يروا في التتابع الرائع لأحداث تاريخنا الا سلسلة من الحوادث لا معنى لها ولا رابطة . فهم يمضون اليوم مرددين بأننا قد هُزمنا لأننا لم نكن نملك عدداً كافياً من الدبابات ، ولم يكن لدينا عدد كافٍ من الطائرات . وعن هؤلاء قال الرب ان لهم آذاناً لا يسمعون بها وعيوناً لا يرون بها ، ولا ريب في انه ، حين سقط الغضب الالهي على سدوم وعمورية ، كان ثمة في المدن الفاجرة مذنبون بلغ بهم العناد ان زعموا ان مطر النار الذي كان يحيل مدنهم الى رماد لم يكن الا

ترسّباً جوياً او شهاباً . ألم يكونوا يا اخوتي يأثمون بحق أنفسهم ؟ فاذا كانت النار قد سقطت على سدوم اتفاقاً ، فلن يكون هناك عمل للانسان أو ثمرة لصبره وصناعته الا وتتحول بين ليلة وضحاهـا الى عدم ، من غير سبب ، بفعـل قوى عميـاء . فلماذا إذن يبني الانسان ؟ ولماذا يزرع ؟ ولماذا يؤسس أسرة ؟ ها نحن اولاء مهزومون وأسرى، مذلون في عزتنا القومية المشروعة ، متألمون في أجسامنا ، بلا اخبار من المخلوقات العزيزة علينا ، فكيف ؟ ايكون هذا كله بلا هدف ؟ بلا مصدر آخر غير لعبة القوى الميكانيكية ؟ اذا كان ذلك صحيحاً ، يا اخوتي ، فيجب ان نستسلم لليأس، لأنه ليس ثمة ما هو أبعث على اليأس وأشد ظلماً من ان نتألم من أجل لا شيء . ولكني يا اخوتي أسأل هذه العقول القوية بدوري : «ولماذا لم نكن نملك عدداً كافياً من الدبابات ؟لماذا لم يكن لدينا عدد كاف من المدافع ؟ » انهم سيجيبون بلا ريب : « لأننا لم نكن ننتج منها العدد الكافي . » وهنا ينكشف فجأة وجه هذه الفرنسا الآثمة التي نسيت ، منذ ربع قرن ، واجباتها وربهـا . ولماذا ، في الواقع ، لم ننتج بمـا فيه الكفاية ؟ لأننا لم نكن نعمل . وما هو ، يا اخوتي ، مصدر هذه الموجة من الكسل التي سقطت علينا كما سقط الجراد على حقول مصر ؟ لاننا كنا منقسمين بخلافاتنـا الداخلية : فالعمال قد قادهم مشاغبون اوقاح ، فانتهى بهم الأمر الى ازدراء ارباب عملهم ، وارباب العمل قد أعمتهم الانانية ، فلم يهتموا للاستجابة للمطالب المشروعة ؛ وكان التجار يحسدون الموظفين، وكان الموظفون يعيشون كشجرة الدبق على السنديانة ؛ ونوابنا ، في المجلس، بدلاً من ان يناقشوا هادئين في الصالح العـام ، كانوا يتصادمون ويتشاتمون ويصلون احيـاناً الى التماسك بالأيدي . ومـا سبب هـذه الخلافات ، يا اخوتي الاعزاء ، ما سبب هذه المنازعات على المصالح، ولماذا هذا الانحلال في الاخلاق ؟ لأن مادية قذرة قد انتشرت في البلاد كالوباء . وهل المادية الا حالة الانسان الذي انصرف عن الرب:

فهي تفكر بأنه ولد من الارض وسيعود الى الارض ، فليس له ما يهمّه بعد الا مصالحه الأرضية . ولكني أردّ على متشككينا : « انتم على حق ، يا اخوتي : لقد خسرنا الحرب لأننا لم نكن نملك «مادة» كافية ؛ ولكن لستم على حق الا جزئياً ، لان جوابكم « مادي » ، وانما هُزمتم لانكم ماديون » إن فرنسا ، ابنة الكنيسة البكر ، هي التي سجلت في التاريخ سلسلة باهرة من انتصاراتها ؛ وان فرنسا التي لا رب لها هي التي عرفت الهزيمة عام ١٩٤٠ . »

وتوقف ؛ وكان الرجال يصغون في صمت ، فاغري الافواه ؛ وكان الرقيب يوافق بايماءات من رأسه . وعاد برونيه ينظر الى الكاهن ، فلاحظ عليه هيئة الانتصار : كانت عيناه الملتمعتان تركضان بين المستمعين ، ووجنتاه تحمرّان ، ورفع يده واستأنف الكلام في اندفاع يكاد يكون جذلاً :

— وهكذا يا اخوتي ، لندع التفكير بأن هزيمتنا هي ثمرة المصادفة: انها في الوقت نفسه جزاؤنا وغلطتنا ؛ انها ليست مصادفة ، يا اخوتي بل هي عقاب ؛ وهذا هو النبأ الطيب الذي أحمله لكم اليوم .

وتوقف مرة اخرى ، يراقب الرؤوس الممدودة نحوه ليحكم على الأثر الذي خلفه ، ثم انحنى وتابع بصوت اكثر تعريضاً :

— انه نبأ قاسٍ غير سارّ ، اعترف بذلك ، ولكنه مع ذلك نبأ طيب . إن من يظن نفسه ضحية بريئة لكارثة ويلوي يديه من غير ان يفهم ، ألا نبلّغه نبأ طيباً حين نطلعه انه يكفّر عن خطأه ؟ ومن أجل هذا أقول لكم : ابتهجوا يا اخوتي ! ابتهجوا من أعماق هوّة آلامكم ، لأنه ان كان ثمةخطأ وكان ثمة تكفير ، فهناك ايضا فداء ، واقول لكم : ابتهجوا ايضاً ، ابتهجوا في « بيت ابيكم » لأنّ هنا سبباً آخر للابتهاج . فان سيدنا ومولانا الذي تألم لجميع البشر ، والذي أخذ اخطاءنا على عاتقه ، والذي تعذّب وما يزال يتعذّب

ليكفّر عنها ، إن مولانا قد أختاركم . اجل ، انتم جميعاً ، فلاحين وعمالا وبورجوازيين ، ولستم الابرياء تماماً ، كما انكم لستم الأكثر ذنباً ، لقد اختاركم لمصير لا يُقارن : اختار ان تفتدي آلاُمكم ، على غرار آلامه ، ذنوبَ فرنسا كلها التي لم يكفّ الربّ عن حبّها والتي عاقبها على مضض . هنا يا اخوتي يجب ان تختاروا ، فاما ان تئنوا وتقطّعوا شعوركم قائلين : لماذا تنزل علي هذه المصائب ؟ عليّ لا على جاري الذي كان غنياً شريراً ، ولا على السياسيين المتهنين الذين قادوا بلادي الى الهلاك ؟ واذ ذاك لا يبقى لأي شيء معنى ، ويبقى لكم ان تموتوا في الحقد والضغينة . واما ان تقولوا لانفسكم : اننا لم نكن شيئاً ، وها نحن اولاء مختارون للألم ، ها نحن اولاء الشهداء . وإذن ، حين يكون رجلٌ ارسلته العناية الالهية ، ابنٌ محترم لاولئك الذين كان الرب دائماً يوقظهم في فرنسا إذ تكون على قاب قوسين من الهلاك ..

ومضى برونيه على رؤوس أصابعه ، فوجد شنايدر وعامل المطبعة مستندين الى جدار الثكنة وقال :

— إنه يعرف مهنته .

قال عامل المطبعة : — صحيح ! إنه ينام على بعد شبرين مني ؛ وفي المساء لا نسمع سواه يعظ الرفاق .

ومرّ رجلان بقربهم ، أحدهما طويل هزيل ذو رأس طويل يلبس النظارة ؛ والآخر قصير سمين ذو فمٍ يحمل الازدراء . وقال الطويل بصوت رقيق :

— لقد تكلم جيداً جداً . وببساطة . وقال ما ينبغي ان يقال .

فأخذ برونيه يضحك : — طز !

وخطوا بضع خطوات ؛ ونظر عامل المطبعة الى برونيه في ثقة وسأل :

ــ وإذن ؟

فردّد برونيه : ــ إذن !

ــ هذه العظة ، مـا رأيك فيها ؟

ــ فيها الطيب وفيها الرديء . وهو على نحو ما يعمل لصالحنا : فقد شرح لهم ان الأسر لن يكون لعبة تسلية ؛ وأعتقد أنه سيلحّ على هذه النقطة : وفي هذا مصلحته كما فيه مصلحتنا ، فما دام هؤلاء الفتيان يتصورون بأنهم سيرون صديقـاتهن الصغيرات في آخر الشهر ، فلن نستطيـع ان نصنع بهم شيئاً .

ماذا ؟

وتباعدت عينا العامل الجميلتان ، وأصبحت وجنتاه رماديتين .وتابـع برونيه :

ــ لا بأس بـــه من هذه الناحية ، بل ان بوسعكم ان تستغلوه . فخذوا رفاقكم وقولوا لهم : هل رأيت الخوري ؟ لقد قال اننـا سنواجه مصاعب شديدة .

فسأل عامل المطبعة جاهداً :

ــ وهل تظنّ انت ، اننا سنقضي هنا وقتاً طويلاً ؟

فنظر اليه برونيه بقسوة :

ــ هل تؤمن ببابا نويل !

فصمت العامل وابتلع ريقه ؛ والتفت برونيه نحو شنايدر وأضاف :

ــ غير اني ، من جهة اخرى ، لم اكن اظنّ انهم سيقررون موقفهم بهذه السرعة ، وانما كنت اعتقد بأنهم يودّون الانتظار . ومهما يكن ، فان عظته كانت برنامجاً سياسياً حقيقياً : إن فرنسا هي إبنة الكنيسة البكر ، وبيتان هو قائد الفرنسيين . شيء يخرّيء !

ونظر الى عامل المطبعة فجأة :

ــ ما رأي الذين حولك فيما قال ؟

— إن الناس يحبّونه كثيراً .

— هكذا !

— ليس ما قد يؤاخذ عليه بالكثير . فهو يوزّع كل ما يملك ، ولكنه يشعرك بذلك. انه يبدو عليه دائماً انه يقول لك ، انني امنحك هذا لمحبة الرب. وانا أفضل الا ادخن ، على ان أدخن تبغه ؛ ولكني الوحيد في هذا الموقف .

— أهذا كل ما تعرفه عنه ؟

فقال عامل المطبعة ، وكأنه يعتذر :

— انت تعرف انه لا يكون بيننا الا في المساء .

— ماذا يفعل في النهار ؟

— انه في ردهة المرضى .

— وهناك الآن ردهة للمرضى ؟

— نعم ، في البناية الاخرى .

— وهل هو ممرض ؟

— لا ، ولكنه صديق للماجور ، فهو يلعب البريدج معه ومع ضابطين جريحين .

قال برونيه : — ها ! ها ! وماذا يقول الفتيان في ذلك ؟

— لا يقولون شيئاً ، يظنون ولكنهم لا يريدون ان يعرفوا . وأنا قد عرفت ذلك من غارتيزر ، وهو ممرّض .

— حسناً ، ستفضح امامهم القضية ، وستسألهم كيف يحدث ان يكون الخوارنة محشورين دائماً مع الضباط .

— اتفقنا .

وكان شنايدر ينظر اليهم ، منذ برهة ، ببسمة غريبة . وقال :

— إن البناية الأخرى ، هي بناية الألمان .

قال برونيه : — آه !

واستدار شنايدر نحو عامل المطبعة ، وكان ما يزال يبتسم :

— انك ترى ما ينبغي ان تقوله : إن الخوري يترك رفاقه ليذهب فيتملق الألمان بطريقة منحطة .

قال عامل المطبعة برخاوة :

— اوه ، لا أعتقد انه يرى كثيراً من الألمان .

فهزّ شنايدر كتفيه في نفاد صبر متكلف ، فشعر برونيه بأنه يتسلى. وسأل شنايدر العامل : — هل يحقّ لك انت ان تتنزه في بناية الألمان ؟

فهزّ العامل كتفيه من غير ان يجيب . وقال شنايدر منتصراً :

— انت ترى ! انني انا لا أبالي بنواياه : فربما كان يريد ان ينقذ فرنسا . ولكنه « موضوعياً » أسيرٌ فرنسي يقضي أيامه مع العدو . هذا ما ينبغي للرفاق ان يعرفوه .

والتفت عامل المطبعة ، مبلبلا ، الى برونيه . ولم يكن برونيه قد أحبّ على الاطلاق لهجة شنايدر ، ولكنه لم يكن يريد ان يناقضه ، فقال :

— تدبّر الأمر بروية ، ولا تحاول ان تهدمه الآن . والواقع ان هنا اكثر من خمسين مثله ، ولن تكفي وحدك لذلك . فجرّب ان تقول ، في الحديث : ان الخوري يعتقد بأننا لن نعود الى بيوتنا في وقت قريب ، ولا بدّ انه يعرف ذلك لأنه يلتقي بالضباط ويتحدث مع الألمان . فيجب ان يفهموا شيئاً فشيئاً ان الخوري ليس من رأيهم . مفهوم ؟

قال عامل المطبعة : — نعم .

— هل في غرفة الخوري شخص منا ؟

— نعم .

— هل هو بارع ؟

— بما فيه الكفاية .

— فليتظاهر بأنه مقتنع بآرائه . اننا بحاجة الى مخبر .

واستند الى الجدار ، وفكر لحظة وقال لعامل المطبعة .

— اذهب فاصطحب رفاقك . اثنين او ثلاثــة . على ان يكونوا جدداً .

وحين أصبحا وحدهما قال برونيه لشنايدر :

— كنت افضل ان انتظر قليلاً ؛ فبعد شهرين او ثلاثة ، سيصبح الافراد مستعدّين . غير ان الخوارنة هم اقوى مما ينبغي . فاذا لم نبدأ على الفور ، تخطتنا الاحداث . اما تزال موافقاً على ان تعمل معنا ؟

فسأله شنايدر : — أعمل بأي شيء ؟

فقطّب برونيه حاجبيه : — كنت اظن انك تريد ان تعمل معنا ، فهل غيرت رأيك ؟

قال شنايدر ؟ — لم اغيّر رأيي . وانما اسألك عما ستعملونه .

فقال برونيه : — لقد سمعت الخوري ؟ إن هؤلاء لم يسقطوا من المسطرة الأخيرة : وسوف تجدهم بعد شهر في كل مكان . وبالاضافة الى ذلك ، فلن يدهشني كثيراً ان يلتقط الألمان من بيننا كويسلنغين او ثلاثة وان يكلفوهم بان يحملوا لنا الكلام الطيب . لقد كان بامكاننا قبل الحرب ان نقيم بوجوههم التشكيلات الصابة ، الحزب ، النقابات ، لجنة الطوارىء . اما هنا ، فلا شيء عندنا . فالقضية إذن هي اعادة بناء « شيء ما » . وطبعاً ، سيتحوّل ذلك الى مناقشات طويلة مملة ، ولم يسبق لي ان احببت ذلك كثيراً ، ولكن اخيراً ، ليس لنا الخيار . وإذن : معرفة العناصر السليمة وتنظيمها وشنّ حملة سرية معاكسة ،تلك هي اهدافنا المباشرة . وثمة نظريتان ينبغي نشرهما : إننا نرفض الاعتراف بالهدنة ؛ والديمقراطية هي شكل الحكومة الوحيد الذي نستطيع اليوم ان نقبله . ولا جدوى من المضيّ الى أبعد من هذا : فيجب علينا في البدء ان نكون حكماء محترسين . وانا آخذ على عاتقي ان أجد الرفاق

في الحزب الشيوعي ، ولكنّ هناك الآخرين ، الاشتراكيين والراديكاليين وجميع الافراد الذين هم « من اليسار » على نحوٍ ما ، المتعاطفين امثالك .

وبسم شنايدر بسمة باردة :

ـ المائعون .

ـ لنقل الفاترون .

وسارع برونيه يضيف : :

ـ ولكن بامكان المرء ان يكون فاتراً وشريفاً. ولست على يقين من اني اتحدث تماماً بلغتهم . اما انت ، فلن تلاقي هذه الصعوبة ، لان هذه لغتك .

قال شنايدر : ـ اتفقنا . المطلوب بالاجمال أن نبعث قليلاً روح « الجبهة الشعبية » ؟

فقال برونيه : ـ لن يكون ذلك رديئاً جداً .

وهزّ شنايدر رأسه ، وقال :

ـ إذن سيكون هذا عملي . ولكن ... هل انت واثق من انـه « عملك »

فنظر اليه برونيه مندهشاً :

ـ عملي ؟

قال شنايدر في لامبالاة :

ـ اوه ! اذا كنت واثقاً من ذلك ..

فقال برونيه : ـ اوضح قصدك ، فانا لا احب الافكار المضمرة .

ـ ليس لدي ما اوضحه . فكل ما اقصد اليه : ماذا يفعل الحزب في هذه اللحظة ؟ ما هي اوامره ، وأهدافه ؟ انا افترض انك تعرفها.

فنظر اليه برونيه باسماً ، وسأله :

ـ اتراك تدرك الوضع ؟ إن الالمان هم في باريس منذ خمسة عشر

يوماً ، وفرنسا كلها مقلوبة رأساً على عقب : فهناك رفاق لنا قُتلوا او أسروا ، وآخرون فروا الى حيث لا يعلم الا الله مع فرقتهم ، في « بو » او « مونتبلييه » وآخرون في السجن . فاذا كنت تريد ان تعرف ماذا يفعل الحزب الآن ، قلت لك انه يعيد تنظيم نفسه .

فقال شنايدر برخاوة :

— فهمت ، وانت من جهتك ، تحاول ان تجمع الرفاق الموجودين هنا ، هذا ممتاز .

قال برونيه ، بمثابة اختتام للحديث :

— حسناً ، فاذا كنت موافقاً ..

قال شنايدر : — ولكن بكل تأكيد يا عزيزي ، اني موافق ، لا سيما وان هذا لا يخصني ، فانا لست شيوعياً . انت تقول لي إن الحزب يعيد تنظيم نفسه : فانا لا اريد منه اكثر من ذلك . غير ان ما اردت ان أعرفه ، لو كنت في مكانك ..

وبحث في جيب سترته ، كما لو انه يبحث عن سيكارة ، وعاد يخرج يده بعد لحظة ويجعلها تتدلى بازاء الجدار :

— على اية اسس يعيد تنظيم نفسه ؟ ذلك هو السؤال .

وأضاف من غير ان ينظر الى برونيه.

— إن السوفيات متحالفون مع ألمانيا :

قال برونيه بنفاد صبر :

— ولكن لا . لقد وقّعوا على ميثاق عدم اعتداء ، وهو ميثاق وقتي . اسمع قليلاً يا شنايدر : لم يكن بوسع الاتحاد السوفياتي ، بعد ميونيخ ..

فتنهد شنايدر وقال : — اعرف ، اعرف كل ما ستقوله لي . إن الاتحاد السوفياتي فقد ثقته بالحلفاء وانه يتمهّل ريثما يصبح قوياً بما فيه الكفاية ليعلن الحرب على الألمان . أليس كذلك ؟

فتردد برونيه وقال : — ليس تماماً . فانا أميل الى الاعتقاد بان الالمان سيهاجمونه .

— ولكنك تعتقد أنه يفعل ما في وسعه ليؤخر ذلك .

— أتصوّر .

فقال شنايدر بهدوء :

— إذن لو كنت إياك ، ما كنت واثقاً الى هذا الحد بان الحزب سيتخذ وضعاً حازماً ضد النازيين : فان ذلك يمكن ان يضر الاتحـــاد السوفياتي .

وحدّد على برونيه عينيه المغتلمتين . كان له نظر ضعيف كئيب ، ولكن تصعب مقاومته . وشعر برونيه بالانزعاج ، فأدار رأسه وقال :

— لا تجعل نفسك أبله مما انت . فأنت تعلم جيداً ان القضية ليست قضية اتخاذ موقف علني . إن الحزب هو حزب غير مشروع منذ ٣٩ ، وسيظل نشاطه سرياً .

فابتسم شنايدر : — سري ، نعم . ولكن ما معنى هذا ؟ أيعني ان جريدة « الاومانيتيه » ستطبع سرياً ؟ اسمع إذن : فمن أصل عشرة الاف نسخة توزع ، ستقع مئة نسخة على الأقل في ايدي الألمان ؛ هذا مقدور : فان بالامكان ، بقليل من الحظ ، اخفاء مصدر المنشورات ، والمطابع ، والتحرير الخ .. اذا كان هذا غير مشروع ، ولكن ليس بالامكان اخفاء المنشورات نفسها ؛ لأنها مصنوعة لتنشر وتوزع . وانا اعطي الغستابو ثلاثة أشهر ليقفوا تماماً على سياسة الحزب الشيوعي .

— وبعد ذلك ؟ انهم لا يستطيعون أن يعزوها للاتحاد السوفياتي .

وسأل شنايدر : — والكومنترن ؟ هل تتصوّر ان موضوع الكومنترن لم يثر بين ريبنتروب ومولوتوف ؟

كان يتكلم بغير لهجة الهجوم ، بصوت محايد . ومع ذلك ، فقـــد كان في الحاحه شيء مريب . وقال برونيه :

– لا نجعل من أنفسنا ستراتيجيين في غرفة . إن ما يقوله ريبنتروب لمولوتوف أجهله ، فانا لست تحت الطاولة . ولكن مــا أعرفه – لأن هذه بديهية بسيطة – هو أن العلاقات قد قطعت بين الاتحاد السوفياتي والحزب .

قال شنايدر : – أتظنّ ذلك ؟

وأضاف بعد لحظة : – على كل حال ، اذا كانت قــد قطعت اليوم ، فستعاد غداً . فهناك سويسرا .

وانتهى القدّاس ، ومرّ جنودٌ أمامهما ، صامتين شاردين . وأخفض شنايدر صوته :

– انني واثق من ان الحكومة النازية تعتبر الاتحاد السوفياتي مسؤولا عن نشاط الحزب الشيوعي .

قال برونيه : – لنقرّ ذلك جدلا . فاين يقودنا هذا ؟

فقال شنايدر : – تصوّر ان الاتحــاد السوفياتي ، رغبةً منه في كسب الوقت ، يفرض الصمت علي الشيوعيين في فرنسا وبلجيكا .

فهز برونيه كتفيه وقال :

– يفرض ! كيف تراك تتمثل العلاقات بين الاتحــاد السوفياتي والحزب الشيوعي ؟ الا تعرف ان هناك خلايــا في الحزب الشيوعي وأشخاصاً يناقشون ويصوّتون ، في الخلايا ؟

فابتسم شنايدر واستأنف بصبر :

– لم اكن اريد ان اجرحك . واطرح عبارتي عــلى نحو آخر : تصوّر ان الحزب الشيوعي ، رغبة منه في ألا يثير صعوبات للاتحــاد السوفياتي ، يفرض علي نفسه صمتاً ...

– وهل يكون ذلك جديداً ؟

– ليس جديداً الى هذا الحد . ماذا فعلتم باعلان الحرب ؟ ومنذ ذلك الحين ، ساء الوضع بالنسبة للاتحــاد السوفياتي . واذا استسلمت

انكلترا ، كان هتلر طليق اليدين .

– لقد اتيح للاتحاد السوفياتي الوقت الكافي للاستعداد . وهو ينتظر الصدمة .

– هل انت واثق من ذلك ؟ إن الجيش الأحمر لم يكن لامعاً الى هذا الحدّ ، في هذا الشتاء . وقد كنت انت نفسك تقول إن مولوتوف يتمهّل ...

– اذا كان بين الاتحاد السوفياتي والحزب الشيوعي العلاقات التي تشير اليها ، فسيعرف الرفاق في الوقت المناسب درجة استعداد الجيش الأحمر .

– الرفاق ، نعم ، هناك في باريس . أما انت ، فلا ، « انت » الذي تعمل « هنا » ...

قال برونيه وهو يرفع صوته :

– واخيراً ، ما هي غايتك من هذا كله ؟ ماذا تريد ان تثبت ؟ ان الحزب الشيوعي أصبح فاشستياً ؟

– كلا ، ولكني اريد ان اثبت ان النصر النازي والميثاق الجرماني السوفياتي هما واقعان قد لا يروقان للحزب الشيوعي ، ولكن عليه ان يرضى بهما . وانت لا تعرف بالذات « كيف » يرضى بهما .

– أيجب عليّ ان أشبّك ذراعيّ ؟

قال شنايدر : – انا لا اقول ذلك . وانما نحن نتحدث ..

واستطرد بعد لحظة ، وهو يمرّ سبابته على جانب انفه الكبير .

– إن الحزب الشيوعي ليس أعطف من النازيين على الديموقراطيات الرأسمالية ولو كانت الاسباب مختلفة ، وما دام انه كان ممكناً تصوّر تحالف بين الاتحاد السوفياتي وديموقراطيات الغرب ، فقد اخترتم ، كقاعدة ، الدفاع عن الحريات السياسية ضد الدكتاتورية الفاشية . ولكنك تعلم خيراً مني ان هذه الحريات وهمية . إن الديموقراطيات الآن

راكعة على قدميها ؛ وقد اقترب الاتحاد السوفياتي من ألمانيا ، وأخذ بيتان السلطة ، وانما يجب على الحزب ان يواصل عمله في مجتمع فاشي او مرصود للفاشية . وانت ، بلا رؤساء ، ولا أمر ولا اتصال ، ولا أخبار ، ستعود بدافع من مبادرة خاصة الى اتخاذ تلك القاعدة الفاسدة. لقد كنا نتحدث منذ لحظة عن روح « الجبهة الشعبية» : ولكن الجبهة الشعبية قد ماتت . ماتت ودفنت . لقد كان لها معنى عام ٣٨ ، في السياق التاريخي . اما اليوم ، فليس لها اي معنى. فاحترس يا برونيه ، انك ستعمل في الظلام .

وكان صوته قد أصبح خشناً ، فكسره فجأة واستطرد في رقة يقول :

— من أجل هذا ، كنت اسألك عما اذا كنت واثقاً من عملك .

فأخذ برونيه يضحك وقال :

— كفى ! إن هذا كله ليس مريعاً الى هذا الحد . فلنجمع الافراد ولنحاول ان نجابه الحوارنة والنازيين ؛ اما الباقي ، فسننظر في أمره : إن المهمات تنبثق من تلقاء نفسها .

فأقرّ شنايدر برأسه وقال :

— بكل تأكيد ، بكل تأكيد .

فنظر اليه برونيه في عينيه ، وقال :

— انت الذي تقلقني ، فاني اجدك متشائماً جداً .

قال شنايدر في غير ما اكتراث :

— اوه ! انا ؟ اذا اردت رأيي ، فاني أعتقد ان ما نفعله ليس له أية أهمية سياسية : إن الوضع مجرّد ، ونحن غير مسؤولين . ان الذين سيعودون منا ، فيما بعد ، سيجدون مجتمعاً منظماً ، باطاراته وتقاليده . في هذا الميدان ، على الأقل . لأننا من جهة اخرى اذا استطعنا ان نردّ للرفاق بعض الشجاعة ، واذا حلنا بينهم وبين اليأس

واذا اعطيناهم سبباً للحياة هنا ، ولو كان وهمياً ، فان ذلك يستحق جهد التجربة .

قال برونيه : — حسناً ، هذا ممتاز (واضاف بعد لحظة صمت) هيّا ، اريد ان اتنزه قليلا ، ما دام هذا اول خروج لي . فالى اللقاء .

فحيّاه شنايدر باصبعين ومضى . عقلٌ سلبي ، مثقف ، ما كان ينقصني الا ان أرتبك بــه . نموذج غريب : تارة ودّيٌ حارٌ ، واخرى بارد ، وقح تقريباً . فأين رأيته ؟ لماذا تراه يقول « الرفاق » وهو يتحدث عن أفراد الحزب ، ولا يقول « رفاقك » كما يُنتظر منه؟ يجب ان اتدبر الأمر لألقي نظرةً على دفتره العسكري . وفي الساحة المرحة بيوم الأحد ، كان الرجال يبدون بهيئة ايام النزهة ؛ وعلى جميع هذه الوجوه المغسولة ، المحلوقة ، كانت الغيبة نفسها مرسومة . كانوا ينتظرون ، وكان انتظارهم قد أقام فيما وراء السور مدينةً برمتها ذات حدائق ومواخير ومقاه . وفي وسط الساحة ، كان أحدهم يعزف على الارمونيكا : وازواج يرقصون ، وكانت المدينة الشبح ترفع سقوفها واوراقها فوق سور السجن ، وتنعكس على الوجوه العمياء التي يحملها هؤلاء الراقصون الأشباح . واستدار برونيه على عقبيه ، وعاد الى الساحة الاخرى . تغيير في الإطـــار : لقد نقلت الكنيسة . كان الفتيان يلعبون لعبة الركض وهو يصرخون ، وكانوا يعدون كالمجانين. وارتقى برونيه الجرف الصغير خلف الاصطبل ، ونظر الى القبور ؛ فاستشعر الارتياح . وكانت زهورٌ قد القيت على الارض المنكوثة ، وزرعت ثلاثة صلبان صغيرة متجاورة . وجلس برونيه بين قبرين ، وكان الأموات تحته : وهـــدّأه ذلك ؛ إن البراءة ستأتي يوماً ، بالنسبة اليه ايضاً . وأخرج من التّراب علبة سردين مفتوحة وصدئة ، ورماها أمامه . انه يوم أحد نزهة ومقبرة : كنت أتنزه على رابية ، وتحتي كان صبية يلعبون لعبةَ الركض في مدينة ، وكـــانت أصواتهم

تصعد إليّ . اين كان ذلك ؟ إنه لا يعرف بعد ؛ ويفكر : « صحيح اننا سنعمل في الظلام » . فماذا إذن ؟ لا نفعل شيئاً ؟ وثارت قوته لهذه الفكرة . سأعود ، في نهاية الحرب ، وسأقول للرفاق : « هأنذا . لقد عشت . » وسيكون ذلك رائعاً ! هل أهرب ؟ ونظر الى الجدران ، ولم تكن مفرطة في الارتفـاع : حسبي ان أبلغ نانسي ، فان اسرة « بولان » ستخبئني . ولكن كان ثمة هؤلاء الاموات الثلاثة ، تحته ، وهناك الصبية الذين يصرخون في هذا الأصيل الأبدي : وألصق باطن يديه على الأرض الرطبة ، وقرر انه لن يهرب . مرونة . تجميع الفتيان، والانتظار ، وردّ الثقة لهم والأمل ، وعلى كل حال حثّهم على فضح المدنة ، ثم الاستعداد لتغيير التعليمات وفق الأحداث . وفكر برونيه : إن الحزب لن يتخلى عنا . إن الحزب « لا يستطيع » ان يتخلى عنا . ورقد بطوله ، كالاموات ، عـلى الأموات ؛ ونظر الى السماء ، ثم نهض ، وهبط بخطى بطيئة ، وفكر بأنه وحيـد . كان الموت حوله كأنه رائحة ، كنهاية يوم أحـد ؛ وللمرة الاولى في حياته ، شعر بغموض أنه مذنب . مذنب بأن يكون وحيـداً ، مذنب بان يفكر ويعيش . مذنب بالا يكون قد مات . لقـد كان فيما وراء الجدران بيوت ميتة وسوداء بكل عيونها المفقودة : أبدية الحجر . وكان ضجيج هذا الجمع الرباني يصعد نحو السماء منذ الأزل . وبرونيه وحده ليس خالداً : ولكن الخلود منصبّ عليه كأنه نظرة . انه يمشي : وحين عاد ، كان المساء قد هبط ، لقد تنزه طوال النهار ، وكان لديه ثمة ما يقتله ، وهو لا يدري ان كان قد بلغ ذلك : إن من لا يفعل شيئاً، يعاني حالات نفسية ، هذا طبيعي . وكانت تنبعث من ممر العنبر رائحة غبار ، وكانت الاقفاص تطنّ ، إنه ذيل يوم الأحد يجرجر نفسه ، وعلى الأرض ، كانت ثمة سماء بكاملها متلألئة ، وفيها نجوم مذنّبة : كان الافراد يدخنون في الظلام . وتوقف برونيه ، وقال من غير ان

يوجه كلامه لأحد ، بصورة خاصة :

– تنبهوا حين تدخنون : حاولوا الا تحرقوا الكوخ الخشبي .

وكان الرجال يدمدمون تحت هذا الصوت الذي يهبط اليهم، من فوق، على الأكتاف . وصمت برونيه ، مبلبلا ؛ وأحس انه زائد . وقام ببضع خطوات اخرى : وانبثق كوكب أحمر فتدحرج باسترخاء عند قدميه ، فوضع عليه حذاءه ؛ وكان الليل رقيقاً أزرق ، وكانت النوافذ تبرز في الظلّ ، بنفسجية كالصور التي تبقى في العينين حين يكون صاحبهما قد نظر اطول مما ينبغي الى الشمس ، ولم يجد قفصه ، فصاح :

– هو ! شنايدر !

فقال صوت : – هنا ! هنا !

فعاد أدراجه ، وكان شخص يغني برقة ، لنفسه : «على الطريق، الطريق الكبيرة ، كان شاب يغني» . وفكر برونيه : «انهم يحبون المساء .» وقال شنايدر :

– من هنا ، تقدّم قليلا ، لقد وصلت .

ودخل ؛ فنظر الى الكوة ؛ اين هو المصباح ؟ كان الأشخاص من حوله يهمسون . انهم في الصباح يصيحون ، وفي المساء يهمسون ، لأنهم يحبون المساء ؛ فمع الليل ، يدخـــل « السلام » بخطى ذئبية الى العلبة الكبيرة المظلمة.. « السلام » والسنوات القديمة ؛ بل لكأنهم احبوا حياتهم . وقال مولو :

– اما انا ، فكأس من البيرة ، من غير ربطة عنق . في مثل هذه الساعة ، أكون في « الكادران بلو » وانا أشرب كأس بيرة ، فيما انظر الى المارة .

وسأل بلونديته : – و « الكادران بلو » اين تراه يكون معلقاً ؟

– في الغوبلين ، عند زاوية جادة الغوبلين وبولفارسان مارسيل، اذا فهمت ما أقصد .

ــ آه ! لأن هناك دار سينما سان مارسيل ؟

ــ على بعد مئتي متر . وانا أسكن مقابل ثكنة « لورسين » . وقد كنت بعد العمل أعود الى بيتي لآكل لقمة ، ثم أهبط ثانية ، فأذهب الى « الكادران بلو » أو احياناً الى « كانون دي غوبلين » . غير ان في « الكادران بلو » فرقة موسيقية .

ــ الكلام بسرك ، في سينما سان مارسيل برامج ممتازة .

ــ صحيح . هناك « شارل تريني » ، وكانت من قابـــل ماري دوبا ، وقد رأيتهـــا تخرج بلحمها وعظمها ، وكانت لهـــا سيارة صغيرة جداً .

قال بلوندينه : ــ كنت انا أقصدها . وانا اسكن « فانف » ، وكنت اعود الى بيتي مشياً على الأقدام ، حين يكون الليل جميلا .

ــ ولكنها ليست قريبة .

ــ صحيح . غير اني كنت شاباً .

قال لامبير : ــ اما انا ، فليست البيرة هي التي تنقصني ، وهي لم تؤذني قط ، وانما هو الخمر . كان بوسعي ان اشرب من الخمر لترين في اليوم . واحياناً ثلاثة . ولكن كان لا بد لي من ان أرشحها عرقاً . تصوّر لو كان لدينا خمر هذا المساء ، زجاجة صغيرة من صنع « ميدوك » .

قال مولو : ــ عجباً ! ثلاثة ليترات ؟

ــ أجل !

ــ اما انا ، فأحسّ الدوار اذا شربت اكثر من ليتر .

ــ ذلك انك تشرب الخمر الابيض .

قال مولو : ــ آه ، صحيح . الخمر الابيض . لا أعرف غيره .

ــ ينبغي ألا تمضي الى أبعد . خـــذ مثلا : ان امي العجوز في الخامسة والستين ، وانا أسكن معها . وبالرغم من سنها ، مـــا تزال

تكرع كيلو خمرها كل يوم . غير انه من الخمر الأحمر .

وصمت لحظة ، وحلم . وكان الآخرون يحلمون ايضاً ، ويصغون بهدوء الى هذه الاصوات التي تتحـــدث باسم الجميع ، من غير ان يحاولوا مقاطعتها . وفكر برونيه في باريس ، وفي شارع مونمارتر ، وفي حانة صغيرة كان يقصدها ليشرب قدح خمر ابيض مصمغ اذ يخرج من « الاوما » ، وقال الرقيب :

– في يوم أحد كهذا ، أكون ذاهباً مع زوجتي الى حديقتي . إن لي حديقة على بعـــد خمسة وعشرين كيلومتراً من باريس ، فيما بعـــد « فيلنوف سان جورج » بقليل ، وهي تعطي خضاراً عظيمة .

فأقره صوتٌ ضخم من الجانب الآخر من القضبان :

– آه ! إن الأراضي هناك اراض خصبة كلها .

قال العريف : – إن هذه هي ساعة العودة الى البيت . او ربمـــا قبل ذلك بقليل ، تماماً عندما تغرب الشمس ؛ وانا لا أحبّ ان اسير بسيارتي على ضوء مصباحها . وقد كانت زوجتي تعود بزهور عـــلى مقودها ، وكنت انا أضع خضاراً على « حامل الامتعة » .

قال لامبير : – اما انا ، فلم اكن أخرج يوم الأحـــد . فالزحام شديد في الشوارع ، ثم انني كنت أشتغل يوم الاثنين ، ولم يكن بيتي قريباً جداً من « غاردوليون » .

– وماذا تفعل في « غاردوليون ؟ »

– انني موظف في « الاستعلامات » ؛ المبنى الذي هو في الخارج. فاذا خطر لك يوماً ان تقوم برحلة صغيرة ، فليس لك الا ان تأتي لحجز الأماكن . حتى ولو جئت عشية رحلتك : فاني أدبر أمرك .

قال مولو : – انا لا استطيع ان ابقى في بيتي ، فان ذلك يورث عندي الكآبة . يجب ان اوضح اني أعيش وحدي .

قال لامبير : – وحتى السبت ، كان يحدث غالباً ألا أخرج .

– والصاحبات ؟

– والصاحبات ؟ كنت أُصعدهنّ الى البيت .

قال بلونديه مشدوهاً : – الى البيت ؟ وماذا كانت تقول في ذلك ، عجوزك ؟

– لم تكن تقول شيئاً . كانت تعدّ لنا الشورباء وتذهب الى السينما .

قال بلونديه : – هكذا إذن . تستطيع ان تقول انها ماهرة ؛ فما قولك بامي التي كانت ترسل إلي الصفعات ، حتى بعد ان بلغت الثامنة عشرة ، حين كانت تلتقي بي مع فتاة ؟

– وتسكن معها ، انت ايضاً ؟

– الآن ، كلا : فقد فتحتُ الآن بيتاً .

وصمت لحظة ثم قال : – وهذا المساء ، لم نكن لنهبط ايضاً . بل كنا بقينا للمضاجعة .

وساد صمت طويل ، وكان برونيه يصغي اليهما ، فيحس نفسه يومياً ، ويحس نفسه خالداً ، ويقول بشبه خجل :

– اما انا ، فقد كنت في مثل هذه الساعة في حانة بشارع مونمارتر ، وكنت أشرب مع الرفاق خمراً ابيض مصمغاً .

فلم يجب أحد ، وغنى رجل « كوخي الصغير » بصوت نحاسيّ . وسأل برونيه شنايدر :

– من هو هذا الفتى ؟

فقال شنايدر : – انه غاسّو ، محصّل في المالية . وهو من بلدة « نيم » .

وظلّ الرجل يغني ، وفكر برونيه : « ان شنايدر لم يقل ماذا كان يفعل يوم الاحد . »

انتفاض نداء طويل رخيم ، ما تراه قد كان ؟ ابيض لوح زجاج الكوّة ؛ وعلى الارض الخشبية البيضاء ، كانت القضبان تعكس ظلالها ، الساعة الثالثـة صباحاً . وكانت الدوالي تتموّج تحت سلفتة القمر ، وكان نهر « الأوليبه » يداعب نفسه عند جزره الكثيفة العشب ، وعند جسر « فوفلورفيل » كان زارعو الكرمة ينتظرون قطار الساعة الثالثة وهم يخفقون نعالهم ؛ وسأل برونيه بجذل :

— ما تراه قد كان ؟

وانتفض لأن أحداً قد أجابه :

— هس ! هس ! استمع !

انني « لست » في سريري ، في « ماكون » ، وهذه « ليست » العطلة الكبري . ومن جديد ، النداء الطويل الأبيض ، ثلاث صفرات تتمدّد ، وتتمطّى ، وتنهار . لقد حدث شيء ما . كان العنبر يضجّ والحيوان الهائل يتحرّك على الأرض الخشبية ؛ ومن اعماق الليل الذي لا عمر له ، صوت رقيب :

— قطار ! قطار ! قطار !

كان هذا إذن : القطار الاول . وبدأ شيء ما : إن الليل المجرد سيكثف ويحيا من جديد ، وسيعود الليل الى الغناء . وأخذ الجميع يتكلمون في وقت واحد : « القطـار » القطـار الاول ، لقد أصلحت السكّة؛ يجب الاعتراف بأنهم أتموا ذلك في سرعة كبيرة ، ان الالماني هو دائماً عامل بارع ، ولكن اسمع ، إن هذه مصلحتهم ، ويجب ان يصلحوا كل شيء ؛ في هذا القطار، سترى ، فرنسا ، سترى في هذا القطار ؛ اين هو متجه ؟ الى نانسي ، وربما الى باريس ؛ اوه ايها الأصحاب ، اوه ايها الأصحاب ! لو كان في داخله اسرى ، اسرى يعودون الى بيوتهم ، هل تتصورون ؟ »

كان القطار يسير في الخارج على خط مرتجل ، وكان بيت كبير مظلم كامناً برمته . وفكر برونيه : انه قطار ذخيرة ؛ وحاول ، بدافع

الاحتراس ، ان يرفض طفولته ؛ حاول ان يرى الشاحنات الصدئة ، وأغطية الوقاية ، وصحراء من الصلب والنحاس ؛ ولكنه لم يستطعَ : فقد كانت ثمة نساء نائمات تحت ضوء مصباح أزرق خافت ، في رائحة مع المقانق والخمر ، وكان ثمة رجل يدخن في الممرّ. وكان الليل الراقد على الزجاج يعكس له صوته ، غداً صباحاً ، باريس . وابتسم برونيه ، ثم عاد الى الرقاد ، ملتفاً بطفولته ، تحت ضوء القمر الهامس غداً باريس،ونَعس في القطار ، ورأسه مستند الى كتف عارية رقيقة ، واستيقظ في نور حريري ، باريس ! وأدار عينه نحو الشمال من غير ان يحرك رأسه: كان ثمة ستة وطاويط متشبثة بأرجلها بالجدران ،وأجنحتها منتشرة كأنها تنانير . واستيقظ تماماً : كانت الوطاويط هي الظلال السوداء لسترات معلقة على الجدار ، بالطبع لم ينزع مولو سترته : فاذا اجبرناه على نزعها حين ينام ، وعلى تغيير قميصه ، لأدّى ذلك الى إلصاق قملة بنا ، وتثاءب برونيه ، صباح آخر ، ما تراها قد كانت ، هذه الليلة ؟ آه نعم ، القطار . وانتصب فجأة ، فنفض غطاءه وجلس . كان جسمه من خشب ، تشنجات متعرجة ، وفرحة مخشوشبة في ضلوعه الخدرة ، كما لو ان صلابة الارض الخشبية قد انتقلت الى لحمه ؛ وتمطّى وفكر : « اذا رجعت ؛ فلن أنام بعد في سرير أبداً . » وكان شنايدر ما يزال نائماً ، فاغر الفم ، في هيئة أليمة ؛ وكان الشتيمي يبسم للملائكة؛ وكان غاسو مشعث الشعر، أحمر العينين ، يكسر فتاتاً من الخبز على الغطاء ويأكله ، وكان بين الفينة والفينة يفتح فمه ويفرك بابهامه طرف لسانه لينزع عنه قذىً او شعرة صوف بقيت في كسرة ؛ وكان مولو يحكّ رأسه في تململ ، وكانت خطوط مفحمة ترسم تجعداته : كيف السبيل الى ايجاد وسيلة لقسره على الاغتسال ؛ وكان البلوندينه الأشقر يطوف بعينيه في هيئة كئيبة متلمسة ، ثم يشرق وجهه فجأة :

– بلا مزاح !

ويطفو وجهه وحده من الغطاء ، ويبـــدو مندهشاً مفتوناً ، فسأله مولو :

– ما بك ، ايها الرأس الصغير ؟

قال بلوندينه : – بي اني متوتر !

فقال مولو غير مصدّق : – انك متوتّر ؟ آه ، انني لا أصدّقك ، متوتر كالمنديل !

فألقى بلوندينه عنه غطاءه ، فاذا قميصه مشمّر عن ساقيه الشقراوين المشعرتين .

وقال مولو : – هذا لعمري صحيـح ! يا لك من محظوظ !

قال غاسو بلهجة متكلفة : – محظوظ ؟ بل انا اظنّ ذلك مصيبة!

قال بلوندينه : – ايها الحاسد الكبير ! انك تودّ كثيراً لو تحدث لك هذه المصيبة !

وهزّ مولو ذراع لامبير فصاح لامبير وانتفض :

– ماذا هناك ؟

قال مولو : – انظر !

وفرك لامبير عينيه وتطلع ، ثم اكتفى بالقول :

– خراء !

ونظر مرة أخرى : – هل أستطيع ان ألمسه ؟

قال بلوندينه : – سيُحدث لي ذلك ألماً كبيراً .

– انه احياناً فضيحة .

فردد بلوندينه مشمئزاً :

– فضيحة ! فضيحة ! حين كنت في الوضـــع المدني ، كنت انهض كل صباح بقضيب اكبر من هذا مرتين !

وكان راقداً على ظهره ، متشابك الذراعين ، مغمض العينين نصف

إغماضة ، وعلى شفتيه بسمة طفولية . وقال ، وهو ينظر من بين أجفانه الى ذكره الذي كان يرتفع ويهبط على ايقاع تنفسه :

– كنت قد بدأت أقلق . ذلك ان لي امرأة ، انا !

فضحكوا . وصرف برونيه رأسه وقد صعد الغضب الى حلقه وقال مولو :

– اما انا ، فقد كنت أذهب الى الماخور . وقد يحدث ان يزول الأمر في الطريق ، فيكون ذلك عمل توفير .

وضحكوا ايضاً ، وأخذ البلوندينه يداعب ذكره بيد مهملة حنون ، وانتهى الى القول :

– الجنّة الأرضية .

والتفت برونيه فجأة نحو البلوندينه ، وقال له من بين أسنانه :

– خبّيء هذا !

فسأله المجعّد بصوت مدبّق بالشهوة :

– وممّ ؟

فقال غاسو وهو يقلد برونيه :

– خبّيء هذا النهد الذي لا استطيع ان اراه !

وقال برونيه بجفاف : – انتم جميعاً خنازير !

وأدار نحوه رؤوسهم ينظرون اليه ، وفكر برونيه :

– انهم لا يحبونني .

ودمدم غاسو ببضع كلمات مبهمة ، فانحنى عليه برونيه :

– ماذا تقول ؟

فلم يجب غاسو ، وقال مولو بلهجة مصالحة :

– ليس من الجريمة ان نتكلم بين فترة وفترة عن الحب . إن ذلك يغيّر الجو .

قال برونيه : – انما العاجزون هم الذين يتكلمون عن الحب . إن

الحبّ يُعمَل حين يستطيع المرء ذلك .

– وحين لا يستطيع المرء ذلك ؟

– يصمت .

فبدا عليهم الانزعاج والمداراة ؛ وعلى مضض ، رفع البلوندينه بهدوء غطاءه . وكان شنايدر ما يزال نائماً ؛ وانحنى برونيه على الشتيمي وهزّه ، فدمدم الشتيمي وفتح عينيه ، فقال برونيه :

– رياضة !

قال الشتيمي : – اويه !

ونهض فتناول سترته ، وهبطوا الى ساحة الاصطبلات . وامام أحد الأكواخ ، كان عامل المطبعة وداوروكير وثلاثة آخرون ينتظرونهم . وصاح بهم برونيه من بعيد :

– كيف الحال ؟

– انفجارات . هل سمعت القصف هذه الليلة ؟

فأجاب برونيه منزعجاً : – نعم ، لقد سمعته .

ولكن غيظه ما لبث ان سقط : ان هؤلاء شبان ، نظيفون ، ذوو حيوية ، وكان عامل المطبعة قد زرع قبعته الى جانب ، في شيء من التأنق . وبسم لهم برونيه . وكانت الضجة قائمة ، وكان الجمع في جوف الساحة ينتظر القدّاس ، ولاحظ برونيه في رضى انهم كانوا اقل عدداً من يوم الأحد الاول .

– هل قمت بما كلفتك به ؟

وفتح داوروكير باب الكوخ ، من غير ان يجيب : كان قد نثر القش على الأرض ، فشمّ برونيه رائحة اصطبل رطبة .

– من اين أخذته ؟

فابتسم داوروكير :

– لقد تدبرت الأمر .

قال برونيه : — حسناً .

ونظر اليهم في ودّ ودخلوا فنزعوا ثيابهم ولم يحتفظوا الا بسراويلهم وجراباتهم ؛ وأغرق برونيه قدميه في عذوبة القش المتكسرة ، وشعر بالرضى فقال :

— هيّا بنا .

فاصطفّ الرجال ، مولين الباب ظهورهم . وقام برونيه بالحركات تجاههم ، وهو يعدّ . فاحتذوا حذوه ، وأنفاسهم تزفر خلال أسنانهم . ونظر اليهم برونيه في سرور بينما كانوا يقرفصون عــلى أعقابهم ، وايديهم خلف رقابهم ، أشدّاء ذوي عضلات مستطيلة ، وكان داوروكير وبرونيه أقواهم ، ولكن كانت لهما عضلات مكوّرة ؛ اما عامــل المطبعة فقد كان مفرط الهزال ؛ وتأمله برونيه في شيء من القلق ، ثم جاءته فكرة ، فانتصب وصاح :

— قفوا !

فبدا على عامل المطبعة انه سرّ لتوقفهم ، وكان يلهث . واقترب منه برونيه :

— إنك في الحقيقة شديد الهزال !

— منذ عشرين حزيران ، فقدت ستة كيلوغرامات .

— وكيف عرفت ذلك ؟

— إن في مركز التمريض ميزاناً .

قال برونيه : — يجب ان تستعيــد صحتك . انك لا تأكــل طعاماً كافياً .

— كيف تريد ان ...

قال برونيه : — هناك وسيلة سهلة جداً ، فسوف يعطيك كل منا جزءاً من حصته ...

قال عامل المطبعة : — اني ...

ففرض عليه برونيه السكوت :

ـ انا الطبيب ، واني آمرك بزيادة الغذاء . موافقون ؟

قالها ملتفتاً نحو الآخرين ، فأجابوا :

ـ موافقون .

ـ حسناً ، ستمرّ اذن كل صباح بالغرف لتجمع نصيبك . في الوقت المحدد .

انحناء ، وادارة الجذع ؛ وبعد لحظة ، تهاوى العامل ، فقطّب برونيه حاجبيه :

ـ ماذا هناك ايضاً ؟

فابتسم العامل بسمة اعتذار :

ـ إن هذا قاسٍ بعض الشيء .

قال برونيه : ـ المهم الا تتوقف ، لا تتوقف .

وكانت الجذوع تدور كأنها عجلات ، وكانت الرؤوس تتحدّى السماء وترتمي بين السيقان ، ثم ترتفع من جديد . « كفى ! » واستلقوا على ظهورهم ليقوموا بالحركات المِعَدية ، وستكون النهاية بالجسر الخلفي : وكان ذلك يسليهم لأنهم كانوا يظنون انفسهم مصارعين . وأحسّ برونيه عضلاته تعمل ، وكان ألمٌ طويل حادّ يشدّ أربيّته ، وكان سعيداً ؛ إنه اللحظة الوحيدة الطيبة من لحظات النهار ؛ وكانت أعمدة السقف السوداء تتدحرج الى خلف ، والقش يثب الى وجهه فيستنشق رائحته الصفراء ، وتلامسه يداه امام قدميه . وقال :

ـ هيا ! هيا !

قال جندي : ـ إنه يشدّ .

ـ هذا أفضل ! هيا ! هيا !

ونهض قائلا :

ـ انه دورك يا ماربو !

وكان ماربو يمتهن المصارعة قبل الحرب : وهو مدلّل في مهنته . وقد اقترب مع داوروكير فتناوله من قامته . وضحك داوروكير ، وقد أحسّ الدغـــدغة ، وتداعى للسقوط الى خلف ، على اليدين المقلوبتين . وجاء دور برونيه ، فأحسّ هاتين القبضتين بجنبيه ، وارتمى الى خلف ، فقال ماربو :

ـ لا ، لا ، لا تتشنّج . دع نفسك باسترخاء ، لا بقسر .

فضغط برونيه على فخذيه ، وصدر صوت قفقفه ، لقـــد شاخ ، وأضحت عُقده صلبة ، وجهد حتى لمس الأرض بأطراف أصابعه ، ثم نهض ، مسروراً ، مع ذلك ، وكان يرشح ، فـــأولاهم ظهره ووثب الى مكانه .

ـ قفوا !

والتفت فجأة ، فاذا العامل قد سقط مغشياً عليه . ووضعه ماربو بلطف على القش ، وقال بعتاب خفيف :

ـ ذلك أقسى من ان يحتمله .

فقال برونيه منزعجاً : ـ كلا . كل ما هنالك انه لم يعتد عليه . وكان العامل قد فتح عينيه ، فبدا ممتقعاً ، وكان يلهث بمشقة ، فسأله برونيه بودّ :

ـ وإذن ، ايها الحصان الصغير !

وابتسم له العامل في ثقة :

ـ لا بأس ، يا برونيه ، لا بأس . انني أعتذر ، فانا...

قال برونيه : ـ طيّب ، طيّب ، ستكون في حالة افضل اذا أكلت أكثر . هذا كل شيء لهـــذا اليوم ، ايها الاصحاب . فإلى « الدوش » ثم الى الخطوة الرياضية .

فركضوا الى انبوب السقاية ؛ بسراويلهم ، وملابسهم تحت أذرعهم وألقوا بثيابهم على شراع خيمة ، فجعلوا منها رزمة غير قابلة للاختراق ،

ثم اغتسلوا تحت الرذاذ . وكان برونيه وعامل المطبعة يمسكان الانبوب ويوجهان الماء الى ماربو .

ورمى العامل بنظرة قلقة الى داوروكير ، وتنحنح وقال لبرونيه :

- نود ان نتحدث اليك .

فالتفت اليه برونيه من غير ان يترك الانبوب ، فاخفض العامل عينيه : كان برونيه مغتاظاً بعض الشيء : انه لا يحب ان يخيف الآخرين ، وقال بجفاف :

- بعد ظهر هذا اليوم ، عند الساعة الثالثة ، في الساحة .

وفرك ماربو جسمه بخرقةمن قميص كاكي ثم ارتدى ثيابه . وقال :

- هيه ! إن هناك جديداً ، ايها الاخوان !

كان رجل طويل شديد السمرة يخطب وسط فريق من الاسرى ، فقال ماربو ، مهتاجاً :

- انه شابوش ، السكرتير . انني ذاهب لأرى ما هناك .

ونظر اليه برونيـــه وهو يبتعد : إن الأبله لم يتح له ان يلف طاقاته ، فهو يمسك واحدة في كل يد . وسأل عامل المطبعة :

- ما تظن أن هناك ؟

وكانت لهجته لهجة عدم اكتراث ، ولكن صوته لم يكن ليخدع : انه الصوت الذي يتخذونه جميعاً ، مئة مرة في اليوم ، صوت الأمل . وهز برونيه كتفيه :

- قد يكون نبأ الروس ينزلون في « بريم » او الانكليز يطلبون الهدنة : وهذا لا يغير شيئاً .

ونظر الى عامل المطبعة بلا ود . وكان الفتى الصغير يموت رغبة في ان ينضم الى الآخرين ولكنه لا يجرؤ . ولم يكن برونيه راضياً عن حياته : فما ان أوليه ظهري ، حتى يمضي الى هناك ، فليتزرع امام شابوش ، جاحظ العينين ، متمدد المنخرين ، مفتوح الاذنـــين على

سعتهما ، وكله ثقوب للاستماع . وقال برونيه :
— إغسلني .

ونزع سرواله ، وكان لحمه يبتهج تحت الدفق القابض ، كرات من رذاذ ، مليون كرة صغيرة من لحم ، قوة ؛ ودلك جسمه بيديه ، وعيناه محددتان في المتطلعين ؛ وكان ماربو قد انسلّ وسط الجمع ، ورفع أنفه المشمّر نحو الخطيب . يا اَلهي ، ليتهم يستطيعون فقط ان يفقدوا الأمل ، ليت لديهم فقط « ما يعملونه » قبل الحرب ، كان العمل هو الذي يشكل لديهم حجر الزاوية ، ويقرّر الحقيقة ، وينظم علاقاتهم بالعالم . اما وأنهم لا يعملون شيئاً ، فهم يعتقدون ان كل شيء ممكن ، انهم يحلمون ، ولا يدرون بعد ما هو الصحيح . هؤلاء المتنزهون الثلاثة ، المتمهلون الليّنون الذين يتقدمون في تموجات طبيعية طويلة ، وعلى أسفل وجوههم بسمات نباتية ، أتراهم قد استيقظوا ؟ إن كلمةً تتدحرج خارج أفواههم بين الفينة والفينة ، كما في الحلم ، ولا يبدو انهم يلاحظون ذلك . بمَ تراهم يحلمون ؟ انهم يصنعون ، من الصباح حتى المساء ، كأنه سمٌ ذاتي ، الانباءَ المثيرة التي حرموا نفوسهم منها ؛ وهم يروون فيما بينهم كل يوم القصّة التي كفّوا عن القيام بها : قصة ملأى بالأحداث المسرحية وبالدم .
— يكفي .

فانخفض الدفق، تفجّر زبد بين الحصى ، وتنشّف ماربو ، وعاد ماربو نحوهما بادي النصر ، أعمّى ، فتهادى لحظة ثم قرر ان يتكلم . وقال بلهجة عدم اكتراث مصطنعة :
— سنشهد زيارات .
فاصطبغ وجه عامل المطبعة :
— ماذا ؟ « أية » زيارات ؟
— العائلات .

فقال برونيه في سخرية : — صحيح ؟ ومتى ذلك ؟
فنهض ماريو بخفة ونظر اليه في عينيه نظرة مثيرة :
— اليوم .
قال برونيه : — بكل تأكيد . وقد أوصي على عشرين الف سرير حتى يستطيع الاسرى ان يضاجعوا نساءهم .
فضحك داورروكير ، ولم يجرؤ العامل على ألاّ يضحك ، ولكن عينيه ظلّتا جائعتين . وابتسم ماربو في طمأنينة :
— لا ! لا ! فهذا رسمي . وشابوش هو الذي قاله .
فقال برونيه وهو يتضاحك : — آه ! اذا كان شابوش !
— وهو يقول ان ذلك سيُعلّق هذا الصباح .
فقال داورروكير : — سيعلق على قفاي !
فابتسم له برونيه . وبدت على ماربو الدهشة :
— إن الأمر جدّ ، وقد قيل ذلك لغارتيزر ايضاً ، قاله له سائق سيارة شحن ألماني ، ويبدو انها قادمة من ابينال ونانسي .
— من هي القادمة ؟
— العائلات . لقد سارت أمس، على الدراجات، ومشياً على الاقدام وفي العربات ، وفي قطار البضائع ، ونامت على القش ، وفي دار البلدية ، وذهبت هذا الصباح تبتهل الى القائد الألماني (وأضاف) عجباً ! خذوا ! هذا هو الاعلان .
وكان ثمة شخص يلصق ورقة على الباب ، واذا بالجمع يتدفق ويتموج حول السلّم ؛ واومأ ماربو الى الباب بحركة عريضة ، وسأل بابهجة انتصار :
— ماذا ترون : هل على قفاك ُعلّق الاعلان ؟ هل على قفاك ؟
فهزّ داورروكير كتفيه . وارتدى برونيه على مهل قميصه وبنطاله منزعجاً ان يكون قد أخطأ . وقال :

ـ الى اللقاء ايها الرفاق . أغلقوا الصنبور .

ومضى على مهل ينضمّ الى الجمع الذي كان يتزاحم عند الباب ؛ كان باقياً حظ واحد في ألا يكون ذلك الا وهماً كسائر الاوهام ؛ كان برونيه يحتقر السعادات التي لا يستحقهـا المرء والتي تأتي بين الفينة والفينة لتملأ القلوب الجبانة ، كحساء لذيذ ، او زيارة اسرة ، إن ذلك يعقّد العمل . وقرأ من بعيد ، من فوق الرؤوس :

« إن قائد المعسكر يسمح للأسرى بان يتلقوا زيارات أسرهم (قرابة مباشرة) وستُعدُّ قاعة في الطابق الارضي لهذه الغاية . وستظل الزيارات مسموحاً بها حتى إشعار آخر ، يوم الاحد من الساعة الرابعة عشرة ، حتى السابعة عشرة. ولا يمكن في حال من الاحوال ان تتجاوز عشرين دقيقة . فاذا لم يبرر مسلك الاسرى هـذا التدبير الاستثنائي ، فإنه سيلغى .»

ورفع غودشو رأسه بصرخة سعيدة :

ـ يجب ان نرد لهم هذه العدالة ، فهم ليسوا حيوانات .

والى يسار برونيه ، أخذ « غالو » القصير يضحك ضحكة غريبة نائمة . فسأله برونيه :

ـ ما يضحكك ؟

قال غالو : ـ انه يأتي . يأتي قليلا قليلا .

ـ ما الذي يأتي ؟

فبـدا غالو مرتبكـاً ، وأتى حركة غامضة ، ثم كف عن الضحك وردد :

ـ انه يأتي .

وشق برونيه الجمع فدلف الى السلم : وحوله ، في ظـل الطابق الأرضي ، كان الجمع ينغل ، كأن المكان بيت للأرَض ؛ واذ رفع رأسه ، رأى ايادي ممتقعة على الدربزين ، وخطـاً لولبياً مرتعشاً من

الوجوه الزرقــاء ، فدفع . ودُفع ، وارتفع بجسمه وهو يشد عــلى القضبان ، فسحقوه على الدربزين الذي التوى ؛ وطوال النهار ، ظل الرجال يصعدون ويهبطون بلا أدنى سبب ؛ وفكر : « لا فائــدة : فانهم ليسوا اشقياء بما فيه الكفاية » . لقد أصبحوا ملاكين وأصحاب ايرادات ، والثكنة غدت لهم ، وهم ينظمون بعثات الى السقف ، والى الأقبية ، وقد اكتشفوا كتباً في سقيفة . صحيح انه ليس من عقاقير في مركز التمريض ، وليس من أغذية في المطبخ ، ولكن هناك مركز تمريض ، وهناك مطبخ ، وهناك امانة سر ، وحتى حلاقون : فهم يحسون انهم رعايا . وقد كتبوا لعائلاتهم ، ومنــذ يومين ، عاد زمن المدن يجري . وحين امرهم القائــد الألماني بضبط ساعاتهم على الساعة الألمانية ، اسرعوا يطيعونه ، حتى اولئك الذين كانوا ، منــذ شهر حزيران ، يحملون ، على سبيل الحداد ، ساعات ميتة في معاصمهم : فان تلك المدة المبهمة التي كانت تنمو كالعشب الطفيلي ، قــد اتخذت صفة عسكرية ، فلقد أعاروهم وقتاً ألمانياً ، وقتاً صحيحاً من اوقات المنتصر ، وهو نفسه الذي يجري في دانتزيغ وفي برلين : وقت مقدس. ولم يكونوا أشقياء بما فيه الكفاية : فهم محاطون ، مقادون ، يقدّم لهم الغذاء والمأوى والإدارة ، وهم غير مسؤولين . وفي هذه الليلة ، كانت قصة هذا القطار ، وها أن العائلات ستأتي ، محملة الاذرع بالمعلبات والمؤاساة . كم سيكون من صياح ، ومن دموع ، ومن قبلات ! « لقد كانوا بحاجة شديدة الى هذا : فقد كانوا حتى الآن متواضعين عــلى الأقل . امــا الآن ، فسوف يحسّون أهميتهم . » ذلك ان زوجاتهم وأمهاتهم قــد اتيح لهن الوقت الكافي لأن يخلقوا لأنفسهن الاسطورة البطولية الكبرى « للأسير » ، وهن آتيات لينقلن اليهم عدواها . وبلغ العنبر ، فحاذى الممر ، ودخل الى قفصه وهو ينظر الى رفاقه في غضب . انهم هناك ، مضطجعون على عادتهم ، لا يفعلون شيئــاً ، يحلمون

بحياتهم ، مرتاحين مضللّين . وكان لامبير يقرأ « الفتيات الصغيرات النماذج » وحاجباه مرتفعـــان ، وهيئته عابسة مندهشة . وكانت نظرة واحدة كافية لادراك ان النبأ لم يبلغ العنبر بعـــد . وتردد برونيه : أيخبرهم إياه ؟ انه يتمثل عيونهم الملتمعة ، وهياجهم الثرثار . « سيعرفونه في وقت مبكر بما فيه الكفاية . » وجلس في صمت . وكان شنايدر قد هبط ليغتسل ؛ ولم يكن الشتيمي قد صعد بعد ؛ وكان الآخرون ينظرون الى برونيه نظرة تململ . وسأل برونيه :

– ماذا هناك ايضاً ؟

فلم يجيبوا على التوّ ، ثم قال مولو وهو يخفض صوته :

– ان في القفص السادس قملا .

فانتفض برونيه وكز وجهه . وأحس انه ثائر الأعصاب ؛ فزادت ثورة أعصابه ، وقال في عنف :

– لا اريد قملا هنا .

وتوقف فجأة ، وعض على شفته السفلى ، وهو ينظر اليهم في عدم ثقة . فلم يتحرك أحـــد : لقد بقيت الوجوه التي التفتت نحوه كابية مرتبكة بعض الشيء . وسأل غاسو :

– ما الذي سنفعله يا برونيه ؟

نعم ، نعم ، انتم لا تحبونني كثيراً ، ولكن حين تقع بنا مصيبة، فانما تسعون للبحث عني . وأجاب بلهجة ألطف :

– لم تريدوا ان تنتقلوا حين طلبت منكم .

– ننتقل الى أين ؟

– كانت هناك شقق حرّة ، وكنت قد طلبت اليك يا لامبير ان ترى اذا كان المطبخ في الطابق الارضي حراً .

قال مولو : – المطبخ ؟ شكراً لك ، ننام على البلاط فنصاب بالمغص ، فضلاً عن انه مليء بالحشرات .

– هذا أفضل من القمل . لامبير : انني أكلمك : هل ذهبت الى المطبخ ؟

– نعم .

– ماذا وجدت ؟

– انه مشغول .

– طبعاً : كان ينبغي ان تذهب اليه منذ ثمانية أيام .

وأحس بخدّيه يحتقنان ، وارتفع صوته ، فصاح :

– لن يكون هنا قمل ! لن يكون قمل !

قال البلونديته : – لا ! لا ! لا تغضب : فليس الذنب ذنبنا .

ولكن الرقيب صاح بدوره :

– انه على حق في ان يغضب ويزعق ! انه على حق! لقد شهدت انا حرب ١٤برمّتها ، فلم أر قملاً قط ، فلن ابدأ اليوم مثلكم بالقمل انتم الذين لا تعرفون حتى ان تغتسلوا !

وكان برونيه قد كظم غضبه ، فقال بصوت هادىء :

– يجب اتخاذ تدابير مباشرة .

وقهقه بلونديته : – نحن ؟ نوافق تماماً ، ولكن أية تدابير !

قال برونيه : – اولا ، يجب عليكم « جميعاً » ان تغتسلوا كل صباح ؛ ثانياً ، يجب عليكم ان تتفلّوا كل مساء .

– ماذا تقصد ؟

– تتعرّون تماماً ، فتأخذون ستراتكم وسراويلكم وقمصانكم فتنظرون ان كان في التشريجات صئبان . واذا كنتم ترتدون زنانير من الفلانيل ، فانها تفضّل ذلك المكان .

وتنهّد كاسو : – هذا مرح !

وتابع برونيه : – واذ تأوون الى النوم، تعلقون أمتعتكم بالمسامير ، بما في ذلك القمصان : فسوف ننام عراة تحت الأغطية .

قال مولو : — خراء اذن ! لا بدّ ان أصاب بنزلة رئوية !
فالتفت اليه برونيه بحيوية : — أتى دورك يا مولو . انك عشّ قمل ، ولا يمكن لهذا ان يستمرّ .
قال مولو مختنقاً بالغيظ :
— ليس هذا صحيحاً ، وليس عندي قمل .
— ربما لم يكن عندك الآن قمل ، ولكن إن كان ثمة قملة على بعد عشرين كيلو متراً ، فأنا واثق من انها ستلتصق بك ثقتي من اننا قد خسرنا الحرب .
فقال مولو بلهجة ضيق : — ليس من مبرر . لماذا بي ، لا بك ؟ الحقيقة انه ليس من سبب لهذا .
فقال برونيه بصوت هادر : — بل هناك سبب على الاقــل ، هو انك قذر كالخنزير !
فرماه مولو بنظرة سامّة ، وفتح فمه ، ولكن جميع الآخرين أخذوا يضحكون ويصرخون :
— هو على حقّ ، انت منتن ، ورائحتك كرائحة الفتــاة الصغيرة التي تهمل نفسها ، انت وسخ ، انت قذر ، انك تقطع لي قابليتي ، فلا أستطيع ان أستمر في الطعام حين انظر اليك !
وانتصب مولو وهو يحدجهم ، وقال في اندهاش :
— انني اغتسل ، بل ربما كنت اغتسل اكثر منـكم ، ولكني لست كالبعض الذين يتعرون في وسط ساحة الشرف ، بقصد اجتذاب الأنظار .
فوضع برونيه إصبعه تحت أنفه :
— هل اغتسلت امس ؟
— طبعاً .
— اذن أرنا قدميك .
فوثب مولو في الهواء :

– هل أنت مجنون ؟

وردّ ساقيه تحته فجلس على عقبيه ، على الطريقة التّركية :

– انني لا ُأري قدميّ للناس غالباً .

فقال برونيه : – انزعوا حذاءه .

فارتمى لامبير وبلوندينه على مولو ، فكتفاه وسمراه على الارض مقلوباً ، ودغدغ غاسو جنبيه ، فارتعش مولو ، وصرخ وزعق ، وضحك وتنهد :

– كفى ! كفى ! يا جماعة ! لا تكونوا حمقى ! انني لا أستطيع ان أتحمل الدغدغات .

قال الرقيب : – إذن الزم الهدوء .

فظل مولو فاغراً ، لا تزال الرعشات تهزه ؛ وكان لامبير قد جلس على صدره ، وفك الرقيب سير حذائه الأيمن ، وشد ، فانبثقت القدم ، وامتقع الرقيب ، فترك الحذاء ونهض فجأة ، وقال :

– يلعن دين !

قال برونيه : – نعم ، يلعن دين !

ونهض لامبير وبلوندينه صامتين ، ونظرا الى مولو في اندهاش معجب . وعاد مولو الى الجلوس ، هادئاً وقوراً . وصاح صوت غاضب من القفص المجاور :

– هيه ! ماذا تعملون ، يا سكان الشقة ٤ ؟ إن رائحة الزبدة العفنة تنبعث من عندكم !

فقال لامبير ببساطة :

– ان مولو يخلع حذاءه .

ونظروا الى قدم مولو : كان الابهام الكبير اسود ، وكان خارجاً من الجراب المثقوب الاسود .

وسأل لامبير : – هل رأيت باطن القدم ؟ إنه ليس بعدُ جورباً ،

ولكنه دانتيل !

وكان غاسو يتنفس في منديله ، وكان البلونديه يهز رأسه ويردد في لهجة احترام :

— آه ! يا للبقرة ! يا للبقرة !

قال برونيه : — هذا كاف . خبّيء قدمك !

فسارع مولو يُدخل قدمه في الحذاء . وتابع برونيه بجد :

— أنت يا مولو تشكل خطراً عاماً . وستتفضل على الفور فتذهب لأخـذ حمام سريع . فإذا لم تغتسل في مدة نصف ساعة ، فلن تُعطى طعاماً ولن تنام هنا هذا المساء .

فنظر اليه مولو في حقـد ، ولكنه نهض من غير ان يحتج ، واكتفى بالقول :

— اذن ، انت الذي تأمر هنا ؟

فتحاشى برونيه الإجابة ؛ وخرج مولو ، فأخذ الآخرون يقهقهون، ولكن برونيه لم يضحك ؛ كان يفكر في القمل ، كان يفكر : « على كل حال ، لن يكون عندي « أنا » قمل » .

وسأل بلونديه : — كم الساعة ؟ ان معدتي أصبحت في قدمي .

قال الرقيب : — الظهر .

— الظهر ، هي ساعة التوزيع . دور مَنْ بالسخرة اليوم ؟

— دور غاسو .

— إفرنقع اذن يا غاسو .

قال غاسو : — امامنا متسع من الوقت .

— اقول لك افرنقع ، حين تكون في السخرة ، فان دورنا يأتي دائماً في الأخير !

فقال غاسو وهو يضع قبعته بغضب :

— كفى ! كفى !

وخرج . وعاد لامبير الى القراءة . وأحس برونيه تأكلات عصبية تسري بين راسايه ؛ وحك لامبير فخذه وهو يقرأ ، وكان بلوندينه ينظر اليه :

– هل لديك قمل ؟

قال لامبير : – كلا ، ولكن ذلك منذ جرى الحديث عنه .

قال بلوندينه : – عجباً ! وانا ايضاً .

وحكّ عنقه :

– برونيه ، الا تشعر بالحكاك ؟

قال برونيه : – كلا .

وصمتوا ، وكان البلوندينه يحكّ رقبته المتشنجة ، وكان لامبير يقرأ وهو يحكّ ؛ وادخل برونيه يديه في جيبه من غير ان يحك . وظهر غاسو ثانية على العتبة ، بادي الغضب :

– هل تستهزئون بي ؟

– اين الخبز ؟

– الخبز ؟ ليس ثمة أحد تحت ، حتى المطابخ لم تفتح بعد .

فرفع لامبير وجهاً مذعوراً :

– هل يعني هذا ان الوضع سيعود كما كان في حزيران ؟

كانت نفوسهم المتنبئة الكسول مستعدة دائماً لتصديق الأسوأ او الأحسن . والتفت برونيه نحو الرقيب :

– كم الساعة معك ؟

– الثانية عشرة وعشر دقائق .

– أأنت واثق من أن ساعتك تمشي ؟

فابتسم الرقيب ونظر الى ساعته في رضى ، وقال ببساطة :

– انها ساعة سويسرية .

وصاح برونيه بافراد الشقه المجاورة :

– كم الساعة معكم ؟
فأجاب صوت :
– الحادية عشرة وعشر دقائق .
فقال الرقيب بلهجة انتصار :
– ماذا قلت لكم ؟
فقال غاسو في حقد :
– قلت لنا ، الثانية عشرة وعشر دقائق ، ايها الأبله !
– صحيح : الثانية عشرة وعشر دقائق في فرنسا ، والحادية عشرة وعشر دقائق في ألمانيا .
فقال غاسو وهو يغلي من الغضب :
– ممحون !
وتخطى جسم لامبير وتداعى للسقوط على الغطاء . وتابع الرقيب بهدوء :
– انني لن اتخلى عن الساعة الفرنسية في الوقت الذي تغرق فيه فرنسا في الخراء !
– ليس هناك بعد من ساعة فرنسية ، ايها الساذج ! فان الالمان قد فرضوا ساعتهم من مارسيليا الى ستراسبورغ .
فقال الرقيب ، مطمئناً مصراً :
– ربما كان هذا . ولكن لم يخلق بعد من يستطيع ان يغير « ساعتي » .
والتفت الى برونيه وأضاف موضحاً :
– حين يلوذ الالمان بالفرار ، ستكونون مسرورين جداً بان تجدوا ساعتكم .
وصاح لامبير : – هيه ! انظروا الى لامبير كشخصية محترمة !
ودخل لامبير ، متورداً نضراً : وعليه هيئة يوم الأحد . فأخذ الافراد يضحكون :

— كيف وجدته يا مولو ، هل هو لذيذ ؟
— ما هو ؟
— الماء .
فقال مولو بشرود : — نعم ؛ نعم ، لذيذ جداً .
فقال برونيه : — ممتاز ! بعد اليوم ، سترينا قدميك كل صباح .
فلم يبد على مولو انه سمع ، ورسم بسمة خفيه ذات أهمية :
— إن هناك اخباراً ، يا جماعة ، فاستعدّوا .
— ماذا ، ماذا ؟ اخبار ؟ اية أخبار ؟
والتمعت الوجوه واحمرّت وتفتّحت ، وقال مولو :
— سوف نتلقى زيارات !

ونهض برونيه بلا ضجة ، وخرج ، وكانت الاصوات تصرخ خلف ظهره ، وحث خطاه دالفاً الى غابة السلم الصاعـــدة ، وكانت الساحة غاصة ، وكان الافراد يدورون بهدوء في الرذاذ ، الواحد تلو الآخر ؛ وكانوا ينظرون جميعاً الى داخل الدائرة التي يرسمون ؛ وكانت جميع النوافذ ملأى برؤوس تنظر : لقد حدث شيء ما . ودخل برونيه في الصف ، فأخذ يدور هو ايضاً ، ولكن بلا فضول : في هذا المكان نفسه ، يحدث كل يوم شيء ما ، افراد يتسمرون ويبدون على انتظار ، بينما يدور الآخرون حولهم وهم ينظرون اليهم . ويدور برونيه ، ويبسم له الرقيب اندريه :

— هذا برونيه ، انا اراهن انه يبحث عن شنايدر .
فسأله برونيه بحيوية : — وهل رأيته ؟
فقال اندريه مقهقهاً : — نعم وهو ايضاً يبحث عنك .
والتفت نحو الآخرين وقهقه :
— إن هذين الاثنين قفا وقميص ، دائماً معاً ، أو احدهما يبحث عن الآخر .

وابتسم برونيه : قفا وقميص ، ولِمَ لا ؟ إنه يتحمّل صداقته مع شنايدر لأنها لا تأخـذ من وقته : انها تشبه علاقة القارب ، فهي لا تلزم بشيء ؛ فاذا عادا يوماً من الأسر ، فلن يتقابلا بعد ابداً . صداقة بلا متطلبات ، بلا حق ، بلا مسؤولية : كل ما هنالك بعض حرارة في جوف المعدة . انه يدور ، واندريه يدور بالقرب منه ، في صمت . وفي وسط هذه الدوامة البطيئة ؛ كان ثمة منطقة من الهدوء المطلق : رجال في ستراتهم ، جالسون على الأرض أو على قربهم .

ومر كلابو فأوقفه اندريه :

— ما هؤلاء الفتيان ؟

فقال كلابو : — معاقَبون .

— ماذا ؟

فتخلص منه كلابو بنفاد صبر وقال :

— قلت لك معاقبون .

وعادوا يدورون من غير ان يغادروا بعيونهم هؤلاء الرجال الجامدين البكم . ودمدم اندريه :

— معاقبون ! انها المرة الاولى التي ارى فيها معاقبين . عَلامَ هم معاقبون ؟ ماذا اقترفوا ؟

وأشرق وجه برونيه : كان شنايدر هناك ، ملقى على حافة الدوامة ، يتفحص فريق المعاقبين الصغير وهو يفرك أنفه . وكان برونيه يحبّ طريقة شنايدر في احناء رأسه الى جانب ؛ وفكر في سرور : « سوف نتحدث » . كان شنايدر ذكياً جداً ، اذكى من برونيه . صحيح ان الذكاء ليس هاماً الى حد بعيد ، ولكنه يجعل العلاقات لذيذة . ووضع يده على كتف شنايدر وبسم له ؛ فردّ له شنايدر بسمة غير مرحة . وكان برونيه يتساءل احياناً اذا كان يروق لشنايدر ان يلقاه : صحيح انهما لا يكادان يفترقان ، ولكن اذا كان شنايدر يكنّ

وداً لبرونيه ، فانه لا يكشف عنه غالبـــاً . وكان برونيه في الحقيقة يحمد له ذلك : فهو يستفظع المظاهرات . وسأل اندريه :

— واذن ، لقد وجدته ، صديقك شنايدر ؟

فضحك برونيه ، ولم يضحك شنايدر . وسأل اندريه شنايدر :

— قل لي ! لماذا هم معاقبون ؟

— من ؟

— هؤلاء الأشخاص ؟

قال شنايدر — انهم ليسوا معاقبين . وانمـــا هم الألزاسيون . الا ترى غارتيزر ، في الصف الاول ؟

قال أندريه : — آه ! هكذا اذن !

وبدا عليه السرور ، وظلّ لحظة بالقرب منهم ، ويداه في جيبه ، مكتفياً ، عارفاً ، ثم اضطرب فجأة :

— ولماذا هم هنا ؟

فهزّ شنايدر كتفيه : — إذهب فاسألهم !

وتردد اندريه ثم اقترب منهم بخطى بطيئة وهو يتظاهر باللامبالاة . وكان الألزاسيرن جامدين قلقين ، جالسين باستقامة ، في اللاطمأنينة ، وستراتهم حولهم كالتنانير ، وعليهم مظهر المهاجرين على ظهر سفينة . وكان غارتيزر جالساً ويداه على فخذيه ، وعيناه الكبيرتان الدجاجيتان تتدحرجان في وجهه العريض . وقال اندريه :

— ماذا ايها الاخوة ، هل هناك من جديد ؟

فلم يجيبوا : وتأرجح وجه اندريه المتردّد فوق رؤوسهم المطرقة .

— هل من جديد ؟

لا جواب .

— كنت أحسب ان هناك جديداً لرؤيتي اياكم جالسين في دائرة . هيه ، غارتيزر ؟

وعزم غارتيزر على رفع رأسه ، فنظر الى اندريه في ازدراء .

ــ كيف حدث انكم تجمّعتم ، انتم الالزاسيين ؟

ــ لقد أمرونا بذلك .

ــ ولكن السّترات والأمتعة ، هل قالوا لكم ان تأخذوها ؟

ــ نعم .

ــ ولماذا ؟

- لا ادري .

فاصطبغ وجه اندريه من الهياج :

ــ على كل حال ، لا بدّ ان لديكم فكرة ما ؟

فلم يجب غارتيزر ؛ وكانوا خافه يتحدثون الالزاسية بنفاد صبر . وتصلب اندريه ، مجروحاً فقال :

ــ حسناً . في هــذا الشتاء ، كنتم اقلّ افتخاراً ، فلم تكونوا تتحدثون بها ، لهجتكم الاقليمية ، اما وقد ُهزمنا الآن ، فانكم لا تعرفون بعد ان تتحدثوا الفرنسية .

ولم يكلفوا نفسهم حتّى رفع رؤوسهم ؛ إن اللغة الالزاسية هي هذا الحفيف المتصل الطبيعي لاوراق الشجر تحت الريح . وقهقه اندريه ونظره محدق في هذا المسرح من الرؤوس :

ــ ذلك انه ليس من الطريف ان يكون المرء فرنسياً ، في هــذا اليوم ، أليس كذلك ايها الاخوة ؟

فقال له غارتيزر بحيوية :

ــ لا تحمل همّنا ، فلن نبقى طويلاً فرنسيين .

فتردد اندريه ، وقطّب حاجبيه ، وبحث عن الرد الصافع ، فلم يجده . واستدار عائداً نحو برونيه :

ــ وهكذا !

وارتفعت خاف ظهر برونيه أصوات مغتاظة :

— ما حاجتك الى ان تحدّثهم ! ليس لك الا ان تتركهم وشأنهم . إنهم ألمان .

ونظر اليهم برونيه ؛ وجوه شرسة ممتقعة ، لبن فاسد : الحسد . حسد البورجوازيين الصغار تجار الحيّ الصغار ، لقد حسدوا الموظفين ثم المكلفين الخصوصيين والآن يحسدون الالزاسيين . وابتسم برونيه : ونظر الى هذه العيون الملتهبة بالحسد ، انهم منزعجون ان يكونوا فرنسيين : فهذا أفضل من الاستسلام السلبي ؛ وحتى الحسد ، لا بدّ انه يشغل نفسه .

— هل تراهم قد أعاروك انت شيئاً ، او ساعدوك ؟

— هل انت مجنون ؟ لقد رأيت من كان معه طعام ، في الأيام الاولى ، وكانوا يأكلون تحت انفك ، وكأنهم على استعداد ليدَعوك تموت جوعاً وانت فاغر الفم .

وسمع الالزاسيون ، فأداروا نحو الفرنسيين وجوههم الحمراء والشقراء، لعلّ التضارب سوف يقع . صرخة بحّاء : وقفز الفرنسيون قفزة الى الوراء ، فوثب الالزاسيون على أقدامهم ووقفوا وقفة الاستعداد : وعلى درجات السلم برز ضابط ألماني ، طويل ضعيف البنية ، ذو عينين كهفيتين في وجه ملطّخ . وتكلم ، فأصغى الالزاسيون ، ومدّ غارتيزر عنقه وهو محمرّ الوجه . واصغى الفرنسيون كذلك ، من غير ان يفهموا ، في اهتمام مليء بالاعتبار . وهدأ غضبهم : فقد كانوا يشعرون انهم يشاهدون حفلة رسمية . والحفلة دائماً تثير الرضى . وكان الضابط يتكلم ؛ والزمن يجري ، صلباً ومقدساً ، وكانت تلك اللغة الغريبة أشبه بلاتينية القدّاس ؛ ولم يكن ثمة بعد من يجرؤ على حسد الالزاسيين : فهم قد تلبّسوا وقار كورس . وهزّ اندريه رأسه ، وقال :

— ان غمغمتهم ، كلغة ، ليست رديئة .

فلم يجب برونيه : ان هذه علامات ، فهم لا يستطيعون ان يمسكوا

غضبهم اكثر من خمس دقائق . وسأل شنايدر :

ـ ماذا يقول ؟

ـ يقول لهم انه قد أطلق سراحهم .

وكان صوت الضابط يخرج من سحنته السوداء بهزّات متحمّسة ؛ كان يصرخ ، ولكن عينيه لا تلتمعان .

ـ ماذا يقول ؟

وترجم شنايدر بصوت منخفض :

ـ ان الالزاس ستعود ، بفضل الفوهرر ، الى صدر الوطن الأم .

والتفت برونيه الى الالزاسيين ،فاذا وجوههم بطيئة التعبير ،كأنها متخلفة ابداً عن عواطفهم . ومع ذلك ، فقد احمرّ وجه اثنين أو ثلاثة منهم . وتسلى برونيه . وارتفع الصوت الألماني وتسارع ، فقفز من سطح الى سطح ، ورفع الضابط قبضته فوق رأسه ، ووقّع بمرفقيه صوته المجيد، فاذا الجميع منفعلون ، كما يحدث إذ يمرّ العلم ، أو الموسيقى العسكرية؛ وانفتحت القبضتان ، ووثبتـــا في الهواء ، وارتعش الافراد حين هدر الضابط : « هايل هتلر ! » وبدا على الالزاسيين انهم متحجرون ؛ والتفت غارتيزر نحوهم ، فصعقهم بنظره ، ثم واجه القائد ، وقذف ذراعيه الى أمام ، وصاح : « هايل ! »

وسقط صمت غير ملحوظ ، ثم ارتفعت الأذرع ؛ وقبض برونيه بالرغم منه على معصم شنايدر وشدّه بقوة . وانطلقت الهتافات . وكان هناك من يهتف « هايل » في نوع من الاندفاع ، وآخرون يكتفون بفتح افواههم دون ان يطلقوا صوتـــاً ، كالأشخاص الذين يتظاهرون بأنهم يرتّلون في الكنيسة . وكان في الصف الأخير رجل شديد البأس، مطرق الرأس ، ويداه في جيبه ، يبدو وكأنه يتألم . وانخفضت الأذرع ، فترك برونيه معصم شنايدر ؛ وكان الفرنسيون صامتين ، وعاد الالزاسيون يقفون وقفة الاستعداد ، وكانت لهم وجوه مرمرية بيضاء ، وكانوا

عمياناً وصماً تحت لهب شعرهم الذهبي . وألقى القائـــد امراً ، فاهتزّ العمود ، وابتعـــد الفرنسيون ، ومشى الالزاسيون بين صفّين من الفضوليين . والتفت برونيه ، فنظر الى وجوه رفاقه اللاهثة . وكان يودّ ان يقرأ فيها الغضب والحقد ، فلم يَرَ فيها الا رغبة عذبة ترف . وكان الحاجز البعيد قد انفتح ؛ وكان القائد الألماني واقفاً على الدرج ينظر ببسمة طيبة الى العمود الذي يبتعد . وقال اندريه :

– مهما يكن ! مهما يكن !

وقال صاحب لحية : – خراء اذن ! حين افكّر بأني وُلدت في « ليموج » ...

وهزّ اندريه رأسه ، وردّد :

– مهما يكن !

وسأله « شاربان » الطبّاخ :

– ما الذي لا يعجبك ؟

فقال اندريه : – مهما يكن !

وكان يبدو على الطباخ المرح والحيوية . وسأل :

– قل لي ، ايها الرأس الصغير ، اذا كان يكفي ان تصرخ « هايل هتلر » حتى يعيدوك الى بيتك ، الا تصرخ ؟ ان هـــذا لا يُلزم في شيء . انت تصرخ ، ولكنك لا تقول ما تفكر به .

قال اندريه : – اوه ! انا ، بكل تأكيد ، أصرخ بما يريدون ، ولكنهم هم الآخرين ليسوا كذلك : انهم الزاسيون ؛ وان لهم واجبات تجاه فرنسا .

واومأ برونيه الى شنايدر ، فتسللا والتجأ الى الساحة الاخرى الخالية . واستند برونيه الى الجدار ، تحت القسم المسقوف من الساحة ، تجـــاه الاصطبلات ؛ وكان ثمة ، غير بعيد عنهم ، جندي جالسٌ عـــلى الارض ، ذو رأس مدبب ، وشعر نادر ، وكان يحيط ركبتيه بذراعيه.

ولكنه لم يكن ليضايق ، وكان في هيئة معتوه القرية . ونظر برونيه الى قدميه وقال :

– هل رأيت الاشتراكيين الالزاسيين ؟

– اي اشتراكيين ؟

– لقد اكتشفنا اشتراكيين في الالزاسيين . وقد اتصل بهما داوروكير في الاسبوع الماضي ، وكانا يريدان ان يلتهما كل شيء .

– وبعد ذلك ؟

– لقد رفعا ذراعيهما مع الآخرين .

فلم يجب شنايدر بشيء : وحدد نظره في معتوه القرية ، فألفاه شاباً ذا أنف معقوف منقوش ، انف ثريّ . وكان الشرود المطمئن قد أقام على وجهه ، وجه النخبة ، الذي كيفته ثلاثون سنة من الحياة البورجوازية ، مع تجعّدات دقيقة وشفافيات وجميع انحناءات الذكاء ، ورفع برونيه كتفيه :

– انها دائماً القصة نفسها : تلمس شخصاً ذات يوم ، فتجده موافقاً ، فاذا كان اليوم التالي ، لم تجد احداً ، اذ يكون قد غيّر رأيه ، او يتظاهر بأنه لا يعرفك .

وأومأ باصبعه الى المعتوه :

– كنت معتاداً ان أعمل مع الرجال ، ولكن لا مع هذا .

وابتسم شنايدر :

– « هذا » كان مهندساً من عند تومبسون . ما يسمى بفتى المستقبل .

قال برونيه : – واذن ، فان مستقبله الآن قد أصبح خلفه .

وسأل شنايدر : – كم نحن في الواقع ؟

– قلت لك اني لا استطيع ان اعرف ذلك ؛ فالوضع فضفاض . على كل حال ، افرض اننا زهاء مئة .

– مئة على ثلاثين الفاً ؟

– نعم . مئة على ثلاثين الفاً .

وكان شنايدر قد طرح السؤال بلهجة محايدة ، ولم يقم بأيّ تعليق : ومع ذلك ، فلم يجرؤ برونيه على النظر اليه ، وتابع برونيه :

– هناك شيء لا يجري على ما يُرام . فاذا حسبنا على أسس ٣٦ ، فقد كان بوسعنا ان نجمع ثلث الأسرى .

قال شنايدر : – لسنا بعد في عام ٣٦ .

فقال برونيه : – أعرف ذلك .

ولمس شنايدر منخره بطرف سبابته :

– الواقع اننا نختار المحتجين المعترضين خصوصاً . وهذا يفسر عدم ثبات زبائننا . ان المحتج المعترض ليس هو بالضرورة المستاء ؛ على العكس ، فهو مسرور بان يحتج ويعترض . فاذا عرضت عليه ان يستخرج النتائج مما يقول ، زعم انه موافق طبعاً ، حتى لا يبدو عليه انه يفقد اعتزازه ، ولكن ما ان توليه ظهرك ، حتى يتحول الى تيار هوائي : ولقد قمت بهذه التجربة عشر مرات .

قال برونيه : – وأنا ايضاً .

وقال شنايدر : – ينبغي ان نستطيع اختيار المستائين الحقيقيين ، جميع الافراد اليساريين الشجعان الذين كانوا يقرأون « ماريان » و « فاندرودي » والذين يؤمنون بالديمقراطية والتقدم .

قال برونيه : – نعم ! صحيح .

وكان ينظر الى الصلبان الخشبية في قمة الجرف والعشب الملتمع بالرذاذ ؛ وأضاف :

– ألتقي بين الفترة والفترة بفتى وحيد يجر حذاءه بهيئة ناقه كبير ، فأقول في نفسي : هذا أحدهم . ولكن ماذا تريد ان تفعل ؟ فما ان تقترب حتى يأخذهم الخوف ، فكأنهم يحذرون من كل شيء .

قال شنايدر : – ليس هذا كل شيء . انني اميل الى الاعتقاد

بأنهم أشخاص يشعرون بالعار . فهم يعرفون انهم مهزومو الحرب الكبار وانهم لن ينهضوا ابداً من هذه العثرة .

فقال برونيه : ــ انهم في الحقيقة لا يحرصون على استئناف الصراع : انهم يفضلون اقناع أنفسهم بأن هزيمتهم لا علاج لها ؛ وهذا أيسر وأشدّ اغراء .

قال برونيه بين أسنانه ، بلهجة غريبة :

ــ صحيح . إن هذا يُعزّي .

ــ ماذا ؟

ــ ان مما يُعزي دائماً ان تستطيع التفكير بان سقوطك هو سقوط الجنس كله .

فقال برونيه في اشمئزاز : ــ منتحرون !

قال شنايدر : ــ اذا شئت .

وأضاف برقة : ــ ولكنك تعرف ان فرنسا ، هي هم ؛ فاذا لم تدركهم ، فان ما تفعله لا يجدي .

وأدار برونيه رأسه ونظر الى المعتوه ، فانسحر بهذا الوجه القاحل ؛ وتثاءب المعتوه بشهوة وبكى ، وتثاءب كلب ، تثاءبت فرنسا ، تثاءب برونيه : وكف عن التثاؤب ، وسأل ، من غير ان يرفع عينيه ، بصوت منخفض وسريع :

ــ هل ينبغي ان نستمر ؟

ــ بمَ نستمر ؟

ــ بالعمل .

وضحك شنايدر ضحكة جافة لا تروق :

ــ تسألني انا في هذا ؟

فرفع برونيه رأسه بحيوية ، ففاجأ على شفتي شنايدر الغليظتين بسمة سادية مؤلمة توشك ان تمحّي . وسأل شنايدر :

ــ ما عساك تفعل ان تخليت عن العمل ؟

واختفت البسمة ، وعاد الوجه فأصبح أملس ثقيلاً ، هادئاً ، بحراً ميتاً ، لن أفهم شيئاً من هذا الوجه .

ــ ما أفعله : أنسحب ، وأذهب فأنضمّ الى الرفاق في باريس .

ــ في باريس ؟

وحكّ شنايدر رأسه ، فسأله برونيه بحيوية :

ــ اتحسب ان الامر مشابه هناك ؟

وفكر شنايدر :

ــ اذا كان الالمان مؤدبين ..

قال برونيه : ــ اما هذا ، فهم لا بدّ مؤدبون ! يمكن ان تتأكد من انهم يساعدون العميان على عبور الشوارع .

قال شنايدر : ــ اذا كان الامر كذلك ، فلا بدّ انه مشابه .

واستقام فجأة ونظر الى برونيه في فضول لا ألم فيه :

ــ ماذا تؤمّل ؟

فتصلّب برونيه : ــ انني لا أؤمل شيئاً : ولم أؤمل قط شيئاً ، وانا لا أهتمّ بالامل : وانما انا « اعرف » .

ــ اذن ، ما الذي تعرفه ؟

ــ أعرف ان الاتحاد السوفياتي سيدخل حلبة الرقص ، عاجلاً ام آجلاً . اعرف انه ينتظر ساعته ، واريد ان يكون رفاقنا مستعدين .

قال شنايدر : ــ لقد انقضت ساعته . إذن انكلترا ستكون هالكة قبل الخريف ، فاذا كان الاتحاد السوفياتي لم يتدخّل اذ كان ثمة امل بخلق جبهتين ، فلماذا تريده ان يتدخل الآن ، ليكون وحده في القتال !

قال برونيه : ــ إن الاتحاد السوفياتي هو بلد العمال . ولن يسمح العمّال الروس بان تبقى البروليتاريا الاوروبية تحت الحذاء النازي .

ــ لماذا سمحوا إذن بان يوقع مولوتوف الميثاق الجرماني السوفياتي ؟

– في تلك اللحظة ، لم يكن ثمة شيء آخر يُفعل ، ان الاتحـــاد السوفياتي لم يكن مستعداً .

– وما هو دليلك على أنه الآن اكثر استعداداً ؟

فأطبق برونيه باطن كفه على الجدار في غيظ وقال :

– لسنا في مقهى « التجـــارة » ، ولن اناقش ذلك معك : انني مناضل ، ولم يسبق لي قط أن أضعت وقتي في افتراضات سياسية : كان لي عملي ، وكنت اقوم به . اما ما دون ذلك ، فكنت ألجأ فيه الى اللجنة المركزية والى الاتحاد السوفياتي ؛ ولن اغير اليوم مسلكي .

فقال شنايدر بحزن:– هذا هو تماماً ما كنت أقوله،إنك تعيش بالأمل

فاغتاظ برونيه من هذه اللهجة الجنائزية : وخيّل اليه ان شنايدر يتكلّف الحزن . فقال من غير ان يرفع صوته :

– اسمع يا شنايدر : ليس من المستحيل ان يكون المكتب السياسي قد سقط برمّته في الجنون ، ولكن على هذا الاساس ، ليس من المستحيل كذلك ان يسقط سقف هذه الساحة على رأسك.غير انك لا تقضي حياتك في مراقبة السقف .وبعد هذا تستطيع ان تقول لي، اذا خطر لك،انك تؤمل في الرب ، او انك تثق بالمهندس المعمار ، فهذه كلمات : فانت تعلم جيداً ان هناك قوانين طبيعية ، وان البنايات قد اعتادت ان تظل قائمة حين تكون قد بنيت وفقاً لهذه القوانين . وإذن ؟ لماذا تريـــدني ان أقضي وقتي متسائلا عن سياسة الاتحاد السوفياتي ، ولمـــاذا تحدثني عن ثقتي بستالين ؟ انني أثق به ، أجل ، وبمولوتوف وجدانوف : بمقدار ما تثق بصلابة هذه الجدران . وبعبارة أخرى ، أعرف ان هناك قوانين تاريخية ، وان بلد العمال والبروليتاريا الاوروبية ، بفضل هـذه القوانين، ذات مصالح واحدة. والحق اني لا افكر بذلك غالباً، كما انك لا تفكر اكثر من ذلك بأسس بيتك : انها الارض تحت قدمي ، والسقف فوق رأسي ، وذلك يقين يحملني ويحميني ويتيـح لي ان اتابـع الأهداف

المحسوسة التي يرسمها لي «الحزب». انك حين تمد يدك لتأخذ منظارك ، فان حركتك وحدها تسلم بالحتمية العالمية ، وكذلك ، انا : ان ادنى فعل من أفعالي يؤكّد صراحة ان الاتحاد السوفياتي هو طليعة الثورة العالمية.

ونظر الى شنايدر في سخرية ، وانتهى الى القول :

– ماذا تريد ؟ انني لست الا مناضلا .

ولم يتخلَّ شنايدر عن هيئة الحزن ؛ كانت ذراعاه متدليتين، وعيناه كابيتين . فكأنه كان يريد ان يقنّع حيوية فكره ببطء حركاته . وقد لاحظ برونيه ذلك مراراً : إن شنايدر يحاول ان يبطيء ألمعيته كما لو كان يريد ان يؤقلم في نفسه نوعاً معيناً من الفكر الصابر الثابت الذي يظنّ بلا ريب أنه نصيب الفلاحين والجنود . لمـــاذا ؟ أليؤكد حتى أعماق ذاته تضامنه معهم ؟ ام ليحتجّ على المثقفين وعلى الرؤساء ؟ ام ان ذلك بدافع من الادعاء والتظاهر بالعلم ؟ وقال شنايدر :

– حسناً ، ناضلْ ، يا عزيزي ، ناضل، غير ان عملك يشبه شبهاً غريباً خُطَبَ مقهى « التجارة » : لقد جمّعنا بمشقة كبيرة زهاء مئة مثالي مسكين ، ورحنا نلقي عليهم الانباء الكاذبة عن مستقبل اوروبا .

قال برونيه : – لا مفر من ذلك : فما داموا لا يعملون بعد ، فاني لا أستطيع ان اعطيهم شيئاً « يعملونه » ؛ اننا نتحدث ، ونتصل فيما بيننا ، فانتظر ريثما ينقلوننا الى المانيا، وسترى جيداً كيف نبدأ العمل.

فقال شنايدر بصوته الناعس : – أجـــل ، سأنتظر ، ويجب ان انتظر . ولكن الحوارنة والنازيين لا ينتظرون . ودعايتهم أجدى كثيراً من دعايتنا .

فزرع برونيه نظره في عينيه :

– ما الذي ترمي اليه ، اخيراً ؟

فقال شنايدر مندهشاً :

– أنا ... ولكني لا أرمي الى شيء . كنا نتحدث عن صعوبات

الاختيار ..

فسأله برونيه بعنف :

– ايكون الذنب ذنبي اذا كان الفرنسيون قذرين وليس لهم وازع ولا شجاعة ؟ ايكون ذنبي اذا ...

فاستقام شنايدر وقاطعه ، وقد قست ملامحه ، وغدا صوته من فرط السرعة والتأتأة بحيث يُظن ان « شخصاً آخر » قد سرق فمه ليهين به برونيه ، فصاح :

– انت ... انت دائماً ... انت القذر ، انت ! إن من السهل على المرء ان يتخذ مظاهر الترفع حين يكون وراءه حزب ؛ ومن اليسير على من يملك ثقافة سياسية ومن تعوّد الضربات القاسية ان يحتقر المساكين الذين لا يبدون حراكاً .

فلم ينفعل برونيه : وانما آخذ نفسه أنه قد فقد صبره ، فقال :

– انني لا أحتقر أحداً . اما الرفاق ، فمن البديهي أني أعطيهم جميع الظروف المخففة .

ولم يكن شنايدر يصغي اليه ، وقد تمدّدت عيناه الكبيرتان ، فبدا وكأنه ينتظر حدثاً داخلياً . وفجأة أخذ يصرخ :

– نعم ! انه ذنبك ! طبعاً انه ذنبك !

فنظر اليه برونيه من غير ان يفهم : وكانت حمرةٌ خبيثة تحرّ خدّي شنايدر ، هي اكثر من الغضب ، ولكأنها حقد قديم ، حقد عائلي مكتوم منذ مدة طويلة ، وهو يبتهج اخيراً بالانفجار . ونظر برونيه الى هذا الرأس الهائل المحتدم بالغضب . هذا الرأس ذي الاعتراف العلني وفكر : سيحدث شيء ما . وقبض عليه شنايدر من ذراعه فأراه مهندس « التومبسون » الذي كان يدير أصابعه في براءة . وكانت تلك لحظة صمت ، لأن شنايدر كان اشدّ انفعالا من ان يستطيع الكلام ؛ وأحسّ برونيه انه بارد وهاديء : ان غضب الآخرين يهدّئه دائماً .

وانتظر ؛ سيعلم عما قليل ما يخفيه شنايدر . وبذل شنايدر جهداً عنيفاً :
ـ هذا أحدهم ! أحـــد اولئك القذرين الذين لا وازع لديهم ولا شجاعة ، رجل مثلي ومثل مولو ومثلنا جميعاً . ليس مثالك ، بالتأكيد . « صحيح » انه قد أصبح قذراً ، هذا « صحيح » بل هو من الصحة بحيث انه اقتنع به هو بالذات . غير اني رأيته انـــا في « تول » في شهر ايلول ؛ كان يستفظع الحرب ، ولكنه كـــان يلوم نفسه ، لأنه كان يعتقد بأن لديه اسباباً وجيهة للقتال ، وأقسم لك انه لم يكن قذراً أو جباناً ... ولكنك انت تجعله كذلك . انتم جميعاً متفقون ، بيتان مع هتلر ، هتلر مع ستالين ، وانتم جميعاً تشرحون لهم أنهم مذنبون ذنباً مزدوجاً : مذنبون لأنهم خاضوا الحرب ، ومذنبون لأنهم خسروها. وجميع الاسباب التي كانوا يبررون بها قتالهم ، انمـــا تنزعونها منهم الآن . هذا الفتى المسكين الذي كان يتصوّر انه ذاهب لخوض صليبية « الحق » و « العدل » ، تريدون ان تقنعوه انه انزلق بدافع الطيش في حرب استعمارية ؛ إنه لا يدري بعد ماذا يريد ، ولا يعرف بعـــد ماذا فعل . وليس جيش اعدائه هو وحده المنتصر : وانما ايديولوجيتهم ايضاً ؛ اما هو ، فيبقى هناك ، ساقطاً خارج العالم وخارج التاريخ ، ومعه افكارٌ ميتة ، وهو يحاول ان يدافع عن نفسه ، وان يفكر مجدداً بالوضع . ولكن بأية وسائل ؟ ان وسائل تفكيره بالذات قد فسدت : لقد أشعتم الحزن العميق والموت في روحه .

فلم يتمالك برونيه نفسه من الضحك ، فسأل :

ـ ولكن ، لمن تراك تتحدث ، في آخر الأمر ؟ إليَّ انا ، ام الى هتلر ؟

قال شنايدر : ـ انني اتحدث الى محرر « الاومانيتيه » ، الى عضو الحزب الشيوعي ، الى الذي كتب يوم ٢٩ آب ٣٩ على عمودين محيّياً توقيع الميثاق الجرماني السوفياتي .

قال برونيه : ـ ها نحن قد وصلنا .

فقال شنايدر : — أجل ، ها نحن قد وصلنا .

قال برونيه بهدوء : — كان الحزب الشيوعي ضد الحرب ، وانت تعلم ذلك جيداً .

— أجل ، ضد الحرب . كان يهتف بذلك عالياً ، على الأقل . ولكنه في الوقت نفسه كان يقرّ الميثاق الذي يجعل الحرب لا مفر منها.

فقال برونيه بقوة : — كلا ، بل ان الميثاق كان حظنا الوحيد في منعها .

فانفجر شنايدر ضاحكاً : وابتسم برونيه وصمت . وكفّ شنايدر فجأة عن الضحك :

— ولكن نعم ، انظر اليّ ، انظر اليّ لحظة ؛ اتخذ هيئة طبيب الموتى . لقد فاجأتك مئة مرة وانت تراقب الرفاق بعينيك الباردتين ، فكأنما كنت تقوم بتحقيق . حسناً ، فماذا تحققت ؟ تحققت انني نفاية السير التاريخي ؟ اتفقنا . نفاية الى الحد الذي تريد . ولكني لست ميتاً ، يا برونيه ، « لست ميتاً » مع الأسف . اني مدعوّ الى ان اعيش سقوطي ، فهو مذاق في فمي ، ولن تفهم ذلك ابداً . انك تجريديّ ، وانتم التجريديين جميعاً ، انتم الذين صنعتم منا النفاية التي نحن اياها .

وصمت برونيه ، وهو ينظر الى شنايدر : وتردّد شنايدر ، وكانت عيناه قاسيتين مذعورتين ، وكان يبدو و كأنّ على لسانه كلاماً غير قابل للإصلاح . وقد امتقع فجأة ، وأقبلت غمامة من الارهاب تغشى نظره ، فأغلق فه . وبعد لحظة ، استأنف بصوته الخشن ، الهادىء ، الرتيب :

— طيّب ، نحن اخيراً في الخراء جميعاً ، انت ونحن ، وهذا عذرك . صحيح انك ما تزال تأخذ بالسير التاريخي ، ولكن قلبك ليس بعد مؤمناً به . ان الحزب الشيوعي يتشكل من جديد بدونك ، وعلى اسس تجهلها . فبوسعك ان تهرب ولكنك لا تجرؤ ، لأنك تخاف

ما سوف تجده هناك . فالموت والحزن العميق في نفسك انت ايضاً .

وابتسم برونيه : لا ، ليس الأمر كذلك . لن يهزم هكذا ، وهذه كلمات لا تعنيه . وصمت شنايدر وارتعش : لم يحدث شيء بالاجمال . لم يحدث شيء على الاطلاق : ان شنايدر لم يعترف بشيء ، ولم يكشف شيئاً ؛ كل ما في الأمر ان أعصابه ثارت قليلا . امـــا المقطع المتعلق بالميثاق الجرماني السوفياتي ، فربما كانت هذه هي المرة المئة التي يسمعه برونيه فيها منذ ايلول . ولا بدّ ان الجندي قد ادرك ان الحديث كان يجري عنه : فاستقام على مهل ومضى على قدميه الطويلتين العنكبوتيتين وهو يسير جانبياً كحيوان مذعور . « من » هو شنايـــدر ؟ مثقف بورجوازي ؟ فوضوي يميني ؟ فاشي يجهـــل نفسه ؟ ان الفاشين لم يكونوا كذلك يريدون الحرب . والتفت اليه برونيه : فرأى جنديـــاً يرتدي الاسمال ، متبرماً ليس لديه ما يدافع عنه ، ولم يبق له ما يفقده ، وهو يفرك أنفه بهيئة شاردة . وفكر برونيه : « لقد اراد ان يؤذيني » ولكنه لم ينجح في الحقد عليه . وسأله بلطف :

ــ اذا كان هذا ما تفكر به ، فلماذا انضممت الينا ؟

فبدت على شنايدر هيئة الشيخوخة والتهدّم ، وقال بصوت يدعو الى الرثاء :

ــ حتى لا أبقى وحيداً .

وساد صمت ، ثم رفع شنايدر رأسه وعلى فمه بسمة مترددة :

ــ يجب علينا ان نفعـــل شيئاً ، أليس كذلك ؟ اي شيء . من الممكن الا نكون متفقين على بعض النقاط ...

وصمت وصمت برونيه . وبعد لحظة ، نظر شنايدر الى ساعته :

ــ انها ساعة الزيارات ، فهل تأتي ؟

قال برونيه : ــ لا ادري ، اذهب انت ، وربما لحقت بك .

ونظر اليه شنايدر لحظة كما لو انه يريد ان يحدثه ، ثم استدار

مبتعداً واختفى . انتهى الحادث ، ووضع برونيه يديه خلف ظهره ، وراح يتنزه في الساحة ، تحت الرذاذ ؛ ولم يفكر بشيء ، وأحسّ نفسه أجوف مُصدياً ، واستشعر على خدّه ويديه ذبذبات صغيرة مبتلّة . الموت في النفس والحزن العميق ، حسناً ، وبعد ذلك ؟ وقال في نفسه باحتقار : « إن هذا من علم النفس !» وتوقف ، وفكر في الحزب . وكانت الساحة خالية ، رمادية ، بلا كثافة ، وكانت تنبعث منهـــا رائحة الأحد؛ انها منفى . وفجأة أخذ برونيه يعدو ، ودلف الى الساحة الاخرى . وكان الرجال يتزاحمون عند الحاجز صامتين ، وجميع رؤوسهم متجهة نحو الباب الكبير : « انهم » هنا ، خلف الجدران ، تحت الرذاذ نفسه . ورأى برونيه ظهر شنايدر القوي في الصف الاول، فشقّ لنفسه ممراً ، ووضع يده على كتفه . والتفت شنايـــدر فبسم له بسمة حارّة ، وقال :

ـ آه ، ها أنت ذا .

ـ هأنذا .

قال شنايدر : ـ انها الثانية وخمس دقائق . وسيفتح الحاجز عماقليل. وانحنى مرشّح الى جانبها نحو رفيق له وتمتم :

ـ ربما كانت هناك نساء .

وقال شنايدر في حيوية : ـ يسليني ان ارى مدنيين ، فذلك يذكرني بيوم الأحد في المدرسة .

ـ هل كنت داخلياً ؟

ـ نعم ، كنّا نصطفّ امام قاعة الانتظار لنرى وصول الأهل .

وابتسم برونيه من غير ان يجيب : إنه لا يبالي بالمدنيين ؛ وانمـــا هو مسرور لأن جميع الرفاق كانوا حوله يبعثون لديه الحرارة . وفتح الباب الكبير وهو يصرّ ، فسرت في الصفوف تمتمة خائبة :

ـ هؤلاء هم فقط ؟

انهم زهاء ثلاثين ، وقد رأى برونيه من فوق الرؤوس جمعهم الصغير الاسود المزدحم العنيد تحت المظلات . وذهب المانيان للقائهم ، فتحدثا اليهم وهما يبتسمان ، وفحصا أوراقهم ، ثم ابتعدا ليتيحا لهم الدخول . نساء وشيوخ ، جميعهم تقريباً في لباس اسود ، جنازة تحت المطر ؛ وكانوا يحملون حقائب واكياساً وسلالاً تغطيها المناشف. وكانت النساء ذوات وجوه رمادية وعيون قاسية وهيئة متعبة ، وقد تقدّمن بخطى صغيرة ، تتزاحم مؤخراتهن ويشعرن بالانزعاج من هذه العيون التي تلتهمهن . وتنهّد المرشح :

– طز ! كم هنّ بشعات !

قال الآخر : – ايه ، هناك ما يمكن عمله : انظر الى تلك المؤخرة السمراء !

ونظر برونيه الى الزائرات في ودّ . انهنّ بالتأكيد قبيحات ، وهيئتهن قاسية مغلقة ، فكأنهنّ قادمات ليقلن لازواجهنّ : « هل انت مجنون حتى تقع في الاسر ؟ فكيف تريدني ان اتدبّر امري وحدي مع الصغير ؟ » غير انهنّ قد جئن ، مشياً على الاقدام او في عربات ، يحملن سلال الاغذية هذه الثقيلة . انهنّ دائماً انفسهنّ اللواتي يأتين وينتظرن ، بلا حراك ، ولا تعبير ، امام ابواب المستشفيات،والثكنات والسجون : الدمى الجميلة ذوات النظر الراعش تحمل الحداد الى البيت. وقد لقي برونيه على وجوههن – بانفعال – ضيق السلم وبؤسه . كانت لهن تلك العيون المحمومة ، الامينة ، اللاموافقة حين كان ازواجهنّ يقمن بالاضراب « الاحتلالي » ، فكنّ يأتين لهم بالحساء . اما الرجال فقد كان معظمهم مسنين سماناً اشداء ذوي هيئة هادئة . وكانوا يمشون ببطء وتثاقل ، انهم احرار : فقد ربحوا حربهم في زمنهم ، وهم يحسّون راحة الضمير . ومع ذلك ، فهم يقبلون مسؤولية هذه الهزيمة التي ليست « هزيمتهم » ؛ انهم يحملونها على اكتافهم العريضة . لأنّ

من ينجب طفلاً ، عليه ان يدفع ثمن البلاط الذي يكسره : انهم قادمون بلا غضب ولا خجل ليروا الصبي الذي ارتكب آخر حماقة له كشاب . وعلى هذه الوجوه ، نصف الفلاحية ، لقي برونيه فجأة من جديد ما سبق ان فقده : معنى حياته ، كنت أتحدث اليهم ، فلا يستعجلون الفهم ، وانما يصغون بمثل هذه الهيئة من الهدوء العميق ، وهم يتحسّسون قليلاً ؛ وهم لن ينسوا بعد ابداً ما فهموه . وعادت رغبة قديمة فمدّت رأسها في قلبه : يجب ان أشتغل ، وان أحس على جسمي بأعين راشدة مسؤولة . ورفع كتفيه ، وانصرف عن هذا الماضي ، ونظر الى « الآخرين » عصبة الثائري الاعصاب الصغار ذوي الوجوه اللامعبّرة الكازّة : ذلك هو نصيبي . لقد كانوا منتصبين على رؤوس اقدامهم ، مادّين إعناقهم ، يتابعون الزوّار بنظرة قرديّة ، وقحة ، جازعة . كانوا يعوّلون على الحرب لتنقلهم الى سنّ الرجال ، ولتمنحهم حقوق رب الاسرة والمحارب القديم ؛ وكان ذلك طقساً احتفالياً للتدريب ، فقد كان لا بدّ لهذه ان تطرد تلك ، الحرب « العظمى » ، العالمية ، التي خنق مجدها طفولتهم ؛ ولا بدّ انها كانت أعظم ، واكثر عالمية ؛ فلو أطلقوا على الالمان لأنجزوا مذبحة الآباء الطقسية التي بها يبدأ كل جيل في الحياة . انهم لم يطلقوا على أحد ، ولم يذبحوا شيئاً على الاطلاق . انهم فوتوا عليهم ذلك : فلقد بقوا صغاراً غير راشدين ، وكان الاباء يمشون امامهم في عرض ، ينبضون بالحياة . كانوا يسيرون مكروهين ، محسودين ، معبودين ، مرهوبين ، فيغرقون من جديد عشرين الف محارب في طفولة الكسالى المرائية . وفجأة ، التفت أحدهم وواجه الاسرى : فتراجعت جميع الرؤوس ، وكان له حاجبان كثيفان أسودان وخدّان قرمزيان ، وكان يحمل رزمة ثياب بطرف عصاه . واقترب فوضع يده على شريط الحديد ونظر اليهم بعينيه الكبيرتين المخططتين بالدم ، وتحت

هذا النظر الحيواني ، البطيء ، اللامعبر ، كان الافراد ينتظرون متوترين ، ممسكين أنفاسهم ، وعلى استعداد لأن يرفضوا : كانوا ينتظرون الصفعتين . وقال العجوز :

— ها أنتم اولاء ، اذن !

وساد صمت ، ثم تمتم أحدهم :

— نعم ، يا بابا : ها نحن اولاء .

فقال العجوز : — يا لها من مصيبة !

فتنحنح المرشّح واحمرّ وجهه ، وقرأ برونيه على وجهه التحدّي المتشنج نفسه . أجل يا بابا ، ها نحن اولاء : عشرين الف رجل كانوا يريدون ان يكونوا ابطالاً ، ولكنهم استسلموا بلا قتال في سهل منبسط . وهزّ العجوز رأسه ، وقال بلهجة عميقة ، ثقيلة :

— يا لكم من مساكين !

فسُرّي عن الجميع ، وابتسموا له ، وانحنت القامات نحوه . واقترب الحارس الالماني فلمس ذراع العجوز بادب ، واومأ له ان يبتعد ، فلم يكن يلتفت اليه وقال :

— دقيقة واحدة ، انني آت .

وغمز الأسرى غمزة مشاركة ، فابتسم الافراد ، وكانوا مسرورين لأنه عجوز لم تكن في عينيه برودة ، عجوز عنيد من بلادهم ، فأحسوا انهم أحرار بالوكالة . وسأل العجوز :

— هل الامر أقسى من ان يحتمل ؟

ففكر برونيه : هكذا . سيبدأون الأنين . ولكن عشرين صوتاً مرحاً أجابت :

— لا يا بابا ، لا ، لا ، بل بعكس احتماله .

قال العجوز : – حسناً ، هذا أفضل ، هذا أفضل .

ولم يبق لديه شيء يقوله لهم ، ولكنه ظلّ هناك، وازناً ،مركوماً ، صلباً ، فجرّه الحارس من كمه عـلى مهل ؛ وتردّد ، واستعرض الوجوه بنظره ، فكأنه يبحث عن وجه ابنه : وبعد لحظة ، صعدت الى عينيه من البعيد البعيد فكرة ، فبدا على هيئة متّرددة ، وقال اخيراً بصوته ذي العقد :

– لو تعلمون ، ايها الفتية ، انها ليست غلطتـكم .

فلم يجب الافراد بشيء : كانوا واقفين بصلابة ، كأنهـا وقفة الاستعداد . واراد العجوز ان يوضّح فكرته . فأستطرد :

– لا أحد عندنا يفكر بأنها غلطتكم .

فظلّ الافراد على صمتهم ، وقال :

– الى اللقاء ، ايها الاخوة .

ومضى . وعند ذلك سرت فجأة في الجمع إرتعاشة ، فأخذوا يصرخون بحماسة :

– الى اللقاء ، يا بابا ، عما قريب ! الى اللقاء ! عمـا قريب !

وكانت اصواتهم تتضخم ما ابتعد العجوز ؛ ولكنه لم يلتفت . وقال شنايدر لبرونيه :

– أرأيت ؟

فانتفض برونيه ، وقال :

– ماذا ؟

ولكنه كان يعلم جيداً ما سوف يقوله له شنايدر . وقال شنايدر :

– يكفي ان يوثق بنا بعض الشيء .

فابتسم برونيه وقال :

– هل تبدو عليّ هيئة طبيب الموتى ؟

قال شنايدر : – في هذه اللحظة ، لا .

وتبادلا النظر في صداقة : وانفتل برونيه فجأة وقال :
— انظر الى تلك المرأة .

كانت تعرج ، وتوقفت ، قصيرة رمادية ، وتركت رزمتها تسقط في الوحل ، ونقلت الى يدها اليمنى الباقة التي كانت تحملها باليسرى، ثم رفعت ذراعها اليمنى فوق رأسها . ومضت لحظة ، لكأنها انتصبت بالرغم منها ، هذه اليد المنتصرة التي تشدّ كتفها وعنقها ؛ وانتهت بان قذفت الزهور بحركة مرتبكة أسقطتها على الارض ، فتناثرت ، زهور حقول ، رمنثور ، وهندباء ، وترنشاه : لا بدّ انها قطفتها من حافة الطريق . وتدافع الرجال ، فنكثوا الارض ؛ وقرصوا الأغصان بين اظافرهم الموحلة : ونهضوا وهم يضحكون فأروها الزهور كما لو انهم يحيّونها . وأحسّ برونيه بانقباض في حلقه ، فالتفت الى شنايدر وقال غاضباً :

— زهور ! ماذا كانوا يقدمون لو كنا ربحنا الحرب !

ولم تبتسم المرأة ، بل أخذت رزمتها ومضت ، فلم يكن يُرى بعد الا ظهرها يتهاوى تحت المعطف المشمع ، وفتح برونيه فمه ليتكلم ، ولكنه رأى وجه شنايدر وصمت . وتخلّص شنايدر وهو يدافع جيرانه ، وخرج من الصفوف. إنه لم يكن على ما يرام . وتبعه برونيه ، فوضع يده على كتفه :

— ما بك ؟

ورفع شنايدر رأسه ، فصرف برونيه عينيه ، وهو يحسّ الانزعاج من نظره بالذات ، نظر طبيب الموتى ، وردّد، وهو ينظر الى قدميه:

— قل ، ما بك ؟

وأصبحا وحيدين وسط الساحة ، تحت الرذاذ . وقال شنايدر :

— شيء مريع !

وساد صمت ، ثم أضاف : — ان نرى مدنيين من جديد .

وقال برونيه ، من غير ان يرفع عينيه :
– يريعني هذا كما يريعك .
قال شنايدر : – الامر بالنسبة اليك مختلف ؛ فليس لك أحد .
وبعد برهة ، فكّ شنايدر ازرار سترته ، وبحث في جيبه الداخلي، فأخرج منه محفظة مسطحة . وفكر برونيه : لقـــد مزّق كل شيء . وفتح شنايدر محفظته: لم يكن باقياً فيها غير صورة بحجم بطاقة بريدية. ومدّها شنايدر لبرونيه من غير ان ينظر اليها ، فرأى برونيه امرأة شابـــة ذات عينين معتمتين . وكان تحت العينين بسمة : ولم يسبق لبرونيه ان رأى شبيهاً لها . كان يبدو عليهـــا انها تعرف جيداً ان في العالم معسكرات اعتقال وحروباً واسرى مسجونين في ثكنات ؛ كانت تعرف ذلك ، وهي مع هذا تبتسم : وللمهزومين والمبغدين ونفايات التاريخ ، كانت تمنح ضحكتها . ومع ذلك ، فقد بحث برونيه عبثاً في عينيها عن شعاع الاحسان الساديّ الكريه : انها تبتسم لهـــم بسمة ثقة بهدوء ، تبسم لقوتهم كما لو انها كانت تطلب منهم ان يصفحوا عن المنتصرين عليهم . وكان برونيه قد رأى صوراً كثيرة في تلك الفترة ، وابتسامات كثيرة . وكانت الحرب قد أفسدتها كلها ، فـــلم يعد النظر اليها ممكناً . اما هذه البسمة ، فقد كان النظر اليها ممكناً : لقد ولدت هذه اللحظة، وكانت موجهة الى برونيه، الى برونيهوحده ، الى برونيه الأسير ، برونيه النفايـــة بزونيه المنتصر . وانحنى شنايدر فوق كتف برونيه ، وقال :
– بدأت تتعب .
قال برونيه : – نعم ، فلا بدّ من ان تقصّ أطرافها .
وردّ له الصورة وهي تتلألأ بالرذاذ ، فمسحها شنايدر في عنايـــة بطرف كمه وأعادها الى محفظته . وتساءل برونيه : « هل هي جميلة؟» ولم يكن يدري ، انه لم يتح له الوقت الكافي لمعرفة ذلك . ورفع رأسه

فنظر الى شنايدر ، وفكر : «انها انما تبسم له هو . » وخيل اليه انه يراه بعينين أخريين . ومرّ شخصان شابّان ، يضعان زهرتي منثور في عروتيهما ، ولم يكونا يتكلمان ، وكانت جفونهما تضفي عليهما هيئة متناولين هزلية . وتبعهما شنايدر بالنظر ؛ وتردّد برونيه ، وصعدت الى شفتيه كلمة قديمة ، فقال :

– أجدهما مؤثرين .

فقال شنايدر : – صحيح ؟

وكان صفّ الفضوليين خلفهما قد تمزق ،ودخل الزوار الى الثكنة، ووصل داوروكير وهو يتهادى ، يتبعه « بيران » وعامل المطبعة . وفكر برونيه: «صحيح، انها الساعة الثالثة .» وكانت لهم، ثلاثتهم، وجوه مغلقة ؛ وتضايق برونيه وهو يفكر بأنهم قد تحدثوا فيما بينهم : فتلك أشياء لا يمكن منعها . وصاح من بعيد :

– ماذا ، يا جماعة ؟

فاقتربوا وتوقفوا ، وتبادلوا النظر ، على رهبة . وقال برونيه بصراحة :

– تكلموا ، ما بكم ؟

فأوقف عامل المطبعة عليه نظر عينيه الجميلتين القلقتين ، وكان وجهه ينمّ حقاً عن الأستياء وقال :

– لقد قمنا دائماً بما طلبته منا ، أليس كذلك ؟

فقال برونيه نافد الصبر :

– نعم ، نعم . وإذن ؟

فلم يستطع عامل المطبعة ان يضيف شيئاً آخر، وانما تكلم داوروكير بدلاً منه ، من غير ان يرفع عينيه :

– اننا نريد ان نستمر ، وسنستمر ما طلبت منا ذلك . ولكننا نعتقد ان هذا عبث .

فلم يقل برونيه شيئاً . وقال بيران :

– إن الافراد لا يريدون ان يفهموا شيئاً .

وظل برونيه على صمته ، فاستطرد العامل بصوت محايد :

– بالأمس فقط ، تنازعت مع شخص لأني كنت اقول إن الالمان سيأخذوننا الى المانيا . فجنّ جنون الرجل ، واتهمني باني من الطابور الخامس .

ورفعوا عيونهم فنظروا الى برونيه بعناد :

– لقد بلغ الأمر حدّ أنه لا يمكن بعد ان تقال لهم كلمة سوء عن الألمان .

وجمع داوروكير شجاعته ونظر الى برونيه مواجهة :

– اننا بصراحة يا برونيه لا نرفض ان نعمل ، ولكن اذا باشرنا الأمر بطريقة خاطئة، فاننا مستعدون بالبدء من جديد على طريقة اخرى. غير انه ينبغي ان تفهمنا . اننا نتنقّل في كل مكان . ويندر ألا نتحدث في اليوم الواحد الى مئتي شخص ، فنسبر غور المعسكر ؛ اما انت ، فانك بالضرورة ترى أقل منا ، فلا تستطيع ان تعرف ما نعرف .

– يعني ؟

– يعني اذا أطلق غداً سراح العشرين ألف اسير، فانهم، بهذا الوضع، سيكونون عشرين الف نازي .

فأحسّ برونيه بان الحرارة تصبغ وجنتيه . ونظر اليهم واحداً بعد واحد . وسأل :

– أهذا هو رأيكم ؟

فأجاب الثلاثة « نعم » . وانفجر فجأة :

– إن في الجمع عمالاً وفلاحين ، ويجب ان تخجلوا من التفكير بأنهم سيصبحون نازيين ، وإلا كان ذلك من خطأكم : إن الانسان

ليس حطبة ، وانما هو يتحرك ، لو تعلمون، يقتنع : فاذا لم تنجحوا في تحريكهم ، فمعنى ذلك انكم لا تحسنون القيام بعملكم .

وأولاهم ظهره . وقام بثلاث خطوات ، ثم عاد اليهم فجأة ، مقدماً إصبعه :

— الحقيقة انكم تعتبرون انفسكم قوّاداً . فانتم تحتقرون رفاقكم . فاحفظوا هذا : إن عضو « الحزب » لا يحتقر أحداً .

ورأى عيونهم مشدوهة ، فزاد غيظه وصاح :

— عشرون الف نازي ! هل انتم مجانين ؟ إنكم لن تصنعوا منهم شيئاً اذا احتقرتموهم . حاولوا اولا ان تفهموهم : إن في نفوسهم الموت والحزن العميق ، هؤلاء الأشخاص ، وهم لا يدرون بعد كيف يتصرفون . وسيستسلمون للشخص الاول الذي يوليهم الثقة .

وأزعجه حضور شنايدر ، فقال له :

— هيّا ، تعال .

واذ مضى ، التفت نحو الآخرين الذين ظلوا بُكماً ومشدوهين :

— أعتبر انكم أصبتم بخوَر . وهذا أمرٌ قد نُسي . ولكن لا تعودوا بعد بهذا الخبط العشوائي . الى الغد .

ورقي السلم عدواً ، وشنايدر يلهث خلفه ؛ ودلف الى الشقة ، وتداعى للسقوط على غطائه ؛ ومدّ يده فتناول كتاباً : « اخواتهم » لهنري لافيدان . وراح يقرأ في تنبه ، سطراً فسطراً ، وكلمة فكلمة؛ وهدأت نفسه . وحين بدأ النهار يرمدّ ، وضع الكتاب وتذكر انه لم يتناول الغداء ؟

— هل احتفظتم لي برغيفي ؟

فمدّه له مولو ، فقطع برونيه القطعة التي كان عليه ان يعطيها لعامل المطبعة غداً ، ووضعها في قربته ، وأخذ يأكل. وبدا «كانتريل» و « ليفار » في فتحة الباب : كانت تلك ساعة الزيارات . وقالا من

غير ان يرفعا رأسيهما : « مرحباً ، مرحباً . » وسأل مولو :

– ما لديكما من انباء ؟

قال ليفار : – يقال ان البعض قد هرب ! ومن الذي يدفع الثمن؟ طبعاً ، نحن .

قال مولو : – ها ! هناك إذن جديد ؟

فقال ليفار : – هناك ان المعاون قد هرب .

– هرب ؟ لماذا ؟

كان هذا سؤال بلوندينه الذي جعلته المفاجأة وحشياً . وانقضى بعض الوقت قبل ان يهضم الافراد النبأ ، وكان في عيونهم بعض الذعر : وخوف خفيف يشبه خوف الجمع المتعب في المترو حين يأخذ مجنون في النباح العنيد ، وردد غاسو بهدوء :

– هرب .

وكان الشتيمي قد وضع العصا التي ينحتها وبدا قلقاً . وكان لامبر يمضغ في صمت ، وعيناه ثابتتان قاسيتان . وبعد لحظة ، قال في ضحكة استياء .

– هناك دائماً من يعتقدون أنهم اكثر استعجالاً من سواهم .

فقال مولو : – او انه يحب المشي على الأقدام .

وكان برونيه ينتف برأس مديته اجزاء عفنة من الخبز ، ويسقطها على غطائه ؛ وكان يشعر بعدم الراحة . ودخل هواء الخارج الرمادي الى الغرفة؛ وفي الخارج ، في المدينة الميتة كان ثمة رجل مطارد يختبيء . اما نحن ، فاننا هنا ، نأكل ، وهذا المساء سننام تحت سقف ، وسأل على مضض :

– كيف تمكن من الفرار ؟

فنظر اليه ليفار متصنعاً الأهمية ، وقال :

– احزر !

– لا ادري : من الجدار الخلفي ؟

فهزّ ليفار رأسه مبتسماً ، وانتظر لحظة ، ثم قال بلهجة انتصار :

– من البـــاب الكبير ، في الساعة الرابعة بعـــد الظهر ، تحت أعين الألمان !

فشده الرجال ، واستمتع ليفار وكانتريل برهةً بالذهول العام ، ثم اوضح كانتريل بصوته الحادّ السريع :

– لقد جاءت زوجته العجوز للزيارة ، وكانت تحمل له ثياباً مدنية في حقيبة ، فغيَّر المعاون لباسه في خزانة ، ثم خرج متأبطاً ذراعها .

فسأل غاسو مغتاظاً :

– ولكن ألم يكن ثمة أحد ليوقفه ؟

فهزّ ليفار كتفيه :

– يوقفه ؟ كيف تريد ذلك ؟

قال غاسو :

– لو عرفته انا مثلا عند الخروج لناديت ألمانياً فقبض عليه .

ونظر اليه برونيه في ذهول :

– هل أنت مجنون ؟

فقال غاسو في غضب : – مجنون ؟ يا لفرنسا المسكينة ! إن من يريد ان يقوم بواجبه اليوم ، يُتهم بالجنون .

وألقى نظرة دائرة على الجمع ليرى ان كانوا يقرّونه وأجـــاب باندفاع أشدّ :

– سترى اذا كنت مجنوناً حين يلغون الزيارات . انني اؤكد لك انهم تركوهم يدخلون ولم يكونوا مجبرين على ذلك . أليس هذا رأيكم ، يا جماعة ؟

فهز مولو ولامبير رأسيهما ، وأضاف غاسو بلهجة قاسية :

–هذا صحيح أيضاً ! لقد اتفق ان الألمان لم يكونوا وحوشاً في هذا ، فكيف نشكرهم ؟ بان نخرأ في ايديهم . سيثور غضبهم ، ولن يكونوا

على خطأ .

وفتح برونيه فمه ليصفه بأنه قذر ، ولكن شنايدر رماه بنظرة سريعة وصـــاح :

— غاسو ، انك كريه !

وصمت برونيه وهو يفكر بمرارة : « لقد سارع يشتمه ليمنعني من ان « أدينه » ، انه لا يدين غاسو ، ولا يدين قط أحداً : فهو يشعر امامي بالعار بدلا منهم ؛ ومهما حدث ، ومهما فعلوا ، فقد اختـــار ان يكون معهم . » ونظر غاسو الى شنايدر بعينين يلتمع فيهما الشرر، فردّ له شنايدر نظرته : وأخفض غاسو عينيه وقال :

— حسناً ! حسناً ! هيّا ، اعملوا على الغـــاء الزيارات . انا لا يهمني ذلك : فان أبويّ في « اورانج » .

قال مولو : — وأنا ، مـــا تظنني ؟ انني يتيم . ولكن يجب مع ذلك ان نفكر بالرفاق .

قال برونيه : — صحيح . ويليق بك جداً ان تقول ذلك يا مولو، أنت الذي تغتسل كل يوم بعناية كبيرة لتجنب الرفاق القمل .

فقال البلوندينه فجأة : — ليس الامران متشابهين . صحيح ان مولو وسخ ، ولكنه لا يبعص سوانا . بينما ذاك شخص لا يخاف ان يغرق عشرين الف شخص في الخراء لمصلحته الشخصية .

قال لامبير : — اذا قبض عليه الألمان ، فوضعوه في السجن ، فلن اكون ممن يرثون له .

وقال مولو : — هل ترى ؟ إن صاحبنا يذهب قبل ستة اسابيع من العودة . ألم يكن بوسعه ان يفعل مثلنا ؟

فأقرّهم الرقيب لاول مرة ، وقال متنهداً :

— هذه هي الشخصية الفرنسية ، ومن أجل هذا خسرنا الحرب .

فقهقه برونيه وقال لهم :

ـ هذا لا يمنع انكم تودّون كثيراً ان تكونوا مكانه ، وان تشعروا بالخجل لانكم لم تقوموا بالمحاولة .

فقال كانتريل بحيوية :

ـ هذا ما يجعلك على خطأ . فلو جازف بشيء ، بأي شيء ، طلقة بندقية في المؤخرة ، لما انكرت ، فبالامكان التفكير : إنه أحمق ، رأس فارغ ، ولكنه كان ذكياً . فبدلا من هذا ، ذهب صاحبنا بهدوء ، محتمياً بزوجته ، كالجبناء . إن هذا ليس فراراً ، بل هو اساءة للثقة .

وسرت في صلب برونيه رعشة باردة ، فانتصب ونظر في عيونهم واحداً بعد الآخر وقال :

ـ حسناً ، اذا كان الامر كذلك ، فاني اخبركم اني مساء الغد سأتسلّق الجدار وأهرب . وسنرى ان كان هناك من يشي بي .

فبدا عليهم الانزعاج ، ولكن غاسو لم يسقط في يده ، فقال :

ـ لن نشي بك ، أنت تعلم ذلك جيداً ، ولكن حين أخرج من هنا ، فتأكد اني سأقصد اليك لأعاقبك : لأنك اذا هربت ، فكن على ثقة بان نتيجة عملك ستسقط على رأسنا .

فقال برونيه في ضحكة شائمة :

ـ تعاقبني ؟ أنت ؟

ـ اوه ! كفى ؛ اذا لزم الأمر ، فسنكون عدة اشخاص .

ـ كلمني في هذا بعد عشرة اعوام ، حين تعود من المانيا .

واراد غاسو ان يجيب ، ولكن ليفار قاطعه :

ـ لا تناقشه في هذا . فسوف يطلق سراحنا يوم ١٤ . وهذا رسمي .

فسأل برونيه وهو يقهقه : ـ رسمي ؟ وهل رأيته مكتوباً ؟

فتقصّد ليفار ألا يردّ عليه ، والتفت الى الآخرين وقال :

ـ لم اره مكتوباً ، ولكن الامر شبيه بهذا .

فأشرقت الوجوه في العتمة : لمبات راديو ، معتمة ولبنية . وتأملهم ليفار في بسمة طيبة ، ثم أوضح :

ـ لقد قال هتلر ذلك .

فقال برونيه مشدوهاً : ـ هتلر !

وتجاهل ليفار المقاطعة ، فاستطرد يقول :

ـ هذا لا يعني أني احبّه ، ذلك الشخص : انه بكل تأكيد عدّونا . والنازية لست معها ولا ضدها : فمن الممكن ان تنجح مع الألمان ، ولكن ذلك لا يناسب المزاج الفرنسي ، غير ان له ميزة ، هتلر : إنه يفعل دائماً ما يقول . لقد قال : في ١٥ حزيران ، سأكون في باريس ؛ فكان فيها ، بل سبق ذلك .

وسأل لامبير : ـ وهل وعد بان يطلق سراحنا ؟

ـ نعم . لقد قال : في ١٥ حزيران سأكون في باريس ، وفي ١٤ تموز سترقصون مع زوجاتكم .

وارتفع صوت خجول ، هو صوت الشتيمي :

ـ كنت احسب انه قال : « سنرقص مع زوجاتنا « نحن » : نحن الالمان . »

فحدجه ليفار قائلا : ـ وهل حضرت انت خطابه ؟

قال الشتيمي : ـ كلا هذا ما قيل لي .

فقهقه ليفار ، فسأله برونيه :

ـ وانت ، هل حضرته ؟

ـ طبعاً حضرته ! في « هاغونو » ، كان للرفاق جهاز راديو ، وحين دخلت ، كان قد نطق بهذه العبارة .

وهزّ رأسه وردّد في تلمّظ : « سنكون في ١٥ حزيران في باريس ، وفي ١٤ تموز سترقصون مع زوجاتكم . »

فردّد الأشخاص في جذل : ـ ها ! في ١٥ حزيران في باريس ،

وسنرقص يوم ١٤ تموز .

النساء . الرقص . وأخذ الافراد يرقصون ، واعناقهم في اكتافهم ، ووجوههم مقاوبة ، واكفّهم مطبقة عـلى أشرعة الخيم : وقضقضت الأرض الخشبية ، ودارت ورقصت الفالس تحت النجوم ، بين الحروف الكبيرة لضاحية « شاتودان » . وانحنى غاسو رقيقاً نحو برونيه ، وشرح له بصوت منطقي :

– ان هتلر ليس مجنوناً . فهل تشرح لي لماذا يُدخل مليون أسير الى المانيا ؟ مليون فم تطلب الطعام ؟

قال برونيه : – ليجعلهم يشتغلون .

– يشتغلون ؟ مع العمال الألمان ؟ ستكون معنويات الالمان عظيمة حين يكونون قد تحدّثوا قليلا معنا .

– بأية لغة ؟

– بأية لغة كانت ، بالزنجية ، بالاسبيرنتو : لقد وُلد العامـل الألماني خبيثاً ، وهو نقاد هُزأة وذكي ، فيكفيه يومان حتى يفسدهم، الألمان ، وبوسعك ان تثق بان هتلر قد فكر في ذلك . اوه ! أجل ، انه ليس مجنوناً ! وانا مثل ليفار : لا أحبه ، ذلك الشخص ، ولكني احترمه ، وليس هناك كثيرون أستطيع ان اقول عنهم مثل هذا .

فوافق الأشخاص برؤوسهم ، في رصانة :

– يجب ان نعترف له بهذه الميزة : انه يحب بلده .

– انه رجل له مثل أعلى . ليس هو مثلنا بالتأكيد ، ولكنه جدير بالاحترام .

– جميع الآراء جديرة بالاحترام ، شرط ان تكون مخلصة .

– ونوابنا نحن، ماذا كان مثلهم الأعلى؟ ان يملأوا جيوبهم ، أجل ، والنساء الصغيرات وكل ما هنالك . كانوا يشترون لأنفسهم الطعام اللذيذ بأموالنا . اما عندهم ، فليس الأمر كذلك : انك تدفع ضرائبك ،

ولكنك تعرف ما يفعلون بمالك . فكـــل عام ، يرسل لك موظف الضرائب رسالة : لقد دفعت يا سيدي كذا ، فهذا يمثل كذا من العقاقير للمرضى أو كذا من الامتار المربعة للاوتوستراد . أؤكد لك ذلك .

قال مولو : — انه لم يكن يريد ان يحاربنا ، بل نحن الذين أعلنا الحرب عليه .

— على رسلك ، بل لسنا نحن الذين أعلناها ؛ انه دالادييه ، وهو لم يستشر حتى مجلس النواب .

— هذا ما اقوله . والذي حدث انه هو ، لو تعلم ، ليس انساناً ذليلا ؛ لقد قال : انكم تبحثون عني ، ايها السادة ، فسوف تجدونني . وفي أقل من يومين ، ركلنا على القفا . حسناً ، والآن ؟ اتظنه مسروراً مع مليون اسير ؟ سوف ترى : سيقول لنا بعد ايام : انكم ايهـــا السادة تزعجونني ، فابقوا في بيوتكم . ثم ينصرف الى الروس، فيأكل البعض انوف بعض . فرنسا ؟ ما عساها تفيده ؟ إنه غير محتاج اليها . سوف يأخذ منها الألزاس ثانية ؛ بمثابة استعادة النفوذ ، هذا صحيح . ولكني اقول لك : طز في الالزاسيين ، فاني لم أستطع يوماً ان أطيقهم.

فضحك ليفار لنفسه ، بصمت : وكانت هيئته مزهوة ، وقال :

— الكلام بسرّك ، لو اننا رزقنا ، نحن ، هتلراً !

قال غاسو : — آه ، يا صديقي المسكين ! هتلر مع الجنـدي الفرنسي ؟ مريع ! في هذه الساعة ، كنا نكون في القسطنطينية . (واضاف بغمزة عين جذلة) لأن الجندي الفرنسي هو افضل جندي في العالم حين يكون له قائد .

وفكر برونيه بان شنايدر لا بد وان يحس بالعار ، فهو لا يجرؤ على النظر . ونهض ، فأدار ظهره لأفضل جنود العالم ، وفكر بأنه ليس ثمة بعد ما يُعمل ؛ وخرج . وتردد على السطيحة ، ونظر الى السلم الذي يغرق في العتمة : كان المفروض في تلك الساعة ان يكون

الباب مغلقاً . وللمرة الاولى ، شعر بأنه أسير . عاجلا ام آجلا ، لا بد ان يدخل زنزانته ويتمدد على الارض الخشبية الى جانب الآخرين ويصغي الى أحلامهم . وكانت الثكنة تحته تضجّ ، فترتفع صيحات واغنيات عبر قفص السلم . وقضقضت الارض الخشبية ، فالتفت بحيوية: كان شنايدر يتقدم نحوه في الممر المظلم وهو يعبر آخر شعاعات النهار ، واحداً واحداً . سأقول له : « قل لي ! أتكون لك الشجاعة للدفاع عنهم ! » وأصبح شنايدر بازائه تماماً ، فنظر اليه برونيه ولم يقل شيئاً. وارتفق الحاجز ، فأقبل شنايدر يرتفق بالقرب منه ، وقال برونيه :

– إن داوروكير هو الذي كان محقاً .

فلم يجب شنايدر : ماذا تريد ان يجيبني ؟ بسمة ، زهور حمراء تحت الرذاذ ، يكفى ان يولوا الثقة ، قليلا من الثقة ، قليلا جداً ، آه ! انني أصدقك ، وردّد بغضب :

– لا جدوى ! لا جدوى ! لا جدوى !

إن الثقة لا تكفي ، بكل تأكيد . الثقة عن ؟ الثقة بأيّ شيء ؟ لا بدّ من الألم ، والخوف والحقد ، لا بد من التمرد والقتل ، لا بد من نظام حديدي . أما حين لا يبقى لهم ما يفقدونه ، وحين تصبح حياتهم أسوأ من الموت ... وانحنى كلاهما فوق الظلام ، فانبعثت رائحة غبار . وسأل شنايدر وهو يخفض الصوت :

– أصحيح انك تريد ان تهرب ؟

فنظر اليه برونيه من غير ان يجيب ، وقال شنايدر :

– سوف أشعر بالشوق اليك .

وقال برونيه بمرارة :

– ستكون الوحيد في ذلك .

وفي الطابق الارضي ، كان أشخاصٌ يغنّون في جوقة : لنشرب كأساً ، لنشرب كأسين ، نخب المحبين ، أهرب ، أشحط صليباً على

عشرين الف رجل ، أتركهم يموتون في خرائبهم ، أيكون لنا الحق بالقول : لم يبق ثمة ما يفعل ؟ واذا كانوا ينتظرونني في باريس ؟ وفكر في باريس باشمئزاز أدهشه عنفه . وقال : « لن أهرب : لقد قلت ذلك وأنا غاضب . »

– اذا كنت تظن انه ليس ثمة بعد ما يعمل ...

– هناك دائماً ما يعمل . يجب ان نعمل حيث نكون ، بالوسائل التي نملك . وفيما بعد ، سنرى .

وتنهد شنايدر ، وقال برونيه فجأة :

– انت الذي ينبغي لك ان تهرب .

فهزّ شنايدر رأسه نفياً ، وقال برونيه في خجل :

– ان لك هناك زوجتك .

فهز شنايدر رأسه نفياً ؛ فسأله برونيه :

– ولكن لماذا ؟ ليس لك هنا ما يمسكك .

فقال شنايدر : – سيكون كل مكان أسوأ .

لنشرب كأساً ، لنشرب كأسين ، نخب المحبين . وقال برونيه :

– لتعش المانيا !

وللمرة الأولى ردّد شنايدر في شيء من الشعور بالعار :

– لتعش ألمانيا ! نعم ! لتعش ..

وطز في ملك انكلترا الذي أعلن لنا الحرب .

سبعة وعشرون رجلاً ، الشاحنة تصرّ ، والقناة تتمطّى على طول الطريق ، ويقول مولو :

– في الحقيقة ، ليست مهدمة الى حد بعيد .

ولم يكن الالمان قد أغلقوا باب الممرات ، وكان النور والذباب تدخل الى الشاحنة ؛ وكان شنايدر وبرونيه وعامل المطبعة جالسين على الارض الخشبية ، عند فتحة الباب ، وسيقانهم تتدلى الى الخارج ؛ انه

يوم صيف جميل . وقال مولو بارتياح :

ـ أجل ، ليست على الاطلاق مهدمة الى حد بعيد .

ورفع برونيه رأسه : كان مولو واقفاً ينظر الى الحقول والسهول تجري في رضى . وكان الطقس حاراً ؛ ورائحة الرجال قوية ؛ وكان شخص يشخر في جوف القاطرة . وانحنى برونيه : كان في الشاحنة قبعات المانية تلمع فوق البنادق . يوم صيف جميل ، وكل شيء هادىء ؛ القطار يجري والقناة تجري ؛ ومن بعيد لبعيد يُرى طريق حفرته قنبلة ، او حقل مخدّد ؛ وفي جوف الحفر ، ماء يعكس السماء.

وقال عامل المطبعة لنفسه :

« لن يكون القفز صعباً » .

فأومأ شنايدر الى البنادق بهزّة كتف :

ـ سيصطادونك كالارنب .

فلم يجب عامل المطبعة ، وأطلّ كما لو انه سوف يثب ، فأمسكه برونيه من كتفه ؛ وردّد عامل المطبعة مبهوراً :

ـ لن يكون ذلك صعباً جداً .

فدغدغ له مولو رقبته :

ـ ما دمنا ذاهبين الى « شالون » .

ـ ولكن هل هذا صحيح ؟ هل نكون ذاهبين اليها ؟

ـ لقد رأيت البلاغ مثلي .

ـ لم يكن مكتوباً اننا ذاهبون الى شالون .

ـ صحيح ، ولكن كان مكتوباً اننا باقون في فرنسا . أليس كذلك ، يا برونيه ؟

فلم يجب برونيه على التو : « صحيح » أنه كان في الليلة السابقة اعلان معلق على الجدار ، يحمل توقيع القائد : « إن اسرى معسكر باكارا مرصودون للبقاء في فرنسا . » وهـذا لا يمنع انهم الآن في

القطار ، محمولين الى جهة مجهولة . وألحّ مولو :
– أصحيح هذا ام غير صحيح ؟
وصاحت خلفها أصوات نافذة الصبر :
– نعم ، صحيح ، لا تضجرونا ، فانتم تعلمون جيداً ان هـذا صحيـح .
وألقى برونيه نظرة الى عامل المطبعة ، وقال بلطف :
– هذا صحيـح .
فتنهد العامل وقال في بسمة مطمئنة :
– هذا طريف . انا اشعر دائماً بأني غريب حين أسافر .
وضحك من قلبه ، وهو متجه الى برونيه :
– قد اكون ركبت القطار عشرين مرة في حيـاتي ؛ ولكن ذلك يحدث لي كل مرة اثراً عميقاً .
وضحك ، فنظر اليه برونيه يضحك وفكر : « انه ليس على مـا يرام . » وكان لوسيان جالساً الى الخلف ؛ وقال وهو يحيط كعبيـه بذراعيه :
– كان المفروض ان يأتي امي وابـي يوم الأحد .
وكان شاباً رقيق الهيئة يضع نظارات . وقال له مولو :
– الا تفضّل ان تلقاهما في البيت ؟
فقال الشاب : – بلى طبعاً ، ولكن ما دام المفروض ان يأتيـا يوم الأحد ، فقد كنت افضل ان نذهب يوم الاثنين .
فاحتج ركاب القاطرة :
– هذا شخص كان يفضل ان يبقى ثلاثة ايام اخرى ؛ خراء إذن! ان هناك من ينكرون الآن أنفسهم ؛ يوم آخر ، ولكن قل ، لمـاذا لا تنتظر حتى الميلاد ؟
فبسم لهم لوسيان برقّة ، وقال موضحاً :

— انهما ليسا بعد في سن الشباب ، لو تعلمون ، فيسؤوني ان ينزعجا من اجل لا شيء .

قال مولو : — عجباً ! حين يعودان إذن، فستكون انت الذي تستقبلها .

قال لوسيان : — اود ذلك كثيراً، ولكن لن يكون لي هذا الحظ : فسيحتاج تسريحنا الى ثمانية أيام على الأقل .

قال مولو : — من يدري ؟ من يدري ؟ مع الالمان ، من الممكن ان تسير الامور بسرعة .

قال جوراسيان : — ان كل ما اطلبه شخصياً ، هو ان أصل الى بيتي في موسم قطف الخزامى .

والتفت برونيه : كانت الشاحنة بيضاء من الغبار والدخان ، وكان البعض جالساً ، والبعض الآخر واقفاً ؛ وعبر جذوع مقدّسة لغابة من السيقان ، لمح وجوهاً هادئة مبتسمة بغموض . وكان جوراسيان رجلاً سميناً ذا مظهر قاس ورأس حليق وعصابة سوداء على عينه . وكان جالساً القرفصاء ليحتلّ اصغر مساحة . وسأله برونيه :

— من اين انت ؟

— من مانوسك . كنت في البحرية . وانا في الوقت الحاضر اسكن مع زوجتي ، ولا احب ان تقوم بالقطاف من دوني .

وكان عامل المطبعة ما يزال ينظر الى الطريق ، وقال :

— لقد آن الاوان .

فسأله برونيه : — ما بك ، ايها الرأس الصغير ؟

— آن الاوان ليسرّحونا .

— نعم ؟

قال عامل المطبعة : — كنت مصاباً بالسويداء .

وفكر برونيه : « هو ايضاً ! » ولكنه رأى عينيه اللامعتين المجوّفتين فصمت . وفكر : « سيلاحظ شأنه في وقت مبكر . »

وقال شنايدر :

— صحيح ، ايها الرأس الصغير ، لقد انقطعت عن إضحاكنا ، فما بك ؟

قال العامل : — اوه ! لا شيء الآن .

وكان يود ان يشرح امراً ما ، ولكن الكلمات كانت تعوزه . واتى بحركه اعتذار واكتفى بالقول :

— انني من « ليون » .

وأحسّ برونيه بالانزعاج ، وفكر : « لقد نسيت انه كان من ليون . ها قد مضى شهران ، وانا أشغله من غير ان أعرف عنه شيئاً . وها هو الآن حارّ بازائي ، وهو يشعر بالحنين الى بلده. » وكان العامل قد انفتل اليه ، فقرأ برونيه في اعماق عينيه لوناً من الرقة القلقة ؛ وسأل العامل فجأة :

— أصحيح اننا ذاهبون الى شالون ؟

فقال مولو نافد الصبر : — آه ؟ انك تطرح السؤال من جديد !

قال برونيه : — هيا ، كفى ، هيّا ! حتى ولو لم نكن ذاهبين الى شالون ، فسوف ينتهي الأمر بعودتنا .

قال عامل المطبعة : — بل ينبغي ان نذهب الى شالون ، ينبغي ان نذهب الى شالون .

وبدا وكأنه يقوم بصلاته . وقال لبرونيه :

— أتعلم ؟ لولاك لهربت منذ وقت طويل .

— لولاي ؟

— نعم . كان ينبغي ان أبقى ، ما دام هناك مسؤول .

فلم يجب برونيه ، وفكر : « طبعاً ، إن هذا بسببي » ولكن ذلك لم يكن يسرّه قطّ . واستطرد العامل :

— سأكون اليوم في ليون . هل تتصوّر ، انني مجنّد منذ عام ٣٧،

وانا لا أعرف بعد مهنتي .

قال لوسيان : – ولكن سرعان ما تعتادها من جديد .

فهزّ العامل رأسه ، بهيئة عاقلة ، وقال :

– اوه ! ليس بهذه السرعة . سترى . إن العودة اليها ذات مشقة .

وظلّ جامداً ، فارغ النظرات ، ثم قال :

– كنت لدى أهلي في المساء ألمّع كل شيء ، فانا لم اكن احب ان ابقى من غير ان اعمل شيئاً ، ويجب ان يكون كل شيء نظيفاً .

ونظر اليه برونيه من زاوية عينه : لقد فقد هيئته الواضحة المرحة، وكانت الكلمات تتدافع برخاوة خارج فمه ؛ وكانت باقات من الشعر الأسود تنمو بالاتفاق على خديه الهزيلين . وابتلع نفقٌ شاحنات الرأس، ونظر برونيه الى الثقب الأسود الذي يغرق فيه القطار ، ثم التفت فجأة الى العامل :

– اذا كنت تريد ان تهرب ، فهذه هي اللحظة المناسبة .

قال العامل : – ماذا ؟

– ليس عليك الا ان تقفز حين ندخل النفق .

ونظر اليه العامل ، ثم غدا كل شيء اسود ؛ وتلقى برونيه دخاناً في فمه وعينيه ، فسعل . وابطأ القطار ، فقال برونيه وهو يسعل :

– اقفز . هيّا اقفز !

ليس من جواب ؛ وارمدّ النهار عبر الدخان ، ومسح برونيه عينيه وغمرته الشمس دفعةً واحدة . وكان عامل المطبعة قائماً هناك . فسأله برونيه :

– ماذا اذن ؟ .

فطرف العامل بعينيه وقال :

– وما الفائدة ؟ ما دمنا ذاهبين الى شالون .

فرفع برونيه كتفيه ونظر الى القناة . وكان على حافة الشاطيء

قارب ، وفوقه رجل يشرب ، وترى قبعته وقدحه وانفه الطويل فوق المشى . وكان آخران يسيران على الحافة ، وهما يرتديان قبعة من القش ويتحدثان بهدوء ؛ ولم يتكلفا حتى ادارة رأسيهما نحو القطار . وصاح مولو :

– هيه ! هيه ! يا جماعة !

ولكنهم كانوا قد أصبحوا خارج مدار النظر . حانــة اخرى ؛ جديدة كل الجدة : « صيد سمين ! » وضربت انغام بيانو راعشة صاهلة وجه برونيه ، ثم اختفت ؛ وانما كان يسمعها الآن ألمان القطار ، ورأى برونيه قصراً لا يرونه بعد ، قصراً في نهــاية حقل ، يكتفنه برجان مروّسان ؛ وكان في الحقل فتاة صغيرة تمسك دولاباً وتنظر برصانة : وعبر عينيها الفتيتين ، كانت فرنسا بريئة عتيقة تنظر اليهم يمرّون . ونظر برونيه الى الفتاة الصغيرة وفكر في بيتان ؛ وكان القطار يجري عبر هذه النظرة ، عبر هذا المستقبل المليء بالألعاب العاقلــة ، والافكار الطيبة ، والهموم الصغيرة ، كان يجري نحو سهول البطاطا والمصانع وفبارك السلاح ، نحو مستقبل الرجال الحقيقي الأسود . وكان الاسرى ، خلف برونيه ، يحركون ايديهم ؛ وفي جميع القاطرات ، كان برونيه يري ايدياً تحمل المناديل : ولكن الصغيرة لم تكن لتجيب، وكانت تشدّ دولابها على جسمها . وقال اندريه :

– ان بوسعهم ان يرسلوا لنا تحية : لقد كانوا مسرورين جداً ، في ايلول ، بان نذهب فنحطم رؤوسنا دفاعاً عنهم .

قال لامبر : – صحيح ، ولكن ما حدث ، اننا لم نحطّمها .

– وما معنى ذلك ، أهو ذنبنا ؟ اننـــا أسرى فرنسيون ، ونحن نستحق تحيّة .

وبدا عجوز ، وهو يصطاد بالصنارة ، جالساً علي كرسي قابل

للطيّ ؛ ولم يرفع حتّى رأسه ، وقهقه جوراسيان :

ـ لقد استعادوا حياتهم الصغيرة الطيبة .

قال برونيه : ـ هذا ما يبدو لي تماماً .

وكان القطار يجري عـبر السلام : صيّادو صنارة ، قوارب ، مجذّفون ، والسماء الصافية . والقى برونيه نظرة خلفه ، فرأى وجوهاً متمتمة متذمرة ، ولكنها مفتونة .

قال مارتيال : ـ الكلام بسرّكم ، إن العجوز ليس على خطأ . فبعد ثمانية ايام ، سأذهب انا نفسي للصيد .

ـ وبأيّ شيء تصطاد ؟ بالصنارة ؟

ـ ! كلا ، طز : وانما بالقارب .

انهم « برونه » ، تحررّهم ؛ يلمسونه تقريباً في هـذا المنظر المألوف . فوق هذه المياه الهادئة . السلام ، العمل ، سيدخل العجوز هذا المساء وهو يحمل سمكاً ، بعد ثمانية ايام سيكونون احراراً : إن الدليل هنا ، رقيقاً موحياً . وشعر برونيه بضيق :

ليس حسناً ان يعرف وحده المستقبل . وصرف رأسه ، فنظر الى ازقة الطريق الآخر وهي تهرب . وفكّر : « ماذا أستطيع ان أقول؟ انهم لن يصدقوني . » وفكر بأن عليه ان يبتهج ، وبأنهم سيفهمون في آخر الأمر ، وان بوسعه أخيراً ان يعمل ولكنه أحسّ ازاء كتفه وذراعه حرارة عامل المطبعة المحمومة ، فأخذه اشمئزاز غامض شبيه بندم . وابطأ القطار في سيره .

ـ ما هذا ؟

فقال مولو بلهجة مزهـوة : ـ انـه تغيير السكة . انني اعرف هـذا الخطّ . فمنذ عشرة اعوام كنت رحـالة ، وكنت اسافر عليـه كل اسبوع . سترون : انـا سنعطف الى الشمال والسكة

الى اليمين تفضي الى لونافيل وستراسبورغ .

فقال بلوندينه : — لونافيل ؟ ولكني كنت أحسب اننـا سنمرّ بلونافيل حتماً .

— لا ، لا . اقول لك اني اعرف الخط . من المرجح ان تكون السكة الى لونافيل مقطوعة ، وقـد مررنا عن طريق « سان ديا » لنتجنبّها ، وها نحن الآن نصعد من جديد .

وسأل صوت « راميل » القلق :

— والمانيا ، الى اليمين ؟

— نعم ، نعم ، ونحن نسلك الى اليسار . فهناك نانسي وبارلودوك وشالون .

وابطأ القطار وتوقف . والتفت برونيه ينظر اليهم. كانت لهم وجوه هادئة طيبة ، وكان فيهم من يبتسم . الا « راميل » استاذ البيانو ، فقد كان يعضّ شفته السفلى ويلمس نظارتيه بهيئة مضطربة متوزعة . وحدث مع ذلك صمت ، ثم أخذ مولو فجأة يصرخ :

— هيه ! الفراخ ؟ قبلة ايتها الغندورات ، قبلة صغيرة !

فالتفت برونيه ، فاذا هنّ ست بأثواب خفيفة واذرع سمينة حمراء ووجوه نضرة ، ستّ ينظرن اليهم ، من وراء الحاجز . وارسل مولو لهن قبلات ، فلم يبتسمن ؛ واخذت سمينة سمراء، غير قبيحة، تتنهد ؛ وكانت التنهدات تعلو بصدرها الكبير ؛ اما الاخريات فقد كنّ ينظرن بعيون كبيرة حزينة : وكانت الافواه الستة تقلد حركات طفل يوشك ان يبكي في هذه الوجوه الريفية اللامعبّرة . وقال مولو :

— هيّا ! هيّا ! حركة لطيفة !

وأضاف وقد أخذه إلهام مفاجيء :

— الا تُرسلن قبلات لفتيان ذاهبين الى المانيا ؟

فارتفعت من خلفه أصوات احتجاج :

ـ هيه ! لا سمح الله ! لا تتحدث عن المصائب !

فالتفت مولو ، في ارتياح كامل :

ـ اصمتوا ! إني اقول لهن ذلك لكي يُرسلن لنا بسمة !

فضحك الافراد وصاحوا : ـ هيّا ! هيّا !

وظلّت السمراء تنظر اليهنّ بعينيها الخائفتين ؛ ورفعت يداً مترددة، فأسندتها الى شفتيها المتدليتين ثم قذفتها بحركة آلية . فقال مولو :

ـ أحسن من هذا ! أحسن من هذا !

فصاح به صوت باللغة الألمانية ، فسارع يدخـــل رأسه . وقال جوراسيان :

ـ إخرس ! انك ستسبب اغلاق القاطرة .

فلم يجب مولو ، ولكنه دمدم لنفسه وحده :

ـ كم هنّ فروج حمقاوات ، نساء هذا البلد !

وأخذ القطار يصرّ ، واهتزّ على مهل ، فصمت الأفراد ، وظل مولو ينتظر ، فاغر الفم ، وفكر برونيه : هذه هي اللحظة ، وحدثت قضقضة مفاجئة ، اهتزازة ، ففقد مولو توازنه وتشبث بكتف شنايدر وهو يطلق صرخة نصر :

ـ انتهى الأمر ، يـــا جماعة ، انتهى الأمر ، فنحن ذاهبون الى نانسي .

فضحك الجميع وصاحوا . وارتفع صوت راميل العصبي :

ـ هذا مؤكد اذن ، اننا ذاهبون الى نانسي ؟

فقال مولو وهو يشير الى الطريق :

ـ ما عليك الا ان تنظر .

وفعلاً انعطف القطـــار الى اليسار ، فرسم قوس دائرة ، وكان بامكان المرء في تلك اللحظة ان يرى المحرك ، من غير ان يُطلّ .

ـ وبعد ذلك ؟ تواً الى نانسي ؟

والتفت برونيه ، فاذا وجه راميل ما زال رمادياً ، وشفتاه المتقعتان ما انفكتا ترتجفان .

وسأل مولو مقهقهاً :

– تواً ؟ أتظن انهم سيغيرون لنا القطار ؟

– لا ، وانما أقصد : هل هناك تغيير سكة آخر ؟

فقال مولو : – بل هناك تغييران آخران . واحد قبل « فروار » ، والآخر عند « بايني سورنوف » .

ولكن لست بحاجة للاهتمام بذلك ، فنحن ذاهبون يساراً ، دائماً الى اليسار ، باتجاه بار لودوك وشالون .

– ومتى نتأكد من ذلك ؟

– ماذا تريد اكثر من هذا ؟ اننا متأكدون .

– أقصد بالنسبة لتغيير السكة ؟

قال مولو : – آه ، اذا كان هذا ما تقصده ، فلدى التغيير الثاني . إذا سلكنا الى اليمين ، فهذا يعني ميتز واللكسمبورغ . اما الثالث ، فلا يُعوّل عليه : فالى اليمين خط فردان وسيدان ، وماذا تريدنا ان نفعل هناك ؟

قال راميل : – انه الثاني إذن ، وهو القادم ...

ولم يقل بعد شيئاً ، وانطوى على نفسه ، وركبتاه الى ذقنه ، بهيئة راعشة ضائعة . وقال اندريه :

– اسمع ، إنك تكاد تخرّبنا . سوف تتأكد عما قليل .

فلم يجب راميل ، وهبط على الشاحنة صمت ثقيل ، وكانت الوجوه لا معبرة ، ولكنها متقلّصة بعض الشيء . وسمع برونيه لحن هارمونيكا لطيفاً ، فقفز اندريه في الهواء :

– آه ! كلا ، لا موسيقى !

فقال صوت من جوف الشاحنة : – ان لي الحق بان أعزف على

الهارمونيكا .

قال اندريه : — لا موسيقى .

وصمت الرجل . وكان القطار قد أخذ يسرع قليلا ، ومرّ على جسر ، فتنهد عامل المطبعة :

— انتهت القناة .

وكان شنايدر نائماً وهو جالس ، ورأسه مهتز . وأحس برونيه الضجر ، وهو ينظر الى الحقول ، فارغ الرأس ؛ وبعد لحظة ، خفف القطار سيره . فاستقام راميل ، وعيناه شاردتان :

— ما هذا ؟

فقال مولو : — لا تهتمّ . انها نانسي .

وارتفع رمل السكة الحديدية فوق القاطرة ، وواجهوا آنذاك جداراً. وفوق الجدار كان يمتدّ كورنيش من الحجارة البيضاء، وفوق الكورنيش درابزين حديدي ذو الواح متوازية ، وقال مولو :

— هناك شارع ، فوق .

وأحس برونيه فجأة انه مسحول بعبء هائل ، فقد انحنى الافراد وهم يستندون عليه ، مديرين رؤوسهم نحو السماء . ودخل الدخان في غيوم كبيرة الى الشاحنة ، فسعل برونيه ، وقال مارتيال :

— انظروا الى الجماعة فوق .

فارتدّ برونيه برأسه الى الخلف ، فأحس لدى رأسه بشيء قاس ، وكانت أيدٍ تدفع كتفيه : كان ثمة في الواقع شخص منحن على الدرابزين . وعبر القضبان ، كانت ترى سترته السوداء وبنطاله المخطط . وكان يحمل محفظة جلدية ، ويبدو في الاربعين . وصاح مارتيال :

— مرحباً .

فقال الرجل : — مرحباً .

وكان له شارب أنيق في وجه هزيل صلب ، وكانت له عينان

زرقاوان شديدتا الصفاء .

وقال الافراد : — مرحباً ! مرحباً !

وسأل مولو : — كيف حال نانسي ، هل هي مهدمة جداً ؟

قال الرجل : — لا .

قال مولو : — هذا أفضل ، هذا أفضل .

فلم يجب الرجل ، وكان يحدّق فيهم ، بشيء من الفضول . وسأله جوراسيان :

— وهل عاد الناس الى أعمالهم ؟

وصفر المحرّك ، فوضع الرجل يده حول اذنه وصاح :

— ماذا ؟

فقام جوراسيان بحركات فوق رأس برونيه ليوضح انه لا يستطيع ان يصيح بصوت أعلى . وقال له لوسيان :

— اسأله عن اسرى نانسي .

— وماذا ، بشأن الأسرى ؟

— اسأله ان كان يعرف شيئاً عن الأسرى .

فقال مولو : — انتظر ، ان أحدنا لا يسمع الآخر بعد .

— اسأله بسرعة ، فالقطار يكاد يسير .

وانقطع الصفير ، فصاح مولو :

— الأعمال ، هل عادت ؟

فقال المدني : — أتظنّ ذلك ؟ وجميع الألمان الموجودين في المدينة ؟

وسأل مارتيال : — وهل فتحت دور السينما من جديد ؟

فسأل المدني : — ماذا ؟

فقال لوسيان : — طز ! على قفانا دور السينما ، حُلّ عنا انت ودور السينما ، ودعني أتحدث .

وأضاف : — والأسرى ؟

فسأل المدني : — أيّ أسرى ؟

— أليس من أسرى ، هنا ؟

— بلى ، ولكن لم يبق بعد من أسرى .

وصاح مولو : — اين ذهبوا ؟

فنظر اليه المدني في شيء من الدهشة وأجاب :

— ولكن ، الى المانيا !

قال برونيه : — ايه ! لا تدفعوني !

وتقوّس بكلتا يديه على الارض الخشبية ؛ وكان الافراد يسحقونه ويصيحون معاً :

— الى المانيا ؟ هل انت مجنون ؟ تريد ان تقول الى شالون ؟ الى المانيا ؟ من قال لك انهم كانوا ذاهبين الى المانيا ؟

فلم يجب المدني بشيء ، وكان ينظر اليهم بهيئته الهادئة . وقال جوراسيان :

— اسكتوا يا جماعة ، ولا تتكلموا جميعاً معاً .

فسكت الافراد ، وصاح جوراسيان :

— وكيف عرفت ذلك ؟

وانبعثت صيحة غاضبة ، ثم قفز من العجلة حارس ألماني ، وحربته في بندقيته ، فارتمى أمامهم . وكان شاباً فتياً محمراً من الغضب ، وكان يصرخ بالالمانية بلهجة سريعة جداً ، وصوت أبحّ ؛ وأحسّ برونيه بغتة أنه قد تخفف من العبء الهائل الذي كان يسحقه ، فلا بد ان الافراد قد عادوا الى الجلوس بسرعة . وصمت الحارس ، وظل قربهم ، وسلاحه امام قدمه . وكان المدني ما يزال هناك ، مطلا فوق الدرابزين ، وهو ينظر ، وتمثل برونيه ، في ظل القاطرة ، جميع هذه العيون المحمومة التي ارتفعت تسائل في صمت .

وتمتم لوسيان خلفه : — انها قذارة ! قذارة !

وظل الرجل جامداً ، أبكم ، غير صالح للاستعمال ، ومع ذلك مليئاً بعلم خفي . وصفر المحرك ، ودلفت الى القاطرة دوامة من الدخان ، فاهتز القطار وعاود السير . وسعل برونيه . وانتظر الحارس ان تمر العجلة امامه ، فألقى فيها بندقيته ؛ ورأى برونيه أربع ايـدٍ ذات اكمام خضراء تلتقطه من كتفيه وترفعه .

– اولا ، ما يدريه ، ذلك الفرج ؟

– نعم ، ما يدريه ؟ اذا كانوا قد ذهبوا ، فكل مـا هناك انه رآهم يذهبون .

وانفجرت الأصوات الغاضبة خلف برونيه ، وابتسم برونيه من غير ان يقول شيئاً .

وقال راميل : – كل ما في الامر انه يفترض ذلك ، « يفترض » انهم ذهبوا الى المانيا .

وأسرع القطار في سيره ، وحاذى محطات كبيرة خالية ، وقرأ برونيه على لافتة :

« باب خروج . ممر تحت الارض » . ومضى القطـار . المحطة ميتة . وكانت كتف عامل المطبعة ترتجف ازاء كتف برونيه . وانفجر العامل بوحشية :

– انها قذارة إذن ، ان يقول ذلك ، من غير ان يكون متأكداً .

قال مارتيال : – صحيح . انه لقذر !

قال مولو : – وكيف ! ليست هذه أشياء تعمل . لا بدّ انّه فرجٌ غريب ...

فردّد جوراسيان : – فرج ؟ انك لم تنظر اليه ! اقسم لك انه ليس فرجاً ، ذلك الشخص . كان يعلم ما يفعله ، اؤكد لك .

– كان يعلم ما يفعله ؟

والتفت برونيه ، فابتسم جوراسيان بهيئة وحشية وقال :

– انه واحد من الطابور الخامس .
قال لامبير : – واذا كان على حق ، يا جماعة ؟
– اخرس ايها الفرج ! اذا كنت راغباً في الذهاب الى المانيا ، فتطوّع ، ولا تأت الينا لتخرّينا .
قال مولو : – ثم طز ! سنعرف الحقيقة عند مفترق السكة .
فسأل راميل : – ومتى نصل اليه ؟
وكان أخضر اللون ، يربت بأصابعه على معطفه .
– بعد ربع ساعة ، أو عشرين دقيقة .
وكفّ الافراد عن الكلام ، وجعلوا ينتظرون . وكانت لهم وجوه قاسية ، وعيون ثابتة لم يعهدها برونيه منذ الكارثة . ثم سقط كل شيء في الصمت ، فلم يكن يسمع غير صرير القاطرات . وكان الطقس حارّاً ، وكان بودّ برونيه ان ينزع سترته ، ولكنه لم يستطع ، فهو محشور بين عامل المطبعة والجدار . وكانت قطرات من عرق تتدحرج على عنقه . وقال عامل المطبعة ، من غير ان ينظر اليه :
– اوه ! برونيه !
– ماذا ؟
– هل كنت تسخر مني ، حين قلت لي ان أقفز ؟
فسأله برونيه : – لماذا ؟
فأدار العامل اليه وجهه الطفولي الرقيق الذي لم تكن التجعدات ولا الاوساخ ولا اللحية لتستطيع ان تشيخه ، وقال :
– لن يكون في استطاعتي ان اتحمل الذهاب الى المانيا .
فلم يجب برونيه بشيء . وقال العامل :
– لن أستطيع ان أتحمل ذلك . سوف أموت . انني متأكد اني سأموت هناك .
وهزّ برونيه كتفيه وقال :

— ستفعل كما يفعل الجميع .
قال العامل : — ولكن الجميع . يموتون . الجميع . الجميع . الجميع .
وأخرج برونيه يداً فوضعها على كتفه وقال له بشغف :
— لا تثر أعصابك ، ايها الرأس الصغير .
وكان العامل يرتجف ، وقال له برونيه :
— اذا ظللت هكذا ، فستنقل الخوف الى الرفاق .
فجرض العامل بريقه ، وبدت عليه الوداعة ، فقال :
— انت على حق يا برونيه .
وندّت عنه حركة يأس وعجز ، فأضاف بحزن :
— انت دائماً على حق .
فابتسم له برونيه . وبعد لحظة ، استطرد عامل المطبعة بلهجة صماء :
— كان ذلك إذن مزاحاً ؟
— ما هو ؟
— حين قلت لي ان اقفز ، كنت تمزح ؟
قال برونيه : — لا تهتم بذلك .
قال العامل : — واذا قفزت الآن ، هل تلومني ؟
وكان برونيه ينظر الى رؤوس البنادق التي كانت خارجة من العجلة متلألئة . وقال :
— لا ترتكب حماقات ، فانك ستدق رأسك .
قال العامل : — دعني أجرّب حظي ، دعني أجرب حظي .
فقال برونيه : — ليست هذه لحظة مناسبة .
قال العامل : — مهما يكن ، فاذا ذهبت الى هناك ، متّ . فما دام الأمر كذلك ...
فلم يجب برونيه ؛ وقال عامل المطبعة :
— قل لي فقط اذا كنت تلومني ؟

وكان برونيه ما يزال ينظر الى رؤوس البنادق ، فقال بهدوء وبرودة :

– نعم ألومك . واني أمنعك من ذلك .

فخفض العامل رأسه ، ورأى برونيه فكّه الذي يتحرّك .

وقال شنايدر : – إنك فظّ الى ابعد حد .

فلفت برونيه رأسه : كان شنايدر ينظر اليه نظرة قاسية . ولم يجب برونيه ، بل تجمّع لدى العمود ؛ وكان بودّه ان يقول لشنايدر : « اذا لم أمنعه من الوثوب ، الا ترى أنه سيقتل نفسه ؟ » ولكنه لم يستطع ، لأن العامل سوف يسمعه ؛ وأحسّ باستياء أن شنايدر يدينه . وفكر : « ان هـذه لحماقة » ونظر الى رقبة عامل المطبعة الهزيلة ، وفكر : « واذا كان سيموت هناك ؟ » وفكر : « خراء! انني لستُ بعدُ أنا . » وأبطأ القطار : هذا موقف تغيير السكة . بكل تأكيد ، الجميع يعلمون ان هنا التغيير ، ولكنهم لا يقولون شيئاً . وتوقف القطار ، وساد الصمت . ورفـع برونيه رأسه . وكان مولو منحنياً فوقه ينظر الى السكة ، فاغر الفم . وكان ازرق متجهماً . وفي عشب الردم ، كان يسمع صوت صراصير تغني . وقفز ثلاثة من الألمان الى السكة ليزيلوا خدر سيقانهم ، فمروا امـام القاطرة ضاحكين . واخذ القطار يسير ، فاستداروا عـلى أعقابهم وركضوا ليلحقوا بالمركبة . وارسل مولو هديراً :

– الى اليسار ، يا جماعة ، اننا ننعطف الى اليسار !

واهتزّت القاطرة وصرت ، حتى لكأنها ستنتزع نفسها من الخط . ومن جديد ، أحسّ برونيه على كتفيه وزن عشرة أجسام منحنية الى أمام ، وكان الافراد يصرخون :

– الى اليسار ! اننا ذاهبون الى شالون !

وعلى ابواب القاطرات الاخرى ظهرت رؤوس سوداء من الدخان ،

وهي تضحك ، وصاح اندريه :

– ايه يا شابو ! اننا ذاهبون الى شالون !

وكان شابو مطلاً من القاطرة الرابعة ، وهو يضحك ويصيح :

– هذا قليل يا جماعة ! هذا قليل !

وكان الجميع يضحكون ، وسمع برونيه صوت غاسو :

– لقد خافوا مثلنا .

فقال جوراسيان : – اترون يا جماعة ؟ لقد كان من الطابور الخامس .

ونظر برونيه الى عامل المطبعة . فاذا هو صامت ، وما يزال يرتعش ، ودمعة تسيل على خده الايسر فتخط ثلماً في الوسخ والفحم . واخذ رجل يعزف على الهارمونيكا ، فيغني آخر على الايقاع : « سأبقى اميناً لك ، يا ثوبي الكاكي . » وأحس برونيه بحزن فظيع ، وكان ينظر الى السكة التي تجري ، فتأخذه في الرغبة القفز . وكانت القاطرة في الرأس ، والقطار يغني ، كقطارات المفاجأة فيما قبل الحرب . وفكر برونيه : « إن في النهاية مفاجأة ، وارسل عامل المطبعة تنهدة ارتياح ورضى كبيرة ، وقال :

– آه لا لا ! آه لا لا !

ونظر الى برونيه نظرة خبيثة ، وقال :

– انت ، كنت تظن اننا ذاهبون الى المانيا .

فتصلب برونيه قليلاً ، وأحس بان نفوذه قد مُس ، ولكنه لم يجب بشيء . والواقع ان عامل المطبعة كان يظهر بمظهر مصالحة ، فأضاف بحيوية :

– يمكن لكل انسان ان يخطيء : فانا نفسي كنت اظن هذا ، مثلك .

وصمت برونيه ، واخذ العامل يصفر ، وقال بعد لحظة :

ـ سأخبرها قبل ان اذهب اليها .

فسأله برونيه : ـ من تقصد ؟

قال العامل : ـ صاحبتي . وسوف تقع مغشياً عليها !

قال برونيه : ـ هل لك صاحبة ؟ في سنّك هذه ؟

قال العامل : ـ نعم . بـل كان المفروض ان نتزوج، لولا قصة الحرب هذه .

ـ وما عمرها ؟

قال العامل : ـ ثماني عشرة سنة .

ـ هل التقيت بها في الحزب ؟

ـ كلا ، في حفلة رقص .

ـ وهل تفكر مثلك ؟

ـ في اي شيء ؟

ـ في كل شيء .

قال العامل : ـ الحقيقة ، لا ادري بمَ تفكر . وأعتقد أنهـا لا تفكر بشيء : فهي طفلة . ولكنها طيبة وعاملة . . ثم انهـا ملتفّة الجسم !

وحلم قليلاً ، وقال :

ـ وربما كان هذا هو الذي أثار سويدائي . كنت مشتاقاً اليها ـ هل لك صاحبة ، يا برونيه ؟

قال برونيه : ـ ليس لديّ الوقت .

ـ إذن ، كيف تدبّر أمرك ؟

فابتسم برونيه وقال : ـ احياناً ، هكذا ، بطريقة عابرة .

قال العامل : ـ اما انا ، فـلا أستطيع ان اعيش هكذا . الا يعجبك ان يكون لك بيت حقيقي وبداخله امرأة صغيرة ؟

ـ لن يكون لي ذلك ابداً .

قال العامل : — نعم ، نعم .

وبدا عليه الاضطراب ، وقال كأنما يعتذر :

— انا لست بحاجة الى شيء كثير ؛ وهي كذلك . ثلاث كراسي وسرير .

وابتسم في الفراغ ، وأضاف :

— لولا هذه الحرب ، لكنّا سعيدين .

وانزعج برونيه ، فنظر الى عامل المطبعة بلا ودّ ؛ وعلى هذا الوجه الذي كان الهزال قد جعله شديد التعبير ، قرأ شهوةً نهمة للسعادة ، وقال على مهل :

— لم تقع هذه الحرب بطريق المصادفة . ثم انك تعرف جيداً اننا لا نستطيع ان نعيش سعداء في عهد الطغيان .

قال العامل : — اوه ! كنت سأتخذ لنفسي ركني الصغير ..

فهزّ برونيه كتفيه وقال له بجفاء :

— لماذا انت شيوعي إذن ؟ إن الشيوعيين لم يُخلقوا ليدفنوا انفسهم في الثقوب !

قال العامل : — من اجل الآخرين . كان في الحي الذي اسكنه بؤس كثير ، وكنت اودّ ان يتغير ذلك .

قال برونيه : — حين ندخل في الحزب ، فلا يبقى ما هو هامّ غير الحزب . كان ينبغي لك ان تعرف ما الذي تلتزمه .

فقال العامل بحيوية : ولكني كنت أعرفه . هل حدث ان رفضت يوماً ما كنتَ تطلبه مني ؟ ولكن قل لي ، حين أضاجع ، لا يكون الحزب موجوداً ليحمل لي الشمعدان . فهناك لحظاتَ ..

ونظر الى برونيه وتوقف فجأة . ولم يقل برونيه شيئاً ، وكان يفكر :

— إنه هكذا لأنه يعتقد اني اخطأت . ينبغي للمرء ان يكون معصوماً .

وكان الحرّ يشتدّ ، والعرق يبلل قميصه ، والشمس تصفع وجهه: يجب ان نعرف لماذا يدخل هؤلاء الشبان جميعاً الحزب الشيوعي؛ فحين يدخله احدهم بدافع من افكار سمحة ، فلا بدّ ان تأتي لحظة يُحس فيها بالضعف والتداعي . «وانت، انت، لماذا دخلته! اوه ! لقد انقضى على ذلك وقت طويل ، فليس له بعد من أهمية ، انا شيوعي لانني شيوعي، هذا كل ما في الأمر .» واخرج يده اليمنى ، فمسح العرق الذي يبلل حاجبيه ونظر الى الساعة : الرابعة والنصف . اننا لسنا على وشك ان نصل ، بالنسبة لهذه الدورات . سوف يغلق الألمان القاطرات هذه الليلة ، فننام على سكة مرأب . وتثاءب . وقال :

– انك لا تقول شيئاً ، يا شنايدر .

وسأل شنايدر : – وماذا تريد ان أقول ؟

وتثاءب برونيه ، ونظر الى السكة تجري ، وكانت سحنة ممتقعة تقهقه بين الخطوط، ها ، ها ، ها ، وسقط رأسه ، واستفاق منتفضاً، وكانت عيناه تؤلمانه ، واندفع الى خلف ليتفادى من الشمس ، وقال احدهم « حكمٌ بالاعدام » ، وسقط رأسه ، واستفاق مرة اخرى فحمل يده الى ذقنه المبللة : لقد سال لعابي ، فلا بد اني نمت مفتوح الفم ؛ واستبشع ذلك .

– هل تريد ان تفرغها ؟

ومدّ له علبة مفتوحة من لحم القرد ، وكانت ساخنة ، فقال :

– ما هذا ! آه ، حسناً .

وقلبها في الخارج ، فسقط المائع الأصفر مطراً على السكة :

– ايه ! ارجعها بسرعة .

فمدّها من غير ان يلوي ، فأخذت من يده ، واراد ان يعود الى النوم ، ولكن يداً ضربته على كتفه ، فأخذ العلبة وأفرغها . وقال عامل المطبعة :

– اعطني اياها .

فمدّ برونيه العلبة الى العامل الذي نهض على مشقة . ومسح برونيه أصابعه الرطبة بسترته ، وبعد لحظة ، امتدت ذراع فوق رأسه فأمالت علبة التنك ، فتناثر الماء الأصفر وجرى قطرات بيضاء نحو الخلف . وعاد العامل الى الجلوس وهو يمسح أصابعه ، وترك برونيه رأسه يسقط على كتف العامل ، وسمع أنغام الهارمونيكا ، ورأى حديقة جميلة ملآى بالزهور ، واستغرقه النوم . وأيقظته صدمة ، فصاح :

– ماذا ؟

كان القطار قد توقف في الريف .

– ماذا ؟

قال مولو : – لا شيء ، بوسعك ان تعود الى النوم : انها « باني سور موز »

والتفت برونيه ، كل شيء هادىء ، لقد الف الافراد فرحتهم ، وكان بينهم من يلعب الورق ، آخرون يغنون ، وآخرون صامتون مسحورون يروون لانفسهم الحكايات ، وعيونهم ملآى بالذكريات التي يجرؤون أخيراً على ان يتركوها تصعد من أعماق قلوبهم ، ولم يتنبه أحد لتوقف القطار ، وغرق برونيه في النوم ، وحلم بسهل غريب يجلس فيه حول نار كبيرة رجال عراة ذوو لحى رمادية ، هزيلة الاجسام كأنهم هياكل ؛ وحين استيقظ ، كانت الشمس قد انخفضت كثيراً على الافق ، وكانت السماء بنفسجية ؛ وكانت بقرتان ترعيان في مرج ، وكان القطار على سكونه ، والافراد يغنون ؛ وعلى المنحدر ، كان جنود ألمان يقطفون زهوراً ، وكان ثمة جندي قصير سمين شديد البأس ، ذو خدين أحمرين ، اقترب من الأسرى وقد وضع بين اسنانه زهرة لؤلؤية ، وهو يبسم لهم بسمة عريضة . فبسم له مولو واندريه ومارتيال . وظل الالماني والفرنسيون لحظة يتبادلون النظر باسمين ، ثم

قال مولو فجأة بالالمانية .

— سجاير .

فتردد الجندي والتفت الى المنحـــدر ؛ وكان رفاقه الثلاثة المنحنون يبدون مؤخراتهم ،. وبحث بخفة في جيبه ، ثم قذف بعلبة سجايره الى القاطرة ؛ وسمع برونيه خلفه ضجة وصخباً ، ونهض راميـــل الذي لم يكن يدخن فصاح بالالمانية وهو يبتسم :

— شكراً .

فأشار له القصير السمين بان يصمت . وقال مولو لشنايدر :

— اسأله الى اين نحن ذاهبون .

وتحدث شنايدر بالألمانية الى الجندي ، فأجاب الجندي وهو يبتسم ؛ وكان الآخرون قد فرغوا من قطف الزهور ، فاقتربوا حاملين باقاتهم باليد اليسرى ، والزهور متجهة الى أسفل ؛ وكانوا الرقيب وجنديين ، وكان يبدو عليهم الجذل ، وقـــد انخرطوا مشاركين في الحديث وهم يضحكون . وقال مولو وهو يبتسم ايضاً :

— ماذا يقولون ؟

فقال شنايدر نافد الصبر :

— انتظر قليلا ، ودعني أفهم .

وألقى الجنود نكتة أخيرة وعادوا إلى المركبة ، على غير ما عجل، وتوقف الرقيب ليبول عند وتد القاطرة ، ثم زرر فتحة بنطاله ، وهو متباعد الساقين ، ورمى الى رجاله بنظرة ، وفيما هم مديرون ظهورهم ، قذف بعلبة سجاير الى القاطرة .

وقال مارتيال بصحة سعيدة :

— ها ! انهم ليسوا حيوانات !

قال جوراسيان : — ذلك لأننا قد أطلق سراحنا ؛ فهم يريدون ان يتركوا لنا تذكاراً جميلا .

قال مارتيال حالماً : ــ هــذا ممكن . ان كل ما يفعلونه هو في الواقع من قبيل الدعاية .

وسأل مولو شنايدر : ــ ماذا قالوا ؟

فلم يجب شنايدر ، وكانت هيئته غريبة .

قال اندريه : ــ نعم ، ماذا قالوا ؟

فابتلع شنايدر ريقه بمشقة وقال :

ــ انهم من هانوفر ، وقد قاتلوا في بلجيكا .

ــ والى اين نحن ذاهبون ، كما قالوا ؟

فبسط شنايدر ذراعيه وابتسم وقال بلهجة اعتذار :

ــ الى « تريف » .

قال مولو : ــ تريف ؟ واين هي معلقة ؟

فقال شنايدر : ــ في مقاطعة بالالمانيا .

وساد صمت غير محسوس . ثم قال مولو :

ــ تريف ، في المانيا ؟ لقد سخروا بك اذن !

فلم يجب شنايدر . وقال مولو في ثقة هادئة :

ــ إن من يمرّ بـ « بارلودوك » لا يذهب الى المانيا .

وظل شنايدر على صمته ، فسأل اندريه بلا اكتراث :

ــ كانوا يضحكون ام ماذا ؟

فقال لوسيان : ــ لقد رأيت جيداً انهم كانوا يضحكون ..

وقال شنايدر على مضض : ــ ولكنهم لم يكونوا يضحكون حين قالوا لي ذلك .

فسأله مارتيال في غضب : ــ ألم تسمع ما قال مولو ؟ ان الطريق الى المانيا لا تمرّ بـ « باراودوك » ، فليس هذا معقولا .

فقال شنايدر : ــ اننا لا نمر بـ « بارلودوك » وانمــا ننعطف الى اليمين .

فأخذ مولو يضحك : — آه ! هـــذا لا ! اسمح لي ان اعرف الطريق خيراً منك . فالى اليمين فردان وسيدان . واذا تابعت الى اليمين، فربما وصلت الى بلجيكا ، اما الى المانيا ، فلا !

واستدار نحو الآخرين بهيئة اقتناع مطمئن :

— ما دمت اقول لكم اني كنت اتجوّل في المنطقة كل اسبوع . واحياناً ، مرتين في الاسبوع !

أضاف هذه الجملة الاخيرة ، ووجهه يعبر بيأس عن الاقتنـــاع . وقال الافراد :

— طبعاً ، طبعاً ، لا يمكن ان يكون مخطئاً .

قال شنايدر : — اننا نمرّ باللكسمبورغ .

وجهد في ان يتكلم ؛ وشعر برونيه ، انه ما دام قد بدأ الكلام ، فانه يريد ان يغرس الحقيقة في رؤوسهم ، وكان ممتقعـــاً ، يتكلم من غير ان ينظر الى أحد . وأدنى اندريه وجهه من وجه شنايدر وصاح به:

— ولكن لماذا نقوم بهذه الدورة ؟ لماذا ؟

وكان الافراد يصيحون من خلفه :

— لماذا ؟ لماذا ؟ فهذه حماقة ! لماذا ؟ ما كان لنا الا ان نمر إذن بـ « لونافيل » .

فاحمرّ وجه شنايدر ، والتفت تمامـــاً الى جوف القاطرة ، وواجه الذين يصرخون ، فصاح في غضب :

— انا لا اعرف شيئاً من هذا ، لا اعرف شيئاً . ربما لأن السكك منسوفة ، أو لأن على الخطوط الاخرى قطارات المانية ، فلا تجعلوني اقول اكثر مما أعرف ، وفكروا بما تشاءون .

وصاح صوت ثاقب من فوق جميع الاصوات الأخرى :

— لا حاجة بكم الى الغضب يا جماعة ، فسوف نعرف عما قليل .

وردّد الافراد : — هذا صحيح ، سنرى ، سنرى ، ولا حاجة

الى جعل دمنا يغلي .

وعاد شنايدر الى الجلوس من غير ان يجيب . وبرز من القاطرة قبل الأخيرة رأسٌ مجعّد الشعر ، وصاح بهم صوتٌ فتيّ :

— ايه ! هل قالوا لكم يا جماعة الى اين نحن ذاهبون ؟

— ماذا يقول ؟

— انه يسأل الى اين نحن ذاهبون .

وانفجر الافراد في القاطرة ، انفجروا ضاحكين :

— ان هذا يجيء في اوانه . إن حاسة شمه قوية ، فهذه لحظة مناسبة لهذا السؤال .

وانحنى مولو ، وقد كوّر يديه حول فمه ، وصاح :

— الى قفاي !

واختفى الرأس المطلّ . وضحك الجميع ، ثم انقطع الضحك ، وقال جوراسيان :

— هل نلعب ، يا جماعة ؟ هذا افضل من ان نختلق الافكار .

فقالوا : — هيّا بنا .

فجلس الأفراد حول معطف مطويّ الى أربع ، وكان جوراسيان قد التقط الورق فأخذ يوزّعه . وكان راميل يقرض أظافره في صمت ؛ وكانت الهارمونيكا تعزف رقصة فالس ؛ وكان ثمة شخص واقف بازاء الجدار الداخلي يدخن سيجارة ألمانية ؛ بهيئة تفكُّر . وقال ، كأنما يحدّث نفسه :

— إن التدخين الآن لذة .

والتفت شنايدر نحو برونيه فقال له بلهجة اعتذار :

— لم اكن استطيع ان اكذب عليهم .

فهز برونيه كتفيه من غير ان يجيب . وقال شنايدر :

— أجل ، لم اكن أستطيع .

قال برونيه : — ما كان ذلك ليجدي شيئاً ، فلا بد ان يعرفوا ذلك عما قليل .

ولاحظ انه تكلم برخاوة ؛ كان مغتاظاً من شنايدر ؛ من أجل الآخرين .

ونظر اليه شنايدر نظرة غريبة وقال :

— من المؤسف ألا تعرف الألمانية .

فسأله برونيه مندهشاً : — ولماذا ؟

— لأنك « انت » كنت تكون مسروراً بإخبارهم .

فقال برونيه في تعب : — انك مخطيء .

قال شنايدر : — ومع ذلك ، فان هذا الرحيل الى المانيا قد تمنيته.

فقال برونيه : — نعم ، لقد تمنيته .

وعاد عامل المطبعة يرتجف ، فأحاط برونيه كتفيه بذراعه وشده اليه بارتباك . وبهزة من رأسه ، اومأ الى شنايدر نحوه وهو يقول :

— اسكت .

فنظر شنايدر الى برونيه ببسمة مندهشة ؛ وكان كأنما يقول له : متى بدأت تهتم بتوفير الهموم على الناس ؟ وأدار برونيه رأسه ، ولكن ليرى وجه العامل النهم . كان العامل ينظر اليه ، وشفتاه ترتعشان ، وعيناه الكبيرتان الرقيقتان تدوران في وجهه الشفقي . وكان برونيه يهم بان يقول له : « هل كنت مخطئاً ؟ » ولكنه لم يقل شيئاً ، ونظر الى رجليه تتدليان فوق العجلات الجامدة ، وكان يصفر . ومالت الشمس ، وكان الحر قد خف . وكان ثمة فتى يهش على البقرات بعصاه ، فتكردح ثم تهدأ وتمضي على الطريق بخيلاء ؛ فتى يدخل الى بيته ، وبقرات تعود الى الاصطبل ، إن هذا لخيبة . وفي البعيد البعيد، فوق احد السهول ، كانت طيور سود تحوم : ليس جميع الموتى في الأرض . ذلك القلق الذي كان يحفره ، لم يكن برونيه يعرف بعد ان

كان قلقه ام قلق الآخرين ؛ والتفت فنظر اليهم ليبقيهم على بعض المسافة منه : وجوه رمادية شاردة ، هادئة تقريباً ، فعرف فيهم تلك الهيئة الغائبة لجموع ستلتهب بالغضب . وفكر : « هذا حسن . حسن جداً . » ولكن بلا فرح . واهتز القطار ، وسار بضع دقائق ، ثم توقف . وكان مولو مطلا من القاطرة ، يرقب الأفق ، وقال :

ـ إن نقطة تغيير السكة على بعد مئة متر .

قال غاسو : ـ الا ترى انهم يتركوننا هنا حتى الغد ؟

قال اندريه : ـ ستكون معنوياتنا عظيمة !

وأحس برونيه ، حتى عظامه ، بجمود القطار الثقيل . وقال أحدهم:

ـ انها حرب الأعصاب تعود .

وسرت في القاطرة طقطقة جافة ، انها ضحكة . وانطفأت . وسمع برونيه صوت جوراسيان الهادىء :

ـ « أتو وأتو . »

وأحس بهزة ، فالتفت ؛ كانت يد جوراسيان الذي يحمل « آس قلب » قد ظلت في الهواء ، حين عاد القطار الى السير ؛ وانتظر مولو ، وبعد برهة ، أسرع القطار ، ثم انبثق خطان حديديان من تحت العجلات ، برقان متوازيان سيضيغان الى الشمال ، بين الحقول .

وقال مولو :

ـ خراء ! خراء ! خراء !

وصمت الافراد : لقد فهموا . وترك جوراسيان آسه يسقط على المعطف ، وسوى الثنية ؛ وكان القطار يسير بلطف وهو يلهث بانتظام، وكانت الشمس الغاربة تحمر وجه شنايدر ، وقد بدأ الطقس يترطب .

ونظر برونيه الى عامل المطبعة وأمسك به فجأة من كتفيه :

ـ لا ترتكب حماقات ، أتسمع ؟ لا ترتكب حماقات ، يا صديقي الصغير !

فتشنج الجسم الهزيل تحت أصابعه ، فشد شداً أقوى ، فتقلص الجسم ، وفكر برونيه . « سأمسكك حتى الليل » وعند الليل ، يأتي

الألمان فيغلقون القاطرة ، حتى اذا جاء الصباح ، تكون نفسه قد هدأت. وكان القطار يجري تحت السماء البنفسجية ، في صمت مطلق : انهم الآن يعرفون ، في جميع القاطرات يعرفون . واستسلم عامل المطبعة كامرأة على كتف برونيه . وفكر برونيه : « هل يحق لي ان امنعه من ان يقفز ؟ » ولكنه ظل يشد . ضحكة خلف ظهره ، صوت :

– صاحبتي التي كانت تريد طفلاً ! يجب ان اكتب لها ان تدعو الجار الى ان يتسلقها !

وضحكوا . وفكر برونيه : « يضحكون من فرط الشقاء ؟ » وملأت الضحكة القاطرة ، وصعدا الغضب ، وردد صوت ضاحك :

– كم كنّا فروجاً حمقى ! كم كنّا فروجاً حمقى !

سهل بطاطا ، مصانع الصلب ، المناجم ، الاشغال الشاقة : بأي حق أمنعه من ذلك ؟ وردد الصوت :

– كم كنا فزوجاً حمقى !

وتدحرج الغضب وصعد . وشعر برونيه تحت اصبعيه بتمايل الكتفين الهزيلتين ، وتهافت العضلات الرخوة ، وفكر : « انه لن يستطيع ان يتحمّل المجازفة » وضغط، بأي حق؟ وزاد ضغطه ، فقال عامل المطبعة :

– انك تؤلمني .

وظل برونيه يضغط : انها حياة شيوعي ، فهو يخصنا ما دام حياً . ونظر الى هذا الوجه السنجابي الصغير : أجل ، ما دام حياً . ولكن أما زال يعيش ؟ لقد انتهى ، فقد تحطمت النوابض ، وهو لن يشتغل بعد ابداً . وصاح عامل المطبعة :

– ولكني دعني ! يلعن دين ! دعني !

واستغرب برونيه نفسه ؛ كان يمسك بين يديه هذه الجثة : عضواً من الحزب لا يستطيع بعد ان يخدم . كان بودّه ان يحدّثه . وان يحثه ، وان يساعده ، فلا يستطيع ، فان كلماته « للحزب » و « الحزب » هو الذي اكسبها معانيها ؛ وفي داخل « الحزب »

كان برونيه يستطيع ان يحب، ويقنع، ويعزّي . ولكن عامل المطبعة قد سقط خارج هذا المغزل الضوئي الهائل ، ولم يكن لدى برونيه بعدُ ما يقوله له . غير ان هذا الطفل ما يزال يعاني . ما دام هنا موت وهناك موت... آه ! فليصمم ! ومن الافضل ان يفرّ، فاذا بقي، فان موته سيجدى . وكانت القاطرة تضحك اكثر فاكثر ؛ وكان القطار يجري ببطء ، فكأنه موشك على التوقف .وقال عامل المطبعة بصوت مداور :

— أعطني العلبة ، فيجب ان ابول .

فلم يقل برونيه شيئاً ، ونظر الى العامل ، فرأى الموت . الموت ، هذه الحرية .

وقال العامل : — خراء ! الا تستطيع ان تعطيني العلبة ؟ اتريد ان ابول في ثوبي !

والتفت برونيه فصاح : — العلبة !..

ومن العتمة الملأى بالغضب ، خرجت يد تمد العلبة ، وازداد بطء القطار ، وتردّد برونيه ، ونقش أصابعه في كتف العامل ؛ ثم ترك فجأة كل شيء ، واخذ العلبة ، كم كنا فروجاً حمقى مع ذلك ، كم كنا فروجاً حمقى ! وكفّ الأفراد عن الضحك . واحسّ برونيه بصدمة قاسية في مرفقه ، لقد انزلق عامل المطبعة من تحت ذراعه .

ومدّ برونيه يده ، فالتقط الفراغ : لقد سقطت الكتلة الرمادية مطوية الى اثنين، طيراناً ثقيلا،وصاح مولو، وانسحق طيف على التراب المردوم ، متباعد الساقين ، متصالب الذراعين ، وانتظر برونيه طلقات النار ، وكانت « قد أصبحت » في اذنيه ؛ وطفر عامل المطبعة بعد ان مسّ الأرض ، وهـا هو ذا واقف ، شديد السواد ، حراً . و « رأى » برونيه طلقات النار : خمسة اشعاعات فظيعة . وأخذ عامل المطبعة يعدو بحذاء القطار ، لقد أخذه الخوف ، فهو يريد ان يصعد ، وصاح به برونيه :

— اقفز الى المنحدر ، يلعن دين ، اقفز !

وصاحت القاطرة برمتها :

— اقفز ! اقفز !

فلم يسمع العامل ، وكان يكردح ، فوصل الى مستوى القطار ، ومدّ ذراعيه وصاح :

— برونيه ! برونيه !

ورأى برونيه عينيه المذعورتين ، فهدر فيه :

— المنحدر !

ولكن العامل أصمّ ، وليس هو بعد الا هاتين العينين الهائلتين ، وفكر برونيه : « اذا صعد بسرعة ، فان له حظاً بالنجاة » وانحنى : كان شنايدر قد فهم ، فزنره بذراعه اليسرى ليمنعه من السقوط . ومدّ برونيه ذراعيه ؛ فلمست يد عامل المطبعة ، وأطلق الألمان ثلاث طلقات فتداعى العامل باسترخاء الى الوراء ، وسقط ، وابتعد القطار ، ووثبت ساقا العامل في الهـواء ، ثم سقطتا ، واذا العارضة والحصى اسود من الدم حول رأسه . وتوقف القطار فجأة ، ووقع برونيه على شنايدر ، فقال وهو يكز بأسنانه :

— لقد رأوا جيداً انه سيصعد من جديد ، فأردوه بطيب خاطر .

وكان الجسد هناك ، على بعد عشرين خطوة ، وقد أصبح شيئاً ، أصبح حراً . « سأتخذ لنفسي زاويتي الصغيرة » ولاحظ برونيه انه ما يزال يمسك العلبة في يده ، لقد مدّ ذراعه للعامل من غير ان يتركها. انها فاترة . وتركها تسقط على الحصى . وخرج اربعة ألمان من المركبة وركضوا نحو الجسد ؛ وكـان الافراد ، خلف برونيه ، يدمدمون ، وهكذا ، أطلق عقال الغضب . ومن احدى قاطرات الرأس ، خرج زهاء عشرة ألمان ، فتسلقوا العارضة وواجهوا القطار ، ورشاشاتهم في ايديهم . ولم يخف الافراد ، وهدر أحدهم خلف برونيه :

— يا للقذرين ! يا للقذرين !

وكان الغضب بادياً عـلى الرقيب الألماني الضخم ، فانحنى ورفع الجسد ، ثم تركه يسقط وركله بقدمه .

والتفت برونيه فجأة :

ـ هيه لا ! انكم ستلقونني الى الأرض !

كان عشرون شخصاً قد اطلوا ، ورأى برونيه عشرين زوجاً من العيون الملأى بالقتل : ستكون هذه الضربة القاسية . وصاح :

ـ لا تقفزوا يا جماعة ! فستعرّضون نفوسكم للقتل .

ونهض على مشقة ، وهو يصارعهم ، وصاح :

ـ شنايدر !

فنهض شنايدر ايضاً ، وأخذ كل منهما بقامة الآخر ، وتشبثا ، بواسطة الذراع الأخرى ، بقوائم الباب .

ـ لن تمرّوا .

وظلّ الافراد يدفعون ؛ ورأى برونيه هذا الحقد كله ، حقده ، أداته ، فأخذه الخوف . واقترب ثلاثة ألمان من القاطرة ، فصوّبوا على الافراد . وتمتم الافراد ، وكان الألمان ينظرون اليهم ؛ ورأى برونيه المجعّد الضخم الذي كان يرمي اليهم بالسجاير : كانت له عينا قاتل . وتبادل الفرنسيون والألمان النظر ، « انها الحرب » : انها الحرب للمرة الاولى منذ ايلول ٣٩ . وتراخى الضغط رويداً رويداً ، وتراجع الافراد ، فأمكنه ان يتنفّس . واقترب الرقيب وقال :

ـ « هيناين ، هيناين »

وتراكم برونيه وشنايدر ازاء الصدور ، وكان خلفهم ألماني يقفل الباب بالمزلاج ، فما تلبث القاطرة ان تغرق في السواد ، وتنبعث رائحة العرق والفحم ، ويقرقر الغضب ، وتضرب الأقدام الخشب ، فكأنه جمع يسير . وفكر برونيه :

« انهم لن ينسوا . وهذا كسب . » وشعر بالضيق ، وتنفّس بضيق ، وكانت عيناه مفتوحتين على الظلام : وكان بين الفينة والفينة يحسهما منفوختين ، كبرتقالتين ضخمتين ، يوشكان على تفجير محجريه . ونادى بصوت منخفض :

ـ شنايدر ! شنايدر !

فقال شنايدر : — انا هنا .

وتلمّس برونيه فيما حوله ، وكانت به حاجة للمس شنايـــدر . وأخذت يدٌ يده فشدّتها .

— هذا انت ، يا شنايدر ؟

— نعم .

وصمتا ، جنباً الى جنب ، واليد في اليد . وحدثت هزّة ، وتحرّك القطار وهو يصرّ . ماذا فعلوا بالجثة ؟ وأحس نَفس شنايـــدر بازاء أذنه . وفجأة ، سحب شنايدر يده ، واراد برونيه ان يستبقيها ، ولكن شنايدر تخلص بانتفاضة ، وذاب في الظلام . وظلّ برونيه وحيـــداً متصلباً ، غير مرتاح ، في حرارة تنّور . وكان واقفاً على قدم ، بينما كانت الاخرى محشورة فوق الأرض الخشبية ، في خليط معقـــد من السيقان والأحذية . ولم يحاول ان يخلصها ، فقد كانت به حاجة لأن يبقى في الموقت : إنه عابر ، وفكره عابرٌ في رأسه ، والقطار عابر في فرنسا ، وتدفقت الافكار ملتاثة فسقطت على السكة ، خلفه ، قبل ان يتمكن من تمييزها ، وابتعد ، وابتعد ، وابتعد ؛ على هذا النحو من السرعة ، يمكن للحياة ان تُطاق . توقّفٌ تام : انزلقت السرعة وسقطت على قدميه ؛ وكان ما يزال واثقاً من ان القطار يُسير : فهو يصر ويصدم ويرتج ؛ ولكنه لم يكن يشعر بعدُ بالحركة . إنه في وعاء ضخم للقمامة ، وهناك من يركله بقدمه . وخلف ظهره ، على المنحدر ، كان الجسد باقياً ، مجرداً من العظام ؛ وكان برونيه يعلم انهم كانوا يبتعدون عنه كل لحظة ، وكان يود ان يُحس ذلك ، ولكنه لا يستطيع : فكل شيء يأسن . والليل وحده ، يمر حيّاً ، فوق الميت وفوق القطار الساكن . غداً يغطّيهما الفجر بالنـــدى نفسه ، وسيقطر اللحم الميت والفولاذ الصديء بالعرق نفسه . غداً تأتي الطيور السود .

انتهت